

# رَحَائِلُ الْفِكْرِ وَالِدَعْوَى فِي الْإِسْلَامِ

تَأَلَّفَ

أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ الْحُسَيْنِيِّ الشَّوَيْبِيِّ

الجزء الأول

عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ  
الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ  
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَخَلْفَاؤُهُ  
حِجَّةُ الْإِسْلَامِ الْغَزَالِيُّ  
الْإِمَامُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيُّ

تَحْقِيقُ

مُصْطَفَى أَبُو سَلِيمَانَ الشَّوَيْبِيِّ

النَّاشِرُ

مَكْتَبَةُ نَزَارِطُوفِي الشَّامِ

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

جميع الحقوق محفوظة للنائشر

مكتبة



نزار مصطفى الباز

المملكة العربية السعودية

مكة المكرمة: الشامية المكتبة ٥٧٤٩٠٢٢، ٥٧٤٥٠٤٤

الطبعة: ٥٣٧٢٣٧٤ ص. ب: ٣٠١٩

الرياض: شارع السويدي العام المتقاطع مع شارع

كعب بن زهير - خلف أسواق الراجحي ص. ب: ٦٦٩٣٠

المكتبة: ٤٢٤٠٣٥٣ الطبع: ٢٤٢١٩١١ الرمز البريدي: ١١٥٨٦

كَلِمَةُ النَّاشِرِ

« رَجَاءٌ »

غَفَرَ إِلَهِهُ ذُنُوبَ هَذَا النَّاشِرِ  
وَذُنُوبَ وَالِدَيْهِ مَعَا فِي النَّاطِرِ

غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ وَسِرِّ عَيْبَتِهِ وَوَالِدَيْهِ وَلِمُسْلِمِينَ  
أَجْمَعِينَ وَمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ

اجمعي عفرته

نزار مصطفى البزاز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة كتقدمة

بقلم ا . د : مصطفى أبو سليمان الندوي

### تلميذ المؤلف

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه . . . . وبعد فالحق أنني ترددت كثيراً في كتابة هذه الكلمة كمقدمة لهذا الكتاب القيم لكنني سرعان ما أفقت متتبها إلى ارشاد بعض أساتذتي الكرام من أنه إذا كان المؤلف يحتاج إلى من يعرفه ويعرف كتابه للناس فإن المؤلف أحياناً وكتابه يكونان سبباً للتعريف بمقدم الكتاب ، ومكانة المؤلف المرموقة عند أهل العلم والدعوة والاصلاح في زماننا تشرف وتنفع في الدنيا والآخرة كل من يذكره مخبراً عن مؤلفاته وجهوده .

فالمؤلف حفظه الله تعالى بفضل الله وتوفيقه هو من هو ولا يحتاج إلى أو عشرات من أمثالي لبيان من هو ، وإنما نحن وأمثالنا نعرف به ، ولهذا دائماً نشرف بالانتساب إليه بعد انتسابنا إلى ديننا وإسلامنا .

وقد كنت أجد في نفسي أملاً يشغلني كثيراً ألا وهو كيفية نشر كتب سماحة شيخنا وأستاذنا العلامة الندوي حفظه الله وبارك في عمره للاسلام والمسلمين خصوصاً بعد أن سمح لي سماحته بنشرها في بلادنا بلاد مصر خاصة والعرب عامة ، وبلاد العرب يقينا أخرج ما تكون خصوصاً في هذه المرحلة التاريخية الحرجة للغاية من مراحل الأمة الاسلامية على وجه العموم والعربية على وجه الخصوص ، فإن مؤلفات سماحة الشيخ الندوي فيها العلاج الناجح والدواء النافع لجميع أمراض الأمة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . وأن الدعوة الاسلامية كانت وما زالت في حاجة إلى المجددين والمصلحين المتورين الذين يعيدون لهذه الأمة الثقة الكاملة الصحيحة بصلاحية الاسلام في ولكل زمان ومكان ، لأن الطبقة المثقفة من المسلمين قد فقدت بفعل وتأثير عوامل كثيرة الثقة في صلاح الدين لاصلاح شئونها ، ولم يعد عند هذه الطبقة المثقفة التي تتولى زمام الأمور في البلاد الاسلامية ثقة في الاسلام ، وهي لهذا أبعدته عن جميع شئون حياتها .

ومؤلفات سماحة الشيخ الندوي فيها النضج العلمي الشرعي والعمل والفكر الصحيح المتمثل في حسن الاستنباط من الكتاب والسنة والسيرة الصحيحة والتاريخ والواقع ، والحل العلمي الحقيقي لكى تخرج الأمة من أزمتها وتفيق من ثباتها وتظهر في المرآة حسناء الرداء ، وفي الحقيقة أمام العالم أجمع بصورة الاسلام وجوهه وأصول الدين ومظهره .

وهذا الكتاب الثانى الذى نقدمه فى سلسلة المكتبة الندوية العالمية هو صورة واضحة

لأفكار سماحة أستاذنا الكبير وميوله الاصلاحية ولفهمه العميق للتاريخ الاسلامى ولروح الاسلام الصافية المشرقة وما علق بها - فى العصور الأخيرة - من غبار وما أصابها من انحراف ، وبذلك يسد هذا الكتاب ثغرة فى دراسة التاريخ الاسلامى كنا وما نزال نشعر بالحاجة اليها ، إذ يتحدث عن تاريخ الاصلاح فى حياة المسلمين السياسية والدينية والاجتماعية فى فترات من تاريخ الاسلام فى الماضى كما يعرض لنا صوراً واضحة لأبرز زعماء الاصلاح الاسلامى منذ العصر الأموى .

ومن توفيق الله تعالى أن يسر لنا الاتفاق مع السيد / نزار الباز المكي ليتولى طباعة هذا الكتاب والمؤلف فى أربعة أجزاء كبيرة تعتبر موسوعة فى الدعوة والفكر الاسلامى والاصلاح الدينى ، نبدأ بالجزء الأول ثم تتوالى الأجزاء تباعاً إن شاء الله ، وبما أن مكة المكرمة هى أم القرى ومركز الكرة الأرضية ووسط الدنيا فإن من هذه المكتبة المكية يخرج شعاع مؤلفات وأعمال سماحة الشيخ الندوى إلى جميع الدنيا بمدنها وقراها ، وحضارتها ومدنيتها ، وعلمائها وعوامها ، وكبارها وصغارها .

وان السيد / نزار المكي الناشر قد أخذ على عاتقه الاهتمام بانفاذ هذا العمل على أكمل وجه إن شاء الله ، ونحن بدورنا أخذنا على عاتقنا الاهتمام بالمراجعة والتحقيق للكتاب ومصادره ، والله العظيم نسأل أن يسر لنا وللناشر إتمام هذه السلسلة المباركة طباعة ونشراً وأن يثلج صدر سماحة الشيخ بانتشار جهده التأليفى والدعوى فى جميع البلاد الاسلامية والعربية .

ولقد حوى هذا الكتاب ثروة عظيمة من التحليلات العلمية لحياة عدد من الشخصيات التى كان لها عظيم الأثر فى اثراء الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية فى القرون الثمانية الأولى ، وأبرز الجهود الاصلاحية فى كل حقبة تاريخية وابتدأ هذه السلسلة بعد مقدمة رائعة فى تصوير دقيق لحاجة الأمة إلى الاصلاح والتجديد، بعمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الخامس باعتباره على رأس المائة الأولى وأوضح جهود الاصلاح والتجديد فى القرن الأول مع دراسة لحياة عمر بن عبد العزيز قبل وبعد الخلافة وبيان مدى عنايته بنشر الاسلام والدعوة اليه وأثر ذلك فى الاصلاح الاجتماعى والسياسى والدينى فى المجتمع وثنى بالحسن البصرى مركز أعلى الجهود الاصلاحية فى القرن الثانى الهجرى وشمل تحقيقه هذا القرن بتعميم الجهود العلمية والدعوية فى الاصلاح وذلك لاقامة الحكم الصالح وتغيير الأوضاع فى المجتمع ككل . ثم أعقب ذلك بدراسة وافية لحياة الامام أحمد بن حنبل وجهوده فى حفظ السنة النبوية المشرفة ومحنته من أجل الحفاظ على العقيدة الاسلامية نقية طاهرة من كل الشوائب والرد على كل المبتدعة والمتكلمة وأثر ذلك فى حفظ المجتمع المسلم والعقيدة والعبادة والسلوك ، ثم استكمل الطريق بشخصية فذة عبقرية هى شخصية أبى

الحسن الأشعري وناقش بجدارة وثقة القضايا التي كانت معروضة في ذلك الوقت وبين مدى ضرورة وجود شخصية عظيمة في كل قرن لتحفظ على الأمة دينها وعقيدتها . ، ثم عرج على القرن الخامس الهجري ودرس حياة الامام الغزالي وجهوده الاصلاحية ومؤلفاته وفضله في تغيير الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية وكذا جهوده التربوية والتعليمية ونصائحه للأمرء والملوك وأثر ذلك في الاصلاح والتغيير . ، ثم مضى أستاذنا إلى القرن السادس فاختار شخصية عبد القادر الجيلاني وفصل جهوده الدعوية والاصلاحية ولم يفت سماحته أن يذكر ما تعرضت له الأمة الاسلامية في هذا القرن من فتن عظيمة كادت أن تضيع الأمة وتستأصل شأفتها وذكر جهود الدعاة والمصلحين في كيفية ايقاظ همم المسلمين وردهم إلى الاسلام ردا جميلا بل في اظهار معجزة الاسلام في اسلام التار وقبولهم للدين الذي حاربوا أهله ردحا من الزمن ، ومضى قدماً بفيض روحى ربانى فدبح ببراعة ترجمة عظيمة لحياة الشيخ جلال الدين الرومى وجهوده التربوية الفائقة في الاصلاح والتجديد وعلاج امراض القلوب وتحرير النفس البشرية من الوثنية والتفريق بين الرهينة والجهاد ، ودعوة الشيخ الرومى إلى الحب وبيان كرامة الانسان وقدره وشرفه بين جميع المخلوقات . وهكذا ختم سماحة الشيخ الجزء الأول ، ثم خصص الجزء الثانى كاملاً للتشريح الدقيق والتفهم العميق والتحقيق الرشيق والتوثيق الرقيق لحياة شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله ، فجاء هذا البحث متميزاً عن جميع المؤلفات التي سطرت حياة ابن تيمية خصوصاً في بيان الجنب الروحية والمناقشات المتعمقة للقضايا التي تنازع فيها الأقسام بخصوص ابن تيمية وتلامذته .

كل هذا وأكثر منه قد أفاض فيه قلم سماحة أستاذنا مستمداً كل ذلك من القرآن والسنة والسيرة المشرفة والتاريخ الاسلامى العظيم الذى سىظل علامة مجد وفخار على عظمة هذه الأمة وحضارتها النابعة من عظمة الاسلام فى كل زمان ومكان .

وأنى أهيب بكل المثقفين والمفكرين خصوصاً وعامة المسلمين أن يتصفحوا هذا الجهد المبارك حتى يستعيدوا الثقة بدينهم ويطمئنوا إلى أن هذا الدين فيه كل الفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة ، والله الحمد والمنة وصلى الله على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد .

وكتبه

**مصطفى أبو سليمان الندوى**

المنصورة فى ١٢ من جمادى الأولى ١٤١٦هـ

١٨ من أكتوبر ١٩٩٥ م





## مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

أما بعد ! فقد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب « رجال الفكر والدعوة » في سنة ١٣٨٥ هـ ( ١٩٦٥ م ) وجدت للمؤلف دراسات وتأملات ، ألحقها بالطبعة الأردنية ، وحالت الشواغل ، ومؤلفات اشتغل بها المؤلف في هذه الفترة عن العناية بهذا الكتاب ، وتجهيزه للطبعة الجديدة ، رغم الحاح بعض دور النشر على ذلك ، وشعور المؤلف بفراغ واقع في المكتبة الاسلامية الحديثة ، بنفاذ الطبعة الثانية من زمان ، وحاجة الشباب الاسلامي إلى مثل هذه الكتب ، في إيجاد الثقة بتاريخ الاصلاح والتجديد ، وبصلاحية الاسلام وتعاليمه في انشاء المصلحين والدعاة وأصحاب الرسالة والابداع في التفكير والانتاج ، وما يعتقدوه المؤلف - وكثير من رجال التربية والتعليم - أن خير وسيلة لاشعال المواهب ، واثارة الروح ، وتقويم الاخلاق ، والعزم على مكافحة البيئة الموبوءة ، والمجتمع الفاسد ، والتسامي لمعالي الأمور ، هي سير عظماء الرجال ، وزعماء الاصلاح والتجديد والربانيين والصديقين ، فحمله كل ذلك على اعادة النظر في هذا الكتاب ، وتناوله بالزيادة والتنقيح وتقديمه للطبع والنشر في أول فرصة .

وليست الزيادات كثيرة العدد ، ولكنها كبيرة القيمة ، وأهمها ما جاء تحت عنوان « غارة التتر على العالم الاسلامي وظهور معجزة الاسلام » وقد بحث فيه المؤلف لأول مرة في أسباب هذه الكارثة الجذرية في ضوء القرآن وقانون المجازاة الالهية ، وتجارب الأمم ، واستعرض واقع العالم الاسلامي في فجر القرن السابع الهجري ، وفي هذا الفصل درس للأجيال الاسلامية في جميع العصور وخاصة في العصر الذي وقعت فيه كارثة العالم العربي والاسلامي « كارثة ٥ حزيران ١٩٦٧ » ويليها في الأهمية معلومات جديدة عن محاولات الاصلاح في تاريخ الديانة الهندوكية والمسيحية ومصيرها في مقدمة الكتاب ، وما عدا ذلك فزيادات مبعثرة في ثنايا الكتاب ، وتصويبات لأخطاء مطبعية أكثرها في السنين والتواريخ .

وأسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ، ويحقق به آمال المؤلف ، ويسد به عوزا فى المكتبة  
الاسلامية وفى مناهج التربية والتعليم ، وأن يحمل هذا الكتاب الشباب على تقليد هؤلاء  
العظماء واقتفاء آثارهم وحبهم وتقديرهم ، وعلى الله قصد السبيل .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

ندوة العلماء - لكهنؤ

١٨ / ٥ / ١٣٨٩ هـ

٣ / ٨ / ١٩٦٩ م

## مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين  
ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد طلبت منى كلية الشريعة في الجامعة السورية القاء محاضرات على طلابها  
في موضوع ديني وعلمي وأجبت إلى رغبتها حرصا منى على التعاون مع أساتذتها في  
خدمة هذه المؤسسة العلمية العظيمة الناشئة التي يرجى أن تقوم بدور مهم في نشر العلوم  
الدينية وتكوين جيل علمي جديد في هذا البلد ، واخترت موضوع الاصلاح والتجديد  
والتعريف بكبار رجال الدعوة والعزيمة والجهاد في تاريخ الاسلام وقدمت إلى دمشق في  
آخر شعبان سنة ١٣٧٥ هـ واستمرت في القاء المحاضرات إلى ١٩ شوال ١٣٧٥ هـ الموافق  
٣٠ آيار سنة ١٩٥٦ م وكانت في كل يوم أربعاء محاضرة في مدرج الجامعة الكبير ،  
وكانت ثمانى محاضرات وهى في الأصل عشر محاضرات أدمجت بعضها في بعض حرصا  
على توفير الوقت ، وأعدتها إلى أصلها - عشر محاضرات - عند نشرها ، ثم أضفت  
إليها خمس محاضرات عن الامام عبد القادر الجيلانى ومولانا جلال الدين الرومى .

لقد كان في النية أن أحتتم السلسلة الأولى من هذه المحاضرات بمولانا جلال الدين  
الرومى وأبدأ الثانية بشيخ الاسلام ابن تيمية وأختتمها برجال الاصلاح في القرن الثالث عشر  
الهجرى ولكن وصولى بتأخير وضيق الوقت قد حالا دون ذلك فختمتها بحجة الاسلام  
الغزالي<sup>(١)</sup> .

وانى في هذه المحاضرات لا أدعى علما غزيرا ولا اكتشافا جديدا ، كل ما حرصت عليه  
هو دراسة هذه الشخصيات من جميع نواحيها وابرازها والقول المتزن وأن لا أقول شيئا الا  
عن اعتقاد واقتناع مستندا إلى حقائق التاريخ وشهاداته غير مجازف في القول ولا معتمدا  
على القياس والنزعة الفردية . ولم يكن شأنى في ذلك شأن من يحدد غاية ثم يخضع  
التاريخ لها وما أهون ذلك على مؤلف قدير وكاتب لبق .

وفى الأخير أرى من واجبى أن أشكر الجامعة السورية وكلية الشريعة بصفة خاصة على  
أن اقتراحها للتحديث في هذا الموضوع أثار في نفسى رغبة دراسة هذا الموضوع في نطاق

---

(١) استدرك المؤلف أثناء الطبع ، فأنهى السلسلة بمولانا جلال الدين الرومى كما كان نوى سابقا .

واسع واستعراض التاريخ الاسلامى من هذه الناحية من جديد انتفعت بها شخصا وعلى أنها أتاحت لى فرصة التحدث إلى مجموعة طيبة من المثقفين .

وأوجه كلمة شكر وتحية بصفة أخص إلى صديقى الجليل الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعى عميد كلية الشريعة على أن الحاحه لم يدع لى عذرا ، إو كان سببا فى تكوين هذه المحاضرات ، وأشكر زملاءه الفضلاء على عنايتهم بتنظيم هذه الحفلات الاسبوعية والدعوة اليها وبذل الوسع فى انجاحها .

وأشكر أخيرا لا آخرا اساتذة الجامعة وطلبتها وعلماء دمشق والشباب المثقف على حرصهم على حضور هذه المحاضرات والتفرغ لها وحسن استماعهم ، وقد كان لكل ذلك أطيب الأثر فى نفسى وكاذ مشجعا كبيرا على الاستمرار فى دراسة هذا الموضوع الخطير والبحث فيه ؛ وشهادة للذوق العلمى والروح العلمية فى هذه البلد الاسلامى العربى أدعو الله أن ينفعنى والمستمعين الكرام بكل ما جاء فى هذه المحاضرات من معان سامية وأن يحرك فى النفوس رغبة الاصلاح والتجديد على الاساس الاسلامى الصحيح وتلك رسالة هذه الشخصيات التى تحدثت عنها وذلك ما يطلبه منا العصر الجديد ، والله الموفق للسداد والهادى إلى سبيل الرشاد .

## أبو الحسن عليّ السنه النطوى

دمشق ٢٣ من ذى القعدة الحرام سنة ١٣٧٥ هـ

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى  
الحاجة إلى الاصلاح والتجديد والبعث الجديد  
واتصالهما في تاريخ الاسلام

## الحياة متحركة ومتطورة :

سادتى واخوانى : من الحقائق الأولية أن الحياة متحركة ومتطورة ، دائمة الشباب ، مستمرة النمو تنتقل من طور إلى طور ، ومن لون إلى لون ، لا تعرف الوقوف ولا الركود ولا تصاب بالهرم والتعطل ، فلا يسايرها فى رحلتها الطويلة المتواصلة الا دين حافل بالحركة والنشاط ، لا يتخلف عن ركب الحياة ولا يعجز عن مسيرته وزمالاته ، ولا تقصر عنه خطواته ، ولا تنفذ حيويته ونشاطه .

وذلك شأن الاسلام ، فإنه - وإن كان مؤسسا على عقائد ثابتة وحقائق خالدة - زاخر بالحياة . حافل بالنشاط ، له من الحيوية معين لا ينضب ، ومادة لا تنفذ ، صالح لكل زمان ومكان ، وعنده لكل طور جديد من أطوار الحياة ولكل جديد من أجيال البشرية ، ولكل عهد مستأنف من عهود التاريخ ولكل مجتمع عصرى من مجتمعات البشرية مدد لا يقصر عن الحاجة ولا يتأخر عن الأوان .

أن الاسلام بخلاف ما يعتقدده كثير من المسلمين وبعكس ما يصوره أكثر المستشرقين والمؤرخين الغربيين - ليس حضارة عهد خاص ، ولا فن فترة من فترات التاريخ ، يمثله آثار ذلك العهد ومبانيه ويعيش فى الاحجار والرسوم والصور لا فى واقع الحياة ، وقد فقد صلاحيته للحياة وأدى رسالته ، كالذى نتحدث عن الحضارة اليونانية والرومية أو الفن التركى والمغولى .

أنه دين حى ورسالة خالدة ، إنه حى كالحياة نفسها ، ونخالد كخلود الحقائق الطبيعية ونواميس الحياة ، إنه تقدير العزيز العليم وصنع الله الذى أتقن كل شئ . وقد ظهر فى شكله النهائى وطوره الكامل وأعلن يوم عرفة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا « فهو يجمع بين الكمال الذى لا انتظار بعده لدين آخر ولا حاجة معه إلى رسالة جديدة ، وبين الحيوية التى لا نفاذ لها والنشاط الذى لا آخر له ، ولذلك استطاع أن يساير الحياة ويراقبها فى وقت واحد ويتابعها فى صلاحها واستقامتها ، وينكر عليها فى انحرافها وزيفها ، فلا هو مسامر مائع ككثير من الأديان المحرفة ، ولا هو مراقب جامد ككثير من الفلسفات النظرية ، وذلك مثل الدين الكامل ، ومثل الدين الحى للانسان الحى الذى يشعر بشعوره ، ويعترف بحاجاته ويرشده فى مشاكله ، ويعارضه فى اتجاهاته الفاسدة .

## عهدُ الأمة الإسلامية أكثر العهود تقلبات ومشاكل :

وما كان الدين الاسلامى هو الدين الأخير والدين العالمى ، ولما كانت الأمة الاسلامية هى الأمة الأخيرة التى اختيرت لتبليغ الرسالة السمائية إلى أهل الأرض « أنه لا نبي بعدى ولا أمة بعدكم » وكتب لها الخلود والانتشار فى الآفاق ، كان من الطبيعى أن تمر فى رحلتها الضويلة الواسعة بمراحل عصيبة ومواقف دقيقة لا عهد للتاريخ بها ، وتبتلى بعصور وأجيال لم تعرفه أمة قبلها . وأن تواجه صراعا فى ميدان العقول ، والعلم ، والحضارة والاجتمع والتشريع . لم تواجهها أمة فى التاريخ ، ولذلك نرى أن الفترة التى منحت هذه الأمة لتوجيه الأمم والوصاية على العالم هى أكثر الفترات التاريخية تقلبات وتطورات وأكثرها تنوعا واختلافا ، ينشأ فيها من المشاكل والمسائل الدقيقة ما لم يخطر من أمة على بال ولم يحلم به جيل من الأجيال ، ويمتحن الذكاء وقوة التشريع والثبات على المبدأ والمحافظة على الروح ، والصلاحية للحياة ، فالأمة التى تتغلب على هذه المشاكل كلها ، وتخرج من هذه انعارك ظافرة منتصرة . هى أمة جديرة بالحياة ، صالحة للقيادة ، ولا يمكن لقوة سياسية أو غارة خارجية أن تقضى على كيانها ، وتمحوها من الوجود .

## كيف استطاعت الأمة أن تقاوم تغيرات الزمان والمكان :

ولكم أن تتساءلوا كيف استطاعت الأمة أن تقاوم المؤثرات الخارجية العنيفة والتقلبات التى لا تكاد تنتهى ، واختلاف الزمان والمكان ، وقد كان بعضه يكفى للقضاء على ديانة قوية قديمة أو تحريفها على الأقل كما وقع مرارا فى تاريخ الأديان؟

والجواب ، إنها استطاعت ذلك بقوتين : القوة الأولى ، هى الحيوية الكامنة فى وضع الاسلام نفسه وصلاحيته للحياة والارشاد فى كل بيئة وفى كل محيط وفى كل عهد من عهود التاريخ ، فقد خص الله محمدا ﷺ برسالة وتعاليم كاملة للانسان صالحة لكل زمان

ومكان ، تستطيع أن تواجه ما يتجدد من الشؤون وأطوار الحياة ، وتحل كل ما يعترى من المشكلات والمعضلات ، والدراسة العميقة الشاملة للقرآن الكريم والحديث النبوى الصحيح ومصادر الاسلام ، كافلة بالافتناع بما أقول ، ولكنه موضوع الفقه الاسلامى والنظم الاسلامية . والقوة الثانية ، هو أن الله قد تكفل بأن يمنح هذه الأمة التى قضى ببقائها وخلودها رجالا أحياء أقوياء فى كل عصر ، ينقلون هذه التعاليم الاسلامية إلى الحياة ، ويعيدون إلى هذه الأمة الشباب والنشاط ، إن هذا الدين نفسه هو من أقوى العوامل فى وجود هؤلاء الأشخاص فى كل عصر ومصر ، لأنه يثير فى اتباعه ودارسيه كوامن القوة ، ويبعث فيهم الثورة والتمرد على الأوضاع الفاسدة . والمجتمع الزائف والأخلاق المنحلة والسياسة المستبدة ، والحكم الجائر ، والترف المسرف ، ويفرض عليهم إنكار المنكر وكلمة حق عند سلطان جائر ، ويحرم عليهم الاستنامة إلى الأوضاع الفاسدة ، والرضا بالحياة الدنيا ، وبيع الضمائر ، ويهيبهم كذلك الأصول والنصوص المتينة الحكيمة التى يحلزون فى ضوئها المشاكل الطريفة والمسائل المعقدة لذلك نرى أن هذه الأمة لم تعدم فى عصر من عصورها مجددين فى الدين ، وأئمة فى العلم ، وعماليق فى الفكر وأبطالاً فى الجهاد ، وأعلاماً فى الإصلاح . لا يوجد نظيرهم - لا فى الكمية ولا فى الكيفية- فى أمة من الأمم . ولم يكن ذلك من المصادقات والاتفاقات - وأنا لا أؤمن بالمصادقات فى صنع الله وسير الكون - إنما هو طبيعة هذا الدين وقدرته العجيبة على الانتاج والتوليد - وطبيعة هذه الأمة وصلاحتها للبعث الجديد ، وإنما هو لطف الله بهذه الأمة بل بالانسانية ، إذ لو ضاعت هذه الأمة لضاعت أمانة السماء ولضاعت أمانة الانسانية - وإنما هى حراسته الكريمة وخفارته القوية لهذا الدين الذى فرض عليه أن يرافق الحياة إلى آخر مرحلة من مراحلها ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

## هجمات على الاسلام :

وقد كان الاسلام من أول عهده هدفا لهجمات عنيفة وقاسية لا تحتملها ديانة من الديانات ، هجمات على قلبه وأعصابه لا تعرف الهوادة ولا الرفق ، ولا ترضى إلا بالفناء ، ان الديانات التى فتحت فى عصرها الدنيا وأخضعت الأمم والحضارات قد ذابت وتحللت أمام هجمات أضعف منها بكثير ، وفقدت شخصيتها وكيانها ، ولكن الاسلام بالعكس من ذلك رد هذه الهجمات كلها على أعقابها وكسرها ، وظل محافظا على قوته وشخصيته وعلى مزاياه وروحه .

قد كانت الباطنية بفروعها ومذاهبها المتنوعة خطرا على روح الاسلام النقية وعقائده

الصافية الواضحة تتهدد وضع الاسلام الحقيقي ، وكذلك كانت الغارة الصليبية ، ثم هجوم التار - ذلك الجراد المنتشر - صاعقة نزلت على الاسلام والأمة الاسلامية وكانت جديدة بأن تقضى على الاسلام وتقصيه من ميدان الحياة ومصاف الأمم الحية ، فلو كان غير الاسلام من الديانات للفظ نفسه الاخير وأصبح أسطورة من الأساطير .

ولكن الاسلام تحمل كل هذه الصدمات وكل هذه الصواعق واستطاع أن يعيش رغم كل ذلك ، ولم يكن أنه عاش وبقي يلعب دوره ، بل أنه شق طريقه إلى الامام وفتح فتوحا جديدة في ميدان العلم والعقل والسياسة .

وقد منى الاسلام في سيره الطويل بمؤمرات وثورات ومقاومات داخلية وخارجية ، فقد كان مرارا عرضة لتحريف الغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين ، ودخلت فيه البدع والأفكار العجمية وتسرب اليه الشرك والجاهلية عن طريق الأمم التي كانت تسلم ، وعن طريق التقليد والجهل ، وفشت فيه الاعمال والتقاليد الجاهلية ، ثم امتحن - منذ العهد الأموي - بمادية جارفة ، وترف فاحش وعبادة البطون والشهوات . ثم ابتلى - من العهد العباسي - بالاحاد والزندقة ، والفلسفات العجمية إلى غير ذلك مما يحويه تاريخ الاسلام الدينى والعقلى ، وقد كانت هذه الهجمات شديدة ودقيقة حتى أصبح كثير من الناس يشكون في قدرة الاسلام على مقاومة هذه الهجمات ، وأصبح بعضهم يتوقع نهاية الاسلام بصفته ديناً من الأديان ، ونهاية الأمة الاسلامية بصفتها أمة ذات عقيدة ورسالة .

ولكن الاسلام أبى أن يستسلم لهذه الهجمات وأن يخضع ويستكين لأعدائه ، وأبت روح الاسلام أن تنهزم ، وأبى ضمير الأمة المسلمة أن يصلح هذه الفتن وأن يتفاهم مع اعداء الاسلام والمتآمرين ضده وأن يتنازل عن بعض ثروته ، وقام فى كل عهد وفى كل ناحية من نواحي العالم الاسلامى رجال فضحوا المحرفين والمتآمرين ، ورفعوا اللثام عن وجه الاسلام ونفضوا عنه غبار الجهل والضلالات وأنكروا على البدع والخرافات والأفكار العجمية ، ودافعوا عن السنة دفاعا قويا ، وردوا على العقائد الباطلة ، وشنوا الحرب على الجاهلية وأعمالها وتقاليدها ، وحاربوا المادية والترف بكل قوة ، ونعوا على المترفين فى عصرهم ، وجهروا بالحق فى وجوه السلاطين الجائرين والملوك المستبدين ، وحدوا من سلطان العقل الذى قد طغى وتخطى الحدود ، ونفخوا فى الاسلام روحا جديدة ، وخلقوا فى المسلمين ايمانا جديدا وثقة جديدة ، وقد كان هؤلاء الأفراد نوابغ عصورهم ، عقلية وعلماء وخلقاء ، وكانوا أصحاب شخصية جذابة ، وكفاية فائقة ، وكانت عندهم لكل فتنة وظلمة « يد بيضاء » تبدد الظلمات وتنير السبيل .



وقد وضح من وجود هؤلاء المصلحين المجددين للدين الاسلامى باستمرار لا يحمل على مجرد المصادفات ، أن هذا هو الدين الذى اختاره الله لتوجيه العالم وارشاد الانسانية وقضى بخلوده وبقائه ، وان مهمة الهداية والارشاد الجليلة التى كان الأنبياء يبعثون لها فى العصور الماضية قد القيت على عاتق هذه الأمة التى تخلف خاتم النبيين ﷺ فى هذه المهمة وأنه لا يخلو زمان من الازمان من خلفائه ودعاته .

### ندرة شخصيات التجديد فى الديانات الأخرى :

بالعكس من ذلك يندر فى الديانات الأخرى شخصيات عظيمة تعيد اليها الحياة والشباب ، وتوجد فى اتباعها وأصحابها الحركة والنشاط ، وتوجد فيهم الثقة بأديانهم وعقائدهم ، وتنفض عنهم غبار القرون الماضية وركام عصور الانحطاط . اننا إذا استعرضنا تاريخ هذه الديانات رأينا فترات طويلة قد تمتد على مئات وآلاف من السنين لم يظهر فيها من رجال الدين والاصلاح من يجدد هذا الدين ويذيله من أعدائه ضد روحه ونظامه وينقيه من شوائب البدع وألوان التحريف ، ويعرضه فى صورته الصادقة ، ويدعو إلى أصل الدين وحقيقته دعوة قوية سافرة ، ويجرده من التقاليد والبدع التى لصقت به وهو منها براء ، ويحارب المادية والترف الذى ابتلى به أتباع هذا الدين ، ويوجد بايمانه القوى وبروحانيته الصادقة وبجهاده المتواصل روحا جديدة فى هذه الأمة وثقة جديدة بدينهم .

ونضرب لذلك مثلا بالمسيحية ، فقد امتحنت فى عهدها الباكر يعنى فى منتصف القرن الأول المسيحى بتحريف لا يوجد له نظير فى تاريخ الديانات فى عهدها الأول ، فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الافكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس Paul ( ١٠ - ٦٥ م ) وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح إلى روح ومن وضع إلى وضع ومن نظام إلى نظام ، لا يشارك الثانى الأول الا فى الاسم وبعض الطقوس ، ويتحدث عنه عالم مسيحي Ernest de bunsen فيقول :

« إن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء فى الانجيل ليس الذى دعا اليه السيد المسيح بقوله وعمله ، ان مرد النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس ذلك المارق اليهودى والمسيحي ، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم Essenie والتمثيل ، وملئه هذه الصحف بالنبؤات والامثلة ، ان بولس فى تقليده لاسطفانوس Stephen داعى المذهب الايسانى قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، انه واضع ذلك المزيج من الاحاديث والقصص المتعارضة التى يحتوى عليها الانجيل اليوم والتى تعرض المسيح فى صورة لا تتفق مع التاريخ أصلا ، ليس المسيح ، بل بولس ، والذين جاءوا بعده

من الاحبار والرهبان ، هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدينى الذى تلقاه العالم المسيحى كأساس للعقيدة المسيحية الارثوذكسية خلال ثمانية عشر قرنا <sup>(١)</sup> .

وبقيت المسيحية قرونا طويلا - ولا تزال - تحمل روح بولس وتحافظ على تراثه ، ولم يظهر فى العالم المسيحى فى هذه المدة الطويلة من يثور على هذا الوضع الطارئ الدخيل على المسيحية ويحاول نقلها إلى وضعها الأول الذى ترك عليه سيدنا المسيح خلفاءه والمخلصين من اتباعه ، وانسلخت قرون ومضت أجيال اثر أجيال ولم يظهر الرجل المنتظر لتجديد المسيحية وتجريدها من الأجزاء الأجنبية ، حتى كان القرن الخامس عشر المسيحى ، فظهر « مارتن لوثر » Martin Luther فى ألمانيا وقام باصلاح محدود قاصر ينحصر فى مسائل جزئية ، وعارض بضع عقائد ألحت عليها الكنيسة النصرانية ، ولم يكن اصلاحا جوهريا شاملا ولا ثورة ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل ، ثم لم يخلفه رجل فى العالم المسيحى يرفع صوته ضد انحرافات المنيسة واعتداءاتها ويقوم بمثل الدور الذى قام به لوثر على ضعفه .

يقول الكاتب الفاضل ( J . Bass Mullinger ) فى سقالة فى دائرة معارف بريطانيا :

« إذا بحثنا عن الاسباب التى جعلت جهود الاصلاح الدينى قبل القرن السادس عشر لم تنجح أى نجاح نستطيع أن نقول بلا تلعثم : أن السبب الوحيد فى ذلك هو خضوع عقلية القرون المتوسطة للمثل القديمة » .

ويقول فى محل آخر :

ان اخفاق الجهود المتتابعة لاتخاذ قرار جامع حول اصلاح الكنيسة من حقائق التاريخ الاوربى الثابتة .

ويقول :

وجدت جهود كثيرة ذات أهمية بالغة لاصلاح المذاهب قبل القرن السادس عشر . ولكنها وقعت فريسة ضغط الكنيسة وأخفقت » .

وظلت المسيحية تمشى على الدرب الذى اختارته أو بالاصح فرض عليها ، وضعف تأثير الكنيسة وانحل سلطاتها فى العهد الأخير وقامت دولة المادية فى أوربا وأصبحت الديانة الحقيقية التى خلفت المسيحية ونخافت كل ديانة فى العالم الغربى ، فلم يظهر فى الأوساط

---

(١) Islam or True Christianity p . 128 .

المسيحية من يحارب هذه المادية ويعيد المسيحية إلى مراكزها في الحياة أو يوجد الثقة في  
المسيحين بديانتها وينشئ فيهم القوة الروحية والخلقية التي يقاومون بها اغراءات المادية  
القاهرة ويتظاهرون بحياة فاضلة تقوم على العلم والاخلاق والعقائد المسيحية ويواجهون  
معضلات العصر وأزماته ويحاولون حلها في ضوء الدين ، بالعكس من ذلك نرى أن  
المفكرين والمؤلفين المسيحيين في أوروبا يائسون من مستقبل المسيحية ومصابون بمركب النقص  
أمام المادية اللادينية .

وهكذا الديانات الشرقية الاخرى ، فالبرهمية قد انحرفت انحرافا شديدا عن جادتها  
الأولى وفقدت بساطتها والاتصال الروحي المباشر بفاطر الكون ، وفقدت قوتها الخلقية  
وتعقدت تعقدا أصبحت به فلسفة دقيقة غير عملية وفقدت - على مر الأيام التوحيد  
الخالص في العقيدة ، والعدل في الاجتماع وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما بناء ديانة في  
الباطن وفي واقع الحياة ، وقد بدأ ذلك من القرن الثامن قبل الميلاد وحاول مؤلفو أبشدر  
-شروح الكتب المقدسة عند البراهمة - أن يتداركوا هذا الفساد فرفضوا التقاليد والطقوس  
التي استحوذت على الديانة البرهمية والمجتمع الهندي وقدموا نظاما فلسفيا تصوريا يقوم  
على وجود الوحدة في الكثرة ، ونال هذا العرض الجديد للديانة البرهمية رضى الأوساط  
العلمية لنزعتهما الدائمة إلى « وحدة الوجود » ولكنه لم يرض الشعب القاصر في الفكر ،  
المتقنر إلى النظم العملية والتعاليم الواقعية ، وبقيت الديانة البرهمية تفقد قوتها ونفوذها ،  
وبقى التذمر منها وعدم الثقة بها يزداد ويقوى على الأيام ، وتجسم هذا التذمر وهذا القلق  
المتفشى في المجتمع الهندي والتماس العوض عن الديانة الهرمة في شخص بوذا Buddha  
ولم يكن ذلك الا في القرن السادس قبل الميلاد .

ظهر بوذه بفكرة جديدة أو ديانة جديدة - إذا كان لابد من هذه الكلمة - تقوم على  
تجريد النفس وتهذيبها وقمع الشهوات والعطف والمواساة واللهج بالعمل وعلى رفض  
التقاليد والطقوس والتفاوت الطبقي الذي أصيب به المجتمع الهندي في العهد الاخير ،  
وانشرت هذه الفكرة أو الديانة <sup>(1)</sup> بسرعة وشملت الجزء الجنوبي والشرقي من آسيا الواقعين  
بين بحر الهند والبحر الكاهل .

---

(1) أتورد في اطلاق كلمة الديانة على البوذية لأنها لا تحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون وعن  
المبدأ والمعاد كما يرجح أكثر المؤلفين والمؤرخين ( راجع دائرة المعارف البريطانية كلمة «بوذه» -

. ( Buddha )

ولكن ما لبثت هذه الحركة الدينية العظيمة ان انحرفت وتحرفت وهجمت عليها الأوثان والتماثيل والطقوس التي حاربتها البوذية واثارت عليها حتى أصبحت فى الزمن القصير ديانة وثنية لا تمتاز عن الديانة البرهمية الا بأسماء الاوثان والتماثيل وعددها ، وأصيبت بانحطاط فى الاخلاق والتعقد فى الافكار والكثرة فى المذاهب والفرق ، يقول أستاذ تاريخ الحضارة الهندية فى إحدى جامعات الهند « لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل ، وتغير محيط الرابطات الاخوية البوذية وظهرت فيها البدع »<sup>(١)</sup> . وتقول مؤلفة أوربية Mrs. Rhys Davids كما ينقل عنها رئيس الجمهورية الهندية Sir Radha Krishnan « لقد أظلت الأفكار العليقة تعليم بوذا الخلقى حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة ، لقد نشأ مذهب جديد فى الديانة وازدهر وملك على الناس القلوب ثم اضمحل وخلفه مذهب آخر ، وهلم جرا ، حتى تراكمت هذه الاوهام الخلابة وحجبت الجو وساد الظلام ، وقد اضمحلت دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات » .

ولم يظهر فى العالم البوذى الواسع وفى المدة الطويلة التى حكمت فيها البوذية وسادت ، مصلح كبير يتنصر للبوذية الاصلية ويحارب البوذية الدخيلة بكل قوته ومقدرته ، ويجدد لهذه الديانة العظيمة شبابها الاول وبساطتها الضائعة ونقاءها المفقود .

وهكذا بقيت الديانة البرهمية منكسرة أمام البوذية التى تغلبت عليها وعلى رقعتها حتى جاء شنكر اجاربه Shankiracharia<sup>(٢)</sup> فى القرن الثامن المسيحى . وقام بنشاط عظيم فى محاربة البوذية ونشر البرهمية حتى تمكن من اجلاء الديانة البوذية من الهند وتضييق دائرتها واضعاف سلطانها حتى ضعفت جدا وبقيت ديانة من الديانات الهندية القديمة الدارسة ، استطاع شنكر أجاربه بنشاطه وحماسه وذكائه أن يقصى البوذية من الحياة ولكنه لم يستطع - ولعل الاصح أنه لم يرد - أن يعيد البرهمية إلى وضعها الاول ، ويعيد عقيدة التوحيد والاتصال المباشر بفاطر الكون ورفض الوسائط بين العبد وربّه والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات .

ويقول كاتب مقال موسوعة الديانات والاخلاق C.V.H. Chatc الذى كان أستاذ

---

(١) الحضارة الهندية لمؤلفه ايشورا توبا .

(٢) ولد فى ملابار جنوبى الهند ، وجال فى الهند من اقصاها إلى اقصاها ومات فى الثانية والثلاثين من عمره .

السنسكريتية بكلية الفستن في بمباي، ويمتاز باطلاع واسع على الديانات القديمة وفلسفاتها ، وهو يتحدث عن « شنكر اشاريه » :

« ان الغاية الاولى التي استهدفها « شنكر اشاريه » في حياته ، هي احياء ذلك النظام الدينى والفلسفة الدينية التي تحث عليهما « اوبنشد » ( شروح الكتب المقدسة عند البراهمة) أنه نشر العقيدة المطلقة لوحدة الوجود ، وكانت غايته الرئيسية أن يقوم بتعليم الناس أن «ابنشد» و « بهكوث كيتا » لا يتعرضان للقانون ، وإنما جل ما فيهما هو تعليم وحدة الوجود في أكمل صورها . ان شنكر اشاريه لم يستنكر الوثنية ولا هاجمها . ان الاصنام عنده مظهر للاله ورمز له . انه ذم الغلو في الطقوس والتقاليد وفلسفة الاعمال ، ولكنه دافع عن عبادة الآلهة التي حظيت بالقبول ، يقول : « ان الوثنية حاجة طبيعية لنا في مرحلة خاصة لنشأتها ، وعندما تبلغ الروح الدينية النضج والاكتمال تستغنى عن الوثنية . فكلما تبلغ الروح الدينية مرحلة النضج يجب الاعراض عن المظاهر والرموز » وقد سمح شنكر اشاريه بعبادة الاصنام كرمز للاله . ولكن لمن لم يبلغ مبلغ البراهمة الذين تحرروا عن الصفات ، وأصبحوا من النضج بمكان لا يقبلون أى تغيير وتبديل «<sup>(١)</sup> .

ولا تزال هاتان الديانتان الهنديتان - البرهمية والبوذية محتفظتين بوضعهما المحدث ، محتفظتين بتراث عصور الانحطاط محتفظتين بالطقوس والتقاليد والاصنام والتماثيل ، وأخفت جميع المحاولات والجهود التي تبديى من شنكر اشاريه وتنتهى إلى دياند سرسوتى<sup>(٢)</sup> إلى غاندى الزعيم ، أن يعيد هذه الديانة القديمة إلى وضعها الاول وإلى الوضع الصحيح الذى يتفق عليه مع رسالات الانبياء والفطرة السليمة والعصر المتجدد ، وقد ألفت أوزارها أخيرا للمادية واللا دينية واعتزلت الحياة وانحصرت فى المعابد وفى بعض المظاهر والتقاليد ولا يعرف فى الهند دعوة قوية ذات بال شعارها وهتافها « إلى الدين من جديد » بينما نعرف دعوات قوية نشيطة شعارها وهتافها « إلى الحضارة القديمة من جديد » وإلى لغة الهند القديمة الدارسة « السنسكريتية » من جديد .

---

(١) مقتطف من مقالة شنكر اشاريه باختصار وتلخيص ، اقرأ كتاب

Encyclopaedia of Religion and Echics ( fourth edition 1958 ) volume XI . Article Shankar Acharya .

(٢) واضع الديانة الآرية الشائرة على الوثنية وهى أشد الفرق حماسة وعداء للمسلمين وتقول بقدوم العالم .

## حاجة الاديان إلى الرجال الاحياء :

والسر فى ذلك أن الاديان لا تعيش ولا تزدهر ولا تعود إلى نشاطها وشبابها بعد اضمحلالها وضعفها ، ولا تنسجم مع المجتمع المعاصر ولا تتلاءم مع روح العصر الا عن طريق الرجال النوابع الذين يظهرون فيها حيناً بعد حين ، يملكون الايمان القوى الجديد وسموا روحياً لا يشاركونهم فيه عامة الناس ، ونزاهة ممتازة عن الاغراض وعزوفاً عن الشهوات وتفانياً فى المبادئ والعقائد وفى سبيل الدعوة ؛ ومستوى عقلياً وعلمياً أرقى من الكثير ، ينفخون فى أمتهم روحاً جديدة ، ويلهبون نفوسهم بحماسة دينية جديدة .

وذلك لأن مطالب الحياة وتكاليفها متجددة ، واغراءات المادية قوية جديدة دائماً، وشجرة المادية لا تدوى ولا يعرفها الذبول وهى خضراء لا تنقطع أثمارها ، وللمادية - مع أنها غنية بسحرها على النفوس واغرائها للطبائع عن الدعاية والترغيب - فى كل عصر دعاة متحمسون ورجال مخلصون ، فاذا أصاب الدعوة الدينية الوهن ، وإذا أصيب أهل دين بضعف فى العقيدة أو ضعف فى الخلق أو ضعف فى الدعوة ، لم يستطيعوا أن يقاوموا المادية الفتية والدعوات المعارضة القوية . ان الأصنام - باختلاف أنواعها - لا تزال محتلة للحياة ، وان اللات ومناة - وهما رمزان للوثنية والهوى - لا تزالان فى شبابهما وجدتهما كما يقول اقبال . فلا يظن الداعى أنه قد انتهت مهمته ، ولا تمكن مقاومة المادية الفتاة ، ولا يمكن سحب اللات ومناة عن الحياة الا بالدين القوى والايمان الجديد والدعوة المتحمسة والعلم الراسخ والعقل الواسع .

## تاريخ الاصلاح والتجديد متصل فى الاسلام :

من الحقائق التاريخية أن تاريخ الاصلاح والتجديد متصل فى الاسلام ، والمتقضى لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلثة فى جهود الاصلاح والتجديد ، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل ويرفع صوت الحق ، ويتحدى القوى الظالمة أو عناصر الفساد ويفتح نوافذ جديدة فى التفكير والدارس لهذا التاريخ والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلام فيه على العالم الاسلامى ، وخبث مصابيح الاصلاح وخفتت أصوات الحق ، ومات الضمير الاسلامى ، وتبلد الشعور ، وأضرب الفكر الاسلامى عن العمل . إن هذه الثغرات التى قد نشعر بها فى دراستنا العابرة للتاريخ الاسلامى وفى نظرتنا العجلى فى كتبه، ان مردها إلى منهاج التأليف الذى اتخذه المؤرخون للاسلام قديماً وحديثاً ودرجت عليه الاجيال ، ان النقص - ومعدرتى إلى المؤلفين الذين أدين لهم فى معلوماتى ومحاضراتى ويدين لهم كل مؤلف ودارس - فى التأليف وليس فى

التاريخ ، أو بكلمة أخرى أن المسؤولية على المؤرخين والمؤلفين ، لا على المجددين والمصلحين الذين ظهروا حيناً بعد حين ، وحفظوا على الاسلام جدته وشبابه ، وقضوا على كثير من الفتن والبدع والمؤامرات والتحريفات ، حتى أصبحت مطمورة فى ركام الماضي ، لا يهتدى اليها أحد فى هذا العصر الا بعد بحث وعناء ، وكثير من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ولا يعرفون حقيقتها الا بشق الانفس واجهاد العقل والعين ، وقد كان بعض هذه المذاهب وبعض الحركات تتمتع بحماية البلاط ، وتستند إلى الملك والسلطان والمال والجاه ، وقد كانت فى عصرها صاحبة حول وطول ، ولكنها طويت - بفضل جهود هؤلاء المصلحين المخلصين - فى صحائف الماضي ، وأصبحت موضوع علماء الآثار لا محل لها الا فى المتاحف والصحائف .

### التجنى على صلاحية الاسلام :

إن هذا النقص فى التأليف الذى صرحت به مع الاعتذار ، جعل كثيرا من الناس يعتقدون أن تاريخ الاصلاح والكفاح فى الاسلام متقطع يحتوى على ثغرات واسعة وفترات طويلة ، لا ترى فيها الا المندفعين مع التيار ، المستسلمين للفساد ، وأقزاما فى العقل والتفكير والعلم والانتاج ، لقد كان يظهر « عملاق » أو نابغة أو عبقرى بعد عصر طويل ، وقد تخلو قرون ومئات سنين عن عظيم يستحق أن يسمى عملاقا أو عبقرى أو مجددا فى العلم والدين .

ان هذه العقيدة الخاطئة التى لم تقم الا على الدراسة القاصرة المستعجلة للتاريخ ، وعلى منهج التأليف الذى اتخذه مع الأسف أكثر المؤرخين ، وهو تأليف التاريخ الذى يدور حول الملوك وحاشيتهم ، وحول الحوادث التى لها اتصال بالسياسة والحكم ، قد تنتهى ببعض الشباب المتحمسين وبيعض رجال الدعوة إلى سوء الظن بالاسلام وضعف انتاجه ، إنها نتيجة خطيرة تضعف الثقة بالاسلام ، وتضعف العاطفة والارادة للكفاح فى هذا العصر ، فإن القوة الباطنة التى تدفع إلى الكفاح والعمل لدعوة ، لا تنبع الا من الثقة بالماضى ، وبأن هنالك رصيда من الجهاد والاخلاص وسندا من الكفاح والنجاح .

### مصادر التاريخ المهجورة :

والذنب ليس على المؤرخين فقط ، ان الذنب على من يقتصر على كتب التاريخ «الرسمى» والمصطلح ، ولا يتعدى هذه الكتب إلى الكتب التى لا تحمل اسم التاريخ ولا توجد فى ركن التاريخ فى مكتبة ، ولكنها مادة واسعة للتاريخ ومصدر قيم من مصادر

التاريخ ، هي كتب الادب وكتب الدين والكتب التي دون فيها بعض العظماء اعترافاتهم وسجلوا حوادث حياتهم وتجاربهم ، والكتب التي حفظ فيها بعض التلاميذ وأصحاب الشيوخ كلمات شيوخهم أو مواعظهم ، أو ما دار في مجلسهم من حديث أو حوار ، ومجاميع الرسائل والخطب التي تدل على روح أصحابها وفكرتهم ، أو الكتب التي ألفت في الحسبة وفي انتقاد المجتمع وانكار البدع والمنكرات ، فلو اتسعت الدراسة وشملت هذه المصادر المهجورة وتخصص لهذا الموضوع باحث واسع الفكر صبور على المطالعة ، دقيق في الملاحظة استطاع أن ينتج تاريخا متصلا شاملا للاصلاح والتجديد والتفكير الجديد في الاسلام ، يدل على أن الاصلاح والكفاح مترافقان لهذه الأمة لا يتخلفان عنها .

### كيف يؤلف تاريخ الاصلاح ؟

ويجب على هذا الدارس أن لا يقتصر على بعض النقول وأن لا يقتضب العبارات المنقولة عن كتب هذه الشخصيات العظيمة ولا يظن بالالفاظ والكلمات وأن لا يمر بها ومؤلفاتها ومنتجاتها مراسريعا في دراسته التاريخية ، بل يجب أن يعيش في كتبها ومؤلفاتها وأفكارها مدة ويتذوق أدبها وفكرتها ويتنسم طيبها ويحاول أن ينتقل من جوه إلى جو هؤلاء الرجال ، ومن عصره إلى عصرهم ، حتى يعرفهم على حقيقتهم ويصورهم في حقيقتهم ، ويشعر القارئ أنه انتقل إلى عصرهم وعرفهم معرفة شخصية ، وعاش معهم مدة من الزمان .

لذلك تسمحون لي بأن أعرض لكل واحد ممن أذكرهم في محاضراتي أمثلة من كتاباتهم وخطبهم ورسائلهم ، قد تكون متنوعة ، وقد تكون مسهبة ، لأنى أعتقد أن الرجل لا يعرف الا في كتاباته المتنوعة الطويلة ، ولا يجوز الحكم عليه الا بعد مشاهدة طويلة ، ومجالس وألوان من الحياة عديدة ، ولا سبيل لنا إلى هذه المشاهدة وإلى هذه المجالس الا عن طريق هذه الكتابات والمؤلفات .

### تطبيق مقاييس العصر على الشخصيات القديمة :

ثم الخطيئة الثانية التي يركبها بعض المتحمسين والمؤلفين في هذا العصر ، أنهم يكونون في ذهنهم صورة خاصة للمجدد أو المصلح ثم يلتمسونها في تاريخ الاسلام ومجموع صور الاعلام ، فإذا لم يجدوا هذه الصورة الحبيبة في التاريخ الاسلامى أو في عصر من العصور، تدمروا وأنكروا ، وكثير منهم عندهم مقاييس خاصة ، وهى مقاييس عصرية يقيسون بها « العظيم » أو « الداعى » أو « المصلح » أو « المفكر » فى كل زمان وفى كل



بيئة ، فإذا لم تنطبق هذه المقاييس - التي هي مقاييس العصر - على رجل مهما كان عظيما ، ومهما كان قديما ، ومهما كانت خدمته للاسلام عظيمة ، ومهما كان مخلصا ومهما نجح في مهمته التي تكفلها أو أسندت اليه ، أسقطوه أو بخسوه حقه ولم يعدوه من المصلحين ، وبعضهم يلتزم مقياسا واحدا كمقياس الابداع في الافكار مثلا ، أو فتح باب الاجتهاد مثلا ، أو الكفاح لاقامة الحكم الاسلامي ، أو معارضة الدولة القائمة في عصره مثلا ، فإذا لم يحقق هذه الشريطة ، لم يكن رجل عصره ولم يستحق أن يدخل في صف المصلحين .

إن هذه المقاييس والمعايير لها قيمة عظيمة ، وأنا لا أنكر أهميتها ومكانتها في الاصلاح ، ولكن الذي أريد أن أقول لكم ان الزمان والبيئة عاملان هامين في حياة الرجال فلكل عصر مشاكل ومسائل ، وملابسات وعوائق قد تحدد نطاق العمل ، وقد تفرض منهجا دون منهج ، وأسلوبا دون أسلوب ، والغاية واحدة . فلا يجوز لنا أن ننقل رجلا من عصره ، وننتقل به إلى عصرنا ، ونطبق عليه مقاييس هذا العصر ، ثم نحكم عليه بالفشل والاخفاق ، أو الضعف والعجز ونسلبه محاسن نفسه ، ونحرمه من كل ماثرة وكل عظمة ، لأنه لم يحقق شرطا من شروطنا ، ولم يكن « المثل الكامل » في الاصلاح المنشود والتجديد المطلوب .

### التراث الاسلامي مجموعة تدين لكل مصلح وعامل :

ان هذا التراث الذي وصل إلى أيدينا اليوم - ولست أسميه التراث بالمعنى الذي يريده الغربيون من كلمة Legacy - لأن الاسلام دين حي خالد ، ولكن أسميه بمعنى الثروة التي انتقلت الينا من أسلافنا: تراث العلم الواسع ، والعقيدة المحفوظة ، والايمان القوى ، والسنة الخالصة ، والاخلاق المستقيمة ، وثروة الفقه والتشريع الزاخرة والادب الاسلامي الرائع ، مجموعة فيها نصيب لكل من ساهم فيها بأقامة حكم على منهاج الخلافة الراشدة ، ومحاربة الجاهلية والمادية ، وبال دعوة إلى الله وإلى دار السلام ، واحياء ما درس من الخصائص الاسلامية وبث الروح الايمانية في هذه الأمة ، ولكل من أوجد الثقة بالدين ومصادره وتعبيراته ، ورد هجمات الفلسفة الأجنبية ، ولكل من دافع عن الفكرة الاصلية وعصم هذه الأمة من فتنة هددت الاسلام ، ولكل من حفظ على هذه الأمة دينها ومصادره ، وقام بتدوين جديد للحديث والفقه ، أو فتح باب الاجتهاد ومنح هذه الأمة ثروة واسعة من التشريع ، وقانوننا منظما للحياة والمجتمع ، ولكل من حاسب المجتمع في عصره ، وأنكر انحرافه عن مثل الاسلام ونظمه ودعاه إلى الاسلام الصحيح ، ولمن سلك

سبيل الاقناع العلمى فى العصر الذى كثرت فيه الشكوك واضطربت العقائد ، ووضع لعصره كلاما جديدا ، ولكل من خلف الانبياء فى الدعوة والتذكير ، والانذار والتبشير ، وحرك الايمان فى النفوس ، وقام فى وجه المادية الجارفة فى عصره ، فحد من تأثيرها وأنقذ خلقا كثيرا من الاندفاع والغرق فيه ، ولكل من حفظ هذه الأمة وقوتها السياسية من الانهيار ، ومن أن تكون فريسة للغارات الأجنبية ، ولمن أخضع بدعوته الحكيمة الرقيقة عدوا لم تعمل فيه السيوف ، ولم تقاومه الجنود ، وحطم العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، فسخره أصحاب الدعوة بقوتهم الروحية وإيمانهم القوى للاسلام ، وجعلوه من اتباع محمد عليه السلام ، ولمن أخضع بأدبه القوى وشعره البليغ عقولا لم تخضعها المباحث العلمية والفلسفات الدينية إلى غير ذلك ، ولكل فضل ، وما التاريخ الا تادية الامانات إلى أهلها ، والحكم بالعدل والاعتراف بالفضل ، وقد قام كل واحد منهم بدوره وساهم بقسطه ، القسط المطلوب منه ، وكل كان مرابطا على ثغر من ثغور الاسلام ، وكل كن سهما مصيبا فى كنانة الاسلام ولولا هذه الجهود المخلصة ، ولولا هذا الاقساط التى قد لا ترى الا بمكبرة التاريخ ، لما وصلت الينا هذه المجموعة التى نعزبها ونستند اليها ، ونقتبس منها النور سليمة موفورة نتباهى بها على الامم والديانات .

وعلى هذا المنهاج الذى أعتقد أنه المنهاج العادل الواسع ، سأحدث عن هذه الشخصيات الاصلاحية ، وعن عصورها والظروف والملابسات التى تكتنفها ، ومقدار نجاحها وانتاجها فى حقل الدعوة والاصلاح والتجديد ، وبإيد الله التوفيق .

## جهود الإصلاح والتجديد فى القرن الأول

### سيدنا عمر بن عبد العزيز

#### النزعات الجاهلية فى العهد الأموى :

كانت نهاية الخلافة الراشدة واستحكام الدولة الاموية - التى كانت بالاختصار دولة عربية أكثر منها اسلامية - انتقالا جديدا فى تاريخ الاسلام ، وفرصة انتهزتها الجاهلية التى كانت لا تزال بالمرصاد ، فعاشت النزعات التى قضى عليها الاسلام و وعادت العصبية القبلية والنخوة الجاهلية التى نعاها النبي ﷺ فى خطبته بقوله : « ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالأبء كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فخر لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى » التى نفاها الإسلام من مراكزه وحواضره ، فلجأت إلى بادية العرب ، عادت هذه العصبية إلى نشاطها ونفوذها ، وأصبحت هذه العصبية الذميمة والنخوة الاثيمة ، والاثرة القبلية والطائفية والنسبية التى هى أشد خطرا على المصلحة الاجتماعية ، وأشد معارضة للروح الاسلامية من الأثرة الفردية ، فضيلة فى هذه الحياة ومفخرة من مفاخر الانسان ، بعدما كانت رذيلة من رذائل الجاهلية وسبة على الرجل المؤمن وحدث انقلاب خطير فى دوافع العمل - التى هى من أقوى العوامل فى الحياة الفردية والاجتماعية - فأصبح الرجل فى هذا العهد مدفوعا إلى العمل ، مدفوعا إلى المكرمات والبطولات وإلى الجود والمواساة بدافع من السمعة والرياء ، والظهور فى القبائل والمجامع ، والتفوق على الاقران ، بعد ما كان مدفوعا إلى ذلك بدافع من الاجر وثواب الآخرة ورضا من الله ، وقصة يرويها أبو الفرج الاصبهاني فى الاغانى تمثل هذا التطور الخطير وهذه الروح الجاهلية التى كانت تخامر رؤساء القبائل وأشرف العرب فى ذلك العهد خير تمثيل ، قال :

« حدث ابن عياش قال : كان حوشب بن يزيد بن الحارث بن رؤيم الشيباني وعكرمة بن ربيع يتنازعان الشرف ، ويتباريان فى اطعام الطعام ونحر الجزر فى عسكر مصعب ، وكان حوشب يغلب عكرمة لسعة يده ، وقال : وقدم عبد العزيز بن يسار مولى بحتر الفقيه بسفائن دقيق ، فأتاه عكرمة فقال له : الله الله فى ، قد كاد حوشب أن يستعلىنى ويغلبنى ، فبغنى هذا الدقيق بتأخير ، ولك فيه مثل ثمنه ربحا ، فقال : خذه ، وأعطاه اياه ، فدفعه إلى قومه وفرقه بينهم وأمرهم بعجنه كله ، فعجنوه كله ثم جاء بالعجين كله ،

فجمعه بهوة عظيمة وأمر به فغطى بالحشيش ، وجاء برمكة <sup>(١)</sup> فقربوها إلى فرس حوشب ، حتى طلبها وأفلت ثم ركضوها بين يديه وهو يتبعها ، حتى القوها في ذلك العجين وتبعها الفرس حتى تورطا في العجين وبقيا فيه جميعا ، وخرج قوم عكرمة يصيحون في المعسكر يا معشر المسلمين أدركوا فرس حوشب فقد غرق في خمير عكرمة ، فخرج الناس تعجبا من ذلك أن تكون خميرة يغرق فيها فرس ، فلم يبق في المعسكر أحد الا ركب ينظر ، وجاءوا إلى الفرس وهو غريق في العجين ما يبين منه الا رأسه وعنقه ، فما أخرج الا بالعمد والحبال وغلب عليه عكرمة وافتضح حوشب <sup>(٢)</sup> .

وهذه وإن كانت قصة فردية ، ولم يكن كل رئيس للقبيلة وكل شريف في المجتمع الاموى ، يحمل روح عكرمة ويضع هذه التمثيلية الغريبة لاشتهار جوده وتفوقه في اطعام الناس ، وكان في هذا المجتمع أجواد مخلصون ، يحرصون على اخفاء مكرماتهم ولكنها لا شك تصور الغاية التي وصل اليها تأثير الجاهلية ونفوذها ، والتفكير الجاهلى في المجتمع الاموى الاسلامى ، والذي يقارن بين هذه القصة الطريفة وبين ضيافة أبى طلحة الانصارى - رضى الله عنه - واطفائه للمصباح حتى لا يفظن الضيوف بقلة الطعام ، وامتناع المضيف عن الاكل <sup>(٣)</sup> يستطيع أن يقيس المسافة النفسية والهوة الواسعة التي وقعت بين العهدين ويعرف التطور الذى حدث في المشاعر والتفكير .

وقد أصبح بيت المال الذى كان ملكا للأمة ، ملكا لفرد واحد خاضعا لشهواته وتصرفاته ، وكان المبدأ الاسلامى المسيطر على هذه الاموال هو ما ذكره الرسول ﷺ في كلمته الجامعة « تؤخذ من اغنيائهم وترد على فقرائهم » <sup>(٤)</sup> . فأصبح المبدأ المسيطر في هذا العهد « تؤخذ من فقرائهم وترد على اغنيائهم وامرائهم وشعرائهم » وأحاطت بالخليفة هالة من الشعراء المحترفين والندماء المتزلفين المتملقين ، تنفق عليهم أموال الصدقات بسخاء ، وبينما كان على - الخليفة الراشد - يعاتب أحد عماله على أنه حضر دعوة لقوم « عائلهم مجفو وغنيهم مدعو » <sup>(٥)</sup> ، أصبحت دعوة الاغنياء واکرامهم وطرده الفقراء واهانتهم عادة

(١) البرمكة : الفرس تتخذ للنسل .

(٢) الاغانى .

(٣) والقصة بطولها في كتب الحديث والسيرة ، راجع تفسير قوله تعالى ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو

كان بهم خصاصة ﴾ في تفسير ابن جرير الطبرى وابن كثير .

(٤) حديث شريف ورد في كتب السنة المعتمدة .

(٥) نهج البلاغة .

فاشية وسنة متبعة ، وبينما كان الفاسق يقصى ويجفى ، أصبح يكرم ويدنى لشعره أو غنائه في السياسة أو مصالح الدولة فقد حدث المؤرخون ، أن الاخطل كان يدخل على عبد الملك بغير اذن ، وعليه جبة خز ، وفي عنقه صليب ذهب ، ولحيته تنفض خمر<sup>(١)</sup> ومنزلة الحجاج بن يوسف - على سفكه الدماء وجرأته على الله - عند الامويين معلومة ، وقد شاع الغناء في العهد الاموي شيوعا عظيما وعظم الشغف به في حواضر الدولة الاسلامية حتى يزور مغن مثل « حنين » المدينة ويجتمع الناس في منزل من منازل البلد ، ويزدحمون على السطح ويكثرون ليسمعوه فيسقط الرواق على من تحته ويموت المغنى تحت الهدم<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك من الظواهر التي تدل على تطور المجتمع الاسلامي ونزعاته الجديدة ، وقد أثرت سياسة الدولة وحياة رجال الحكم المترفة ، تأثيرها الطبيعي في ميول الناس ومقاييسهم للسعادة والشرف ، ونشأت في المسلمين طبقة مترفة تشبه المترفين في الأمم القديمة في أخلاقها وسلوكها ورغباتها ، ولا تمتاز عنهم الا ببعض العقائد والعبادات وبالبقية الباقية من الاسلام ، وهي بقية لها قيمة لا تنكر ، وقد دل كل شئ في هذا المجتمع على أنه تدلى تدليا عظيما ، وعلى أن الجاهلية - الثائرة الموتورة - قد نهضت تتصف من منافسها - الاسلام - وهي حريصة كل الحرص على أن لا تفوتها الفرصة ، وتريد أن تستوفى أربعين سنة - مضت في ازدهار الاسلام روحيا وخلقيا - في بضع سنين .

### اعلام الدين وشخصياته البارزة وتأثيرها :

ولكن يجب أن لا ننسى أن الدين كان لا يزال له السلطان الروحي والمكانة الاولى في قلوب الناس حتى في هذا العصر ، وكان الجمهور من الناس لا يقرون هذه المنكرات وهذا الاسفاف ، وكانوا لا يزالون ينظرون إلى الخلفاء والامراء وحاشيتهم ومن سار سيرتهم ، بنظرة فيها الانتقاد وفيها الازدراء وفيها السخط ، وكان الشعب لم يسغ بعد هذا التطور ، وكان لا يزال - باستثناء المتصلين بالخلفاء اتصالا وثيقا باستثناء من تغيرت نفسيته - ينظر باجلال إلى العلماء ، وإلى أصحاب الدين والاستقامة والخلق ، ومن آنس فيهم الزهد في حطام الدنيا والابتعاد عن أصحاب الحكم والسلطان ، وعفا وقناعة وترفعوا عن المطامع والمناصب ، واشتغالا بالدعوة إلى الله ونشر العلم والنصح لله ولرسوله ولعامة المسلمين ، وكانوا أعز وأكرم عنده من كثير من أصحاب الجاه والنفوذ والثروة ، وحتى من الخلفاء

(١) الاغانى ، ص ١٧٨ ج ٧ .

(٢) أنظر الاغانى ، ج ٢ ص ١٧ .

والامراء فى بعض الاحيان ، ويمكن أن يقال : أن نفوذ الخلفاء والامراء كان محصورا فى دائرة خاصة ، هى الدائرة السياسية ودائرة الطبقة التى تسمى فى هذا العصر « الطبقة الارستقراطية » أما خارج هذه الدائرة وفى ما عدا هذا الوسط ، فكان يسود فيه أهل الصلاح والعلم وأهل الزهد والتقوى ، والصالحون والعلماء من أبناء الصحابة ، والسادة من أهل البيت النبوى ، فإذا اجتمع من يمثل هذه الطبقة الصالحة من سادات التابعين وأهل العلم والدين ، ومن يمثل الحكومة والامارة والجاه والسلطان ، غلب سلطان الدين والسلطان الروحى على سلطان السياسة والحكم .

يمثل ذلك أجمل تمثيل ما وقع لهشام بن عبد الملك يوم كان ولى العهد ، مع سيدنا على بن الحسين المعروف بزین العابدين ، فقد روى المؤرخون « ان هشام بن عبد الملك حج فى أيام أبيه وطاف وجهد أن يصل إلى الحجر ليستلمه ، فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس ، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام ، فبينما هو كذلك إذا أقبل زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وكان من أحسن الناس وجها ، وأطيبهم أرجا ، فطاف بالبيت فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم ، فقال رجل من أهل الشام ، من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيئة؟ فقال هشام : لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام فيملكوه ، وكان الفرزدق حاضرا فقال : أنا أعرفه ، فقال الشامى : من هو يا أبا فراس ؟ فقال قصيدته السائرة التى مطلعها <sup>(١)</sup> :

### هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

وهذه القصة وإن كانت بسيطة فى الظاهر ، تدل على ما كان يتمتع به أهل الفضل والدين ورجال السيرة النبوية وسادات التابعين ، من النفوذ والاجلال ، وقد كان لسيدنا حسن المثنى بن حسن بن على بن أبى طالب وابنه عبد الله المحض ، وسالم بن عبد الله بن عمر وقاسم بن محمد بن أبى بكر رضى الله عنه وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، مكانة مرموقة ومنزلة عالية فى قلوب الناس ، وتأثير كبير لما يقولونه <sup>(٢)</sup> وكان لهذه المكانة ولهذا النفوذ الروحى ولهذا الاجلال والحب العميق الذى يدين به الشعب لهم سلطان يحفظ على الشعب جلال الدين ومهابته ، ويمنعه من الاندفاع المتهور إلى الترف الفاحش

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان الجزء الخامس ص ١٤٥ ، طبع مكتبة النهضة المصرية .

(٢) انظر تراجمهم فى وفيات الاعيان وصفة الصفوة .

والحياة الجاهلية السافرة ، والجهر بالمعاصي والمنكرات ، ويمنع من إن يكون الخليفة المستهتر أو الامير السكير أو الغنى المعربد أو الشاعر الماجن « المثل الكامل » للمجتمع ، ويحدث وجود هؤلاء الاعلام صراعا نفسيا على الاقل ، ويحدث - إذا فرطت من أحد معصية أو زل زلة أو اتصل بالخلفاء والامراء - تأنيا داخليا ووخزا للضمير وتألما نفسيا ، وهذا الصراع وهذا التأنيب لهما قيمة لا يستهان بها ، ولهما تأثير لا يقلل من أهميته ويمكن أن يعرف غناؤهما في مجتمع لا يملك الا طرازا واحدا من البشر ، وهو الطراز الرسمي أو المادى ، وفقد العنصر الذى يختلف عنه كل الاختلاف ، واكتسحت موجة المادية هذا المجتمع - كما نرى فى أوروبا - فلا صراع ولا تأنيب ولا جزيرة فى هذا البحر المادى المائج ، ولا منار للنور فى هذه الظلمات ، ولا أسوة يأتسى بها الانسان ، وللأسوة والمثال العملى ، سحر فى النفوس لا يجهله علماء النفس والاخلاق .

### الحاجة إلى تغيير الحكومة ، والصعوبات فى سبيله :

وظلت الحكومة - الاموية - تؤثر فى الميول والنزعات وفى مقاييس الحياة ، وتفعل فعلها الطبيعى فى المجتمع والحضارة ، والاخلاق والاجتماع ، وظلت الشخصيات الدينية تفقد نفوذها على مر الايام وينتقص عددها ، وتضيق دائرة نفوذها ، فلا مطمع اذا فى ثورة دينية وخلقية وتحسن كبير فى أحوال المسلمين وأوضاعهم ، الا بحدوث انقلاب صالح فى الحكومة ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ وقد قامت الحكومة الاموية على أسس عسكرية متينة لا تتزعزع ولا تضطرب ، وكانت جديدة فتية لا تزال بعيدة عن الضعف والهرم ، ولم تكن فى داخل المملكة وخارجها قوة حربية تهزمها فى الميدان ، وقد أخفقت المحاولات والجهود التى قام بها المخلصون والاكفاء ، مثل الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وعبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، لقلبها والتخلص منها واقامة حكومة اسلامية راشدة من جديد ، وقد قطع نظام الوراثة الذى سار عليه الامويون ومبدأ الحكومة الشخصية التى كانت الحكومة تدين به ، كل أمل فى الاصلاح والتغيير ، وأصبح الجالسون على عرش الحكومة والمتملكون لزماتها ، سلسلة من حلقات متشابهة أخذ بعضها برقاب بعض ، فكان كل شئ يدل على أن الحكومة ستستمر على هذه الحال ، وان المسلمين قد كتب لهم أن يعيشوا فى مثل هذه الأوضاع ، وكان الاسلام فى عودته إلى مركزه فى الحياة يحتاج إلى « معجزة » فقد عجزت الامور العادية والحوادث العادية عن اعادته إلى مكانه ، وعن اصلاح الاوضاع الفاسدة ، وعن قلب التيار القوى الجارف ، وإنما كان يحتاج إلى حادثة خارقة للعادة تقع خلف القياس ، وتقع على غفلة من الناس ، وعلى غير ترقب

منهم ، فتغير مجرى الامور ، وتبهر العقول والعيون .

## استخلاف عمر بن عبد العزيز :

كان عمر بن عبد العزيز هذه « المعجزة » الباهرة ، وكان كل شئ في حياته يدل على أنه معجزة من المعجزات التي خباها الله لنصرة الاسلام ، يولد في البيت الحاكم ، وينشأ نشأة الامراء المترفين ، ويشتهر بالظرف والترف والاناقة في اللباس والمظهر ، ويكون شامة بين الناس ، وفتى بنى أمية الذي يحرص على تقليده الظرفاء والمتنعمون ، يتحدث عنه الليث بن سعد فيقول : « كان عمر بن عبد العزيز أعظم أموى ترفها وتملكا » غدى بالملك ونشأ فيه ، لا يعرف الا وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته في المكان الذي يمر فيه ، ويمشى مشية تسمى العمرية ، فكان الجوارى يتعلمنها من حسننها وتبختره فيها ، وكان يسبل ازاره حتى ربما دخلت نعله فيها فيتحامل عليه فيشقه ولا يخلعها ويسقط أحد شقى ردائه عن منكبه فلا يرفعه ، وتنقطع نعله فلا يعرج عليها وربما لحقه بها المملوك فيعتقه ، ويضع بخاتمه فتسخ الطينة من العنبر<sup>(١)</sup> وكان أمير المدينة في عهد ابن عمه وليد ، وكان أثيرا في عهد ابن عمه سليمان ، وكان لا يمتاز على بنى أعمامه واخوته واترايه الا بسلامة الفطرة والاعتراف بالحق والتواضع والعفاف « فلم يغمص في ولايته على ترفهه - في بطن ولا فرج ولا حكم » وكان لا يمتاز عنهم الا بدم زكى فيه نصيب للفاروق العادل ، جاءه عن طريق أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وجدته - لأمه - صاحبة القصة المعروفة في اللبن<sup>(٢)</sup> ولم تكن سيرته ومواهبه مع ذلك تدل على أنه سيقوم في تاريخ الاسلام بهذه المأثرة العظمية التي عز نظيرها في تاريخ الحكم والاصلاح ، وأنه سيكون ذلك العصامي الذي كان يرتقبه الاسلام ويحتاج اليه المسلمون في هذه الساعة الدقيقة وأنه سيعيد الخلافة الراشدة من جديد ويرد التاريخ على أعقابه .

وكان استخلافه لا يقل عن معجزة<sup>(٣)</sup> ، فلو جرت الامور مجراها الطبيعي لم يكن له نصيب في غير الامارة وولاية بعض الاقطاع ، ومن أين تقفز اليه الخلافة وتتخطى أولاد سليمان وهو صاحب الامر ، ولكن لله في خلقه شؤوننا ، فقد كان لسليمان بن عبد الملك ابن يقال له أيوب بن سليمان ، عقدت له خلافة ولاية العهد من بعده ، وتوفى أيوب قبل

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن الحكم ص ٢١ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن الحكم ص ٢٠ .

(٣) اقرأ القصة في ص ١٧ و ١٨ من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .



سليمان ، ولم يبق لسليمان الا ولد صغير ، فلما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف ، فحضره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة ، فقال لرجاء : اعرض على ولدى فى القميص والاردية ، فعرضهم عليه فاذا هم صغار لا يحتملون ما لبسوا من القمص والاردية يسحبونها سحباً ، ثم قال يا رجاء : اعرض على بنى فى السيوف ، فقلدوهم السيوف ، ثم عرضهم عليه فاذا هم صغار لا يحملونها يجرونها جراً . فلما لم ير فى ولده ما يريد حدث نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز لما كان يعرف من حاله ، فشاور رجاء فيمن يعقد له ، فأشار اليه رجاء بعمر وسدد له رأيه ، فوافق ذلك سليمان وقال : لأعقدن عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب<sup>(١)</sup> وهكذا جاءت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وهو غافل عنها زاهد فيها ، وكان لرجاء مآثرة لا ينساها الاسلام ، ولا أعرف رجلاً من ندماء الملوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه ، وانتهاز الفرصة مثل انتهازه ، وأسدى للاسلام خدمة مثله .

### حياته بعد الخلافة :

كان من أول ما بدأ به عمر فى خلافته هو عزله لبعض الولاة الجائرين ، ورفضه لمظاهر الابهة والفخفة التى جرى عليها الخلفاء الامويون عند استخلافهم ، ورد كل ما عرض عليه فى ذلك الوقت من مراكب وسراقات جديدة إلى بيت المال وتغيرت سيرته فى تلك الساعة ، فكأنه لا يتصل بأبائه بصلة ، ولا يعرف غير عمر اسوة له . رد الجوارى إلى أهلهم وبلادهم ، ورد المظالم ، ورد المجالس التى أشبهت مجالس الباطرة وتمسكت بسنن كسرى وقيصر إلى بساطتها الاولى ووضعها الاسلامى ، فنهى عن القيام له ، وابتدأ بالسلام ، وأباح دخول المسلمين عليه بغير اذن ، وخرج من ماله وعقاره ، ورده إلى مال المسلمين . ووضع حلى زوجته فى بيت المال ، وبلغ من الزهد والشظف فى الحياة والتشظف فى المعيشة مبلغاً يعجز عنه الزهاد فضلا عن الملوك والامراء ، فقد كان يتأخر فى بعض الاحيان عن الخروج لصلاة الجمعة انتظارا لقميصه أن يجف ، وقد يكون طعام بناته عدسا وبصلاً فيبكى ويقول : يا بناتى ما ينفعكن أن تعشين الألوان ويمر بأبيكن إلى النار ؟ ويشتهى الحج فيقول لمولاه : انى قد اشتهيت الحج فهل عندك شئ ؟ قال بضعة عشر دينارا! قال : وما تقع منى ؟ ويمكث قليلاً فيقول له مولاه : يا أمير المؤمنين : تجهز فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بنى مروان ، فيقول : اجعلها فى بيت

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : ص ٢٩ - ٣٠ .

المال، فان تكن حلالا فقد أخذنا منها ما يكفينا ؛ وإن تكن حراما فكفانا ما أصبنا منها . وكانت نفقته اليومية لا تزيد على درهمين ، حين كان يفرض للعمال ثلاث مائة دينار لكل واحد ليغنيهم عن الخيانة وكان يتورع عن تسخين الماء على مطبخ العامة ، ويتورع عن شم مسك الفرى ، وكان يطفى الشمعة التي زيتها من بيت المال إذا شغله أحد بالسؤال عن شخصه ، كراهة لانفاق المسلمين في غير حاجاتهم .

ولم يكن تورعه ووضنه على مال المسلمين نزعة غريبة في الزهد ، نقرأ أمثلتها في كتب التاريخ والتراجم ، في مثل حلية الاولياء لأبي نعيم ، ولم يكن فيه شئ من انغلو والاراف أو الزهد الاعجمي ، فقد كان بعيدا عن كل ذلك ، إنما هي الطبيعة الدينية ونتيجة الايمان القوى ، والشعور بالمسؤولية ، ومعرفة قيمة الحياة واستحضار الآخرة ، ونتيجة « الحب » الذي إذا ملك القلب واستولى على الشعور ذابت الرغبات وتغيرت القيم والاقدار ولولا هذه المؤاخذة الشديدة للنفس ، ولولا هذا الحذر الشديد من ملاذ الحياة ولتمتع بالمباحات ، لما استطاع مثل عمر بن عبد العزيز - وهو أكبر ملوك الأرض في عصره - وهو في دمشق - عاصمة العالم المتمدن يومئذ - أن يحفظ نفسه من الاندفاع إلى الترف ، ويضرب مثلا عاليا لامرائه وعمال مملكته في الورع والزهادة والتحرز من الشبهات ، وما استطاع أن يخفف غلواء المدينة المترفة ويحد من شدتها وشرتها .

ولم يكن تورعه مقتصرًا على ذاته - كما يفعله كثير من الزهاد - بل كانت سياسة عامة كان يريد أن يطبقها تطبيقًا دقيقًا على الدولة ورجالها - فكان يطلب منهم ويعزم عليهم أن يكونوا متورعين في أموال المسلمين ، لا ينفقون منها الا القدر اللازم وأن يكونوا أشحًا على أنفسهم أسخياء على المسلمين - بخلاف ما تجرى عليه الحكومات هذا اليوم - وكان حريصًا على أن يوفر على المسلمين أموالهم ، ويعتقد أن الدرهم دم فلا يجوز أن يجرى في غير عروقهم ، ولا يرى أن يضيع في « الكماليات » و « الشكليات » ، كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، - وكان والي المدينة « أما بعد ، فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر فيه انه كان يقطع لمن كان قبلك من أمراء المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئون به في مخرجهم ، فابتليت بجوابك فيه ، ولعمري لقد عاهدتك يا ابن حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح ، ولعمري أنت يومئذ خير منك اليوم . ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك والسلام » <sup>(١)</sup> . وكتب إليه أيضا وقد طلب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ٦٣ - ٦٤ .

من الخليفة قراطيس يكتب عليها فى مصالح ولايته « أما بعد فقد قرأت كتابك إلى «سليمان تذكر أنه قد كان يجرى على من كان قبلك من امراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا ، فابتليت بجوابك فيه . فاذا جاءك كتابى هذا فارق القلم واجمع الخط واجمع الحوائج الكثيرة فى الصحيفة الواحدة فانه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول اضرب بيت مالهم والسلام عليك » (١) .

وهذا شأن من يعتبر المسلمين طفلا عزيزا فى حضنته ، ويعتبر مالهم أمانة عنده لا ينفق منه الا عن ثقة ويقين ، وهذا مثل الحكم العاقل العامل الدقيق ، الذى سماه التاريخ وسماه المسلمون بحق « بالخلافة الراشدة » .

### اصلاحاته الواسعة فى نظام الحكم :

ان عظمة عمر بن عبد العزيز وعبقريته ليست محصورة فى ورعه وزهادته - وهو عظيم فى ذلك حقا ، ويستحق أن يسمى عبقريا إذا عرفنا ما كان يحف الملوك من الاغراءات وفرص المتعة . وما كان يملكه من الحرية المطلقة - وليست عظمته محصورة فى ما كان يؤاخذ به عماله وأمرائه من التورع . ان أعظم ما يمتاز به هو انه نظر إلى الحكومة نظرة لم ينظرها الا الرسول وخلفاؤه الراشدون ، فقد كانت الحكومة فى عهده مقصورة على جباية الاموال وانفاقها فى مصالح الدولة ، لا صلة لها بأخلاق الجمهور وعقائده وأخلاق الناس ، ولا شأن لها بالضلالة والهداية وكان الذين يخلفون الرسول الذى أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا وهدى بأذنه وسراجا منيرا ، كان الذين يخلفون هذا الرسول ، عصابة من جباة الاموال يقيسون كل قضية فى هذه الدولة - التى كانوا يسمونها الخلافة - بالمقياس المالى ، ولا ينظرون إلى شىء الا بالناحية المالية .

ظهر عمر بن عبد العزيز فى هذه الاسرة الحاكمة ، فثار على هذه النظرة وعلى هذه النفسية . وقال عن الحكومة كلمته الماثورة التى سجلها التاريخ ، ولا أعرف كلمة فى التاريخ تبين روح الخلافة الراشدة وما تمتاز به عن الحكومات الزمنية أبلغ من هذه الكلمة ، لقد شكوا اليه بعض العمال أن أهل الذمة بدأوا يقبلون على الاسلام فى عدد كبير وقد فشا فيهم الاسلام ، وأصبحت هذه قضية تشغل عقول « الاداريين » ذلك لأن الجزية التى يفرضها الاسلام على أهل الذمة - ولو كان بمقدار فيف ، يتضاءل بجانب ما يتمتعون به من حقوق . وما يعفون عنه من خدمات - من أعظم موارد بيت المال ، فاذا أسلم هؤلاء

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ٦٤ .

سقت عنهم الجزية ونحسرت مالية الدولة الاسلامية خسارة باهظة ، بلغت هذه الشكوى عاهل الدولة الاسلامية ، فأجاب عنها فى هدوء وثقة وكتب اليه « ان الله جل ثناؤه بعث محمدا ﷺ داعيا إلى الاسلام ولم يبعثه جابيا » (١) .

وعلى هذا الاساس وعلى هذه النظرة ، قامت دولته ، وهو أساس « الهداية » التى بعث لها النبى ﷺ ، وبهذه النظرة كان ينظر إلى قضايا الحكومة ومصالحها وهى نظرة « المرشد » ونظرة « الداعى » ونظرة خليفة رسول الرسول الهادى ، وذلك مفتاح شخصية عمر بن عبد العزيز الذى نستطيع أن ندخل به إلى رحاب هذه الشخصية الفذة فى الاسلام ، الفذة فى الأمم .

وقد طبق هذا المبدأ على حكومته الواسعة تطبيقا دقيقا ، فاذا تعارضت المصلحة المالية مع مصلحة من مصالح الشريعة ، رجح المصلحة الشرعية والحكم الشرعى على المصلحة المالية ولم يتردد ، يدل دلالة واضحة على ذلك ، وعلى ايمانه بهذا المبدأ ، كتابه الذى كتبه إلى عامله على اليمن عروة بن محمد يقول فيه : « أما بعد فانك كتبت إلى تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ، ثابتة فى أعناقهم كالجزية . يؤدونها على كل حال ، ان اخصبوا أو أجدبوا ، وحيوا أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين ، إذا أتاك كتابى هذا ، فدع ما تنكر من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ، ثم ائتف الحق فاعمل به بالغابى وبك ، وأن أحاط بمهج أنفسنا وان لم ترفع إلى من جميع اليمن الا حفنة من كتم ، فقد علم الله انى بها مسرور اذا كانت موافقة للحق والسلام » (٢) .

وكذلك رفع المكس - وهو مورد عظيم من موارد الحكومة - قال رحمه الله « وأما المكس فانه البخس الذى نهى الله عنه فقال ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين ﴾ غير انهم كنوه بأسم آخر » (٣) .

وحط العشور والضرائب التى فرضتها الحكومة ، وقال : « فأما المسلمون فإنما عليهم صدقات أموالهم ، إذا أدوها فى بيت المال كتبت لهم بها البراءة ، فليس عليهم فى عامهم

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٥ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٦ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٩ .

ذلك في أموالهم تباعه « (١) .

وفتح طريق البر والبحر للتجارة الحرة ، ومنع الضرائب والمكوس « أما البحر فإننا نرى سبيله سبيل البر قال : ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾ فأذن فيه أن يتجر فيه من شاء ، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه ، فإن البر والبحر لله جميعا سخرهما لعباده ، يتتغون فيها من فضله ، فكيف نحول بين عباد الله وبين معاشهم « (٢) .

وقد أحدث في مملكته الواسعة اصلاحات واسعة الاثر ، فأمر بأن يكون تمام مكيال الأرض وميزانها واحدا في جميع الأرض كلها (٣) وحرّم على العمال وموظفي الدولة أن يتجروا ، فكتب « ونرى أن لا يتجر امام ، ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه ، فان الامير متى يتجر ليستأثر ويصيب أمورا فيها عنت وان حرص على الا يفعل « (٤) وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة ، ما يصدق فراسة عمر بن عبد العزيز الصادقة ، وحكمته البالغة ، قال : « ان التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا مفسدة للجباية « (٥) والبلاد التي يحكمها الاوربيون - وهم تجار قبل كل شيء - شاهدة بصدق هذه النظرة .

وحرّم السخرة بأنواعها - وهي التي درجت عليها الحكومات . وكان من آثارها الاهرام في مصر ومباني رومة العظيمة - فقال « ونرى أن توضع السخر عن أهل الأرض ، فان غايتها أمور يدخل فيها الظلم « (٦) .

وكان الامراء ورجال الأسرة الحاكمة قد استحوذوا على قطع واسعة من الارض واتخذوها حمى ، وحرّم منها الشعب ، فقال : « ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة . . . وإنما الامام فيها كرجل من المسلمين ، إنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء « (٧) .

---

(١) أيضا ص ٩٨ .

(٢) ص ٩٩ .

(٣) ص ٩٩ .

(٤) ص ٩٩ .

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٧ .

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٠٠ .

(٧) ص ٩٧ .

وفظن لأمر دقيقة لا تسترعى اهتمام الخليفة ، وعرف منافذ السوء والخيانة فسدها ،  
منها الهدايا التي كانت تهدي إلى العمال ، وكانوا يقبلونها لأن قبول الهدايا سنة ، وقد  
عرف عمر بن عبد العزيز تغير الأوضاع وتغير البيئات ، فحرمها وقال في هدية أهديت  
إليه ، وقال القائل قد كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية « هو لرسول الله ﷺ هدية وهو لنا  
رشوة ولا حاجة لي به » (١) .

وقد أصبح الخليفة محجوبا عن الناس لا سبيل لهم إليه ولا سبيل له إلى معرفة أحوالهم  
وما يجرى في مملكته ، وقد بنى الحاشية حوله سياجا من حديد لا ينفذ منه إليه إلا ما  
يشتهون وما تسمح به مصالحهم ، أما عمر بن عبد العزيز ، فقد أعلن بالجوائز والمكافأة  
المالية لمن يخبره بحقيقة الحال ، أو يشير عليه بشئ فيه مصلحة للمسلمين ومصلحة  
لدولتهم ، وكتب إلى أهل المرسم :

« أما بعد ، فأيا رجل قدم إلينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصا أو عاما من  
أمر الدين ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار ، بقدر ما يرى الحسبة وبعد سفر ،  
لعل الله يحيي به حقا أو يميت باطلا أو يفتح به من ورائه خيرا » (٢) .

### عنايته بأخلاق الجمهور وأعماله :

لقد كان الخليفة إلى عهد عمر بن عبد العزيز كما قدمنا رأس دولة ، هي منظمة لجباية  
الأموال وحراسة النفوس والأرواح لا غير ، لا شأن له بما يعمله الناس في بيوتهم وما  
يتخلقون به من أخلاق - ما دامت هذه الأعمال والأخلاق لا تتدخل في شؤون الدولة -  
ولا شأن له بنزعاتهم وأفكارهم وعقائدهم وبسعادتهم الآخروية وبرقيهم الروحي والخلقي ،  
ولكن عمر بن عبد العزيز أول من عنى بهذه الناحية ، التي هي من مقاصد البعثة ،  
وواجبات الخلافة - بعد الفترة الطويلة التي جاءت بعد الخلافة الراشدة - وقد انقسمت  
الواجبات من مدة طويلة بين طائفتين ، فاستقلت الخلافة بالأعمال الإدارية والمالية ، وانفرد  
العلماء بالحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة والارشاد ، مع أن الخلافة  
بطبيعتها تجمع بين الناحيتين ، ولذلك سميت « الخلافة الراشدة » .

جاء عمر بن عبد العزيز فحارب هذه « الثنوية » وهذا الانقسام ، وجمع بين الإدارة  
والارشاد ، والسياسة والدعوة ، وأثبت أنه خليفة حقا ، فلم يتقلد الخلافة حتى وجه

(١) ص ٦٣ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤١ .

إلى عمال حكومته وأمرء الاجناد رسائل طويلة تتجلى فيها روح الدعوة والارشاد ، وهى تمثل نفسية الداعى والمرشد والعالم ، أكثر مما تمثل نفسية الحاكم والامير ، وقد كتبت فى اسلوب الدعوة إلى الله والتحذير على سخطه وعقابه وفى أسلوب الترغيب والترهيب .

ومن هذه الرسائل رسالة يصف فيها ما كان المسلمون عليه وما صاروا اليه ، ويبين سياسته لهم ، وفيها وصف مسهب وتصوير صادق للجاهلية ، وذكر للبعثة المحمدية ، وحث على قدر هذه النعمة العظمى والقيام بشكرها ، والتمسك بالدين الذى جاء<sup>(١)</sup> ، ورسائل إلى أمرء الأجناد يعزم عليهم فيها بالمحافظة على الصلوات فى وقتها والعناية بالمدرسة ونشر العلم<sup>(٢)</sup> ورسالة إلى عماله يحثهم فيها على اتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه<sup>(٣)</sup> ، ورسالة يحثهم فيها على دعوة أهل الذمة إلى الاسلام وأنه غاية بعثة الرسل وبعثة محمد ﷺ<sup>(٤)</sup> ، ورسالة يشدد فيها على العمال بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويذكر ما يحدث الاخلال بهذه الفريضة من نتائج وخيمة وعقوبات من السماء ، ويقول فيها « أنه قد بلغنى أنه كثر الفجور فيكم ، وأمن الفساق فى مدائنكم ، وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله من فعله ، ولا يرضى المداهنة عليه ، كان لا يظهر مثله فى علانيته قوم يرجون لله وقارا ويخافون منه غيرا ، وهم الأعززون الأكثرون من أهل الفجور ، وليس بذلك مضى أمر سلفكم ، ولا بذلك تمت نعمة الله عليهم الخ »<sup>(٥)</sup> .

ومنها رسالة يوصى فيها عماله بالاحتياط فى تنفيذ العقوبات ، ويشرح نظام التعزير الاسلامى<sup>(٦)</sup> .

وفى رسالة ينهى عن النياحة واتباع النساء والتقاليد الجاهلية التى فشت فى عهده ، ويأمر بالحجاب ويقول « وتقدم إلى صاحب شرطكم فلا يقرن نوحا فى دار ولا طريق ، فان الله قد أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الامرين فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم رحمة ،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٨ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٩ .

(٣) ص ٩٤ .

(٤) ص ٩٣ .

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٨ .

(٦) ص ٨٠ .

وأولئك هم المهتدون ﴿ (١) وقد توسع الناس في أمر النبيذ وتوصلوا منه إلى المسكرات ، ونشأت من ذلك شرور وآفات لم تزل تابعة للخمر ، وقد كتب في ذلك رسالة خاصة يقول فيها « ولعمري ان ما قرب للخمر في مطعم أو مشرب أو غير ذلك يتقى » ويشرح نكتة تدل على بعد نظره واطلاعه الواسع ، يقول : « وما يشرب أولئك شرابهم الا من تحت أيدي النصارى الذين يهون عليهم زيغ المسلمين في دينهم ودخولهم في ما لا يحل لهم ، مع الذى يجمع نفاق سلعهم ، ويسارة المؤونة عليهم » ثم يقول فى أسلوب المربى الحكيم : « ان الله قد جعل عن الخمر والمسكرات غنى فى المشروبات الجائزة السائغة ، فما يحمل المسلمين على هذا الاثم ؟ وما لاحد من المسلمين عذر ان يشرب ما أشبه ما لا خير من الشراب ؟ فان الله جعل عنه غنى وسعة ، من الماء الفرات ، ومن الاشربة التى ليس فى الانفس منها حاجة من العسل واللبن والسويق والنبيذ من الزبيب والتمر » (٢) .

وفى هذه الرسائل يتجلى عمر الخليفة الراشد بإيمانه وحماسه وحكمته ، وكأننا -ونحن نقرأ هذه الرسائل - نقرأ رسائل عمر بن الخطاب إلى عماله ، ونسمع الداعى الحكيم ، والادارى المربى ، والوالد العطوف ، ينصح أولاده فى رفق وقوة ، وفى صرامة وحكمة ، ويجمع بين الادارة والتذكير ، وبين الانذار والتبشير ، وذلك شأن الحكم الاسلامى الصحيح وتفسير قوله تعالى : ﴿ الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ .

### عنايته بالدعوة إلى الاسلام :

ولم يقتصر عمر بن عبد العزيز على اصلاح المسلمين وتطبيق الشريعة الاسلامية على المملكة الاسلامية ، بل عنى بالدعوة إلى الاسلام فى غير المسلمين ، وكان لها تأثير كبير لاخلاصه وصدقه وحسن تمثيله للاسلام بحياته وأخلاقه .

قال البلاذرى فى فتوح البلدان : « وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الاسلام والطاعة على أن يملكهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب » بلغتهم سيرته ومذهبه ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب » (٣) .

(١) ص ١٠٨ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٠٢ .

(٣) فتوح البلدان .



ولما ولي اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بنى مسخزوم ، بلاد المغرب ، سار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الاسلام ، وكتب اليهم عمر بن عبد العزيز كتابا يدعوهم إلى الاسلام ، فقرأه اسماعيل عليهم فى النوادى فغلب الاسلام على المغرب .

ولما استخلف كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام فأسلم بعضهم ورفع الخراج عن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم وابتنى خانات<sup>(١)</sup> .

### تدوين العلوم الاسلامية واحياء السنن النبوية :

ولم يقتصر تجديد عمر بن عبد العزيز على اصلاح نظام الحكم ، وتحويل السياسة المدنية إلى الخلافة النبوية ، بل تعداه إلى نواح كان لها أبعد الاثر وأعمقه فى حياة المسلمين ، ولا يزال المسلمون فى أنحاء العالم مدينين لها فى حياتهم الدينية ، فقد أقبل إلى تدوين العلوم الاسلامية التى هى من منابع الحياة فى المسلمين ، وقد تعرضت للضياع ، لانصراف الناس إلى السياسة والادارة والحروب ، وأول ما عنى به عمر بعد ما تقلد الخلافة ، هو علم الحديث ، وقد أراد الله أن يكون له فضيلة سبق فى هذا الميدان ، كما كان لجده العظيم -عمر بن الخطاب- فضيلة سبق لجمع القرآن ، فإنه هو الذى أشار على خليفة الرسول أبى بكر الصديق بجمعه .

وقد كتب إلى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم فى عصره ، أبى بكر بن محمد بن حزم « أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » ، وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجاميع عمرة ابنة عبد الرحمن الأنصارية ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر ، لأهميتهما ، ولم يكتف - رحمه الله - بأبى بكر بن حزم ، بل كتب إلى عماله بالاقاليم « أنظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه »<sup>(٢)</sup> .

ولم يكتف بالحث على ذلك ، بل سعى فى تيسير هذه المهمة فأجرى الرزق على العلماء ورتب لهم رواتب ليتوفروا على نشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب ، قال محمد بن الحكم : « وبعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبى مالك الحارث بن محمد إلى البادية أن يعلموا الناس السنة ، وأجرى عليهم الرزق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث ، وقال : « ما كنت لأخذ على علم علمنيه الله أجرا ، فذكر لذلك لعمر بن عبد العزيز فقال : ما نعلم

(١) الاسلام والحضارة العربية لكرد على ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) تاريخ أصبهان لأبى نعيم .

بما صنع يزيد بأسا وأكثر الله فينا مثل الحارث « (١) .

وكان عمر من العلماء الراسخين الربانيين ، ولولا الخلافة وتكاليفها لكان من العلماء المعدودين ، ومن الفقهاء المشهورين .

قال الذهبي في تذكرة الحفاظ : « كان يقرن بالزهري في علمه » (٢) ، وقال مجاهد : « أتيناہ لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه » (٣) ، وقد حدث عنه الزهري وأبو بكر بن حزم وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وله مسند مطبوع ، وكان حريصا على نشر العلم الصحيح والسنة النبوية ، الا أن الخلافة وأعباءها لم تمهله ، وقد كتب في أوائل خلافته إلى عدى بن عدى : « ان للايمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا ، فمن استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، فان أعثر فسأبينها لكم حتى تعلموا بها ، وان أمت فما أنا على صحبتكم بحريص » (٤) .

**نماذج من رسائله تدل على فكرته ونفسيته :**

ولا أدل على فكرته الاسلامية الاصلية وروحه الايمانية القوية من رسائله وكتبه التي وجهها إلى عماله وأمراء أجناده ، وهي رسائل لا يجد فيها المدقق مأخذا جاهليا وظلا من ظلال البيئة التي نشأ فيها ، يشعر فيها القارئ كأنه خلق في الخلافة خلقا جديدا ، وكأن الروح الاسلامية تتكلم على لسانه وتفيض من قلمه .

منها رسالته التي كتبها إلى عاملة الضحاك بن عبد الرحمن ، وقد بلغه أن بعض أهل البادية ومن تقلدوا الامارة حديثا يتحاربون إلى بعض القبائل العربية - شأنهم في الجاهلية - ويزعمون أنهم ولاية على من سواهم ، ولما كان في ذلك أحياء للنصرة الجاهلية والحمية الجاهلية ، وخروج على الوحدة الدينية والاخوة الاسلامية التي أبدلها الله بها العرب . شق ذلك على عمر بن عبد العزيز وأهمه ، ولو كان من سبقه من الخلفاء من أسرته تشاغل عنه أو استغله لمصالح دولته ، ولكن عمر لم يسعه السكوت عليه ، وكتب هذه الرسالة البليغة :

« أما بعد فان الله جعل الاسلام الذي رضى به لنفسه ومن كرم عليه من خلقه ، لا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٦٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ : ص ١٠٦ .

(٣) أيضا : ص ١٠٦ .

(٤) الجامع الصحيح لبخارى : كتاب الايمان ، باب قول النبي ﷺ : بنى الاسلام على خمس .

يقبل الله دينا غيره كرمه بما أنزل من كتابه الذي فرق بين الاسلام وبين ما سواه ، فقال : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ ، وقال : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل . وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا ﴾ . فبعث الله محمدا ﷺ حين بعثه ، وأنزل عليه الكتاب حين أنزله ، وأنتم معشر العرب فيما قد علمتم من الضلالة والجهالة والاجهد وضنك العيش وتفرق الدار ، والفتن بينكم عامة ، والناس لكم حاقدون متأثرون عليكم بلدين ، وليس من ضلالتهم من شيء الا وأنتم على مثله ؛ من عاشر منكم عاشر فيما ذكرت من الجهل والضلالة ، ومن مات منكم إلى النار ، حتى أخذ الله بنواصيكم عما كنتم فيه من عبادة الاوثان والتقاطع والتدابير وسوء ذات البين ، فأنكر منكركم ، وكذب مكذبكم ، ونبي الله عليه السلام يدعو إلى كتاب الله وإلى الاسلام ، ثم أسلم معه قليل مستضعفون في الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس فأواهم وأيدهم بنصره ، ورزقهم الله من أذن له بالاسلام والدنيا مقبوضة عنه ، والله منجز لرسوله موعوده الذي ليس له خلف ، فيره من يراء بعيدا الا قليلا من المؤمنين فقال : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾<sup>(١)</sup> . وقال في بعض ما يعده المسلمون انزل : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾<sup>(٢)</sup> . فأجز الله نبيه عليه السلام وأهل الاسلام موعودهم الذي وعدهم ، فلم يعطكم يا أهل الاسلام ما أعطاكم من ذلك الا بهذا الذي تفجرون<sup>(٣)</sup> به على خصمكم ، وبه تقومون شهداء يوم القيامة ، ليس لكم نجاة غيره ، ولا حجة ولا حرز ولا منعة في الدنيا والآخرة ، فإذا أعطاكم الله منه أحسن يوم وعدتموه فارجوا ثواب الله فيما بعد الموت فان الله قال : ﴿ تلك الدار الآخرة . نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾<sup>(٤)</sup> . واني أحذركم هذا القرآن وتباعته . فان تباعته وشروطه قد أصابكم منها أيتها الامة وقائع من هراقة دماء ، وخراب ديار وتفرق جماعات ، فانظروا ما زجركم الله عنه في كتابه فازدجروا عنه ، فان أحق ما

(١) سورة التوبة الآية ٣٤ والصف الآية ٩ .

(٢) سورة النور الآية ٥٥ .

(٣) في مخطوطة ب « تفلحون » ولعل ما هنا اصوب .

(٤) سورة القصص الآية ٨٣ .

خيف وعيد الله بقول أو بعمل أو غير ذلك ، فان كان بقول فى أمر الله فنعم له ، وان كان بقول فى غير ذلك فإنما يفضى إلى سبيل هلكة ، ثم ان ما هاجنى على كتابى هذا أمر ذكر لى عن رجال من أهل البادية ، ورجال أمروا حديثا ظاهر جفاؤهم ، قليل عملهم بأمر الله . اغتروا فيه بالله غرة عظيمة ونسوا فيه بلاءه نسيانا عظيما ، وغيروا فيه نعمه تغييرا لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه ، وذكر لى أن رجالا من أولئك يتحاربون إلى مضر وإلى اليمن ، يزعمون أنهم ولاية على سواهم وسبحان الله ويحمده ما أبعدهم من شكر نعمة الله ، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصفر ، قاتلهم الله اية منزلة نزلوا ، ومن أى أمان خرجوا ، أو بأى أمر لصقوا ، ولكن قد عرفت أن الشقى بنيته يشقى ، وان النار لم تخلق باطلا ، أو لم يسمعوا قول الله فى كتابه : ﴿ إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ (١) . وقوله ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ (٢) . وقد ذكر لى مع ذلك أن رجالا يتداعون إلى الحلف وقال : « لا حلف فى الاسلام قل - وما كان من حلف فى الجاهلية فلم يزد الاسلام الا شدة ، فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الاثم الذى فيه معصية الله ، ومعصية رسوله ، وقد ترك الاسلام حين انخلع منه ، وأنا أحذر كل من سمع كتابى هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الاسلام حصنا ، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة ، تحذيرا بعد تحذير ، وأذكرهم تذكيرا بعد تذكير ، وأشهد عليهم الذى هو آخذ بناصية كل دابة والذى هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد وانى لم ألكم بالذى كتبت به اليكم نصحا ، مع انى لو أعلم أحدا من الناس يحرك شيئا ليؤخذ له به أو ليدفع عنه أحرص - والله المستعان - على مذلتة من كان ، : رجلا أو عشيرة ، أو قبيلة ، أو أكثر من ذلك ، فادع إلى نصيحتى وما تقدمت اليكم به فانه هو الرشيد ليس له خفاء ، ثم ليكون أهل البر وأهل الايمان عوننا بالسنتهم ، وان كثيرا من الناس لا يعلمون . نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة فى ديننا وألفتنا وذات بيننا والسلام » (٣) .

وكذلك رسالته التى وجهها إلى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب ، وفيها يتجلى ايمانه القوى بأن النصر من عند الله ، وأن فضل هذه الأمة على من سواها وميزتها ، فى صلتها الصادقة بالله ، والاحتراس من المعاصى والتفوق فى الطاعة ، وهذا

(١) سورة الحجرات الآية ١٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٣ وما بعدها .

هو الفهم الاسلامى الذى كان طابع الصحابة وشعارهم ، ويظهر فى هذه الرسالة رفقه بالمسلمين وحنوه عليهم حنو الامهات والآباء ، وكذلك اهتمامه بأهل الصلح وأهل الذمة والحرص على مصالحهم ، وهذا مثل الخليفة الراشد ، يقول رحمه الله :

« هذا ما عهد به عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب ، وجربه من استعرض من أهل الصلح ، أمره فى ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من أمر الله ، فان تقوى الله من أفضل العدة ، وأبلغ المكيدة وأقوى القوة ، وأمره ان لا يكون من شئ من عدوه أشد احتراماً منه لنفسه ومن معه من معاصى الله ، فان الذنوب أخوف عندى على الناس من مكيدة عدوهم ، وإنما نعادى عدونا وننصر عليهم بمعصيتهم . ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم ، لأن عدونا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم فلو استوينا نحن وهم فى المعصية كانوا أفضل منا ، فى القوة والعدد ، فان لا نصر عليهم بحقنا لا نغلبهم بقوتنا ، ولا تكونوا لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم ، ولا تكونوا بالقدرة لكم أشد تعاهدا منكم لذنوبكم ، واعلموا أن معكم من الله حفظة عليكم ، يعلمون ما تفعلون فى مسيركم ومنزلكم فاستحيوا منهم وأحسنوا صحابتهم ولا تؤذوهم بمعاصى الله وأنتم زعمتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا ان عدونا شر منا فلن يسلطوا علينا وان أذنبنا ، رب قوم قد سلط عليهم شر منهم بذنوبهم فاسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم .

وأمره أن يرفق بمن معه فى سفرهم ، ولا يجشمهم مسيراً يتعبهم فيه ولا يقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يلقوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، وإنما يسيرون إلى عدو مقيم جام الابهة والكراع فان لا يرفقوا بأنفسهم وكراعهم فى مسيرهم يكن لعدوهم فضل فى القوة عليهم باقامتهم فى جمام الانفس والكراع والله المستعان .

وأمره أن يقيم ومن معه فى كل جمعة يوماً وليلة يكون لهم راحة يجمعون فيها أنفسهم وكراعهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم .

وأمره أن ينحى منزله عن قرى الصلح ، فلا يدخلها أحد من أصحابه لسوقهم وجماعتهم الا من يثق بدينه وأمانته على نفسه ، ولا يصيبوا منها ظلماً . ولا يتزودوا منها اثماً ولا يؤذوا أحداً من أهلها بشئ الا لحق ؛ فان لهم حرمة وذمة ابتليت بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم ففوا لهم ولا تستنصروا على أهل أرض الحرب بظلم أهل ( أرض ) الصلح ، فلعمري لقد أعطيتم مما يحل منهم ما يغنيكم عنهم فلم أترك لكم خلافاً فى العدة ، ولا رقة فى القوة فتظاهرت واكتفت لكم العدة ، وانتخب لكم الجند

وأغنيتك بأرض الشرك عن أرض الصلح . وبسطت لك أفضل ما بسطت لغاز ، فلم أجعل لك علة في التقوية ؟ وبالله الثقة ولا حول ولا قوة الا بالله .

وأمره أن تكون عيونه من العرب ومن يطمئن إلى نصيحته وصدقه من أهل الأرض ، فإن الكذب لا ينفع خبره وإن صدق في بعضه ، وإن الغاش عين عليك وليس بعين لك ، والسلام عليك « (١) !

### تأثير اصلاحاته في الدولة والمجتمع :

إن هذه الاصلاحات التي قام بها عمر بن عبد العزيز في عهده ، وإن هذه الخطوات الجريئة التي خطاها في سبيل اصلاح نظام الحكم وتطبيق الشريعة على الحكومة ، كان يخشى أن تسبب الأزمات المالية والخسائر الفادحة وإن تقع الدولة في مشاكل جديدة لا تجد لها حلا ، وهذه حجة الثائرين على الدين والمعارضين لتطبيق الاحكام الاسلامية على النظم والحكومات ، والدعاة إلى فصل الدين عن السياسة في كل زمان ، وكان عمر بن عبد العزيز مستعدا ليواجه هذه الازمات في شجاعة . وقد كتب إلى عامله الذي تخوف من سوء عاقبة فشو الاسلام في أهل الذمة أنه يسره أن يحرق الأرض ويأكل من عمل يده إذا أسلم أهل المة كلهم فتنقطع الجزية وتعجز مالية الدولة من كفالاته (٢) .

ولكن هذه الأزمات لم تقع . وفجأ الناس أن الرفاهية قد عمت ومالية الدولة قد قويت ، واطمأن الناس في كل رقعة من رقع هذه المملكة الواسعة ، حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها ، وأصبحت هذه مشكلة للأغنياء وأصحاب الأموال تطلب حلا سريعا ، قال يحيى بن سعيد : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها مني ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين » (٣) .

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب : « إنما ولي عمر بن عبد العزيز ستين ونصفا ، فذلك ثلاثون شهرا ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص : ٨٤ وما بعدها .

(٢) مناقب عمر بن عبد العزيز ، طبع أوروبا : ص ٦٣ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ٦٩ .

بماله ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس (١) .

ولا تزال خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد ترديد البيغاء للكلمات والاصوات - ان الدولة التي تقوم على الاحكام الاسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والازمات وعرضة للانهييار فى كل ساعة ، وأنها ليست الا حلما من الاحلام - ولا يزال هذا التاريخ يتحدى هؤلاء . . . ويقول لهم ﴿ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

إن هذه الفوائد المادية والرفاهية العامة من بركات الحكومة الاسلامية الصحيحة ومن نتائجها الطبيعية وهى فائدة لا يستهان قيمتها ، ولكن الفائدة الكبرى التى جرت على يد عمر بن عبد العزيز والتي أحرزته منصب التجديد . هى الاتجاه الجديد الذى اتجهته الأمة والمجتمع الاسلامى والتطور الذى وقع فى الاذواق والاخلاق والميول والرغبات فى هذه المدة القصيرة . فقد حدث الطبرى فى تاريخه عن على قال : « كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يلقون فى زمانه فإثما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجوارى ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وراءك الليلة وكم تحفظ من القرآن ومتى تختم ومتى ختمت وما تصوم من الشهر » (٢) .

### النقطة المركزية والاساسية فى حياة عمر بن عبد العزيز :

ان ميزة عمر بن عبد العزيز ليست فى الزهادة والتقشف ، فقد يشاركه فى ذلك بعض المتطوعين ورجال الحركات والثورات السياسية - وان كنت أشك أن أحدا بلغ مبلغه من العزوف عن الشهوات والزهة فى الحياة - ولكن ميزته الكبرى والسمة التى يتسم بها هو ان الدافع إلى كل ذلك هو ايمانه القوى بالآخرة ، وخشية الله والشوق إلى الجنة ، فلم يعش هذه الحياة الزاهدة الا خوفا لله وشوقا إلى الجنة ، وايثارا للآخرة على الدنيا ، وايمانا بقوله تعالى ﴿ وما عند الله خير وأبقى ﴾ وايمانا بقوله : ﴿ وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ وتسليما لقول رسول الله : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » وهذا مفترق الطرق الذى ينفصل منه زهاد الاسلام عن السياسة ، وتلاميذ الرسول عن تلاميذ المدرسة السياسية والاقتصادية ، وليس لغير هذا الايمان القوى الذى امتاز به عمر بن عبد العزيز - ان يحفظ انسانا - فى مثل شباب عمر بن عبد العزيز وقوته وحرسته وسلطانه - من اغراءات

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ١٢٨ .

(٢) تاريخ الامم والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى : ج ٣ ، ص ٩٨ ( حوادث سنة ٩٦ ) .

المادية القاهرة ومن تسويلات الشيطان والنفس المغرية ، وتفرض عليه المحاسبة الدقيقة للنفس ، والاستقامة على طريق الحق ، فقد رأينا فى قادة الحركات السياسية الشعبية ، وفى رؤساء الدول التى تقوم على مبدأ الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية ، كيف يتسللون إلى أنواع الترف والبذخ ، وكيف يعيشون فى القصور عيش الملوك ، وكيف يبيحون لأنفسهم التمتع بالملذات والامتيازات . أما عمر بن عبد العزيز فاذا نصح فى ذلك ، وأشير عليه بالتوسع فى المطعم والملبس والتمتع ببعض « حقوق » الخلفاء قرأ قول الله تعالى : ﴿ إني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ .

ولم يكن ذلك الا لعلوا استعداده ومداركة ، ونتيجة الطموح الصادق الذى تتصف به النفس الكبيرة المؤمنة ، فانه لم يزل يتدرج فى المعالى حتى بلغ من ذلك الغاية التى ليست وراءها غاية فى هذه الحياة ؛ فطمحت نفسه إلى غاية فوقها ، وتاقت إلى نعيم لا يحول ، ومملك لا يزول ، وقررة عين لا تنقطع . وكان شأنه فى ذلك شأن يوسف الصديق إذ قال : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ . يتجلى هذا فى كلمته التى قالها لمزاحم مولاه : « إن لى نفسا تواقة ، لم تتق إلى منزلة الا تاقت إلى ما هى أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة ، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة » (١) .

وكان شديد الخوف لله ، سريع الدمعة ، غزيرها ، دخل عليه رجل وبين يديه كانون فيه نار ، فقال عظى ! قال يا أمير المؤمنين ! ما ينفعك من دخل الجنة إذا دخلت أنت النار؟ قال : فبكى عمر حتى أطفأ الكانون الذى بين يديه (٢) ، وقال يزيد بن حوشب : ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز ؛ كأن النار لم تخلق الا لهما » (٣) .

## وفاة عمر بن عبد العزيز :

ولكن هذه المدة التى كانت أشبه بفصل الربيع فى عالم الدين والاخلاق ، وفى تاريخ الانسانية ، وكانت فلتة من فلتات الدهر لم تطل ؛ فقد توفى عمر بن عبد العزيز عام ١٠١ للهجرة بدير سمعان ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر (٤) . ويدل بعض القرائن على أنه

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ٦١ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ب ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى : ج ٣ ص ١٥٦ .

(٤) ابن سعد ، ابن الاثير ، ابن الجوزى .



سم ؛ لأنه بمقدار ما سعدت الأمة وسعد به المجتمع الاسلامى ، شقى بنو أمية ، أسرته التى كانت تنظر إلى الخلافة كطعمة أو ملك شخصى ، ووقف عمر بن عبد العزيز حاجزا بينهم وبين شهواتهم وتصرفاتهم ، فكان ربح الاسلام فيه على حساب الاسرة الحاكمة ؛ فلا غرابة إذا تخلصوا منه ، وحرموا الاسلام من هذه الثروة الغالية .

إن كل ما تحدثنا عنه من مآثر جليلة ، وأعماله خالدة ، واصلاحات واسعة تتجمل بها حياة طويلة ، وعمر عريض قد تم فى سنتين وخمسة أشهر ؛ فكان عمر بن عبد العزيز معجزة من معجزات الاسلام ، وآية من آيات الله العظام فى جلاله عمله ، وضخامة انتاجه ، وبعد أثره ، وكان معجزة ؛ لأن كل ذلك قد تم فى مدة قصيرة لم تعرف عن مصلح وعبرى وادارى ، سنتان وبضعة أشهر يحقق فيها ما لا تحققه الحكومات والمنظمات فى عقود من السنين ، وبغير اتجاه أمة ومجتمع بأسره . إن هاتين السنتين لترجحان على الأعمار الطويلة ، وهذه الصفحات المعدودة المشرقة لترجيح على مكتبة حافلة فى تاريخ الاصلاح والادارة والسياسة .

يسعدنى - وأنا واقف فى دمشق - أن أحيى هذه الروح الطاهرة والشخصية الفريدة فى بلده وأعلن أن هذا العصر ليس بأحوج إلى شئ منه إلى رجل من طراز عمر بن عبد العزيز ، وقد نخلت القرون والأجيال ولم يظهر مثله ولا يزال التاريخ منشداً :

حلف الزمان ليأتين بمثله      حثت يميناك - يا زمان فكفر



## الجهود الإصلاحية فى القرن الثانى الحسن البصرى وخلفاؤه

### الانحطاط الخلقى والايمانى فى الأمة :

عادت الخلافة - عقب وفاة عمر بن عبد العزيز - سيرتها الاولى ، وأنشبت الجاهلية أظفارها فى المجتمع الاسلامى ، وكان الخليفة بعده كان حريصا على أن يملأ هذا الفراغ الذى أحدثه عمر فى اتجاه الخلافة المستمر ، وكذلك من جاء بعده من الخلفاء .

لقد نشأ الترف فى المجتمع الاسلامى - كما قدمنا - لعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية . ونشأت طبقة المترفين بأخلاقهم ونفسياتهم ، وكثرت الأموال وأدوات الترف ، واشتدت الاغراءات المادية وفعلت فعلها فى المجتمع حتى أشرف الايمان والعمل الصالح - وبهما تمتاز هذه الأمة عن غيرها من الامم ، وفيها سر قوتها وانتصارها ، وهما تراث النبوة - على الضياع والتلف ، وأصبحت هذه الأمة تتقدم إلى انهيار فى الاخلاق والروح ، وخمود فى العاطفة والشعور الايمانى ، وضعف فى صلتها بالله بخطى واسعة ، وكان ذلك نذيرا لكارثة كبرى ، كارثة أصيبت بها الامم من قبل ، وهى الافلاس فى الايمان والروح والاخلاق ، وهى خسارة لا تعوضها الدولة والحكومات والفتوح المادية والسياسية ، ولا بقاء لأمة - ذات رسالة وعقيدة - بعد ذلك :

بدت طلائع هذه الفاجعة فى الافق ، والخلافة مشغولة عن ذلك ؛ بل هى السبب فى حلولها ودنوها ، ولو أرادت أن تمنع وقوعها لما استطاعت ؛ لأن القائمين على رأسها لا يملكون تلك المؤهلات لا يستطيعون بها أن يواجهوا هذه الفاجعة ، وهى الايمان القوى والحياة التزيهة ، والاخلاق الاسلامية ، والدعوة التى تملك عليهم قلوبهم ومشاعرهم ؛ إنما هى طبقة من المترفين المتنعمين يحتاجون بأنفسهم إلى الدعوة والتربية .

لقد كان هذا التطور خطرا كبيرا على هذه الأمة ، وكان أبعث على القلق من انتقاص أطراف مملكة الاسلام الواسعة ، وقلة مواردها ، إلى غير ذلك من الحوادث السياسية والتطورات الاقتصادية ؛ وذلك لأن الايمان ليس خلقه فى أمة أمرا يسيرا ، وليس لكل أحد أن يبعث هذا الايمان ، واذا زال لا يعود فى الغالب ، وتاريخ الامم والديانات شاهد على ذلك . تفلس أمة فى الايمان وتملك كل شئ ، وتنقطع صلتها بربها وتتصل بكل شئ ؛ فلا تعود سيرتها الاولى ، ولا تسترد ذلك الايمان وتلك الصلة القوية بالله ، وتذهب جهود

المصلحين والدعاة هباء منثورا . وهذه الأمم الأوربية والأمة الهندوكية العظيمة تصدق هذه الحقيقة . ان هذا الايمان بالله ، وان هذه الصلة الحية القوية التي عرفت بها هذه الامة ، وسحقت بها الامم ، وأخضعت بها العالم ، وان هذه المظاهر الايمانية التي تقرأ أمثلتها الرائعة فى تاريخ العهد النبوى والخلافة الراشدة : من اناة صادقة إلى الله ، وثقة به ، وتفان فى سبيله ، وعزوف عن الشهوات ، واستهانة بزخارف الحياة ، وشوق إلى الشهادة ، وحنين إلى الجنة ، وخشوع فى الصلاة ، ولذة فى الدعاء ، وعطف ومواساة ، وزهد واىثار ، إلى غير ذلك ، مما هو نتيجة الايمان القوى العميق ، إنما كان منحة النبوة وتأثير الشخصية النبوية الفذة التى سعد بها العالم مرة فى التاريخ ، فاذا تجردت الأمة من هذه الثروات الايمانية التى منحها النبوة الأخيرة وشخصية الرسول المعجزة ، فقد تجردت من رأس مالها ، وأفلست افلاسا تاما ، ولا مطمع فى ايجاد هذا الايمان ، واعادة هذه الثروة بعد ما انقطعت النبوة . أما تجديد هذا الايمان وتقويته قبل أن يزول ، والمحافظة على هذه الثروة والزيادة قبل أن تضيع ، فممكنة وميسورة ، إذا قام لذلك رجال أكفاء ، وجاهدوا فى سبيله حق الجهاد .

لقد واجهت الأمة فى سيرها نقطة تحول ، قد فطن لها من فتح الله بصيرته ، وأهمه الحكمة والدعوة ، عرفوا أن الأمة مهددة بخطر هو أعظم من الخطر الخارجى ومن الأخطار السياسية . هو خطر المادية الجارفة ، والانحطاط الخلقى والروحى ، ما أصيبت به أمة الا كانت فريسة للأدواء الخلقية والاجتماعية ، وخواء الروح ، وافلاس الباطن ، وعبادة الشهوات ، والتنافس فى الحياة وما أصيبت بذلك أمة الا ضاعت وطويت مع الأمم الغبرة ، وقد أنبأ بهذا الخطر لسان النبوة قبل حدوثه ، فقد روى عن النبى ﷺ أنه خطب قبل وفاته خطبة أنذر فيها المسلمين بهذا الخطر وقال : « ما الفقر أخشى عليكم ؛ ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها . وتهلككم كما أهلكتهم » (١) .

لقد حل هذا الخطر ، وتحقق الذى تخوفه النبى ﷺ على هذه الأمة ، وقد بلغ ذلك أوجه فى عهد بنى أمية ؛ ولكن الله لطف بهذه الأمة ؛ إذا قيص لمواجهته ، والوقوف فى وجهه رجالا مخلصين ، ودعاه مؤمنين ، عارضوا هذا التيار بكل ما عندهم من قوى ومواهب ، ومنعوا عددا كبيرا من المسلمين أن تجرفهم المادية وتستعبدهم الشهوات . أنهم

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الزهد .

لم يستطيعوا أن يحولوا التيار أو يوقفوا سيره ؛ ولكنهم استطاعوا أن يبطئوا سيره وينقذوا من لفته من استمع إليهم أو جالسهم وتأثر بدعوتهم . ان لهم فضلا لا ينساه الاسلام ، ولا يغمطه التاريخ ؛ لأنهم كانوا سببا وعاملا قويا فى استمرار الاسلام الروحى والخلقى الذى هو أهم من استمرار هذه الأمة النسلية والسياسية ؛ فإذا كان الفضل فى بقاء هذه الأمة ذات عدد كبير ومكانة سياسية يرجع إلى المجاهدين وملوك الاسلام ، فالفضل فى بقائها أمة ذات عقيدة ودين وأخلاق خاصة ، وطابع خاص تمتاز به بين الأمم ، يرجع إلى هؤلاء الدعاة المخلصين والمصلحين المجاهدين الذين بذلوا جهدهم فى المحافظة على خصائص هذه الأمة الباطنية والنفسية ، واتصال حياتها الروحية والخلقية ، ولا شك أن فضلهم أكثر ، ومنتهم أعظم ؛ فلا خير فى بقاء هذه الأمة من غير هذه الخصائص ، ولا لذلك بعث رسول الله ﷺ ودعا دعوته ، وجاهد الصحابة والتابعون لهم باحسان ، ولا لذلك كانت بدر وأحد ، واليرموك والقادسية ، ولا لذلك استحق المسلمون النصر والتأييد من الله . إنما كان كل ذلك للعقيدة التى يعتقدونها ، والأخلاق التى يتصفون بها ، والدعوة التى يحملونها ، والسمة التى يتسمون بها ؛ فمن ساهم فى ذلك فهو من محسنى هذه الأمة وخلفاء الرسول بالحق ، والأمة مدينة له بالفضل إلى أن تقوم القيامة .

لقد كان هؤلاء الدعاة والمصلحون منبئين فى الحواضر الاسلامية ، مرابطين على الثغور ، قائمين بالدعوة ، وليس كل أحد منهم ذكره التاريخ ، وليس كل أحد سجلت مواقفه ونشج دعوته وجهاده ؛ ولكن اشتهرت منهم جماعة من فضلاء التابعين كان أشهرهم سعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والشعبى ؛ ولكن الذى حمل هذه الراية ، وتفرد من بينهم بالامامة ، هو الحسن البصرى .

### الحسن البصرى ، شخصيته ومؤهلاته :

ولد الحسن البصرى سنة ٢١ للهجرة ، وأبوه يسار ، مولى زيد بن ثابت ، صاحب رسول الله ﷺ ، وكاتب الوحي ، وأمه خيرة ، مولاة أم سلمة ، زوج النبي ﷺ ، نشأ فى بيتها ، ولقى جماعة كثيرة من الصحابة وسمع منهم .

وقد جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به ان يؤثر فى قلوب الناس ، ويرفع به قيمة الدين وأهل الدين فى المجتمع ، فقد كان واسع العلم غزير المادة فى التفسير والحديث ، ولم يكن لأحد فى ذلك العصر أن ينشر دعوته ويقوم بالاصلاح ، الا إذا كان متوفرا على هذين العلمين ، وقد أدرك عصر الصحابة وعاصر كثيرا منهم ، ويظهر من حياته ومواعظه أنه درس هذا العصر دراسة عميقة ، وأدرك روحه ، وعرف كيف تطور

المجتمع الاسلامى ، ومن أين انحرف . وكان واسع الاطلاع ، دقيق الملاحظة للحياة ومختلف الطبقات وعوائدها وأخلاقها وعللها وأدوائها ، كطبيب مارس العلاج مدة .

وكان مع ذلك غاية فى الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير فى مستمعيه ، يقول أبو عمرو ابن العلاء : « ما رأيت أفصح من الحسن البصرى ، والحجاج بن يوسف ! والحسن أفصح منه » . وكان آية فى اتساع المعلومات ووفور العلم ، قال الربيع بن أنس : اختلفت إلى الحسن عشر سنين ، وما من يوم الا أسمع منه ما لم أسمع قبله . وقال محمد بن سعد : كان الحسن جامعا عالما ورفيعا فقيها ، ثقة مأمونا . عابدا ناسكا ، كثير العلم ، فصيحاً ، جميلاً وسيماً ، وقدم مكة فأجلس على سرير ، واجتمع الناس اليه ، وقالوا : لم نر مثل هذا قط ! وقد وصفه ثابت بن قررة - كما نقل عنه أبو حيان التوحيدى - فقال :

« كان من درارى النجوم علما وتقوى ، وزهدا وورعا ، وعفة ورقة ، وفقها ومعرفة ، يجمع مجلسه ضروبا من الناس ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقف منه التأويل ، وهذا يسع منه الحلال والحرام . وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الرعظ . وهو فى جميع ذلك كالبحر اللجج تدفقا ، وكالسراج الوهاج تألقا ، ولا تنس مواقفه ومشهده بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عند الامراء وأشباه الامراء ، بالكلام الفصل واللفظ الجزل .

وكن فوق ذلك كنه ، وهو سر تأثيره فى القلوب ، وسحره فى النفوس ، وخضوع الناس له - وقد قسوا على كثير من الوعاظ والعلماء - أنه كان صاحب عاطفة قوية . وروح متبهة . وكان من كبار المخلصين . وكان يجمع بين بلاغة اللسان ، وقوة الايمان . وكان يؤمن بما يقوله ويعمل بما يعتقد ، وكان الذى يقول يخرج من القلب فيدخل فى القلب . وكان إذا ذكر الصحابة ، أو وصف الآخرة . ادمع العيون وحرك القلوب ؛ لأنه يتذوق الايمان . ويتكلم عن عاطفة ووجدان ؛ لذلك كانت حلقاته فى البصرة أوسع الحلقات ، وانجذب الناس اليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس - وذلك شأن أهل القلوب والاخلاص فى كل زمان - وكان من أعظم ما امتاز به هو أن كلامه كان من أشبه ما سمع الناس بكلام النبوة ، قال الغزالي فى احياء العلوم : « ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم ، اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك » (١) .

(١) احياء العلوم : ج ١ ص ٦٨ .

كان نتيجة المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة ، أنه كان صاحب شخصية قوية جذابة حبية إلى النفوس ، وكان الناس مأخوذين بسحرها ، خاضعين لعظمتها ، حتى قال ثابت بن قره الحكيم الحراني : « ان الحسن من أفراد الأمة المحمدية التي تتباهى بها على الأمم الأخرى » .

### مواعظ الحسن البصرى :

ومواعظ الحسن البصرى تجمع بين القوة والسهولة التي عرف بها كلام عهد الصحابة ، وهي تدور غالباً حول قصر الحياة وغدر الدنيا ، وخلود الآخرة ، والحث على الايمان والعمل الصالح والتقوى والخشية والتحذير من غرور النفس وطول الآمال . ولا شك أن المجتمع الذي افترسه المادية ، واستحوذت عليه الشهوات ، وأصيب بالاغراق فى الترف ، والامعان فى الامانى ، كان فى حاجة ملحة إلى مثل هذه المواعظ التي تكشف الغطاء عن العيون ، وتمس القلوب ، وكان يصور فى أكثر مواعظه عصر الصحابة ، وما اتسم به من أخلاق وصفات ، ويقارن بين عصرهم وعصره ، ويصف التدهور الذى أصيب به المجتمع الاسلامى فى الايمان والاخلاق . كان إذا وصل إلى هذه النقطة أثار الاحزان ، وهاج الوجدان . ومواعظه مثال جميل للنثر البليغ ، والادب الرفيع ، وموضوع دراسة الاديب والناقد ، وأقدم هنا مثالين من هذه المواعظ ، فمنها موعظته يذكر فيها عهد الصحابة ، ويصف المؤمن :

« هيهات هيهات ! أهلك الناس الامانى : قول بلا عمل ، ومعرفة بغير صبر ، وايمان بلا يقين ، مالى أرى رجالا ولا أرى عقولا ! وأسمع حسيسا ولا أرى أنيسا ! دخل القوم والله ثم خرجوا ، وعرفوا ثم أنكروا ، وحرموا ثم استحلوا ، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه ، إذا سئل أمؤمن أنت بيوم الحساب ؟ قال : نعم ! كذب ومالك يوم الدين ؛ إن من أخلاق المؤمن قوة فى دين ، وايمانا فى يقين ، وعلما فى حلم ، وحلما بعلم ، وكيسا فى رفق ، وتحملا فى فاقة ، وقصدا فى غنى ، وشفقة فى نفقة ، ورحمة لمجهود ، وعطاء فى الحقوق ، وانصافا فى الاستقامة ، لا يخيف على من يبغض ، ولا يائس فى مساعدة من يحب ، لا يهمز ولا يغمز ولا يلمز ، ولا يلغو ، ولا يلهو ولا يلعب ، ولا يمشى بالنميمة ، ولا يتبع ما ليس له ، ولا يجحد الحق الذى عليه ، ولا يتجاوز فى العذر ، ولا يثمت بالفجيعة إن حلت بغيره ، ولا يسر بالمعصية إذا نزلت بسواه .

المؤمن فى الصلاة خاشع ، وإلى الركوع مسارع ، قوله شفاء ، وصبره تقى ، وسكوته فكرة ، ونظره عبرة ، يخالط العلماء ليعلم ، ويسكت بينهم ليسلم ، ويتكلم ليغنم ، ان

احسن استبشر ، وان اساء استغفر ، وان عتب استعتب ، ان سفه عليه حلم ، وان ظلم صبر ، وان جبر عليه عدل ، ولا يتعوذ بغير الله ، ولا يستعين الا بالله ، وقور فى الملاء ، شكور فى الخلاء ، قانع بالرزق ، حامد على الرخاء ، صابرا على البلاء ، ان جلس مع الغافلين كتب من الذاكرين ، وان جلس مع الذاكرين كتب من المستغفرين .

هكذا كان أصحاب النبي ﷺ ، الاول فالاول ، حتى لحقوا بالله عز وجل وهكذا كان المسلمون من سلفكم الصالح ، وإنما غير بكم لما غيرتم ، ثم تلا ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه وال ﴾ (١) .

وموعظة أخرى يفسر فيها آيات من سورة الفرقان ، ويصف المؤمنين الأولين :

« ان المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدقوا بها ، وأفضى يقينها إلى قلوبهم ، خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم ، كنت والله إذا رأيتهم رأيت قوما كأنهم رأى عين ، والله ما كانوا بأهل جدل ولا باطل ، ولكنهم جاءهم أمر من عند الله فصدقوا به ، فنعتهم الله فى القرآن أحسن نعت ، فقال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ﴾ والهون فى كلام العرب : اللين والسكينة والوقار ﴾ اذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ حلماء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر ليهم خير ليل فقال : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ ينتصبون على أقدامهم ، ويفترشون وجوههم سجدا لربهم ، تجرى دموعهم على خدودهم فرقا من ربهم . لأمر ما سهروا ليهم ، ولأمر ما خشعوا نهارهم ، قال : ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ﴾ وكل شئ يصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام . إنما الغرام اللازم له ما دامت السموات والأرض ، صدق القوم والله الذى لا اله الا هو ، فعملوا وأنتم تتمنون ، فإياكم وهذه الامانى رحمكم الله ! فان الله لم يعط عبدا بأمنيته خيرا فى الدنيا والآخرة » (٢) .

**صدعه بالحق وشجاعته أمام رجال الحكم :**

وكان الحسن البصرى صادعا بالحق ، شجاعا لا يخشى فى صدعه بالحق غائلة ، وهذه الشجاعة لها قيمتها ومكانتها فى الحكومات الشخصية التى لم تزل حرة فى تصرفاتها

(١) الحسن البصرى لابن الجوزى : ص ٦٩ ، ٦٠ .

(٢) قيام الليل : ص ١٢ .



وأهوائها ، عنيفة قاسية فى حكمها ، سريعة متهورة فى تنفيذ ارادتها وانفعالاتها ، وقد روى التاريخ من أخبار شجاعة الحسن الدينية ما يرفع مكانته فى علماء عصره ، ودعاة الإصلاح ، منها ما رواه ابن خلكان ، قال « لما ولى عمر بن هبيرة الفزارى العراق ، وأضيفت إلى خراسان ، وذلك فى أيام يزيد بن عبد الملك ، استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشعبى ، وذلك فى سنة ثلاث ومائة فقال لهم : ان يزيد خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولانى ما ترون ، فيكتب إلى بالامر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر فما ترون؟ قال ابن سيرين والشعبى قولا فيه تقية ، قال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة ! خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله ، ان الله يمنعك من يزيد ، وان يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث اليك ملكا فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك الا عملك . يا ابن هبيرة ! إن تعص الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده ، فلا تركب دين الله وعباده لسلطان الله ؛ فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » فأجازهم ابن هبيرة ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبى لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف لنا .

وروى ابن سعد فى طبقاته ، باسناده عن مسلم بن أبى الذيال ، قال : « سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال : لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، فقال رجل من أهل الشام : ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ فغضب ، ثم قال بيده فخطر بها ، ثم قال ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ، نعم ! ولا مع أمير المؤمنين » (١) .

### النفاق والمنافقون فى الدولة الاسلامية :

لقد نشأت فى المملكة الاسلامية بحكم نفوذ الاسلام السياسى والمادى ، طبقة تدين بالاسلام . وتسمى بالمسلمين ؛ ولكنها لم تسخ الاسلام اساعة يطلبها الاسلام ، ولم تمثله فى أخلاقها وسلوكها وميولها أنها لم تتحقق بحقيقة الايمان ، ولم تدخل فى السلم كافة كما يأمر به القرآن ، وقد وجد فى الجيل الاسلامى الجديد الذى لم تتم تربيته على أساس الاسلام ، رجال لم تنق رؤوسهم ولا نفوسهم من النزعات الجاهلية ، ولم تكن صلتهم بالاسلام صلة عميقة متغلغلة فى الاحشاء ، مسيطرة على الحياة والتفكير ، وقد وجد فى المجتمع ، وبصفة خاصة فى دوائر الحكومة ، وفى أوساط الأمراء والأغنياء ، أفراد - ليس

(١) طبقات ابن سعد : ج ٧ ، ص ١٩ .

عدددهم قليلا - يمثلون بأخلاقهم وأساليب حياتهم ومناهج تفكيرهم المنافقين القدماء . وهؤلاء هم الذين كانت لهم السيطرة على الحياة والنفوذ في المجتمع ، يشغلون في الحكومة مناصب خطيرة ، ويحتلون في الجيش مراكز كبيرة ، وكانت عاداتهم وأخلاقهم وأزيائهم هي التي يقلدها المتطرفون والمتأنقون من الشباب والأغنياء .

اعتقد بعض العلماء ، ان النفاق قد انقرض ، وأنه كان مرضا محليا ومؤقتا اقتضته الظروف الخاصة في العصر الاسلامي الاول ، فلما غلب الاسلام وزالت شوكة الكفر وانتهى الصراع بين فكرتين متنافستين وبين قوتين متحاربتين ، وبقي الاسلام لا يصارعه الكفر ، فقدت الطبقة التي كانت تعالج صراعا نفسيا ، وتتأرجح بين الاسلام والكفر ، فلا تخلص لأحد منهما ؛ وتتمتع بمنافعهما في وقت واحد ، أما وقد بقي اسلام ولا كفر - كما هو الشأن في الدولة الاسلامية - أو كفر ولا اسلام - كما هو الشأن في دار الحرب - فلا حاجة إلى هذا الاسلوب من التفكير وهذا الطراز من النفسية ، ولا محل للنفاق في دار الاسلام التي يحكم فيها الاسلام ، ويسود فيها الدين ؛ وقد راجت هذه الفكرة في الاوساط العلمية في الزمن المتقدم ، وترى لها ظلالات في كتب التفسير والتاريخ .

ولكن يجب أن يلاحظ ، أن النفاق علة قديمة من علل الفطرة البشرية ، يصاب بها ضعاف النفوس في كل عصر من العصور . ولا يتولد هذا المرض في مجتمع يتصارع فيه الاسلام والكفر ويتكافآن فحسب ؛ بل يتولد كذلك حيث يسيطر الاسلام ويحكم . فتوجد طبقة لا تسبخ الاسلام بسبب من الاسباب ؛ ولكنها لا تملك الشجاعة التي تحملها على إنكار الاسلام والاعلان بعقيده وموقفه أو لا تسمح مصالحه وأغراضه وملايساته بأن تتنازل عن الفوائد والمناصب التي تتمتع بها بفضل الانتساب إلى الاسلام . وعن المركز الذي تحتله في الأمة لأجل ثقتها بها واعتمادها عليها . فهي تستغل الاسلام لمصالحها وتظهر في مظهر لتحافظ على شخصيتها وتؤمن مستقبلها ؛ ولكنها لا تخضع للاسلام خضوعا حقيقيا ولا تسبخ فكرته وعقيده ونظامه . فتظل طول حياتها مذبذبة بين الاسلام والكفر . مضطربة اضطرابا عقليا ونفسيا وعمليا . تحكى المنافقين السابقين في فساد الأخلاق ، وعبادة الشهوات والتهالك على اللذات ، وانتهاز الفرص ، وترجيح المصلحة الشخصية على المصلحة الاجتماعية ، والجرأة والاستئساد على الضعفاء ، والجن والخور أمام الأقوياء .

وقد وجد في العلماء والمحققين من أثبت أن النفاق ظاهرة اجتماعية وعلة نفسية لا ينحصر في زمان خاص ومكان خاص . يعجبني في ذلك كلمة المفكر الاسلامي الكبير شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، المعروف بالشيخ ولي الله ، فقد قال في

كتابه البديع « الفوز الكبير فى أصول التفسير » بعد ما ذكر أن النفاق قسمان : النفاق فى العقيدة ، والنفاق فى العمل والأخلاق : أما النفاق فى العقيدة فإن كان ممكنا وواقعا بعد عصر الرأفة ، ولكنه لا يمكن الجزم به لإنقطاع الوحي . أما نفاق العمل والأخلاق ، فكثير وشع فى كل عصر من العصور . يقول : « ان النفاق شائع ومشاهد فى هذا العصر ، وان أحببت أن ترى أنموذجا للمنافقين فعليك بمجالس الأغنياء وندمائهم ، كيف آثروا هوى سادتهم على حكم الشارع ، إن الحق يجب أن يقال : أنه لا فرق بين من سمع كلام النبي ﷺ من غير واسطة ، واختار النفاق ، وبين من ولد فى هذا العصر ، وعرف بطريق اليقين حكم الشارع ثم آثر ضده عليه ورجح كلام غيره ، وكذلك جماعة من علماء الفلسفة والعلوم العقلية اليونانية - فى الاسلام - يحملون شبهات عظيمة ، وشكوكا كثيرة فى قلوبهم ، ونسوا المعاد حتى لا يخطر منهم على بال ، هم نموذج المنافقين فى عصرنا » .

### دلالة الحسن البصرى على النفاق والمنافقين ونفوذه فى المجتمع :

لقد كان من ذكاء الحسن البصرى وفطنته الدينية ؛ أنه اهتدى إلى أن النفاق لا يزال يعيش فى المجتمع الاسلامى ، وأن المنافقين لهم صولة وجولة فى الدولة الاسلامية ، وسيطرة على الحياة والسياسة ، وأن المدن الكبيرة والعواصم الاسلامية مدينة لهؤلاء فى الزهو واللهو ، قال له رجل يا أبا سعيد ! أليوم نفاق ؟ قال : لو أخرجوا من أزقة البصرة لاستوحشتم فيها <sup>(١)</sup> ، وقال فى مناسبة أخرى « يا سبحان الله ! ما لقيت هذه الأمة من منافق قهرها واستأثر عليها » <sup>(٢)</sup> يشير إلى الحكام والأمراء . وقال مرة : لو خرجوا لما انتصفتم من عدوكم « يشير إلى الجيش الاسلامى وقواده . وهكذا تناول الطبقات الممتازة فى الأمة ، وبين أن فيها النفاق والمنافقين ، أن لهم السيادة والغلبة .

وكان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصرى فى المجتمع ، ونفوذه فى القلوب والعقول ، أنه ضرب على الوتر الحساس ، ونزل فى أعماق المجتمع ، ووصف أمراضه ، وانتقده انتقد الحكيم الرفيق ، والناصح الشفيق ، لقد كان عصره يغص بالدعاة والوعاظ ، ولكن المجتمع لم يخضع لأحد خضوعه للحسن ، لأنه كان يمس قلبه وينزل فى صميم الحياة ، ويعارض التيار . أنه كان يعنى على الاخلاص إلى الحياة والانهماك فى الشهوات . وقد انتشر هذا المرض فى الحياة . أنه كان يذكر بالموت ، ويستحضر الآخرة . والمترفون يتناسون

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للمحدث أبى بكر : ص ٦٨ .

(٢) أيضا : ص ٥٧ .

ذلك ويعلمون نفوسهم بالامانى الكاذبة والأحلام اللذيذة ، ويتضايقون بذكر ما يكدر عليهم الحياة ويعكر صفو عيشتهم ، فكان دائما فى صراع مع الجاهلية . والجاهلية لا تخضع الا لمن صارعها . ولا تعترف الا بوجود الرجل الذى يحاربها . وكان الحسن البصرى هو ذلك الرجل . فعظم تأثيره وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصى والحياة الجاهلية التى كانوا يعيشونها وانطلقت موجة الاصلاح قوية مؤثرة ؛ لأن الحسن لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يلقيها ؛ بل كان يعنى بتربية من يتصل به ويجالسه . فكان جامعا بين الدعوة والارشاد، وبين التربية العملية والتزكية الخلقية والروحية . فاهتدى به خلائق لا يحصيهم الا الله ، وذاقوا حلاوة الايمان وتحلوا بحقيقة الاسلام . وقد صدق عوام بن حوشب إذ قال : « ما أشبه الحسن الا بنى أقام فى قومه ستين سنة يدعوهم إلى الله » (١) .

### وفاة الحسن البصرى :

وكان من أثر هذا الاخلاص ، والتفانى فى الدعوة ، والتأثير فى القلوب ، أنه أجمعت القلوب على حبه والاعتراف بفضله وشغلت به البصرة . وكانت المدينة التى تلى دمشق فى العظمة والأهمية فى ذلك العصر . حتى إذا مات فى سنة ١١٠ هـ - وكان دفنه بعد صلاة الجمعة - تبع الناس كلهم جنازته ، واشتغلوا به ، فلم تقم صلاة العصر بالجامع ؛ لأنه لم يبق بالمسجد من يصلى العصر . وقال بعضهم ممن شهد جنازته « لا أعلم أن صلاة العصر تركت فى الاسلام ( يعنى فى جامع البصرة ) الا يومئذ » (٢) .

وجرى خلفاء الحسن - ممن توارثوا علمه وروحه - على الدعوة إلى الله والتذكير بالآخرة ، والدعوة إلى حقيقة الايمان وسيرة الاسلام ؛ وهكذا اتصل تاريخ الاصلاح والتجديد والدعوة إلى الاسلام الحقيقى من جديد لاتخلله فترة ، وانتقلت العاصمة الاسلامية بعد اثنتين وعشرين سنة من وفاة الحسن البصرى من دمشق إلى بغداد ، وأصبح العراق مركز الحضارة والسياسة فى عالم الاسلام .

### الخلافة العباسية وأثرها :

قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية ، وخلفتها فى أساس الحكم ومناهجه ، والروح السارية فى الجهاز الادارى ، ونظرتها إلى بيت المال وإلى المسلمين ، والاثرة

(١) دائرة المعارف للبستانى ، ج ٧ ص ٤٤ .

(٢) ابن خلكان : ترجمة الحسن البصرى .

والترف ، وامتازت عنها فى شىء واحد ، وهو أن الدولة الأموية كانت عليها مسحة العروبة، وكانت محافظة على الروح العربية والتقاليد العربية ، وكانت عيوبها والأخلاق التى يمثلها رجال الحكم هى عيوب العرب ورؤساء القبائل إذا ضعفت صلتهم بالدين ، أو طفت عليهم النزعة القبلية أو جرفتهم المادية .

أما الدولة العباسية ، فقد سرت فيها الروح العجمية ، وأصبحت بعلى الحضارة العجمية وعبوبها ، واتسعت الدولة اتساعا عظيما ، وامتدت على مساحة واسعة من آسيا وافريقيا ؛ حتى روى أن هارون الرشيد مرت به قطعة من سحاب فخطبها وقال : « أمطرى حيث شئت ، فسيأتينى خراجك » .

وقد روى ابن خلدون أن دخل المملكة فى عهد الرشيد كان فى كل سنة ٧٠١٥ قنطارا ، والقنطار فى حسابه عشرة آلاف دينار ؛ فىكون مجموع ذلك سبعين مليوناً ومائة وخمسين ألف دينار<sup>(١)</sup> . وإذا لحظنا رخص الأسعار وكثرة الانتاج ، وجدنا أن الميزانية ضخمة ، وقد زادت هذه الميزانية زيادة عظيمة فى عهد المأمون ، وقد كانت بغداد - بحكم أنها عاصمة الامبراطورية الاسلامية - مصب أموال المملكة الواسعة الغنية ، وسوق الطرائف والخيرات والمنتجات ، ومنتجع أصحاب الحرف والصناعات ، كما كانت منتجع أصحاب المجون والمغنين الكبار والشعراء ونوابغ كل فن جديد وهزل وحق وباطل ؛ فأمنت بغداد فى الحضارة ، وتفننت فى الترف والسرف ، وبلغت المدنية شأوا بعيدا لا تبلغه الدول الا بعد قرون . وقد وصلت اليه الدولة العباسية فى قرن واحد ، وقد أثرت هذه الحضارة المنحرفة، والأموال المغدقة ، والاختلاط بالعجم ، وازدحام الجوارى والرقيق من كل جنس ومن كل بلد ، فى الأخلاق والميول والعادات ، وأغرق الناس فى هذه المدنية التى هى مزيج من مدنيات مختلفة ، وأقبلوا على اللهو والبذخ اقبالا يصوره كتاب « الحيوان » للجاحظ : وكتاب « الاغانى » لأبى الفرج الاصبهاني<sup>(٢)</sup> .

ويستطيع الرجل أن يأخذ فكرة عن هذه المدنية المترفة ، وعن الحياة الباذخة ، وإلى ما وصل إليه الخلفاء ، ومن كان يتصل بهم ومن كان على آثارهم إذا قرأ قصة عرس المأمون الخليفة العباسى . يقول ابن خلكان - وقد جمع روايات مختلفة - :

« تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل ، واحتفل أبوها بأمرها ، وعمل من الولائم

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ١٥١ .

(٢) راجع كتاب الحيوان للجاحظ : ج ٢ ، ص ٩١ و ج ٥ ص ١١٥ ومجلدات الاغانى .

والأفراح ما لم يعهد مثله فى عصر من الأعصار ، وكان ذلك بفم الصلح ، وانتهى أمره إلى ان نثر على الهاشميين ، والقواد ، والكتاب ، والوجوه ، بنادق مسك فيها رقايع بأسماء ضياع ، وأسماء جوار ، وصفات دواب ، وغير ذلك ، فكانت البندقية إذا وقعت فى يد الرجل فتحها ، فيقرأ ما فى الرقعة ، فإذا علم ما فيها ، مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ، ويتسلم ما فيها ، سواء كان ضيعة أو ملكا آخر ، أو فرسا ، أو جارية ، أو مملوكا ، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ، ونوافج المسك وبيض العنبر ، وأنفق المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه - وكانوا خلقا لا يحصى - حتى على الحمالين ، والمكارية ، والملاحين ، وكل من ضمه عسكريه ؛ فلم يكن فى العسكر من يشتري شيئا لنفسه ولا لدوابه <sup>(١)</sup> .

وذكر الطبرى فى تاريخه « ان المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوما ، يعد له فى كل يوم وجميع من معه ما يحتاج إليه ، وكان مبلغ النفقة عليهم بخمسين ألف ألف درهم ، وأمر له المأمون عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم ، وأقطعه فم الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه .

وقال غيره : « وفرش للمأمون حصير منسوج بالذهب ، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلى كثيرة . . . وأطلق المأمون خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة » .

وقال الطبرى أيضا : « دخل المأمون على بوران الليلة الثالثة من وصوله إلى فم الصلح ، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع ، وسألها عن عدد الدر كم هو ؟ فقالت : ألف حبة ، فوضعها فى حجرها . . . أوقدوا فى تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منا فى تور من ذهب ؛ فأنكر المأمون ذلك عليهم وقد : هذا سرف <sup>(٢)</sup> .

وأنا لا أريد أن أسائل هل يبيح الاسلام هذا السرف المتناهى ؟ فالجواب واضح ، ولا أريد أن أقارن بين زواج فتى بنى هاشم « على بن أبى طالب » مع سيدة نساء أهل الجنة ، وبضعة الرسول « فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ » ، فالقصة غنية عن المقارنة ، ولا يوجد لها نظير فى التاريخ بسهولة كما لاحظ ابن خلكان ، ولا أريد أن أسائل من أى مال أنفق هذه النفقات المملوكية ؟ وهل سمحت الأمة بها ؟ اننى لا أريد أن أثير هذه الاسئلة ؛

(١) وفيات الأعيان ، ترجمة بوران بنت الحسن ، الجزء الأول ، ص - ٢٦٠ طبع مكتبة النهضة .

(٢) وفيات الأعيان ، ترجمة بوران بنت الحسن ، الجزء الأول ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

ولكنى أريد أن أصور لكم - بعض التصوير - المدنية المترفة التي كانت تسود في العصر العباسي الأول ، وإلى أي حد بلغ العبث بالأموال ، وكيف تطور ، بل تطرف الذوق العربي الاسلامي ؛ حتى وصل في مدة قليلة إلى هذا الحد من التأنق والتبذير في الولائم والأعراس .

واليكم حكاية ثانية تدل على ما وصلت اليه المدنية في العصر العباسي من التأنق والاسراف في الولائم والمآدب ، وذلك في عصر الرشيد الذي يتقدم عصر المأمون الذي حكيت عنه !

روى المسعودي في كتابه مروج الذهب قال :

« حدث ابراهيم بن المهدي قال : استزرت الرشيد بالرقعة ؛ فزارني ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ؛ فلما وضعت البوارد ، رأى فيما قرب اليه منها جام قريض سمك ، فاستصغر القطع ، وقال : لم صغر طبخك تقطيع السمك ؟ فقلت يا أمير المؤمنين ! هذه السنة السمك ، قال : فيشبهه أن يكون في هذا الجام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين ! فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره بأنه قام بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده ، وحلف أن لا يطعم شيئا دون أن يحضره «مراقب» ألف درهم ، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به ، وقال : أرجو أن يكون كفارة لسرفك في انفاقك على جام سمك ألف درهم ، ثم ناول الجام بعض خدمه ، وقال : أول سائل تراه فادفعه اليه ! » .

### الدعاة إلى الله في العصر العباسي :

ولكن بجوار هذه المدنية المائجة والحياة الباذخة ، وبجانب هذا السرف والترف ، والزهو واللهو ، نرى رجالا قد انقطعوا إلى الدعوة إلى الله ، وتزكية النفوس ، ونشر العلوم الدينية ، والعكوف على التعلم والتعليم ، وقد ثاروا على هذه الحياة واغراءاتها ، وانحسرت عنهم موجات الغنى والترف ، وارتدت عنهم خائبة حسيرة ، وكأنها لم تجد إلى قلوبهم سبيلا ، وقد شغلوا - كالحسن البصري من قبل - بالمحافظة على روح هذه الأمة وصلتها بالله ، وبالمحافظة على منافع الحياة الاسلامية « القرآن والحديث » وأخفقت الحكومات في أن تشتري ضمائرهم ، أو تشغلهم عن عملهم ، وكانوا جزرا بشرية في بحر المادية المائج ، يأوى اليها الغرقى ومن انكسرت سفينته ، وقد أقاموا بجانب الحياة المترفة في بغداد ، حياة زاهدة تقوم على الايمان وتقدير القيم الروحية والخلقية ، تفوق - في سلطانها

على القلوب ، وفي سعتها أحيانا - الحياة المادية ، فان كان الخلفاء وأمراؤهم يحكمون الاجسام فقد كان هؤلاء يحكمون القلوب والعقول ، فإذا وقع صراع بين هؤلاء وأولئك كان الانتصار في كثير من الاحيان للآخرين ، ويخضع سلطان السياسة لسلطان الروح والعقيدة ، ويتضاءل الخليفة والأمير أمام عالم كبير أو محدث جليل . وقد حكى ابن خلكان قصة تدل على سلطان رجال العلم والدين في هذا العصر . قال : « قدم هارون الرشيد الرقة ، فأنجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج الخشب ، فلما رأت الناس قالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك ، فقالت : هذا والله الملك ، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس الا بشرط وأعوان ! » (١) .

وقد ظهرت هذه الحياة الدينية التي يسود فيها الايمان والتقوى والانقطاع إلى العلم والزهد بوضوح في بغداد ؛ فكانت بغداد منتجعا لرواد العلم والدين ، ولأصحاب الايمان واليقين ، وللدعاة إلى الله ؛ فقد قصدوها من كل جانب ، وألقوا فيها عصا التسيار ، واتخذوها مركز نشاطهم ودعوتهم ؛ لأنها مركز الأعصاب في جسم العالم الاسلامي وقلبه النابض ؛ فإذا تأثرت بالدعوة فقد تأثر العالم الاسلامي ، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله ! لذلك نرى فيها أئمة الفنون وكبار الدعاة وأعلام الزهاد ، حتى أن الذي يطالع كتب الطبقات والتراجم يتخيل أن بغداد هي مدرسة للحديث ، أو مسجد للوعظ والتذكير ، أو مركز للتزكية والتربية ، لا يسمع فيها الا درسا يقرأ ، وقرآنا يتلى ، وحديثا يروى ، وقلبا عليلا يداوى فيشفى ، ويرى فيها دولة للعلم والدين لا تقل في سلطانها وسعتها عن خلافة العباسيين .

وقد كان للعلماء الاعلام وبعض الزهاد المحدثين مواقف مجيدة أمام الخلفاء أدوا فيها حق النصيحة ، وحذروهم من سطوة الله ، وتبرأوا من هذا الجور الفاشي ، والظلم القاسي . كالذي كان من الاوزاعي<sup>(٢)</sup> وسفيان الثوري<sup>(٣)</sup> عند المنصور ، وصالح بن عبد الجليل<sup>(٤)</sup> بين يدي المهدي ، وابن السماك عند الرشيد ، واليكم بعض الأمثلة لهذه الشجاعة وقوة الايمان والصراحة في قول الحق ! :

(١) وفيات الأعيان : ج ٢ ص ٢٣٨ ، ترجمة عبد الله بن المبارك .

(٢) أنظر العقد الفريد لابن عبد ربه : ج ٣ ، ص ١٦ .

(٣) أيضا : ص ٦٥ .

(٤) أيضا : ص ١٥٨ .



« عن الفضل بن الربيع قال : حج أمير المؤمنين الرشيد ، فأتاني ، فخرجت مسرعا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! لو أرسلت إلى آيتك ؛ فقال : ويحك قدحك في نفسى شئ ، فانظر لى رجلا أسأله ، فقلت هنا سفيان بن عيينة ، فقال ، امض بنا اليه : فأتيناه ، فقرعت الباب ، فقال : من ذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ! فخرج مسرعا ، فقال : يا أمير المؤمنين ! لو أرسلت إلى آيتك ؛ فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله ! فحدثه ساعة ثم قال له : عليك دين ؟ قال : نعم ! فقال : أبا عباس ، اقض دينه ! فلما خرجنا قال : ما أغنى عنى صاحبك شيئا ، أنظر لى رجلا أسأله ؛ فقلت له : ههنا عبد الرازق بن همام ، قال : امض بنا اليه ! فأتيناه فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا ، فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى آيتك ؛ قال : خذ لما جئناك له ! فحدثه ساعة ثم قال له : عليك دين ! قال نعم ! قال : أبا عباس اقض دينه ! فلما خرجنا قال : ما أغنى صاحبك شيئا ، انظر لى رجلا أسأله ؛ قلت ههنا الفضيل بن عياض ، قال : امض بنا اليه ! فأتيناه فإذا هو قائم يصلى يتلو آية من القرآن يرددها فقال : اقرع الباب فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت أجب أمير المؤمنين ! فقال : ما لى ولأمر المؤمنين ؟! فقلت سبحان الله أما عليك طاعة ؟ أليس قد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » فنزل ، ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف هارون قبلى اليه ، فقال : يالها من كف ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل ! فقلت فى نفسى : ليكلمنه اليوم بكلام نقى من قلب تقى ، فقال له : خذ لما جئناك له رحمك الله ! فقال : إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة ، دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظى ، ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : انى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على ، فعدت الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة ، فقال له سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم الدنيا ! وليكن افطارك من الموت ! وقال له محمد بن كعب القرظى : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين عندك أبا ، وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ولدا ، فوقر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحزن على ولدك ! وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله عز وجل فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إذا شئت ! وانى أقول لك : إنى أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل فيه الاقدام ؛ فهل معك - رحمك الله - من يشير عليك بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشى عليه ،

فقلت له : أرفق بأمر المؤمنين ! فقال : يا ابن أم الربيع ! تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟! ثم أفاق فقال له : زدنى رحمك الله ! فقال يا أمير المؤمنين ! بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكى إليه ؛ فكتب إليه عمر : يا أخى أذكرك طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله ؛ فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء قال : فلما قرأ الكتاب ، طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبى بكتابك ، لا أعود إلى ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل ، قال : فبكى « هارون » بكاء شديدا ثم قال له : زدنى رحمك الله ! فقال : يا أمير المؤمنين! ان العباس عم المصطفى ﷺ - جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ! أمرنى على إمارة ، فقال له النبى ﷺ : إن الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل ! فبكى « هارون » بكاء شديدا وقال له : زدنى رحمك الله ! فقال : يا حسن الوجه ! أنت الذى يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ؛ فان استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل وإياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك ؛ فإن النبى ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشا لم يرح <sup>(1)</sup> رائحة الجنة » ، فبكى هارون وقال له : عليك دين ؟ قال نعم ! دين لربى يحاسبنى عليه ؛ فالويل لى أن سألتى! والويل لى أن ناقشنى ! والويل لى أن ألهم حجتى ! قال : إنما أعنى دين العباد ، قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا ، أمر ربى أن أوحده وأطيع أمره ، فقال عز وجل : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ فقال له : هذه ألف دينار ، خذها فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادتك ! فقال : سبحان الله ! أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئنى بمثل هذا ؟ سلمك الله ووفقك ؟ ثم صمت فلم يكلمنا ؛ فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب قال هارون : أبا عباس ! إذا دللتنى على رجل فدلتنى على مثل هذا ! هذا سيد المسلمين ؛ فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت : يا هذا ! قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به ؛ فقال لها : مثلى ومثلكم كمثل قوم كان لهم بغير يأكلون من كسبه ؛ فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه ، فلما سمع هارون هذا الكلام ، قال : تدخل فعسى أن يقبل المال ، فلما علم الفضيل خرج فجلس فى السطح على باب الغرفة ، فجاء «هارون» فجلس إلى جنبه ، فجعل يكلمه فلا يجيبه ، فبينما نحن كذلك ، إذ خرجت

(1) أراح الشئ لم يجد له ريحة .

جارية سوداء فقالت : يا هذا ! قد أذيت الشيخ منذ الليلة ، فانصرف رحمك الله !  
فانصرفنا « (١) .

وقد كان من بعض هؤلاء استعراض لنظام الحكم ، ووصف دقيق للجهاز الادارى ومفاسده ، يدل على فهم عميق واطلاع واسع على شؤون الدولة ، ومواضع الضعف والفساد فى الادارة ، ومن أمثلته البليغة الرائعة ما نقل ابن عبد ربه فى كتابه ، من كلام رجل من العباد عند المنصور وقد جاء فيه :

« ان الله استرعاك أمر عباده وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وابوابا من الحديد ، وحراسا معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك فى جبايات الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت أن لا يدخل عليك أحد من الرجال الا فلان وفلان - نفرا أسميتهم - ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير اليك ، ولا أحد الا وله فى هذا المال حق ؛ فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت أن لا يحجبوا دونك ، تجبى الأموال وتجمعها ، قالوا : هذا قد خان الله ؛ فما لنا لا نخونه ! فائتمروا أن لا يصل اليك من علم أخبار الناس شئ الا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم الا خونوه عنك ونفوه ، حتى تسقط منزلته ؛ فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم ؛ فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ، ليقروا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدره والثروة من رعيتك ، لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلات بلاد الله بالطمع ظلما وبغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانتك وأنت غافل ؛ فان جاء متظلم حيل بينك وبينه ؛ فان أراد رفع قصته اليك عند ظهورك ، وجدك قد نهيت عن ذلك ، ووقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم ؛ فان جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك خبره ، سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته اليك ، فان المتظلم منه له بهم حرمة ، فأجابهم خوفا منهم ؛ فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ، ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ؛ فاذا أجهد وأخرج ثم ظهرت ، صرخ بين يديك ؛ فيضرب ضربا مبرحا يكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر فما تنكر ، فما بقاء الاسلام على هذا !؟ » .

وقد كان لسيرة هؤلاء الاعلام ، وحياتهم النزيهة ، وزهدهم فى حطام الدنيا ،

(١) صفة الصفوة : ج ٢ ، ذكر فضيل بن عياض التميمي ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

وابتعادهم عن مناصب الدولة ، وتفلتهم من شرك كان ينصب لهم حيناً بعد حين ،  
وقمردهم على الشهوات ، ومواجهتهم لكبار الملوك والخلفاء بالحق ، وارشادهم للخلق  
باخلاص ونزاهة ؛ ولايمانهم القوى ، تأثير كبير فى نفوس الناس ؛ حتى فى أهل الذمة ؛  
فكان يسلم منهم كثير ، وكانوا خاضعين لهؤلاء ، يعترفون لهم بالفضل ، ويدينون لهم  
بالحب (١) .

## جهود لإقامة الحكم الصالح وتغيير الأوضاع :

ولم تكن جهود المصلحين مقتصرة على الدعوة والأصلاح الفردى ، والوعظ والارشاد؛  
بل رافقت هذه الجهود التى لم تنقطع محاولات كانت تظهر - على فترات قصيرة - لقلب  
الحكم ، واعادة الخلافة إلى نصابها ، والقضاء على هذا الاحتكار الأموى أو العباسى  
للخلافة والحكم .

وقد قامت الخلافة - مع الأسف - على نظام الوراثة والسلالات ، ودان العرب - مع  
الأسف - لمبدأ الشرف فى الخلافة ؛ فلم يكن لأحد أن يقوم فى وجه الخليفة الأموى  
والعباسى ، ويطمع فى النجاح الا إذا كان حائزاً على شرف النسب وعلو البيت ، متمتعا  
بعصية قوية واسعة ، حتى يقرع الحديد بالحديد ، ويقابل الريح بالاعصار ؛ لذلك كان كل  
من خرج على الدولة الأموية والعباسية ، ورفع راية الجهاد ، من أهل بيت الرسول ومن  
العلويين ؛ لأن امكانات نجاحهم كانت ألمع وأظهر ، والمسلمون اليهم أميل ، وأيدهم أهل  
الصالح ومحبو الاصلاح فى عصرهم ، والذين كانوا يتألمون بمشاهدة فساد الأوضاع ،  
وضياع الخلافة ، وضياع أموال المسلمين فى الشهوات والنزعات الجامعة العاتية إلى الترف  
والعادات الجاهلية .

وقد قام بعد الحسين بن على - رضى الله عنه وعن آبائه - حفيده زيد بن على بن  
الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى ، وقتل وصلب سنة ١٢٢ هـ ،  
وقد أرسل اليه الامام أبو حنيفة بعشرة آلاف درهم ، واعتذر عن عدم حضوره (٢) .

ثم قام من بنى الحسن ، محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ذو النفس  
الزكية ، فى المدينة ، وأخوه ابراهيم فى الكوفة باتفاق منهما ، وكان أبو حنيفة ومالك من  
أنصار ذى النفس الزكية ، وقد انتصر له أبو حنيفة علانية ، وأرسل اليه ببعض المال ،

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وتاريخ ابن خلكان .

(٢) مناقب أبى حنيفة للبخارى : ج ١ ص ٥٥ .

ونهى قائد المنصور ، الحسن بن قحطبة ، من محاربته فاعتذر من المنصور ، وكان هذا هو السبب الحقيقى لما وقع من المنصور مع أبى حنيفة ، انتهى بحياته .

وقد جاء فى تاريخ الكامل لابن الاثير ، أن أهل المدينة قد استفتوا « مالك بن أنس » فى الخروج مع محمد ، وقالوا : إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر ، فقال : « إنما بايعتم مكروهين ، وليس على مكره يمين ؛ فأسرع الناس إلى محمد ، ولزم مالك بيته » (١) وقد قتل محمد ، سنة ١٤٥ هـ فى المدينة فى شهر رمضان ، وقتل أخوه ابراهيم فى ذى القعدة من ذلك العام .

إن هذه المحاولات قد أخفقت ولم تأت بالنتيجة المطلوبة ؛ لأن الحكومة قد كانت قوية ومنظمة ، وكانت تملك الوسائل والذخائر . وقد رأينا فى التاريخ الماضى والحاضر ، محاولات كثيرة تقوم على الاخلاص والايمان والبطولة والشجاعة ، ولا يقصر قادتها وأتباعها فى التضحية بالأموال والأنفس ، ثم كثيرا ما تخفق ، أمام الحكومات المنظمة ، وجيوشها العظيمة ، وقواها الهائلة ، وليس هذا ببدع فى التاريخ ، ولا بمستغرب فى سير هذا الكون ؛ ولكنها - على إخفاقها فى ميدان السياسة والنتائج المادية - قد خدمت الاسلام خدمة عظيمة ؛ لأنها حفظت على تاريخ الاسلام شرفه وكرامته ؛ فلولا هذه الجهود وهذه المحاولات حيناً بعد حين ، لكان التاريخ الاسلامى قصة متصلة للأناية والنفعية ، قصة الملوك الذين يتسلطون ، وقصة أصحاب الأغراض والأطماع الذين يخضعون ؛ ولكن هؤلاء الأبطال المجاهدين ؛ ولكن هؤلاء المؤمنين المغامرين قد نصبوا للأجيال القادمة منارات للنور تضى لهم فى غياهب التاريخ من بعيد ، وتنير لهم السبيل ، وتبهم بالفروسية الاسلامية الصادقة ، والثورة على الأوضاع الفاسدة ، والغضب لنظام الاسلام المظلوم ، ولكرامته المهذرة .

أنه تراث مجيد يعتز به الاسلام ، وثروة غالية تتجمل بها الاجيال وسلسلة متصلة من المجاهدين تبعث على الثقة والإيمان واليقين . ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ﴾ .

---

(١) الكامل ج ٥ ص ٢٥١ .



## حركة التدوين فى الإسلام وتنظيم الحياة على الأسس الدينية

### الأمة على مفترق الطرق :

لقد اتصل تاريخ الإصلاح والدعوة ، كما قدمنا فى المحاضرتين السابقتين ؛ ولكن بقيت ناحية من نواحي الحياة الأولى ، تطلب العناية السريعة ، وتسترعى اهتمام المهتمين بشؤون هذه الأمة ، ولا تسمح بالتأخير أو الأرجاء يوماً واحداً ، وذلك ما سيكون موضوع محاضرتنا الرابعة ، إن شاء الله .

لقد خرجت هذه الأمة - بفضل الدعوة الإسلامية التى عمت الآفاق وتخطت الحدود ، وبفضل الجهاد الذى أخضع نصف المعمورة للإسلام - من طور البداوة والبساطة والانحصار فى دائرة ضيقة جغرافية ، ومجتمع صغير ، إلى طور الامبراطورية العظيمة .

وقد كانت قارة افريقية تحت وصاية الإسلام وإدارته ، وتدخل فى هذه الامبراطورية الإسلامية أقطار وبلاد من أرقى البلاد فى العالم وأعرقها فى المدنية والعلوم ، وكانت هذه الحكومة العظيمة تواجه بطبيعة الحال تطورات كثيرة سريعة بحكم الاختلاط بالعناصر المختلفة . والمدنيات الكثيرة ، وتواجه شؤوننا جديدة ومشاكل عديدة فى التجارة والزراعة والجزية والخراج ، وتواجه من مسائل البلدان والأقطار التى يفتحها الإسلام ويحكمها المسلمون ، الشئ الكثير ، وتجد من عادات أهلها وتقاليدهم واجتماعهم ما يتنافى مع الإسلام كثيراً ، ويتفق معه قليلاً ، وكان الحكم فى كل ذلك مما لا يمكن تأخيره أو الأعراض عنه ، وكانت هذه النواحي كلها تتطلب الحل الحاسم السريع ، وتمتحن كفاية هذه الأمة الفكرية ، وصلاحيه التشريع الإسلامى لمسيرة العصر والمدنية وشؤون المجتمع البشرى ، وكانت الحكومة فى حاجة ملحة إلى دستور شامل كامل ، وكان الجهاز الإدارى لا يمكن إيقافه عن السير ، أو تعطيله عن الحركة فى انتظار التشريع .

فاذا تكامل العلماء فى الاجتهاد والاستنباط ، وآثروا الراحة على العمل والكدح ، أو ضعف انتاجهم وجمدت قريحتهم ، التجأت الحكومة - تحت وطأة حاجات الحياة العملية ومطالبها - إلى أن تقتبس النظم الرومية والفارسية ، وتطبق القانون الرومانى والایرانى على

المملكة الإسلامية ؛ فكان ذلك يجر عنى هذه الأمة شقاء طويلا ، لأنها تحرم سعادة القانون الإسلامى ، وبركات المجتمع الإسلامى ، ويكتب عليها أن تعيش مسلمة متدينة فى مساجدها ، جاهلية أو لا دينية فى بيوتها وأسواقها ومحاكمها . كما هو الواقع فى البلاد والدول التى ديانتها الرسمية النصرانية وليس عندها تشريع مسيحى كما هو واقع - مع الأسف والحجل - فى البلاد والدول التى تدين بالاسلام فى العقيدة والعبادة ، ولا تدين به فى التشريع والقانون وإذا ساغ فى النصرانية التى لا تملك الثروة الدستورية ، ولا تلح على تطبيق الدين على الحياة ، فإنه لا يسوغ فى الاسلام الذى هو دين ودولة ، وعقيدة وسياسة، وعبادة واجتماع ، فكانت الأمة تجتاز مرحلة خطيرة دقيقة فى حياتها ، وقد وقفت على مفترق الطرق . وكانت الغلظة الواحدة ، أو العثرة الخفيفة ، كافية لقطع صلتها عن الحياة الاسلامية والاجتماع والنظم الاسلامية ، وتفرض على الأجيال القادمة أن تعيش حياة ليس فيها الا نصيب ضئيل .

### الحاجة إلى تدوين الحديث :

وكانت الأمة لا تستطيع أن تتفادى هذا المصير المؤلم المظلم الا إذا كانت مصادر التشريع ، ومنابع الفقه الاسلامى ، محفوظة من الضياع ، ميسورة للانتفاع ، وأهم هذه المصادر - بعد القرآن الذى لا يخاف عليه من الضياع والتحريف - هو « الحديث » الذى هو مصدر منظم ، وثروة زاخرة لاستنباط الأحكام ، ولا يعرف التاريخ سيرة نبوية أوثق من هذه السيرة ، وأحراها بالاعتماد والتعويل ، ويصح أن يسمى سجل الوقائع اليومية ، وشبه « مذكرات » إذا صح هذا التعبير - لمدة ثلاث وعشرين سنة قضاها النبي ﷺ بعد ما أكرمه الله بالنبوة على ظهر الأرض ، ترينا كيف كان الرسول ﷺ يعيش فى هذه الحياة ، وكيف يقضى نهاره وليله .

وهى مجموعة خص الله بها هذه الأمة ؛ فلا نعرف أمة من أمم الرسل سعدت بمثل هذه المجموعة الناطقة ، وبهذا السجل الخالد لبيها ؛ بل بالعكس من ذلك ، نرى الأمم كلها فقيرة لا تملك مصدرا من مصادر العلم عن الأنبياء والرسل ، وهى - من عمى وظلام تاريخى - قد انقطعت الصلة بينها وبين أنبيائها علميا وتاريخيا ، وفقدت الحلقة التاريخية التى تصلها بعصر هؤلاء الرسل - سلام الله عليهم - وتوقفها على شؤون حياتهم ، وما يكتنفها من ظروف وملابسات ؛ فهذه الأمة المسيحية - التى هى من أغنى الأمم بالتأليف



والثروة العلمية - لا تعرف عن سيدنا المسيح الا أخبار ثلاث سنوات حواها الأناجيل الأربعة ، وهى أخبار مبعثرة متقطعة ملفقة لا يستطيع الانسان أن يؤلف منها تاريخا متصلا<sup>(١)</sup> .

وأما شأن الرسل قبله ، وشأن موسى الديانات فى الهند وغيرها فأمرها أعجب ، وفقر الأمم أبين من ذلك وأوضح ؛ حتى صار كثير من المستشرقين والمؤرخين يشكون فى وجودهم ، ويميلون إلى أنها شخصيات خرافية ليس لها وجود تاريخى ، ونحن - على معارضتنا لهذا التطرف - نوافق على أنها شخصيات مطمورة فى ركاب الماضى ، وعلى أن هنالك حلقات مفقودة لا يمكن البحث عنها والاهتداء إليها<sup>(٢)</sup> .

أما الرسول الأعظم ﷺ فهو الشخصية الفريدة - من بين الرسل والعظماء - التى نعرف عنها كل دقيق وجليل ، ونعرف عنها من دقائق الأخلاق والعادات والميول والرغبات والقول والعمل ، ما لا نعرفه عن كثير من الشخصيات التى مضت قريبا ؛ بل عن الشخصيات المعاصرة أحيانا ، وذلك كله بفضل « الحديث » الذى سجل لنا هذه الحياة المباركة العظيمة .

لقد اعتادت الأمم القديمة والديانات أن تصور أنبياءها ، وأن تنحت لها تماثيل وأصناما تمثلهم للأجيال القديمة ؛ وتجدد ذكراهم ، ونشأت من ذلك الوثنية وعبادة التماثيل التى يعرفها الجميع ، ونشأت من ذلك آفات لا تزال الأمم والديانات تعانيها ، وقد لطف الله بهذه الأمة وبالانسانية ؛ إذا حرم عليها تصوير الأنبياء والعظماء ، ونحت تماثيلهم ، وأبدلها بهذا الحديث النبوى الذى هو مجموع صور ناطقة يتعرف بها الانسان بنبيه ويسعد بصحبته ، وكأنه حضر مجلسه ، واستمع لحديثه و وقضى معه مدة من الزمان ؛ لسمع كلامه ويشاهد فعله ويدرس سيرته ؛ فكان ضياع هذه الثروة - لا سمح الله بذلك - كارثة لا تقدر ، وخسارة لا تعوض .

ثم أن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون فى كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع فى سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل فى

---

(١) هذا كان يقال فى القديم . وقد انتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص فى الموضوع فى الزمن الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوما من حياته ( راجع مقال الدكتور شارلس اندرسن اسكات فى دائرة المعارف البريطانية ج ١٣ ص ١٧١٠ ) .

(٢) اقرأ فى ذلك المحاضرة الثانية من محاضرات « الرسالة المحمدية » للاستاذ الكبير السيد سليمان الندوى رحمه الله .

الاخلاق والأعمال الا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ، الذى هو يملاً هذا الفراغ الذى وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى . وهذه الفجوة لا بد منها فى السنن الالهية ، ﴿وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ ﴿انك ميت وانهم ميتون﴾ فلولا الحديث الذى يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الاحكام التى أخذ بها الرسول المجتمع الاسلامى لوقعت هذه الأمة فى افراط وتفريط واختل الاتزان ، وفقد المثال العملى الذى حث الله على الاقتداء به ، بقوله : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾ وبقوله : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله﴾ والذى يطلبه الانسان ويستمد منه الثقة والقوة ف الحياة ، ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع .

ثم أن الحديث زاخر بالحياة والقوة والتأثير الذى لم يزل يبعث على الانتاج والزهد والتقوى ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ، وحسبه المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره فى كل عصر وبلد ، من رفع راية الاصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والاسلام الصحيح ؛ لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الأمة السياسية ، وكان لا بد من تقييده وتسجيله وحفظه ونشره .

### حركة الجمع والتدوين فى القرن الأول والثانى :

وقد يسر الله ذلك ؛ إذ بعث نبيه ﷺ فى أمة عرفت بقوة الذاكرة والصدق والأمانة فى الرواية ، وفاقته فى ذلك الأمم ، وقد وعى الصحابة - رضى الله عنهم - لحكمة أرادها الله - كل ما سمعوا وشاهدوا ، وحرصوا على حفظه ونشره وتبليغه حرصاً لم يعرف عن أمة نبي وأصحاب ديانة . وقد بدأوا يكتبون الحديث فى عهد النبي ﷺ ، ومنهم من كانت له مجموعة خاصة اشتهرت به ؛ فقد كان لعبد الله بن عمرو بن العاص مجموعة تسمى «الصادقة» وأثر عنه أنه كان يقول : ما يرغبنى فى الحياة الا خصلتان «الصادقة» و«الوهط»؛ فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله ﷺ (١) ، وكان لعلى بن أبى طالب صحيفة (٢) ، وكان لأنس صحيفة كان يبرزها إذا اجتمع الناس (٣) ، ونقل الجمع

(١) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله ، لابن عبد البر ج ١ ص ٧٢ .

(٢) الجامع الصحيح للبخارى ، وكتاب العلم ، باب كتابة العلم .

(٣) تقييد العلم ص ٥ .

والكتابة عن عبد الله بن عباس<sup>(١)</sup> ، وعبد الله بن مسعود<sup>(٢)</sup> ، وعن جابر بن عبد الله<sup>(٣)</sup> ، وتدل صحيفة<sup>(٤)</sup> همام بن منبه ( م ١٠٣ هـ ) صاحب أبي هريرة رضى الله عنه التى يرجع تأليفها إلى أواسط القرن الأول (لأن أبا هريرة توفى نحو سنة ٥٨ للهجرة وهى من املائه) على تقدم هذه الحركة .

وإذا جمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث ، كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث ، وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله - من غير نظام وترتيب - فى عصر الرسول ﷺ وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شاع فى الناس - حتى المثقفين والمؤلفين - إن الحديث لم يكتب ولم يسجل الا فى القرن الثالث الهجرى ، وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى ، وما نشأ ذلك الغلط الا عن طريقين : الأولى أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ، ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول ، لأن عامتها فقدت وضاعت ، مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة . الثانية : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيرة التى كتبت فى القرن الأول ، مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتجردة من المتابعات والشواهد لا يزال قليلا ، وقد نبه على ذلك العلامة ، مناظر أحسن الكيلانى رئيس القسم الدينى سابقا فى الجامعة العثمانية بحيدر آباد فى كتابه العظيم «تدوين الحديث» يقول رحمه الله :

« قد يتعجب الانسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال : أن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبع مائة ألف حديث ، وكذلك يقال عن أبي زرعة ، ويروى عن الامام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ، ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة ، ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابى من ثلاثمائة ألف حديث .

(١) الترمذى كتاب العلل .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغى فى روايته حمله لابن عبد البر ج ١ ص ٧٢ .

(٣) صحيح مسلم .

(٤) طبعت هذه الصحيفة تباعا فى مجلة المجمع العلمى بدمشق وطبعت مع المقدمات والتعليقات فى

حيدر آباد الهند عام ١٣٧٤ هـ بعناية الفاضل الأستاذ الدكتور حميد الله الذى حصل على نسخة لها

من برلين .

ولا يعرف كثير من المتعلمين - فضلا عن العامة - أن الذى يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التى عنى بها المحدثون ؛ فحديث « إنما الأعمال بالنيات » مثلا يروى من سبع مائة طريق ، فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد ، لبقى عدد قليل من الأحاديث ؛ فالجامع الصحيح للبخارى لا يزيد الأحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين وستمائة وحديثين ، وأحاديث مسلم يبلغ عددها إلى أربعة آلاف حديث ، وهكذا لا يبلغ عدد الأحاديث المروية فى الصحاح الستة ، ومسند أحمد ، وكتب أخرى ، خمسين ألف حديث ، منها الصحيح ومنها السقيم ، ومنها المتفق عليه ومنها المتكلم فيه ، وقد صرح الحاكم أبو عبد الله - الذى يعد من المتسامحين المتوسعين - أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف .

ومعظم هذه الثروة الحديثة قد كتب ودون بأقلام رواة فى العصر الأول ، وقد يزيد ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا فى العصر النبوى وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم على عشرة آلاف حديث ، إذا جمعت صحف ومجاميع أبى هريرة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص . وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلى ، وابن عباس رضى الله عنهم ، فيمكن أن يقال : أن ما ثبت من الأحاديث الصحاح ، واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودون فى عصر النبوة ، وفى عصر الصحابة ، قبل أن يدون الموطأ والصحاح بكثير<sup>(١)</sup> .

ولم يتتصف القرن الثانى حتى كانت حركة الجمع والتدوين أنشط وأقوى ، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن ابن شهاب الزهري ( م عام ١٢٤ هـ ) وابن جريج المكي ( م ١٥٠ هـ ) وابن اسحاق ( م ١٥١ هـ ) ومعمر اليمنى ( م ١٥٣ هـ ) وسعيد بن أبى عروة المدنى ( م ١٥٦ هـ ) وربيع بن صبيح ( م ١٦٠ هـ ) وسفيان الثورى ( م ١٦١ هـ ) ومالك بن أنس ( م ١٧٩ هـ ) والليث بن سعد ( م ١٧٥ هـ ) وابن المبارك ( م ١٨١ هـ ) ثم تتابع الناس<sup>(٢)</sup> .

### المحدثون وعلو همتهم :

ثم قيض الله لهذا العمل الجليل فوجا من طلبة العلم يعدون بالآلاف ، ويمتازون بعلو

(١) « تدوين الحديث » للعلامة مناظر أحسن الكيلانى ( فى لغة اردو ) طبع المجلس العلمى بباكستان .

(٢) يحسن الرجوع فى هذا البحث إلى مقالات المرحوم الاستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعى فى (المسلمون) وإلى كتابه القيم « السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى » .

همتهم وشدة نشاطهم وقوة احتمالهم وصبرهم وقوة ذاكرتهم وحفظهم ، وقد تدفق سيلهم من بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبة الشديدة في جمع الحديث ، وشغفوا به شغفا حال بينهم وبين الشهوات ، فطاروا في الآفاق ، ونقبوا في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة ، والأسانيد الصحيحة وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يعرفا عن أمة من الأمم للعلم في التاريخ ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين في التجول في البلاد والسفر في العالم الاسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، فقد روى أن البخاري صاحب الصحيح ، قد بدأ رحلته العلمية وهو لا يزال في الرابعة عشرة من سنه ، وقد زار البلدان الاسلامية ما بين بخارى ومصر ، وشيوخها<sup>(١)</sup> ، روى عن أبي حاتم الرازي م ٢٧٧هـ قال : « أول ما رحلت أقمت سبع سنين ، ومشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ ، ثم تركت العدد ، وخرجت من البحرين إلى مصر ثم إلى الرملة ماشيا ، ثم إلى طرطوس ولي عشرون سنة »<sup>(٢)</sup> . وقد سمع محدث الاندلس ابن حيون ( م ٣٠٥ هـ ) الحديث في الاندلس ، والعراق ، والحجاز ، واليمن<sup>(٣)</sup> . وهكذا قطع قارة افريقية من طنجة إلى مصر ، وعبر البحر الأحمر ، ومن المحدثين من سافر في قارة آسيا وأفريقيا واوربا في طلب الحديث ، وهكذا انتظمت رحلته العلمية ثلاث قارات كبرى ؛ وكان كثير من المحدثين يخرج من الاندلس ، أقصى الغرب في العالم المتمدن المعروف يومئذ ، ويبلغ إلى أقصاه في الشرق إلى خراسان أو بالعكس ، والمطالع في تذكره الحفاظ للذهبي يدهش لطموح هؤلاء ، واحتمالهم للمشاق في طلب العلم .

### فن أسماء الرجال :

ولم يقتصر هؤلاء المخلصون على جمع الحديث وتدوينه ؛ بل تعدت عنايته إلى الوسائط التي قد وقعت في رواية الحديث ، وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث ، فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم وأسماء آبائهم ، وحوادث حياتهم وأخلاقهم ومكانتهم في الأمانة والصدق والحفظ ، وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التي وعدّها الله بالخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين والباحثين ، وخرجوا من زوايا الخمول ، واستحقوا الحياة والاشتهار ، وأصابهم فيض

(١) تذكرة الحفاظ ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

(٢) أيضا ، ج ٢ ص ١٤٦ .

(٣) أيضا ٣ ص ٤ .

من حياة هذه الشخصية الخالدة ، فحيوا وظهروا واحتفظ التاريخ بأسمائهم وأحوالهم ،  
ورآه حقا على نفسه .

وهكذا ظهر علم أسماء الرجال إلى عالم الوجود ، وكان من مفاخر هذه الأمة التي لا  
يشاركها فيها أمة من الأمم ، قال الدكتور « اسبرنجر » Sprenger في مقدمته الانجليزية  
على كتاب الاصابة في أحوال الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني ما ترجمته :

« لم تعرف أمة في التاريخ ، ولا توجد الآن على ظهر الأرض ، وفقت لاختراع فن  
مثل فن أسماء الرجال الذي نستطيع بفضله أن نقف على ترجمة خمسمائة ألف ( نصف  
مليون ) من الرجال »<sup>(١)</sup> . ولم يعز المحدثون بتعريف رجال الحديث فحسب ، بل التزموا  
الصدق والصراحة في تعريفهم ، وجمعوا كل ما يتصل بأخلاقهم وعاداتهم ، وما يدل  
على قوتهم وضعفهم واحتياطهم وتساهلهم وتقواهم وعلمهم وذاكرتهم . وجمعوا كل ما  
قاله معاصروهم فيهم ولم يداروا ولم يجاملوا في ذلك . ولم يهابوا أحدا ولو كان بعضهم  
أميرا مهابا أو شيخا وقورا . وقد روى التاريخ في ذلك طرائف تدل على شدة هؤلاء  
الناقدين وعلمهم بقوله تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ  
الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ . وتدقيقهم . قال أبو داود : كان أبو وكيع على بيت المال ؛ فكان  
وكيع ( م ١٩٧ هـ ) إذا روى عنه قرنه بآخر<sup>(٢)</sup> . وقد ترك معاذ بن معاذ العنبري  
( م ١٩٦ هـ ) رواية المسعودي ؛ لأنه رآه يطالع الكتاب ، يعني تغير حفظه<sup>(٣)</sup> . وقد قدم اليه  
رجل عشرة آلاف دينار ، وطلب منه أن يسكت عن فلان لا يتكلم فيه بجرح ولا تعديل ،  
فأبى ورفض هذا المال العظيم ، وقال : « لا أكتم الحق »<sup>(٤)</sup> .

وهذا قليل من كثير يدل على أمانة علماء الحديث والرجال ، وتدقيقهم في موضوعهم ،  
وتحريهم الحق والعدل في شهاداتهم ، فهل يوجد في تاريخ العلم نظير لهذه الأمانة  
والتدقيق ؟

### قوة الذاكرة واستحضار العلم :

وقد كان هؤلاء المشتغلون بحديث رسول الله ﷺ صفوة البلاد التي فتحها الاسلام .

(١) طبع كلكته ١٨٥٣ ، ١٨٦٤ م .

(٢) تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٣٠ .

(٣) تهذيب التهذيب ج ٦ ص ١١ .

(٤) الرسالة المحمدية للعلامة السيد سليمان الندوي نقلا من تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر .

كانوا أقوياء ، وكانوا على جانب عظيم من الصبر والجلد واحتمال المشاق وقوة الذاكرة ، وكانت عندهم نهامة للعلم ، وحرص زائد على اقتباسه والتقاطه من مواضعه ، وقد قويت ذاكرتهم لاعتمادهم عليها ، وعنايتهم بها ، شأن الأعضاء التي يعتنى بها ويعتمد عليها ؛ حتى صدرت منهم حوارق فى ذلك قد يتبادر الشك فيها واستغرابها إلى من لم يجربها ولم يشاهد أهلها . ولم يعرف كيف تنشأ الملكات فى الرجال بكثرة الاشتغال ، وكيف تقوى ، وكيف تأتى بالعجائب . وقد استفاض لك عن كثير من الأدباء والشعراء والموهوبين ، ورويت عنهم أخبار فى قوة الذاكرة يستغربها الانسان فى هذا العصر الذى انصرفت فيه النفوس عن التحفظ والاستحضر ، واعتمد فيه على الكتب والاسفار . وإذا عكف الانسان على شئ ، وانصرف اليه بكل همته ، وملك عليه هذا الموضوع فكره ومشاعره ، تفتحت قريحته فى ذلك ، حتى يخيل إلى الانسان أنه يلهم الهاما .

ومن أعجب ما روى فى ذلك ، هو ما يرويه أبو أحمد بن عدى الحافظ ، عن الامام محمد بن اسماعيل البخارى ، صاحب الجامع الصحيح ، قال « سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : أن محمد بن اسماعيل البخارى قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا متونها وأحاديثها ، وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر ، واسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس ، لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث . فقال : « لا أعرفه » . فلم يزل يلقى عليه واحدا واحدا حتى فرغ والبخارى يقول : « لا أعرفه » وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى البعض ويقولون : « فهم الرجل » . ومن كان لم يدر القصة ، يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الحفظ . ثم انتدب رجل من العشرة أيضا فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال : « لا أعرفه » . فسأله عن آخر ، فقال : « لا أعرفه » . فلم يزل يلقى عليه واحدا واحدا حتى فرغ من عشرته . والبخارى يقول : « لا أعرفه » ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من القاء تلك الأحاديث المقلوبة . والبخارى لا يزيدهم على أن يقول : « لا أعرفه » فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا . وصوابه كذا وحديثك الثانى كذا وصوابه كذا . والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة . فرد كل متن إلى اسناده وكل

اسناد إلى متنه . وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ . وأذعنوا له بالفضل .

قال الحافظ بن حجر بعد ما حكى هذه القصة « قلت : هنا يخضع للبخارى ! فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب ؛ فإنه كان حافظا ؛ بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة » (١) .

### احشاد الناس في مجالس الحديث :

وقد وجد في الناس - خاصتهم وعامتهم - اقبال غريب على مجالس الحديث ، وتهافت على سماعه وحضور دروسه ، فكان الناس إذا قدم محدث جليل يتقاطرون على أخذ الحديث منه ، ويحضرون حلقاته في عدد يقضى منه العجب ، وأغرب من هذا العدد هو الوقار والسكينة والهدوء الذي كان يسود في هذه المجالس ، فكان الناس منصتين هادئين كأن على رؤوسهم الطير ، ويدل ما يحكيه الذهبي في تذكرة الحفاظ على الاندفاع القوي ، والاتجاه العام الذي وجد في الجمهور إلى حديث نبيهم ﷺ وشغفهم به ، وتأثير المحدثين في عقول الناس ونفوسهم . قال يحيى بن أبي طالب : سمعت من يزيد بيغداد ، وكان يقال في مجلسه سبعون ألفا (٢) . قال أبو حاتم حضرت مجلس سليمان بن حرب (م ٢٢٤هـ) فحزر بأربعين ألفا . بنى له شبه منبر بجانب قصر المأمون فصعده ، وحضر المأمون والأمراء ، فأرسل المأمون سير ساف وبقى يكتب ما يملئ (٣) . قال أبو الحسين بن المبارك عن عاصم بن علي المحدث الشهير ( م ٢٢١ هـ ) كان مجلسه يحزر بأكثر من مائة ألف انسان ، قال عمر بن حفص السدوسي : وجه المعتصم من يحزر مجلس شيخنا عاصم ( م ٢٢١ هـ ) . في رحبة النخل ، وكان يجلس على سطح سمعته يوما يقول : «حدثنا الليث بن سعد» وهم يستعيدونه . فأعاد أربع عشرة مرة والناس يسمعون . وكان هارون يركب نخلة معوجة يستملى . فحزر المجلس بعشرين ومائة ألف (٤) . وقال أحمد بن جعفر الختلي : « لما قدم أبو مسلم الكجى ( م ٢٩٢ هـ ) بغداد . أملى في رحبة غسان ، فكان في مجلسه سبعة مستمليين . يبلغ كل واحد منهم الآخر . ويكتب الناس عنه

(١) مقدمة فتح الباري ص ٤٨٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ ، ج ١ ص ٢٩٢ .

(٣) أيضا ج ١ ص ٣٦٠ .

(٤) أيضا ص ٣٦٤ .



قياماً ، ثم مسحت الرحبة ، وحسب من حضر بمحبرة ، فبلغ ذلك نيفا وأربعين ألف محبرة سوى النظارة ، قال الذهبي : هذه حكاية ثابتة رواها الخطيب في تاريخه (١) . ويقول أبو حفص الزييات : لما ورد الفريابي إلى بغداد استقبل بالطيارات والربارب ، ثم أوعده الناس إلى شارع المنار ليسمعوا منه ، فحزر من حضر مجلسه لسماع الحديث . فقيل : كانوا نحو ثلاثين ألفاً ، وكانوا المستملون ثلاثمائة وستة عشر . قال أبو الفضل الزهري : لما سمعت من الفريابي ، كان في مجلسه من أصحاب المحابر من يكتب نحو عشرة آلاف إنسان ما بقي منهم غيري ، هذا سوى من لا يكتب . قال ابن عدي (م ٣٦٥هـ) : كنا نشهد مجلس الفريابي وفيه عشرة آلاف (٢) . وذكر الفريابي : أنه سمع الجامع الصحيح من البخاري تسعون ألفاً (٣) .

وبهذه الأخبار التي التقطناها من مجموعة كبيرة يمكننا أن نعرف كيف شغف الناس في هذا العصر الذي نؤرخه بالحديث النبوي ، وكيف تهافتوا عليه تهافت الفراش على النور .

### الصحاح الستة :

وهكذا أصبح الحديث موضوع عناية هذه الأمة بعد القرآن . وانصرفت إلى جمعه وتدوينه ضبطه وتنقيحه همم المخلصين المجاهدين ، وما زالوا يعنون به ، ويتفانون في سبيله . حتى خرجت من هذه المجموعة الكبيرة التي كانت منبثة في الآفاق مجاميع صحيحة منقحة للحديث النبوي ، كان في مقدمتها هذه الكتب الستة التي تواضع علماء هذا الشأن وأصحاب الصناعة ، والمشتغلون بالعلوم الدينية ، والناقدون لها ، على صحتها وتقديمها على غيرها ، وهي الجامع الصحيح للبخاري ، والجامع الصحيح لمسلم ، والجامع للترمذي ، والسنن لأبي داود السجستاني ، والسنن للنسائي ، والسنن لأبن ماجه ، واصطلح العلماء على تسميتها بالصحاح الستة (٤) .

ثم يمتاز بينها ويتفوق في في الصحة والقبول والاستفاضة كتابان : أولهما « الجامع الصحيح » لمحمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي البخاري م ٢٥٦ هـ . والثاني « الجامع

(١) تذكرة الحفاظ ، ج ٣ ص ١٩٦ .

(٢) أيضا ص ٢٦٢ .

(٣) مقدمة فتح الباري ص ٤٩٢ ، وقد جمع هذه المعلومات والأخبار السرى الفاضل والمؤلف المجيد

مولانا حبيب الرحمن الشرواني في كتابه البديع « العلماء السلف » .

(٤) يضاف إلى هذه الكتب الستة الموطأ للإمام مالك بن أنس .

الصحيح « لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري م ٢٦١ هـ . واصطلىح الناس على نسميتها « بالصحيحين » وكل ما يرويانه من حديث ب « متفق عليهما » وقد قال امام الحديث فى العصور المتأخرة ، شيخ الاسلام ، ولى الله ابن عبد الرحيم الدهلوى ١١٧٦هـ<sup>(١)</sup> - فى كتابه « حجة الله البالغة » :

« أما الصحيحان فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع ، وأنهما متواتران إلى مصنفيهما ، وإن كل من يهون أمرهما فهو مبتدع تبع غير سبيل المؤمنين »<sup>(٢)</sup> .

وقد ظلت هذه الكتب الستة - ولا تزال - مصدرا من مصادر الاصلاح والتجديد والتفكير الاسلامى الصحيح فى الأمة الاسلامية . تلقى منه المصلحون فى عصورهم العلم الدينى الصحيح ، والفكر الاسلامى النقى ، واحتجوا بأحاديثه ، واستندوا اليها فى دعوتهم إلى الدين والاصلاح ، وفى محاربتهم للبدع والفتن والفساد ، ولا يستغنى عن هذا المصدر كل من يريد ارجاع المسلمين فى عصره إلى الدين الخالص والاسلام الكامل ، ويريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية والأسوة الكاملة ، وكل من تلجئه الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الاحكام الجديدة .

### تدوين الفقه :

كذلك كانت الأمة فى حاجة ملحة إلى حركة تدوين الفقه . وقد اضطرت التطورات التى طرأت على المجتمع الاسلامى ، واتساع رقعة المملكة الاسلامية ، وتعقد المدنية وطرافة المسائل والحوادث ، وانشعاب الحياة ، إلى استنباط المسائل واستخراج النتائج ، وترتيب الجزئيات والفتاوى .

وقد خرج الاسلام من الجزيرة العربية - حيث الحياة بسيطة والمدنية محدودة - إلى بلاد مخصبة واسعة ذات المدنات القديمة . والآفاق الواسعة ، كالشام والعراق ، ومصر ، وايران ، وقد توسعت الحياة الاجتماعية ، وتعقدت نظم التجارة والادارة ، وقد كانت مهمة تطبيق اصول الاسلام على هذه المسائل والحوادث ، واخضاع الحياة المدنية لروح الاسلام وأسسه يطلب ذكاء فائقا وفهما دقيقا ، واطلاعا واسعا على المجتمع العصرى الذى كان المسلمون يعيشون فيه ، والماما كافيا بعلم النفس ، والطبيعة البشرية ، وخبرة واسعة

(١) هو أحمد بن عبد الرحيم .

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ، ص ١٠٦ .

بطبقات الأمة ونواحي الحياة العامة ، يضاف إلى ذلك ، الاطلاع الواسع على تاريخ الاسلام ، والوقوف على مصادره وأصول التشريع الاسلامى ، مع الرسوخ والتضلع فى اللغة العربية التى نزل بها القرآن ونطق بها الرسول .

### الأئمة الأربعة وخصائصهم :

لقد كان من لطف الله بهذه الأمة ، وكان من التيسير ، أن قيض لهذه المهمة الجليلة رجالا يعدون من الأفاض والنوابغ الذين أنجبتهم الانسانية فقها وأمانة ، واخلصا وكفاية . كان منهم هؤلاء الأربعة ( أبو حنيفة م ١٥٠ هـ . ومالك م ١٧٩ هـ . والشافعى م ٢٠٤ هـ وأحمد بن حنبل م ٢٤١ هـ ) الذى قدر لفقهم أن يعيش إلى هذا اليوم ويخضع له العالم الاسلامى . وقد فاق هؤلاء فى فهمهم الدقيق الواسع ، ووقفوا حياتهم واستعملوا مواهبهم بسخاء فى تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية التى لا تعادلها ذخيرة فقهية فى العالم ، والتى لا تزال مرجعا ومادة واسعة للتشريع لهذا العصر . وقد توفر هؤلاء على هذه الخدمة التى لا تزال مرجعا ومادة واسعة للتشريع لهذا العصر وقد توفر هؤلاء على هذه الخدمة التى تدين لها الأمة ، ويدين لها العالم ، وآثروها على كل راحة ولذة وجاه ومنصب فى الحياة ، وقد خاب ملوك عصرهم وأمراؤه ، وخابت الأطماع والاغراءات أن تشغل قلوبهم ، أو تتوزع عقولهم وأوقاتهم ، وقد عرض على أبى حنيفة منصب القضاء الذى كان منصبا كبيرا وشرفا عظيما مرتين فرفض وامتنع ومات فى السجن وقد ضرب مالك مائتى سوط لأجل مسألة جهر بها وخلعت كتفاه . وهى أن طلاق المكره ليس بشئ . وقد قضى الشافعى معظم حياته فى عسر وضنك ، وبذل صحته وقوته فى استنباط الأحكام وتدوين الفقه ، وعارض أحمد بن حنبل اتجاه حكومة هى كبرى الحكومات وأقواها على ظهر الأرض فى عصره ، ودافع عن السنة والفكر الاسلامى الصحيح حتى عوقب وعذب وضرب وسجن .

وقد أنتج كل واحد منهم ثروة علمية ، وخلف تراثا فقهيا ينوء بالمجامع العلمية والمؤسسات الكبيرة فى هذا العصر ؛ فقد روى أن أبى حنيفة قال ستين ألف مسألة . وقال بعضهم ثلاثة وثمانين ألفا : ثمانية وثلاثين ألفا فى العبادات ، وخمسة وأربعين ألفا فى المعاملات<sup>(١)</sup> .

وقد ذكر شمس الأئمة الكردرى : أن عدد المسائل التى دونها يبلغ إلى ست مائة

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٨٨ نقلا عن مناقب أبى حنيفة للمكى ص ٩٦ .

ألف<sup>(١)</sup> . ومهما كان العدد مبالغاً فيه فلا شك أنه أنتج ثروة فقهية ضخمة هي أساس هذا الفقه الحنفى الذى استطاع أن يحكم المساحة الكبرى فى المملكة الاسلامية أيام ازدهارها ، ويكون دستور مملكة هي أرقى الملكات فى عصرها ، وهي الدولة العباسية .

وكذلك شأن مالك فى الفقه ، فكتابه « المدونة » الذى هو مجموعته الفقهية ، تبلغ نحو ستة وثلاثين ألف مسألة<sup>(٢)</sup> . وكتاب الأم الذى هو من افادات الشافعى مجموعة فقهية ضخمة تقع فى سبعة أجزاء وقد جمع أبو بكر الخلال ( م ٣١١ هـ ) مسائل الامام أحمد فى أربعين مجلداً أسماه الجامع لعلوم الامام أحمد<sup>(٣)</sup> .

### تلاميذ الأئمة الأربعة وخلفاؤهم :

وقد رزق الله هؤلاء الأئمة الفقهاء تلاميذ نجباء قاموا بعلمهم وزادوا فى ثروته ، وظلوا يشتغلون بتنقيحه وتهذيبه ، وقد رزق الامام أبو حنيفة تلاميذ : مثل القاضى أبى يوسف (م ١٨٢ هـ) الذى استطاع بذكائه النادر ، ومقدرته الفقهية أن يكون قاضى الامبراطورية العباسية العظيمة ، والمشرف الدينى عليها ، وقد ألف كتاب الخراج الذى يشهد بسعة علمه ودقة فهمه ، ومحمد بن الحسن ( م ١٨٩ هـ ) الذى هذب الفقه الحنفى وألف مؤلفات لا تزال مصدر الفقه الحنفى . وزفر بن هذيل ( م ١٥٨ هـ ) الذى عرف بحدة القياس وقوة الحجج .

ورزق الامام مالك تلاميذ عرفوا بحسن الوفاء لشيخهم ، والحرص على نشر مذهبه ، مثل عبد الله بن وهب ( م ١٩٧ هـ ) وعبد الرحمن بن القاسم العتقى ( م ١٩١ هـ ) وأشهب بن عبد العزيز ( م ٢٠٤ هـ ) وعبد الله بن عبد الحكم ( م ٢١٤ هـ ) ويحيى بن يحيى الليثى ( م ٢٣٤ هـ ) الذين دانت بفضلهم مصر وشمال افريقيا بالفقه المالكى .

ورزق الامام الشافعى مثل البويطى ( م ٢٣١ هـ ) والمزنى ( م ٢٦٤ هـ ) وربيعة ( م ٢٧٠ هـ ) الذين دونوا الفقه الشافعى وهذبوه . وكذلك كان من اتباع الامام أحمد مؤلف ومحقق ، مثل ابن قدامة ، الذى صنف « المغنى » الذى يعد من مفاخر المكتبة الاسلامية الفقهية .

(١) سيرة النعمان للعلامة شبلى النعمانى ، نقلا عن قلاند عقود العقيان .

(٢) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) أنظر ترجمة أبى بكر الخلال فى شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٦١ .

## ماذا أفاد تدوين الفقه ؟

لقد كان وجود هؤلاء الفقهاء المجتهدين والمشرعين فى قرون الاسلام الأولى برهاناً ساطعاً على صلاحية هذه الأمة للبقاء والانتشار . وقد أوجدت بفضل مساعيهم ونبوغهم وحدة الأمة العملية ، فى اجتماعها ومعاملاتها وسياستها المالية ، وهذه الوحدة عامل مهم من عوامل الوحدة الدينية والفكرية ، وبذلك أمنت هذه الأمة من تلك الفوضى الاجتماعية والتشريعية التى أصيبت بها الأمم والديانات فى عهدها الأول . والتى تدرجت بها إلى حياة لا دينية تسير فيها على النظم اللادينية أو تقتبس التشريع الأجنبى الثائر على روح دينها ومبادئه ، وألجأتها إلى التمسك بمبدأ فصل الدين عن السياسة ، الذى هو الخطوة الأولى الحاسمة إلى الالحاد والارتداد .



## الإمام أحمد بن حنبل

### نشأة الاعتزال والمعتزلة :

يحلو لى أن أفتح هذه المحاضرة بكلمة سبقت لى فى كتابى « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » . قد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره ، وما يهجم عليه الانسان بعد موته ، وأتاهم علم ذلك كله بواسطة علمهم عفا بدون تعب . وكفوهم مؤونة البحث والفحص فى علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ؛ ليتوصلوا إلى مجهول ، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، لا تعمل فيها حواسهم ، ولا يؤدى إليها نظرهم وليست عندهم معلوماتها الأولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعا . وبدأوا البحث أنفا . وبدأوا رحلتهم فى مناطق مهولة لا يجدون فيها مرشدا ولا خريتا . وكانوا فى ذلك أكثر ضلالا وأشد تعباً وأعظم اشتغالا بالفضول من رائد لم يقتنع بما أدى إليه العلم الانسانى فى الجغرافية ، وما حدد وضبط من الخرائط على تعاقب الأجيال وأراد أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قصر عمره وضعف قوته وفقدان آتته فلم يلبث أن انقطعت به مطيته ، وخانته عزيمته ، فرجع بمذكرات وإشارات مختلفة ، وكذلك الذين خاضوا فى الالهيات من غير بصيرة وعلى غير هدى ، جاءوا فى هذا العلم بآراء فجة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر سانحة ، ونظريات مستعجلة ، فضلوا وأضلوا .

وكذلك منحتهم الأنبياء عليهم السلام مبادئ ثابتة وحكمات ، هى أساس المدنية الفاضلة والحياة السعيدة فى كل زمان ومكان ، فحرموها على تعاقب الاعصار ، فبنوا مدنيتهم على شفا جرف هار ، وأساس منهار ، وعلى قياس واختبار ، فزاغ أساس المدنية وتداعى بناؤها وخر عليهم السقف من فوقهم .

وكان الصحابة رضى الله عنهم سعداء موفقين جدا ؛ إذ عولوا فى ذلك كله على رسول الله ﷺ ، فكفوا المثونة ، وسعدوا بالثمرة ، ووفروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم فى غير جهاد ، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعينهم من الدين والدنيا ، وتمسكوا بالعروة الوثقى ، وأخذوا فى الدين بلب اللباب .

هذا هو تصوير الواقع فى آخر القرن الثانى ، وإن لم أقصد تصويره ؛ وإنما قصدت تصوير العصور الجاهلية وعصور الفترة ؛ ولكن الطبيعة البشرية جامحة لا تقف على الحدود، نهمة بالمتاعب والجهاد فى غير جهاد ، فلم ينقص القرن الأول ، ولم ينقرض الجيل الإسلامى الأول - الذى تلقى الدين من النبى ﷺ ، وكان كما وصف عبد الله بن مسعود « أبر الناس قلوبا ، وأعمقهم علما ، وأقلهم تكلفا » - حتى أولع الناس بالخوض فى مسائل الذات والصفات ، وآثاروا مسائل ليست عندهم وسائل الوصول إليها ، ومؤهلات الحكم عليها ، وكان ذلك بتأثير الفلسفة اليونانية التى لم تكن الا مجموع خواطر لا تقوم على أساس علمى ، وطلسما من كلمات ومصطلحات يروع الانسان . فاذا افتقده لم يجده شيئا . وقد كان المسلمون فى غنى عن ذلك بما جاء به الرسول من علم محكم ، وبينه واضحة كما قدمنا ، وقد انصرفت همهم إلى الجهاد والفتح الإسلامى ، ونشر الدعوة والمسائل الجديدة ، وتدوين العلوم المفيدة ، ملك عليهم ذلك عقولهم وأفكارهم ، واستنزف جهودهم وأوقاتهم ، فلما انتقلت العلوم اليونانية والسريانية إلى العربية ، وانصرف الناس عن ميدان القتال ، وتنفسوا عن الجهاد ، أثرت هذه المباحث ، وأقبل الناس عليها ، وكان أسرع الناس إليها هى الطبقة التى كانت أشد انفعالا وتأثرا ، وأسرع قضاء وتحكما ، وكانت ذات فطنة وذكاء حاد ؛ ولكنه ذكاء ليس فيه عمق ونبوغ ، وكان ذكاء طافيا لم يعرف الرسوب والنزول إلى الأعماق والاستقرار فى القعر .

كان يتقدم هذه الطبقة طائفة تعرف فى تاريخ الإسلام « بالمعتزلة » الذين كانوا مع ثقافتهم الواسعة وذكائهم النادر لم يتعمقوا فى العلم ولم يدققوا ، وكانت ثقافتهم أوسع مما هى أعمق ، وقد أخطأ كثير منهم فهم حقيقة الدين وأسرفوا فى تقدير سلطان العقل وحدود العلم الانسانى ؛ فجاءت نظرياتهم فى الدين ومباحثهم فى ما وراء الطبيعة نظريات فجأة لم تنضج بعد ، ومباحث مستعجلة قد فاتها الأحكام والتدقيق ، شأن كل شعب وكل طائفة فى بداية الدور العقلى ، وفى الطفولة العقلية ، ولو قدر لهم أن يعيشوا أو يتقدموا فى العلم لنقصوا كثيرا مما أبرموا ، وأبرموا أكثر ما نقضوا .

وقد لاحظ الدكتور أحمد أمين - الذى انتصر للمعتزلة فى كتبه ، وكان شديد الإعجاب بهم عظيم الاعتراف بانتاجهم وخدمتهم للدين - ان نقطة الضعف فيهم أنهم أسرفوا فى تمجيد العقل والايان بقوته واقتداره . يقول - وهو يذكر الخلاف بين المحدثين والمعتزلة - : « فجوهر الخلاف اذن بين هؤلاء والمعتزلة هو سلطة العقل ومداهها وحدودها ، رأى المعتزلة أن العقل البشرى قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من اقامة البرهان حتى على ما يتعلق



بالله ، فلا حدود للعقل الا براهينه ، ولا زلل ولا خطأ متى صح البرهان ، فاستعملوا البراهين فى أدق الأمور وأصعبها وأعقدها ، ففى استطاعة العقل الوصول إلى الحق فيها ، وهكذا كانت نزعة المعتزلة هذه متجلية فى كل أبحاثهم ، يسرون وراء البرهان إلى نهايته ، ويشرون أصعب المشاكل وأعقدها ، ويتعرضون لحلها ، فإذا تم لهم حلها أو - على الأقل - اعتقدوا بحلها ، تأولوا آيات القرآن على مقتضاها ، وعلى العكس من ذلك الآخرون ، رأوا أن العقل أضعف من ذلك ، وأن استطاعته محدودة بإدراك ما يتعلق بشأنه هو ، أو أقل من ذلك ، وأنه منح القدوة على أن يدرك البرهان على وجود الله ، والنبوة العامة ، ونبوة محمد خاصة ولم يمنح القدرة على كنه الله وصفاته ، فلنؤمن بما جاء به أنبيأؤه ، ولنقف عند ما قالوه ، ولا نثر مشاكل لم يأت بها الأنبياء ، ولنسد الطريق على من يتبرونها ، فان جادلناهم فى شئ ففى بيان خطئهم وفساد طريقتهم <sup>(١)</sup> .

ويقول فى موضع آخر ، منتقدا نزعة المعتزلة إلى قياس الغائب على الشاهد ، وهو أساس منطقهم الذى جروا عليه فى فلسفتهم الدينية :

ولعل نقطة الضعف فىهم أنهم أفرطوا فى قياس الغائب على الشاهد ، أعنى فى قياس الله على الانسان ، واخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم ، فقد ألزموا الله - مثلا - بالعدل كما يتصوره الانسان ، وكما هو نظام دنيوى ، وفاتهم أن معنى العدل - حتى فى الدنيا - معنى نسبى يتغير تصوره بتغير الزمان ، وأن ما كان عدلا فى القرون الوسطى يعد ظلما الآن ، فكيف إذا انتقلنا من عالم الدنيا إلى عالم الله ؟! وكذلك الشأن فى قولهم فى الحسن والقبح ، والصلاح والأصلح ، إنا نرى أن الانسان إذا ضاق نظره حكم على الأشياء حكما ، فإذا اتسع نظره تغير حكمه ، فمن نظر فقط إلى أسرته كانت بعض أحكامه خطأ بالنسبة لمن اتسعت نظرتة إلى أمة أو إلى الانسانية عامة .

ونحن فى أعمالنا ننظر إلى عالمنا والله تعالى رب العالمين قد ينظر فى أعماله إلى جميع العوالم ، ما نعلم منها وما لا نعلم ، فكيف نخضع الله تعالى لتصور العدل الذى نتصوره نحن فى عالمنا هذا ؟! وكذلك قولهم فى أن صفات الله هى عين الله أو غير الله ، كل براهينهم مبنية على قياس الغائب على الشاهد ، ولكن الشبه معدوم ، وقد فرضوا أن العينية والغيرية والزمانية والمكانية والسببية ونحوها قوانين لازمة لكل موجود ، وهذا - فى نظرى - خطأ محض ، فهى قوانين انسانية ، وأن تسامحنا قليلا قلنا أنها قوانين عالمنا هذا،

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣٩ .

ولسنا نستطيع القول بأنها تنطبق على غير عالمنا أو لا تنطبق ، فاصدار حكمنا على الله - على اعتقاد أنها قوانين شاملة للانسان والله - جراءة لا يرتضيها العقل الذي يعرف قدره ، ولا يعدو طوره ، وليس هذا عيب المعتزلة وحدهم ، بل هو عيب من أتى بعد من علماء الكلام كذلك .

لقد كان هذا الاتجاه العقلي الذي تزعمه المعتزلة ، والذي كان يقوم على تمجيد العقل وتأليهه ، وإخضاع النظام الديني بما فيه من عقائد وحقائق - بل إخضاع الذات والصفات والأفعال الالهية له ، وعلى قياس الغائب على الشاهد اتجاها خطرا على الاسلام ، وفتح باب فساد عظيم في المجتمع الاسلامي . لقد كان هذا تحويلا للدين البسيط العملي الذي جاء به الرسول ﷺ ، يستسيغه العقل البشري بكل سهولة إلى فلسفة نظرية دقيقة يعجز عن فهمها واساقتها كثير من العقلاء والأذكياء . ولقد كان هذا تنمية للعقل على حساب العاطفة والوجدان ، واضعافا للإيمان ، واثارة للشكوك والشبهات ، وعدم الثقة بما يقوله النبي . ويعجز العقل عن تعليله واقامة الدليل على وجوده ، وما أكثر في العالم ما يعجز العقل عن تعليله واقامة الدليل عليه .

واسمحوا لي أن أنقل كلمة أخرى للدكتور أحمد أمين في انتقاده على المعتزلة في هذه الناحية :

« ربما أخذ عليهم أنهم في - سيرهم هذا وراء السلطان العقلي - قد نقلوا الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية ، والبراهين المنطقية ، وهذا النهج ، إذا صح أن تقتصر عليه في الفلسفة ، فلا يصح أن يقتصر عليه في الدين ، لأن الدين يتطلب شعورا حيا أكثر مما يتطلب قواعد منطقية ، فالدين ليس كالمسائل الرياضية ، ولا كالنظريات الهندسية تتطلب من العقل حلها . وفي ذلك كل الغناء ، بل الدين أكثر من ذلك ، يتطلب شعورا يدعو إلى العمل ، وحرارة إيمان تبعث على التقوى . ونظام المعتزلة - وهو الذي جرى عليه المتكلمون بدورهم - نظام جيد التفكير ضعيف الروح . غالى في تقدير العقل ، وقصر في قيمة العاطفة ، يتجلى ذلك لك إذا أنت وازنته مثلا بمنهج الصوفية فهو على العكس من المعتزلة : شعور وعاطفة ولا منطق ، والنظام العقلي في الدين يقف الانسان - في العادة - موقفا سلبيا أكثر منه ايجابيا »<sup>(1)</sup>.

(1) ضحى الاسلام .

## المأمون وعقيدة خلق القرآن :

بقي المعتزلة طائفة من طوائف المسلمين ، لا تملك نفوذا سياسيا ، ولا سلطة حتى ولى المأمون بن الرشيد الذى يصفه الدكتور أحمد أمين فيقول : « كان عقله عقلا فلسفيا ، حرا فى تفكيره ، مع التقيد بأصول الدين . . . كان الاعتزال أقرب المذاهب إلى نفسه ، لأنه أكثر حرية ، وأكثر اعتمادا على العقل ، فقرب المعتزلة منه ، وأصبحوا ذوى نفوذ فى القصر ، وكان من أظهرهم ثمامة بن الأشرس ، وأحمد بن أبي داود »<sup>(١)</sup>.

« لم يكن المأمون امعة يوجه فيتوجه ، ولكنه - مع قوة شخصيته - يتأثر برأى من حوله ، وكان على استعداد لذلك ، فمن قبل ، أدخل المسائل الدينية فى شئون الدولة ، فأعلن تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر ، وأغضب بذلك كثيرا من الناس ، ونادى - من قبل - بتحليل المتعة وهو فى طريقه إلى الشام ، لما صح عنده من حديث حل المتعة ، فما زال يحيى بن أكثم يروى له الأحاديث فى حرمتها عن الزهرى وغيره ، ويقيم له البراهين على حرمتها ، حتى اقتنع فأمر بأن ينادى بتحريمها بعد أن كان قد أمر بها »<sup>(٢)</sup>.

وهذا وصف صادق للمأمون ، وتصوير نفسيته وطبيعته ، حدة فى الذكاء ، والتقاط للآراء ، وتهور فى الرأى ، وسرعة فى التنفيذ ، وهى صفة ملك قوى الشخصية ، شديد الانفعال ، لم تمهله أحواله والظروف المحيطة به للدراسة العميقة ، والعلم الراسخ ، وقد أحاط به علماء وأذكياء يحرصون على النفوذ فى عقله ، وتنفيذ مذاهبهم واراتهم فى الشعب ، وقهر أعدائهم عن طريق السلطان .

وهكذا أصبح المعتزلة أصحاب حول وطول فى الدولة العباسية ، وأصبح الاعتزال مذهبا رسميا يتبناه قاضى القضاة ، أحمد بن أبى داود ، ويحميه الخليفة العباسى ، ويدين به أصحاب المناصب والجاه والنفوذ فى المملكة .

ولم يشأ تدين المعتزلة أو طبيعتهم الخاصة أن تعيش فى المملكة فكرتان متنافستان ، وأن ينازع الاعتزال مذهب أهل الظاهر والقشور ( يعنى المحدثين ) ، لقد صدق الأستاذ أحمد أمين إذ قال : « كان لهم طابع خاص غريب يجمع بين التعصب الحاد وحرية الفكر المفرطة »<sup>(٣)</sup> . وقد رأينا مرارا فى التاريخ ، أن المؤمنين بحرية الفكر المفرطة يطغى عليهم

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٦٣ .

(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٦٥ .

(٣) ضحى الاسلام ج ٣ .

التعصب الحاد ، وكأنهم يريدون أن يحتكروا حرية الرأي ويمنعوها غيرهم ، وشأنهم في ذلك شأن المطففين ﴿ إذا اختلفوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ وهذا الذي نشاهد في هذا العصر عند الأحزاب السياسية .

انتهز المعتزلة هذه الفرصة السانحة ، وصمموا على أن يكون الاعتزال هو التعبير الوحيد عن عقيدة الاسلام ، والمذهب السائد في المملكة لا يزاحمه مذهب آخر ، وكانت « مسألة خلق القرآن » هي المسألة الحاسمة التي يصح أن تصبح مقياسا للخضوع والاعتزال والتدين بمذهبه ، فركز المعتزلة أعلامهم على هذه المسألة وجعلوها فارقا بين الايمان والكفر ، وشعارا للتوحيد ، وشرطا لصحة العقيدة .

وقد ألح المعتزلة على تسمية القرآن بالمخلوق ، لأنهم يرون أن الله هو وحده القديم ، وكل ما عداه فهو محدث ومخلوق . وأنكر المحدثون هذا التعبير المحدث ، وألحوا على أن يسموه القديم ، واستشنعوا أن يسموه المخلوق ، وقالوا : « القرآن كلام الله ، لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق ، واثارة هذه المسألة بدعة ، لم يقلها النبي ﷺ ولا صحابته ، فلا نتابعكم في السير فيها ، ولا نتابعكم في الجدل أو الخصومة ، ونقف عند قولنا : القرآن كلام الله ، وهذا فقط هو ما قال الله في قرآنه الكريم . إنهم كانوا يعتقدون أن الكلام في هذا لا يصح ، ولا يصح أن يصل إلى العامة ، فإذا قلنا لهم « القرآن مخلوق » لم يبق في نفوسهم الا شيء واحد ، وهو عدم التقديس والاجلال ، وهذا يدعو إلى ضعف العقيدة ، والاستهانة بالقرآن ، وقد يجلب بعض القائلين إلى أن يعتقدوا - كما ظهر في بعض الأوساط - أن المعانى من الله ، وإنما عبر الرسول عنها بلفظه وعبارته » (١) . أما المعتزلة فرأوا - بحكم العقلية التي نشأوا عليها - أن المطالبة بهذه العقيدة فرض محتتم ، لا يصح العدول عنه . ولا يسع الحكومة التي تدين بالاسلام ، وتحمي عقيدة التوحيد ، أن تداهن أو تتساهل في تنفيذ هذه العقيدة وأخذ الناس بها ، يمثل هذه الفكرة وهذه النفسية خير تمثيل ما جاء في كتب المأمون :

« قد عظم هؤلاء الجهلة » القائلون بأن القرآن كلام الله غير مخلوق « بقولهم في القرآن الثلم في دينهم ، والجرح في أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الاسلام . . ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده ، وشبهوه به . . . . . وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال

---

(١) إذا شئت الاطلاع على مذاهب المعتزلة والمتكلمين وأهل السنة في هذه المسألة ودلائلهم ، فاقرا «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين » للشيخ نعمان الالوسي البغدادي .

بهذه المقالة حظا في الدين ، ولا نصيبا من الايمان واليقين » .

وهكذا رأى المعتزلة أن الاسلام يتركز في الاعتقاد بخلق القرآن ، وحملوا على رأس الحكومة الاسلامية - المأمون بن الرشيد العباسي - على حمل المسلمين على هذه العقيدة ، فحمل الناس عليها سنة ٢١٨ هـ ، وبدأ ذلك بارسال كتاب إلى والي بغداد ، اسحاق بن ابراهيم ذكر فيها : أن خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين واقامته والعمل بالحق في الرعية ، وذكر أن القائلين بقدوم القرآن والمنكرين لخلقه « شر الأمة ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد . . . . وأحق من يتهم في صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل الا بعد يقين ، ولا يقين الا بعد استكمال حقيقة الاسلام وإخلاص التوحيد ، وأمره بجمع الناس وامتحانهم في هذه العقيدة ، وعزل كل من لا يوافق عليها ولا يدين بها .

وهكذا بدأت هذه الفتنة التي تسمى في التاريخ « بالمحنة » وكان ذلك قبل وفاة المأمون بأربعة أشهر .

احتضنت الدولة العباسية الكبرى في عهد ملك من أقوى ملوكها ، وأعظمهم شأنا وسلطانا ، عقيدة لا يفهمها العامة ، ولا يوافق عليها الشعب ، وفرضتها على الجمهور وجعلتها فارقا بين الكفر والايان ، والشرك والتوحيد ، وأمرت باقصاء كل من لا يدين بها أو يخالفها ، وامتحانه وتعذيبه ، فكانت ميحنة عظيمة على الأمة ، وفكرة فلسفية ضاق عنه تفكير العامة ، وضاعت بها نفوسهم ، لأنها تطلب مستوى علميا راقيا ، والماما بالفلسفة وذكاء . والذين يملكون هذه الأدوات لم يزالوا ولا يزالون قلة بين الشعوب ، يعجبني في ذلك ما قال الأستاذ أحمد أمين ، وهو يذكر غلطة المعتزلة وبلاهمتهم - على ذكائهم - في هذا الشأن :

« كان عقل المعتزلة عقلا حادا جافا فلسفيا ، وأضعف نقطة فيه أنه يراد أن يفرض على العامة فرضا ، يراد أن تكون الأمة فلاسفة تعرف الجوهر والعرض ، والكمية والكيفية ، والمحدود واللا محدود ، والوحدة والتعدد ، والمكان والجهة ، وإلى الآن لم يخلق الله أمة كلها فلاسفة على هذا النمط ، ولا أدري إن كان ذلك في مصلحة الانسانية أو لا » (١) .

ولكن قد كان ذلك ، فقد صدرت من الخليفة كتب وامتحان ناس ، وعزل ناس ، وكانت هذه المسائل الفلسفية شغل الدولة والخليفة ، وشغل الناس الشاغل ، ووقع الناس

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٢ .

فى بلاء عظم ، وفى حيرة عظيمة ، ولم يدروا كيف فعلون! مسألة لا يفقهونها ولا يسيغونها ولا يوافق عليها من يعتقدون فى الصلاح والنزاهة والتقوى وفهم الكتاب والسنة ، تفرض عليهم فرض الجباية ، ويمتحن فيها علماءهم ، ويعزل فيها قضاتهم ، ويسقط فيها شهودهم .

لقد كانت السنة بل الأمة بحاجة ملحة إلى الارشاد والتوجيه ، وإن شئتم قلتم إلى الزعامة الدينية ، وكان المسلمون فى حاجة شديدة إلى إمام يثقون بدينه وأمانته وفقهه ، يعارض هذا التيار ويقف فى وجه الحكومة مدافعا عن السنة ، جاهرا بالحق ، محتملا للأذى ، صابرا على البلاء ، ولا بد أن تكون شخصية قوية معروفة تتمتع بالاجلال والتقدير .

لقد ظهرت هذه الشخصية التى يصبح صاحبها « زعيم المعارضة » وحامل لواء السنة ، وهى شخصية أحمد بن حنبل .

**أحمد بن حنبل** : - هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ، الامام أبو عبد الله ، الشيبانى الدهلى .

نشأته ودراسته : - ولد فى ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ ، جئ به حملا من مرو ، وولد فى بغداد ، وتوفى أبوه محمد شابا ، فوليته أمه (١) .

نسبه عربى ، وهو شيبانى فى نسبه لأبيه وأمه ، وقد عرفت هذه القبيلة بالهمة والاباء وشدة الشكيمة والصلابة ، كان منها المثنى بن حارثة ، القائد الاسلامى المعروف ، انتقل جده إلى خراسان ، وكان واليا على سرخس ، فى العهد الأموى ، وناصر الدعوة العباسية عند ظهورها ، وأوذى فى هذا السبيل ، وكان أبوه قائدا كما ذكر الأصمعى .

ترك له أبوه عقارا ببغداد لا يقوم بنفقات الأسرة ، فنشأ على الصبر والقناعة والكفاف . حفظ أحمد بن حنبل القرآن فى صباه ، وتعلم القراءة والكتابة ، ثم اتجه إلى الديوان يمرن على التحرير ، ويقول فى نفسه : « كنت وأنا غليم اختلف إلى الكتاب ، ثم اختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة » وكانت نشأته فيها آثار النبوغ والرشد حتى قال بعض الآباء : « وأنا أنفق على ولدى وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا ، فما أراهم يفلحون ،

(١) ترجمة الامام أحمد من تاريخ الاسلام للحافظ الذهبى ص ١٠ .

وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم ! أنظروا كيف !؟ وجعل يعجب من أدبه وحسن  
طريقته»<sup>(١)</sup> .

وكان عمه يرسل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد ، ليعلم بها الخليفة ، وقد أرسلها مرة  
مع ابن أخيه ، أحمد بن حنبل ، فتورع عن ذلك ، ورمى بها الماء تأثما من الوشاية  
والتسبب لما عسى أن يكون فيه ضرر بالمسلمين ، وقد لفت هذا الورع وهذه النجابة كثيرا  
من أهل العلم والفراسات ، حتى قال الهيثم بن جميل : « إن عاش هذا الفتى فسيكون  
حجة على أهل زمانه » .

اتجه أحمد بن حنبل إلى الحديث ، وروى عنه أنه قال : « أول من كتبت عنه الحديث  
أبو يوسف » وبقي يتلقى الحديث ببغداد من سنة ١٧٩ هـ إلى سنة ١٨٦ هـ ولزم عالما كبيرا  
من علماء الحديث والآثار ببغداد أربع سنوات ، وهو هشيم بن بشير بن أبي حازم الواسطي  
( ١٨٣ ) وسمع عبد الرحمن بن مهدي وأبا بكر بن عياش ، وكان في طلبه العلم مثال  
الجد والحرص والنشاط ، فقد ذكر عن نفسه « كنت ربما أردت البكور في الحديث ، فتأخذ  
أمي بشيبي ، حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا » .

رحل أحمد سنة ١٨٦ إلى البصرة ، ثم رحل إلى الحجاز ، ورحل إلى اليمن ، وإلى  
الكوفة ، وضاعت نفقته عن الرحلة إلى الري ، قال : « لو كان عندي خمسون درهما  
لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد »<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ١٨٧ التقى في رحلته إلى الحجاز مع الشافعي ، وأخذ عنه الفقه  
وأصوله، وعلم الناسخ والمنسوخ ، ولقى الشافعي بعد ذلك ببغداد ، وقد حرر الشافعي  
فقهه ، ونضج أحمد في الحديث وعلم الرواية ، حتى كان الشافعي يقول له : « إذا صح  
عندكم الحديث فأعلمني به » .

ويدل على علو همته في طلب العلم ، قصة يرويها ولده صالح ، قال : « عزم أبي  
على الخروج إلى مكة ، ورافق يحيى بن معين ، فقال أبي : نحج ونمضي إلى صنعاء إلى  
عبد الرزاق ، قال فمضينا حتى دخلنا مكة ، فإذا عبد الرزاق في الطواف ، وكان يحيى  
يعرفه ، فطفنا ثم جئنا إلى عبد الرزاق ، فسلم عليه يحيى ، وقال : هذا أخوك أحمد بن  
حنبل ، فقال حياه الله ! أنه ليبلغني عنه كل ما أسر به ، ثبته الله على ذلك ! ثم قام

(١) أحمد بن حنبل : محمد أبو زهرة ص ١٨ .

(٢) ترجمة الامام أحمد ص ١٢ .

لينصرف ، فقال يحيى : ألا نأخذ عليه الموعد ؟ فأبى أحمد وقال : لم أغير النية فى رحلتى إليه أو كما قال ، ثم سافر إلى اليمن لأجله ، وسمع عنه الكتب وأكثر عنه « (١) .

واستمر على هذا الجد والطلب حتى بلغ مبلغ الامامة فى الحديث ، قال عبد الله بن أحمد ، سمعت أبا زرعة يقول : « كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث ، فقل له ، وما يدريك ؟ قال : ذاكرته ، فأخذت عليه الأبواب » (٢) وقال ابراهيم الحربى : « رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين » قال أبو عبيدة : « ما رأيت رجلا أعلم بالسنة من أحمد » وكان مع ذلك معجبا بالشافعى ، كثير الاجلال له ، يقول « ما رأيت عيناه مثله » وقد استفاد منه فى الفقه والاستنباط ، واعترف بذكائه الباهر ، وقوة قياسه ، وكان الشافعى معجبا به حتى قال : (خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه وأتقى من ابن حنبل) .

وجلس أحمد للتدريس والفتيا ، وقد بلغ الأربعين ، فوافق السنة ، ووافق فى نشر علم النبوة سن النبوة ، وكان اقبال الناس على مجالسه عظيما ، فقد ذكر أن عدد من كانوا يستمعون إلى درسه نحو خمسة آلاف ، وأنه كان يكتب فيهم نحو خمسمائة « (٣) .

وكانت مجالسه تمتاز بالوقار والسكينة وحسن الانصات واجلال العلم ، وكانت بعيدة عن الدعابة والهزل وكل ما يذهب رواء العلم وروعة الدين ، ، وكان للفقراء تقديم على الأمراء والأغنياء ، نقل الذهبى عن المروذى قال : « لم أر الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلسه أبى عبد الله ، كان مائلا اليهم ، مقصرا عن أهل الدنيا ، وكان فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، وكان كثير التواضع ، تعلوه السكينة والوقار ، إذا جلس فى مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يسأل ، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر ، يقعد حيث انتهى به المجلس » (٤) .

سيرته وأخلاقه : كانت حياة أحمد بن حنبل رحمه الله حياة زهد وقناعة وتوكل ، وكان على قدم السلف الصالح ، وأصحاب العزيمة من الطراز الأول ، وكان ذلك عن اختيار لا عن اضطرار ، فلم يقبل هدايا الخلفاء والسلاطين وصلاتهم ، وكان يتعافاها « قد خلف له

(١) ترجمة الامام أحمد ص ١٢ .

(٢) ترجمة الامام أحمد ص ١٣ .

(٣) ابن حنبل نقلا عن المناقب لابن الجوزى ص ٣١٠ .

(٤) ترجمة الامام أحمد ص ٣٥ .



أبوه طرزا<sup>(١)</sup> ، وكان يأكل من غلة تلك الطرز ، ، ويتعفف بكرائها على الناس «<sup>(٢)</sup> وإذا وجد خصاصة حمل حبله على عاتقه ، وذهب فيجمع بقايا الزرع الذى يترك فى الأرض -وهو فى حكم المباح- فالتقطه ، وقد كان فى بعض الأحيان يؤجر نفسه للحمل فى الطريق - وهو امام المسلمين يومئذ - وكان فى بعض الأحيان يكتب بأجرة ، تقول أم ولده: « كان إذا لم يكن عند مولاي ( أحمد بن حنبل ) شئ فرح يومه ذلك » وقد ابتلى فى أيام المتوكل بالاقبال والصلوات والجوائز ، كما ابتلى فى أيام المعتصم بالتعذيب والصرم والقسوة ، وكان فى كليهما صابرا عفيفا نزيها ، وكانت الأخرى أشد عليه من الأولى ، وقد ثبت على عفافه وزهده وعزوفه عن أموال السلطان ، وله فى ذلك أخبار غريبة ، منها ما رواه حنبل قال : « بينما نحن جلوس بباب الدار إذا يعقوب - أحد حجاب المتوكل - قد جاء ، فاستأذن على أبى عبد الله ، فدخل ودخل أبى وأنا ومع بعض غلمانة بدرة على بغل ، ومعه كتاب المتوكل ، فقرأه على أبى عبد الله « أنه صح عند أمير المؤمنين براءة ساحتك وقد وجه اليك بهذا المال تستعين به » .

فأبى أن يقبله ، فقال : مالى اليه حاجة ، فقال : يا أبا عبد الله ! اقبل من أمير المؤمنين ما أمرك به ، فإن هذا خير لك عنده ، فاقبل لا ترده ! فانك إن رددته خفت أن يظن بك سوءا . فحينئذ قبلها ، فلما خرج قال : يا أبا على ! قلت لبيك ! قال : ارفع هذه الانجانة وضعها ! ( يعنى البدره تحتها ) فوضعتها وخرجنا . فلما كان من الليل إذا أم ولد أبى عبد الله تدق علينا الحائط . فقلت لها مالك ؟ قالت : مولاي يدعو عمه . فأعلمت أبى . وخرجنا فدخلنا على أبى عبد الله . وذلك فى جوف الليل . فقال يا عم ! ما أخذنى النوم هذه الليلة فقال له أبى : ولم ؟ قال : لهذا المال . وجعل يتوجع لأخذه . وجعل يسكنه ويسهل عليه . فقال : حتى تصبح وترى فيه رأيك . فان هذا ليل . والناس فى منازلهم ، فأمسك وخرجنا فلما كان فى السحر . وجه إلى عبدوس بن مالك . والحسن بن البزاز ، فحضرا وحضر جماعة ، منهم هارون الجمال وأحمد بن منيع ، وابن الدروقى وأنا ، وأبى وصالح ، وعبد الله فجعلنا نكتب من يذكرونه من أهل الستر والصلاح ببغداد والكوفة فوجه منها إلى أبى سعيد الأشج وأبى كريب . وإلى من ذكر من أهل العلم والسنة ممن يعلمن أنه محتاج ، ففرقها كلها ، ما بين الخمسين والمائة والمائتين . فما بقى فى الكيس

(١) الطرز جمع طراز ككتاب وكتب ، والطراز الموضح الذى تنسج فيه الثياب .

(٢) المناقب لابن الجوزى .

درهم ، ثم تصدق بالكيس على مسكين .

وقد أقام أحمد بن حنبل في عسكر المتوكل في ضيافته . وتعفف عن طعامه وأمواله . قال ابنه صالح نزلنا في ( عسكر المتوكل ) في دار التياح . ولم يعلم أبو عبد الله . فسأل بعد ذلك لمن هذه الدار ؟ قالوا : هذه دار التياح . فقال : حولوني ! اكتروا لى دارا ! قالوا : هذه دار أنزلكها أمير المؤمنين . قال : لا أبيت ههنا . قال أبى : فلم نزل حتى اكترونا له دارا . وكانت تأتينا في كل يوم مائدة فيها ألوان يأمر بها المتوكل . والفاكهة والثلج وغير ذلك . فما نظر اليها أبو عبد الله ولا ذاق منها شيئا . وكانت نفقة المائدة كل يوم مائة وعشرين درهما <sup>(١)</sup> قال : ومكث خمسة عشر يوما يفطر في كل ثلاث على ثمن سويق ، ثم جعل بعد ذلك يفطر ليلة على رغيف . وليلة لا يفطر ، وكان إذا جئ بالمائدة توضع بالدھليز لئلا يراها <sup>(٢)</sup> .

ولما رجع إلى الدار نزع الثياب . وكانت قد خلعت عليه ثم جعل يبكى فقال : «سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم . ما أحسبني سلمت من دخولي على هذا الغلام فكيف بمن يجب على نصحه من وقت تقع عيني عليه إلى أن أخرج من عنده ! يا صالح ! وجه بهذه الثياب إلى بغداد تباع ويتصدق بثمنها . ولا يشتر أحد منكم شيئا » <sup>(٣)</sup> .

وقال حنبل : كان في حياته ربما استعار الشيء من منزلنا ومنزل ولده . فلما صار الينا من مال السلطان ما صار ، امتنع عن ذلك . حتى وصف له في علته قرعة تشوى ويؤخذ ماؤها فلما جاءوا بالقرعة . قال بعض من حضر : اجعلوها في تنور يعنى في دار صالح فإنهم قد خبزوا . فقال بيده : لا !

وكان لا يرى حرمة هذه الأموال . ولكنه يرى أنها أخذت من غير حل وقد تعلق بها حقوق المسلمين وقلوبهم <sup>(٤)</sup> فكان يتحاشى أخذها ويتأثم من قبولها . وقد قال مرة لأولاده «لم تأخذونه والثغور معطلة غير مشحونة . والفيء غير مقسوم بين أهله ؟ وقال مرة ماذا تنتظر ؟ إنما هو الموت . فاما إلى جنة واما إلى نار . فطوبى لمن قدم على خير » <sup>(٥)</sup> وقال له

(١) ترجمة الامام أحمد ص ٦١ .

(٢) أيضا ، ص ٦٦ .

(٣) ترجمة الامام أحمد ص ٦٦ .

(٤) المناقب ص ٣٨٤ .

(٥) ترجمة الامام أحمد ص ٦٢ .

ولده : أليس قد أمرت ما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا اشراف نفس أن يأخذها ؟ قال قد أخذت مرة بلا اشراف نفس . فالثانية والثالثة ! فما بال نفسك ألم تشرف؟ قال فقلت : ألم يأخذ ابن عمر وابن عباس ؟ قال ما هذا وذاك ! وقال لو أعلم أن هذا المال يؤخذ من وجهه ولا يكون فيه ظلم ولا حيف لم أبال « (١) .

هنا نقف وقفة قصيرة ونتساءل ، لم كان هذا التشديد من أحمد ؟ ولماذا هذه المغالاة ؟ وأقول : لولا هذه الصرامة ، ولولا هذا التدقيق في الزهد والعزوف عن أموال السلطان ، ولولا هذه المحافظة الشديدة على منهج الحياة الذي التزمه أحمد بن حنبل ، لما استطاع أن يستعصى على هذه الدولة القوية ، وأن يفلت من حبالها ، ولما استطاع أن يمثل هذا الدور الرائع في تاريخ الاصلاح والتجديد والدفاع عن الدين ، وأن يؤثر في عقول الناس وقلوبهم هذا التأثير العظيم ، وأن يقف طودا شامخا ، وجبلا راسيا ، في هذه التيارات التي تجرف الرجال وتحرك الجبال .

ثم أنه بهذا الزهد والتوكل على الله استفاد قوة روحية ، وصلة عميقة بالله ، اناة اليه ، استحق بها النصر وتغلب على نزوات النفس وشهواتها .

وقد رأينا الزهد والتجديد مترافقين في تاريخ الاسلام ؛ فلا نعرف أحدا ممن قلب التيار، وغير مجرى التاريخ ، ونفخ روحا جديدة في المجتمع الاسلامي أو افتتح عهدا جديدا في تاريخ الاسلام ، وخلف تراثا خالدا في العلم والفكر والدين ، وظل قرونا يؤثر في الافكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب الا وله نزعة في الزهد ، وتغلب على الشهوات ، وسيطرة على المادة ورجالها ، ولعل السر في ذلك أن الزهد يكسب الانسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات ، وأسرى المعدة ، ولذلك ترى كثيرا من العبقرين والنوابغ في الأمم . كانوا زهادا في الحياة ، متمردين على الشهوات ، بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأن الزهد يثير في النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ، ويلهب الروح . والدعة والرخاوة تبلى الحس ، وتنيم النفس ، وتميت القلب .

وهناك تعليقات أخرى يوافق عليها علم النفس وعلم الأخلاق ، ولا أطيل بذكرها ، واقتصر على هذه الملاحظة التاريخية ، وألح على أن منصب التجديد والبعث الجديد يتطلب لا محالة زهدا ترفعا عن المطامع وسفساف الأمور ، ويأبى الاندفاع إلى التيارات ،

(١) أيضا ص ٦٢ .

ويتنافى مع الحياة الوادعة الرخية ، والعيشة الباذخة الثرية ، إنما هو خلافة للرسول الأعظم ﷺ وقد قيل له « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » وأمر بأن يقول لأزواجه « إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا » وهذه سنة الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم ، ومن يرشح نفسه ويمنيها بهذا المنصب الخطير ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وأرجع إلى حديث أحمد بن حنبل فأقول : قد كان - مع هذه الزهادة وخصاصة العيش - جوادا سمح النفس ، يقول : « يؤكل الطعام بثلاث ، مع الاخوان بالسرور ، ومع الفقراء بالايثار ، ومع أبناء الدنيا بالمروءة » ويقول : « لو أن الدنيا تقل حتى تكون في مقدار لقمة ، ثم أخذها امرؤ مسلم . فوضعها في فم أخيه المسلم ، ما كان مسرفا »<sup>(١)</sup> .

وكان كثير العفو عمن يسيء إليه اغلظ له رجل الكلام وتركه مغاضبا ثم عاد إليه نادما ، وقال له معتذرا : يا أبا عبد الله ! ان الذي كان منى على غير تعمد ، فأنا أحب أن تجعلني في حل . فقال أحمد : « ما زالت قدماى من مكانها حتى جعلتك في حل »<sup>(٢)</sup> وقد عفا عن كل من أساء إليه ، أو تسبب في عقوبته ومحتته . وجعلهم في حل ، وقال : ما على رجل الا يعذب الله بسببه أحدا<sup>(٣)</sup> ، وقال حنبل بن اسحاق ، سمعته يقول : كل من ذكرني في حل الا مبتدع ، وقد جعلت أبا اسحاق - يعنى المعتصم - في حل ، ورأيت الله تعالى يقول : ﴿ وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ ﴾<sup>(٤)</sup> .

وكان مع هذه الفضائل التي أوسعها الله بها متواضعا لله ، متطامنا للناس ، ولا يفتخر في شيء . قال يحيى بن معين : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، صحبتته خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الفلاح والخير<sup>(٥)</sup> ، وقال عارم أبو النعمان : وضع أحمد عندي نفقته ، فكان يجيء فيأخذ منها حاجته ، فقلت له يوما : يا أبا عبد الله ! بلغني أنك من العرب ، فقال : يا أبا النعمان ! نحن قوم مساكين ، فلم يزل يدافعني حتى خرج ولم يقل شيئا<sup>(٦)</sup> .

(١) ابن حنبل ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) أيضا ص ٨٥ .

(٣) ترجمة الامام أحمد ص ٥٤ .

(٤) ترجمة الامام أحمد ص ٥٥ .

(٥) حلية الأولياء ج ٩ ص ١٨١ .

(٦) ترجمة الامام أحمد ص ٢٢ .

وقد وضع الله له القبول في قلوب العباد ، وطار ذكره في الآفاق ، ودعا له المسلمون ، وتقربوا بحبه إلى الله ، وهو يخاف نفسه من الاستدراج ، قال المروزي : قلت لأبي عبد الله : ما أكثر الداعي لك ! قال : أخاف أن يكون هذا استدراجا ، بأى شئ هذا ؟ وقلت لأبي عبد الله : أن رجلا قدم طرطوس فقال لى : انا كنا فى بلاد الروم فى الغزو ، اذ هدا الليل ، رفعوا أصواتهم بالدعاء ادعوا لأبى عبد الله ! وكنا نمد المنجنيق ونرمى عنه ، ولقد رمى عنه بحجر والعلج على الحصن متقوس بدرقة ، فذهب برأسه وبالدركة ، فتغير وجهه وقال : ليته لا يكون استدراجا ! فقلت : كلا (١).

وقد كان كثير من غير المسلمين يجلبونه ويخضعون له ، ويعتقدون فيه الصلاح ، ويتبركون بزيارته ، قال المروزي : رأيت بعض النصارى الاطباء قد خرج من عند أبى عبد الله ومعه راهب ، فسمعت الطبيب يقول : أنه سألنى أن يجئ معى حتى ينظر إلى أبى عبد الله . وقال أيضا : أدخلت نصرانيا على أبى عبد الله يعالجه ، فقال : يا أبا عبد الله ! إنى أشتهى أن أراك منذ سنين ، ما بقاؤك صلاح الاسلام وحده ؛ بل للخلق جميعا ، وليس من أصحابنا أحد الا رضى بك ، قال المروزي : فقلت لأبى عبد الله ، انى لأرجو أن يدعى لك فى جميع الأمصار ، فقال يا أبا بكر ! إذا عرف الرجل نفسه فما ينفعه كلام الناس (٢) ؟

وكان مع هذا التواضع مهيبا وقورا ، وكان الناس مدفوعين إلى اجلاله وتهيبه شأن من «تواضع لله رفعه الله» يقول أحد معاصريه : دخلت على اسحاق بن ابراهيم (نائب بغداد) وفلان وفلان من السلاطين ، فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل ، صرت اليه أكلمه فى شئ ، ف وقعت على الرعدة حين رأيت من هيبتة (٣).

## وفاته :

قال المروزي : مرض أبو عبد الله ليلة الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول ، ومرض تسعة أيام ، وكان ربما أذن للناس فيدخلون عليه أفواجا ، يسلمون عليه ويرد عليهم بيده ، وتسامع الناس وكثروا ، وسمع السلطان بكثرة الناس ، فوكل السلطان بابه وبياب الزقاق الرابطة وأصحاب الأخبار ، ثم أغلق باب الزقاق فكان الناس فى الشوارع والمساجد حتى

(١) ابن حنبل ص ٢١ .

(٢) ابن حنبل ص ٩١ .

(٣) ترجمة الامام أحمد ص ٢٢ .

تعطل بعض الباعة ، وحيل بينهم وبين البيع والشراء ، وكان الرجل إذا أراد إن يدخل اليه ربما دخل من بعض الدور وطرز الحاكة ، وربما تسلق ، وجاء أصحاب الأخبار فقعدوا على الأبواب . وجاءه حاجب بن طاهر فقال : إن الأمير يقرئك السلام ، وهو يشتهي أن يراك ، فقال : هذا مما أكره ، وأمير المؤمنين أعفاني مما أكره ، وأصحاب الخبر يكتبون بخبره إلى العسكر ، والبرد تختلف كل يوم . وجاء بنو هاشم فدخلوا عليه ، وجعلوا يكون عليه ، وجاء قوم من القضاة وغيرهم ، فلم يؤذن لهم ، ودخل عليه شيخ فقال : اذكر وقوفك بين يدي الله ، فشبهق أبو عبد الله ، وسالت الدموع على خديه ، فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين قال : ادعوا لى الصبيان - بلسان ثقيل - فجعلوا ينضمون اليه ، وجعل يشمهم ويمسح بيده على رؤوسهم وعينه تدمع ، فقال له رجل : لا تغتم لها يا أبا عبد الله ! فأشار بيده ، فظننا أن معناه : انى لم أرد هذا المعنى . وكان يصلى قاعدا ، ويصلى وهو مضطجع ، لا يكاد يفتقر ، ويرفع يديه فى ( ايماء الركوع ) وادخلت الطست تحته . فرأيت بوله دما عبيطا ليس فيه بول ، فقلت للطبيب ، فقال : هذا رجل قد فتت الحزن والغم جوفه ، واشتدت علته يوم الخميس ، ووضأته فقال خلل الأصابع ، فلما كنت ليلة الجمعة ثقل ، وقبض صدر النهار ، فصاح الناس وعلت الأصوات بالبكاء ، حتى كأن الدنيا قد ارتجت وامتألت السكك والشوارع<sup>(١)</sup> .

قال المروزي : أخرجت الجنازة عند منصرف الناس من الجمعة ، قال عبد الوهاب الوثوق : ما بلغنا أن جمعا فى الجاهلية والاسلام مثله ، حتى بلغنا أن الموضع مسح وحزر على الصحيح ، فإذا هو نحو من ألف ألف ، وحزرنا على القبور نحو من ستين ألف امرأة ، وفتح الناس أبواب المنازل فى الشوارع والدروب ينادون من أراد الوضوء ، وقال ابن اسحاق البغوى : حزر من حضر جنازة أحمد من الرجال ثمان مائة ألف ، ومن النساء ستين ألف امرأة<sup>(٢)</sup> ، هذا سوى من كان فى السفن فى الماء<sup>(٣)</sup> .

وبهذا الاحتشاد العظيم فى جنازته تحقق ما أنبأ به بقوله : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائر<sup>(٤)</sup> .

وكانت وفاته سنة ٢٤١ هـ .

(١) ترجمة الامام أحمد ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) ترجمة الامام أحمد ص ٨٠ .

(٣) أيضا ص ٨١

(٤) أيضا ص ٨١ .

## المحنة :

أصدر المأمون سنة ٢١٨ - كما تقدم رسالة إلى والى بغداد ، اسحق بن ابراهيم أمر فيها بجمع القضاة وامتحانهم فى عقيدة خلق القرآن ، وعزل من لا يقول بذلك منهم واسقاط شهادة من لا يراها من الشهود ، وأرسلت منها صور إلى الأقطار الاسلامية ، ثم كتب اليه أن يرسل اليه سبعة من كبار المحدثين الذين عارضوا هذه العقيدة ، ففعل . وأجاب هؤلاء ، فخلى سبيلهم ، ثم أصدر كتابا ثالثا غلظ فيه القول ، وضيق الأمر ، وأمر بالتوسع فى امتحان الناس ، وامثل الوالى أمره ، فأحضر مشاهير العلماء ورؤوس الناس وامتحانهم ، وكانت اجابات القوم مختلفة ومضطربة ، وحرر الوالى محضرا بجميع أقوال الممتحنين ، وأرسل إلى المأمون وثار المأمون بقراءته . واشتد غضبه . وعرض بهم واستخف . وأمر بضرب رقبة بشر بن الوليد . وابراهيم بن المهدي إن لم يرجعا عن قولهما . وأمر بالعودة إلى امتحان هؤلاء . فان أصروا فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين . . . فان لم يرجعوا ويتولوا ، حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ولا قوة الا بالله . «

وامثل الوالى أمر الخليفة ، وجمعهم ثانية ، وقرأ عليهم كتاب المأمون ، فأقروا جميعا بأن القرآن مخلوق الا أربعة : أحمد بن حنبل ، وسجادة ، والقواريرى ، ومحمد بن نوح ، وأمر بهم فشدوا فى الحديد ، واعترف سجادة بخلق القرآن ، فأطلق سراحه ، وأجاب القواريرى بعد يوم آخر ، فأطلق سراحه ، وانحصر الأمر فى اثنين : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، فشدهما فى الحديد ووجههما إلى المأمون ، ثم أرسل البقية من الممتحنين بأمر المأمون ، وبلغتهم وفاة المأمون وهو بالرقعة ، فخلى والى بغداد سبيل أكثرهم ، ومات محمد بن نوح وهو عائد إلى بغداد ، وهكذا تركزت رئاسة المعارضة - كما يقول الدكتور أحمد أمين - فى أحمد بن حنبل ، فكان زعيمها وعلمها ومتجه الأنظار فيها .

ووصل أحمد بن حنبل إلى بغداد مقيدا ، وحبس فى دار عمارة ببغداد ، ثم حول إلى سجن العامة ، ومكث فى السجن نحو من ثلاثين شهرا ، قال ابنه حنبل : كنا نأتيه ، وقرأ على كتاب الأرجاء وغيره فى الحبس ، ورأيتة يصلى بأهل الحبس وعليه القيد ، فكان يخرج رجله من حلقة القيد وقت الصلاة والنوم .

## أحمد بن حنبل يحكى قصته :

ويحكى أحمد بن حنبل قصته وما جرى له أيام المعتصم خليفة المأمون . وهى قصة

البطولة الخالدة والايان الرائع ، فلنستمع اليه !

« فلما كان في الليلة الرابعة وجه - يعنى المعتصم - ربيعا الذى كان يقال له الكبير أبو اسحاق ، فأمره بحملى اليه ، فأدخلت على اسحاق ، فقال : يا أحمد ؟ انها والله نفسك ، انه لا يقتلك بالسيف ، انه قد آلى ان لم تجبه أن يضربك ضربا بعد ضرب ، وان يقتلك فى موضع لا ترى فيه شمس ولا قمر . . . فلما صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان ، أخرجت ، وجئى بدابة فحملت عليها وعلى الأقياد ، وما معى أحد يمسكنى ، فكدت غير مرة ان أخرج على وجهى لثقل القيود ، فجئى بى إلى دار المعتصم ، فأدخلت حجرة وادخلت الى بيت ، وأقفل الباب على ، وذلك فى جوف الليل ، وليس فى البيت سراج ، فأردت أن أتمسح للصلاة ، فمددت يدي فاذا أنا باناء فيه ماء وطست موضوع ، فتوضأت واصلت ، فلما كان من الغد أخرجت تكتى من سراويلى شددت بها الأقياد أحملها ، وعطفت سراويلى ، فجاء رسول المعتصم فقال : أجب ! فأخذ بيدي وأدخلنى عليه ، والتكة فى يدي أحمل بها الأقياد ، وإذا هو جالس ، وابن أبى داود حاضر ، وقد جمع خلقا كثيرا من أصحابه فقال لى : - يعنى المعتصم - : ادنه ! فلم يزل يدنينى حتى قربت منه ، ثم قال لى : اجلس ؟ فجلست ، وقد أثقلنى الأقياد ، فمكثت قليلا ، ثم قلت : أتأذن لى بالكلام ؟ فقال : تكلم ؟ فقلت : إلى ما دعا الله ورسوله ؟ فسكت هنيهة ، ثم قال : إلى شهادة أن لا اله الا الله ، فقلت : فأنا أشهد أن لا اله الا الله ، ثم قلت : ان جدك ابن عباس يقول : لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ سألوه عن الايمان ، فقال أتدرون ما الايمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وأقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وأن تعطوا الخمس من المغنم ، قال أحمد : قال : - يعنى المعتصم - لولا إنى وجدتك فى يد من كان قبلى ما عرضت لك .

ويذكر أحمد بن حنبل ما جرى بينه وبين علماء البلاط من الكلام والمناظرة ثم يقول : وجعل ابن أبى داود يقول : يا أمير المؤمنين ! لئن أجابك لهو أحب الى من مائة ألف دينار ومائة ألف دينار ، فيعد من ذلك ما شاء الله أن يعد ، فقال المعتصم : والله لئن أجابنى لأطلقن عنه يدي ولأركبن اليه بجندى ، ولأطان عقبه .

ثم قال : يا أحمد ! والله إنى عليك لشفيق ، وانى لأشفق عليك كشفقتى على هارون ابنى ، ما تقول ؟ فأقول : اعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله .

فلما طال المجلس ضجر وقال : قوموا ! وحبسنى - يعنى عنده - وعبد الرحمن بن اسحاق يكلمنى ، فقال المعتصم : ويحك أجبنى ! فقال : ما أعرفك ، ألم تكن تأتينا ؟



فقال له عبد الرحمن بن اسحاق : يا أمير المؤمنين ! أعرفه منذ ثلاثين سنة ، يرى طاعتك والجهاد والحج معك ، قال : فيقول : والله انه لعالم ، وانه لفقير ، وما يسؤوني أن يكون معي يرد عنى أهل الملل . ثم قال لى : ما كنت تعرف صالحا الرشيدى ؟ قلت قد سمعت باسمه ، قال : كان مؤدبى ، وكان فى ذلك الموضع جالسا - وأشار إلى ناحية من الدار - فسألته عن القرآن فخالفتنى ، فأمرت به ، فوطئ وسحب !

ثم قال : يا أحمد ! أجبني إلى شئ لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك يدي ، قلت : أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله ! فطال المجلس وقام ورددت إلى الموضع الذى كنت فيه .

فلما كان بعد المغرب ، وجه إلى رجلين من أصحاب ابن أبى داود ، بيتان عندى ويناظران ويقيماني معى ، حتى إذا كان وقت الافطار جىء بالطعام ، ويجتهدان بى أن أفطر فلا أفعل ، ووجه إلى المعتصم ابن أبى داود فى بعض الليل ، فقال : يقول لك أمير المؤمنين ما تقول ؟ فأرد عليه نحو ما كنت أرد ، فقال ابن أبى داود : والله لقد كتب اسمك فى السبعة ، يحيى بن معين وغيره ، فمحوته ، ولقد ساءنى أخذهم اياك ، ثم يقول : ان أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك ضربا بعد ضرب ، وأن يلقيك فى موضع لا ترى فيه الشمس ، ويقول : ان أجبني جئت اليه حتى أطلق عنه يدي ، وانصرف .

« قال فلما كان فى الليلة الثالثة قلت : خليك أن يحدث غدا من أمرى شئ ، فقلت لبعض من كان معى ، الموكل بى : ارتد لى خيطا ! فجاءنى بخيطة فشددت به الأقياد ورددت التكة إلى سراويلى مخافة أن يحدث من أمرى شئ فأتعري ، فلما كان من الغد فى اليوم الثالث وجه الى ، فأدخلت فإذا الدار غاصة ، فجعلت أدخل من موضع إلى موضع ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط وغير ذلك : ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير عدد من هؤلاء ، فلما انتهيت اليه ، قال : أقعد ! ثم قال : ناظروه ! كلموه ! فجعلوا يناظرونى ، ويتكلم هذا فأرد عليه ، ويتكلم هذا فأرد عليه ، وجعل صوتى يعلو أصواتهم ، فجعل بعض من على رأسه قائم يومئ إلى يده ، فلما طال المجلس نحانى ثم خلا بهم ، ثم نحانى ورددنى إلى عنده ، فقال : ويحك يا أحمد ! أجبني حتى أطلق عنك يدي ! فرددت عليه نحو ما كنت أرد ، فقال لى : عليك ! - وذكر اللعن - وقال خذوه واسحبوه واخلعوه ! قال : فسحبت ثم خلعت .

قال : وقد كان صار الى شعر من شعر النبى ﷺ فى كم قميصى ، فوجه الى اسحاق بن ابراهيم : ما هذا المصرور فى كم قميصك ؟ قلت : شعر من شعر رسول الله ﷺ

وقال: وسعى بعض القوم إلى القميص ليخرقه على فقال لهم - يعنى المعتصم - لا تخرقوه! فنزع القميص عنى، قال فظننت أنه إنما درأ عن القميص الخرق بسبب الشعر الذى كان فيه، قال: وجلس المعتصم على كرسى، ثم قال: العقابين والسياط! فجئ بالعقابين، فمدت يداى، فقال بعض من حضر خلفى: خذ ناى الخشبين بيديك، وشد عليهما! فلم أفهم ما قال، فتخلعت يداى.

ولما جئ بالسياط نظر إليها المعتصم وقال: اتتوني بغيرها! ثم قال للجلادين: تقدموا! فجعل يتقدم إلى الرجل منهم فيضربنى سوطين، فيقول له: شد! قطع الله يدك، فلما ضربت تسعة عشر سوطاً قام إلى - يعنى المعتصم - وقال: يا أحمد! علام تقتل نفسك؟ إنى والله عليك لشفيق، قال: فجعل عجيف ينخسنى بقائمة سيفه، وقال أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك! الخليفة على رأسك قائم! وقال بعضهم يا أمير المؤمنين! دمه فى عنقى، أقتله! وجعلوا يقولون يا أمير المؤمنين! أنت صائم، وأنت فى الشمس قائم، فقال لى: ويحك يا أحمد! ما تقول؟ فأقول أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به، فرجع وجلس، وقال للجلاذ: تقدم وأرجع! قطع الله يدك! ثم قام الثانية فجعل يقول: ويحك يا أحمد! أجبني! فجعلوا يقبلون على ويقولون: يا أحمد! امامك على رأسك قائم، وجعل عبد الرحمن يقول: من صنع من أصحابك فى هذا الأمر ما تصنع؟ وجعل المعتصم يقول: ويحك أجبني إلى شئ لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك يدي؟ فقلت: يا أمير المؤمنين؟ أعطونى شيئاً من كتاب الله، فيرجع، وقال للجلادين تقدموا؟ فجعل الجلاذ يتقدم ويضربنى سوطين ويتحى، وهو فى خلال ذلك يقول: شد؟ قطع الله يدك، قال أبى فذهب عقلى، فأفقت بعد ذلك فاذا الأقياد قد أطلقت عنى، فقال لى رجل ممن حضر: انا كبيناك على وجهك، وطرحنا على ظهرك باريه ودسناك؟ قال أبى: فما شعرت بذلك، وآتونى بسويق، فقالوا لى: اشرب وتقياً؟ فقلت: لا أفطر، ثم جئ بى إلى دار اسحاق بن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فتقدم ابن سماعة فصلى فلما انفتل من الصلاة قال لى: صليت والدم يسيل فى ثوبك؟ فقلت: قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً<sup>(١)</sup>.

ويقول ابنه صالح: « ثم خلى عنه فصار إلى منزله، وكان مكثه فى السجن منذ أخذ وحمل إلى أن ضرب وخلى عنه ثمانية وعشرين شهراً. ولقد أخبرنى أحد الرجلين اللذين

(١) ترجمة الامام أحمد ص ٤٨ - ٤٩ .

كانا معه قال : يا ابن أخى ؟ رحمة الله على أبى عبد الله ؟ والله ما رأيت أحدا يشبهه ، ولقد جعلت أقول فى وقت ما يوجه الينا بالطعام : يا أبا عبد الله ؟ أنت صائم ، وأنت فى موضع تقية ، ولقد عطش فقال لصاحب الشراب : ناولنى ؟ فناوله قدحا فيه ماء وثلج ، فأخذه ونظر اليه هنيهة ، ثم رده ولم يشرب ، فجعلت أعجب من صبره على الجوع والعطش وهو فيما هو فيه من الهول .

قال صالح : كنت أتمس وأحتال أن أوصل اليه طعاما أو رغيفا فى تلك الأيام فلم أقدر . وأخبرنى رجل حضره . أنه تفقده فى هذه الأيام الثلاثة وهم يناظرونه ، فما لحن فى كلمة ، قال : وما ظننت أن أحدا يكون فى مثل شجاعته وشدة قلبه .

وهكذا تنتهى هذه القصة التى لا تزال حجة بطولة الامام أحمد ، وقوة العقيدة وعجائب صنع الايمان ، وقد كان من ثبات ابن حنبل وشجاعته واخلاصه أن انطفت عقيدة خلق القرآن ، وانطفت معها حركة الاعتزال حتى بقيت مدفونة فى كتب الملل والنحل وعلم الكلام ، وانتصر أحمد بن حنبل بايمانه وشجاعته ، وكان انتصاره دليلا على انتصار الاخلاص والعزم على القوة والدولة والمعارضات الشديدة والعقوبات الموجهة ، وانهمت حكومة هى من أقوى الحكومات وأوسعها فى عصرها ، وانهمر معها كل من التف حول رايها من أهل العلم والجدل والذكاء والمناصب والرياسات . وكان المعتزلة ولو انتصروا فى المحنة فاستطاعوا - بسيطرتهم السياسية على البلاط - أن يعاقبوا منافسيهم ورئيس الحزب الذى يعارضهم بما شاءوا ، وينفذوا فيه ارادتهم ولكنهم خسروا دولتهم ، وفقدوا سلطانهم ، وقطعوا الصلة بينهم وبين الشعب ، فقد كرههم من ذلك اليوم كراهة شديدة ، وانصرفت القلوب عنهم ، ولم يزل نجمهم فى أفول حتى غرب من غير رجعة ، قال الدكتور أحمد أمين « ولم يسترد المعتزلة سلطتهم يوما ما بعد المحنة »<sup>(١)</sup>.

وخرج أحمد بن حنبل من هذه المحنة خروج السيف من الجلاء ، والبدر من الظلماء ، وكان كما قال بعض معاصريه « أدخل الكير فخرج ذهباً أحمر » ولم يزل بعد ذلك اليوم فى صمود واعتلاء ، حتى تواضعت القلوب على حبه ، وأصبح حبه شعار أهل السنة وأهل الصلاح ، حتى نقل عن أحد معاصريه قتيبة أنه قال : « إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة »<sup>(٢)</sup> وقال أحمد بن ابراهيم الدورقى « من سمعتموه يذكر

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ، ص ٢٠١ .

(٢) ترجمة الامام أحمد ص ١٦ .

أحمد بن حنبل بسوء فاتهموه على الاسلام « (١) وقال شاعر (٢) :

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة  
وإذا رأيت لأحمد متنقضا  
وبحب أحمد يعرف المتنسك  
فاعلم بأن ستوره سنهتك

وقد اعترف معاصروه بأن غناؤه للاسلام ، وفى الدفاع عن القرآن كان عظيما ، وأنه سد ثلثة عظيمة كادت تحدث فى الاسلام ، وشبهوا يوم المحنة بيوم الردة ، وقرنوا ذكر أحمد بن حنبل بذكر أبى بكر الصديق ، وكفى به عظمة ! قال على بن المدينى ، أحد أئمة الحديث فى عصره ، ومن شيوخ البخارى : « ان الله أعز هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة » (٣) .

وليس سر عبقرية أحمد بن حنبل فى دفاعه عن عقيدة من عقائد الاسلام ، وانتصاره لها- وفضله فى ذلك لا ينكر - ولكن مآثرته الكبرى التى اكسبته منصب التجديد ، هو أنه وقف سدا منيعا فى اتجاه هذه الأمة إلى التفكير الفلسفى المتهور ، الذى لو سيطر على هذه الأمة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الأولى ، وعن النبوة المحمدية ، وخضعت هذه الأمة للفلسفات ، وأصبحت عرضة للاراء والقياسات ، وانتصرت الحكومة على الشعب ، والسياسة على الدين انتصارا مؤبدا ، وسلبت حرية الرأى والعقيدة ، ولا شك أنها رزية جليلة ، وفتنة عظيمة فى الاسلام ، وقد قضى عليها أحمد بن حنبل وهى فى شبابها وأوجها ، وحفظ هذا الدين من أن يعث به العابثون ، وتتحكم فيه السلطة والأهواء ، وحفظ هذه الأمة من أن تكون فى حضانة الملوك الشباب الثائرين المتهورين وحاشيتهم ، يفرضون عليها العقائد فرض الجبايات ويسوقونها إلى أهوائهم سوق الغنم والبقرات ، ورد إلى العقيدة الاسلامية كرامتها وأصالتها ، وإلى الأمة حريتها وشخصيتها ، فاستحق بذلك تقدير الانسانية وثناء المسلمين ، واعتراف الأجيال القادمة واجلال التاريخ واكباره ، وكان من المجددين الكبار فى الاسلام .

(١) تاريخ بغداد للخطيب ج ٤ ص ٤٣١ .

(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ، ١٩٤ .

(٣) ترجمة الامام أحمد ص ١٧ .

## أبو الحسن الأشعري وخلفاؤه

### سيطرة المعتزلة العلمية ونتائجها :

لقد ضعف شأن المعتزلة على اثر وفاة المعتصم والواثق - اللذين تبنا حركة الاعتزال واحتضناها - وجاء المتوكل بعد الواثق وهو ناقد على الاعتزال مناوئ للمعتزلة ، وقد تتبع المعتزلة فأقصاهم من مناصب الحكومة الخطيرة ؛ ولكن رغم ذلك كله ظل المعتزلة يسيطرون على الأوساط العلمية .

ان عقيدة خلق القرآن فقدت سلطانها ؛ ولكن كانت للمعتزلة عقائد ونظريات لا تزال جديدة تشغل العقول ، وتسيطر على الأذهان ، وقد عاد اليهم بعض ما فقدوه من النفوذ والتأثير في القرن الثالث ، ووجدت فيهم شخصيات قوية أعادت إلى المعتزلة بعض الثقة والاجلال ، وخضع لذكائهم وحدة نظرهم كثير من الشباب المثقف الذكي ، وأصبح شبه المقرر عندهم أن المعتزلة يمتازون بدقة النظر ، واتساع الفكر والتحقيق ، وأن آراءهم وما وصلوا اليه من نتائج علمية أقرب إلى العقل ، وقد صار كثير من طلبة العلم الشبان ، ومن يحبون الظهور والتفوق على الأقران ، يظهرون الاعتزال تظرفا .

بالعكس من ذلك ، لم يظهر في الحنابلة والمحدثين بعد الامام أحمد شخصية قوية جذابة ، وأعرض المحدثون ومن كان على شاكلتهم من العلماء عن العلوم العقلية وأساليب البحث والاستدلال الجديدة التي شاعت بتأثير المعتزلة ، فكان نتيجة ذلك ظهور المعتزلة ومن نحا نحوهم في مجالس البحث والمناظرة على منافسيهم الحنابلة والمحدثين ، وبدأ الناس يشعرون ويعتقدون أن المدافعين عن السنة ومثليها متخلفون عن ركب العلم السائر ويجهلون مبادئ الفلسفة ، وأصبح الذين لم يتعمقوا في العلم ، ولم يرسخوا في الدين ، ولم يعرفوا أن الذكاء الحاد والرأي السانح يؤيدان المعتزلة ؛ ولكن العقل المتعمق والفكر الناضج يرجحان مذهب المحدثين ، ويقبلان محكمات الشريعة ، أصبح هؤلاء مأخوذون ببلاغة المعتزلة ، وحضور بديهتهم ، وتدقيقهم في المسائل الكلامية وتقرهم فيها ، وأصبح كثير منهم يستخفون بظاهر الشريعة ، ويعتقدون أن مسلك السلف وما ذهبوا اليه من عقائد، لا يقوم على البحث العلمي والأساس العقلي ؛ وقد أصيب كثير ممن يتنسب إلى الحديث ، وكثير من تلاميذ المحدثين بمركب النقص مأخوذون بسحر المعتزلة وتفلسفهم .

وقد كان هذا الوضع خطرا كبيرا على مركز الدين والسنة في نفوس المسلمين ، وقد

صار هؤلاء المتفلسفون يعبثون بتفسير القرآن وعقائد الاسلام ، تتحكم فيها أهواؤهم وعقولهم ، ويصرفونها كيف يشاؤون ، ووجد في الأوساط اتجاه جديد عنيف إلى تقديس العقل وتحكيمه في المسائل التي لا تقوم الا على تعليمات النبوة والايمان بالغيب ، وانطلقت في العالم الاسلامي موجة من الفلسفة السطحية والعقلية المتهورة كادت تكتسح الايمان بالغيب ، والاعتماد على تعاليم الأنبياء ، وازدهر التفكير الفلسفي على حساب القلب والعاطفة ، وعلى حساب العمل ، ولا شك أنه تحول عظيم في العالم الاسلامي ، وخطر على مستقبل الأمة ، وقد عجز عن مقاومة هذا التيار العنيف ورده المحدثون والمتصلبون ، والحنابلة المتحمسون ، وعجز عنه كذلك الزهاد العابدون ، والفقهاء البارعون ؛ إذ لم يكن شئ مما يمتازون به يقوم في وجه هذا التيار العقلي ، ويرده على أعقابه .

### الحاجة إلى شخصية رفيعة :

لقد كان الاسلام يومئذ في حاجة إلى شخصية قوية تفوق المعتزلة في مواهبها العقلية وفي مستواها العلمي ، إلى رجل لم يلم بالعلوم العقلية المأما فحسب بل نزل في احشائها ، ورسب في أعماقها . كان الاسلام في حاجة إلى عملاق في العلم والعقل ، يتضاءل أمامه حملة راية العلم والعقل في عصره ، كما يتضاءل الأقرام ، وكما يتضاءل التلاميذ الصغار أمام أستاذ نبغة وامام كبير . لقد كان الاسلام في حاجة ملحة إلى هذه الشخصية الرفيعة القوية ، ووجدت هذه الشخصية المطلوبة في شخص أبي الحسن الأشعري .

### أبو الحسن الأشعري :

هو أبو الحسن علي بن اسماعيل ، من ذرية أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ . ولد بالبصرة عام ٢٧٠ هـ تزوجت أمه - بعد وفاة أبيه اسماعيل - بأبي علي الجبائي ، شيخ المعتزلة في عصره ، وحامل راية الاعتزال ، ونشأ أبو الحسن في حجره ، وتلقى علومه حتى صار نائبه وموضع ثقته ، « وأمين سره » .

وكان أبو علي الجبائي صاحب تصنيف وقلم ، إذا صنف يأتي بكل ما أراد مستقصى ، وإذا حضر المجالس وناظر لم يكن بمرض ، وكان إذا دهمه الحضور في المجالس يبعث الأشعري ، ويقول له : نب عنى ! ولم يزل على ذلك زمانا <sup>(١)</sup> حتى تصدر المعتزلة ، وأصبح يشار اليه بالبنان ، وكان كل شئ في حياته يدل على أنه سيكون خليفة شيخه

(١) تبيين كذب المفتري في ما نسب إلى الامام أبي الحسن الأشعري لأبي القاسم بن عساكر الدمشقي

ومريه - أبى على الجبائى - ويعقد له لواء الامامة والصدارة فى المذهب ؛ ولكن الله أراد غير ذلك .

لم يزل أبو الحسن يتزعم المعتزلة ويدافع عنهم ، وظل على ذلك أربعين سنة ، حتى ثار عقله الكبير ، ونفسه القلقة ، على مذهب الاعتزال الذى كان ينافح عنه . ونشأ فى نفسه رد فعل ضد تأويلات المعتزلة وامعانهم فى القياس وتحكيم العقل ، وصار يشعر بأنهم أخضعوا الدين للمنطق الصناعى وللمقدمات ، والأصول التى ظنوا - وصور لهم ذكاؤهم-- أنها قطعية - وتأولوا القرآن على آرائهم ، واقتنع بأن الحق الصريح هو الذى كان عليه الصحابة رضى الله عنهم ، وسلف هذه الأمة وهى الغاية التى ينتهى إليها العقل والتفكير العميق ، بعد رحلة طويلة ، وتجارب قاسية ، وعثرات كثيرة ، فيؤمن بفضلهم واصابتهم فى ما اعتقدوه وتلقوه عن النبى ﷺ ، وعضوا عليه بالنواجذ .

حدث فى أبى الحسن الأشعري هذا الصراع النفسى ، فاعتكف فى بيته خمسة عشر يوما يفكر ويتأمل ويدرس ويستخير الله حتى اطمأنت نفسه ، واستقر رأيه ، ورأى أنه لا يسعه الا الاعلان بالبراءة عن الاعتزال ، والرجوع ، إلى مذهب السلف ، ورأى أن البقاء فى ما كان عليه من الرأى والمركز الذى يتمتع به جريمة خلقية ونفاق ، فخرج إلى المسجد الجامع بالبصرة . ورقى كرسيا ، ونادى بأعلى صوته : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأن أعرفه بنفسى ، أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعاتبهم<sup>(١)</sup> .

ومن ذلك اليوم انقلب أبو الحسن - لسان المعتزلة من قبل - أكبر المعارضين للاعتزال ، وأعظمهم ردا عليه وعلى أهله ، وانقلبت مواهبه ، ومرانه العقلى وحجابه القوى ، إلى الدفع عن السنة ومذهب السلف .

### حماسه فى عقيدة السلف وحرصه على تبليغها :

ونهض أبو الحسن الأشعري ، بعد هذا التحول العظيم ، يدعو إلى عقيدة أهل السنة ، ويدافع عنها فى حماسة وإيمان ، ويرد على المعتزلة ، ويتبعهم فى مجالسهم ومراكزهم يحاول اقناعهم بما اقتنع به أخيرا من عقائد أهل السنة ، ومذاهب السلف ، وكان نشاطه

(١) ابن خلكان ص ٤٤٧ ج ٢ .

فى ذلك أعظم من نشاطه فى السابق ، وكان يقصدهم بنفسه يناظرهم ، فكلم فى ذلك ، وقيل له : كيف تخالط أهل البدع وتقصدهم بنفسك وقد أمرت بهجرهم ؟ فقال : هم أولو رياسة ، منهم الوالى والقاضى ، ولرياستهم لا ينزلون إلى ، فاذا كانوا هم لا ينزلون إلى ، ولا أسير أنا اليهم ، فكيف يظهر الحق ، ويعلمون أن لأهل السنة ناصرا بالحجة؟<sup>(١)</sup>

### مواهبه العقلية وعلو مرتبته فى العلم :

وقد اكتسب أبو الحسن ملكة قوية ومرانا على البحث والاستدلال ، بحكم اشتغاله بالبحث فى علم الكلام ، والدفاع عن المعتزلة ، وكان صاحب موهبة وقريحة فى المناظرة والاستدلال شديد العارضة قوى الحجة .

وقد أشعل اخلاصه للدين وانتقاله إلى معسكر أهل السنة هذه المواهب ، وقد كان مستواه العقلى أعلى من مستوى معاصريه وأقرانه ، وكان صاحب نبوغ وابتكار فى العقلیات وكان يرد على حجج المعتزلة وعقائدهم فى سهولة ، وينقضها بمقدرة وثقة ، كما يرد الأستاذ الكبير على شبه تلاميذه ، ويحل مشاكلهم ، يصور ذلك قصة يرويها تلميذه أبو عبد الله بن خفيف الشيرازى يقول :

« دخلت البصرة ، وكنت أطلب أبا الحسن الأشعري رحمه الله ، فأرشدت إليه ، وإذا هو فى بعض مجالس النظر ، فدخلت ، فاذا ثم جماعة من المعتزلة ، فكانوا يتكلمون ، فاذا سكتوا وأنهوا كلامهم ، قال أبو الحسن الأشعري لواحد واحد ، قلت كذا كذا ، والجواب عنه كذا وكذا ، إلى أن يجيب الكل ، فلما قام خرجت فى أثره ، فجعلت أقلب طرفى فيه ، فقال ايش تنظر ؟ فقلت كم لسانا لك ؟ وكم أذنا لك ؟ وكم عينا لك ؟ فضحك وقال لى : من أين أنت ؟ قلت : من شيراز ، وكنت أصحبه بعد ذلك<sup>(٢)</sup> .

وزاد فى رواية ، قال : قلت مثلك فى فضلك وعلو منزلك ، كيف لم تسأل ويسأل غيرك ؟! فقال : انا لا نكلم هؤلاء ابتداء ؛ ولكن اذا خاضوا فى ذكر ما لا يجوز فى دين الله ، رددنا عليهم بحكم ما فرض الله سبحانه وتعالى علينا من الرد على مخالفى الحق<sup>(٣)</sup> .

(١) تبين كذب المفترى ص ١١٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٤ - ٩٥ .

(٣) تبين كذب المفترى ص ٩٦ .



وقد كان أبو الحسن الأشعري اماما مجتهدا في علم الكلام ، وأحد مؤسسيه ، وقد خضع كل من جاء بعده من المتكلمين لعبقريته ، وعمق كلامه ، ودقة نظره ، واصابة فكره .

روى عن الامام أبي الحسن الباهلي - وهو امام من أئمة الكلام - أنه قال : كنت أنا في جنب الشيخ الأشعري كقطرة في جنب البحر <sup>(١)</sup> .

وقال الامام أبو بكر الباقلاني - وهو الذي لقب بلسان الأمة - وقد قيل له : كلامك أفضل وأبين من كلام أبي الحسن الأشعري رحمه الله ، قال : ان أفضل أحوالى أن أفهم كلام أبي الحسن رحمه الله .

### مذهبه وخدمته :

ليس سر عظمة الأشعري في التاريخ ، وجلالة العمل الذي قام به ، في أنه دافع عن السنة دفاعا قويا ، ورد على المعتزلة ؛ الذين تولوا ذلك كثيرا ؛ ان سر عظمته وعبقريته في أنه اتخذ طريقا وسطا بين المعتزلة والمحدثين ؛ فلم يذهب كما ذهب المعتزلة إلى تمجيد العقل ، والايان بأن له سلطة لا تحد ، وأن له الحكم على ما يتصل بالذات والصفات وما وراء الطبيعات ، وأن له الكلمة الأخيرة النافذة في كل موضوع ، ولم ير كذلك - كما رأى كثير من أهل عصره - أن الانتصار للدين والدفاع عن العقيدة الاسلامية يستلزمان انكار العقل وقوته - إلى حد ما - وازدراءه ، وأن السكوت عن هذه المباحث التي يثيرها المعتزلة وأضرابهم ، التي نشأت بحكم تطور العصر ، والاحتكاك بالأأمم والديانات أولى وأفضل ، بالعكس من ذلك ، هو عنى بهذه المباحث ؛ لأنها كانت تزلزل العقيدة الاسلامية ، وتضعف الثقة بالدين ، وبأحث المعتزلة والمتفلسفين ، وناقشهم في مصطلحاتهم ولغتهم العلمية ، وعمل بالكلمة الحكيمة الماثورة « كلموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ » وكأنه كان يعتقد أن العالم إذا كلم عاميا كلاما فوق مستواه العلمى والعقلى ، كان ذلك باعثا على الانكار وتكذيب الله ورسوله ، كذلك إذا كلم عالما أو ذكيا أو متشككا دون مستواه العلمى والعقلى ، كان مثيرا للشكوك ، وداعيا إلى الجحود والانكار ؛ فكان فهمه لهذه الوصية الحكيمة فهما أوسع ، وتطبيقه لها تطبيقا أشمل ، وبذلك خدم أبو الحسن هذا الدين في عصره خدمة باهرة ، وأعاد إلى نفوس وعقول كثيرة لا يعلم عددها الا الله ، الثقة بهذا الدين ، والايان به من جديد .

(١) أيضا ص ١٢٥ .

لقد كان أبو الحسن الأشعري جريئاً وصريحاً في نقده للمعتزلة ، وقد بين أنهم اتبعوا أهواءهم في فهم هذا الدين . وقلدوا رؤساءهم وسلفهم تقليداً أعمى ، ولم ينظروا في الكتاب والسنة مجرداً ، ولم يتخذوهما إماماً ومصدراً لعقائدهم وآرائهم : بل كلما تعارض القرآن مع ما انتحلوه من آراء وعقائد تأولوا القرآن ، ولم يروا بذلك بأساً . يقول في كتاب « الإبانة عن أصول الديانة » وهو أول ما صنفه بعد الخروج من الاعتزال : « أما بعد ؛ فإن من الزائغين عن الحق من المعتزلة ، وأهل القدر ، مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ، ومن مضى من أسلافهم ؛ فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم ينزل الله به سلطاناً ، ولا أوضح به برهاناً ، ولا نقلوه عن رسول الله رب العالمين ، ولا عن السلف المتقدمين<sup>(١)</sup> .  
ويشرح عقيدته التي يدين بها فيقول :

« وقولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها ، التمسك بكتاب ربنا عز وجل ، وبسنة نبينا عليه السلام ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته - قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ؛ لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ، ورفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيع الزائغين ، وشك الشاكين ؛ فرحمة الله عليه من إمام مقدم ، وخليع معظم مفخم<sup>(٢)</sup> . ولم تقتصر خدمة الأشعري على تأييد عقائد أهل السنة والسلف تأييداً اجمالياً ، فقد كان الحنابلة والمحدثون قائمين به غير مقصرين فيه .

إن عبقريته تتجلى في أنه أقام البراهين والدلائل العقلية والكلامية على هذه العقائد ، وناقش المعتزلة والمتفلسفة عقيدة عقيدة ، وذلك كله في لغة يفهمونها ، وأسلوب يألفونه ويجلونهم ، وبذلك أثبت أن هذا الدين وعقيدته الواضحة مؤيدان بالعقل ، وأن العقل الصحيح يؤيد الدين الصحيح ، ولا صراع بينهما ولا تناقض .

وقد استهدف في عمله هذا لنقد المعتزلة وسخطهم ، وكان ذلك طبيعياً ومعقولاً ، إذ هو منافسهم الأكبر ، وزعيم المعارضة ، ولكنه استهدف كذلك لعتاب الحنابلة المتشددين الذين كانوا يرون الخوض في هذه المباحث والمناقشات ، واستعمال المصطلحات الفلسفية والاستدلال بالمقدمات العقلية في المسائل النقلية ، ضرباً من الزيغ والضلال .

(١) كتاب الإبانة عن أصول الديانة ص ٥ طبع دائرة المعارف حيدر آباد .

(٢) كتاب الإبانة عن أصول الديانة ص ٥ طبع دائرة المعارف حيدر آباد .

لقد كان الأشعري مؤمنا بأن مصدر العقيدة والمسائل التي تتصل بالالهيات وما وراء الطبيعة ، هو الكتاب والسنة ، وما جاء به الأنبياء وليس العقل المجرد والقياس والميتافيزيقا اليونانية ، ولكنه لم يكن يرى السكوت والأعراض عن المباحث التي حدثت بتطورات الزمان ، واختلاط هذه الأمة بالأمم والديانات والفلسفات الأجنبية ، حتى تكونت على أساسها فرق ونحل . وكان يرى أن السكوت عن هذه المباحث يضر بالاسلام ، ويفقد مهابة السنة . ويحمل ذلك على ضعف السنة العلمية والعقلية ، وعجز علماء الدين وممثليه عن مواجهة هذه التيارات ومقاومة هذه الهجمات ، ويهتبله أهل الفرق الضالة ، فينفذون في أهل السنة والعقيدة الصحيحة ، فينفثون سمومهم فيهم ، ويزرعون الشكوك ، ويستميلون شبابهم الذكي المثقف إلى أنفسهم .

وكان الأشعري مؤمنا بأن مصدر العقيدة هو الوحي والنبوة المحمدية ، والطريق إلى معرفته هو الكتاب والسنة وما ثبت عن الصحابة رضی الله عنهم ، وهذا مفترق الطريق بينه وبين المعتزلة . فانه يتجه في ذلك اتجاهها معارضا لاتجاه المعتزلة ، ولكنه رغم ذلك ، يعتقد مخلصا أن الدفاع عن هذه العقيدة السليمة ، وغرسها في قلوب الجيل الاسلامي الجديد ، يحتاج إلى الحديث بلغة العصر العلمية السائدة ، واستعمال المصطلحات العلمية ، ومناقشة المعارضين على أسلوبهم العقلي ، ولم يكن يسوغ ذلك ، بل يعده أفضل الجهاد وأعظم القربات في ذلك العصر ، وهذا مفترق الطرق بينه وبين كثير من الحنابلة والمحدثين الذين كانوا يتأثمون ويتخرجون من النزول إلى هذا المستوى .

وكان يعتقد كذلك ، أن المباحث التي تتصل بالعقليات والحسيات لا صلة لها في الحقيقة بالعقيدة والديانات ، ولكن المعتزلة والفلاسفة مزجوا البحث في العقيدة بالبحث فيها ، بل جعلوها بذلاقة لسانهم وذكائهم مقدمات للبحث في الدين ، بل فارقا بين الحق والباطل ، كان الأشعري يعتقد أن الفرار من البحث فيها ، بحجة أنها لا تتصل بالدين والعقيدة لا يصح ، بل بالعكس من ذلك ، يجب على من قام لنصرة السنة أن يواجههم فيها ، ويثبت مذهب أهل الحق . وكان يعتقد أن النبي ﷺ وأصحابه لم يسكتوا عن هذه المسائل جهلا ، بل لأن هذه المباحث ما نشأت في عصرهم ، ولم تمس الحاجة إلى البحث فيها شأن الفقه والجزئيات الكثيرة التي حدثت بعد عصرهم فتأمل فيها الفقهاء والمجتهدون ، وأبدوا رأيهم فيها واستنبطوا وفرغوا وحلوا المشاكل الجديدة ، وبذلك عصموا الأمة والجيل الجديد عن الالحاد والفوضى في العمل والتعطل ، كذلك يجب على حراس الشريعة ، ومتكلمي أهل السنة ، أن يواجهوا الأسئلة الجديدة التي أثارها المعتزلة والمتفلسفة في موضوع الالهيات ،

ويجيبوا عن الاعتراضات والمطاعن التي يوجهها إلى أهل السنة أهل الفرق الضالة ، وقيموا الدليل والبرهان العقلي على صحة عقائد أهل السنة ومطابقتها للعقل والمنطق ، وقد ألف في هذا الموضوع رسالة أسماها « استحسان الخوض في الكلام » .

وقد سار الأشعري في طريقه مجاهدا ، ومناضلا ، منتجاً ، معرضاً عن سخط الطائفتين : الحنابلة والمعتزلة ، لا يعبأ بما يقال فيه ، مؤمناً بأنه هو الطريق الذي ينفع الدين في عصره ، ويرد إلى الشريعة الإسلامية مهابتها وكرامتها ، ويحرس للناشئة دينها وعقيدتها ، حتى استطاع بعمله المتواصل ، وشخصيته القوية وعقله الكبير ، وإخلاصه النادر ، أن يرد سيل الاعتزال والتفلسف الجارف الذي كان يتهدد الدين ، ويثبت كثيراً من الذين تزلزلت أقدامهم ، واضطربت عقولهم وعقيدتهم ، وأن يوجد في أهل السنة ثقة جديدة بعقيدتهم ، ونشاطاً جديداً في دعوتهم ، وزالت سطوة المعتزلة على العقول والأفكار ، واشتغلوا بالدفاع عن الهجوم ، وتعرضت حركة الاعتزال ودعوتها للخطر ، وقد حمدوا وانطفأوا بمعارضة إمام كبير ، كأبي الحسن الأشعري . يقول أبو بكر بن الصيرفي :

« كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم ، حتى أظهر الله تعالى الأشعري ، فحجزهم في أقماع السمسم<sup>(١)</sup> ، وبموقفه الجليل في الدفاع عن السنة ونصر الدين استحق أن يعد من المجددين الكبار<sup>(٢)</sup> .  
مؤلفاته :

ولم يقتصر أبو الحسن الأشعري على المناظرة والمعارضة ، بل خلف مكتبة كبيرة من مؤلفاته في الدفاع عن السنة ، وشرح العقيدة الحسنة ، وقد ألف تفسيراً للقرآن ، أقل ما قيل في أجزاءه أنه في ثلاثين مجلداً<sup>(٣)</sup> . وقد ذكر بعض المؤلفين أن مؤلفاته تبلغ إلى ثلاث مائة مؤلف<sup>(٤)</sup> . أكثرها في الرد على المعتزلة ، وبعضها في الرد على مذاهب وفرق أخرى ، منها كتاب الفصول الذي رد فيه على الفلاسفة والطبيين ، والدهرية ، والبراهمة ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وهو كتاب كبير يحتوي على اثني عشر كتاباً . وقد ذكر ابن خلكان من مؤلفاته كتاب « اللمع » و « إيضاح البرهان » و « التبيين عن أصول

(١) تبيين كذب المفتري ص ٩٤ .

(٢) تبيين كذب امفتري ص ٥٣ .

(٣) الذهبي .

(٤) تبيين كذب المفتري ص ١٣٦ .

الدين « و « الشرح والتفصيل في الرد على أهل الافك والتضليل » .

وله - عدا العلوم العقلية والكلام - مؤلفات في علوم الشريعة منها : « كتاب القياس » و « كتاب الجهاد » و « خبر الواحد » و كتاب في الرد على ابن الراوندى في انكاره للتواتر .

وقد ذكر في كتابه « العمدة » مؤلفاته التي فرغ منها سنة ٣٢٠ هـ ، يعنى قبل وفاته بأربع سنوات ، وهى ثمان وستون مؤلفا ، وكثير منها يقع فى عشرة مجلدات أو أكثر ، وقد ألف فى آخر حياته كتبا كثيرة ، ويدل كتابه « مقالات الاسلاميين » على أنه لم يكن متكلماً فحسب ؛ بل كان مؤرخاً أميناً لعلم العقائد ، وقد اعترف بدقته ، وأمانته وتحريره للصدق فى النقل المستشرقون <sup>(١)</sup> . وكتب الفرق والديانات تدل على أمانته ودقته فى النقل .

### اجتهاده فى العبادة :

لم يكن أبو الحسن الأشعري رجل علم وعقل ، وبحث ونظر فحسب ؛ بل كان - مع وصوله إلى درجة الامامة والاجتهاد فى العلم والعقل - مجتهدا فى العبادات ، متحليا بالأخلاق الفاضلة ، وذلك ما يمتاز به العلماء الأقدمون ؛ فان اشتغالهم بالعلم لم يكن مانعا عن الاجتهاد فى العبادات ، والحرص على الطاعات . وكانوا يجمعون بين الدراسة والافادة ، والعبادة والزهادة . قال أحمد بن على الفقيه : « خدمت الامام أبا الحسن بالبصرة سنين وعاشرته ببغداد إلى أن توفى رحمه الله فلم أجد أروع منه ، ولا أغض طرف ، ولم أر شيئا أكثر حياء منه فى أمور الدنيا ، ولا أنشط منه فى أمور الآخرة . » <sup>(٢)</sup> ويحكى أبو الحسين السرى من عبادته فى الليل واشتغاله ، ما يدل على حرصه وقوته فى العبادة <sup>(٣)</sup> .

قال ابن خلكان : « وكان يأكل من غلة ضيعة وقفها جده ، بلال بن أبى بردة بن أبى موسى على عقبه ، وكانت نفقته فى كل يوم سبعة عشر درهما ، هكذا قال له الخطيب » <sup>(٤)</sup> .

### وفاته :

وكانت وفاته سنة ٣٢٤ هـ ، ودفن ببغداد فى مشروع الزوايا <sup>(٥)</sup> ونودى على جنازته :

(١) انظر Muslim Creed لفنسك Vinsink .

(٢) تبين كذب المفترى ص ١٤١ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤١ .

(٤) ، (٥) ابن خلكان ج ١ ص ٤١٢ .

« اليوم مات ناصر السنة » .

## الامام أبو منصور الماتريدى :

وقد نهض فى نفس ذلك العصر ، فى طرف آخر من أطراف العالم الاسلامى - فى ما وراء النهر - امام آخر من أئمة الكلام ، والمدافعين عن عقيدة الاسلام ، وهو الامام أبو منصور الماتريدى ( م ٣٣٢ هـ ) ، وقد أقبل على علم الكلام كما أقبل الامام أبو الحسن الأشعري فى العراق ، وكان راجح العقل ، متزن الفكر حصيفا ، وقد كان الأشعري دائما فى معارضة وأخذ ورد على المعتزلة ، فدخل فى بحوثه وأفكاره ما قد لا يخلو من الغلو ، وقد زاد الأشاعرة بعده فى الأمر ، وأضافوا اليه أشياء . وقد جاء أبو منصور الماتريدى ، فحذف هذه الزوائد والالتزامات التى كان من الصعب اثباتها واقامة الدليل عليها ، وكانت تحتاج إلى تكلف وتأويل ، وتناول علم الكلام بالتهذيب والتنقيح ؛ حتى أصبح أكثر توسطا واعتدالا . وقد كان الخلاف بينه وبين الأشعري جزئيا ومحدودا ، والمسائل التى خالف فيها الماتريدى الأشعري لا تزيد على أربعين مسألة<sup>(١)</sup>؛ الخلاف فى معظمها لفظى . وكان الماتريدى مؤلفا كبيرا ، وله مؤلفات عظيمة فى الرد على الرافضة والقرامطة ، وكتابه ( تأويلات القرآن ) كتاب عظيم يدل على نبوغه وذكائه الباهر ، ورسوخه فى العلم .

وقد كان للامام أبى الحسن الأشعري بحكم اقامته فى العراق - مركز العالم الاسلامى السياسى والثقافى - نفوذ أكبر فى الأوساط العلمية ، وشهرة أوسع ، واسم ألمع فى تاريخ علم الكلام من غيره ومن جاؤوا بعده .

## العلماء الأشاعرة ونفوذهم فى العالم الاسلامى :

وقد نشأ فى مدرسة أبى الحسن الأشعري الفكرية علماء فحول ، ومتكلمون كبار خضع لعلمهم ونفوذهم العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، وظلوا مسيطرين على الحركة العلمية والفكرية لعدة قرون ، وبفضلهم انتقلت قيادة العالم الاسلامى الفكرية ، وتوجيهه من المعتزلة إلى أهل السنة . وقد نبغ فى القرن الرابع علماء كبار ، طبقت شهرتهم الآفاق ، أمثال : القاضى أبى بكر الباقلانى ( ٤٠٣ هـ ) والشيخ أبى اسحاق الاسفرائينى (م ٤١٨هـ) ، وقد كان فى القرن الخامس للعلامة أبى اسحاق الشيرازى ( م ٤٧٦ هـ ) وامام

(١) ابن تيمية لمحمد أبى زهرة ، نقلا عن الشيخ محمد عبده ، فى تعليقاته على العقائد العضدية .

الحرمين أبى المعالى عبد الملك الجوينى ( م ٤٧٨ هـ ) مهابة ومحبة فى نفوس المسلمين ، لم تكن لأحد من الملوك والسلاطين ، يدل على ذلك بعض الدلالة ما يرويه تاج الدين السبكى فى « طبقات الشافعية الكبرى » عن رحلة الأول من بغداد إلى نيسابور .

يقول السبكى : ان الخليفة أمير المؤمنين المقتدى بالله ، تشوش من العميد أبى الفتح بن أبى الليث ، فدعا الشيخ أبى اسحاق ، وشافهه بالشكوى منه ، وأن أهل البلد حصل لهم الأذى به ، وأمره بالخروج إلى العسكر ، وشرح الحال بين يدى السلطان ، وبين يدى الوزير نظام الملك ، فتوجه الشيخ ومعه جمال الدولة عفيف ، وهو خادم من خدام الخليفة .

قال أبو الحسن الهمداني : « وكان عند وصوله إلى بلاد العجم يخرج أهلها بنسائهم وأولادهم ، فيمسحون أردانه ، ويأخذون تراب نعليه ، ويستشفون به . وكان يخرج من كل بلد أصحاب البضائع بضائعهم وينشرونها ، ما بين حلوى ، وفاكهة ، وثياب ، وفراء وغير ذلك ، وهو ينهاتهم حتى انتهوا إلى الأساكفة ، فجعلوا ينثرون المتاع ، وهى تقع على رؤوس الناس ، والشيخ يتعجب .

ثم أن الشيخ دخل نيسابور ، وتلقاه أهلها على العادة المألوفة ممن وراءهم من بلاد خراسان ، وحمل شيخ البلد امام الحرمين أبو المعالى الجوينى غاشيته ومشى بين يديه كالخديم ، وقال : افتخر بهذا <sup>(١)</sup> .

« وقد كان لامام الحرمين فى ولاية الب أرسلان السلجوقى ، وفى وزارة نظام الملك الطوسى ، أعظم مركز دينى » وقد بنيت له المدرسة النظامية بمدينة نيسابور ، وتولى الخطابة بها ، وحضر دروسه الأكابر من الأئمة ، وانتهت إليه رئاسة الأصحاب ، وفوض إليه الأوقاف . وبقي على ذلك قريبا من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع . مسلم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة <sup>(٢)</sup> ، وأغلقت الأسواق يوم موته ، وكسر منبره فى الجامع وقعد الناس لعزائه وأكثروا فيه المراثى .

وكان تلامذته يومئذ قريبا من أربعمئة واحد ، فكسروا محابرههم وأقلامهم على ذلك عاما كاملا <sup>(٣)</sup> .

(١) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى ج ٣ ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٦١ .

(٣) أيضا ص ٣٦٢ .

وقد انتشر المذهب الأشعري أيام وزارة نظام الملك الذي كان أشعري العقيدة . وكان صاحب الكلمة النافذة في الامبراطورية السلجوقية العظيمة انتشارا عظيما . وأصبحت شبه عقيدة رسمية تتمتع بحماية البلاط ، وزاد في انتشارها وقوتها مدرسة بغداد النظامية ومدرسة نيسابور النظامية . وكانت المدرسة النظامية في بغداد أكبر جامعة اسلامية في العالم الاسلامي . كان الانتساب اليها شرفا وفخرا للطالب والمتخرج . وكانت وظيفة التدريس فيها مجدا للعالم وشهادة علمية ليست فوقها شهادة . فكان طبيعيا أن ينتشر المذهب الأشعري ويسود في العالم الاسلامي « .



## الانحطاط فى علم الكلام ، إزدهار الفلسفة الباطنية

### والحاجة إلى متكلم جديد

#### الانحراف والانحطاط فى علم الكلام :

ان مدرسة الأشعرى الفكرية ، وان كانت لا تزال مهيمنة على العالم الاسلامى ، وعلى مناهج التعليم ، وعلى الحياة الدينية ؛ ولكنها قد فقدت حيويتها ونشاطها الفكرى ، وضعف انتاجها فى الزمن الأخير ضعفا شديدا ، وبدت فيها آثار الهرم والاعياء .

لقد استطاع أبو الحسن الأشعرى ، بشخصيته القوية ، وعقله الكبير وابتكاره ، أن يهزم المعتزلة فى معترك العلم والعقل ، ويغير اتجاه الطبقة المثقفة فى عصره ، والفضل فى ذلك لا يرجع إلى أصوله وقواعده ، ولا إلى نظرياته وعقائده فحسب ، فيمكن أن تناقش فى ضوء العلم ، ويمكن أن لا يقتنع ببعضها باحث ومتأمل ، ولكنه يرجع كذلك إلى مواهبه العظيمة ، ونبوغه ، وعبقريته ، وملكته القوية فى الاستدلال ، وقد كانت هذه المدرسة فى حاجة دائمة إلى شخصيات قوية جديدة ، تحفظ مكانتها ومركزها فى العالم الاسلامي ، وتجدد حياتها ونشاطها ، وفى حاجة دائمة إلى انتاج جديد ، وبعث وتجديد ، وابتكار مزيد .

ولكن ذلك لم يكن مع الأسف ؛ فقد طغى التقليد على تلاميذ هذه المدرسة وأصبحوا عيالا على ما أنتجه الامام أبو الحسن الأشعرى وبعض خلفائه ، وقفوا عنده ، وعضوا عليه بالنواجذ ، وأصبح علم الكلام علما متناقلا يتناقله الخلف عن السلف ، والتلاميذ عن الأساتذة ، وقد شعر بعضهم بأن الزمان قد تطور ، والعلم قد تقدم ، فأدخل مصطلحات الفلسفة وأسلوبها فى الاستدلال فى علم الكلام ، ولم يحسن صنعا ؛ لأن هذا الاسلوب الفلسفى لا يورث الاذعان فى القلوب كما يفعل اسلوب القرآن الطبيعى ، وليس له سحر فى النفوس ، ولا اقناع كاقناع القرآن ؛ ولأن هذه المقدمات والدلائل الفلسفية مثار بحث وجدال كبير ، ولا يفيد العلم القطعى ، وكانت معرضة للنقض والرد ، وهكذا لم يحسنوا تمثيل مذهب أهل السنة ، ومسلك السلف ، ولم يحسنوا اليهما ، ولم ينالوا تقدير الأوساط الفلسفية واجلالها كذلك ؛ إذا كانت تعتقد أن هذه المصطلحات والمقدمات استغلت استغلالا ، ولم تهضم هضمًا صحيحا .

## شروع الفلسفة فى العالم الاسلامى :

وقد انتقلت إلى العربية - بتوجيه المأمون الذى كان من هواة الفلسفة ، وبجهد المترجمين- كتب كثيرة فى المنطق والفلسفة ، من السريانية واليونانية والفارسية ، وكان أكثرها لأرسطو ، وكان فيها كتب المنطق ، وكتب فى الطبيعيات والعنصریات والرياضيات، وهى كتب وعلوم يحسن الانتفاع بها ، ولا يخاف منها على العقيدة الاسلامية ؛ إذ لا صلة لها بالديانات والشرائع ، وفيها كتب فى الالهيات والميتافيزيقا ، والحق أن هذه البحوث فى الالهيات إنما هو علم الأصنام عند اليونان ، وما هى الا وثنيتهم القومية التى ترجموها فى لغتهم الفلسفية ، وأضفوا عليها صبغة من الفن ، وما العقول والأفلاك الا رموزا للوثنية الاغريقية القديمة ، وما أفعالها وحركاتها وتصرفاتها الا عقائد توارثتها الأجيال عندهم ، ووثنية تعارض التوحيد ، وتحل محل عقيدة الصفات الالهية ، وتشتمل هذه الفلسفة التى بهرت المسلمين ، وتسلمت على عقولهم من غير حق ومن غير جدارة ، على ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى ، ولا وجود لها فى الخارج . وقد كانت الأمة التى أكرمها الله بالنبوءة المحمدية ، ومنحها العلم الصحيح الذى لا كدر فيه ولا تخمين ، العلم الصحيح بالذات والصفات ، والمبدأ والمعاد .

لقد كانت هذه الأمة فى غنى عن الاشتغال بهذه الفلسفة الخرافية ، والتدقيق فيها ؛ ولكن الذين بهرتهم براعة اليونان فى المنطق والطبيعيات والرياضيات ، أقبلوا على هذه الفلسفة الالهية فى شئ من التمجيد والتقدیس ، وتلقوها كصحيفة سماوية ، كأنهم لا عهد لهم بالرسالة والبعثة المحمدية ، وكأنهم ليسوا أصحاب كتاب ﴿ لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وكأنهم أمة جاهلية فقيرة فى المعانى الدينية والحقائق الالهية .

## الفلسفة اليونانية فى الاسلام :

كان من سعادة الفلسفة اليونانية وحسن حظها ، أن رزقت رجالا أذكياء تطوعوا لنشر الفلسفة وشرحها ، وجندوا فى سبيلها نفوسهم ومواهبهم ، كيعقوب الكندى ( م ٢٥٨هـ ) وأبى النصر الفارابى ( م ٣٣٩هـ ) والشيخ الرئيس أبى على بن سينا ( م ٤٢٨هـ ) وكانوا فى حماستهم فى الدفاع عن الفلسفة ونشرها فى الأمة الاسلامية ، وفى إخلاصهم لهذه الفلسفة وتمجيدهم لها ، وتقديسهم لأرسطو ، لا يقلون عن فلاسفة اليونان وتلاميذهم ، وكانوا يجهلون اللغات التى ألفت فيها هذه الكتب ، ودونت فيها هذه الأفكار ، وكانوا غير قادرين على الانتفاع بالمصادر الأصلية مباشرة ؛ فكانوا عيالا على من ينقلها لهم من

السريانية واليونانية ووقعوا فى أخطاء وأوهام فى فهم مقاصد المؤلفين والفلاسفة اليونانيين ، وقد منعهم اجلالهم لأرسطو وتقديسهم له من أن يتناولوا أفكاره ونظرياته بالبحث والنقد فأخذوها على علاتها ، وعكفوا عليها دراسة وشرحا وايضاها وبيانا ، وحولوا العلوم العقلية نقلية يتناقلونها ويتوارثونها .

### الفرق بين المعتزلة والفلاسفة :

وهنا حقيقة يجب أن نقررها : أن المعتزلة وإن أفرطوا فى تمجيد العقل وتحكيم الفلسفة فى الدين ، واتجهوا بالأمة ذات النبوة والكتاب والتعاليم اتجاها كان يبعدها عن وضعها الصحيح ، وروحها الحقيقية ؛ ولكن مما لا شك فيه ، أن طبيعة المعتزلة كانت طبيعة دينية ، وكانوا يفكرون التفكير الدينى ، كانوا يؤمنون بالنبوة والوحى ، وكانوا فى حياتهم متقشفين زهادا يحترزون عن المعاصى ، ويلتزمون العبادات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان كل ذلك بحكم عقائدهم التى يدينون بها ، ورأيهم الذى يرونه ، فكانوا يرون أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة ، وكانوا متحمسين نشيطين فى خدمة الاسلام ونشره ، ومحاربة الملحدين ؛ فلم يكن نتيجة انتشار الاعتزال وسلطة المعتزلة أن انتشر الكفر والالحاد فى المجتمع الاسلامى ، وفشا انكار النبوات ، وانكار المعاد ، والميل إلى الاباحية والتعطل ؛ بل بقى المعتزلة ، وبقى الشعور الدينى فى المسلمين حيا قويا .

ولكن الفلاسفة يختلفون فى ذلك اختلافا اساسيا ، فالفلسفة تتنافى مع النبوة وتعارضها فى خط مستقيم ، انها تنحرف عن النبوة فى النقطة الأولى ثم لا تلتقيان ، فكان طبيعيا أنه كلما ازداد الناس اقبالا على الفلسفة واجلالا لها ، ازدادوا انصرافا عن الدين واستخفافا له ، وكلما ازداد الناس خضوعا للفلاسفة ازدادوا استهانة بالأنبياء صلوات الله عليهم . وما من ناحية من نواحي الحياة الدينية الا وقد تأثرت بهذا التحول الفكرى ، ووجدت فى المسلمين طبقة تستهزئ بالدين وتزدريه ، وتتمجد بخروجها عن ربة الدين وتحمرها من تكاليفه وعقائده فى غير كتمان وفى غير احتشام ، ومنهم من لا يملك شجاعة أدبية تحمله على هذا الاعلان ؛ فكانوا يظهرون فى المظهر الاسلامى وهم يطنون الكفر والالحاد .

### فتنة الباطنية :

ونشأت مع الفلسفة وازدهارها فتنة جديدة كانت أضر على الاسلام وتعاليم النبوة من

الفلسفة ، تلك فتنة الباطنية ، وقد كان معظم دعائها أفرادا وأما وشعوبا قد فقدت سيادتها وحكمها فى تيار الفتوح الاسلامية ، ولا مطمع فى استردادها بالحروب والمقاومة المادية ، أو رجالا يدينون بالشهوات واللذات ، ويؤمنون بالاباحة وعبادة النفس - والاسلام يحد من شهواتهم ويقيد حرياتهم - أو رجالا يطمحون إلى السلطة المطلقة ، والسيادة الكبيرة ، وقد اجتمع هذه الأضراب من الناس تحت راية الباطنية والتفوا حولها ؛ إذ هى الـراية التى تجمعهم وتمنيهم بالوصول إلى غاياتهم ، وقد شعر هؤلاء أن الاسلام - وهو لا يزال قويا - لا يهزم فى ميدان الحرب ، وأن المسلمين - وهم أصحاب عاطفة دينية قوية - لا تصح دعوتهم إلى الالحاد السافر ، والكفر البواح فان هذا يشعل عاطفتهم الدينية ويلهب غيرتهم ويثير فيهم روح المقاومة ؛ فتضيع الفرصة ويقلت الزمام ؛ ولذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم اسلوبا لا يزعج المسلمين ولا يثيرهم ، أنهم اتخذوا للوصول إلى غايتهم نفقا .

### الفرق بين الظاهر والباطن :

أنهم لاحظوا أن أصول الديانة الاسلامية وعقائدها وأحكامها ومسائلها ، إنما عرضت فى اطر ألفاظ وكلمات تدل عليها وتعبر عنها ، وكان لابد من ذلك عند كل رسالة جديدة ، والله تعالى يقول : ﴿ وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ . وقد تعينت معانى هذه الكلمات ومفاهيمها ؛ وتواتر ذلك عمليا ولفظيا فى الأمة واستفاض ، وعرفته الأمة الاسلامية ودانت به ، فكل من كلمات النبوءة و « الرسالة » و « الملائكة » و « المعاد » و « الجنة » و « النار » و « الشريعة » و « الفرض » و « الواجب » و « الحلال » و « الحرام » و « الصلاة » و « الزكاة » و « الصوم » و « الحج » يؤدى معنى خاصا ؛ وتفهم منها مفاهيم خاصة لا يشك فيها مسلم ، ولا يختلف فيها اثنان ، وكما أن هذه الحقائق الدينية-التي تعبر عنها هذه الكلمات- ظلت محفوظة فى الأمة تتوارثها الأجيال ، وتنتقل مع الزمان ، كذلك هذه الكلمات ثروة محفوظة لم تعبث بها يد التحريف ، وقد أصبح كل منها لازما وملزوما لصاحبه ، فإذا أطلقت كلمة « الصلاة » مثلا انتقل الذهن إلى هيئة عبادة خاصة ، فيها قيام وركوع وسجود وقراءة وتسليم إلى غير ذلك مما يدخل فى أركان الصلاة وأجزائها وأوضاعها ، وكذلك إذا أطلقت كلمة « النبوءة » أو « المعاد » تعين منها ذلك المفهوم الأساسى الذى يفهمه المسلمون ويدينون به .

لقد أدرك « الباطنية » بذكائهم ، أن هذه الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها ، أساس تقوم عليه الحياة الاسلامية ، والهيكل الفكرى والعملى فى حياة المسلمين ، ولهذه الصلة تدين الوحدة الدينية والفكرية التى يمتاز بها المسلمون ، وعن طريق

هذه الصلة يتصل المسلمون بماضيهم ويمتابعهم الصافية ، فاذا انقطعت هذه الصلة - بين الكلمات والمعاني - وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم معين ، أو تسرب الشك والاختلاف إليها ، أصبحت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة ، وساغ لكل أحد أن يقول ما يشاء ، ويروج على كثير من العامة وأشباه العامة ؛ بل الخاصة ، وعمت الفوضى العقلية والدينية ، وذلك ما يريدون ، ومنه يدخلون .

قالوا : « ان لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجرى من الظواهر مجرى اللب من القشر ، وأنها بصورتها توهم الجهال صورا جليلة ، وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية ؛ وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار ؛ وقع بظواهرها ، كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع ، ومن ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه ، قالوا : وهم المرادون بقوله تعالى : ﴿ ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ <sup>(١)</sup> .

ولما تقرر أن لكل لفظ ومعنى شرعى ظاهرا أو باطنا - والباطن هو اللب - استرسلوا في تقرير بواطن المصطلحات الشرعية المتواترة المعنى حسب أهوائهم ، وأطلقوا العنان ، وفسروا هذه الكلمات والحقائق بما شاءوا وشاء لهم عبثهم وثقتهم بتقليد المستمعين وبساطتهم ، وهنا أمثلة طريفة لهذا التفسير التقطنها من كتاب قواعد عقائد آل محمد ، لمحمد بن الحسن الديلمي اليماني ، من علماء أوائل القرن الثامن الهجري ، وهو ثقة مأمون في النقل .

« يقولون للشرائع باطن لا يعرفه الا الامام ، ومن ينوب منابه ، وكذلك كل ما ورد في الحشر والنشر وغيرها ، فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن ، فمعنى الغسل : تجديد العهد عليه . ومعنى الجماع : مكاملة من لا عهد له بالباطن . . . والزنا القاء العلم في سمع من لم يعاهده . والاحتلام : سبق اللسان لمذهب الباطن . والظهور : التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية . والتيمم : الأخذ للعلم من المأذون . والصلاة : الدعاء إلى الامام . والزكاة : بث العلوم لمن يتزكى لها ويستحقها . والصوم : كتمان العلم عن أهل الظاهر ، وكذلك كتمان المذهب . والحج : طلب العلم الذي تشد رحائل العقل اليه . وقيل الكعبة ، النبي ، والباب على . والصفاء النبي . والمروة على . والميقات على . والتلبية اجابة الداعي إلى باطنهم . والطواف بالبيت سعيا من الطواف لمحمد إلى تمام الأئمة السبعة .

(١) تليس ابليس لابن الجوزى ص ١٠٢ .

وصلاة الفجر دليل على السابق . والظهر على التالى . والعصر على الاساس وهو الوصى . والمغرب على الناطق . والعشاء على الامام « (١) .

وفى المعجزات قالوا : الطوفان : هو العلم غرق فيه أهل الشبه والظاهر ، والسفينة : حرزه الذى تحصن به المستجيب . ونار ابراهيم : غضب نمرود عليه . وذبح اسحاق : أخذ العهد عليه . وعصا موسى : حجته التى غلب بها عند المناظرة ، وليست بخشبة . وانفلاق البحر : هو افتراق علم موسى على أقسام ، والبحر : هو العالم . والغمام الذى أظلمهم امام نصبه موسى . والجراد والقمل والضفادع والدم : هى التزامات موسى واحتجاجاته والمن والسلوى : علم نزل من السماء بداع من دعائهم « (٢) .

ولعل بعض القراء الكرام يشكون فى صحة هذه الأقوال ، وكيف تصدر من عاقل؟! ويتطرق الشك إلى ناقلها لكونه من أهل السنة : فهنا نقول من كتاب « ديانتنا الاسماعيلية ونظامها » للدكتور زاهد على ، ظهر حديثا فى الهند ، مع ذكر مصادرها وهى كتب أئمة الاسماعيلية ودعاتها .

« لا اله الا الله تأويله : لا امام الا امام الزمان (٣) . الوضوء : مولانا على ، بحجة أن الحروف فى كلتا الكلمتين ثلاثة (٤) . الصلاة : الرسول ﷺ ، بحجة أن الحروف فى كلتا الكلمتين أربعة (٥) . لا صلاة الا بوضوء يعنى لا يصح الايمان بالرسول بغير الايمان بوصاية على (٦) . ركعات الظهر الأربع : محمد ﷺ (٧) . ركعات العصر الأربع : دعوة مولانا على (٨) . عيد الفطر : مولانا المهدي ؛ لأنه ظهرت منه دعوة الحق (٩) .

انا أنزلناه ؛ مولانا حسن بن على ؛ لأن الله رقاہ إلى درجة الامامة ، ثم أهبطه ؛ فقد

(١) قواعد عقائد آل محمد ص ١٧ . وقد ذكر مثلها الغزالي فى المستظهرى .

(٢) قواعد عقائد آل محمد ص ١٨ .

(٣) تأويل الشريعة من كلام الامام مولانا المعز ص ٤ .

(٤) تأويل القاضى نعمان .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق .

(٧) تأويل مولانا المعز .

(٨) المصدر السابق .

(٩) تأويل الدغائم .

قطع من ذريته الامامة<sup>(١)</sup> . فى ليلة القدر : مولانا حسين ، وحجته ابنه الذى خلفه<sup>(٢)</sup> .

ولم يقتصر دعاة الباطنية على التمييز بين الظاهر والباطن ، وتفضيل الباطن ؛ بل تدرجوا فى استخفاف بالظاهر حتى جعلوه موضع سخرية واستهزاء ، يتقذره الانسان ويتبرأ منه .

يقول الدكتور زاهد على : « لقد كان الأئمة والدعاة يفهمون تلاميذهم من الطبقة العليا أن الظاهر متناقض ومعوج ، وأنه علم كيف ، وأنه محض ... لا دليل عليه ، وأنه لا حياة فيه ، وأن أهل الظاهر هم أهل الكفر ؛ بل أهل الشرك »<sup>(٣)</sup> .

ويقول فى موضع آخر : « ان لب تعليماتنا الاسماعيلية ولبابها ، أن الغاية من الشريعة التأويل الذى هو من الجسد كالروح ، وان التنزيل ليس الا جسما »<sup>(٤)</sup> .

وتقدموا خطوة أخرى ، فأعلنوا عقيدتهم أن الأئمة الذين هم أهل الأسرار والحقائق يعطلون ظاهر الشريعة وينسخونه ، يقول سيدنا « ادريس » : بعث الله محمد بن اسماعيل ( ابن الامام محمد باقر ) وهو نبى ناطق ، نسخ شريعة محمد ﷺ »<sup>(٥)</sup> .

### ثورة على النبوة المحمدية :

لقد كان انكار المفاهيم الدينية التى توارثتها الأمة ، وتفسير الكلمات الشرعية والمصطلحات الدينية حسب الأغراض والأهواء ، والفصل بين الظاهر والباطن ، بابا لم يزل يدخل منه الثائرون على النبوة المحمدية ، والمؤامرات ضد الاسلام ، لقد نصبوها ألغاما ينسفون بها هذا البناء العظيم الذى أقامه محمد ﷺ وخلفاؤه ، والذى لا يزال يؤوى هذه الأمة العظيمة فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويؤسسون على أنقاضه هيكلا دينيا جديدا . لقد كان ذلك كله محاولة لانشاء دولة مستقلة فى ضمن دولة الشريعة الاسلامية ؛ وانشاء مجتمع مستقل فى وسط المجتمع الاسلامى ، ولا شك أن دولة من الدول لا تسمح بنشوء هذه الدولة واستفحالها فى وسطها . وقد رأينا المنافقين والملحدون الذين ثاروا على هذه النبوة المحمدية فى زمانهم أسرعوا إلى انكار هذا التواتر المعنوى ، والتوارث اللفظى ،

(١) أيضا ذكر ليلة القدر .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ديانتنا الاسماعيلية ونظامها ص ٢٠ .

(٤) ديانتنا الاسماعيلية ونظامها ص ٢٢ .

(٥) عاصمة نفوس المهتدين وقاصمة ظهور المعتدين لسيدنا .

وحاولوا أن يجعلوا هذه الشريعة ومصطلحاتها ومفاهيمها بحيث يعث بها العابثون ؛ وبذلك مهدوا لأنفسهم قيام سيادة دينية ونبوءة جديدة يتمتعون في ظلها بسلطان روحي ، وسيطرة سياسية ، وحرية مادية . ومن أوضح أمثلتها : البهائية في ايران ، والقاديانية في الهند (١) .

وكلها تلتقى على انكار التوارث المعنوي ، وتأويل الكلمات الشرعية الاسلامية المتواترة تأويلا لا يقوم على اللغة ، والقياس ، والمنطق ، والاتجاه إلى انكار الحقائق الغيبية ، والخرق للسنن الطبيعية ، وتلتقى أولا وآخرا على انكار عقيدة ختم النبوءة .

وقد كانت الباطنية مؤسسة على الفلسفة اللاهوتية اليونانية ، وعلى الطبيعيات ، وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة اليونانية وأفكارها وعقائدها في أدبهم وشرح عقيدتهم بسخاء وحرية وطبقوا الفلسفة ولغتها ووتفكيرها على ديانتهم الجديدة ، ونظام عقائدهم وأفكارهم ، ولعلمهم كانوا يعتقدون أن هذه الفلسفة ، وما جاء فيها من عقائد وأفكار ، حقائق علمية ثابتة ، لا تزعزع ولا تقبل النقاش ، وأنها تظل كذلك ؛ فأرادوا أن يضيفوا بذلك على عقائدهم الواهية شيئا كثيرا من قدسية العلم وروعته ، وأن يجذبوا اليها كثيرا من النشء الجديد الذي أعشاه ضوء الفلسفة ، وخلع قلبه مصطلحاتها الفخمة ، وتشقيقاتها الدقيقة ، وقد انتقد ذلك العالم الاسماعيلي الدكتور زاهد علي في كتابه « ديانتنا الاسماعيلية ونظامها » يقول : « لقد اعتقدنا أن جميع النظريات التي جاءت في علم الهيئة القديم ، وفي علم الطبيعيات ، وعلم الالهييات ، صحيحة لا يتطرق اليها الشك ، فاستعنا بها في اثبات دعوتنا الاسماعيلية ونظامها وحدودها ، وادعينا أن المسائل التي قدمناها حقائق علمية » (٢) .

ويقول في موضع آخر :

« لقد تناولنا معارف المعتزلة بشئ من التغيير ، وأفرغناها في قالبنا ؛ ولذلك يقال : أن أكثر معلومات الاسماعيلية ملتقطة من المعتزلة والفلاسفة » (٣) .

ويقول في موضع آخر :

« لقد وضعنا العقل الأول أو العقل العاشر أو امام الزمان ( كما نسميه نحن ) بكل ما

(١) اقرأ في هذا الموضوع كتاب المؤلف « القادياني والقاديانية دراسة وتحليل » .

(٢) ديانتنا الاسماعيلية ونظامها ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥ .



يوصف به المبدأ الأول والذات الالهية ، حتى اننا نعى القول الأول أو امام الزمان بكل ما جاء فى وصف الله تعالى فى قوله : ﴿ الم . الله لا اله الا هو الحى القيوم ﴾ وقوله : ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور ﴾ إلى آخر الآيات <sup>(١)</sup> .

ولا شك أن الباطنية تبنا الفلسفة ؛ فكان طبيعيا أن يكون أكثر اعتمادهم على المشتغلين بالفلسفة وأنصارها ، وكان طبيعيا أن يتبعوهم ويلاحقوهم ، يظهر ذلك من نفس كتابات دعاة الاسماعيلية القدماء ورسائلهم ووصاياهم ؛ فقد بعث عبد الله بن الحسن القيروانى ، أحد دعاة الاسماعيلية ، رسالة إلى أبى الحسن بن سعيد الجنايى ، زعيم القرامطة ، يقول فيها : « أدع الناس بأن تقترب اليهم بما يميلون اليه ! وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ! فمن أنست منهم رشدا فاكشف له الغطاء ! وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ! فعلى الفلاسفة معولنا » <sup>(٢)</sup> . وقد لاحظ ذلك المستشرق « دوزى » فقال عن مؤسس الدعوة الاسماعيلية ، هو عبد الله بن ميمون القداح :

« ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص ؛ ولكن بين الوثنية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية ، ولم يكن يعتمد الا على الطائفة الأخيرة . واليهم وحدهم استطاع أن يفضى بسرهم وخفى عقيدته . وهو : أن الأئمة والاديان والأخلاق ليست الا ضلالا وسخرية ، وأن باقى البشر - أو الحمر كما يسميهم - ليسوا أهلا لفهم هذه المبادئ ؛ غير أنه ، تحقيقا لغايته ، لم يعف عن مؤازرتهم ؛ بل كان يلتمسها ، ويحذر فى نفس الوقت من أن يحشد الأنفس المخلصة الطائفة الا فى المرتبة الأولى لدعوته . » <sup>(٣)</sup>

وقد ساعد الباطنية انتشار الفلسفة ، والاضطراب الفكرى الذى كان يسود المجتمع الاسلامى بصراع الفلسفة ، وعلم الكلام الذى أدى إلى التقعر وتشقيق الشعرة ، وقد ألفتها الأذهان ، وأولع به الشبان ، ووجد فى المعلمين وأنصاف المتعلمين ولع بالعلوم الغامضة ، وبما يشبه العلوم الغامضة والحقائق البعيدة الغور ؛ فنفتت سوق الباطنية وهبت ريحهم ونصت تجارتهم ، واجتمع حولهم اناس بدوافع مختلفة وأغراض شتى ، منهم من دفعه اليهم أخذ الثأر من الذين كانوا سببا فى ذهاب دولتهم وملكهم ، ومنهم من دفعه بغض الدولة العباسية القائمة ، وما يعانونه من ظلم وحيث فى ظلها - الباطنية هم الذين يعملون

(١) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) اخوان الصفاء . تأليف الأستاذ عمر الدسوقى ص ٢٥ .

ضدها ويتصبون لها - ومنهم من دفعته الرغبة فى الأسرار والغوامض ، ومنهم من دفعه اليهم رد فعل ضد الظاهرية السائدة ، والتمسك بالقشور والالحاح عليها الحاحا زائدا ، وانكار كل ما زاد عليها ، وكثير منهم اندفع وراء اشباع الرغبات والتهام اللذات التى يمكن منها الباطنية ولا يمكن منها غيرهم ، ومنهم من دفعه الغضب لأهل البيت والتشيع لهم ، وكانت الباطنية تنشر دعوتها باسمهم وتدعو اليهم . ومهما اختلفت الدوافع والأغراض فقد كسبت الباطنية شيئا وانصارا ، وأصبحت مؤسسة سرية يرهب جانبها وتخشى غائلتها ، حتى أصبحت فى زمن قريب قوة تحسب لها الحكومات الاسلامية الكبيرة الحساب الكبير ، وظلت منها مدة طويلة فى تعب عظيم وعناء كبير ، وأضحى كثير من رجالها ووزراء الحكومات صرعى الارهاب ، واغتيل نفوس كان غناؤها للاسلام عظيما ، كنظام الملك الطوسى ، وفخر الملك ؛ حتى أتى على المسلمين حين من الدهر ، ولا يعرف العالم منهم أو الوزير أو القائد ، إذا نام فى الليل ، هل يصبح سالما أم يكون فريسة أحد الإرهابيين قال ابن الجوزى : واستفحل أمرهم بأصبهان ، وآل الأمر إلى أنهم كانوا يسرقون الانسان ويقتلونه ويلقونه فى البئر ، وكان الانسان إذا دنا وقت العصر ولم يعد إلى منزله ، أيسوا منه <sup>(١)</sup> . هذا عدا ما دسوا فى العلم والأدب ، وعدا ما تأثرت بهم العقول والنفوس ؛ حتى تجاسر الناس على تأويل النصوص والقطعيات ، وتحريف الأصول والمحكمات ، ووجد فى الناس اقبال غريب على الاحاد والتطرف فى الاعتقاد .

### اخوان الصفاء :

وقد قامت فى العراق فى القرن الرابع الهجرى - وهو قرن قد بلغ فيه الاضطراب الفكرى والاضطراب السياسى أوجهما - جماعة سرية كالماسونية ، تجمع مزيجا من الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية ، تسمى باخوان الصفاء ، وكان أصحابها متأثرين بالأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الحديثة ، وكانوا يريدون أن يضعوا للناس مذهبا جديدا يجمع بين الهيات اليونان ، ونظريات افلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم ، وبين العبادات الشرعية الاسلامية ، والظهارة والمروءة والأخلاق الثابتة فى كل دين وأمة ، وعقيدة الشيعة الاسماعلية ، ويخرجوا على الناس بخليط فيه حكمة اليونان وتنظيم الأديان .

يصفهم أبو حيان التوحيدى فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » فيقول :

(١) تلبس ابليس ص ١١٠ .

« وكانت هذه العصابة قد تألفت بال عشرة ، وتصافت بال صداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ؛ فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ؛ وذلك أنهم قالوا أن الشريعة قد دنست بال جهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال . وصنفوا خمسين <sup>(١)</sup> رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرسا وسموها « رسائل اخوان الصفا » ، وكتبوا فيها اسماءهم ، وبثوها في الوراقين ، ووهبوا للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق الموهمة . »

وهذه الرسائل تشتمل على الطبيعيات والرياضيات والالهيات والعقليات ، ويعوزها التعمق والنظام ، ويظهر فيها الاغراق في الخيال ، والاعتماد على الأفكار اليونانية من غير فحص وانتقاد ، وبحث في كل علم من غير اشباع واقناع ، وقد لاحظ أبو حيان فقال : « مبثوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، ينكرون فيها البعث بالأجساد <sup>(٢)</sup> ، ويفسرون الآخرة والجنة والنار خلافا لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص الدينية القطعية <sup>(٣)</sup> ، وينكرون الشياطين على الصورة التي يفهمها معظم المسلمين ، ويقولون :

هي النفوس الشريرة الهائمة فيما دون فلك القمر مع اخوانها من النفوس التي جهلت ذواتها في الدنيا <sup>(٤)</sup> . ويفسرون الكفر <sup>(٥)</sup> والعذاب <sup>(٦)</sup> تفسيرا باطنيا فلسفيا ، وتشتمل على كثير من الآراء الخيالية ، بعضها متلقف من اليونان ، وبعضها وليد الأذهان ، وبعضها تراث الكهان ، كأسرار الأعداد <sup>(٧)</sup> والتنجيم ، والفال ، والزجر <sup>(٨)</sup> ، والسحر ، والعزائم <sup>(٩)</sup> ،

(١) الصحيح انها احدى وخمسون رسالة .

(٢) رسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ٦١ - ٦ .

(٣) انظر رسائل اخوان الصفا ج ٣ ص ٧٨ وج ٤ ص ٤٠ .

(٤) رسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ٢٦ .

(٥) ج ٣ ص ٧٦ .

(٦) ج ٣ ص ٧٦ .

(٧) ج ١ ص ٢٧ - ٢٨ .

(٨) ج ١ ص ١٠٦ .

(٩) ج ٤ ص ٣٠ .

والايمان بطوالع النجوم وتأثيرها<sup>(١)</sup> وموسيقى الأفلاك ونغماتها وألحانها،<sup>(٢)</sup> وتشتمل كذلك على عقيدة الوحي،<sup>(٣)</sup> والامام المستور،<sup>(٤)</sup> والتقية<sup>(٥)</sup> وفيها اعداد النفوس والعقول لدولة جديدة، تقوم على امامة أهل البيت، واطار بانتهاء أمد الدولة العباسية وزوالها وقد جاء فيها ما يلي: « وقد ترون أيها الأخوان - أيدكم الله واينا بروح منه - أنه قد تناهت قوة أهل الشر، وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد التناهي في الزيادة الا الانحطاط والنقصان، وأعلم أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان، ودور وقران، من أمة إلى أمة، ومن أهل إلى أهل بيت، ومن أهل بلد إلى أهل بلد »<sup>(٦)</sup>.

وبالاختصار، ان رسائل اخوان الصفاء مجموعة غريبة من الحكمة والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والالهية، ونظرياتها وأوهامها، وتنهار بانهارها، وليست لها أهمية كبيرة. ولولا الاضطراب الفكري الذي كان يسود في القرن الرابع والخامس، واجلال كل ما يظهر في الصبغة الفلسفية، لما نالت هذا الاهتمام، ولما استحقت أن يتناقلها المعتزلة ومن جرى مجراهم، يتدارسونها ويحملونها معهم سيرا إلى بلاد الاسلام<sup>(٧)</sup>.

وكانت هذه الرسائل محاولة لوضع نظام جديد: خلقى، الهى، علمى، يحل محل الشريعة الاسلامية التي كان يعتقد « اخوان الصفاء » انها - بشكلها الحاضر - قد أصبحت عتيقة لا تؤدي رسالتها، وقد أخفقت هذه المحاولة اخفاقا تاما؛ فلم تنتج نظاما علميا، ولم تنشئ مجتمعا يقوم على أساسها، وأصبحت في مدة قريبة من الآثار التاريخية العتيقة التي لا تأثير لها في الحياة، ولا محل لها الا في المتاحف والمكتبات.

ويبدو لى كلما قرأت تاريخ الباطنية واخوان الصفاء، وتاريخ البهائية القاديانية، أن أصحابها قرأوا تاريخ الاسلام، وتاريخ الرسالة المحمدية والدعوة الاسلامية؛ فأوا رجلا

(١) ج ١ ص ٩٥ .

(٢) ج ١ ص ١٥ - ١٥٣ .

(٣) ج ٤ ص ٤٠٤ .

(٤) ج ٣ ص ٨٦ ج ٤ ص ٥٧ .

(٥) ج ٤ ص ٣٠٨ .

(٦) ج ٤ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٧) تاريخ فلاسفة الاسلام للطفى جمعة ص ٢٥٤ .

يقوم فى جزيرة العرب وحيدا فقيرا أعزل ، ويدعو إلى عقيدة وشريعة ، فلا يلبث أن يكون أمة ، ويكون دولة ، ويكون حضارة ، ويرغم التاريخ على أن ينحو نحوا جديدا ؛ فغرت هؤلاء نفوسهم الطامحة ، وأغرتهم بأن يجربوا هذه التجربة ، وعندهم الذكاء والدهاء وقوة التنظيم والعلوم والأتباع ، عسى أن يكونوا أمة ودولة وحضارة ، ولماذا لا تثمر الجهود ؟ ولماذا لا تتكرر المعجزة ، والفطرة البشرية لا تزال هى الفطرة ، ولا يزال الناس أشباها .

لقد رأى هؤلاء الطامحون هذا الرجل الوحيد الفقير الأعزل ، ولم يروا ما يعتز به من رسالة ونبوءة وشخصية وسيرة ، ولم يروا تلك الإرادة الإلهية الغالبة التى قضت بانتصاره وظهوره وخلوده : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ﴾ وقد أثمرت جهودهم مؤقتا ، فكان لهم أتباع وأشياع ، وقد استطاع بعضهم - كالباطنية - أن يقيم دولة ، وقد ازدهرت هذه الدولة ، وبقيت - ما بقيت - تنظيماتهم وحيلهم واستدراجاتهم ، وما لبثت أن تبخرت وتلاشت ، وبقيت دياناتهم فى نطق ضيق لا تقدم ولا تؤخر فى العالم . أما الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ ، فلا يزال القوة الروحية الكبرى ، ولا يزال صاحب أمة ودول وحضارة . وأما شمس النبوءة المحمدية فلا تزال مشرقة لم تنكسف ولم تحتجب يوما واحدا .

### الحاجة إلى شخصية قوية جديدة :

وعلى كل فقد كان العالم الإسلامى فى القرن الخامس وقد تواضعت على اضعافه الفلسفة والباطنية ، وأحدثتا تلبلا فكريا ؛ يجره إلى الالحاد فى العقيدة ، والتدهور فى الأخلاق ، والاضطراب فى السياسة - فى حاجة ملحة إلى شخصية قوية جديدة ترد إليه الإيمان بالعقيدة ، والاعتماد على مصادر الدين الأصيلة ، والاستقامة فى الأخلاق . ويتجج الانتاج الجديد الذى تكسد معه سوق الباطنية ، وتركد ربحها . وتعرض الإسلام عرضا عقليا جميلا تدحض معه حجج الفلاسفة والباطنية ، وكان لا بد لهذه الشخصية أن تكون جامعة بين العلوم العقلية والنقلية ، لها فى كل منهما قدم راسخة وباع طويل ونظر نافذ ، وتكون عقلية كبيرة تناهض فلاسفة اليونان وقادة الفكر فى العالم ، تجرى معهم فى رهان واحد ، وتستطيع أن تدون كثيرا من العلوم تدوينا جديدا ، وتقول فيهما كلمتها ، وتجمع إلى ذلك كله من المواهب العلمية والكفاية العقلية الإيمان القوى الراسخ الذى أكتسبه هذا الرجل بدراسته وتأملاته ، وإخلاصه وجهاده فى سبيل الوصول إلى المعرفة واليقين ،

ويستطيع بكل ذلك أن ينفخ في المجتمع الاسلامى روحا جديدة وحياة جديدة .  
لقد رزق العالم الاسلامى - وهو فى أشد الحاجة وأدق ساعة . هذه الشخصية الفذة ،  
فى منتصف القرن الخامس الهجرى : هى شخصية الغزالى التى ستكون موضوع عدة  
فصول مقبلة .

## حجة الإسلام الغزالي حياته ودراسته

### نشأته ودراساته :

هو محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، أبو حامد الغزالي . ولد في طابران ؛ من ناحية طوس<sup>(١)</sup> سنة ٤٥٠ هـ ، وكان أبوه فقيرا ، صالحا ، لا يأكل الا من كسب يده في عمل غزل الصوف ، ويطوف على المفتيه ويجالسهم ويتفرغ على خدمتهم ، ويجد في الاحسان اليهم ، والنفقة بما يمكنه عليهم ، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع ، وسأل الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيها . ويحضر مجالس الوعظ ، فاذا طاب رفته بكى ، وسأل الله أن يرزقه ابنا واعظا ؛ فاستجاب الله دعوته<sup>(٢)</sup> .

ولما حضرت أباه الوفاة ، وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير ، فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما : إلى أن فنى ذلك النزر اليسير الذي كان خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما ، فقال لهما : اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجا إلى مدرسة ؛ فانكما من طلبة العلم . فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما . ففعلا ذلك<sup>(٣)</sup> .

قرأ الغزالي في صباه طرفا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الرادكاني ، ثم سافر إلى جرجان إلى الامام أبي نصر الاسماعيلي ، وعلق عنه التعليقة ، ثم رجع إلى طوس . قال : « قطعت علينا الطريق ، وأخذ العيارون جميع ما معي ، ومضوا ، فتبعتهم ، فالتفت إلى مقدمهم وقال : ارجع ! ويحك ! والا هلك . فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتي فقط ، فما هي بشئ تتفعون به ، فقال لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلت كتب في تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك قال : كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك ؛ فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟! ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة . قال الغزالي : هذا مستنطق

(١) مقاطعة في خراسان شمالي شرقي ايران وتسمى الآن « مشهد » .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٠٢ .

أنطقه الله ليرشد به أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين ، حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى «<sup>(١)</sup> .

وقدم الغزالي نيسابور - وهى عاصمة السلجوقيين ، ومدينة العلم بعد بغداد - ولازم امام الحرمين - وهو من عرفنا شخصيته وجلالته فى العلم والتدريس - وجد واجتهد حتى برع فى المذهب والخلاف والجدل والأصول . وكانت العلوم السائدة فى عصره . وأعجب بذكائه وغوصه على المعانى الدقيقة واتساع معلوماته امام الحرمين ؛ فكان يقول : « الغزالي بحر مغدق »<sup>(٢)</sup> وفاق أقرانه وهم أربعمائة ؛ حتى أصبح معيدا لأستاذه ونائبا عنه .

ولما مات امام الحرمين ( ٤٧٨ هـ ) خرج الغزالي إلى المعسكر قاصدا الوزير نظام الملك ، وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من سنه ، وقد ظهر فضله وذاع صيته ، وكان مجلس الوزير مجمع أهل العلم وملاذهم ، وكانت المجالس حتى المآتم لا تخلو من المناظرات الفقهية والمطارحات الكلامية ، فناظر الغزالي الأئمة العلماء فى مجلس نظام الملك ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه عليهم ، واعترفوا بفضله ، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل ، رولاه تدريس مدرسته ( النظامية ) ببغداد ، وكان ذلك غاية ما يطمح اليه العلماء فى ذلك العصر ويتنافسون فيه ، فقدم بغداد فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وقلما تقلد هذا المنصب الرفيع عالم وهو فى هذه السن .

درس الغزالي بالنظامية ، وأعجب الخلق حسن كلامه ، وكمال فضله ، وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة ، وإشارات اللطيفة ، وأحبوه<sup>(٣)</sup> . قال معاصره عبد الغافر الفارسى : وعلت حشمته ودرجته فى بغداد ؛ حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة<sup>(٤)</sup> . وكان يقرأ عليه جم غفير من الطلبة المحصلين . يقول فى « المنقذ من الضلال » فى وصف حاله بالنظامية : « وأنا ممنون بالتدريس والافادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد<sup>(٥)</sup> . وأرسله الخليفة العباسى المقتدى بالله عام ( ٤٨٥ ) إلى زوجة ملك شاه السلجوقى « ترکان خاتون » التى كانت مالكة لزمام المملكة . وكان الخليفة المستظهر معجبا به ، خاضعا لفضله . وباقتراحه ألف الغزالي كتابه فى الرد على الباطنية وسماه « المستظهرى » .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ١٠٢ .

(٢) أيضا ص ١٠٣ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ١٠٦ .

(٤) أيضا ص ١٠٧ .

(٥) لمنقذ من الضلال مطبعة الترقى ص ٨٥ .



## اعتزال الغزالي عن التدريس وخروجه في طلب السعادة واليقين :

لقد بلغت شهرة الغزالي ومكانته العلمية في العالم الاسلامى أوجها ، وصل الرجل إلى أقصى ما يصل إليه عالم في ذلك العصر من المجد والسمو والرئاسة ، وأقبل إليه الطلبة من الآفاق: وخضع له العلماء والأمراء الوزراء ، وبقي في عاصمة العالم الاسلامى يدرس ويفيد ويؤلف ، وكان في ذلك ما يرضى عالماً يحرص على الافادة ونشر العلم ، وطموحاً يريد الرئاسة والمجد ، وكان المنتظر أن يبقى الغزالي - وقد انتهت إليه رئاسة العلم في العالم الاسلامى - في مركزه العلمى الذى ليس فوقه مركز ، ويقضى حياته بين حلقات الطلبة التى تحيط به ، وجموع المستمعين والقاصدين التى تمدق به ، وبين اعجاب الناس وثنائهم ، قرير العين ، رضى البال ، مرفوع الرأس ، عظيم الجاه ، كما فعل كثير من أساتذته وأكثر أقرانه وزملائه .

ولكن الغزالي لم يفعل ذلك ، ولم تسمح نفسه القلقة وهمته القعساء بأن يستمر في ذلك . وفي هذا القلق ، وفي هذا التمرد على ما تهيأ له من جاه ومجد ، سر عبقريته ، وسر خلوده من بين الأقران والأعيان ، ولذلك سمي « حجة الاسلام » وقد استطاع بقوة ارادته ، وصدق طلبه ، وعلو همته ، أن يضحى بأكبر منصب وأعظم جاه يطمح إليه العلماء والأذكياء في عصره ، ثم لا يناله إلا الواحد بعد الواحد في مدة طويلة ، وسهل عليه أن يتخلى عنه ويعتزله ، وينفض يده من كل ما يملكه من مال وأثاث ورياش ، وينتقل من دولة العلم التى كان يحكم فيها وحده ويسود إلى الصحارى والخلوات التى كان يعيش فيها عيش الفقراء والغرباء . إنه مثال رائع في تاريخ العلم والعقيدة تندر نظائره في كل زمان ومكان .

وقد حكى لنا الغزالي نفسه قصة هذا التحول العظيم ، وذكر أسبابه ودوافعه ، والصراع النفسى الذى ظل يعالجه مدة طويلة : حتى تغلبت عليه الارادة الصادقة . وخرج من بغداد في طلب السعادة واليقين ؛ حتى ظفر بطلبته ، ورجع سعيداً مؤمناً ، يستطيع أن يقنع غيره، ويملاه ايمانا ويقينا ، وكل ذلك في أسلوب طبيعى جميل أخاذ ، وبيان سهل سلسال، يحله في المكانة الأولى مما كتب بالعربية من « اعترافات » و « مذكرات » وفي المكانة السامية من الأدب العربى الذى يتدفق بالحياة . وإلى القراء بعض قطعها بالاختصار والاقتراب .

## بحث عن العلم اليقيني :

« قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول عمرى ، غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلى ؛ حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا ؛ إذ رأيت صبيان النصرارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على اليهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام ، وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ حيث قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات ، فقلت فى نفسى أولا ، إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ؛ فلا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقيني هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ؛ بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة ، لو تحدى باظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وانكاراً ؛ فانى إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك - بسببه - فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه ؛ فأما الشك فيما علمته ، فلا . !

ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ؛ فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ؛ فليس بعلم يقينى « (١) .

ويذكر الغزالى بعد ذلك ، كيف فتش عن علومه ، فوجد نفسه عاطلة عن علم يقينى موصوف بهذه الصفة الا فى الحسيات والضروريات ، ثم تأمل فى المحسوسات الضروريات ، وشكك نفسه فيها ؛ حتى بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً ، وجعل يشك فيها .

يقول : « فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا وفيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم المنطق والمقال ؛ حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ؛ ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن

(١) المنقذ من الضلال ص ٦٩ - ٧١ .

ويقين ، ولم يكن بنظم دليل وترتيب كلام ؛ بل بنور قذفه ﷺ تعالى في الصدر « (١) .  
اختبار لعلم الكلام :

وبعد الشفاء من مرض السفسطة والشك في المحسوسات والضروريات ، نظر الغزالي في أصناف الطالبين حوله ، فوجدها تنحصر في أربع فرق ، هم :

١ - المتكلمون ٢ - الباطنية ٣ - الفلاسفة ٤ - الصوفية . وبدأ يسبر غورها ، وينشد الحق والشفاء من مرضه عندها ، وابتدأ بعلم الكلام فحصله وعقله ، وطالع كتب المحققين منهم ، وأحكم هذا العلم حتى صنف فيه .

قال : « فصادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودي ، إنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة على أهل السنة . وحراستها عن تشويش أهل البدعة . واعتماد المتكلمين على مقدمات تسلموها من خصومهم ، وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم » يقول : « وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا ؛ فلم يكن الكلام في حقي كافيا ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافيا » (٢) .

### دراسة الفلسفة ورأى الغزالي فيها :

ثم أقبل على الفلسفة اليونانية التي تزعم أنها الطريق الوحيد الموصل إلى معرفة الحق والسعادة واليقين ، وهي العلم المبني على العقل والمنطق والاستدلال ، ورأى الغزالي بعلو همته وما فطر عليه من الجد والصرامة ، أنه لا يسوغ له الحكم عليها ، وبت الرأي فيها . حتى يكتننها ، ويحيط بمقاصدها وكلياتها حتى يساوى أعلم الناس في هذا الموضوع ، وأن لا يعتمد في ذلك على ما قال عنها خصومها والهاجمون عليها بل على ما دونه الثقات منهم والمدافعون عنهم ، فأقبل يدرس الفلسفة في جد واخلاص ونهم وشغف ؛ حتى وصل إلى أقصى ما يصل اليه عالم يتوفر على دراسة الفلسفة ويتعمق فيها ، وكان أول عالم ديني فعل ذلك في عصره ، ونسمعه الآن وهو يتحدث عن دراسته للفلسفة :

« ثم انى ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة ، وعلمت يقينا ، أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم

(١) المنقذ من الضلال ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ .

فى أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ؛ فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ، وإذ ذاك ، يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقا ، ولم أر أحداً من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك .

« ولم يكن فى كتب « المتكلمين » من كلامهم - حيث اشتغلوا بالرد عليهم - الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار بها بعقل عامى ، فضلا عن يدعى دقائق العلوم : فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه ، رد فى عماية : فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة باستاذ ، وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التصنيف والتدريس فى العلوم الشرعية ، وأنا ممنو بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد ؛ فاطلعتنى الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة فى هذه الأوقات المختلصة على منتهى علومهم فى أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه ، بعد فهمه ، قريبا من سنة ، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره »<sup>(١)</sup>.

وبعد هذه الدراسة الشاملة العميقة التى أخلص فيها كل الاخلاص ، وجد فيها كل الجد، يئس الغزالي من الفلسفة أيضاً ، ولكنه لم يستعجل ولم يسرع فى ابداء رأيه شأن كثير من علماء الدين فى عصره وفى غير عصره ، ولم يظلم الفلسفة ، ولم يشملها باللعن والتكفير . شأن كثير من الفقهاء ورجال الفتوى ، بل تناولها بالتحليل والتقسيم ، وذكر أصناف الفلاسفة وأقسامهم ، وذكر ما لهم وما عليهم ، وما يمس الدين من آرائهم وبحوثهم ويتصل به ، وما لا يمس ولا يتصل به ، وما يستحقون به التكفير . وما ليس من الدين فى قليل ولا كثير ، وهو أول عالم دينى يقوم بهذا التحليل العلمى ، ويتثبت هذا التثبت ، ويعرف تاريخ الفلسفة ، ويعرف طبقات رجالها ومدونيتها . وأول عالم دينى ينصف علومهم التجريبية النافعة ، ويعترف بصحة بعضها وافادة هذه العلوم .

يقسم علومهم إلى ستة أقسام : (١) رياضية (٢) منطقية (٣) طبيعية (٤) الهية (٥) سياسية (٦) وخلقية ، ويقول عن الرياضية :

« وأما الرياضية ، فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم حياة العالم ، وليس يتعلق بشئ منها بالأمر الدينية نفيًا وإثباتًا ؛ بل هى أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدثها بعد فهمها ومعرفتها »<sup>(٢)</sup>.

(١) المنقذ من الضلال ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ٩٠ .

وهذا رأى متوازن يدل على سلامة التفكير وسعة الأفق ، ويزيد في قيمة كل ما يقول هذا الرجل في نقد الفلسفة : ولكن الغزالي لا يقتصر على الاعتراف بصحة العلوم الرياضية ؛ بل يذكر ما تولد منها من الآفات - من غير قصد - يرى تأثيرها في المجتمع الاسلامى المعاصر .

يقول - وهو يذكر الآفة الأولى - :

« الأولى من ينظر فيها ويتعجب من دقايقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن - بسبب ذلك - اعتقاده في الفلاسفة ؛ فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثقه البرهان كهذا العلم ، ثم يكون قد سمع كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض . » ويقول : « لو كان الدين حقا ، لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ؛ فاذا عرف بالتسامح كفرهم وجحدهم ؛ فيستدل على أن الحق هو الجحد والانكار للدين » (١) .

وكأنه يصور - وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية ورد فعلها في كثير من ضعاف العقول والمتكيسين في عصره - عقلية النشء الجديد ، وكثير من المتعلمين في القرن العشرين ، الذين خضعوا لبراعة الأوربيين في العلوم الطبيعية والاختراعات ، ورأوا ما هم عليه من الاحاد وزندقة وتفسخ خلقى ؛ فظنوا أنه الطريق الأقوم ، وقلدوهم فيه . اسمعوه يقول-وكأنه في هذا العصر ، ويتحدث عن هذا الطراز - : « وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه ! وإذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقا في كل صناعة ؛ فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقا في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقلية جاهلا بالنحو ؛ بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق ، وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها ؛ فكلام الزوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الالهيات تخميني ، لا يعرف ذلك الا من جربه ونحاض فيه ؛ فهذا - إذا قرر على هذا الذى اتخذ بالتقليد - لم يقع منه موقع القبول ؛ بل تحمله غلبة الهوى ، وشهوة البطالة ، وحب التكاس ، على أن يصير على تحسين الظن بهم في العلوم كلها » (٢) .

وبعد ما ذكر الرياضيات تكلم عن المنطقيات فيقول :

(١) لمنقذ من الضلال ص ٩٠ - ٩١ .

(٢) لمنقذ من الضلال ص ٩١ .

« لا يتعلق شيء منها بالدين نفيًا وإثباتًا ؛ بل هو النظر في طرق الأداة والمقاييس ،  
وشروط مقدمات البرهان ، وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح ، وكيفية ترتيبه ، وأن  
العلم إما تصور ، وسبيل معرفته الحد ، وأما تصديق ، وسبيل معرفته البرهان ، وليس في  
هذا ما ينبغي أن ينكر ؛ بل هو جنس ما ذكره المتكلمون ، وأهل النظر في الأدلة » وإنما  
يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات»<sup>(١)</sup> .  
وهكذا يقول عن علم الطبيعيات ، فبعد ما يشرحه يقول :

« وكما ليس من شرط الدين انكار علم الطب ؛ فليس من شرطه أيضا انكار ذلك العلم  
الا في مسائل معينة ذكرناها في كتاب « تهافت الفلاسفة »<sup>(٢)</sup> . ويقول :  
« أما السياسات ، فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور  
الدنيوية ، والايالة السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم  
المأثورة عن سلف الأنبياء »<sup>(٣)</sup> .

ويقول : « أما الخلقية . فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها  
وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية . .  
ولقد كان في عصرهم ؛ بل كان في كل عصر جماعة من المتألهين »<sup>(٤)</sup> .

وبعد ما ذكر هذه العلوم التي لا تتصادم مع الدين الاسلامي الا في النادر ذكر الغزالي  
العلم الذي تركز فيه الصراع بين الاسلام والفلسفة ، وهو علم الالهيات . يقول :  
« وأما الالهيات ففيها أكثر أغاليطهم ؛ فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه  
في المنطق ؛ ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها »<sup>(٥)</sup> .

وبعد ما نظر الغزالي في جميع هذه العلوم نظرة عميقة واسعة ، ودرسها دراسة  
متخصص متوسع ، يثس من أن ينال بغيته في هذه العلوم . يقول :

« ثم اني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه ، وتزييف ما يزيغ منه علمت أن  
ذلك أيضا غير واف بكمال الغرض . وأن العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ،

(١) لمنقذ من الضلال ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(٥) ( المنقذ من الضلال ) ص ٩٨ .

ولا كاشفا للغطاء عن جميع العضلات « (١) .

## اختبار للباطنية ويأس الغزالي منها :

وهنا أقبل إلى الباطنية التي عظم شأنها في عصره واستهوا كثيرا من الشبان ومن طلبة العلم . فأقبل اليهم الغزالي : لأنه ضعفت ثقته بالعقل والدليل . وكان الباطنية يزعمون أنهم يأخذون علمهم من الامام المعصوم القائم بالحق . وهو مصدر العلم الذي يصح الاعتماد عليه والثقة به ؛ فكان طبيعيا أن يلجأ اليهم الغزالي ويجربهم - وقد يئس من الفلسفة - وقد قام بهذه التجربة . ودرس العقائد الباطنية وعلومهم ودراساتهم للفلسفة وفروعها . وانتهى إلى نفس النتيجة . ندعه يتحدث عن تجربته الجديدة (٢) :

« وكان قد نبغت نابغة التعليمية وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الامام المعصوم القائم بالحق ، عن لى أن أبحث عن مقالاتهم ، لأطلع على ما فى كتبهم ، ثم اتفق أن ورد على أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعنى مدافعته ، وصار ذلك مستحشا من خارج ضميمة للباعث الأصلي من الباطن ، فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم ، وكان قد بلغنى بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلفهم ، فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيبا محكما مقارنا للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها « (٣) .  
«والمقصود أنى قررت شبهتهم إلى أقصى الامكان ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان « (٤) .

وقد اقتنع أخيرا بأنه « لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم . ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة - مع ضعفها - إلى هذه الدرجة « (٥) .

« ان هؤلاء ليس معهم شئ من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء ، بل مع عجزهم عن اقامة البرهان على تعيين الامام طالما ما جاريناهم ، فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم ؛ وإلى المعنى المعصوم . وانه الذى عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم . وعرضنا عليهم اشكالات فم يفهموها فضلا عن القيام بحلها ، فلما عجزوا

(١) المصدر السابق ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٣) ( المنقذ من الضلال ) ص ١٠٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١١١ .

(٥) المصدر السابق ص ١١١ .

أحالوا على الامام الغائب ، وقالوا : أنه لا بد من السفر اليه ، والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئا أصلا ، كالمتمسك بالنجاسة يتعب في طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله ، وبقي متمسكاً بالخبث « (١) .

« ومنهم من ادعى شيئا من علمهم فكان حاصل ما ذكره شيئا من ركيك فلسفة فيثاغورس ، وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه أرك مذاهب الفلسفة ، وقد رد عليه أرسطاطاليس : بل استرك كلامه واسترذله ، وهو المحكى في كتاب « اخوان الصفا » وهو - على التحقيق - حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طوال العمر في طلب العلم ، ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم ! فهؤلاء أيضا جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ؛ فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ، وجادلتهم في انكارهم الحاجة إلى التعليم بكلام قوى مفحم ؛ حتى إذا ساعدتهم على الحاجة إلى المعلم مساعد . وقال : « هات علمه ! وأفدنا من تعليمه ! . وقف وقال : « الآن إذا سلمت لي هذا فأطلبه ، فإنما غرضي هذا القدر فقط » إذا علم أنه لو زاد على ذلك ، لافتضح ولعجز عن حل أدنى الاشكالات بل عجز عن فهمه ، فضلا عن جوابه . « فهذه حقيقة حالهم ، فأخبرهم تقلهم فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضا » (٢) .

## إلى التصوف :

وهناك أقبل الغزالي إلى التصوف ، وهو أمله الأخير في الحصول على السعادة واليقين ، ونتركه يكمل الحديث ، ويرسل النفس على سجيتها : « ثم انى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتتزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، وحتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتخليه بذكر الله » .

وكان العلم أيسر على من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم « مثل قوت القلوب » لأبى طالب المكي - رحمه الله - وكتب « الحارث المحاسبى » والمتفرقات

(١) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٢٠ - ١٢١ .



المأثورة عن « الجنيد » و « الشبلى » و « أبى يزيد البسطامى » - قدس الله أرواحهم - وغير ذلك من كلام مشائخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات « (١) .

وبعد ما يشرح الفرق بين العلم والحال ، ويضرب لذلك الأمثال ، يقول : « فعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وإن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك » (٢) .

وهناك يشعر الغزالى - بفطرته السليمة ومحاسناته الدقيقة - بنقص فيه ، وبعد عن الحقيقة والحال ، وعن مقام الاخلاص ، ويشعر بالخطر المحدق به لو استمر على هذه الحال ، وهذا الشعور هو الذى يمتاز به الغزالى من عالم آخر كبير ، وعن مدرس موفق تهيأت له أسباب النبوغ والمجد ، وخضعت له الأوساط العلمية فى عصره ، وذلك الشعور هو الذى رفعه فوق مستوى عصره ، وخلده فى التاريخ ، يقول فى صراحة وقوة يمثل ما كذ يعتوره من صراع نفسى :

« وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كنه قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور ولانبة إلى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وان ذلك لا يتم الا بالأعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

« ثم لاحظت أحوالى ، فاذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحذقت بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى - وأحسنها التدريس والتعليم - فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة » .

« ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت إنى على شفا جرف هار ، وانى قد أشفيت على الدر . إن لم اشتغل بتلافى الأحوال » (٣) .

(١) المنقذ من الضلال ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٣) المنقذ من الضلال ص ١٢٦ - ١٢٨ .

ثم يذكر حالة التردد والاضطراب النفسى التى بقى فيها مدة ، وصور حالته النفسية تصويرا بارعا :

« فلم أزل أتفكر فيه مدة - وأنا بعد على مقام الاختيار - أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا ، وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة ، الا وتحمل عليها جند الشهوة حملة ، فتفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام . ومنادى الايمان ينادي: الرحيل ! فلم يبق من العمر الا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل ، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار . »

« ثم يعرد الشيطان ويقول : « هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها ، فانها سريعة الزوال ، فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة »<sup>(١)</sup> .

### الغزالي يغادر بغداد :

ثم يذكر كيف غلب على أمره ، وأفلت الزمام من يده وانتقل من الاختيار إلى الاضطراب ، حتى سهلت عليه مفارقة الأهل والدار ، ونفض اليد من الجاه والاعتبار ، وخرج من بغداد يطلب السعادة الروحية والمعرفة الحقيقية ، حتى أكرمه الله بها ، ولنستمع اليه فهو فى نهاية المطاف :

« فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطراب ، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطيبا لقلوب المختلفة إلى ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينسأغ لى ثريد ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا : « هذا أمر نزل بالقلب

(١) المصدر السابق ص ١٢٧ - ١٢٨ .

ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج الا أن يروح السر عن الهم الملم .  
« ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى « يجيب المضطر إذا دعاه » وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام ، حذرا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبدا ، واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الأعراض عما كنت فيه سببا دينيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم » .

« ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان ؛ لاستشعار من جهة الولاة ، واما من قرب الولاة ، وكان يشاهد الحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على ، واعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ؛ فيقولون : هذا أمر سماوى ، وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم .

« ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معى من المال ، ونم أدخر الا قدر الكفاف وقوت الأطفال ؛ ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفا على المسلمين ، فلم أر فى العالم مالا يأخذه العالم لعياله أصلح منه » .

« ثم أدخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين ، لا شغل لى الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طوال النهار ، وأغلق بابها على نفسى » .

« ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسى ، ثم تحركت فى داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة . وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام . بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت إلى الحجاز » .

« ثم جذبتنى الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ، فأثرت العزلة به أيضا ، حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر » .

« وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لى الحال الا فى أوقات مختلفة ، لكنى مع ذلك لا

أقطع طمعى منها فتدفعنى عنها العوائق وأعود اليها « (١) .

## الاستقرار على طريق الصوفية :

وهنا يذكر الغزالي الغاية التى وصل اليها ، والنتيجة التى اقتنع بها فى هذه الرحلة الشاقة ، والتأملات العميقة الكثيرة ، والبحث المضى :

« ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشفت لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى أذكره يتفجع به . انى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ؛ بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ؛ ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً ؛ فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به « (٢) .

## من الخلوة إلى الجلوة :

وكان ممكناً ، بل كان من المتوقع ، أن يبقى الغزالي فى خلوته يتمتع بما هو فيه من نعيم ولذة روحية وصفاء نفس ، ويقتصر على ما التزمه من عبادات وأوراد وأشغال بخاصة النفس ؛ ولكن الغزالي لم يخلق ليعيش وحده ، ولم تودع فيه هذه المواهب العظيمة ، ولم يلهم دراسة هذه العلوم الكثيرة ، ولم يرزق الاقتدار عليها ؛ ليكون متعبداً ، منظوياً عنى نفسه ، معتزلاً فى بيته . وكان الاسلام فى حاجة إلى من يتتصر له من الفلسفة التى تجاسرت عليه ، وتسلطت على عقول الناس ، وقد أصيب المجتمع الاسلامى بفساد الأخلاق ، وشلل فى الفكر ، وجمود فى العلم ؛ فكان فى حاجة إلى من يحارب هذا الفساد ، ويوقظ الفكر ، ويبعث العلم ، وكان الغزالي أجدر الناس بالاضطلاع بهذه الخدمة العظيمة ؛ فقد تهيأ لها علمياً وفكرياً وعملياً ، وقد صرح بذلك فى غير تواضع وفى غير أنانية فقال :

« رأيت نفسى مطالبة بكشف هذه الشبهة ، حتى كان فضح هؤلاء أيسر عندى من شربة

(١) المنقذ من الضلال ص ١٢٨ - ١٣١ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٣١ - ١٣٢ .

ماء ؛ لكثرة خوضى فى علومهم وطرقهم أعنى طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء « (١) .

وهنا اعترضت له حالة التردد مثل الأولى ، هل يبقى فى العزلة أم يخرج إلى الميدان ؟ حتى ساقه سائق التوفيق إلى البروز ، وتهيات له الأساليب ، يقول :

« انقذح فى نفسى أن ذلك ( محاربة الفساد ، والرد على الفلاسفة والباطنية ) متعين فى هذا الوقت محتوم ، فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟ ثم قلت فى نفسى : متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ، ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنى تقاومهم ؟ فكيف تعايشهم ؟ ولا يتم ذلك الا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر .

« فترخصت بينى وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، وتعللا بالعجز عن اظهار الحق بالحجة ، فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من خارج ، فأمر أمر الزام بالنهوض إلى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الالزام حدا كان ينتهى ، لو أصرت على الخلاف إلى حد الوحشة ، فخطر لى أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغى أن يكون باعثك على ملازمة العزلة والكسل والاستراحة وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص نفسك لعسر معافاة الخلق ، والله تعالى يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿ الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ (٢) الآية ، ويقول عز وجل لرسوله ، وهو أعز خلقه :

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا . حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبا المرسلين ﴾ (٣) .

ويقول عز وجل : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ يس والقرآن الحكيم . . . إلى قوله : إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ فشاورت فى ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ،

(١) المنقذ من الضلال ص ١٥٠ .

(٢) سورة العنكبوت .

(٣) سورة الانعام .

فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ، وانضاف إلى ذلك منامات إلى الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة ، وقد وعد الله سبحانه بأحياء دينه على رأس كل مائة ، فاستحکم الرجاء ، وغلب حسن ظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة إلى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة ، سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وبلغت العزلة إحدى عشر سنة ، وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقذاح فى القلب فى هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر امكانه أصلا بالبال ، والله تعالى مقلب القلب والأحوال و « قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن » (١) .

### الفرق بين الحالتين :

لقد خرج الغزالي من عزلته ، وبدأ يزاوول عمله من تدريس وتأليف ودعوة واصلاح ، ولكن شتان بين الحالتين ، لقد كان فى الأولى - قبل أن يخرج من بغداد - يفعل ذلك عادة ، أو بحكم الوظيفة ، أو بدافع من النفس « فأصبح الآن يقوم به بأمر من الله ، متجردا من طلب الجاه وحفظ النفس ، وقد شرح الفرق بين الحالتين ، فقال :

« وأنا أعلم أنى - وان رجعت إلى نشر العلم - ما رجعت : فان الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه ، وأدعو اليه بقولى وعملي ، وكان ذلك قصدى ونيتى ، وأما الآن ، فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه . هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى ، يعلم الله ذلك منى ، وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى ، ولست أدري أصل إلى مرادى ، أم أخترم دون غرضى ؟ ولكن أو من ايمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وانى لم أتحرك : لكنه حركنى ، وانى لم أعمل ؛ لكنه استعملنى ؛ فأسأله أن يصلحنى أولا . ثم يصلح بى ويهدينى ، ثم يهدى بى . وأن يرينى الحق حقا ويرزقنى اتباعه ، ويرينى الباطل باطلا ويرزقنى اجتنابه » (٢) .

### بقية حياته :

تولى الغزالي رئاسة المدرسة النظامية بنيسابور ، عام ٤٩٩ هـ ، وكان ذلك فى عهد

(١) المنقذ من الضلال ص ١٥١ - ١٥٣ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٥٣ - ١٥٤ .

«سنجر السلجوقى» ، ابن ملك شاه ، ووزارة فخر الملك ، ابن نظام الملك ، الطوسى ، وقد اغتيل « فخر الملك » بيد باطنى ، سنة ٥٠٠ هـ ، واعتزل الغزالى التدريس على أثر هذه الحادثة ، وأقام ببلده طوس ، وبنى مدرسة وزاوية بجوار بيته ، وعكف على التعليم والتربية .

ولما استوزر السلطان محمد بن ملك شاه أحمد بن نظام الملك ، سنة ٥٠٠ هـ ، طلب الوزير من الغزالى الرجوع إلى بغداد ، وكان محله فى المدرسة النظامية لم يسده من يماثل الغزالى ، وكانت المدرسة مما تتباهى به الخلافة العباسية وتتجمل به بغداد ، فبدت الرغبة من الخلافة فى أن يرجع الغزالى إلى النظامية . وكتب الوزير قوام الدين نظام الملك ، رسالة خاصة إلى الغزالى يذكر فيها مكانة النظامية ومركزها فى العالم الاسلامى ، وحرص الخليفة على رجوع الغزالى ، وكانت عليها توقيعات أركان دار الخلافة ، ولكن الغزالى اعتذر ، وبقي فى طوس يدرس ويفيد ويربى الطالبين .

وقضى الغزالى بقية أيامه فى الاشتغال بالدين والعلم . وكان لا يزال فيه الروح العلمية قوية وفتية ، فلم ينقطع عن التأليف والانتاج ، وقد ألف كتاب « المستصفى » الذى يعد من أركان أصول الفقه الثلاثة<sup>(١)</sup> فى سنة ٥٠٤ هـ ، يعنى قبل وفاته بعام .

وكان الغزالى لم يتوفى على دراسة الحديث ، فأقبل عليه فى أواخر أيامه ، واستدعى أبا الفتيان . عمر بن أبى الحسن الرواسى الحافظ الطوسى ، وأكرمه وسمع عليه صحيحى البخارى ومسلم<sup>(٢)</sup> فقال عبد الغافر الفارسى : وكانت خاتمة أمره اقباله على حديث المصطفى ﷺ ، ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين البخارى ومسلم اللذين هما حجة الاسلام<sup>(٣)</sup> .

وفاته :

وانتقل إلى رحمته تعالى يوم الاثنين ، الرابع عشر من جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة ، ودفن بظاهر قسبة طابران .

وقد حكى ابن الجوزى عن أخيه أحمد قصة وفاته ، قال : « لما كان يوم الاثنين وقت

(١) وهى المعتمد ( لأبى الحسين البصرى ) و « البرهان » لامام الحرمين و « المستصفى » للغزالى .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ص ١١ . ج ٤ .

(٣) تبين كذب المفترى ص ٣٩٦ وطبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ١٠٩ .

الصبح ، توضأ أخى وصلى وقال : على بالكفن ! فأخذه وقبله ووضع على عينيه ، وقال : سمعا وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجليه ، واستقبل ، وانتقل إلى رضوان الله تعالى « (١) .

لقد رأينا كيف تهيأ الغزالي - بعد الدراسات المتنوعة العميقة الواسعة ، والمجاهدات الشاقة الطويلة ، وبعد الانتهاء إلى معرفة الحق واليقين ، والوصول إلى مقام الصدق والاخلاص - لأن يقوم بدوره فى تاريخ الاصلاح والتجديد ، وأن يؤدى رسالته كعالم وناقد ومصلح ومتكلم وداع ، فلنر مقدار انتاجه ! ولنر مدى تأثيره فى الأمة والمجتمع والعلوم والأفكار ! وموعدنا الفصول التالية ، ان شاء الله .

---

(١) اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احياء علوم الدين للسيد مرتضى الزبيدى البلكرامى ج ١ ص ١١  
نقلا عن كتاب « الثبات عند الممات » ، لابن الجوزى رحمه الله .



# حجة الإسلام الغزالي

## ناقد للفلسفة ومنتكلم

نقسم عمل الغزالي ونتاجه وتجديده في ناحيتين رئيسيتين :

الأولى : نقده للفلسفة ومناقشته لها ، وتجديده لعلم الكلام الذي فقد جدته وحياته .

والثانية : الحسبة على المجتمع الاسلامي المعاصر ، والدعوة إلى الأخلاق الاسلامية ، والروح ، والتحلى بالحقائق . وتتناول الناحية الأولى بالبحث في هذه المحاضرة .

يمتاز الغزالي عن كل من سبقه في محاربة الفلسفة ، أنهم اتخذوا موقف الدفاع عن الاسلام وعقائده ، والاعتذار عن الدين الاسلامي ، فكانت الفلسفة تهاجم الاسلام ، وهؤلاء يدافعون عن الاسلام ، وينفون التهم الموجهة إليه ، ويحاولون أن يبرروا موقفه ، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته ، فكان علم الكلام كان جنة تلتقى هجمات الفلسفة وتحصن العقيدة الاسلامية ، ولم يجترئ أحد من المتكلمين أن يهاجم الفلسفة ويغزوها في عقر دارها ؛ لعدم تعمقهم في الفلسفة وتضلعتهم من أصولها وفروعها ؛ ولعدم تسليحتهم بالأسلحة التي يواجهون بها الفلسفة ويوسعونها جرحاً ونقداً ؛ فكان موقفهم موقف الدفاع عن قضية . وموقف الدفاع دائماً ضعيف ، غايته أن يسامح المتهم ويعفى عنه .

أما الغزالي ، فقد هاجم الفلسفة وتناولها بالفحص والنقد وهجم عليها هجوماً عنيفاً مبني على الدراسة والبحث العلمي ، وحجة مثل حجة الفلسفة ، وعقل مثل عقل الفلاسفة الكبار ومدونى الفلسفة إلى أن تقف موقف المتهم ، وأجأ ممثليها إلى أن يقضوا موقف المدافعين ؛ فكان تطوراً عظيماً في موقف الدين والفلسفة ، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الاسلامية عادت به الثقة إلى نفوس أتباعها والمؤمنين بها ، زالت عنهم مهابة الفلسفة وسيطرتها العلمية .

### خطة الغزالي في نقد الفلسفة :

ولم يتهور الغزالي في الهجوم على الفلسفة ، ولم يكن فيه مقلداً لغيره ولا ضيق التفكير ، أنه درس الفلسفة أولاً كما حكى هو بنفسه في المنقذ من الضلال ونقلنا عنه في المحاضرة الأولى ، وكان يؤمن بأنه « لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فجد واجتهد في دراستها ، ومعرفة حقيقتها وأغوارها ، حتى اطلع على منتهى

علومهم . ثم لم يستعجل كذلك ، ولم يبدأ بالهجوم ، بل رأى أن المباحث الفلسفية لا تزال غامضة معقدة ليست في متناول الأوساط من الناس ، وإن الكتب الفلسفية قد ألفت في لغة رمزية وفي أسلوب غير واضح ، وكان مؤلفيها قد تعمدوا ذلك ، ليقيموا سياجا حول الفلسفة يحوطها من تناول العامة ، أو لم يكونوا يحسنون التأليف ، فرأى أن يؤلف كتاباً يذكر فيه المباحث الفلسفية ، ونظريات الفلسفة ومسائلها في لغة سهلة واضحة ، وفي أسلوب مشرق وقد رزق الغزالي قدرة عجيبة في تبسيط المسائل العلمية وإيضاحها فكسر ذلك السياج ، ورفع الاحتكار العلمي ، وألف كتاب « مقاصد الفلاسفة » ذكر فيه المصطلحات الفلسفية والمباحث الفلسفية من غير تعليق ونقد ، وعرض الفلسفة كأحسن ما يعرفها رجال الفلسفة .

وبعد أن انتهى من هذا العمل - وكان بعده مقدمة لازمة لما تكفله من تزييف الفلسفة ، واسقاط قيمتها العلمية - شرع في عمله الثاني الذي استحق به أن يلقب حجة الاسلام ، وهو نقد الفلسفة والهجوم عليها .

ولم يكن في هذه المرحلة الثانية أيضاً متهوراً أو جامداً يشمل الفلسفة كلها بفروعها وشعبها بالانكار ، ويطلق القول في العلوم الرياضية والمنطقية والسياسية والخلقية ، وكل ما جاء عنهم في العلوم الطبيعية ، فيغلطهم فيها ويكفرهم بها ، كما فعل كثير ممن تقدمه وكثير ممن عاصره . فأثبتوا بذلك أنهم معاندون مكابرون وكان ضررهم بذلك أكبر من نفعهم ، ولم تكن لأقوالهم وكتاباتهم قيمة علمية .

أما الغزالي فقد اعترف بكل صراحة ، أن القسم الكبير من هذه العلوم التي ذكرناها « ليس يتعلق شيء منه بالأمر الدينية نفسياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجادتها بعد فهمها ومعرفتها »<sup>(١)</sup> وانتقد أولئك الذين يرون أن انكار هذه العلوم وهذه الحقائق العلمية ، خدمة دينية ونصرة للاسلام ومحاربة للكفر والضلال ، فكان جهادهم في غير عدو ، وكان جناية على الدين . يقول في كتابه « المنقذ من الضلال » .

« الآفة الثانية . نشأت من صديق للاسلام جاهل ، ظن الدين ينبغي أن ينصر بانكار كل علم منسوب ، فأنكر جميع علومهم ، وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الاسلام مبني على

(١) المنقذ من الضلال ص ٩٠ .

الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حياً ، وللإسلام بغضاً . ولقد عظم على الدين جنابة من ظن أن الإسلام ينصر بانكاره هذه العلوم وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفى والاثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية .

وبعد النظر في جميع فروع الفلسفة . والاعتراف بصحة بعضها وافادتها ، انتهى إلى أن الالهيات فيها أكثر أغاليطهم ، علله « بأنهم ما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ؛ ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها »<sup>(١)</sup>.

« الناظر المتأمل يشعر بأن السبب في اصابتهم وتوفيقهم في العلوم الرياضية والطبيعية ، وأغاليطهم وتناقضاتهم وتخيلاتهم في الإلهيات ، هو أن العلوم الرياضية والطبيعية مثلاً لها مبادئ ومقدمات محسوسة عرفها الفلاسفة ، ومعلومات أولية توصلوا بمعرفتها إلى أمور مجهولة . أما الإلهيات فبالعكس ، ليس فيها مبادئ ومقدمات ومحسوسات ومعلومات أولية يتوصلون بها إلى أشياء مجهولة ، وليس فيها أساس للقياس ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ لذلك كثرت فيها أغاليطهم وتخيلاتهم ، وجاءت فيها مجموع أوهام وقياسات وتخيلات وتخمينات ، وكان بطبيعة الحال مدعاة إلى خطأ تصوراتهم عن الأمور الغيبية التي لا تعرف إلا عن طريق الشرع المعصوم عن الخطأ .

### تهافت الفلاسفة :

وفي الرد على هذه الفلسفة ألف الغزالي كتابه العظيم « تهافت الفلاسفة » وقد صدره بمقدمة بليغة واضحة ، ذكر فيها سبب التأليف ، وذكر تأثير الفلسفة في أذهان الناشئة وكيف تدرج بهم الخضوع لبراعة الفلسفة في العلوم الرياضية والمنطقية والطبيعية ، والايان بذكائهم وعبقريتهم ، إلى التحلل من ربة الاسلام ، لما رأوا أن هؤلاء - مع رزانة عقولهم وغزارة علمهم - منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل « فألحدوا وأنكروا الدين تطرفاً وتكاسياً ، وعظمت الفتنة ، ومست الحاجة إلى تأليف كتاب يبين تهافت عقيدة فلاسفة اليونان ، وتناقض كلمتهم في ما يتعلق بالالهيات . ويبين أن هذه المسائل التي يأخذها المقلدون كحقائق علمية ، وقضايا عقلية « هي - على التحقيق - مضاحك العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء » وبين أنه لم يذهب إلى انكار الله واليوم الآخر شذمة قليلة من ذوى العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة . ونحن نقل هذه المقدمة ؛ إذ

(١) المنقذ من الضلال ص ٩٢ .

فيها تصوير بارع لعقلية الملحدون في كل زمان ومكان ، وتصوير بصفة خاصة للعصر الذي كان يعيش فيه ، ونعرف عظم الحاجة إلى تأليف هذا الكتاب وغنائه لنصرة الدين ، يقول :

« أما بعد ، فإنني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم عن الأتراب والنظرء بمزيد الفطنة والذكاء ، وقد رفضوا الاسلام من العبادات ، واستحققروا شعائر الدين من وظائف الصلوات ، والترقى عن المحظورات ، واستهانوا بتعهدات الشرع وحدوده ، ولم يقفوا عند توقيفاته وقيوده ، بل خلعوا ربقه الدين بفسون من الظنون ، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون ، ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعي كتقليد اليهود والنصارى ، إذا جرى على غير دين الاسلام نشوءهم وأولادهم ، وعليه درج أبائهم وأجدادهم ، وغير بحث نظري صادر عن التعثر بأذيال الشبه الصارفة عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب ، كما اتفق لطوائف من النظائر في البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء .

وانما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة : كسقراط وبقرات وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم ، واطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم في وصف عقولهم ، وحسن أصولهم ، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والالهية ، واستبدادهم - لفرط الذكاء والفطنة - باستخراج تلك الأمور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم - مع رزانة عقولهم ، وغزارة فضلهم - منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها نواميس مؤلفة وحيل مزخرفة .

فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم ، تجملوا باعتقاد الكفر ؛ تحيزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم ؛ انخرطوا في سلوكهم ؛ وترفعوا عن مسابرة الجماهير والدهماء ؛ استكشافاً من القناعة بأديان الأباء ، ظناً بأن اظهار التكاسيس في الورع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد خرق وخبال ، فأية رتبة في عالم الله أحسن من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليداً ، فيسارع إلى قبول الباطل تصديقاً دون أن يقبله خبيراً وتحقيقاً وتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً دون أن يقبله خبيراً وتحقيقاً ، والبلة من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة ، فليس في سجيتهم حب التكاسيس بالتشبه بذوى الضلالات ، فالبلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة براء ، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حواء .

فلما رأيت هذا العرق من الحماسة نابضاً على هؤلاء الأغنياء ، انتدبت لتحرير هذا

الكتاب ، رداً على الفلاسفة القدماء ، مبنياً تهاافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم فى ما يتعلق بالالهيات ، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعوراته التى هى - على التحقيق - مضحك العقلاء ، وعبرة الأذكياء ، أعنى ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء من فنون العقائد والآراء ، هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه ؛ ليتبين هؤلاء الملاحدة تقليداً اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الايمان بالله واليوم الآخر . وأن الاختلافات راجعة إلى تفاصيل خارجة عن هذين القطبين اللذين لأجلهما بعث الأنبياء المؤيدون بالمعجزات ، وأنه لم يذهب إلى انكارهم إلا شردمة يسيرة من ذوى العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة الذين لا يؤبه لهم ، ولا يعبأ بهم فى ما بين النظر ، ولا يعدون إلا فى زمرة الشياطين الأشرار ، وغمار الأغنياء والأغمار ، ليكف عن غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر تقليداً يدل على حسن رأيه ، ويشعر بفظته وذكائه ، إذ يتحقق أن هؤلاء الذين يتشبه بهم من زعماء الفلاسفة ورؤسائهم ، براء مما عرفوا به من جحد الشرائع ، وأنهم يؤمنون بالله . ومصدقون برسله ، وأنهم قد اختبطوا فى تفاصيل بعد هذه الأصول ، قد زلوا فيها ، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، ونحن نكشف عن فنون من خدعوا به من التخيل والأباطيل ، ونبين أن ليس كل تهويل وراءه تحصيل والله تعالى ولى التوفيق ، لإظهار ما قصدناه من التحقيق « (١) .

ويشرح الغزالى ، بعد أربع مقدمات ذكر فيها منهاجه ، فى البحث ، وشرح حال الفلاسفة ، وفرق علومهم التى تصادم الشريعة والتى لا تصادمها ، وناقش الفلاسفة فى شرائعهم ومقدماتهم للبحوث الالهية ، بعد هذا كله يشرح الغزالى فى بيان مسائل الفلاسفة ومناقشاتهم فى ذلك ، فى ضوء البحث العلمى والحجة العقلية ، وهى ست عشرة مسألة فى الالهيات ، وما بعد الطبيعيات ، وأربع فى الطبيعيات ، ويبين فيها ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم وتهاافت عقيدتهم .

### ميزة الكتاب :

ويتسم هذا الكتاب بقوة التعبير ، وسلامة العبارة ، وسهولة الاسلوب ، بخلاف عامة الكتب التى ألفت فى الموضوع . ويدل على أن مؤلفه ممتلىء بالايمان والثقة بدينه ، والاعتداد بشخصيته وتفكيره ، ينظر إلى الفلاسفة القدماء كأقران وزملاء ورجال من مستواه العقلى والفكرى ، يناقشهم ويباحثهم بحرية واعتماد ، ويقرر الحجة بالحجة ، وكان

(١) تهاافت الفلاسفة ص ٣١ - ٣٤ طبعة احياء الكتب العربية .

المسلمون في حاجة شديدة إلى هذا الطراز من المؤلفين والباحثين الذي يواجه الفلسفة بإيمان، وثقة، وعقل حر، وشجاعة، ويكفر بعصمة الفلاسفة وقدسيتهم وعبقريتهم وكونهم فوق مستوى البشر في العقل والتفكير، وبهذه الصفة يتجلى الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة فجاء في أوانه، وقضى حاجة زمانه.

ولا يقتصر الغزالي على مجابهة الفلسفة ومهاجمة الفلاسفة بالدليل؛ بل قد يبلغ إلى التهكم والنقد اللاذع، ولا شك أن لهما تأثيراً كبيراً في مجتمع قد يكاد يؤخذ بسحر الفلسفة، وقد أصيب كثير من أفرادها بمركب النقص، وخضع للفلسفة خضوعاً كاملاً، فجاء تهكم الغزالي ونقده اللاذع علاجاً لهذه لنفوس المريضة.

ومن أمثلة هذا التهكم والنقد اللاذع، تعليقه على ما قاله الفلاسفة في الذات الإلهية وصفاتها، وعلى ما صنّفوه من نسب العقول والأفلاك، وكيف تولد بعضها من بعض. قال بعد ما ذكر هذا الهراء: «قلنا: ما ذكرتموه تحكمات، وهي - على التحقيق - ظلمات فوق ظلمات، لو حكاها الإنسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات، لقليل أنها ترهات لا تفيد غلبات الظنون»<sup>(١)</sup>.

وقال في موضع آخر: «لست أدري، كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم في المعقولات؟»<sup>(٢)</sup>.

وعلق على بحثهم في علم واجب الوجود، وأنه يعقل نفسه ولا يعقل غيره، بكلمته اللاذعة القوية، «فقد انتهى بهم التعمق في الفطنة، إلى أن أبطلوا كل ما يفهم من العظمة، وقربوا حاله تعالى في حال الميت الذي لا خبر له بما يجري في العالم، إلا أنه فارق الميت في شعوره بنفسه فقط.

وهكذا يفعل الله سبحانه بالزائغين عن سبيله، والناكبين عن طريق الهدى، المنكرين لقوله تعالى ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ ﴿الظانين بالله ظن السوء﴾ المعتقدين أن أمور الربوبية، تستولى على كنهها القوى البشرية المغرورين بعقولهم، زاعمين أن فيها مندوحة عن تقليد الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - وأتباعهم - رضوان الله عليهم - فلا جرم اضطروا إلى الاعتراف بأن لباب معقولاتهم رجع

(١) تهافت الفلاسفة ص ١١٥ .

(٢) تهافت الفلاسفة ص ١٢٤ .

إلى ما لو حكى فى منام لتعجب منه « (١) .

وهكذا يستمر الغزالي فى نقد الفلسفة وتشريحها إلى آخر الكتاب ، حتى يأتى على جميع المسائل التى تكفل الرد عليها وهى عشرون مسألة ، أكثرها فى الالهيات ، وكفرهم فى ثلاث مسائل ، احداها : مسألة قدم العالم ، وقولهم أن الجواهر كلها قديمة . والثانية : قولهم ان الله تعالى لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الاشخاص . والثالثة : انكارهم بعث الأجساد وحشرها . قال : « فهذه المسائل الثلاث ، لا تلائم الاسلام بوجه ، معتقدها معتقد كذب الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - وأنهم ذكروا ما ذكروه عنى سبيل المصلحة ؛ تمثيلاً لجماهير الخلق وتفهيماً ، وهذا هو الكفر الصراخ الذى لم يعتقده أحد من فرق المسلمين ، (٢) وتوقف فى تكفيرهم فى المسائل الأخرى .

### تأثير الكتاب :

وليس أهمية الكتاب فى تكفير الفلاسفة ؛ بل أن غاية الكتاب هو اسقاط قيمة الفلسفة العلمية ، والخط من مكانتها ، واثبات أنها مجموع أفكار وتخيلات ، وقياسات وتخمينات . وبذلك خدم الغزالي الدين خدمة باهرة ، وخلف الفلسفة التى كانت تتقدم بخطى سريعة وواسعة ، وتسيطر على عقول الناشئة ، وتحل من نفوسهم محل القدسية والاجلال ، خلفها الغزالي بضرباته الموجعة وهجماته العنيفة إلى الورا ، أو وقفها على الأقل وشغلها بنفسها والدفاع عن نفسها ، ولم تستطع الأوساط الفلسفية أن تقدم كتاباً قوياً جديراً بالذكر يرد على تهافت الفلاسفة حتى جاء ابن رشد ( م ٥٩٥ ) فى آخر القرن ، فألف كتابه « تهافت التهافت » يقول علماء الافرنج : « ان الغزالي طعن الفلسفة فى الشرق العربى طعنة قاضية ، ويكاد نصيبها فى الغرب كذلك ، لو لم تلق فى ابن رشد حامياً لها أحيائها قرناً من الزمان » (٣) .

### رده على الباطنية :

ولم يقتصر الغزالي على الرد على الفلسفة ؛ بل عنى كذلك بالرد عنى الباطنية التى تدرعت بالفلسفة ، وظهرت فى مظهر دينى وسياسى ؛ فكانت أشد خطراً على الاسلام من الفلسفة ؛ إذ كانت الفلسفة تعيش فى عزلة علمية ، وكانت قليلة الاتصال بالشعب

(١) المنقذ من الضلال ص ١١٨ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ٣١٣ - ٣١٥ .

(٣) تاريخ فلاسفة الاسلام فى المشرق والمغرب ، تأليف محمد لطفى جمعه ص ٧٢ .

والجمهور ، وكانت ، كما يصف الاستاذ أحمد أمين « كالسفارات الأجنبية » لا شأن لها بالسياسة الداخلية والشؤون الاجتماعية ، ولا شأن لها بالجمهور .

أما الباطنية ، فكانت تتسرب إلى المجتمع وتنفت سببها فيه ، وكانت لها الاغراءات المادية القوية ، ولم يكن في العالم الاسلامى فى آخر القرن الخامس أحد اجدر بالرد عليها ، والكشف عن أسرارها ، ونقض ما تبني عليه دعوتها من الغزالي لجمعه بين التضلع من الفلسفة والوقوف على لب التصوف وعلم الباطن ، ولا تصافه بالغوص فى حقائق الأشياء ، والتعمق فى العلوم ، وتلك بضاعة الباطنية التى تنجح بها ، وقد سبق أنه ألف - وهو مدرس فى المدرسة النظامية - كتاباً فى الرد على الباطنية ، باقتراح من الخليفة المستظهر بالله أسماه « المستظهرى » وقد ألف ثلاثة كتب فى الرد عليهم - ولعل ذلك بعد الرجوع من رحلته - وهى « حجة الحق » و « مفصل الخلاف » و « قاصم الباطنية » ذكرها فى كتابه « جواهر القرآن » ويوجد فى جريدة مؤلفاته كتاب آخر وهو « مواهم الباطنية»<sup>(١)</sup>.

### علم الكلام :

لم يكن لمثل الغزالي - مع مواهبه العظيمة وعقله المبتكر ، وعلمه الذى لم يزل فى نمو مستمر - أن يكون ناقلاً لكلام المتكلمين المتقدمين ، أو يكون شارحاً له فحسب ، ولا تظهر شخصيته العلمية فى ما يكتب ويؤلف ويفكر .

لقد كان علم الكلام أحوج العلوم والمباحث إلى النمو والتطور ومسايرة العصر ، لأنه يتكفل الاقناع ودفع الشبهات ، والعقل الانسانى متطور ، والشبه والأسئلة تتجدد ، ولكل عصر تفكيره ومشاكله ، ولكنه جمود جمود العلوم النقلية ، وغلب عليه التقليد وأصبح يتناقل كرواية ، وأصبح المتكلمون الأشاعرة لا يطالبون بتسليم عقائدهم فقط ، بل يلحون على تسليم المقدمات والدلائل التى استدل بها الامام أبو الحسن الأشعري ، والعلامة أبو بكر الباقلانى ، لاثبات هذه العقائد ، ويلحون على الاكتفاء بها ، ويعدون العدول عن مسلث الأشعري قيد شعرة ؛ حتى العدول عن المقدمات التى أقامها علماء الأشاعرة ، ضرباً من البدع والانحراف عن الصراط المستقيم .

---

(١) لم يطبع من كتبه فى الرد على الباطنية ، إلا فضائل المستظهرية ، وهو المعروف بالمستظهرى . نشر منه ( كولد تسيهر ) قسماً كبيراً . وبحث فيه بحث طويلاً باللغة الألمانية ، طبع فى ليدن ١٩١٦ مع المتر العريبى ، أما الكتب الأخيرة فمفقودة . كما يظهر من مقدمات « المنقذ من الضلال للاستاذين جميل صليبا وكامل عياد .



لم يخضع الغزالي لهذا التفكير ولهذا التقليد فى علم الكلام واثبات عقيدة الاسلام ، وتكلم فى مؤلفاته العظيمة عن عقائد الاسلام والمباحث الكلامية كلام مجتهد ، كلام وارع يعرف عقلية أهل عصره ، ويعرف من أين يدخل إلى عقولهم وقلوبهم ، وأقام على هذه الحقائق مقدمات ودلائل جديدة .

وجاء فى كلامه فى صفات الله تعالى ، ومعجزات الأنبياء ، والتكليفات الشرعية ، واثبات العذاب والثواب ، والبرزخ والمعاد ، والجبر والاختيار ، والقضاء والقدر ، بمقدمات وأمثلة ، تورث الأذعان ، وتفتح القلب للإيمان ، ولم يسبق إليها ، وعدل عن تشكيكات المتكلمين ، ومقدماتهم المنطقية إلى أسلوب واضح مشرق يسيغه العامة وأوساط الناس ، ولا يناقشه الخاصة والعلماء ولم يلتزم تقليد الأشعرى وأتباعه فى الكلام التقليد المطبق ؛ بل عدل عنه فى مسائل قليلة ؛ وبذلك قام بدور التجديد فى علم الكلام الذى عجز فى الدور الأخير عن اقناع الأذكياء من الشباب والمتعلمين ، وافحام الأقرباء من الباحثين والمعترضين ، واستحق بذلك كله تقدير علماء الكلام ، ورجال المدرسة الأشعرية الفكرية بصفة خاصة ، إذ أعاد إليها الحياة والوقار ، واستحق شكرهم وثناءهم ؛ ولكن بالعكس ، استهدف الغزالي لللائمة الأشعرية ، وفقهاء زمانه ، واستهدف لعتابهم وسخطهم ، لأنه خرج عن الطريق المرسوم ، وجاء بشىء طريف لم يجدوه فى كتبهم القديمة ، ولم يسمعه من أساتذتهم ، وخالف فى بعض المسائل الأشعرى وأتباعه ، ويظهر أن بعض المتحمسين من هؤلاء قد شموأ فى بحوثه الطريفة رائحة « الزيف والضلال » ولما انتشر كتابه العظيم « احياء علوم الدين » فى العالم الاسلامى . وعظم الاقبال عليه والعناية به - وهو مشتمل على جزء كبير من هذه البحوث ، والأمثلة العديدة ، اشتدت لائمتهم ، وصار بعضهم يشك فى صحة عقيدته واستقامته ، وقد كتب إليه بعض تلاميذه ومحبيه بذلك ، وأظهر توجهه «حزنه» لما يرى من العلماء والمعاصرين من التجهم له ، والتشكك فى عقيدته ونسبته إلى الزيف والانحراف ، وأجاب عن ذلك الغزالي فى كتابه «فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة» يقول فيه :

« أما بعد » فإنى رأيتك - أيها الأخ المشفق ، والصدیق المتعصب - موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشعرى - ولو فى قيد شبر - كفر ، ومبايئته - ولو فى شىء نزر - ضلال وخسر . فهون - أيها الأخ المشفق المتعصب - على نفسك ، لا

تضييق به صدرك ؛ وفل من غربك قليلاً ؛ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ؛  
واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ؛ واستصغر من بالفكر أو الضلال لا يعرف ؛ فأى داع  
أكمل واعقل من سيد المرسلين ، ﷺ ؟! وقد قالوا : انه مجنون من المجانين ، وأى كلام  
أجل وأصدق من كلام رب العالمين ؟! وقد قالوا : أنه أساطير الأولين ، وإياك أن تشتغل  
بخصامهم ، وتطمع في إفحامهم ، فتطمع في غير مطعم ، وتصوت في غير مسمع ، أما  
سمعت ما قيل :

كل العداوة قد ترجى سلامتها إلا عداوة من عاداك عن حسد<sup>(١)</sup>

وبعد ما ذكر دوافع هذا الانكار والمخالفة ، وأن الحامل على ذلك طلب الجاه والمال ،  
وأن بضاعة المعترضين في العلم مسألة النجاسة ، وماء الزعفران وأمثالهما<sup>(٢)</sup> ، وقال  
مخاطباً تلميذه الذي وجه إليه هذه الرسالة :

« فخطب نفسك وصاحبك ؛ وطالبه بحد الكفر ؛ فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف  
مذهب الأشعري ، أو مذهب المعتزلي أو مذهب الحنبلي أو غيرهم ، فاعلم أنه غير بليد قد  
قيده التقليد ؛ فهو أعمى من العميان ؛ فلا تضيع باصلاحه الزمان ؛ وناهيك حجة في  
افحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه ، إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له  
فرقاً وفصلاً ، ولعل صاحبه يميل من بين سائر المذاهب إلى الأشعري ، ويزعم أن مخالفته  
في كل ورد وصدر كفر من الكفر الجلي ، فأسأله : من أين ثبت له كون الحق وقفاً عليه ،  
حتى قضى بكفر الباقلاني ، إذ خالفه في صفة البقاء لله تعالى ، وزعم أنه ليس هو وصفاً  
لله تعالى زائداً على الذات ؟ ولم صار الباقلاني أولى بالكفر لمخالفته الأشعري من  
الأشعري بمخالفته الباقلاني ؟ ولم صار الحق وقفاً على أحدهما دون الثاني ؟ أكان ذلك  
أجل السبق في الزمان ؟ فقد سبق الأشعري غيره من المعتزلة ، فليكن الحق للسابق عليه ؛  
أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم ؟ فبأى ميزان ومكيال قدر درجات الفضل ؛ حتى لاح  
له أن لا أفضل في الوجود من متبوعه ومقلده ؟ فإن رخص للباقلاني في مخالفته فلم  
حجر على غيره ؟ وما الفرق بين الباقلاني والكرائسي والقلانسي وغيرهم ؛ وما مدرك  
التخصيص بهذه الرخصة ؟ وإن زعم أن خلاف الباقلاني يرجع إلى لفظ لا تحقيق وراءه ،  
كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين ، زاعماً أنهما متوافقان على دوام الوجود ، والخلاف

(١) فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ص ٧ - ٨ مطبعة الترقى .

(٢) ص ١٠ .

فى أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد ،  
فما باله يشدد القول على المعتزلى فى نفيه الصفات . . الخ (١) .

ناقش الغزالى فى هذه الرسالة خصمه فى هذا التفكير الضيق وذكر أن الفحول من  
العلماء ، والمستقلين بالتفكير ، لم يزالوا ينظرون فى المسائل نظر المجتهدين ، ويدلون  
بأرائهم ، وأن العدول عن رأى السابق فى بعض وجهات النظر لا يعتبر مروفا فى الدين  
قال :

« ولعلك - ان أنصفت - علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من النظائر بعينه ،  
فهو إلى الكفر والتناقض أقرب ، أما الكفر ، فلأنه نزل منزلة النبى المعصوم من الزلل  
الذى لا يثبت الايمان إلا بموافقتة ، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفتة ، وأما التناقض : فهو أن  
كل واحد من النظائر يوجب النظر ، وإن لا ترى فى نظرك إلا ما رأيت . وكل ما رأته  
حجة . وأى فرق بين من يقول قلدى فى مجرد مذهبى . وبين من يقول قلدى فى مذهبى  
ودلىلى جميعاً . وهل هذا إلا التناقض ؟ » (٢) .

ومع كون الغزالى من كبار متكلمى الاسلام ومن كبار النظائر فهو لا يوافق علم الكلام  
فى جميع اتجاهاته : بل ينتقده على غلوه واسرافه ، وينتقد المتكلمين على مؤاخذه عوام  
المسلمين بعلم الكلام ، وتكليفهم بمعرفة الدلائل الكلامية ، والتقسيمات المرتبة وأن من  
يجهل ذلك ، ولم يعرف الله عن طريق الكلام والأدلة المحررة ، فهو ناقص فى دينه أو  
شاك فى يقينه . وبين - فى شجاعة وصراحة - أن الأمر أوسع من ذلك ، وأن الايمان له  
وسائل وطرق لا تنحصر فى علم الكلام يقول رحمه الله :

« من أشد الناس غلوا واسرافا . طائفة من المتكلمين . كفروا . عوام المسلمين ،  
وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التى حررناها ،  
فهو كافر . فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً . وجعلوا الجنة وقفاً على  
شردمة يسيرة من المتكلمين ، ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانياً ؛ إذ ظهر لهم فى عهد  
رسول الله ﷺ ، وعصر الصحابة رضى الله عنهم ، حكمهم باسلام طوائف من أجلاف  
العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ، ولم يشتغلوا بعلم الدليل ، ولو اشتغلوا به لم يفهموه  
ومن ظن أن مدرك الايمان الكلام ، والأدلة المجردة ، والتقسيمات المرتبة ، فقد أبدع جد

(١) فيصل التفرقة ص ١١ - ١٦ .

(٢) ص ١٨ .

الابداع ، بل الايمان نور يقذفه الله فى قلوب عبده ، عطية وهدية من عنده تارة بينة من الباطن لا يمكنه التعبير عنها ، وتارة بسبب رؤيا المنام ، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين ، وسراية نوره إليه عند صحبتة ومجالسته ، وتارة بقربنه حال « (١) » .

ويقول بعد سطور :

« نعم ؛ نلت أنكر أنه قد يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الايمان فى حق بعض الناس ، ولكن ليس بمقصود عليه ، وهو أيضاً نادر ، بل الأنفع الكلام الجارى فى معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن . فأما الكلام المحرر على رسم المتكلمين ، فإنه يشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعه وجدل ، ليعجز عنه العامى ، لا لكونه حقاً فى نفسه ؛ وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد فى قلبه ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة إلى غيره ، ولا عن مذهب الشافعى إلى مذهب أبى حنيفة ، ولا على العكس . وتجربى هذه الانتقالات بأسباب أخر فى القتال بالسيف ؛ ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة لهذه المجادلات ؛ بل شددوا القول على من يخوض فى الكلام ، ويشغل بالبحث والسؤال « (٢) » .

وازداد الغزالي - مع الأيام ، وبعد التجارب العلمية - اقتناعاً بأن اسلوب القرآن فى الاقتناع أبلغ وأنفع وأعم واشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة ، وبأن علم الكلام علاج مؤقت ومختص بمن نشأ عنده شكوك وشبهات ، ولا حاجة للطبائع السليمة والعقول المستقيمة إليه .

أما القرآن فكما الغذاء الصالح ؛ والماء السائغ ، يحتاج إليهما كل إنسان وينتفع ، ولا ضرر فيه ولا خطر . يقول فى كتابه « الجوام العوام عن علم الكلام » الذى هو من آخر مؤلفاته .

« فأدلة القرآن مثل الغذاء . ينتفع به كل انسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ، ينتفع به أحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون : بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع . والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة . ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً « (٣) » .

(١) فيصل التفرقة ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) فيصل التفرقة ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) الجوام العوام عن علم الكلام ، المطبعة الميمنة ص ٢٠ .

ويذكر تجربته ومشاهدته كشاهد على ذلك :

« والدليل على تضرر الخلق به ، المشاهدة والعيان والتجربة وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع سلامة العنصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك »<sup>(١)</sup> .  
وهكذا تتجلى شخصية الغزالي في نقد الفلسفة وعلم الكلام ، شخصية فريدة مستقلة التفكير ، قوية التأثير ، تمتاز بسلامة الفكر ، واتزان العقل ، وحصافة الرأي ، وعمق النظر ، والثقة بالنفس ، له منهج خاص في نقد الفلسفة ، وفي علم الكلام ، واثبات العقيدة الاسلامية ، وهو ممن توفرت عنده أدوات الاجتهاد في هذا الموضوع ، فكان من أئمة هذا الفن المجتهدين ، ومن كبار المؤلفين المنتجين .

---

(١) الجوامع العوام عن علم الكلام ، المطبعة الميمنة ص ٢٠ .



# حجة الاسلام الغزالي

## مصطلح اجتماعي

تحدثنا في الفصل السابق عن أولى الناحيتين الرئيسيتين في تجديد الغزالي واصلاحه ، وهي ناحية نقد الفلسفة ، وتجديد علم الكلام ، وتحدث في هذا الفصل عن الناحية الثانية ، وهي الحسبة على المجتمع الاسلامي المعاصر ، والدعوة إلى الأخلاق الاسلامية ، والروح ، والتحلى بالحقائق ، ويمثل هذه الناحية كتابه العظيم « احياء علوم الدين » .

### احياء علوم الدين :

ان كتاب « احياء علوم الدين » من كتب الاسلام المعدودة التي أثرت في حياة المسلمين وتفكيرهم تأثيرا عميقا ، وظلت تسيطر على عقولهم ونفوسهم زمنا طويلا ، ولا يزال له نفوذ في الأوساط الدينية ليس لغيره ، ولم يزل العلماء وأهل النظر يشنون عليه ، ويعترفون بجلاله مكانته وتأثيره . قال الحافظ الامام زين الدين أبو الفضل ، المعروف بالعراقي ، صاحب الألفية في مصطلح الحديث ( م ٨٠٦ ) : « أنه من أجل كتب الاسلام »<sup>(١)</sup> ، وقال الشيخ عبد الغافر الفارسي - وهو معاصر للغزالي ومن تلاميذ امام الحرمين - : « أنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق اليها »<sup>(٢)</sup> ، وقال الشيخ أبو محمد الكازروني : « لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الاحياء »<sup>(٣)</sup> . وكان الامام « النووي » شديد الإعجاب به عظيم الشغف .

ان لهذه الأقوال ، وكثيرا مما نقله الآخرون ، إن لم تخل من شيء من المبالغة ، فإنها تدل على خضوع الناس لتأثير الكتاب ، وظل العلماء عاكفين على مطالعته وشرحه<sup>(٤)</sup> وتلخيصه .

وكان الامام ابن الجوزي ( ٥٩٧ هـ ) ينتقد على الغزالي في مواضع كثيرة ، ويرى أن

---

(١) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس ص ١٤ .

(٢) أيضا ص ١٥ .

(٣) تعريف الاحياء بفضل الإحياء ص ١٥ .

(٤) من أجل هذه الكتب كتاب « اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين » في عشرين مجلدا للعلامة السيد مرتضى الزبيدي البلكرامي الهندي ( م ١٢٠٥ ) وقد اشتمل على مادة غزيرة فيما يتصل بالعلوم الدينية والأدبية .

كتاب الإحياء قد اشتمل على أحاديث كثيرة لا تصح ولا تثبت على طريق المحدثين<sup>(١)</sup> ، ومع ذلك يعترف بتأثيره ، وقد اختصر الإحياء في كتاب ، وسماه « منهاج القاصدين » .  
وقد صنف الغزالي هذا الكتاب ، وقد خرج من بغداد في طلب السعادة واليقين ، واشتغل بالعبادة والمجاهدة والانقطاع عن الناس ، ومرت به أدوار من الخوف والرجاء ، والزهد والتبتل ، والمعرفة واليقين . وصنف هذا الكتاب بعد ما تذوق كلا من هذه الأحوال ؛ فجاء الكتاب صورة لنفسيته وانطباعاته وتأملاته ؛ لذلك كان شديد التأثير في نفوس قرائه ؛ ولذلك مجده يتدفق حياة وقوة .

لقد رأى الغزالي ، بعدما أكرمه الله بالسعادة الروحية ، والمعرفة الحقيقية ، وانكشفت له حقيقة العلم ، حقيقة ما فيه أهل الدنيا ، من العكوف على اللذات وعبادة الشهوات ، والتكالب على الحياة ، وحقيقة ما فيه أهل العلم ورجال الدين : من طلب الجاه والرياسة ، ونيل الحظوة عند أهل الحكم والسياسة ، والجدل الفارغ ، والنقاش الحاد ، والاكتفاء بمسائل الفروع والأحكام ، والانصراف عن علم الآخرة ، وتهذيب النفس ، وحقيقة ما فيه المتدبون للاصلاح والدعوة من الكلام المزخرف ، واللفظ المسجع ، والقصص الملهية ، ورأى عموم الفساد ، وغفلة الناس ، وسكوت العلماء ، وفقدان النذير ، فانبعث في نفسه داعية قوية لتأليف هذا الكتاب الذي يكشف عن الناس الغطاء ، ويبين لكل طبقة من طبقات الأمة ما فيه هذه الطبقة من أوهام وأحلام ، ويكون دعوة صارخة سافرة إلى الاستعداد للموت ، والتأهب للآخرة ، والآخذ بلباب الدين وحقيقته ، والتحلى بالأخلاق الفاضلة ، وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه ، يقول رحمه :

« فآدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغل منهم الزمان ، ولم يبق الا المتمرسون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد يعاجل حظه مشغوفا ؛ فصار يرى المعروف منكرا والمنكر معروفا ؛ حتى ظل علم الدين مندوسا ، ومنار الهدى في منطقة الأرض منطمسا ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم الا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام ، أو الجدل يتذرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والافحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذا لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة ، وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه

(١) راجع تليس ابليس لابن الجوزي .



ففيها وحكمة ، وعلماء وضياء ونورا ، وهداية ورشدا ، فقد أصبح من بين الخلق مطويا ، وصار نسيا منسيا ، ولما كان هذا ثلما في الدين ملما وخطبا مدلهما ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما لإحياء علوم الدين ، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وايضا لمناحى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين «<sup>(١)</sup> .

### نقد المجتمع والحسبة عليه :

وكان لا بد للاصلاح الذي نهض له الغزالي ، وجاشت له نفسه ، وتحركت مواهبه ، أن يعرف المجتمع الاسلامي مواضع الضعف والفساد في حياته ، ويعرف علله وأدواءه ، وكان لا بد لذلك من أن تعرف طبقاته المختلفة ، كيف لبس عليها ابليس ؟ وما هي الأوهام التي تعيش فيها ؟ وكيف تغيرت المفاهيم الدينية ؟ وكيف تشوهت الحقائق ؟ وكيف تشاغل الناس بالظواهر والأشكال والرسوم ؟ وكيف ابتعدوا عن الحقائق والمقاصد ، حتى أصبح المجتمع كله - الا من عصم الله - في شغل شاغل عن الآخرة ، وما ينفع لها وما يلزم لها ؟ وأصبح المفكرون في أمور الآخرة ، والساعون لرضى الله تعالى ، قلة قليلة .

عرف الغزالي هذا قبل أن يؤلف الكتاب ؛ فنظر إلى المجتمع من خلال المقاييس الدينية الصحيحة ؛ فبين بكل صراحة وقوة ، ما وقع فيه من انحراف وابتعاد عن الجادة ، وتناوله طبقا طبقة ، فذكر أمراضها ومغالطتها ، وميز بين المقاصد والغايات ، والوسائل والآلات ، وقسم العلوم : بين العلوم الدنية وبين العلوم الدنيوية ، وبين العلوم المحمودة والعلوم المذمومة ، وبين فرض العين وفرض الكفاية ، ونبه على ما هو فرض ومتعين في زمانه لا يسع العالم تركه . وما فيه متسع ومندوحة ، وذكر العلل التي تخص الأغنياء وأهل اليسار وذكر أوهامهم وغرورهم ، وانتقد الملوك والأمراء بشجاعة ، وانكر عليهم مظالمهم وأعمالهم المخالفة للشرع ، وقوانينهم المعارضة للدين ، وذكر شيئا كثيرا من أمراض العامة، والمنكرات الفاشية في مختلف الطبقات ، والعادات المذمومة والعوائد الجاهلية ، والبدع المنتشرة ؛ وبذلك كان هذا الكتاب موسوعة اسلامية اجتماعية ، وأوسع كتاب وأقواه في نقد المجتمع والدعوة إلى الاصلاح .

### العلماء ورجال الدين :

يعتقد الغزالي<sup>(١)</sup> أن التبعة الكبرى في هذا الفساد الشامل والضعف في الدين والانحلال

(١) إحياء علوم الدين ص ٣ ج ١ طبع الحلبي .

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٥٤ .

فى الأءلاق ، تقع على العلماء ورجال الدين ، وهم السبب الأول فى فساد هذه الأوضاع؛ لأنهم ملح الأمة ، وإذا فسد الملح فما الذى يصلحه ؟ ويتمثل الغزالى ببيت ءوطب فىه العلماء :

### يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وىذكر كيف مرضت قلوب الناس ، واشتدت الغفلة عن المعاد ، وىذكر أسباب ذلك ، فىذكر منها مرض العلماء واعتلالهم وهم أطباء القلوب ، فىقول :

« والثالثة : - وهو الداء العضال - فقد الطيب ؛ فان الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأعصار مرضا شديدا ، وعجزوا عن علاجه » .

وىقول فى موضع آءر :

« فان الأطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهم المرض ، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الداء عضالا ، والمرض مزمنا ، واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طب القلوب ، وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات » <sup>(١)</sup> .

وىرد الغزالى فساد الملوك والأمرء ، إلى ضعف العلماء واهمالهم واجبهم فىقول :

« وبالجملء إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء ، لقل فساد الملوك ، ءخوفا من انكارهم » <sup>(٢)</sup> .

وىلوم الغزالى العلماء على تقاعدهم عن فرىضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكلمة الحق عند سلطان جائر ، وىعلل ذلك بوقوع العلماء فى شباك الأمرء ، وءبهم للدنيا وطلبهم للءاء . فىقول - بعد ما ىروى ءكايات تدل على شءاعة العلماء السلف ، وانكارهم على الملوك والكبراء - :

« فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقلة مبالءتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلوا على فعل الله تعالى أن ىحرسهم ، ورضوا بءكم الله تعالى أن ىرزقهم الشهادة ، فلما أءلصوا لله النىة أثر كلامهم فى القلوب القاسية ، وأزال قساوتها .

(١) إءفاء علوم الدين ء ٣ ص ٥٤ .

(٢) إءفاء علوم الدين ء ٢ ص ١٣٢ .

وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء ، فسكتوا ، وأن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأرزاق ، فكيف على الملوك والأكابر ؟ والله المستعان على كل حال « (١) .

لاحظ الغزالي - وقد قضى مدة طويلة في التدريس والافتاء ، وعاش بين العلماء وخبر سيرتهم - أنه قد شغل الناس بالجزئيات الفقهية ، والمسائل الخلافية ، ووقع الاكتفاء بعلم الفقه والفتيا ، وانصرف بذلك العلماء وطلبة العلم عن العلوم النافعة ، والأشغال المفيدة الأخرى ، وشغلوا عن العلم الذي يصلحون به نفوسهم وينالون به سعادة الدنيا والآخرة ، وجهلوه ، يقول :

« ولو سئل فقيه عن معنى هذه المعاني ، حتى عن الاخلاص مثلا ، أو عن التوكل ، أو عن وجه الاحتراز عن الربا ، لتوقف فيه ، مع أنه فرض عينه الذي في اهماله هلاكه في الآخرة . ولو سأله عن اللعان ، والظهار ، والسبق ، والرمي ، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها وان احتيج لم تخل البلد ممن يقوم بها ، ويكفيه مؤنة التعب فيها ، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا ، وفي حفظه ودرسه ، ويغفل عما هو مهم لنفسه في الدين ، وإذا روجع فيه ، قال : اشتغلت به لأنه عم الدين ، وفرض الكفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه ، والفتن يعلم أنه لو كان غرضه اداء حق الأمر في فرض الكفاية ، لقدم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها طبيب الا من أهل الذمة ! ولا يجوز قبول شهاداتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا نرى أحدا يشتغل به ، ويتهافتون على علم الفقه لا سيما الخلافات والجدليات ؛ والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى ، والجواب عن الوقائع ، فليت شعري ! فكيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض الكفاية قد قام به جماعة ، واهمال مالا قائم به ؟ هل لهذا سبب الا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا ، وحياسة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة ، والتقدم على الأقران ، والتسلط به على الأعداء ؟ » (٢) .

(١) الإحياء ص ١٢ ج ٣ .

(٢) الإحياء ص ١١٩ ج ١ .

ولاحظ كذلك - وقد شاهد بعينه - أنه قد نفقت سوق المناظرات في الفقه والعقائد وعلم الكلام ، وطغت على كل شئ حتى أصبحت زينة الأعراس والمآتم ، ومجالس الملوك والأمراء ، وأصبحت كسباق الخيل ، ونطاح الأوعال ، وتنافر الديكة ، يتفرج عليه الأغنياء والأمراء .

وقد ذكر أن عظم اقبال العلماء على هذا الفن ، وبراعتهم فيه ، لرغبة الملوك والأمراء في ذلك ، وتطورت مع تطور رغبة الأمراء واتجاهاتهم ، وإنما الملك سوق يجلب اليها كل بضاعة تروج فيها ، وهو في ذلك يظهر مؤرخا دقيق النظر ، قوى الملاحظة ، يقول بعد ما ذكر في الدور الأول :

« ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء ، من يسمع مقالات الناس ، في قواعد العقائد، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها ، فعلمت رغبته في المناظرة والمجادلة في الكلام ؛ فأكب الناس على علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله ، والنضال عن السنة ، وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم من الاشتغال بالفتاوى الدين ، وتقليد احكام المسلمين ؛ اشفاقا على خلق الله ، ونصيحة لهم .

ثم ظهر بعد ذلك من الصدور ، من لم يستصوب الخوض في الكلام ، وفتح باب المناظرة فيه ؛ لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية المفضية إلى اهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه ، وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص ؛ فترك الناس الكلام وفنون العلم ، واثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك ، وسفيان ، وأحمد - رحمهم الله تعالى - وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتقرير علل المذهب ، وتمهيد أصول الفتوى . وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات ، وهم مستمرون عليه إلى الآن ، ولسنا ندرى ، ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار؟ فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافات والمناظرات لا غير ، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع امام آخر من الأئمة ، أو إلى علم آخر من العلوم ، لمالوا أيضا معهم . ولم يسكتوا عن التعليل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين «<sup>(١)</sup>

(١) الإحياء ص ٣٧ - ٣٨ ج ١ .

وتكلم بعد ذلك الغزالي بتفصيل فى آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق، وقد عرف ذلك عن تجربة واختبار ؛ فقد كان فارس هذا الميدان واماما من أئمة هذا الشأن ، وكلامه كلام خير مجرب (١) .

وقد فطن الغزالي - لذكائه الباهر وتجربته العلمية - أن من أسباب الالتباس وانخداع الناس بالمظاهر ، وبعدهم عن الحقائق ، هو أنه قد فشا فى هذا العصر استعمال كلمات القرآن والحديث فى غير محلها ، وفى غير معناها الأصيل القديم ، وصار يفهم منها ما لم يكن يفهم فى العصر الأول ؛ يعقد فى كتب الإحياء فصلا خاصا فى بيان ما بدل من ألفاظ العلوم ويقول فى مفتتحه :

« أعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الاسامى المحمودة ، وتبديلها ونقلها بالاغراض الفاسدة إلى معان غير ما أرادها السلف الصالح والقرن الأول ، وهى خمسة ألفاظ : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير والحكمة ، فهذه أسام محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب فى الدين ؛ ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة ؛ فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع اطلاق هذه الاسامى عليهم » (٢) .

ثم شرح أن اسم الفقه كان يطلق فى العصر الأول على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ، فخصر فى هذا العصر بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى ، والوقوف على دقائق عللها ، واستكثار الكلام فيها ، وحفظ المقالات المتعلقة بها . وكان لفظ العلم يطلق على العلم بالله تعالى ، وبآياته وبأفعاله فى عبادة وخلقه ، وتصرف فيه أهل الزمان بالتخصيص ، حتى شهروه فى الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم فى المسائل الفقهية وغيرها .

وكان التوحيد عند الأولين ، هو أن يرى الانسان الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ؛ فلا يرى الخير والشر كله الا منه جل جلاله ، وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والاحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدق فيها ، بتكثير الأسئلة واثارة الشبهات وتأليف الالزامات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وتسمى المتكلمون العلماء

(١) راجع الجزء الأول من كتاب الإحياء ص ٤٠ - ٤٣ .

(٢) ص ٢٨ ج ١ .

بالتوحيد، والتذكير هو الذى عناه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وذكّر فان الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ فى هذا الزمان يواظبون عليه ، وهو القصص ، والاشعار ، والشطح ، والطامات . والحكمة هى التى أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ فصار اسم الحكيم يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم ؛ حتى على الذى يدحرج القرعة على أكف السوادية فى شوارع الطرق <sup>(١)</sup> .

وبعد هذه المقارنة بين معانى هذه الألفاظ القديمة ومحل استعمالها ، وبين معانيها المحدثّة ومحل استعمالها ، وبيان التحريف الذى وقع فى اطلاق هذه الكلمات وتفسيرها يقول :  
« فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن العلوم المحمودّة إلى المذمومة . فكل ذلك من تلبس علماء السوء بتبدل الاسامى ، فان اتبعت هؤلاء ؛ اعتمادا على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف فى العصر الأول ، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيما ؛ فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم فى هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ » .

وهكذا يهيب الغزالي بالعلماء . فى قوة وصراحة وشجاعة واخلاص وعمق وتحليل علمى ، ويثير فيهم الغيرة والشعور ، ويستحثهم على الرجوع إلى مركزهم فى الأمة ، وهو خلافة الأنبياء والوصاية الدينية والخلقية على المجتمع الاسلامى ، والحسبة على الحكومة والحكام ، والخواص والعوام ، معتقدا بأنهم حجر الزاوية فى اصلاح المجتمع ، وبصلاحهم صلاح العالم ، وبفسادهم فساد العالم ، ثم يلتفت إلى السلاطين والأمراء ، لأنهم الركن الثانى فى اصلاح النوع الانسانى .  
**الملوك والأمراء :**

لقد كانت الحكومات فى عصر الغزالي حكومات شخصية مستبدة ، وكان نقد السلاطين على سياستهم وأمورهم وتصرفاتهم مجازفة بالحياة ومغامرة قد تؤدى إلى الحبس والاهانة والعقوبات المؤلمة . وكثيرا ما تؤدى إلى القتل و النفى . وكان الذى يرفض وظيفة أو منصبا يقدمه السلطان ، أو يرفض عطية سلطانية ، يعتبر فى أكثر الأحيان خارجا على الحكومة غير وفى لها ؛ ولكن كل ذلك مما كان يعلمه الغزالي - وهو العالم المطلع الواعى - لم يمنعه من ابداء رأيه الصريح فى أموال الملوك والسلاطين فى عصره ، وعن نقد سياستهم

(١) انظر الإحياء بيان ما بدل من ألفاظ العلوم ص ٢٨ - ٣٤ الجزء الأول .

المالية . يقول فى الإحياء :

« أن أموال السلاطين فى عصرنا حرام كلها أو أكثرها ، وكيف لا ، والحلال هو الصدقات والفقير ، والغنيمه ؟ ولا وجود لها ! وليس يدخل منها فى يد السلطان ، ولم يبق الا الجزية ، وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به ، فانهم يجاوزون حدود الشرع فى المأخوذ والمأخوذ منه ، والوفاء له بالشرط ، ثم إذا نسب ذلك إلى ما ينصب اليهم من الخراج المضروب على المسلمين ، ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره »<sup>(١)</sup> .

ويعرف الغزالي - وهو الذى عاش بين العلماء - ان كثيرا من أهل العلم ، والمتصلين بالملوك والأمراء ، يستدلون بقبول كثير من السلف أموال السلاطين وجوائزهم وصلاتهم ، فيبين الفرق بين الأوضاع الأولى وأوضاع العصر ، ويثبت أنه لا يصح القياس على أحوالهم ، يقول :

« ان الظلمة فى العصر الأول - لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين - ، كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومستشوقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يعيشون اليهم من غير سؤال واذلال ، بل كانوا يتقلدون المنه بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ، ولا يطيعون السلاطين فى أغراضهم ، ولا يغشون مجالسهم ، ولا يكثرون جمعهم ، ولا يحبون بقاءهم ؛ بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان ، وينكرون المنكرات منهم عليهم ؛ فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ، ولم يكن بأخذهم بأس .

فأما الآن ، فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية الا لمن طمعوا فى استخدامهم والتكثرت بهم . والاستعانة بهم على أغراضهم ، والتجمل بغشيان مجالسهم ، وتكليفهم بالمواظبة على الدعاء والثناء ، والتزكية والاطراء فى حضورهم ومغيبهم فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولا ، وبالتردد فى الخدمة ثانيا ، وبالثناء والدعاء ثالثا ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعا ، وبتكثير جمعه فى مجلسه وموكبه خامسا ، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسا ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوى أعماله سابعا ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان فى فضل الشافعى رحمه الله مثلا ؛ فاذا لا يجوز أن يؤخذ منهم فى هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لافضائه إلى هذه المعانى ، فكيف ما

(١) انظر الإحياء ما بدل من ألفاظ العلوم ص ١٢٢ ج ٢ .

يعلم أنه حرام أو يشك فيه ! فمن استجراً على أموالهم ، وشبه نفسه بالصحابة والتابعين ، فقد قاس الملائكة بالحدادين « (١) .

وقيمة هذه الكلمة الجريئة لا تعرف الا في جو الحكومات الشخصية الرهيب الذي كانت كلمة واحدة تصدر من عالم أو مؤلف في نقد ملك أو حاكم تطيح بحياته .

ولم يكتف الغزالي بالدعوة إلى الامتناع من قبول العطايا السلطانية ورفضها ، بل دعا إلى الاعتزال عن السلاطين الجائرين ، واعتقاد بغضهم . وكراهة حياتهم ، والابتعاد عن المتصلين بهم يقول في الإحياء :

« الحالة الثالثة : أن يعتزل عنهم ؛ فلا يراهم ولا يرونه ، وهو الواجب ؛ إذ لا سلامة الا فيه ؛ فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولا يحب بقاءهم ، ولا يثنى عليهم ، ولا يستخبر عن أحوالهم ، ولا يتقرب إلى المتصلين بهم . » (٢) .

**مصارحته السلاطين والوزراء بالحق وحثهم على الاصلاح :**

ولم يقتصر الغزالي على ابداء آرائه في السلاطين الجائرين في مؤلفاته ؛ بل أبدى رأيه وجهر بالحق والنصيحة أمام الملوك كلما سنحت له فرصة ، وقد قال للسلطان « سنج بن ملك شاه السلجوقي » الذي كان يحكم خراسان من أقصاها إلى أقصاها :

« أسفا ! ان رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ، ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية » (٣) .

وقد كتب إلى أخيه الأكبر محمد بن ملك شاه - وكان أكبر ملوك عصره - رسالة ذكره فيها بمسؤوليته ، وحذره من عقاب الله وغضبه ، ولفت نظره إلى اصلاح المملكة .

وكان الوزير في الحكومات الشخصية في الشرق هو الذي يملك زمام المملكة ، وبيده الحل والعقد ؛ فاذا صلح صلحت الدولة ، وإذا فسد فسدت الدولة ، وكان الغزالي يعرف هذا جيداً ، وقد عاصر « نظام الملك » الطوسي وزير المملكة السلجوقية العظيمة ومديرها . وعاصر ابناءه ؛ فاعتنى بوزراء المملكة أكثر مما اعتنى بالملوك ؛ لأنهم مفتاح المملكة ، وموجهوها ، والمباشرون للأمور ، وكتب إلى وزراء المملكة رسائل مستفيضة ، ولفت

(١) إحياء علوم الدين ص ١٢٢ - ١٢٣ ج ٢ .

(٢) أيضاً ص ١٢٨ ج ٢ .

(٣) رسائل الامام الغزالي بالفارسية .



نظرهم بكل جرأة وصراحة إلى فساد الأوضاع ، وجور الحكام وابتزازهم للأموال ، وما كان يعانيه الشعب من حيف الأمراء ، وغفلة المسؤولين ، وطمع الموظفين ، وحذرهم عقاب الله وبطشه ، وذكرهم بمصير الوزراء السابقين ، والحكام الظالمين ، وحثهم على اصلاح الجهاز الادارى ، وتنظيم الحكومة والضرب على يد الظلمة . ورسائله الفارسية التى وجهها فى هذا المعنى إلى الوزراء مثال الشجاعة والصدع بالحق ، ومثال لقوة الانشاء وبلاغة التعبير . ومنها رسالة إلى فخر الملك ، يقول فيها :

« اعلم أن هذه المدينة ( مدينة طوس ) أصبحت خرابا بسبب المجاعات والظلم ، ولما بلغ الناس توجهك من اسفرائن ودامغان خافوا ، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب ، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم ؛ لما كانوا يتوقعون من انصاف منك واستطلاع للأحوال ، ونشاط فى الاصلاح . أما وقد وصلت إلى طوس ، ولم ير الناس شيئا فقد زال الخوف ، وعاد الفلاحون والحبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار ، وتشجع الظالمون ، وكل من يخبرك من أخبار هذا البلد بخلاف ذلك ، فأعلم أنه عدو دينك » .

« واعلم أن دعاء أهل طوس بالخير والشر مجرب ، وقد نصحت للعميد كثيرا ؛ ولكنه لم يقبل النصيحة ، وأصبح عبرة للعالمين ونكالا للآخرين . اعلم يا فخر الملك ! أن هذه الكدمات لاذعة مرة قاسية لا يجرؤ عليها الا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء فقدرها قدرها ؛ فانك لا تسمعها من غيرى ، وكل من يقول غير ذلك ، فأعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق » .

وكتب إلى مجير الدين : « ان اغاثة الخلق واجبة على الجميع ؛ فقد تجاوز الظلم عن الحدود ، ولم استطع أن أشاهد هذا الظلم ، فهاجرت من طوس ولى سنة ؛ حتى لا أشهد هؤلاء الظلمة الذين لا يحملون رحمة ، ولا يراعون حرمة ، وقد الجأتنى بعض الضرورات إلى زيارة البلد ؛ فوجدت الظلم مستمرا لم ينقطع .<sup>(١)</sup> »

ويقول فى هذا الكتاب : لقد بلغت المدينة العظم ، وبلغ السيل الزبى ، وكاد المسلمون يستصلون ، وان ما قسمه الموظفون من الدنانير على أهل البلد - أمانة من الملك - أخذوا أضعافها من الرعية ، وانتهبها الظالمون والسفلة من الناس ، ولم يصل منها شيء إلى السلطان .<sup>(٢)</sup> »

(١) و (٢) رسائل الامام الغزالي بالفارسية .

ولم يقتصر الغزالي على بذل النصيحة للملوك عصره ووزرائهم وتوجيههم الديني ، وتحذيرهم من سخط الله ، بل كان يبحث - لعلو همته وحرصه على اقامة الدين واسعاد المسلمين - عن دولة فتية تقوم على أساس ديني متين ، وفكر ديني سليم ، وكأنه كان يائسا من الحكومات الاسلامية المعاصرة فقد سرى فيها الوهن ، واستولى عليها الفساد ، وقد قامت في عصره دولة نشيطة بريئة من كثير من علل الحكومات الاسلامية القديمة ، وهي دولة الملتزمين في المغرب ، كان على رأسها رجل هو أقوى ملوك المسلمين في عصره وأنشطهم ، هو يوسف بن تاشفين ، صاحب مراكش ، يحد ثنا ابن خلكان ، ان الغزالي قصده لعله يتعاون معه على توجيه الحكومة ، يقول ابن خلكان : وبلغني أن الامام ، حجة الاسلام ، أبا حامد الغزالي - تغمده الله تعالى برحمته - لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة ، وميله إلى أهل العلم ، عزم على التوجه اليه ؛ فوصل إلى الاسكندرية ، وشرع في تجهيز ما يحتاج اليه ، فوصله خبر وفاته فرجع عن ذلك العزم<sup>(١)</sup> .

وإذا فات الغزالي أن يجتمع بيوسف بن تاشفين ويوجهه ، فقد ساق اليه - وهو في بلده - من قدر الله على يده قيام دولة جديدة تقوم على الدعوة والاصلاح ، وعلى الخير والصلاح ، وهو محمد بن عبد الله بن تومرت ، الذي كان على يده زوال دولة الملتزمين التي فسدت وجارت بعد مؤسسها يوسف بن تاشفين ، وقيام دولة الموحدين ، وقد قال عنه ابن خلدون :

« ولقي - فيما زعموا - أبا حامد الغزالي ، وفاوضه بذات صدره ، فأراده عليه ، لما كن في الاسلام يومئذ بأقطار الأرض من اختلال الدولة ، وتقويض أركان السلطة الجامع للأمة ، المقيم للملة ، بعد أن سأله عمن له من العصابة والقبائل التي يكون بها الاعتزاز والمنعة . »

وإذا صحت هذه الرواية ، فان للغزالي فضلا ونصيبا في توجيه الرجل الذي كان صاحب دعوة وحركة في المغرب ، انتهت إلى قيام دولة فاضلة تتمسك بالدين وتقيم القسط وتمنع الظلم ، وترفع شعائر الاسلام<sup>(٢)</sup> .

---

(١) وفيات الاعيان ترجمة يوسف بن تاشفين .

(٢) اقرأ أخبار عبد المؤمن بن علي ودولة الموحدين في تاريخ ابن خلدون ، الكتاب الثالث ، أخبار البربر .

## طبقات المسلمين الأخرى :

ولم يكن نقد الغزالي مقتصرًا على العلماء والسلاطين والأمراء ؛ بل إنه استعرض المجتمع الإسلامي المعاصر كله ، فذكر ما انتشر فيه من بدع ومبتكرات وأوهام ومغالطات ، ويدل كتاب الإحياء على أنه - وإن كان نشأ نشأة علمية وعاش بين الكتب والتلاميذ - كان متصلًا بالمجتمع اتصالًا وثيقًا ، وقد درسه دراسة عميقة ، وكان واسع الاطلاع على المدنية في عصره ، وأساليب الحياة ، وأجواء الطبقات ، وأن ما ذكره من أخلاق مختلف الطبقات وعللها ، ليدل دلالة واضحة على قوة ملاحظته ، ودقة نظره . وقد عقد في كتابه بابًا مستقلًا في المنكرات المألوفة في العادات والتقاليد التي ألفها الناس ؛ فلا يشعر كل واحد بأنها منكرات دخيلة على الحياة الدينية ، وقد دقق فيها واستوعبها استيعابًا لا يقدر عليه إلا من عاشر الناس معاشرة طويلة ، وخبر الحياة ودرسها دراسة واسعة وعميقة ، ذكر فيها منكرات المساجد ومنكرات الأسواق ، ومنكرات الشوارع ومنكرات الحمامات ، ومنكرات الضيافة والمنكرات العامة<sup>(١)</sup> .

وخصص الغزالي جزءًا من الكتاب بدم الغرور ، ذكر فيه أصناف المغترين وفرق كل صنف ، ذكر منهم المغترين من أهل العلم وفرقهم ، والمغترين من المتصوفة ، والمغترين من أرباب الأموال وفرقهم ، وقد ذكر منافذ الشيطان ومداخل النفس في هذه الطبقات وأصنافها ، وذكر من أفكارهم ومزالقهم وعقدتهم النفسية ما لا يطلع عليها إلا عالم كبير من علماء النفس ، ومصالح اجتماعي ذكي له تجارب طويلة ونظر نافذ .

وقد انتقد العلماء والمشتغلين بالعلم في غلوهم في الاكثار من الجزئيات الفقهية ، والخلافات ، والكلام ، والجدل ، والتعمق في العلوم الآلية : كالنحو ، واللغة ، والشعر ، والغريب . والانهماك به . وانتقد الصوفية بالاكثاف بحفظ أقوال المشايخ وأخبارهم . ولاحظ أن هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها . فاما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع . فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث أنها علوم ؛ فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع<sup>(٢)</sup> .

(١) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٩٤ - ٣٠٠ .

(٢) ج ٣ ص ٣٤٣ .

وذكر من التباسات الصوفية ومبالغاتهم شيئا كثيرا يدل على انصافه وتدقيقه (١).

وقد ذكر عن المغترين من أرباب الأموال طرائف وحقائق تدل على النظر العميق ،  
والفهم الدينى الصحيح ، يقول :

« ربما يحرصون على انفاق المال فى الحج ، فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا  
جيرانهم جياعا ؛ ولذلك قال ابن مسعود : فى آخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب ، يهون  
السفر عليهم ، ويبسط لهم فى الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوين ، يهوى بأحدهم  
بغيره بين الرمال والقفار ، وجاره مأسور بجنبه لا يواسيه . » (٢).

ويقول :

« وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها ، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم  
البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التى لا يحتاج فيها إلى نفقة . كصيام النهار وقيام  
الليل ، وختم القرآن وهم مغرورون ، لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو  
يحتاج إلى قمعه باخراج المال ، وقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال  
من دخل فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجيين ليسكن به  
الصفراء ، ومن قتله الحية متى يحتاج إلى السكنجيين ! ؟ ولذلك قيل لبشر ( الحافى ) :  
ان فلانا الغنى كثير الصوم والصلاة ؛ فقال المسكين : ترك حاله ودخل فى حال غيره ؛  
وإنما حال هذا اطعام الطعام للجياع ، والانفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه  
نفسه ، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدينار ومنعه للفقراء (٣) . !

ويقول عن العامة وطوائف من الأغنياء والفقراء :

« وفرقة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر ،  
واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد  
سماع الوعظ - دون العمل ودون الاتعاظ - أجرا ، وهم مغرورون ؛ لأن فضل مجلس  
الذكر لكونه مرغبا فى الخير ، فان لم يهيج الرغبة ، فلا خير منه ، والرغبة محمودة ؛  
لأنها تبعث على العمل ، فان ضعفت عن الحمل على العمل ، فلا خير فيها . وما يراد  
لغيره فاذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له ، وربما يغتر بما يسمعه من الوعظ من

(١) انظر المجلد الثالث ص ٣٤٥ - ٣٥٠ .

(٢) انظر المجلد الثالث ص ٣٥١ .

(٣) ص ٣٥٢ الجزء الثالث .

فضل حضور المجلس ، وفضل البكاء ، وربما تدخله رقة كرقعة النساء فيبكي ولا عزم ، وربما يسمع كلاما مخوفا ، فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : يا سلام سلم ! أو نعوذ بالله ! أو سبحان الله ! ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور ، وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء ، فيسمع ما يجرى ، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يغنى عنه من مرضه وجوعه شيئا ، فكذلك سماع وصف الطاعات - دون العمل بها - لا يغنى من الله شيئا ؛ فكل وعظ لا يغير منك صفة تغيرا بغير أفعالك ؛ حتى تقبل على الله تعالى اقبالا قويا أو ضعيفا ، وتعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك ، فاذا رأيت وسيلة لك كنت مغرورا<sup>(١)</sup> .

وفى هذه القطع كلها يظهر الغزالي مصورا حاذقا ، يتناول بريشته البارعة مجتمع عصره ، فيصور مخايله وقسمات وجهه ، ويجسم دقائقه وتجاعيده ، ويظهر فى ذلك كله ذكاؤه ، وسعة اطلاعه ، ودقة ملاحظته ، وبراعة تصويره ، وسلامة تفكيره .

### مكانته بين علماء الأخلاق :

ويدل كتاب الإحياء على مكانته بين علماء الأخلاق ، وقد بحث عن الأخلاق ودوافعها ومنشأها وأصنافها بحثا دقيقا عميقا ، وتكلم فى أمراض القلب وأسبابها وعلاجها كلاما يجمع بين الحكمة والعلم والتجربة والتربية . وأن من يقرأ بحثه المستفيض فى بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع ، حتى لا يخلو عنه قلب الا بشديد المجاهدة ، ليخضع ويقر بذكائه ودراسته للطبيعة البشرية ، وتحليله العلمى ، وعقله الكبير<sup>(٢)</sup> .

وقد استحق الغزالي ببحوثه العميقة فى الأخلاق ، وبتأليفه العظيم «إحياء علوم الدين» أن يوضع فى الصف الأول من علماء الأخلاق ، وأن يكون موضع دراسة وعناية من الباحثين فى علم الأخلاق ، وعلم النفس ، والمؤرخين لهذا الموضوع .

### كتاب ترغيب وتهذيب :

ومن أشد أجزاء الكتاب تأثيرا فى النفس ، ما يشتمل على الترغيب والترهيب ، يصور الغزالي غرور الدنيا وخلود الآخرة ، والحاجة إلى الايمان والعمل الصالح وتهذيب النفس ،

(١) إحياء علوم الدين ص ٣٥٢ ، ج ٢٢ .

(٢) انظر إحياء علوم الدين ، المجلد الثالث ، ص ٢٤١ - ٢٤٤ .

ويحذر من أمراض القلب ، ويحاسب النفس ، ويدافع عنها ، ويعتذر كأحر ما يعتذر صديق محب ، ومحام بارع ، ثم يجيب عن ذلك ويقيم عليها الحجة كأحسن ما يفعل ذلك قاض نابغة ومشرع بصير ، ثم يرقق القول ويصف العلاج ، كأحسن ما يفعل طبيب حاذق ومرب عطوف ، ويجيء بالعجب العجاب ، ويسحر الألباب ، ويدمع العيون ، ويرقق القلوب ، وقد أثرت هذه المواعظ الحكيمة الرقيقة في قلوب الألوف ، وأحدثت في حياتهم انقلابا وتحولا عظيما ، ومن شاء فليقرأ المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها<sup>(١)</sup> .

وقد أصبح كتاب الاحياء بذلك كله كتاب اصلاح وتربية ، وكان المصنف حاول أن يكون هذا الكتاب - كمرشد ومرب - ، مغنيا عن غيره ، قائما مقام المكتبة الاسلامية ؛ لذلك جعله يحتوى على العقائد ، والفقه ، وتركية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، والحصول على مرتبة الاحسان .

### تضرر بعض الناس من كتاب الإحياء :

ولكن مما يلاحظ أن كثيرا ممن يقتصر على مطالعة هذا الكتاب ، أو يكثرون قراءته ويشغف به ، ينشأ عنده غلو في الزهد والتقشف ، ومخالفة النفس في المباحات ، والكراهة للحياة ، والاكثار من الرياضات والمجاهدات ؛ حتى تتأثر بذلك صحته وعقله ، خصوصا في هذا العصر الذي ضعفت فيه القوى والأجسام ، لذلك يمنع بعض المرين الحكماء عن مطالعة هذا الكتاب في بداية الحال ، خصوصا الذين عندهم تأثير قوى ، وانفعال سريع ؛ ولعل السبب في ذلك أن الغزالي صنفه في حالة قد غلبت عليه فيها الخوف والهيبة وكان متأثرا شديدا بالتأثر ؛ فجاء كلامه صورة نفسيته وتأثره . وقد جمع فيه أقوالا كثيرة في الزهد وقهر النفس وعصيانها ، لا تخلو من المبالغة والاسراف .

والحق ، أن السيرة النبوية - ويدخل فيها الحديث الصحيح - على صاحبها الصلاة والتحية - هي المدرسة الوحيدة التي تربي تلاميذها على الاعتدال الكامل والتوازن الصحيح ، و « كل يؤخذ من قوله ويرد الا صاحب هذا القبر »<sup>(٢)</sup> ، ويمثل ذلك بعض التمثيل قدوة دينية تجمع بين العلم الراسخ ، والسيرة المستقيمة ، والقلب الحى الفائض قد تشرب السيرة ، وتذوق السنة ، وذاق حلاوة الايمان ، وحاز اليقين ، ولم يزل ولا يزال

(١) انظر احياء العلوم المجلد الرابع ص ٣٥٦ - ٣٥٨ .

(٢) من كلام الامام مالك رضى الله عنه .

الدين يؤخذ من الأحياء ، ويقوم بالأحياء ، ولم يكن الانسان فى دور من الأدوار غنيا عن القدوة والصحة .

## فضل كتاب الإحياء :

وعلى ما تعقب من الغزالي فى الإحياء من ايراد أحاديث ضعيفة ؛ بل موضوعة فى كثير من الأحيان <sup>(١)</sup> ، وأشياء من كلام الصوفية الممعة فى الغلو ، وهضم النفس وترك المباحات ، وقد لا تتفق مع أصول الدين ، ومع ما ورد فيه من مواد كلام الفلاسفة . . . إلى غير ذلك من مآخذ تعقبها العلامة الحافظ ابن الجوزى <sup>(٢)</sup> ، وشيخ الاسلام ابن تيمية <sup>(٣)</sup> ، مع اعترافهما بفضل الكتاب ؛ فان كتاب الإحياء فى مقدمة الكتب الاسلامية التى انتفع بها خلائق لا تحصى فى كل عصر وجيل ، وأثرت فى النفوس تأثيرا لا يعرف الا عن كتب معدودة ، ولا يزال الكتاب الذى يكثُر قراؤه والمعجبون به والمتأثرون به فى أكثر البلاد ولا يزال ثروة زاخرة فى الدين ، ومصدرا قويا من مصادر الاصلاح والتربية .

## شخصية الغزالي وفضله :

لا شك أن الغزالي من نوابغ الاسلام وعقوله الكبيرة ، ومن كبار قادة الفكر الاسلامى ورجال الاصلاح والتجديد الذين لهم فضل كبير فى بعث الروح الدينية ، وايقاظ الفكر الاسلامى ، والدعوة إلى حقائق الاسلام وأخلاقه ، وفى مقاومة الغزوات العقلية التى كنت تجتاح المجتمع الاسلامى والفكر الاسلامى . ومهما قيل فيه ، وقيل عنه ، فان اخلاصه أسمى من أن يشك فيه .

وأن علو همته فى جميع العلوم والنبوغ فيها ، ثم علو همته فى طلب الحقيقة واليقين . ثم علو همته فى طلب الآخرة وتحقيق غاية الوجود ، لا يزال موضع استغراب وتقدير واكبار من الجميع . وان ما خلفه من آثار وتراث علمى ثروة علمية اسلامية لا يستهان بقيمتها ، ولا ينكر فضلها فى عصر من العصور . سلام الله على هذه الروح الزكية والهمة العالية والعقل الاسلامى الكبير ! وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

---

(١) قام الحافظ الامام زين الدين العراقى صاحب الألفية بتخريج أحاديث الإحياء وتعريف درجتها سماه « المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار » طبع مع الإحياء بمطبعة مصطفى البابى الحلبي .

(٢) انظر « المنتظم » لابن الجوزى ج ٩ ص ١٦٩ - ١٧٠ طبع دائرة المعارف حيدر آباد .

(٣) انظر فتاوى ابن تيمية ج ٢ ص ١٩٤ .





# الإمام عبد القادر الجيلانى

## عصره ، حياته ، صفته ، تأثيره

الحاجة إلى الدعوة الشعبية والاصلاح العام<sup>(١)</sup> :

لقد قام حجة الاسلام الغزالى ، بشخصيته الفريدة القوية وجهاده العلمى والاصلاحى ، بدور عظيم فى تاريخ الاصلاح والتجديد ، وكان الرجل المطلوب للدفاع عن الاسلام عند هجوم الفلسفة اليونانية ، والحاد الباطنية وانحراف العلماء ؛ ولكن ظل العالم الاسلامى فى حاجة شديدة إلى داع شعبى ، وشخصية روحية رفيعة ، أكثر اتصالاً بالشعب وطبقات الجماهير ، ينفخ فى المجتمع ، بدعوته ومواعظه وبتزكياته للنفوس واصلاحه للأخلاق ، روحاً دينية وحياة إيمانية .

وقد كانت الكثرة من المسلمين فريسة العلل الخلقية والاجتماعية ، وقد انتشر فيها التعطل والغفلة والجهالة والنفاق ، ولم تؤثر المناقشات العلمية والفلسفات الملحدة إلا فى الطبقة المثقفة الراقية ، وخاصة الخاصة .

وقد ظلت الملكية المطلقة والحكومة الشخصية ، تعملان عملهما فى أخلاق الشعب طيلة أربعة قرون ، وقد وجدت بتأثيرهما طبقة كبيرة لا هم لها فى الحياة إلا الحصول على الثروة والترف ، أو نيل الجاه والشرف ، وقد كانت لا تجحد بالله والآخرة كعقيدة ؛ ولكنها قد نسيت الله بتاتا ، وكانت تعيش فى ذهول عن الآخرة ، وتحيا حياة مترفة لاهية .

وقد أنشبت الحضارة العجمية أظفارها فى المجتمع الاسلامى ، وتغلغلت العادات العجمية والتقاليد الجاهلية فى نظام الحياة ، وارتفع مستوى المعيشة فى الحواضر الاسلامية ارتفاعاً عظيماً ، وتضخمت تكاليف الحياة وضرائب المجتمع - وهو ما يفرضه من لباس ومظاهر وأداب هى أقسى من ضرائب الحكومة - ووجدت أمة من « رجال البلاط » وحاشية الأمراء ، وندماء أبناء الملوك وعباد الأغراض ، ومنتهمزى الفرص « النفعيين » .

وقد كانت الطبقة الوسطى على أثر الأمراء والأغنياء ، وكان العامة والعملة والفلاحون خاضعين لأخلاق الطبقة الوسطى ، يرون الشرف فى تقليدها والتشبه بها ، وكان الذين

---

(١) زاد المحاضر بعد رجوعه إلى الهند محاضرات جديدة عن الامام عبد القادر الجيلانى ومولانا جلال الدين الرومى ، ضمت إلى الكتاب .

يملكون وسائل الحياة والسعة في المعيشة يستخدمونها في التمتع بالحياة وارضاء الشهوات . أما الذين حاموها ، فكانوا يقضون حياتهم في تحسر وتوجع ، ويعتبرون نفوسهم - مهما أوتوا من العلم والنسب والاخلاق الفاضلة - أذل من الدواب والانعام . وكان أصحاب اليسار والأموال لا يعرفون الإيثار والعطف على الضعفاء والبر بالفقراء ، والشكر على ما أكرمهم الله به من سعة ورخاء .

أما البؤساء والكادحون فكانوا لا يعرفون الصبر والرضا ، والألفة والأبء ، وهكذا فقدت الحياة اتزانها وهدوءها ، وأصبحت بنوبة عصبية عنيفة ، لا يرى من سيطر على أموال عظيمة وتسلط على هلكتها واستغلالها للهوى والشباب ، أو الجاه والنفوذ ، وإلا من يحسد هذه الطبقة ويعيش في هموم وغموم لا أرجاء لها ، ولا تنتهى إلا مع الحياة ، فلا دنيا يلهو بها ويقضى وطره ، ولا دين يلجأ إليه ويعتز به .

كان المجتمع الاسلامى - بكل ما ذكرناه - فى حاجة ملحة إلى دعوة دينية ، تخفف غلراء حب الدنيا ، وتحد من شدته وحدته ، وتوقظ فى النفوس الايمان وتثير عقيدة الآخرة ، وتحرك فى القلوب الحب لله والحنين إليه وتمث على الطموح وعلو الهمة وبذل الجهد فى الحصول على علم الله الصحيح وعبادته ، ونيل رضوانه والمسابقة فى سبيله ، وتدعو إلى التوحيد الكامل ، والدين الخالص ، دعوة صريحة مكشوفة ، وتبين ضعف أهل الدنيا وأصحاب الثروة ورجال الحكومة وفقرهم ، فى قوة ووضوح وثقة واعتداد بالنفس ، وأن الاسباب لا قوة لها ولا تأثير : وأنها مسخرة خاضعة لارادة الله تعالى يتصرف فيها ، ويملكها ويصرفها كيف يشاء .

### مؤهلات الداعى العلمية :

يتسم القرن الخامس والسادس فى تاريخ الإسلام بسعة فى العلم والتقدم فى الآداب ، وقد نبغ فيهما علماء كبار ومؤلفون بارعون . وقد كان من رجال أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس والسابع العلامة « أبو اسحق الشيرزاي ( م ٤٧٦ هـ ) و « حجة الاسلام الغزالي » ( م ٥٠٥ هـ ) وأبو الوفاء « ابن عقيل » ( م ٥١٣ ) و « عبد القادر الجرجاني » ( م ٤٧١ هـ ) و « أبو زكريا التبريزي » ( م ٥٠٢ هـ ) و « أبو القاسم الحريرى » ( م ٥١٦ هـ ) و « جار الله الزمخشري » ( م ٥٣٨ هـ ) و « القاضي عياض المالكي » ( م ٥٤٤ هـ ) الذين ظلوا قروناً مسيطرين على العقول والاتجاهات ، وكانوا مدارس أدبية علمية ، لم يكن لأحد فى هذا العهد الزاخر بالحياة العلمية ونوابغ الفن كالقرن الخامس والسادس . وفى بلد زاخر بالمدارس وحلقات الدروس كبغداد ، أن يؤثر

فى مجتمعه الذى قطع شوطاً واسعاً فى العلم ، وانتشرت الثقافة فى طبقاته انتشاراً كبيراً ، ولم يكن له أن يلفت إليه الأنظار ، وينفذ إلى أعماق النفوس والقلوب ، وتخضع له الطبقات المثقفة وحملة لواء العلم فى عصره ، إلا إذا كان على الكعب طويل الباع فى العلوم السائدة ، ومتضلعاً من علوم الدين والدنيا ، قد أقر له معاصروه بالفضل ، وشهد له علماء بلده بغزارة العلم وسعة المعارف .

وكان يجب أن يكون هذا الداعى صاحب بيان ولسان ، يخاطب العلماء والمثقفين فى أسلوبهم والعامّة فى أسلوبها ، وكان يجب أن يكون صاحب نفس زكية ، وهمّة قوية مؤثرة ، وعلى جانب عظيم من الزهد والقناعة والعزوف عن الشهوات وكبر النفس ، يجد ضعف الإيمان وضعف النفوس فى مجالسه قوة اليقين وحرارة الإيمان ، ويجد أهل الشك والارتباب السكينة والأذعان ، ويجد أصحاب النفوس القلقة والقلوب الجريحة المنكسرة الهدوء والعزاء والسلوان ، ويجد هواة الحقائق والمعارف وأصحاب الدراسات العلوم الدقيقة والنكت اللطيفة ، ويجد أصحاب البطالة والعطلة وأصحاب القلوب الخاملة ما يملؤهم حماسة وإيماناً ، وما يحفزهم إلى العمل والجهد ، ويجد عباد اللذات والشهوات والمترفون فى الحياة ، الذين تجرأوا على المعاصى والمحارم ، ما يبعث فيهم الاقلاع والندامة والتوبة والانابة . وبالجملة ، يجد كل أحد فى مجالسه غناءه ودواءه وغذاءه وشفاءه ويقف كمنارة عالية من الإيمان والعلم فى بحر من الظلمات والجاهلية . يأوى إليها الغرقى ويهتدى بها الحائرون . ويخلف الأنبياء فى دعاء الخلق إلى الله ، ودعوة الناس إلى دار السلام ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ويخلفون الأنبياء فى تهذيب النفوس وتجديد الصلة بالله تعالى ، والتذكير بالآخرة ، وإيثارها على الدنيا ، وتجريد التوحيد وإخلاص الدين لله تعالى . وذلك كله من أهم مقاصد بعثة الأنبياء ومن أعظم أهدافهم ، ولا يمكن أن يبقى الإسلام كدين ونظام خلقى وأسلوب للحياة ودعوة مؤثرة حتى يكون له دعاة مجددون من هذا الطراز .

لقد كانت وطأة الحكومة التى كان على رأسها الملوك المسلمون الذين يتسمون بالخلفاء شديدة على المجتمع الإسلامى ، ولقد كان للمسلمين اندفاع قوى إلى الجاهلية ، ولقد كانت هذه الأوضاع خطراً كبيراً على الإسلام وعلى « المزاج » الإسلامى ؛ فكان المجتمع الإسلامى المحاط بهذه الأخطار فى حاجة شديدة إلى مصلح دينى ومجدد إسلامى من الطبقة الأولى ، يحارب الجاهلية التى تسربت إلى الإسلام ، فى عاصمتها وفى أوجها ، « ننفخ روحاً إيمانية جديدة فى هذا العالم المنهار .

لقد وجد هذا المصلح فى شخص الشيخ « عبد القادر الجيلانى » الذى ظهر فى بغداد فى آخر القرن الخامس ، وتسلم الزعامة الدينية وعاش نحو قرن فرداً فريداً فى الدعوة إلى الله ، والتف حوله العالم الاسلامى ، وأثر فيه تأثيراً لم يؤثر مثله عالم أو مصلح من مدة طويلة .

### دراسته ونبوغه :

ولد الشيخ عبد القادر سنة ٤٧٠ هـ فى جيلان<sup>(١)</sup> ، ينتهى نسه إلى الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما ، دخل بغداد سنة ٤٨٨ هـ ، وله ثمانى عشرة سنة ، وهى السنة التى خرج فيها أبو حامد الغزالى من بغداد تاركاً لتدريس النظامية ، زاهداً فى الدنيا طالباً للمعرفة واليقين<sup>(٢)</sup> ، وأقبل إلى العلم بهمة عالية وجد وحرص ، ولم يعقه بالعبادة والاشتغال بالله عن الاشتغال بالعلم ، ولم يرض بالقناعة فى العلم والاقتصار على القليل الذى لا بد منه .

قرأ العلوم السائدة فى عصره على أساتذتها الكبار والمبرزين فيها وأتقنها ومهر فيها ، وحصلت له فيها اليد الطولى . ومن شيوخه أبو الوفاء ابن عقيل . ومحمد بن الحسن الباقلانى . وأبو زكريا التبريزى . وأخذ الطريقة عن الشيخ أبى الخير حماد بن مسلم الدباس<sup>(٣)</sup> ، وأكملها عند القاضى أبى سعيد المخرمى<sup>(٤)</sup> ، وحصلت له الاجازة عنه .

### الاصلاح والارشاد :

عنى الشيخ عبد القادر - بعدما أتم دراسته العلمية والروحية - بالاصلاح وارشاد الخلق إلى الحق . وجمع بين الرئاسة الدينية والرئاسة العلمية . وكان أبو سعيد قد بنى مدرسة

---

(١) جيلان أو كيلان ويقال أيضاً بلاد الديلم ، ولاية من القسم الشمالى الغربى من بلاد فارس ، يحدها شمالاً ناحية تانيس الروسية ، وجنوباً بغرب سلسلة جبال البرز الفاصلة بينهما وبين اذربيجان وعراق العجم ، وجنوباً بشرق مازنداران وشمالاً بشرق بحر قزوين ، وهى تعد من أجمل ولايات فارس «دائرة المعارف للبيستانى» .

(٢) البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٤٩ .

(٣) قال الشعرانى : انتهت إليه رياسة تربية المريدين ، وانتمى إليه معظم مشايخ بداد وصوفيتهم فى وقته . توفى سنة ٥٢٥ هـ .

(٤) هو المبارك بن على بن الحسين قال عنه ابن كثير : سمع الحديث وتفقه على مذهب أحمد ، وناظر وافتنى ودرس . كان حسن السيرة ، جميل الطريقة ، سديد الأفضية ، توفى سنة ٥١١ هـ .

لطيفة بباب الأزج ، ففوضت إليه ، وتكلم مع الناس بلسان الوعظ ، وظهر له صيت ، فضاقت مدرسته بالناس من ازدحامهم على مجلسه ؛ فجلس للناس عند السور أياماً ، ثم وسعت بما أضيف إليها من المنازل والأكنة التي حولها . وبذل الاغنياء في عمارتها أموالهم . وعمل الفقراء فيها بأنفسهم ، واكتملت المدرسة في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، وصارت منسوبة إليه . وتصدر بها للتدريس والفتوى والوعظ ، مع الاجتهاد في العلم والعمل ، وجمع قلوب عباده على حبه . وألهج ألسنتهم بالثناء عليه . وانتهت إليه رئاسة العلم والتربية والاصلاح والرشاد والدعوة إلى الله بالعراق ، وقصده الناس من الآفاق . وورقه الله من الوجاهة والقبول ما أزرى بوجاهة الملوك والسلاطين ، وهابه الخلفاء والملوك والوزراء فمن دونهم . قال الشيخ « موفوق ابن قدامة » صاحب المغنى : « لم أر أحداً يعظم من أجل الدين أكثر منه » . وكان يحضر مجالسه في بعض الأحيان الخليفة والملوك والوزراء فيجلسون متأدبين خاشعين . أما العلماء والفقهاء فلا يأتي عليهم حصر . وقد عد في بعض مجالسه أربعمائة محبرة<sup>(١)</sup> .

### صفته وأخلاقه :

كان من أخلاقه أن يقف مع جلاله قدره مع الصغير والجارية ويجالس الفقراء ويفلئ لهم ثيابهم ؛ وكان لا يقوم قط لأحد من العظماء وأعيان الدولة ، ولم يلم قط بباب وزير ولا سلطان<sup>(٢)</sup> ، وكان إذا جاءه خليفة أو وزير يدخل الدار ثم يخرج حتى لا يقوم له<sup>(٣)</sup> ، وقد اتفقت الألسنة وشهادات المعاصرين على حسن خلقه وعلو همته ، وتواضعه لله تعالى ، وسخائه وإيثاره لغيره ، قد وصفه أحد رجال عصره « حرادة » وقد عاش طويلاً ، وصحب كثيراً من الشيوخ الكبار ، فقال :

« ما رأيت عيناى أحسن خلقاً ، ولا أوسع صدراً ، ولا أكره نفساً ، ولا ألطف قلباً ، ولا أحفظ عهداً ووداً من سيدنا الشيخ عبد القادر ، ولقد كان - مع جلاله قدره ، وعلو منزلته ، وسعة علمه - يقف مع الصغير ، ويوقر الكبير ، ويبدأ بالسلام ويجالس الضعفاء ، ويتواضع للفقراء ، وما قام لأحد من العظماء ولا الاعيان ، وإلا ألم بباب وزير ولا سلطان<sup>(٤)</sup> .

(١) مخصصاً من المنتظم ، والبداية وذيل طبقات الحنابلة ، والطبقات الكبرى .

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ص ١٢٧ .

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ص ١٢٨ .

(٤) قلائد الجواهر .

وقال الامام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف البرزالي الاشبيلي :

« كان مجاب الدعوة ، سريع الدمعة ، دائم الذكر ، كثير الفكر رقيق القلب ، دائم البشر ، كريم النفس ؛ سخي اليد ، غزير العلم ، شريف الاخلاق طيب الاعراف ، مع قدم راسخ في العبادة والاجتهاد »<sup>(١)</sup>.

وقال مفتي العراق ، محي الدين أبو عبد الله محمد بن حامد البغدادي : « كان أبعد الناس عن الفحش ، أقرب الناس إلى الحق ، شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عز وجل ، لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لغير ربه » .

كان له غرام باطعام الطعام ، والانفاق على ذوى الحاجة والعاهة ؛ قال العلامة «النجار» في تاريخه : قال الجبائي قال الشيخ عبد القادر « فتشت الاعمال كلها . فما وجدت فيها أفضل من اطعام الطعام ، ولا أشرف من الخلق الحسن . أود لو كانت الدنيا بيدي أطعمتها الجائع » وقال : قال لى « كفى مثقوبة لا تضبط شيئاً ، لو جاءنى الف دينار لم تبت عندي »<sup>(٢)</sup> وقال صاحب قلائد الجواهر : « كان رضى الله عنه يأمر كل ليلة بعد البساط ، يأكل مع الأضياف ويجالس الضعفاء . ويصبر من غاب من أصحابه ، ويسأل عن شأنهم ، ويحفظ ودهم ، ويعفو عن سيئاتهم ويصدق من حلف له ، ويخفى علمه فيه »<sup>(٣)</sup>.

### أحياء القلوب الميتة :

اتفق المؤرخون على كثرة كرامات الشيخ عبد القادر ؛ قال الشيخ موفق الدين صاحب المغنى : «لم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عن الشيخ عبد القادر» وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام : «أنه لم تتوافر كرامات أحد من المشائخ إلا الشيخ عبد القادر ؛ فإن كراماته نقلت بالتواتر<sup>(٤)</sup> وكذلك قال شيخ الاسلام ابن تيمية<sup>(٥)</sup>.

ولكن من أجل كراماته احياء موات<sup>(٦)</sup> ؛ النفوس والقلوب ، وزرع الإيمان وخشية الله

(١) قلائد الجواهر ص ٩ .

(٢) قلائد الجواهر ص ١٠ .

(٣) قلائد الجواهر ص ٩ .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب .

(٥) جلاء العينين للألوسى .

(٦) الموات : الأرض الخالية من السكان ، أو التى لا ينتفع بها أحد وفى الحديث : من أحيى مواتاً من الأرض فهو له .

وحبه فيها ، واشعال مجامر القلوب التي انطفت من جديد ؛ فقد أعاد الله به إلى قلوب لا يحصيها إلا الله حياة وإيماناً . وهبت بمواعظه وتربيته رياح من الإيمان عاشت بها قلوب ميتة ، ونشطت بها نفوس خامدة ، وانطلقت في العالم الاسلامي موجة من الإيمان الجديد، والروحانية القوية ، والأخلاق الفاضلة ، والتقوى . وقد هيا الله له الزعامة الدينية والروحية في العالم الاسلامي ؛ فاختر له بغداد - عاصمة المملكة العباسية وقلب العالم الاسلامي - وجاءته بغداد - وهي من أكبر مدن العالم - تسعى ، وازدحم الناس عليه ازدحاماً كبيراً ، قال : « كان يجلس عندي رجالان وثلاثة يسمعون كلامي ، ثم تسامع بي الناس وازدحم على الخلق ؛ فكنت أجلس في المصلى بباب الحلبة ، ثم ضاق على الناس ، فأخرجوا الكرسي إلى داخل السرر بين التنانير ، وكان الناس يجيئون في الليل على الشمع والمشاعل ، يأخذون لهم مواضع ، ثم ضاق على الناس الموضع ، فحمل الكرسي إلى خارج البلد ، وجعل في المصلى ، وكانوا يجيئون على الخيل والبغال والحمير والجمال ، ويقفون ما دار المجلس كالسرر ، وكان يحضر المجلس نحو من سبعين ألفاً»<sup>(١)</sup> .

وكان لمجالسه تأثير عظيم ونفع كثير ؛ قال الشيخ عمر الكيسانى : « لم تكن مجالس سيدنا الشيخ عبد القادر رضى الله عنه تخلو ممن يسلم من اليهود والنصارى ، ولا ممن يتوب من قطاع الطريق ، وقاتلى النفس ، وغير ذلك من الفساق ولا ممن يرجع عن معتقد سيء »<sup>(٢)</sup> وقد كان يشعر بذلك ويحمد الله عليه . ويفضله على ما كان يهواه من الخلوة بالله ، والانقطاع عن الخلق والاشتغال بالعبادات ، قال الجبائى : قال لى سيدنا الشيخ : «أتمنى أن أكون فى الصحارى والبرارى كما كنت فى الأول ، لا أرى الخلق ولا يروننى » ثم قال : « أراد الله عز وجل منى منفعة الخلق ؛ فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى ، وتاب على يدي من العيارين والمسألحة<sup>(٣)</sup> أكثر من مائة ألف ، وهذا خير كثير »<sup>(٤)</sup> .

وكان الشيخ يعتقد - بحق - أنه مكلف بذلك مأمور به يقول فى المجلس :

(١) فائد الجواهر ص ١٥ - ١٦ .

(٢) فائد الجواهر ص ٢٢ .

(٣) المسالحة : الجماعة ، أو القوم ذوو السلاح .

(٤) فائد الجواهر ص ٢٢ .

« سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق ، وجعله أكبر همى ! انى ناصح ولا أريد على ذلك جزاء ؛ أجرتى قد حصلت لى عند ربي عز وجل ؛ ما أنا طالب دينا ، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة ، ولا ما سوى الحق عز وجل ، ما أعبد إلا الخالق الواحد الأحد القديم ، فرحى بفلاحكم ، وغمى لهلاككم »<sup>(١)</sup> .

اشتغاله بالعلم ونصرته للسننة :

ولم يمنعه اشتغاله بالوعظ والإرشاد وتربية النفوس من الاشتغال بالتدريس ، ونشر العلم ونصر السننة والعقيدة الصحيحة ومحاربة البدع ، وقد كان فى العقيدة والفروع متبعاً للإمام أحمد والمحدثين والسلف ، قال ابن رجب : « كان متمسكاً فى مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسننة ، مبالغاً فى الرد على من خالفها »<sup>(٢)</sup> .

وقد كان قوى الاشتغال بالتدريس ، عالماً متفنناً . قالوا : كان يتكلم فى ثلاثة عشر علماً ، وكانوا يقرأون عليه فى مدرسته درساً من التفسير ، ودرساً من الحديث والمذهب والخلاف ، وكانوا يقرأون عليه طرفى النهار التفسير وعلوم الحديث ، والمذهب والخلاف ، والأصول ، والنحو . وكان رضى الله عنه يقرأ القرآن بالقراءات بعد الظهر ، وكان يفتى على مذهب الامام الشافعى والامام أحمد بن حنبل رضى الله عنهما ، وكانت فتواه تعرض على العلماء بالعراق ، فتعجبهم أشد الاعجاب<sup>(٣)</sup> ؛ رفع إليه سؤال فى رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لا بد أن يعبد الله عز وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس فى وقت تلبسه بها ، فماذا يفعل من العبادات ؟ فأجاب على الفور : « يأتى مكة ، ويخلى له المطاف . ويطوف سبعا وحده ، وينحل يمينه<sup>(٤)</sup> فأعجب علماء العراق ، وكانوا قد عجزوا عن الجواب عنها »<sup>(٥)</sup> .

الاستقامة والتحقيق :

وقد اتجه التصوف فى القرن الخامس اتجاهاً فيه الاستقلال الذى قد ينتهى إلى الانفصال

(١) الفتح الربانى ، المجلس السادس .

(٢) طبقات الحنابلة .

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ص ١٢٦ .

(٤) يعنى سبعة أشراط .

(٥) الطبقات الكبرى ص ١٢٧ .



عن الشريعة ، وأصبح - أو كاد يصبح - مؤسسة أو مدرسة قائمة بنفسها ، لا تتصل بالشريعة إلا اتصالاً شكلياً . وشاعت شطحات الصوفية ، ودعاوى الوصول إلى الحقيقة والنهاية التي تسقط فيها الفرائض والتكاليف الشرعية ، وشهت نزعة « وحدة الوجود » ، وبدأت الفوضى في بعض زوايا الصوفية ؛ فكان الشيخ عبد القادر من أكبر المعارضين لهذا الاتجاه الثائر ، ومن أكبر الدعاة إلى إخضاع « الطريقة » للشريعة ، والتمسك بالكتاب والسنة وتحكيمهما في جميع الأحوال والأقوال والأعمال . وقد استطاع بقوة شخصيته وبإخلاصه وعلمه القوي ، أن يمنع هذا الاتجاه الخطير ، ويرجع بالتصوف إلى ما كان عليه في العصر الأول . قال الشعراني : « كانت طريقته التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً ، وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً » وكان رضى الله عنه يقول لأصحابه : « اتبعوا ولا تبتدعوا ، وأطيعوا ولا تخالفوا ! »<sup>(١)</sup> ومن قوله رحمه الله : « إن انخرم فيك شيء من الحدود فاعلم أنك مفتون ، قد لعب بك الشيطان ؛ فارجع إلى حكم الشرع والزمه ، ودع عنك الهوى ؛ لأن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي باطلة »<sup>(٢)</sup> ويقول حاثاً على التمسك بالكتاب والسنة والتزام اتباع الرسول ﷺ :

« كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة ، طر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة ؛ أدخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ ؛ اجعله وزيرك ومعلمك ؛ دع يده تزينك وتمشطك وتعرضك عليه ؛ »<sup>(٣)</sup> .

ويقول منكرأ على من يعتقد أن التكاليف الشرعية تسقط عن السالك في حال من الأحوال : « ترك العبادات المفروضات زندقة ، وارتكاب المحظورات معصية ؛ لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال »<sup>(٤)</sup> .

وقد كان جبلاً راسياً في الاستقامة على الشريعة ، وقد وصل بكمال اتباعه وعلمه الراسخ ، وتأييد الله سبحانه وتعالى ، حيث صار يمين بين الحق والباطل ، والنور والظلمة ، والموارد الالهية والطوارق الشيطانية . وقد كان أشد الناس إيماناً - كما قدمنا - بأن الاحكام الشرعية لا تتبدل ، ولا ناسخ لها بعد الرسول ﷺ . وإن من ادعى نسخها أو

(١) الطبقات الكبرى ص ١٢٩ .

(٢) أيضاً ص ١٣١ .

(٣) الفتح الربانى المجلس الرابع والأربعون .

(٤) الفتح الربانى المجلس الحادى عشر .

تعطيلها فقد كفر وكان مطية الشيطان ، وقد عرضت له محن ثبت فيها ؛ لعلمه الراسخ وبصيرته النافذة ، يقول :

ترأى لى نور عظيم ملاً الأفق ، ثم تدلى فيه صورة تنادىنى : يا عبد القادر ؛ أنا ربك ؛ وقد حللت لك المحرمات ، فقلت : احسأ يا لعين ؛ فإذا ذلك النور ظلام ، وتلك الصورة دخان ، ثم خاطبنى : يا عبد القادر ؛ نجوت منى بعلمك بأمر ربك وفقهك فى أحوال منازلتك ، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق ، فقلت لله الفضل ، فقيل له : كيف علمت أنه شيطان ؟ قال : بقوله قد حللت لك المحرمات» (١) .

التفويض والتوحيد : كانت قدمه رحمه الله على التفويض والموافقة مع التبرى من الحول والقوة . كان الشيخ عدى بن مسافر (٢) يقول : « كان الشيخ عبد القادر رضى الله عنه طريقته الذبول ، تحت مجارى الاقدار بموافقة القلب والروح » .

وقد جاهد فى ذلك نفسه مجاهدة شديدة ، يقول فى مقالة : « جاهدت نفسى فى ترك الاختيار والإرادة ؛ حتى حصل لى ذلك ؛ فصار القدر يقودنى ، والمنة تنصرنى ، والفعل يحركنى والغيرة تعصمنى ، والإرادة تطيعنى ، والسابقة تقدمنى . والله عز وجل يرفعنى» (٣) .

وقد تجلّى هذا الذوق وهذا الاتجاه فى كلامه واضحاً قوياً ، وقد وصف رجلاً تجرد عن إرادته واختياره ، واستسلم للقضاء ، وإرادة الله سبحانه وتعالى ، - وإنما يعنى نفسه - يقول رحمه الله « إذا ابتلى العبد ببلىة تحرك أولاً فى نفسه بنفسه ؛ فإن لم يتخلص منها ، استعان بغيره من الخلق : كالسلاطين ، وأرباب المناصب ، وأبناء الدنيا ، وأصحاب الأموال ، وأهل الطب فى الأمراض والأوجاع ؛ فإن لم يجد فى ذلك خلاصه ، رجع حينئذ إلى ربه بالدعاء والتضرع والثناء ، فما دام يجد عند نفسه نصرة ، استطرح بين يديه مديماً للسؤال والدعاء والتضرع والثناء ، والافتقار مع الخوف منه والرجاء ، ثم يعجزه الخالق عز وجل عن الدعاء ولم يجبه ؛ حتى ينقطع عن جميع الاسباب ، فحينئذ ينفذ فيه القدر ، ويفعل الفعل ، فيفنى العبد عن جميع الاسباب والحركات ؛ فيبقى روحاً فقط ؛ فلا يرى إلا فعل الحق عز وجل ، فيصير موقناً موحداً ضرورة ، ويقطع أن لا فاعل على

(١) الطبقات الكبرى ص ١٢٧ .

(٢) الطبقات الكبرى ص ١٢٧ .

(٣) الفتح الربانى المجلس الثالث والأربعون .

الحقيقة إلا الله ، ولا محرك ولا مسكن إلا الله ، ولا خير ولا شر ، ولا ضرر ولا نفع ، ولا عطاء ولا منع ، ولا فتح ولا غلق ، ولا موت ولا حياة ، ولا عز ولا ذل ، ولا غنى ولا فقر إلا بيد الله ؛ فيصير حينئذ كالطفل الرضيع فى يد الظئر ، والميت الغسيل فى يد الغاسل ، والكرة فى صولجان الفارس يقلب ويغير ويبدل ويكون ، ولا حراك به فى نفسه ولا فى غيره ، هو غائب عن نفسه فى فعل مولاه ؛ فلا يرى غير مولاه وفعله ولا يرى سواه ، ولا يسمع ولا يعقل من غيره ؛ إن أبصر فلصنعه أبصر ، وإن سمع وعلم فللكلامه سمع ، ولعلمه علم ، وبنعمته تنعم ، وبقربه سهد ، وبتقربه تزين وتشرف ، وبوعده طاب وسكن ، وبه اطمأن وبحديثه أنس ، وعن غيره استوحش ونفر والى ذكره التجأ وركن ، وبه عز وجل وثق ، وعليه توكل ، وبنور معرفته اهتدى وتقمص ، وتسربل<sup>(١)</sup> .

### ويقول فى مقالة أخرى :

« العبد إذا عرف الله عز وجل سقط الخلق من قلبه ، وتناثروا عنه كما يتناثر الورق اليابس من الشجر ؛ فيبقى بلا خلق فى الجملة . يعمى عن رؤيتهم ، ويصم عن سماع كلامهم من حيث قلبه وسره »<sup>(٢)</sup> .

شفقته على الخلق : وقد كان - رحمة الله عليه - عطوفاً ، شفيقاً ، رفيقاً بالأمة المحمدية وعامة الناس ، دائم الدعوة والدعاء لهم ، يرق قلبه ، ويرثى لضعفائهم والمشتغلين بما لا ينفعهم فى الآخرة ، ناصحاً لكل طبقة ، محباً للخير لها ، يحرص على اسعادها وأخراجها من الظلمات إلى النور ، يقول مخاطباً لمستمعيه :

« يا خلق الله ؟ ؛ إنى أطلب صلاحكم ومنفعتكم فى الجملة أتمنى غلق أبواب النار وعدمها بالكلية ، وأن لا يدخلها أحد من خلق الله عز وجل ، وفتح أبواب الجنة ، وأن لا يمنع من دخولها أحد من خلق الله عز وجل ، وإنما تمنيت هذه الامنية لاطلاعى على رحمة الله عز وجل وشفقته على خلقه ، قعودى لمصالح قلوبكم بتهديبها ، لا لتغيير الكلام وتهديبه ، لا تهربوا من خشونة كلامى ، فما ربانى إلا الخشن فى دين الله عز وجل ، كلامى خشن ، وطعامى خشن ، فمن هرب منى ومن أمثالى لا يفلح »<sup>(٣)</sup> .

ويقول فى مناسبة أخرى ، وهو يصف الدعاء إلى الله ، والعلماء الربانيين ، ورحمتهم

(١) فتوح الغيب المقالة الثالثة .

(٢) الفتح الربانى ، المجلس السادس والخمسون .

(٣) الفتح الربانى ، المجلس التاسع والأربعون .

بخلق الله ، وحرصهم على خلاصهم وسعادتهم :

« كيف لا يرحمون العصاة وهم موضع الرحمة ، مقام التوبة والاعتذار ، العارف خلقه من اخلاق الحق عز وجل ، فهو يجتهد في تخليص العاصي من يد الشيطان والنفس والهوى ، إذا رأى أحدكم ولده أسيراً في يد كافر ، أليس يجتهد في تخليصه ، فهكذا العارف ، الخلق جميعهم كالأولاد » (١).

ويحكى - رحمه الله - حال من خصه الله بهذه الشفقة العامة والنصح الدائم ويدخل في سوق ، وانما يصف نفسه الكريمة :

« منهم من إذا دخل السوق ، امتلأ قلبه بالله لاهله ، فتشغل الرحمة لهم عن النظر إلى ما لهم بين أيديهم ، فهو من حين دخوله إلى حين خروجه في دعاء واستغفار ، وشفاعة لأهله ، وشفقة ورحمة ، فقلبه محترق عليهم ولهم ، وعينه مغروقة لأجلهم ، ولسانه في ثناء وحمد لله عز وجل بما أولى الكافة من نعمه وفضله » (٢).

دعوته للاسلام : أن وجود الشيخ عبد القادر الجيلاني في قوة ايمانه ، وقوة عمله ، وقوة دعوته ، وسمو سيرته واخلاقه ، وزهده في الدنيا في عصر المادية وعصر الغفلة والانحطاط ، كان دليلاً على خلود الاسلام وصلاحيته للبقاء ، وصلاحيته للانتاج ، وعلى أن شجرته لم تنقطع - ولن تنقطع - عن الاثمار والازدهار ، فإذا كان الاسلام دين عقيدة وايمان ، وعمل وجهاد ، ودعوة واصلاح - وهو كذلك - فلا بد أن يظهر في مختلف أعصاره وأمصاره رجال عبقريون ، أقوياء في ايمانهم ، أقوياء في عملهم ، أقوياء في دعوتهم يمثلون سيرة الانبياء وخلفائهم بالحق في عصرهم ، وكان وجوده ووجود من تخرج على يديه ، وتنشأ في تربيته - من أهل الصلاح والتقوى ، والصدق والاخلاص ، والزهد والقناعة ، والاخلاق والفضائل - دعوة إلى الاسلام ، ودليلاً على صدقه وفضله وحياته وتأثيره ، ومقدرته ، على انتاج الربانيين في كل عصر ، وعلى أن معينه لا ينضب ؛ لذلك كان سبباً لدخول عدد كبير من اليهود والنصارى وغير المسلمين في الإسلام ، واقبال عدد كبير هائل من المسلمين في الاسلام ، واصلاح الحال ، والاقلاع عن المعاصي والمحارم ، وحياة الغفلة واللهم .

(١) أيضاً المجلس الثالث والخمسون .

(٢) فتوح الغيب المقالة الثانية والسبعون .

## وفاته :

وظل الشيخ مثابراً على دعوته وجهاده وتربيته للنفوس ، حتى وافاه الأجل المحتوم سنة ٥٦١ هـ ، وقد جاوز التسعين ، وقد وصف ولده ، شرف الدين عيسى ، مرضه الذى مات فيه ، وكيف فارق الدنيا وانتقل إلى رحمة ربه ، .

« لما مرض مرضه الذى مات فيه قال له ابنه عبد الوهاب : أوصنى يا سيدى بما أعمل به بعدك ! فقال :

« عليك بتقوى الله عز وجل ؛ ولا تخف أحداً سوى الله ؛ ولا تُرج أحداً سوى الله ؛ وكل الحوائج إلى الله عز وجل ؛ ولا تعتمد إلا عليه ؛ واطلبها جميعها منه ؛ ولا تثق بأحد غير الله عز وجل ؛ التوحيد التوحيد جماع الكل .

وقال : إذا صح القلب مع الله عز وجل لا يخلو منه شيء ، ولا يخرج منه شيء .

وقال : أنا لب بلا قشور .

وقال لأولاده : ابعدوا من حولى ، فإنى معكم بالظاهر ، ومع غيركم بالباطن .

وقال : قد حضر عندى غيركم فأوسعوا لهم ، وتأدبوا معهم ؛ ههنا رحمة عظيمة ؛ ولا تضيقوا عليهم المكان .

وكان يقول : « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ غفر الله لى ولكم ؛ وتاب الله على وعليكم ؛ بسم الله ، غير مودعين » قال ذلك يوماً وليلة .

وقال : « ويلكم ؛ أنا لا أبالى بشيء ، ولا بملك الموت ، يا ملك الموت ؛ منح لنا من يتولانا سواك » وصاح صيحة عظيمة ، وذلك فى اليوم الذى مات فى عشيته .

وأخبرنى ولده عبد الرزاق ، وموسى ، أنه كان يرفع يديه ويمدها ويقول : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، توبوا وادخلوا فى الصف ؛ هو إذا أجيء اليكم .

وكان يقول : ارفقوا ؛ ثم أتاه الحق وسكرة الموت .

وقال - رضى الله عنه وأرضاه - : « بينى وبينكم وبين الخلق كلهم بعد ما بين السماء والأرض ، فلا تقيسونى بأحد ، ولا تقيسوا على أحداً » ثم سأله ولده ، عبد العزيز ، عن أله وحاله ، فقال : لا يسألنى أحد عن شيء ؛ ها أنا أتقلب فى علم الله عز وجل .

وقد سأله ولده عن مرضه ، فقال له « أن مرضى لا يعلمه أحد ولا يعقله أحد :

انسى ، ولا جنى ، ولا ملك وما ينقض علم الله بحكم الله ، الحكم يتغير والعلم لا يتغير ،  
الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ ، يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ولا يسأل عما  
يفعله وهم يسألون ، أخبار الصفات تمر كما جاءت .

وسأله ولده عبد الجبار : ماذا يؤلمك من جسدك ؟ فقال : « جميع أعضائي تؤلمنى إلا  
قلبي فما به ألم ، وهو صحيح مع الله عز وجل ، ثم أتاه الموت ، فكان يقول :  
« استمعت بلا إله إلا الله سبحانه وتعالى ؛ وهو الحي الذي لا يموت ، ولا يخشى  
الموت ، سبحانه من تعزز بالقدرة وقهر العباد بالموت ؛ لا إله إلا الله ، محمد رسول الله »  
ثم خرجت روحه الكريمة رضى الله عنه وأرضاه<sup>(١)</sup> .

---

(١) آخر كتاب « فتوح الغيب » .

# الإمام عبد القادر الجيلاني

## دَعْوَتُهُ ، إِصْلَاحُهُ وَقَضْلُهُ وَقَضْلَانُهُ

### فِي نَجْدِيدِ الْإِيمَانِ وَالِدَعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ

عصره :

قضى الشيخ عبد القادر الجيلاني ثلاثا وسبعين سنة في بغداد وعاصر خمسة من الخلفاء العباسيين .

دخل بغداد ، والخليفة المستظهر بأمر الله ، أبو العباس ( م ٥١٢ هـ ) ، وجاء بعده المسترشد ، والراشد ، والمقتفى لأمر الله ، والمستنجد بالله .

وكان هذا العصر الذى عاش فيه الشيخ مليئا بالحوادث الجسام ، وكانت بغداد مركزها ، وكان الصراع قائما بين الخلفاء والسلاطين من آل سلجوق ، الذين كانوا حريصين على بسط نفوذهم وسيطرتهم على الدولة العباسية ونيابة الخليفة ، برضى من الخليفة وموافقة منه مرة ، وبإبائه وكراهية منه أخرى ، وقد تقع معركة بين جيش الخليفة وجيش السلطان ، ويتقاتل المسلمون .

وقع ذلك مرارا في عهد المسترشد ، وهو أقوى الخلفاء في أواخر العصر العباسي وأحسنهم<sup>(١)</sup> ، وكان هو المنتصر في أكثر الوقائع ، والتقى جيش الخليفة وجيش السلطان «مسعود» في عاشر رمضان ٥١٩ هـ ، وانهزم الخليفة في هذه المرة انهزاما شنيعا .

قال ابن كثير : « وانتصر جيش السلطان ، وأسر الخليفة ، ونهبت أموال البغداديين وحوصلهم ، وطار الخبر في الأقاليم بذلك ، وحين بلغ الخبر إلى بغداد ، انجزع الناس لذلك ، وزلزلوا زلزالا شديدا ، صورة ومعنى ، وجاءت العامة إلى المنابر فكسروها وامتنعوا عن حضور الجماعات ، وخرج النساء في البلد حاسرات ينحن على الخليفة ، وما جرى عليه من الأسر ، وتأسى بأهل بغداد في ذلك كثير من أهل البلاد ، ونمت فتنة كبيرة

---

(١) قال ابن كثير : كان المسترشد شجاعا مقداما بعيد الهمة فصيحاً بليغاً عذب الكلام ، حسن الايراد ، مليح الخط ، كثير العبادة ، محببا إلى العامة والخاصة ، وهو آخر خليفة رؤى خطيبا ، قتل وعمره خمس وأربعون سنة وثلاثة أشهر ، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وعشرين يوما ( البداية والنهاية ) ج ١٢ ص ٢٢٠٨ .

وانتشرت في الأقاليم ، واستمر الحال على ذلك شهر ذي القعدة ، والشناعة في الأقاليم منتشرة ؛ فكتب ملك سنجر إلى ابن أخيه يحذره - غب ذلك - عاقبة ما وقع فيه من الأمر العظيم ، ويأمره أن يعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته فامتثل الملك مسعود لذلك ثم أن الخليفة قتله الباطنية في طريقه إلى بغداد .

شاهد الشيخ عبد القادر هذه الحوادث الأليمة ، ورأى ما أصيب به المسلمون من تشتت وافتراق وتناحر ، وما استولى عليهم من حب الدنيا ، والتقاتل على الملك والجاه والسلطان ، وانصراف الناس إلى المادة والمناصب والولايات ، والتفافهم حول الملوك والأمراء وتقديسهم لهم ، عاش الشيخ متصلا بكل ذلك بشعوره وألمه ، بعيدا عن كل ذلك بقلبه وجسمه ، وانصرف بكل همته وقوته وإخلاصه إلى الوعظ والارشاد ، والدعوة ، والتربية وإصلاح نفوس المسلمين ، وتركيتها ، ومحاربة النفاق والشغف بالدنيا ، والتكالب على حطامها ومناصبها ، وإثارة الشعور الإيماني ، وتقوية عقيدة الآخرة ، والتجافي عن دار الغرور ، والانابة إلى دار الخلود ، وتهذيب الأخلاق ، والدعوة إلى التوحيد والإخلاص لله تعالى .

وقد كانت مواعظه وخطبه مطابقة لعصره وأهل عصره ، تتناول شؤونهم وما هم فيه من علل وأسقام ، تطب قلوبهم ، وتداوى أمراضهم ، وترد على ضلالتهم وكانت تضرب دائما على الوتر الحساس ، وتمس قلوبهم ، وتجمع هذه المواعظ بين صولة الملوك ورقعة الدعاء ، وبين زجر الآباء ورفق الأطباء .

### التوحيد الخالص والاستخفاف بغير الله :

كنت بغداد عاصمة الامبراطورية العباسية ، وقد تعلقت بها قلوب أهل البلاد وقلوب الناس ، الذين يسكنون في أنحاء المملكة الاسلامية الكبرى ، وأصبح قصر الخليفة وقصور الوزراء مناط الآمال ومحط الرحال ، وتعلق الناس بالأسباب والوسائط - من التدابير والشفاعات والأشخاص - تعلقا شديدا ، يعتقدون فيها النفع والضرر ، وأصبحت الأسباب أربابا من دون الله . وأصبح كثير من الناس يعتقدون أن أمراء الدولة وعمالها يملكون أرزاق الناس وحظوظهم ونفوسهم ؛ يسعدون ويشقون ، ويعطون ويمنعون . وينصبون ويعزلون ، بأيديهم القضاء والقدر ، والنفع والضرر ؛ فانصرفت اليهم همم الناس ، وتسابقوا إلى أرضائهم والتزلف اليهم . وهكذا نشأت « وثنية » في عاصمة الاسلام ، أصنامها الأمراء والموظفون ، وهيكلها دور الحكومة ، واتجه الناس من عبادة الله وحده والتوكل عليه والسؤال منه ، إلى الالتجاء إلى الخلق ، والاعتماد عليهم ، واستعطافهم وتملقهم .



وصدع الشيخ بالتوحيد وتحقير الخلق من الملوك والوزراء والأمراء والأغنياء ، وبيان ضعفهم وعجزهم ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ، ويصور عجزهم وضعفهم تصويرا بليغا دقيقا ، ويضرب لذلك الأمثال . يقول فى حديث :

« اجعل الخليفة أجمع كرجل كتفه سلطان عظيم ملكه ، شديد أمره ، مهولة صولته وسطوته ، ثم جعل الغل فى رقبة مع رجليه ، ثم صلبه على شجرة الأرز على شاطئ نهر وترك إلى جنبه أحمالا من السهام والرماح والنبال وأنواع السلاح والقسى مما لا يبلغ قدرها غيره ؛ فجعل يرمى إلى المصلوب بما شاء من ذلك السلاح ، فهل يحسن لمن رأى ذلك أن يترك النظر إلى السلطان ، ويترك الخوف منه والرجاء له ، ويخاف من المصلوب ويرجر منه؟ أليس من فعل يسمى فى قضية العقل عديم العقل ومجنونا ، بهيمة غير انسان »<sup>(١)</sup> .

وإذا كان هذا شأن الخليفة كلها ، وإذا كان هذا عجزها وضعفها وخستها ونذالتها ، فلماذا يستغيث بها انسان ، ويلتجئ إليها فى ملمة أو حاجة ؟  
وهنا يحث الشيخ السامعين على الاقبال إلى الله وحده ، والالتجاء إليه ، فى أسلوب خطابى قوى بليغ :

« انظر إلى من ينظر اليك ! وأقبل إلى من أقبل عليك ! وأحب من يحبك ! واستجب من يدعوك إليه ! وأعط يدك من يثبتك من سقطتك ، ويخرجك من ظلمات جهلك ، وينجيك من هلكتك ، ويغسلك من أنجاسك ، وينظفك من أوساخك ، ويخلصك من جيفتك وبتنتك ، ومن هممك الردية ، ونفسك الأمارة بالسوء ؛ واقرانك الضالين المضلين ؛ شيطينك وهواك وأخلائك الجهال ، قطاع طريق الحق عز وجل ، الحائلين بينك وبين كل نفيس وثمان وعزيز ! إلى متى العادة ؟ إلى متى الخلق ؟ إلى متى الهوى ؟ إلى متى الرعونة ؟ إلى متى الدنيا ؟ إلى متى الأخرى ؟ إلى متى متى ما سوى المولى ؟ أين أنت من خالق الأشياء ، المكون للأكوان ؟ الأول ؛ والآخر ؛ والظاهر والباطن ؛ المرجع والمصدر إليه ، وله القلوب ، طمأنينة الأرواح ، ومحط الأثقال ، والعطاء بلا امتنان »<sup>(٢)</sup> .

ويذكر نفاذ القضاء والقدر ، وأن ارادة الله هى الغلبة القاهرة ، المتصرفه فى الخلق ، ويذكر درجات الموحدين ، وطبقاتهم فى التوحيد ، والخضوع للمشيئة الالهية وفعله تعالى :

(١) فتوح الغيب ، المقالة السابعة عشرة .

(٢) فتوح الغيب ، المقالة الثانية والستون .

« الخلق عجزة لا يفسرونك ولا ينفعونك ، إنما الحق عز وجل يجرى ذلك على أيديهم ، فعله يتصرف فيك وفيهم ، جرى القلم في علم الله عز وجل بما هو لك وعليك . الموحدون الصالحون حجة الله على بقية الخلق . منهم من يتعرى عنها من حيث باطنه فحسب لا يرى الحق عز وجل على بواطنهم منها شيئا ، تلك القلوب الصافية ! من قدر على هذا فقد أعطى الملك من الخلق ، هو الشجاع البطل . الشجاع من طهر قلبه مما سوى الله عز وجل ، ووقف على بابه بسيف التوحيد وصمصامته الشرع لا يخلى شيئا من المخلوقات يدخل إليه ، يجمع قلبه بمقلب القلوب . الشرع يهذب الظاهر ، والتوحيد والمعرفة يهذبان الباطن » (١) .

لم يقتصر الشيخ على أوثان الجاهلية وآلهتها ، وعلى عباد الأصنام ومشركي الملل في عصره ؛ بل تعدى ذلك إلى الآلهة الجديدة التي حلت في النفوس محل الآلهة القديمة ، وقامت لها دولة في قلب بلاد الإسلام ، وهي « المال » و« الثروة » و« القوة » و« السلطان » و« الحيل والحرف » و« الأسباب والرسائل » وحارب هذه الآلهة حربا لا هوادة فيها ولا رفق ، يقول في مجلس :

« أنت معتمد عليك ، وعلى الخلق ، ودنانيرك ودراهمك ، وعلى بيعك وشرائك ، وعلى سلطان بلدك ، كل من اعتمدت عليه فهو الهك ، وكل من خفته ورجوته فهو الهك ، كل من رأته في الضر والنفع ، ولم تر أن الحق عز وجل يجرى ذلك على يديه فهو الهك » (٢) .

ويقول في مقالة أخرى :

« يا موتى القلوب ! يا مشركين بالاسباب ! يا عابدين أصنام حولهم وقواهم ، ومعائشهم ورؤوس أموالهم ، وسلاطين بلادهم وجهاتهم التي يتمون اليها ! أنهم محجوبون عن الله عز وجل . كل من يرى الضر والنفع من غير الله عز وجل ، فليس يعبد له ، هو عبد من رأى ذلك منه » (٣) .

ويقول في مقالة أخرى :

« يا معرضا عن الحق عز وجل وعن الصديقين من عباده ، مقبلا على الخلق مشركا

(١) الفتح الرباني ، المجلد الثالث عشر .

(٢) الفتح الرباني ، المجلس العشرون .

(٣) الفتح الرباني ، المجلس الثالث والعشرون .

بهم ، إلى متى اقبالك عليهم ؟ ايش ينفعونك ؟ ليس بأيديهم ضرر ولا نفع ، ولا عطاء ، ولا منع ، لا فرق بينهم وبين سائر الجماعات فيما يرجع إلى الضر والنفع ، الملك واحد ، الضار واحد ، النافع واحد ، المحرك والمسكن واحد المسلط واحد ، المسخر واحد ، المعطى والمانع واحد ، الخالق والرازق هو الله عز وجل « (١) .

العالم الربانى ، وداعية الحق ، طبيب يأتيه المرضى من كل نوع فيداويهم ويحسم فيهم مادة الداء ، ويريهم طريق الشفاء ، ويتوجه بهم إلى الله تعالى .

وكان مما يأتيه ويحضر مجالسه ، رجال تعلقت قلوبهم بغير الله ، ثم حيل بينهم وبينه ، فهم فى قلق وحسرة ، ويسليهم الشيخ ويذكر الحكمة فى ذلك ، ويشرح غيرة الله سبحانه وتعالى ، وحرصه على أن يكون عبده خالصا له ، لا ينازع حبه حب ، ولا يزاحم حقه حق .

« ما أكثر ما تقول : كل من أحبه لا تدوم صحبتى له ، فيحال بيننا ، أما بالغيبة ، أو الموت ، أو العداوة وأنواع الأهوال بالتلف ، والفوات من اليد فيقال لك : أما تعلم يا محبوب الحق ، المعنى به ، المنظور اليه ، المغار له وعليه ، ألم تعلم أن الله غيور ، خلقك له وتريد أن تكون لغيره ؟ !

أما سمعت قوله عز وجل : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ ؟

أما سمعت قول الرسول ﷺ « إذا أحب الله عبدا ، ابتلاه ، فان صبر ، اقتناه ، قيل يا رسول الله : وما اقتناه ؟ قال لم يذر له مالا ولا ولدا » وذلك : لأنه إذا كان له مال وولد أحبهما ، فتشعبت محبته لربه عز وجل ، فتنتقص وتتجزأ ؛ فتصير مشتركة بين الله وبين غيره ؛ والله تعالى لا يقبل الشريك ، وهو غيور قاهر فوق كل شئ ، غالب لكل شئ ؛ فيهلك شريكه ويعدمه ؛ ليخلص قلب عبده له من غير شريك ، فيتحقق حينئذ قوله تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ ، حتى اذا تنظف القلب من الشركاء والانداد من الأهل والمال والولد ، واللذات والشهوات ، وطلب الولايات والرياسات والكرامات والحالات ، والمنازل والمقامات ، والجنات والدرجات ، والقربات والزلفات ؛ فلا يبقى للقلب ارادة ولا أمنية ، كالاناء المثلم الذى لا يضبط فيه مائع ؛ فلا يضبط فيه ارادة شئ من الأشياء ؛ لأنه انكسر بفعل الله عز وجل ، كلما نجمت فيه ارادة كسرهما فعل الله عز وجل وغيرته ،

(١) الفتح الربانى ، المجلس الثالث عشر .

فضربت حوله حينئذ سرادقات العظمة والجبروت والهيبة ، وحفرت من دونه خنادق الكبرياء والسطوة ؛ فلم يخلص إلى القلب ارادة شئ من الأشياء ، فحينئذ لا يضر القلب الاسباب من الولد والأهل والأصحاب والكرامات ، والحكم والعبادات ؛ فان جميع ذلك يكون خارج القلب ؛ فلا يغار الله عز وجل ؛ بل يكون جميع ذلك كرامة من الله لعبده ؛ ولطفًا به ونعمة ورزقا ومنفعة للواردين اليه <sup>(١)</sup> .

### مكانة الدنيا في نظر الشيخ :

لم يكن الشيخ عبد القادر من دعاة « الرهبانية » أنه لا يرى بأسًا بالتمتع المباح بالدنيا وأسبابها ، واستعمال خيراتها وطيباتها ؛ ولكنه يعارض العكوف على لذاتها وشهواتها بنهم وتقديس ، وتعلق القلب والشغف بها ، أنه يؤمن بقول النبي ﷺ : « ان الدنيا خلقت لكم ، وانكم خلقتم الآخرة » فيعاملها الانسان معاملة سيد مطاع ، لا عبد مطيع .

ويقول في بلاغة وايجاز :

« لا تأكل قسمك من الدنيا وهي قاعدة ، وأنت قائم ؛ بل كلها على باب الملك وأنت قاعد ، وهي قائمة ، والطبق على رأسها ، تخدم من هو واقف على باب الحق عز وجل ، وتذل من هو واقف على بابها ، كل منها على قدم الغنى والعز بالحق عز وجل » <sup>(٢)</sup> .

أنه لا يعارض أن يملك أحد الدنيا ؛ إنما يعارض أن تملكه الدنيا وتستحوذ على قلبه ، يقول في مجلس :

« وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها ، يملكها ولا تملكه ، تحبه ولا يحبها ، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها ، يستخدمها ولا تستخدمه ، يفرقها ولا تفرقه ، قد صلح قلبه لله عز وجل ، ولا تقدر الدنيا أن تفسده ، فيتصرف فيها ، ولا تتصرف فيه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » <sup>(٣)</sup> .

أنه لا يعارض وجودها في بيت أو صندوق ، إنما يعارض وجودها في سويداء القلب وأعماق النفس يقول في محل آخر : « ويحك ! الدنيا في اليد يجوز ، في الجيب يجوز ، ادخارها لسبب وبنية صالحة يجوز . أما في القلب فلا يجوز ، وقوفها على الباب يجوز ،

(١) فتوح الغيب : المقالة الثانية والثلاثون .

(٢) الفتح الرباني : المجلس الواحد والعشرون .

(٣) الفتح الرباني ، المجلس الرابع والثلاثون .

أما دخولها إلى وراء الباب ، فلا ! ولا كرامة لك «<sup>(١)</sup> .

إنه يذم حياة العطلة والبطالة ، وأن يعيش الانسان عيالا على غيره ، متوكلا عليهم ، يقول فى مجلس ، حاثا على الاشتغال وكسب الحلال :

« اعبدوا الله عز وجل ، واستعينوا على عبادته بكسب الحلال ! ان الله عز وجل يحب عبدا مؤمنا مطيعا ، أكلا من حلاله يحب من يأكل ويعمل ، ويبغض من يأكل ولا يعمل ، يحب من يأكل بكسبه ، ويبغض من يأكل بنفاقه وتوكله على الخلق «<sup>(٢)</sup> .

**نقده للخلفاء والأمراء فى عصره :**

ولم يكن الشيخ يقتصر على وعظ العامة ودعوتهم ؛ إنما كان صداعا بالحق صريحا قويا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يتناول الخليفة والملوك والأمراء بالنقد والملامة ، ويذم ظلمهم ؛ ولا يحابى فى ذلك أحدا ، ولا تمنعه منه وجاهة أو سلطان .

قال ابن كثير : « كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للخلفاء والوزراء والسلاطين والقضاة والخاصة والعامة ، يصدعهم بذلك على رؤوس الأشهاد رؤوس المنابر وفى المحافل . وينكر على من يولى الظلمة ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم » .

ويقول صاحب قلائد الجواهر : « ولما ولى المقتضى لأمر الله أمير المؤمنين للقاضى أبى الرفاء ، يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر ، المشهور بابن المرحم المظالم ، قال على المنبر « وليت على المسلمين أظلم الظالمين ، ما جوابك غدا عند رب العالمين أرحم الراحمين ؟ » فارتعد الخليفة وبكى ، وعزل القاضى المذكور لوقته «<sup>(٣)</sup> .

**انكاره على علماء السوء :**

وكان ينكر على « علماء » البلاط و « العلماء الرسميين » الذين التزموا صحبة الملوك والأمراء ، وأصبحوا ندماءهم ورجال حاشيتهم ، يوافقونهم على كل ما يراه هؤلاء الملوك وينفذونه من أحكام جائرة ، ويخضعون لهم الشريعة ونصوصها ، ويؤولون لهم أحكام الشرع ، وقد تجرأ بهم هؤلاء على المعاصى والأهواء وتنفيذ الأحكام الجائرة ، قد كان الشيخ يشنع عليهم ويغلظ لهم القول يقول فى مجلس مخاطبا لهؤلاء العلماء :

(١) أيضا ، المجلس الواحد والخمسون .

(٢) أيضا ، المجلس السادس والأربعون .

(٣) قلائد الجواهر ص ٨ .

« أين أنتم وهم ؟ ( يعنى علماء الآخرة ) يا خونة فى العلم والعمل ، يا أعداء رسول الله ! يا قاطعى عباد الله عز وجل ! أنتم فى ظلم ظاهر ، ونفاق ظاهر ، هذا النفاق إلى متى ؟ يا علماء ! يا زهاد ! كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها ؟ أنتم وأكثر الملوك فى هذا الزمن ظلمة وخونة فى مال الله عز وجل فى عباده ، اللهم اكسر شوكة المنافقين واخذلهم ! أو تب عليهم واقمع الظلمة ، وطهر الأرض منهم أو أصلحهم ، آمين<sup>(١)</sup> !

ويقول مخاطبا لفرد من أفراد هذه الطبقة :

« اما تستحى ! فقد حملك حرصك على انك تخدم الظلمة وتأكل الحرام ، إلى متى تأكل وتخدم الملوك الذين تخدمهم ؟ يزول ملكهم عن قريب وتتولى خدمة الحق عز وجل الذى لا يزول »<sup>(٢)</sup> .

والظاهر أنه لا يجرؤ على هذا الكلام الصريح القوى الا الصديقون الذين أخلصت قلوبهم لله تعالى ، وزال عنها الطمع والخوف من غير الله ، وأصبح غير الله - من أصحاب الحول والطول - مخلوقا خسيسا لا قيمة له .

وقد قال فى مجلس له :

« انى أقول لكم الحق ، ولا أخاف منكم ولا أرجوكم ، أنتم وأهل الأرض عندى كالبق وكالذر ؛ لأنى أرى الضر والنفع من الله عز وجل - لا منكم - الممالك والملوك عندى سواء »<sup>(٣)</sup> .

### ذم المنافقين :

ويشنع فى قوة وشجاعة على المنافقين الذين كثروا فى المجتمع الاسلامى ، الذين عكفوا على شهواتهم ، ونبذوا الدين وتكاليفه وراء ظهورهم ، واستغلوا اسم الاسلام والانتساب اليه للتمتع بالحقوق التى يخولها الاسلام من غير قيام بحقوقه ، ومعرفة لفضله ، وخضوع لشريعته . يقول فى مجلس :

« يا منافقون ! حسبتم أن الدين سمر ، أن الأمر سدى ، لا كرامة لكم ولا

(١) الفتح الربانى ، المجلس الواحد والخمسون .

(٢) الفتح الربانى ، المجلس الثانى والخمسون .

(٣) الفتح الربانى ، المجلس الواحد والخمسون .

لشياطينكم، ولا لقرنائكم السوء ، اللهم تب على وعليهم ! وخلصهم من ذل النفاق ،  
وقيد الشرك» (١) .

### التوجه لدين الله :

كان الشيخ في بغداد ، عاصمة الدولة العباسية ، وقبة الاسلام ، وكان يشاهد ذلك  
الانحطاط الديني والخلقي ، الذي ابتلى به المجتمع الاسلامي في القرن الخامس الهجري ،  
وكان بغداد مركزه ، وكان يرى تشاغل الناس بأنفسهم ، واشتغال العلماء لمصالحهم ؛ فكان  
يحترق قلبه على ذلك بما أوتى من غيرة دينية وحس مرهف ، وحرص على صلاح هذه  
الأمة ، وشعور بالمسؤولية والأمانة ؛ فكانت تفيض من لسانه وقلبه كلمات مؤثرة ، هي آية  
في الإخلاص والصدق والحمية الدينية ، يقول في مجلس :

« دين محمد ﷺ تتواقع حيطانه ويتناثر أساسه ، هلموا يا أهل الأرض ، نشيد ما  
انهدم ، ونقيم ما وقع ! هذا شئ ما يتم ، يا شمس يا قمر ! ويا نهار ! تعالوا» (٢) .

ويقول : « يا قوم ! الاسلام يبكي ، ويستغيث ، يده في رأسه من هؤلاء الفجار من  
هؤلاء الفساق ، من هؤلاء أهل البدع والضلال ، من الظلمة ، من اللابسين ثياب الزور ،  
من المدعين ما ليس فيهم ، انظر إلى من تقدمك ، وإلى من كان معك أمرا ناهيا ، أكلا  
شاربا . كأن لم يكونوا ، ما أقسى قلبك ! الكلب ينصح صاحبه في صيده وزرعه وماشيته  
وحراسته ، ويبصير عند رؤيته ، فإنما يطعمه عند عشائه لقمة أو لقمات ، أو يطعمه شيئا  
يسيرا ، وأنت تأكل نعم الله ، وتشبع بها ، لا تعطيه منها مطلوبه ، ولا توفيه حقه ، ترد  
أمره ، ولا تحفظ حدوده» (٣) .

### البيعة والتربية :

انتفع أهل بغداد ومن أمها من جهات بعيدة بهذه المواعظ الرقيقة المرققة ، وبهذه الخطب  
المجلجة المدوية ، وتغيرت حياة ألوف من الناس ؛ ولكن مجالس الدعوة والوعظ حلقات  
حرة مؤقتة يؤمها الناس ويحضرونها ، ثم يتغيبون عنها ويهجرونها ، ويداوم عليها كثير من  
الناس ، ثم يظنون على ما هم عليه من تقاليد وعادات ، وأهواء وشهوات .

اتسع العمران في الحواضر والمدن ، وشغلت الحياة وحاجاتها النفوس ، فقل من يعتكف

(١) أيضا . المجلس السادس والأربعون .

(٢) الفتح الرباني ، ٦٤٨ - ٦٤٩ .

(٣) الفتح الرباني ص ٦٦١ .

فى المدارس وينقطع اليها ليدرس العلوم الدينية ويتوسع فيها ، وهكذا أصبحت هذه المدارس النظامية التى تخضع لقيود وتقاليد كثيرة ، قاصرة عن اصلاح شعبى وتربية عامة ، وبقيت منحصرة فى نطاق ضيق ، لا تفيد ولا تسعف الا العدد القليل الذى يلتحق بها وينتسب اليها ؛ فلا صلة لها بالشعب ، ولا صلة للشعب بها الا عند الاستفتاء أو ما يشبه ذلك ، وإنما تعيش فى عزلة عن الحياة ، وكذلك المؤلفون والمثقفون الكبار ؛ فالفجوة الثقافية والعقلية بينهم وبين الشعب واسعة وعميقة لا يعبرها الا الخاصة والشواذ ، ثم أن صلة الناس بالمدارس والعلماء والمؤلفين صلة علمية عقلية لا تخضع لها القلوب والنفوس ، ولا تنصغ بها الحياة والأخلاق والطبائع الا فى النادر ، ولا يتقيد بها الناس ، ولا يرتبطون بها ارتباطا روحيا الا فى النادر .

كان المسلمون فى حاجة إلى دعاء ، وشخصيات قوية جامعة ، تجمع بين تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس<sup>(١)</sup> ، وهكذا تخلف الرسول ﷺ فى أمته بعد انقطاع النبوة ، وتجدد صلتها بالله والرسول ، وتجدد الميثاق الذى دخلت فيه هذه الأمة والمسلمون جميعا ، وعن طريق الايمان والنطق بالشهادتين ، وما عاهدت عليه وبايعت الرسول ﷺ - مع بعد الزمان والمكان - من السمع والطاعة ومخالفة النفس والهوى والشيطان ، والتحاكم إلى الله والرسول ، والكفر بالطاغوت ، والمجاهدة فى سبيل الله ؛ فقد تغافل عن ذلك الخلفاء ، واقتصروا على الجباية والفتوح وأخذوا البيعة لأنفسهم وأولادهم ، وعجز عن ذلك العلماء ؛ فاشتغلوا بالفتوى والوعظ والتدريس والعلم والتأليف، وإذا أرادوا ذلك لم يخضع لهم العامة ؛ لأنهم لا يرون فيهم - الا النادر القليل - الاخلاص والزهد وأثر الخلافة النبوية . وهكذا ضعف الشعور فى العامة والسوقة والفلاحين والعملة ؛ حتى فى كثير من الخاصة والمتعلمين بأن الاسلام عهد وميثاق ، وبيع وشراء بين العبد وربّه ، وأصبحوا أحرارا فى تصرفاتهم ، جامحين عاتين فى شهواتهم ، هملا وقطعانا لا يضبطهم راع ، وضعف فى كثير منهم الرغبة فى الطاعات وبلوغ درجة الاحسان ، والحصول على نور اليقين وبشاشة الايمان ، وتقاصرت الهمم ، وحمدت النفوس ، وأقبل الناس - الا من عصم ربك - على اللذات والشهوات بنهم وشره .

ضيعت الخلافة الاسلامية - كما وصفنا سالفا - روح الخلافة وأمانة النبوة ، وأصبحت

---

(١) هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴿ [ سورة الجمعة ] .



ملكا وسياسة ، وادارة وجباية ، فقام فى نواحي المملكة الاسلامية الواسعة خلفاء الرسول ﷺ والربانيون ، يجدد الناس بدعوتهم وصحبتهم ميثاق الاسلام ، ويدخلون فى السلم فقها وارادة بعد ما دخلوا فى الاسلام وراثه وعادة ، ويستردون بتعليمهم وتربيتهم حلاوة الاسلام ولذة الايمان ، ويخرجون من سلطان الهوى ورق الشهوات وعبادة الناس ، وينشطون فى العبادات والطاعات ، والدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله .

من أشهر هؤلاء الدعاة والمربين : « الحسن البصرى » و« الفضيل بن عياض » و« معروف الكرخى » و« الجنيد البغدادي » رحمهم الله تعالى .

وانتهى الأمر إلى القرن السادس ، وقد تباعد الزمان عن النبوة واثارها وبركاتها ، واتسعت الدنيا ، وكثرت أسباب الغفلة واللهو ، وطال على المسلمين الأمد ، فقست قلوبهم .

هنالك نهض فى بغداد - دار السلام وقلب العالم الاسلامى - رجل قوى الشخصية ، قوى الايمان ، قوى العلم ، قوى الدعوة ، قوى التأثير ؛ فجدد دعوة الايمان والاسلام الحقيقى ، والعبودية الخالصة ، وأخلاق المؤمنين المخلصين ، وحارب النفاق الذى اجتمع فى المجتمع الاسلامى بقوة منقطعة النظر فى تاريخ الاصلاح والتجديد ، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعية ، يدخل فيه المسلمون ، من كل ناحية من نواحي العالم الاسلامى يجددون العهد والميثاق مع الله ، ويعاهدون على أن لا يشركوا ولا يكفروا ولا يفسقوا ، ولا يبتدعوا ، ولا يظلموا ولا يستحلوا ما حرم الله ، ولا يتركوا ما فرض الله ، ولا يتفانوا فى الدنيا ، ولا يتناسوا الآخرة .

وقد دخل فى هذا الباب - وقد فتحه الله على يد الشيخ عبد القادر - خلق لا يحصيهم الا الله ، وصلحت أحوالهم ، وحسن اسلامهم ، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ، ويشرف عليهم وعلى تقدمهم ، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحانيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الايمان على يد عبد مخلص ، وعالم ربانى ، شعورا جديدا ، وظل بينهم وبين الشيخ رباط وثيق عميق ، أقوى من رباط التلاميذ بالاساتذة والشيخوخ ، ومن رباط الجند بالقائد ، ومن رباط الرعية بالرعى ، إنما هو رباط روحى دينى ، لا يهن ولا ينحل ، وإنما هو ميثاق لا ينقض ولا ينكث ، ثم يجيز الشيخ كثيرا منهم - ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية - فينتشرون فى الآفاق يدعون الخلق إلى الله ، ويربون النفوس ، ويحاربون الشرك والبدع ، والجاهلية والنفاق ، فتتشر الدعوة الدينية ، وتقوم ثكنات الايمان ومدارس الاحسان ، ومرابط الجهاد ، ومجامع الأخوة ، فى انحاء العالم

الاسلامى . وقد استطاع الشيخ عبد القادر أن يستمر في دعوته وجهاده أكثر من نصف قرن، في بيئة اشتد فيها الاستبداد ، وكثرت فيها الوساوس ، وشاعت فيها الوشايات والسعايات ، وأخفقت فيها الدعوات السياسية ، وحورب فيها المعارضون للحكومة بقساوة وشدة ، واحتمل الخلفاء والأمراء نقده الشديد ، وانكاره على تصرفاتهم ومناهج حياتهم ، وما كان ذلك الا لاخلاصه الذى لا يتطرق اليه الشك ، ولا ترتقى اليه شبهة ، وزهده في كل ما يحرصون عليه ويضنون به ، وبذله النصيحة والشفقة لكل من يدين بالاسلام ؛ بل يتحلى بالانسانية ، وانقطاعه إلى الدعوة إلى الله ، والارشاد إلى معالم الحق .

### دعاة الاسلام ومشاعل الايمان :

وقد كان لخلفائه وتلاميذه ، ولمن سار سيرتهم في الدعوة وتهذيب النفوس من اعلام الدعوة وأئمة التربية في القرون التي تلتها ، فضل كبير في المحافظة على روح الاسلام ، وشعلة الايمان ، وحماسة الدعوة والجهاد ، وقوة التمرد على الشهوات والسلطات ، ولولاهم لابتلعت المادية التي كانت تسير في ركاب الحكومات والمدنيات هذه الأمة ، وانطفأت شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها ، وقد كان لهؤلاء فضل كبير لنشر الاسلام في الأمصار البعيدة التي لم تغزها جيوش المسلمين ، أو لم تستطع اخضاعها للحكم الاسلامى<sup>(١)</sup> ، وانتشر بهم الاسلام في افريقيا السوداء ، وفي اندونيسيا وجزر المحيط الهندي، والصين ، وفي الهند .

ولما فتح التتار العالم الاسلامى في القرن السابع الهجرى : واثخنوه جراحا وقتلا ، ولم يتركوا الا روحا ضعيفة ونفسا خافتا ، وقل سيف الجهاد والمقاومة ؛ فأصبح لا يؤثر ولا يعمل ، وأغمده المسلمون بأسا وقنوطا ، وآمن الناس بأن التتار لا يمكن اخضاعهم ، وأن العالم الاسلامى قد كتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج ، وأن الاسلام لا مستقبل له قام هؤلاء الدعاة المخلصون الذين لا يزال تاريخ الدعوة والاصلاح - على احصائه واستقصائه - يجهل أسماء كثير منهم ، يتسربون في هؤلاء الغلاظ الشداد . يفتحون قلوبهم للاسلام ؛ حتى تفتحت له وأحبته . وصاروا يدخلون في دين الله أفواجا ، ولم يمض على زحفهم على العالم الاسلامى واذلالهم له كثير زمان حتى أسلم جلهم أو كلهم، وصاروا من حماة السلام وحملة رايته وكان منهم فقهاء وزهاد ومجاهدون .

(١) راجع كتاب : « الدعوة إلى الاسلام » لتوماس أرنولد الانكليزى Preaching Of Islam .

هكذا أخضعوا للإسلام من أخضع العالم الإسلامي بالأمس ، من شرقه إلى غربه ،  
وأدخلوا أمة قهرت الأمم كلها في عصرها في دين لا يحميه سيف ، ولا يدافع عنه جيش ،  
وقد كانت ثلاث ديانات - هي أعظم ديانات العالم - تتنافس في اكتساب هذه القوة  
القاهرة للعالم : « البوذية » و « المسيحية » و « الإسلام » وكانت البوذية أقرب إلى فطرتها  
وبيئتها ، وكانت النصرانية أرفع مكانة وأقرب زلفى في مجالس سلاطينها ، ولكن الإسلام  
- بفضل دعائه المخلصين - انتصر على منافسته - البوذية والنصرانية - وأسلم التار أمة  
وجنسا ، وكونوا دولا إسلامية كان لكثير منها مآثر إسلامية يتجمل بها تاريخ الإسلام ،  
وكان انتصار الإسلام على الديانتين المنافستين - البوذية والنصرانية - حادثة غريبة لا تعلق  
بمشيئة الله تعالى وتأييده ، وتفوق دعاة الإسلام في الإخلاص والروحانية على دعاة البوذية  
والنصرانية وإليك التفصيل في الصفحات التالية .



## غارة التتار على العالم الإسلامى (١) وظهور معجزة الإسلام

### غارة التتار وأسبابها الحقيقية فى ضوء القرآن :

واجه العالم الإسلامى فى القرن السابع الهجرى كارثة يندر نظيرها فى تاريخ العالم ، وكادت تقضى هذه الكارثة على شخصية العالم الإسلامى ، وهو زحف الوحوش التتار الذين تقدموا نحو الشرق كجراد منتشر ، وسيطروا على العالم الإسلامى كله .

والمعروف أن السبب فى هذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين الخوارزمى ، وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما أرسل إليه جنكيز خان كثيراً سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله أيضاً ، فاشتعل جنكيز خان غضباً وقام بحملة هو جاء على مملكة خوارزم شاه ، ثم على عالم الإسلام كله .

ولكن إذا تدبرنا فى ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار إليه القرآن ، ولا سيما ما ذكره فى بدء سورة الاسراء من تدهور بنى إسرائيل وفسادهم فى الأرض ، وعلوهم وتمردهم وما جر ذلك إلى زحف الملوك الظالمين ، وتسلبهم على بنى إسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا أن السبب لحقيقى فى هذه الفتنة الكبرى والمحنة التى أصيب بها العالم الإسلامى ، ليس أن يقترف ملك أو حاكم من خطأ فى التدبير والسياسة ، فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء ، ريفاجىء العالم الإسلامى ، وتصاب الأمة الإسلامىة بهذه الفتنة العمياء - التى لم تكن تتوقعها ولا تستحقها - لمجرد أن يخطىء فرد من أفرادها .

إذا حملنا نبراس القرآن فى يدنا ، واستعرضنا أوضاع المسلمين الخلقية والدينية والسياسية فى ذلك العصر تحقق لنا كالشمس فى رابعة النهار ، أن هذه الحادثة المشثومة لم تكن مفاجأة ، وإنما هناك أسباب أكثر عمقاً وأصالة مما ظنه الناس وذكره ، ولكى نبحث عن هذه الأسباب العميقة الأصلية يجب أن نتأخر إلى سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس بإجمال أوضاع الدول الإسلامىة ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع فى ذلك العصر .

---

(١) فصل كتبه المؤلف فى « أردوا » لكتابه « تاريخ دعوة وعزيمة » ، ونقل أكثره الاستاذ سعيد الاعظمى إلى العربية .

## أوضاع العالم العربي ومركز الخلافة في هذا العصر :

أن المملكة الأيوبية توزعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٨٩ هـ بين أولاده وأفراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم في أداء هذه الأمانة التي آلت إليهم ، شأن كثير من أولاد الولاة ، وأولى العزم من الحكام ، فقد ظل الصراع قائما بينهم إلى مدة طويلة . ، حتى أن بعضهم لم يتلکأوا في الاستعانة بالصليبيين بتدبير المؤامرة ضد إخوانهم وأصحابهم ، وقد أنتج هذا الوضع الشاذ اضطرابا سياسيا ، وانحلالا أخلاقيا ، وفوضى في سائر الولايات التابعة لهذه المملكة ، وكان الناس يعيشون في جو من القلق والخوف .

هذا وكانت الغارة الصليبية الأفرنجية تتعاقب على تلك الحواضر الإسلامية ، التي كان السلطان صلاح الدين قد استردها بعد تضحيات ضخمة ، وقد فشت أمراض وأوبئة ومجاعات شديدة نتيجة لهذا الإنحطاط الخلقى ، والانحراف الإداري ، وفي سنة ٥٩٧ هـ حدثت مجاعة في مصر فما فاض فيها النيل ، وتزلزلت أرض مصر بمنازعات الملكين العادل والأفضل ، حتى « اشتد الغلاء بأرض مصر ، فهلك خلق كثير جدا من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل :

« أن العادل كفن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحو من مئتي ألف وعشرين ألف ميت ، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر ، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير ، يشوى الصغير والداه ويأكلانه ، وكثر هذا في الناس جدا حتى صار لا ينكر بينهم ، فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوى الضعيف فذبحه وأكله »<sup>(١)</sup> .

واستمرت هذه الحال وفقا لسنة الله في الأرض ، وظلت الإنذارات السماوية ، والأحداث الجسام تحذر الناس ، وكانت كفيلا بأن تبعث الناس على التوبة والإنابة إلى الله ، وإصلاح أحوالهم « وحدثت في نفس هذه السنة زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة والروم والعراق . . . وأخربت محال كثيرة من طرابلس ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامراء ، ومات بها وبقراها ثلاثون ألفا تحت الردم . . . ومات أمم لا يحصون ولا يعدون ، حتى قال صاحب « مرآة الزمان » : أنه مات في هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ومائة ألف إنسان قتلا تحتها والله أعلم<sup>(٢)</sup> .

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦ .

(٢) أيضا ص ٢٧ .

هذا ، وقد تفاقم الشر في مركز الخلافة ( دار السلام ببغداد ) ، وسيطرت عليه مظاهر الأبهة الملوكية والسلطان الأعمى ، وتغلغل نفوذ الخدم والحشم في قصور الخلفاء ، وبلغت الثروة والمدنية ذروتها ، ولا يمكن أن نتصور ما كان يمتلكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار .

ويكفي أن نذكر على سبيل المثال ، أن علاء الدين الطبرسي الظاهري ، وهو ممن اشتراهم الخليفة الظاهر ، كان يحصل له من أملاكه التي استجدها نحو ثلاث مئة ألف دينار سنويا ، وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها ، وكذلك مجاهد الدين أيبك أندويدار المستنصري ، وقد ملك جزيل الأموال من العين ، والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين والضياع ، ويتعذر وصف ما أنفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، والجواهر التي جهز بها أولاده وبناته في ليالي الزفاف ، كما أن الفراش الصلاح عبد الغنى بن فاخر المتوفى ٦٤٨هـ ، وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة ، كان يعيش مع خلده من العلم عيشة الملوك ، بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية في هذا العصر وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون في أكبر جامعة إسلامية فيها ، لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من ١٢ ديناراً شهرياً .

وبجانب ذلك نجد أن ٤٠٠٠ دينار ينشرها خادم للشرابي على مجد الدين أيبك المستنصري ، المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأن ٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابي للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر من الموصل . ولكن ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة ، والتظاهر بالفخفة والأبهة الملكية يجب أن نعرف أن المواكب التي كانت تخرج في مناسبات الأعياد والتتويج كانت تشغل الناس ، حتى أنهم كانوا يتناسون أنفسهم ، ويتشاغلون عن أداء الصلوات ، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكي ، الذي خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠هـ واستمر إلى الليل . وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء<sup>(١)</sup> . وذكر في « المسجد المسبوك » أن العساكر في عاشر ذي الحجة سنة ٦٤٤هـ خرجوا إلى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس ، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة ، فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليد وعتبة باب النوبى ، وحافر الخيل والأرض والبرغام .

« وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشى الرشوة وعزل كبار الموظفين ، والقاء

(١) الحوادث الجامعة أخبار سنة ٦٤٠هـ .

القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم ، وتفاقم أمر الباطنية والشطار والعيارين ، واشتداد النزاع الطائفي والتفكك الخلقى ، والانصراف إلى الملاهى والقيان والتكاثر فى الأموال»<sup>(١)</sup> .

وفى نفس هذه الأيام كان التتر يعبثون بكرامة فارس وتركستان ، ويأتون عليهما من كل جانب وكانت أبصارهم شاخصة إلى بغداد ، أكبر مركز إسلامى فى ذلك العهد ، يتحدث المؤرخ الشهير ابن كثير فى استهلال سنة ٦٢٦هـ بما يأتى :

« استهلت هذه السنة وملوك بنى أيوب مفترقون ، مختلفون » ، وظلت بغداد دار الخلافة الإسلامية مركزا للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولا استطاع الخليفة تغيير كسوة الكعبة الشريفة ، التى جرت عادة خلفاء الإسلام من قديم بتغييرها ، بين ٦٤٠هـ و ٦٤٣هـ ، وبقيت جدران الكعبة عارية عن الكسوة إلى ٢١ يوما ، فتشاءم به الناس .

فى سنة ٥٧٥هـ جلس الخليفة الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته إلى أكثر من ٤٦ سنة ، وهى مدة طويلة لم تيسر لأحد من الخلفاء العباسيين ، ولكنها أظلم عهد فى تاريخ الخلافة العباسية ، وقد ذمه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير ، فىقول :

« وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما ، فخرّب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، وأخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشئ وضده ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها ، وأطلق بعض المكوس التى جردها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة فى البلاد جميعها ، إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك ، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور ، وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك»<sup>(٢)</sup> .

توفى الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢ هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل

---

(١) استفدنا فى هذا الفصل من مقال « عصر الشراى ببغداد » للأستاذ ناجى معروف المنشور فى مجلة

«الأقلام» عدد محرم سنة ٨٦ هـ .

(٢) تاريخ الكامل ج ١٢ ص ١٨١ .



الصورة حسن السريرة جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلوات ، محسنا إلى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجا للخلفاء الصالحين في كثير من خصائصه وعاداته ، ولكنه - مع الأسف - لم يجد فرصة للتنظيم والإصلاح ، وخلفه ولده المستعصم بالله في سنة ٦٤٠ هـ وكان المستعصم صحيح العقيدة متدينا يظهر عليه خشوع وإنابة لم ينقل عنه أنه عصى الله بفمه ، ولا بفرجه ، ولا شرب مسكرا ، ولا أخل بصيام الإثنين والخميس من كل شهر ، وكان يصوم رجب من كل سنة ، وكان يحفظ القرآن مواظبا على الصلوات في أوقاتها ، إلا أن المستعصم لم يكن بصيرا بتدبير الملك على ما رواه ابن كثير ، وكان فيه لين وعدم تيقظ ، ومحبة للمال وجمعه .

وفي سنة ٦٤٢ هـ استوزر الخليفة المستعصم بالله محمد بن العلقمى ، ولكنه لم يكن وزير صدق ولا مرضى الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين أهل السنة والرافضة في سنة ٦٥٥ هـ « نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نهبت دور قرابات الوزير ، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان مما أواجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما رقع من الأمر العظيم الذى لم يؤرخ أشع منه منذ بنيت بغداد »<sup>(١)</sup> .

وبالرغم من أن التتار كانوا يتقدمون نحو بغداد ، وكان الخطر التتارى يقرع الأبواب ، كنت « جيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش كلهم قد صرفوا عن اقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمى الرافضى »<sup>(٢)</sup> .

كان المستعصم رجلا صالحا حسن السيرة والفكر ، وكان يحرص على إصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكن فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة ، بلغ مبلغا لا يؤثر فيه إلا من رزق الإرادة القوية ، والشخصية العبقريّة ، ومن يستطيع أن يقف سدا منيعا فى وجه الفساد ، ويتغلب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع فى مثل هذه الحال إلا العظماء الذين افتتحوا عهدا جديدا ، وأسسوا حكومات جديدة فى التاريخ .

ولقد تكرر فى التاريخ أن آخر أفراد أسرة حاكمة ، وآخر حاكم فى مملكة آخذة بالإنحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى ، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

وصلت إلى آخر نقطة من الإنحلال والتدهور ، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين هذه الحكومة وبين نهايتها الأليمة التي كان يفرضها قانون السماء ، وتقتضيها طبائع الأشياء ، وشاءت الأقدار أن يعتبر ذلك الرجل مسؤولاً عن نهاية الحكومة في أسرته الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحاً وديانة ، وأحرص على إصلاح الفساد من سلفه الماضين .

وقد كان عدد من الصالحين مشغولين بالعلم والتدريس والعبادة ، كما كان عدد منهم معتزلين في الزوايا والمساجد ، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين ، يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجي يصف أهل العراق يومئذ :

« واهتموا بالاقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر في المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الأمور الدينية ، واشتد ظلم العمال ، واشتغلوا بتحصيل الأموال ، والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم »<sup>(١)</sup> .

### القسم الشرقي من المملكة الإسلامية :

وكان ملوك الخوارزم منفردين بالحكم في الجزء الشرقي للعالم الإسلامي ، قامت دولتهم ذات الشوكة على أنقاض المملكة السلجوقية في أواخر القرن الخامس الهجري ، وكان العالم الإسلامي كله خاضعا للحكم الخوارزمي باستثناء مصر والشام ، والعراق والحجاز ، والمنطقة السلجوقية الصغيرة الواقعة في الشمال الغربي لآسيا الصغرى ، وكان علاء الدين محمد خوارزم شاه ( ٥٩٦ - ٦١٧ ) أعظم ملوك الأسرة طموحا عَلِيًّا وأعلامهم هممة ، وأكثرهم فتحا وانتصارا ، وهو أكبر ملك مسلم وأقواهم في عهده ، يتحدث عنه المؤرخ «هيرلد ليمب» في كتابه «جينكيز خان» فيقول :

« كان السلطان محمد خوارزم شاه متربعا على عرش الملك في قلب الأمة الإسلامية ، وكانت رقعة ملكه تمتد من ثغور الهند إلى بغداد ، ومن بحر الخوارزم ( آرال ) إلى خليج الفرس ، وكان مسيطرا على الممالك الإسلامية كلها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصليبيين ، وأسرة السلاطين من مماليك مصر ، وكان السلطان محمد امبراطورا بالنظر إلى مكانته ، بالرغم من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله سخط عليه ، ولكنه كان يعترف بقوته ، أن الخليفة في بغداد بعد ما تجرد من كل سلطان دنيوى عاد

(١) مقال الأستاذ ناجى معروف «عصر الشرايبي ببغداد» الأعلام ع محرم ١٣٨٦هـ .

مجرد رمز دينى ، شأن البابوات فى روما»<sup>(١)</sup> .

أما المؤرخون العرب ، فإنهم لا يشيرون إلى موضع ضعف وعيب شخصى كبير فى سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل أنهم يعترفون بتدينه ، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلبه بوجه عام ، ولكن الذى لا خلاف فيه ، أنه بذل جميع مواهبه وطاقاته فى القضاء على الحكومات الإسلامية الصغيرة والكبيرة ، حيثما وجدت فى هذا الجزء الشرقى الواسع أنه اضطر السلاجقة إلى التأخر والإنسحاب إلى آخر حدودهم فى جانب ، كما أنه ظل يحارب الغوريين فى الشرق والجنوب فى جانب آخر ، واضطروهم إلى الإنحصار فى جزء محدود ، وأن خيرة عناصر الفروسية والنضال فى إيران وتركستان ، قد أئختتها الحروب الطاحنة المتواصلة ، التى لم تكد تنتهى ، فكان الجو الحربى يسود على المدن والأقاليم الخصبة الغنية وعلى مشاعر أهلها فى كل حين ، وقد اجتمعت غنائم البلاد المفتوحة ، وحاصلات الأقاليم الخصبة ، وتأنق الصناع فى الصناعات ، وأدوات الزينة ، فبلغت بذلك كله المدنية أوجها ، واجتمعت جميع عوامل الغنى والجدة والرفاهية والانتصارات وما يتبعها من ترف وبطر .

ومن الصعب العسير أن يوجد حديث عن الأدواء الخلقية ، التى كانت تعانيها الحضارة والمجتمع ، فى كتب التاريخ التى تدور حول البلاط الملكى ، والسراى ، ورجال الحكومة ، وإن مظنة هذا الحديث هى كتب المشائخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكتب المواعظ ، التى اكتسح معظمها السيل التترى ، ولا يسعنا أن نحمل ما صرح به المؤرخ المسيحى « هيرلد ليمب » فى كتابه « جنكيز خان » على مجرد التعصب الدينى والمبالغة ، أنه يقول :

« إن العالم الذى كان يعيش فيه المسلمون كان عالم الحرب والجلاد ، وكان لا يخلو من شغف بالغناء والموسيقى ، ومن الطرب والاهتزاز ، لكنه رغم هذا الظاهر كان يعيش فى قلق واضطراب ، فكان الممالك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس فى جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زمام الأمور فى يد أولئك الذين كانوا ينهبون الرعية ، ويترفهون على حسابها ، وكان حراسة الحرم ، والإشراف على السراى للخصيان»<sup>(٢)</sup> .

(١) جنكيز خان ص ١٤٧ .

(٢) جنكيز خان ص ١٤٣ .

## خطأ الملوك الخوارزمية :

وقد صدر عن الملوك الخوارزميين نفس الخطأ الكبير الذى وقع فيه الحكام العرب فى الأندلس ، ولم يعف عنهم قانون المكافأة الإلهى ، وذلك أنهم بذلوا كل قواهم فى توسيع رقعة الملك ودعمه ، وقمع الخصوم ، ولم يبذلوا أى اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القسم البشرى الذى كان يعيش بجوار حدودهم ، وكان بنفسه عالماً مستقلاً ، وبصرف النظر عن الدافع الدينى والواجب الإسلامى ، كان مقتضى الحزم السياسى وبعد النظر أن يعنوا بإيجاد الإنسجام العقائدى مع هذه الدنيا الإنسانية الواسعة ، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجا ، يحفظهم عن ذلك الخطر الذى لم يواجههم وحدهم فحسب ، بل اكتسح المسلمون كلهم .

## زحف التتار نحو العالم الإسلامى :

فى نفس هذه الأحوال والزمان تقدم التتار بادية بدء ، كعقاب الهى بقيادة ملكهم «جنكيز خان»<sup>(١)</sup> نحو الجزء الشرقى للعالم الإسلامى ، إيران وتركستان حتى وصلوا إلى بغداد التى أسلفنا ذكرها ، وأخيرا قامو بتدميرها وإيادة أهلها سنة ٦٥٦هـ ، « واتفوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب »<sup>(٢)</sup> .

أن الدافع القريب لهذا الزحف التتارى ، فى عالم الأسباب ، هو أن جنكيز خان بعث إلى خوارزم شاه رسولا يقول له : إنك تحكم رقعة عريضة كما أننى أملك مملكة واسعة ، فإذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ، وسمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك فى صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامت العلاقات التجارية ، وبدأ التجار يتبادلون أموال التجارة بين البلدين ، ولكن ما الذى حدث بعد ذلك حتى شهد العالم الإسلامى ذلك اليوم المشئوم الذى يدعى بغارة التتار ؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك المؤرخ الغربى « هيرلد ليمب » ويصدقده تماما ما جاء فى التاريخ الإسلامى ، أنه يقول :

« انفصمت العلاقات التجارية التى أقامها جنكيز خان بين البلدين فجأة ، وكان السبب

---

(١) مبدأ مملكة جنكيز خان سنة ٥٩٥هـ ، وأول حملة على حكومة خوارزم شاه كانت فى سنة ٦١٦هـ ، وقد مات جنكيز خان ٦٢٤هـ ، فقام أبناؤه وأحفاده بتحقيق غاياته التى أرادها ، فلما واجهت بغداد الغارة التتارية سنة ٦٥٦ هـ ، كان هولاء حفيد جنكيز خان قائد القوات التتارية وأميرها .

(٢) سورة الأنفال ٢٥ .

فى ذلك أن قافلة من التجار كانت متوجهة من « قراقورم » إلى الغرب ، فلما وصلت إلى « اترار » تعرض لها حاكمها الذى يدعى باينل جق وأسر رجالها ، وأخبر ملكه خوارزم شاه بذلك ، وقال أن هذه القافلة لا تخلو من جواسيس جنكيز خان ، وكان هذا الخبر مما يؤيده العقل .

وما أن وصل الخبر إلى خوارزم شاه حتى أمره بقتل التجار كلهم دون أن يفكر فى هذه القضية ، ويتأنى فى إصدار الأمر ، ونفذ أمره بقتل التجار الذين جاؤا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيز خان ، أرسل سفراءه إلى خوارزم شاه يشكو إليه ما حدث مع هؤلاء التجار ، وانتهر خوارزم شاه الفرصة فقتل رئيس السفراء ، وأمر بإحراق لحي الباقين ، الذين رجعوا إلى جنكيز خان وقصوا عليه القصة ، وفور سماع هذه القصة صعد جنكيز خان على جبل فى « صحراء الجوبى » ليفكر فى القضية ، لأن قتل رسول المغول كان جريمة لا تغتفر ، وكان لا بد من الانتصار لها حسب ما جرت عادة المغول فى مثل هذه الأمور .

وأعلن جنكيز خان قائلًا : « إذا كانت السماء لا تحتمل وجود شمسين ، فإن الأرض كذلك لا تحتمل وجود ملكين »<sup>(١)</sup> .

### الجزء الشرقى للعالم الإسلامى بين النار والدمار :

وقد ابتداءً التتار ببخارى وأتوا عليها من كل جانب . فدمروها حتى عادت كومة من تراب . ثم توجهوا إلى سمرقند وأحرقوها وأبادوا أهلها ، لقيت نفس المصير المدن الشهيرة للعالم الإسلامى كهمدان وزنجان ، وقزوين ، ومرو ، ونيسابور ، وخوارزم ، أما خوارزم شاه الذى كان يعتبر الملك الوحيد للعالم الإسلامى وأقوى الملوك فى عصره ، فكان يعيش فى خوف وهلع ، وتنقل وارتحال ، يبحث عنه التتار ويتعقبونه حتى توفى فى جزيرة مجهولة .

كان خوارزم شاه قد ضم ولايات فارس وتركستان المسلمة ودولهما المستقلة إلى مملكته ، فلما هزمه التتار لم يكن هناك من يقاومهم فى هذا الجزء الشرقى ، وقد دخل رعب التتار فى قلوب المسلمين ، إلى حد أن أحد التتار دخل بعض الأحيان فى سكة من سكة مدينة حيث وجد مئة رجل من المسلمين ، فقتلهم كلهم وأتى على آخرهم دون أن يتجرأ أحد منهم على مقاومته .

(١) جنكيز خان ص ١٤٧ .

وذات مرة دخلت امرأة تشارية بيتا متزينة بزى الرجال ، وقتلت جميع أفراد الأسرة ، وقد عرف أحد المسجونين الذى كان معها أنها امرأة فقتلها ، وقد حدث بعض الأحيان أن تاتاريا أسر مسلما وقال له ضع رأسك على هذا الحجر حتى آتى بالخنجر فأذبحك ، وخضع له المسلم ولم يسهه أن يبرح مكانه ذاك ، ثم آتى التتارى بالخنجر من المدينة وذبحه به <sup>(١)</sup> .

كانت غارة التتار فتنة عظيمة ، ومحنة كبيرة ، هزت العالم الإسلامى هذا عنيقا ، وتركت المسلمين مبهوتين مشدوهين واستولى الرعب والخوف على العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه وغلب على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يعتبرون التتار بلاء سماويا ، ومقاومتهم مستحيلة ، وانهمامهم فوق القياس ، حتى ساد المثل : « إذا قيل لك أن التتار انهزموا فلا تصدق » فكل بلاد أو دولة توجهوا إليها عرف أنها أبيت وخربت ، ولم يبق فيها شيء من مقدسات المسلمين إلا وانتهكت حرمتها ، فكان اتجاه التتار إلى جهة يرادف معنى التدمير والإبادة ، والذلة ، وانتهاك الأعراض ، ولا شك أن العالم الإسلامى كله ولا سيما الجزء الشرقى منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء على بكرة أبيها ، إن المؤرخ يشتغل بتسجيل كل لون من ألوان الأحداث والوقائع ، وتمر به مناظر كثيرة لإبادة الأمم والبلدان حتى يتعود احتمال كل ذلك ، فيجرى قلمه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يرق لها قلبه ، وتدمع لها عينه ، ولكن المؤرخ الشهير ابن الأثير لم يتمكن من إخفاء شعوره الجريح وتألمه النفسى ، حينما وصل إلى ذكر حادث التتار ، إنه يقول :

« لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمى لم تلدنى ، ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى عقرت الأيام وانبأى عن مثلها وعمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا بأجوج ومأجوج ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا

(١) من أراد التفصيل فليرجع إلى الكامل لابن الأثير ج ١٢ ، ودائرة المعارف للبستاني ج ٦ مادة «تتر» .

النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح « (١) .

ويقول مؤلف « مرصاد العباد » : الذى شهد هذه الواقعة بعينه وما دار فى مولده « الرى » وموطنه « همدان » من حوادث فظيعة ومن التخريب والتدمير :

« استولى الجيش التتارى - خذلهم الله ودمرهم - سنة ٦١٨هـ على بلاد الإسلام ، لا يعرف نظير لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والإفساد ، والقتل والهدم والإحراق وما ظهر من ألك الملاعين من فظائع تقشعر منها الجلود فى أى عصر من عصور التاريخ ، لا فى الإسلام ولا فى الجاهلية ، فقد قتلوا وأسروا فى « رى » وحدها التى هى مولدى أكثر من سبع مئة ألف مسلم ، أن الفتنة التى أثاروها فى العالم الإسلامى ، والمصيبة التى أنزلوها على المسلمين لا تسع الكلمات أن تصورهما ، وهذه الحادثة أغنى من أن تشرح للناس .

وعياذا بالله ، إذا لم تتحرك حمية الإسلام وغيرته فى ملوك المسلمين وسلاطينهم ، ولم يذكروا أنهم مسئولون عن الأمة لقوله ﷺ : « الأمير راع على رعيته وهو مسئول عنها » وإذا لم تنبعث فيهم أريحيتهم ورجولتهم لكى يتحدوا على كلمة واحدة ، وينقادوا لما أمرهم الله به فى قوله : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » وإذا لم يستعدوا لبذل النفس والمال والملك لكى يدفعوا هذه الفتنة ، فإن ذلك كله يدل على أن المسلمين سيفاجئهم الذل والنكسة ، وترتمى معظم بلاد الإسلام فى أحضان الكفر ، وأخشى أن المسلمين الذين كانوا لا يحملون إلا الاسم ، سيفقدون الاسم والرسم كليهما نتيجة لما ندعيه ولا نعمل به « (٢) .

### صاعقة نزلت على العالم كله :

ولم يكن العالم الإسلامى وحده مصابا بهذه الفتنة التتارية ، وإنما العالم المتمدن كله متوجلا من هذه الغارة ، وقد تفشى الذعر والخوف فى الأمكنة التى لم يكن يرجى فيها وصول التتار ، يقول « جبن » فى كتابه الشهير « تاريخ انحطاط روما » :

« حينما اطلع سكان السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا ، تسلط عليهم من

(١) الكامل لابن الأثير ج ١٢ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) مرصاد العباد ( المخطوط المحفوظ فى مكتبة ندوة العلماء ) ص ٨ .

الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج إلى سواحل إنجلترا لصيد الأسماك ، وقد كان ذلك عادة متبعة لديهم » .

وقد تصدى المؤلفون « لتاريخ العهد المتوسط للكيمبردج » بذكر صدام المغول الشديد الذى كان سببه جنكيز خان بما يلى :

« لم يكن فى وسع الإنسان أن يسد سيل المغول ، فقد تغلبوا على جميع أخطار الصحارى والغابات ، ولم يقف فى وجههم أى شىء من الجبال والبحار ، وشدائد الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا يخافون أى خطر ولا مانع ، ولا كان هناك قلعة ترد هجومهم ولا كانت تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم . . نحن نواجه هنا فى مجال التاريخ قوة جديدة ، قامت بتقديم الحل السريع لكثير من القضايا المعقدة السياسية والوطنية ، التى كانت تشغل العقول فى ذلك العصر ، وقضت عليها كما تقضى الصاعقة التى تنزل من السماء على كل ما تصيبه فى الأرض ، وقد كانت هذه القضايا الوطنية والسياسية بالغة فى تعقدها إلى حد لم يكن يرجى منه الخلاص لولا أن وقعت عليها هذه النازلة » .

« إن ظهور هذه القوة الجديدة فى تاريخ العالم ، أعنى قدرة رجل واحد على تغيير حضارة النوع البشرى ، يبتدىء من جنكيز خان ، وينتهى إلى حفيده قوبيلائى خان الذى بدت فى عصره أثار الفرقة والإنشقاق فى مملكة المغول المتحدة المتماسكة ، والحقيقة أن التاريخ لم يشهد إلى الآن قوة تشبه قوة هؤلاء المغول » <sup>(١)</sup> .

### تدمير بغداد :

وأخيرا دخل هؤلاء الوحوش بعد ما خضبوا أرض العالم الإسلامى كله بدماء أهله ، وأتوا عليه فى بغداد دار الخلافة الإسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر فى ذلك العصر بقيادة حفيده هولاكو خان ، ودرسوها تدميرا ، ولا شك أن تفاصيل قتل المسلمين فى بغداد وتدميرها طويلة ومؤلمة ، ونستطيع أن نقدر مدى هذه الواقعة العظيمة ببيان بعض المؤرخين الذين شهدوا آثارها بأعينهم ، وسمعوا تفاصيلها من مشاهديها ، يقول المؤرخ ابن كثير :

« وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما ، ولما انقضى الأمر المقدور ، وانقضت الأربعون يوما ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد ، إلا الشاذ من الناس ،

(١) مأخوذ من « جنكيز خان » ص ١٤٧ .



والقتلى فى الطرقات كأنها التلول ، قد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم ، وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء ، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء»<sup>(١)</sup> .

ويقول الشيخ تاج الدين السبكي :

« فأنزل ( هولاءكو ) الخليفة ( المستعصم ) فى نخيمة ، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأمائل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم ، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم ، ثم طلب حاشية الخليفة فضرب أعناق الجميع ، ثم طلب أولاده فضرب أعناقهم ، وأما الخليفة فقيل لهولاءكو أن هذا إن أريق دمه تظلم الدنيا ويكون سبب خراب ديارك ، فقام نصير الدين الطوسى<sup>(٢)</sup> وقال : يقتل ولا يراق دمه ، فقيل أن

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٣ .

(٢) يصدق ذلك ما قاله الدكتور مرسى رضوى فى كتابه « أخبار وآثار خواجه نصير الدين طوسى ، الذى نشرته جامعة طهران ، فقد اعتبر المؤلف نصير الدين الطوسى مسؤولا عن هذه الواقعة ، أنه يقول :

« إن مكيدة الطوسى السياسية التى نجحت أخيرا هى أنه أثار هولاءكو خان على استئصال الخلافة العباسية . وتدمير القصر الملكى ، وقد كان هولاءكو مأمورا من قبل أخيه منكوقا آن ، بالقضاء على الخلافة العباسية بعد استئصال الباطنية .

« أن هولاءكو بعث إلى الخليفة المستعصم بالله بالأمر بالطاعة ، واستمرت المكاتبة على ذلك ، ولكن دون جدوى ، وأخيرا استشار هولاءكو زملاءه ، وكانت المغول يعتقدون بسعد النجوم ونحسها . فلما أخبره منجم سنى المعروف بحسام الدين الذى كان ملازما لبلاطه بأن هذه ساعة نحس للغارة على بغداد . وكلما تصدى ملك للإستيلاء على الخلافة فى مثل هذه الساعة أخفق فى إرادته . وأصيب ببلاء . فإنك أيها الملك إذا أبيت إلا أن تغير ، ينقطع المطر . وتعم الزلازل والعواصف ، ويخرب العالم . وأشد من كل ذلك أن الملك ( منكوقا آن ) يهلك . فلما سمع بذلك هولاءكو تردد هنيهة ، واستطلع رأى الطوسى وقال : « ماذا تقول فى مصيرنا إذا أغرنا الآن على بغداد » فقال له الطوسى : أن الغارة على بغداد لا تؤول إلا أنك ستحتل محل الخليفة ، ثم دعا هولاءكو المنجم حسام الدين وضب منهما المناظرة حول هذا الموضوع ، فقال له الطوسى ، لقد قتل آلاف من الصحابة رضى الله عنهم ولم يظهر فساد ، وإذا كان كل هذا مما يخص العباسيين ، فانظر إلى طاهر الذى قاتل الأمين لما أمره المأمون بذلك وقتله ، وقتل المتوكل على الله أولاده وغلمانه ، وقتل المنتصر والمعتضد الأمراء والغلمان ولكن لم يحدث هناك زلزلة ولا طوفان .

الخليفة غم في بساط ، وقيل رفسود حتى مات » .

واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوما ، ولم ينبج إلا من اختفى : قيل إن هولاء أمر بعد ذلك بعد القتلى ، فكانوا ألف ألف وثمان مائة ألف ، ثم طلبت النصارى أن يقع الجهر بشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، وأن يفعل معهم المسلمون ذلك في شهر رمضان ، وأريقتم الخمر في المساجد والجوامع .، ومنع المسلمون من الإعلان بالأذان ، . . هذه بغداد لم تكن دار كفر قط ، وجرى عليها هذا الذي لم يقع قط منذ قامت الدنيا مثله «<sup>(١)</sup> .

وقد ظلت بغداد ، على علاقتها ومواضع ضعفها أكبر مدينة للعالم الإسلامى ، ومركز العلوم والفنون ، ومهد العلماء والصالحين ، وكانت موضع فخر المسلمين لكونها دار الخلافة ، فاضطرب لتدميرها المسلمون كلهم وبكوا عليها ، وقد قرض الشيخ مصلح الدين سعدى<sup>(٢)</sup> رحمه الله ، الذى أقام فى بغداد كطالب ، وشهد بهاءها وجملها قصيدة رثاء تنطق عن قلوب المسلمين الجريحة ، وشعورهم المكروم فى ذلك الوقت ، ننقل فيما يلى أبيات منها يقول :

« إن للسماء كل الحق أن تمطر دما على الأرض لما أصاب مملكة الخليفة المستعصم من زوار وفناء ، إذا كانت القيامة حقا واقعا يا محمد عليه الصلاة والسلام ، فاحسر عن وجهك الرداء وشاهد القيامة بين الخلق اليوم ، لم يدر بخلد أى إنسان أبدا أن حوادث الدهر تأتى بما أتت به اليوم ، افتح بصرك يا من شهدت عظمة البيت الحرام لتنظر أن الملوك دفنوا تحت التراب ، واحتل محلهم المغول والخاقان ، أهرقت دماء أبناء عم النبي ﷺ على تلك الأرض ، التى كانت الملوك الكبار يخرون عليها ركعا سجدا ، وأصبحت دجلة تزبد بدم أهلها ، وهى تعجن التراب فى نخل بطحاء بالدماء ، إن وجه هذا النهر تغير وامتقع لونه من هذه الواقعة الهائلة وبدت التجاعيد فى هذا الوجه ، إن النياحة لا تجدر على تراب هؤلاء الشهداء ، فإن أقل جزاء يستحقونه هى جنة الفردوس ، ولكن الواجب الدينى ، وصلة الحب والعاطفة تجعل قلب المحب يعيش فى لوعة الفراق »<sup>(٣)</sup> .

## التتار فى الشام :

توجه التتار نحو حلب الشهباء بعد بغداد ، وعاملوها معاملة بغداد كما ذكر ابن كثير ،

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ١١٤ - ١١٥ .

(٢) أحد أئمة الشعر الفارسى ، وصاحب كتابى « كلستان » « وبوستان » الخالدين فى المكتبة العالمية .

(٣) كليات سعدى .

ثم تقدموا إلى دمشق واستولوا عليها في شهر جمادى الأولى سنة ٦٥٨ هـ ، وقد استقبل نصارى البلد التتار الفاتحين خارج البلد ، وقدموا إليهم الهدايا ، وقدموا بأمر من حاكمهم حتى دخلوا البلد فاتحين ، يصور هذه الواقعة ابن كثير الذي كانت دمشق مسقط رأسه ، تصويرا يمكن به تقدير انتكاس المسلمين وضعفهم .

« ودخلوا من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون ، ظهر الدين الصحيح ، دين المسيح ، ويذمون دين الإسلام وأهله ، ومعهم أواني فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرا ، وقماقم ملائنة خمر يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم ، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم ، فتكاثروا عليهم المسلمون فردوهم إلى سوق كنيسة مريم ، فوقف خطيبهم فمدح دين النصارى ، وذم دين الإسلام وأهله » .

ثم يقول : وحكى الشيخ قطب الدين فى ذيله « ذيله على المرأة » أنهم دخلوا إلى الجامع بخمر ، وكان فى نيتهم إن طالت مدة التتار أن يخبروا كثيرا من المساجد وغيرها ، ولما وقع هذا فى البلد اجتمع قضاة المسلمين ، والشهود والفقهاء ، فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها « إيل سيان » فأهينوا وطردها ، وقدم كلام رؤساء النصارى عليهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون »<sup>(١)</sup> .

### وقعة عين جالوت وتراجع التتار عن مصر :

وكان التتار متوجهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة ، وكانت مصر وحدها التى لم تصبها ويلات التتار ، وقد كان ملك مصر الملك المظفر سيف الدين قطز قد تفرس أن التتار يزحفون إلى مصر بعد الشام ، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأى أن يخرج من مصر بالجنود ويشن عليهم الهجوم فى نفس الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر الإسلامية ، والتتار فى عين جالوت يوم ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ وانهزم التتار شر هزيمة بخلاف ما سبق لهم من الحروب ، فخرجوا منها هارين ، وتعاقبهم الجنود المصرية فقتلوهم وأسروا منهم عددا كبيرا ، يقول العلامة السيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » :

« فهزم التتار شر هزيمة ، وانتصر المسلمون ولله الحمد ، وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم »<sup>(٢)</sup> .

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٣ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥ .

وهزمهم الملك الظاهر بيبرس بعد انهزامهم فى عين جالوت مرات عديدة ، وأخرجهم من أرض الشام وطردهم منها ، حتى بطل المثل السائر « إذا قيل لك أن التتار انهزموا فلا تصدق » .

## انتشار الإسلام فى التتار :

وقبل أن ينجرف العالم الإسلامى مع هذا السيل الجارف العنيد ، وينظمس معالمة وملامحه ( كما كان المشاهد الملموس عند ذوى البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين فى ذلك الحين ) بدأت دعوة الإسلام تنتشر فجأة فى هذا الشعب ، ويتحقق على أيدى دعاة الإسلام ما لم يتحقق بالأسنة والرماح ، وبطش السلاطين والملوك ، وبدأ الإسلام يتسرب فى نفوس أعدائه ، ويأخذ بمجامع قلوبهم ، إن خضوع هذا الشعب الذى قهر المسلمين أمام الإسلام من أغرب الوقائع والأحداث فى التاريخ ، فإن هجوم التتار على العالم الإسلامى كالجراد المنتشر ، وإخضاع العالم الإسلامى كله ، ليس من الغريب المدهش كما يبدو فى الظاهر ، فإن عالم الإسلام فى القرن السابع كان بدوره مصابا بتلك الأمراض والأسقام ، التى تلحق الأمم عامة فى أوج حضارتها وشوكتها ، بالعكس من التتار ، ذلك الشعب القوى الأبى الذى نشأ على حياة البداوة ، والهمجية والضراوة ، ولكن الغريب المدهش أن هذا الشعب خضع للمسلمين المفتوحين المقهورين ، واعتنق دينهم فى أوج قوته ، وذروة سلطانه ، ذلك الدين الذى فقد كثيرا من سلطانه السياسى والمادى آنذاك ، وكان أتباعه موضع سخرية والاحتقار فى نظر التتار .

وقد أبدى « أرنولد » استغرابه فى هذا الصدد فى كتابه المشهور Preaching of Islam

« الدعوة إلى الإسلام » حيث قال :

« ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمتة الأولى ، وأطلال مجده التالدة ، كما استطاع بواسطة دعائه أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط الدعوة من المسلمين ، الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين ، كانا يحاولان إحراز قصب السبق فى ذلك المضمار ، وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب ، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى ، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساء ، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعوة

والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم»<sup>(١)</sup> .

« ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الإسلام في مستهل الحكم المغولي لغيره من الديانات القوية ، كالبوذية والمسيحية كانت عملا بعيد المنال ، إذ أن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذي صحب غارات المغول ، وأن معظم هذه المدن التي كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم في الإسلام في القارة الآسيوية ، قد أصبح معظمها أطلالا دارسة ، حتى أن الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء ، كان نصيبهم القتل أو الأسر<sup>(٢)</sup> ، وكان من بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة من يظهر الكراهية للدين الإسلامي على درجات متفاوتة ، فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذي قرره الإسلام ، ثم سار على نهجه قوبيلائي ، فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين اضطهادا عنيفا دام سبع سنين ، حتى إن كثير من المعدمين وجدوا في سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة ، واتهم الأرقاء مواليتهم بهذه التهمة لكي يحصلوا على حريتهم<sup>(٣)</sup> ، وقد عانى المسلمون أقصى ضروب العسف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦ - ١٢٤٨م) الذي ألقى بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيين ، والذي امتلأ بلاطه بالرهبان من المسيحيين»<sup>(٤)</sup> .

« رقد اضطهد أرغون ( ١٢٨٤ - ١٢٩١ م ) رابع الخانات المغول في فارس ، المسلمين في بلاده ، وصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور في بلاطه ، وعلى الرغم من جميع المضاعف ، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة<sup>(٥)</sup> ، آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطئ

(١) الدعوة إلى الإسلام - ص ٢٥٠ ( ترجمة جماعة من الأساتذة المصريين ) .

(٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء ، أن راضى الخيول من أهالي الصين ، كانوا إذا عرضوا أشباحا ، أظهروا البشر والحبور في صلف وإعجاب بعرض صورة تمثل رجلا مسنا ذا لحية بيضاء يجره حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل . وإنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كن يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين .

( Howorth vol. i. p. 159 ) .

( Howorth vol. i. p. 165 ) .

(٣)

Deguignes, vol. III, p. 265

(٤)

(٥) وفي القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا

( cahon p. 279 )

أقدامهم»<sup>(١)</sup> .

أن هذا الحدث مثار دهشة وعجب ، ولكن استغرابنا يشتد ، حينما لا نجد تفاصيله وافية في بطون التاريخ ، أننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المآثر ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج في حظيرة الإسلام ، مع أن هذه المآثر لا تقل أهمية عن أى مآثر إسلامية في التاريخ ، ولهم فضل لا ينكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الإنسانية كلها ، إلى أن يأذن الله لها بالفناء ، فإنهم أنقذوا العالم من دمار محتوم ، ووضعوه تحت رعاية شعب يؤمن بالله وحده ، ويدعو إلى دين محمد ﷺ .

إن دولة جنكيز خان توزعت بعد وفاته إلى أربعة فروع ، وبدأ الإسلام ينتشر في هذه الفروع الأربعة ، وأصبح التتر يعتنقون الإسلام بجهود الخاقان ، حتى دخلوا في ظرف مئة سنة في دين الله ، وقد سرد أرنولد عدة أحداث تلقى الضوء على هذا الباب ، إنه يحكى قصة شيوع الإسلام في فرع جوجى خان الإبن الأكبر لجنكيز خان ، الذى كان يحكم على سيرا داردا ، الجزء الغربى من الدولة . فيقول :

« وكان بركة خان ( ١٢٥٦ - ١٢٦٧ م ) أول من أسلم من أمراء المغول : وكان رئيسا للقبيلة الذهبية في روسيا بين سنتى ١٢٥٦ و ١٢٦٧ م<sup>(٢)</sup> ، وقد قيل فى سبب إسلامه أنه تلاقى يوما مع عير للتجارة آتية من بخارى ، ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الإسلام ، فشرحاهما له شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له ، وقد كاشف أصغر اخوته أول الأمر عن تغييره لدينه ، واعتناقه الإسلام ، وحبب إليه أن يحذو حذوه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين »<sup>(٣)</sup> .

« وقد دخل بركة خان فى حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس ( ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م ) سلطان المماليك فى مصر ، الذى بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ، فقد احتقى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المئتين ، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحکم بين ملكهم وبين هولاء فأتى بفتح بغداد ، وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه ، فروا إلى سورية .

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختارا الزاهدى . وضع لبركة خان فى سنة ١٢٦٠ م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبی الدینیة ، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة ، وتمدنا بوصف للمناظرات التى قامت بين المسيحيين والمسلمين ( Steins Shneider, p. p. 63 - 4 ) .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٨ ، ١٥٩ ( أبو الغازى ج ٢ - ص ١٨١ ) .

حيث ييتمون منها شطر مصر ، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم فى بلاط بيبرس ، الذى أقنعهم بصحة الدين الإسلامى واعتناقه <sup>(١)</sup> ، وكان بيبرس نفسه فى حرب مع هولاءكو ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب ، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابا إلى بركة خان ، وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر ، أن لكل أمير وأميرة فى بلاط بركة خان اماما ومؤذنا خاصا ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس <sup>(٢)</sup> ، وكان من أثر هذه العلاقات الودية التى قامت بين بيبرس وبركة خان ، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام دينا لهم <sup>(٣)</sup> .

أنه يحكى قصة انتشار الإسلام فى الايلخانية الفرع الثانى لأسرة جنكيز خان ، ويقول : « كان الإسلام أقل انتشارا فى بلاد الفرس حيث أسس هولاءكو أسرة ايلخانات المغول ، ولكى يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر ، تحالف هولاءكو مع القوات المسيحية فى الشرق كملك أرمينية والصليبيين ، وكانت زوجته المحببة اليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو اخوانه فى الدين ، كما تزوج ابنه أباقا خان ( ١٢٦٥ - ١٢٨١ م ) من ابنة امبراطور القسطنطينية ، ومع أن أباقا نفسه لم يتخذ المسيحية دينا له ، امتلأ بلاطه بالقسيسين من المسيحيين ، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوروبا ، فكان يرسل القديس لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقلية ، وجيمس ملك أرغونة يطلب اليهم التحالف معه على المسلمين ، كما أرسل لهذا الغرض أيضا بعضا من ستة عشر سفيرا من المغول إلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤ م ، حيث دخل رئيس أولئك السفراء فى المسيحية ، وعمد مع بعض رفاقه ، وقد طمع المسيحيون ، فعلقوا الآمال على اعتناق أباقا خان المسيحية ولكن الأيام أظهرت أن تلك الآمال لم تكن الا سرايا خادعا ، وكان أخوه تكودار أحمد <sup>(٤)</sup> ، الذى اعتلى العرش من بعده ، أول ايلخانات المغول الذين اعتقدوا الاسلام فى فارس ، وقد شب على المسيحية ، لأنه ( كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه <sup>(٥)</sup> ) ،

(١) المقريزى ( م ) ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ ، ١٨٧ .

(٢) المقريزى ( م ) : ج ١ ص ١٢١٥ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام - ص ٢٥٩ - ٢٦٠ - المقريزى ( م ) ص ٢٢٢ .

(٤) أو تيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمي أحمد بعد اعتناقه الاسلام .

(٥) ( Hayton . Ramusio , Tom II p . 60 , c . ) .

« تعمد في صباه وتمسى باسم نقولا ولكنه دان بالاسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم ، وأصبح مسلما ديناً ، ولما ارتد عن المسيحية ، رغب في أن يسمى محمداً خان ، وبذل قصاراه في تحويل كافة التتار إلى دين محمد وعقائده ، ولما أظهروا صلابة في الارتداد عن دينهم ، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الاسلام ، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف ، حتى أن عدداً كبيراً من التتار دخل في عهده في عقيدة المسلمين » ، وقد بعث تكودار أحمد نبأ اسلامه إلى سلطان المماليك في مصر ( قلاوون ) في ذلك الكتاب : « إلى سلطان مصر ، أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وربيعان الحداثة ، إلى القرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته ، ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام<sup>(١)</sup> ) ، فلم نزل نميل إلى اعلاء كلمة الدين واصلاح أمور المسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك ، فأفضى علينا من جلايب الطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه ، وجلى هذه الملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا ، فاجتمع عندنا في قوريليان ( Quriltay على الاصح ) المبارك ، - هو المجتمع الذي تقدح فيه الآراء - جميع الاخوان والأولاد ، والأمراء الكبراء ، ومقدموا العساكر وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، في انفاذ الجرم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الارض برحبها من كثرتها ، وامتلات الأرض رعباً من عظيم صولتها وشديد بطشها ، إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها صم الاطواد ، وعزيمة تلين لها الصم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه ، واجتمعت أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به في الاقطار ، رخاء نسائم الامن والامان ، ويستريح به المسلمون في سائر الامصار في مهاد الشفقة والاحسان ، تعظيماً لامر الله وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله تعالى اطفاء تلك الثائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، واعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه : من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الادواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وإننا لا نحب المسارعة

(٢) سورة ٦ : آية ١٢٥ .



إلى هز النصال للنضال ، إلا بعد ايضاح المحجة ، ولا نبادر لها إلا بعد تبين الحق وتركيب  
الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه  
النجاح ، إذ كان الشيخ قدوة العارفين ( كمال الدين عبد الرحمن ) ، الذى هو نعم العون  
لنا فى أمور الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن ( لبي ) دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه  
وعصاه ، وأنفذنا أقصى القضاة قطب ( الملة ) والدين ، والاتابك بهاء الدين ، اللذين هما  
من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفوهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم  
المسلمين جميل نيتنا ، وبيننا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الإسلام يجب ما  
قبله ، وأنه تعالى ألقى فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهله . . . فإن تطلعت نفوس إلى دليل  
تستحكم بسببه دواعى الاعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر  
من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعم أثره ، فإننا ابتدأنا بتوفيق الله باعلاء أعلام الدين واطهاره ،  
فى ايراد كل أمر واصداره ، تقديمًا لنا موس الشرع الحمدي ، على مقتضى قانون العدل  
الأحمدى ، اجلالًا وتعظيمًا ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من  
اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا : عفا الله عما سلف ، وتقدمنا باصلاح  
أمور أوقاف المسلمين ، من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط  
الدوارس ، وايصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها . . .  
وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج ، وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها . وتيسير قوافلها ، وأنا أطلقنا  
سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم « ،  
وهو يلتمس مخالفة سلطان مصر » بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد ، وتسكن الفتنة  
الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحمل العامة أرض الهوينى ، وتخلص رقاب المسلمين  
من أغلال الذل والهون <sup>(١)</sup> \* .

وإن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع  
وما سفكوه من الدماء ، إلى أسمى عواطف الانسانية وحب الخير ، التى أعلنت عن نفسها

(١) وصاف الحضرة ص ( ٢٣١ - ٢٣٤ ) .

(\*) وقد ورد هذا الكتاب أيضا فى القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٦٥ - ٦٨ ، وهو مؤرخ فى  
شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ ( أغسطس سنة ١٢٨٢ م ) ، وقد بعث به مع رسولين هما قطب  
الدين شيرازى وأتبك بهلوان ، وقد رد قلاوون على ايلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من  
السنة نفسها ( ٣ ديسمبر سنة ١٢٨٣ م ) . وقد ورد هذا الكتاب فى القلقشندى ( ج ٧ ص ٢٣٧ -  
٢٤٢ ) .

فى تلك الوثيقة التاريخية التى كتبها تكودار أحمد إلى سلطان الممالىك فى مصر ، والتى يدهش الانسان لصدورها من مثل ذلك المغولى .

وقد أحفظ تكودار أحمد واضطهاده ، المسىحين ، المغول الذين كانوا شديدى الاتصال بهم برغم مخالفتهم فى الدين ، وشكوه إلى قوبىلائى خان ، متهمين إياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده ، وقد قامت فى وجهه ثورة على رأسها ابن أخيه أرغون الذى دبر قتله ، ثم خلفه على العرش ، وفى اثناء حكم أرغون ( ١٢٨٤ - ١٢٩١ م ) القصير ، استرد المسىحيون مكانتهم من جديد ، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد ، فصرفوا عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، وحرّم عليهم الظهور فى بلاطه (١) .

وقد ظل خلفاء تكودار أحمد على وثنتهم ، حتى دخل غازان ( ١٢٩٥ - ١٣٠٤ م ) سابع الايلخانات وأعظمهم شأنا ، فى الدين الإسلامى فى سنة ١٢٩٥ م ، وجعله دين الدولة الرسمى فى فارس ، وفى عهد ايلخانات المغول الثلاثة الأخيرين الذين سبقوا غازان\* ، أمل المسىحيون أمالا كبارا فى تحويل الاسرة الحاكمة فى فارس عن الدين الاسلامى ، تلك الاسرة التى ظهرت نحوهم عظفا شديدا ، وأسندت إليهم كثيرا من مناصب الدولة الهامة ، وكان بيدو خان سلف غازان ، الذى كان رأس الفتنة فى فارس ، ولذى جلس على العرش فى سنة ١٢٩٥ م بضعة أشهر فقط ، قد آثر الدين المسىحى ، وجهد فى وضع العقبات فى سبيل انتشار الإسلام بين المغول ، فحرّم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين ، أو أن ينشر عقائده بينهم (٢) .

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام ، وشيد عدة معابد للبوذية فى خراسان ، وكان يسر كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين يتمون إلى هذا الدين ، والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس فى جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم فى هذه البلاد (٣) ، ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل إلى تقليب نظره فى المسائل الدينية . لأنه درس عقائد الاديان

(١) De Guignes , vol . III p.p 263 - 5 .

(\*) هؤلاء هم أرغون ( ١٢٨٤ - ١٢٩١ م ) ، وجيجاتو ( ١٢٩١ - ١٢٩٥ م ) ويبدو ( ابريل - أكتوبر سنة ١٢٩٥ م ) .

(٢) . C . D . Ohsson , Tome IV p.p.141 - 2 .

(٣) . I p, 18p . 148 .

المختلفة المنتشرة في زمانه <sup>(١)</sup> ، وقد ايد رشيد الدين ، وزيره العالم ومؤرخ عصره ، بالبرهان صحة اعتقاده الاسلام ، الذي أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره في حماس وغيره طوال عهده <sup>(٢)</sup> .

ان ابن كثير نفسه ذكر إسلام غازان في وقائع ٦٩٤ هـ بارتياح بالغ ، ويبدو منه - ويؤيده في ذلك غيره من المؤرخين أن الفضل في ذلك يرجع إلى الامير التركي الصالح توزون <sup>(٣)</sup> ، فإن ملك التتر أسلم بجهوده ، كتب ابن كثير في وقائع ٦٩٤ هـ ، يقول :

« وفيها ملك التتار قازان ابن أرغوان بن أبغايين تولى بن جنكيز خان فأسلم ، وأظهر الإسلام على يد الأمير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار أو أكثرهم في الإسلام ، ونثر الذهب والفضة ، واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم اسلامه ، وتسمى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة ، وخرّب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية ، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد ، وظهرت السبح والهيكل مع التتار والحمد لله وحده <sup>(٤)</sup> . »

يقول ارنولد :

« أن أخاه أوجياتيو Aljaytu الذي خلفه في سنة ١٣٠٤ م باسم محمد خدابنده\* Khudabandah كان على المسيحية دين أمه . وعمد باسم نيقولا ، على أنه لم يلبث أن

(١) C . D . Ohsson , Tome IV p . 365 .

(٢) الدعوة إلى الإسلام - ص ٢٦٠ - ٢٦٤ .

(٣) يسميه أرنوند وغيره من المؤرخين « نوروزبيك » .

(٤) البداية والنهاية ج ١٣ - ص ٣٤٠ .

(\* ذكر ابن بطوطة ج ١ ص ( ١٤٣ ) أن اسمه مختلف فيه . وقد قيل خدا ( بضم الخاء ) ومعناها بالفارسية اسم الله وبنده ومعناها غلام أو عبد ، وقيل خربنده بفتح الخاء ومعناها بالفارسية الحمر وبنده . معناها غلام أو عبد . فيكون عبد الله ، أو غلام الحمار ، وقد قيل أن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير . أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته . فلما ولد كان أول داخل الزمال ( الزمال صاحب الزاملة ، والزاملة ما يحمل عليه من الحيوان ، ولعله يرى هنا الحمار فسمى خربنده ، وذكر بروان أن غازان لما تولى فر أوجياتو وظل مشردا يرعى الحمير في اقليم كرمان وهرمز . ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعي الحمير ، وقيل أيضا أن أبوى الطفل كان يطلقان عليه اسما قبيحا حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد ، ولذلك سمي خربنده كما يسمى العرب ابناهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد في كبره صخرا أوكلبا على عدوه . وقال ابن الوردي ( تاريخ الوردي ص ٢٦٤ ) أن خربنده اسمه خدابنده ، وأن ملكة شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمي آذربيجان وديار بكر .

أسلم بعد موت أمه ، وهو لا يزال شابا في مقتبل العمر ، وذلك بتأثير زوجته <sup>(١)</sup> ، ويذكر ابن بطوطة <sup>(٢)</sup> ، أن سيرة ذلك الأمير ، كان لها أثر كبير في نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الاسلام الدين السائد في دولة ايلخانات فارس <sup>(٣)</sup> .

الفرع الثالث من هذه الاسرة كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مؤسسها جفطائي بن جنكيز خان .

يقول أرنولد :

« وإن ما لدينا من المعلومات عن تقدم الاسلام وانتشاره في امبراطورية المغول الوسطى ، التي كانت من نصيب جفطائي لا يزال ضئيلا ، وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون في دولتهم بسوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يبد أي ميل إلى الإسلام ، وقد ضيق جفطائي على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التي ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الرضوء ، ويذكر الجوزجاني أن جفطائي هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة ، وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته . . اللهم إلا إذا أريد بها التحقير والحط من شأنها <sup>(٤)</sup> ، وقد ربت أرغنة Orghana زوجة قرا هولاقو Qara-Hulagu حفيد جفطائي وخليفته ، ابنها على الاسلام . وتقدم

(١) . Hammer - Purgstall : Geschichte Der Hchanen vol . II p . 182 .

لا يبعد أن تكون سبايا الاسلام قد قمن في تحويل المغول إلى الإسلام . ويظهر أن المرأة شغلت مراكز من مراكز الشرف والكرامة بين المغول ، ويمكن أن تأتي بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر في الشؤون السياسية . وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء في أزواجهن في المسائل الدينية ، ويحدثنا وليم روبرك أنه شاهد بنفسه تأثير إحدى النساء المسلمات وكيف وقف ذلك التأثير في سبيل نشر تعاليمه الدينية :

« وفي عيد العنصرة أتى أحد المسلمين عندما أخذنا نشرح تعاليم الدين في أثناء حديثه معنا ، فلما سمع عن نعم الله على الناس وعن التجسد وبعث الموتى ويوم الحساب ومحو الخطايا عن طريق التعسيد رغب في أن يعمد ولكن ، بينما كنا نعد العدة لتعميده ، امتطى صهوة جواده على حين غفلة ، قائلا : أنه لا بد من أن يذهب إلى داره لاستشارة زوجته ، وفي اليوم التالي قال لنا في أثناء حديثه معنا ، أنه لم يستطع أن يجرؤ على أن يعمد ، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب لبن الفرس » ( Rubruck p . p . 90 - 1 ) .

(٢) ابن بطوطة - ص ٥٧ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام - ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٤) الجوزجاني ص ٣٨١ - ٣٩٧ - 6 - 1110 , 1145 - Raverty , p .

باسم مبارك شاه فى سنة ١٢٦٤ مطالباً بعرش خاقانية جفطائى ، الذى كان مثار النزاع بين أمراء المغول ، ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان Buraq Khan ، ويظهر أنه لم يكن لاسلامه أى أثر بين المغول ، فإننا لو رجعنا فى الواقع إلى أسماء أبنائه ، لا نجد أحدا منهم قد دخل فى دين أبيه<sup>(١)</sup> ، وقد قيل ان براق خان نفسه « قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة » قبل موته فى سنة ١٢٧٠ م بأيام قليلة ، وإنه تسمى باسم السلطان غياث الدين<sup>(٢)</sup> ، إلا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الاسلامى ، وأن من أسلموا فى عهده ارتدوا إلى وثنيتهم الأولى ، ولم يتم انتشار الاسلام بين المغول فى مملكة جفطائى إلا فى القرن التالى لاسلام مبارك خان ، ذلك على أثر اسلام طرما شيرين Tarmashirin حول سنة ١٣٢٦ م ، وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين فى هذه المرة بدينهم الجديد ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يتأصل الميل إلى الإسلام بعد فى نفوس المغول ، فان بوزن Buzan الذى كان خان المغول فى السنين العشر التالية ( ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة ) ، لم يلبث أن طرد طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين<sup>(٣)</sup> ، على أننا لم نسمع عن ظهور أول ملك مسلم فى كاشغر إلا بعد سنين قليلة . وكان ضعف أسرة جفطائى قد أتاح لهذه المملكة أن تستقل بحكم هذه البلاد ، ويقول بعض المؤرخين أن اسلام تغلق تيمور خان TuqLuq Timur Khan (١٣٤٧ - ١٣٦٣ م) ملك كاشغر ، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى فى مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين ، وكان معه جماعة من التجار . وكانوا قد اعتدوا على الاراضى التى خصصها ذلك الامير للصيد ، فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم ، وأن يمثلوا بين يديه ، ثم سألهم فى غضب : كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض . فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضا محرمة ، ولما علم الامير أنهم من الفرس . قال : أن الكلب أغلى من أى فارسى ، فأجاب الشيخ : « نعم ! قد كنا أحسن من الكلب ، وأبخس ثمنا منه لو أننا لم نذن بالدين الحق » ولما راع الامير ذلك الجواب أمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسى الجسور عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا يعنى بهذه الكلمات ، وما ذلك الدين ؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام فى غيرة وحماس ، انفطر لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصور له الكفر بصورة مروعة

(١) رشيد الدين ١٧٣ - ٤ - ١٨٨ .

(٢) أبو الغازى ج ٢ ص ١٥٩ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٣ - ص ٤٧ .

اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال : « ولكنى إذا اعتنقت الاسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياى إلى الصراط المستقيم فلتمهلنى قليلا ، فإذا ما آلت إلى مملكة أجدادى ، فعد إلى » ، وذلك أن امبراطورية جغتائى انقسمت فى ذلك الوقت إلى امارات صغير ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور Tuqluq Timur فى توحيد الامبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل ، وفى هذه الاثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضا شديدا ، فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح تغلق تيمور يوما ما ملكا عظيما ، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه منى السلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذى قطعه لى » ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، وكان قد استرد عرش امبراطورية آبائه ، تنفيذًا لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالمشول بين يدي الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيرا لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة ؛ ففي ذات يوم أخذ يؤذن فى الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان ، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثاره غضبه ، فأمر باحضاره ومثوله بين يديه ، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه ، ولم ينس تغلق تيمور وعده وقال : « حقا ! ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائى ، ولكن الشخص الذى قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة » ، ثم أقر بالشهادتين ، وأصبح مسلما منذ ذلك الحين ، « وأشرق شمس الاسلام ومحت بنورها ظلام الكفر . . . ولكى ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الامراء واحدا بعد واحد . ويعرض عليهم الاسلام ، فمن قبله جوزى الجزاء الحسن ، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعباد الاصنام »<sup>(١)</sup> .

أما الفرع الرابع الذى ينتمى إلى اجتائى خان والذى برز فيه من الملوك والفتاحين أمثال منجو خان ، وقوبيلاى خان ، والذى كان يحكم الجزء الشرقى من امبراطورية التتر ، فقد يقول فيه أرنولد :

« ولا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبى قد انتشروا فى طول امبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين فى طى الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الاسلام ، وفى عهد اجتائى (١٢٢٩ - ١٢٤١ م) نقرأ عن اسلام بوذى يدعى Kurgus وكان حاكما على بلاد الفرس

(١) الدعوة إلى الاسلام - ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

من قبل المغول<sup>(١)</sup> ، وفي عهد تيمور خان ( ١٢٢٣ - ١٢٢٨ م ) كان آنندا Ananda حفيد قوبيلائي ( ١٢٥٧ - ١٢٩٤ م ) وأكبر كانسو مسلما متحمسا ، كما دفع كثيرا من أهل تانجوت Tangut وعددا كبيرا من الجنود الذين كانوا تحت امرته إلى اعتناق هذا الدين ، وعلى الرغم من استدعائه إلى بلاط تيمور وبذل الجهد في ارتداده إلى البوذية ، أبقى إلا التمسك بدينه الجديد ، فألقى به في غياهب السجن ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالي تانجوت الذين كانوا شديدي التعلق به<sup>(٢)</sup> .

وهكذا دخل هذا الشعب ( الذي دوخ العالم الاسلامي كله وداس أطرافه بأقدامه ونعال خيوله ، والذي لم تتماسك أمامه أي قوة ) في دين الله الاسلام في بضع سنين ، وبدأت هذه الحقيقة مرة أخرى ، واضحة جلية ، أن الاسلام لا يزال يملك أكبر نفوذ ، ويتمتع بأغرب موهبة في تسخير الارواح وكسب الانصار والاصدقاء ، ان التتر لم يسلموا رسميا فحسب ، بل برز فيهم عدد كبير من العلماء والفقهاء والمجاهدين ، والدعاة والربانيين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدوا دورهم الثمين في حماية حمى الاسلام في ظروف دقيقة ولحظات عصيبة من التاريخ .

---

(١) . C . D . Ohsson , vol . III 121 .

(٢) الدعوة إلى الإسلام - ص ٢٥٨ ، رشيد الدين ص ٦٠٠ - ٦٠٢ .





## مولانا جلال الدين الرومي عصره ، وترجمة حياته

### ثورة علم الكلام والعقلية . ونتائجها :

خضعت الأوساط العلمية والحركات الفكرية في القرن السابع للاستدلال والقياس العقلي خضوعاً زائداً ، وأصبح المؤلفون والمتكلمون والباحثون والدعاة مضطرين إلى البراهين العقلية والمقدمات الفلسفية . في اثبات حقيقة غيبية ، أو تقرير عقيدة دينية ، وجاء العلامة « فخر الدين الرازي » ( ٦٠٦ م ) فجدد دولة علم الكلام . ووسمها بشخصيته القوية . ومؤلفاته العظيمة ، وبحوثه الدقيقة .

انتصر الأشاعرة على المعتزلة والفلاسفة في الحياة والمجتمع وفقد الاعتزال والفلسفة شيئاً كثيراً من سيطرتهم ونفوذهم : ولكن روح الاعتزال والنزعة العقلية تغلغلت في حشاه علم الكلام ، وسيطرت على تفكيره ومناهج بحثه ، وقد غلا المتكلمون أنفسهم في لزمن الأخير في تقدير العقل ، ووسعوا حدوده ، وسمحوا له أن يبحث في مسائل لذت والصفات - التي هي وراء طور العقل<sup>(١)</sup> بحثاً حراً ، وكان اثباتهم للمسائل الدينية وحقائق الأشياء يعتمد دائماً على الاستدلال الفلسفي والقياس المنطقي ، كما كان يعتمد على ذلك في أدب المعتزلة وكتب الفلاسفة باختلاف في التعبير والمصطلحات . وقد حكموا الظواهر والمحسوسات تحكيماً كبيراً .

كنت نتيجة ذلك أن طغى على العالم الإسلامي « الجفاف الفلسفي » - إن صح التعبير - وإذا كان لغلو في القياس والاستدلال قد أفاد العقول جدة ونشاطاً ، فقد أفقد قلوب إيماناً وحررة .

لقد استطاع المتكلمون بقوة استدلالهم وبراعتهم في المناظرة أن يقطعوا لسان معترضين ويفحموا المجادلين ؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يبعثوا في القلوب سكينه ويمناً ، وفي أهل الشك يقيناً واذعاناً .

لقد خفقت منهج بحثهم وأساليب استدلالهم عقداً في القلوب والعقول ، عجز علم

---

(١) لذ ذ قلذ « وراء طور العقل » فلا نعنى أنه يعارض العقل أو ينافيه والفرق بينهما كبير . وقد يخلط بينهما من لم يدقق ولم يرسخ في العلم .

الكلام عن حلها وفكها ، واستخف علم الكلام وأصحابه بالوجدان الذي هو منبع فياض للعلم واليقين ، فنضب معينه .

كانت الفلسفة ، ومن سار سيرتها ، لا تقرر إلا بالحواس الخمس ، وأصبح كل شيء لا يدرك بهذه الحواس الظاهرة ، ويتوقف على الحاسة الباطنة محل الجدل والشك ، ويميل «المثقفون» إلى نفيه وانكاره ؛ وقد ضعفت في الأمة بتأثير علم الكلام والفلسفة - قوة العمل ولوعة الحب التي كانت مصدراً من مصادرة قوة هذه الأمة كبيراً ، وموهبة من مواهب النبوة العظيمة . وقد حولت المباحث الفلسفية والحروب الكلامية العالم الإسلامي إلى « مدرسة » يكثر فيها القيل والقال ، والنقاش والجدال ؛ ولكنها بعيدة عن الحياة والحب ، والايان الوثيق العميق والعاطفة القوية الرقيقة ، وقد كون أهل القلوب جزراً روحية في هذا المحيط العقلي المادي ، يسود فيها الحب واليقين ، والسكينة والطمأنينة .

### الحاجة إلى متكلم جديد :

كان العالم الإسلامي حينئذ في حاجة شديدة إلى شخصية قوية عبقرية مجددة ، قد وصلت بدراستها إلى احشاء الفلسفة ثم خرجت منها سالمة ، وقد شاهد بتجاربه الواسعة أن الفلسفة سراب يحسبه الجاهل ماء ، وأن تدقيقاتها وما تزهي به من بحث وتحقيق طلاس لفظية وطبول فارغة ، يرغب فيها من لم يختبرها ويتعمق فيها .

كان العالم الإسلامي في حاجة إلى شخصية تستطيع أن تنسخ بقلبها الولوع وعاطفتها القوية روحاً جديدة في المجتمع ، الذي طغى عليه العقل - على حساب العاطفة - وساد عليه الخمود ، شخصية تستطيع أن تؤسس كلاماً جديداً لا يصرع العقول ، ولا يكتفى بافحام المجادلين ، بل يحل العقد النفسية والفكرية التي خلفها علم الكلام ويملاً القلوب سكينه وإيماناً .

لقد وجد هذا الرجل المطلوب في شخصية مولانا « جلال الدين الرومي » . وقد كان ديوان شعره الذي يعرف عادة بـ « المثنوى المعنوي » <sup>(١)</sup> ثورة على علم الكلام الذي فقد جدته وقوته ، ونقد الفلسفة في اتجاهها ومنهجها ، وعلى الفلسفة التي تجاوزت حدودها ، وبالغت في تقدير الحواس وتقديس العقل ، وكان أساساً لكلام جديد كان أكثر اقناعاً للعقول الجامحة الشائرة ، والنفوس المضطربة الحائرة من علم الكلام ، الذي تزعم ذلك

---

(١) ترجم إلى العربية ترجمة دقيقة من قبل أحد أساتذة جامعة بيروت العربية وطبع في جزأين فاخرين عام ١٩٦٩ .

وتكفل به طوال القرون .

## ترجمة حياته :

ولد<sup>(١)</sup> جلال الدين محمد الرومى ، فى سادس ربيع الأول ، سنة ٦٠٤ هـ فى «بلخ» من أعمال أفغانستان ، وكان والده محمد الملقب « بهاء الدين ولد » من كبار علماء بلاده ومشائخ عصره ، وقد لقب بسُلطان العلماء ، ينتهى نسبه إلى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

بدأ جلال الدين دراسته عند الشيخ برهان الدين المحقق « الترمذى » الذى كان من تلاميذه والده ، ونبغ على يده ، وقد كان والده الشيخ « بهاء الدين » ينتقد علماء العصر لعكوفهم على دراسة العلوم العقلية وتعليمها ، وانصرافهم عن القرآن والحديث ، وكان الشيخ مهاباً جليل القدر يجله العامة والخاصة ، وتأتبه الفتاوى من أقاصى البلاد ؛ فحسده العلماء وأوغروا صدر الملك عليه ، وقد هاله التفاف الناس حوله وصدورهم عن رأيه ؛ فأوعز إليه بالخروج من البلاد ، وهاجر الشيخ بأهله ، وأقام فى مدن كثيرة كان فيها موضع حفاوة بالغة واجلال ؛ حتى استقر فى « قونية » سنة ٦٢٦ هـ بدعوة من « علاء الدين كيقباد » سلطان الروم ، الذى احتفى به ، وبالغ فى اكرامه ، وبإيعة .

مكث الشيخ « بهاء الدين » سنتين فى قونية وتوفى سنة ٦٣٨ هـ ، وخلفه ولده النابغة مولانا « جلال الدين » وبني له الأمير بدر الدين « كهردش » أستاذ السلطان ، مدرسة عرفت بمدرسة « خداوندكار » ووقف لها أوقافاً واسعة ، ولاء رئاستها . واستمر جلال الدين فى التدريس والوعظ والإرشاد على نمط والده العظيم ، ولم يمنعه هذا الجاه العريض والمكانة المرموقة من التوسع فى الدراسات ، والتبحر فى العلوم ، وسافر سنة ٦٣٠ هـ إلى بلاد الشام ، ومكث فى المدرسة « الحلاوية » بحلب ، واستفاد من كمال الدين بن العديم ، وقد أقر له علماء حلب بالنبوغ والاطلاع الواسع ، ومن حلب توجه جلال الدين إلى دمشق ، حيث أقام بالمدرسة « المقدسية » ، وكانت له مجالس لطيفة مع الشيخ محى الدين بن عربى ، والشيخ سعد الدين الحموى ، والشيخ عثمان الرومى ، والشيخ أوحى الدين الكرمنى ، والشيخ صدر الدين القونوى ، وقد اجتمعوا فى دمشق فى ذلك العصر .

---

(١) اعتمدنا فى تلخيص ترجمته وأخباره على كتاب « صاحب المثنوى » للاستاذ المحقق القاضى تلمذ حسين الهندى ، وهو خير ما كتب فى هذا الموضوع ومن أوثق المصادر ، واستفدنا قليلاً من كتاب « زندكانى مولانا جلال الدين » استاذ بديع الزمان فروزانفر أحد أساتذة الأدب فى جامعة طهران .

رجع جلال الدين في سنة ٦٣٤ هـ إلى قونية ، وعكف على التدريس والافتاء ، وقد نرح إلى « قونية » كثير من العلماء والأشرف الدين هاجروا من بلادهم في فتنة التتار ؛ فأصبحت مدينة العلم وملجأ العلماء والفضلاء ، واستقر بها أصحاب الشيخ محي الدين بن عربي بعد وفاته ، منهم الشيخ صدر الدين القونوي .

كان جلال الدين منقطعاً إلى التدريس وتحرير الفتاوى ، وكانت مدرسته مدرسة عامرة يدرس فيها أكثر من أربعمئة طالب .

استمر جلال الدين يدرس ويفيد ويعيش كعالم ومدرس ؛ حتى حدثت له حادثة قلبت حياته واتجاهه ، وفتحت قريحته واشتملت مواهبه ، وكانت سبب شهرته وتأثيره وخلوده .

في جمادى الآخرة سنة ٦٤٣ هـ وصل إلى « قونية » رجل من الصوفية من « تبريز » في إيران . اسمه « محمد بن علي بن ملك داد » ويعرف بشمس تبريز ، يعرف الناس عن نسبه وأحواله قليلاً ، وخرج جلال الدين يوماً في موكبه من التلاميذ والعلماء ، والناس حوله يسألونه ويستفيدون منه ، وتقدم شمس الدين إلى الراكب المحتفل به وقال : ما المقصود من الرياضيات والعلوم ؟ قال جلال الدين : الاطلاع على آداب الشرع . قال شمس الدين في هدوء وثقة : لا ؛ بل الوصول إلى المعلوم ، وأنشد بيت الحكيم « السنائي » الذي يقول فيه : « أن العلم إذا لم يجردك من نفسك فالجهل خير منه » وتخير جلال الدين ، وأصاب شمس الدين هدفه ، وأصمى رميته .

ورجع جلال الدين مع أستاذه الجديد ، وبقي معه في حجرة أربعين يوماً ، وفي رواية أنه اعتكف معه ستة أشهر في حجرة صلاح الدين زركوب « الدقاق » لا يدخلها إلا صلاح الدين . وامتلاً جلال الدين بروح جديدة ، وانكشف له عالم جديد من الحقائق والأذواق ، وإلى ذلك أشار جلال الدين في بيت له بقوله : « أن الشمس التبريزي هو الذي أراني طريق الحقيقة ، وهو الذي أدين له في إيماني و يقيني ، ويقول « سلطان ولد » ابن جلال الدين : « ان الاستاذ الكبير أصبح تلميذاً صغيراً للشيخ التبريزي يتلقى منه الدروس كل يوم . أنه وإن كان نابغة في العلوم ، ومقدماتاً في الزهادة ؛ ولكنه رأى عنده علماً جديداً لا عهد له به » .

وخضع جلال الدين لشيخه الجديد خضوعاً كاملاً ، وانصرف إليه انصرافاً كلياً ، وتشاغل عن تلاميذه ومريديه ؛ فكبر ذلك عليهم ، وثاروا ، وقالوا : لقد صرفنا أعمارنا في خدمة الشيخ ، وشاهدنا كراماته ، وبنا طار ذكره في الأفاق ، وجاء رجل غريب

مجهول وقطعه عنا ، واستولى عليه ؛ فلا سبيل لنا إلى لقائه ورؤيته . ووقفت الدروس والمحاضرات ؛ فلا شك أنه رجل ساحر أو داهية باقعة ، جرف هذا الجبل الرأسى من العلم كتبنة حقيرة وورقة خفيفة .

واشتدت عداوتهم لشمس الدين ، وعزموا على اقصائه من « قونية » ليخلو لهم وجه أستاذهم ، ويكونوا من بعده قوماً صالحين ، وتحمل ذلك شمس الدين فى صبر وحلم ؛ حتى تجاوز الحد ، وخاف شمس الدين الشر والفتنة ؛ فخرج من قونية مستخفياً ، وكان ذلك غرة شوال عام ٦٤٣ هـ بعدما أقام فى « قونية » عاماً وأربعة أشهر .

وحزن جلال الدين لغيبة أستاذه حزناً شديداً ، واعتزل جميع تلاميذه ومريديه ، ولم يتحقق ما ألوه من اقصاء شمس الدين ، وحرّم أصحاب الصلوق والوفاء من أصحابه الاستفادة من شيخهم الجليل .

وبقى الشيخ منقطعاً عن الناس ، منصرفاً عن اشتغاله ؛ حتى فاجأته رسالة للشيخ شمس الدين من دمشق ، فطابت نفس جلال الدين ، وأقبل إلى مجالس السماع كعادته ، وأقبل على من لم يساهم فى ايداء شمس الدين واقصائه بعطف ، وكتب إلى شمس الدين رسائل حنين وغرام يقول فى احداها :

أيتها النور فى الفؤاء تعال	غاية الوجود والمراد تعال
أيتها السابق الذى سبقت من	ك مصدوقة الوداد تعال
« جون بيانى ، زهى كشاد ومراد	جون نيانى ، زهى كساد تعالى » (١)
أنت كالشمس إذ دنت ونأت	يا قريباً على العباد تعال

وهدأت ثائرة الناس ، وعرف جلال الدين أن الناس أقلعوا عن عداوة شمس الدين وايدائه ؛ فأرسل ولده « سلطان ولد » مع هدايا نفيسة ينثرها على قدميه ، ويطلب منه العفو عمن آذاه ، وأن يصرف عنان عزيمته إلى « قونية » وكتب رسالة رقيقة منظومة .

ورجع شمس الدين إلى « قونية » وابتهج بقدميه جلال الدين ، وسر سروراً عظيماً ، وطابت مجالسه مع شمس الدين ، وصفت له الأوقات .

وازداد جلال الدين اجلالاً لشيخه وحباً له واتحاداً معه ؛ ولكنه لم يمض على هذا النعيم

(١) معنى البيت بالعربية :

يا سروراً وسعادة إذا قدمت ، ويا حزناً وكساداً إذا غبت .

زمن طويل ؛ حتى ثارت الفتنة من جديد ، وكان ممن ساهم في هذه الفتنة ولده الأوسط «شلبى علاء الدين» وغاب شمس الدين ثانية .

وقامت قيامة جلال الدين وজন جنونه ، وأقصى جلال الدين كل من تسبب في إيذاء شمس الدين ، وطردهم من عنده ؛ ولكنه شغل نفسه في هذه المرة بمجالس السماع ، وكان ذلك في سنة ٦٤٥ هـ .

وبحث جلال الدين عن شيخه في كل مكان ، ولما لم يجد له أثر تغيرت حالته ، وأصبح لا يصبر عن مجالس السماع لحظة ، وكان يدور في مدرسته كالهائم ، ويثن ويرسل زفراته ، ويقول في الحنين إلى شيخه الشعر الرقيق ، وينظم القصائد الطوال ، وكان إذا حدث أحد بأنه رأى شيخه أو لقيه في مكان خلع عليه لباسه شكراً .

وخرج جلال الدين إلى الشام ليبحث عن شمس الدين ، ورافقه أصحابه ، ووصل إلى دمشق وأشعل قلوب أهل دمشق حباً وغراماً ، وتعجب الناس وقالوا : من هذا الرجل الذي هام به نابغة عصره ونادرة زمانه هذا الهيام !؟ .

ولما لم ير للشمس عيناً ولا أثراً سكنت نفسه ، وقال : لا فرق بينى وبين شمس الدين ، إن كان هو شمساً فأنا ذرة ، وإن كان هو بحراً فأنا قطرة ، ونور الذرة من الشمس ، وحياة القطرة من البحر ، ورجع إلى « قونية » .

وأقام في « قونية » بضع سنين ، وثار الحب مرة ثانية ، ورجع إلى دمشق مع جماعة من أصحابه ، ثم رجع إلى « قونية » مقتنعاً بأنه عين « الشمس » ، وقال اننى لم أكن أبحث عن « شمس الدين » انما كنت أبحث عن نفسى ، وأن كل ما فى « شمس الدين » هو نفسى ، وأصبح يشاهد فى نفسه ما كان يشاهده فى « شمس الدين » واتخذ الشيخ « صلاح الدين الدقاق » صاحب سره ، وخليفة له وجليسه الخاص ، وصار لا يسكن إلا إليه . وعاش صلاح الدين فى هذه الحال عشر سنين ، وتوفى سنة ٦٥٧ هـ ، واتخذ جلال الدين « شلبى حسام الدين » جليساً له بعد صلاح الدين ، وكان السبب فى تأليف المثنوى ، فقد سألت له قريحته بهذا الشعر الخالد ، ولما توفيت زوجة حسام الدين « الشلبى » وتشاغل حسام الدين ، جمدت قريحته وتوقف تأليف المثنوى .

وكان جلال الدين - كما وصفنا من حاله - لا يسكن ولا يرتاح إلا إلى صاحب موافق تنسجم نفسه مع نفسه ، وكان استاذة السيد « بهاء الدين » أول صاحب له ؛ فلما مات بقى الشيخ خمس سنوات يشعر بفراغ فى نفسه وفى حياته ، وجاء « شمس الدين التبريزى »

فملاً هذا الفراغ وزاد ، ولما غاب ، شعر جلال الدين بفراغ هائل ، وبقي في قلق دائم حتى ملأه بصلاح الدين « الدقاق » و « الشلبي حسام الدين » بعده ، وكأنما كانت المواهب المودعة في ضميره وفطرته في حاجة إلى من يثيرها ويحركها ، ولم يكن تأليف المثنوى إلا استجابة روحية لهذا النداء الخفى .

ولم يكن اختيار جلال الدين لأصحابه وجلسائه كصلاح الدين وحسام الدين بفضل علم وزهد أو كشف وكرامة ، وإنما لكان لمجانسة بين الأرواح والخواطر ، والنفوس والقلوب . وقد ذكر سبب اثاره لصلاح الدين على غيره واستثثاره به مجانسة بينهما لا غير وقال : إن الحب الذى يقوم على المجانسة لا يعقبه ندامة فى الدنيا والآخرة ؛ ولذلك يتمنى من لم يلاحظ هذه المجانسة « يا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً » ؛ أما المحبون المتجانسون فلا فرقة بينهم ولا عداوة ، ولا ندامة ولا ملامة « الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ويقول : « إن هذه المجانسة هى التى خلقت الإيمان فى الصحابة ، وجذبت النفوس إلى الرسول ، وإليها يرجع الفضل فى إيمان كثير من السابقين الأولين ، لا إلى المعجزات فإن المجانس يجذب صفات المجانس ، وينصبغ بصبغته » .

#### وفاته :

شهدت « قونية » - بلد جلال الدين - زلزالاً ستة ٦٧٢ هـ ، ودامت الرجفة أسبوعاً كاملاً ، وكان جلال الدين مريضاً رهين الفراش ، وزاره الناس وطلبوا منه الدعاء ؛ فقال : « إن الأرض جائعة تطلب لقمة دسمة ، وستألفها عن قريب ، ويرفع عنكم هذا البلاء » وقد أبياتاً وقصائد يحزن فيها إلى لقاء الحبيب ، ويستقبل الموت بنفس منشرحة وثغر باسم ، وعاده صديقه « صدر الدين » فدعا له بالشفاء القريب ؛ فاعتذر وقال : هناك الله بالشفاء وم يضرك إذا رفع الحجاب بين الحبيب والحبيب « ؟ وقال وهو فى سياقه الموت : « إن كنت مؤمناً وحلوا طاب الموت ، وكان الموت مؤمناً ، وإن كنت كافراً ومراً ، كان موتاً كافراً ومراً » ولم يزل مشغولاً ببيان الحقائق والمعارف ؛ حتى فاضت روحه عند غروب الشمس ، لخمس نخلون من جماد الآخرة ، سنة ٦٧٢ هـ .

ولما خرجت جنازته ، ازدحم عليها أهل البلد ازدحاماً كبيراً ، وشيعة أتباع كل ديانة وهم ييكون . وكان اليهود والنصارى يتلون التوراة والإنجيل ، وكان المسلمون ينحونهم فلا يتنحون ، وبلغ ذلك حاكم البلد ، فقال لقساوستهم ورهبانهم : ما لكم ولهذا الأمر ؟ وانها لجنازة عالم مسلم ، فقالوا : « به عرفنا حقيقة الانبياء السابقين ، وفيه رأينا سيرة الأولياء الكاملين » وكانت الجنازة قد خرجت فى الصباح الباكر ، ووصلت إلى مقبرة البلد

عند المساء ، ودفنت في الليل .

## أخلاقه وصفته :

كان جلال الدين <sup>(١)</sup> شديد الرياضة والمجاهدة ، كثير التعبد قال « سبه سالار » وقد صاحبه أعواماً طويلاً « لم أره قط في لباس النوم ، ولم أر عنده فراشاً ولا وسادة ، فإذا غلبه النوم نام جالساً » ويقول في بيت : كيف ينام من يتقلب على حسك السعدان !؟

وكان إذا حانت الصلاة توجه إلى القبلة وتغير لونه ، وكان كثير الاستغراق في الصلاة يقول « سبه سالار » : رأيت مراراً دخل في الصلاة وقت العشاء . وقضى الليل كله في ركعة « وقد وصف جلال الدين صلاته في شعره وصفاً جميلاً بليغاً يدل على أن صلاته صلاة محب مستغرق هائم ، يغيب عن نفسه ويشغل بربه ؛ فلا يشعر بمكان وزمان ، وأمام وركوع وسجود ، يسيل دموعاً ويذوب محبة ، ويحترق ، وقد بكى مرة في الصلاة وابتل الوجه واللحية بالدموع الغزار ، وكان الزمن زمن شتاء ، والبرد في « قونية » شديد، فجمدت الدموع على الخد واللحية وهو في صلاته .

وكان زاهداً متقللاً قنوعاً ، يقسم كل ما يأتيه من هدايا الملوك والأمراء والاعنياء ، وقد يكون في خصاصة ، وكان يفرح إذا كان في فاقة أو جوع ، ويقول : « الآن أشم رائحة التجرد والافتقار إلى الله » .

وكان عظيم السخاء كثير البذل والايثار ، إذا جاء سائل وليس عنده شيء خلع له قميصه أو عباءته ، لذلك كان يلبس قميصاً ليسهل عليه خلعه وكان عظيم الصبر والاحتمال . مر في طريقه بكلب نائم في عرض الطريق ، فوقف ينتظر انتباهه ، وكره ازعاجه ، ومر به رجل يعرفه ، فزجر الكلب وخلقى له الطريق وكره ذلك جلال الدين ، وقال : قد أذيتة .

ومر برجلين يتسابان ، وقال أحدهما للآخر : انك إذا أسمعني واحدة أسمعك عشرأ ، فقال : دونكما نفسي ! فإن أسمعتماني الفأ لم أسمعكما واحدة ، ونخر الرجلان على قدميه وتصالحا .

---

(١) أكثر معلومات . هذا الفصل مستفادة من كتاب « سوانح مولانا روم » باللغة الاردية للعلامة المرحوم شلبي النعماني .



وكان حريصاً على كسب الحلال ، يكره البطالة والرزق الذي يأتيه من غير شغل ، وكانت له جراية خمسة عشر ديناراً من الأوقاف ، فكان يكتب الفتاوى مقابل ذلك ، حتى يستحل ويستحق هذه الجراية وكان قد أوصى تلاميذه أن يخبروه إذا جاء استفتاء ، حتى لا يتأخر عن اجابته ، وكان محتجباً عن الناس ، زاهداً في لقاء الامراء والسلاطين ، اعتذر إليه أمير عن عدم الزيارة ، فقال : « لا داعى إلى الاعتذار ، فالغيبة أحب إلى من الحضور» .



# مولانا جلال الدين الرومي

مفكر مبتكر ، ومؤسس علم كلام جديد

« المثنوى المعنوى » موضوعه وأغراضه :

تدل ترجمة حياة « جلال الدين » على أنه كان قوى العاطفة ، وجدانيا ، ملتهب الروح ولوع القلب ، صاحب استعداد كبير ومواهب عظيمة ، قد عجنت طبيته بالحب ، وقد غطى هذه الشرارة الانهماك فى العلوم الظاهرة ، والاشتغال الزائد بالعقلية ، وجاء شمس الدين التبريزى - وهو شعلة حب ووجدان - فألهب هذه الشرارة الكامنة ، وأثار الطبيعة المظمورة فى ركام البيئة والعادة ، والثقافة والتربية ، فإذا بجلال الدين عود ملتهب ، ومجمرة مشتعلة ، وعين بصيرة مفتوحة ، ونفس حساسة تواقفة ، قد اشتعلت حساسته الباطنة ، وارتفعت عن عينه الحجب ، وانكشف له الحقائق المستورة وراء الألفاظ ، وانبالت عليه المعانى ، وتواردت على قلبه وضميره العلوم الصحيحة ، فأترعت كأسه وفاضت ، وكل من كان هذا شأنه يصعب عليه السكوت والهدوء . ويعن عليه ألا يجد أنيسا أو جليسا يرى فيه صورة نفسه ، ويفضى إليه بذات صدره ، ويشكو إليه آلامه وآماله . ويبث إليه أسراره وأفكاره . وكل من كان هذا شأنه يقبل على السماع يتسلى به ، ويتغذى ويتعالج به ويتداوى ، وأقبل على الشعر - إن كان صاحب قريحة - يعبر به عن علومه الدقيقة ، وخواطره الرقيقة ، ويخفف به عن نفسه وبرحائه ، وغلبه الشعر والتغنى ، فما يستطيع له دفعا ، وأنشد معتذرا :

سقونى وقالوا لا تغن ولو سقوا جبال سليمانى ما سقيت لغنت

واتجه هذا الشعر الفائن المرسل الذى هو فيض الخاطر ورشح القلب إلى الموضوع الذى يشغل الشاعر أو يشغل العصر ، فتناوله واشتغل به واستخدم الشاعر رقة الشعر ولطف التعبير ، وحلاوة الجرس وموسيقى الوزن والقوافى ، وفكاهة الأدب ، لتأدية فلسفته الدقيقة العميقة ، والمعانى اللطيفة الغامضة ، والمبادئ الرفيعة التى تشغل فكره وتجيئ فى خاطره ، فكان كلامه أوقع فى النفوس ، وأحلى فى القلوب ، وأسهل فهما وأيسر تناولا ، وأكثر نفوذا وتغلغلا فى المجتمع والآداب ، وكذلك فعل الحكيم « السنائى »<sup>(١)</sup> فى

(١) هو أبو المجد ابن آدم السنائى الشاعر الصوفى المشهور كان معاصرا لبهرام شاه الغزنوى توفى سنة

«الحديقة» و (فريد الدين العطار) <sup>(١)</sup> في « منطق الطير » فكان لهما تأثير لم يكن لكتاب فلسفة جاف ، أو بحث علمي دقيق ، فكان هذان الكتابان السائران المقبولان في الأدب الفارسي ، بل الأدب الإسلامي ، حافزين لجلال الدين إلى تأليف « المثنوى » وقدوة ومثالا له ، كما حكاه صاحبه حسام الدين الشلبي .

ولما كان علم الكلام هو الشغل الشاغل لعصر جلال الدين ، وأصبحت الحقائق من عقائد ومباحث الهية وحقائق غيبية : كالألوهية وصفاتها ، والنبوة وأحكامها ، والغيب والوحي ، والجنة والنار ، إلى غير ذلك أصبحت هذه الحقائق موضوع البحث والجدال ، وحديث النوادي والمجالس ، واتجهت النفوس إلى التشكك فيها أو نفيها ، وظهر في الأوساط العلمية الإضطراب في العقيدة ، كان ذلك موضوع « المثنوى » والقطب الذي يدور حوله .

لقد عاش جلال الدين في وسط الأشاعرة ومدرستهم الفكرية ، وكان قبل أن يقابل شمس الدين أستاذا كبيرا وعالما جدليا ، ولكن بعد ما جذبته الجاذبة الربانية ، وانتقل من القيل والقال ، إلى حقيقة الحال ، ومن الخبر إلى النظر ، ومن الألفاظ إلى المعاني ، وبطل عنه سحر المصطلحات والتعريفات التي يتبجح بها المنطق ، ووصل إلى لب اللباب وغاية ما في الباب انكشفت له مواضع ضعف الفلسفة وعلم الكلام في فهم هذه الحقائق ، ومواضع غلطهم في الاستدلال والقياس والاعتماد في تقريرها أو نفيها على العقل والحواس ، وعرف أن بضاعتهم مزجاة في هذا الموضوع . ومن هنا تناول علم الكلام والفلسفة بالنقد والتزييف .

### نقده للاعتماد على الحواس في تقرير الحقائق الدينية :

لقد كان أكبر اعتماد الفلسفة والعقليات في هذا العصر على الحواس الظاهرة ، وقد كانت الحواس الخمس تعتبر الميزان الصحيح لثبوت « الحقائق » ، وكانت تعتبر أوثق مصدر وأقواه لحصول العلم الصحيح واليقين ، وقد كان « المثقفون » - كما ذكرنا - يميلون إلى نفي كل ما لا يدرك بالحواس الخمس ولا يأتي تحت الحس ، ويسرعون إلى انكاره . ويتحاشون تقريره والاعتراف به ، وكانت هذه النزعة السائدة في المدارس والمجالس ، وقد كان المعتزلة - ومن نحا نحوهم - أكبر الدعاة إلى هذه الفكرة التي نسميها « الحسية » وقد أضعفت هذه الفكرة الإيمان بالغيب ، وضعفت بتأثيرها الثقة بالحقائق الغيبية التي جاءت بها الشرائع ،

(١) ولد سنة ٥١٣ هـ وتوفي ٦٢٧ هـ وكان معاصرا لحوارزم شاه .

وألحت عليها الأديان السماوية ، وقد انتقد جلال الدين هذه النزعة وأنصارها في « مثنويه » بقوة وصراحة ، يقول في موضع :

أن « الحسية » : ( الاعتماد على الحواس في تقرير الحقائق الدينية ) يتزعمها المعتزلة ، وهم عبيد مسخرون لها ، ويزعمون أنهم من أهل السنة ، ولكن أهل السنة لا يتقيدون بهذه الحواس ، ولا يعكفون عليها عبادة وخضوعاً <sup>(١)</sup> .

أنه يقرر ، أن هنالك حواس باطنية وراء الحواس الظاهرة ، كنسبة التراب والخزف إلى الذهب الخالص والتبر المسبوك . ويقول : « إن الحواس الظاهرة تستمد غذاءها وقوتها من الأبدان والأشباح ، أما الحواس الباطنية ، فإنها تستمد غذاءها وقوتها من النفوس والأرواح ، وأن قوت الأولى الظلام الذى فطرت عليه الأجسام ، وقوت الآخرة الحواس الباطنة ، النور الذى فطرت عليه الأرواح والقلوب » <sup>(٢)</sup> .

أنه يقرر أنه لا يكفى لنفى شىء أنه لا يرى بالإبصار ، ولا يدرك بالحواس . أن الباطن دائما كامن وراء الظاهر ، ومضمر فيه ، كالفائدة فى الدواء . يقول : « إن المنكر يقول دائما : أنى لا أرى إلا الظاهر ، والظاهر دائما يخبر بالحكم المضمرة ، ألا ترى إلى الأدوية النافعة كيف كمن فيها فائدتها وتأثيرها ؟ » <sup>(٣)</sup> .

يقول : « إن الذين اعتمدوا على حواسهم الظاهرة واقتصروا عليها ، وأنكروا كل ما عداها ، ضيعوا حواسهم الباطنة ، وفقدوا قواهم ومواهبهم التى منحهم الله إياها ، وأصبحوا محجوبين عميانا ، لا يمشون إلا بعكازة أو بقائد يقودهم ، وأصبح كثير من الحقائق والدقائق مستورة عنهم » <sup>(٤)</sup> .

### وظيفة العقل وحدوده :

أنه لا يقتصر - فى نقده - على الحواس الظاهرة ، ولا يقرر قصورها وعجزها عن الوصول إلى الحقائق الغيبية فحسب ، بل يشرك معها العقل أيضا ، ويقرر أيضا أنه عاجز عن الوصول إلى حقائق علم الغيب ، وعلوم الأنبياء ، لأنه لا يملك أساسا وقاعدة للقياس فى هذه المعلومات ، ولا عهد له بهذا العالم الفسيح - عالم الغيب وعالم ما بعد الطبيعة -

(١) المثنوى طبع لكهنؤ ص ١٠١ .

(٢) المثنوى لكهنؤ ص ١٠١ .

(٣) أيضا ، ص ٣٦٨ .

(٤) أيضا ، ص ٢٣٢ .

فمثله كمثل رجل ولد وعاش في البحر المالح ، وليست عنده أية فكرة ولا تقدير للماء العذب الفرات ، يقول في تهكم : « يا من يعيش في البحر المالح ماذا تعرف عن الشط وجيحون والفرات ؟ »<sup>(١)</sup> .

إنه يسمى العقل الذي قيد نفسه بالمحسوسات والمقدمات المنطقية بـ « العقل الجزئي المحدود » ، وهو عقل ثمرته الأوهام والشكوك ، ووطنه عالم الظلمات ، انه عقل كان عارا للعقل ، وسببة للعاقل ، والجهل أفضل من هذا العقل ، ويفضل أن يتحرر الإنسان من أسره ويحكم عاطفته وقلبه ولو سماه الناس مجنوناً<sup>(٢)</sup> .

ويقول : « لقد جربت طويلا هذا العقل المحدود الذي لا يبصر إلا المحسوس ولا يعقل إلا الظاهر ، الذي يسميه الناس « العقل الحكيم البعيد النظر » . ومن جرب تجربتي ثار مثلى على هذا العقل ، وفضل الإنطلاق من قيوده والخروج من حدوده»<sup>(٣)</sup> .

« ولو كان هذا العقل كافيا في معرفة الحقائق الدينية لكان فخر الدين الرازي زعيم المتكلمين - أكبر العارفين ، والغواص في أعماق الدين » ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فتفرقه في معرفة حقيقة الدين كان من تشعب بالإيمان واليقين .

« أولئك أصحاب محمد ﷺ أبر الناس قلوبا ، وأعمقهم علما ، وأقلهم تكلفا»<sup>(٤)</sup> ولم يقرأوا كتاب حكمة ، ولم يتلقوا درس فلسفة<sup>(٥)</sup> .

### الاستدلال الفلسفي رجل خشبية :

أنه يعتقد أن العلوم التي اصطنعها الإنسان ، والحكمة التي نسبت إلى اليونان ، لا تزيد الإنسان إلا بعدا عن الحقائق واشتغالا عن الخالق ، ولا تفيد إلا « الجهل المركب » ، وغرورا وصلاحا واعجابا بالنفس ، وادلالا بالالفاظ والقشور ، فمن كان حريصا على سعادته فليزهد في هذه الفلسفة التي سماها الناس - عن جهل - حكمة ، فإن كل فلسفة هي وليدة الخيال ولم تتنور بنور ذي الجلال ، تولد الظن والشك ، وتحجب عن الرب ، أما

(١) ص ٩٦١ ( من المثنوى طبع لكهنؤ ) .

(٢) ص ١٥٢ ( من المثنوى طبع لكهنؤ ) .

(٣) ص ٤٨٩ ( من المثنوى طبع لكهنؤ ) .

(٤) جملة مأثورة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وصف بها الصحابة رضى الله عنهم .

(٥) ص ٤٨٩ ( من المثنوى ) .

الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتى خيرا كثيرا<sup>(١)</sup> .

ويقرر أن الاستدلال المنطقي والفلسفي ، وترتيب المقدمات والبراهين ، واستخراج النتائج بطريقة مصطنعة لا تفي بكل غرض ، ولا تفيد في كل موضوع ، ولا تسير كل سالك ، انها أسلوب ضيق محدود ، ومن اعتادها وتقيدها وعاش عليها كان كمن له رجل من خشب لا تمشى بحرية ، ولا تنعطف بسهولة ، وقد ذهب قوله مثلا « أن رجل أصحاب الاستدلال المنطقي من خشب ، وأن الرجل الخشبية صليبة خشبية لا مرونة فيها ولا تمكين »<sup>(٢)</sup> .

ويقول : « إن كلام هؤلاء المقلدين ، الذين يرددون دلائل الفلاسفة ، المنطقيين كالبيغاوات ، ويستدلون استدلالهم ، كلام جاف ميت لا روح فيه ولا حياة ، ولا تأثير فيه ولا جمال ، لأنه يصدر عن قلب ميت ، وكيف يؤثر ويشمر كلام ميت يصدر عن ميت؟! »<sup>(٣)</sup> .

### العقل الإيماني :

ويعتقد جلال الدين أن هنالك عقلا إيمانيا ، هو نبراس ودليل لهذا العقل الجسماني ، وهو مرشد هذا العقل « الجزئي المحدود » وقائده ، يرشده ويبصره الطريق . كما أن هذا العقل « الجزئي المحدود » - مرشد الجسم وقائده - ، يقضى حاجاته ويخدمه في أغراضه المادية ، ويصحح أن يسمى هذا العقل الإيماني « عقل العقل » لأن العقل يمشى بنوره ويبصر بعينه . ولا يرزق هذا العقل الإيماني إلا المؤمن<sup>(٤)</sup> . وإذا كان هذا العقل الجسماني قد سود الأوراق<sup>(٥)</sup> . فالعقل الإيماني قد نور الآفاق ، وبرزغ نوره على القلوب والأرواح<sup>(٦)</sup> .

« أن العقل الإيماني هو خفير ركب الحياة ، وكصاحب شرطة البلد ، يحكم بالعدل ويقيم المرازين القسط ، ويردع الظالم وينصر المظلوم ، ويحافظ على النظام ، ويقهر النفس

(١) ص ١٧١ ( من المثنوى طبع لكهنؤ ) .

(٢) ص ٥٥ ( من المثنوى ) .

(٣) ص ٤٤٩ ( من المثنوى طبع لكهنؤ ) .

(٤) ص ٢٤٦ ( من المثنوى ) .

(٥) يشير إلى أنه كون مكتبة ضخمة من الفلسفة والعلوم .

(٦) ص ٢٤٦ ( من المثنوى ) .

عن شهواتها الجامحة ، ونزواتها العاتية «<sup>(١)</sup> .

« أما العقل الجسماني فإنه يزين الآثام ، ويثبط عن معالي الأمور ، ويعد صاحبه الفقير ، ويهول له الأمر<sup>(٢)</sup> ، وأن العقل الإيماني يحل عقد العقل الجسماني ، وينجده في المشاكل والأزمات ، ويفتح له الأتفال المعقدة ، ويحقق له ما أعياه أمره بكل سهولة وسرعة<sup>(٣)</sup> .

« أن الفلسفي يتحدث عن « المعقولات » التافهة التي لا قيمة لها ، لا يتجاوزها ولا يعرف غيرها ، لأن عقله لم يخرج من الباب ، ولم يعرف العالم الفسيح وما خلق الله فيه من عجائب وبدائع ، أن عقله طفل رضيع لم يبلغ سن الرشد وإن زهرة فكره مكسومة لم تتفتح<sup>(٤)</sup> .

### جهل النفس وغفلة عن غاية الحياة :

« أن الفلسفي إنما جنى عليه عقله وفكره ، وهز ذلك المسافر الشقي الذي ظهره إلى غايته ، فكلما أمعن في السفر وجد به السير ازداد بعدا عن المنزل وحرم الوصول<sup>(٥)</sup> .

« أن الفلسفي قد أحاط بعلم الكائنات ، وجمع ثروة هائلة من المعلومات ، ولكنه لا يزال يجهل نفسه ، أنه يعرف خاصية كل « جوهر » و « عرض » ولكنه في معرفة نفسه وقيمتها أجهل وأضل من حمار أهله . أنه يعرف قيمة كل شيء ، ولكنه لا يعرف قيمة نفسه ، مع أن روح العلم وجوهر المعرفة ولباب الحكمة أن يعرف الرجل قيمة نفسه وغاية خلقه ، وموقفه من خالقه ومن هذا العالم ومصيره بعد الممات<sup>(٦)</sup> .

### دعوة إلى الحكمة الإيمانية :

وبعد هذا النقد المرير والعتاب الصريح ، يدعو المشتغلين بالفلسفة وعلم الكلام دعوة مخصصة إلى دراسة الحكمة الإيمانية والاستفادة منها ، يقول زاجرا ناصحا : « إلى متى العكوف على الفلسفة اليونانية والحكمة المادية ؟ دونكم الحكمة الإيمانية التي يحويها كلام

(١) ص ٣٤٧ ( من المثنوى ٩ .

(٢) ص ٣٤٧ ( من المثنوى ) .

(٣) ص ٢٣ ( من المثنوى ) .

(٤) ص ٨ ( من المثنوى ) .

(٥) ص ٥٤٤ ( من المثنوى ) .

(٦) ص ٤٤٩ ( من المثنوى ) .



كلام الأنبياء . وتوجد عند خلفائهم والعلماء الربانيين ! فادرسوها وفكروا فيها « (١) .

ويقول : أن المعرفة الصحيحة لا تتأتى إلا بتزكية النفس : فإذا تجرد لوح القلب عن نقوش العلوم المرسومة وصفا ، تجلت فيه الحكمة الإيمانية ، ووردت فيه علوم الأنبياء الصحيحة ، وجرت على لسانه ينابيع الحكمة ، يقول :

« جرد نفسك من صفاتك حتى تشاهد نفسك وحقيقتها ، إنك ترى فى قلبك علوم الأنبياء من غير كتاب ومعلم ومعيد (٢) ، فإن المرآة كلما صفت تجلت فيها الأنوار ، وإذا تفتحت نافذة نفسك دخل منها النور الإلهي من غير واسطة ومن غير حجاب » .

### المباحث الكلامية وأسلوب المثنوى فيها :

ولم يقتصر جلال الدين على النقد الإجمالى للتفكير الفلسفى ومنهج علم الكلام وخضوعه للظاهر ، ولم يقتصر على التنويه بالحواس الباطنة والاهتمام بالوجدان والروح ، بل بحث فى المباحث الكلامية ومعضلاتها بأسلوب طريف بديع ، وعرض مهمات مسائلها عرضا جميلا يقبله القلب ، ويسيعه الذوق السليم ، ويعتقد السامع والقارىء أنها شىء بديهي ، وحقيقة من الحقائق المعلومة لا تعقد فيها ولا غموض . ولا جفاف فيها ولا عبوس ، فالمسائل التى تتعب فيها الفلسفة كأنما تصعد فى السماء ، وتقبض على الهواء ، تترأى فى شعره كالماء الزلال ، وهو لا يحرص - كالفلاسفة والمتكلمين - على أن يعجز مخاطبه بالدلائل الطويلة العريضة ، والمقدمات المرصوفة المنسقة ، ويفخمها ، بل يحرص على أن يقبلها قلبه كأنه شىء محقق ، وكأنه يعبر عن خواطره وأفكاره ، لذلك كان « المثنوى » العظيم مصدر إيمان جديد واذعان مزيد فى كل عصر ، تشرح بقراءته الصدور الحرجة ، وتطمئن بدراسته العقول المضطربة ، ويجد فيه كثير من القراء حلا لمعضلاتهم ، وشفاء لدائهم ، وهو من هذه الناحية مؤسس علم كلام جديد . وإذا كان لا بد من مصطلح الفلسفة فهو مؤسس فلسفة جديدة ، وهو فى ذلك امام مجتهد من أئمة الكلام ، لا يقلد ولا يتبع إلا القرآن الحكيم ، ولا يستوحى إلا فطرته السليمة .

### وجود الفاطر الحكيم ودلائله :

فهو فى اثبات وجود الله تعالى مثلا لا يتبع الطرق الفلسفية والمناهج الكلامية المعروفة ،

(١) ص ٨٦ ( من المثنوى ) .

(٢) ص ٨٦ ( من المثنوى ) .

بل يتبع القرآن الحكيم فى الاستدلال بالمصنوع على الصانع ، والمتحرك على المحرك ، ويضرب لذلك الأمثال الحكيمة ، ويشير فى الإنسان الفطرة السليمة التى تأبى وجود مصنوع من غير صانع ، ومتحرك من غير محرك ، ومتأثر من غير مؤثر ، ويقول فى بساطة وثقة :

« إنك ترى قلما كاتباً ، واليد التى تحركه من ورائه مخفية ، وترى جواد يعدو ، ولا ترى فارساً ، السهم يصيب غرضه ، والقوس غائبة عن العيون ، النفوس موجودة وبارئها ومصدر وجودها وحياتها مستور ، لا يرى بالأبصار<sup>(١)</sup> ، ولكن أليست الحركة دليلاً على المحرك؟ إذا سمعت صريراً للهواء وخريراً للماء ألا تستدل بذلك على وجود الهواء والماء؟ إذا رأيت هواء يهب ، والأوراق تهف ، والأغصان تهتز ، فاعلم يقيناً أن هنالك من يحرك الهواء ، فإن مع كل متحرك محركاً<sup>(٢)</sup> . وإذا عجزت أن ترى المؤثر ، فإنك لا تعجز أن ترى الآثار ، فاستدل بها على وجود المؤثر! وإذا رأيت جسماً يتحرك ويعيش ، فإنك - ولو لم تر الروح فى حياتك - تبرهن به على وجود الروح التى هى مصدر الحركة والحياة فى الجسم<sup>(٣)</sup> ، وهل لوجود الشمس دليل أكبر وأقوى من نورها الساطع وضيائها الباهر<sup>(٤)</sup> .

وليس هذا الكون موجوداً فحسب ، بل هو فى غاية النظام والانتظام ، كل شىء فيه فى محله اللائق ، وكل شىء خلق بقدر ، ولكل شىء نظام مرسوم لا يتجاوزها ولا يخالفه ، فالكواكب لها نظام ، والشمس والقمر لهما نظام ، وليس الهواء والسحاب كالقيل الهائج والناقة العشراء ، لا نظام لهما ولا قيد ، بل كل خاضع لنظام ، خاضع للأحكام ، فلا تمرد ولا عصيان ، ولا فوضى ولا طغيان ، « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » والسحاب المسخر بين السماء والأرض » يقول :

« إن فاتك أن ترى الأمر الإلهى والتدبير السماوى بعينيك ، فانظر فى نظام الكون ، فالشمس والقمر نوران مسخران يدوران ولا يتوقفان ، ويطيعان ولا يعصيان ، والكواكب لها دوائر مخصوصة ومجالات مرسومة ، والسحاب له سوط من نار ، ينظم سيره ويأمره وينهاه ، يأمره أن يسقى الوادى الفلانى ، ويترك الوادى الفلانى ، وينبهه إذا غفا<sup>(٥)</sup> .

(١) ص ٣٠٥ ( من المثنوى ) .

(٢) ص ٣٠٥ ( من المثنوى ) .

(٣) ص ٣٠٥ ( من المثنوى ) .

(٤) ص ٣٠٥ ( من المثنوى ) .

(٥) ص ٥١٣ ( من المثنوى ) .

## غاية الخلق :

ثم يقرر أن الله لم يخلق هذا الكون ، ولم يخلق هذا الخلق لفائدة تعود عليه ، إنما خلقه لفائدة الإنسان نفسه ، وليبلغ كماله المطلوب ، ويستخدم قواه ويستعمل مواهبه ، يقول :

« قال الأنبياء : إن الله يقول : غايته في الخلق الإحسان إليهم والمن عليهم ، إنما خلقتهم لينتفعوا بي وينتفعوا بخيراتي ونعمتي ، لم أخلقهم لأنتفع بهم وأقضى بهم حاجة لنفسي ، إنما خلقتهم افاضة للوجود ، واطهارا للسخاء والجلود »<sup>(١)</sup> .

## النبوة والأنبياء :

أنه يدع الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - يعرفون نفوسهم بأنفسهم ، يقول على لسانهم « نحن أطباء الروح ، تلاميذ الرحمن ، انفلقت لنا البحار ، وتفجرت لنا العيون من الأحجار ، إن أطباء الجسم يجسون النبض ، ويتعرفون المرض ، ولكننا ننظر بنور الله ، ونتكلم بوحى الله ، أولئك أطباء الغذاء والثمار ، يعرفون منافع الأغذية والأدوية ومضارها وتأثيرها في جسم الإنسان ، أما نحن فأطباء الأقوال والأفعال ، والعنائد والأخلاق ، نخبر الخلق بعواقب الأعمال والأخلاق وتأثيرها في الحياة ونتيجتها بعد الممات ، ونقول : إذا عملت كذا سعدت ونجوت ، وإذا عملت كذا شقيت وهلكت ، وإن الخلق الفلاني دواء نافع ، وإن الخلق الفلاني سم نافع ، إن العقيدة الفلانية مسعدة منجية ، وإن العقيدة الفلانية مهلكة مردية ، إن دليل أطباء الجسم الرائحة واللون والطعم ، أما دليلنا فكلام الله وإعلامه وإلهامه »<sup>(٢)</sup> .

## النبى معجزة كاملة وبرهان على نبوته :

ولا يستدل جلال الدين على صدق نبوة الأنبياء بالدلائل الخارجية والمعجزات والبراهين الكلامية ، أنه يقول :

« إن كل شيء في النبى يدل على أنه نبى مرسل من الله ، أنه يكون في سيرته وخلقته وشمائله ومخاييله معجزة كاملة وبرهانا صادقا على نبوته ، ولذلك لما وقع بصر عبد الله بن سلام - عالم اليهود - على وجه الرسول هتف قائلا : « والله ليس هذا بوجه كذاب » .  
« أن كل من رزق العقل السليم والطبع المستقيم شعر بالإعجاز في صوت النبى ووجهه ،

(١) ص ١٥٩ ( من المثنوى ) .

(٢) ص ٢٥٠ ( من المثنوى ) .

ولم يحتج بعد ذلك إلى دليل وبرهان .

## بين النبي وضمير الأمة مناسبة وصلة :

ثم يقرر أن بين النبي وضمير أمته مناسبة خفية وصلة روحية ، فلا يتكلم النبي بشيء إلا وأسرع ضمير المستمعين الأصحاء من أمته إلى تصديقه وإجابته ، ويهتز لسماعه ويضطرب ، لأنه صوت برىء لا يتطرق إليه الشك ، وصوت غريب لم يطرق الأذان من قبل ، وليس بينه وبين أصوات الخلق وما ألفه العالم من أدب وفلسفة وعلم مشابهة ، يقول :

إذا رفع النبي صوته بالأذان ودعا إلى الله سجدت له أرواح أمته وطربت ، لأن هذا النداء لم تسمعه الأذان من قبل ، فلا يعلو هذا الصوت الغريب إلا وأسرع السعداء إلى إجابته قائلين : « ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا »<sup>(١)</sup> .

ويقول : « إن المؤمن ليس بحاجة إلى دليل خارجي على صدق النبي إذا كان صحيح المزاج مستقيم الطبع ، إن دليhle في نفس المستمع ، وعلى ذلك يقوم نظام الحياة ، فهل إذا دعوت عطشان إلى الماء وقلت له إن في هذا القدر ماء ، هل يقول لك : أين الدليل ؟ وكيف أو من بدعوتك وأصدق كلامك ؟ وهل إذا دعت الأم الحنون طفلها الرضيع ليرتضع من ثديها ، قال الطفل ، هاتى الدليل يا أسى حتى أروى نفسى وشبعها ؟ إن وجود العطش فى نفس العطشان ووجود الجوع فى الرضيع ، ووجود الإخلاص فى الداعى لكفيل بالتصديق مغن عن كل دليل »<sup>(٢)</sup> .

ويعتقد مولانا جلال الدين أن المعجزات لا توجب الإيمان ؟ لأنها قهر العدو وإسكات الخصم وإعجاز العنيد ، إن الذى يولد الإيمان فى القلب ويخضع الإنسان للمحبة والطاعة هو المجانسة والمناسبة الروحية ، إن المعجزة تقهر ، والمقهور لا ينشرح صدره ، ولا يتفتح قلبه<sup>(٣)</sup> .

ويذكر من صفات الأنبياء وخصائصهم الأنفة والإباء والغيرة ، فلا بد للإستفادة منهم من الخضوع والأدب والتذلل ، يريدون حسن الإستماع وتمام الإلتفات ، فيهم عزة الملوك واباؤهم وكبرياؤهم ، شأنهم أن يتكلموا ويستمع الجميع ، ويأمرؤا ويطيع الجميع ، فمن أخل بالأدب معهم حرم الاستفادة منهم وشقى<sup>(٤)</sup> .

(١) ص ١٨٠ ( من المثنوى ) .

(٢) ص ١٨٠ ( من المثنوى ) .

(٣) ص ٥١٩ ( من المثنوى ) .

(٤) ص ٢٧١ ( من المثنوى ) .

وقال : « كيف تستغرب هذا الخضوع لهم والأدب معهم وقد جاءوا من محل رفيع ،  
وحملوا رسالة من العلى الكبير ؟ »<sup>(١)</sup> .

### الحكمة فى المعاد وحشر الأجساد :

أما المعاد وحشر الأجساد ، فإن جلال الدين ينظر إليه بغير النظر الذى ينظر إليه عامة  
الناس ، أنه ليس متشائما ينظر إلى الموت بالمنظار الأسود ، أنه لا يعتبره نهاية حياة سعيدة  
ثمينة عزيزة ، بل بالعكس من ذلك ، يعتبره مقدمة لحياة خالدة باقية ، وعيشة سعيدة  
راضية ، ومقدمة لرقى دائم وازدهار مستمر ، أن العمران لا يكون إلا بعد الخراب ، وإن  
الركاز أو الكنز الثمين لا يعثر عليه ولا يستخرج إلا بعد حفر الأرض وإثارتها ، فإذا رأيت  
بيتا يهدم ويخرب ، فاعلم أن هناك تصميمًا جديدًا وبناءً جديدًا ، كذلك الملك يخرب  
الأجسام ليعمرها ويبنيها بناءً جديدًا ، إنما يخرب البيت ليستخرج منه الكنز الدفين ، ويعمر  
عمارة جديدة »<sup>(٢)</sup> .

أن الشجرة لا تعطى الأثمار حتى تتفتح وتسقط الأزهار كذلك الروح لا تقوى ولا تجد  
ولا تلبس كسوة جديدة قشبية حتى يتهدم الجسم الفانى ، وبخلع العمر البالى<sup>(٣)</sup> ، إن الله -  
وهو الجواد المطلق - لا يسلب نعمة أنعم بها إلا ويعطى نعمة أكبر منها ، فلا يسلب هذه  
الحياة الضعيفة السقيمة ، التى لا تستحق أن تسمى الحياة الباقية ، إلا ويعطى حياة أوسع  
منها وأبقى ، وأحمل وأفضل ، فمن رأى هذا المل الكريم يقتل أحدا من مقربيه فليعلم أنه  
يخلع عليه خلعا سنية ، ويعطيه مالا رأت عين ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب  
بشر»<sup>(٤)</sup> .

ويقول فى شرح وتفصيل : « أن كل بناء يسبقه خراب وكل إثبات يسبقه محو : إن  
الكاتب إذا أراد أن يكتب على لوح محا النقوش السابقة والكتابات الماضية ، وإذا أراد  
الإنسان أن يستخرج الماء أثار الأرض وحفرها ، إذا أراد الزارع أن يزرع اختار للفلاحة  
أرضا لا زرع عليها ولا نبات ، وكلما كان الفناء أتم والمحو أقوى ، كان الإثبات أكثر  
وأبقى » .

(١) ص ١١٢ ( من المثنوى ) .

(٢) ص ٢٧١ ( من المثنوى ) .

(٣) ص ٤٧ ( من المثنوى ) .

(٤) ص ١٠ ( من المثنوى ) .

ويقول فى بلاغة وحكمة : « أن الفقر التام أجلب لصفة الجود ، أن الأغنياء والأسخياء ، ترق قلوبهم ، ويجيش جودهم على الفقراء الذين لا يملكون شيئاً » .

### لا داعى إلى الأشفاق من الموت :

ويقول : « لماذا هذا الأشفاق من الموت ؟ ولماذا هذا الفرار من الأجل ؟ إنك لم تنزل فى انتقال من مرحلة إلى مرحلة ، ومن عدم إلى وجود ، ثم من وجود إلى عدم ، ولم تنزل تخلع لباسا وتلبس لباسا حتى وصلت من العناصر الأربعة إلى القالب الإنسانى ، فإذا تشبث بحالة وعضضت عليها بالنواجذ ، وأصررت على أن تبقى فيها ، وأبيت الانتقال منها إلى حالة أخرى ، بقيت على بدايتك ، ولم تصل إلى أوج الإنسانية وقمة الكمالات العلمية والروحانية . أنك لم تنل البقاء إلا عن طريق الفناء ، فلماذا تفريا هذا من الفناء الجديد الذى هو مقدمة للبقاء الجديد ، ولماذا تشبث بهذه الحياة وتلتصق بها ، مع أنها تخلف حياة لا زوال لها ولا خوف فيها ولا حزن !؟ »<sup>(١)</sup> .

يقول : « جربت أن الموت فى هذه الحياة ، فإذا فارق الإنسان هذه الحياة نال الحياة الخالدة التى لا موت فيها »<sup>(٢)</sup> .

ويقول : « أن هنالك فرقا بين موت وموت ، فالعارفون لا يقاس موتهم على موت الجهلاء والعامه ، أن العارفون لا يتوجعون ولا يحزنون لمفارقتهم هذه الدنيا الفانية ، ويستقبلون الموت مسرورين فرحين ، أن الموت فى حقهم نفحة حياة ، ورسالة فوز ونجاة ، لقد كانت الريح التى أرسلها الله على أمة هود لفحة وجحيما على الكافرين ، ونفحة ونعيم على المؤمنين ، كذلك الموت للكفار سموم وبلاء ، وحرمان وشقاء ، وللمؤمنين نسيم عليل ، وهواء بليل ، وكوثر وسلسيل »<sup>(٣)</sup> .

﴿ فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين ، فنزل من حميم ، وتصلية جحيم ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) ص ٤١٠ ( من المثنوى ) .

(٢) ص ٢٧٦ ( من المثنوى ) .

(٣) ص ٢٥ المرجع السابق .

(٤) الواقعة ٩٤ .

## الجبر والاختيار :

أن الجبر والاختيار من المسائل المهمة العويصة التي شغلت حيزا كبيرا من كتب علم الكلام ، وذهبت فرقة إلى نفي الاختيار المطلق واثبات الجبر المحض ، وسميت في تاريخ الملل والنحل بالجبرية ، يرد عليها جلال الدين ردا واضحا معقولا ، يقول :

« لو كان الجبر ، لما توجه الأمر والنهي إلى الإنسان ، وما كلف الإنسان بالشرائع والأحكام ، فهل سمع انسان يأمر حجرا وينهاه » ويقول : « أن القرآن كله أمر ونهي ووعيد ، ولم نسمع عاقلا يأمر الرخام أو ينهى الحديد »<sup>(١)</sup> .

### عقيدة الاختيار في الانسان والحيوان :

يقول أن الانسان مفطور على عقيدة الاختيار ، وهو يمثل هذه العقيدة ويطبقها في حياته اليومية ، ويقرر بعمله وسلوكه الاختيار ، وينكر الجبر ، فلا يعاقب الجماد ، ولا يغضب على الحجر والخشب والسيل والنار والريح ، مهما لحقه الأذى والعنت من هذه الأشياء ، ويتساءل : إذا سقط عليك جذع من السقف وجرحك جرحا شديدا وأدماك ، فهل يثور غضبك على هذا الجذع ؟ وإذا عاتبته ، وقلت له : لماذا كسرت يدي أو أدميت رأسي ؟ كذلك إذا جاء سيل أو فيضان وفاض بأثاثك ومتاعك ، أو هاجت الريح ، وتصديت لهما بالعتاب أو العقاب ؟

أما إذا تعرض إنسان لاهانتك أو هتك عرضك ، ثرت عليه ، وعاقبته عقابا شديدا ، فدل ذلك على أنك تميز بين المجبور والمختار ، وتعتقد أن الإنسان صاحب اختيار وإرادة فتحاسبه وتعاقبه وتعاقبه وتشكوه ولومه ولا تقبل له عذرا : لأنه مخير ليس بمجبور »<sup>(٢)</sup> .

ولا يقتصر جلال الدين على ذلك : بل يقرر أن الحيوان يعرف ذلك ، ويميز بين المجبور والمختار ، وتهديه إلى ذلك فطرته ، فإذا ضربت كلبا بحجر هجم عليك وأراد أن يعضك ، ولم يقبل إلى الحجر وينتقم منه ، كذلك إذا ضرب السائق بعيرا هاج البعير ، ولم يثر على الهراوة التي ضرب بها . إنما يثور على الجمال المسرف في ضربه ، فعار عليك أيها الإنسان العاقل أن تنسب الجبر إلى الإنسان ، ويفوقك الحيوان غير العاقل في فهم هذه الحقيقة وإدراكها »<sup>(٣)</sup> .

(١) ص ٤٦١-٤٧٢ ( من المثنوى ) .

(٢) ص ٤٦٣ ( من المثنوى ) .

(٣) ص ٤٦٣ ( من المثنوى ) .

ويقول : « أن الإنسان لا يجهل هذه الحقيقة ، لكنه يتعمى عنها لأجل مصلحته وهواه وشهوته ، شأن الصائم الذي يتحقق طلوع الصبح الصادق ، لكنه يصرف وجهه عن النور ويغلق عليه الباب فيستمر في التسحر والأكل والشرب » (١) .

## العلة والمعلول :

وقعت فرق إسلامية في مسألة الأسباب والعلل في افراط وتفريط ، فمذهب الحكماء أن العالم خاضع خضوعاً تاماً لسلسلة العلة والمعلول ، والمعلول لا يتخلف أبداً عن العلة ، والمسبب لا ينفك حيناً عن السبب ، ويميل المعتزلة إلى هذا الرأي فإذا قرروا علة لشيء ، أو اعتقدوا خاصية وتأثيراً في شيء ، رأوا ذلك ضربة لازب لا يقع خلافه إلا في نادر النادر ، ولذلك تراهم يستبعدون وقوع شيء خلاف خاصته ، ووقوع حادثة من غير سبب ، ويجتهدون في تعليل ما ثبت في القرآن والحديث ، وتواتر نقله من المعجزات والخوارق ، وردها إلى الأسباب العادية والعلل الطبيعية ، فإذا أخفقوا في ذلك - وهو نادر جداً - اعترفوا بالمعجزة مضطرين .

والأشاعرة بالعكس من ذلك على طرف آخر ، فيقررون أنه لا شيء علة لشيء آخر ، ولا خاصة في شيء ولا تأثير ، وقد أضر هذا التطرف أيضاً وأحدث فوضى ، واستطاع كل أحد أن يقول ما شاء وينكر ما شاء ، وتطرق كثير من الناس من هذا إلى انكار الأسباب ورفضها ، والتعطل والبطالة .

## الأسباب حقيقة ولكن خالقها لم يعزل ولم يعطل :

والشيخ جلال الدين مذهبه وسط بين الطرفين ، فهو يقرر أن الأسباب حقيقة ، وأن العلل والمعلولات الأسباب والمسببات مربوطة بعضها ببعض ، ليس من الإنصاف ولا من المعقول إنكارها ، ولا يمكن ذلك ، وسنة الله السائرة أن يخضع المسببات لأسبابها ، ويظهر من الأشياء خواصها ، ولكن خرق العادة ممكن وواقع ، فإن الذي خلق الأسباب وبرأ العلل لم يعزل بعد خلقه الأسباب من قدرته وفعله ، أنه لا يزال رب الأسباب والقادر المطلق . فإذا شاء ترك المسببات مرتبطة بأسبابها ، خاضعة لنواميسها وعللها ، وذلك هو الغالب الأكثر ، وإذا شاء جردها من أسبابها وخلقها من غير سبب أو خلاف سبب ، وهذا هو الخارق للعادة . يقول :

---

(١) ص ٤٦٣ ( من المثنوى ) .



« إن عامة الأحوال والحوادث على السنة الإلهية الجارية ، يخرق هذه العادة ويخالف هذه السنة بقدرته ومشيتته أحيانا لأنبيائه وأوليائه ، فإذا رأينا الأسباب مؤثرة عاملة في غالب الأحوال ، فلا ينبغي لنا أن نعتقد أن القدرة الإلهية عاجزة مشلولة ، وأن الإرادة الإلهية معطلة معزولة ، لا يستطيع عزل المسببات عن أسبابها ، وفك المعلولات عن عللها»<sup>(١)</sup> .

### الأسباب الباطنة وسبب الأسباب :

وليست الأسباب مقصورة على ما عرفناه وجربناه وعلى ما نشاهده ونعرفه ، بل هنالك أسباب خفية مستورة عن عيوننا ، وهذه الأسباب الباطنة سبب ومحرك للأسباب الظاهرة ، كما أن هذه الأسباب الظاهرة سبب ومحرك لمسبباتها تحرك هذه الأسباب الظاهرة وتشغلها ، قد توقفها وتعطلها ، ويدرك الإنسان بسهولة الأسباب الظاهرة ، ولكن كثيرا ما يجهل السبب الباطن ، فيلاحظ مثلا أذا قدح الزند بالزند اشتعلت النار ، فيدرك ، أن القدح سبب للشعلة ، ولكن لا يعرف السبب الباطن<sup>(٢)</sup> .

وسبب الأسباب الذي تنتهي إليه ، والسبب الحقيقي الأصيل ، هو الأمر الإلهي والإرادة الإلهية التي هي فوق كل سبب ، وأصل كل حادث ، « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

والأنبياء يعرفون الأسباب الباطنة ، ويرونها كما نعرف الأسباب الظاهرة ونراها ، ثم هم يؤمنون بأن السبب الحقيقي الذي تنتهي إليه جميع الأسباب والعلل . والذي هو مصدر كل حدث وعمل إنما هي الإرادة الإلهية .

إنهم يشاهدون هذه الإرادة الإلهية تتصرف في الكائنات ، وتتحكم في هذا العالم ، وتعلو كل إرادة وكل قانون ، وهي التي يخضع لها نظام الكون ، وهي التي تخلق في الأشياء خاصيتها . ثم تجردها منها إذا شاءت ، وتغير طبائع الأشياء وفطرها ، فتجعل من النار بردا وسلاما .

ويرون الأسباب الظاهرة ضعيفة حقيرة تافهة أمام الأسباب الباطنة ، ثم يرون الأسباب الباطنة ضعيفة حقيرة تافهة أمام السبب الحقيقي « المشيئة الإلهية » ﴿ وكذلك نرى

(١) ص ٤٢٧ ( من المثوى ) .

(٢) ص ٢٥ ( من المثوى ) .

إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ﴿ (١) .

وثنية الأسباب ومحاربة الأنبياء لها :

ويبالغ الناس قصيرو النظر - بتأثير الجاهلية والمادية - فى تقديس الأسباب ، والإيمان بقوتها وتأثيرها ، والتمسك بها ، والعكوف عليها ، ويتخذون الأسباب أربابا من دون الله ، ويتغافلون عن سبب الأسباب ورب الأرباب ، ويعكفون على عبادة الظواهر والمظاهر ، هنالك يقوم الأنبياء يحاربون هذه الوثنية - وثنية الأسباب - ويدعون الناس من الأسباب إلى المسبب ، ويجرى الله على أيديهم - تنيها وتعلينا - حوادث تنتقض بها قدرة الله المطلقة ، وإرادته الحرة ، ومشئته القاهرة ، وأنه يملك زمام الكون ، ويبيده ملكوت كل شيء ، وهو قادر على كل شيء غير مفتقر إلى الأسباب وغير متقيد بها ، فتتفلق لهم البحار ، وتتفجر لهم الأنهار من غير الأسباب العادية ، وتنشأ لهم الزروع والحقول من غير زراعة ، ويتحول الرمل دقيقا ، والصفوف حريرا ، وتتنصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، ويملك الفقير الضعيف ، ويهلك الغنى القوى :

﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾<sup>(٣)</sup> .

لا رهبانية ولا بطالة :

ولكنه لا يغلو فى ذلك غلو كثير من المتصوفة ، وغلو الأشاعرة ، فينكر وجود الأسباب ويدعو إلى رفضها والتجرد منها ، والتوكل المفضى إلى البطالة والتعطل والرهبانية ، بل يقول :

« أن السنة الجارية والعادة الغالبة ، هى وجود المسبب من السبب حتى يعرف الطالب أهمية السعى والجهد ، ويأتى البيوت من أبوابها ، ويطلب الأشياء من

(١) الأنعام ٧٥ .

(٢) الأعراف ١٣٧ .

(٣) الدخان ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

معدنها» (١)

بل هو يحارب البطالة والتعطل والرهبانية والتوكل السلبي الذى لجأ إليه العاجزون فى القرون الأخيرة ، ويدعو دعوة قوية إلى الكدح والجهاد ، والأخذ بأسباب المعاش ، ويدعو إلى الحياة الاجتماعية ، يقول :

« لو لم تكن الحياة الاجتماعية مطلوبة ومفضلة فى الإسلام ، لم يكن الأمر بالجمعة والجماعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٢) .

وكان التوكل الإسلامى الممدوح عنده وهو الاستعداد والأخذ بالاحتياط اللازم ، ثم التوكل على الله ، وتفسير قول الرسول ﷺ « اعقلها وتوكل على الله » .

### دعوة إلى الكدح والجهاد :

يحث جلال الدين على الكسب والجهاد وقد ذكر مناظرة بين الحيوانات فى موضوع التوكل والعمل ، فذكر خير دلائل وجوب العمل والسعى على لسان الأسد ، زعيم العاملين المجاهدين فى الحيوانات - ، فقال :

« إن الله وهب الإنسان الأعضاء والجوارح ، ومواهب طاقات ، فدل ذلك على أنه يريد منه السعى والجهاد ، كما إذا منح سيد عبده فأسا أو معولا ، فالظاهر أنه يريد أن يحفر الأرض أو يشق صخرة ، نطق بذلك أو لم ينطق ، كذلك لما أعطانا الله هذه الأيدي العاملة ، والسواعد القوية ، والأقدام السائرة ، والطاقات الغنية ، فإنه يريد منا - بداهة - أن نشتغل ونستخدم قوانا ، ونكدح فى الحياة ونجاهد فيها ، ونكسب رزقنا بقوة اليمين ، وعرق الجبين ، فالتوكل الصحيح أن لا نقصر فى جهدنا. ثم نعتمد فى نتيجة السعى على الله تعالى ، فالسعى شكر لنعمة القدرة ، والجبر كفران لهذه النعمة ، والله يقول :

﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابي لشديد ﴾ .

فاكسب وصب عرق الجبين ، ثم توكل على الرزاق ذى القوة المتين » (٣) .

لقد شاع فى الناس أن التصوف مرادف للبطالة والاستسلام للأوضاع الفاسدة

(١) ص ٤٢ ( من المثوى ) .

(٢) ص ٥٠٣ ( من المثوى ) .

(٣) ص ٢٧ ( من المثوى )

والحكومات الجائرة ، وأن لا شأن له بالجهاد فى سبيل الله والكفاح لاعلاء كلمة الله (١) .

وكان آخر ما يتوقعه المعجبون بشعر الرومى أن يشيد بشأن الجهاد فى الإسلام وأن يتحدث عنه فى إيمان وحماس ، ولكننا نقرأ فى شعره الرنان وفى حديث الحب والحنان ، أبياتا خلاصتها « أن المصلحة فى دين عيسى المغارة وقلعة الجبل ، والمصلحة فى ديننا الحرب ( فى سبيل الله ) والشوكة لدين الله ، ولما كان الرسول نبياً بعث مع السيف المسلول نهض من أمته الأبطال والفحول » .

ما هى الدنيا المذمومة :

ولا يقتصر جلال الدين على ذلك ، بل يزيد عليه ويقول على لسان الأسد : « أن السعى والكسب سنة الأنبياء والمرسلين ، وأن الدنيا ليست الذهب والفضة والأهل والأولاد ، كما يعتقد بعض غلاة الصوفية - أن الدنيا المذمومة الغفلة عن الله ، أما قال الرسول - ﷺ - « نعم المال الصالح للعبد الصالح » (٢) .

أن تعطل الصالحين مهد لسيادة الفساق والظالمين :

بل إنه يقرر ، أن تعطل الصالحين وقعودهم عن الجهاد ، وتوكلهم العجمى الذى لا يتفق وتعاليم الإسلام ، أفضى إلى سيادة الفساق والظالمين وحكومة السفهاء والجاهلين ، الذين سفكوا دماء الأبرياء ، وقتلوا العلماء والصلحاء ، وجاروا فى الحكم . وخانوا فى أموال الناس (٣) ، وتسلب فى عهدهم الحمقى وتوارى الحكماء والعقلاء ، ووسد الأمر إلى غير أهله (٤) .

---

(١) وقد تناول المؤلف موضوع نفى هذه الشائعة فى ضوء التاريخ فى كتابه « ربانية لا رهبانية » .

(٢) ص ٣٨ ( من المثنوى ) .

(٣) ص ١٣١ ( من المثنوى ) .

(٤) ص ٣٣٥ ( من المثنوى ) .

## مولانا جلال الدين الرومي

داع إلي الحب والعاطفة ، واحترام الإنسان والإنسانية

### عصر الرومي :

قد هبت عاصفة عقلية جامحة في القرن السابع ، بعثها علم الكلام الذي كان الشغل الشاغل للمسلمين في القرون الأخيرة ، وكانت هذه العاصفة عاتية شديدة ، انطفأت بها كواين القلوب ومجامرها . وإذا كانت لا تزال بقية من جمرات الحب والعاطفة ، فقد كانت كامنة في الرماد مغلوبة على أمرها . وقد أصبح المسلمون بعد ما كانوا شعلة من الحياة وجذوة من النار ، ركاما بشريا أو فحما حجريا ، بعد عهده بالنار والحرارة .

في هذا الجو الهاديء الخامد هتف مولانا جلال الدين الرومي بالحب والعاطفة ، حتى هب العالم الإسلامي من نومه العميق ، ودبت فيه الحياة .

### الدعوة إلى الحب :

لقد دعا الشيخ إلى الحب دعوة سافرة ، وذكر عجائبه وتصرفاته في بسط وتفصيل فيقول :

« أن الحب يحول المر حلوا ، والتراب تبرا ، والكدر صفاء ، والألم شفاء ، والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، وهو الذي يلين الحديد ، ويذيب الحجر ، ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة ، ويسود العبد » .

« أن هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء ، ويصل من السمك إلى السمك ، ومن الثرى إلى الثريا » .

إذا سرى هذا الحب في الجبال الراسيات ، ترنحت ورقصت طربا :

« فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا » :

ويذكر أن الحب غنى أبي ، لا يحتفل بالملك والسلطان ، من ذاقه مرة لم يسغ شرابا ، يقول : « أن الحب غنى عن العالمين إن كان الشغف بالمحبوب ونفى ما سواه جنونا فهو سيد المجانين » .

« أنه ملك الملوك تخضع له أسرة الملوك وتيجانهم ، ويخدمه الملوك كالعبيد ، يقول أن

الحب كامن كالنار ، ولكن الحيرة بادية ، متواضع ولكن نفوس الملوك الذين يملكون النفوس له خاشعة .

وإذا ذكر الرومى هذا الفقر الجسور والحب الغيور ، أخذته نشوة ، ونادى بأعلى صوته « بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم فى ملكهم وأموالهم ! لا ننازعهم فى شىء ، أما نحن ، فأسارى دولة الحب التى لا تزول ولا تحول . »

« أن جميع المرضى يتمنون البرء من سقمهم ، إلا أن مرضى الحب يستزيدون المرض ، ويحبون أن يضاعف فى المهم وحنينهم لم أر شرابا أحلى من هذا السم ، ولم أر صحة أفضل من هذه العلة . »

« أنها علة ولكنها علة تخلص من كل علة ، فإذا أصيب بها إنسان لم يصب بمرض قط ، أنها صحة الروح ، بل روح الصحة يتمنى أصحاب النعيم أن يشتروها بنعيمهم وورخائهم ، كأنه يعارض الشاعر العربى فى قوله :

ولى كبد محروقة من يبيعنى      بها كبد ليست بذات قروح  
أباها على الناس ، لا يشترونها      ومن يشتري ذا علة بصحيح ؟

فلو عرف هذا الرجل الذى كان ينادى على كبده قيمة هذه الكبد المقروحة ، لما تنزل إلى بيعها والتخلى عنها ، ولو عرف الناس قيمتها لأشتروها بملك الدنيا وعافية الأجسام ، فما قيمة كبد لم تقرح ؟ أنها مضغة لحم وقطعة حجر !

أن هذا الحب البرىء السامى يصل بالإنسان إلى حيث لا ترصه الطاعات والمجاهدات ، « لم أر طاعة أفضل من هذا الإثم عند من يسميه إثمًا أن الأعوام التى تنقضى بغيره لا تساوى ساعة من ساعات الحب . »

أن الدم الذى يسيل فى سبيله لا يشك فى طهارته ، أن شهيد الحب لا يحتاج إلى الغسل « أن دماء الشهداء أفضل من الماء الطهور ، يا لها من خطيئة إن كانت خطيئة ! » يقول : « إن المحبين الذين بذلوا مهجهم وأحرقوا قلوبهم لا تنفذ عليهم القوانين العامة ، ولا يخضعون للنظم السائدة . »

ويضرب الرومى لذلك مثلا بليغا فيقول : « أن القرية التى خربت لا تفرض عليها الجبايات والضرائب . »

ويقارن بين الحب البرىء ، والعقل الشاطر فيقول : « أن الحب تراث أبينا آدم ، أما

الدهاء ، فهو بضاعة الشيطان ، أن الداهية الحكيم يعتمد على نفسه وعقله ، أما الحب فتفويض وتسليم ، أن العقل سباحة قد يصل بها الإنسان إلى الشاطئ وقد يفرق ، وأن الحب سفينة نوح لا خوف على ركبها من الغرق .

هذا ، وبحر الحياة هائج ليس السباحة فيه بالخطب اليسير ، فخير الإنسان أن يأوى إلى سفينة مأمونة من الغرق ، وهى سفينة الإيمان والحب ، يقول : لقد رأينا كثيرا ممن يحسنون السباحة قد غرقوا فى هذا البحر اللجى ولكننا ما رأينا سفينة الإيمان والحب تغرق .

ثم أنه يفضل حيرة المحبين على حكمة الحكماء الباحثين ، ويحث على الحرص عليها والتنافس فيها ، لأن الحكمة ظن وقياس ، والحيرة مشاهدة وعرهان .

إنه يقول : « ليس لكل أحد أن يكون محبوبا ، فإنه يحتاج إلى صفات وفضائل لا يرزقها كل إنسان ، ولكن لكل أحد أن يأخذ نصيبه فى الحب وينعم به » فإذا فاتك أيها القارىء العزيز أن تكون محبوبا ، فلا يفتك يا عزيزى أن تكون محبا ، إن لم يكن من حظك أن تكون يوسف ، فمن يمنعك من أن تكون يعقوب ؟ وما الذى يحول بينك وبين أن تكون صادق الحب ، دائم الحنين ؟ .

ويزيد الشيخ على ذلك « أن لذة المحب لا تعدلها صولة المحبوب ، فإذا عرف المحبوبون ما ينعم به العشاق المتيمون ، والمحبون المخلصون ، لتمنوا مكانهم ، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء إلى صف المحبين البؤساء » .

**إلى من يوجه هذا الحب :**

ولكن إلى من يوجه هذا الحب الذى هو نور الحياة وقيمة الإنسان ؟ « أن الحب خالد لا يجدر إلا بالخالد ، أنه لا يجمل بمن كتب له الفناء والأقوال . أنه حق الحى ، الذى لا يموت ، الذى يفيض الحياة على كل موجود » ويستدل الرومى على ذلك بقصة سيدنا إبراهيم ويتمثل بقوله « لا أحب الآفلين » .

« أن هذا الحب يجرى من صاحبه مجرى الدم ، أن وضع فى محله وصادف أهله ، فإنه شمس لا يتأبها الأفل ، وزهرة ناضرة لا يعترتها الذبول . عليك بهذا الحب السرمدى الذى يبقى ، ويفنى كل شئ ، الذى يدور عليك بكؤوسه التى تروى ظمأك ! عليك بهذا الحب الذى ساد به الأنبياء وحكموا ! » .

**لا داعى إلى اليأس :**

ولكن ليس للمحب الطموح أن يشكو قصوره ويحتقر نفسه ، متعللا بسمو المحبوب

وعلو مكانته وغناه عن العالمين ، فما للتراب ورب الأرباب !؟ .

أن المحبوب الحقيقي هو الذى يحب أن يحب ، ويجذب إليه من الجذب « الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينب » يقول مشجعاً : « لا تقل لا سبيل إلى ذلك الملك الجليل ، فأنا عبد ذليل ، لأن الملك الكريم ، يدعو عبده ويسهل له السبيل » .

ويعود فيتغنى بهذا الحب ويقرظه فى سرور ونشوة ، ويقول : « أنه فيما يبدو للناظر علة علاجها عسير ، وصاحبها فى تعب وعذاب ، ولكنه إذا احتملها وثابر عليها ، وصل إلى المعرفة الحقيقية الأبدية » .

« أن الحب منشؤه ، انكسار القلب ، وجرح الفؤاد ، أنه علة لا تشبهها علة ، أن علة المحب تختلف عن كل علة . أن الحب اضطراب الأسرار الإلهية » .

ثم يذكر أن هذه العلة . وإن كانت فى ذات نفسها علة ، ولكنها شفاء للأسقام النفسانية والأمراض الخلقية . أن الأمراض التى أعيت الأطباء ، وتعذر منها الشفاء ، وقطع منها المصلحون الرجاء ، تبرأ وتزول بلفتة من هذا الحب ، فإذا برىء منه السقيم الذى يئس من صحته ، هتف فى سرور وطرب « حياك الله أيها الحب المضى ! يا طبيب علتى وسقمى ! يا دواء نخوتى وكبرى ! يا طبيى النطاسى ! يا مداوى الآسى ! » .

هذا ، لأن الحب شعلة إذا التهبت أحرقت كل ما سواه ، فلا كبر ولا خيلاء ، ولا جبن ولا خوف ، ولا حزن ولا حسد ولا بخل ، ولا عيب من العيوب النفسية ، إن موجة الحب تجرف الحشيش ، وتسرى فى النفس سريان النار فى الهشيم . « إن الحب شعلة تحرق كل ما سوى المحبوب » أن التوحيد سيف إذا سله صاحبه قطع كل ما عدا الله ، فحياك الله ! وحياك أيها الحب الذى لا يحتمل الشرك ! .

ويمسك مولانا بعد هذا النفس الطويل فى مدح الحب ووصفه ، ويقول : ( أن حكاية الحب لا تنتهى ، وتفنى الدنيا ولا تنقضى عجائبه ، لأن الدنيا لها نهاية وغاية ، والحب وصف من لا يفنى ولا يموت ) .

## عالم القلب :

ولكن لا سبيل إلى هذا الحب إلا بالقلب الحى الفائض بالحياة والحرارة . وقد طغت الناحية العقلية فى عصره كما قدمنا ، وتخطت حدودها ، وتضخمت على حساب القلب والعاطفة ، فمهما استنارت العقول فقد بردت القلوب وفقدت حياتها وحرارتها ، وأصبحت المعدة قطبا تدور حوله رضى الحياة . وقد أثار الرومى حديث القلب وماله من



مكانة وكرامة في حياة الإنسان ، وما تحويه من عجائب وكنوز ، وذكر أن الإنسان يحمل في جسمه روضة ، أكلها دائم وربيعها قائم ، وأنه يحمل في جسمه الصغير عالما أوسع من هذا العالم المادي ، لا يخاف عليه من عدو ، ولا يطرقه لص .

« أن القلب بلد عامر مأمون ، وحصن محكم مصون ، روضة مباركة لا ينفذ نعيمها ، ولا ينضب معينها ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » .

وذكر أن حدائق العالم لا تطول حياتها ، ولا تأمن الآفات والعاهات ، ولكن نخلة القلب دائمة النضارة والثمار ، « أن الحدائق تبطئ في النماء وتسرع في الفناء » أما القلب فسريع النمو ببطيء الزوال ، « أن روضة الجسم لا تلبث أن تصبح صريعا هشيا ، فينادى صاحبها : واحسرتاه ! أما روضة القلب ، فلا تزال مخضرة مثمرة ، فينادى صاحبها : وافرحته ! » .

فالذي يحاول أن يحافظ على صحته وشبابه ، ويبقى شابا قويا ، لا تتحقق أمنيته ، والذي يعتنى بقلبه ويحسن تربيته يبقى شاب الروح ، نشيط الجسم ، قرير العين ، ناعم البال . جذلان مسرورا . ( عليك بالقلب حتى تدوم شاما ، تتجلى في وجهك الأنوار فيشرق ) .

( عليك بالقلب حتى تبقى زاخرة الحيوية والنضارة مثل الصهباء ، متهللا كزهرة ناضرة ووردة باسمه ) .

ولكن لا تغرنك كلمة ( القلب ) فليس هذه القطعة التي تخفق في صدرك ، وتتجمع فيها الشهوات والمطامع ، ليس القلب هو الذي لم يذق طعم الحب ، ولم يعرف معنى اليقين ، ولا يملك شيئا من الشوق الذي لا تتفتح زهرته ولا يشرق ليله ، فليس هو القلب ، إنما هو قطعة من حجر أو خشب .

« أنه ضيق مظلم مثل قلب اليهود ، لا نصيب له من حب الملك الودود ، انه لا يشرق ولا ينير ، ولا ينشرح ولا يتسع » .

أنه ليس بين هذا القلب الميت وبين القلوب الحية إلا الاشتراك في اللفظ ، والشبه في الجسم . كما أن الماء الذي يجري في العيون الصافية والأنهار الجارية يسمى ماء ، والذي يختلط بالطين والوحل ويرى في المستنقعات يسم ماء كذلك ، ولكن الأول يروى الظمأ وينقى الثروب ، والثاني تغسل منه اليد . هذا هو الفرق بين القلب والقلب . أن قلوب الأنبياء والأولياء لتعلو على السماء . أما قلوب أشباه بنى آدم ، فهي قلوب أشباه القلوب ،

وليست بقلوب ، فإذا قلت (قلبي) فانظر ما تقول ! .

( تقول : قلبي ! قلبي ! فهل تعرف أن القلب من أمانات السماء ؟ أن الحمأ لا شك يحمل ماء ، ولكنك لا ترضى أن تغسل به يدك ، لأنه ، إذا كان ماء فهو ماء يغلب عليه الطين والوحل ، فلا تسم ما يخفق في صدرك (القلب) أن القلب الذي هو أعلى من السماوات العلى ، هو قلب الأنبياء والأصفياء ) .

ولكنه يسلى قارئه ولا يريد أن يكسر قلبه ويثبط همته ، فيقول : ( أن سلعتك التي لا يرغب فيها مشتر قد اشتراها الكريم تكريماً وتفضلاً ، أنه لا يرفض قلباً من القلوب ، لأنه لا يقصد به الربح ) .

ثم ينصح قارئه بالإنطلاق من هذا القفص الذهبي الذي يسمى «المعدة» والطيران في أجواء القلب الفسيحة ، والاطلاع على عجائب خلق الله ، والتنعم بلذة الروح ، يقول : ( أن المعدة وعبادة المادة هو الحجاب الصفيق بينك وبين ربك ، فإذا رفعت هذا الستر لم يكن بينك وبين ربك حجاب ) ( تخط حدود المعدة ، وتقدم إلى قلبك ، تأتك نحيات الرحمن من غير حجاب ) .

### كرامة الإنسان وشرفه :

لقد تواضعت الحكومات الشخصية المستبدة ، والفلسفات الخاطئة ، والأديان المحرفة ، على الاستهانة بقيمة الإنسان والخط من قدره وشرفه ، وقد نشأ - بتأثير الحروب الطاحنة التي كانت لا تكاد تنقطع ، وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية - مقت شديد في الناس للحياة ، وتبرم من امتدادها واستمرارها ، وقنوط من المستقبل ، وشعور عميق بالمهانة أو ما يسمى اليوم ( بمركب النقص ) وأصبح الإنسان حقيراً في عينه .

وجاء بعض المتصوفين العجم ، فدعوا دعوة متحمسة إلى الفناء الذي تمثله الجملة المأثورة في الأدب الصوفي « موتوا قبل أن تموتوا » وغلوا في انكار الذات حتى أصبح الاعتداد بالنفس وحب الذات الذي يتوقف عليه الكفاح والحركة والنشاط ، جريمة خلقية ، وحجر عثرة في سبيل الكمال الروحي . وقد أسرف الدعاة والمؤلفون في البحث على اكتساب الصفات الملكية ، والانسلاخ من اللوازم البشرية ، حتى أصبح الإنسان يستتكف من إنسانيته ، وأصبح يعتقد أن رقيه في الثورة على الإنسانية ، لا في الاحتفاظ بإنسانيته ، وأنه كلما كان أبعد من الإنسانية وأشبه بالملائكة كان أقرب إلى السعادة والكمال .

ونشأ - بتأثير هذه الأفكار والفلسفات ، وانحلال المجتمع ، وجور الحكومات - أدب

متشائم ، وشعر متشائم ، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود ، يدعو إلى الفرار من الحياة والتشاؤم من الناس ، والنقمة على الآباء في جنائهم على ذريتهم ، كما فعل (أبو العلاء المعري) في عصره ، وكانت نتيجة هذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناس عامة الثقة بنفوسهم ، والأمل في مستقبلهم ، والرغبة في حياتهم ، وأصبح الإنسان في هذا المجتمع المتبرم الضجر كاسف البال ، منكسر الخاطر ، ضعيف الإرادة ، محطم الأعصاب ، قد يحسد الحيوانات في حريتها ، والجمادات في سلامتها وهدوئها ، لا يعرف لنفسه قيمة ، ولا لإنسانيته شرفا ، ولا يعرف ذلك الجور الفسيح الذي هبأه الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف تلك الكنوز البديعة ، والقوى الجبارة ، والمواهب العظيمة التي أودعها الله في باطنه ، ولا يعرف أنه قد خلق ليكون « خليفة رب العالمين في هذا العالم الفسيح » .  
و« وصيا عليه » ، وأخضع له هذا الكون ، وما كان سجود الملائكة لأول بشر إلا إشارة لهذا الخضوع ، فإنهم هم الذين يتصرفون في هذا الكون بأمر الله ، ويبلغون رسالاته ، فإذا خضعوا فقد خضع له الكون بالأولى .

في هذا المجتمع الثائر على الإنسانية الذي كفر بالإنسان وقيمه ومركزه في هذا العالم ، قام مولانا « جلال الدين الرومي » يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة في شعره الرنان ، ويشير كرامة الإنسان المطمورة في إنقراض الأدب المتشائم ، والشعر المتراجع المنهزم ، وبدأ يتغنى بكرامة الإنسان وفضل الإنسانية في حماسة وإيمان وبلاغة ، حتى دب في المجتمع ديب الحياة ، وأصبح الإنسان يعرف شرفه وكرامته . وترنح بهذا الرجز والعداء القوي ( الأدب الإسلامي ) كله ، وردده الشعراء ، وضربوا على وتره ، وانطلقت في عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن تسمى « الاعتزاز بالإنسانية » .

يذكر جلال الدين الرومي قراء شعره وتلاميذه ، أن الله سبحانه وتعالى قد خص الإنسان بأحسن تقويم ، فقد قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » وأن هذا اللباس الفضفاض قد فصل على قامة الإنسان ، فلا يطابق كائنا آخر . ويحث قارئه على دراسة سورة ( التين ) والتدبر في معانيها ، وأن يحسب لكلمة ( أحسن تقويم ) حسابا خاصا ، فإنها ميزة للإنسان لا يشاركه فيها غيره .

ثم يزيد على ذلك ، ويرجع إلى سورة ( الإسراء ) ويذكر بقوله تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾ ويقول للقارئ : ( هل وجه هذا الخطاب الكريم وهذا الأسلوب من التكريم إلى السموات والأرض أو إلى الجبال ؟ إنه لم يوجه إلا إلى هذا الإنسان الذي يستهين بقيمته ويجهل مكانته . إن الله قد توجك - أيها الغافل - بتاج الكرامة ، وخصك بقوله : ﴿ ولقد

كرمنا ﴿ وحلى جيدك بالمنحة الخالصة فقال : « أعطيناك » كلمة لم يقلها لأحد .

أنه يقول : أن الإنسان خلاصة هذا الكون ، ومجموع أوصاف العالم ( يتمثل في هذا الجسم الصغير شئتَ في العالم من خيرات وكنوز ، وبدائع وعجائب ، أنه ذرة حقيرة انعكست فيها الشمس ، فإذا طلعت لم يبد كوكب . أنه قطرة صغيرة انصب فيها بحر العلم ، وثلاثة أذرع من الجسم انطوى فيها العالم « يقول أن الإنسان غاية هذا الخلق ، لأجله خلق العالم ، وهو القطب الذي يدور حوله رحي الكون ، تحسده الكائنات ، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات : « إن كل ما في هذا العالم من جمال وكمال إنما خلق لأجلك ويطوف حولك ، أنت الذي يحسده المقربون ، لست في حاجة إلى جمال مستعار ، فأنت جمال الدنيا ، وواسطة العقد ، وبيت القصيد ، الإنسان جوهر ، والفلك عرض ، كل ما عداك فرع وظل ، أنت الغرض ، إن خدمتك مفروضة على جميع الكائنات ، إن عارا على الجوهر أن يخضع لعرض » .

ولا يقتصر الرد على ذلك ، بل يقول : « إن الإنسان مظهر لصفات الله ، وهو المرآة الصادقة التي تجلت فيها آياته ، يقول « إن الذي يتراءى في الإنسان ( من الكمالات والمحاسن عكس لصفات الله ، كعكس القمر المنير في الغدير الصافي ، إن الخلق كالماء المنير تتجلى فيه صفات الله ، وينعكس فيه علمه وعدله ولطفه كما ينعكس ضوء الكوكب الدرى في الماء الجارى » .

ولكنه يشعر بقصوره وعجزه في وصف الإنسان وضخامة المهمة ودقتها ، ويعلن بصراحة وشجاعة :

« إذا صرحت بقيمة هذا المتنع<sup>(١)</sup> لاحترقت واحترق المستمع »

ثم يتساءل : هل يجروء أحد أن يساوم هذا الإنسان الغالى ويمنى نفسه بشرائه ، وهل يجوز لهذا الإنسان أن يبيع نفسه - مهما تضخم ثمنها - ؟ .

ثم يندفع مخاطبا الإنسان ، ويقول في تلهف وتوجع ، وفي شيء من العتاب والأنفة : « يا من من عبده العقل والحكمة والمقدرة ، كيف تبيع نفسك رخيصة ؟ » .

ثم يقول : لا محل للمساومة ، فقد تمت الصفقة ، وتحقق البيع : « إن الله اشترانا وخلصنا من المساومات والمقاومات إلى آخر الأبد ، فالشيء لا يباع مرتين » .

---

(١) يعنى به الإنسان .

ثم يبحث الإنسان على أن يعرف قيمته ، ولا يرضى إلا بأكرم المشتريين . ويقول :  
(ابحث لك - إن كنت باحثا - عن مشتر يطلبك ويبحث عنك ، والذي منه بدايتك وإليه  
نهايتك) .

ويلاحظ الشاعر أن من بنى آدم من لا يستحق هذا الوصف « أشباه الرجال ولا رجال »  
الذين هم فريسة نفوسهم ، وقتلى شهواتهم ، لا يعرفون من الإنسانية إلا ما يفوق فيه  
الحيوان ، من الشبع والرى والشبق .

ويقول بكل صراحة : ( أن هؤلاء ليسوا رجالا ، إنما هم صور الرجال ، هؤلاء الذين  
يحكم عليهم الخبز ، وقتلت الشهوات فيهم الإنسانية ) .

وقد ندر وجود الإنسان الحقيقي فى عصره ، كما ندر فى عصر غيره ، حتى أصبح فى  
حكم العنقاء المغرب ، والكبريت الأحمر ، وحتى اضطر الباحثون أن يبحثوا عنه بمصباح  
ديوجانس . وقد حكى الرومى حكاية لطيفة فى هذا الموضوع فى ديوان شعره فقال :

( رأيت البارحة شيخا يدور حول المدينة وقد حمل مشملا ، كأنه يبحث عن شيء !  
فقلت : يا سيدى ! تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معانرة السباع والدواب وضقت بها  
ذرها ، وخرجت أبحث عن إنسان عملاق وأسد مفوار . لقد ضاق صدرى من هؤلاء  
الكسالى والأقزام الذين أجدهم ، حولى ، فقلت له : إن الذى تبحث عنه ليس يسير  
المنال ، وقد بحثت عنه طويلا فلم أجده ، فقال : إننى مغرم بالبحث عن لا يوجد  
بسهولة . ولا يعثر عليه فى الطرقات ) .

رَحَائِلُ الْفِكْرِ وَالذِّمَمِ

فِي الْإِسْلَامِ

تَأَلَّفَ

أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ الْحَسَنِ السُّدْرِيُّ

الجزء الثاني

شيخ الإسلام ابن تيمية

تحقيق

مصطفى أبو سليمان السُّدْرِيُّ

النَّاشِرُ

مَكْتَبَةُ نَزَارِفِ صُطَيْبِ الْبَاهِي

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين ، من أئمة المسلمين ، المجددين ، الذين ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أما بعد : فيسرُ المؤلف ويسعده أن يقدم للقراء العرب الجزء الثاني من كتابه « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » ، وهو الجزء الخاص بحياة شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي ، وقد سبق تأليفه باللغة الأردية سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م ، وهي الحلقة الثانية من سلسلة كتاب المؤلف « تاريخ الدعوة والعزيمة » ، وقد تولى المؤلف نقل الجزء الأول من هذا الكتاب إلى العربية مع حذف وزيادة ، وتحسين وتعديل ، سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، وأفرغه في قالب محاضرات ألقاها في المدرج الكبير بجامعة دمشق أمام طلبة كلية الشريعة ، وصفوة من أساتذة الجامعة ، وعلماء البلد وأعيانه وقادة الفكر ورجال التعليم والتربية. في عاصمة بني أمية ، وصدرت لهذا الجزء عدة طبعات ، وقدم له فقيه العلم والاسلام الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ، وقد نال هذا الكتاب قبولا عظيماً في الأوساط العلمية ، والدينية ، والتربوية ، واعترف كثير من أهل العلم ، ورجال التربية أنه سد عوزاً كبيراً ، وملاً فراغاً في المكتبة الاسلامية العربية المعاصرة ، وجاء في أوامه .

وقد صدر الجزء الثاني لكتاب « تاريخ الدعوة والعزيمة » في أردو سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م من المجمع الاسلامي الأكبر في الهند ، المعروف ب « دار المصنفين » في أعظمكره ، وصدرت له طبعة ثانية من المجمع الاسلامي العلمي في لكهنؤو سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ونقل إلى اللغة الانجليزية سنة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ، ورحبت بالترجمة الانجليزية الأوساط العلمية ، والمشتغلون بالدراسات الاسلامية ، والبحوث التاريخية ترحيباً كبيراً ، وأبدى عدد من الباحثين والمعنيين بالفكر الاسلامي ، وحركات الاصلاح والتجديد في الاسلام ، اعجابهم الكبير بهذا الكتاب ، وكان أول كتاب يصدر في حياة شيخ الاسلام ابن تيمية في اللغة الانجليزية بهذا التفصيل والتحقيق .

كان كل ذلك كافياً لانتهاز أول فرصة لنقل هذا الجزء إلى اللغة العربية ويصح أن يقال أن هذا العصر عصر ابن تيمية ، وقد كانت لشخصيته ودعوته ودوره الاصلاحى ، عودة فى هذا العصر ، ولكتاباته وأفكاره واتجاهاته ، انتفاضة لم تكن لمصلح إسلامى ، أو مؤلف من المؤلفين القدامى ، لأسباب يطلع عليها القارئ فى ثنايا هذا الكتاب ومطاوليه ، فكان من المعتول والمتنظر أن يبادر المؤلف إلى نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، واتحاف المعجيين بشيخ الإسلام بهذا السفر .

ولكن المؤلف كان يزهد فى القيام بهذا العمل ، ويشبهه عنه صدور عدة كتب لكبار علماء هذا العصر ، وفى مقدمتهم علامة مصر الجليل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله ، وما كان يعلمه من أن آثار ابن تيمية فى اللغة العربية ، وقد قيض الله المملكة العربية السعودية ، علماء وأمرء ، لاثارة هذه الكنوز ونشرها ، وكان يخيل للمؤلف حين كان يحدث نفسه باصدار هذا الجزء بالعربية أنه كناقل الثمر إلى هجر .

ولكن الله شرح صدره لتحقيق هذه الأمنية ، وقبول هذا الاقتراح من اخوانه الذى عرفوا وجود هذا الكتاب باللغة الأردية - وفى مقدمتهم صديق المؤلف الأستاذ عبد الحلیم محمد أحمد صاحب دار القلم الكويتية - واقتنع أخيراً بأن لكل مؤلف طابعاً ، ولكل كتاب شخصية ينفرد بها كشخصية الإنسان ترجع إلى بيئة المؤلف ، وتجاربه الخاصة وفهمه الخاص ، فلا يكون إصدار هذا الكتاب من قبيل تحصيل الحاصل ، ومن قبيل الجهاد فى غير طائل ، والا كان كل من ألف فى موضوع طرق وبحث واستوعب من زمان ، من فضول الأعمال ، وإضاعة الوقت . هنالك عهد المؤلف بنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية إلى زميله العزيز الأستاذ سعيد الأعظمى الندوى أستاذ دار العلوم لندوة العلماء ، ومحرر مجلة « لبعث الإسلامى » فقام به خير قيام ، وقرأه المؤلف حرفياً ، وتناوله بالتنقيح والتهديب ، والحذف والزيادة . وعلق عليه بعض تعليقات جديدة مفيدة ، فجاء أكمل وأجمل ، وأوفق للذوق العربى السليم . وها هو هذا الكتاب بين أيدي القراء ، والله المسئول أن ينفع به الإسلام والمسلمين . ويرفع همم الباحثين والمؤلفين ، والعاملين فى مجال الإصلاح والتربية وخدمة الدين وهو الموفق والمعين .

## أبو الحسن على الحسنى الندوى

المجمع الإسلامى العلمى - لکنهتو

يوم الخميس ۹/۵/۹۵ هـ - ۲۲/۵/۷۵ م



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الحاجة إلى ترجمان للشريعة

### و مصطلح شامل

حد من حرية الفلسفة ، وإدالة لتعليم النبوة منها :

تزعم مولانا جلال الدين الرومي تلك الثروة العقلية التي كانت رد فعل ضد الفلسفة اليونانية وعقلية المتكلمين <sup>(١)</sup> ، لقد كان ذلك نموذجاً لعقلية أسمى وفكرة أرسخ ، وكان افتتاح عهد جديد لكلام جديد قام أساسه على سمو العقل والقلب وطهارتهما ، وعلى تجربة المتكلم الشخصية .

كان مولانا جلال الدين الرومي عالماً متبحراً ومتكلماً نابغاً في عصره ، أكرمه الله تعالى بالقلب العارف وطبيعة الحب والحنان ، وكان قد سئمت نفسه من كلام الفلاسفة وتقدير المتكلمين ، وقد بلغ بفضل تربية رجل مؤمن حنون ، ومن أجل المجاهدات والرياضات التي قام بها إلى حيث أدرك فيه أن المعارك الكلامية التي تدور في زمنه إنما تقوم على أساس الذكاء والخطابة أكثر منها على الحقيقة ، وهنالك شرح الحقائق الدينية بلغته واتخذ لاثباتها طريقاً كان أقرب إلى الحقيقة ومبنيًا على التجربة والوجدان .

ولكن الظروف كانت تؤكد الحاجة إلى رد فعل آخر ضد طغيان الفلسفة وعدوان علم الكلام لا يقل في خطورته من رد فعل سبق ذكره ، فقد كان البحث عن ذات الله وصفاته من رؤوس القضايا التي شغلت بحوث الفلسفة وعلم الكلام ، أما الشريعة الإسلامية فلم تترك موضوع العقائد غامضاً ملتويًا غير واضح للإنسان ، بل إنها جعلت هذه الناحية موضع عناية بالغة بالنسبة إلى الأديان السابقة لأنها أساس المجتمع الفاضل والمدنية المثلى ، والفضائل من الأعمال والأخلاق ، إن الشريعة الإسلامية وجهت إلى الإنسان توجيهات حاسمة ، سهلة واضحة حول ذات الله وصفاته ، لم تعد بعد ذلك أي حاجة إلى تحقيق وتدقيق أو قياس ، إن مصدر هذا العلم والايان إنما هي تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة

---

(١) كما مر تفصيله وبسط القول فيه في الفصل الأخير من الجزء الأول لكتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

والسلام فان كلامهم أكبر برهان على أنهم هم العارفون بما وراء الكون من اله وبصفاته النادرة الفذة التي لا تقبل القياس والنهاية .

ما كان للفلسفة أن تتحدث عن هذا الموضوع أو تقوم خصما بازائه إذ لم تكن تمسك مبادئ هذا العلم الأساسية ، ولا تلك المعلومات التي تتوصل بترتيبها إلى مجهول ، ولم تكن تصلح لأجراء اختبار أو تحليل ، ولم يكن الفلاسفة أهلا لذلك ، ولكن الفلسفة على الرغم من عجزها العلمي تخطت حدودها ، ولم تكتف بالتدخل في هذا الموضوع فحسب بل إنها بحثت قضايا وفروع بثقة كبيرة وتحكم بالغ ، وبتفصيل زائد وتدقيق شديد ، وقامت بتحليل يختص بالمعامل الكيماوية فقط .

ظهر علم الكلام لمقاومة الفلسفة ونصرة الدين ، وكان ذلك أمرا لازما ، غير أنه تأثر بالفلسفة وتربت اليه روحها حتى تكونت « فلسفة دينية » تنتهج نفس المنهج ، وتبحث نفس الموضوع ، وتتبع نفس الأسلوب للبحث والاستدلال ، وتعيد نفس الخطأ في اعتبار ذات الله وصفاته وقضايا ما وراء العقل أمورا عقلية يمكن اثباتها عن طريق العقل ، وكذلك تسيطر عليه روح عدم الاقتناع بما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من شرح وتعبير في هذا الموضوع واستخدام مصطلحات يونانية تقوم على علم محدود ناقص وتثير شبهات ، الأمر الذي دعا إلى تعقد القضايا وتوسعها بله أن تنحل أو تختصر ، ووجدت « فلسفة إلهية » وكتب ضخمة في شرح العقائد ، إزاء أسلوب مقنع مؤثر كان جديرا بشحن النفوس بالايان والإذعان ، واقناع العقول في كل زمان ، وكان مؤسسا على نصوص الكتاب والسنة .

وكانت هذه الفلسفة الإلهية الجديدة قد تأثرت بالفكر اليوناني رغم أنها ظهرت ضد الفلسفة اليونانية ، فكانت روح الكتاب والسنة تحتج دائما على هذا الموضوع ووجدت طبقة وجيهة للأمة الاسلامية معارضة لهذه التفاصيل الفلسفية والتأويل الكلامية ، غير أن الحاجة إلى عالم كبير نافذ البصيرة ، واسع العلم ، قوى الايمان كانت أكيدة لشرح الكتاب والسنة والتعبير القوى المؤثر عنهما ، ذلك الذي يعتقد أجزم الاعتقاد أن في نصوص الكتاب والسنة حول ذات الله وصفاته وفي تعبيراتهما عنها غنى وكفاية تامة ، ذلك العالم الذي يتوصل بذكائه ودراسته إلى أعماق الفلسفة ويطلع على خباياها وكوامنها ، ويتمكن من تناول أقوال فلاسفة اليونان ومذاهبهم الفكرية بالنقد العلمي ، بما عنده من علم بمواضع ضعفها الأساسية ، ذلك الذي قد تعمق بتفكيره فوصل إلى أغوار علم الكلام ، واطلع على الخلافات الدقيقة بين الأديان والفرق الاسلامية ، ولا يخفى عليه شئ من تاريخ علم الكلام

وفوه ، ذلك الرجل الذى يكون على جانب عظيم من الثقة والاعتزاز بنصوص الكتاب والسنة ومذهب السلف بفضل دراسته وتجاربه ، يفيض عزيمة وحامسا بنصرته شرحه ، ويعيش على حسك السعدان لكى يثبت رحجان مذهب السلف وفضله من الناحية العقلية على غيره من الفلاسفات والنظم العقلية ، كما يكون متمتعا بجميع تلك الوسائل والمؤهلات التى يتطلبها هذا العمل العظيم ، ومتميزا فى ذكائه وقوة بيانه واستدلالة وسعة نظره وعمق دراسته عن غيره ، يكون فوق مستوى عصره وكفؤا للقيام بهذه الخدمة بمعنى الكلمة .

### فى مواجهة المسيحية ، ونقدها العلمى :

هذا وقد كان الإسلام هدفا للهجمات الداخلية والخارجية بجانب آخر ، وكان المسيحيون قد تحمسوا لاثبات أن المسيحية هى الدين الحق ، وتوجيه الايرادات إلى الاسلام ، إن الهجوم الصليبي المتتابع ووجوه عدد وجيه من مسيحي الغرب فى الشام وقبرص ، شجعهم على مواجهة المسلمين فى المجال العلمى وعلى تأليف كتب تثبت فضل دينهم وأخرى ترفض نبوءة محمد ﷺ .

وللرد على كل ذلك كانت الحاجة ملحة إلى عالم كبير ومتكلم ، له دراسة عميقة فى المسيحية والديانات الأخرى ، وله اطلاع واسع على الصحف السماوية وما واجهته من تغيير وتحريف ، ويستطيع أن يحسن المقارنة بين الديانات ويثبت فضل الإسلام وخلوده فى أسلوب علمى مؤثر قوى ، ويتمكن من دعوة أتباع الديانات الأخرى إلى الاسلام بحكمة وقوة .

### فضح المذاهب المنحرفة والحركات الهدامة :

وقد كان أشد وأكثر خطورة من هذه الهجمات حملة شنها فرقة إسلامية دخيلة على الإسلام وهى الفرقة الباطنية التى كانت ديانتها وتعاليمها مجموعة عجيبة للعقائد المجوسية والأفكار الأفلاطونية والأغراض السياسية ، وقد كانت هذه الفرقة وفروعها المختلفة من الإسماعيلية والحشاشية والدروزية والنصيرية تتعاون مع القوى العداوية والمهاجمين الأجانب على الإسلام ، وهى التى مهدت الطريق ودبرت المؤامرات للهجوم على الأقطار الإسلامية وساعدت الصليبيين فى شن هجومهم على الشام ، وذلك مما جعل الصليبيين عند استيلائهم على الشام أن قربوا رجال الفرقة الباطنية وجعلوهم موضع ثقتهم ونجواهم وأحسنوا إليهم ، اعترافا بمساعداتهم المخلصة ، وقد ظل هؤلاء الباطنيون مشغولين بتسييت المؤامرات وتدبير الثورات فى عهدى صلاح الدين ونور الدين فلما قصد وحوش التتر أرض الشام بهجماتهم

العنيفة ساعدتهم الباطنيون علنا وجهاراً ، وأصابوا المسلمين بضرر بالغ ، وذلك عدا ما كانوا يقومون به بصفة دائمة من نشر اضطراب فكري وتشاؤم بالدين وإلحاد وزيف وثورة على الدين وكانوا « كالتابور الخامس » في حصن المسلمين الديني . كل ذلك كان يحتم على المسلمين أن يقتلعوا جذور هذه الفرقة من الناحيتين العلمية والعملية ، ويكشفوا القناع عن معتقداتها وأغراضها ليطلع المسلمون على نواياها ويعاقبوها معاقبة شديدة على أعمالها العدائية ومحاربتها للإسلام ، ولم يكن يقوم بهذه المهمة إلا من له اطلاع تام على حقيقة هذه الفرقة وأسرارها وتاريخها ، وله معرفة بجميع فروعها ومعتقداتها وأفكارها مع قدرته البالغة على تناولها بالرد والنقد ، مضافاً إلى ذلك حماسه الزائد للإسلام ودافعه القوى للجهاد مع أعداء الإسلام .

### محاربة العقائد ، والأعمال الشركية ، والدعوة إلى الدين الخالص :

هذا وكانت الجماهير المسلمة فريسة العقائد الباطلة وأعمال الشرك بضغط عوامل عديدة ، منها اختلاطهم بغير المسلمين ، وتأثير العجم ، وتهاون العلماء ، وقد أصبح الدين الخالص والتوحيد النقي وراء حجاب وحجاب ، ونشأ الغلو والإفراط في الاعتقاد في الأولياء والصالحين شأن اليهود والنصارى ، حتى بدأت عقيدة التوسط والتقرب بالأولياء ترسخ ، وينطبق عليهم ما حكاه القرآن من قول مشركي العرب الأولين ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، وتنتشر هذه الفكرة الجاهلية في أوساط المسلمين ، وأصبح كثير من العلماء لا يرون بأساً في الاستغاثة بغير الله والاستعانة به ، واتخذت قبور الأنبياء والصالحين مساجد ، وتحقق الخطر الذي كان قد أندر به النبي ﷺ وشدد النهي عنه ، ولم يكن المسلمون يشعرون بأى غضاضة في التخلق بأخلاق الذميين والكافرين واتخاذ شعائرهم وخصائصهم والحضور في أعيادهم الدينية ومهرجاناتهم واصطناع تقاليدهم وعاداتهم .

فكانت الحاجة ماسة إلى عالم مجاهد يتصدى لمحاربة هذه الجاهلية المشتركة والدعوة إلى التوحيد الخالص بكل قوة وإيضاح ، ويكون عارفاً بالفرق بين التوحيد والشرك معرفة دقيقة ، ولا تخفى عليه الجاهلية مهما تقنعت وتنكرت أو ظهرت في مظاهر ، ويكون قد حصل على حقيقة التوحيد مباشرة من الكتاب والسنة وحياة الصحابة الكرام رضی الله عنهم لا من كتب المتأخرين وتعامل المسلمين الجهلاء ، وتقاليد الزمان وعادات الناس ، ولا يبالي في الجهر بالعقيدة الصحيحة بمعارضة الحكومات وعداوة الناس ومخالفة العلماء ولا يخاف في ذلك لومة لائم ، ويكون ذا نظر دقيق وعلم واسع بالكتاب والسنة ومصادر الدين الأولى الموثوق بها ، وبأحوال القرون الأولى ، وذا اطلاع كامل على تاريخ اليهود

والنصارى وقصة انحرافهم ومسخهم وتحريفهم ، وعلى عقلية الأمم الجاهلية ونفسياتهم ، ويعيش فى تألم وقلق لكى يعيد المسلمين إلى تعاليم القرآن وعقيدة الصدر الأول ويبراهم منتهجين طريق الصحابة الكرام رضوان الله عليهم واتباعهم .

## محاربة الانحرافات والمغالطات فى الطوائف الدينية ، وتنقية الدين

من الشوائب :

وقد تسرب إلى متصوفين - لأسباب تاريخية وعلمية عديدة - تأثير الفلسفة الاشرافية التى جاءت من يونان والهند ، وامتزجت بالعقائد الاسلامية وأفكارها امتزاجا لا يتسنى لكل واحد فصلها عنها ، إن إشراقية الأفلاطونية الجديدة أو تنسك الهنود ، وعقيدة الحلول والاتحاد ، ومذهب وحدة الوجود ، وتقسيم الظاهر والباطن ، وفتنة الرموز والأسرار ، والعلم الدفين ، وسقوط التكاليف الشرعية عن « الكاملين » و « الواصلين » واستثناءهم عن الأحكام الشرعية ، كل ذلك كانت معتقدات وأفكاراً نالت إعجاب طبقة كبيرة من المتصوفين ، وبالرغم من إنكار أصحاب التحقيق والرسوخ فى العلم من هذه الطائفة فى كل زمان لهذه المعتقدات الفاسدة كانت طبقة من المتصوفين تلح عليها ، حتى تسفل بعض فروع التصوف وسلاسله إلى حد الشعوذة والتهويل ، ولا سيما بعض فروع السلسلة الرفاعية التى انحرفت فى العهد الأخير عن أصلها وتعاليم مؤسسها الكبير ، وأثر كثير من رجالها الذين لم ترسخ قدمهم فى العلوم الشرعية والعقائد الاسلامية الأعمال البهلوانية ، زاعمين أنها تؤثر فى عقول المغول والتتار وترغبهم فى الاسلام ، وكان لذلك ضرر عظيم على سلامة العقيدة ومكانة الشريعة ، وقد استفحلت هذه الفتنة فى القرنين السابع والثامن ، ووقع العامة وكثير من الخاصة فريسة هذه المغالطات .

ولقمع هذا الخطر الناجم أيضا والحفاظ على الشريعة كانت الحاجة شديدة إلى مؤمن قوى ، ومصلح جريئ يتناول هذه الطوائف المنحرفة بالنقد اللازم ويكشف القناع عن وجه أخطائها ومغالطاتها بكل حرية وجراءة ، معرضا عن صولتها وقوتها ، وغير مبال بعدد أتباعها ونفوذهم .

## تجديد الفكر الإسلامى :

وكانت الحلقات العلمية والتدريسية مصابة بجمود شديد ، فكل طائفة تعتبر الخروج عن دائرتها الفقهية قيد شعرة جريمة لا تغتفر ، وكان مألوفا لدى كل طائفة أن ترى إلى الكتاب والسنة بمنظار مذهبها الفقهى ، وتحاول تطبيق الكتاب والسنة فى الخلافات الفقهية على

آرائها فى كل حال فضلا عن تحكيمها فيها ، وكان باب الترجيح والاختيارات الفقهية مغلقا عمليا ، وكانت مشكلات حديثة وقضايا جديدة قد حدثت مع تغير الزمان والأحوال ، الأمر الذى كان يحتاج إلى إرشاد المسلمين فيها والبحث عن حلولها إلى رجل يجمع بين سعة النظر فى ذخائر الفقه الإسلامى ، والتعمق فى الكتاب والسنة والاطلاع على تعامل القرون الأولى ، والعلم العميق الدقيق بأصول الفقه ، وقد كان يتضابق مجال العلم والنظر والدراسة على مر الزمان وتضمحل القوى الفكرية ، ولم يكن عالم من علماء الإسلام يتجرأ على استنباط الأحكام الجديدة ، وكان الفقه الإسلامى قد فقد جدارة النمو والتقدم ، ويعتبر من المستحيل أن يزداد إلى ثروة الفقه القديمة أى زيادة .

فكان إصلاح هذا الوضع كذلك يحتاج إلى محدث فقيه وأصولى ضليع يكون قد استعرض ذخائر المكتبة الإسلامية بأسرها ، ويستحضر الكتاب والسنة بحيث يحير الناس ، ويعرف الحديث وأنواعه وطبقاته ومجموعاته معرفة دقيقة تضطر الناس إلى الاعتراف بمكانته فى صناعة الحديث ، حتى يقولوا : «إن الحديث الذى لا يعرفه هذا الرجل ليس حديثا»<sup>(١)</sup> ويكون مستحضرا لخلافات الفقهاء ومراجعهم ودلائلهم فى كل حين ، كما يكون له اطلاع تام على المذاهب الفقهية الأخرى وفروعها أكثر من أصحاب الاختصاص فيها والمنقطعين إليها من أهل المذهب ، ولا يتعدى حدود السلف مع قوة استنباطه وتحقيقه ، عارفاً بمكانة الأئمة المجتهدين وفضلهم وحقهم ، ومتطفلا على موائد علمهم ودينهم ، ويكون ذا قدم راسخة فى علوم اللغة وباع طويل فيها ، حتى تأهل لذلك للنقد والصيرفة فى مجالها ، يجمع إلى ذلك علو الكعب ودقة النظر فى النحو حتى يأخذ على أئمة النحو الكبار أخطاءهم الفنية ، ويجدد بقوة عارضته عهد المحدثين الأولين ، يعتبر ذكائه آية من آيات الله وعلمه دليلا على فضل الله ، ويبرهن بشخصيته على خصوبة تربة الأمة الإسلامية وخصارة دوحة الإسلام ، ونضارة العلوم الإسلامية ونموها وازدهارها ، ويكون تصديقا لما جاء فى حديث النبى ﷺ من قوله الخالدة : «مثل أمتى مثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره»<sup>(٢)</sup> .

## جامع بين العلم والعمل ، والسيف والقلم :

ويكون مع ذلك من فرسان العمل والكفاح ، ويجمع بين القلم والسيف ، جريئا على

(١) من الأقوال التى قالها كبار علماء العصر فى شيخ الإسلام ابن تيمية كما سيأتى .

(٢) رواه الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

الملك في الصدع بالحق ، لا يحجم عن قيادة الجيش الإسلامي أمام أضرى عذر مثل الوحوش التتر ، ويعرفه كل من حلق الدرس ، وزوايا المكتبات ، واخلوات المساجد ، ومجالس المناظرة ، ومعتقلات السجون ، وساحات الحرب كفارس عظيم ورجل ذي شكمة ، مبعلا في كل عين ومعترفا بامامته في كل طبقة .

كان القرن الثامن بحاجة إلى مثل هذا الرجل الكامل الذي يسع نشاطه كل مجال من مجالات الحياة من غير أن تنزوي جهوده وأعماله في زاوية واحدة أو تتركز على جانب واحد ، كان ذلك الرجل هو شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذي ملأ العالم الإسلامي بنشاط وحياة بحركات علمية وعملية لا تزال آثارها خالدة باقية على مر القرون والأجيال .





## العصر الذي عاش فيه شيخ الإسلام ابن تيمية

### العصر الذي ولد فيه ابن تيمية :

يتسم عصر ابن تيمية بحوادث خطيرة وقلقل كثيرة ، وهو عصر ذو أهمية كبيرة من النواحي السياسية والاجتماعية والخلقية والعلمية والدينية ، ولكي نطلع على قيمة الجهود الإصلاحية التي قام بها شيخ الإسلام ابن تيمية ، ونعرف طبيعته العلمية والدعوية ، يجب أن نستعرض ذلك الوسط الذي نشأ فيه ، وتركزت عليه مهمته التجديدية والإصلاحية .

ولد ابن تيمية بعد تدمير بغداد بخمس سنوات ، ودخول التتر في حلب ودمشق بثلاث سنوات فقط ، فمن البديهي أنه يكون قد رأى منذ تعقله آثار الدمار لهذه المدن الإسلامية ، وسمع قصة مذابح المسلمين وصدى حكايات الفظائع الوحشية التي قام بها التتر في كل مكان ، وترددت على ألسنة الناس جميعاً ، وعندما كان ابن سبع سنين شن التتر حملة على مسقط رأسه حران التي كانت تقع في شمالي الأرض المحتلة ( العراق ) بين دجلة والفرات ، وقد خرجت أسرته شأن الأسر الكثيرة من حران فراراً بين دجلة والفرات ، وقد خرجت أسرته شأن الأسر الكثيرة من حران فراراً من فظائع التتر وظلمهم وتوجهت إلى دمشق ، وكانت هيبة التتر فاشية في الطرق كلها ، فما عسى أن تمحى ذكرى هذه الفوضى ، والارجاف والذعر من ذاكرته العظيمة ، ولا بد أن يكون قد شاهد آثار هذا الخراب والدمار بأم عينيه ، وسمع تفاصيله المؤلمة عن رأوا مناظره وشهدوها وشاهدوها ، فمن الطبيعي أن يتأثر قلبه الغيور المرهف بنكبة المسلمين هذه وذلتهم وتمتلى نفسه غيظاً وكرهية لأولئك الوحوش الضواري .

وكذلك ما حدث في عين جالوت من انتصار المسلمين الزاهر إنما وقع قبل مولده بثلاث سنوات ، كما أن فتوح الملك الظاهر بيبرس كانت أحاديث صباه وسمير المجالس في ذلك العهد ، فلا شك أن ذلك يكون قد بعث في قلبه سروراً وقوة ، وآثار في نفسه شجاعة وحماساً .

### ملوك مصر المماليك :

كان المماليك يحكمون مصر والشام من قبل مولد ابن تيمية بثلاث عشرة سنة ، وقد كان هؤلاء المماليك أتراكا أسكنهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ( المتوفى ٦٤٧ هـ ) آخر ملوك أسرة صلاح الدين الأيوبي اعترافاً بشجاعتهم ووفائهم في مصر ، وعرفوا باسم

البحرية<sup>(١)</sup> ، وكان من بينهم رجل عرف باسم عز الدين أيك التركماني الذي اغتال توران شاه خليفة الملك الصالح سنة ٦٤٧ هـ واستولى على الحكم ، وتلقب بلقب الملك المعز ، واغتيل هو في سنة ٦٥٥ هـ فخلفه ابنه نور الدين علي ، وفي سنة ٦٥٧ هـ سيطر على عرش الحكم غلام عز الدين سيف الدين قطز كان رئيس ادارة الحكم ، وذلك هو الذي هزم التتر لأول مرة هزيمة نكراء ، وما ان مضى على تربعه عرش الحكومة سنة واحدة إذ قتله ركن الدين بيبرس مملوك من مماليك الصالح نجم الدين أيوب واستولى على الحكم واتخذ لنفسه لقب الملك الظاهر ، واستمر في الحكم إلى مدة ثمانية عشر عاما في غاية من الأبهة وعظمة الشأن ، وانتصر على التتر والصليبيين متتابعا .

ولد ابن تيمية في أيام الملك الظاهر بيبرس ، الذي كان يحكم آنذاك مصر والشام ، إنه قضى أيام صباه في حكمه ، فلما توفي بيبرس كان ابن تيمية شاباً بالغاً من العمر ١٥ عاماً ، وكان الملك الظاهر بيبرس أول ملك قوى مسلم بعد صلاح الدين اعتنى بأمر الجهاد، وهزم أعداء الاسلام بالتوالي ، يتحدث عنه ابن كثير فيقول :

« كان رحمه الله متيقظاً شهماً شجاعاً لا يفتر عن الأعداء ليلاً ولا نهاراً ، بل هو مناجز لأعداء الاسلام وأهله ، ولم شعته واجتماع شمله ، وبالجملة أقامه الله في هذا الوقت المتأخر عونا ونصرا للاسلام وأهله ، وشجاً في حلوق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين ، وأبطل الخمر ونفى الفساق من البلاد ، وكان لا يرى شيئاً من الفساد والمفاسد إلا سعى في إزالته بجهد وطاقته<sup>(٢)</sup> .

كانت رقعة حكومته واسعة ، ونظاماً متقناً ، فقد امتد حكمه إلى نهر الفرات في الشرق وإلى آخر حدود السودان في الجنوب ، وكانت مصر مركز الحكومة ، والقاهرة مقرها الرئيسي التي تحولت إلى مركز علمي وسياسي وحضاري للعالم الاسلامي في ذلك الحين بفضل الملك الظاهر واقامة أحد الخلفاء العباسيين فيها<sup>(٣)</sup> ، وقد أقبل الملك الظاهر على

---

(١) كان مقرهم على ضفة النيل ولذلك اشتهروا بهذا الاسم ، ومن عادة المصريين أنهم يسمون النيل بحرا .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧٦ .

(٣) بقي لمسلمون بعد شهادة الخليفة المستعصم بالله ثلاث سنوات من غير خليفة ، يقول المؤرخون عند استهلال عام جديد « دخلت سنة . . . والمسلمون بلا خليفة » وأخيراً بايع الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ أحد أفراد بني العباس اسمه المستنصر بالله أبو القاسم أحمد ابن أمير المؤمنين الظاهر ، وقرر مصر قاعدة الخلافة ، ولكن هذه المبايعة إنما كانت بالاسم والبركة فقط ، إذ كان الملك الظاهر بيبرس هو الحاكم الأصلي في الحقيقة .

تأسيس المدارس في عدد كبير ، حتى اجتمع أهل الفضل والعلم في القاهرة من أنحاء بعيدة .

وكان الملك الظاهر بيبرس على كفاءته الشخصية ودوافعه الاسلامية وحماسه لندجهاد ، حاكما مستبدا برأيه ، فلا غرابة إذا وجدت فيه بعض مواضع الضعف مما يتصف به الملوك المستبدون ، وإن تاريخه حينما يتجمل بمآثره الجليلة وخدماته الاسلامية ، يتسم بخصائص المملكة الشخصية وأحداث الاستبداد ، والعناد ، والإصرار أيضاً ، وما حدث للامام النووي معه من معاملة مؤسفة ، لدليل على ذلك (١) .

ومنذ نهاية حكومة الملك الظاهر التي عاشت ثماني عشرة سنة ، تداول عرش الحكومة في مصر والشام ملوك كثيرون ، ويمكن أن نقدر ذلك بأن تسعة ملوك تربعوا على عرش مصر في فترة ما بين ٦٧٦ هـ ( وهي السنة التي توفي فيها الظاهر ) إلى ٧٠٩ هـ في خلال ٣٣ عاما فقط ، وفي خلال هذه الفترة تمتعت الدولة الاسلامية في مصر والشام والحجاز بملك مجاهد قوى منظم للأمر اسمه الملك المنصور سيف الدولة قلاؤون الذي شن الغارة على التتر في سنة ٦٧٨ هـ وهزمهم هزيمة منكرة ، وكذلك فتح طرابلس الشام التي كانت بيد الصليبيين منذ ١٨٥ سنة ، إنه حكم بين فترة سنة ٦٧٨ هـ و ٦٨٩ هـ مدة اثني عشر عاما بغاية من الحكمة والدقة ، ولما توفي منصور قلاؤون عاد عرش مصر لعبة بين ملوك وأشباههم ، وأخيراً في سنة ٧٠٩ هـ تقلد زمام الحكم ابنه الملك الناصر محمد بن قلاؤون في المرة الثالثة ، حتى استقر حكمه إلى ٣٢ سنة ، والحقيقة أن الملك الناصر هو المعاصر الأصيل للامام ابن تيمية الذي يتصل به تاريخه الاصلاحى والتجديدي ، إنه كان خليفة الملك الظاهر بيبرس إلى حد كبير ، ومشاركاً له في عديد من صفاته وخصائصه ، وكان مثالا لوالده العظيم منصور قلاؤون ، وفي عصره نالت الدولة الاسلامية وحدة وقوة ، وانتصر على التتر انتصارا باهرا شأن سلفه ، وسبب ازدهار الحكومة الاسلامية وانتشار سمعتها الطيبة .

ظلت خراسان وفارس والعراق تحت حكم التتر في هذه الفترة ، ولم تعد بغداد إلى أيدي المسلمين ما لم يهتد حكامها التتر إلى الإسلام ، على أن الخليفة العباسي في مصر غزا بنفسه ، وأراد الملك الظاهر بيبرس غير مرة أن يستردها من أيديهم ولكن دون جدوى ،

---

(١) اقرأ القصة بطولها في ترجمة الامام النووي في « طبقات الشافعية الكبرى » للشيخ تاج الدين لسبكي .

وقد كانت مصر والسودان والشام والحجاز فى حكم الممالك آنذاك .

## نظام المملكة :

كان الإسلام دين الدولة الرسمى فى مملكة الممالك ، فقد كان الملك وأعيان المملكة كلهم يحبون الإسلام وتجييش فى قلوبهم حمية الإسلام ، والحكومة كانت تتولى نصب القضاة والأئمة وشيوخ الإسلام ، ورجال المناصب الدينية ، مع وجود قسم الحسبة واعتبار أحكام القضاة واجبة الامتثال ، وكانت المدارس تقوم بتدريس العلوم الدينية الحرة ، ولكن العامل الأساسى فى جميع شئون المملكة ونظامها كان هو الملك ووزرائه الموثوق بهم وأعضاء مملكته ، وكان حكمهم واراوتهم قانون المملكة الأصيل ، ولذلك كانت مساحة تنفيذ القوانين الإسلامية محدودة ضيقة فى مملكتهم الواسعة ، وكان نظام الحكومة يشبه النظام العسكرى ، ولم يكن يعتمد على دستور مدون ، ولا نظام معين ولا كان له مجلس استشارى .

ولكن الملك الظاهر وخلفاءه من الملوك كانوا يحاولون أن تنال قوانين مملكتهم وأحكامهم واجراءاتهم تأييد العلماء المعاصرين ، ولا ينفذوا أمرا الا بالاستشارة معهم واسترضائهم ، وقد ألقى بعض الأحيان إقدام أو قانون جديد صدر من الملك إذا خالفه العلماء ، ولما أراد الملك الظاهر بيرس مصادرة الاقطاعات وأراضى الإقطاعيين فى مصر والشام خالفه الامام النووى مخالفة عنيفة . ولو أن بيرس أبدى سخطه على ذلك ، واضطر الامام النووى إلى مغادرة دمشق من جرائه ولكنه لم يتشجع على مصادرة الأراضى والاقطاعات كما أرادها ، بل تركها على سابق حالها ولم يدخل فيها أى تغيير أو تعديل .

لقد كان أساس هذا النظام للمملكة قائما على التوارث ، غير أن الواقع كان على عكس ذلك . إلا أنه لم يكن مبنا على أساس اسلامى ، ولا لأن روح الإسلام وتقاليده المتبعة تقتضى اختصاص الأمير بكفاءة شخصية وكونه موضع ثقة الأمة ، بل لأن أساس أسرة الممالك يقوم على الكفاح الذاتى ، والشهامة الشخصية والسعى الدائب والعمل المتواصل ، وأصبحت طبيعة هذه المملكة أن يتغلب القوى الشجاع ويتولى الحكم ، والمعلوم أن ممالك الدولة الأيوبية إنما استولوا على مملكة ساداتهم بجهودهم الشخصية وهمتهم العالية ، واستمرت هذه السلسلة إلى آخر زمانهم ، فقد ظل كل ملك منهم يجتهد أن يولى ابنه الخلافة إلا أن الأقوى جرأة وهمة من الممالك كان يتغلب على غيره ويتربع على عرش المملكة ، وإن فرص الحكم هذه وإمكانياته قد فتحت أمام الأقوياء وذوى الطموح منهم باب المنافسة ، وبما يجرى بينهم من مباراة وتنافس فى الحصول على الحكم ، فإذا شن

عليهم هجوم من جهة ، من التتر أو الأفرنج اتحدوا وتعاونوا فيما بينهم أكثر الأحيان .

## الوضع الخلقى والاجتماعى للبلاد :

هذه الفئة الحاكمة التركية كانت تعيش فى شعور بالأفضلية ، وتمتاز فى كل شئ عن المجتمع العام فى الدولة ، وتتكلم بلغتها الأم التركية عدا مناسبات العبادة أو الخطاب مع العلماء أو الحديث مع الجماهير ( وقلما كانت تحتاج إلى الحديث مع الجماهير مباشرة ) ، فانها كانت تستخدم اللغة العربية ، وقد كان البعض من هؤلاء الملوك لا يعرفون من العربية إلا القدر الذى يؤدون به الواجب ، وكانوا مع ذلك يقدرون العلماء ، ويحبون المشائخ والصلحاء ، ويقبلون على بناء المساجد وتأسيس المدارس ، لم يكونوا يتحيزون فى تقسيم المناصب إلى فئة دون فئة أو جنس دون جنس ، إلا من المناصب الإدارية والعسكرية كانت تتحول إلى الرؤساء الأتراك بحكم الطبيعة ، وكان الأتراك والتتر هم أصحاب الحكم والاقطاعات الذين كانوا يستغلون المزارعين والعمال .

وفى ٦٩٧ هـ حينما حاول الملك حسام الدين لاجين فى أيام حكمه توزيع الأراضى بطريق ينفع المزارعين ويصلح حالهم ، وتتقدم به الزراعة والانتاج الزراعى ، لم يرض به الحكام فى مملكته وثاروا عليه . كان التتر عنصرا مهما فى المجتمع ، إنهم كانوا من مخلفات الحروب التى نشبت بين سيف الدين قطز والملك الظاهر وناصر الدين قلاوون وبين التتر ، فقد أسر فيها عدد كبير من التتر وجئ بهم إلى مصر والشام حيث استوطنوا وسكنوا ، إنهم كثروا فى أيام الملك بيبرس وملاؤوا مصر والشام وانتشرت عاداتهم وطرائقهم فيهما ، كما تحدث عنهم المقريزى فى « خطط مصر » وانهم على رغم اسلامهم لم يتركوا كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم ، واستمروا على خصائصهم القومية ، وفى الحقيقة يتعذر فى التاريخ نظير المهتدين الجدد إلى الاسلام الذين تحولوا إلى الاسلام كلياً وتجردوا عن عقائدهم وأفكارهم السابقة وخصائص حضاراتهم وتأثير عقلياتهم تجرداً كاملاً ، إنما كان ذلك من خصائص الصحابة الكرام رضى الله عنهم ومعجزة النبى ﷺ إذ أن صراع الجاهلية والاسلام انتهى فى حياتهم تماماً ، كأنهم خلقوا فى الاسلام من جديد .

فى هذا المجتمع والعصر إذا لم يكن للتعليم والتربية نظام دقيق ، وليس فى المجتمع الاسلامى من قوة إذابة المهتدين الجدد وصوغهم فى قالبه ، لا يصح أن يرجى من التتر والأتراك والعجم أن ينصاغوا فى قالب العقائد والعبادات الإسلامية ويتنازلوا عن قديم عاداتهم وأخلاقهم ويتجردوا عنها مائة فى المائة ، ولذلك فقد كانت حياة هؤلاء التتر المسلمين مزيجاً من الاسلام والتأثير الجاهلى ، يتحدث عنهم المؤرخ المصرى الشهير المقريزى

في « خطط مصر » فيقول :

« وكانوا إنما ربوا بدار الاسلام ولقنوا القرآن ، وعرفوا أحكام الملة المحمدية ، فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد إلى الرديء ، وفوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية كدعوى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك ، واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيز خان والاقتماد بحكم السياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم والأخذ على يد قوئهم وانصاف الضعيف منه على مقتضى ما في السياسة ، وجعلوا إليه مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات لينفذوا ما استقرت عليه أوضاع الديون وقواعد الحساب ، وكانت من أجل القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط في الأموال وخراج الأراضي»<sup>(١)</sup> .

وكان لزاماً أن يتأثر المجتمع الاسلامي والعرب القدامى بما حمل اليهم هؤلاء الأتراك العجم والتر المهتدون ، من عادات وأخلاق وحضارات وتقاليد واجتماع حتى بما اتصفوا به من عقائد وأفكار ، لقد كان الشرق والغرب يختلطان فيما بينهما ويجتمعان بهجوم التتر وفي حالة انتصارهم وانهزامهم ، كما اختلطت آسيا وأوربا في الحروب الصليبية ، قد بدأ هذا الاختلاط والاجتماع من الاشتباكات في ساحات القتال ، ولكنه انتهى بالامتزاج الحضاري والفكري والخلقي ، وتأثر كل واحد من صاحبه وأثر عليه .

إن هذا الاختلاط أحدث مشكلات جديدة وعديدة ، فقد نشأت حضارة جديدة واجتماع جديد . يصعب الحكم فيها هل هي حضارة إسلامية أو اجتماع عربي ؟ وفي مثل هذا الوضع تتضاعف مسؤولية مصلح ومرب لا يرضى بوجود أي عادة من عادات جاهلية أو تأثير غير إسلامي في مجتمع المسلمين ، ويريد أن يرى هذا المجتمع تابعا للكتاب والسنة بأكمله . ومقتنيا آثار الصدر الأول وخير القرون من المسلمين ، ويجب أن يراه تفسيراً عملياً لقول الله تعالى : ﴿ ادخلوا في السلم كافة ﴾ .

## الوضع العلمي :

نهض في أوساط هذا القرن أئمة كبار كالعلامة تقي الدين أبي عمرو بن الصلاح

(١) خطط مصر الجزء الثاني ص ٢٢١ .

( ٥٧٧- ٦٤٣ هـ ) وشيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام ( ٥٧٨ - ٦٦٠ هـ ) الإمام محيي الدين النواوى ( ٦٣١ - ٦٧٦ هـ ) وظهر فى أواخر هذا القرن علماء كبار مثل المحدث الكبير شيخ الاسلام تقى الدين بن دقيق العيد ( ٦٢٥ - ٧٠٢ هـ ) والأصولى المتكلم العلامة علاء الدين الباجى ( ٦٣١ - ٧١٤ هـ ) وقد كان من معاصرى ابن تيمية كبار المحدثين والمؤرخين كالعلامة جمال الدين أبى الحجاج المزى ( ٦٥٤ - ٧٤٢ هـ ) والحافظ علم الدين البرزالى ( ٦٦٥ - ٧٣٩ هـ ) والعلامة شمس الدين الذهبى ( ٦٧٣- ٨٤٧ هـ ) الذين كانوا يعدون « الأركان الأربعة » للحديث والرواية فى عصرهم ، والذين يعتمد على كتبهم المتأخرون من العلماء .

كما نبغ فى عصره أساتذة الفن البارعون وعلماء ذوو كفاءات علمية قوية كانوا مرجع الخلق وطار صيتهم العلمى فى الآفاق ، كقاضى القضاة كمال الدين بن الزملكانى ( ٦٦٧- ٧٧٧ هـ ) وقاضى القضاة جلال الدين القزوينى ( م ٧٣٩ هـ ) وقاضى القضاة تقى الدين السبكى ( ٦٨٣ - ٧٥٦ هـ ) والعلامة أبى حيان النحوى ( ٦٥٤ - ٧٤٥ هـ ) .

لقد كان انتشار العلم فى تقدم مطرد ، فقد وجدت فى مصر والشام مدارس كبيرة ودور الحديث ، تلك التى أسسها الأيوبيون والمماليك ، كان يؤمها الطلاب من أنحاء العالم لتلقى العلوم الدينية والعقلية ، وكانت مكاتب كبيرة نابغة لهذه المدارس وأخرى مستقلة بذاتها تحتوى على ذخائر علمية ونوادير من كل علم وفن ، لا يؤصد بابها لأى دارس ، ولقد كانت المكتبة التابعة للمدرسة الكاملية التى أسسها الكامل محمد الأيوبى سنة ٦٢١ هـ تحتوى وحدها على مائة ألف كتاب ، وقد ألف فى نفس هذا القرن كتب جليلة تعتبر مرجعا للمتأخرين من العلماء ، كمقدمة العلامة تقى الدين بن الصلاح ، والقواعد الكبرى للشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والمجموع ( شرح المهذب ) وشرح مسلم للإمام النووى وكتاب « الامام » ، و« إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام » لابن دقيق العيد و« تهذيب الكمال » لأبى الحجاج المزى ، و« ميزان الاعتدال » و« تاريخ الاسلام » للعلامة الذهبى .

باستثناء عدد من الشخصيات ومآثر علمية كان يتسم العلم والتأليف فى هذا القرن بالسعة وقلة التعمق ، ويغلب طابع النقل والاقتباس على التفكير والدراسة والتعمق فى العلم ، وتكونت للمذاهب الفقهية قوالب من حديد لا تقبل المرونة والتسامح ، وإن كان القول السائد أن الحق دائر بين المذاهب الأربعة ، ولكن أتباع كل مذهب يحصرون الحق فى مذاهبهم فى الواقع ، ولا يزيدون إذا توسعوا كثيراً على أن يقولوا : « رأى إمامنا صواب

يحمل الخطأ ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب » .

لقد كان أتباع كل مذهب يرجحون مذهبهم الفقهي على سائر المذاهب الفقهية ، ويعتبرونه مقبولاً ومؤيداً من الله ، كانوا يبذلون كل ذكائهم وقوة بيانهم وتأليفهم في ترجيحه وتفضيله على غيره ، أما النظرة التي كان أتباع المذاهب ينظرون بها إلى مذاهبهم والعقلية التي كانت تسود على أهلها فيمكن تقدير ذلك بأن الملك الظاهر بيبرس لما نصب لكل مذهب قاضى القضاة خاصة به ، خلافاً للعادة المتبعة في زمنه ، وهى ألا يكون قاضى القضاة إلا شافعيًا ، استنكر ذلك فقهاء الشافعية ، إذ كانوا لا يرضون إلا أن يروا مصر خاضعة للقاضى الشافعى . ظنا منهم أن مصر أحق بالمذهب الشافعى لأنها مدفن الامام الشافعى ، ولما انتهى حكم الملك الظاهر وانتقلت المملكة من أسرته إلى غيرها ، رأى ذلك بعض الشافعية نقمة إلهية وعقاباً لفعلته التي فعلها .

وقد كان التعصب الكلامى مع التحزب الفقهي بالغاً مداه ، كان أتباع المذاهب الأربعة تلاميذ وشيوخاً فيما بينهم ومعترفين بعضهم بفضل بعض ، يتبادلون الحب والإكرام والزيارة ، غير أن اتحاد الأشاعرة مع الحنابلة كان شبه مستحيل ، فبينما كانت المذاهب تختلف فى الأفضلية والأولوية ، كانت الأشعرية والحنبلية تختلفان فى الكفر والإسلام ، كل طائفة كانت تلح على تكفير الطائفة الأخرى ، وكانت المباحث الاعتقادية وتقعر المتكلمين وتتغلب على جميع المباحث الأخرى ، وكان هذا الذوق فوق كل ذوق ، يسكر به العامة والخاصة جميعاً وتبتلى به الحكومات أيضاً .

هذا ، وكان التصوف فى جانب آخر قد بلغ أوجه ، دخل فيه كثير من الأفكار والعناصر غير الإسلامية ، وانتمى إليه كثير من الجهلاء والمحترفين والمبتدعين المارقين وسببوا ضلال العامة والخاصة ، وازدهار الشرك والبدع فى المجتمع .

كما اشتغلت طائفة من الفلاسفة بنشر تعاليمها جهراً وعلانية حيناً ، وسراً وخفية فى بعض الأحيان ، متحررة من قيود الدين وتعاليم الأنبياء ، وطائفة أخرى كانت تعتبر الفلسفة مقياساً أصيلاً وتريد ترقيعها بالأديان ، وتحاول التوفيق بين العقل والنقل ، وكانت الطائفتان كلتاهما من مقلدى أرسطاطاليس وأفلاطون ، مُقدسى أفكارهما وآرائهما ، ومن المعتقدين لصحة علومهما وفضلهما ، وكونها أمراً فوق الطاقة البشرية ، فلم تكونا تعترفان خطئهما فى أى ناحية ، ولا تحيدان فى شئ عن نتاج أفكارهما ودراستهما .

كان ذلك هو الوسط السياسى والاجتماعى والفكرى والعلمى الذى ترعرع فيه ابن تيمية ، ورفع فيه لواء الاصلاح والتجديد .



## نشأة ابن تيمية وحياته

مسقط رأس ابن تيمية :

يتوزع بلاد ما بين النهرين ( دجلة والفرات ) بين جزأين :

١- الجزء الجنوبي الذي يسمى بالعراق العربي ، وهو يتضمن بغداد والبصرة .

٢- الجزء الشمالي ويسمى في الأدب العربي القديم بديار بكر وديار مضر ، ويعبر عنه الجغرافيون العرب باسم « الجزيرة » ، ويقع في شمالها أرمينيا ، وفي جنوبها العراق لعربي، وفي شرقها كردستان ، وفي الغرب آسيا الصغرى وبادية الشام ، وفي هذه المنطقة تقع الموصل والرققة ( البيضاء ) ونصيبين والرها<sup>(١)</sup> وفي جنوب الرها على بعد ثمانى ساعات تقع حران ، المدينة التاريخية الشهيرة التي ظلت مركزا دينيا وعلميا للصائين من ديم كما يقول ابن حوقل ، واشتهرت هذه المدينة وامتازت بصفة خالصة بالفلسفة والعلوم ليونانية القديمة وتلك هي حران التي كانت موطن ابن تيمية القديم حيث كانت أسرته سكن من قرون .

سرة ابن تيمية :

أسرة ابن تيمية<sup>(٢)</sup> التي عرفت بهذا الاسم من قديم ، كانت أسرة حران المعروفة بالعلم الدين ، وكانت هذه الأسرة - منذ أن عرف تاريخها - حنبلية العقيدة والمذهب ، تتزعم لذهب الحنبلي في تلك الديار ، واشتغل رجالها العلماء دائما بالتدريس والافتاء والتأليف .

كان جد ابن تيمية أبو البركات مجد الدين من أئمة المذهب الحنبلي وكبار علمائه ، وقد ماه بعض أهل العلم بالمجتهد المطلق<sup>(٣)</sup> ، يقول الحافظ الذهبي إمام فن الرجال في كتاب نبلاء :

« ولد مجد الدين بن تيمية حوالي سنة ٥٩٠ هـ ، وأخذ العلم أولا عن عمه الخطيب

---

(١) ويعرف اليوم باسم « أورفا » وهي ضمن دولة تركيا اليوم .

(٢) كانت بداية هذه النسبة منذ جده الأكبر محمد بن الخضر ، واختلف المؤرخون في سبب هذه التسمية . وقيل أن اسم أم محمد بن الخضر التي كانت واعظة كان تيمية . ومن هنا انتمت هذه الأسرة إليها .

(٣) راجع ترجمة صاحب منتقى الأخبار بقلم العلامة محمد بن علي الشوكاني صاحب « نيل الأوطار » .

والواعظ الشهير فخر الدين بن تيمية ، ثم تلقى العلم عن محدثي وعلماء حران وبغداد ، وتخرج عليهم ، وبرع في الفقه ، وانتهت إليه الإمامة في الفقه .

ولما وصل إلى بغداد في سنة ٦٥١ هـ في رحلته في الحج قضى علماء بغداد العجب مما رأوه من ذكائه وبراعته في العلم ، يقول الإمام الذهبي : « حكى لي شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه أن الشيخ ابن مالك كان يقول : لقد ألان الله الفقه لمجد الدين بن تيمية كما ألان الحديد لداود عليه السلام ، وكان يقول أيضاً : « أن جدنا ( مجد الدين ) كان فيه شيء من السورة والغضب وقد سأله أحد العلماء مرة عن مسألة علمية ، فقال له إن جواب هذا المسألة على ستين طريقاً ، ثم عدد عليه كل جواب واحداً بعد الآخر وقال له : حسبك أن تعيدها ، إنه دهش بهذا الذكاء النادر وبهت ، ويقول ابن تيمية أيضاً : أنه كان فريد دهره في نقل المتون وحفظ المذاهب ، لم يكن يفتقر في ذلك إلى تكلف أو اهتمام<sup>(١)</sup> ، توفي سنة ٦٥٢ هـ ، ومن أشهر تصانيفه وتذكره العلمي كتاب « منتقى الأخبار » استفاد منه العلماء واعتنوا به في كل عصر ، وقد اهتم المؤلف في هذا الكتاب بجمع الأحاديث حول الأبواب الفقهية ، التي تعتبر دليلاً لأهل المذاهب ومرجعهم ، وقد تصدى في الأخير عالم اليمن المجتهد ومحدثها النابغة العلامة محمد بن علي الشوكاني المتوفى ١٢٥٥ هـ لشرح هذا الكتاب فشرحه في ثمانية مجلدات باسم « نيل الأوطار » الذي يحتل مكانة مرموقة في الأوساط العلمية والتدريسية لما يحتوي عليه من حسن التلخيص وجودة الترتيب والبحوث المقنعة ، وسعة نظر المؤلف ، ورحابة قلبه .

أما والد ابن تيمية الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن تيمية فقد كان عالماً محدثاً ، وفقياً حنبلياً ، وصاحب تدريس وافتاء ، ولما انتقل من حران إلى دمشق قام بالتدريس صورة منظمة في الجامع الأموي الذي كان يعتبر مركزاً لكبار العلماء والمدرسين ولم يكن يسع كر عالم أو مدرس أن يدرس فيه ، وقد كانت تمتاز دروسه بالارتجال والتكلم عن ظهر القلب ، من غير أن يستعين في أثناء التدريس بكتاب ، إنما كان يعتمد على ذاكرته وحفظه ، وولى مع ذلك شياخة دار الحديث السكرية بالقصاعين وبها كان سكنه ، توفي سنة ٦٨٢ هـ ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله<sup>(٢)</sup> .

(١) وقد انتقلت هذه الخصائص كلها إلى حفيده العظيم .

(٢) راجع البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٠٣ .

## مولده وانتقاله من حران إلى دمشق :

ولد تقى الدين بن تيمية يوم الاثنين ١٠ من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ فى هذه الأسرة العلمية والدينية الشهيرة ، وسماه والده بأحمد تقى الدين ، واكتنى بأبى العباس يافعاً ، ولكنه اشتهر بابن تيمية ، وغلب لقبه النسبى على اسمه ، وبذلك عرف بين الناس .

وقد ذكرنا أن عصر ابن تيمية كان مليئاً بالقلقل وفظائع التتر ، فقد كان العالم الاسلامى كله يرتجف خوفاً من التتر الوحوش ، غير أن أرض العراق والجزيرة كانت مجالهم صفة خاصة ، وما كاد ابن تيمية يبلغ سبع سنين من عمره حتى أغار التتر على حران ، فالتجأت أسرته إلى الفرار منها بجميع ما كان لديها من تراث العلم والفضيلة ، وما كانت تملكه من الفضل والكرامة والشرف والطهارة شأن مئآت من أسر العلماء والأشراف ، وبما أن العراق كان مركز غارة التتر ونهبهم لم تفكر هذه الأسرة فى الهجرة إليه ، وكانت الشام أقرب بلد لم يصل اليه لهيب هذا الفساد والدمار حيث كانت تحكم ملك مصر الأقوياء ، فاتجهت إليها أسرة ابن تيمية وقصدت دمشق فراراً من فتنة التتر وغارتهم .

ولم تنس هذه الأسرة العظيمة فى مثل هذه الحالة القلقة والوضع القاسى أن تنقل معها مكتبتها الثمينة التى كانت تراثها العلمى التليد الوحيد ، ولم ترض بمفارقتها على رغم ما ستقاسيه من جرائها من متاعب ومشاق شديدة ، وحملت الكتب أغلى متاعها على مركبه وخرجت ليلاً من غير أن يفارقها خوف التتر ، فقد كان الخوف يشمل كل مكان ومعها النساء والولدان ، وقد تزايدت الصعوبة والمشقة فى جر المركبة بالأيدى لعدم توفر الدواب ، وكان هذا الركب سايراً على قدم وساق ، إذ كاد العدو ( التتر ) يلحقهم لتوقف المركبة عن السير ، وهنالك تضرع أعضاء الأسرة إلى الله واستعانوا به ، حتى نصرهم الله وأنجاهم من المهلكة

## فى دمشق :

وما كادت هذه الأسرة العلمية تصل إلى دمشق حتى شاع خبرها فى أوساط الناس ، وقد كان أصحاب العلم عارفين باسم أبى البركات مجد الدين بن تيمية وأعماله ، كما كان عبد الحلیم بن تيمية معروفاً بينهم بعلمه وفضله ، وما هى إلا بضعة أيام إذ بدأ عبد الحلیم يدرس فى الجامع الأموى ، وفى دار الحديث السكرية ، وصار مرجع الطلبة وعلماء المذهب

الحنبلية ، وهكذا لم تشعر هذه الأسرة في هذا البلد الجديد بأى غربة أو وحشة .

وانتهى ابن تيمية الصغير من حفظ القرآن الكريم في وقت مبكر واشتغل بدراسة الفقه والحديث وعلوم العربية ، وكان يحضر خلال ذلك رغم صغر سنه مجالس التدريس والوعظ عند والده ، وعند العلماء في حلقتهم ، ويشاركهم في المذاكرات العلمية التي كانت سبباً لتوسع عقله الأخاذ وتفتح ذهنه الفحاص .

### ذاكرة عبقرية :

عرفت أسرة ابن تيمية بقوة الذاكرة وكثرة الحفظ وسرعته ، فقد كان أبوه وجده قويي الذاكرة ، ولكن تقى الدين بن تيمية سبق أسرته كلها في هذه النعمة ، فقد أدهش العلماء وأساتذته بذاكرته القوية النادرة وسرعة حفظه واشتهر بذلك في دمشق ، يتحدث عن ذلك صاحب « العقود الدرية » فيقول :

« اتفق أن بعض المشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق ، وقال سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد بن تيمية ، وأنه سريع الحفظ ، وقد جئت قاصداً لعلى أراه ، فقال له خياط : هذه طريق كتابه ، وهو إلى الآن ما جاء ، فاقعد عندنا الساعة يجئ . فجلس الشيخ الجليل قليلاً فمر صبيان ، فقال الخياط للشيخ الحلبي : هذا الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية ، فناداه الشيخ فجاء إليه ، فتناول الشيخ اللوح ، فنظر فيه ثم قال : يا ولد أمسح هذا حتى أملى عليك شيئاً تكتبه ، ففعل ، فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر وثلاثة عشر حديثاً فقال : اقرأ هذا فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه ، ثم رفعه إليه ، وقال : اسمعه ، فقرأ عليه عرضاً كأحسن ما أنت سامع ، فقال : يا ولدي امسح هذا ، ففعل ، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها ، ثم قال اقرأ هذا فنظر فيه كما فعل أول مرة فقام الشيخ وهو يقول : إن عاش هذا الصبي ليكون له شأن عظيم ، فإن هذا لم ير مثله »<sup>(١)</sup> .

وبالنسبة إلى حكايات سرعة الحفظ وقوة الذاكرة التي تتضمنها كتب التاريخ الموثوق بها ، وما نشاهده ونجربه في رواة وأئمة الأدب من أمثلة عديدة النظير للذاكرة النادرة ، ليست قصة ذاكرة ابن تيمية هذه مستحيلة ولا غريبة ، وإنما يصدق ما ظهر منه نفسه في حياته الآتية من وقائع الحفظ والنقل أنه رزق ذاكرة عبقرية يتعذر نظيرها .

(١) ابن تيمية لمحمد أبي زهرة ص ٢١ .

## الدراسة والتخرج :

بدأ ابن تيمية دراسة العلوم باهتمام وعناية بالغين ، يتحدث عنه معاصروه ومؤرخوه أنه رغم صغر سنه لم يكن يتجه إلى الملاعب والملاهي كما يفعل الأطفال ، فلم يكن يضيع بها وقته ولكن كان على ذلك مطلعاً على أمور الحياة والمجتمع في ذلك الوقت وخبيراً بأحوال المدينة وعادات الناس وأخلاقهم ، ويبدو من تأليفاته أنه كان واسع النظر عميق لدراسة للحياة والمجتمع ، ولم يكن يعيش في عزلة عن الجماهير قابلاً في ركن علمي فحسب .

درس ابن تيمية العلوم المعروفة في عصره ، وعنى بالعربية عناية كبيرة وبرع في اللغة والنحو براءة تامة ، وقد اعتنى بدراسة « الكتاب » لسيبويه بنظر ناقد ، وعقل فاحص ، وهو كتاب له أهمية كبرى في النحو ، ( حتى إذا قيل « الكتاب » مطلقاً يعنى به كتاب سيبويه ) فخالف فيه بعض مسائل وانتقد مواضع ضعفه ، وأخذ على المؤلف أخطاءه ، وكانت له ملكة قوية في العربية واللغة والنحو استخدمها في حياته العلمية ، واعتمد عليها في أبحاثه وتأليفاته ، وقد حفظ على ذلك جزءاً كبيراً من مشور كلام العرب ومنظومه ، يدرس أحوال الجاهلية والعرب الأولين ، وتوسع في دراسة تاريخ العهد الإسلامي والدول الإسلامية ، واستفاد من كل هذه الدراسات المتنوعة الواسعة في مناحي حياته العلمية المختلفة فيما بعد ، ولم يوجد ممن عاصروه وناظروه من العلماء أحد يساويه في سعة المعلومات وعمق النظر ، وكان ذلك سبباً كبيراً لتفوقه العلمي وكعبه العالي في العلم والتحقيق .

وعنى مع دراسته للعلوم بالخط والحساب والعلوم الرياضية ، وتلقاها من أساتذتها كما أنه اعتنى بالغ الاعتناء بالعلوم الدينية من الفقه والأصول والفرائض والحديث والتفسير ، أما الفقه الحنبلي فقد ورثه من آباءه وكان أبوه أستاذه العطوف ومربيه المخلص في هذه الناحية ، وكان سماع الحديث وحفظه وكتابته من عادات عصره المتبعة وأول كتاب حفظه في الحديث « الجمع بين الصحيحين » للحميدي ، ثم استفاد من شيوخ عصره وعلماء الشام وأخذ عنهم الحديث ورواه ، يقول ابن عبد الهادي : « ان شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ ، ومن خواص شيوخه ابن عبد الدائم المقدسي ورجال طبقتهم ، وسمع مسند الامام أحمد مرات ، وكذلك سمع الصحاح الستة مرات عديدة » (١) .

(١) راجع « الكواكب الدرية » .

أما التفسير فكان أحب موضوع لدى ابن تيمية ، وكان له شغف زائد بهذا الفن ، يتحدث بنفسه أنه درس أكثر من مائة كتاب في تفسير القرآن ، وكانت له مناسبة طبيعية بهذا الفن ، وقد أفاض الله عليه علوم القرآن بوجه خاص لكثرة تلاوته القرآن والتدبر في معانيه ودراسته بتأمل وبصيرة ، وكان لا يكتفى بدراسة القرآن فحسب بل ينيب إلى ربه ويسأله نعمة فهم القرآن وشرح الصدر ، إنه يتحدث عن طلبه لعلم القرآن وتدبره فيه ، يقول :

« ربما طالعت على الآية الواحدة مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم وأقول يا معلم آدم وإبراهيم علمنى ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهى فى التراب وأسأل الله وأقول : يا معلم إبراهيم فهمنى » (١) .

وكانت لعلم الكلام الذى حمل لواءه الأشاعره كلمة نافذة فى هذا العصر ، ولا سيما فى مصر والشام ، فقد كان السلطان صلاح الدين نفسه أشعرياً ، حافظاً لمتن قطب الدين أبى المعالى الأشعري ( الذى كان قد ألفه فى العقائد ) منذ صغره ، وكان يشرف على تحفيظه لأولاد أسرته الصغار ، وكان هو وخلفاؤه بنو أيوب قد جعلوا الناس ملتزمين للعقيدة الأشعرية ، فكانت « الأشعرية » تتمتع بحماية الحكومة إلى عصره وعصر خلفائه محاليك مصر (٢) . وكانت الحنابلة يعتبرون خصماً معارضاً للأشاعرة ، تحدث بينهم بعض المناوشات الكلامية ويشتغل كلا الفريقين بالجدل والكلام ، فقد كان كلام الأشاعرة وطريق اثباتهم مبنياً على الاستدلال العقلى والبرهان المنطقى ، أما الحنابلة فكانوا يبحثون عن المعانى الظاهرة للنصوص والآيات والأحاديث ، وكان يبدو بعض الأحيان أن كفتهم تطيش فى الجدل العلمى لعدم تعمقهم فى علم الكلام وانقطاعهم عن ممارسة العلوم العقلية ، فكان يغلب على الظن ويخيل إلى الناس أن خبرتهم بالعلوم العقلية قليلة أو عديمة وأنهم ليسوا متعمقين فى العلم ولعل ذلك ما حفز ابن تيمية ، ذلك الشاب الغيور والعالم الذكى على التوسع والتعمق فى علم الكلام والاطلاع على العلوم العقلية مباشرة ، فعكف على الدراسة العميقة لهذه العلوم وتبحر فيها حتى أدرك مواضع الضعف فيها وأخطاء مؤلفيها وأثمتها من حكماء اليونان ، وتصدى للرد على هذه العلوم وانتقادها وألف كتباً عجزت الأوساط الفلسفية كلها عن الرد عليه .

والحاصل أن ابن تيمية شمر عن ساق الجدل لشرح الكتاب والسنة فى عصره واثبات تفوق

(١) العقود الدرية ص ٦ .

(٢) راجع خطط مصر للمقرئى .

الدين وصحته ، وازالة معالم الضلالات العلمية والعملية ، وتسليح له بأسلحة علمية ، كان يتطلبها ذلك العصر في خضم علومه وفترة الفوضى العلمية والفكرية ، إنه تعلم المحاربة بأسلحة التي كان معارضوه من أعداء الاسلام من اليهود والنصارى والفلاسفة والبطنية قد تسلحوا بها ، إنه تبخر في العلوم بما أدهش معاصريه ، يعترف بفضله ونبوغه العلمي معاصره الشهير العلامة كمال الدين الزمكاني ، ويقول :

« قد آلان الله له العلوم كما آلان لداود الحديد ، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً ونقطع منه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسويين اليه ، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف »<sup>(١)</sup> .

### درس ابن تيمية الأول :

وما كاد ابن تيمية يبلغ من عمره ٢٢ سنة أن توفي والده العظيم عبد الحلیم بن تيمية في سنة ٦٨٢ هـ ، وحدث فراغ كبير في مشيخة التدريس بدار الحديث السكرية ، ولكن لم يطل على فراغه زمن طويل ، وخلفه في التدريس ابنه النابغة في الثاني من محرم ٦٨٣ هـ وسد ذلك الفراغ ، وألقى درسه الأول ، وكان في ذلك الحين ابن ٢٢ سنة ، وقد حضر درسه هذا الأول كبار علماء دمشق وفضلاؤها ، فالشيخ قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي الشافعي كان حاضراً بنفسه علاوة على الشيخ تاج الدين الفزاري شيخ الشافعية والشيخ زين الدين النجا الحنبلي من علماء الحنفية وغيرهم من سرة العلماء وكبارهم حضروا درسه الأول الذي ترك في نفوسهم تأثيراً عميقاً وجعلهم يعترفون بالتبحر العلمي وسرعة بديهته العالم الشاب وفصاحته وجراءته ، يتحدث الحافظ ابن كثير تلميذ ابن تيمية ضمن أحداث سنة ٦٨٣ هـ عن درسه هذا ، ويصفه بما يأتي :

« وكان درساً هائلاً ، وقد كتبه الشيخ تاج الدين الفزاري بخطه لكثرة فوائده ، وكثرة ما استحسنته الحاضرون ، وقد أطنب الحاضرون في شكره على حداثة سنه وصغره ، فانه كان عمره إذ ذاك عشرين سنة وستين »<sup>(٢)</sup> .

(١) الكواكب الدرية ص ٥ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٠٣ .

« ثم جلس الشيخ تقي الدين المذكور أيضاً يوم الجمعة عاشر صفر بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هبئ له لتفسير القرآن العزيز فابتدأ من أوله في تفسيره ، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجسم الغفير من كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة مما سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان ، واستمر على ذلك مدة سنين متطاولة »<sup>(١)</sup> .

### رحلته إلى الحج :

« في سنة ٦٩٢ هـ حج الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله مع الركب الشامي » وكان أميرهم الباسطي ، ونالهم في « معان » ريح شديدة جدا مات بسببها جماعة ، وحملت الرياح جمالا عن أماكنها ، وطارت العمائم عن الرؤوس واشتغل كل أحد بنفسه »<sup>(٢)</sup> .

### عقوبة شاتم الرسول :

« في سنة ٦٩٣ هـ حدث ما ظهرت به حميته الدينية وعاطفته الإيمانية بشكل علمي ، فقد كان في دمشق رجل اسمه عساف النصراني شهد عليه جماعة أنه سب النبي ﷺ وقد استجار عساف هذا بابن أحمد بن حجي أمير آل علي ، فاجتمع الشيخ تقي الدين بن تيمية والشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث ، فدخلا على الأمير عز الدين أيك الحموي نائب السلطنة ، فكلماه في أمره فأجابهما إلى ذلك ، وأرسل ليحضره فخرجا من عنده ومعهما خلق كثير من الناس ، فرأى الناس عسافا حين قدم ومعه رجل من العرب فسبوه وشتموه ، فقال ذلك الرجل البدوي : إنه خير منكم - يعني النصراني - فرجمهما الناس بالحجارة ، وأصابت عسافاً ، ووقعت خبطة قوية ، فأرسل النائب فطلب الشيخين ابن تيمية والفارقي فضربهما بين يديه ، ورسم عليهما في العذراوية ، وقدم النصراني فأسلم وعقد مجلس بسببه ، وأثبت بينه وبين الشهود عداوة ، فحقن دمه ، ثم استدعى بالشيخين فأرضاهما وأطلقهما . . وصنف الشيخ تقي الدين بن تيمية في هذه الواقعة كتابه الشهر « الصارم المسلول على شاتم الرسول »<sup>(٣)</sup> .

« وفي الرابع من شهر شعبان سنة ٦٩٥ هـ توفي شيخ الحنابلة العلامة زين الدين

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٠٣ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر ج ١٣ ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .



ابن المنجا فخلفه ابن تيمية وشغل شياخة للتدريس فى المدرسة الحنبلىة « (١) .

### المعارضة الأولى :

وبىنما كان ابن تىمىة مشغولا بالدرس والتدريس وكان اقبال الناس من الخاصة والعامة كبرىا عليه اذ قامت عليه الضجة لأول مرة فى سنة ٦٩٨ هـ ، واستهدفت شخصىته ومعتقداته بصفة خاصة .

وما يحكى عن تفاصيل هذه القصة أن بعض أهل « حماه » من الشام وجهوا الىه استفتاء فى سنة ٦٩٨ هـ يسألونه فىه عن تحقيق العلماء فى الصفات التى وصف الله بهما نفسه فى هذه الآيات ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ وما أشبههما وعن تحقيقهم فى هذه الأحاديث « إن قلوب بنى آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن » و « يضع الجبار قدمه فى النار » وما شاكلهما وسألوه عما يذهب إلىه أهل السنة من العلماء فى باب صفات الله تعالى .

فأجابهم شىخ الاسلام عن هذه الأسئلة بتفصیل كبير وإيضاح كاف (٢) ، وتحدث عن مذهب الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والمتكلمين المتقدمين من العلماء ( كالامام أبى الحسن الأشعري ، والقاضى أبى بكر الباقلانى ، وامام الحرمین ) مستدلا بأقوالهم وتأليفاتهم ، وأثبت من مقتطفات كتبهم أن كل هؤلاء العلماء إنما كانوا يرون الإيمان بصفات الله تعالى من واجبات الدين ، وإنهم يعترفون بحقيقتها التى تتفق مع جلال الله تبارك وتعالى وتجدد بذاته العلية ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ ومع التنزه الكامل من كل تشبيه أو تجسيم ومن كل نفى و تعطيل ، يعنى أن هذه الصفات لا يقيسونها على صفات الخلق ، ولا أنهم ينكرون وينفونها من شدة المغالاة والافراط فى التنزيه والتقديس ، ولا أنهم يؤولونها تأويلا يعدها عن الحقيقة ويتركها مجرد كناية ومجاز ، بل أنهم كما يؤمنون بذاته وصفاته السبع (من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر ، والكلام والارادة ) يؤمنون كذلك بحقيقتها التى تتفق وعظمة الألوهية ، كما أنهم يؤمنون بالألفاظ المنصوصة من الوجه واليد والغضب والرضاء ، فى السماء على العرش ، وفوق ، حقيقة من غير تأويل أو مجاز ، ويثبتون حقيقتها بما يليق ذاته المنزهة المقدسة التى ليس كمثله شئ التى لا تحد ولا تقاس .

(١) راجع نفس المصدر ص ٣٤٤ .

(٢) عرف هذا الجواب باسم « العقيدة الحموية الكبرى » رسالة تقع فى ٥٠ صفحة ضمن « مجموعة الرسائل الكبرى » طبع فى مصر سنة ١٣٢٣ هـ .

إن مذهب هؤلاء الرجال من علماء أهل السنة ونظرتهم لا يختلفان في هذين النوعين من الصفات ، وكما أن الإيمان بالحياة ، والعلم ، والقدرة ، وما إلى ذلك لا يستلزم أن المراد بذلك حياة المخلوقات والمحدثات الضعيفة وعلمها المستعار المحدود وقدرتها الناقصة ، ولا أن الجماعة المؤمنة بحقيقة هذه الصفات تسمى « المجسمة » وكذلك الاعتقاد بما جاء في القرآن من ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ و ﴿ يبقى وجه ربك ﴾ و ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿ أمتم من في السماء ﴾ من غير تأويل أو توجيه لا يعنى أن المراد باليد والوجه كوجه المخلوق ويد الحادث ، وأن القصد من الفوقية والمكانية كفوقية ومكانية المحدود بازاء المحدود ، والجسم مقابل الجسم ، كما لا يصح الطعن « بالتشبيه والتجسيم » لمن يؤمن بحقيقة هذه الصفات .

يؤيد هذا المذهب ما استدل به ابن تيمية من أقوال السلف الأولين والمتكلمين المتقدمين وعباراتهم ، أنه يقول : « ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ ولا عن أحد من سلف الأمة ، ولا من الصحابة والتابعين ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك ، لا نصاً ولا ظاهراً ، ولم يقل أحد منهم : ان الله ليس في السماء ولا أنه ليس على العرش ، ولا أنه في كل مكان ، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء ، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل ولا منفصل ، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها . . . فلو كان الحق ما يقوله هؤلاء السالبون النافون من هذه العبارات ونحوها دون ما يفهم من الكتاب والسنة إما نصاً وإما ظاهراً كيف يجوز على الله ثم على رسوله ثم على خير الأمة أنهم يتكلمون دائماً بما هو نص أو ظاهر في خلاف الحق ، ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يباحون به قط ولا يدلون عليه نصاً ولا ظاهراً حتى أنباط الفرس والروم وفروخ اليهود والفلاسفة يبينون للأمة العقيدة الصحيحة التي يجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها » (١) .

ثم أنه أثبت بالدلائل أن المتكلمين المتأخرين اندفعوا بتأثير الفلسفة اليونانية وشئ من المغالاة في التنزيه إلى تأويل هذه الصفات تأويلاً بعيداً عن حقيقة اللغة وفهم الصحابة ونصوص الحديث بعداً شائناً مس حدود النفي والتعطيل ، إنهم ابتعدوا في ذلك عن مذهب السلف من العلماء وأئمة السنة والمتكلمين المتقدمين أنفسهم ، حتى جعلوا يتكلمون عن السلف ما يزرى بعلمهم ، أما من يأخذ بالحيلة البالغة منهم فيقول : إن طريقة السلف

(١) العقيدة الحموية الكبرى ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

أسلم وطريقة الخلف أعلم .

ولا شك أن هذا الكلام مبنى على الجهل بمكانة السلف وحقيقتهم ودليل على قلة علمهم ، فإن السلف إنما كانوا على علم جم بالشرعية ، وأين فروخ الفلاسفة اليونان ، والمتقنون من فئات مائدة الهند والفرس من ورثة الأنبياء المتقدمين وخلفاء الرسل وحملة الكتاب والسنة فى المعرفة الإلهية وتفهم الأسماء والصفات ، إن أقوال الفلاسفة والمتكلمين عند رحيلهم من الدنيا تشهد على أنهم كانوا نادمين على تقييراتهم ، هائمين على وجوههم ، وباكين على خيبتهم ، حتى قال بعضهم : أنى لم أدخر طوال حياتى سوى القيل والقال ، وقال آخر : لقد ضيعت الحياة فى خوض بحر لا ساحل له ، نقت فى الصحارى معرضاً عن علوم الإسلام ، ولا أدرى ماذا سيكون مصيرى إذا لم يأخذ الله يدي ، أشهد أنى أموت على عقيدة أمى .

هذه الفتوى رسالة علمية مستقلة تتجلى فيها خصائص شيخ الاسلام العلمية التأليفية بوضوح ، فان السهولة وقوة الاستدلال ، والخطابة ، وحسن الاستشهاد بالكتاب والسنة ، وجدة الأسلوب ، والخطاب إلى العقل ، والارتجال ، وعدم التكلف ، والمعلومات التاريخية ، والنقد اللازم ، للمتكلمين والفلاسفة ، كل ذلك خصائص تميز بها هذه الرسالة . بينما نلت منها عامة الكتب التى ألفت فى ذلك العهد ولا سيما كتب الفتاوى التى كانت تؤلف باللغة الفقهية ومصطلحاتها .

لأول مرة ظهر شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذه الفتوى كمدافع قوى عن العقيدة التى كنت عقيدة السلف واعتقاد أهل السنة فى نظره ، وعقيدة « التجسيم » والحنبلية المشوهة عند معارضيه ، ان الأسلوب الذى احتوت عليه هذه الفتوى والتحدى السافر الذى ضمته ، ثم الاستقبال الرائع الذى لقيته من الأوساط الحنبلية ، كان من النتائج الطبيعية لكل ذلك أن يعم بذلك سخط واستنكار عام فى وسط الأشاعرة والمتكلمين الذى كان يتمتع بتأييد الحكومة والجماهير ، والذى كان رجاله متبوئين مناصب القضاء والافتاء الرسمية ومسيطرين على مراكز التدريس والتأليف يتحدث عن ذلك ابن كثير ضمن الأحداث التى وقعت فى سنة ٦٩٨ هـ يقول :

« قام عليه جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضى جلال الدين الحنفى فلم يحضر ، فنودى فى البلد فى العقيدة التى كان قد سأله عنها أهل حماه المسماة بالحموية فانتصر له الأمير سيف الدين جاغان وأرسل يطلب الذين قاموا عنده فاخفى كثير منهم ، وضرب جماعة ممن نادى على العقيدة فسكت الباقون ، فلما كان يوم الجمعة عمل الشيخ

تقى الدين الميعاد الجامع على عادته ، وفسر في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ ثم اجتمع بالقاضي امام الدين يوم السبت واجتمع عنده جماعة من الفضلاء وبحثوا في الحموية وناقشوه في أماكن فيها ، فأجاب عنها بما أسكتهم بعد كلام كثير ، ثم ذهب الشيخ تقى الدين وقد تعهدت الأمور ، وسكنت الأحوال <sup>(١)</sup> .

وكان من المتوقع جداً أن تكون هذه القصة قد امتدت واثارت هناك ضجة أخرى ، ولكن حدث في الوقت نفسه من الأحوال ما لم يسمح بالخوض في الخلافات والمناقشات العقائدية، أعنى بذلك غارة التتر ، برز فيها ابن تيمية كمجاهد عظيم ، وقائد عام .

### توجه التتر إلى دمشق :

وما ان استهلكت سنة ٦٩٩ هـ إذ تابعت الأخبار بأن قازان حاكم التتر في العراق وفارس ينوي الغارة على الشام وأن عساكره متوجهة إلى دمشق ، لقد أثار هذا النبأ دهشة في بلاد الشام كلها نظراً إلى ما جربته الأقطار الإسلامية من شدائد غاراتهم وما خلفته هذه الغارات من حكايات النهب والقتل الشنيعة ، وهناك جعل الناس يخرجون من حلب وحماء متوجهين إلى العاصمة حتى غلت الأسعار والأجور وارتفعت أجرة السفر من حماء إلى دمشق إلى مائتي درهم بالفرس ، ولكن سرعان ما اطمأن الناس أن سلطان مصر ( الناصر محمد بن قلاوون ) قادم مع العساكر المملوكية إلى الشام لحمايتها من غارة التتر ومقاومتهم .

في ٨ ربيع الأول سنة ٦٩٩ هـ دخلت الجيوش المصرية في دمشق فاستقبل الناس السلطان وجيوشه استقبالا رائعاً رغم شدة المطر وكثرة الوحل في الطرق وزينت المدينة واهتم الناس بالدعاء لانتصار السلطان والمسلمين على التتر ، وخرج السلطان بعساكره لمبارزة التتر في ١٧ ربيع الأول ، وخرج معه قاضي القضاة الحنفى وأعيان البلد وعلمائهم وساند الجيش جماعة من المجاهدين وعدد من المحاربين وعنى الناس بالدعاء والقنوت في المساجد عناية خاصة .

### انهزام السلطان ، والوضع في دمشق :

في ٢٧ ربيع الأول قامت المباراة بين قازان والسلطان ، فحارب المسلمون بشجاعة نادرة ، ولكنهم هزموا ، فتوجهت عساكر السلطان إلى مصر راجعة ، والتجأ أهل دمشق إلى دمشق وقد عم الخوف في البلد من انسحاب الجيوش المصرية وخطر اقتحام التتر في

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤ .

دمشق منتصرين غالبين ، فكان كبار العلماء وأعيان الناس يغادرون دمشق إلى مصر ،  
نالقاضي الشافعي والقاضي المالكي وبعض العلماء المشهورين ، ووالى البلد الاحتسب  
غيرهم من التجار والعامّة كانوا قد غادروا البلد ، كما أن الحكام كانوا قد خرجوا من  
دمشق ، سوى نائب القلعة فقد كان لا يزال مقيماً ، أما سائر الحكام المسؤولين عن الإدارة  
والنظام فلم يستطيعوا البقاء في المدينة ، وكانت الأسعار قد غلت إلى حد مخيف ،  
وأغلقت الحدود ، والذي زاد الطين بلة أن المسجونين في سجن المدينة هدموه وخرجوا  
نهبون المتاجر والبضائع ، واستغل الوضع أوباش الناس وعاثوا في ظاهر البلد وكسروا  
بواب البساتين ( وعليها معظم الاعتماد في معاش أهل دمشق ) وقلعوا من الأبواب  
والشبابيك شيئاً كثيراً وباعوها بأرخص الأثمان ، وبينما كانت دمشق تعيش في هذا الوضع  
لمرعب إذ طار الخبر في الناس بقصد قازان إلى دمشق ، فزادوا فزعاً على فزع ، وعم  
الخوف والإرجاف في طول المدينة وعرضها .

### لقاء ابن تيمية مع قازان :

اجتمع ابن تيمية بأعيان البلد للتفكير في الوضع الحاضر واتفقوا على المسير إلى قازان  
تلقية في وفد من العلماء وأصحابهم ، وذلك لآخذ الأمان منه لأهل دمشق . ففي يوم  
الاثنين ٣ ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هـ اجتمع ممثل أهل دمشق وسفير الإسلام ابن تيمية بقازان  
لماغية التتر في بلدة « النيك »<sup>(١)</sup> ، ولترك الشيخ كمال الدين بن الأنجا الذي رافق ابن  
تيمية ، وحضر معه إلى قازان يتحدث عن هذا اللقاء :

« كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره  
يرفع صوته على السلطان ويقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته  
ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكلية مصغ لما يقول ، شاخص إليه لا  
يعرض عنه ، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة ، سأل من  
هذا الشيخ ؟ فاني لم أر مثله ، ولا أثبت قلباً منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا  
أيتنى أعظم انقياداً لأحد منه ، فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ  
لترجمان ، قل للقازان : « أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاض وامام وشيخ ومؤذنون  
على ما بلغنا فغزوتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهداً فوقياً ،  
رأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت » .

(١) يقع هذا البلد بين دمشق وحمص ، معروف بمائه بصفة خاصة ، وهو منتزه في الوقت الحاضر .

ثم خرج من بين يديه مكرماً معزراً بحسن نيته الصالحة من بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين ، وبلغه الله تعالى ما أراه ، وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم ، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات ، وقوة التجاسر .

وكان يقول : « لن يخاف الرجل غير الله الا لمرض في قلبه ، فإن رجلاً شكاً إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف أحداً ، أى خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك .

وأخبر قاضى القضاة أبو العباس : أنهم لما حضروا مجلس غازان ، قدم لهم طعام فأكلوا منه ، إلا ابن تيمية ، فقيل لم لا تأكل ، فقال كيف أكل من طعامك ، وكله مما نهبت من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ، ثم أن غازان طلب منه الدعاء ، فقال فى دعائه : اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، وجاهد فى سبيلك ، فان تؤيده وتنصره ، وإن كان للملك والدينا ، والتكاثر فان تفعل به ، وتصنع ، فكان يدعو عليه ، وغازان يؤمن على دعائه ، ونحن تجمع ثيابنا خوفاً أن يقتل فيطرطس بدمه ، ثم لما خرجنا قلت له : كدت تهلكنا معك ، ونحن ما نصحبك من هنا ، فقال : وأنا لا أصحبكم ، فانطلقنا عصبه ، وتأخر فتسامعت به الخوانين والأمرء ، فاتوه من كل فج عميق ، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته ، فما وصل إلا فى نحو ثلاث مائة فارس فى ركابه ، وأما نحن فخرج علينا جماعة فشلحونا<sup>(١)</sup> .

### وحشية التتر فى دمشق :

وإن كان أهل دمشق قد حصلوا على وثيقة الأمن من سلطان التتر وأعلن ذلك فى دمشق غير أن التتر كانوا مستمرين فى السلب والنهب ونقض القانون والوحشية فى نواحي دمشق وضواحيها ، وكان الوضع شبه ثورة خارج سور البلد ، وغلت الأسعار غلاء فاحشاً أزعج الناس ، ومما زاد فى هلع الناس أن التتر طالبوا أهل دمشق بتسليم جميع ما عند الناس من الخيول والسلاح والأموال المخبأة من جهة الدولة السابقة إلى التتر ، وقد عين التتر سيف الدين قبجق حاكم الشام من قبلهم فبدأ يشدد على سكانها ، وكانت سيطرة التتر قد تمت على البلد ، الا القلعة فان نائب القلعة ارجواش امتنع عن تسليمها اليهم أشد الامتناع ، وكان ذلك بإشارة من الشيخ ابن تيمية كما يقول ابن كثير : « فان الشيخ تقى الدين بن

(١) الكواكب الدرية ص ٢٥ - ٢٦ .

تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك : لو لم يبق فيها الا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك ان استطعت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام ، فان الله حفص بهم هذا الحصن والعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام التي لا تزال دار إيمان وسنة <sup>(١)</sup> .

عاش التتر فساداً في البلد ، وما تركوا شيئاً الا غيروه بالنهب والسلب ، وسجنوا عدداً كبيراً من المسلمين رجالاً ونساء ، واسترقوهم ، ففى محلة الصالحية وحدها قتل نحو أربع مائة وأسر نحو من أربعة آلاف أسير ، وسبوا كثيراً من الفتيان والفتيات من أسر شريفة وبيوتات فضل وعلم ، واستباحوا حرمت المسلمين بوجه عام ، ونهبت كتب كثيرة من المكتبات الكبرى ومن الوقف وباعوها بأبخس ثمن .

رأى ابن تيمية هذه الأحوال من النهب والقتل والأسر فلم يصبر عليها وخرج في جماعة من أصحابه يوم ٢٥ ربيع الآخر للاجتماع بملك التتر ( قازان ) مرة أخرى ، وانتظره يومين ولكن لم يتح له اللقاء وحجبه عنه وزيره ، واشتهر في البلد أن التتر يريدون دخول دمشق ، فانزعج الناس بهذا الخبر وخافوا خوفاً شديداً ، وأرادوا الخروج منه والهرب على وجوههم ولكن أين المفر ، ولات حين مناص ، وبدأ التتر بعمل مجانيق بالجامع ليرموا بها القلعة من صحنه . ويحفرون الخنادق ، وقعد الناس في بيوتهم خوفاً من أن يؤخذوا السخرة ، يقول ابن كثير : « وكانت الطرقات لا يرى بها أحد الا القليل ، والجامع لا يصلى فيه أحد الا اليسير ، ويوم الجمعة لا يتكامل فيه الصف الأول وما بعده الا بجهد جهيد ، ومن خرج من منزله في ضرورة يخرج بثياب زيه ثم يعود سريعاً ، ويظن أنه لا يعود إلى أهله » <sup>(٢)</sup> .

في ١٩ جمادى الأولى توجه « قازان » إلى بلاد العراق وترك نوابه بالشام في ستين ألف مقاتل ، وأعلن عند رحيله من الشام « إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل ، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها » ، وبالرغم من أن قازان كان قد ارتحل من الشام ولكن أميراً آخر من التتر اسمه « أمير بولائى » ظل مستمرا في النهب والسلب فى نواحي دمشق ، وقد خرب قرى كثيرة ، وسبى عدداً كبيراً من أطفال المسلمين ، وجبى من دمشق نفسها أموالاً طائلة ، وفى ثامن رجب خرج الشيخ ابن تيمية إلى مخيم بولائى فاجتمع به فى فكاك من كان معه من أسارى المسلمين فاستنقذ

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧ - ٨ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩ .

كثيراً منهم من أيديهم، وكان من بين هؤلاء الناجين مسلمون وغيرهم من الذميين الشاميين .  
وفى ٣ رجب نودى فى البلد من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام  
وفى عشية اليوم التالى رحل بولائى وأصحابه من التتر وانشمرؤا عن دمشق ، وقد خلت  
دمشق ونواحيها من التتر ، وظلت كذلك حتى السابع من رجب ، وأزاح الله عز وجل  
شرهم عن العباد والبلاد .

وفى تاسع رجب وصل الخبر بخروج الجيوش المصرية والسلطان محمد بن قلاؤون إلى  
الشام لإنقاذها من أيدي التتر ، ولم يكن بالبلد أحد فى ذلك الوقت من الحكام والمسئولين  
وكانت أسوار البلد متهدمة من غارة التتر ، فنادى أرجواش نائب القلعة : احفظوا الأسوار  
والأبواب ، لا يبيتن أحد إلا أن يحرس السور مسلحاً ، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ  
البلاد ، وكان الشيخ ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر  
والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط <sup>(١)</sup> .

### أعماله الإصلاحية :

ولما سمع المسلمون بقدوم الجيش المصرى وسلطان مصر ، وأن التتر قد تراجعوا فرحوا  
بذلك كثيراً وارتفعت هممهم ، وصمموا على إزالة آثار الفساد الذى كان قد انتشر فى ظل  
هذه الأمة الجاهلية وحكامها المفسدين ، وكان ابن تيمية قد تولى قيادة المحاربة لهذا الفساد،  
وكان نائب الشام سيف الدين قبجق هو الذى انتشرت الحانات فى أيام حكمه القصير وشاع  
شرب الخمر فى الناس ، وكانت هذه الحانات مورداً كبيراً من موارده المالية ، ولم يعد الآن  
أى مبرر لبقائها ، ولم يكن فى دمشق أى حاكم ولا مسئول من الحكام ، فتولى ابن تيمية  
قطع دابر هذا الفساد وتجول فى طول البلد مع تلاميذه وأنصاره ، وحيثما رأوا حانة أو  
خمارة كسروا أوانى الخمر فيها وشققوا الظروف وأراقوا الخمر وعزروا جماعة من أهل  
الحانات المتخذة لهذه الفواحش ففرح الناس ذلك .

### إصلاح عقائد السكان فى الجبال :

وفى عام ٦٩٩ هـ عندما كان قد دخل الجيش التتارى فى دمشق وعاثوا فيها فساداً  
وقتلاً ، كانت هناك جماعة ساكنة فى الجبال من المسيحيين والباطنيين والاسماعيليين ، قد  
لاذت بالتتر وأذت المسلمين معهم ، ولما كان جيش المسلمين يرجع منهزماً ومر بمنطقتهم

(١) أيضاً ص ١١ .



حالت هذه الجماعة دون طريقتهم ووثبت عليهم ، وسلبت ما كان معهم من الأسلحة والخيول وقتلت كثيراً من المسلمين ، ولم تكن هذه الجماعة قبل ذلك داخلة في طاعة الجند ولا ملتزمة أحكام الملة ولا متدينة بدين الحق ولا محرمة ما حرم الله ورسوله .

ولما استقرت الأحوال في دمشق ، وأقشع السحاب المكفهر فكر ابن تيمية في تأديب هؤلاء المفسدين واصلاح أحوالهم ، ومن حسن الصدفة خرج نائب السلطنة جمال الدين أقوش الأقرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان وانتهاز هذه الفرصة الشيخ ابن تيمية وخرج معه في خلق كثير من المتطوعة والحوارنة إلى أهل تلك الناحية ، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساءهم إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية ، فاستأبهم ، وبين للكثير منهم الصواب ، وحصل بذلك خير كثير وانتصار كبير على أولئك المفسدين ، والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش ، وقرر عليهم أموالاً كثيرة يحملونها إلى بيت المال ، . . . وعاد نائب السلطنة مع ابن تيمية ، وكللت مساعيهم بالنجاح<sup>(١)</sup> .

### عودة التتر إلى بلاد الشام وعلان ابن تيمية بالجهاد :

وفي مستهل عام ٧٠٠ هـ وردت الأخبار إلى دمشق بقصد التتر بلاد الشام فمادت الأرض بالناس ، وطاشت عقولهم وألبابهم ، وبدأوا يتهربون إلى مصر والبلدان الأخرى والحصون المنيعه مما كان بنجوة عن معرة التتر وغائلتهم ، وبيعت الأمتعة والثياب والمغلات بأرخص الأثمان ، فارتفعت أجرة الحمارة والنقل إلى آخر نقطة ، وأسعار الجمل والحمار من خمسمائة إلى ألف ، واستعد الشيخ ابن تيمية لالقاء المواعظ والدروس في الجامع بنشاط بالغ ، وحرص الناس على القتال ، ونهاهم عن الاسراع في الفرار ، ودم هذه الخصلة ودرغهم في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم ، وأن ما ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيراً ، وأوجب جهاد التتر حتماً في هذه الكرة. وسكنت الأحوال بمجالسه المتابعة في ذلك ، ونودي في البلاد : لا يسافر أحد الا بمرسوم وورقة ، فتوقف الناس عن السير والفرار وسكن جأشهم ، وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ، ودقت البشائر لخروجه .

### الرحلة إلى مصر :

وفي ربيع الآخر قوى الارجاج بأمر التتر وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا إلى البيرة ،

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٢ .

ونودى فى البلد بالجهاد العام ، وكانت الأنباء تتوالى بتقدم التتر إلى الشام ، ونودى فى اللد بتطيب قلوب الناس واقبالهم على معاشتهم وأن السلطان والعساكر واصلة ، ثم فوجئ الناس بأن سلطان مصر رجع عائداً إلى مصر بعد أن خرج منها قاصداً إلى الشام فكثر الخوف واشتد الحال ، وخرج كير من الناس خفافاً وثقالاً يتحملون بأهليهم وأولادهم ، وجعلوا يحملون الصغار على الدواب والرقاب .

وخرج الشيخ ابن تيمية إلى نائب الشام فى المرج ، وكان مرابطاً خارج دمشق لمقاومة التتر وسد سيولهم فثبته وقوى جأشه وطيب قلبه ، ووعدته بالنصر والظفر على الأعداء وتلا قوله تعالى : ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور ﴾<sup>(١)</sup> .

وسأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر ويستحث السلطان على المجئ ، فساق وراء السلطان ، وكان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة ، وتفارط الحال فاستثار غيرته ، وقال له فيما قال : « لو قدر انكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم ، وقال أيضاً : « ان كنتم أعرضتم عن الشام وحمائته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله فى زمن الأمن » وقوى الشيخ ابن تيمية جأش السلطان وأكد له أن النصر حليفه فى هذه الكرة ، وظل الشيخ مقيماً فى حصن مصر إلى ثمانية أيام يحرض الناس على الجهاد ومقاومة التتر .

واستعد السلطان للخروج إلى الشام مرة أخرى نتيجة لجهود ابن تيمية المخلصة التى بذلها فى هذا السبيل ، وتوجهت العساكر إلى الشام لجهاد التتر ، ولما سمع الناس بذلك فرحوا أشد الفرح بعد أن كانوا قد يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ثم قويت الأراجيف بوصول التتر وتحقق عود السلطان إلى مصر ، ونادى ابن النحاس متولى البلد فى الناس : من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق ، وهنالك ارتفعت الأصوات ، وتصايح النساء والولدان ورهق الناس ذلة عظيمة وخمدة ، وزلزلوا زلزالا شديداً ، وغلقت الأسواق ، وتيقنوا أن لا ناصر لهم إلا الله عز وجل ، ويقولون ما بقى أهل دمشق إلا طعمة للعدو ، ودخل كثير من الناس إلى البرارى والقفار والمغر بأهاليهم من الكبار والصغار ، ولم يبق بدمشق من أكابرها إلا القليل ، ونودى بالناس : من كانت نيته الجهاد

(١) سورة الحج .

نليلحق بالجيش فقد اقترب وصول التتر وخرج العلماء ، ومن بينهم شرف الدين ابن تيمية أخو ابن تيمية إلى نائب السلطنة الأفرم وقوا عزمه على لقاء العدو ، واجتمعوا ب « مهنا » أمير العرب فحرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة .

ورجع ابن تيمية من مصر وبشر الناس باستعداد سلطان مصر وأعيان الدولة لجهاد العدو، ثم جاءت الأخبار بأن ملك التتر قد خاض الفرات راجعاً عامة ذلك ، فطابت النفوس لذلك وسكنت ، وعادوا إلى منازلهم منشرحين آمنين<sup>(١)</sup> و ﴿ كفى الله المؤمنين القتال ﴾ .

### الحرب الحاسمة مع التتر ، وصنيعة ابن تيمية :

وفي رجب سنة ٧٠٢ هـ قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام ، فانزعج الناس لذلك واشتد خوفهم جداً ، وقت الخطيب في الصلوات ، وقرئ صحيح البخارى ، وشرع الناس فى الجفل إلى الديار المصرية والكرك والحصون المنيعة ، وتأخر مجئ العساكر المصرية عن ابانها فاشتد لذلك الخوف ، وفى ثامن عشر من رجب قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين بقيادة الأمراء الأتراك المشهورين ، وتلتها طائفة أخرى فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس ولكن الناس فى جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي ، وتحديث الناس بالأراجيف فاجتمع الأمراء بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو وشجعوا أنفسهم ، نودى بالبلد أن لا يرحل أحد منه ، وتوجه ابن تيمية إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم فى القطيعة فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو فأجابوه إلى ذلك وحلفوا معهم ، وكان الشيخ يحلف للأمراء والناس : إنكم فى هذه الكرة منصورون ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله - فيقول : إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً ، ويقول : نحن مظلومون ، والمظلوم منصور ﴿ من بغى عليه لينصرنه الله ﴾ ، ولذلك فإن النصر مؤكد ، والفتح قريب ، وإن وعد الله كان مفعولاً<sup>(٢)</sup> .

وقد تكلم الناس فى حكم قتال هؤلاء التتر من أى قبيل هو ، فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام فانهم لم يكونوا فى طاعته فى وقت ثم خالفوه فكيف يجوز القتال ضدهم وقد ارتبك العلماء فى ذلك ، فقال ابن تيمية : هؤلاء من جنس الخوارج الذى خرجوا على سيدنا على ومعاوية - رضى الله عنهما - ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما ،

(١) البداية والنهاية ج ١١٤ ص ١٦ .

(٢) أيضاً ج ١٤ ص ٢٣ .

وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة ، فتفطن العلماء والناس لذلك ، وكان يقول للناس إذا رأيتموني في صف الترموالياً لهم وعلى رأسى مصحف فاقتلونى ، فتشجع الناس فى قتال الترمو قويت قلوبهم ونياتهم .

كانت دمشق كلها تعيش فى قلق وانزعاج شديد ، لم يصل أى خبر بقدم السلطان ولم يكن الناس متأكدين أن العساكر المصرية والشامية ستحارب الترمو ، وقد وصلت الترمو إلى قارة ، وقيل إنهم وصلوا إلى القطيعة ، فانزعج الناس لذلك انزعاجاً شديداً ولم يبق حول القرى والحواضر أحد ، وامتألت القلعة والبلد ، وازدحمت المنازل والطرق واضطرب الناس ، وخرج ابن تيمية من باب النصر بمشقة كبيرة ، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه ، فظنوا أنه إنما خرج هارباً فحصل اللوم من بعض الناس ، وقالوا أنت منعتنا من الجفل وها أنت هارب من البلد فلم يرد عليهم ، وبقي البلد ليس فيه حاكم ، وجاس اللصوص والحرافيش فيه يخربون ويتهبون ما قدروا عليه .

ولم يعد للناس شغل غير الصعود إلى المآذن ينظرون يميناً وشمالاً فتارة يقولون: رأينا غبرة فيخافون أن تكون من الترمو ، ويتعجبون من الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم أين ذهبوا ؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم ، وكل شخص كان ينتظر حكم القضاء فيه ، ويفكر فيما إذا وقعت الحرب أم لا ؟ وإذا وقعت فمن ينتصر ، وإذا انهزم الجيش - لا قدر الله - فماذا سيكون مصيرهم ؟ ومن يحمى أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، وكان كما صور القرآن الكريم ﴿ وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ﴾ (١) .

ووصل ابن تيمية إلى العسكر الشامى فطلب منه أمراء الجيش أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق ، فسار إليه فحثه على المجئ إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر ، فجاء هو وایاه جميعاً فسأله السلطان أن يقف معه فى معركة القتال ، فقال له الشيخ : السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن مع جيش الشام لا نقف الا معهم ، وحرص السلطان على القتال وبشره بالنصر ، وجعل يحلف بالله الذى لا اله الا هو انكم منصورون عليهم فى هذه المرة . فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً .

(١) سورة الأحزاب ١٠ - ١١ .

وفي ليلة الجمعة التاسع والعشرين من شعبان ثبتت رؤية هلال رمضان فبدأ الناس يستعدون لصلاة التراويح وقد استبشروا بشهر رمضان وبركته ، وأصبحوا يوم الجمعة في هم شديد وخوف أكيد ، ورأوا يوم السبت المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو ، فغلب على الظنون أن الوقعة اليوم فابتهلوا إلى الله عز وجل بالدعاء في المساجد والبلد ، وطلع النساء والصفار على الأسطحة ، وكشفوا رؤوسهم ، وضج البلد ضجة عظيمة ، فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن أن في الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان ، وفيها طلب الدعاء من الناس والأمر بحفظ القلعة .

وفي ثاني رمضان اصطف الجيشان في ساحة شقحب ، وأفتى ابن تيمية بالفطر مدة قتالهم ، وأفطر هو أيضاً ، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شئ معه في يده ليعلمهم أن أفطارهم ليتقوا على القتال أفضل ، وكان يقرأ لهم حديث الرسول ﷺ «إنكم ملاقو العدو غدأ ، والفطر أقوى لكم»

ولما ابتدأت الحرب والتحم الفريقان ثبت السلطان ثباتاً عظيماً ، وكان الخليفة العباس ابو ربيع سليمان في صحبته ، وأمر السلطان بجواده فقيده حتى لا يهرب ، وبإيع الله تعالى في ذلك الموقف ، وجرت خطوب عظيمة وقتل جماعة من سادات الأمراء يومئذ ، ولكن نزل النصر على المسلمين واستظفروا على التتر ، فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام ، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الحرب ، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر فقتل منهم ما لا يعلم عدده إلا الله ، وجعلوا يجيئون بهم في الحبال فتضرب أعناقهم ، ثم كانوا يتساقطون في الأودية والمهالك ، وغرق منهم جماعة في الفرات بسبب الظلام .

وفي يوم الاثنين رابع رمضان دخل ابن تيمية في دمشق ففرح به الناس ودعوا له وهنئوه بمسير الله على يديه من الخير ، ودخل السلطان إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس رمضان ومعه الخليفة والعساكر منتصرين فرحين ، واستقرت الخواطر ، وذهب اليأس وطابت قلوب الناس .

### إنكار البدع وتغيير المنكرات :

وما أن فرغ ابن تيمية من قضية التتر إلا وقد عكف على إلقاء دروسه ومواعظه ونشر السنة ورد البدع كسابق عهده ذلك ، واشتغل بجهاد الشرك والجاهلية ، وكان أحب عمل

لديه وأسمى غاية في حياته بكل نشاط وهمة ، وكان قد دخل في ذلك العهد إلى مجتمع المسلمين كثير من أعمال كانت بقية عهد الجاهلية ، وشعار المشركين والوثنيين ، بحكم اختلاطهم باليهود والنصارى ، وتعاليم الزعماء الجاهلين وفاسدى العقائد ، كانت بنهر قلو ط في ضواحي دمشق صخرة تزار ويندر لها النذور قد اشتهرت عنها قصص وروايات عديدة ، فعادت فتنة كبيرة لضعاف العقيدة من المسلمين ، إذ كانوا يزورونها ويقدمون لها النذور ، فذهب إليها ابن تيمية مع جماعة من الحجارين في رجب عام ٧٠٤ هـ وقطعها ، وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، وأزاح عنهم شبهة كان شرها عظيماً (١) .

لم يكن ابن تيمية يصبر على أمور تخالف الشريعة والسنة فإذا رآها قام بتغييرها بيده من غير تأخير ، إذ كان ذلك هو الدرجة العليا للإيمان والحاجة الأولى للحمية الدينية « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

أما الحكام فكانوا في شغل شاغل عن أمور الدين ، وكان العلماء لا يعيرون الأمور المخالفة للشرع أهمية في بعض الأحيان ، كما كانوا يخافون من المعارضة والإنكار في حين آخر ، ولذلك فكان ابن تيمية يتولى هذه المسئولية بنفسه في أكثر الأحيان ، وكانت معه جماعة من تلاميذه ومحبيه يؤازرونه في هذه الأمور ويساعدونه ، ولذلك فإنه كان قد أقام حسبة شرعية وخلقية ابتغاء وجه الله فإن كان المنكر يفلت من عتاب الحكام الذين كان أكثرهم من أهل البدع ومعارضين لابن تيمية ومن غضب العلماء ، لم يكن ليفلت من رقابة « البوليس الشرعى » الذين كان على رأسهم ابن تيمية .

وفي رجب هذا العام أحضر إلى ابن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً ، يسمى المجاهد الكبير إبراهيم القطان ، وكان ذا شعر طويل وأظفار طوال وشارب مسبل ، يكثر من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات ، فأمر ابن تيمية بتقطيع ذلك الدلق ، فتناهبه الناس من كل جانب وقطعوه حتى لم يدعوا فيه شيئاً ، وأمر بحلق رأسه وشاربه وتقليم أظفاره ، واستتابه من كلام الفحش وإستعمال الحرام (٢) .

وكذلك كان شخص اسمه محمد الخباز البلاسى ، يكثر من أكل المحرمات ، ويجالس

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٤ .

اليهود والنصارى ، ويتكلم فى تأويل الرؤى ، ويتدخل فى العلوم والمسائل التى لم يكن له بها علم ، فاستحضره ابن تيمية واستتابه عن أكل المحرمات ، يقول ابن كثير : « وبهذا أمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة » .

### الجهاد مع الملحدين والمفسدين :

وعلى ما قام به ابن تيمية من الإصلاح فى الداخل لم يكن فى شغل عن أولئك المفسدين الذين لم يألوا جهداً فى الإضرار بالمسلمين والمؤامرة مع أعداء الإسلام ، كلما حزبهام أمر أو أحاطت بهم مصيبة ، ولو أنه كان قد قام بإصلاح القبائل الساكنة فى جبال الجرد وكسروان ومعه نائب السلطة الأفرم فى عام ٦٩٨ هـ ، وقد تاب منهم كثير ووعدوا باتباع أحكام الإسلام واحترام نظام السلطنة ، ولكن التجارب أثبتت أنهم لم يمتنعوا عن تخابثهم ، وأنهم لا يزالون بحاجة ماسة إلى مزيد من الإصلاح والتنبيه ، ولا يزال الخطر موجوداً من قبلهم كلما سنحت لهم بذلك فرصة ، وفى مستهل ذى الحجة ركب ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبال الجرد وكسروان ومعه نقيب الأشراف زين الدين بن عدنان ، فقام فيهم بالتبليغ واستتاب خلقاً منهم ، وألزمهم بشرائع الإسلام .

ان قبائل الروافض فى جبال الجرد ( من الباطنية والإسماعيلية والحاكمية والنصيرية ) أصابوا المسلمين بأضرار ، وجأهروا فى ايدائهم ومعارضتهم ، وهم الذين دعوا الصليبيين والتتر للعدوان على البلاد الإسلامية ، ووفروا كل نوع من التسهيلات ، واستباحوا كل فرصة لاستغلال ضعف المسلمين وقلة وسائلهم ، ونالوا من أعراضهم وأموالهم ، وأذلوهم حتى باعوهم بيد الأعداء كالغنم .

لقد شاهد كل ذلك ابن تيمية ، فكان يعيش فى تألم شديد وقلق عظيم جداً ، وكان قلبه الغيور يشعر بشدة هذا التألم ، انه لم يكن ليعفو عن هؤلاء الخساسة والأشرار ، ولم يكن ليرضى بالتغاضى عن هؤلاء المنافقين ، الذين أصابوا المسلمين بالذلة والتضييق فى ساعة حرجة جداً ، وساعدوا أعداءهم ونصروهم ، وقد أراد ابن تيمية ألا يترك المجرمين إلا ويذيقهم عقاب أعمالهم ، وإن يسد فى وجوههم كل طريق يتسللون منه إلى المسلمين بإيلام أو ايداء عند أى حرب أو ساعة حرجة ، إنه استلفت نظر السلطان الناصر ( سلطان مصر والشام ) إلى هذه المهمة ، وأخبره بخطرهم ونواياهم الفاسدة ، وقد قال فى رسالة وجهها إلى السلطان :

« ولما قدم التتار إلى البلاد وفعلوا بمعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد ، وأرسلوا

إلى أهل قبرص فملكوا بعض الساحل ، وحملوا راية الصليب ، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصى عدده إلا الله ، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص ( أى الصليبيين المحاربين للمسلمين ) وفرحوا بمجئ التار . . . . ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم ، ولما نصر الله الإسلام النصر العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه بالعزاء . . . . كل هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة . كان من أسباب خروج جنكسخان إلى بلاد الإسلام ، وفي استيلاء هولاءكو على بغداد وفي قدومه إلى حلب وفي نهب الصالحية ، وغير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله .

ويقول فيه أيضاً : ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها منهم فى أمر لا يضبط شره ، كل ليلة تنزل منهم طائفة ويفعلون من الفساد ما لا يحصىه إلا رب العباد ، كانوا فى قطع الطرقات واحفاة سكان البيوتات على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات ، يرد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين ويقعون الرجل الصالح من المسلمين ، فأما أن يقتلوه ، وأما أن يسلبوه ، وقليل منهم من يفلت بالحيلة <sup>(١)</sup> .

وفى ثانى محرم عام ٧٠٥ هـ توجه ابن تيمية فى طائفة من الجيش لغزو أولئك المفسدين الملحدين ، وسار إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة فخرج نائب السلطنة الأفرم بنفسه بعد خروج الشيخ لغزورهم ، فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقاً كثيراً منهم ومن فرقته الضالة ووطئوا أراضى كثيرة من صنع بلادهم ، وقد أفتى ابن تيمية أنه يجوز قطع أشجارهم ونخيلهم كبنى النضير ، لأنهم يتخذونها كمينا يتسترون فيه ، ويجعلونها قواعد للحرب والمؤامرة على المسلمين ، وقد حصل بسبب شهود الشيخ ، هذه الغزوة خير كثير ، وأبان الشيخ علماً وشجاعة فيها ، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغماً <sup>(٢)</sup> .

### مناظرته مع الأحمديّة :

وفى يوم السبت تاسع جمادى الأولى عام ٧٠٥ هـ حضر جماعة كثيرة من الفقهاء الأحمديّة <sup>(٣)</sup> إلى نائب السلطنة بالقصر الأباق وحضر الشيخ تقى الدين بن تيمية فسألوا من

(١) ابن تيمية للشيخ محمد أبو زهرة ص ٤٥ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٥ .

(٣) تدرج كثير من المنتمين إلى الطريقة الرفاعية ، التى قد تسمى الأحمديّة ، عزواً إلى مؤسسها السيد

أحمد الرفاعى الكبير رحمه الله ، إلى أعمال ومظاهرات ، تبدو أنها كرامات وخوارق، ويقولون: ==



تب السلطنة حضرة الأمراء أن يكلف الشيخ تقي الدين امارته عنهم ، وأن يسلم لهم صالحهم ، فقال لهم الشيخ : هذا ما يمكن ، ولا بد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب السنة، قولاً وفعلاً ، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه ، قال ابن كثير : « فأرادوا أن نعلوا شيئاً من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم ، فقال الشيخ : تلك حوال شيطانية باطلة ، وأكثر أحوالهم من باب الحيل والبهتان ، ومن أراد منهم أن يدخل نار فليدخل أولاً إلى الحمام وليغسل جسده غسلًا جيداً ويدلكه بالخل والأشنان ثم يدخل بذلك إلى النار إن كان صادقاً ، ولو فرض أن أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن نتسل فان ذلك لا يدل على صلاحه ولا على كرامته ، بل حاله من أحوال الدجاجلة مخالفة للشريعة إذا كان صاحبها على السنة ، فما الظن بخلاف ذلك ، فابتدر شيخ المنيع شيخ صالح وقال : نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر ليست تنفق عند الشرع فضبط حاضرهم عليه تلك الكلمة ، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد ، ثم اتفق للحال على أنهم خلعون الأطواق الحديدية من رقابهم وأن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه .

صنف الشيخ جزءاً في طريقة الأحمدية ، وبين فيه أحوالهم ومسالكتهم وتخييلاتهم ، وما طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب وأظهر الله السنة على يديه وأحمد بدعتهم<sup>(١)</sup> .

### وافقة العلماء على العقيدة الواسطية :

وفي ثامن رجب في مجلس من العلماء كان قد انعقد عند نائب السلطنة قرئت رسالة تيمية « العقيدة الواسطية » وتباحث معه العلماء ووجهوا اليه الأسئلة ، وقرروا أخيراً بما مقبولة ومتفقة مع عقيدة أهل السنة ، وعاد الشيخ إلى منزله بغاية من الحفاوة والإكرام قد حمل له العامة شموعاً طول طريقه ، على جاري عاداتهم لابتداء الحب والإعجاب في لك الزمان .

---

= نقيم بها برهاناً على فضل الإسلام ، ونستدرج بها الجهال من حكام التتر والمغول إلى الإسلام ، وتورط كثير منهم مع الزمان وتأثير الجهل وافتتان الناس بالعجائب والشعوذة ، في ما لا يصح من الإعتقاد ولا يجوز من العمل ، والإسلام عنه برئ ، وقد أنكر عليهم كثير من علمائهم ومن رسخت قدمه في علوم الشريعة وفهم الدين والتمسك بتعاليم إمامهم الشيخ أحمد الرفاعي وسيرته في التزام الأحكام الدينية والتأدب آداب الشرع . ( المؤلف ) .

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٦ .

## ابن تيمية يواجه المعارضة ويطلب إلى مصر :

كان ابن تيمية يتمتع بنوع من السيادة الدينية في دمشق ، فكلما رأى أن الحكومة تتساهل في منع بدعة أو تغيير منكر ، وأن العلماء صامتون لا يعارضون الوضع رأى نفسه مسئولاً عن ذلك فلم ينتظر إصدار حكم من الحكومة ، ونفذ الأحكام الشرعية بنفسه ، وقد كانت معه جماعة كبيرة من تلاميذه المحبين له ، والجماهير المتمسكة بالعقيدة الدينية الصحيحة ، ولم يزل نطاق عمله يتوسع ، حتى كرهت طبقة من أهل العلم سمو مكانته الدينية وتأثيره الشخصي ، ورأت في ذلك تفرداً واحتكاره لأمر الدين ، ونشأت من هنا جماعة من حساده كانت تتمنى زوال نعمته ، وتحاول النيل من شخصيته ، بقول ابن كثير :

« وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه لتقدمه عند الدولة وانفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الناس له ، ومحبتهم له ، وكثرة أتباعه وقيامه في الحق ، وعلمه وعمله » (١) .

## رده على عقيدة وحدة الوجود :

وقد أثارت بعض الأحداث النقاش حول العقائد ، وانعقدت له مجالس عديدة ، وكان من أعظم ما فعله ابن تيمية أنه كان يرد مذهب الشيخ محيي الدين بن عربي في وحدة الوجود بكل صراحة وعلان ، وقد كان له جماعة كبيرة من الأتباع والأنصار في مصر والشام ، كما كانت طائفة كبيرة من العلماء والمشايخ كانوا يعتبرونه عارفاً كبيراً ومحققاً جليلاً ، وامام مشرب « التوحيد » والشيخ الأكبر الذي لا يدانيه أحد في ذلك العصر ، وكان يرى ابن تيمية أن تحقيقاته وإلهاماته تعارض تماماً تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتخالف تعليم التوحيد الذي جاءه كل نبي في عصره ، وقام بتفسيره الأخير واكماله نبينا محمد ﷺ ، والذي يستفاد بكل إيضاح من الكتاب والسنة وبلغنا بالتواتر اللفظي والمعنوي .

وكان الشيخ محيي الدين بن عربي قد توفي عام ٦٣٨ هـ ( قبل ولادة ابن تيمية بثلاث وعشرين سنة ) وكانت مؤلفاته متداولة بين الناس ، بخاصة « الفتوحات المكية » ، « فصوص الحكيم » اللذين نالا اعجاب الأوساط العلمية ، أما ابن تيمية فكان قد درس الفلسفة والتصوف والاشراق بتأمل ودقة ، ومن بين ما قرأ من الكتب كان هذان الكتابان أيضاً ، أنه يقتطف في مؤلفاته عبارات من هذين الكتابين ويرد عليهما ، الأمر الذي يد

(١) أيضاً ص ٣٧ .

على أن دراسته لمثل هذه الكتب كانت مباشرة وعميقة ، وكان قد توصل بها إلى نتيجة أن التوفيق بين ما جاء في هذه الكتب من أفكار وآراء وبين تعاليم النبوة مستحيل ، أنه يقول وهو يتحدث عن مذهب الشيخ ابن عربي (١) :

يقولون ( ابن عربي وأتباعه ) : أن الوجود واحد ، ويقولون : إن وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لا يثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر ، بل يقولون : الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق . فأما الوجود فلا يتصور أن يكون فيه رب وعبد ، وخالق ومخلوق وداع ومجيب ، وإنما الوجود لما فاض على الأعيان فظهر فيها حصل التفرق من جهة الأعيان كتفرق النور في الزجاج لاختلاف ألوانه ، ويقولون : إن عباد العجل ما عبدوا الا الله ، وأن موسى أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل ، وإن موسى كان بزعمهم من العارفين الذين يرون الحق في كل شيء ، بل يروونه عين كل شيء وأن فرعون كان صادقاً في قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ بل هو عين الحق (٢) .

وهم يعظمون فرعون ويقولون ما قاله صاحب الفصوص ( ابن عربي ) قال : ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت وإن جاز في العرف الناموسي ، لذلك قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم ، قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقروا له

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد الشيخ محيي الدين أبو بكر الحلقي الطائي الأندلسي المشهور بابن عربي ولد سنة ٥٦٠ هـ بمرسية بالأندلس وتوفي سنة ٦٣٨ هـ بدمشق ، اقرأ ترجمته في «وفيات الأعيان» للذهبي وفي كتب التراجم والتاريخ .

ولا تزال شخصيته وآراؤه الشاذة موضع نزاع وخلاف من العهد القديم ، وحاتر الأذهان في تأويلها ، ويرجح بعض أهل العلم أن كثيراً من ذلك مدسوس عليه ، ومما لا شك فيه أنها موحشة وفتن بها كثير من الناس وتضرروا بها وشغل قسطاً من ذكائهم ووقتهم ، لو صرف في محله لعاد على الإسلام والمسلمين بخير كثير ، ويعجبني ما قاله العلامة شمس الدين الذهبي وهو يترجمه في كتابه المشهور «ميزان الاعتدال» قال : فوالله لأن يعيش المسلم جاهلاً خلف البقر لا يعرف من العلم شيئاً سوى سورة من القرآن يصلى بها في الصلوات ويؤمن بالله واليوم الآخر . خير له بكثير من هذ العرفان وهذه الحقائق ، ولو قرأ مائة كتاب وعمل مائة خلوة « ( ج ٢ ، ص ٤٢٤ ) .

وقد حمل لواء المعارضة له وتصدى لنقده اثنان من أعلام هذه الأمة أحدهما شيخ الاسلام ابن تيمية من رجال القرن الثامن ، والثاني الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي من رجال القرن الحادى عشر . كل بأسلوبه الخاص وفي ضوء تجاربه الشخصية ، ولهما موافقات والتقاءات لا تدل إلا على أن لحق واحد وعلى رسوخ قدمهما وعلو كعبهما في العلوم الصحيحة والأذواق الصادقة . (المؤلف) .

(٢) الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم ص ١١ .

بذلك وقالوا له : ﴿ اقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ قال : فصح قول فرعون ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وان كان فرعون عين الحق .

ولهذا عاب ابن عربى نوحاً . . . . وعظم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام ، وأنهم ما عبدوا الا الله وأن خطاياهم خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله <sup>(١)</sup> .

يبدو أن الناس غالوا كثيراً فى الاعتقاد بوحدة الوجود فى عصر ابن تيمية ، حتى تخطوا حدود الشرع والعقل والأخلاق فى هذه العقيدة ، وحدثت « أزمة اعتقادية » فى هذا الموضوع ، أنه يقول :

« وقد ضل فى هذا جماعة ولهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك كابن سبعين والصدر القونوى تلميذ ابن عربى والبليانى والتلمسانى وهو من حذاقهم علماً ومعرفة وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتى المحرمات .

وحدثنى الثقة أنه قرأ عليه فصوص الحكم لابن عربى وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين فلما قرأه رآه يخالف القرآن قال فقلت له هذا الكلام يخالف القرآن ، فقال القرآن كله شرك وإنما التوحيد فى كلامنا ، وكان يقول : ثبت عندنا فى الكشف ما يخالف صريح المعقول ، وحدثنى من كان معه ومع آخر نظير له فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم فقال له رفيقه هذا أيضاً هو ذات الله ، فقال وهل ثم شئ خارج عنها نعم الجميع فى ذاته <sup>(٢)</sup> ، وقيل لبعضهم « إذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأم حراماً؟ فقال : الكل عندنا واحد ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام ، فقلنا حرام عليكم <sup>(٣)</sup> .

ولقد كتب شيخ الاسلام ابن تيمية رسالة مفصلة فى سنة ٧٠٤ هـ إلى الشيخ أبى الفتح المنبجى وذكر له فيها :

« لولا أنى أرى دفع ضرر هؤلاء عن أهل طريق الله تعالى السالكين إليه من أعظم الواجبات وهو شبيه بدفع التتار عن المؤمنين لم يكن للمؤمنين بالله تعالى ورسوله حاجة إلى أن يكشف أسرار الطريق ويهتك أستارها ، ولكن الشيخ أحسن الله تعالى إليه يعلم أن مقصوده الدعوة النبوية بل المقصود بخلق الخلق وانزال الكتب وإرسال الرسل أن يكون

(١) الفرقان بين الحق والباطل ص ١٤٧ - ١٤٩ .

(٢) الفرقان بين الحق والباطل ص ١٤٥ .

(٣) الرد الأقوم على فصوص الحكم ص ٤٢ .

الدين كله لله هو دعوة الخلائق إلى خالقهم ، وهؤلاء موهوا على السالكين التوحيد الذي أنزل الله تعالى به الكتب وبعث الرسل بالاتحاد الذي سموه توحيداً وحقيقته تعطيل الصانع وجحود الخالق ، وإنما كنت قديماً عن يحسن الظن بابن عربي وتعظيمه لما رأيت في كتبه من الفوائد مثل كلامه في كثير من « الفتوحات » و « كنه الحكم المربوط » و « الدرّة الفاخرة » و « مطالع النجوم » ونحو ذلك ، ولم نكن بعدُ قد اطلعنا على حقيقة مقصودة ، ولم نطلع الفصوص ونحوه ، وكنا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب الحق ونتبعه ونكشف حقيقة الطريق ، فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا ، فلما قدم من المشرق مشايخ معتبرون وسألوا عن حقيقة الطريقة الإسلامية والدين الإسلامي وحقيقة حال هؤلاء ، فوجب البيان، وكذلك كتب إلينا من أطراف الشام رجال سالكون أهل صدق وطلب أن أذكر النكت الجامعة لحقيقة مقصودهم والشيخ أيده الله تعالى بنور قلبه وذكاء نفسه وحق قصده من نصحه للإسلام وأهله وإخوانه السالكين يفعل في ذلك ما يرجو به رضوان الله سبحانه ومغفرته في الدنيا والآخرة .

وهو بعد ذلك يستعرض بشرح وتفصيل تلك العقائد والنظريات والمذاهب التي كانت شائعة حول الاتحاد والحلول بين الفرق المسيحية كاليقونية والنسطورية والملكانية وبين بعض الفرق التي كانت تنتسب إلى المسلمين كالروافض والجهمية ، كما أنه يشرح بتفصيل « الاتحاد المعين » و « الاتحاد المطلق » و « الحلول المعين » و « الحلول المطلق » ويذكر القائلين بذلك ، مما يدل على سعة نظره واطلاعه على المذاهب السابقة ، ثم أنه يقوم بشرح مذهب ابن عربي بغاية من التحقيق والدقة والحيطه مما يدل على أنه كان قد درس كتبه « كالفتاحات » و « فصوص الحكم » بتأمل بالغ ، وكان قد أدرك مفتاح كلامه الذي سهل عليه فتح مغاليق علومه وحقائقه ، ومن ثم يتضح الفرق بينه وبين دعاة وحدة الوجود الآخرين ، وتتكشف حقيقة قول ابن عربي ، وهو عندما يتكلم عن جميع هذا يتصدى لشرح نتائجه والتزاماته الفاسدة ، ويمنحه حق الشك والاحتمال بغاية من الاخلاص والانشراح ، ويفرق بينه وبين الاتحاديين الآخرين ، يقول في الرسالة نفسها :

« لكن ابن عربي أقربهم إلى الإسلام وأحسن كلاماً في مواضع كثيرة ، فانه يفرق بين المظاهر والظاهر فيقر الأمر والنهي والشرائع على ما هي عليه ، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشائخ من الأخلاق والعبادات ولهذا كثير من العباد يأخذون من كلامه سلوكهم فيستفون بذلك وإن كانوا لا يفقهون حقائقه ، ومن فهمه منهم وفقه فقد تبين قوله » (١).

(١) جلاء العينين ص ٥٨ .

ويقول في موضع آخر : « وهذه المعاني كلها هي قول صاحب الفصوص والله تعالى أعلم بما مات الرجل عليه ، والله يفر لجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

ثم أنه يتحدث عن مذهب صدر الدين القونوي فيقول : هو أبعد عن الشريعة والإسلام . ويرد بعد ذلك على التلمساني وابن سبعين رداً قوياً ، ولكنه يبغض التلمساني بغضاً شديداً ، فلا يلبث أن تبعثه الحمية الدينية على أن يقول :

« وأما الفاجر (٢) التلمساني فهو أخبث القوم وأعمقهم في الكفر فانه لا يفرق بين الوجود والثبوت كما يفرق ابن عربي ولا يفرق بين المطلق والمعين كما يفرق الرومي ولكن عنده ما ثم غيره ولا سوى بوجه من الوجوه وأن العبد إنما يشهد سوى ما دام محجوباً فاذا انكشف حجاب رآى أنه ما ثم غير يبين له الأمر ولهذا كان يستحل جميع الحرمات (٣) . »

وفي الأخير يشير إلى نقطة مهمة ويقول : « متكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومتعبدة الجهمية يعبدون كل شئ ، وذلك لأن متكلمهم ليس في قلبه تأله ولا تعبد ، فهو يصف ربه بصفات العدم والموات .

وأما المتعبد ففي قلبه تأله وتعبد ، والقلب لا يقصد الا موجوداً لا معدوماً فيحتاج أن يعبد المخلوقات ، أما الوجود المطلق وأما بعض المظاهر : كالشمس والقمر ، والبشر والأوثان ، وغير ذلك ، فان قول الاتحادية يجمع كل شرك في العالم ، وهم لا يوحدون الله - سبحانه وتعالى - وإنما يوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات ، فهم بربهم يعدلون ، ولهذا حدثني الثقة أن ابن سبعين كان يريد الذهاب إلى الهند ، وقال : ان أرض لإسلام لا تسعه ، لأن الهند مشركون (٤) يعبدون كل شئ حتى النبات والحيوان (٥) .

وهذا حقيقة قول الاتحادية فاذا أخذوا يصفون الرب سبحانه بالكلام قالوا : ليس بكذا ليس بكذا ، ووصفوا بأنه ليس هو رب المخلوقات كما يقوله المسلمون لكن يجحدون

(١) سورة الحشر المصدر نفسه .

(٢) يعرف التلمساني لدى أتباعه بالعفيف التلمساني .

(٣) جلاء العينين ص ٥٨ .

(٤) سكان الهند الأصليون .

(٥) لإمام نفسه صرح بذلك فيمواضع كثيرة من مؤلفاته .

صفات الخالق التي جاءت بها الرسل عليهم السلام .

وإذا صار لأحدهم ذوق ووجد ، تأله وسلك طريق الاتحادية ، وقال : انه هر الموجودات كلها ، فاذا قيل له أين ذلك النفي من هذا الاثبات ؟ قال : ذلك وجدى وهذا ذوقى ، فيقال لهذا الضال : كل ذوق ووجد لا يطابق الاعتقاد فأحدهما أو كلاهما باطل ، وإنما الأذواق والمواجيد نتائج المعارف والاعتقادات فان علم القلب وحاله متلازمان ، فعلى قدر العلم والمعرفة يكون الوجد والمحبة والحال .

ولو سلك هؤلاء طريق الأنبياء عليهم السلام - الذين أمروا بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ووصفوه بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله ، واتبعوا طريق السابقين الأولين : لسلكوا طريق الهدى ووجدوا برد اليقين وقررة العين ، فان الأمر كما قال بعض الناس<sup>(١)</sup> ثم أن الرسل جاءوا باثبات مفصل ونفى مجمل ، والصابئة المعطلة جاءوا بنفى مفصل واثبات مجمل ، فالقرآن مملوء ، من قوله تعالى فى الاثبات ﴿ ان الله بكل شئ عليم ﴾ ﴿ وعلى كل شئ قدير ﴾ ﴿ وإنه سميع بصير ﴾ ﴿ وسع كل شئ رحمة وعلماً ﴾ وفى النفى : ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ﴾<sup>(٢)</sup> .

ويتحدث عن الفوضى الخلقية التي نشرتها هذه العقيدة واتخذها الفساق وأهل الهوس حجاباً لشهواتهم ، فيقول :

« ان دعاة هذه العقيدة يجمعون بين شهوات النفس والهوس وفساد الاعتقاد مما انتج فى بعض البلدان أن بعض الناس يصابون بهوى المردان ، ويقولون أنهم مظهر الله تعالى ومظهر جماله وبعضهم يقبلون المحبوب ويقولون له : أنت الله ، وبعضهم يعتدى على أولاده ويدعى الألوهية وما إلى ذلك .

ذلك هو الزمن الذى كان فيه الملك الناصر محمد بن قلاوون ملكاً رمزاً ليس له من الأمر شئ ، كان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير هو الذى يأمر وينهى ويتصرف فى المملكة تصرفاً مطلقاً ، وكان جاشنكير هذا من المعجبين بالشيخ نصر المنبجى الذى كان ممن يحب الشيخ ابن عربى حباً شديداً ، ولقد كان الشيخ نصر المنبجى لا يزال يطلع فى مصر على آراء الشيخ ابن تيمية فى ابن عربى التى كان يبيدها حيناً لآخر كتابة وكلاماً ، ويكفى

(١) الامام نفسه صرح ذلك فى مواضع كثيرة من مؤلفاته .

(٢) الرد الأقوم على فصوص الحكم ص ٥٣ .

ذلك لاثارة سخطه على الشيخ ابن تيمية ، وكان جاشنكير ضعيف الثقافة شأن الامراء الأتراك متمتعاً بتدبير الأمور العسكرية والادارية ولكنه كان متأثراً برأى شيخه ويرى ابن تيمية كما يراه شيخه .

أما الشام فكانت ولاية للمملكة المصرية ، وتابعة لها بالكلية ، فكان سلطانها يتمتع بامتيازات واسعة وله الحق أن يطلب أى شخص إلى البلاط يخشى منه أن يسبب ضرراً بالأمن العام أو يثير فتنة وخصاماً ، وكانت أهواء رجال البلاط أو الاتجاهات الشخصية تعمل فى مثل هذه المواقف بوجه عام ، وكان الوضع إذ ذاك أن الشيخ نصر المنبجى الذى كان يعظمه نائب السلطنة ويقتدى به كان يبغض ابن تيمية ، ويريد أن يحط من شأنه ويحبط مساعيه .

وعلى كل فقد وصل كتاب السلطان إلى ابن تيمية فى خامس رمضان عام ٧٠٥ هـ يطلبه إلى مصر ، وقد أقلق ذلك أصحابه وتلاميذه ، وأشار عليه نائب السلطنة - وكان من المعجبين به - بترك الذهاب إلى مصر ، وقال له : أنا أكاتب السلطان فى ذلك وأزيل الوحشة وألم الشعث ، ولكن الشيخ ابن تيمية امتنع عن ذلك وقال له : إن فى توجهه إلى مصر مصالح كثيرة فازدحم الناس لوداعه ورؤيته وشيعوه إلى بعض الطريق ، وهم فيما بين باك وحزين .

ودخل الشيخ غزة فى طريقه إلى مصر فعمل فى جامعها مجلساً عظيماً وألقى فيه درساً ، ووصل إلى مصر فى ٢٢ من رمضان ، وعقد له مجلس بالقلعة يوم الجمعة بعد الصلاة حضره القضاة وأكابر الدولة ، وأراد أن يتكلم على عادته فلم يتمكن من البحث والكلام ، وانتدب له الشمس بن عدنان خصماً وأورد عليه بعض الحاضرين فى عقائده ومسائله<sup>(١)</sup> فسأله القاضى عن الجواب عليه ، فأخذ الشيخ فى حمد الله والثناء عليه فقيل له : أجب ، ما جئنا بك لتخطب فقال : ومن الحاكم فى ؟ فقيل له القاضى ابن مخلوف المالكى<sup>(٢)</sup> ، فقال له الشيخ : كيف تحكم فى وأنت خصمى ؟ فغضب غضباً شديداً وانزعج

---

(١) هذه العقائد والمسائل هى تلك البحوث الكلامية القديمة التى نوقشت فى دمشق مراراً وكان ابن تيمية قد أُلّف فى موضوعها رسائل وكتباً مستقلة ، مثلاً حقيقة « الاستواء على العرش » وحقيقة كلام الله ، وبحث الحرف والصوت .

(٢) كان خصماً لابن تيمية ومن معارضيه فى مصر .



وأصدر حكمه عليه <sup>(١)</sup> وحبس في برج أبات ، ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجب . هو وأخوه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن <sup>(٢)</sup> .

وفي ليلة عيد الفطر عام ٧٠٦ هـ أحضر الأمير سيف الدين سلار نائب مصر ، القضاة والفقهاء الذين تكلموا في إخراج الشيخ ابن تيمية من الحبس فاشتراط بعض الحاضرين عليه شروطاً بذلك ، منها أنه يلتزم الرجوع عن بعض العقيدة ، وأرسلوا اليه ليحضر ليتكلموا معه في ذلك ، فامتنع من الحضور وصمم ، وتكررت الرسل اليه ست مرات فصمم على عدم الحضور ولم يلتفت إليهم ولم يعدهم شيئاً ، وكان جوابه دائماً ، « رب السجن أحب إلي مما يدعونني اليه » <sup>(٣)</sup> .

### ابن تيمية يتحدث عن سبب الخلاف ويوضح مذهبه :

ومن حسن الحظ أن رسالة مستقلة لابن تيمية صدرت جديداً حكى فيها عن مجلس النقاش الذي أقيم في مصر للنظر في قضيته ، وسرد بنفسه قصة الحبس والأسر ، ثم كلام الناس للإفراج عنه وإنكاره وإيضاحه لمذهبه ، وهذه الرسالة تضيء كثيراً من الجوانب المهمة والأحوال الجديدة ، وهنا أقدم نتفاً من مقتطفاتها <sup>(٤)</sup> .

فجاء الفتحاح ( ذات يوم ) فقال : يسلم عليك النائب ، وقال : إلى متى يكون المقام في الحبس أما تخرج ؟ هل أنت مقيم على تلك الكلمة أم لا ؟

وعلمت أن الفتحاح ليس في استقلاله بالرسالة مصلحة ، لأمر لا تخفى ، فقلت له : سلم على النائب وقل له : أنا لا أدري ما هذه الكلمة ؟ وإلى الساعة لم أدر على أي شيء حبست ؟ ولا علمت ذنبي ؟ وإن جواب هذه الرسالة لا يكون مع خدمتك ، بل يرسل من ثقته الذين يفهمون ويصدقون أربعة أمراء ليكون الكلام معهم مضبوطاً عن الزيادة والنقصان ، فأنا قد علمت ما وقع في هذه القضية من الأكاذيب .

---

(١) وقد حدث الشيخ عن ما جرى له في هذا المجلس في رسالة له ، صدرت باسم « المحنة » حديثاً .

(٢) ابن كثير ج ١٤ ص ٣٨ .

(٣) أيضاً ص ٤٢ .

(٤) وجدت نسخة من هذه الرسالة في المكتبة الظاهرية بدمشق بخط شقيقه ورفيقه في السجن الشيخ شرف الدين بن تيمية . وقد صدرت باسم « مجموعة علمية » تحتوى على بعض رسائل الشيخ ابن تيمية الأخرى كذلك . اهتم بطبعها وإخراجها فضيلة الشيخ عبد الرازق حمزة امام الحرم المكي سابقاً . وفضيلة الشيخ محمد نصيف ( رحمه الله ) .

فجاء بعد ذلك الفتاح ، ومعها شخص ما عرفته ، لكن ذكر لي أنه يقال علاء الدين الطبرسي ورأيت الذين عرفوه أثنوا عليه بعد ذلك خيراً ، وذكروه بالحسنى ، لكنه لم يقل ابتداء من الكلام ما يحتمل الجواب بالحسنى ، فلم يقل : الكلمة التي أنكرت ! كيت وكيت ولا أستفهم ! هل أنت مجيب إلى كيت وكيت ؟ ولو قال ما قال من الكذب على الكفر والمجادلة على الوجه الذي يقتضى الجواب بالحسنى لفعلت ذلك ، فان الناس يعلمون أنى من أطول الناس روحاً وصبراً على مر الكلام وأعظم الناس عدلاً فى المخاطبة لأقل الناس ، دع ولاية الأمور ، لكنه جاء مجئ المكره على أن أوافق إلى ما دعاه اليه ، أخرج درجاً فيه من الكذب والظلم ، والدعاء إلى معصية الله والنهي عن طاعته ما الله به عليم ، وجعلت كما أردت أن أجيبه وأحملة رسائل يبلغها : لا يريد أن يسمع شيئاً من ذلك ويبلغه ، بل لا يريد إلا مضمونه الاقرار بما ذكر ، والتزام عدم العودة اليه ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ فمتى ظلم المخاطب لم تكن مأمورين أن نجيبه بالتي هي أحسن .

فقلت له فى ضمن الكلام : الحق فى هذه القضية ليس لى ، لكن لله ورسوله ولسائر المسلمين من شرق الأرض إلى غربها ، وأنا لا ( استطع ) تبديل الدين وتغييره ، وليس لأجلك أو أجل غيرك ارتد عن دين الاسلام ، وأقر بالكفر والكذب والبهتان ، راجعاً عنه أو موافقاً عليه .

لما رأيت يلع فى الأمر بذلك ، أغلظت عليه فى الكلام وقلت ، دع هذا الفشار ، وقم رح فى شغلك ، فأنا ما طلبت منكم أن تخرجونى ، وكانوا قد أغلقوا الباب القائم الذى يدخل منه إلى الباب المطبق ، فقلت أنا : افتحوا لى الباب حتى أنزل ، يعنى فرغ الكلام .

وقلت له : أنا لم يصدر منى قط إلا جواب مسائل ، افتاء مستفت ، ما كاتب أحد ابتداء ، ولا مخاطبته فى شئ من هذا ، بل يجئ الرجل المسترشد المستفتى عما أنزل الله على رسوله ، فيسألنى مرة بعد مرة ، وهو متحرق على طلب الهدى ، أفيسعى فى دينى أن أكتمه العلم ؟ وقد قال النبى ﷺ : « من سئل عن علم يعلمه فكتمه أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » وقد قال الله تعالى : ﴿ ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ أفعلنى أمرى أستنع من جواب المسترشد لأكون كذلك وهل يأمرنى بهذا السلطان أو غيره من المسلمين ، ولكن أنتم ما كان قصودكم إلا دفع أمر الملك لما بلغتكم من الأكاذيب .

فقال يا مولانا دع أمر الملك : أحد ما يتكلم فى الملك ؟ فقلت : ايه ، الساعة ما بقى

أحد يتكلم فى الملك ، وهل قامت هذه الفتنة إلا لأجل ذلك ؟ نحن سمعنا بهذا ونحز بالشام : إن المثير لها تهمة الملك ، لكن ما اعتقدنا أن أحداً يصدق هذا .

وذكرت له أن هذه القضية ليس ضررها على ، فانى أنا من أى شئ أخاف ؟ ان قتلت كنت من أفضل الشهداء وكان ذلك سعادة فى حقى يترضى بها على إلى يوم القيامة ويلعن الساعى فى ذلك إلى يوم القيامة فان جميع أمة محمد يعلمون أنى أقتل على الحق الذى بعث الله به رسوله ، وان حبست : فوالله ان حبسى لمن أعظم نعم الله على ، وليس لى ما اخاف الناس عليه ، ولا مدرسة ولا اقطاع ، ولا مال ، ولا رئاسة ، ولا شئ من الأشياء ، ولكن هذه القضية ضررها يعود عليكم ، فان الذين سعوا فيها من الشام ، أنا أعلم أن قصدهم فيها كيدكم وفساد ملتكم ودولتكم وقد ذهب بعضهم إلى بلاد التتر وبعضهم مقيم هناك فهم الذى قصدوا إفساد دينكم ودنياكم وجعلونى أنا ما نستر لعلمكم بانى أواليكم وأنصح لكم وأريد لكم خير الدنيا والآخرة والقضية لها أسرار كلما جاءت تنكشف وإلا فأنا لم يكن بينى وبين أحد بمصر عداوة ولا بغضاء وما زلت محباً لها ، موالياً لهم ، أمراءهم ومشايخهم وقضاتهم .

فقال لى : فما الذى أقوله لنائب السلطان .

فقلت : سلم عليه ، وبلغه كل ما سمعت .

فقال : هذا كثير .

فقلت : ملخصه أن الذى فى هذا الدرج أكثره كذب ، وأما هذه الكلمة «استوى حقيقة» ( يعنى قلتها حقاً ) .

فهذه قد ذكر واحد من علماء الطوائف المالكية وغير المالكية : أنه أجمع عليها أهل السنة والجماعة وما أنكر ذلك أحد من سلف الأمة ولا أئمتها بل ما علمت عالماً أنكر ذلك ، فكيف أترك ما أجمع عليه أهل السنة ولم ينكره أحد من العلماء .

قال أبو عمر بن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها فى القرآن والسنة ، والايمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يكتفون شيئاً من ذلك ولا يجدون فيه صفة محصورة وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها ، والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ويزعمون أن من أقربها مشبه وهم عند من أقربها نافون للمعبود ، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ، وهم أئمة الجماعة .

وقال الشيخ العارف أبو محمد عبد القادر بن صالح الكيلاني في كتاب « الغنية » وهو بجهة العلو ، مستو على العرش محتو على الملك ، محيط عليه بالأشياء .

قال : ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان ، بل يقال : أنه في السماء على العرش كما قال ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ذكر الآيات والأحاديث ، إلى أن قال : وينبغي إطلاق صفة الإستواء ، من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش<sup>(١)</sup> ، فلو كان الذي حكم به ابن مخلوف وهو مذهب مالك أو الأشعري : لم يكن له أن يلزم جميع الناس به ويعاب من لم يوافق عليه باتفاق الأمة ، فكيف والقول الذي يقوله ويلزم به هو خلاف نص مالك وأئمة أصحابه ، وخلاف نص الأشعري وأئمة أصحابه كالقاضي أبو بكر ، وأبي الحسن الطبري ، وأبو بكر بن فورك ، وأبي القاسم القشيري ، وأبي بكر البيهقي وغير هؤلاء ، وكلهم مصرحون بمثل ما قلناه وبنقيض ما قاله ! ولهذا اصطلحت الحنبلية والأشعرية واتفق الناس كلهم ، لما رأى الحنابلة كلام أبي الحسن الأشعري قالوا : هذا خير من كلام الشيخ الموفق ، وزال ما كان في القلوب من الأضغان ، وصار الفقهاء من الشافعية وغيرهم يقولون : الحمد لله على اتفاق كلمة المسلمين .

فقال لي : نعم هو مستو على العرش حقيقة بذاته بلا تكييف ولا تشبيه ؟ قلت : نعم ، وهكذا هو العقيدة ، فقال : فاكتب هذه الساعة وقال : التزمه أو نحو هذا .

فقلت : هذا هو مكتوب بهذا اللفظ في العقيدة التي عندكم التي بحثت بدمشق واتفق عليها المسلمون فأى شيء هو الذي أزيده ؟ قلت له : أنا أحضرت أكثر من خمسين كتابا من كتب أهل الحديث والتصوف والمتكلمين والفقهاء الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، يوافق ما قلته .

قلت : أنا أمهل من خالفني ثلاث سنين أن يجيء بحرف واحد عن أئمة الإسلام يخالف ما قلته ، فما الذي أصنعه ؟ فلما خرج الطبرسي والفتاح عاد الفتاح بعد ساعة ، فقال : يسلم عليك نائب السلطان وقال فاكتب لنا الآن عقيدة بخطك .

فقلت : سلم على نائب السلطان ، وقل له : لو كتبت الساعة شيئا لقال القائل : قد زاد ونقص أو غير الاعتقاد ، وهكذا بدمشق لما طلبوا الاعتقاد لم آتهم الا بشيء قد كتب متقدماً .

---

(١) لقد تصدى الشيخ في هذه المناسبة بذكر كثير من آراء أكابر العلماء للمذاهب الأربعة نكتفي هنا بذكر هذين الرأيين فقط .

قلت وهذا الاعتقاد هو الذى قرئ بالشام فى المجالس الثلاثة ، قد أرسله إليكم نابكم مع البريد والجميع عندكم ، ثم أرسل إليكم مع العمرى ثانياً لما جاء الكتاب الثانى ما قاله القضاة والعلماء والمحضر وكتاب البخارى الذى قرأه المزى ، والاعتقاد ليس هو شيئاً ابتدعه من عندى ، حتى يكون كل يوم لى اعتقاد ، وذلك الاعتقاد بعينه ، والنسخة بعينها ، فانظروا فيها .

فراح ، ثم عاد وطلب أن أكتب بخطى أى شئ كان .

فقلت : فما الذى أكتبه ؟ قال : مثل العفو ، وألا تتعرض لأحد .

فقلت : نعم هذا أنا مجيب إليه ، ليس غرضى فى إيذاء أحد ، ولا الانتقام منه لا مؤاخذته وأنا عاف عن ظلمنى وأردت أن أكتب هذا ، ثم قلت : مثل هذا ما جرت العادة بكتابه فان عفو الإنسان عن حقه لا يحتاج إلى هذا .

فينبغى أن يعرف الشيخ نصر بحقيقة الأمر وباطن القضية ليطلبها بتدبيره ، فأنا ليس مرادى إلا فى طاعة الله ورسوله وما يخافه على جميع المصرين إلا من بعضهم فى بعض كما جرت به العادة ، قد سمعتم ما جرى بدمشق مع أن أولئك أقرب إلى الاتفاق من تجديد القاضى المذكور إسلامه عند القاضى الآخر ، وأنا لما كنت هناك كان هذا الأذرعى الحنفى قد ذهب إلى القاضى تقى الدين الحنبلى وجدد إسلامه وحكم بحقن دمه لما قام عليه بعض أصحابهم فى أشياء ، وكان من مدة لما كان القاضى حسام الدين الحنفى مباشراً لقضاء الشام أراد أن يحلق لحية هذا الأذرعى أحضر الموسيقى والحمار ليركبه ويطوف به فجاء أخوه عرفنى ذلك فقامت إليه لم أزل به حتى كف عن ذلك ، وجرت أمور لم أزل له فيها محسناً إليهم ، وهذه أمور ليست من فعلى ولا فعل أمثالى نحن إنما ندخل فيما يحبه الله ورسوله والمؤمنون ، ليس لنا غرض من أحد بل نجزى بالسيئة الحسنة ونعفو ونغفر .

وهذه القضية قد انتشرت وظهر ما فعل فيها وعلمه الخاص والعام فلو تغيرت الأحوال حتى جاء أمير أو وزير له فى نقل ملك قد أثبتته أو حكم به لكان هذا عند المصرين من أسهل ما يكون فيثبتون رده والمرتد أحكامه مردودة باتفاق العلماء ويعود ضرره على الذين أعانوه ونصروه بالباطل من أهل الدولة وغيرهم ، وهذا أمر كبير لا ينبغى إهماله فالشيخ خبير يعرف عواقب الأمور .

وأنا والله من أعظم الناس معاونة على اطفاء كل شر فيها وفى غيرها ، واقامة لكل خير .

وابن مخلوف ولو عمل مهما عمل والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه ، ولا أعين عليه عدوه قط ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه نيتي وعزمي مع علمي بجميع الأمور فاني أعلم أن الشيطان ينزع بين المؤمنين ولن أكون عوناً للشيطان على إخواني المسلمين ، ولو كنت خارجاً لكنت أعلم بماذا أعاونه ، لكن هذه قد جعلوها مسألة دور ، والله يخير للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم ودنياهم .

ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلا بالانابة إلى الله والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء ، فانه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما ما يتعلق بالاستغاثة بالنبي ﷺ فان المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام أن العبد لا يجوز له أن يعبد ، ولا يدعو ، ولا يستغيث ، ولا يتوكل إلا على الله ، وأن من عبد ملكاً مقرباً ، أو نبياً مرسلًا ، أو دعاه ، أو استغاث به : فهو مشرك فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل : يا جبرائيل ، أو يا ميكائيل ، أو يا ابراهيم ، أو يا موسى ، أو يا رسول الله ، اغفر لي ، أو ارحمني أو ارزقني ، أو انصرني ، أو أغنني ، أو أجرني من عدوي ، أو نحو ذلك ، بل هذا كله من خصائص الألوهية ، وهذه مسائل شريفة معروفة قد بينها العلماء .

وأنت لما ذكرت لي ذلك اليوم هذا ، قلت لك : هذا من أصول الإسلام ، فاذا كان القاضي لا يفرق بين دين الإسلام ودين النصارى الذين يدعون المسيح وأمه فكيف أصنع أنا؟ ولكن من يتخذ نفيسة<sup>(١)</sup> ربا ، ويقول أنها تجير الخائف ، وتغيث الملهوف ، وأنه في حسبها ، ويسجد لها ، ويتضرع في دعائها ، مثل ما يتضرع في دعاء رب الأرض والسموات ، ويتوكل على من قدمات ، ولا يتوكل على الحي الذي لا يموت ، فلا ريب أن إشراكه بمن هو أفضل منها يكون أقوى قال تعالى : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون ؟ ﴾ ، وحديث معاذ لما رجع من الشام فسجد للنبي ﷺ فقال : « ما هذا يا معاذ : فقال : رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم ، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم ، فقال : يا معاذ ، رأيت لو مررت بقبرى أكنت ساجداً له قال : لا ، قال : فلا تسجد لي ، فلو كنت أمر أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » فمن لا ينهى الضالين من مثل هذا الشرك المحرم بإجماع المسلمين كيف ينهى عما هو أقل منه ؟ ومن دعا رجلاً أو امرأة من دون الله ،

(١) السيدة نفيسة من أهل بيت الرسول ﷺ وقبرها معروف بالقاهرة يعظمه العامة .

فهو مضاه لمن اتخذ المسيح وأمه إلهين من دون الله ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أن قال :  
« لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله  
ورسوله . بل من سوغ أن يدعى المخلوق ومنع دعاء الخالق الذي فيه تحقيق صمديته  
والهيته ، فقد ناقض الإسلام في النفي والإثبات وهو شهادة أن لا إله إلا الله » .

وأما حقوق رسول الله ﷺ - بأبي هو وأمي - مثل تقديم محبته على النفس والأهل  
والدل . وتعزيزه وتوقيره ، وإجلاله وطاعته ، واتباع سنته ، وغير ذلك فعظيمة جداً ،  
وكذلك ما يشرع التوسل به في الدعاء كما في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه : أن  
النبي ﷺ علم شخصاً أن يقول : « اللهم إني أسألك وأتوسل اليك بنبيك محمد نبي  
الرحمة ، يا محمد يا رسول الله إني أتوسل بك إلى ربي في حاجة لتقضيها اللهم فشفعني  
في » فهذا التوسل به حسن ، وأما دعاؤه والاستغاثة به حرام .

وأنا قد صنفته ، كتاباً كبيراً سميته « الصارم المسلول على شاتم الرسول » وذكرت فيه في  
هذه المسألة ما لم أعرف أحداً سبق إليه ، وكذلك هذه القواعد الإيمانية ، قد كتبت فيها  
فصولاً هي من أنفع الأشياء في أمر الدين .

وما ينبغي أن يعرف به الشيخ أني أخاف أن القضية تخرج عن أمره بالكلية ويكون فيها  
ما فيه ضرر عيبه ، وعلى ابن مخلوف ونحوهما ، فانه قد طلب منه ما يجعل سبباً لذلك ،  
ولم أجب إليه . فإني إنما أنا لوز واحد والله ما غششتها قط ، ولو غششتها كتمت ذلك  
وأن ساعد لهما على كل بر وتقوى . وتعرفه ، أن الأصل الذي تصلح عليه الأمور :  
« رجوع كل شخص إلى الله ، وتوبته إليه في هذا العشر المبارك ، فإذا حسنت السرائر  
أصلح الله الظواهر ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (١) .

### قيامه بالأصلاح والتعليم في السجن وتأثير ذلك :

يتحدث الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي صاحب « الكواكب الدرية » عن معاصر الشيخ  
ابن تيمية وزميله في الدراسة الشيخ علم الدين البرزالي ، يقول :

« ولما دخل الحبس وجد المحابيس مشغولين بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه  
كلشطرنج والنرد مع تضييع للصلوات ، فأنكر الشيخ ذلك عليهم وأمرهم بملازمة الصلاة  
والتوجه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء ، وعلمهم من السنة

(١) مجموعة علمية ص ٦٥ .

ما يحتاجون إليه ، ورغبهم في أعمال الخير وحضهم على ذلك ، حتى صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس ، وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده « (١) .

وفي ١٤ / صفر سنة ٧٠٧ هـ بعد أربعة أشهر استؤنفت جهود للإفراج عنه ، ولقيه قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة نفسه وتكلم معه في الموضوع طويلاً ولكنه لم يرض بالخروج من السجن ، وأخيراً في ٢٣ / ربيع الأول ذهب إليه الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب<sup>(٢)</sup> في السجن وناشده الله وجاء به إلى منزل نائب السلطنة ، وكان الأمير حسام الدين يريد أن يذهب به إلى دمشق ولكن النائب أشار عليه بالإقامة في مصر لمدة حتى يعرف الناس بمكانته العلمية والدينية ، ويتمكنوا من الاستفادة منه .

### سمو أخلاق ابن تيمية :

وتجلى سمو أخلاق ابن تيمية في هذه الفترة أكثر مما كان عليه ، فانه لم يطأطئ رأسه أمام أى قوة ، ولا راودته رغبة دنيوية أو منفعة مالية ، إنه رفض بصراحة أن يقبل أى خلعة سلطانية أو عطايا ملوكية .

وكانت مآثرته الأخرى أنه عفا عن جميع من حاولوا إيذائه أو عارضوه فور خروجه من السجن من غير استثناء وتلكؤ ، وأعلن مدوياً أنه لا مؤاخذه ولا عتاب على أحد ، يقول في رسالته التى وجهها إلى الشام بعد الإفراج عنه :

« تعلمون رضى الله عنكم أنى لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين فضلاً عن أصحابنا بشئ أصلاً لا ظاهراً أو باطناً ، ولا عندى عتب على أحد منهم ولا لوم أصلاً بل لهم عندى من الكرامة والإجلال والمحبة أضعاف ما كان ، كل بحسبه ، ولا يخلو الرجل اما أن يكون مجتهداً أو مخطئاً أو مذنباً فالأول مأجور مشكور والثانى مع أجره على الاجتهاد معفو عنه والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين ، لا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه على أو ظلمه وعدوانه ، فإننى قد أحللت كل مسلم وأنا أحب الخير لكل

(١) الكواكب الدرية ص ١٨١ .

(٢) كان الأمير حسام الدين أحد أفراد أسرة الأمراء العرب ، ومن سراة الشام ورؤسائها الأقوياء وكان أكثر اطلاعاً على مآثر ابن تيمية وجهوده الإصلاحية بالنسبة إلى المصريين ، وقد بذل اهتمامه بصفة خاصة فى الإفراج عنه وتأثر ابن تيمية باخلاصه ، وعلو نسبه وحبه للحرية فقبل اقتراحه ورضى بالخروج من السجن .



المسلمين وأريد لكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسى والذين كذبوا وظلموا هم فى حل من جهتى» (١) .

## التدريس والإفادة :

اشتغل ابن تيمية بعد خروجه من السجن بالتدريس والإفادة ، ولم يكن الجوفى فى مصر ملائماً له بعد ، وكان العلماء والقضاة قد أذاعوا عنه فى الناس أنواعاً عديدة من سوء الظن فقد كانت جماعة الصوفية - التى كانت تتسم بالتوحيد الوجودى - مسيئة الظن به ، ومتألماً منه ، ولم تكن هناك شخصية قوية تمثل المذهب الحنبلى وحده من بين المذاهب الأربعة ، كما تمثل عقيدة السلف من بين العقائد (٢) ، بينما وجد كبار العلماء والقضاة للمذاهب الأخرى هناك ، وعلى ذلك فقد عزم ابن تيمية على الإقامة فى مصر لمدة يقوم فيها بالقاء الدروس والإفادة العامة ، وابتدأت دروسه ومجالسه منظمة وغير منظمة ، وقد ألقى عدة دروس عن القضايا العلمية والكلامية الخالصة فى مدارس القاهرة الشهيرة وبخاصة فى الصالحية ، استفاد منها الخاصة واطلعوا على أفكار وعقائد الأصيلة .

استمرت هذه الدروس والمجالس إلى ستة أشهر استفاد منها العامة والخاصة كلهم فوائد علمية ودينية ، وشغف الناس بوجه عام باخلاصه وذكائه النادر وعقله الكبير ونبوغه العلمى .

## رسالة ابن تيمية إلى أمه :

لقد كان قدوم ابن تيمية إلى مصر على غفلة منه ، وما كان يعرف أنه يمكث هناك هذه المدة الطويلة وكانت أمه وأسرته كلها فى الشام تنتظر عودته بسلامة ، ولما أراد ابن تيمية أن يقضى بعض المدة فى مصر أخبر أمه بهذه النية ، واستأذنها فى ذلك برسالة تحتوى على عواطف لطيفة ، وحب برئ ، وبر مع الأم ، وطموح ورجولة وعزم ، كما أن أسلوبها سهل مطبوع ، وهى جديرة بأن أنقل جميعها إلى القراء الكرام :

« من أحمد ابن تيمية إلى الوالدة السعيدة أقر الله عينها بنعمة وأسبغ عليها جزيل كرمه وجعلها من إمامه وخدمه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

(١) ابن تيمية ( محمد أبو زهرة ) ص ١٦٢ .

(٢) كان القاضى الحنبلى آنذاك قليل العلم ومحدود الذكاء ، فكان الحنابلة ضعيفى الجانب لذلك .

انا نحمد اليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شئ قدير ،  
ونسأله أن يصلى على خاتم النبيين وإمام المتقين محمد عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وسلم  
تسليماً .

كتابى اليكم عن نعم من الله عظيمة ، ومنز كريمة وآلاء جسيمة نشكر الله عليها ،  
ونسأله المزيد من فضله ، ونعم الله كلما جاءت فى نمو وازدياد ، وأياديه جلّت عن  
التعداد ، وتعلمون أن مقامنا الساعة فى هذه البلاد إنما هو لأمر ضرورية متى أهملناها فسد  
علينا أمر الدين والدنيا ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ،  
ولكن الغائب عذره معه وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فانكم - والله الحمد ۹ ما  
تختارون الساعة إلا ذلك ، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً بل كل يوم  
نستخير الله ولكم ، وادعوا لنا بالخيرة فنسأل الله العظيم أن يخير لنا وللمسلمين ما فيه  
الخيرة فى خير وعافية .

وقد فتح الله من أبواب الخير ، والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال ولا  
يدور فى الخيال ، ونحن فى كل وقت مهمومون بالسفر مستخيرين الله سبحانه وتعالى فلا  
يظن الظان أننا نؤثر على قربكم شيئاً من أمور الدنيا قط ، بل لا نؤثر من أمور الدين ما  
يكون قربكم أرجح منه ولكن ثم أمور كبار نخاف ضرر الخاص والعام من إهمالها ،  
والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة فان الله يعلم ولا نعلم ،  
ويقدر ولا نقدر وهو علام الغيوب ، وقال النبي ﷺ من سعادة ابن آدم استخارته الله  
ورضاه بما يقسم الله له ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله وسخطه بما يقسم الله له ،  
والتاجر يكون مسافراً ويخاف ضياع ماله فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه وما نحن فيه أمر  
يجل عن الوصف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيراً  
كثيراً ، وعلى سائر من فى البيت من الكبار والصغار والأهل والأصحاب واحداً واحداً ،  
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

### اعتقال ابن تيمية مرة أخرى :

لقد كانت مصر مركزاً مستقلاً لعقيدة وحدة الوجود ونظرتها ، ويبدو أن الشاعر  
المتصوف الشهير ابن الفارض الذى توفى عام ٦٣٢ هـ كان من أصحاب هذا « المشرب »  
وفى شعره اشارات يستدل منها على هذا الاتجاه ، وكان ابن تيمية يرد على هذه العقيدة  
جهاراً ، ويعترض على هذه الأقوال والأعمال فى دروسه ومجالسه ، التى كان يعتبرها فيما  
يرى ضد الكتاب والسنة ومن زيادات المتأخرين من الصوفية ، إنه يذكر فى مواضع كثيرة

من كتبه ومؤلفاته المحققين من الصوفية والراسخين منهم أمثال الإمام عبد القادر الجيلاني والشيخ عدى ابن مسافر الأموى فى غاية من الاحترام والتأدب ، ولكنه لا يتلصق فى انتقاد معاصريه من المتصوفين والمشايخ ، الذين كانوا معجبين فيما يعتقد بفلسفة اليونان وفلسفة الإشراق لمصر والهند .

وكان من الطبيعى أن تثير انتقاداته هذه استنكاراً فى أوساط التصوف ، ونهض شيخ الطريقة فى مصر المعروف بابن عطاء الله الاسكندرى ( صاحب الحكم ) واشتكى إلى الحكام ضد ابن تيمية نيابة عن جماعة الصوفية ، كما ذهبت طائفة من الصوفية إلى القلعة تشكو ابن تيمية ، فلما سمع السلطان بهذه الشكاوى أمر بعقد المجلس فى دار العدل ، وتحقيق هذا الأمر ، وحضر ابن تيمية فى المجلس وتولى قضيته بنفسه ، وأسكت الناس بدلائله وقوة كلامه ، وأمسك السلطان عن إصدار أى مرسوم ضده .

غير أن الثورة التى قامت عليه لم تنته ، وكان من بين ما اتهم به أنه يعلن جهاراً أنه لا يستغاث إلا بالله ، وحتى لا تصح الاستغاثة بالنبي ﷺ ، ولما عرضت هذه الشكاة قال بعض العلماء : ليس عليه فى هذا شئ ، ورأى قاضى القضاة أن هذا فيه قلة أدب ، أما أن يؤدى هذا إلى الكفر ، فلم يقل به أحد ، ولذلك لم يعد للشكوى أى أثر .

ولكن الحكومة تضجرت من هذه الاثارات والشكاوى التى استمرت فى غير انقطاع فخيرت ابن تيمية بين ثلاثة أمور ، إما أن يسير إلى دمشق ، أو يقيم فى الاسكندرية بشروط<sup>(١)</sup> يستوفىها أو يختار الحبس ، فاختار الحبس فألح عليه جماعة من تلاميذه وانصاره أن يسافر إلى دمشق فأجابهم جبراً لخواطرهم وتوجه إليها ليلة ١٨ من شوال سنة ٧٠٧ هـ ، ولكنه رد فى نفس اليوم إلى مصر وقيل له أن الدولة ما ترضى إلا بالحبس غير أن القضاة والعلماء كانوا مرتبكين فى حبسه إذ لم يثبت عليه شئ ، وقد صاح القاضى المالكى شمس الدين التونسى وقال : لم يثبت عليه شئ يبرر حبسه ، وكان نور الدين المالكى متردداً فى هذا الأمر فسكت ، ولما رأى الشيخ ابن تيمية صراع العلماء والقضاة الفكرى حكم لنفسه بالحبس ، فقال نور الدين الزواوى : يكون فى موضع يصلح لمثله ، فقيل له : الدولة ما ترضى إلا مسعى الحبس ، فأرسل إلى حبس القضاة ، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه .

واستمر الشيخ ابن تيمية فى الحبس يستفتى ، ويقصده الناس ويزورونه وتأتيه الفتاوى

---

(١) ولعل من أهم الشروط : ألا يدعو الناس إلى اعتناق معتقداته بوجه عام .

المشكلة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء وأعيان الناس فيكتب عليها بما يحير العقول من الكتاب والسنة .

وبعد مدة عقد مجلس للشيخ في الصالحية ، وأفرج عنه نزولاً على رغبة الفقهاء والقضاة ، فاستقبله الناس بحماس وحرارة ، وأكبوا على الاجتماع به ليلاً ونهاراً<sup>(١)</sup> .

**التطورات السياسية ، وابن تيمية يواجه الشدائد :**

فوجئت مصر بتطورات وتغييرات سياسية أحدثت لابن تيمية مشكلات جديدة ، وانتهز المعارضون هذه الفرصة للتآمر عليه ، بحرية تامة ، وكان ناصر بن قلاوون لا يزال سلطان مصر والشام ، وهو الذي كان معجباً بعلمه وإخلاصه يعطف عليه ، فان ابن تيمية هو الذي كان قد حمله على مقاومة التتر ، فكان قد شاهد بنفسه شجاعته ، وقوة إيمانه واستقامته ، وفي سنة ٧٠٨ هـ اعتزل السلطان السلطنة لأسباب كثيرة بعثت فيها التشاؤم ، واقتنع بالاقامة في كرك ورقعة مملكته المحدودة فيها .

تخلى عن عرش مصر لركن الدين بيبرس الجاشنكير ، فأعلن بسلطته المستقلة ، ومن ثم أصبح ركن الدين الحاكم المستقل لمصر والشام وصار الشيخ نصر المنبجي المربي الروحي لهذه المملكة الكبيرة ومستشارها الخاص ، أما ابن تيمية فكان يعتبر من أنصار السلطان ناصر بن قلاوون عدا ما اشتهر به من عقائد وتحقيقات دينية تضاد اتجاهات الشيخ نصر المنبجي تماماً ، ولذلك فقد اجتمعت العوامل الدينية والسياسية لتنفيذ الأحكام ضده .

وفور هذا التغيير الذي حدث في سياسة الدولة صدر مرسوم ملكي لنفى ابن تيمية إلى الإسكندرية وحبسه هناك ، فقد أرسل إلى الإسكندرية في اليوم الأخير من صفر سنة ٧٠٩ هـ ويقال : إن الغرض من توجيهه إلى هذه المدينة الجديدة التي كانت تعتبر مركز التصوف والصوفية القديم ، أن يتصدى له بعض من يغتاله ، وتنجو الدولة من هذا الصداع المتكرر من غير اتهام أو سوء سمعة .

ولكن سرعان ما اجتمع لديه حلقة من تلاميذه والمعجبين به ، وتزايد إقبال العامة عليه ، فلم يؤثر الصمت والتعطيل ، على الكلام والعمل ، وشغله نشر تعاليم الكتاب والسنة ، والرد على البدع والمنكرات عن كل شيء ، وبدأ الناس يحبونه ويكرمونه حتى أحرز قبولاً عاماً بينهم ، يقول شقيقه شرف الدين بن تيمية الذي كان رفيقه ومشاركه في الحبس في

(١) اقرأ التفاصيل في البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤٦ .

رسالة بعث بها إلى أهل دمشق :

وانقلب أهل الثغر أجمعون إلى الأخ مقبلين عليه مكرمين له ، وفي كل وقت ينشر من كتاب الله وسنة رسوله ما تقر به عين المؤمنين ، وذلك شجى في حلوق الأعداء . . . واستقر عند عامة المؤمنين وخواصهم من أمير وقاض وفقه ومفت وشيخ وجماعة المجتهدين إلا من شذ من الأغمار الجهال مع الذلة والصغار ، محبة الشيخ وتعظيمه وقبول كلامه والرجوع إلى أمره ونهيه<sup>(١)</sup> .

ووجد بالاسكندرية في ذلك الحين غلبة لأفكار فرق السبعينية ووحدة الوجود ، وكان هناك بعض دعائها المتحمسين ، حتى نالت هذه الأفكار قبولاً في أوساط العامة أيضاً ، فكان لها تأثير سيء في أخلاقهم وأعمالهم ، وأنتجت فيهم انطلاقة في أمور الشريعة وحرية فيها ، فقاوم ابن تيمية هذا الاتجاه بشدة وحماس ورد أفكار هؤلاء الدعاة ومزق كلمتهم ، فشتت جمعهم ، وفرق شملهم ، وذلك في فترة إقامته فيها التي لا تتجاوز ثمانية أشهر ، وأعرض عنهم العامة والخاصة واستتاب جماعة كثيرة منهم وتاب رئيس من رؤسائهم كبير . وكان مقر ابن تيمية في الاسكندرية متسعاً نظيفاً مليحاً ، له شباكان أحدهما إلى جهة البحر والآخر إلى جهة المدينة ، وكان يدخل عليه من شاء ويتردد إليه الأكابر والأعيان والفقهاء ، يقرأون عليه ويستفيدون منه<sup>(٢)</sup> .

### انقراض أمر ركن الدين الجاشنكير :

كان الشيخ ابن تيمية يتنبأ أحياناً عن نهاية أيام الجاشنكير وشيخه نصر المنبجى ويقول : « زالت أيامه ، وانتهت رئاسته ، وقرب انقضاء أجله ، وما كان قد مر على حكمه عام واحد إذ قرر السلطان ناصر بن قلاوون العودة إلى الحكم ، فتوجه إلى دمشق في ١٣ / من شعبان سنة ٧٠٩ هـ واستقبله أهل دمشق الذين كانوا يحبونه بحماس بالغ ، ودخل في دمشق في ١٧ / من شعبان في أبهة عظيمة ، وتوجه من دمشق إلى مصر حيث أعد أهلها إعدادات كبيرة لاستقباله ، ولما رأى ركن الدين الجاشنكير أن الأحوال تنقلب ، استقال عن الحكم ، ودخل ركب السلطان في مصر ، وفي ٧ / من ذي القعدة قبض عليه الأمير سيف الدين نائب الشام وقتل في مصر .

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥٠ .

والمؤرخون متفقون على أن الجاشنكير كان مقبولاً لدى الناس أيام نيابته كما كان راجح الجانب ، ذا هبة ووقار ، وقد بدأت سلطنته المستقلة وخذلانه في وقت واحد ، فقد انتهت هيئته ، وزال نجمه الطالع منذ اعلانه بالسلطنة ، وابتدأ زوال دولته ، وظل يتفاقم أمره فساداً وحكمه اضطراباً ، تحدث عنه مؤرخ مصر الكبير المقریزی فقال :

« وكان رحمه الله خيراً عفيفاً كثير الحياء وافر الرحمة ، جليل القدر مهاب السطوة ، في أيام إمارته فلما تلقب بالسلطنة ورسم باسم الملك اتضح قدره واستضعف جانبه وطمع فيه وتغلب عليه الأمراء والمماليك ، ولم تنجح مقاصده ولا سعد في شيء من تدبيره إلى أن انقضت أيامه وأناخ به حمامه » (١) .

ولا عجب أن يكون انقراض دولة الجاشنكير من غير أسباب مسبقة نتيجة ايدائه لرجل مخلص كير ومعارضته له ، وتفسيراً لما قاله الشاعر الفارسي ، ومعناه :

« كم جربنا في عالم المكافأة أن من حارب عبداً مخلصاً لله تعالى تفانى في دعوته وهجر فيها راحته ولذته انطمس وقضى عليه بالزوال » .

### الافراج عن ابن تيمية ، والحفاوة الملكية :

يقول الشيخ علم الدين البرزالي معاصر الشيخ ابن تيمية : ان السلطان لما دخل إلى مصر يوم العيد لم يكن له هم إلا أن يفرج عن ابن تيمية ، ويؤتى به مصر معزراً مكرماً مبجلاً ، فوجه إليه في الثاني من شوال ٧٠٩ هـ يطلبه إلى مصر ، في ٨ / من شوال ، وودعه خلق كثير في اجلال كبير واحتفاء بالغ .

ولما وصل ابن تيمية إلى البلاط الملكي مشى إليه السلطان خطوات واستقبله في مجلس حافل فيه كبار علماء مصر والشام وقضااتها ، يتحدث عن هذا القدوم واستقبال السلطان اياه القاضي جمال الدين بن القلانسي قاضي الجيش الذي كان حاضراً في المجلس يوم ذاك ، وشاهد الأمور نفسه ، يقول :

« ان السلطان لما قدم عليه الشيخ تقي الدين بن تيمية نهض قائماً للشيخ أول ما رآه ومشى له إلى طرف الايوان واعتنقا هناك هنيهة ، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستان فجلسا ساعة يتحدثان ، ثم جاء ويد الشيخ في يد السلطان ، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضي مصر ، وعن يساره ابن الخليلي الوزير ، وتحتة ابن صصرى ،

(١) خطط مصر ج ٢ ص ٤١٨ .

ثم صدر الدين على الحنفى ، وجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية بين يدي السلطان على طرف طراحته ، وتكلم الوزير فى اعادة اهل الذمة الى لبس العمائم البيض بالعلامم (١) ، وأنهم قد التزموا الديوان بسبعمائة ألف فى كل سنة زيادة على الحالية ، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من اهل مصر والشام من جملتهم ابن الزملكانى قال ابن القلانسى : وأنا فى مجلس السلطان الى جنب ابن الزملكانى ، فلم يتكلم أحد من العلماء ولا من القضاة ، فقال لهم السلطان :

ما تقولون ؟ يستفتيهم فى ذلك ، فلم يجب أحد فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيه وتكلم مع السلطان فى ذلك بكلام غليظ ورد على الوزير ما قاله رداً عنيفاً ، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويسكته برفق وتؤدة وتوقير ، وبالغ الشيخ فى الكلام وقال ما لا يستطيع أحد أن يقول بمثله ، ولا بقريب منه ، وبالغ فى التشنيع على من يوافق فى ذلك ، وقال للسلطان : حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته فى أبهة الملك تنصر فيه اهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية ، فاذاكر نعمة الله عليك إذ رد ملكك إليك ، وكبت عدوك ونصرك على أعدائك فذكر أن الجاشنكير هو الذى جدد عليهم ذلك ، فقال : والذى فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنه إنما كان نائباً لك ، فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك (٢) .

### اتباع سنة يوسف عليه السلام فى مصر :

يقول ابن القلانسى : ان ابن تيمية حدثه قال : ان السلطان استفتاه فى قتل بعض القضاة سبب ما كانوا تكلموا فيه ، وأخرج فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشنكير وأنهم قاموا عليك وأذوك أنت أيضاً ، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه فى قتل بعضهم ، ففهمت

---

(١) توصل علماء الإسلام فى ضوء بعض التجارب الماضية الى أنه لا بد من وجود علامم فى لباس الرعية غير المسلمة فى المملكة الإسلامية ، فقد بقى فى مصر والشام بعد الحروب الصليبية عدد لا بأس به من المسيحيين الذين كانوا قد قدموا من الخارج ، ويعملون كجواسيس للأجانب تطوعاً ، كما أنهم كانوا يتشرون عدوى تقاليدهم فى المجتمع المسلم ، وكتب ابن كثير فى أحداث ٧٢١ . « وقع حربى عظيم فى ٦ جمادى الأولى فى القاهرة فى الدور الحسنة والأماكن المحلية المرتفعة وبعض المساجد وحصل للناس مشقة عظيمة من ذلك ، وقتوا فى الصلوات ثم كشفوا عن القضية فاذا هو من قبل النصارى . . . فقتل السلطان بعضهم وألزم النصارى أن يلبسوا الزرقاء على رؤوسهم وثيابهم كله » ، ولما عاد السلطان ناصر حاول النصارى أن ينسخ هذا القانون .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥٤ .

قصده بذلك فأخذت في تعظيم أولئك العلماء والقضاة ، وأنكر أن ينال أحداً منهم بسراً ، وقال له : إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم ، فقال : إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً ، فقلت له : من آذاني فهو في حل ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسي وما زلت به حتى حل عنهم السلطان وصفح .

ويقول ابن كثير : « كان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية ، حرصنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا »<sup>(١)</sup>.

ثم أن الشيخ بعد اجتماعه بالسلطان نزل إلى القاهرة وعاد إلى بث العلم ونشره وأقبلت الخلق عليه ورحلوا إليه يشتغلون عليه ويستفتونه ويجيبهم بالكتابة والقول ، وجاء الفقهاء يعتذرون مما وقع منهم في حقه ، فقال : قد جعلت الكل في حل . ولما اطمأن الشيخ واستقرت به الحال بعث كتاباً إلى أهله يذكر فيه ما هو فيه من نعم الله ويطلب منهم جملة من كتب العلم .

ولما رأى خصوم ابن تيمية أن مكانته ارتفعت وصفت حياته أكثر من ذي قبل وعجزوا عن تحريض الناس عليه في مسألة علمية اتجهوا إلى العامة يحرضونهم ، ولقد كان تحريضهم عليه في مصر حيث لم يكن الناس عارفين بمكانته أسهل شئ ، فحدث في الرابع من رجب سنة ٧١١ هـ أنه انفرد به جماعة بتحريض خصومه ، فامتدت أيديهم الأثيمة إليه بالضرب ، ولكن سكان الحسينية ( حيث رأس سيدنا الحسين مدفون كما هو المشهور لدى العامة ) تجمعوا ليثاروا للشيخ فردهم ولم يأذن لهم بذلك وقال لهم :

« إما أن يكون الحق لى أو لكم أو لله ، فان كان الحق لى فهم فى حل منه ، وان كان لكم فان لم تسمعوا منى ولم تستفتونى فافعلوا ما شئتم ، وان كان الحق لله فالله يأخذ حقه إن شاء الله » .

وفى أثناء هذه المناقشة حضر وقت العصر فذهب ليصلى فى الجامع ، فنهوه عن ذلك حتى لا يؤذى ثانية ، فلم يلتفت إلى قولهم ، ومضى إلى المسجد ، وتبعته جماعة كبيرة من الغاضبين له .

وحدث له بعد ذلك أن أساء إليه بعض الفقهاء بالقول ، ثم اعتذر إليه ، ولعله اعتذر خوفاً من بطش السلطان أو الناس ، ولكن الشيخ على أى حال عفا وقال لا أنتصر

(١) أيضاً .



لنفسى (١).

ولم يكتف الشيخ ابن تيمية خلال اقامته في مصر بالبحث والتدريس ونشر الكتاب والسنة بل انتهر فرصة اتصاله بالسلطان ، فأشار عليه في بعض الأمور وأصدر منه بعض الأوامر مما كان له تأثير حسن وفائدة كبيرة ، يقول ابن كثير :

« وفيها ( سنة ٧١٢ هـ ) قدم كتاب من السلطان إلى دمشق أن لا يولى أحد مجال ولا برشوة فان ذلك يفضى إلى ولاية من لا يستحق الولاية وإلى ولاية غير الأهل ، وكان سبب ذلك الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله ، وكذلك جاء كتاب السلطان أن من قتل لا يجنى أحد عليه بل يتبع القاتل حتى يقتص منه بحكم الشرع الشريف وكان سببه ابن تيمية أيضاً .

### العودة إلى دمشق :

وفي شوال سنة ٧١٢ هـ كانت الأخبار تتوارد عن عزم التتر على الهجوم ، وأخيراً قضى السلطان بخروجه عن مصر ومقاومتهم بنفسه ، وفي ثامن شوال توجه إلى دمشق ودخل فيها في ٢٣ من شوال ، وكان ابن تيمية يصحب السلطان في هذه الرحلة وكان يعود فيها إلى وطنه الحبيب بعد سبع سنين كوامل ، فاستقبله الناس بحماس زائد وابدوا سرورهم بقدومه ، وقد خرج عدد كثير من النساء - فضلاً عن - الرجال لرؤيته ، وكانت رحلته هذه بنية الجهاد ، ولكنه علم بعد مقدمه إلى دمشق أن التتر عادوا راجعين ، فنوى الشيخ زيارة بيت المقدس من دمشق ، وبعد ما مكث هناك مدة من الزمان عاد إلى دمشق زائراً بعض البلدان الأخرى ، وانهمك في عمله وعكف عليه كامل العكوف .

### شغل شيخ الإسلام بالأحكام الفقهية :

ولو أن الشيخ ابن تيمية بعد رجوعه إلى دمشق في هذه المرة كان قد عاد إلى وظيفته القديمة من الأشغال العلمية والدينية والتربوية ، وبدأ بالتدريس والافتاء والتأليف كما هي عادته ، غير أنه أنصرف في هذه المرة إلى دراسة الأحكام الفقهية وفروعها بوجه خاص بينما كانت العقائد والأصول والمسائل الكلامية مجاله الأول ، تلك التي كانت موضع خلاف بين الأشاعرة والحنابلة .

ويبدو أن الشيخ أدرك أن الموضوع الأول قد أشبعه وفرة معلومات ودلائل ، وأن الحق

(١) ابن تيمية محمد أبو زهرة ص ٧٤ .

اتضح كالشمس في رابعة النهار بمواعظه ودروسه وتأليفاته ، فلا بد من الالتفات إلى جانب مهم آخر ، حيث يمكن استخدام خصائصه العلمية رمواً به الطبيعية ، وهو الفقه الإسلامي من غير شك .

لقد كانت أسرة ابن تيمية متمسكة بالمذهب الحنبلي ، ولذلك فإن معظم فتاويه تبتنى على المذهب الحنبلي<sup>(١)</sup> ، إلا أنه لم يتقيد بالمذهب الحنبلي مائة في المائة ، إذ كان من الصعب جداً أن يفعل ذلك بعد ما أوسع الله اطلاعاً على ذخائر الكتاب والسنة ، واستحضاراً بالمذاهب الفقهية وأصولها ودلائلها ، فكان يرجح بعض الأحيان المذهب الذي يراه أقوى دليلاً من الكتاب والسنة ، أقرب إليهما بالنسبة إلى المذاهب الأخرى ، ويجد أنه ينال تأييد الجمع الكبير من الصحابة والتابعين .

إن شيخ الإسلام كان شديد الاعتراف بعلو مكانة الأئمة الأربعة ، وحسن اجتهادهم ودينهم وورعهم وتفوقهم العلمي ، على تبحره في العلم وقوة استنباطه واستقلال فكره ، كان يعتبرهم طلاب الحق ، ومتبعي السنة وراسخي العلم ، الذين كان مصدر اجتهادهم الكتاب والسنة ونصوصهما والاجماع والقياس الشرعي ، وقد كانوا في ذلك متبعين لا مبتدعين ، ولذلك فقد كان ابن تيمية يكره الذي يتناول هؤلاء الأئمة الأعلام بالنقد والطعن ، وقد ركز عنايته بالاشادة بذكرهم والانتصار لهم ، والحد من السنة المعترضين المنتقدين فألف رسالته الشهيرة « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » التي تعتبر من أحسن ما ألف في هذا الموضوع ، إنه يقول في فاتحة الرسالة :

« يجب على المسلمين بعد موالاته الله ورسوله ، موالاته المؤمنين كما نطق به القرآن وخصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرائتهم إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم خلفاء الرسول في أمته والمحيون لما مات من سنته ، بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا .

وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يعتمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنة دقيق ولا جليل ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ﷺ وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، وإذا وجد

(١) انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١-٢-٣-٤-٥ .

لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح خلافه فلا بد له من عذر في تركه ، وجميع الأعدار ثلاثة أصناف ( أحدها ) عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله ( والثاني ) عدم اعتقاده ارادة تلك المسألة بذلك القول ( الثالث ) اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

### مسألة الطلقات الثلاث :

وعلى ذلك كله ، فانه كما رجح المذاهب الأخرى على المذهب الحنبلي وخرج عن نطاقه بعض الحين خالف الأئمة الأربعة كذلك في بعض المسائل أحياناً ، وأفتى مخالفاً لهم واتبع فيها نصوص الكتاب والسنة ودلائلها ، ولكن هذه المسائل التي خالف الأئمة الأربعة فيها لا تعدو عدة مسائل ولكن أشهرها مسألة الطلقات الثلاث في مجلس واحد .

مسألة : إذا طلق أحد زوجته ثلاث طلقات في مجلس واحد ( سواء بلفظ واحد أو بالفاظ متعددة ) فمهما ارتكب المطلق بدعة باتفاق الأئمة وجمهور الأمة وخالف الشرع وأثم ، ولكن ما حكم هذه الطلقات ؟ هل وقعت وبانت المرأة واستحالت الرجعة بحكم الشريعة ما لم تتزوج رجلاً آخر يتمتع بها ويطلقها ؟ أو أن هذه الطلقات الثلاث تعتبر واحدة وتمكن الرجعة ، فمذهب الأئمة الأربعة ومذهب الفقه والحديث ( الأوزاعي والنخعي والثوري وإسحاق بن راهوية وأبي ثور والبخاري ) وجمهور الصحابة والتابعين أن هذه الطلقات تقع من غير أن المطلق ارتكب بفعله هذا بدعة ومعصية ، يقول الامام النووي في شرح مسلم :

« وقد اختلف العلماء فيمن قال لامرأته ، أنت طالق ثلاثاً ، فقال الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد وجماهير العلماء من السلف والخلف يقع الثلاث » .

ويقول العلامة ابن رشد في « بداية المجتهد » : « جمهور فقهاء الأمصار على أن الطلاق بلفظ الثلاث حكمه حكم الطلقة الثالثة » ، كما يقول العلامة ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية في كتابه « زاد المعاد » : « وهذا قول الأئمة الأربعة وجمهور التابعين وكثير من الصحابة » .

إن أقوال هؤلاء الأعلام تستند إلى عدة أحاديث مرفوعة تثبت أن النبي ﷺ اعتبر هذه الطلقات الثلاث ، أو أكثر ، ثلاث طلقات وأفتى بينونة المرأة<sup>(١)</sup> .

(١) تكلم الفريق الثاني في اسناد ومتون هذه الأحاديث ، ولكن الفريق الأول رد على ذلك في أسلوب المحدثين .

أما مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية وبعض أصحابه وتلاميذه فهو أن هذه الطلقات الثلاث إنما تعتبر واحدة ، ويمكن معها الرجعة مثلما يمكن الرجل أن يرجع إلى زوجته التي طلقها واحدة ، انه يقول : « وهذا القول منقول عن طائفة من السلف من أصحاب رسول الله ﷺ مثل الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ، ويروى عن علي وعن ابن مسعود وابن عباس ، وهو قول داؤد وأكثر أصحابه ، ويروى عن أبي جعفر محمد الباقر بن علي ابن حسين وابنه جعفر الصادق ، ولهذا ذهب إلى ذلك من ذهب من الشيعة (١) .

ويستدل شيخ الإسلام لتأييد مذهبه وإثباته بالقرآن والسنة والقياس (٢) .

وفي الحقيقة أن شيخ الإسلام كان السبب في ظهور هذه المسألة واشتهارها واليه يرجع الفضل في ذلك ، سواء تفرد هو بذلك أم كان من السلف من يرى فيها هذا الرأي ، انه هو الذي حمل رايته ، ولما أبدى رأيه وتحقيقه فيها أثار ذلك استغراباً واضطراباً في الأوساط الفقهية .

### مسألة الحلف بالطلاق واعتقاله :

وعلى كل فان مسألة الطلقات الثلاث إنما كانت مسألة فقهية خالصة تختص بحياة الرجل المنزلية ، وكانت تؤثر على حياة أسرة واحدة ، ولكن المسألة الثانية التي خالف فيها المذاهب الأربعة والمذهب المشهور ، والتي كان يتعدى تأثيرها إلى المعاملات والساسة ، وعلاقات الدولة والرعية كانت مسألة الحلف بالطلاق .

وقد كان الحلف بالطلاق عاماً بين الناس في ذلك الحين ، إذ كانوا يستندون إلى الحلف بالطلاق للتأكيد على كلام أو ابداء عزم أو صدق من غير تردد ولا تكلف ، فمثلاً كانوا يقولون « على الطلاق لأفعلن كذا » « على الطلاق لأمتنعن عن كذا » « على الطلاق لتفعلن كذا » « على الطلاق اشتريتها بكذا » كان ابن تيمية يرى أن هذا الأسلوب من القسم أو التأكيد ولكن الناس إنما يطلقون كلمة الطلاق لزيادة التأكيد واليقين ، من غير أن يريدوا بها الطلاق في أي حال ، ولذلك فان هذا نوع من القسم ، ولكنه ينفذ عليه أحكام الطلاق من أجل اعتبارهم ذلك الطلاق بالتعليق ، وذلك ما يسبب خراب مئآت من الأسر والبيوتات ، واضطراب الحل في الحياة المنزلية .

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٣ ص ٦٢ .

(٢) وللاطلاع على البحث والاستدلال بتفصيل راجع « زاد المعاد » للحافظ ابن قسيم مبحث ( من طلق ثلاثاً بكلمة واحدة ) ج ٤ ، و « اغائة اللهفان » .

وقد أدخلت في صيغة البيعة كلمة الطلاق لتثبيت البيعة وتأكيد لها منذ عهد الحجاج بن يوسف حتى أن هذه الكلمات صارت كجزء للبيعة وذلك كأن يقول : « لو أننى خرجت عن بيعة فلان فزوجتى طالق » .

تأمل ابن تيمية في هذه المسألة وبدأ يفتى بأن هذا نوع من الحلف ، وأن القائل يحنث إذا خالف قوله وعمل خلافه ، وتلزم عليه كفارة اليمين من غير أن يقع الطلاق .

ولو أن ابن تيمية قدم أقوال بعض من الأئمة الأربعة وأصحابهم لتأييد فتواه<sup>(١)</sup> ، ولكن الحقيقة أن هذه الفتوى إنما كانت تعارض القول المشهور والمفتى به لهذه المذاهب ، وكان يبدو ذلك تحقيقاً جديداً واجتهاداً صريحاً ، ولذلك فإنها أثارت اضطراباً عاماً ، ورأى العلماء والقضاة أن يمنعوه عن هذه الفتوى لكيلا يشتد الاضطراب ، يقول ابن كثير ضمن أحداث عام ٧١٨ هـ .

« وفي يوم الخميس منتصف ربيع الأول اجتمع قاضى القضاة شمس الدين بن مسلم بالشيخ الامام العلامة تقي الدين بن تيمية ، وأشار عليه فى ترك الافتاء فى مسألة الحلف بالطلاق ، فقبل الشيخ نصيحته ، وأجاب إلى ما أشار به رعاية لخاطره وخواطر الجماعة المفتين ، ثم ورد البريد فى مستهل جمادى الأولى بكتاب من السلطان فيه منع الشيخ تقي الدين من الافتاء فى مسألة الحلف بالطلاق ، وانعقد ذلك مجلس ، وانفصل الحال على ما رسم به السلطان ، ونودى به فى البلد ، وكان قبل قدوم المرسوم قد اجتمع بالقاضى ابن مسلم الحنبلى جماعة من المفتين الكبار وقالوا له أن ينصح الشيخ فى ترك الافتاء فى مسألة الطلاق فعلم الشيخ نصيحته وأنه إنما قصد بذلك ترك ثوران فتنة وشر<sup>(٢)</sup> .

ويبدو أنه بعد صدور المرسوم ازداد ثقة وطمأنينة فى هذه المسألة وبدأ يفتى فيها حسب ما تحقق له من غير أن يبالي بأى منع من قبل الحكومة ظناً منه أن الحكومة ليس لها حق التدخل فى هذه المسألة ، ولا يجوز لأى عالم أن يخفى عقيدته وعلمه خوفاً من الحكومة ، يتحدث ابن كثير فى أحداث عام ٧٢٠ هـ فيقول :

« وفى يوم الخميس ثانى عشرين رجب عقد مجلس بدار السعاة للشيخ تقي الدين بن تيمية بحضرة نائب السلطنة ، وحضر فيه القضاة والمفتون من المذاهب ، وحضر الشيخ وعاتبوه على العودة إلى الافتاء بمسألة الطلاق ، ثم حبس فى القلعة<sup>(٣)</sup> . ولكن مدة الحبس

(١) راجع كتاب ابن تيمية للشيخ محمد أبى زهرة ، مبحث الحلف بالطلاق ص ٤٣٦-٤٣٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٨٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٨٧ .

هذه لم تطل كثيراً ، وورد مرسوم من السلطان من مصر باخراجه يوم الاثنين يوم عاشوراء من عام ٧٢١ هـ بعد ما مكث فيه خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً .

### اعتقاله الأخير :

اشتغل ابن تيمية من عام ٧٢١ هـ إلى ٧٢٦ هـ خمس سنين بالتدريس والافتاء والتأليف والوعظ بكل حرية وانهماك بالغ ، فكثيراً ما كان يدرس خلال هذه المدة في المدرسة الحنبلية أو مدرسته الخاصة به الواقعة في القصاصين كما أنه أعاد النظر خلال ذلك في مؤلفاته ورسائله القديمة ، وقام بتأليفات جديدة .

ولعله كان يتمكن من انجاز أعمال مفيدة جداً في هذه المدة ، واخراج مؤلفات كبيرة القيمة في موضوعات مهمة ، غير أن تفوقه العلمي وتفردته في بعض المسائل سبب له ولعاصريه امتحانا يدفع ثمنه وغرامته بين فينة وأخرى ، وعلى ذلك ما كان ييسر له الهدوء إلى مدة طويلة فما كاد يمضي إلا مدة قليلة إذا عرضت مسألة أخرى كانت موضع بحث وجدال بين الخاصة والعامة على السواء ، وهي لم تكن مسألة فقهية خالصة كمسألة الطلاق، بل كانت تحتوى على العنصر العاطفي وتكفي لاثارة الاضطراب في النفوس ، وهي مسألة زيارة قبر النبي ﷺ .

وقد كان ابن تيمية أفتى قبل سبعة عشر عاماً بأنه لا يجوز شد الرحال لزيارة القبور بما فيها قبر النبي ﷺ ، وذلك لأنه جاء في الحديث الشريف : « لا تشد الرحال الا إلى ثلاث مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » ، ثم أنه يفيض حسب عادته في بيان الحكم الشرعية في ذلك وما في خلاف ذلك من المضار والمفاسد ، إن كلامه يتلخص في أن الاهتمام الشديد بالسفر لزيارة القبور يفتح الأبواب والأعمال التي قد تفضي إلى الشرك ويعتقد كثير من الناس أن مثل هذه الزيارة عبادة وذريعة إلى التقرب إلى الله ، وعندما يفعلون ذلك يتعدون حدود الشريعة ، وينفلت منهم حبل التوحيد .

وقد كان النبي ﷺ شديد الاهتمام بحفظ قبره من العادات والتقاليد الجاهلية ، التي كانت شائعة منتشرة بين اليهود والنصارى حتى قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »<sup>(١)</sup> ، وابتهل إلى الله تعالى فقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »<sup>(٢)</sup> وقال أيضاً : « لا تتخذوا قبري

(١) البخارى ومسلم .

(٢) عن مالك مرسلأ ( مسند الامام أحمد ) .

عيداً ، وصلوا عليّ فان صلاتكم حينما كتتم تبلغني» (١) ولذلك لم يحب النبي ﷺ أن يدفن في الصحراء وإنما دفن في حجرة عائشة - رضى الله عنها - التي هي مكان حريز وذلك لكي يسان قبره من جميع هذه الأخطار ، ولا يسمح للناس بالرحيل إليه وزيارته أفواجاً الا الذي يأتي إلى المسجد النبوي للصلاة فيه يزور القبر الشريف بالطريق المسنون ، ويصلى ويسلم على النبي ﷺ كما كان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم يفعلون (٢) .

لقد أخرجت هذه الفتوى بعد سبعة عشر عاماً بحكم عوامل عديدة وشهرت واتخذت ذريعة لإثارة عواطف المسلمين لما للنبي ﷺ من مكان قدسى في القلوب ، انهم رأوا فيها إساءة أدب إلى مكانة النبي ﷺ ، كما أن العلماء رأوها يتجلى فيها الاعتماد الزائد على رأى الشخصى ومعارضة لجمهور الأمة ، ولعل ذلك كان هو العامل الأقوى لمعارضتهم إياه .

وعلى كل حال فان هذا الخلاف قد نال من الأهمية والشهرة ما جعل الحكومة ( سواء على طلب من العلماء أو نزولاً على مصالح النظام ) تتدخل فيه ، وصدر المرسوم فى السابع من شعبان ٧٢٦ هـ بحبسه ، فرحب به الشيخ ترحيباً بالغاً وأبدى سروره على ذلك ، وقال فور ما علم بحبسه «أنا كنت منتظراً ذلك ، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة» ، ونقل الشيخ إلى قلعة دمشق حيث أخليت له قاعة ، وأجرى إليها الماء ، وأقام معه أخوه زين الدين بن تيمية يخدمه باذن السلطان وأجرى عليه ما يقوم بكفايته .

« وما أن اعتقل الشيخ حتى تكشف القلوب عن خبيثاتها ، وتوجه الأذى إلى تلاميذه وأوليائه ، فأمر قاضى القضاة بحبس جماعة من أصحابه ، وعزر جماعة منهم بركابهم على الدواب والمناداة عليهم ، وبعد ذلك أطلقوا من محابسهم ، ما عدا صفية وحامل اللواء من بعده شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فانه حبس بالقلعة » (٣) ، وظل معه فى

(١) سنن أبى داود .

(٢) ان قضية صيانة عقيدة التوحيد ، وسد ذرائع الشك والغلو فى التعظيم ، والتشبه بالأمم التى اتخذت قبور أنبيائها مساجد ، قضية مسلمة لا تقبل نقاشاً ، ويؤيدها كل من فهم روح الدين ، وتذوق الكتاب والسنة ، ولكن المنع عن زيارة القبر النبوى الشريف بتاتا والتشديد فى ذلك لا يخلو من شئ من المغالاة والتطرف ، وإنما كان ذلك نتيجة ذكاء ابن تيمية المتوقد ، وحسه المرهف ، الذى يمثل لصحبه أبعد الإمكانيات وأقبح الاحتمالات ، وذلك لا يغطى فضائله الكثيرة ومواقفه العظيمة فى خدمة الإسلام والمسلمين وبلوغه درجة الامامة فى علوم الدين ، ولم يكن يستحق بذلك ما لقيه من نكران وجفاء ، وبقاء فى الحبس إلى أن يفارق الدنيا . ( المؤلف ) .

(٣) ابن تيمية محمد أبو زهرة ص ٨٤ .

الحبس وما أفرج عنه الا بعد وفاته .

## تأسف أهل العلم والدين واحتجاجهم :

إذا كان اعتقال شيخ الإسلام ابن تيمية موضع سرور عند شرذمة قليلة من الحساد والمناوئين فلقد كان مبعث ألم عميق عند جماعة كبيرة من أهل العلم والمسلمين والمخلصين الذين اعتبروه انتصاراً للبدعة على السنة ، وذلة للحق وأهله ، ولقد بعث أهل العلم والدين من أنحاء المملكة المختلفة إلى السلطان الناصر بمصر كتاباً يصورون فيه النازلة التي نزلت بالإسلام والمسلمين ، ويحسن بي أن أنقل إلى القارئ الكريم كتاباً بعثه علماء بغداد إلى السلطان ، وحسبنا أن نقدر بذلك أن دعوة الشيخ وشهرته كانت قد انتشرت في جميع الأقطار الإسلامية ، وأن أهل الحق جميعاً إنما كانوا يحبونه ويعجبون به ، يقول علماء بغداد :

« لما قرأ أهل البلاد الشرقية والنواحي العراقية التضييق على شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية سلمه الله ، عظم ذلك على المسلمين وشق على ذوى الدين وارتفعت رؤوس الملحددين وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين ، لما رأى علماء أهل هذه الناحية عظم هذه النازلة من شماتة أهل البدع وأهل الأهواء بأكابر الفضلاء وأئمة العلماء أنهاوا حال هذا الأمر الفظيع والأمر الشنيع إلى الحضرة الشريفة السلطانية زادها الله شرفاً وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجاب به الشيخ سلمه الله في فتاواه وذكروا من علمه وفضائله بعض ما هو فيه وحملوا ذلك بين يدي مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره غيرة منهم على هذا الدين ونصيحة للإسلام وأمراء المؤمنين » (١) .

وهذا الكتاب يدل على أمرين : ( أحدهما ) وهو العمدة أن ذلك العالم الجليل قد عمت دعوته إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة البقاع الإسلامية ، ولم تعد أراؤه ومناهجه مقصورة على أهل الشام ، بل تجاوزتها إلى البقاع الإسلامية كلها وفوق ذلك لم تعد مقصورة على الحنابلة ، بل تحمس لها المالكية والحنفية والشافعية مما يثبت أنه لم يعد نصيراً لمذهب معين من مذاهب الإسلام بل نصيراً للإسلام في لبه وصميمه .

( الأمر الثانى ) أن أهل الأهواء قد أظهروا الشماتة والعداوة وأبدوا صفحتهم بعد أن كانوا قد أخفوها ، وكانوا مستورين غير مكشوفين ، إذا كان أول متهم بجريمة هو المنتفع

(١) العقود الدرية ص ٣٥٠ - والكواكب الدرية ص ١٩٨ .



منها فلا بد أن أولئك الذين والوا دسهم على الشيخ ، وكانوا يتظاهرون بالمذاهب السنية ليخدعوا الأمراء والقضاة ولما تمت الخديعة ظهرت شماتهم للعيان وبدت ظاهرة غير مستورة .

### أشغال الشيخ في القلعة :

تمتع الشيخ بنعمة الهدوء والخلوة في القلعة بعد مدة طويلة ولعله كان قد أشار إلى ذلك بقوله : ( فيه خير كثير ، ومصلحة كبيرة ) أنه قدر فرصة الخلوة والانقطاع هذه حق قدرها وأقبل على العبادة والتلاوة بكل رغبة وانهماك ، فاذا توفر له بعض الوقت من هذه الأعمال شغله بالمطالعة والتأليف ، وتنقيح كتبه ، الأمر الذي كان يُعد عبادة من العبادات وطاعة من الطاعات التي يتقرب بها إلى الله ، غير أنه كان لتلاوة القرآن قسط أكبر ونصيب أوفر من أوقاته وأشغاله ، إذ أنه ختم القرآن مع أخيه الشيخ زين الدين بن تيمية خلال الفترة التي نضاهها في هذا المحبس ( وهى سنتان ) ثمانين ختمة .

وجل ما ألفه في ذلك المحبس كان يتصل بالتفسير ، ولعل اكثاره من تلاوة القرآن والتدبر فيه كان السبب في ذلك ، كما أنه ألف الرسائل ورد على بعض المسائل ، وكان جيب على كل ما يرد إليه من الخارج من الأسئلة العلمية والاستفتاءات الفقهية ، وهكذا ند كان مستمراً في جميع أعماله وأشغاله سوى المواعظ والدروس العامة ، أضف إلى ذلك ثمرة التلاوة والعبادة .

### لقيود الجديدة وحرمانه أدوات الكتابة والدراسة :

كان الناس يتلقفون كل ما كان يكتبه الشيخ في المحبس ويصل من أقصى البلاد إلى صاها . ومن بين ما كتبه الشيخ من الرسائل والمسائل في حبسه رسالة في موضوع مسألة زيارة رداً على أحد قضاة المذهب المالكي في مصر القاضى عبد الله بن الأحنائي<sup>(١)</sup> ، بت فيها أن القاضى المذكور رجل قليل البضاعة فى العلم فاشتكى القاضى من ذلك إلى سلطان وأبدى سخطه واستنكاره فأصدر السلطان مرسوماً يصرح بمصادرة جميع ما عند شيخ من أدوات الكتابة والكتب ، حتى لا يبقى عنده ما يستعين به فى التأليف والكتابة .

وفى ٩ جمادى الآخرة سنة ٧٢٨ هـ نفذ المرسوم وصودرت جميع أدوات الكتابة لدراسة من الشيخ باسم الحكومة ، وفى غرة رجب أرسلت جميع مسوداته وأوراقه من

(١) اقرأ « الرسالة الاخنائية » طبع مصر .

المحبس إلى المكتبة « العادية »<sup>(١)</sup> الكبرى وكان ذلك نحو ستين مجلداً من الكتب وأربع عشرة ربطة كراريس التي كان يشتغل بها دراسة وتأليفاً .

### الكتابة والتأليف بالفحم :

ولكن الشيخ لم يفزعه كل ذلك ، وما أبدى شكاة منه للحكومة ، ولما منع من الكتابة وأخذ منه القلم والدواة بدأ يكتب بالفحم على أوراق مبعثرة هنا وهناك ، ووجدت له عدة رسائل وكتابات مكتوبة بالفحم ، وظلت محفوظة في هذه الحالة ، أنه في مثل هذا الاضطراب والعجز يبدو شاكراً وراضياً بقدر الله ، أنه يشعر بأنه سيحرز بهذه الأحوال فضيلة الجهاد وكأن الوضع لم يتغير مما كان عليه ، ويقول في رسالة له :

« نحن والله الحمد في عظيم الجهاد في سبيله ، بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان والجبليّة ، والجهمية والاتحادية ، وأمثال ذلك ، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

### الخضوع أمام قدر الله وعاطفة الحمد والشكر :

ويتجلى في رسالة أخرى الخضوع أمام قدر الله وعاطفة الرضا والشكر ، يقول :

( كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة ، ان ربي لطيف لما يشاء أنه هو القوى العزيز العليم الحكيم ، ولا يدخل على أحد ضرر الا من ذنوبه ، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائماً على كل حال ، ويستغفر من ذنوبه ، فالشكر يوجب المزيد من النعم ، والاستغفار يدفع النقم . ولا يقضى الله للمرء من قضاء الا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

انه في هذه الحال أيضاً متأكد من صحة مذهبه وبراءته ، ويعتقد أنه ليس عليه ذنب سوى أنه لم يخضع أمام السلطان في مسألة شرعية ، وظل قائماً على ما كان يراه حقاً ، ولكنه يعترف بجريمته ، ويعتبر ذلك مقتضى الإيمان والتوحيد ، يقول :

« غاية ما عندهم أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين ، والمخلوق كائناً من كان إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله لم يجب بل لا تجوز طاعته في مخالفة أمر الله ورسوله باتفاق المسلمين » .

(١) ابن تيمية ، محمد أبو زهرة .

## أيامه الأخيرة ووفاته :

يقول الشيخ زين الدين عبد الرحمن شقيق شيخ الإسلام :

أنه لما بدأ يقرأ القرآن بعدما أكمل ثمانين ختمة ووصل إلى قوله تعالى من سورة القمر : ﴿ إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ تركنى وأخذ في مداولة القرآن مع الشيخ عبد الله بن محب وعبد الله الزرعى ، وكانا في غاية من الصلاح والتقوى ، وأخوين شقيقين ، وذلك لأن الشيخ إنما كان معجباً بقراءتهما القرآن ، وما كادت تنتهي هذه المدارس حتى انتهت أيام حياته .

ولما بلغ نائب دمشق نبأ مرضه الأخير استأذن في الدخول عليه ليعوده فأذن له ، فلما جلس أخذ يعتذر ويلتمس منه أن يعفو عنه إذا كان قد وقع منه تقصير أو أذى في حقه ، فأجابه الشيخ :

« انى قد أحللتك وجميع من عادانى وهو لا يعلم أنى على الحق ، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه اياى ، لكونه فعل ذلك مقلداً معذوراً ولم يفعله لحظ نفسه ، وقد أحللت كل أحد مما بينى وبينه الا من كان عدواً لله ورسوله ﷺ .

دامت العلة مدة تقارب ثلاثة أسابيع ، واستمر به الحال حتى وافاه الأجل فى ليلة ٢٢ من شهر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ وارتحل من هذه الدنيا وقد بلغ من العمر ٦٧ سنة ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ .

ونعى الشيخ مؤذن القلعة على المنارة وتكلم بها الحراس على الأبرجة ، فما أصبح الناس الا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم وبادروا على الفور إلى القلعة من كل مكان أمكنهم المجئ منه ، وفتح باب القلعة واجتمع حشد عظيم من الخاصة والعامة يدخلون إليه أفواجاً ويزورونه ، ومنهم من كان يقبل رأسه وناصيته التى كانت تنصب على الأرض ساعات طوالاً أمام ربه .

وبدأ الناس يختمون القرآن قبل غسله ، وأذن للنساء بعد الرجال فزرنه ولم يبق عند الغسل الا من كان عليه أن يغسله .

## وصف الجنازة والتدفين :

وصلى عليه أولاً بالقلعة ، وتقدم فى الصلاة عليه أولاً الشيخ محمد بن تمام وأخرجت الجنازة بعد الصلاة وغصت الطرق كلها ما بين القلعة والمسجد بالناس حتى حضرت الجنازة فى الساعة الرابعة من النهار أو نحو ذلك ووضع فى الجامع ، والجند قد احتاطوا بها

يحفظونها من الناس من شدة الزحام ، وتزايد الزحام إلى حد لا يبلغ الاحصاء والتقدير ، وقد صاح بين هذا الزحام صائح يقول : « هكذا تكون جنازات أئمة السنة » الجملة التي هاجت الناس وأثارت أحزانهم وحماسهم فارتفعت الأصوات وعلا النشيج .

وصلى عليه عقب صلاة الظهر في الجامع الأموي وقد تضاعف اجتماع الناس إلى أن ضاقت الرحاب والأزقة والأسواق أهلها ومن فيها ، وأغلقت الأسواق والمتاجر والمطاعم ، وقد نوى كثير من الناس الصيام إذ كانوا في شغل شاغل عن الطعام والشراب .

ثم حمل بعد أن صلى عليه على الرؤوس والأصابع ، واشتد الزحام وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والترحم عليه والثناء والدعاء له ، وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم وثيابهم ، وفارقت النعال والقباقيب الأرجل والأقدام وسقطت المناديل والعمائم على الرؤوس والناس لا يلتفتون إليها لشغلهم بالنظر إلى الجنازة وصار النعش على الرؤوس تارة يتقدم وتارة يتأخر وتارة يقف حتى تمر الناس . . . . وعظم الأمر بسوق الخيل وتضاعف الخلق وكثر الناس ، ووضعت الجنازة هناك وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن ، وحمل إلى مقبرة الصوفية<sup>(١)</sup> حيث دفن إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله .

وكان دفنه قبل العصر بيسير ، وذلك من كثير من يأتي ويصلى عليه ، ولم يتخلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور ، ويحزر الرجال الذين حضروا الجنازة ما بين ستين ألفاً إلى مائة ألف ، عدا النساء ، يقدر عدد الحاضرات منهن خمسة عشر ألف امرأة ، عدا من كن على الأسطحة والغرف ولم يعهد مثل هذا الزحام في تاريخ دمشق ، ويمكن أن

---

(١) هي المقبرة الشهيرة التي هي مدفن كبار أهل العلم والصلاح كابن عساكر ، وابن الصلاح وابن الاثير ، وأبي الحجاج المزي ، والحافظ عماد الدين بن كثير وغيرهم ، وقد زالت آثارها وتقوم عليها الآن عمارات شامخة ، إلا أن قبر ابن تيمية لا يزال باقياً أمام قاعة الجامعة السورية وعمارة مستشفى الولادة ، وقد اتبحت لي زيارته في ١٠ شوال عام ١٣٧٠هـ ( ٢٨ يوليو سنة ١٩٥١م ) بصحبة علامة الشام الشيخ بهجة البيطار ، وقد حدثني الشيخ بأن هذه المقبرة درست من القبور في إحدى الليالي بمناسبة تأسيس عمارة في الجامعة السورية ، ولما انتشر الخبر في الصباح أرسل الرئيس شكري القوتلي إلى مدير الجامعة النصراني ، وقال له : لو أن قبر ابن تيمية اندرس ماذا عسى أن يكون جوابي لصديقي الملك عبد العزيز بن سعود إذا سألني عن هذا الحدث فإنه من محبي ابن تيمية وأنصاره ، وهناك أبقى قبر الشيخ ابن تيمية الذي لا يزال موجوداً حتى الآن . ( المؤلف ) .

يكون ذلك فى زمن بنى أمية حين كان الناس كثيرين وكانت دمشق دار الخلافة (١).

صلاة الغائب على ابن تيمية :

وصلى عليه صلاة الغائب فى معظم الأقطار الإسلامية حتى فى أقصى الجنوب والشرق  
بقول ابن رجب فى ذيل « طبقات الحنابلة » :

« وصلى عليه صلاة الغائب فى غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة حتى فى اليمن  
الصين ، وأخبر المسافرون أنه نودى بأقصى الصين للصلاة عليه يوم الجمعة وأعلن « الصلاة  
على ترجمان القرآن » .

---

كل هذه التفاصيل مما كتبه ابن كثير برواية الشيخ علم الدين البرزالي الذى كان من معاصري الامام  
ابن تيمية وزميل دراسته ، انظر البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٦-١٤٩ .



## مميزات ابن تيمية البارزة وخصائصه

### ذاكرته الموهوبة وذكائه النادر :

ان المكانة الاجتهادية فى العلوم الإسلامية التى أحرزها شيخ الإسلام ابن تيمية فى عصره وأن التأثير العميق الذى خلفه على أهل زمانه لامامته فى التفسير والحديث معاً ، وتبحره ونبوغه فى العلوم إنما كان الفضل الأكبر فى ذلك يرجع إلى ذاكرته النادرة وذكائه المفرط ، وكل ذلك نعمة أكرمها الله بها وموهبة اختصه بها ، وكانت العلوم الإسلامية قد توسعت فى عصره وتجمعت ذخيرة واسعة للعلوم النقلية بحيث لم يكن بإمكان أحد أن يحيط بها علماً ولا أن يتجراً على الكلام فى المسائل المختلفة فيها أمام معاصريه الكبار ولا كان يملك حق الاختلاف مع عالم متقدم فى أى مسألة ما لم يكن يتمتع بذاكرة نادرة وذكاء مفرط ، ولكن الذاكرة القوية وقوة الاستحضار التى كان قد أكرم الله بها ابن تيمية مكنته من الاحاطة بالذخائر الموجودة آنذاك من التفسير والحديث والفقهاء ، وعلم الخلاف والكلام والتاريخ والسير والآثار وعلم الرجال واللغة والنحو ، فقد درس ما تيسر له من الكتب والمواد العلمية وعتها ذاكرته القوية الأمانة ، واستعان بها فى حياته العلمية والتأليفية كما يستعين الجندي المحنك ذخائر كنيته .

كان معترفاً بذاكرته النادرة القوية وذكائه البارز . لدى معاصريه من العلماء وقد اتفق لعاصرون والمتأخرون كلهم على قوة حفظه وسرعة فهمه وشدة ذكائه ، يقول زميله فى لدراسة العلامة علم الدين البرزالي « قل ان سمع شيئاً الا حفظه ، وكان ذكياً كثيراً لحفظ (١) » ويقول الحافظ الذهبي الذى يعتبر من أئمة علم الرجال ومؤرخ الاسلام « ما أبت أشد استحضار للمتون وعزوها منه ، وكانت السنة بين عينيه وعلى طرف لسانه » (٢) .

ومن أكبر الشهادات على حفظه للمتون وقوة ذاكرته هو قول معاصريه فيه : « كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث » ولا يخفى أن حفظ ذخائر الحديث الواسعة إنما كان من الصعوبة بمكان ، ولكن الاعتماد على علمه وذاكرته وحدهما فى موضوع الحديث والحكم على أساس قوله لا يمكن ما لم يعترف بأنه أكبر حافظ للحديث فى عصره ، وأن قوة حفظه لا تخذله فى أى حال ولا مجال ، يقول الحافظ الذهبي : « يصدق عليه أن

(١) الرد الوافر ص ٦٦ .

(٢) القول الجلى ص ١٠١ .

يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث « (١) .

وحتى قال بعض معاصريه « لم يولد مثله منذ قرون » وهذا معاصره العلامة كمال الدين الزملكانى الذى كان خصمه فى مجلس المناظرة وكان بينه وبين ابن تيمية خلاف كبير فى كثير المسائل يشهد بصفته الموهوبه هذه فيقول :

« لم ير من خمسمائة سنة أو أربعمائة سنة - والشك من الناقل - أحفظ منه (٢) .

ويتحدث عن ذكائه المفرط الحافظ الذهبى فيقول : « كان يتوقد ذكاء » ، ويقول فى مكان آخر : « كان آية على الذكاء وسرعة الإدراك » (٣) .

### التبحر العلمى والجامعية :

لقد تبحر ابن تيمية فى العلوم الإسلامية والموضوعات السائدة فى زمانه وتمتع بصفة الجامعية فى هذه العلوم والفنون بفضل ذاكرته الموهوبة وذكائه النادر وذوقه العلمى الذى ورثه من آبائه ، ثم بجهوده البالغة والمشاق التى احتملها فى سبيل دراسته ، وبفضل التوفيق الإلهى قبل كل شئ بحيث أن معاصريه الكبار الذى كانوا يكبرونه فى السن وكانوا أساتذة الفن والذين انتهت اليهم رئاسة التدريس والافتاء وسلمت امامتهم فى العلوم الإسلامية قد قضوا من هذه الصفات عجباً ، وشهدوا أنه بحر العلوم ومكتبة الإسلام الناطقة ، وله فى كل فن براعة تدل على أنه صاحب اختصاص فى هذا الفن ، ولما سافر ابن تيمية إلى مصر فى عام ٧٠٠ هـ ولقى هناك العلامة ابن دقيق العيد أعجب به على ما كان يحتله من المكانة العالية فى علم الحديث ويعتبر أستاذ العلماء وكبيرهم ، وقد عبر العلامة عن اعجابه بابن تيمية فقال : « لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلا العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد » (٤) .

ويبدى عجبه من ابن تيمية زميله العلامة كمال الدين الزملكانى الذى كان عالماً متبحراً بنفسه فى كثير من الفنون فيقول : « كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرف مثله » (٥) .

(١) الكواكب الدرية ص ١٤٥ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٤٥ .

(٣) الرد الوافر ص ٢٩ .

(٤) الرد الوافر ص ٣١ .

(٥) أيضاً ص ٣٠ .



أما العلامة تقي الدين السبكي الذي هو خصمه الشهير ، وألف في الرد عليهم حول مسألة شد الرحال وفي بعض المسائل الفقهية كتباً مستقلة بذاتها ، وأبدى رأيه عنه في النظام أيضاً ، فانه بالرغم من ذلك كتب في رسالة له موجهة إلى المحافظ الذهبي :

« المملوك يتحقق كبير قدره ورخاوة بحره وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في كل ذلك المبلغ الذي لا يتجاوزه الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً<sup>(١)</sup> .

ان التاريخ لم يكن من اختصاص ابن تيمية ولم يتوفر على دراسته كتوفره على دراسة العلوم الدينية ولكن الذهبي الذي كان من مؤرخي الإسلام المتصرين في التاريخ والناقدين له يتحدث عن معرفته بالتاريخ فيقول : « ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب » .

وقد نقل تلميذه النابغة ابن قيم الجوزية حادثاً مدهشاً عن علمه التاريخ وسعة نظره وحضور ذهنه في كتابه « زاد المعاد » أنه يقول :

« ولما كان في بعض الدول التي خفيت فيها السنة وأعلامها أظهر طائفة منهم كتاباً قد عنقوه وزوروه ، وفيه أن النبي ﷺ أسقط عن يهود خيبر الجزية ، وفيه شهادة على بن أبي طالب وسعد بن معاذ وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، فراج ذلك على من جهل سنة رسول الله ﷺ ومغازيه وسيره وتوهموا بل ظنوا صحته ، فأجيزوا على حكم هذا الكتاب المزور حتى ألقى إلى شيخ الإسلام ابن تيمية ( قدس الله روحه ) وطلب منه أن يعين على تنفيذه والعمل عليه ، فبصق عليه واستدل على كذبه بعشرة أوجه :

منها أن فيه شهادة سعد بن معاذ وسعد توفى قبل خيبر .

ومنها أن في الكتب أنه أسقط عنهم الجزية ، والجزية لم تكن نزلت بعد ، ولا يعرفها الصحابة حينئذ فان نزولها كان عام تبوك بعد خيبر بثلاثة أعوام .

ومنها أنه أسقط عنهم الكلف والسخرية ، وهذا محال فلم يكن في زمانه كلف ولا سخر توجد منهم ولا من غيرهم ، وقد أعاده الله وأعاد أصحابه من أخذ الكلف والسخر ، وإنما هي من وضع المملوك الظلمة ، واستمر الأمر عليها .

ومنها أن هذا الكتاب لم يذكره أحد من أهل العلم على اختلاف أصنافهم فلم يذكره أحد من أهل المغازي والسير ، ولا أحد من أهل الحديث والسنة ، ولا أحد من أهل الفقه

(١) طبقات الشافعية الكبرى ( ترجمة العلامة تقي الدين السبكي ) .

والافتاء ، ولا أحد من أهل التفسير ، ولا أظهروه في زمان السلف لعلمهم أنهم ان زوروا مثل ذلك عرفوا كذبه وبطلانه (١) .

ويمكن تقدير ذكائه وتبحره العلمى بما حدثه أحد معاصريه الشيخ صالح تاج الدين ، أنه يقول :

« حضرت مجلس الشيخ رضى الله عنه وقد سأله يهودى عن مسألة فى القدر وقد نظمها شعراً فى ثمانية ، فلما وقف عليها فكر لحظة يسيرة ونشأ يكتب جوابها ، وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب نثراً ، فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه فاذا هو منظم من بحر أبيات السؤال وقافيتها ، تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتاً ، وقد أبدى فيها من العلوم ما لو شرح لبلغ مجلدين كبيرين » (٢) .

ولما رأى المعاصرون من العلماء والمتأخرون منهم تبخره فى العلوم وجمعه للصفات العالية والمميزات البارزة لم يلبثوا أن وصفوه بأسمى الصفات ، فاعتبروه نادرة الزمان ، امام المحققين ، آخر المجتهدين ، وآية من آيات الله ، حتى يقول ابن سيد الناس ( المتوفى عام ٧٣٤ هـ ) « لم تر عين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه » (٣) ولم يملك الحافظ شمس الدين الذهبى ذلك المؤرخ الكبير الناقد البصير إلا أن يصفه بقوله :

« لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنى ما رأيت بعينى مثله ، ولا والله رأى هو مثل نفسه فى العلم » .

### الشجاعة والاستقلال الفكرى :

لقد كانت شجاعة ابن تيمية وبسالته وصموده ، أمام الموت موضع دهشة عند جميع معاصريه حتى ضباط الجيش وقواد الأتراك ، فان الشجاعة والجرأة التى أبداها ازاء المغول وثبات الجأش الذى ظهر به أمامهم أثار استغراب الجميع ولم يترك « قبجق » نفسه الذى يعتبر من كبار الضباط العسكريين الأتراك وأشهرهم فى عصره إلا وجعله يندهش من شجاعته الفذة التى لا يعرف لها نظير فى حملة العلم ، يصفه الحافظ سراج الدين بالكلام الآتى :

« وكان إذا ركب الخيل يجول فى العدو كأعظم الشجعان ويقوم كأثبت الفرسان وينكى

(١) زاد المعاد ج ١١ ص ٣٣٦ فصل فى هدى النبى ﷺ فى عقد الذمة وأخذ الجزية .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٤ .

(٣) الكواكب الدرية ص ١٥٤ .

العدو من كثرة الفتك بهم ويخوض هم خوض رجل لا يخاف الموت» (١).

ولكنى لا أريد أن أتحدث هنا عن شجاعته التى أبداهها فى ساحة القتال وبلاط الملوك إعلاء لكلمة الحق ، فقد مر بعض التفاصيل عنها فى الصفحات الماضية ، إننى أتحدث هنا عن شجاعته التى ظهرت منه فى مجال العلم والتحقيق والمعارك الكلامية والصدع بالحق . يعرف أهل العلم من القراء ان ابن تيمية ليس متفرداً فى أكثر المسائل ، فقد نوقشت هذه المسائل من قبل وألفت فى موضوعها رسائل ، وقد وجد فى عصره من كان يوافقه فى آرائه من معاصريه غير أن الجرأة والصراحة اللتين اتسم بهما فى ابداء آرائه وتحقيقاته ، وأعلنهما فى كتاباته وخطبه كان المجلى فيهما ، ولا أدل على صفته هذه مما قام به من شرح التوحيد الخالص ، ورد الاستغاثة والاستعانة بغير الله ، ومعارضة البدع المنكرات السائدة فى عصره ، والكفاح بالقلم واللسان مقال وحدة الوجود ونظرية الحلول والاتحاد ، وهتك الأستار عن تليسات المتصوفين الدخلاء والمبدعين المفترين .

ان الجرأة البالغة التى مثلها فى احقاق المسائل والتحقيقات التى كان يراها حقاً سواء كان لها علاقة بالمباحث الكلامية أو المذاهب الفقهية ، وان الاسلوب القوى الذى اتخذه لاثبات عقائده ونظرياته ، وان الأذى الذى احتمله فى هذا السبيل ، كل ذلك ليس حجة على شجاعته واستقامته فحسب بل يدل على عظمته وامامته فى الدين أيضاً ، يتحدث الحافظ الذهبى عن شجاعته واستقامته العلمية والدينية فيعبر عنهما بما يلى :

« اطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون ، وهابوا وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه ، وبدعوه وناظروه وكاتبوه وهو ثابت لا يدهن ولا يحابى بل يقول الحق المر الذى أداه اليه اجتهاده ووحدة ذهنه وسعة دائرته فى السنن والأقوال مع ما اشتهر عنه من الورع وكمال الفكر وسعة الإدراك والخوف من الله العظيم ، والتعظيم لحرمة الله ، فيجربى بينه وبينهم حملات حربية ووقعات شامية بمصرية وكم من نوبة رموه عن قوس واحد فينجيه الله » (٢) .

ولا شك أن ابن تيمية إنما كان يمتاز فى تبحره العلمى عن معاصريه ، كما اعترف بذلك معاصروه بكلمات قوية ، غير أن ميزته الأصيلة التى جعلته فذاً بين أقرانه المعاصرين خللته فى التاريخ لم تكن مجرد تبحره فى العلم ، بل إنما هو استقلاله الفكرى ، وذوقه للبحث

(١) الكواكب الدرية ص ١٦١ .

(٢) الرد الوافر ص ٧١ .

والتحقيق وأسلوبه الاجتهادى ، إنه لم يدرس من العلوم والفنون إلا ما كان قد درسه أكثر معاصريه ، ولكنه شق فيها طريقه الذى سار عليه ، وسرعان ما أحرز مكانته الخاصة ، لقد كان كل العلماء فى زمنه قد تعلموا النحو واعتقدوا فى سيويه إماماً للنحو واجب الاتباع واعتبروا قوله هو الحجة الأخيرة فى النحو ، ولكن ابن تيمية كان قد درس « الكتاب » لسيويه دراسة نقد وتحليل ، فلما ذكر أبو حيان النحوى بعض مسائل النحو برواية سيويه أجابه الشيخ ابن تيمية ، أنه لم يكن نبياً نزل عليه النحو ، بل أنه أخطأ فى ٨٠ موضعاً من « الكتاب » .

وقد أخذ أكثر علماء عصره بالحيلة فى دراسة المنطق والفلسفة اليونانية ، أما الذين كانوا درسوها ، فقد تأثروا بهما فى قليل أو كثير ، حتى أن حجة الاسلام الغزالى الذى يعتبر أكبر منقذ للفلسفة اليونانية ومطلع على مواضع ضعفها فى جماعة المسلمين لم يتمكن من صون مؤلفاته وحتى كتابه « إحياء علوم الدين » من تأثير العلوم الالهية اليونانية وفلسفة أخلاقها كلياً ، ويتجلى ذلك لكثير من مؤرخى الفلسفة فى كثير من مؤلفاته<sup>(١)</sup> .

أما ابن تيمية فانه رفع لواء الثورة على المنطق والفلسفة اليونانية ، ولم يتفاهم معهما فى أى حال ، أنه ناقش مسائل ومقدمات المنطق والفلسفة المعترف بها كناقد بصير وصوفى خبير فى كتابه « الرد على المنطقيين » وتناولها بعملية جراحية ، وزعزع أساسها بالكلية ولم يترك موضعاً إلا وثقبه بسهامه الحادة .

منذ مدة كان البحث والدراسة فى مجال الفقه والحديث قد انحصر فى نطاق محدود ولم يكن يتجرأ أحد أن يخرج عنه ، ولا كانت ذخائرها العلمية تتسع وتنمو منذ مدة طويلة . وجاء ابن تيمية فاستأنف النظر فى كثير من المسائل الفقهية التى كانت تعتبر مقررة لا تحتاج إلى تفكير أو دراسة من جديد ، وقدم نتائج بحثه ودراساته إلى أوساط العلماء والفقيهاء بكل شجاعة وصرامة علمية ، لقد أثار ذلك سواكن العقول وحرك الأوساط العلمية وفتح باب التفكير والدراسة من جديد ، وفى الأخير بدأ يفتى على أساس الكتاب والسنة وآثار الصحابة ، يقول الحافظ الذهبى وابن تيمية لا يزال بقيد الحياة :

« وله الآن عدة سنين لا يفتى بمذهب معين بل بما قام الدليل عليه ، ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية ببراہين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها »<sup>(٢)</sup> .

(١) راجع للتفصيل « فلسفة الأخلاق فى الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية » و « تاريخ الأخلاق »

للدكتور محمد يوسف موسى .

(٢) الرد الوافر ص ١٧ .

وهو يتقرر في هذه الاجتهادات أحياناً ، ولا يبعد أن يخطئ كما هو الشأن في جميع البشر ، ولا يتحتم أن تكون دلائله في كل مسألة قوية واجبة التسليم ، ولكن الذي لا شك فيه أنه إنما كان جد مخلص في مقاصده ، وأنه لم يكن يترك مذهب امام من الأئمة أو قول الجمهور ولا كان يستنبط مسألة اتباعاً للهوى أو النفس أو لأجل مصلحة أو حاجة في نفسه؛ بل أنه كان طالباً للحق ، خاضعاً للدليل ، متبعاً للكتاب والسنة ، وللحافظ بن حجر العسقلاني الشافعي صاحب « فتح الباري » قول فصل في هذا الموضوع أنه يقول :

« أنه شيخ الإسلام في عصره بلا ريب ، والمسائل التي أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي ولا يصر على القول بها إلا بعد قيام الدليل عليه غالباً ، فالذي أصاب فيه وهو الأكثر سيستفاد منه ويترحم عليه بسببه ، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه بل هو معذور لأن أئمة عصره شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد فيه ، حتى كان أشد المتعصبين عليه والعاملين في إيصال الشر إليه وهو الشيخ جمال الدين الزمكاني شهد له ذلك » (١) .

### إخلاصه وانهماكه :

وميزته البارزة الثانية أنه وقف بنفسه لخدمة علوم الدين أنه لم يسمح لنفسه بأية علاقة بأمر آخر طول حياته ، بينما ظل أكثر معاصريه وزملائه وأترابه - الذين وجد من بينهم كبار المخلصين والفضلاء - يشغلون مناصب الحكومة المختلفة ، أو أنهم كانوا يحملون المسؤولية عن منصب ديني أو إداري ، أو حفظوا بمنحة ملك أو خلعة سلطان أو جائزة ملكية ، أو كانوا يقبلون رواتب الحكومة ، ولكن ابن تيمية ظل في غنى عن جميع هذه الملابس ، وكان في شغل عن كل شيء سوى الاشتغال بالعلم والدين من الافتاء والتدريس والوعظ والارشاد والتأليف والتحقيق ، يشهد بانهماكه الديني وانصرافه إلى العلم مع الانقطاع عن الدنيا أحد معاصريه بالكلام الآتي :

« وما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركة ولا مزارعة ولا عمارة ولا كان ناظراً أو مباشراً لمال وقف ، ولم يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهماً ولا متاعاً ولا طعاماً وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته رضى الله عنه العلم ، اقتدى بسيد المرسلين فإنه قال إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ

(١) الرد الوافر ص ٨٧ .

بعض وافر» (١) .

ويقول صاحب « الكواكب الدرية » رواية عن الثقات : « إنه كان قد قطع جل وقته وزمانه في العبادة حتى إذا لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله ومما يزاوله ، لا من أهل ولا من مال » (٢) .

لم تمهله أشغاله وأفكاره ، وانهماكه في العلم والدين وحياته المشغولة ( وقد قضى جزءاً وجيهاً منها في الحبس والاعتقال ) أن يتزوج ، فقد عاش طوال حياته عزباً ، اشتغالاً بطلب العلم والمجاهدة ، يتحدث مؤلف « الكواكب الدرية » عن برامجه اليومية وأعماله الرتيبة فيقول :

« ولا يزال تارة في افتاء الناس ، وتارة في قضاء حوائجهم حتى يصلى الظهر مع الجماعة ثم كذلك بقية يومه ، ثم يصلى المغرب ويقرأ عليه الدرس ، ثم يصلى العشاء ، ثم يقبل على العلوم إلى أن يذهب طويل من الليل ، وهو في خلال ذلك كله يقضى الليل والنهار يذكر الله تعالى ويوحده ويستغفره » (٣) .

إذا كان العلم شغلاً مؤقتاً وخدمة طارئة لأي مدرس أو مفت فانه كان غذاءه ولباسه ، وامتزج بطبيعته ، يقول الشيخ سراج الدين أبو حفص البزار : « وكان العلم قد اختلط بلحمه ودمه وسائرته فانه لم يكن مستعاراً بل كان له شعاراً ودثاراً » (٤) .

ولا أدل على إخلاصه وورعه من أنه عفا عن أعدائه ومعارضيه في كل مناسبة ، وأعلن بصراحة ، « أحللت كل مسلم عن إيذائه لى » وإنما نستطيع أن نقدر مدى ورعه وسماحة نفسه وإخلاصه بقصة عفوه عن أكبر معارضيه القاضى ابن مخلوف بعد عودة السلطان الناصر ، ورغم إلحاحه على عدم الصفح عنه ، وبما أثنى على القاضى وجميع شركاء المملكة وعلمائها للسلطان الناصر ، وشفاعته لهم إليه ، وقد ثبت بذلك أن كل خلافاته إنما كانت على الأساس العلمى والدينى لا تشوبها شائبة من النفسانية والعداوة ، إنه خلف ذخيرة من الآثار العلمية والمؤلفات القيمة التى تعتبر مفخرة لجماعة من أهل العلم فى حياته البالغة ٦٧ سنة الحافلة بالحوادث والوقائع الشاذة نتيجة إخلاصه وانهماكه ، وخلف نتيجة لذلك أيضاً تأثيراً عميقاً فى عصره يؤهله بكل جدارة أن يسمى رائد عهد جديد وذا شخصية قوية تغير مجرى التاريخ .

(١) الكواكب الدرية ص ١٥٦ و ١٥٧ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٦ .

(٣) و(٤) الكواكب الدرية ص ١٥٦ .

## خصائصه التأليفية

إن مؤلفات ابن تيمية تتفرد بخصائص بارزة تميزها من بين مؤلفات عصره عليها من قرون عديدة وحدثت في خلالها ثورات في دنيا العلم والتفكير ، وقد أنتج عليها قرون عديدة وحدثت في خلالها ثورات في دنيا العلم والتفكير ، وقد أنتج ذلك أنها تنال الإعجاب والقبول من جديد في هذا العصر الولوع بالتجديد والعقلية ، وهناك أربعة جوانب ذات أهمية في هذه الخصائص :

١- كل دارس لمؤلفات ابن تيمية يرجع بانطباع أن مؤلفها عارف بمقاصد الشريعة ومطلع على روح الدين ، وأنه أخذ بأطراف الدين وأصوله ولذلك فانه يركز بحثه في كل أمر من أموره على الأصول بحيث يشفى العليل ويروى الغليل ، ويبعث الطمأنينة واليقين في النفس، إنه يضغط على الأصول دون الفروع ، ويبدأ كل بحث بأسلوب يشعر القارئ بأنه هو طبيعة الدين وروحه ، ومقتضى الشريعة المحمدية بالبداهة والاضطرار ، إن السر في تفوقه بازاء معاصريه والمؤلفين الآخرين هو اطلاعه على مقاصد الشريعة وروح الدين وشرحه الناجح لهما ، وذلك ما يتجلى في كل ما ألفه من صغير وكبير ، ولا سيما عندما يبحث في العقائد والمسائل الكلامية والفقهية المهمة .

٢- الميزة الثانية البارزة أن كتبه تفيض حيوية ويبدو أنها لم تؤلف في ركن من المكتبة منزو أو جزيرة منقطعة عن الناس ، بل أنها ألقت في معترك الحياة وأوساط العامة ، إن من يدرسها يستطيع أن يعين ويقدر العصر الذي ألفت فيه بسهولة عقلية المجتمع وأخلاقه الذي كان يتصل به مؤلفها<sup>(١)</sup> .

كما أن مؤلفاته تشير إلى عواطفه وحماسه ، وحبه وكرهه ، ويبدو أن مؤلفها كان صاحب عقل واع ، وقلب حساس ومشاعر حية قوية ، ولم يكن مجرد آلة للكتابة ولا محض عقل .

وكذلك أسلوب تفسيره يتسم بارتباطه مع الحياة ، أنه يطبق الآيات القرآنية على ما حوله من الحياة والانسان ويستعرض الحياة من وجهة نظرها ، ويتناول معاصريه وطبقات الأمة المختلفة بالاحتساب ، أنه يضع الأصبع في مواطن الإنحراف عن هذه الآيات والحقائق ،

(١) وكنموذج اقرأ كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » ، « مخالفة أصحاب الجحيم » .

ويخبر بنتائج ذلك<sup>(١)</sup> ، أن ميزة الحيوية هذه منحت مؤلفاته حياة طويلة وتأثيراً عميقاً وروعة عجيبة قد تندر في مؤلفات غيره ، وقد تكون مفقودة فيها .

٣- أنه يجمع معلومات ومواد في كل موضوع يطرقة ، في عشرات من الكتب ومئات من الصفحات إن أسلوب تأليفه هذا - الذي يمكن أن يسمى أسلوباً موسوعياً - أبرز ميزة لجميع مؤلفاته سواء كانت في المباحث النقلية أو العقلية ، وهكذا فإن كتبه تجمع معلومات كثيرة وفيرة تغني أكثر الأحيان عن مكتبة بل تقوم مقامها ، ويستغنى بها الطالب عن مراجعة المصادر والمباحث .

وطالما يفلت منه طرف البحث في تأييد كلامه بالمواد والمعلومات ، حتى أن الدارس يضل في خضم الأقوال والشواهد ، ويتعسر عليه التغلب على البحث ، ولكن على الرغم من ذلك لا يستهان بجانب الإفادة في كتبه وهو أنها مخزن أقوال المعاصرين وآرائهم ، وموسوعة صغيرة في مواضيعها ، أنه حفظ كثيراً من المواد والمعلومات القديمة وكثيراً من الآراء والأفكار في كتبه ، وصانها من الضياع وهي منة علمية كبرى لا تنسى من ابن تيمية .

٤- تمتاز كتبه بين كتب الفقه والكلام العامة بخلوها من الجفاف ، والتعقيد ، والاختصار الأمر الذي يعتبر سمة الكتب المؤلفة في هذا الموضوع ، ولكن بالعكس من ذلك إن مؤلفات ابن تيمية تتسم بالسلامة والقوة والعربية ، وأحياناً بصفة البلاغة والأدب والخطابة من غير قصد ، تلك التي تجعل كتبه ( وأكثرها دفاتر ضخمة ) ذات روعة وحيوية وقوة ، سيما عندما يبحث هو في ترجيح مذهب السلف وفي تفوقهم العلمي والديني وفضلهم العملي والفكري يستمد قلمه قوة ويستوحى بحثه صفة من الرجز ، لقد تحدث معاصروه والمؤلفون عن حياته وبلاغته وخطابته صفة خاصة ضمن الحديث عن أحواله وفضائله ، يقول الحافظ أبو حفص :

« يجرى كما يجرى التيار ، ويفيض كما يفيض الحر ، ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين ، مغمضاً عينيه ، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يرعد القلوب ، ويحير الأبصار والعقول »<sup>(٢)</sup> .

يبدو من دراسة مؤلفاته أن سلاسة الألفاظ وفيضان العلم ، لا يختصان بمجالسه بل

(١) اقرأ تفسير سورة النور وسورة الإخلاص وما إلى ذلك . لابن تيمية .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٥ .



يشارك قلمه لسانه ، هكذا أبدى الأقسهرى انطباعه عنه فى رحلته ، إذ أنه يقول « وقلمه  
ولسانه متقاربان » .

وعلى هذا الاعتراف بمحاسنه لا بد من الإشارة إلى بعض جوانب الضعف . لكل مؤرخ  
ناقد ، وهى أن فى كتبه ومباحثه اضطراباً ، وانتقالاً من معان إلى أخرى ، وبدء  
بحث جديد بأدنى مناسبة ، كما أنها تتسم بالاطناب والتطويل ، ولا شك أن ذلك مما  
يسبب حيرة شديدة للقارئ لا سيما إذا كان يجهل أسلوبه وطراز تأليفه ، إن السبب الكبير  
لذلك إنما هو حدة ذهنه وفرط ذكائه ووفرة علمه وحماس طبيعته ، ويبدو أن ذهنه وقلمه لا  
يكادان يستقران فى مجال البحث على نقطة واحدة وترد إليه الخواطر وينتقل ذهنه بسرعة  
بالغة ، لا تضع عليهما حداً ، وذلك ما كان يتصف به دروسه ، يقول تلميذه أبو حفص  
البرار :

« كان ابن تيمية إذا شرع فى الدرس يفتح الله عليه أسرار العلوم وغوامض ولطائف  
ودقائق فنون ونقول ، واستدلالات وآيات وأحاديث ، واستشهاداً بأشعار العرب ، وهو مع  
ذلك يجرى كما يجرى التيار ، ويفيض كما يفيض البحر » (١) .

وهذه الخصيصة من وفرة المعلومات وكثرة البراهين والدلائل وتموج ذهنه هى التى كانت  
تسد الطريق على مناظريه فى مجلس المناظرة ، أنه كان يدخل فى ثنايا بحثه ومناظراته  
علوماً ومسائل تعسر على خصمه أن يرتكز على بحث واحد وينضبط فى مسألة واحدة ،  
وذلك ما جعل العلماء والفقهاء فى مصر والشام يتجنبون مناظرته فى المجالس العامة ،  
ويعتذرون إليه ، وقد عبر عن هذه الصعوبة أحد معاصريه ومناظريه الفضلاء الشيخ صفى  
الدين الهندى بكلامه الآتى :

« ما أراك يا ابن تيمية الا كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان فر إلى مكان  
آخر » (٢) .

ان هذه الطبيعة العلمية ( التى ليست نتيجة نقص أو عيب بل أنها دليل على كثرة  
معلوماته ووفرة فضله وذكائه وعلمه ) توجد فى مؤلفاته ، فإذا تجلد الطالب الصادق ودأب  
على الغوص فى بحره فلا شك أنه يرجع منها بدرر ثمينة ولآلى فاخرة .

(١) الكواكب الدرية ص ١٥٥ .

(٢) نزهة الخواطر ج ٢ ص ١١٤٠ ، ترجمة محمد بن عبد الرحيم الأرموى (الشيخ صفى الدين  
الهندي) .



## أسباب معارضة ابن تيمية

### بين نقاده والهادفين عنه

ينشأ هنا سؤال فى نفس كل انسان سليم الطبع ، وهو أن ابن تيمية على رغم تبوءه هذا لمنصب العالى للعلم والدين وتحليه بالفضائل الفكرية والتدين والإخلاص إلى حد الإبداع والتفرد ، لماذا خولف وعورض هذه المعارضة الشديدة<sup>(١)</sup> ؟ من قبل معاصريه وبعض المتأخرين من العلماء ، ولماذا ظلت شخصيته موضع بحث وانتقاد منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا ؟ ، ولماذا لم يتفق الناس على عظمة هذا الانسان الجامع للفضائل وانكمال .

ان هذا السؤال حق ، ويجدر أن نرد عليه فى وضوح وصراحة فى ضوء سيرته وتاريخه لمعاصر .

١- إن وجود فريقين منافسين فى شخصية وصراعهما فى تحديد مكانتها لدليل على نظمتها قبل كل شئ ، فان الشخصيات التى لمعت فى التاريخ وتميزت بفضائل خارقة للعادة نما واجهت هذا الوضع دائماً ونالت تأييد فريق وإعجابه ، ومبالغة فى مدحها والثناء عليها وانتقاد فريق آخر ومعارضته ، ومغالاته فى الحط من شأنه ونقص منزلته ، إنها تجربة ستمرة للتأريخ ، فيما يتصل بالشخصيات العظيمة ذات العبقريات حتى أن بعض فلاسفة تاريخ وعلم النفس ، وأصحاب البصيرة للعظمة والعبقرية اعتبروا ذلك من مبادئ العظمة شروط العبقرية .

٢- كان ابن تيمية أعلى من المستوى الفكرى والعلمى للجيل الذى نشأ فيه ، وكان ذلك لاء عظيماً لمعاصريه إذ أن السمو على المستوى السائد نعمة موهوبة ومنحة من الله يغتبط عليها ، الا أن صاحب هذه النعمة يضطر إلى دفع ثمن باهظ لها ، أنه يعيش فى بلاء ستمر ومحنة دائمة من قبل معاصريه ، كما أن أولئك المعاصرين يعانون من شقاء ومصيبة لول حياتهم من أجله ، وذلك لأنهم لا يسايرون طراوة فكره ، وعلو نظره ، وقوة جهاده ، ولا يستطيعون أن يتوصلوا إلى آفاق علمه وفكره العالمة .

هذا وهو لا يقدر على أن يبقى مقيداً محدوداً فى مصطلحاتهم المحدودة المرسومة

---

(١) لا يغيب عن البال أن هناك فرقاً بين المخالفة والإختلاف ، إذ أن الإختلاف حق لأهل العلم والتحقيق دائماً ، لا يمكن سلبه من العلماء فى أى زمان ، ولذلك فأننا لا نعى هنا الإختلاف مطلقاً بل نبحت فى المخالفة وأساس تضليله وتكفيره .

وحدودهم المدرسية ، بل أن يطير بحرية فى أجواء العالم والفكر الواسعة ويسبح فى بحار الكتاب والسنة الزاخرة ، إن مبلغ علمهم لا يعدو فهم كتب المتقدمين وأهل التدريس ، أما هو فإنه يكون مجتهداً ومجدداً فى علوم كثيرة وقد يكون مرسياً لقواعد بعض الفنون ، مبتكراً لها .

وبالجملة فإن تفاوت المدارك والكفاءات يحدث صراعاً عجيباً - لا يكاد ينتهى - بينه وبين معاصريه المخلصين فلا يستطيع أن يقنعهم فى حال ما ، ان أصحاب الفضل ومجتهدى الفن من العلماء واجهوا هذه المشكلة فى كل زمان ، أنهم وجدوا أن تحقيقاتهم وعلومهم تعدت المستوى العلمى والدراسى السائد فى عصرهم ، فلم يتمكن من فهمها والتغلب عليها أولئك العلماء الذين لم ينطلق فكرهم من نطاق الكتب المتداولة ، وذلك هو العامل الكبير لمعارضة كثير من أهل العلم<sup>(١)</sup> .

٣- إن طائفة من المعارضين إنما كانت تعارض هؤلاء العباقرة على أساس أنهم إنما كانوا يسيطرون على رجال الحكومة وينالون إعجاب الجميع من العامة والخاصة بفضل ذكائهم وعلمهم ، وعلو مكانتهم وجمال شخصيتهم ، لا يقوم أحد أمام علمهم وبيانهم ، إنهم يستولون على الجميع حيثما كانوا ، فإن درسوا أوحشت مجالس دروس الآخرين ، وإن خطبوا تدفق منهم بحار العلم ولقد أشار الحافظ الذهبى فى الفقرة التالية ذات المغزى الدقيق إلى كوامن النفوس هذه ، يقول : « غير أنه يغترف من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقى »<sup>(٢)</sup> .

ولا شك أن العلماء فى كل عصر إنما كانوا بشراً يتمتعون بأفكار ومشاعر البشر فلا غرابة إذا كان سبب معارضتهم لدى كثير منهم ما يسمى فى عصرنا بمركب النقص ، وضعف لطبيعة البشرية ، ذلك الذى يتعسر التحرز منه ، إن المؤرخين حينما يتحدثون عن أسباب العداوة والمعارضة مع الإمام أبى حنيفة ينشدون البيت الذى يصدق فى كل عصر .

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخصوم

---

(١) لقد أشار إلى هذه النقطة أفضل المتأخرين شيخ الإسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى فى مؤلفاته ، يقول فى موضع من كتابه « ازالة الخفاء » « بما أنك لم تقرأ هذه المقدمة فى كتب علم الكلام بمثل هذه الروعة يحتمل أن تتطرق إلى قلبك وحشة » ، ويقول فى مكان آخر « ان فهم هذا المعنى فى غاية من الدقة ، فان الجماعة التى لا يتجاوز علمها شرح الوقاية والهداية كيف تستطيع أن تدرك هذا السر الدقيق » ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٤٥ .

٤- إن السبب الطبيعي لمعارضته لدى كثير من المعاصرين خصيصة كانت في نفس شيخ الإسلام تلك التي توجد عند كثير من أهل الفضل الذين يتميزون بذكاء غير عادي وسعة النظر وكثرة المعلومات وأعنى بها حدة الطبيعة ، التي تبعثهم في بعض الأحيان على تناول مضر معاصريهم بالنقد اللاذع وإظهار جهلهم وغبائهم وقلة علمهم ، وتخرج من أفواههم من شدة التأثير كلمات تجرح شعور أهل العلم من معاصريهم والمعجبين بهم تثبط همة تلاميذهم ، الأمر الذي يبذر في قلوبهم بذور النفور والعداوة الدائمة ، وذلك ما ينتج صدار فتاوى الكفر والضلال عليهم ، والمعارضة المستمرة والتربص لهم بالدوائر .

لم يصرف معاصرو شيخ الإسلام و مترجمو حياته نظرهم عن تلك الخصيصة الطبيعية لتي كانت نتيجة أحواله وفضائله العلمية والفكرية إلى حد كبير كلما تحدثوا عن فضائله بمناقبه وأحواله ، يقول الحافظ الذهبي الذي كان معجباً بفضائله العلمية والدينية :

« تعتريه حدة في البحث وغضب وصدمة للخصوم ، تزرع له عداوة في النفوس ولولا لك لكان كلمة إجماع ، فان كبارهم خاضعون لعلومه ، معترفون بأنه بحر لا ساحل له ، كنز ليس له نظير » .

ونجد في حياته عدداً من أحداث تؤكد أنه لم يتمكن من تحمل قلة فهم أو قصر نظر بدراسة لمعاصره في أي مسألة دينية وعلمية ، فلم يلبث أن جهر بذلك حتى أن معاصره ناد منافساً ومعانداً له بصورة دائمة ، ففي مسألة الزيارة حينما رد عليه تقي بن الاخنائي لما لى وقرأ رسالة رده تصدى للرد عليها ، وقال فيها أنه قليل العلم والمعلومات ، لا صلح للكتابة في هذه المسألة ولكن نقدم هذا سبب محنته وإيذائه ، فقد يرى بعض ترجمى حياته ومؤلفى سيرته أن ذلك هو السبب فى اعتقاله الأخير وطول أسارته ومصادرة نوات كتابته<sup>(١)</sup> .

وهكذا حضر أبو حيان المفسر الذى كان يعتبر امام عصره فى النحو ابن تيمية معجباً به معترفاً بفضله وكان قد قرض قصيدة فى مدحه كان مطلعها :

لما أتانا تقي الدين لاح لنا      داع إلى الله فرد ماله ووزر

ومن جملتها قوله :

يا من يحدث عن علم الكتاب أصغ      هذا الامام الذى قد كان ينتظر

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٤ .

وفي ثنايا الكلام دار الحديث حول مسألة نحوية ، فأورد ابو حيان مذهب سيبويه مؤيداً جانبه ، وكان يتوقع أن يسكت ابن تيمية ويعترف بفضل سيبويه ، ولكنه رد عليه قائلاً : « ان سيبويه ليس نبياً للنحو معصوماً عن الأخطاء بل أنه أخطأ في « الكتاب » في ثمانين موضعاً ، لا تستطيع أن تتفطن لها » ، وما أن صادف أبو حيان هذا الكلام الشاذ من ابن تيمية إذ تنغص خاطره ، حتى أخرج قصيدة ابن تيمية من ديوانه ، ولم يعد معجباً بابن تيمية بل أصبح من معارضيهِ ونقاده .

٥- وسبب آخر لمعارضته هو بعض تحقیقاته وترجيحاته التي يتفرد بها ، وينشق فيها عن جماعة الأئمة الأربعة والمذاهب المشهورة في بعض الأحيان ، إن هذه التفردات لا تبعث وحشة واستنكاراً في نفوس من لهم اطلاع واسع على تاريخ الفقه والخلافات وأقوال الأئمة والمجتهدين ومسائلهم إنهم يعرفون جيداً أن تفردات الأئمة المشهورين والأولياء المقبولين ومسائلهم الغريبة إذا جمعت ، تتضاءل أمامها هذه التفردات وتبدو لهم كل شيء ، ويتضعض اعتقادهم بالتفرد الذي يعتبرونه مضاداً للقبول ومنافياً للحق ، ويشترطون لعظمته وولايته أن لا يكون له رأى أو تحقيق يعارضان الآراء والتحقيقات المشهورة .

أما الذين يملكون نظرة واسعة حول الخلافات أو أنهم يسمحون بالتفرد والشذوذ للمتقدمين لكنهم لا يرون في ذلك مندوحة للمعاصرين مهما بلغوا من التفوق والكمال شأواً بعيداً ، فقد أصبح لهم هذا التفرد أيضاً مبعثاً للمخالفة وفساد العقيدة والضلال ودليلاً على خرق الاجماع وما أعدل وأجمل كلام الحافظ بن حجر العسقلاني ( وقد تقدم فيما مضى ) وأبعد من الافراط والتفريط في هذا الموضوع ، أنه يقول :

« فالذي أصاب فيه وهو الأكثر يستفاد منه ويترحم عليه بسببه ، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه بل هو معذور » .

٦- وهناك سبب آخر قوى لمعارضته ، وهو أنه خالف ذلك الأسلوب في تأويل الصفات والمتشابهات الذي كان يعرف باسم « العقيدة الأشعرية » بل باسم عقيدة أهل السنة ، وكان الناس يرون العدول عنه نوعاً من الجهل أو معارضة أهل السنة ، وقد أسلفنا التفصيل أن الامام ابن تيمية خالف ذلك بكل جرأة وقوة ، وشرح مذاهب الصحابة والتابعين رضى الله عنهم والأئمة المجتهدين والمتكلمين ، والمتقدمين والامام أبى الحسن الأشعري ، والقاضى أى بكر الباقلاني وامام الحرمين بأقوالهم ومؤلفاتهم ، وأثبت من مقتطفات كتبهم أن هؤلاء الأئمة كلهم إنما يوجبون الإيمان بالصفات ، إنهم يعترفون بحقيقتها التي تتفق وعظمة الله سبحانه وتعالى أو تنطبق على قوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾

وتنتزه من النفي والتعطيل والتشبيه والتجسيم ، إنهم يدعون أنه لم يثبت خلاف ذلك لفظ واحد لا نصاً ولا ظاهراً من الصحابة والتابعين والسلف رضى الله عنهم .

لقد كان العالم الإسلامى آنذاك تحت تأثير العلماء والمتكلمين الأشعريين ، ولذلك فإن اختلاف ابن تيمية الذى كان مؤسساً على أسس علمية خالصة ، اعتبره الناس نوعاً من البدعة ، ومرادفاً لقوله تعالى ﴿ يتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ واتهموه بالتجسيم .

وبما أن العلماء فى ذلك العصر كانوا يرون أنه لا مناص منه قد أطبقوا على « التأويل » ركز ابن تيمية كل قوته على رد التأويل ، وقد شك الناس بجهره برد التأويل فى اعتقاده ورموه بالتجسيم ، وغالوا فى ذلك إلى حد أنهم نسبوا إليه روايات تؤكد أنه من الفرقة المجسمة ، مثلاً أنه كان يخطب فى الجامع الأموى بدمشق ونزل من درجة المنبر إلى أذناها وقال : ان الله تعالى ينزل كنزولى هذا <sup>(١)</sup> .

ان الامام ابن تيمية وتلاميذه كلهم نفوا هذه التهمة وأبدوا وعادوا ببراءتهم عن التجسيم ولكن كتاباته القوية فى معارضة التأويل التى كانت عن ضرورة قدمها معارضوه كدليل على عقيدة تجسيمه ، وقد كان ذلك أقوى سبب من الأسباب التى دعت كثيراً من العلماء وأتباعهم إلى معارضته ، والواقع أن الطريق بين التأويل والتجسيم شائك حرج بحيث لا يتسنى لكل انسان أن يفهم الفرق بينهما ، وقد لوحظ أن عدداً من الحنابلة ومنكرى التأويل تسربوا إلى ثغر التجسيم ، فلا غرابة فيما إذا رمى ابن تيمية بالتجسيم فى مثل هذه الأوضاع ، على أن الحقيقة تؤكد أنه كان بريئاً من هذه التهمة كل البراءة .

٧- وسبب آخر لمعارضته هو مخالفته للشيخ محيى الدين بن عربى ، فان ذلك ذنب لا يغتفر لدى كثير من الناس ولا سيما الذين يغالون فى المذهب الصوفى ويتجهون إلى أنهم يرون أن نفيه لمذهب وحدة الوجود وردة على آراء الشيخ محيى الدين وتحقيقاته المشهورة يكفیان للقضاء على جميع فضائله ومحاسنه التى كان يتحلى بها .

وليس شيخ الإسلام ابن تيمية هو الفريد فى نقده لآراء الشيخ محيى الدين بن عربى

---

(١) سجل ابن بطوطة هذه القصة فى رحلته كحادث رآه بعينه ، وقد سألت علامة الشام الشيخ بهجة البيطار عن هذه القصة فقال إنها لا تستند إلى أصل تاريخى ، فان ابن بطوطة يتحدث عن وصوله إلى دمشق فى رمضان ٧٢٦هـ والمعلوم أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان قد اعتقل فى ٧٢٦هـ ثم أنه لم يكن خطيباً فى الجامع الأموى فى أى زمان ، وكان الشيخ جلال الدين القزوينى هو خطيب الجامع الأموى فى عهده ، وهذا يؤكد أن ابن بطوطة التبس عليه الأمر أو أنه زور الكلام .

ومذهبه ، بل يوافقه في هذا الاتجاه بعض كبار الصوفية وأئمة الطرق المحققين ، قد حمل لواء الرد على الشيخ محيي الدين ، ومخالفة مذهبه في وحدة الوجود الامام أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، امام الطريقة المجددية النقشبندية ، في رسائله الخالدة ، وانتهت إليه رئاسة معارضة الشيخ والدفاع عن العقيدة السنية ، ورسائله مملوءة بهذه التصريحات . ونكتفى هنا بنقل واحد ، يقول رحمه الله في رسالة وجهها إلى أحد أصحابه :

« إن أكثر معارفه التي تتعلق بالكشوف وتعارض علوم أهل السنة بعيدة عن الصواب ولا يتبعه فيها إلا من هو مريض القلب أو أنه مقلد بحت »<sup>(١)</sup> .

وقد ذكر العلامة نعمان الألوسي صاحب جلاء العينين قائمة لأولئك العلماء الذين كانوا يؤيدون ابن تيمية في هذه المسألة ، وقد ألف عدد منهم رسائل مستقلة في هذا الموضوع نجد من بينهم العلامة السخاوي ، والعلامة سعد الدين التفتازاني ، والعلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المعروف بملا علي القاري ، والحافظ بن حجر العسقلاني ، وأبا حيان المفسر وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، والحافظ أبا زرعة وشيخ الإسلام سراج الدين البلقيني ، شخصيات لامعة من الأئمة الأعلام وعلماء الإسلام<sup>(٢)</sup> .

ثم أن مخالفة شيخ الإسلام ابن تيمية مع الشيخ الأكبر لا تقوم على أساس الشخصية أو العاطفة ، إنما هي مخالفة باعثها الحمية الدينية والغيرة الشرعية ، يزخر بأمثلتها تاريخ السلف والخلف ، فان أهل الحمية الدينية والمحافظين على الشريعة كلما رأوا كلاماً لأحد يعارض السنة ونصوص الشريعة ويتنافى مع عقائدها القطعية المتواترة تصدوا للرد عليه ، ولم تحل دون ذلك عظمة صاحب ذلك الكلام وشهرته ولا آثار ولايته وقبوله العام ، وذلك لأن حرمة الشريعة وعظمة مكانه النبوة فوق كل حرمة وعظمة ، وان الشيخ السرهندي نفسه لم يستطع أن يضع حداً على حماسه العمري وسورة حميته الدينية وتصدى للرد على مثل هذه الأقوال بكل قوة ، أخبره أحد العلماء المعاصرين مرة أن الشيخ عبد الكبير اليميني لا يؤمن بعلم الغيب لله تعالى فرد عليه قائلاً :

« يا سيدي ، ان هذا الفقير لا يحتمل أن يسمع مثل هذه الترهات ، فان العرق العمري الذي ورثته عن آبائي ينبض ويثور ويفور في ، ولا يتركني أن أوول مثل هذا اللغو من الأقوال وإن كان الذي يقوله الشيخ عبد الكبير اليميني أو الشيخ الأكبر الشامي ، ان الحجة

(١) مجموع رسائل رقم ٢٦٦ .

(٢) جلاء العينين للعلامة خير الدين نعمان ابن العلامة محمود الألوسي ص ٤٣-٤٤ .



فى كلام سيدنا محمد العربى ( عليه وعلى آله الصلاة والسلام ) ، لا فى كلام محبى الدين بن عربى وصدر الدين القونوى ، وعبد الرازق الكاشى ، إنما يعيننا النص<sup>(١)</sup> لا الفص<sup>(٢)</sup> ، وقد أغنتنا الفتوحات المدنية<sup>(٣)</sup> عن الفتوحات المكية<sup>(٤)</sup> .

هذه الحمية والغيرة ، وهذا الاختلاف والانكار ، ذلك الذى لا ينبعث الا من الحمية الدينية والانتصار للكتاب والسنة واىثار جانب الله والرسول ﷺ على كل شئ سواهما ، وهذا الحب الخالص لمن يستحق الحب والاحترام ، ليس كل ذلك ما يعد من المعائب ، إنما يجدر أن يعتبر ذلك من أفضل المناقب وأعلى الفضائل ، إذ أنه مصداق كامل لما صح من حديث :

« ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه الا الله ، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار »<sup>(٥)</sup> .

٨- وأصيبت طائفة بسوء ظن كبير به ومغالطات كثيرة فى بابه ، فقد نسب إليه بعض المؤلفين الحاقدين عليه أقوالاً توجب الكفر ، وفقاً لمذهب الجمهور ومعتقدات أهل السنة العامة ، كما نسبت إليه أقوال أخرى تحط من شأن صاحب النبوة العظمى وتسىء إليه (أعدنا الله وجميع المسلمين منه) ولم يكن ابن تيمية وحده هدفاً لهذه المعاملة الشنيعة بل تذول المعاندون رجال الأمة الآخرين أيضاً بهذه المؤامرة الدنيئة ، إنهم لم يكتفوا نسبة تلك الأقوال والعقائد التى كانوا أبرياء منها بل زادوا فى مؤلفاتهم من المواد التى تستوجب الكفر والضلال ، وتقدموا خطوة زائدة فألفوا كتباً بذاتها - مشتملة على مواد الكفر - ونسبوها إليهم ، جاهدين فى نشرها على أوسع نطاق ، هكذا عومل حجة الإسلام الامام الغزالى من قبل معارضيه ، إذ أن جماعة كبيرة من العلماء تعتقد أن الكتب التالية :

« المضمون به على غير أهله » و« المضمون به على أهله » و« معارج القدس » و« مشكاة الأنوار » ضحولة إليه ، فعل ذلك أعداؤه وحساده ، ويقال أن بعض مؤلفات الشيخ محبى

---

(١) يريد به نصوص الكتاب والسنة .

(٢) يشير إلى كتاب الشيخ محبى الدين ابن عربى المعروف ب« فصوص الحكم » .

(٣) يريد بها تعاليم الكتاب والسنة .

(٤) كتاب الشيخ محبى الدين ابن عربى المعروف ب« الفتوحات المكية » .

(٥) متفق عليه .

الدين بن عربي دس الناس فيها مواد وآراء تخالف مبادئ الإسلام وما ثبت بالضرورة في الإسلام ، كما يقول الامام الشعراني ، وقد جرب هو نفسه في كتبه أيضاً قصة تثير الاستغراب والدهشة ، يقول في « الأجوبة المرضية » :

« لقد ألحق بعض الحساد إلى كتابي « البحر المورود في المواثيق والعهود » زيادات كانت تعارض الشريعة ، وتولوا اشاعتها في الجامع الأزهر وغيره ، حتى نجت بذلك فتنة ، وهنالك اضطررت إلى أن أقدم النسخة الصحيحة الأصلية من كتابي إلى العلماء فكتب عليه كبار العلماء ومشايخ الإسلام تزكية وتصديقاً ، ومن ثم اطلعوا على حقيقة تلك الزيادات التي كان قد ألحقها الحساد إلى كتابي ، وماتت الفتنة » .

ولا شك أن المعاملة القاسية التي لقيها ابن تيمية من بعض المعاصرين والمتعصبين تؤكد أن كثيراً من أقوال الكفر والعبارات التي يستدل بها على الاساءة إلى مقام الرسالة العظمى وقلة الأدب معه ( أعاذ الله شيخ الإسلام وجميع المسلمين منها ) ، مما حمل كثيراً من المخلصين والعلماء ذوى حمية دينية على معارضته بل على تكفيره وضلالته ، وقد غالت طائفة من معارضيه وأعدائه في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع إلى حد أنها أصدرت فتوى بأن من يسمى ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر<sup>(١)</sup> فألف حافظ الشام شمس الدين الشهرير ب « ابن ناصر الدين » الشافعي ( م ٨٤٢ هـ ) رداً على هذه الفتوى واثباتاً لفضل شيخ الإسلام ابن تيمية وعظمته وامامته ، وبراءته من هذه الأقاويل كتابه الشهرير « الرد الوافر على من زعم أن من سمي ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر »<sup>(٢)</sup> ، جمع فيه

---

(١) يتقدم هذه الطائفة الصغيرة الشيخ محمد بن محمد البخاري المشهور بعلاء البخاري ، ولد سنة ٩٧٧ هـ وتوفي ٨٤١ هـ ، وكان فقيهاً حنفياً ولد بایران ونشأ ببخاري ورحل إلى الهند ثم إلى مكة ومصر وأقام بهما طويلاً ثم انتقل إلى دمشق ومات فيها ، وكان شديد الانكار على ابن تيمية وعلى الشيخ محيي الدين ابن عربي في وقت واحد ، وألف في الأخير كتاباً أسماه « فاضحة الملحدین وناصحة الموحدين » .

(٢) صدر هذا الكتاب في مجموعة ألفها ورتبها فرج الله زكي الكردي ، واهتم بطبعها الشيخ عبد القادر التلمساني في مطبعة كردستان العلمية في مصر عام ١٣٢٩ هـ ، وقد أصدر المكتب الإسلامي في بيروت طبعة جميلة منقحة بتحقيق صديقنا الفاضل الأستاذ زهير الشاويش مع حواش مفيدة وفهارس عديدة سنة ١٣٩٤ هـ ، فكان عملاً مشكوراً ، والكتاب أثمن ذخيرة تحتوى على حياة الشيخ وسيرته ( المؤلف ) .

شهادات من ٨٧ عالماً واماماً وآرائهم وانطباعاتهم واعترافاتهم بعظمته وامامته ، وقدم لهذا الكتاب الحافظ بن حجر العسقلاني والعلامة العيني وافاضا في الثناء على ابن تيمية وتأييده ، وأبدوا أنه كان صحيح العقيدة وسنى المذهب وشيخ الإسلام لا نزاع ، حتى أن العلامة بدر الدين العيني قال فيما كتب « من نسبه إلى الزندقة فهو زنديق ، وقد سارت تصانيفه إلى الآفاق وليس فيها شيء مما يدل على الزيغ والشقاق » .

بيد أن هذه المؤامرة على ابن تيمية ظلت مستمرة ، ولم تزل طائفة من الناس تنسب إليه أقوالاً لم تكن تمت إليه بصلة ، وتناقلها الناس مما أثار العواطف خلافه ، وجعل الناس يخالفون بكتاباتهم ، وكان في مقدمتهم عالم القرن العاشر ومؤلفه الشهير العلامة ابن حجر الهيتمي المكي<sup>(١)</sup> ، الذي أصدر فتاوى قاسية على ابن تيمية ، تضمنت كلمات نابية مثلاً « عبد خذله الله تعالى وأضله أعماه وأصمه وأذله » .

ولكن عبارة الفتوى نفسها تدل على أن العلامة ابن حجر نفسه لم يطلع على كتب ابن تيمية وأن معلوماته لم تكن مباشرة وشخصية ، إنما كان جل اعتماده في ذلك على تلك النقول والاشاعات التي تولى اشاعتها وترويجها بين الناس معارضوه ، ودسوها في كتبهم ومؤلفاتهم ، وتحدثوا عنها في مجالسهم في ذلك العصر ، أنه يقول في نفس الفتوى بعد ما ينقل تفردات ابن تيمية الفقهية والكلامية « وقال بعضهم ومن نظر إلى كتبه لم ينسب إليه أكثر هذه المسائل ، ويبدى شكه في آخر الفتوى بقوله : « فان صح عنه مكفر أو مبدع يعامله الله تعالى بعدله وإلا يغفر الله لنا وله » .

قد قام بالرد على هذه الفتوى والمحاكمة بين ابن حجر وابن تيمية العلامة خير الدين نعمان الألوسي ابن العلامة محمود الألوسي صاحب « روح المعاني » في كتابه القيم « جلاء العينين في محاكمة الأحمدين » ورد العلامة ابن حجر بتفصيل وأثبت أن جزءاً من هذه المنقولات زور وافتراء محض لا أساس له فان كتب شيخ الإسلام ابن تيمية تتضمن بياناً وتصريحات تعاكس هذه المنقولات وتضادها تماماً ، ولكن جزءاً خفيفاً جداً من هذه المنقولات يحتاج إلى تفصيل إذ أنه لا يتحدث عن الحقيقة التي بينها ، أو أن ابن تيمية لا

---

(١) ولد عام ٩٠٩ هـ في مصر وتوفي سنة ٩٧٣ هـ بمكة المكرمة ، وأشهر كتبه « تحفة المحتاج » أربعة أجزاء والزواجر عن اقتراف الكبائر « الصواعق المحرقة » و « الفتاوى الفقهية والحديثية » ، وابن حجر المكي هذا غير العلامة ابن حجر العسقلاني صاحب « فتح الباري » ومتأخر عنه ، ان ابن حجر العسقلاني إمام شهير في الحديث ومحقق بالغ النظر ، يتعذر نظيره في المتأخرين ، ولا يدانيه ابن حجر المكي في العلم وسعة النظر ورحابة الصدر والتحقيق .

يتفرد فيه وحده ، كما أنه جمع في هذا الكتاب ذخيرة قيمة من سيرته وأحواله (١) .

ولقد ظل العلماء المحققون والمؤلفون من العلماء المنصفين وواسعى النظر يعارضون ابن حجر المكي في هذا الموضوع ويرثون ابن تيمية ويعترفون بنبوغته وعلو مكانته في رسائلهم ومؤلفاتهم ، حتى أن تلميذ ابن حجر المكي العلامة نور الدين على ابن سلطان محمد الهروي المشهور الملا على القارى (٢) يعارض آراءه في ابن تيمية ، فانه يثنى عليه في مؤلفاته ثناء بالغاً ، يقول في شمائل الترمذى والمرقاة في شرح المشكاة :

« ومن طالع شرح منازل السائرين تبين له أنهما كانا من أكابر أهل السنة والجماعة ومن أولياء هذه الأمة » .

وقد تصدى في آخر الزمان امام المتأخرين شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولى الله الدهلوى بالدفاع عن ابن تيمية بكل قوة ، وصرح بأنه لم يكن عالماً سنى العقيدة وسلفى المذهب فحسب بل كان شارحاً كبيراً ومناضلاً قوياً عن الشريعة الإسلامية وخادماً مخلصاً للكتاب السنة ، وعالماً جليلاً تحف الله به الأمة المحمدية ، كان من نواذر الزمان ممن لا وجود به الدهر الا بعد قرون والذين عارضوه وتعقبوا عليه لم يبلغوا معشار ما آتاه الله من العلم العميق والنظر الدقيق ، يقول عنه الشيخ الدهلوى تعديلاً لعلماء الإسلام وحملة الكتاب والسنة ومستشهداً بالحديث الشهير « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له » :

وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فانا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعية وحافظ لسنة رسول الله ﷺ وآثار السلف ، عارف لمعانيها اللغوية والشرعية ، أستاذ في النحو واللغة ، محرر لمذهب الحنابلة فروعها وأصولها ، فائق في الذكاء ، ذو لسان وبلاغة في الذب عن عقيدة أهل السنة ، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة اللهم الا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها وليس شئ منها إلا

---

(١) طبع هذا الكتاب في مطبعة بولاق بمصر عام ١٢٩٨ هـ ، بالحروف الحديدية الدقيقة ويقع في ٣٦٢ صفحة .

(٢) كان من أهل هرات ( أفغانستان ) ويعتبر من أكابر العلماء الحنفية في عصره ، سافر إلى مكة المكرمة حيث توطن ، وكان من علماء المناسك والفقهاء والحديث البارزين ، اشتهر من بين مؤلفاته ، « المرقاة شرح المشكاة » و « شرح الفقه الأكبر » و « شرح الشفاء » و « شرح شمائل الترمذى » و « شرح النخبة » و « شرح الشاطبية » و « شرح الجوزية » و « خلاصة القاموس » وما إلى ذلك ، كانت له قدم في التصوف أيضاً ، توفي عام ١٠١٤ هـ ، وصلت عليه جماعة كبيرة صلاة الغائب في الجامع الأزهر بمصر .

ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العلم ، ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وحديثه ، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما أتاه الله تعالى ، وإن كان تضييقه ذلك ناشئاً من اجتهاد ومشاجرة العلماء في مثل ذلك وما هي إلا كمشاجرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم فيما ينهم ، والواجب في ذلك كف اللسان إلا بخير « (١) .

وبعد هذه التزكية والشهادة من شيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي وثنائه البالغ على ابن تيمية لا يقام أي وزن لنقد أو جرح يصدران من عالم أو مؤلف لا يبلغ إلى آفاق ابن تيمية العلمية والفكرية ، وإن كلام الشيخ الدهلوي الذي كان قد أكرمه الله بالتبحر العلمي وتنوع الفضائل والفكر المجتهد ، ومملكة الاعتدال والاتزان وميزة المعرفة لمكانة علماء الإسلام وقيمتهم لهُم القول الفصل في هذا الموضوع ، ولا أحد يجيد الدفاع والقول أحسن من هذا .

---

(١) هذه العبارة جزء من رسالة وجهها الشيخ الدهلوي إلى أحد معاصريه المخدم معين الدين تهتهوى (تهتهوى مدينة بولاية السند) رداً على رسالة له ، وقد كان صاحب هذه الرسالة وجه إلى الشيخ الدهلوي بعض الأسئلة حول تفردات ابن تيمية ، مشيراً إلى خلافات معارضيه ، وطلب منه أن يبدي رأيه في ابن تيمية ، وقد تولى الشيخ الدهلوي ومسترشده الشهير الخواجه محمد أمين الكشميري تدوين مجموعة لرسائله ، طبعت في المطبعة الأحمدية باسم « مناقب أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري وفضيلة ابن تيمية » وتوجد في نفس هذه العبارة المذكورة لرسالة الشيخ الدهلوي في « جلاء العينين » أيضاً .



## شيخ الإسلام ابن تيمية كعارف بالله ، ومحقق

### اكتشاف جديد فى شخصية ابن تيمية :

عرف شيخ الإسلام ابن تيمية - بوجه عام - كعالم متكلم ، وفقهه جدلى ، ومحدث كبير ، ولا يتخيله الدارسون لكتابه العلمية ومؤلفاته الجدلية ، أكثر من أنه كان عالماً ذكياً ، واسع العلم ، قوى الحججة ، غزير المادة ، والذين عرفوه عن طريق التراجم التى كتبها عامة المؤرخين ، أو قاسوه على تلاميذه المتأخرين والمتسبين إليه <sup>(١)</sup> ، لا يرون فيه شيئاً أكثر من محدث جاف ، وعالم متبحر فى العلوم الظاهرة ، أما ما ذكره الحافظ بن قيم الجوزية فى «مدارج السالكين» من أحواله وأقواله بمناسبات شتى ، وكذلك ما ذكره العلامة الذهبى وأمثاله فى ترجمته من أخلاقه وأذواقه ، وعاداته وشمائله ، وأشغاله وأعماله ، فيدل دلالة واضحة على أن شيخ الإسلام ابن تيمية يستحق كل الاستحقاق أن يعد من العارفين ورجال الله فى هذه الأمة ، وهنالك ينشرح كل صدر للاعتراف ، بأنه كان يتجوأ تلك المكانة ، ويتمتع بجميع تلك الغايات التى لا تيسر - بوجه عام - إلا برياضات شاقة ، ومجاهدات طويلة ، وتربية أئمة الفن ، ودوام الذكر والمراقبة ، وذلك ما يعبر عنه الصوفية المتأخرون بالنسبة مع الله <sup>(٢)</sup> ، ﴿ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ .

### تنوع الوسائل ، ووحدة الغاية :

ولا يخفى على أصحاب البصيرة ، ان الذوق والمعرفة ، والإيمان الحقيقى واليقين والإخلاص ، والاستقامة ، وتركية الباطن وتهذيب الأخلاق ، والاتباع الكامل للسنة ، والتفانى فى الشريعة غايات حقيقية مقصودة ، تتخذ لأجلها وسائل مختلفة ، وطرق متعددة ، ولا يقصر المحققون اكتسابها على طريقة واحدة ، وقد كان الطريق القوى المؤثر للحصول على هذه الغايات فى فجر تاريخ الدعوة الإسلامية ، صحبة النبى ﷺ ، التى لا يجهل تأثيرها وقوتها أحد .

(١) عدا تلميذه النقيب الحافظ ابن قيم الجوزية الذى بحث عن حياة أستاذه الروحية الباطنة ، فى كتابه «مدارج السالكين» شرح « منازل السائرين » لشيخ الإسلام الهروى ، وأثبت فيه ، ان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كانا يحتلان مكاناً عالياً فى المعرفة والروحانية ، والذوق الباطنى .

(٢) يعنى الصلة الروحية بالتدين .

ولما حرمت أمة الإسلام هذه النعمة ، قام خلفاء النبوة ، وأطباء هذه الأمة في عصورهم بطريقة تنوب عنها ، وأخيراً ركزوا جل عنايتهم لأسباب مختلفة على الصحة وكثرة الذكر . ولها طريقة مدونة منقحة تعرف بنظام التصوف والسلوك ، غير أنه لا مساغ لانكار أن الحصول على هذه الغايات والمقاصد لا يتوقف على هذه الوسائل ، فان الإيمان والاحتساب ، ومحاسبة النفس ، وتتبع السنة ، والاشتغال بكتب السنة والشمائل ، درساً وتدریساً ، وخدمة ونشراً مع الحب والإجلال وكثرة الصلاة على النبي ﷺ ، وخدمة الخلق والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة والتبليغ بصدق النية والاحتساب ، كل ذلك - عدا الاجتباء والموهبة التي يخص بها بعض الأفراد - سبب التقرب إلى الله وحصول النسبة معه ، إذا صدر عن إيمان واحتساب ، وحضور واهتمام ، ولا مانع عن أن تكون الوسائل مختلفة والطرق متعددة ، فان الغاية واحدة ، ولا شك أن جملة أحوال شيخ الإسلام تدل بوضوح على أنه كان يتمتع بهذه الغاية ، وذلك ما أريد ايضاحه في السطور التالية :

### ميزان كمال الانسان ، وآية بلوغه درجة الولاية والتحقيق :

ونستطيع أن نشهد لرجل أنه كان من العارفين والمحققين الكاملين ، ومن وضع الله لهم القبول نظراً إلى الأحوال والأذواق ، والعادات العامة التي عاش فيها ، ولا يكون له مقياس ظاهر أو دليل منطقي ، وقد يخطئ من رزق سلامة الفطرة وصفاء الذوق ، لكثرة ما يدرسه من أحوال العارفين ورجال الله ، ويلزم صحبتهم بملكة ووجدان ، يتمكن بهما من الحكم في ذلك ، ولكن هناك علامات وأحوالاً يدرك بها ، أن مستوى هذا الرجل الديني أرفع من مستوى عامة الناس ، وهو يتمتع بأخلاق رجال الله ، وأذواقهم ، وفهم الدين الصحيح مثلاً ذوق خاص للعبودية والانابة إلى الله ، وتذوق العبادة والانهماك فيها ، ولذة الدعاء والابتهاال والزهد ، والانقطاع عن الدنيا وازدرائها ، وسجية السخاء والايثار ، والتواضع وهضم النفس ، والسكينة والسرور ، والكمال في اتباع السنة ، والقبول في الصالحين ، وشهادة العلماء له ، وتصلب أتباعه ومحبيه في الدين ، وحسن سيرتهم ، وما إلى ذلك ، وبهذه المناسبة ننقل للقراء شهادات معاصري شيخ الإسلام ، وما سجله المؤرخون في كتبهم عن هذه القسمات التي سبق ذكرها .

### ذوقه في العبودية والانابة إلى الله :

ان الذوق الحقيقي للصحيح للعبودية والانابة إلى الله شهادة جلية على أن قلب صاحبه عامر باليقين ، ومغمور بجلال الله وكبريائه ، ومنور بمشاهدة قدرة الله سبحانه وتعالى



وجلاله ، وبشعور العجز والضعف أمامه ، وحينما يرسخ هذا اليقين والمشاهدة فى الباطن ، يتجلى ذلك فى الأعمال والألفاظ ، والفرق بين الحقيقة والصناعة فى ذلك كالفرق بين الأصل والنقل ، وهو لا يخفى على صاحب البصيرة والوجدان ، وقد قال الشاعر العربى :

« ليس التكحل فى العينين كالكحل »

والأحوال التى عاش فيها شيخ الإسلام ابن تيمية تشهد أنه كان متحلياً باليقين والمشاهدة، التى بعثت فيه صفة من الافتقار والاضطرار ، والعبودية والانابة ، وقد روى أنه إذا أشكلت عليه مسألة أو صعب فهم آية التجأ إلى مسجد مهجور ، ووضع جبهته على التراب وردد قوله : « يا معلم ابراهيم فهمنى » (١) .

يقول العلامة الذهبى :

« لم أر مثله فى ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه » ويقول : « أنه ليقف خاطرى فى المسألة أو الشئ أو الحالة التى تشكل عليّ فاستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل ، حتى ينشرح الصدر وينجلي أشكال ما أشكل » .

ولا يحول دون هذه الحالة نوع من الجلوة ، والمجالس وصخب الأسواق ، يقول :  
« وأكون إذ ذاك فى السوق أو المسجد أو الدروب أو المدرسة ، لا يمنعنى ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبى » (٢) .

وعندما ينشأ هذا اليقين ، وذوق العبودية فى النفس ويتمكن فى الباطن ، يشعر الانسان بعجزه وافتقاره ، وضعفه وقلة بضاعته ، ويتمثل كأنه واقف على الباب الملكى بكشكوله (٣) الفارغ ويستجدى من الله رحمته وفضله .

وحياة ابن تيمية وما ذكر له من أحوال وأقوال ، ومواقف تشهد بأنه كان ينعم بنعمة الفقر وعزة التذلل ، يقول ابن القيم : « اننى لم أشاهد هذه الحالة عند أى شخص بمثل ما شاهدته فى شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد كان يقول : « مالى شئ ، ولا منى شئ ، ولا فى شئ » ، وطالما كان ينشد البيت التالى :

أنا المكدى وابن المكدى وهكذا كان أبى وجدى (٤)

(١) العقود الدرية ص ٦ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٤٥ .

(٣) وعاء المتسول الذى يجمع فيه رزقه .

(٤) مدارج السالكين ج ١ ص ٢٩٦ ، طبعة « المنار » .

## تذوق العبادة ، والانهماك فيها :

لا يستطيع أى انسان أن يتذوق العبادة وينهمك فيها ما لم يشعر بلذتها ويذوق طعمها<sup>(١)</sup> وما لم تحتل العبادة محل الدواء والنزاع والقوة ، ويصل إلى درجة تصبح الصلاة فيها لعينه قرة ولروحه مسرة ، أما الشيخ ابن تيمية فيشهد معاصروه والمطلعون على أحواله بأنه كان له القدر المعلى فى هذه الثروة الغالية ، وكان له ذوق خاص فى العبادة ، والمناجاة والخلوة وكان شديد الشغف بهذه الناحية ، عظيم الانهماك فيها ، جاء فى « الكواكب الدرية » :

« وكان فى ليلة منفرداً عن الناس كلهم ، خالياً بربه عز وجل ، ضارعاً اليه ، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم ، مكرراً لأنواع التعبيدات الليلية والنهارية ، وكان إذا دخل فى الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمينا ويسرة »<sup>(٢)</sup>.

ولا شك فى أن قوة أصحاب الذوق ، وأهل القلوب ونشاطهم ، إنما يقوم على الذكر والعبادة ، فاذا اختل ذلك ، انهارت قواهم ، ويشعرون كأنهم أصيبوا بفاقة ، يقول ابن القيم :

« وكان إذا صلى الفجر يجلس فى مكانه ، حتى يتعالى النهار جداً ، يقول هذه غدوتى لو لم أتغد هذه الغدوة سقطت قواى »<sup>(٣)</sup>.

ويرزق الله سبحانه وتعالى ، الاستقامة بعد هذا الذوق والاهتمام ، فيصبح الذكر والعبادة ، والمواظبة عليهما طبيعة الانسان ، يقول العلامة الذهبى : « وله أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية »<sup>(٤)</sup>.

## الزهد فى الدنيا وازدراؤها :

لا ينبعث الدافع الصحيح الخالص للزهد فى الدنيا وازدراؤها ما لم تنكشف حقيقة الدنيا بوضوح ، وما لم يطرأ على المرء حال : « ان الدار الآخرة لهى الحيوان » ، « وما عند الله خير وأبقى » ، وذلك لا يتحقق بدون اليقين والمعرفة الصحيحة والاتصال بالله ، وقد ذكر معاصروه أحوال زهد شيخ الإسلام وتجرده من الدنيا وافتقاره إلى الله ، يقول زميله فى

---

(١) وقد ورد فى الحديث : « جعلت قرة عيني فى الصلاة » ( رواه النسائى ) ، كان النبى ﷺ يقول :

« يا بلال أقم الصلاة ارحنا بها » ( رواه أبو داؤد ) .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٦ .

(٣) الرد الوافر ص ٣٦ .

(٤) الرد الوافر ص ١٨ .

الدراسة ومعاصره الشيخ علم الدين البرزالي المتوفى سنة ٧٣٨ هـ : « وجرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر والتقلل من الدنيا ورد ما يفتح به عليه » (١) .

ومن انصبغ بهذه الصبغة ، ورزقه الله نعمة غنى القلب الخالدة ، تلاشت في عينه مملكة كسرى وقيصر ، ورأى النظر إليها كفراناً بنعمة الله تعالى ، وجحوداً لمتته ، وهو ينشد في نشوة الحب والمعرفة ما معناه :

« أنى لا أرضى باعطاء مسوحي عوضاً عن حالة الملوك ، ولا أرضى بيع فقري بملك سليمان ، ان الثروة التي نلتها في آلام الفقر لن أرضى استبدالها بتنعم الملوك » .

ومن جهل حاله يسئ به الظن ، ويتهمه بالطمع في الملك والحكم ، ولكنه يتأسف على جهله وفساد ذوقه ، ويقول : « كيف يمكن النظر إلى هذا الملك الفاني بعد هذه الثروة الغالية ، والنعمة الخالدة ؟ » وقد كانت هذه قصة الشيخ ابن تيمية ، فقد قال له الملك الناصر ذات مرة : سمعت بأن الناس أطاعوك ، وأنت تفكر في الحصول على الملك ، فرد عليه الشيخ قائلاً بصوت عال سمعه الناس الحاضرون كلهم :

« أنا أفعل ذلك ؟ ، والله إن ملكك وملك المغول لا يساوى عندي فلساً » (٢) .

### السخاء والايثار :

وما يتصف به رجال الله ، والعاملون بالسنة النبوية بصفة خاصة ، هو السخاء والايثار ، وقد بسط الحافظ بن قيم الكلام في أسباب شرح الصدر في كتابه : « زاد المعاد » وذكر ما للاحسان إلى الخلق ، ونفسهم بالمال والجاه ، والبدن من التأثير العميق في انشراح الصدر ، وطيب النفس ، ونعيم القلب » (٣) .

وقد اعترف معاصروه ، وأحبته بسخائه ، وأثنوا على جوده وانفاقه ، وقد جاء في «الكواكب الدرية » : « وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل » (٤) .

ويتحدث الحافظ بن فضل الله العمري ، أحد معاصري الشيخ عن جوده وسخائه ، فيقول : « كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيهب ذلك بأجمعه ، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه ، لا يأخذ منه شيئاً

(١) الرد الوافر ص ٦٥ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٦٦ .

(٣) راجع زاد المعاد ج ٢ ص ١٥٤ - طع المطبعة المصرية .

(٤) الكواكب الدرية ص ١٤٦ .

إلا ليهبه ، ولا يحفظه إلا ليذهبه « (١) .

وقد بلغ من السخاء والايثار ان كان يخلع ما كان عليه من ثياب ، ويقدمها إلى السائل إذا لم يجد شيئاً آخر « يقول الحافظ بن فضل الله : « كان يتصدق ، حتى إذا لم يجد شيئاً نزع بعض ثيابه فيصل به الفقراء » (٢) .

ويقول أحد الرواة : « وكان يتفضل من قوته الرغيف والرغيفين ، فيؤثر بذلك على نفسه » (٣) .

ومن مواقف الايثار المحرجة أن يعامل المرء أعداءه ومعارضيه ، برحابة الصدر ، بل بالعفو عنهم ، والاحسان إليهم ، وفوق ذلك بالدعاء والنصح ، وهذا منصب خطير لا يناله الا من تجاوز حدود الكبر والانانية ، ونسى نفسه ، وأنعم الله عليه نعمائه ورزقه من السكينة والسرور ما يذوب أمامه كل عداً ومعارضة ، فيجد قلبه عامراً بدافع النصح والرثاء لأعدائه ، وقد سبق أنه عندما أطلق سراحه في سنة ٧٠٩ هـ مرة أخرى خلا به السلطان واستفتاه في قتل أولئك القضاة الذين قاموا بحماية « جاشنكير » وأفتوا بعزل السلطان ، وزاد له السلطان قائلاً : أنهم أثاروا عليك الضجة والأقاويل ، وأذكوك ، فما وسع ابن تيمية الا أن مدحهم وأثنى عليهم أمام السلطان ، وشفع لهم بالعفو والصفح عنهم ومنعه عن قتلهم ، وقد مدحه القاضي ابن مخلوف المالكى الذى كان من أشد معارضى شيخ الإسلام ومنافسيه ، بقوله : « ما رأيت كريماً واسع الصدر مثل ابن تيمية فقد أثرتنا الدولة ضده ، ولكنه عفا عنا بعد المقدرة ، حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا » .

يقول تلميذه النجيب ورفيقه فى كل آن : « كان يدعو لأعدائه ، ما رأيت يدعو على واحد منهم ، وقد نعت إليه يوماً أحد معارضيه الذى كان يفوق الناس فى ايذائه وعدائه ، فزجرنى ، وأعرض عنى ، وقرأ : ﴿ انا لله وانا إليه راجعون ﴾ ، وذهب لساعته إلى منزله ، فعزى أهله ، وقال : « اعتبرونى خليفة له ، ونائباً عنه ، وأساعدكم فى كل ما تحتجون إليه » وتحدث معهم بلطف واکرام بعث فيهم السرور ، فبالغ فى الدعاء لهم حتى تعجبوا منه » .

ان مكانة العفو والاحسان ، والشفقة والرحمة مع الأعداء ، أرفع وأسمى من مكانة

(١) الكواكب الدرية ص ١٥٨ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٥٧ .

(٣) الكواكب الدرية .

الايثار المالى والمادى بكثير ، إنها مكانة لا يسعد بها الا الأولياء والصديقون ، وقد كان لابن تيمية قدم راسخة فى هذه المكانة ، وكأنه كان ينشد بلسان حاله ما أنشده الشاعر الربانى الذى سعد بهذه المكانة بالفارسية وهذا معناه :

« ان من ضاق صدره عن مودتى ، وقصرت يده عن معونتى كان الله فى عونته وتولى جميع شؤونه ، وان كل من عادانى وببالغ فى ايدائى لا كدر الله صفو أوقاته ولا أراه مكروهاً فى حياته ، وان كل من فرش الأشواك فى طريقي ، وضيق عليّ السبل ، ذلل له كل طريق ، وحالفه النجاح والتوفيق » .

### التواضع وهضم النفس :

ان التواضع وهضم النفس من خصائص رجال الله الخاصة ، وهو المنصب الأعلى فى الدين ، أفضل من ألف فضيلة وألف كرامة ، ولا يبلغ الانسان هذه المنزلة ، الا أن تموت الانانية ، ويتزكى قلبه من جميع الشوائب والعلائق ، وقد كان شيخ الإسلام متحلياً بهذه الفضيلة الكبرى على فضائله العلمية ، وسموه الدينى والعلمى وأقواله تشهد بما كان يتصف به من التواضع والربانية وهضم النفس ، يقول الحافظ بن قيم : أن كثيراً ما كان يقول : « ما لى شئ ، ولا منى شئ ، ولا فى شئ » ، وان مدحه أحد فى وجهه ، قال : « والله انى إلى الآن أجدد إسلامى فى كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً » (١) .

وقد يقول لمن مدحه : « أنا رجل ملة ، لا رجل دولة » (٢) .

وإذا بلغ الانسان إلى هذه المنزلة من العبودية وهضم النفس لا يرى له حقاً على أحد ولا يطلبه شئ ، ولا يعاتب أحداً ولا ينتقم لنفسه فى أى حال ، وقد بلغ به الله إلى هذه الدرجة ، يقول ابن قيم :

« سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدسس الله روجه يقول : « العارف لا يرى له على أحد حقاً ، ولا يشهد على غيره فضلاً ، ولذلك لا يعاتب ولا يطلب ولا يضارب » (٣) .  
ويعلم المطلعون على أحواله جيداً أنه فى ذلك إنما يتحدث عن نفسه ويحكى حاله .

(١) مدارج السالكين ج ١ ، ص ٦٩٦ .

(٢) الكواكب الدرية ص ١٦٤ .

(٣) مدارج السالكين ج ١ ، ص ٤٩٦ .

## السكينة والسرور :

وبعد هذا الإيمان واليقين ، وهذا الاتصال الصحيح بالله تعالى والتحرر من الخلق ، وانطلاق القلب من القيود المادية ، يحصل للعارف السكينة والسرور يذوق بهما لذة النعيم والجنة في الدنيا ، ويقول ابن القيم ، ان شيخ الإسلام قال مرة :

« ان في الدنيا جنة ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة »<sup>(١)</sup>.

ولا يخفى على أهل البصيرة أن عباد الله تعالى المخلصين ينطق عليهم وصف الله تعالى لعباده المكرمين :

﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ويذوقون هذه اللذة ويرون نموذجها في الدنيا ، ولا شك أن شيخ الإسلام ظفر بهذه النعمة ، كما ذكر أصحابه ، وقد قال مرة في حماس :

« ما يصنع أعدائي بي ؟ إن جنتي وبستاني في صدري ، ان رحمت فهي معي لا تفارقني »<sup>(٢)</sup>.

وظلت نسبة السكينة والرضا هذه ، لا تفارقه في حياته ، وبعد مماته ، يقول ابن القيم : «زرت ذات ليلة في الرؤيا ، وذكرت له بعض الأعمال القلبية ، فقال : « أما أنا فطريقي الفرح والسرور به »<sup>(٣)</sup>.

ويقول ابن القيم في « مدارج السالكين » : « هكذا كانت حاله في الحياة ، يبدو ذلك على ظاهره ، وينادى به عليه حاله »<sup>(٤)</sup>.

## الكمال في اتباع السنة :

وتبتدئ هذه المكانة ( مكانة القبول والولاية ) باتباع السنة ، وتنتهي بكمال اتباع السنة ، وقد اعترف الناس جميعاً حتى الأعداء بشغف شيخ الإسلام بالسنة وانهماكه في الحديث ، ولم يكن هذا الشغف والانهماك علمياً أو نظرياً فقط ، وإنما كان يتصل بالسنة عملياً وفي الظاهر ، وقد شهد معاصروه أنهم لم يروا جلال مكانة الرسول ﷺ والاهتمام باتباع سنته

(١) الرد الوافر ص ٦٣ .

(٢) الوابل الصيب ص ٦٦ .

(٣) اغائة اللهفان .

(٤) مدارج السالكين .

عند أحد من العلماء ، مثل ما رأوا ذلك عند شيخ الإسلام ابن تيمية ، يقول الحافظ سراج الدين البزاز ، وهو يقسم بالله :

« لا والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا أحرص على اتباعه ، ونصر ما جاء به منه »<sup>(١)</sup> .

وقد كانت هذه الناحية تستحوذ عليه ، وتسيطر على قلبه ، فكل من رآه شهد قلبه بكمال اتباعه للسنة ، وحبه العميق للرسول ﷺ ، يقول للعلامة عماد الدين الواسطي :

« ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله ، إلا أن هذا الرجل ، يشهد القلب الصحيح ، إن هذا هو الاتباع حقيقة »<sup>(٢)</sup> .

وهناك مقتطفات من كلام شيخ الإسلام الملتقطة من موسوعة معارفه المسماة بـ "فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" ، تدل على إقراره بحقيقة السلوك وضرورته ، وعمق نظره . ورسوخ علمه فيه ، يقول رحمه الله :

« فإن السلوك هو الطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق ، وهذا كله مبين في الكتاب والسنة ، فإن هذه منزلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه »<sup>(٣)</sup> .

ويقول : « وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين ، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوطة في الكتاب والسنة »<sup>(٤)</sup> .

ومن إفاداته : « وكذلك من بنى الإدارة والعبادة والعمل والسمع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدى الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه ، فقد أصاب طريق النبوة وهذه طريق أئمة الهدى »<sup>(٥)</sup> .

ومن معارفه : « أعمال القلوب التي تسمى « المقامات والأحوال » مثل محبة الله ورسوله ، والتوكل عليه وإخلاص الدين له والشكر والصبر على حكمه والخوف والرجاء له ،

---

(١) الكواكب الدرية ص ١٤٩ .

(٢) جلاء العينين ص ٨ .

(٣) ج ١٩ ، ص ١٧٣ .

(٤) ج ١٩ ، ص ٢٧٤ .

(٥) ج ١٠ ، ص ٣٦٣ .

له، وما يتبع ذلك واجبة على جميع الخلق : خاصتهم وعامتهم ، للخاصة خاصتها وللعامّة عامتها ، تفاوت أحوال القلوب وصفاتها « (١) .

### قبوله في الصالحين ، وشهادة علماء عصره له :

ان ثناء حشد من الناس لا يعتبر دليلاً على قبوله عند الله ، واستقامته وعلو منزلته ، أما إذا شهد له رجال العلم والبصيرة وأصحاب الصلاح والتقوى في عصره ، فلا شك أنه يعتبر دليلاً على قبوله وعلو منزلته ، ولا بد من أن يتصف أتباعه ومحبوّه ، وجلساؤه بالصلاح والسداد ، وحسن الاعتقاد والتقوى والاهتمام بالآخرة ، ويمتازوا من أبناء عصرهم في تدينهم ، وحسن سيرتهم ، وهذا كان شأن شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد شهد بفضلّه ، وصحة اعتقاده ، وسلامة عقيدته ، ومكانته العالية ، كبار رجال العلم والبصيرة ، وأصحاب الصلاح والرشد في عصره ، واعترفوا بعلو منزلته في ذلك ، فمدحوه وأثنوا عليه ، أما معارضوه فقد كان معظمهم ممن يتزلفون إلى الدولة ، ويطلبون الدنيا ويطمعون في الجاه والمنصب دائماً (٢) ، يقول مؤلف « الكواكب الدرية » :

قالوا ومن أمعن النظر ببصيرته ، لم ير عالماً من أهل أي بلد شاء موافقاً له إلا ورآه من أتبع علماء بلده للكتاب والسنة ، وأشغلهم بطلب الآخرة والرغبة فيها ، وأبلغهم في الإعراض عن الدنيا ، والاهمال لها ، ولا يرى عالماً مخالفاً له . منحرفاً عنه ، إلا وهو من أكبرهم تهمة في جميع الدنيا ، وأكثرهم رياء وسمعة ، والله أعلم « (٣) .

ويقول العلامة الذهبي : « وأخيف في نصر السنة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى مناره ، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له « (٤) .

### الفراصة والكرامة :

وبالرغم أن الكشوف والكرامات ، لا تعد جزءاً من الولاية والقبول ، ولا دليلهما وقد أوضح المحققون ، فقالوا : « الاستقامة فوق الكرامة » ، وهي قضية لا تقبل الجدل . ولكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى ينعم على كثير من عباده المخلصين بهذه النعمة ،

(١) ج ١٠ . ص ٢١ .

(٢) ويستثنى من هذه لكبة من عارضه لسوء تفاهم . أو اختلفوا معه في أصول بعض المسائل العملية فحسب ، وما من عام الا وقد خص منه البعض .

(٣) الكواكب الدرية ص ١٦١ .

(٤) جلاء العينين ص ٦ .



فتظهر من أيديهم أو ألسنتهم وقائع تؤيد قبولهم ووجهتهم عند الله والناس ، وقد أتفرز أهل السنة على أن ( كرامات الأولياء حق ) . وتؤيد ذلك بعض الوقائع والشواهد في الكتب والسنة أيضاً ، وقد جاء في مؤلفات شيخ الإسلام اثبات هذه الحقيقة ، وتقرير هذه المسألة .

وقد شهد معاصروه ، وتلاميذه ومحبوه ، بتلك الوقائع التي حدثت كخرق للعادة والكرامة ، واعترف بها المتأخرون ، وقالوا لا يمكن انكارها لكثرة ما عرفت ونقلت ، يقول العلامة بدر الدين العيني ، صاحب « عمدة القارئ » ، شرح صحيح البخارى « فى « تقرير الرد الوافر » :

« وهذا الامام مع جلالة قدره فى العلوم نقلت عنه على لسان جم غفير من الناس كرامات ظهرت منه بلا التباس » (١) .

والفراصة الصادقة من هذه الكرامات التى يكرم الله بها عباده المتقين وكبار المؤمنين ، وتحكى لهذه الفراسة حكايات عجيبة ، ذكر الحافظ بن القيم (٢) ، طائفة منها فى كتبه « مدارج السالكين » وغيره من مؤلفاته الأخرى ، يقول فى « مدارج السالكين » :

« ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام أموراً عجيبة ، وما لم نشاهده منها أعظم وأعظم ، ووقائع فراسته تستدعى سفراً ضخماً » .

ونظراً إلى كل ذلك قال العلامة على بن سلطان محمد القارى الهروى المتوفى بمكة المكرمة سنة ١٠١٤ هـ : « ومن طالع شرح منازل السائرين تبين له أنهما (٣) كانا من أكابر أهر السنة والجماعة ، ومن أولياء هذه الأمة » (٤) .

وقال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى المعروف بولى الله المحدث ( م ١١٧٦ هـ ) ، فى كلام طويل :

« مثل هذا الشيخ عزيز الوجود فى العالم ، ومن يطيق أن يلحق شأوه فى تحريره وتقريره ، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما أعطاه الله تعالى » (٥) .

(١) الرد الوافر ص ٨٩ .

(٢) مدارج السالكين ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

(٣) يعنى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية

(٤) المرقاة شرح المشكاة - المجلد الرابع - الصفحة ٤٢٧ .

(٥) لتفهيمات الإلهية لشيخ الإسلام ولى الله الدهلوى .



## الدور الاصلاحى والتجديدى لشيخ الإسلام ابن تيمية تجديد عقيدة التوحيد وابطال العقائد والتقاليد المشركة

### أركان الاصلاح والتجديد الأربعة فى حياة ابن تيمية :

الدور الذى مثله شيخ الإسلام ابن تيمية فى تاريخ الإسلام الدعوى الفكرى وان كان ذا جوانب علمية وعملية كثيرة يمكن توزيعه فى أربعة أجزاء ، تلك التى لها أهمية خاصة فى تاريخ الاصلاح والتجديد ، وهى كما يلى :

- ١- تجديد عقيدة التوحيد وابطال العقائد والتقاليد المشركة .
- ٢- نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وترجيح منهج الكتاب والسنة وأسلوبهما على كل منهج وأسلوب .
- ٣- الرد على الفرق والملل غير الإسلامية ، ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها .
- ٤- تجديد العلوم الشرعية .

### العقائد والتقاليد المشركة فى عهد ابن تيمية :

كانت العقائد والتقاليد المشركة نالت رواجاً بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين والعجم ونفوذ الحكومة الباطنية والاسماعيلية وتأثيرها ، وانتشار تعليمات الجهلة والضالة من الصوفية وأعمالهم ، فقد وجد عدد وجيه من المسلمين فى ذلك الحين يعتقدون فى أئمة دينهم ومشايخهم والأولياء والصالحين منهم من الاعتقادات الفاسدة ويحملون من لأفكر المشركة ما كان يعتقدده اليهود والنصارى فى عزيز المسيح عليهما السلام وأحبارهم ورهبانهم ، وكل ما كان يدور حول قبور الأولياء والمشايخ إنما كان تقليداً ناجحاً للأعمال والتقاليد التى كانت تنجز فى معابد غير المسلمين وقبور المقدسين عندهم ، فالاستغاثة منهم بالاستعانة بهم ، ومديد الطلب والضراعة إليهم كل ذلك كان عاماً شائعاً بينهم كما عمت عادة بناء المساجد الفخمة على قبورهم وجعلها مسجداً . وعقد المهرجانات عليها عاماً عاماً وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها .

وقد تفاقمت هذه العقائد السيئة وانتشرت هذه البدع والمنكرات فى أواخر القرن السابع شكل فظيع ، ولكى نقدر مدى هذا الفساد نقدم مقتطفات من مؤلفات شيخ الإسلام بكتابه نفسه ، فقد تناول فيها ذكر بعض الضلالات الشائعة فى عصره ضمن بحث أو رد

على سؤال وهى تشير بعض الشيء إلى الانحطاط الدينى ، والهجمات التى شنتها الجاهلية على قلب الإسلام فى ذلك العصر ، يقول :

« وآخرون قد جعلوا الميت بمنزلة الإله والشيخ الحى المتعلق به كالنبي ، فمن الميت يطلب قضاء الحاجات وكشف الكربات ، وأما الحى فالحلال ما حلله ، والحرام ما حرمه ، وكانوا فى أنفسهم قد عزلوا الله عن أن يتخذوه إلهاً وعزلوا محمداً ﷺ عن أن يتخذوه رسولاً ، وقد يجئ الحديث العهد بالاسلام أو التابع لهم لحسن الظن بهم أو غيره يطلب من الشيخ الميت اما دفع ظلم ملك يريد أن يظلمه أو غير ذلك ، فيدخل ذلك السادن فيقول قد قلت للشيخ ، والشيخ يقول للنبي ، والنبي يقول لله ، والله قد بعث رسولاً إلى السلطان فلان ، فهل هذا الا محض دين المشركين والنصارى ، وفيه من الكذب والجهل ما لا يستجيزه كل مشرك ونصرانى ، ولا يروج عليه ، ويأكلون من النذور ما يؤتى به إلى قبورهم ما يدخلون به فى معنى قوله تعالى ﴿ إن كثيراً من الأحرار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ﴾ (١) .

### عبادة القبور السافرة :

« فطائفة من هؤلاء يصلون إلى الميت ، ويدعو أحدهم الميت ، فيقول : اغفر لى وارحمنى ، ونحو ذلك . ويسجد لقبره ، ومنهم من يستقبل القر ويصلى إليه مستدبراً الكعبة ويقول : القبر قبله خاصة ، والكعبة قبله عامة ، وهذا يقول من هو أكثر الناس عبادة وزهداً وهو شيخ متبوع ، ولعله أمثل اتباع شيخه ، يقول فى شيخه ، وآخر من أعيان الشيوخ المتبوعين أصحاب الصدق والاجتهاد فى العبادة والزهد ، يأمر المرید أول ما يتوب أن يذهب إلى قبر الشيخ فيعكف عليه عكوف أهل التماثيل ، وجمهور هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع والدعاء وحضور القلب ما لا يجد أحدهم فى مساجد الله تعالى التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه » (٢) .

### يخشون القبور وأصحابها ولا يخشون الله :

« حتى أن طائفة من أصحاب الكبراء الذين لا يتحاشون فيما يفعلونه من القبائح كان إذا رأى قبة الميت أو الهلال الذى على رأس القبة خشى من فعل الفواحش ، ويقول أحدهم لصاحبه : ويحك هذا هلال القبة ، فيخشون المدفون تحت الهلال ولا يخشون الذى خلق

(١) الرد على البكرى ص ٢٩٨ .

(٢) أيضاً ص ٢٩٥ .

السموات والأرض ، وجعل أهلة السماء مراقبت للناس والحج ، وهؤلاء إذا نوظروا خوفوا مناظرهم كما صنع المشركون بإبراهيم عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وحاجه قومه قال أتأجوني في الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون إنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا بيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (١) .

استخفاف شعائر الله والاستهزاء بالله :

« وهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثاناً تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله تعالى عبده ويعظمون ما اتخذوه من دون الله شفعاء حتى أن طوائف منهم يستخفون حج البيت بمن يحج البيت ، ويرون أن زيارة أئمتهم وشيوخهم أفضل من حج البيت ، وهذا موجود في الشيعة وفي المنتسبين إلى السنة ، وآخرون يستخفون بالمساجد وبالصلوات الخمس فيها ، يرون أن دعاء شيخهم أفضل من هذا ، وهذا موجود في الشيعة المنتسبين إلى يونس فيسبى حتى ينشدون :

ونجعل فيه خماره	تعالوا نخرب الجامع
ونجعل منه طنباره	ونكسر المنبر
ونجعل منه زماره	ونخرق المصحف
ونجعل منه أوتاره (٢)	وننتف لحية القاضي

فاحة المشركين وجرأتهم :

« ويحلف أحدهم اليمين الغموس كاذباً ولا يجترئ أن يحلف بشيخه اليمين الغموس ذباً ، ومنهم من يقول كل رزق لا يرزقه اياه شيخه لا يريد ، ومنهم من يذبح الشاة يقول باسم سيدى ، ومنهم من يقول : أن شيخه أفضل من الأنبياء والمرسلين ، ومنهم من يعتقد فيه الالهية كما يعتقد النصارى في المسيح ، فاذا ذكروا شيخهم عظموه وادعوا له الالهية وأنشدوا على لسانه :

موسى على الطور لما خر لى ناجى	وصاحب التراب أنا جئته حتى جاء
-------------------------------	-------------------------------

(١) سورة الأنعام ص ٨١ - ٨٣ .

(٢) رد على البكرى ص ٢٥١ .

ولهم أيضاً :

وأنا صرخت فى العرش حتى ضج وأنا حملت على على حتى هج

وأنا البحار السبعة من هيبتي ترتج

العتيدة بألوهية المشايخ :

« وهؤلاء يجعلون الرسل والمشايخ يدبرون العالم بالخلق والرزق وقضاء الحاجات وكشف الكربات وهذا ليس من دين المسلمين بل النصرى تقول هذا فى المسيح وحده لشبهة الاتحاد والحلول ، ولهذا لم يقولوا ذلك فى ابراهيم وموسى وغيرهما من الرسل مع أنهم فى غاية الجهل فى ذلك » (١) .

« ومن هؤلاء من يظن أن القبر إذا كان فى مدينة أو قرية فإنهم ببركته يرزقون وينصرون. وأنه يندفع عنهم الأعداء والبلاء بسببه ، ويقولون عمن يعظمونه : أنه خفير البلد الفلانى ، كما يقولون : السيدة نفيسة خفيرة مصر القاهرة ، وفلان وفلان خفراء دمشق أو غيرها ، وفلان خفير حران أو غيرها ، وفلان وفلان خفراء بغداد أو غيرها ، ويظنون أن البلاء يندفع عن هذه المدائن والقرى بمن عندهم من قبور الصالحين أو الأنبياء» (٢) .

« حتى أن العدو الخارج عن شريعة الإسلام لما قدم من دمشق خرجوا يستغيثون ، بالموتى عند القبور التى يرجون عندها كشف ضرهم ، وقال بعض الشعراء :

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبى عمر

أو قال :

عوذوا بقبر أبى عمر ينجىكم من الضرر

فتنة المشاهد :

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاجلال والتعظيم أن تتزايد أهمية المشاهد بازاء المسجد. وتتحول المشاهد مزارات الجهلة ومراكز قضاء الحاجات والاستغاثة بها لدى هذه الطبقة ، فقد انتشرت هذه المشاهد والمزارات فى كل ركن من أركان العالم الإسلامى ، ووجدت آلاف مؤلفة من القبور المزورة ، وتصدى الأمراء والسلاطين لوقف الممتلكات

(١) الرد على البكرى ص ٣٢٨ .

(٢) الرد على الأحنائى ص ٨٢ - ٨٣ .

الأراضي الواسعة عليها وأقيمت عمارات ضخمة وقباب فخمة في أمكنة هذه القبور  
مشاهد المشايخ ، كما وجدت أمة بأسرها من العاكفين والكناسين والخدم لهذه القبور ،  
نالت الرحلة إليها كل اعجاب واهتمام حتى بدأت تصل قوافل الحجاج إليها من مسافات  
بعدة تضارع قوافل الحجيج إلى بيت الله بل تفوقها بعض الأحيان في الشوكة والزينة ،  
نحول اقبال عممة المسلمين من المساجد إلى هذه المشاهد .

وفي القرنين السابع والثامن دخلت هذه المشاهد والضرائح في حياة المسلمين الدينية  
الت عندهم من القبول والمركزية ما جعلها تنافس بيت الله وتتحداه ، ونستطيع أن نقدر  
في خطورة فتنة المشاهد هذه ، وتغلغل جذورها في أحشاء المجتمع ، وكم كان للجهلة  
المسلمين والانتهازيين من علاقة عميقة بها عن طريق كتابات ابن تيمية ومؤلفاته . ومن  
سباب التي أدت دوراً هاماً عن طريق كتابات ابن تيمية ومؤلفاته ، ومن الأسباب التي  
دوراً هاماً في توسع هذه الفتنة وتأصلها أن الدولة الباطنية<sup>(١)</sup> حكمت قرناً طويلاً في  
التي تمتد من المغرب الأقصى إلى مصر والشام ، وما يعرفه الجميع أن أهل الرافض والتشيع  
وايتصلون بالمشاهد أكثر منهم بالمساجد وبالنجف والكربلاء والمشهد أكثر منهم بالحرمين  
ريفيين .

ولو أن دولة مصر الفاطمية كانت قد انتهت قبل ولادة ابن تيمية إلا أن تأثيرها الفكري  
نضاري لم ينته بعد ، وبخاصة في الشام فقد وجد فيها عدد كبير من الشيعة  
سمايلية ممن لم تكن صحبتهم تخلو من تأثير سيئ على العامة والجهلة من المسلمين ،  
أن التصوف الدخيل الذي ابتعد عن تعاليم الإسلام في العصر الأخير الذي تحتل فيه  
هد والضرائح محلاً خاصاً من الأهمية والتقدير ، وتعد عليها اجتماعات سنوية ،  
ازدهارها ، حتى غدت وسيلة كبرى من وسائل الشرك والبدع ، يقول الامام ابن تيمية  
يتحدث عن هذه المشاهد والقبور :

### ج إلى المشاهد والقبور :

آخرون يحجون إلى القبور ، وطائفة صنفوا كتباً وسموها مناسك حج المشاهد ، كما  
أبو عبد الله محمد بن النعمان الملقب بالمفيد أحد شيوخ الامامية كتاباً في ذلك ،  
فيه من الحكايات المكذوبة على أهل البيت ما لا يخفى كذبه على من له معرفة بالنقل  
ون يسافرون إلى قبور المشايخ ، وان لم يسموا ذلك منسكاً وحجاً ، فالمعنى واحد ،

---

تعرف بوجه عام باسم الدولة الفاطمية . والحقيقة أنها دولة العبيدين .

ومن هؤلاء من يقول : « وحق النبي الذي تحج إليه المطايا ، فيجعل الحج إلى النبي لا إلى بيت الله عز وجل » (١) .

### الترجيح على الحج إلى الكعبة :

« ومن هؤلاء من يرجح الحج إلى المقابر على الحج إلى البيت ، لكن قد يقول أحدهم إنك إذا زرت قبر الشيخ مرتين أو ثلاثاً كان كحجة ، ومن الناس من يجعل مقبرة الشيخ بمنزلة عرفات ، يسافرون إليها وقت الموسم ، يعرفون بها كما يعرف المسلمون بعرفات كما يفعل هذا في المغرب والمشرق ، ومنهم من يجعل السفر إلى المشهد والقبر الذي يعظمه أفضل من الحج ويقول أحد المريدين للآخرين وقد حج سبع حجج إلى بيت الله العتيق ، أتبعني زيارة قبر الشيخ بالحجج السبع ؟ فشاور الشيخ فقال : لو بعث لكنت مغلوباً ، ومنهم من يقول : من طاف قبر الشيخ سبعمائة كان كحجة » (٢) .

### الاعراض عن المساجد والاهتمام بالمشاهد :

« وكثير من هؤلاء يخربون المساجد ويعمرون المشاهد ، فتجد المسجد الذي بنى للصلوات الخمس معطلاً مخرباً ليس له كسرة الا من الناس وكأنه خال من الخانات ، والمشهد الذي بنى على الميت عليه الستور وزينة الذهب والفضة والرخام ، والنذور تغدو وتروح إليه ، فهل هذا إلا من استخفافهم الله تعالى وآياته ورسوله وتعظيمهم للشرك ، فانهم اعتقدوا أن دعاء الميت الذي بنى له المشهد والاستغاثة به أنفع لهم من دعاء الله تعالى والاستغاثة به في البيت الذي بنى لله عز وجل ففضلوا البيت الذي بنى لدعاء المخلوق على البيت الذي بنى لدعاء الخالق ، وإذا كان لهذا وقف ولهذا وقف كان وقف الشرك أعظم عندهم ، مضاهاة لمشركي العرب الذين ذكر الله تعالى حالهم في قوله تعالى :

﴿ وجعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ (٣) .

وبهذه المقتطفات التي أوردناها يستطيع أن يقدر القارئ الكريم مدى الضلالات العقائدية ولعملية التي كان الجهلة والعامية من المسلمين قد أصيبوا بها في القرنين السابع والثامن الهجري على رغم وجود حكومات إسلامية قوية ، ووجود كبار أئمة الفن من المحدثين

(١) الرد على البكري ص ٢٩٥ .

(٢) أيضاً ص ٢٩٦ .

(٣) الرد على البكري ص ٢٥٠ .



والفقهاء والمدارس الدينية والمراكز العلمية ، وكيف كانت العقائد والأعمال المشركة قد تسربت إلى نفوس العامة منهم ، وبصرف النظر عن هؤلاء العامة والجهلة من الناس فإن كثيراً من العلماء والفقهاء وجدت الشبهات سيلاً إلى نفوسهم حول هذه العقائد والأعمال فإن كتاباتهم وفتاواهم تشير إلى أن أفكارهم لم تكن نقية في موضوع الشرك والتوحيد كما ينبغي أن تكون لرجل استفاد عقيدة التوحيد من الكتاب والسنة مباشرة ، واطلع على سيرة السلف الصالح وعقيدتهم وسلوكهم ، وتقدر وجهة نظر هذه الطبقة التي تأثرت بتقاليد عصرها الرائجة ، وعاداته القديمة من كتابات معاصر ابن تيمية الشيخ على بن يعقوب البكري والاختائى التى تصدى شيخ الإسلام ابن تيمية للرد عليها فألف كتابين مبسوطين<sup>(١)</sup> اقتطنا منهما ما مر آنفاً .

### مهمته الإصلاحية ومعارضته للعقائد المشركة :

رفع ابن تيمية لواء الجهاد والتجديد محارباً لهذه الأعمال والأفكار والتقاليد المشركة الرائجة ، مستغنياً فى ذلك عن سخط العامة ، وغضب الخاصة وعتابهم ، وضرب على جذور تلك العقائد والآراء التى كانت أساس هذه الأعمال المشركة .

والذى دفع العامة من الناس إلى زيارة هذه القبور وممارستهم لهذه الأعمال والتقاليد المشركة هو أنهم إنما كانوا يدعون أصحابها لتحقيق أغراضهم ومآربهم ، فكانوا يستغيثون ويستعيذون بهم ، وقد صرح ابن تيمية فى مؤلفاته أن دعاء غير الله لا يجوز البتة ، وهو شرك جلى دخل فيهم بجهالتهم واختلاطهم بغير المسلمين ، أنه يقول فى كتابه « الرد على البكري » :

### المنع عن الدعاء والاستغاثة بغير الله :

« فانا بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن تدعو أحداً من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم ، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها ، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا لغير ميت ونحو ذلك ، بل نعم أنه نهى عن كل هذه الأمور وإن ذلك من الشرك الذى حرمه الله تعالى ورسوله . لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة فى كثير من المتأخرين لم يكن تفكيرهم بذلك

---

(١) تخيص كتاب الاستغاثة المعروف الرد على البكري ، المطبعة السلفية مصر عام ١٣٤٦ هـ ، وكتاب الرد على الاختائى واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية ، المطبعة السلفية عام ١٣٤٦ هـ . والكتاب المذكور آخرأ على هامش المذكور أولاً .

حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه « (١) .

ويقول في مناسبة أخرى :

« ( أبعدها » عن الشرع أن يسأل الميت حاجة أو يستغيث به كما يفعله كثير من الناس بكثير من الأموات وهو من جنس عبادة الأصنام ، ولهذا تتمثل لهم الشياطين على صورة الميت أو الغائب كما كانت تتمثل لعبادة الأصنام بل أصل عبادة الأصنام إنما كانت من القبور كما قال ابن عباس وغيره « (٢) .

ويقول في موضع آخر :

« سؤال الميت والغائب نبياً كان أو غيره من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين لم يأمر الله به ولا رسوله ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين أن أحداً منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترة أو عرضت له حاجة لميت : يا سيدي فلان أنا في حسبك ، أو أقض حاجتي ، كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين ، ولا أحد من الصحابة رضی الله عنهم استغاث بالنبي ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها ، وقد كانوا يقفون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال ويشتد البأس بهم ويظنون الظنون ومع هذا لم يستغث أحد منهم بنبي ولا غيره من المخلوقين ، ولا أقسموا بمخلوق على الله أصلاً ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء ولا قبور غير الأنبياء ولا الصلاة عندها ، وقد كره العلماء كمالك وغيره أن يقوم الرجل عند قبر النبي ﷺ يدعو لنفسه وذكروا أن هذا من البدع التي لم يفعلها السلف « (٣) .

ويقول في رسالته المعروفة باسم التوسل والوسيلة :

« فان دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبتهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم هو من الدين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولاً ولا أنزل به كتاباً « (٤) .

(١) الرد على البكري ص ٣٧٧ .

(٢) أيضاً ص ٥٦ .

(٣) الرد على البكري ص ٢٣٢ .

(٤) قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة ص ١٥ .

## الحكمة فى تحريم دعاء غير الله :

ويتحدث فى هذا الكتاب عن الحكمة فى تحريم دعاء غير الله فىقول : « نهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء ، مع اخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم ، وكذلك الأنبياء والصالحون ، وإن كانوا أحياء فى قبورهم ، وإن قدر أنهم يدعون للأحياء وأن وردت به الآثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى ، بخلاف الطلب من أحدهم فى حياته ، فإنه لا يفضى إلى الشرك ، ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالأمر الكونى ، فلا يؤثر فيه سؤال السائلين ، بخلاف سؤال أحدهم فى حياته فإنه يشرع اجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم»<sup>(١)</sup> .

## أشكال وأنواع متعددة للداعين :

وفى موضع آخر لشرح ألوان وأحوال الداعين والسائلين على القبور ، ويذكر أحكام كل منهم ، فىقول :

وأما من يأتى إلى قبر نبي أو صالح أو من يعتقد فيه أنه قبر نبي أو رجل صالح وليس كذلك ويسأله ويستنجده فهذا على ثلاث درجات : أحدها أن يسأله حاجته مثل أن يسأله أن يزيل مرضه أو مرض دوابه أو يقضى دينه أو ينتقم له من عدوه أو يعافى نفسه وأهله ودوابه ونحو ذلك مما لا يقدر عليه الا الله فهذا شرك صريح يجب أن يستتاب صاحبه فان تاب والا قتل .

وإن قال : أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لى فى هذه الأمور لأنى أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه فهذا من أفعال المشركين والنصارى فمنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم فى مطالبهم ، وكذلك أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا ﴿ ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، وقال سبحانه وتعالى :

﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) قاعدة جلية فى التوسل والوسيلة ص ١٣٢ .

(٢) لزم : ٤٣ ، ٤٤ .

وقال تعالى : ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ﴾<sup>(٢)</sup> .

فهذا هو القسم الثاني وهو أن لا تطلب منه الفعل ولا تدعوه ولكن تطلب أن يدعو لك كما تقول للحى : ادع لى ، وكما كان الصحابة رضوان الله عليهم يطلبون من النبي ﷺ الدعاء فهذا مشروع فى الحى كما تقدم ، وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول ادع لنا ولا أسأل لنا ربك ، ولم يفعل هذا أحد من الصحابة والتابعين ولا أمر به أحد من الأئمة ، ولا ورد فيه حديث ، بل الذى ثبت فى الصحيح أنهم لما أجدبوا زمن عمر رضى الله عنه استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون . ولم يجيئوا إلى قبر النبي ﷺ قائلين : يا رسول الله ادع لنا واستسق لنا ونحن نشتكى اليك مما أصابنا ونحو ذلك ، لم يفعل ذلك أحد من الصحابة قط بل هو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان .

وأما القسم الثالث وهو أن يقول اللهم بجاه فلان عندك أو ببركة فلان أو بحرمة فلان عندك افعل بى كذا وكذا فهذا يفعله كثير من الناس لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، ولم يبلغنى عن أحد من العلماء فى ذلك ما أحكيه الا ما رأيت فى فتاوى الفقيه أبى محمد بن عبد السلام فانه أفتى أنه لا يجوز لأحد أن يفعل ذلك الا للنبي ﷺ ان صح الحديث . . . وقالت طائفة ليس فى هذا جواز التوسل به فى مماته وبعد مغيبه بل إنما فيه التوسل فى حياته بحضوره<sup>(٣)</sup> .

**لا يجوز للمرء أن يطلب من أى كائن حى ما وراء الأسباب الدنيوية :**

ولا يكتفى ابن تيمية باعتبار حرمة مد يد السؤال إلى شيخ ميت أو نبي أو صاحب قبر ، بل أنه يعتبر طلب كل شئ يكون وراء الاسباب الدنيوية ويتصل بالقدرة الالهية أو بالارادة المطلقة التى عبر عنها بقوله ﴿ كن فيكون ﴾ واختصه الله بنفسه وان كان ذلك انساناً حياً ، يقول فى رسالته « زيارة القبور » :

« ان مطلوب العبد ان كان من الأمور التى لا يقدر عليها الا الله تعالى مثل أن يطلب شفاء مرضه من الآدميين والبهائم أو وفاء دينه من غير جهة معينة أو عافية أهله وما به

(١) السجدة : ٤ .

(٢) البقرة : ٢٥٥ .

(٣) ملخصاً عن رسالة زيارة القبور ص ١٠٦ ، ١١٢ .

من بلاء الدنيا والآخرة وانتصاره على عدوه وهداية قلبه وغفران ذنبه أو دخوله الجنة أو نجاته من النار أو أن يتعلم العلم والقرآن أو أن يصلح قلبه ويحسن خلقه ويزكى نفسه وأمثال ذلك ، فهذه الزمور كلها لا يجوز أن تطلب الا من الله تعالى ، ولا يجوز أن يقول لملك ولا نبي ، ولا شيخ سواء كان حياً أو ميتاً اغفر ذنبي ولا انصرني على عدوى ، ولا أشف مريضى ولا عافنى ، أو عاف أهلى أو دابتى وما أشبه ذلك ، ومن سأل ذلك مخلوقاً كائناً من كان فهو مشرك بربه من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل التى يصورونها على صورهم ، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه <sup>(١)</sup> .

### حقيقة الواسطة :

ويحتوى هذا الموضوع على بحث آخر يسمى بالواسطة أو التوسط ، ويقال لمن يخالفون أن يدعى الرسل أو الشيخ أو الولي أنهم ينكرون الواسطة ، على أن من المعلوم أن النبي هو الواسطة بين الخلق والخالق ، ويستحيل الوصول إلى الله بدونها ، وقد تصدى ابن تيمية للرد على الاعتراض بطريق واضح ، وين أن هناك مفهومين للواسطة ، مفهوماً حقاً متفقاً عليه وعليه أساس الدين كله ، ومفهوماً باطلاً لا أساس له اخترعه الناس ، وقد وضع فى هذا الموضوع رسالة مستقلة باسم « الواسطة بين الخلق والحق » يقول فيها :

« ان أراد ذلك أنه لا بد من واسطة تبلغنا أمر الله فهذا حق ، فان الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعد له لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك الا بالرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده . . . وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى فانهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلغوا عن الله أمره وخبره قال تعالى :

﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ [ الحج - ٧٥ ] ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل <sup>(٢)</sup> .

« وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة فى جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة فى رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجون اليه فيه فهذا من أعظم الشرك الذى كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم

(١) رسالة زيارة القبور ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) الواسطة بين الخلق والحق ص ٤٥ ، ٤٦ .

المنافع ويجتنبون المضار» (١).

وقد غالى العامة والجهلة وكثير من الخواص أيضاً إلى حد أن اتخذوا الأولياء والصلحاء واسطة بينهم وبين الله تعالى فضلاً عن الأنبياء والرسول ﷺ فكانوا يرجعون اليهم فى كل شئ من الدعاء والاستعانة والتوكل والرجاء ، يتحدث ابن تيمية عن الفرق بين هؤلاء وأولئك فيقول :

« ومن سوى الأنبياء من مشايخ العلم والدين ، فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمتهم يبلغونهم ويعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم فقد أصاب فى ذلك ، وهؤلاء إذا أجمعوا فاجماعهم حجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة وان تنازعوا فى شئ رده إلى الله والرسول ، إذا الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك الا رسول الله ﷺ ، وان أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذى بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه ، فالله إنما يهدى عباده ويرزقهم بتوسطهم ، فالخلق يسألونهم وهم يسألون وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملوك لكونهم أقرب إلى الملك من الطلب للحوائج ، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فان تاب والا قتل ، وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أندادا» (٢).

### المشاهد بدعة قبيحة :

يعارض ابن تيمية بعنف وصراحة هذه المشاهد و« المزارات » التى كانت قد تحولت فى العالم الإسلامى كله إلى مرتع للشرك والبدع والفسق والفجور وألوان من المنكرات ، وظهرت فيه كفتنة عظيمة ، ويعتبرها ابن تيمية معارضة مكشوفة للشريعة وبدعة قبيحة فى الزمن المتأخر يقول فى « الرد على البكرى » :

« وكذلك المساجد المبنية على القبور التى تسمى المشاهد محدثة فى الإسلام والسفر إليها محدث فى الإسلام لم يكن شئ من ذلك فى القرون الثلاثة المفضلة ، بل ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ،

(١) الواسطة بين الحق والحق ص ٤٦ .

(٢) أيضاً ص ٤٧ - ٤٨ .

يحذر ما فعلوا ، قالت عائشة رضى الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً ، وثبت فى الصحيح عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس : ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فانى أنهاكم عن ذلك « (١) .

ويتقدم فيقول : « وأيضاً فلما فتح المسلمون تستر وجدوا فيها قبر دانيال عليه السلام وكان أهل البلد يستسقون به ، فكتب فى ذلك أبو مرسى إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه : أن أحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً وادفنه فى الليل فى واحد منها لئلا يفتن به الناس فيستسقون به ، فهذه كانت سنة الصحابة رضوان الله عليهم ولهذا لم يكن فى زمن الصحابة والتابعين لهم باحسان على وجه الأرض فى ديار الإسلام مسجد مبنى على قبر ولا مشهد يزار ، لا الحجاز ولا باليمن ولا الشام ولا مصر ولا العراق ولا خراسان « (٢) .

### ويقول فى كتاب آخر :

« وأما الحجاج إلى القبور والمتخذون لها أوثاناً ومساجد وأعياداً فهؤلاء لم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم منهم طائفة تعرف ، ولا كان فى الإسلام قبر ولا مشهد يحج إليه ، بل هذا إنما ظهر بعد القرون الثلاثة ، والبدعة كما كانت أظهر مخالفة للرسول يتأخر ظهورها ، وإنما يحدث أولاً ما كان أخفى مخالفة للكتاب والسنة « (٣) .

### المشاهد « منحة » الروافض والباطنية :

أنه يعتقد أن الروافض والباطنية هم الذين أحدثوا بدعة المشاهد ، ووضعوا أحاديث تؤيد مذهبهم فيها ، وذلك لأنهم معجبون فى الحقيقة بقبور أئمتهم ومشاهدهم ، يقول : « وأول من وضع هذه الأحاديث فى السفر لزيارة المشاهد التى على القبور أهل البدع من الروافض ونحوهم الذين يعطلون المساجد ويعظمون المشاهد التى يشرك فيها ويكذب فيها ويتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطاناً فان الكتاب والسنة إنما فيهما ذكر المساجد دون المشاهد كما قال تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه لخلصين له الدين ﴾ وقال : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ وقال : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ وقال : ﴿ ولا تبشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ ،

(١) الرد على البكرى ص ٣٣٣ .

(٢) أيضاً ص ٢٨٣ .

(٣) الرد على الاخوانى ص ١٠٢ .

وقد ثبت عنه صَلَّى أنه كان يقول : « ان من كانوا قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك » <sup>(١)</sup> .

### معظم هذه المشاهد والقبور مزورة :

وقد حقق ابن تيمية أن معظم هذه المشاهد والقبور مزورة مفترضة ، وما أحسن ما يقول في تأييد هذا المعنى :

« وكثير من المشاهد كذب وكثير منها مشكوك فيه ، وسب ذلك أن معرفة المشاهد ليست من الدين الذى تكفل الله بحفظه وللأمة لعدم حاجتهم إلى معرفة ذلك » <sup>(٢)</sup> ، ولذلك فقد وقع فيها التزوير بصفة عامة ، وكثير منها تزوير بحت لا يستند إلى أى أصل ولكن ينخدع به خلق كثير .

### قصص يزورونها لانجاز أغراضهم من المشاهد :

ومن الفتن التى شاعت وانتشرت فى الناس هى أن هذه المشاهد والقبور توفر الشفاء للمرضى المزمين ، ويستجاب عندها الدعاء وكان الناس يتحدثون فى ذلك عن تجاربهم ومشاهداتهم الشخصية ، ولكن ابن تيمية لم يكن ليتأثر بمثل هذه الاشاعات والدعاوى الكاذبة لما كان يتمتع به من الرسوخ فى الدين وقوة الإيمان واليقين ولم يكن ليترك قطعيات الدين ومنصوصات الكتاب والسنة لمجرد اشاعات وروايات يتناقلها الناس ، أنه ظل قائماً على فراسته الإيمانية وفهمه النير للدين وأثبت أن هذه الاشاعات والدعاوى كلها وهم على وهم لا يمت إلى الحق والصدق بصلة ما ، وكثيراً ما كان الناس يروون عن شفاء الحيوانات والبهائم على هذه المشاهد والقبور ، ولكن ما ذكره ابن تيمية لهذه الأحاديث من تأويل عجيب إنما يستلقت الأنظار وينور الأبصار ، أنه يقول :

« وكان بالبلد جماعة كثيرون يظنون فى العبيدين أنهم أولياء الله تعالى صالحون فلما ذكرت لهم أن هؤلاء كانوا منافقين زنادقة وخيار من فيهم الراضة ، جعلوا يتعجبون ويقولون : نحن نذهب بالفرس التى بها مغل إلى قبورهم ، فقلت لهم : هذا من أعظم الأدلة على كفرهم وطلبت طائفة من سياس الخيل فقلت : أنتم بالشام ومصر إذا أصاب الخيل المغل أين تذهبون بهم ؟ فقالوا : فى الشام نذهب بها إلى القبور التى ببلاد الاسماعيلية كالعليقة والمنقية ونحوهما ، وأما فى مصر فيذهب بها إلى دير هناك للنصارى

(١) أيضاً ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) الرد على البكرى ص ٣١٢ .



ونذهب بها إلى قبور هؤلاء الأشراف ، وهم يظنون أن العبيدين شرفاء لما أظهروا أنهم من أهل البيت ، فقلت : هل تذهبون بها إلى قبور صالحى المسلمين مثل قبر الليث بن سعد والشافعى وابن القاسم وغير هؤلاء ؟ فقالوا : لا ، فقلت لأولئك : اسمعوا إنما يذهبون بها إلى قبور الكفار والمنافقين وبينت لهم سب ذلك ، قلت : لأن هؤلاء يعذبون فى قبورهم والبهائم تسمع أصواتهم كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح فاذا سمعت ذلك فزعت ، فبسبب الرعب الذى يحصل لها تنحل بطونها فتروث ، فان الفزع يقتضى الاسهال ، فيعجبون من ذلك ، وهذا المعنى كثيراً ما كنت أذكره للناس ولم أعلم أحداً قاله ، ثم وجدته قد ذكره بعض العلماء «(١)» .

### تمثيل الشياطين للمشركين :

ويتحدث ابن تيمية عن علة ما يحدث على قبور الأولياء والصالحين من استجابة الدعاء وانقضاء الحاجة ، ومن كلام صاحب القبر وزيارته ، فيقول :

« وكثير من هؤلاء اذا استغاث بالشيخ رأى صورته وربما قضى بعض حاجته فيظن أنه الشيخ نفسه أو أنه ملك تصور على صورته وان هذا من كراماته فيزداد به شركاً وفيه مغالاة، ولا يعلم أن هذا من جنس ما تفعله الشياطين بعباد الأوثان ، حيث تتراءى أحياناً لمن تعبدها وتخاطبهم ببعض الأمور الغائبة وتقضى لهم بعض الطلبات ، ولكن هذه الأمور كلها بدع محدثة فى الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضلة » (٢) .

### ويقول فى مكان آخر :

« ان هذه الشياطين تتصور على صورة المستغاث به ، وحكى لى غير واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن استغاث بهم مثل ذلك ، وحكى خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فرأوا مثل ذلك واستفاض هذا حتى عرف أن هذه من الشياطين تغرى الانسان بحس الامكان فان كان ممن لا يعرف دين الإسلام أوقعته فى الشرك الظاهر والكفر المحض فأمرته ألا يذكر وأن يسجد للشيطان ويذبح له وأمرته بأكل الميتة والدم وفعل الفواحش وهذا يجرى كثيراً فى بلاد الكفر المحض وبلاد فيها كفر وإسلام ضعيف ويجرى فى بعض مدائن الإسلام فى المواضع التى يضعف إيمان أصحابها ، حتى قد جرى ذلك فى مصر والشام على أنواع يطول وصفها وهو فى أرض الشرق قبل ظهور الإسلام فى التار كثير جداً وكلما

(١) أيضاً ص ٣١٠ ، ٣١١ .

(٢) الرد على البكرى ص ٢٣٣ .

ظهر فيهم الإسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم» (١) .  
يقول ابن تيمية أن ذلك لا يحدث مع الصالحين فقط ، بل يحدث ذلك لعباد الكواكب  
أيضاً ، ويحصل لهم مثل هذه الانتصارات والأحاسيس :

« والذين يدعون الكواكب تنزل عليهم أشخاص يسمونها روحانية الكواكب وهو شيطان  
نزل عليه لما أشرك ليغويه كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم أحياناً لبعض الناس  
وتتراءى للسنة أحياناً ولغيرهم أيضاً » (٢) .

### دور ابن تيمية في اصلاح العقيدة وتأثيره :

ان القرنين السابع والثامن ( وقد مضى الحديث عن خصوبتهما وانتاجاتهما في أول  
الكتاب ) وان كانا حافظين بكبار العلماء والشيخوخ ، وكان العمل في كل مجال من مجالات  
التأليف والوعظ والارشاد والدعوة والتبليغ مستمراً بكل قوة لا يترك مجالاً للشك في أن  
العلماء الراسخين وحملة الكتاب والسنة لا بد أنهم قد استنكروا هذا الشرك الجلى والجاهلية  
الوثنية كل الاستنكار ، وعارضوها بالقلم واللسان ، ولكن ابن تيمية يمتاز بأنه كان في  
طليعة العلماء الذين رفعوا راية الجهاد لمحاربة هذا الوضع ، وتصدوا لمقاومة هذه الفتنة  
الكبرى رغم اشتغالهم وبحثهم في العلم ، وخاطبوا عقول الجماهير وتبنوا مهمة الرد على  
الشرك الصريح ، غاية حياتهم وكانوا يتمتعون بمكانة عالية في العلم والدين وخلفوا ذخيرة  
علمية ذات قيمة كبيرة في هذا الموضوع تخلد شخصيتهم وتجدد مهمتهم الاصلاحية حيناً  
لآخر .

والحقيقة أن مقاومة هذه الفتنة العامة وشرح عقيدة التوحيد ، وبعث الفكر الإسلامى  
الصحيح ، واستعراض هذه التقاليد والعقائد المشركة التى كانت تغطى المجتمع وتسيطر  
عليه ، والرد عليها رداً قوياً حاسماً ، كل ذلك كان يحتاج إلى شخصية ابن تيمية القوية ،  
وطبيعة التوحيد تأبى أن تلوذ بالتأويل والمداهنة أو المحاباة أنها تتطلب خطاب الأنبياء  
الواضح الحاسم وأسلوب دعوتهم الصريح الذى يتسم بميزة « الفرقان » ولا شك أن ابن  
تيمية إنما قام بمسؤولية النيابة عن الأنبياء فى عصره ، وعمل بمصداق ﴿ فاصدع بما تؤمر  
وأعرض عن المشركين ﴾ حتى أن هذه العقائد والتقاليد الباطلة التى كانت قد عمت فى  
المجتمع الإسلامى باختلاط غير المسلمين وصحبتهم وتأثير الفرق الضالة والمغرضين قد

(١) تفسير سورة الإخلاص ص ١١٨ .

(٢) كتاب النبوات ص ٢٧٤ .

هزمت وذهبت ريحها وتمثلت عقيدة التوحيد التي تركز عليها دعوة الأنبياء وتعتبر غايتهم  
كبرى بلامح أوضح وأجمل من جديد ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن  
منة ﴾ .

ان هذا العمل الذى قام به ابن تيمية كفاه دليلاً على ما خصه الله به من مكانة عالية فى  
جال الاصلاح والتربية والدعوة والتجديد ، وقد وجد بتأثير كتاباته ومؤلفاته رجال من  
مل الدعوة والتربية بين حين وآخر ممن رفعوا راية الجهاد ضد هذه التقاليد و « الوثنية  
لجاهلية » بكل صدع واعلان وارتفع صوت القرآن مدوياً عالياً ﴿ الا الله الدين الخالص ﴾  
رتج له العالم الإسلامى وتجاوبه السهل والجبل .



## نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام

### وترجيح أسلوب الكتاب والسنة

#### مهمة الاصلاح والتجديد الثانية :

أما مهمة الاصلاح والتجديد الثانية التي قام بها شيخ الإسلام ابن تيمية فهي أنه تناول الفلسفة والمنطق وعلم الكلام بنقد مفصل ، وأثبت فضل أسلوب الكتاب والسنة ازاء هذه العلوم مؤيداً بالدلائل والبراهين ، ولكي نقدر مدى عظمة هذه المهمة يجب أن نعرف ما كان يتمتع به المنطق والفلسفة من مكانة عالية في العالم الإسلامي وما كان لهما من سيطرة على الأفكار والآراء وفي مثل أي ظرف وبيئة قام شيخ الإسلام بمهمته هذه ؟

#### تأثير فلسفة اليونان وسيطرتها على العالم الإسلامي :

لا يخفى أن مهمة ترجمة كتب الفلسفة والمنطق اليوناني كانت قد بدأت منذ عهد الخليفة المنصور عام ١٣٦ هـ ، وكان المعتزلة قد درسوا هذه الكتب واستفادوا منها ، ومنذ ذلك العهد دخلت في كتبهم مصطلحات الفلسفة اليونانية ، إلا أن علوم اليونان ازدهرت في الحقيقة من عصر المأمون ، ذلك الذي أشرف على حركة الترجمة إشرافاً ملكياً واحتضن هذه الحركة ، فقد كان من أحرص الناس على هذه العلوم ، وأكثرهم تقديراً لها ، فقد ذكر صاعد الأندلسي في كتابه « طبقات الأمم » أنه طلب من ملوك الروم كتب حكماء اليونان فأرسلوا اليه مؤلفات أفلاطون وأرسطو وبقراط وجالينوس وأقليدس وطليموس كهديّة ، وأمر المأمون بترجمتها في غاية من الاهتمام ، وحث الناس على دراستها وفي عهده نالت هذه المؤلفات رواجاً عاماً ونالت الفلسفة ازدهاراً كبيراً وأقبل الشباب هم الآخرون على اتقان هذه المواد وجاء به كل كهديّة غالية إلى بلاط المأمون السخي وأكرموا بالجوائز والصلات والمناصب العالية ، وهكذا فان الدولة العباسية أصبحت منافسة للدولة الرومية في هذه العلوم<sup>(١)</sup> .

وظل عمل الترجمة هذا مستمراً إلى ما بعد المأمون ، وفي التاريخ ما يدل على أن ذخائر جبهة من علوم اليونان كانت قد انتقلت إلى العربية حتى القرن الرابع الهجري<sup>(٢)</sup> .

(١) طبقات الأمم ص ٤٧ .

(٢) وللإطلاع على التفاصيل ، راجع فهرس ابن نديم ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وأخبار الحكماء للقفطي ، وما إلى ذلك .

وعلى أن هذه الذخيرة العلمية إنما كانت تحتوى على مؤلفات وتحقيقات أفلاطون وغيره من حكماء اليونان ، إلا أن كتب أرسطو نالت القبول والاعجاب فى أوساط العالم الإسلامى العلمية والمدرسية أكثر من غيره ، ولعل ذلك جاء من قبل المترجمين الذين كانوا فى الغالب من النصارى النسطوريين واليعقوبيين ، ومن فلاسفة جند يسابور وحران ، إما لاتجاهاتهم الشخصية ، أو لأن عصر أرسطو أقرب بالنسبة إلى غيره وأن كتبه تحتوى على مباحث الفلاسفة المتقدمين بشكل أكثر تدويناً وترتيباً ، حتى أصبحت هى الأخرى ممثلة لفلسفة اليونان ، والحامية لها ، ورمز الفلسفة وآيتها فى العالم الإسلامى ، ومن سوء حظ العالم الإسلامى أنه لم يحظ من فلاسفة اليونان إلا بمن كان أبعد وأجهل من الجميع فى تفهم روح الأديان السماوية ، مفاهيمها وحقائقها وكان أكبر داعية للفكرة المادية ومن كبار أنصارها ومؤيديها ( وستأتى تفاصيل البعض منهم فى كتابات الامام ابن تيمية وانتقاداته ) .

### عهد تقليد الفلسفة :

فى أول الأمر رفض علماء الفلسفة فى العالم الإسلامى قبول فلسفة أرسطو ومنطقه على علاتها ، وما رأوه فوق النقد والتحقيق ، بل تصدى كثير منهم وألفوا كتباً فى الرد عليها ، وتناولوا بحوثه الفلسفية والمنطقية بالنقد الحر ، وتجاهروا بكل ما ظهر عليهم ضعفه وركاكته ، وكان المعتزلة أول من حملوا لواء ذلك ويجدر بالذكر منهم النظام وأبو على الجبائى ورجاء حسن بن موسى النوبختى فى القرن الثالث فألف «كتاب الآراء والديانات» ، ورد على بعض المسائل المنطقية لأرسطو ، كما ألف الامام أبو بكر الباقلانى كتاباً باسم «الدقائق» فى القرن الرابع ، فند فيه الفلسفة ، وأثبت فضل منطق العرب على منطق اليونان ، أما فى القرن الخامس فنهض العلامة عبد الكريم الشهرستانى صاحب كتاب «الملل والنحل» وألف كتاباً فى الرد على برقلس وأرسطو ، ونقض فيه دلائلها وفق قواعد المنطق ، وفى أواخر هذا القرن نفسه تصدى الإمام الغزالى كمنافس للفلسفة وألف كتابه المعروف باسم «تهافت الفلاسفة» ذلك الذى أحدث ضجة فى إيوان الفلسفة بقيت إلى قرن كامل<sup>(١)</sup> ، وقام أبو البركات البغدادى فى القرن السادس فواصل هذا العمل وتقدم به إلى الامام ، وألف كتاباً باسم «المعتبر» أصبح موضع البحث والنقد فيما بعد ، أبطل فيه أفكار أرسطو فى معظم المسائل ، وفى هذا القرن برز الإمام فخر الدين الرازى (٣٠٦ هـ) «كمحام» لتكلمى الإسلام والأشاعرة ، واستهدف الفلسفة لإيراداته .

(١) اقرأ التفاصيل فى المجلد الأول من هذا الكتاب .

أما الأوساط العلمية في العالم الإسلامي التي كانت تعتبر حاملة لواء الفلسفة اليونانية في الواقع وترجمانها ، ظلت مسحرة بشخصية أرسطو وعظمته ، وكانت تراه - كما كان نقد وتحقيق ، وكان هذا الهيام والإعجاب بشخصية أرسطو يتزايد مع مرور الأيام لدى علماء الفلسفة ، ويكاد يحتل في أوساط الفلسفة محل القدسية والعظمة ، فكل خلف يفوق سلفه في تقديسه وتعظيمه ، يقول أبو نصر الفارابي المتوفى ( ٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م ) عن أفلاطون وأرسطو :

« وكان هذان الحكيمان هما المبدعان للفلسفة والمنشئان لأوائلها وأصولها ، والمتممان لأواخرها وفروعها ، وعليهما المعول في قليلها وكثيرها » (١) .

وهذا « أبو علي سينا » ( م ٤٢٨ هـ ) أكثر اعترافاً بعظمة أرسطو وسلطانه من الفارابي ، إنه يقول في كتابه « الشفاء » ما معناه : « إن أرسطو مضى عليه أمد طويل إلا أن لقضايا والتحقيقات التي أدلى بها لم تحتج إلى زيارة » (٢) .

ولم تنجب أوساط الفلسفة بعد أبي علي سينا أي عالم و « محام » للفلسفة أكبر من ابن رشد ( م ٥٩٥ هـ ) إنه يتقدم خطوة في تقديس وتعظيم أرسطو من أبي علي سينا أيضاً ، راسمحو لي بهذه المناسبة أن أعبر عن ذلك لما اعتاده المتصوفون من كلمة « التفاني في لشيخ » يتحدث أحد مترجميه عن خصيسته هذه فيقول :

« أما تمجيد ابن رشد لأرسطو فلا حد له فيكاد يؤلّفه ، وقد وضع له أوصافاً تجعله فوق درجات الكمال الانساني عقلاً وفضلاً ، ولو كان ابن رشد يقول بتعدد الالهة لجعل أرسطو ب الأرباب » (٣) .

وفي القرن السابع تبرز شخصية نصير الدين الطوسي ( م ٦٧٢ هـ ) في أوساط فلسفة ذلك الذي عرفته حلقات المدارس الفلسفية بالمحقق الطوسي ، وكان العالم الإسلامي قد أصابته دهشة الفتح ، وأصيب بالذهول في هذا الزمن بهجوم التتر وسقوط نداد ، وأظل العالم الإسلامي كله انحطاط علمي عام ، وقد كان نصير الدين الطوسي ، هو حامل لواء العلم والفلسفة اليونانية وهو من مقربي هلاكوخان ومستشاريه ، وتولى

(١) الجمع بين رأيي الحكيمين .

(٢) مأخوذ من مقال العلامة شبلي النعماني « بين الإسلام وفلسفة اليونان » المنشور في مجلة « الندوة » ج ١ ، رواية عن كتاب « الشفاء » .

(٣) تاريخ فلاسفة الإسلام في الشرق والغرب ، لطفى جمعة ص ١٥٥ .

تلاميذه أمور التدريس والتأليف ( وأخص بالذكر منهم قطب الدين الشيرازي وسميه قطب الدين الرازي ) وعلى يدهم وجد ذلك المنهج الخاص للتعليم السائد في إيران ، الذي به فيه المنطق والفلسفة محلاً رئيسياً وقد كان نصير الدين الطوسي يتصل بالمدرسة التي كان تعتبر أرسطو العقل الكل ، وترى في نظراته وتحقيقاته المرجع الأخير ، وقد دافع عن فلسفة أرسطو مخالفاً للإمام الرازي ، وكان قد نفخ في فلسفة أرسطو روحاً جديدة .

### المحاسبة العلمية للفلسفة والمنطق ومأثرة ابن تيمية في هذا المجال :

ولد شيخ الإسلام ابن تيمية قبل وفاة نصير الدين الطوسي بعشر سنين ، وكان للفلسفة والمنطق اليونانيين غلبة وازدهار عظيم ، بتأثير نصير الدين الطوسي وتلاميذه البارعين وكان يعتبر منتهى الذكاء ومقياس الفضل آنذاك أن يفهم المرء مسائلهما وبحوثهما ، و يكن لأحد أن يتجرأ على القول بازائهما أو ضدهما ، ولم يكن المحدثون والفقهاء فرس هذا الميدان ، وجل ما كان يسعهم هو أن يفتوا بحرمتها ، إلا أن هذا السيل ما كان يقف بهذا ومثله من الأعمال ، فقد كان العالم الإسلامي كله يعيش تحت ضغطهما ، ولقد كالتشكك والارتياب جولة في بعض الأوساط التي كانت تتصل بالفلسفة اليونانية مباشرة ويوجد فيها اتجاه نحو انكار حقائق الأشياء ، أما الطبقة التي ابتعدت عنها ولم تتصل بمباشرة فقد وقعت فريسة مركب النقص والشعور بالعجز .

ولمحاربة هذا الوضع كانت الحاجة ماسة إلى نقد صريح واستعراض علمي حر للفلسفة والمنطق ، وإلى ازالة الستار عن مواضع ضعفها العلمية ، وقد أنجز حاجة الساعة هـ شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقام بنقد الفلسفة اليونانية ومحاسبتها العلمية مؤيداً بحجج بالدلائل والبراهين ، وناظر أرسطو مناظرة علمية وجهاً لوجه ، ذلك الذي كان علمه الفلسفة يعتبرونه شخصية فوق مستوى البشر ، وغنية عن النقد والرد .

ولكن لندرك مكانة عمله هذا وطبعته ، ونعلم معيار نقده ومحاسبته ، ووجهة نظره وأساس خلافه معه نرجع إلى كتبه ونقتطف فيما يلي ملخصات من كتاباته بعناوين مختلة ومقتطفات من كتب تبين وجهة نظره وأسلوب تفكيره .

### الاعتراف بالطبعيات والرياضيات :

إن رأيه في تلك الذخيرة العلمية التي تنتمي إلى أرسطو وفلاسفة اليونان متزن معتدل إنه يفرق بين الطبعيات والرياضيات والالهيات ، ويعترف بصحة معظم مسائل الطبعيات والرياضيات وبذكاء علماء اليونان في هذا الموضوع ، كما فعل ذلك الامام الغزالي يقول ف



إحدى المناسبات :

« نعم لهم فى الطبعيات كلام غالبه جيد ، وهو كلام كثير واسع ، ولهم عقول عرفوا به ذلك ، وهم يقصدون الحق لا يظهر عليهم العناد »<sup>(١)</sup> .

كما يعترف فى محل بوضوح بالغ أن الطبعيات والرياضيات وما إلى ذلك موضوع خاص بفلاسفة اليونان ومجال تفكيرهم ودراستهم ، يقول :

« لكن لهم معرفة جيدة بالأمر الطبيعية وهذا بحر علمهم وله تفرغوا وفيه ضيعوا زمانهم »<sup>(٢)</sup> .

إنه يبدى رأيه فى العلم الرياضى لليونان ، يقول فى كتابه الشهير «الرد على المنطقيين» :  
« فهذه الأمور وأمثالها مما يتكلم فيه الحساب أمر معقول مما يشترك فيه ذور العقول ، وما من أحد من الناس إلا يعرف منه شيئاً فانه ضرورى فى العلم ، ضرورى فى العمل ، ولهذا يمثلون به فى قولهم : الواحد نصف الاثنى ، ولا ريب أن قضاياه كلية واجبة لقبول ، لا تنتقض البتة »<sup>(٣)</sup> .

### فلسفة الالهيات ، المجال الرئيسى للخلاف :

إن الجانب المهم الذى يعارضه ابن تيمية فى فلسفة اليونان هو جانب « الالهيات » إنه يؤكد عجز فلسفة اليونان عن إدراك سر الإلهيات وفقرها وقلة بضاعتها فى ذلك ، ويثبت مرة لأخرى إخفاق فلاسفة اليونان وخيبتهم وجهلهم بذلك ، إنه يعتقد أن هذا الجانب المهم م يكن مجالاً لفلسفة اليونان ولا مضمراً لتفكير فلاسفتها وموضع بحث لدراستهم ، إنهم بخوضهم فى هذا الموضوع إنما تعدوا حدودهم ، ومهدوا الطريق لتحقير شأنهم الضحك عليهم يقول :

« للمتفلسفة فى الطبعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الإلهيات ، فانهم أجهل بأسر بها وأبعدهم عن معرفة الحق فيها ، وكلام أرسطو معلمهم فيها قليل كثير الخطأ »<sup>(٤)</sup> .  
فى موضع آخر حيث يعترف باطلاعهم على الطبعيات ويذكر إفلاسهم فى الإلهيات  
قول :

(١) الرد على البكرى ص ١٤٣ .

(٢) تفسير سورة الإخلاص ص ٥٧ .

(٣) الرد على المنطقيين ص ١٣٤ .

(٤) معراج الوصول ص ١٨٦ .

« وأما معرفة الله تعالى فحظهم منها مبخوس جداً ، وأما ملائكة وكتبه ورسله فلا يعرفون ذلك البتة ، ولم يتكلموا فيه لا بنفى ولا باثبات ، وإنما تكلم فى ذلك متأخروهم الداخلون فى الملل » (١) .

يقول ابن تيمية أن أساطين فلسفة اليونان وأركانها يعترفون هم أنفسهم بأنهم لا يملكون وسائل ومبادئ اكتساب هذا العلم ، وصرحوا بأن التوصل إلى اليقين فى هذا الموضوع يصعب عليهم أيما صعوبة ، يقول :

« بل قد صرح أساطين الفلسفة ، أن العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين ، إنما يتكلم فيها بالأحرى والأخلق ، فليس لهم فيها الا الظن وأن الظن لا يعنى من الحق شيئاً » (٢) .

### المقارنة بين الإلهيات اليونانية وعلوم الأنبياء وتعاليمهم :

إنه يتعجب حينما يتناول مباحث العلوم الإلهية لفلسفة اليونان وأقوال فلاسفتهم الذير يقرونونها بالعلوم والحقائق التى يأتى بها الأنبياء عليهم السلام ، يقول فى حماس زائد وقو بالغة :

« إذا نظر فى كلام معلمهم الأول - أرسطو - وتدبره الفاضل العاقل لم يفده إلا العذل بأنهم كانوا من أجهل الخلق برب العالمين ، وصار يتعجب تعجباً لا ينقضى ممن يقرن عد هؤلاء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء ، ويرى أن هذا من جنس من يقرن الحدادين بالملائكة بل من يقرن دهاقين القرى بملوك العالم ، فهو أقرب إلى العلم والعدل ممن يقرن هؤلاء بالأنبياء ، فان دهقان القرية متول عليها كتولى الملك على مملكته ، فله جزء من الملك » .

« وأما ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء البتة ، وليسوا قرييين منه ، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية ، ولست أعنى ذلك ما اختص الأنبياء بعلمه من الوحي الذى لا ينال غيرهم ، فإن هذا ليس من علمهم ولا من علم غيرهم ، وإنما أعنى العلوم العقلية التى بينها الرسل للناس بالبراهين العقلية فى أمر معرفة الرب وتوحيده ومعرفة أسمائه وصفاته ، وفى النبوات والمعاد ، وما جاءوا به من مصالح الأعمال التى تورث السعادة فى الآخرة ، فان كثيراً من ذلك لم يشموا رائحتها ، ولا فى علومهم ما يد عليها ، وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذلك أمر أعظم من أن يذكر فى ترجيحه على الفلسفة ، وإنما المقصود الكلام فى العلوم العقلية دع ما جاءت به الأنبياء

(١) تفسير سورة الإخلاص ص ٥٧ .

(٢) نقض المنطق ص ١٨٧ .

به الأنبياء فانه مرتبة عالية « (١) .

## جهل فلاسفة اليونان وانكارهم :

ويشرح ابن تيمية الأسباب التي دعت فلاسفة اليونان إلى الجهل بالعلوم الإلهية وقصر باعهم فيها وفي كثير من الحقائق الغيبية ، وإنكار الموجودات ، يقول :

« أما الغيب الذي تخبر به الأنبياء والكلييات العقلية التي تعم الموجودات كلها ، وتقسم الموجودات قسمة صحيحة فلا يعرفونها ألبتة ، فان هذا لا يكون من أحاط بأنواع الموجودات وهم لا يعرفون إلا الحساب وبعض لوازمها ، وهذا معرفة بقليل الموجودات جداً فان ما لا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدراً وصفة مما يشهدونه بكثير ، ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا إخبار الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسى والجنة والنار ، وهم يظنون أن لا موجود إلا ما علموه ، وهم والفلاسفة يصيرون حائرين متأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه ، وإن كان هذا لا دليل عليه وليس لهم بهذا النفي علم ، فان عدم العلم ليس علماً بالعدم لكن نفيم هذا كنفى الطبيب للجن لأنه ليس في صناعة الطب ما يدل على ثبوت الجن ، وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نفيماً لما لا يعلمه وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به ، قال تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ [ يونس - ٣٩ ] « (٢) .

## اليونان عباد الكواكب والأوثان :

يتبين من تاريخ يونان القديم أن يونان التي منحت العالم تراثاً واسعاً من علوم الطبيعة والرياضية ، وتولت قيادة الدنيا العقلية والفكرية لآلاف من السنين ظلت تعبد الكواكب والأصنام في معظم أجزاء تاريخها ، وكانت فريسة الأوهام والخرافات الكثيرة . إن التاريخ الجديد قد أزاح الستار عن وجه علم الأصنام في اليونان ووثقتها القومية ، فلم يعد الآن من شك أن يونان القديمة كانت ترزح تحت نير الآلهة والإلهات ومعابد الكواكب وهياكلها . إن فلسفة اليونان التي وصلت إلى العالم الإسلامي عن طريق الترجمة ثم انتقلت إلى أوروبا إنما هي مصطبغة بصبغة الوثنية وعبادة الكواكب هذه . لقد نقل فلاسفة اليونان عقائدهم الدينية وأفكارهم المشركة إلى مصطلحات الفلسفة الهائلة ، وتلقاها علماء الفلسفة المسلمون

(١) الرد على المنطقيين ص ٣٩٥ - ٣٩٤ .

(٢) تفسير سورة الإخلاص ص ٦٠ - ٣٥٩ .

- الذين لم يكونوا مطلعين على تاريخ اليونان الديني - كحقائق علمية ، وجعلوها موضع دراستهم وتفكيرهم ، وبذلوا جهودهم لإثباتها ، ومما يدل على ذكاء ابن تيمية وألمعيته أنه كشف الستار عن هذه النقطة قبل قرون ، يقول :

« أما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركاً وسحراً ، يعبدون الكواكب والأصنام ، ولهذا عظمت عنايتهم بعلم الهيئة والكواكب لأجل عبادتها ، وكانوا يبنون لها الهياكل »<sup>(١)</sup> .

ويقول في موضع آخر :

« ولهذا كان رؤوسهم المتقدمون والمتأخرون يأمرون الشرك ، فالأولون يسمون الكواكب الآلهة الصغرى ويعبدونها بأصناف العبادات ، كذلك كانوا في ملة الإسلام لا ينهون عن الشرك ويوجبون التوحيد بل يسوغون الشرك ويأمرون به أو لا يوجبون التوحيد »<sup>(٢)</sup> .

### الفرق بين المتقدمين والمتأخرين من فلاسفة اليونان :

ومما يؤكد دقة الفهم وحسن التوصل إلى الحقيقة لدى ابن تيمية ، أنه قام بالتفريق بين المتقدمين والمتأخرين من فلاسفة اليونان ، إنه يعتقد أن المتقدمين على « أرسطو » كانوا أقرب إلى فهم الحقائق الغيبية ومعرفة المفاهيم الدينية وأفكارها إذ لا يتجلى فيهم ذلك الاتجاه نحو رفض الحقائق الغيبية وانكارها الذي يتجلى في أرسطو بكل وضوح ، إنه يقول في موضع :

« هؤلاء المتفلسفة أتباع أرسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدمين ، فان أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم ، وكانوا يقولون : ان فوق هذا العالم عالماً آخر يصفونه ببعض ما وصف النبي ﷺ الجنة ، وكانوا يثبتون معاد الأبدان كما يوجد هذا في كلام سقراط وتاليس وغيرهما من أساطين الفلاسفة »<sup>(٣)</sup> .

### أرسطو أبعد عن الحقائق الدينية :

وسبب هذا الفرق الذي يراه ابن تيمية بين المتقدمين منهم والمتأخرين ، هو أن المتقدمين من هؤلاء الفلاسفة اتفقت لهم السياحة في البلدان التي بعث فيها الأنبياء عليهم السلام ،

(١) أيضاً .

(٢) نقض المنطق ص ١٧٧ .

(٣) تفسير سورة الإخلاص ص ٦٧ .

فسنى لهم الاطلاع على الحقائق الدينية ، أما أرسطو فلم يتفق له ذلك ، إنه يتحدث عن ذلك رواية عن بعض المؤرخين :

« وسبب ذلك ما ذكره طائفة مما جمع أخبارهم أن أساطين الأوائل - كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون - كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام ، ويتلقون عن لقمان الحكيم ومن بعده من أصحاب داود وسليمان وأن أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء ، ولم يكن عنده من العلم بأثار الأنبياء ما عند سلفه ، وكان عنده قدر يسير من الصابئية الصحيحة ، فابتدع لهم هذه التعاليم القياسية وصارت قانوناً مشى عليه أتباعه »<sup>(١)</sup>.

ومن سوء الحظ أن فلسفة أرسطو هي التي نالت رواجاً في العالم الإسلامي وهي التي اشتهرت في العهد الأخير بفلسفة اليونان ، يقول ابن تيمية :

« ولكن هذه الفلسفة التي يسلكها الفارابي وابن سينا وابن رشد والسهروردي المقتول ونحوه فلسفة المشائين ، وهي المنقولة عن أرسطو الذي يسمونه المعلم الأول »<sup>(٢)</sup>.

### مكانة الإله في الفلسفة اليونانية :

وفي فلسفة أرسطو هذه لم تعد فكرة الإله وذاته إلا وجوداً ذهنياً فقط ، يقول :

« فاذا تصور العاقل أقوالهم حق التصور تبين له إن هذا الواحد الذي أثبتوه لا يتصور وجوده إلا في الأذهان لا في الأعيان »<sup>(٣)</sup>.

إن أسلوب المبالغة الذي اتخذته الفلاسفة في بيان النفي لأفعال الإله وصفاته ، وفي تجريده عن جميع صفات الكمال وعن المحاسن والامتيازات التي يتمتع بها أدنى الخلق ، يعتقد ابن تيمية على أساس هذه الاعتقادات الفاسدة أنه لا يمكن إهانة الله أكثر من هذا ، إنه يتحدث عن هذه الحقيقة ضمن ما ينقل الأقوال :

« لقد أحسن بعض الفضلاء إذ قال : الصفع أحسن من توحيد الفلاسفة ، بل قصر فيما قال »<sup>(٤)</sup>.

(١) نقض المنطق ص ١١٣ .

(٢) الرد على البكري ص ٢٠٦ .

(٣) تفسير سورة الإخلاص ص ٣٧ .

(٤) الرد على المنطقيين ص ٢٢١ .

## فلاسفة الإسلام مقلدون بحث لليونان :

إنه يرى أن المتأخرين من الفلاسفة الذين نشأوا في العهد الإسلامي إنما هم مقلدون عميان لأرسطو وفلسفته ، وبتقيدهم بالتقليد تقع منهم أخطاء فاحشة كبيرة ويجد في كلامهم تناقض شديد ، يشكو ابن تيمية تألمه الشديد ويبدى عتابه على هؤلاء الفلاسفة المسلمين الذين جحدوا تلك النعمة التي وصلت إليهم عن طريق رسول الله ﷺ ، ولم يستفيدوا من نور الهداية الذي كان بمتناول أيديهم ، بل إنهم أرادوا أن يحجبوا ذلك النور ويحولوا دون ضيائه ، يقول :

« إن هؤلاء المتفلسفة المتأخرين في الإسلام من أجهل الخلق عند أهل العلم والإيمان وفيهم من الضلال والتناقض ما لا يخفى على الأذكىاء الصبيان لأنهم لما التزموا ألا يسلكوا إلا سبيل سلفهم الضالين وألا يقرؤا إلا بما بينونه على تلك القوانين وقد جاءهم من النور والهدى والبيان ما ملأ القلوب والألسنة والآذان ، صاروا بمنزلة من يريد أن يطفى نور الشمس بالنفخ في الهباء أو يغطي ضوءها بالعباء »<sup>(١)</sup>.

### ابن سينا جاهل بحقيقة النبوة ومنصبها :

إن الفلاسفة الذين حاولوا شرح الحقائق الغيبية والعقائد الدينية تقليداً للفلسفة واتباعاً لأرسطو ، وأرادوا تفهم هذه الحقائق والعقائد وإفهامها في ضوء الفلسفة ومعتمدين عليها ، يتناولهم ابن تيمية بنقد لاذع ، ولا يترك في ذلك حتى أولئك الفلاسفة الذين يسمون بحكماء الإسلام ، إذ أن هذه الحقائق والعلوم الغيبية لا تدرك بمساعدة فلسفة اليونان ومجرد أصولها ومبادئها ، إنه ينتقد قبل كل شيء ابن سينا الذي يعتبر خليفة أرسطو الكبير في الشرق الإسلامي وشارح فلسفته العظيم ، يقول :

« بين ابن سينا أمر النبوة أنها من قوى النفس ، وقوى النفس متفاوتة ، وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة بل هو أجنبي عنها ، وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء وأطباء وهو لم يعرف غير الشعراء ، فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء ، بل هذا المثل أقرب ، فإن بعد النبوة عن غير الأنبياء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عز الشاعر . ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة ، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريب ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الأنبياء »<sup>(٢)</sup>.

(١) الرد على البكري ص ١٦٨ .

(٢) النبوات ص ٢٢ .

ويقول في موضع آخر :

« وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة ، فان هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بنى آدم وهو المنام ، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة ، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط ، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي . وابن سينا عظمها أكثر من ذلك فجعل للنبي ثلاث خصائص : إحداهما أن ينال العلم لا تعلم ، ويسمى القوة القدسية وهى القوة الحدسية عنده ، والثانى أن يتخيل فى نفسه ما يعلمه فيرى فى نفسه صوراً نورانية ويسمع فى نفسه أصواتاً كما يرى النائم فى نومه صوراً تكلمه ويسمع كلامهم ، وذلك موجود فى نفسه لا فى الخارج ، فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختص به النبي مما يراه ويسمعه دون الحاضرين ، إنما يراه فى نفسه ويسمعه فى نفسه ، وكذلك المرور عندهم ، والثالث أن يكون له قوة يتصرف بها فى هولى العالم بإحداث أمور غريبة ، وهى عندهم آيات الأنبياء وعندهم ليس فى العالم حادث إلا عن قوة نفسانية أو ملكية أو طبيعية . . . . . وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل فى نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعال .

ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء فيضعونها على معانيهم ويسمون تلك المعانى بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء ثم يتكلمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم أنهم عنوا بها ما عنته الأنبياء وضل بذلك طوائف وهذا موجود فى كلام ابن سينا ومن أخذ عنه <sup>(١)</sup> .

### نقص علم الكلام وتردد المتكلمين :

لا يكتفى شيخ الإسلام ابن تيمية بتوجيه انتقاده إلى فلاسفة اليونان ومقلديهم من متفلسفى الإسلام فحسب ، بل يتعداهم إلى أولئك المتكلمين الذين وإن حاولوا الدفاع عن الإسلام الا أنهم اتخذوا أساليب الفلسفة ومقدماتها ومصطلحاتها الناقصة المحدودة لاحقاق الحقائق الغيبية الدينية التى كانت تختص بمفاهيمها الخاصة ، وكانت ترتبط بها تقاليد وانطباعات خاصة ، إنه يقول فى « كتاب النبوات » :

« كلامهم فى الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وفى اثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لا

(١) أيضاً ص ١٦٨ .

عقلاً ولا نقلاً ، ، وهم معترفون بذلك كما قال الرازي : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلاً ولا تروى غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في النفى ﴿ ليس كمثله شيء ، ولا يحيطون به علماً ﴾ وقرأ في الإثبات ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ ﴿ أأنتم من في السماء ﴾ ثم قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ، وكذلك الغزالي وابن عقيل وغيرهما يقولون ما يشبه هذا وهو كما قالوا « (١) .

ويقول في موضع آخر :

« وسبب ذلك إعراضهم عن الفطرة العقلية والشرعة النبوية بما ابتدعه المتدعون مما أفسدوا به الفطرة والشرعة فصاروا يفسطون في العقليات ويقرمطون في السمعيات » (٢) .

ويتحدث عن مواضع الضعف في المتكلمين فيذكر أسئلتهم وشبهاتهم في غاية من القوة غالباً ، وأجوبتها ضعيفة بالنسبة إليها في بعض الأحيان ، إنه يرى أن ذلك أحياناً يصيب أولئك الذين يعتقدونهم مدافعين عن الإسلام وممثليه بأضرار بالغة ، والذين لا يدورون في دراستهم إلا في فلکهم ، إنه يقول :

« لما تكلموا في إثبات النبوة صاروا يوردون عليها أسئلة في غاية القوة والظهور ولا يجيبون عنها إلا بأجوبة ضعيفة كما ذكرنا كلامهم ، فصار طالب العلوم والإيمان والهدى من عندهم لا سيما إذا اعتقد أنهم أنصار الله ونظاره والقائمون براهينه وأدلته إذا عرف حقيقة ما عندهم لم يجد ما ذكره يدل على ثبوت نبوة الأنبياء بل وجدته يقده في الأنبياء ، ويورث الشك فيها أو الطعن ، وأنها حجة لمكذب الأنبياء أعظم مما هي حجة لمصدق الأنبياء فانسد طريق الإيمان والعلم ، وانفتح طريق النفاق والجهل ، لا سيما على من لم يعرف إلا ما قالوه » (٣) .

**الخطأ المشاع بين المتكلمين والفلاسفة ومواضع ضعفهم :**

يعتقد ابن تيمية أن المتكلمين والفلاسفة كلهم إنما ارتكبوا نوعاً واحداً من الخطأ . وأن خطة عملهم واحدة بالرغم من جميع الخلافات التي توجد بينهم ، إن خطأ كل من هؤلاء وضعفهم أنهم حاولوا أن يعتمدوا على الحدس في الحصول على الشيء الذي لا يحصل

(١) النبوات ص ١٤٨ .

(٢) النبوات ص ١٤٨ .

(٣) النبوات ص ٢٤٠ .



بالحدس والتخمين ، وصارعوا الفطرة والنبوة كليهما ، ولذلك فإن تحقيقاتهم إنما تُبهر من نفعها .

## التكلف والتطويل :

إنه يرى أن دلائل المتكلمين والفلاسفة وأسلوب استدلالهم يتضمن تطويلاً وتكلفاً لا طائل تحتها ، فإن الحقائق والمقاصد التي تناولها المتكلمون وحاولوا إثباتها بدلائل ومقدمات طويلة مطولة إنما يمكن إثباتها بغاية من الاختصار وأسلوب يتفق مع الفطرة ، لقد سلك المتكلمون والفلاسفة لإثبات مقاصدهم طريقاً طويلاً وعرماً ، إنه يضرب لذلك مثلاً بقول بعض السلف : سئل رجل ، أين أذنك ، فتكلف في الجواب بحيث طاف يمينه رأسه ، وأوصلها إلى أذنه اليسرى ومسكها بها في غاية العسر ، على أنه كان يستطيع بكل سهولة أن يشير بيده اليمنى أو اليسرى ، وتمثل بالمناسبة بيت الشاعر :

وشبه الماء بعد الجهد بالماء

أقام يعمل أياماً رويته

## لا اعتماد على دلائل المتكلمين :

إنه يعارض المتكلمين فيما يزعمون من أن تحقيق هذه المقاصد إنما يحتاج إلى نفس الاستدلالات والمقدمات التي اصطنعها هؤلاء المتكلمون بدون أن يكون هناك طريق آخر إلى ذلك ، وهو يعتقد في هذا الخصوص أن هذه المقدمات وطريق الاستدلال وإن كانت صحيحة ولكن من الخطأ أن يزعم أنه ليس هناك أى طريق آخر للاستدلال ولا مقدمات غيرها ، وذلك لأن الدراسة والتجارب تؤكدان « أن المطلوب كلما كان الناس إلى معرفته أحوج يسر الله على عقول الناس معرفة أدلته ، فأدلة إثبات الصانع وتوحيده ، وأعلامه وأدلته كثيرة جداً ، وطرق الناس في معرفتها كثيرة ، وكثير من الطرق لا يحتاج إليه أكثر الناس ، وإنما يحتاج إليه من لم يعرف غيره ، أو من أعرض عن غيره »<sup>(١)</sup> .

## لا ينتفع بهذا الأسلوب إلا طبقة من الناس :

وبالرغم من ذلك فإنه يعترف أن بعض الناس ينتفعون بهذا الأسلوب من الاستدلال والمقدمات الكلامية والمنطقية ، وذلك بحكم عقليتهم وعاداتهم الخاصة التي يتميزون بها عن غيرهم وهم لا يقتنعون بغيره من الأسلوب ، ولكن ذلك لا يعنى أن العلم واليقين يتوقفان على هذه الطرق ، بل إنها حالة عقلية تحدث بتأثير بيئة وتربية خاصة وظروف نفسية

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٥٥ .

خاصة، إنه يقول :

« وبعض الناس يكون الطريق كلما كان أدق وأخفى وأكثر مقدمات وأطول كان أنفع له ، لأن نفسه اعتادت النظر الطويل فى الأمور الدقيقة ، فاذا كان الدليل قليل المقدمات أو كانت جلية لم تفرح نفسه به ، ومثل هذا قد يستعمل معه الطريق الكلامية المنطقية وغيرها لمناسبتها لعادته ، لا لكون العلم بالمطلوب متوقفاً عليها مطلقاً ، فان من الناس من إذا عرف ما يعرفه جمهور الناس وعمومهم ، أو ما يمكن غير الأذكىاء معرفته لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم ، فيجب معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات ، وهذا يسلك معه هذا السبيل »<sup>(١)</sup> .

### استدلال القرآن أبلغ وأكثر تأثيراً فى النفس :

إنه يثبت فى كتاباته بكل تأكيد أن أسلوب القرآن ومنهجه فى الاستدلال لإثبات الحقائق الغيبية ، وابداء مقاصد الشريعة ، وتحقيق الحقائق الدينية أبلغ من كل أسلوب وأشد تأثيراً فى النفس من أى استدلال آخر ، يقول :

« وبين أن ما عند أئمة النظار - أهل الكلام والفلسفة - من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أبلغ وأكمل منها على أحسن وجه ، مع تنزهه عن الأغاليط الكبيرة الموجودة عند هؤلاء »<sup>(٢)</sup> .

ويقول فى موضع آخر :

« ولهذا كانت الأقيسة العقلية البرهانية المذكورة فى القرآن من هذا الباب كما يذكره فى دلائل ربوبيته وإلهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ، وإمكان المعاد ، وغير ذلك من المطالب العالية السنية ، والمعالم الإلهية التى هى أشرف العلوم ، وأعظم ما تكمل به النفوس من المعارف »<sup>(٣)</sup> .

### الفرق الأساسى بين القرآن والفلسفة فى ذات الله تعالى وصفاته :

وقد أشار إلى نقطة علمية مهمة وهو يتحدث عن الفرق المبدئى بين القرآن والفلسفة فى ذات الله تعالى وصفاته ، يقول :

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٥٥ .

(٢) أيضاً ص ٣٢١ .

(٣) أيضاً ص ١٥٠ .

« والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ونفى عنها التمثيل ، وهى طريقة الرسل  
جاءوا بأثبات مفصل ونفى مجمل ، وأعداؤهم جاءوا بنفى مفصل وأثبات مجمل » (١)  
نفى الصفات ، وتأثيره على الحياة كلها :

إن مكتبة الفسفة اليونانية بأسرها تصدق النقطة التى توصل اليها ابن تيمية ، فان المبالغة  
والاهتمام اللذين بذلهما فلاسفة اليونان فى نفى الصفات إنما جعل ذلك وجود الإله فكرة  
ذهنية ، وشخصية عقيمة مجهولة عاجزة ، أما عن كيفية الإله وحقيقته ، فلا يعدو مفهوم  
ذلك عندهم عدداً من الكلمات ومصطلحات فلسفية ، مما أدى إلى أن الأوساط الخاضعة  
لفلسفة اليونان سواء فى داخل يونان أو خارجها ظلت محرومة من أى صلة حية وعلاقة  
عملية بالله تعالى ، وذلك لأن هذه العلاقة الحقيقية والعملية ، التى تنبع من القلب  
والعاطفة إنما تحتاج إلى أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله ، بينما الفلسفة ملحة على نفيها .

إن تاريخ العالم العقلى كله شاهد على أن الإنسان لم يتصل عاطفياً ولا قلبياً أية  
شخصية مجهولة لا يعرف شيئاً عن صفاتها وأفعالها ، وما لا يخفى أن الحب والخوف ،  
والأمل والرجاء ، والطلب والسؤال ، كل ذلك يحتاج إلى الصفات ، تلك التى تتجرد  
عنها فلسفة اليونان ، ومن ثم اتفق مؤرخو الأخلاق والأديان على أن صلة اليونان ليست  
سطحية ضعيفة بالله تعالى فحسب بل هى صلة ضعيفة بالدين أيضاً من غير أن تتسم بروح  
أو عمق .

وقد صدق الإمام ابن تيمية إذ قال : « إن مئات الآلاف من النفى لا يقوم مقام اثبات  
واحد » والحقيقة أن النفى المجرد لا يقوم عليه بناء دين وحياة ، ولعل فلسفة اليونان فى  
الغرب والديانة البوذية فى الشرق أخفقتا فى بناء مجتمع انسانى يقوم على أساس فكرة الإله  
من أجل ذلك ، وقد أنتج هذا أن الوثنية إذا تسربت فى أوساط احدى هاتين الفلسفتين عم  
الإلحاد فى أوساط الأخرى ، وذلك لأن الجماهير - الذين هم مفطورون على العبادة  
والإيمان بالله - لا يرضون بفلسفة تضغط كل الضغط على الرياضة العقلية والأفكار الفلسفية  
من غير أن تهيب للقلب والعقل غذاء من الحب والمعرفة .

ميزة الصحابة رضى الله عنهم :

أنه يرى أن ما حصل للصحابة الكرام رضى الله عنهم الذين درجوا فى ظل النبوة من

(١) النبوات ص ١٥٣ .

معرفة وعلوم متكاملة عميقة بدون أن تشوبهم شائبة من التكلف ، كل ذلك نتيجة التربية الصحيحة التي نالوها في رعاية النبي ﷺ ، أنه يوازن بين الصحابة رضى الله عنهم وبين المتأخرين من العلماء الذين تأثروا بالفلسفة وعلم الكلام ، ويقول :

« وأصحاب محمد ﷺ كانوا مع أنهم أكبر الناس علماً نافعاً وعملاً صالحاً أقل الناس تكلفاً ، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ما يهدى الله به الأمة ، وهذا من منن الله تعالى على هذه الأمة ، وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكلفات والشطحات ما هو من أعظم الفضول المبتدعة والآراء المخترعة »<sup>(١)</sup>.

### سحر المنطق اليونانى ، وهيبته فى العالم الإسلامى :

تناول الإمام ابن تيمية علم المنطق الذى كانت تفتخر به اليونان بالنقد اللاذع بعد ما انتقد الفلسفة اليونانية بتفصيل وإجمال ، ورد كثيراً من بحوثها وقضاياها بأسلوب عقلى واستدلالي بحت ، وأثبت أنها لا تقوم إلا على أساس متضعع ضعيف ، ولقد كان علماء الإسلام مأخوذين بسحر المنطق أكثر بالنسبة إلى الفلسفة ، ومتفقين بوجه عام على كونه معقولاً مدلولاً ، ومحكماً مبرهنياً ، وكانت كتب المنطق نالت رواجاً عاماً فى القرن الثالث كما ذكره ساعد القرطبي ، ولما جاء الإمام الغزالي فى القرن الخامس اهتم بالمنطق واعتبره مقدمة للعلوم كلها ، إنه يقول فى مقدمة كتابه الكبير « المستصفى » : « هى مقدمة العلوم كلها ، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً »<sup>(٢)</sup> ، ويقول فى كتابه الآخر « مقاصد الفلسفة » :

« أما المنطقيات فأكثرها على منهج الصواب ، والخطأ نادر فيها بالاصطلاحات والايرادات دون المعانى والمقاصد ، إذ غرضها تهذيب طرق الاستدلالات ، وذلك مما يشترك فيه النظار »<sup>(٣)</sup>.

وفى القرن السابع ظهر الفيلسوف والحكيم الشهير ابن رشد فكان مغالياً فى المنطق واثقاً به إلى حد أنه كان يعتبره منبع السعادة البشرية ومقياسها الأصيل ، وكان يرى من المستحيل أن يتوصل الناس إلى الحقيقة دونه يتحدث عنه أحد مترجمى حياته :

« كن متهوساً بمنطق أرسطر ، وقال عنه : إن مصدر السعادة للناس ، وإن سعادة

(١) نقض المنطق ص ١١٤ .

(٢) المستصفى ص ١٠ ج ١ .

(٣) مقاصد الفلسفة ص ٣ .

الإنسان تقاس بعمله بالمنطق ، والمنطق أداة تسهل الطريق الشاقة في الوصول إلى الحقيقة التي لا يصل إليها العامة ، بل بعض الخاصة بفضل المنطق « (١) .

لقد تناول علماء الإسلام سجل هذا المنطق اليوناني بيد من الإجلال والاحترام ، وكانوا متهيبين لدعاويه ومقدماته وأصوله وكلياته ، أما الفلسفة فقد أخذت النقد والايادات بعد فترات طويلة إلى حد ما ، ولكن المنطق لم يتناوله أحد - فيما نعلم - بالمحاسبة العلمية والتشريح ، ، وليس هناك كتاب كبير يتحدث عن هذا الموضوع في تفصيل وتحقيق .

### المنطق ليس ميزاناً للعلوم العقلية :

ولكن الامام ابن تيمية هو أول من ركز اهتمامه على المنطق وجعله موضوعاً مستقلاً بذاته ، وأخذه بالنقد والحث بكل حرية واجتهاد ، فله كتاب مجمل ومختصر باسم « نقض المنطق » وآخر مفصل باسم « الرد على المنطقيين » (٢) في هذا الموضوع ، إنه يبحث في الكتاب الثاني عن قضايا المنطق ودعاويه ، وحدوده وكلياته وجزئياته بتفصيل ، وأثبت أن الأهمية التي حصلت للمنطق من قبل علماء الإسلام واعتبارهم إياه علماً ثابتاً ومحكماً لا يستند إلى صحة ، إنه يرفض أن يكون المنطق ميزاناً للعلوم العقلية ، ويتوقف عليه الاستدلال والاستنتاج والتوصل إلى علم اليقين ، يقول : « وهؤلاء يقولون : « إن المنطق ميزان العلوم العقلية ، ومراعاته « تعصم الذهن عن أن يغلط في فكر » كما أن العروض ميزان الشعر ، والنحو والتصريف ميزان الألفاظ العربية المركبة والمفردة ، وآلات المواقيت موازين لها ، ولكن ليس الأمر كذلك ، فإن العلوم العقلية تعلم بما فطر الله عليه بنى آدم من أسباب الإدراك ، لا تقف على ميزان وضعى لشخص معين ، ولا يقلد في العقلية أحد بخلاف العربية ، فإنها عادة لقوم لا تعرف إلا بالسمع وقوانينها لا تعرف إلا بالاستقراء بخلاف ما يعرف مقادير المكيلات والموزونات ، والمزروعات والمعدودات ، فإنها تفتقر إلى ذلك غالباً ، لكن تعيين ما به يكال ويوزن بقدر مخصوص أمر عادى .

وقد كانت الأمم قبلهم تعرف حقائق الأشياء بدون هذا الوضع ، وعامة الأمم بعدهم تعرف حقائق الأشياء بدون وضعهم ، ، وجماهير العقلاء من جميع الأمم يعرفون الحقائق

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام محمد لطفى جمعة ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) صدر هذا الكتاب أخيراً عن المطبعة القيمة في بومباي ( الهندى ) ، ويتحلى بمقدمة قيمة للعلامة

السيد سليمان لندوى ، والكتاب يقع في ٥٤٥ صفحة ينبغى ألا تفوت أهل الفن مطالعة هذا

الكتاب .

من غير تعلم منهم وضع أرسطو ، وهم إذا تدبروا أنفسهم وجدوا أنفسهم تعلم حقائق بدون هذه الصناعة الوضعية « (١) .

### معظم الحدود المنطقية ضعيفة لا ثبات لها :

إنه لا يعترف بأن الحدود والتعاريف المنطقية كلها كاملة شاملة لا تحتل أيما اعتراض أو نقض ، يقول :

« وصاروا يعظمون أمر الحدود ويدعون أنهم هم المحققون لذلك ، وأن ما يذكره غيرهم من الحدود إنما هي لفظية لا تفيد تعريف الماهية والحقيقة خلاف حدودهم ، ويسلكون الطرق الصعبة الطويلة والعارات المتكلفة الهائلة ، وليس لذلك فائدة إلا تضييع الزمان ، وإتاعاب الأذهان ، وكثرة الهذيان ، ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان ، وشغل النفوس ما لا ينفعها بل قد يضلها عما لا بد لها منه ، وإثبات الجهل الذي هو أصل النفاق في القلوب ، وإن ادعوا أنه أصل المعرفة والتحقيق » (٢) .

### لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى :

إنه يثبت في مكان أن المنطق في الواقع عمل يصدق عليه مثل « لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى » فإن البحث والاجتهاد كثيران لا نهاية لهما ولكن محصولهما قليل لا عبرة به ، يقول في كتابه « نقض المنطق » :

« ومن المعلوم أن القول بوجوبه قول غلاته وجهال أصحابه ، ونفس الحذاق منهم لا يلتزمون قوانينه في كل علومهم بل يعرضون عنها ، إما لطولها وإما لعدم فائدتها ، وإما لفسادها ، وإما لعدم تميزها ، وما فيها من الاجمال والاشتباه ، فإن فيه مواضع كثيرة هي لحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى » (٣) .

### تأثير المنطق على العقل وقوة البيان :

ويرى أن المنطق طالما جنى على المرء فأفقدته نشاط الطبيعة وسلاسة اللسان والأفكار ، ولا شك فإن الذين يحافظون على القواعد المنطقية والأسلوب المنطقي يصابون بعجز اللسان وتعقيد البيان وتطويل الكلام وزيف في التفكير ، وأوضح مثال لذلك متون المتأخرين وكتب

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) أيضاً ص ٣١ .

(٣) نقض المنطق ص ١٥٥ .

الناهج الدراسية المتقدمة ، يقول الامام ابن تيمية :

« وما زال نظار المسلمين يعيبون طرق أهل المنطق ويبينون ما فيها من العي واللكنة وقصر العقل وعجز المنطق ويبينون أنها إلى إفساد المنطق العقلي واللساني أقرب منها إلى تقويم ذلك »<sup>(١)</sup>.

ويقول في موضع آخر : « إذا اتسعت العقول وتصوراتها اتسعت عباراتها ، وإذا ضاقت العقول والتصورات بقي صاحبها كأنه محبوس العقل واللسان كما يصيب أهل المنطق اليوناني ، تجده من أضييق الناس علماً وبياناً وأعجزهم تصوراً وتعبيراً ، ولهذا من كان منهم ذكياً إذا تصرف في العلوم وسلك مسلك أهل المنطق طول وضيق ، وتكلف وتعسف ، وغايته بيان البين وإيضاح الواضح من العي ، وقد يوقعه ذلك في أنواع من السفسطة التي عافى الله منها من لم يسلك طريقهم »<sup>(٢)</sup>.

### بعض المستثنيات :

لا يطبق الإمام ابن تيمية عينيه عن بعض أولئك الرجال الذين بلغوا في العلوم اليونانية إلى درجة الإمامة ورجماً من انهماكهم الشديد وشغفهم الزائد بهذه العلوم لم ينقصهم رواء القلم وطلاوة الكتابة وذوق الأدب الرفيع ، مثلاً ابن سينا الذي تعتبر قصيدته في الروح<sup>(٣)</sup> نموذجاً عالياً للروح العربية وتسم كتاباته بالحلاوة والبلاغة خلافاً لأهل الحكمة ، يرى ابن تيمية أن ذلك فضل الاشتغال بالأدب الإسلامي العربي ، وفيض للعلوم الإسلامية ولا شك فن حياة ابن سينا تصدق ذلك ، يقول :

« ومن وجد في بعض كلامه فصاحة وبلاغة كما يوجد في بعض كلام ابن سينا وغيره ، فلما استفاد من المسلمين من عقولهم وألسنتهم ، والافلو مشى على طريقة سلفه وأعرض عما تعلمه من المسلمين لكان عقله ولسانه يشبه عقولهم وألسنتهم »<sup>(٤)</sup>.

### رأى إجمالي عن المنطق :

وبعد هذه الانتقادات نطلع على رأيه الإجمالي عن المنطق بلسانه ، يقول :

(١) الرد على المنطقيين ص ١٩٤ .

(٢) الرد على المنطقيين ص ١٦٧ .

(٣) التي مطلعها :

ورقاء ذات تورد وتمنع

هبطت إليك من المحل الأرفع

(٤) أيضاً ص ١٩٩ .

« فحقه النافع الفطرى لا يحتاج إليه ، وما يحتاج إليه ليس فيه منفعة ، الا معرفة اصطلاحهم وطريقهم أو خطئهم »<sup>(١)</sup> .

ويقول فى محل آخر :

« إنى كنت دائماً أعلم أن المنطق اليونانى لا يحتاج إليه الذكى ولا يتتفع به البليد »<sup>(٢)</sup> .

### مكانة المنطق الصحيحة وفائدته :

ومهما لمس القارئ نوعاً من التطرف فى آراء ابن تيمية وأفكاره عن المنطق اليونانى ولوناً من المغالاة إلا أن قدسية المنطق وعظمته التى كانت تسيطر على عقل العالم الإسلامى من بعد القرن الخامس أصيبت بصدمة ، وكان لا بد من ذلك ، فان أوساطنا الدراسية والعلمية قد أولعت بالمنطق وأعجبت به إلى حد المغالاة والمبالغة ، ويمكن أن يقدر هذا الاعجاب بالمنطق من لم يكن له معرفة بالمنطق ، فانه يعتبر أجهل شخص وأحمق رجل لدى أهلها بالرغم من جميع ما يحمله من علم وفضل وذكاء ، وقد ظل المنطق والفلسفة يعرفان فى الهند إلى مدة طويلة اسم « العقلانية » كما أن كتبهما كانت تعرف باسم « كتب العقل » وكان من الطبيعى أن يوجد هناك رد فعل عنيف ضد هذا الغلو والولوع ، فقد يكون سبباً للفكر المتزن فى هذا الموضوع ، وينال هذا العلم مكانته الصحيحة من أجله .

إن المنطق نوع من الرياضة العقلية والفكرية ، ونستطيع أن نستخدمه كأداة لتشحيذ الذهن ، فان لم يتجاوز حده هذا لا يعترض عليه أحد ، وإن الإمام ابن تيمية نفسه يعترف بذلك ويقول فى كتابه « الرد على المنطقيين » :

« وأيضاً فإن النظر فى العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدره ويقويه على العلم فيصير مثل كثرة الرمي بالنشاب وركوب الخيل تعين على قوة الرمي والركوب وإن لم يكن ذلك وقت قتال ، وهذا مقصد حسن »<sup>(٣)</sup> .

ولكن كل منصف بالغ النظر يخالف ما قد جعله الناس غاية عوضاً عن الوسيلة وأصل العلم بدلاً من المقدمة .

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٠١ .

(٢) أيضاً ص ٣ .

(٣) أيضاً ص ٢ .



## عجز المنطق عن مواجهة الحقائق الدينية والإلهية :

من قديم وجدت مغالطة فيما يتصل بالمنطق والفلسفة وهي أن أصولهما وقواعدهما كما تعتبر عقلاً حاكماً حاسماً في العلوم العقلية كذلك يستعان بها في اثبات الحقائق الدينية والإلهية من غير أى تكلف ، ويعترف بحكمها في هذه الحقائق ، ولكن ابن تيمية يؤكد أن المنطق إذا نزل منزلة ميزان فلا بد من أن يدور عمله في نطاق محدود ، أما وزن الحقائق الدينية على هذا الميزان فيمائل وزن الذهب والفضة والجواهر في ميزان الحطب والحديد والرصاص والحجارة ، يقول في « نقض المنطق » : « ومن المعلوم أن موازين الأموال لا يقصد أن يوزن بها الحطب والرصاص دون الذهب والفضة ، وأمر النبؤات وما جاءت به الرسل أعظم في العلوم من الذهب في الأموال ، فاذا لم يكن في منطقتكم ميزان جاهل ظالم ، إذ هو إما أن يرد الحق ويدفعه فيكون ظالماً ، أو لا يزنه ولا يبين أمره فيكون جاهلاً ، أو يجتمع فيه الأمران فيرد الحق ويدفعه ، وهو الحق الذي ليس للنفوس عنه عوض ولا لها عنه مندوحة ، وليست سعادتها إلا فيه »<sup>(١)</sup> .

وبالمناسبة يحسن بي أن أقتطف كلاماً لابن خلدون الذي يعتبر من كبار علماء النقد والتاريخ ، وهو يشير إلى نفس المفهوم الذي يدل على أن عديداً من رجال العالم المتصفين بسلامة الطبع إنما تعينهم سلامة طبيعتهم على التوصل إلى الحقيقة ، وتماثل أفكارهم وآراؤهم في موضوع واحد ، إنه يتحدث عن محدودية العقل ، وقصر باعه عن إحاطة الحقائق الغيبية والدينية ، فيقول :

« بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيه ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية ، وكل ما وراء طوره ، فان ذلك طمع في محال ، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك ، على أن الميزان في أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود »<sup>(٢)</sup> .

## نقد المنطق الفنى بتفصيل واجتهادات ابن تيمية وزياداته :

لم يكتب ابن تيمية بتوجيه النقد الإجمالي والإيرادات الأساسية إلى فن المنطق بل إنه

(١) نقض المنطق ص ١٦٣ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٥ .

تناول الفن بأسره بالنقد والاجتهاد والاحتساب العلمى ، ورفض كثيراً من أصوله ومسلّماته ، وانتقدها من الناحية العقلية والفنية الخالصة ، وأثبت ضعف كثير من حدوده ونقصها ، وأورد له حدوداً أحسن منها ، وخالف عديداً من قضاياه وترتيبها ، وأثبت ترجيح الاستقراء بازاء القياس الذى هو أساس منطق أرسطو ، وادعى أن الاستقراء طريق طبعى أضمن وأسهل إلى طلب العلم واليقين ، كما أنه قدم عدة نظرات جديدة فى المنطق والفلسفة وزاد إلى هذا الفن ، يقول المغفور له العلامة السيد سليمان الندوى فى مقدمته على كتاب « الرد على المنطقيين » معترفاً بخدمته وعظمته فى هذا المجال ، يقول :

« ما قال المصنف فى حقيقة الحد والجنس والفصل واللزوم ، وحقيقة العلة والقياس والاستقراء ، والاستدلال بالمشهورات ، والاكتفاء بمقدمة واحدة فى القياس ، وغيره من المباحث العويصة التى حل المصنف مشكلها ببيان واضح ودليل راهن ، وما قال فى العلة واللزوم هو عين ما قال هيوم ( HUME ) الفيلسوفى فى كتبه ، ومسألة اللزوم والعلية من المسائل العويصة التى ضلت فى واديتها الأفهام وتبعت من عيونها ضلالات الطباعيين من أهل الإلحاد ، وكم لهذا النابغة فى هذا الكتاب من نوادر لم يسبقه إليها أحد »<sup>(١)</sup>.

### لا يصح التقليد فى العلوم العقلية :

ويخشى ابن تيمية أن يقول الناس بعد ما يطلعون على إيراداته وخلافاته هذه التى يوجهها إلى العلوم اليونانية : إن العلوم اليونانية ذخيرة علمية قديمة أسهمت فى ترقيتها وتهذيبها عقول نخبة من عدة أجيال ، وهى التى تولت ابلاغها إلى أوج الكمال والتقدم ، ولذلك فإنها بنجوة من أى احتمال للخطأ ، فان تصدى أحد من المتقدمين للانتقاد والاعتراض عليها فإنما يرادف ذلك وقاحة ، واضاعة للوقت ، ولكن ابن تيمية لا يعترف بهذه القضية ويقول : ان هذه العلوم ما دامت عقلية مجردة ، وهى لا تقوم الا على أساس الفكرة والدراسة فأى مبرر للتقليد البحت فيها حتى أن ناقلها لا يعتبرونها مبنية على أى وحى أو إلهام إنما يبنونها على العقل ، ولذلك فأهل العقل فى كل عصر يحق لهم أن يتناولوها النقد والوزن فى ميزان العقل ويرفض كل ما يعارض العقل ، إنه ينقل قول بعض شيخ المنطق فى كتابه « الرد على المنطقيين » « هذه علوم قد صقلتها الأذهان أكثر من ألف سنة وقبلها الفضلاء » ثم يرد عليه ويقول :

مجرد العقل ، فلا يجوز أن تصحح بالنقل ، بل ولا يتكلم فيها الا بالمعقول المجرد ، فاذا

(١) مقدمة الرد على المنطقيين ص ق .

دل المعقول الصريح على بطلان الباطل منها لم يجر رده ، فإن أهلها لم يدعوا أنها مأخوذة  
عمن يجب تصديقه ل عن عقل محض ، فيجب التحاكم فيها إلى مرجب العقل  
الصريح»<sup>(١)</sup> .

## انحطاط العلوم العقلية وجمودها في العصر المتأخر في العالم الإسلامي ، وأهمية عمل ابن تيمية :

والواقع أن « المعقول » لا بد أن يكون معقولاً على الدوام ، ولا يتحول إلى  
« منقول » ، ولكن لما أظل الانحطاط العلمي والفكري العالم الإسلامي ، ورفضت العقول  
والقوى الفكرية أن تقوم بواجبها في جو من الحرية عاد علماء الحكمة والفلسفة أتباعاً لمن  
سبقهم مقتفين آثارهم ، واقتنعوا بالنقل والشرح لتحقيقاتهم ومؤلفاتهم ، ولم يعد أي فرق  
بين المنقول والمعقول ، وكان أسمى مكانة في العلم أن يتصدى المتأخرون لشرح كلام  
المقدمين ، ويعبروا عن مفاهيمهم بكلمات قليلة .

ذلك هو عصر الانحطاط في الشرق يوم انغلق باب الاجتهاد والتجديد والزيادة والعمل  
المنتج في العلم والحكمة ، أما أوروبا - التي كانت قد اكتسبت المنطق والفلسفة عن طريق  
المسلمين ، وتعلمت أفكار حكماء اليونان وفلسفتهم بواسطة ابن سينا وابن رشد - فإنها لم  
تقتنع بهذا التراث العلمي الا مدة يسيرة فقط ثم نهضت تعيد النظر والتفكير في هذه  
العلوم ، وقامت بالتحقيق والتجربة بكل حرية ، الأمر الذي طوى بساط المنطق والفلسفة  
اليونانيين ، واحتل الاستقراء محل القياس في المنطق ، ونالت العلوم الطبيعية اهتمام  
الناس ، بعد ما فقدت العلوم الإلهية وعلوم ما بعد الطبيعة قيمتها ، تلك التي لم يكن لها  
أي دور في الحياة العلمية والعملية .

إن هذه الثورة الفكرية لم تخلف تأثيرها في أوروبا فحسب بل تعدتها إلى العالم كله ،  
بالعكس من ذلك فقد تمسكت أوساطنا العلمية والمدرسية بالعلوم اليونانية وعضت على  
كتب علماء الشرق وشروحهم وتعليقاتهم في هذا الفن النواجد كأنها هي العروة الوثقى  
وسدرة المنتهى للفكر والنظر ، ولا شك فإن العمل الاجتهادي الذي قام به الامام ابن تيمية  
من انتقاد الفلسفة والمنطق ومحاسبتها العلمية في صحراء التقليد والجمود العقلي ، كمنارة  
ضوء على الساحل ، ومعالم واضحة في الطريق ، وهو يفتح باب الاجتهاد والتفكير من  
جديد .

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٠٨ .



## الرد على الفرق والملل ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها

### نقد الديانات والنحل :

لا يخفى أن الإمام ابن تيمية قام بدور ممتاز في مجال انتقاد بعض الديانات والفرق وقضى معظم حياته في هذا الجهاد العلمي ، وقد لا يخلو مؤلف من مؤلفاته من البحوث والمناظرة الكلامية ، إلا أننا نختار من بين هذه الديانات والفرق التي ناقشها ابن تيمية ديانة « المسيحية » ونحلة « الشيعة » وذلك لأنه اختصهما بالنقد والتحقيق وأفرد لكل واحدة منها كتابين مستقلين لهما قيمتهما وأهميتهما ، وهما « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » و « منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية » كما أن بين هذه الديانة وتلك الفرقة مناسبة لطيفة يشير إليها الحديث النبوي الذي خوطب فيه أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو قوله ﷺ : « فيك مثل من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمة وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس به »<sup>(١)</sup> ولسبب آخر ، وهو أن المسيحية والشيعة بمختلف فروعها وأنواعها هما اللتان كانتا الفرق والديانات الحية النشيطة في العصر الذي عاش فيه ابن تيمية ولعل ذلك ما بعث ابن تيمية على تركيز اهتمامه عليهما ووضع كتب مستقلة تتفرد بهما .

### الرد على المسيحية

#### حركة المسيحية الجديدة في العالم الاسلامي :

انتبهت المذاهب والديانات الأخرى في الدول الإسلامية مع انحطاط المسلمين السياسي وجددت نشاطها ، وكانت المسيحية هي أنشط الديانات من بين هذه الديانات والمذاهب كلها في ابداء الجرأة والتغلب على غيرها ، فقد وجد لأتباعها عدد وجيه آنذاك في العالم الاسلامي ، سيما في مصر وسوريا ، وبالأخص كانت سلسلة من الدول المسيحية تتصل بأرض الشام وتمسها ثغور المملكة المسيحية الكبرى ( مملكة قسطنطينية ) المملكة البازنطينية .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ج ١ ص ١٦٠ وفي رواية : ثم قال : ( علي ) يهلك في رجلان محب مفرط يقرضني بما ليس في ، ومبغض يحمله شنائي أن يبهتنى .

ومعلوم أن أوروبا بدأت هجمات متتابعة على الشام وفلسطين في أواخر القرن الخامس الهجرى ، وهى التى تعرف بالحروب الصليبية فى التاريخ ، وفى خلال ذلك حرم المسلمون جزءاً كبيراً من الشام ، وظلت القدس تحت سيطرة المسيحيين وولايتهم طوال تسعين سنة ، وبالرغم من أن السلطان صلاح الدين الأيوبي كان قد هزم المسيحيين فى ساحة حطين هزيمة منكرة واسترد القدس من أيديهم إلا أن دولة مسيحية لم تزل موجودة على ساحل الشام ، وكانت همة المبشرين والمسيحيين وعلمائهم ارتفعت بالفتح الصليبي حتى أنهم كانوا يحلمون بالاستيلاء على الشام واقامة دولة مسيحية تحت ظلال الصليبية فيها ، إن هجمات التتر المتتالية كانت قد أضعفت المسلمين وبعثت قوة وهمة فى المسيحيين وقد تحدثنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن التتر عندما دخلوا الشام منتصرين فى عام ٦٥٨هـ استقبلهم المسيحيون خارج المدينة ، وقدموا لهم الهدايا ، وقد كانوا رافعين صليباً على رؤوسهم ويقولون : قد غلب الدين الحق ، دين يسوع المسيح <sup>(١)</sup> .

### تأليف « الجواب الصحيح » :

كانت المناظرة بين علماء المسيحية والقسيسين وبين المسلمين تدور حيناً لآخر ويرد علماء المسلمين على ايراداتهم ويفضحون مواضع الضعف فى الديانة المسيحية ، ولكن الذى استرعى انتباه ابن تيمية إلى هذا الموضوع وجعله موضع اهتمامه الخاص هو أن مؤلفاً جديداً للمسيحيين فى المناظرة وصل من قبرص إلى الشام حاول فيه مؤلفه اثبات المسيحية واثبات عقائدها من طريق العقل والنقل ، كما أنه بذل قصارى جهده فى اثبات أن بعثة الرسول ﷺ لم تكن عامة وإنما كانت تخص العرب وحدهم ، ولذلك فإن المسيحيين لم يكلفوا الايمان به ، يبدو أن هذا الكتاب نال أهمية كبرى فى أوساط الشام العلمية والدينية .

إن أصلح رجل للرد على هذا الكتاب هو الذى يتمتع بنظر عميق واسع فى الفلسفة وعلم الكلام والعقائد والفرق فى جانب ، وفى جانب آخر يكون مطلعاً على صحف العهد القديم والعهد الجديد ( بائبل ) وعلى تاريخ المسيحية اطلاعاً كاملاً ، فبالنسبة إلى هذه الناحية لم يكن هناك أى عالم أصلح من ابن تيمية لهذا العمل فى ذلك العصر ، فتصدى للكتابة فى هذا الموضوع وألف كتاباً باسم « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » <sup>(٢)</sup> فى

(١) وللإطلاع على التفصيل راجع الجزء الاول من هذا الكتاب .

(٢) هذا الكتاب يقع فى ١٣٩٥ صفحة ، طبع فى مصر فى عام ١٣٢٢هـ ( ١٩٠٥ م ) باهتمام الشيخ فرج الله زكى الكردي والشيخ مصطفى قباني الدمشقي .

أربعة مجلدات ، لا يتميز في هذا الموضوع فحسب بل أنه يحتل مكانة ممتازة بين سائر مؤلفات ابن تيمية ، يدل هذا الكتاب على سعة نظره وتنوع دراسته واطلاعه الواسع العميق على تاريخ الديانات والصحف السابقة ، إنه لم يكتف فيه بأسلوب الدفاع والتزكية ، بل إنه هاجم أسس المسيحية ، ولم يعتمد في إثبات النبوة المحمدية على الدلائل القديمة المصطلحة التي تتسم بها كتب علم الكلام ومناظرة الفرق ، بل إنه جاء ببراهين جديدة تؤثر في النفس وتبعث الايمان في القلوب وتضطر كل رجل منصف عاقل إلى الاعتراف بالحقيقة ، كما أنه شحن هذا الكتاب بمواد غزيرة لتاريخ المسيحية وعلم الكلام المسيحي ، وإيرادات علماء المسيحية وتعبيراتهم وتأويلاتهم ، وبذخيرة كبرى من بشارات البعثة المحمدية ودلائل نبوءة النبي ﷺ ونبوءاته لا توجد مجتمعة في أى كتاب آخر ، بل يحتاج المرء للاطلاع على مثلها إلى عملية تنقيب واسعة في مكتبة كبيرة ، ولقد صدق الشيخ محمد أبو زهرة عالم مصر الكبير عندما قال عن هذا الكتاب :

« وإن هذا الكتاب أهدأ ما كتبه ابن تيمية في الجدل ، وهو وحده جدير بأن يكتب ابن تيمية في سجل العلماء العاملين والأئمة المجاهدين والمفكرين الخالدين »<sup>(١)</sup> .

وفي الصفحات التالية نقوم باستعراض إجمالى لهذا الكتاب لكى نقدم ملخصاً منه تتضح به وجهة نظره وتتجلى فيه روح الكتاب .

### المسيحية مزيج من تعاليم سيدنا المسيح والوثنية الرومانية :

إن معظم العلماء المسلمين والمؤلفين الذين تصدوا للرد على المسيحية ونقضها وحاولوا الكتابة حولها كانوا قليلي المعرفة بتاريخ المسيحية ، إنهم زعموها مجموعة لأقوال وأحوال سيدنا المسيح وبحثوا فيها كدين سماوى ، فأكرموها بما لم تكن جديرة به ، أما ابن تيمية فله اطلاع واسع على تاريخ المسيحية ونموها التدريجى وتغييراتها ولا يجهل حقيقة أن المسيحية الموجودة فى عصره أن هى الا مجموعة لتعاليم سيدنا المسيح وعقائد الروم واليونان المشركة وتقاليدهم ، وعلم الأصنام ولذلك فإنه لا يقع فريسة الخطأ التاريخى الذى يقع فيه العامة من النقاد ، ويتناول المسيحية الحاضرة بالنقد والرد عليها بكل جرأة وشجاعة ، إنه يقول :

« وكان الروم اليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهياكل العلوية والأصنام الأرضية فبعث

(١) ابن تيمية لمحمد أبى زهرة ص ٥١٩ .

المسيح عليه السلام رسله يدعرنهم إلى دين الله تعالى فذهب بعضهم فى حياته فى الأرض وبعضهم بعد رفعه إلى السماء فدعوهم إلى دين الله تعالى فدخل من دخل فى دين الله وقاموا على ذلك مدة ثم زين الشيطان لمن زين له أن يغير دين المسيح فابتدعوا ديناً مركباً من دين الله ورسله ودين المسيح عليه السلام ومن دين المشركين «<sup>(١)</sup> .

ويقول فى مكان آخر :

« ولكن النصرارى ركبوا ديناً من دينين من دين الأنبياء الموحدين ودين المشركين فصار فى دينهم قسط مما جاءت به الأنبياء وقسط مما ابتدعوا من دين المشركين فى أقوالهم وأفعالهم ، كما أحدثوا ألفاظ الأقانيم وهى ألفاظ لا توجد فى شئ من كلام الأنبياء ، وكما أحدثوا الأصنام المرقومة بدل الأصنام المجسدة والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب بدل الصلاة إليها والصيام فى وقت الربيع ليجمعوا بين الدين الشرعى والأمر الطبيعى «<sup>(٢)</sup> .

### المسيحية الحاضرة من وضع عبد قسطنطين :

ويتقدم خطوة ويوضح أن المسيحية أصيبت بتحريف وتغيير أكبر فى عهد الملك قسطنطين ، الذى كان ملك الروم الشهير فى القرن الرابع الميلادى ، والذى هو مؤسس المملكة المسيحية الأولى ، وذلك عدا ذلك التحريف الذى دخل المسيحية فى بدء عهدها أيام البولس يقول :

« النصرارى تضع لهم عقائدهم وشرائعهم وأكابرهم بعد المسيح ، كما وضع لهم الثلاثمائة والثمانية عشر الذين كانوا فى زمن قسطنطين الملك الأمانة التى اتفقوا عليها ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم ، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتاباً بل تخالف ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها للعقل الصريح «<sup>(٣)</sup> .

### وفى موضع آخر :

« لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء بل ابتدعوا اعتقاداً لا يوجد فى كلام الانبياء فليس فى كلام الانبياء لا المسيح ولا غيره ذكر أقانيم لله لا ثلاثة ولا أكثر ولا اثبات ثلاث صفات ولا تسمية شئ من صفات الله ابناً لله ولا رباً ولا تسمية حياته روحاً ، ولا أن الله ابناً إله

(١) الجواب الصحيح الجزء الاول ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) أيضاً ص ١٩٩ .

(٣) الجواب الصحيح الجزء الاول ص ١١٨ .



حق من إله حق من جوهر أبيه وأنه خالق كما أن الله خالق إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواع من الكفر لم تنقل عن نبي من الانبياء « (١) .

### المكانة الصحيحة للإنجيل :

أخطأ بعض علماء الاسلام فوضعوا الإنجيل فى بحوثهم بازاء القرآن والصحف السماوية الأخرى ، واعترفوا بأنه كتاب سماوى كسائر الكتب السماوية بتأثير من دعاوى العلماء والمبشرين المسيحيين ، ولقد كان ذلك خطأ أساسياً ناتجاً عن مجرد الجهل بتاريخ العهد الجديد ، وأما الامام ابن تيمية فإنه يحل الإنجيل محله الذى يستحقه ، إن قيمة الصحف الأربع للإنجيل عنده لا تغدو قيمة كتب السيرة والحديث العامة فى أى حال ، يقول :

« إن هذه المقالات الأربعة التى يسمونها الإنجيل وقد يسمون كل واحد إنجيلاً إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح فلم يذكروا فيها أنها كلام الله ولا أن المسيح بلغها عن الله بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح وأشياء من أفعاله ومعجزاته وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازى عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله التى ليست قرآناً ، فالإنجيل التى بأيديهم شبه كتاب السيرة وكتب الحديث» (٢) .

### ويقول فى موضع آخر :

« وأما الإنجيل الذى بأيديهم فأنهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ولا أملاه على من كتبه وإنما أملوه بعد رفع المسيح متى ويوحنا وكان قد صحب المسيح ولم يحفظه الخلق كثير يبلغون عدد التواتر ، ومرقس ولوقا وهما لم يريا المسيح عليه السلام ، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض أخباره وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله ، ونقل اثنين وثلاثة وأربعة يجوز عليهم الغلط لاسيما وقد غلطوا فى المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب « (٣) .

### وهو لا يتحدث عن الإنجيل وحده بل يقول عن التوراة أيضاً :

« أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خربت بيت المقدس أولاً وأجلى منه بنو اسرائيل ثم ذكروا أن الذى أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقول له عازر وزعموا أنه نبي ومن

(١) أيضاً ص ١٣٤ - الجزء الثالث .

(٢) أيضاً ص الجزء الثانى ص ١٠ .

(٣) أيضاً الجزء الاول ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

الناس من يقول أنه لم يكن نبياً وأنها قوبلت بنسخة وجدوها عتيقة ، وقيل أنه أحضرت نسخة كانت في المغرب وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها ولا يمنع وقوع الغلط في بعضها كما يجرى مثل ذلك في الكتب التي يلي نسخها ومقابلتها وحفظها القليل الاثنان والثلاثة «<sup>(١)</sup> .

### ويستنتج في الأخير من بقوله :

« وليس من النصارى نقل متواتر عن المسيح بألفاظ هذه الاناجيل ولا نقل متواتر ولا آحاد بأكثر ما هم عليه من الشرائع ولا عندهم لا عند اليهود نقل متواتر بألفاظ التوراة ونبوات الأنبياء كما عند المسلمين نقل متواتر بالقرآن وبالشرائع الظاهرة للعامة والخاصة»<sup>(٢)</sup> .

ويتحدث عن الفرق بين القرآن والتوراة والانجيل فيقول : « أن المسلمين تواتر عنهم عن نبيهم ألفاظ القرآن ومعانيه المجمع عليها والسنة المتواترة ، وعندهم عن نبيهم أخبار كثيرة معلومة الصدق بطرق متنوعة كتصديق الأمة المعصومة ودلالة العادات وغير ذلك ، وهم يحفظون القرآن في صدورهم لا يحتاجون في حفظه إلى كتاب مسطور ، فلو عدت المصاحف من الأرض لم يقدح ذلك فيما حفظوه ، بخلاف أهل الكتاب فإنه لو عدت نسخ الكتب لم يكن عندهم به نقل متواتر بألفاظها إذ لا يحفظها الا قليل لا يوثق بحفظهم ، فلهذا كان أهل الكتاب بعد انقطاع النبوة عنهم يقع فيه من تبديل الكتب إما تبديل بعض أحكامها ومعانيها وإما تبديل بعض ألفاظها . ما لم يقوموا بتقويمه ولهذا لا يوجد فيهم الاسناد الذي للمسلمين ولا لهم كلام في نقلة العلم وتعديلهم وجرحهم ومعرفة أحوال نقلة العلم ما للمسلمين »<sup>(٣)</sup> .

### التحريف في الاناجيل :

اشتهر عن ابن تيمية بوجه عام أنه لا يقول بالتحريف اللفظي في التوراة والانجيل الا أن دراسة هذا الكتاب تنفي هذا الظن ، أما حقيقة ما يقوله ابن تيمية فهي أنه يؤكد مراراً وتكراراً أن الناس كلهم متفقون على وقوع التحريف المعنوي ، وبما أن علماء اليهود والنصارى يقولون بالتحريف المعنوي ، فإنه يعتمد على ذلك في استدلالاته ، ويقدمها بازاء علماء اليهود والنصارى ، انه يقول في إحدى المناسبات :

(١) الجواب الصحيح الجزء الاول ص ٣٦٨ .

(٢) أيضاً ص ٣٧٢ .

(٣) أيضاً الجزء الثاني ص ١٢ ، ١٣ .

« وإذا عرف أن جميع الطوائف من المسلمين والنصارى يشهدون أنه قد وقع في هذه الكتب تحريف ، وتبديل في معانيها وتناسيرها وشرائعها ، فهذا القدر كاف »<sup>(١)</sup> .  
ويقول في مناسبة أخرى :

« ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف في المعانى والتفسير »<sup>(٢)</sup> .

ولكن هل وقع التحريف في ألفاظ التوراة والأنجيل ؟ فإنه لا يوافق على أن هذه الكتب محرقة من أولها إلى آخرها ، وليست فيها ألفاظها الأصلية ، يقول :

« ثم زعموا أن المسلمين يدعون أن ألفاظ هذه الكتب حرفت كلها بجميع لغتها بعد مبعث محمد ﷺ ، وهذا القول لم يقله أحد من المسلمين فيما أعلم »<sup>(٣)</sup> .

ولكنه يقول بالتحريف الجزئى في هذه الكتب ، بحيث إن ألفاظها قد بدلت في مواضع عديدة ، وذلك هو مذهب الجمهور كما يقول :

« فجمهور المسلمين يمنعون هذا ويقولون إن بعض ألفاظهما بدل كما قد بدل كثير من معانيها »<sup>(٤)</sup> .

ويقول في محل آخر :

« والصواب الذى عليه الجمهور أنه بدل بعض ألفاظها »<sup>(٥)</sup> .

إن النصارى لم يفهموا ألفاظ الأنبياء :

إنه يعتقد أن السبب الكبير فى ضلال النصارى ومنع الفساد الذى تسرب إليهم من التلث والعقائد المشتركة إنما يرجع إلى أنهم لم يفهموا كثيراً من ألفاظ الأنبياء عليهم السلام ولا أدركوا مفاهيمها ، كما قد حرفوا مفاهيم ألفاظ كثيرة ، إنه يقول : « وان القوم عندهم من ألفاظ الأنبياء ما لم يفهموا كثيراً منه وما حرفوا كثيراً منه ، وعندهم من المعقول فى ذلك ما يضلهم اليهود فيه ، لكن اليهود وإن كانوا أعظم منهم فهما أعظم عناداً وكبراً

(١) أيضاً الجزء الاول ص ٣٧٦ .

(٢) أيضاً ص ٣٨٠ .

(٣) الجواب الصحيح ج ٢١ ص ٧٣٤ .

(٤) أيضاً ص ٣٧٣ .

(٥) أيضاً ج ٢ ص .

وجهداً للحق» (١) .

إنه يضغط على أن فهم هذه الكتب السماوية والاستفادة منها بطريق صحيح يتطلب فهم لغات الأنبياء ومصطلحاتهم ، يقول :

« إن معرفة اللغة التي خاطبنا بها الأنبياء وحمل كلامهم عليها أمر واجب متعين ، ومن سلك غير هذا المسلك فقد حرف كلامهم عن مواضعه وكذب عليهم وافترى » (٢) .

ونتيجة لذلك وقع خطأ عظيم في فهم معانى « ابن » و « روح القدس » ، وظهرت عقيدة التثليث .

### المفهوم الصحيح للألفاظ :

إنه يقول : « فأهل الكتاب نقلوا عن الأنبياء أنهم تكلموا بلفظ الأب والابن ، ومرادهم عندهم بالأب والرب ، وبالابن المصطفى المختار المحبوب ، ولم ينقل أحد منهم عن الأنبياء أنهم سمو شيئاً من صفات الله ابناً ، ولا قالوا عن شئ من صفاته أنه تولد عنه ولا أنه مولود له ، فإذا وجد في كلام المسيح عليه السلام أنه قال : عمدوا الناس بأسم الأب وروح القدس ثم فسروا الابن بصفة الله القديمة الأزلية ، كان هذا كذباً بينا على المسيح حيث لم يكن في لغته أن لفظ الابن يراد به صفة الله القديمة الأزلية ، كذلك إذا لم يكن في لغته أن لفظ الابن يراد به صفة الله القديمة الأزلية ، كذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء أن حياة الله تسمى روح القدس وإنما يريدون بروح القدس ما ينزله الله تبارك وتعالى على الأنبياء والصالحين ويؤيدهم » (٣) .

### ويقول في موضع آخر حيث يخاطب النصارى :

« إنكم ضللتكم بعدو لكم عن صريح كلام الأنبياء وظاهره إلى ما تأولتموه عليه من التأويلات التي لا يدل عليها لفظه ، لا نصاً ولا ظاهراً ، فعدلتم عن المحكم واتبعتم المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فلو تمسكتم بظاهر هذا الكلام لم تضلوا ، فإن الابن ظاهره في كلام الأنبياء لا يراد به شئ من صفات الله بل يراد به وليه وحببيه ونحو ذلك ، وروح القدس لا يراد به صفته بل يراد به وحيه ومملكه ونحو ذلك ، فعدلتم عن ظاهر

(١) أيضاً ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) أيضاً ج ١ ص ١٨١ .

(٣) الجواب الصحيح ج ٣ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

اللفظ ومفهومه إلى معنى لا يدل عليه اللفظ البتة « (١) .

## كلمتا « الابن » و « روح القدس » مشتركتان عامتان :

ثم إنه يثبت من عبارات التوراة والإنجيل والنصوص أن كلمتي « الابن » و « روح القدس » لا يختصان بسيدنا المسيح بل طالما استعملتا في حق غيره يقول :

« لفظ الابن وروح القدس قد جاء في حق غير المسيح عندكم حتى الحواريين عنكم يقولون أن المسيح قال لهم إن الله أبى وأبوكم وإلهى وإلهكم ، ويقولون أن روح القدس تحل فيهم ، وفيما عندكم من التوراة أن الرب قال لموسى اذهب إلى فرعون فقل له يقول لك الرب ابنى بكرى أرسله يعبدنى فإن أبيت أن ترسل ابنى بكرى قتلت ابناك بكرى ، فلما لم يرسل فرعون بنى إسرائيل كما قال الله قتل الله أبكار فرعون وقومه من بكر فرعون الجالس على السرير إلى الأون من أولاد الآدميين إلى ولد الحيوان إليهم فهذه التوراة تسمى بنى إسرائيل كلهم أبناء الله وأبكاره وتسمى أبناء أهل مصر أبناء فرعون وتتوسع فتسمى سخال الحيوان أولاد المالك للحيوان ، وفي مزامير داؤود يقول أنت ابنى سلنى أعطك ، وفى الإنجيل يقول عن المسيح أنا ذاهب إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم وقال إذا صليتم فقولوا يا أبانا الذى فى السماء قدوس اسمك افعل بنا كذا وكذا ، ويقولون عن القديسين أن روح القدس يحل فيهم « (٢) .

وهكذا وهكذا فإنه أثبت بالدلائل أن الألفاظ التى يستدل بها النصارى على ابنة سيدنا المسيح ، وعلى الحلول والاتحاد والألوهية إنما جاءت فى التوراة والإنجيل مراراً وتكراراً لغير سيدنا المسيح ، وأن كل هذه الكلمات كنايةات ومجازات وتعبيرات ، وفى الأخير يستنتج بقوله :

« وجماع هذا أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور وسائر نبوات الأنبياء لم تخص المسيح بشئ يقتضى اختصاصه باتحاد اللاهوت به وحلوله فيه كما يقوله النصارى ، بل لم تخصه إلا بما خصه به محمد ﷺ فى قوله : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » « فكتب الأنبياء المتقدمة وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد ﷺ يصدق بعضهم بعضاً ، وسائر ما تستدل به النصارى على إلهيته من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك الكلمات فى حق غير المسيح فتخصيص المسيح

(١) أيضاً ص ١٥٥ .

(٢) أيضاً ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

بالإلهية دون غيره باطل ، وذلك مثل اسم الابن والمسيح ومثل حلول روح القدس فيه ومثل تسميته إلهاً ومثل ظهور الرب أو حلوله فيه أو سكونه فيه أو فى مكانه فهذه الكلمات وما أشبهها موجودة فى حق غير المسيح عندهم ولم يكونوا بذلك آلهة <sup>(١)</sup> .

وقد يعرض المسيحي عن هذه المنقولات ويبحث فى الأقانيم والحلول والاتحاد عن طريق العقل ، بحيث يحوله إلى بحث فلسفى أو صوفى ، ولكن ابن تيمية تناول هذا الموضوع وأشبعه بحثاً من وجهة النظر الفلسفية ، وبما أن هذا الموضوع مما يخصه وقد بحثه غير مرة بصدد الكلام حول العقائد ووحدة الوجود وعلم الكلام ينصرف إلى البحث فيه بكامل الانشراح والاهتمام ، ويثبت أنه ليس كلاماً معقولاً ، بل إنه فلسفة مزعومة ، لا تمت إلى الحقائق والمعلومات بصلة ما <sup>(٢)</sup> .

### أمور تنافى العقل :

وعندما يورد على المسيحيين من الناحية العقلية حول عقيدة التثليث ويثبت أن هذه العقيدة ليست مما يقبله العقل بل أنها تعارض العقل الإنسانى العام سرعان ما يلتجئون إلى المنقولات ، ويقولون : هكذا تحدث لنا الكتب السماوية ، وإن هذه الأمور والعقائد حقائق هى وراء طور العقل والقياس ، فلا مناص من تصديقها والإيمان بها ، من غير أن نحاول الاعتماد على العقل فيها ، أما الإمام ابن تيمية فإنه يرفض قبل كل شئ أن هذه العقائد والتعاليم توجد فى الكتب السماوية ، بل حق أن الكتب السماوية تحتوى على عكس هذه التعاليم والعقائد ، ثم أنه يقول إن هناك شيئين مختلفين ، الأول ما هو باطل ومستحيل عقلياً ، والكل يعلم أن ذلك محال ، والثانى ما يتقاصر عنه العقل ولا يستطيع أن يتوصل إلى حقيقته ، ولا أن يحكم فيه بنفى أو إيجاب ، إنه يعتقد أن تعاليم الأنبياء إنما هو من النوع الثانى ، ومعنى ذلك أن كلامهم ليس فيه من يعارض العقل ، بل فيما كما وراء العقل ، والفرق بين ما يعارض العقل وبين ما هو وراء العقل كبير ، إنه يقول :

« لا يميزون بين ما يحمله العقل ويبطله ويعلم أنه ممتنع ، وبين ما يعجز عنه العقل فلا يعرفه ولا يعلم فيه بنفى ولا إثبات ، وأن الرسل أخبرت بالنوع الثانى ، ولا يجوز أن تخبر بالنوع الأول ، فلم يفرقوا بين محالات العقل ومحارات العقول ، وقد ضاهوا فى ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولداً وشريكاً » <sup>(٣)</sup> .

(١) الجواب الصحيح ج ٢ ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) ومن أراد التفصيل فليرجع إلى « الجواب الصحيح » ج ٣ ص ١١٩ ، ٩٠ - ١٩١ ، ٢١٥ .

(٣) أيضاً ج ٢ ص ٨٩ .

إنه يثبت بكل قوة وتأکید ، وكتبه كلها مليئة ببيان أن الدين الصحيح لا يضاد العقل الصريح ، يقول :

« وهذا الموضوع غلط فيه طائفتان من الناس ، غالية غلت في المعقولات حتى جعلت ما ليس معقولاً من المعقول ، وقدمته على الحس ونصوص الرسول ، وطائفة جفت عنه فردت المعقولات الصريحة ، وقدمت عليها ما ظنته من السمعيات والحسيات ، وهكذا الناس في السمعيات نوعان ، كذلك هم في الحسيات الباطنة والظاهرة نوعان ، فيجب أن يعلم أن الحق لا ينقض بعضه بعضاً ، بل يصدق بعضه بعضاً ، بخلاف الباطل فإنه مختلف متناقض كما قال الله تعالى في المخالفين للرسول : ﴿ والسماوات الحكب ، إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك ﴾<sup>(١)</sup> ، وإن ما علم بمعقول صريح لا يخالفه قط ، لا خبر صريح ولا حس صحيح ، وكذلك ما علم بالسمع الصحيح لا يعارضه عقل ولا حس ، وكذلك ما علم بالحس الصحيح لا يناقضه خبر ولا معقول »<sup>(٢)</sup>.

وذلك هو الفرق بين المسيحية والإسلام ، ففي الإسلام اتحاد تام بين العقل والنقل اللهم الا الحقائق الغيبية التي هي وراء العقل ، ولكنها لا تعارض العقل ، خلافاً للمسيحية التي تحتوى على كثير من المسائل والعقائد المخالفة للعقل ، ويعتبرها كثير من علمائها معارضاً ، الا أنهم يقولون أن هذه الأمور إنما هي وراء مرتبة العقل ، ولا مناص من اعتقادها والإيمان بها .

## علماء النصارى القائلون بالتوحيد

### وعبدية المسيح عليه السلام :

وقد أحسن ابن تيمية في كتابه « الجواب الصحيح » وأوسعها علماً مفيداً ، وهو أنه نقل فيها آراء علماء المسيحية وأئمتها وأقوالهم الذين كانوا يعتقدون بعبدية المسيح عليه السلام ويقولون بالتوحيد ، إلا أنهم لم ينالوا أى قبول في العالم المسيحي لأسباب عدة ، وقد تناول بالمناسبة فرق النصارى والمذهب الغالب عندهم بنوع من التفصيل والشرح ، الأمر الذى يدل على اطلاعه العميق ومعلوماته الواسعة ، ودقة النظر ؛ كما نقل بصدد الموضوع رسالة طويلة لعالم حديث العهد بالإسلام اسمه حسن بن أيوب ، بسط فيها الأسباب التى دفعته إلى قبول الإسلام والدلائل التى رجح بها الإسلام على الديانات الأخرى ، وهذه

(١) الذاريات ص ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) الجواب الصحيح ج ٣ ص ١٢٦ .

الرسالة تحتوى على معلومات قيمة « (١) .

بشائر عن النبي ﷺ

فى التوراة والصحف السماوية :

وبعد انتهائه من ذلك نقل ابن تيمية تلك البشائر والنبوات التى تخبر بنبوة النبي ﷺ وبعثته ، وقد سار فى ذكر هذه البشارات والنبوات منهج الاستقصاء والاستيعاب ، ولم يأل جهداً فى نقل كلام وعبارة أشعياء النبي ، حبقوق ، دانيال ، وسيدنا المسيح عليه السلام ، مما يتعلق بالنبي ﷺ ، وقد اجتمع فى هذا الموضوع من المعلومات فى هذا الكتاب ما يتعذر وجوده فى أى كتاب آخر ، إنه تناول هذه النبوءات بالشرح وأثبت أنها لا تنطبق إلا على النبي ﷺ (٢) .

ومن بين هذه النبوءات نبوءة من إنجيل يوحنا بأن سيدنا المسيح عليه السلام قال : « إن أركان العالم سيأتى وليس لى شئ » ومعنى أركان فى العبرانية جليل القدر والشأن ، ويقال للعظماء والكبار أراكنة ، يقول ابن تيمية وهو يثبت أن مصداق هذه النبوة إنما هو النبي ﷺ .

« فمعلوم باتفاق أهل الأرض والاضطرار أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم باطنياً وظاهراً وانقادت له القلوب والأجساد وأطيع فى السر والعلانية فى محياه وبعد مماته فى جميع الأعصار وأفضل الأقاليم شرقاً وغرباً أحد غير محمد ، فإن الملوك يطاعون ظاهراً لا باطنياً ولا يطاعون بعد موتهم ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله فى الدار الآخرة ويخافون عقاب الله فى الدار الآخرة بخلاف الأنبياء ، ومحمد أظهر دين الرسل مثل موسى والمسيح وغيرهما أمم عظيمة لولا محمد لم يؤمنوا بهم ، ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب كانوا مختلفين فيه كاختلاف أهل الكتاب فى المسيح وكانوا يقولون فى داوود وسليمان وغيرهما بما هو معروف عندهم ، وأيضاً فإنه ذكر لهم من الرسل ما لم يكونوا يعرفونه مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم (٣) .

المعجزات ودلائل النبوة :

وبعد الانتهاء من هذا الموضوع انتقل ابن تيمية إلى بيان معجزات النبي ﷺ ويرى أنها

(١) راجع الجواب الصحيح ج ٢ ص ٣١٢ ، وج ٣ ص ٣ .

(٢) راجع الجواب الصحيح ج ٢ ص ٣١٢ ، وج ٣ ص ٣ .

(٣) أيضاً ج ٤ ص ١٦ .



إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، وقد جمع من ذخائر المعلومات شأنه في هذا الصدد ما لا يوجد مجتمعاً في كتاب واحد <sup>(١)</sup> ، وقد احتوى هذا البحث على تعريف المعجزات وطرق اثباتها ، وعلى كثير من البحوث الكلامية والموضوعية والنكت اللطيفة .

ولم يكتف ابن تيمية في هذا البحث ببيان تلك المعجزات الشهيرة التي تتحدث عنها كتب السيرة والكلام ، بل أنه وسع نطاق الآيات ودلائل النبوة إلى أن تضمن جميع السيرة وشماثلة التي هي أكبر حجة على النبوة وأسطع برهان على النبوة المحمدية لدى المنصفين وأصحاب النظر والبصيرة ، كأنه يرتقى مع الشيخ الرومي على هذه النقطة ، الذي يقول ما معناه :

« كل قلب يتمتع بلذة العلم ويتحلى بالبصيرة يدرك ما في وجه النبي ﷺ وصوته معجزة » .

وقد عرض في هذه المناسبة عصارة جيدة لسيرته ﷺ وشماثله ، إنه يوسع هذا النطاق ويقول :

« وسيرة الرسول ﷺ من آياته ، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته » <sup>(٢)</sup> .

### ثورة الاسلام والأمة المحمدية معجزة بذاتها :

وبعد بيان عصارة السيرة الطيبة التي تبعث قرائتها إيماناً بأنه ﷺ نبي صادق مؤيد من الله ورسوله حق ، يقول :

« حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ومن أخبار الكهان وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام لا يعرفون آخرة ولا معاداً فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم حتى أن النصارى لما رأوهم حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وأثار غيرهم يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين وهو ﷺ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال ، مات ﷺ ولم

(١) الجواب الصحيح ج ٤ ص ٦٦ - ٢٢٤ .

(٢) أيضاً ج ٤ ص ٧٨ .

يخلف درهماً ولا ديناراً ولا شاه ولا بعيراً الا بغلته وسلاحه ودرعه مرهونه عند يهودى على ثلاثين وسقاً من شعير ابتاعها لأهله ، وكان بيده عقار ينفق منه على أهله والباقي يصرفه فى مصالح المسلمين فحكم بأنه لا يورث ولا يورثه ورثته شيئاً من ذلك . وهو فى كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرمات ما يطول وصفه ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويشرع الشريعة شيئاً بعد شئ حتى أكمل الله دينه الذى بعث به « (١) .

« وأتمه أكمل الأمم فى كل فضيلة ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم فى سبيل الله وصبرهم على المكاره فى ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً ، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم يتبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها وهو الذى أمرهم بها لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى ادخلوا لما غيروا دين المسيح فى دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد ﷺ فلم يكونوا يقرأون قبله كتاباً بل عامتهم آمنوا بموسى وعيسى وداؤود والتوراة والانجيل والزبور إلا من جهته فهو الذى أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقرؤا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ونهاهم أن يفرقوا أحد من الرسل (٢) .

### إعجاز الشريعة المحمدية :

ويتحدث عن كمال الشريعة المحمدية فيقول :

« وجاءت شريعة أكمل شريعة لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف الا أمر به ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه لم يأمر بشئ فقيل ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شئ فقيل ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات لم يحرم شيئاً منها كما حرم فى شرع غيره وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره ، وجمع محاسن ما عليه الأمم فلا

(١) أيضاً ج ٤ ص ٨١ .

(٢) أيضاً ج ٤ ص ٨٢ .

يذكر في التوراة والإنجيل والزبور ونوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب فليس في تلك إيجاب لعدل وقضاء بفصل وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به ، وبما هو أحسن منه وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع « (١) .

وبعد ما ذكر بصدد الموضوع غاية العبادات وتحدث عن مختلف المذاهب ووجهات النظر عنها تناول العبادات الإسلامية وبحث عن مقاصدها وأسرارها وفوائدها في غاية من الحكمة ، كما أثبت أن النبي ﷺ كان نموذجاً كاملاً للصدق والعدل ، وقد تجلى هذا الصدق والعدل في خلفائه الراشدين وأصحابه الكرام في حياتهم وحكومتهم وخلافتهم ومعاملتهم وسياساتهم ، وعاشوا حياة كلها ورع وزهادة لا يوجد لها نظير في تاريخ العالم (٢) .

## الاعتقاد بالنبوة المحمدية واجب

### على كل مقرر بالنبوة :

ويثبت الامام ابن تيمية بكلام واضح مؤيد بالدلائل أن كل عارف بمفهوم النبوة وقائل بها ومؤمن بأى نبي من الأنبياء لا يسعه إنكار النبوة المحمدية ، فإن الدلائل التي يعلم بها نبوة الأنبياء الآخرين يعلم بها نبوة محمد ﷺ بطريق الأولى ، فإن قال قائل أن نبوة الأنبياء تثبت بالمعجزات فإن معجزات النبي ﷺ أعظم وتواترها أبلغ ، والكتاب الذي جاء به أكمل ، وأمته أفضل ، وشرائع دينه أحسن ، فيبطل بتكذيب نبوته جميع ما مع الناس من النبوات (٣) .

ويرى أن الإصرار على إثبات نبوات الأنبياء الآخرين وإنكار نبوة محمد ﷺ مثله كمثل الذي يقر بعظمة علماء الفن وإمامتهم وينكر زعيم ذلك الفن وأستاذه الأول ، إنه يضرب لذلك أمثلة عديدة طريفة ، يقول :

« وصار هذا كما لو قال قائل أن زفر وابن القاسم والمزني والأثرم كانوا فقهاء وأبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد لم يكونوا فقهاء ، أو قال إن الأخفش وابن الأنباري والمبرد كانوا نحاة والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة، أو قال إن صاحب الملكى والمسيحي ونحوهما

(١) الجواب الصحيح ج ٤ ص ٨١ .

(٢) أيضاً ص ١٠٤ - ١١٩ .

(٣) أيضاً ص ١٨٠ .

ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء ، وبقرراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء ، أو قال أن كوشيار والخرقي ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة وبطليموس ونحوه لم يكن له علم بالهيئة ، ومن قال أن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودينال كانوا أنبياء ومحمد بن عبد الله لم يكن نبياً ، فتناقضه أظهر وفساد قوله أبين من هذا جميعه ، بل وكذلك من قال إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ومحمد ليس برسول والقرآن لم ينزل من الله ، فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد ﷺ ، وما جاء به من قبله وتدبر كتابه والكتب التي قبله وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء <sup>(١)</sup> .

### البعثة العامة لرسول الله ﷺ :

ومن الأفضل أن أختتم هذا البحث بذكر دعوى النصارى التي ذكرها ابن تيمية في أول كتابه ، وهي أن النبي ﷺ إنما كان قد بعث خصيصاً إلى العرب الجاهلين وهم الذين كانوا مطالبين بالإيمان به ، وإن النصارى غير مضطرين إلى الإيمان به ، فإن لم يؤمنوا به لا يؤخذون على ذلك ، وهذه العقيدة شائعة بين النصارى العرب وعلمائهم اليوم أيضاً ، كما أن في بلادنا الهند وجدت في بعض الأوساط فكرة أن الاتباع الكامل للأديان السابقة يتكفل النجاة من النار ، ولا حاجة لمسيحي أو يهودي صادق أو رجل من غير المسلمين أن يؤمن بالنبوة المحمدية ، وبما أن هذا الاعتقاد الفاسد يقضى على جذور الدعوة الإسلامية وبعثة الرسول العامة ، وينسد به باب الدعوة والتبليغ للإسلام وتذهب الجهود التي بذلت في نشر الإسلام سدى ، تصدى الامام ابن تيمية لرد هذا الاعتقاد الفاسد ، وركز كتابته في دحض هذا الباطل وتحدث في هذا الموضوع في كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » في الجزء الأول من الصفحة ٢٨ إلى صفحة ٢٣٠ ، وتناوله من الناحيتين العلمية والاستدلالية بأكمل وجه وأوسع طريق ، وهو مما يدل على قوة عارضته وتعمق علمه ، وقد جمع في هذا البحث جميع نصوص الكتاب والسنة التي تقتضى على كل شبهة تتطرق إلى بعثة النبي ﷺ بأنها كانت تختص العرب وحدهم ، أو أن النجاة مأمولة من غير الإيمان بنبوته ، يقول في موضع :

وقال ﷺ كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة وقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ وقال تعالى :

(١) الجواب الصحيح ج ٤ ص ١٨٠ - ١٨١ .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ ، وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة ، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام فكيف يقال أنه لم يذكر أنه بعث إلا إلى العرب خاصة ، وهذه دعوته ورساله وجهاده لليهود والنصارى والمجوس بعد المشركين وهذه سيرته ﷺ فيهم ، وأيضاً فالكتاب المتواتر عنه وهو القرآن يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلى الإيمان به <sup>(١)</sup> .

ويقول في مكان آخر :

« فهذه الدلائل وأضعافها مما تبين أنه نفسه ﷺ أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب وأنه دعاهم وجاهدتهم وأمر بدعوتهم وجهادهم ، وليس هذا مما فعلته أمته بعده بدعة ابتدعوها كما فعلت النصارى بعد المسيح عليه السلام فإن المسلمين لا يجوزون لأحد بعد محمد ﷺ أن يغير شيئاً من شريعته فلا يحلل ما حرم ولا يحرم ما حل ولا يوجب ما أسقط ولا يسقط ما أوجب ، بل الحلال عندهم ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله » <sup>(٢)</sup> .

### نقد الشيعة وآرائها

#### كتاب مناهج السنة :

لقد قام الإمام ابن تيمية بالرد على الشيعة في غير موضع من مؤلفاته وأدى حق الدفاع القوي عن السنة وعقائد أهل السنة وعن الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام رضی الله عنهم ، وإلا أنه أفرد في موضوع الرد على الشيعة كتاباً مستقلاً سماه « مناهج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية » .

أما الباعث على هذا التأليف فهو أن العالم الشيعي المعاصر الكبير ابن المطهر الحلبي ألف كتاباً ضخماً لولى نعمته ومخدومه الملك التاتاري « أوليجا خدا بنده خان » الذي كان قد تشيع بفضل جهوده التي بذلها في دعوته إلى الشيعة ، وقد سمي هذا الكتاب باسم « مناهج الكرامة في معرفة الإمامة » ، لا ثبات الشيعة والإمامة والرد على السنية ، والخلافة .

(١) الجواب الصحيح ج ٤ ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) أيضاً ص ١١٧ - ١١٨ .

وقد وصل هذا الكتاب إلى الشام حيث اطلع عليه شيخ الإسلام ، وكان الشيعة يعترضون بهذا الكتاب ويظنون أن الرد عليه مستحيل ، ومعظم ما كان يحتوى عليه هذا الكتاب هو إثبات الإمامة لسيدنا على كرم الله وجهه وعصمة أهل البيت رضى الله عنهم ، كما بذلت فيه محاولة لتفضيل سيدنا على رضى الله عنه على غيره من الخلفاء وذكر فضائل الأئمة الاثنى عشر وامامتهم وعصمتهم ، مؤيداً كل ذلك بنصوص الكتاب والسنة ، مع توجيه المطاعن إلى الخلفاء الثلاثة والصحابة رضى الله عنهم مبرهنات عليها بالآيات والأحاديث والتاريخ والسير ، وقد تجلّى في كل ذلك ذكاء المؤلف وقوة استدلاله وتبحره العلمى بغاية من الوضوح والقوة ، واقتنع بأنه أقام بذلك الحجة على أهل السنة .

وبما أن المؤلف معتزلى العقيدة فى الأصول والعقائد كعامة المتأخرين من الشيعة تصدى للبحث فى الذات والصفات وفى عقائد أهل السنة وأصولهم بحثاً كلامياً فلسفياً ، وقد ألح أهل السنة على ابن تيمية بأن يؤلف رداً على هذا الكتاب ، ومعلوم أن هذا الكتاب يشمل أبحاثاً كثيرة لعلم الكلام والعقائد والفلسفة والتفسير والحديث والتاريخ والآثار ، فكان من المناسب جداً أن يقوم للرد عليه رجل يجمع بين النظرة العميقة الواسعة فى جميع هذه العلوم والمواضيع ، وبين النقد والمعرفة لها ، ومما لا يخفى أن للمؤلفين من الشيعة جرأة ومهارة فى وضع الأحاديث واختراع الرواية ، وكان علم الحديث قد توسع آنذاك ووضعت له مجموعات ودواوين كثيرة كان من الصعب أن يميز الموضوع فيها من الصحيح ، وأن تنقد الروايات فى ضوء مبادئ الجرح والتعديل وتوزن فى ميزان فن الرجال بغاية من الدقة والاتقان ، لذلك فكانت الحاجة ماسة إلى رجل نابغة فى علم الحديث ، متبحر فى أسماء الرجال ، مطلع على جميع ذخائر الحديث ، عارف بأحوال الروايات والرواة بحيث لا يمكن لبسها عليه ، كما يكون ذا اطلاع واسع على التاريخ الإسلامى حتى يستطيع أن يضع أصبعه على موطن كل خطأ تاريخى ولا يفوته أى افتراض أو اختلاف فى الرواية ، ومن المسلم المعلوم أن توجيه الاعتراض والنقد إلى شخصية تاريخية عمل سهل جداً من بين ذخائر التاريخ الواسعة ، أما تركيتها والدفاع عنها فأمر صعب ، وكان من المواضع المعجب بها لدى الشيعة هو الطعن فى الصحابة رضى الله عنهم الذى كانوا يتخذونه مجالاً واسعاً لصب غيظهم وحقدهم الدفين ضد أصحاب الرسول ﷺ .

ومن حسن حظ المسلمين أن الله تعالى قيض فى نفس ذلك الزمن الذى ألف فيه هذا الكتاب عالماً من علماء أهل السنة كان يعتبر أمير المؤمنين فى الحديث فى عصره ، وقد عنى بالرد عليه وكانت مكتبة الحديث والرجال ككتاب مفتوح أمام عينيه ، ذلك الرجل الذى قيل

عنه في معرفته بالحديث ، أن الحديث الذي لا يعرفه هو ليس بحديث ، والحقيقة أنه ( ابن تيمية ) أدى فرض الكفاية عن الأمة في الرد على مطاعن الصحابة ، وقام بعمل تعذر على غيره من العلماء بعده ، ولا شك أن علماء الإسلام بعده إنما يستفيدون منه في هذا الموضوع .

إن كتابه « منهاج السنة »<sup>(١)</sup> الذي ألفه رداً على الكتاب « منهاج الكرامة » لابن المطهر الحلبي ، إنما يمتاز عن سائر مؤلفاته بميزة خاصة ، فمن أراد أن يطلع على تبحره العلمي وسعة نظره وحضور بديهته ، وقوة حفظه واستحضاره للمسائل ، ونضجه واتقانه وذكائه وألمعيته ، فليقرأ هذا الكتاب : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾<sup>(٢)</sup> .

### العامل في هذا الكتاب والباعث عليه

إن العامل الرئيسي في تأليف هذا الكتاب عند ابن تيمية والباعث عليه في الحقيقة هو أن صاحب « منهاج الكرامة » أطلق لسان الطعن بأسلوب شائن في الخلفاء الراشدين والسابقين الأولين الذين يعتقددهم الإمام ابن تيمية - كسائر أهل السنة - أفضل الخلق بعد الأنبياء ، وأصلح أفراد النوع البشري ، ولكن صاحب المنهاج أثبتهم شرار الخلق وأرذل الكائنات ، الأمر الذي أرجع ابن تيمية وجعله يعلن بصراحة أن مثل هذا الاعتقاد يرادف تقويض أركان الإسلام ويفتح باب الطعن والاعتراض على النبوة المحمدية ويؤدي إلى الإلحاد والزندقة ، يقول في موضع ما معناه :

« لولا أن هذا الرجل الجائر المتعدى حدود الأخلاق والحشمة لم يتناول الصحابة الكرام رضى الله عنهم بالنقد اللاذع ، أولئك الذين هم الرعيل الأول لأولياء الله وأئمة أهل الأرض وأفضل الخلق بعد الأنبياء ، ولولا أن انتقاده سبب الفتنة في الدين ، ووفر الحجة للكفار والمنافقين ، وأحدث الشكوك في قلوب كثير من المؤمنين لم نر حاجة إلى كشف القناع عن نقد هذا الرجل أنصف الله من هذا الرجل وأتباعه في العقيدة » .

---

(١) يحتوي هذا الكتاب على أربعة مجلدات بالقطع الكبير ، ويقع في ١٢١٤ صفحة . طبع في المطبعة الأميرية في مصر باهتمام الشيخ مصطفى البابي الحلبي ، وقد لخصه العلامة الذهبي باسم « المنتقى » الذي صدر حديثاً من مصر بعناية الشيخ محمد نصيف واهتمام الاستاذ محب الدين الخطيب .

(٢) النمل ١٨ .

## الشيعة يرون اليهود والنصارى أفضل من خير الأمم :

وفى مناسبة أخرى يتحدث عن مطاعن الشيعة ونيهم من مكانة الصحابة الكرام رضى الله عنهم فيقول : « وهذه الأمة خير الأمم وخيرها القرن الأول ، كان القرن الأول أكمل الناس فى العلم النافع والعمل الصالح ، وهؤلاء المفترون وصفوهم بنقيض ذلك بأنهم لم يكونوا يعلمون الحق ويتبعونه ، بل كان أكثرهم عندهم يعلمون الحق ويخالفونه كما يزعمونه فى الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة والأمة ، وكثير منهم عندهم لا يعلم الحق بل اتبع الظالمين تقليداً لعدم نظرهم للمفضى إلى العلم ، والذي لم ينظره قد يكون لقصوره ونقص إدراكه ، وأدى أن منهم من طلب الأمر لنفسه بحق يعنى علياً ، وهذا مما علمنا بالاضطرار أنه لم يكن فلزم من ذلك على قول هؤلاء أن تكون الأمة كلها كانت ضالة بعد نبيا ليس فيها مهتد ، فتكون اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خيراً منهم ، لأنهم كانوا كما قال الله تعالى : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » وقد أخبر النبى ﷺ أن اليهود والنصارى افتقرت على أكثر من سبعين فرقة فيها واحدة ناجية ، وهذه الأمة على موجب ما ذكروا لم يكن فيهم بعد موت النبى ﷺ أمة تقوم بالحق ولا تعدل به ، وإذا لم يكن ذلك فى خيار قرونهم ففيما بعد ذلك أولى ، فيلزم من ذلك أن يكون اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل خيراً من خير أمة أخرجت للناس <sup>(١)</sup> .

### خيار الأمة شرارها عند الشيعة :

ويقول فى موضع آخر :

« فإنهم عمدوا إلى خيار أهل الأرض من الأولين والآخرين بعد النبي والمرسلين ، وإلى خيار أمة أخرجت للناس فجعلوهم شرار الناس . وافتروا عليهم العظائم وجعلوا حسناتهم سيئاتهم ، وجاءوا إلى شر من انتسب إلى الإسلام من أهل الأهواء وهم الرافضة بأصنافها غاليتها وإماميتها وزيديتها ، والله يعلم ، وكفى بالله عليمًا ، ليس فى جميع الطوائف المنتسبة إلى الإسلام مع بدعة وضلالة شر منهم لا أجهل ولا أكذب ولا ظلم ولا أقرب إلى الكفر والفسوق والعصيان وأبعد عن حقائق الإيمان منهم ، فزعموا أن هؤلاء هم صفوة الله من عباده فإن ما سوى أمة محمد كفار ، وهؤلاء كفروا الأمة كلها أو ضللوها سوى طائفتهم التى يزعمون أنها الطائفة المحقة وأنها لا تجتمع على ضلالة فجعلوهم صفوة بنى آدم فكان مثلهم كمن جاء إلى غنم كثيرة فقيل له أعطنا خير هذه الغنم لنضحى بها فعمد

(١) منهاج السنة ج ١ ص ١٥٢ .



إلى شر تلك الغنم إلى شاة عوراء عجفاء عرجاء مهزولة لا نقى لها ، فقال : هذه خيار هذه الغنم لا تجوز الأضحية إلا بها ، وسائر هذه الغنم ليست غنماً وإنما هي خنازير يجب قتلها ولا تجوز الأضحية بها «<sup>(١)</sup> .

### الامام الشعبي يقول :

يروى عن الشعبي أن اليهود والنصارى أعرف بمنزلة الأنبياء بالنسبة إلى الرافضة « سئلت اليهود من خير أهل ملتكم قالوا : أصحاب موسى ، وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم قالوا : حوارى عيسى ، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم قالوا : أصحاب محمد ، أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم «<sup>(٢)</sup> .

### المعاداة للسابقين الأولين والموالاتة للكفار :

« وهذا دأب الشيعة دائماً يتجاوزون عن جماعة المسلمين إلى اليهود والنصارى والمشركين فى الاقوال والموالاتة والمعاونة والقتال وغير ذلك ، ومن أضل من قوم يعادون السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ويوالون المنافقين والكفار «<sup>(٣)</sup> .

ثم يقول بعد ما ذكره مناصرة الشيعة للكفار ومساعدتهم إياهم :

« وكثير منهم يواد الكفار من وسط قلبه أكثر من موادته للمسلمين ، ولهذا لما أخرج الترك الكفار من جهة الشرق وقتلوا المسلمين وسفكوا دماءهم ببلاد خراسان والعراق والشام والجزيرة وغيرها كانت الرافضة معاونة لهم على المسلمين ، وكذلك الذين كانوا بالشام وحلب وغيرها من الرافضة كانوا من أشد الناس معاونة لهم على قتال المسلمين ، وكذلك النصارى الذين قاتلوا المسلمين بالشام كانت الرافضة من أعظم المعاونين لهم ، وكذلك إذا صار لليهود دولة بالعراق وغيره تكون الرافضة من أعظم أعوانهم فهم دائماً يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم «<sup>(٤)</sup> .

### العصبية والانحراف :

يذكر ابن المطهر الحلى فى إحدى المناسبات فى كتابه خواجه نصير الدين الطوسى فيبالغ

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) أيضاً ج ١ ص ٦ .

(٣) أيضاً ج ٢ ص ٨٢ .

(٤) أيضاً ص ٨٤ .

في تقديسه وتعظيمه ، ويضفى عليه الألقاب العظيمة فيقول : « شيخنا الإمام الأعظم خواجه نصير الملة والحق والدين محمد بن الحسن الطوسي قدس الله روحه » وهناك جاشت في ابن تيمية حميته الدينية فلن يلبث أن تناول خواجه نصير الدين الطوسي وفضائحه ومؤامراته على قتل الخليفة العباسي وصنيعته في مجزرة بغداد ، وأفكاره وعقائده الملحدة ، ويقول في غاية من الاستغراب :

« ومن العجب أن هذا المصنف الرافضي الكذاب المفترى يذكر أبا بكر وعمر وعثمان وسائر السابقين والتابعين وسائر أئمة المسلمين من أهل العلم والدين بالعظائم التي يفترها عليهم هو وإخوانه ويجيء إلى من قد اشتهر عند المسلمين محاربتة لله ورسوله ، يقول عنه : « قال شيخنا الأعظم » ويقول « قدس الله روحه » مع شهادته عليه بالكفر وعلى أمثاله ومع لعنه وطائفة خيار المؤمنين من الأولين والآخرين ، وهؤلاء داخلون في معنى قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ (١) .

### تناقضات الشيعة :

يقول الإمام ابن تيمية : « ثم من جهل الرافضة أنهم يعظمون أنساب الأنبياء ، آباءهم وأبناءهم ويقدحون في أزواجهم ، كل ذلك عصبية واتباع للهوى ، حتى يعظمون فاطمة والحسن والحسين ويقدحون في عائشة أم المؤمنين » (٢) .

ومن تناقض الشيعة أنهم يبالغون في تعظيم محمد بن أبي بكر (رضى الله عنه) ويقدحون في شأن والده أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، يقول ابن تيمية :

« والرافضة تغلو في تعظيمه على عاداتهم الفاسدة في أنهم يمدحون رجال الفتنة الذين قاموا على عثمان ويبالغون في مدح من قاتل مع علي حتى يفضلون محمد بن أبي بكر فيلعنون أفضل الأمة بعد نبيها ، ويمدحون ابنه الذي ليس له صحبة ولا سابقة ولا فضيلة ، ويتناقضون في ذلك في تعظيم الأنساب » (٣) .

(١) أيضاً ص ١٠٠ .

(٢) أيضاً ص ١٩٣ .

(٣) أيضاً ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

## البغض للصحابة الكرام دليل على ما فى القلب من غل وخبث :

إنه يقول ما معناه : « أكبر خبث للقلوب ومرضها أن تنطوى على بغض أولئك الرجال العظام الذين كانوا خيار المؤمنين ورعيل أولياء الله الأول وتاج مفرقهم ، ولذلك فإن فى الفئس سهماً لأولئك الذين ليس فى قلوبهم غل للمهاجرين والانصار والسابقين الأولين بل يدعون ويستغفرون لهم ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ (١) .

## الطاعن فى الشيخين لا يخلو من الحالين :

لا يجترئ على الطعن على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما إلا نوعان من الرجال ، أما منافق زنديق ، عدو للأسلام الذى يتخذ الطعن عليهما ذريعة للطعن على شخصية رسول الله ﷺ وعلى الاسلام ، وفى هذه الحال عاشر المعلم الأول للرافضة وتلك هى معاملة أئمة الباطنية ، وأما جاهل غالٍ فى اتباع هواه وجهله ، وهذه هى حال العامة من الشيعة ، إذا كانوا مسلمين فى باطنهم يقول فى « منهاج السنة » :

« قد عرف بالتواتر الذى لا يخفى على العامة والخاصة أن أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم كان لهم بالنبي ﷺ اختصاص عظيم وكانوا من أعظم الناس اختصاصاً به وصحبة له وقرباً إليه واتصالاً به ، وقد صاهرهم كلهم وما عرف عنه أنه كان يذمهم ولا يلعنهم بل المعروف عنه أنه كان يحبهم ويثنى عليهم ، وحينئذ فإما أن يكونوا على الاستقامة ظاهراً وباطناً فى حياته وبعد موته ، وإما أن يكونوا بخلاف ذلك فى حياته أو بعد موته ، فإن كانوا على غير الاستقامة مع هذا التقرب فأحد الأمرين إما عدم علمه بأحوالهم أو مداهنته لهم ، وأيهما كان فهو من أعظم القدح فى الرسول ﷺ كما قيل :

**فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبة وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم**

وإن كانوا انحرفوا بعد الاستقامة فهذا خذلان من الله للرسول فى خواص أمته وأكابر أصحابه ومن قد أخبر بما سيكون بعد ذلك أين كان عن علم ذلك وأين الاحتياط للأمة حتى لا يولى مثل هذا أمرها ومن وعد أن يظهر دينه على الدين كله فكيف يكون أكابر خواصه مرتدين ، فهذا ونحوه من أعظم ما يقدح به الرافضة فى الرسول كما قال مالك وغيره ، إنما أراد هؤلاء الرافضة الطعن فى الرسول ليقول القائل رجل سوء كان له أصحاب

(١) الحشر ص ١٠ .

سوء ، ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين ، ولهذا قال أهل العلم أن الرافضة دسيئة الزندقة (١) .

### فضائل الصحابة ومناقبهم متواترة قطعية :

يعتقد الإمام ابن تيمية أن عدالة الصحابة الكرام أساس مهم للاسلام ، إنه يؤمن بصدقهم وثقتهم ، ويراهم أصدق مثال وأروع نموذج لتعاليم الاسلام وتربية الرسول ﷺ ، وأطيب ثمرة لصحبه ﷺ ، وإن فضل الصحابة لثابت عنده بالقطعية والتواتر وبنصوص الكتاب وآياته وصحيح الأحاديث والروايات بحيث لا يتطرق إليه شك بأى رواية تاريخية أو حديث غريب شاذ ، إنه يقول :

« وإذا كان كذلك ما علم بالكتاب والسنة والنقل المتواتر من محاسن الصحابة وفضائلهم لا يجوز أن يدفع بنقول بعضها متقطع وبعضها بحرف وبعضها لا يقدح فيما علم فإن اليقين لا يزول بالشك ، ونحن قد تيقنا ما دل عليه الكتاب والسنة واجماع السلف قبلنا وما يصدق ذلك من المنقولات المتواترة عن أدلة العقل من أن الصحابة رضى الله عنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء فلا يقدح فى هذا أمور مشكوك فيها ، فكيف إذا علم بطلانها » (٢) .

### الصحابة الكرام ليسوا معصومين عن الخطأ :

إنه يعتقد أن الصحابة الكرام لم يكونوا معصومين من الخطأ كالرسول ﷺ ، كأن يستحيل صدور الذنوب منهم ، ولكنه يعتقد أنهم كانوا أعدل الأمة وأتقائها ، وأصدق الناس وأشداهم أمانة ، فإن صدرت منهم أخطاء أو ذنوب فقد تبعها حسنات وأعمال ترضى الله ورسوله كفرت عنهم سيئاتهم ، وعلى كل فإن كفة حسناتهم وأعمالهم الصالحة راجحة على تقصيراتهم وأخطائهم ، يقول :

« وقد قدمنا أنا لا ندعى عصمة فى أحد بعد رسول الله ﷺ من الذنب فضلاً عن الخطأ فى الاجتهاد ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا و نتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا

(١) منهاج السنة ج ٤ ص ١٢٣ .

(٢) أيضاً ج ٣ ص ٢٠٩ .

## لا نظير لهم فى التاريخ :

إنه يصرح بأنه ليس هناك جيل فى التاريخ البشرى من حيث المجموع أجمل سيرة وأروع سلوكاً من الصحابة الكرام رضى الله عنهم عدا الأنبياء عليهم السلام على رغم جميع الزلات والتقصيرات التى هى من خواص البشر فإن وجد فى حياتهم آثار من الأخطاء والزلات فمثلها كمثل الثوب الأبيض يخالطه شئ من السواد فى بعض أجزائه ، والذنب فى الحقيقة يرجع إلى أولئك المتقدين الذين يدركون النقط السوداء فى الثوب الأبيض ولا يدركون بياضه ، أما حياة الطوائف الأخرى فكلها سوداء ويخالطها نقط بياض فى بعض جوانبها ، أنه يقول :

« وخيار هذه الأمة هم الصحابة فلم يكن فى الأمة أعظم اجتماعاً على الهدى ودين الحق ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم ، وكل ما يذكر عنهم مما فيه نقص فهذا إذا قيس إلى ما يوجد فى غيرهم من الأمة كان قليلاً من كثير ، وإذا قيس ما يوجد فى الأمة إلى ما يوجد فى سائر الأمم كان قليلاً من كثير ، وإنما يغلط من يغلط أنه ينظر إلى السواد القليل فى الثوب الأبيض ولا ينظر إلى الثوب الأسود الذى فيه بياض ، وهذا من الجهل والظلم بل يوزن هؤلاء بنظرائهم فيظهر الفضل والرجحان ، وأما ما يقترحه كل أحد فى نفسه مما لم يخلق فهذا لا اعتبار به فهذا يقترح معصوماً من الأئمة وهذا يقترح ما هو كالمعصوم وإن لم يسمه معصوماً فيقترح فى العالم والشيخ والأمير والملك ونحو ذلك مع كثرة علمه ودينه ومحاسنه وكثرة ما فعل الله على يديه من الخير يقترح مع ذلك ألا يكون قد خفى عليه شئ ولا يخطئ فى مسألة وأن يخرج عن حد البشرية فلا يغضب بل كثير من هؤلاء يقترح فيهم ما لا يقترح فى الأولياء » (٢) .

ويضغط ابن تيمية على نقطة مهمة وهى أن من يكون مطلعاً على التاريخ وتكون قد مرت عليه أحوال أمم وشعوب وملل مختلفة ، وتجارب جماعات بشرية متعددة يتيقن أنه لا جماعة أكثر اتحاداً واتباعاً للحق وأبعد عن الفرقة والفتن وأشد نفوراً من النفسانية وحب الدنيا من جماعة الصحابة الكرام رضى الله عنهم ، يقول :

« فمن استقرأ أخبار العالم فى جميع الفرق تبين له أنه لم يكن قط طائفة أعظم اتفاقاً

(١) منهاج السنة ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) أيضاً ص ٢٤٢ .

على الهدى والرشد وأبعد عن الفتنة والتفرق والاختلاف من أصحاب الرسول ﷺ الذين هم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك إذ يقول تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾<sup>(١)</sup> .

### كل خير يوجد لدى المسلمين إنما هو بفضل الصحابة الكرام :

وقد أصاب الامام ابن تيمية حينما قال : كل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإسلام والايمان والقرآن والعلم والمعرفة ، والعبادات وعوامل الخير والتوفيق إنما هو ببركة ما قام به الصحابة رضوان الله عليهم من الجهاد والعمل والاخلاص وعلو الهمة ، ونتيجة لتضحياتهم وايثارهم وقدسيتهم ، يقول في غاية من الحماس : « وأما الخلفاء والصحابة فكل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان والإسلام والقرآن والعلم والمعارف والعبادات ودخول الجنة والنجاة من النار وانتصارهم على الكفار وعلو كلمة الله فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلغوا الدين وجاهدوا في سبيل الله ، وكل مؤمن آمن بالله فللصحابة رضى الله عنهم عليه فضل إلى يوم القيامة ، وكل خير فيه الشيعة وغيرهم فهو ببركة الصحابة ، وخير الصحابة تبع لخير الخلفاء الراشدين فهم كانوا أقوم بكل خير في الدين والدنيا من سائر الصحابة »<sup>(٢)</sup> .

### خلافة سيدنا أبى بكر الصديق دليل على النبوة والصدق :

وقد صدق الامام ابن تيمية عندما قال أن خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه دليل على كمال النبوة وشهادة على صدق النبوة أيضاً ، فقد كانت طبيعته ﷺ طبيعة النبوة لا طبيعة السياسة ولا شبه بينه وبين ملوك العالم وسلاطينه الذين يختارون أولادهم أو أفراد أسرهم خلفاءهم وأولياء عهدهم ، فلو كانت عنده شائبة من الملوكية أو ايثار لقرابة لوجد هناك أفراد كثيرون من بنى هاشم - عدا على بن أبى طالب وعباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما - يستخلفهم رسول الله ﷺ وأسس ملوكية خاصة بأسرته ، وحصر تلك الغلبة والعزة التي أكرمها الله بها في قبيلته وأسرته ، إنه يقول :

« ثم خلافة أبى بكر وعمر هي من كمال نبوة محمد ﷺ ورسالته ومما يظهر أنه رسول حق ليس ملكاً من الملوك فإن عادة الملوك ايثار أقاربهم والموالاة بالولايات أكثر من غيرهم ، وكان ذلك مما يقيمون به ملكهم ، وكذلك ملوك الطوائف كبنى بوية وبنى سلجق وسائر

(١) أيضاً ص ٢٤١ .

(٢) أيضاً ص ٢٤٥ .

الملوك بالشرق والغرب والشام واليمن وغير ذلك ، وهكذا ملوك الكفار من أهل الكتاب والمشركين كما يوجد في ملوك الفرنج وغيرهم وكما يوجد في آل جنكسخان بأن الملوك تبقى في أقارب الملك ويقولون هذا من العظم وهذا ليس من العظم أى من أقارب الملك .

وإذا كان كذلك فتولية أبى بكر وعمر بعد النبى ﷺ دون عمه العباس وبنى عمه على وعقيل وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وأبى سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وغيرهم ودون سائر بنى عبد مناف كعثمان بن عفان وخالد بن سعيد بن العاص وابان بن سعيد بن العاص وغيرهم من بنى عبد مناف الذين كانوا أجل قريش قدراً وأقرب نسباً إلى النبى ﷺ ، من أعظم الأدلة على أن محمداً عبد الله ورسوله وأنه ليس ملكاً حيث لم يقدم في خلافته أحداً لا بقرب نسب منه ولا بشرف بيته بل إنما قدم بالايمان والتقوى ، ودل ذلك على أن محمداً ﷺ وأمتة من بعده إنما يعبدون الله ويطيعون أمره ، لا يريدون ما يريد غيرهم من العلو في الأرض ، ولا يريدون أيضاً ما أبيع لبعض الأنبياء من الملك ، فإن الله خير محمداً بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون نبياً فاختر أن يكون عبداً رسولاً ، وتولية أبى بكر وعمر بعده من تمام ذلك فإنه لو أقام أحداً من أهل بيته لكانت شبهة لمن يظن أنه جمع المال لورثته « (١) .

### عصبية النسب الجاهلية :

الواقع أن الفرق التي تدعى وصاية على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والتي لا تستسيغ أن ينال الخلافة أحد آخر بالرغم من وجود ابن عمه الحقيقى وصهره إنما يتغلب عليها لون الجاهلية بأوسع معناه ، وهى تعيش في عصبية جاهلية للنسب والقراة وتتقاصر عن ادراك أن المناصب والمنازل لا تعطى على أساس النسب والقراة بل على أساس الكفاءة والفضائل والجدارة التي توجد في الانسان ، وكانت الأمم كلها سواء في الهند أو العرب أو الفرس تصطبغ بهذه الصبغة الخاصة ، ولذلك فإن الذين حكموا بقطعية أن الخليفة لابد هو على بن أبى طالب رضى الله عنه إنما فعلوا ذلك بحكم عاداتهم القومية وطبائعهم الجاهلية ، من غير أن يدركوا مكانة الأنبياء عليهم السلام وطبيعتهم وسماحتهم وهمتهم العالية التي يعيشون فيها ، يقول الامام ابن تيمية :

« كلام الرافضة من جنس كلام المشركين الجاهلية يتعصبون للنسب والآباء لا للدين ، ويعيبون الانسان بما لا ينقص إيمانه وتقواه وكل هذا من فعل الجاهلية » (٢) .

(١) منهاج السنة ج ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) أيضاً ص ٢٨٧ .

## انتساب الرافضة إلى ولد الحسين ومدحهم لهم مصيبة عليهم :

يرى ابن تيمية أن الرافضة أصدقاء حمقى لأهل البيت ، فإن مبالغتهم في أمر أهل البيت وغلوهم ، ونسبة الأحداث والروايات المزورة اليهم تنال من سمعتهم ، وتحط من شأنهم ، يقول :

« من المصائب التي ابتلى بها ولد الحسين انتساب الرافضة اليهم وتعظيمهم ومدحهم لهم ، فأنهم يمدحونهم بما ليس بمدح ويدعون لهم دعاوى لا حجة لها ، ويذكرون من الكلام ما لو لم يعرف فضلهم من كلام غير الرافضة لكان ما تذكره الرافضة بالقدح أشبه منه بالمدح»<sup>(١)</sup> .

ويقول في موضع آخر :

« ولكن القوم جهال بحقيقة المناقب والمثالب والطرق التي يعلم بها ذلك »<sup>(٢)</sup> .

## نتائج العصبية :

استطاع مؤلف « منهاج الكرامة » أن يجمع قدراً كبيراً من الآيات والأحاديث والروايات كدليل على امامة سيدنا على رضي الله عنه وفي مناقب أئمة أهل البيت رضي الله عنهم ، إن نظرة عابرة في هذه الآيات والأحاديث والروايات تبين مدى أضرار العصبية التي تنحرف بالمرء من الجادة الصحيحة إلى ضلال وجهل ، إن معظم هذه الروايات إما لا علاقة لها بأهل البيت بتاتاً ، أو إنها تتناقض مع المعاني التي يريد أن يثبتها منها ، كما أن أكثرها ضعيفة وموضوعة وقد وصفها ابن تيمية بأنها « الروايات المسببة التي لا زمام لها ولا خطام » وقد بلغ مؤلف « منهاج الكرامة » في ذلك من الوقاحة والجرأة مبلغاً لا يتصوره العقل ، نسب كثيراً من هذه الروايات إلى الصحيحين ، وكثيراً منها إلى مسند أحمد بن حنبل ، وجاء ابن تيمية فكشف عنها القناع وأثبت أنها لا توجد لا في الصحيحين ولا في المسند ، وأثبت أن بعضاً منها موضوعة لا توجد في أية مجموعة من الأحاديث ولا في دواوين السنة ، وبما أن هذه الفرقة أجهل الناس بالكتاب والسنة فإنها لا تستطيع أن تفهم مصطلحات عادية فلا تتردد شيئاً في الكذب والتزوير بعض الأحيان .

أما بخصوص الآيات فقد جاء المؤلف في تفسيرها بما لا يقل عن الملح الخرافية ، وما أن يقرأ أحد تفسيره للآيات الا ويتذكر الملحة المعروفة التي تدور حول : ساغب سئل عن اثنين

(١) منهاج السنة ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) أيضاً ص ١٢٦ .



كم يكون بعد الضرب في اثنين فقال أربعة أرغفة ، وقد أدرج المؤلف في كتابه أربعين آية ويعتقد أنها نزلت في سيدنا علي رضي الله عنه ، نذكر منها البعض :

الآية ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾  
يذكر المؤلف في تفسيره هذه الآية حديثاً لأبي نعيم يفيد أنها نزلت بعد خطبة غدیر خم وقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتى وبالولاية لعلى من بعدى » .

يثبت ابن تيمية على طريقة المحدثين أن هذا الحديث موضوع باجماع أهل الفن ، ولا يوجد في أى كتاب من كتب الحديث الموثوق بها ، ثم يثبت عن طريق التاريخ والتفسير ويقول : « إن كتب الصحاح والمسانيد والتفسير تؤكد أن هذه الآية إنما نزلت في عرفة وهو واقف بها ، وقال رجل من اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك عيداً ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه آية آية هي ؟ قال قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ فقال عمر : إنى لأعلم أى يوم نزلت وفي أى مكان ، نزلت يوم عرفة بعرفة ورسول الله ﷺ واقف بعرفة ، يقول ابن تيمية : « وهذا مستفيض من وجوه أخرى وهو منقول في كتب المسلمين الصحاح والمسانيد والجوامع والسير والتفسير وغير ذلك ، وهذا اليوم كان قبل يوم غدیر خم بتسعة أيام ، فإنه كان يوم الجمعة تاسع ذى الحجة ، فكيف يقال : أنها نزلت يوم الغدير » .

وأما ما جاء في هذه الرواية من هذا اللفظ وهو قوله : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله ، كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث » ويقول : إن دعاء النبي ﷺ مجاب ، وهذا الدعاء ليس بمجواب فعلم أنه ليس من دعاء النبي ﷺ .  
وقال مؤلف « منهاج الكرامة » أن قوله تعالى ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ على وفاطمة بينهما برزخ لا يبغيان النبي ﷺ ، وأول « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » الحسن والحسين .

يقول ابن تيمية رداً على هذا الكلام :

« إن هذا وأمثاله يقول من لا يعقل ما يقول ، وهذا بالهذيان أشبه منه بتفسير القرآن وهو من جنس تفسير الملاحدة والقرامطة الباطنية للقرآن بل هو شر من كثير منه » وقد ذكر بعد ذلك ستة وجوه تكذب هذا الرأي :

أحدها : إن هذا فى سورة الرحمن وهى مكىة باجماع المسلمين ، والحسن والحسين إنما ولدا فى المدينة ، والثانى : الله ذكر أنه مرج البحرين هذا فى آية أخرى فقال فى الفرقان : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذاب فرات ، وهذا ملح أجاج ﴾ فلو أراد بذلك علياً وفاطمة لكان ذلك ذمّاً لأحدهما باجماع أهل السنة والشيعة ، والثالث : أنه لو أريد على وفاطمة لكان البرزخ هو النبى ﷺ بزعمهم أو غيره هو المانع لأحدهما أن ينبغى على الآخر وهذا بالذم أشبه منه بالمدح « (١) .

وهكذا فإن هذا الجزء من كتاب « منهاج الكرامة » ملئ بالغرائب والعجائب ، وقد تصدى ابن تيمية للرد عليه فى ضوء الحديث والفقه والتاريخ والنقد بما يتبين به مدى ذكائه ووفرة علمه وغزارة مادته وقوة مناظرته ، أنه يقول وهو ينتقد دلائل المؤلف « فضل على وولايته لله وعلو منزلته عند الله معلوم عند الناس - والله الحمد - من طرق ثابتة أفادتنا العلم اليقيني لا يحتاج معها إلى كذب ولا إلى ما لا يعلم صدقة » (٢) .

والجزء المهم الآخر من كتاب ابن تيمية هو ما يبحث فيه عن « منهاج الكرامة » ويرد على المطاعن التى يتناول بها الصحابة الكرام رضى الله عنهم بوجه عام ويطعن بها فى الشيخين بوجه خاص ، وفى أبى بكر الصديق رضى الله عنه بوجه أخص ، وهذه المطاعن والایرادات على شخصية الصحابة والشيخين مأخوذة من القرآن أيضاً كما يزعم المؤلف الشيعى ، ومن الأحاديث وكتب السير والتاريخ أيضاً ، وهى دليل على أن العداوة لا تترك أى إنسان مهما كان عاقلاً ومتعلماً إلا وتعميه ونورد فيما يلى نموذجين لهذه المطاعن :

إن الآية الشهيرة فى القرآن التى تعتبر أكبر دليل على فضل أبى بكر الصديق رضى الله عنه ومنزلته السامية التى يتفرد بها لا يعادله فيها أى فرد من أفراد الأمة وهى قوله تعالى : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الدين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ .

يقول صاحب « منهاج الكرامة » أنه لا فضل له فى الغار لجواز أن يستصحبه حذراً منه لئلا يفشى سره ، وأيضاً فإن الآية تدل على نقيضه لقوله « لا تحزن » فإنه يدل على خوفه وقلة صبره ، وعدم يقينه بالله تعالى وعدم رضاه بمساواته النبى ﷺ وبفضاء الله وقدره ، وأيضاً فإن القرآن حيث ذكر إنزال السكينة على رسول الله ﷺ أشرك معه المؤمنين إلا فى

(١) منهاج السنة ج ٤ ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) منهاج السنة ج ٤ ص ١٧٦ .

هذا الموضوع ولا نقيض أعظم منه « (١) .

وقد أجاب عنه ابن تيمية أولاً باثبات المناقب والفضائل الكثيرة التي جمعها الله تعالى في هذه الآية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وبأن هذه المعية التي أكرم الله بها أبا بكر الصديق رضي الله عنه إنما كنت خاصة به ، وأما قول ابن المطهر الحلبي : « الجواز أن يستصحبه حذراً منه لئلا يظهر أمره » يدل على أن النبي ﷺ لم يكن يثق به ولا كان مطمئناً من قبله « فمعلوم أن أضعف الناس عقلاً لا يخفى عليه حال من يصحبه في مثل هذا السفر الذي يعاديه فيه الملا الذين هو بين أظهرهم ويطلبون قتله ، وأولياؤه هناك ، لا يستطيعون نصره فكيف يصحب واحداً ممن يظهر له موالاته دون غيره وقد أظهر له هذا حزنه وهو مع ذلك عدو له في الباطن والمصحوب يعتقد أنه وليه وهذا لا يفعله إلا أحمق الناس وأجهلهم ، فقبیح الله من نسب رسوله الذي هو أكمل الخلق عقلاً وعلماً وخبرة إلى مثل هذه الجهالة والغباوة » (٢) .

ويقول ابن تيمية :

« ولقد بلغني عن مالك المغول خربنداه الذي صنف له هذا الرافضي كتابه هذا في الإمامة أن الرافضة لما صارت تقول له مثل هذا الكلام أن أبا بكر كان يبغض النبي ﷺ وكان عدوه ، ويقولون مع هذا أنه صحبه في سفر الهجرة الذي هو أعظم الأسفار خوفاً قال كلمة تلزم عن قولهم الخبيث وقد برأ الله ورسوله منها ، وكان قليل العقل ولا ريب أن من فعل ما قالته الرافضة فهو قليل العقل وقد برأ الله ورسوله وصديقه من كذبهم » (٣) .

ثم تناول ابن تيمية صاحب كتاب « منهاج الكرامة » جزءاً جزءاً ، رد عليه بتفصيل ، وذكر المواضع التي جاء فيها ذكر الحزن والخوف في القرآن الكريم ، وأن الحزن والخوف إنما ثبتا لأولى العزم من الرسل والأنبياء وكبار الأولياء والصلحاء وأفراد أهل البيت ، وأما قول الحلبي أن القرآن حيث ذكر إنزال السكينة على رسول الله ﷺ أشرك معه المؤمنين يوهم أنه ذكر ذلك في مواضع متعددة وليس كذلك بل لم يذكر ذلك إلا في قصة حنين كما قال تعالى : ﴿ ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم

(١) أيضاً ص ٢٣٩ .

(٢) أيضاً ج ٤ ص ٢٥٥ .

(٣) منهاج السنة ج ٤ ص ٢٥٦ .

تروها ﴿ فذكر إنزال السكينة على الرسول والمؤمنين بعد أن ذكر توليتهم مدبرين ﴾ (١) .  
وقد ذكر إنزال السكينة على المؤمنين وخدمهم في مواضع عديدة من القرآن ، وتناول ذلك بالبحث والتفصيل .

والنموذج الثانى لهذا التعصب والجهل الأعمى لما جاء فى كتب السير أن النبى ﷺ عندما كان فى العريش يوم بدر كان أبو بكر رضى الله عنه أنيسه ، يقول الحلى :  
« وأما كونه أنيسه فى العريش يوم بدر فلا فضل فيه لأن النبى ﷺ كان أنسه بالله مغنياً له عن كل أنيس ، لكن لما عرف النبى ﷺ أن أمره لأبى بكر بالقتال يؤدى إلى فساد الحال حيث هرب عدة مرار فى غزواته » (٢) .

وقد حرّكت ابن تيمية هذه التهمة فثارت فيه حماسة الإيمان والصدق ورد عليه بقوله « الجواب أن يقال لهذا المفترى الكذاب ما ذكرته من أظهر الباطل بوجوه : أحدها : أنه يقول « هرب عدة مرار فى غزواته » يقال له هذا الكلام يدل على أن قائله من أجهل الناس بمغازى رسول الله ﷺ وأحواله ، والجهل بذلك غير منكر من الرافضة فإنهم من أجهل الناس بأحوال الرسول وأعظمهم تصديقاً بالكذب فيها وتكذيباً بالصدق منها ، وذلك أن غزوة بدر هى أول مغازى القتال لم يكن قبلها لرسول الله ﷺ ولا لأبى بكر غزاة مع الكفار أصلاً ، وغزوات القتال التى قاتل فيها النبى ﷺ تسع غزوات . . . . . وأما الغزوات التى لم يقاتل فهى نحو بضع عشرة ، وأما السرايا فمنها ما كان فيه قتال ومنها ما لم يكن فيه قتال ، وبكل حال فبدر أول مغازى القتال باتفاق الناس . . . . . وليس قبلها غزوة ولا سرية كان فيها قتال إلا قصة بنى الحضرمى ولم يكن فيها أبو بكر ، فكيف يقال أنه هرب قبل ذلك عدة مرات فى مغازيه .

الثانى : أن أبا بكر رضى الله عنه لم يهرب قط حتى يوم أحد لم ينهزم لا هو ولا عمر . . . . . فمن أثبت ذلك عليهما هو المدعى لذلك فلا بد من إثبات ذلك بنقل يصدق .

الثالث : أنه لو كان فى الجبن بهذه الحالة لم يخصه النبى ﷺ دون أصحابه بأن يكون معه فى العريش ، بل لا يجوز استصحاب مثل هذا فى الغزو ، فإنه لا ينبغى للامام أن يقدمه على سائر أصحابه ويجعله معه فى عريشه » (٣) .

(١) أيضاً ص ٢٧٢ .

(٢) أيضاً ص ٢٨٤ .

(٣) منهاج السنة ج ٤ ص ٨٤ - ٢٨٥ .

## التناقض في سيدنا علي رضي الله عنه :

يتحدث ابن تيمية عن سيدنا علي رضي الله عنه ويشبه الرافضة بالنصارى . فكما أن النصارى اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله واتخذوا المسيح ابن الله ثم صوروا حادث صلبه بحيث إنه إنما يبدو إنساناً عاجزاً لا يملك من أمره شيئاً ، ويستهدف لكل إهانة وذل واستهزاء وسخرية ، كذلك الرافضة الذين خلعوا على سيدنا علي رضي الله عنه صفات تثبت أن مكانته أرفع من مكانة النبي ﷺ ولولاه لم يزدهر الإسلام ولم ينتشر في الآفاق ولم ينهزم الكفر ، ثم أثبتوا عجزه وضعفه بازاء الخلفاء الثلاثة إلى أنه لم يستطع أن يستنكر ما قد كان يراه خلافاً لضميره وعقيدته ، ويحتمل كل إهانة وذلة لنفسه ولأهل البيت من غير أن يحارب ذلك أو يدافع عنه ، فهذا تناقض صريح ، يعرفه كل ذى عقل ، يقول ابن تيمية :

« هؤلاء الرافضة يجمعون بين النقضين لفرط جهلهم وظلمهم يجعلون علياً أكمل الناس قدرة وشجاعة حتى يجعلوه هو الذي أقام دين الرسول وأن الرسول كان محتاجاً إليه ، ويقولون مثل هذا الكفر إذ يجعلونه شريكاً لله في إقامة دين محمد ، ثم يصفونه بغاية العجز والضعف والجزع والتقية بعد ظهور الإسلام وقوته ودخول الناس فيه ، ومن المعلوم قطعاً أن الناس بعد دخولهم في دين الاسلام أتبع للحق منهم قبل دخولهم فيه ، فمن كان مشاركاً لله في إقامة دين محمد حتى قهر الكفار وأسلم الناس ، كيف لا يفعل هذا في قهر طائفة بغوا عليه هم أقل من الكفار الموجودين عند بعثة الرسول ، وأقل منهم شوكة وأقرب إلى الحق منهم»<sup>(١)</sup> .

### مبحث الامامة :

تناول ابن تيمية مبحث الامامة بغاية من التفصيل ، وأنكر بقوة ما يقوله الإمامية في تعريف معنى الامامة ، واعتبارها ركناً من أركان الدين ، وود على جميع الدلائل التي يستدلون بها على اثبات الإمامة عقلاً ونقلاً ، ولا سيما عقيدة الامام الغائب فقد استهزأ بها وأثبت أن هذه العقيدة لا تثمر سوى الفساد والخلاف والبطالة والتعطل»<sup>(٢)</sup> .

### الشيعة لا تعتنى بالكتاب والسنة :

يقول ابن تيمية « والرافضة لا تعتنى بحفظ القرآن ومعرفة معانيه وتفسيره وطلب الأدلة

(١) أيضاً ص ٥٦ .

(٢) أيضاً ج ٣ ص ٥٠ - ٢٤٩ .

الدالة على معانية ، ولا تعتنى بأثار الصحابة والتابعين حق تعرف مأخذهم ومسالكتهم بل عمدتها آثار تنقل عن بعض أهل البيت ، فيها صدق وكذب « (١) .

### تعطيل الشيعة المساجد ورفضهم الجمعة والجماعة :

ويقول : « وكذلك الرافضة غلوا في الرسل بل في الأئمة حتى اتخذوهم أرباباً من دون الله فتركوا عبادة الله وحده لا شريك له التي أمرهم بها الرسل ، فتجدهم يعطلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فلا يصلون فيها الجمعة ولا جماعة ، وليس لها عندهم كبير حرمة ، وإن صلوا فيها صلوا فيها وحداناً ، ويعظمون المشاهد المبنية على القبور فيعكفون عليها مشابهة للمشركين ، ويحجون إليها كما يحج إلى البيت العتيق » (٢) .

### متأخرو الشيعة أتباع للمعتزلة :

ويقول شيخ الاسلام : « وهم في دينهم لهم عقليات وشرعيات ، فالعقليات متأخروهم فيها أتباع المعتزلة إلا من تفلسف منهم فيكون إما فيفيلسوفاً وإما ممتزجاً من فلسفة واعتزال ويضم إلى ذلك الرفض مثل مصنف هذا الكتاب » (٣) .

فإن مؤلف كتاب « منهاج الكرامة » قد أثار في هذا الموضوع بحثاً للعقائد والكلام يتجلى فيها لون الاعتزال والفلسفة بوضوح ، وقد رد عليها جميعاً ابن تيمية بغاية من التفصيل ويتضمن كلامه هذا بحثاً فلسفياً ، وكلامية عميقة ، وبما أن شيخ الاسلام غواص في بحور العقول والمنقول كليهما تناول الموضوع كعادته بشرح واف وإيضاح كاف (٤) ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وتوصل إلى نتيجة أن اطلاع هذه الفرقة على العلوم العقلية عابر سطحي ، حتى أن علماءهم لا يعدون تلاميذ الابتدائية في هذا العلم .

### التاريخ الماضي :

لقد أشار ابن تيمية في مواضع متعددة من مؤلفاته إلى أن الشيعة في كل دور من أدوار التاريخ «يوالون أعداء الدين الذين يعرف كل أحد معاداتهم من اليهود والنصارى والمشركين ،

(١) أيضاً ص ٤٠ .

(٢) منهاج السنة ج ١ ص ١٣١ .

(٣) أيضاً ج ٣ ص ٤٠ .

(٤) أيضاً ص ٣٠ - ١٢٩ .

وليس لهم سعى إلا فى هدم للاسلام ونقض عراه وإفساد قواعده « ، حتى اضطر أخيراً إلى أن يصرح فيقول : « فأيامهم فى الإسلام كلها سود »<sup>(١)</sup> .

### أهل السنة على طريق عادل :

يعتقد ابن تيمية أن أهل السنة هم وحدهم الذين يأخذون بالقصد والعدل فى طريقهم من بين جميع فرق المسلمين ، وهم الذين يعتبرون بمعزل عن كل افراط وتفريط ، لا تعارض عندهم بين حب أهل البيت وتعظيم الصحابة الكرام رضى الله عنهم ، انهم يجمعون بين هاتين النعمتين وكلتا الحسنين ، وذلك هو الاسلام الصحيح ، أنه يقول :

« وأما أهل السنة فيتولون جميع المؤمنين ويتكلمون بعلم وعدل ليسوا من أهل الجهل ولا من أهل الأهواء ، ويتبرءون من طريقة الروافض والنواصب جميعاً ويتولون السابقين الأولين كلهم ، ويعرفون قدر الصحابة وفضلهم ومناقبهم ويرعون حقوق أهل البيت التى شرعها الله لهم »<sup>(٢)</sup> .

---

(١) أيضاً ج ٤ ص ١١١ .

(٢) أيضاً ج ١ ص ١٦٥ .





## تجديد علوم الشريعة وتنشيط الفكر الإسلامي

### العصر الذي عاش فيه ابن تيمية :

كانت العلوم الشرعية والدينية قد توسع نطاقها في العصر الذي ولد فيه ابن تيمية سيما علوم التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه ، فقد تكونت لها مكتبة واسعة إذا اطلع أحد على علم من هذه العلوم ، وعثر على الذخائر العلمية الموجودة آنذاك - ولو باجمال - كان يعتبر ذلك مآثرة علمية كبرى لرجل متوسط ، أما عصر ابن تيمية فقد امتاز بوجود عدد وجيه من علماء ومدرسين كان مطلعاً على هذه المكتبة الواسعة ، كما وجد من بينهم عدد أتقن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة وحفظها في الصدور ، نظراً إلى ما كان يتمتع به من قوة الذاكرة والاشتغال بالعلم وكثرة المطالعة والدراسة والتدريس ، وكان يتمكن من إعادة ما كان يحفظه من العلم والاستفادة منه بدون تكلف كلما ألجأتهم الضرورة إلى المناظرة والتدريس ، فمثلاً العلامة كمال الدين بن الزملكاني ، تقي الدين بن السبكي ، شمس الدين الذهبي ، أبو الحجاج المزى كلهم نموذج لذلك ، إن دراسة كتاب « طبقات الشافعية الكبرى » تفيد تقدير المدى الذي بلغ إليه هؤلاء العلماء من استحضر العلم والتبحر فيه ، وكثرة المحفوظات والتفنن في العلم ، وقد كان عديد من رجال العلم في ذلك العصر ممن استحقوا أن يسموا دائرة معارف العلوم الشرعية بكل جدارة .

إن هؤلاء الرجال وإن كانوا متوسعين في العلم والمعلومات إلا أن كان النقل فيها غالباً على العقل والتفكير ، فكانت الحاجة ماسة إلى رجال لهم نظرة ناقدة وخبرة تامة بهذه الذخائر العلمية كلها ، يحملون قوة الموازنة بين آراء المتقدمين وأفكارهم ، كما يتفردون بآرائهم ونظرياتهم الخاصة في المسائل والمشكلات ، لقد كان المتأخرون من العلماء في ذلك العصر يكتفون بالتبحر في التراث العلمي الذي كان قد خلفه المتقدمون ، والاشتغال بشرحه وتوضيحه واختصاره وتلخيصه ، فكان العمل العلمي راكداً ينال من زيادة قيمة ، ولا كانت تتوسع آفاقه ، وكانت المكتبة العلمية تشكو فقدان الكتب التي تتسم بالأصالة والاجتهاد ، أما الكتب التي كانت تعتبر منعدمة النظير في ذلك العصر فلم تكن لها ميزة سوى أن مؤلفيها كانوا قد جمعوا فيها المواد المبعثرة ورتبوا المعلومات المتفرقة السابقة بتنسيق جيد ، أو أنها كانت شرحاً جيداً لمتن فقهي سابق .

## خصائص ابن تيمية العلمية والتأليفية :

تبحر ابن تيمية - بفضل ذكائه وقوة ذاكرته الموهوبة - في هذه الذخائر العلمية بأكملها ، واستساغها فكراً ، واستفاد منها في مؤلفاته استفادة كاملة ، إلا أن نفسه الطموح المضطربة ، وعقله النادر الكبير ، وقلمه السيل البليغ ، لم يكن كل ذلك يقنعه بأن يكتفى بالنقل والرواية والشرح والتلخيص أو الاختبار ، فما كاد يفارقه علمه العميق بكتاب الله تعالى ، واطلاعه الواسع الصحيح على مقاصد الشريعة وملكته الراسخة في أصول الفقه وأصول التشريع في أي مرحلة تأليفه ، وكل موضوع يريد أن يؤلف فيه ينفخ فيه روحاً جديدة بعلمه الناضج الطري ، ولذلك لا نجد أي كتاب من كتبه يخلو من حقائق علمية جديدة وبحوث ناقدة ، ومباحث أصولية جديدة ، بل إن مؤلفاته تشق طريقاً جديداً لفهم الكتاب ، وتفتح باباً جديداً إلى إدراك مقاصد الشريعة .

وقد سبق أن تناولنا كتابين ضخمين من كتبه بالنقد والتلخيص في تفصيل ، وهما «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» و «منهاج السنة» وله عدا هذين الكتابين عدة مؤلفات تشهد بأفكاره وآرائه الاجتهادية وذكائه الخارق وقوة نقده ، وتهيئ للعقول في كل عصر غذاء دسماً صالحاً من العلم والفكر ، ويجد فيها أهل العلم في كل زمان بغيتهم من المعلومات الجديدة ، والدلائل الطريفة ، والتحقيقات الحديثة ، فمثلاً «كتاب النبوءات» و «الرد على المنطقيين» و «اقتضاء الصراط المستقيم»<sup>(١)</sup> ، ليست من المؤلفات العلمية القيمة ذات المستوى العالي والمتفردة في مواضعها فحسب ، بل إنها كتب تفتح آفاق الفكر وتعد العقول للتفكير ، وتعرض عليها مجالات جديدة ، للمسائل العلمية والقضايا الفكرية .

## التفسير :

خص ابن تيمية التفسير بتأليفه وتفكيره ، كموضوع مفضل ، وقد غلب عليه ذوق التفسير إلى حد لا يخلو أي كتاب من كتبه عن مواد التفسير ، والاستدلال بالآيات ، وشرحها وتفسيرها إنه لا يمر بآية إلا ويتناولها بالشرح والتفسير ، ولذلك فإن الذخائر

---

(١) إن هذا الكتاب وإن كان يدور حول عدم التمسك بتقاليد غير المسلمين وشعائرتهم والامتناع عن الاشتراك في مناسباتهم وأعيادهم الدينية ، إلا أن الكتاب يحتوي - كما هو المألوف من المؤلف-على مباحث وعلوم نفسية ، ويصلح أن يحتل محلاً عالياً بين مؤلفات شيخ الإسلام ، أصدرت إحدى طبعاتها جمعية أنصار السنة في القاهرة .

التفسيرية التي تركها تربو على ثلاثين مجلداً ، كما يقول تلاميذه ، ولا شك فإنها إذا جمعت لتكون ذخيرة تفسيرية لها قيمتها واعتبارها ، ولكان تفسير ابن تيمية من أجود التفاسير وأجمعها لما قد رزقه الله تعالى من نعمته التعمق فى الفكر والنظر ، وسلامة الذوق ، والتبحر الكامل فى الروايات والاستشهاد بها ، وتطبيق الآيات على الحياة ، والاطلاع على المجتمع الذى عاش فيه ، وروح الدعوة ودوافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحمية الدين .

ولو أن تفسيره الكامل المتصل مفقود ، ولكن تفسيره لسور عديدة مطبوع موجود ، وهو يكفى لتقدير خصائصه التفسيرية ، وقد صدر تفسير سورة الأَخْلَاص ، وتفسير المعوذتين ، وتفسير سورة النور منذ زمن طويل فى مصر كما صدرت مجموعة من التفسير مأخوذة من كتبه المختلفة ، منذ زمن قريب <sup>(١)</sup> ، لقد عرفت صلته بالتفسير واشتغاله به فى حياته أيضاً ، وكانت تعتبر ميزته العلمية ، ولما نودى للصلاة عليه بعد وفاته سُمى بهذا الأسم «الصلاة على ترجمان القرآن» ، وله رسالة وجيزة فى أصول التفسير وهى رسالته الأولى الخاصة بأصول التفسير فيما نعلم .

### الحديث :

وإن لم يكن له كتاب مستقل فى فن الحديث وشرحه ، وكان هذا الفن قد بلغ ذروة الاتساع والكمال فى القرنين السابع والثامن حيث لم تعد هناك حاجة إلى تأليف أو شرح للحديث ، إلا أن مؤلفاته تحوى مواد غزيرة لأصول الحديث وأسماء الرجال والجرح والتعديل ونقد الحديث وفقه الحديث ، حتى إذا جمعت فى كتاب مستقل تكونت ذخيرة قيمة ، وكانت تأليفاً ضخماً ، وبالأخص فإن آرائه فيما يتصل بالأحاديث الموضوعية تبلغ من الصراحة والتحقيق إلى حد يصعب العثور عليه فى مكان آخر ، والمواد التى نطلع عليها حول هذا الموضوع فى كتابه « منهاج السنة » وما بحثه هو عن عشرات من الأحاديث مشهورة المتداولة كل ذلك ذخيرة نادرة قيمة .

### أصول الفقه :

كان هذا الموضوع مما يرغب فيه ويتذوقه ، وقد حصلت له فيه ملكة راسخة ومكانة جهادية ، ولذلك نرى أن مؤلفاته كلها تحتوى على هذه المباحث الأصولية ، ولا سيما كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » ومجموع فتاواه ينطويان على أكبر مقدار من المباحث

(١) صدر هذا التفسير بأسم « تفسير ابن تيمية » من المطبعة القيمة فى بمبائى .

الأصولية ، كما أن له رسائل مستقلة في هذا الموضوع ، كـ « رسالة القياس » و « منهاج الوصول إلى علم الأصول » وما إلى ذلك .

## علم الكلام :

لو ذهبنا نحلل مؤلفات ابن تيمية لوجدنا علم الكلام والعقائد يشغل نصف كتاباته أو ثلثين منها ، ورسائله التي ألفها في هذا الموضوع وعزاها <sup>(١)</sup> إلى مدن و أمكنة مختلفة كشرح الاصبهانية والرسالة الحموية ، والتدمرية ، والواسطية ، والكيلانية ، والبغدادية ، والأزهرية ، وما إلى ذلك ، خير دليل على معرفة أفكاره الأصلية ، وقوة استدلاله ، وحميته الدينية ، ومرآته لعلمه وذكائه .

## الفقه :

أما فقه كل مذهب فكان قد تناوله المدونون في عصره بما لا يترك أى مجال للزيادة فيه ، إلا أن ابن تيمية درس كثيراً من المسائل والأحكام في ضوء الكتاب والسنة والإجماع والقياس وأصول الفقه ، وقام بالاستنباط والاجتهاد فيها ، وحاول التوفيق بين الفقه والسنة وجعل الفروع والآراء الفقهية تابعة للأحاديث الصحيحة ، واجتهد في المسائل المستحدثة والأحوال والمقتضيات الجديدة ، واستنبط أحكامها من الكتاب والسنة ، شأن الفقهاء والقضاة في كل عصر ، الذين يجتهدون في المشكلات والمسائل المعاصرة ، وقد كانت شروط الاجتهاد تتوفر فيه كما يقول بعض أهل البصيرة من العلماء ، وخلف ذخيرة واسعة من فتاواه واختياراته وهذه الفتاوى تحفظها أربعة مجلدات كبار ، وهي ليست مجموعة من المسائل والأحكام الفقهية فحسب بل إنها ذخيرة قيمة من المباحث الأصولية والمسائل العلمية <sup>(٢)</sup> .

## تأثير ابن تيمية في القرون المتأخرة :

قام ابن تيمية بتجديد علوم الشريعة بجنب ما أنجز من جلائل الأعمال العلمية التي

---

(١) سمي رسائله باسم المدينة التي ورد منها استفتاء ، بوجه عام .

(٢) صدرت مجموعة فتاوى شيخ الإسلام في أربعة مجلدات عام ١٣٢٦ هـ في مصر واهتم بطبعتها الشيخ فرج الله الكردي ، وهي تقع في ١٥٨٦ صفحة ، وفي آخر المجلد الرابع منها ملحق باسم «الاختيارات العلمية» وهو يحتوى على اختياراته وترجيحاته ، والجزء الخامس من الفتاوى يتعلق بمسائل علم الكلام والعقائد ورسائلهما ، أما مجموعة فتاوى شيخ الإسلام التي أصدرتها المملكة السعودية والتي تحتوى على ٣٠ مجلداً فهي بمثابة مكتبة بأسرها ودائرة معارف مستقلة .

كانت تتسم بالسعة والعمق ، وبالامتزاج بين العقل والنقل ، إنه قضى على ذلك الجمود والاضمحلال اللذين كانا قد تسربا إلى الفكر الإسلامى ، وفتح أبواباً جديدة للفكر ، وخلف وراءه ذخائر من العلوم والمؤلفات التى توسع آفاق الذهن ، وتنشط العقل وتحرك القلب ، والتى مثلت دوراً رائعاً فى ايجاد طبقة عالية من المؤلفين والمفكرين والدعاة والمصلحين فى كل دور من أدوار التاريخ ، وفى الحركة الفكرية والاصلاحية التى نشطت منذ القرن الثامن الهجرى يرجع الفضل الأكبر إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وله الحظ الأوفر فيها ، إنه يستحق بكل جدارة أن يعتبر فى أعلام المجددين للعلوم والأفكار الإسلامية ، وبالأخص فإن مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية عامل قوى من بين العوامل الأخرى للحركات الإصلاحية العلمية والفكرية التى نشأت فى أرجاء العالم الإسلامى المختلفة منذ القرن الثانى عشر الهجرى .



## بَعثُ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ مصدر العقائد كلها الكتاب والسنة

### مصدر العقائد والحقائق الدينية الصحيح :

ومن مآثر ابن تيمية التجديدية المستقلة أنه قام ببعث الفكر الاسلامى - ولعل هذه المآثرة من أجل أعماله الفكرية التي تميز بها في حياته - ومما لا يخفى أن الإسلام يمتاز بالنسبة إلى النظم الفكرية الأخرى بأنه يقوم على أساس الوحي ، والنبوة المحمدية ، وأن عقائده وحقائقه لا تبتنى على القياس والتجارب والظن والتخمين ، والذكاء الإنسانى والبحث والجدال ، بل تبتنى على تعليم الله تعالى وتبليغ رسوله ﷺ ، والذي قاله ﷺ وشرحه حول ذات الله وصفاته ، وأفعاله ، وعن بدء العالم ومنتهاه ومبدئه ومصيره وعن المعاد والآخره ، وخواص الأعمال ونتائجها ، وعن الأمور مما وراء الطبيعة التي لها علاقة بالدين ، وإنما هي العقائد والحقائق ولا سبيل إلى معرفتها والإيمان بها في الحقيقة سوى الوحي والنبوة وذلك لأن الطريق إلى التوصل إلى المعلومات والحقائق كلها هي المبادئ الأولية ، وهذه المبادئ الأولية لهذه الحقائق الدينية والغيبية لا يطلع عليها أحد ، إن الوسيلة الوحيدة للاطلاع على أمر جديد هي أن ترتب المعلومات بحيث يتيسر الوصول إلى المجهول ، إلا أننا لسنا مطلعين على المبادئ الأولية لهذه الحقائق الغيبية والدينية كما أننا نحن مطلعون على المعلومات الأولية عن الطبيعيات والماديات ، إن ذات الله تعالى وصفاته وراء الحواس والعقل الإنسانى يعجز الإنسان عن أية تجربة أو مشاهدة عنها ، ولا أساس هناك للقياس فيها « ليس كمثله شئ » ولذلك فلا مناصر في ذلك من الاعتماد على تلك الطائفة من البشر التي أكرمها الله تعالى بعلم ذاته وصفاته ونور قلوبها بنور الهداية والإيمان ، كما لا يسعنا الإنكار والبحث بازائها في أى شئ منها ، وتلك هي الحقيقة التي تحدث عنها القرآن بلسان أحد الرسل ، فقال « قال أتجاجونى فى الله وقد هدان » .

### عجز الفلسفة واندحارها :

عبتاً حاولت الفلسفة البحث فى ذات الله تعالى وصفاته ورغم وجود هذه الحقيقة الواضحة ولكنه حدث غريب فى تاريخ العلم الإنسانى ، فقد واصلت الفلسفة جهودها فى هذا المضمار إلى عدة آلاف من السنين ، وركزت طاقتها وذكاءها على موضوع لم تكن تعرف مبادئه ومقدماته ، ولم تكن عندها ذريعة للإيمان به وأخذ فكرة حتمية عنه ، ولكنها

رغمًا من ذلك قامت بالتحقيق والتدقيق في هذا الموضوع ، من غير تلكؤ ولا تردد كما يفعل علماء اللغة والاشتقاق حول كلمة يبحثون عنها ، وعلماء النحو والتصريف في الأعراب والتصريف ، بل كما يفعل علماء الكيمياء في الأدوية والعقاقير ، وجمعت ركام من المباحث والتفاصيل والتحقيق والتقصير حتى ظن القارئ أن البحث كله يدور حول شخصية عادية هي في تصرف الإنسان ومتناول يده .

### تفلسف المتكلمين :

وأغرب من هذا كله أن متكلمي الإسلام الذين كانوا يهدفون رد الفلسفة والدفاع عن الإسلام أخذوا مصطلحات الفلسفة وافتراضاتها ذاتها ، وبدأوا يبحثون عن ذات الله تعالى وصفاته في اعتماد وتفصيل كأنهم يتحدثون عن شخصية مشاهدة ملموسة ، وعن مسائل طبيعية ، ولقد كان هؤلاء المتكلمون تصدوا للرد على الفلسفة ونفى نظراتها وآرائها ولكنهم تاهوا في غابة الفلسفة وافتراضاتها ومصطلحاتها الخاطئة ، وإنهم نسوا في سورة الجدل والنقاش أن يلوموا الفلسفة على أخطائها الأساسية ، وأن يحولوا دون بحثها حول مسائل ليست من شأنها ، ولا تجدر بأن تكون مركز نظرها وبحثها في حال ما ، إنهم نسوا أن يوصوا الفلسفة بتحديد مضمارها في الجدل والنقاش حول الرياضيات والطبعيات ، وأم التدخل في موضوع الإلهيات فخرج عن مركزها ، وتعد عن حدها ، و « تدخل غير معقول » وأن يخاطبوا الفلاسفة بخطاب القرآن البليغ الحكيم ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾<sup>(١)</sup> .

### انحطاط الفكر الإسلامي في القرون المتأخرة :

بلغ انحطاط الفكر الإسلامي في القرون المتأخرة إلى حد اعتبروا فيه نفس الدلائل وترتيب المقدمات التي كان المتكلمون قد رتبوها ، والتي قامت على أساس الفلسفة أصلاً لإثبات ذات الله ، وحدوث العالم ، والتوحيد ، والمعاد ، وجميع العقائد الأساسية ، فقام المتكلمون والنظار كلهم يعتبرون العقل مقياساً أصيلاً سوى طائفة قليلة من المحدثين والفقهاء ويجعلون كتب المتكلمين مصدراً للعقائد والأحكام عوضاً عن الكتاب والسنة . وكانوا يؤولون الآيات والأحاديث تفادياً من إيرادات الفلسفة أو إبقاء على بعض أصول الفلسفة الثابتة ومطبقين الفلسفة على الدين ، وقد بلغ إعجابهم بالفلسفة مبلغاً كانوا يتناولون فيه الآيات والأحاديث بالتأويل والتوجيه بدلاً من إنكار الفلسفة والتغيير في عد

(١) آل عمران - ٦٦ .



الكلام ، يتحدث الإمام ابن تيمية مشيراً إلى هذه العقلية :

« ومثل هذا القانون الذى وضعه هؤلاء يضع كل فريق لأنفسهم قانوناً فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذى يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعاً ، فما وافق قانونهم قبلوه وما خالفه لم يتبعوه »<sup>(١)</sup> .

وبعد اعتبار هذه العقائد والمباحث الكلامية مقياساً وأصلاً ، والاعتقاد بأن هذه المباحث تحمل فى جنبها علوماً عالية جمة وحكماً ومعارف عميقة كان يحدث هناك صراع ، وهو أن هذه العلوم والمعارف إذا كانت أصيلة لا ينبغى أن يخلو عنها كلام النبى ﷺ وأصحابه الكرام رضى الله عنهم بل ويجب أن يحتوى عليها وعلى جميع هذه التحقيقات والتدقيقات ، والذين كانوا معجيين بالفلسفة وعلم الكلام ، وكانت عقولهم مسحورة بهم يقولون بصراحة حيناً ، وبكناية حيناً آخر ؛ إن ذلك العصر كان عصراً بدائياً ، وكان الناس فى ذلك العصر بسطاء لم يكن لديهم اطلاع على هذه الحقائق والعلوم العميقة والدقيقة ، أما المعترفون بقيمة الفلسفة وعظمة الصحابة رضى الله عنهم فكانوا يعيشون فى اضطراب وحيرة من غير أن يقطعوا فى ذلك رأياً ، يشير ابن تيمية إلى الحالة النفسية لهذه الطوائف ويقول :

« من اعتقد أن ذلك من أصول الدين وأنه يشتمل على العلوم الكلية والمعارف الإلهية والحكمة الحقيقية أو الفلسفة الأولية صار كثير منهم يقول أن الرسول لم يكن يعرف أصول الدين أو لم يبين أصول الدين ومنهم من هاب النبى ، ولكن يقول : الصحابة والتابعون لم يكونوا يعرفون ذلك ، ومن عظم الصحابة والتابعين مع تعظيم أقوال هؤلاء يبقى حائراً كيف لم يتكلم أولئك الأفاضل فى هذه الأمور التى هى أفضل العلوم ، ومن هو مؤمن بالرسول معظم له يستشكل كيف لم يبين أصول الدين مع أن الناس إليها أحوج منهم إلى غيرها »<sup>(٢)</sup> .

ويتقدم فيقول عنهم : « وهو أنهم جعلوا قول الله ورسوله من المجمل الذى لا يستفاد منه علم ولا هدى فجعلوا المشابهة من كلامهم هو المحكم ، والمحكم من كلام الله ورسوله هو المشابهة »<sup>(٣)</sup> .

(١) صريح العقول ج ١ ص ٣ .

(٢) صريح العقول ج ١ ص ١٢ .

(٣) أيضاً ص ١٦٤ .

## الغلو في تعظيم العقل وتقديسه :

لقد قام الفلاسفة والمتكلمون كلهم بتقديس العقل ورفع قيمته ، واعتباره ميزاناً وحكماً في مسائل الذات والصفات حتى كان يبدو أن العقل له الخبرة الكاملة للحكم في هذه المسائل شأن الحواس الخمس في حكمها في المحسوسات ، وشأن التجربة والاستقراء في الأمور العلمية ، وقد أنتج هذا الوضع أن العقل صار أساساً لاثبات الشريعة سواء في الأمور الشرعية أو الفقهية ، ولكن لم يقم هناك خلال القرون الستة الإسلامية أى عالم أو مفكر يحارب هذا الوضع ، ويرفع لواء الثورة على هذا العقل صاحب الحكم والنفوذ اللا محدود .

تصدى حجة الإسلام الإمام الغزالي - رحمه الله - للجهاد ضد تدخل الفلسفة في الالهيات وجعلها هدفاً بكتاباتهِ التي نالت من شأن الفلسفة استهانتها ، إلا أنه لم يرفع صوتاً عالياً ضد العقل وحكومته المطلقة ، وضد تدخله في أمور ليست من شأنه ، إن الإمام ابن تيمية هو أول رجل - فيما نعلم - ثار على هذا الوضع الشائن ، واحتج عليه في غاية من الاستنكار وحاربه بكل جرأة وشجاعة ، وأثبت أن مصدر العقائد والحقائق إنما هو الوحي والنبوة والكتاب والسنة أما العقل فليس الا مؤيداً لها وليس أساساً في أى حال، يقول في بعض كتاباته :

« إن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه ولا معطياً له صفته لم تكن له ولا مفيداً له صفة كمال »<sup>(١)</sup> .

## منصب العقل ومكانته :

إنه يعتقد أن « العقل متول ولى الرسول ، ثم عزل نفسه لأن العقل دل على أن الرسول ﷺ يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والعقل يدل على صدق الرسول دلالة عامة مطلقة ، وهذا كما أن العامى إذا علم عين المفتى ودل غيره عليه وبين له أنه عالم مفت ثم اختلف العامى الدال والمفتى وجب على المستفتى أن يقدم قول المفتى فإذا قال له العامى أنا الأصل فى علمك بأنه مفت فإذا قدمت قوله على قولى عند التعارض قدحت فى الأصل الذى به علمت أنه مفت قال له المستفتى أنت لما شهدت أنه مفت ودللت على ذلك شهدت بوجوب تقليدك »<sup>(٢)</sup> . أنه يعتقد أيضاً أن العقل لا يسعه إلا الاعتماد على الرسول ﷺ

(١) أيضاً ص ٤٦ .

(٢) صريح المعقول ج ١ ص ٧٧ .

وطاعته بعد ما اعترف بالرسالة ، كما أنه يجب تقليد صاحب الصناعة في كل صناعة ، وقبول كلامه من غير تردد ، مع الاعتقاد بأن ما يقوله هو القول الفصل في ذلك ، كذلك الرسول هو سند في الأمور الغيبية والأحكام والشرائع وفيما بعد الطبيعات ، وكلامه فصل في كل ذلك ، يقول :

« فإذا علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله وعلم أنه أخبر بشيء ووجد في عقله ما ينازعه في خبره كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه وألا يقدم رأيه على قوله ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه ، وأنه أعلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه ، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة وأهل العلم بالطب ، فإذا كان عقله يوجب أن ينقاد لطبيب يهودى فيما أخبره به من مقدرات من الأغذية والأشربة والأضمدة والمسهلات واستعمالها على وجه مخصوص مع ما في ذلك من الكلفة والألم لظنه أن هذا أعلم بهذا منى وأنى إذا صدقته كان ذلك أقرب إلى حصول الشفاء لى مع علمه بأن الطبيب يخطئ كثيراً ، وأن كثيراً من الناس لا يشفى بما يصفه الطبيب بل يكون استعماله لما يصفه سبباً في هلاكه ، ومع هذا يقبل قوله ويقلده وإن كان ظنه واجتهاده يخالف وصفه فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والتسليم ، والرسل صادقون مصدقون لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط وأن الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال »<sup>(١)</sup>.

### الإيمان بالرسول واجب من غير شرط :

إن المعجبين بالفلسفة والعقلانية تكونت لهم عقلية خاصة في قبول أمور الشريعة ورفضها فالأمور الشرعية التي كانت توافق عقولهم وفلسفتهم قبلوها وترددوا في قبول ما كان يصادم عقولهم ومسلمات الفلسفة ، ورأوا فيه تعقيدات كثيرة ، والذين كانوا متجربين ولا يباليون بالحيلة يرفضون كل ما لا تستسيغه عقليتهم الخاصة ، ويقولون أنه لا بد من الانسجام بين العقل والشريعة ، وبما أن هذا الأمر يضاد العقل لا يجدر بالقبول ، أما من كانوا يأخذون بشيء من الحيلة في ذلك فيلجأون إلى التأويل والتوجيه مهما كان ذلك مستحيلاً وبعيداً عن القياس .

لقد أثبت ابن تيمية في مواضع كثيرة أن الإيمان بالرسول واجب لا محالة من غير شرط

(١) أيضاً ص ٧٩ .

ولا قيد ، وأن مكانة الرسول الصحيحة ومنصبه الذي يتبوؤه ليوجبان ذلك ، وذلك هو الإيمان في الحقيقة أما الاشتراط في تصديق الرسول والإيمان به ، فليس من الإيمان في شيء ، ويقول :

« ففي الجملة لا يكون الرجل مؤمناً حتى يؤمن بالرسول إيماناً جازماً ليس مشروطاً بعدم معارض ، فمتى قال أو من يخبره إلا أن يظهر له معارض يدفع خبره لم يكن مؤمناً به ، فهذا أصل عظيم تجب معرفته »<sup>(١)</sup> .

### ويقول في مكان آخر :

كان من المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام أنه يجب على الخلق الإيمان بالرسول إيماناً مطلقاً جازماً عاماً بتصديقه في كل ما أخبر به وطاعته في كل أمر ، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل ، إن من قال يجب تصديق ما أدركته بعقله ورد ما جاء به الرسول لرأيه وعقله وتقديم عقله على ما أخبر به الرسول مع تصديقه بأن الرسول صادق فيما أخبر به فهو متناقض فاسد العقل ملحد في الشرع ، وأما من قال لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقله فكفره ظاهر »<sup>(٢)</sup> .

### أوهام العقل :

ثم يستعرض ابن تيمية دعوى هؤلاء « العقلاء » التي تقول بالتعارض بين العقل والنقل في أكثر الأحيان ، وأن الأمور التي جاء بها الأنبياء والرسول كعقائد وحقائق دينية قد تتعارض مع العقل الصريح والهداية وتتصادم مع تلك الحقائق والمسلمات التي أنتجتها الفلسفة بعد دراسات طويلة الأمد ، والتي تعتبر أساس الفلسفة ، ويثبت الإمام ابن تيمية أن هذه العقليات التي تتعارض مع أخبار الرسل ونصوص الكتاب والسنة لا تعدو إلا أوهاماً وأباطيل اخترعها العقل بحيث إنها إذا تولت بالنقد العلمي والمحاسبة الدقيقة ظهر أنها ليست إلا مجموعة من الألفاظ والتوهمات التي لا تستند إلى أساس من العلم ، يقول :

« إن ما يدعونه من العقليات المخالفة للنصوص لا حقيقة لها عند الاعتبار الصحيح إنما هي من باب القعقعة بالشنان لمن يفرعه ذلك من الصبيان وإذا أعطى النظر في المعقولات حقه من التمام وجدها براهين ناطقة يصدق ما أخبر به الرسول وأن لوازم ما أخبر به لازم

(١) أيضاً ص ١٠١ .

(٢) صريح المعقول ج ١ ص ١٠٨ .

صحيح وأن من نفاه نفاه لجهله بحقيقة الأمر وفزعاً باطناً وظاهراً كالذى يفزع من الآلهة المعبودة دون الله أن تضربه ويفزع من عدو الإسلام لما عنده من ضعف الإيمان <sup>(١)</sup> .

وفى موضع آخر : « هؤلاء فى رعبهم من الألفاظ الهائلة التى لم يعلموا حقيقتها أشبه بمن رأى لباسهم رعب منهم قبل تحقق حالهم فى غاية الضعف والعجز ، ولكن قال تعانى : ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

### جهل العقلاء :

إذا نظر المنصف فى هذه الأقوال والتدقيقات التى يفتخر بها الفلاسفة ويسمونها « الإلهيات » التى يقدمها أتباعهم بازاء كلام الأنبياء وأقوالهم ، سوف لا يجد فرقاً بينها وبين كلام المجانين ، يقول « ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحدق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل كيف يتكلمون فى غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردود ، والباطل الذى العلماء يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً بكلام فيه تلبيس وتدليس » <sup>(٣)</sup> .

### لا تعارض بين صريح العقل وصحيح النقل :

ولكنه يلاحظ حرمة العقل وقيمه فإن القرآن قد أشار فى آيات كثيرة إلى استخدام العقل والتفكير به ، إنه لا يرى أى تعارض فى أى حال بين صريح العقل وصحيح النقل ، لأنه لم يعثر على أى تعارض بين العقل والنقل خلال دراسته الطويلة الواسعة ، بشرط أن يكون العقل سليماً والنقل صحيحاً ومحفوظاً ، فقد ألف فى هذا الموضوع كتاباً ضخماً باسم « بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » <sup>(٤)</sup> ، أثبت فيه بالدلائل وبكل تفصيل ألا تعارض بين المعقول والمنقول ، فإن الأمور التى ثبتت صحتها بالكتاب والسنة والوحي والنبوة يصدقها العقل الكامل الصحيح ، وظل العقل يؤيد النصوص والمنقولات على الدوام ، وكلما استخدم العقل بالدقة والامعان يوجد أنه يصدق هذه المنقولات ويؤيدها ، يقول :

« إن الأدلة العقلية الصحيحة البينة التى لا ريب فيها بل العلوم الفطرية الضرورية توافق

(١) أيضاً ج ٤ ص ١٥٣ .

(٢) أيضاً ص ١٥٤ .

(٣) أيضاً ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٤) ظهر هذا الكتاب على هامش « منهاج السنة » فى أربعة مجلدات .

ما أخبرت به الرسل لا تخالفه ، وإن الأدلة العقلية الصحيحة جميعها موافقة للسمع لا تخالف شيئاً من السمع ، وهذا والله الحمد قد اعتبرته فيما ذكرته عامة الطوائف «<sup>(١)</sup> .  
ويقول في مناسبة أخرى :

« المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط ، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوءات والمعاد وغير ذلك ، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه السمع قط بل السمع الذي يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح فكيف إذا خالفه صريح المعقول ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاء بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته «<sup>(٢)</sup> .

إنه يدعى ( ولما يدعيه أهمية ووزن كبير ) إنه لا يوجد حديث واحد أو نقل واحد معارضاً للعقل ، فإن كان هناك حديث يعارض العقل السليم فهو موضوع أو ضعيف لدى أصحاب الفن .

### القرآن يحتوى على دلائل عقلية جيدة :

إنه يرفض دعوى هؤلاء المتكلمين والفلاسفة أن القرآن الكريم صحيفة تقوم على أساس النقليات والسمعيات فقد أثبت في مواضع كثيرة أن القرآن يحتوى على دلائل عقلية جيدة ، تبلغ من الأحكام والقوة والوضوح مبلغاً لا تستقر أمامه دلائل المتكلمين والفلاسفة التي لا تعدو بيت العنكبوت بعد البحث والنقد ؛ إنه يقول :

« إن الله سبحانه وتعالى بين الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه «<sup>(٣)</sup> .

### وفي موضع آخر :

« إن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق لصريح المعقول وأن ما بينه من الآيات

(١) صريح المعقول ج ١ ص ٨٣ .

(٢) أيضاً .

(٣) أيضاً ص ١٤ .

والدلائل والبراهين العقلية فى اثبات الصانع سبحانه ومعرفة صفاته وأفعاله هو فرق نهاية العقول وأن خيار ما عند حذاق الأولين والآخرين من الفلاسفة والمتكلمين هو بعض ما فيه لكنهم يلبسون الحق بالباطل فلا يأتون به على وجهه» (١) .

### لا لبس فى تعاليم الرسول ﷺ :

إن كثيراً من الفلاسفة والمتكلمين وأنصارهم كانوا يعتقدون أن الرسول ﷺ لم يتناول ذات الله تعالى وصفاته بالشرح والتفصيل بل إنه أجمل هذا الموضوع مما ترك فيه إبهاماً وغموضاً ، كما أن جزءاً كبيراً من القرآن يحتاج إلى شرح ، وقد وفق الله المتكلمين فيما تقدم من الزمان أن يشرحوه ويفصلوه ، ويعرضوا العقائد والحقائق الدينية أمام الأمة بتفصيل مؤيد بالدلائل ، يقول ابن تيمية : إن الرسول كان مأموراً بالبلاغ المبين ، فقام بتفصيل وشرح كل شئ كان الدين بحاجة إليه ، فهل كان من الممكن أن يترك العقائد وأصول الدين وأساسه ، وذات الله تعالى وصفاته التى يتوقف على علمها معرفة الدين وسعادة الإنسان ونجاته ، وكيف يترك كل ذلك مجملاً من غير شرح وتفصيل ، وكذلك هل كان ممكناً أن يترك الكتاب الذى دعا الناس إلى تفهمه والتدبر فيه مبهماً مجملاً؟ يقول :

« إن الرسول بلغ البلاغ المبين بين مراده وأن كل ما فى القرآن والحديث من لفظ يقال فيه أنه يحتاج إلى التأويل الإصطلاحى الخاص الذى هو صرف اللفظ عن ظاهره فلا بد أن يكون الرسول قد بين مراده بذلك اللفظ بخطاب آخر لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذى مفهومه ومدلوله باطل ويسكت عن بيان المراد الحق ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه تعالى ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه لا مكان معرفة ذلك بعقولهم وأن هذا قدح الرسول الذى بلغ البلاغ المبين » (٢) .

### ويقول فى موضع آخر :

« إن الله تعالى أمر الرسول بالبلاغ المبين وهو أطوع الناس لربه فلا بد أن يكون قد بلغ البلاغ المبين ، مع أن البلاغ المبين لا يكون بيانه ملتبساً مدلساً والآيات التى ذكر الله فيها أنها متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله إنما نفى عن غيره علم تأويلها لا علم تفسيرها ومعناها» (٣) .

(١) صريح العقول ج ٣ ص ٦٨ .

(٢) أيضاً ج ١ ص ١٠ .

(٣) أيضاً ص ١٦٧ .

## دعوة ابن تيمية ومآثرته :

ركز ابن تيمية كل جهوده على إثبات أن مصدر العقائد إنما هو <sup>(١)</sup> الكتاب والسنة والوحي والنبوة وأن نصوص الكتاب والسنة هو المقياس الأصيل في هذا الموضوع ، إنه دعا إلى الإيمان بهذه الفكرة طول عمره ، وقد لا يخلو أى كتاب من مؤلفاته من هذه الدعوة ، وهكذا استطاع ابن تيمية أن ينشط الفكر الإسلامى ويبعثه من جديد ، الذى كان قد جرح واضمحل بتأثير الفلسفة وعلم الكلام والروح العجمية فى ذلك الحين .

### مصدر الفقه الكتاب والسنة

#### قبل عهد التقليد :

يؤكد لنا التاريخ أن تقليد إمام من أئمة الفقه أو اتباع مذهب من المذاهب الفقهية لم يعرف قبل القرن الرابع الهجرى ، فكان الناس يعملون فى قضايا الحياة من غير تقليد والتزام ، واثقين بأن عملهم هذا لا يعدو روح الشريعة ، بل إنهم يتبعون سنة الرسول ﷺ مباشرة ، وكلما اعترتهم حاجة إلى السؤال عن مسألة فقهية راجعوا من شاءوا من العلماء وعملوا بها ، وفى القرن الرابع أيضاً لم يعم التقليد الخالص لمذهب ولا جرت العادة بدراسة الفقه والافتاء وفق مذهب خاص ، يقول شيخ الإسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى فى كتابه « حجة الله البالغة » :

« إن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من تتبع بل كان فيهم العلماء والعامه ، وكان من خبر العامة أنهم كانوا فى المسائل الإجماعية التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين ، لا يقلدون إلا صاحب الشرع وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلاة والزكاة ونحو ذلك من آباؤهم أو معلمى بلدانهم فيمشون حسب ذلك ، وإذا وقعت لهم واقعة استفقروا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب وكان من خبر الخاصة أنه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث يخلص إليهم من أحاديث النبى ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شئ آخر فالمسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض

(١) لقد أثبت ابن تيمية فى مؤلفاته المختلفة بغاية من التفصيل أن التأويل له ثلاثة معان ، المصطلح القرآنى الذى يراد به الحقيقة والمآل ، ثانياً مصطلح المتقدمين الذى يعنى التفسير ، وثالثاً مصطلح المتأخرين والمتكلمين الذى يراد به مدلول اللفظ الخفى ولا يراد به مدلوله الظاهر لسبب خاص .



الفقهاء ولا عذر لتارك العمل به وأقوال متظاهرة لجمهور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها فإن لم يجد في المسألة ما يطمئن به قلبه لتعارض النقل وعدم وضوح الترجيح ، ونحو ذلك رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء فإن وجد قولين اختار أوثقهما سواء كان من أهل المدينة أو من أهل الكوفة ، وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحاً ويجتهدون في المذهب وكان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أصحابهم فيقال فلان شافعي وفلان حنفي وكان صاحب الحديث أيضاً قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له كالنسائي والبيهقي ينسبان إلى الشافعي فكان لا يتولى القضاء ولا الافتاء إلا مجتهد ولا يسمى الفقيه إلا مجتهداً» (١) .

### بدء التقليد وأسبابه :

وظهرت حاجة التقليد بعد القرن الرابع لأسباب عدة ترجع إلى خلافات بين العلماء وفشو الجدال والمناظرة ، وانخفاض مستواهم الديني والخلقي ، والانحطاط العلمي وقصر الهمة وقلة الاجتهاد ، فمراعاة للمصالح الدينية رأى الناس تقليد الأئمة المجتهدين الذين سبقوا ، واتباع المذاهب الفقهية المدونة ، والعمل بفتاوى المتقدمين بدلاً من المعاصرين ، إلا أن هذا التقليد لم يكن يتقيد إلى مدة طويلة بالالتزام والتعيين والتقليد الشخصي الذي شاع في القرون المتأخرة ولكن الناس تعودوا هذا النوع من التقليد تدريجياً ، وكان شيئاً يقوم على رعاية المصلحة وتوخي السهولة والتفادي من الفوضى والتقاط الرخص واتباع الهوى ، لا إنه كان شيئاً تشريعياً لا يجوز العدول عنه ، وكان ذلك طبيعياً وأمرأً وفق الأحداث تماماً ، ولا سيما ما أصاب العالم الإسلامي ، من انحطاط فكري وتسفل علمي عام بعد هجوم التتر ، وما واجهه العالم الإسلامي من فقدان الشخصيات الكبيرة في ذلك الحين التي تتمتع بكفاءة الاجتهاد وما شاهده العالم الإسلامي في تلك الفترة من كثرة الفرق وتطلع الفتن ، رأى الناس العافية في أن يعملوا بالمذاهب الفقهية التي ثبتت صحتها بالكتاب والسنة ، والتي مرت بمراحل البحث والنقد وتم تدوينها ، وتلك ميزة استوفتها المذاهب الفقهية الأربعة ، فكان إقبال الناس عليه بوجه عام .

### مكانة التقليد ووضعيتها :

لم تكن وضعية هذا التقليد إلا أن المرء عندما كان يقلد مذهباً من هذه المذاهب كان يرتاح إلى أنه يعمل بالكتاب والسنة ، ويتبع سنة صاحب الشريعة ﷺ ، أما إمام ذلك المذهب

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٢٢ .

الذى يقلده فليس إلا واسطة بينه وبين الرسول ﷺ ومكانته فى ذلك كمكانة شيخ معاصر، فهز ليس إلا ترجماناً وشارحاً لا مطاعاً وشارعاً ، يقول شيخ الإسلام ولى الله الدهلوى :

« ولا يدين إلا بقوله النبى ﷺ ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حراماً إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولكن لما لم يكن له علم بما قاله النبى ﷺ ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه اتبع عالماً راشداً على أنه مصيب فيما يقول ويفتى ظاهراً متبع سنة رسول الله ﷺ فإن خالف ما يظنه أقلع من ساعته من غير جدال ولا إصرار » (١) .

وقد وجد هذا النوع من التقليد ، وعادة الرجوع إلى فقيه معين أو غير معين والاستفتاء منه فى المسائل الفقهية فى كل زمان ، وسواء كان هذا الرجوع فى فترات مختلفة أو بصفة دائمة لا يسوغ الاعتراض عليه ، يقول شيخ الإسلام الدهلوى :

« إن الاستفتاء والإفتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبى ﷺ ولا فرق بين أن يستفتى هذا دائماً أو يستفتى هذا حيناً ، وذلك بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه ، كيف لا ولم نؤمن بفقهاء أياً كان أنه أوحى الله إليه الفقه وفرض علينا طاعته وأنه معصوم ، فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله فلا يخلو قوله إما أن يكون من صريح الكتاب والسنة أو مستنبطاً عنهما بنحو من الاستنباط ، أو عرف بالقرائن أن الحكم فى صورة ما منوطة بعلة كذا ، واطمأن قلبه بتلك المعرفة فقام غير المنصوص على النصوص فكأنه يقول ظننت أن رسول الله ﷺ قال كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا والمقيس مندرج فى هذا العموم فهذا أيضاً معزو إلى النبى ﷺ ، ولكن فى طريقة ظنون ، ولولا ذلك لما قلد مؤمن بمجتهد فإن بلغنا حديث من الرسول المعصوم الذى فرض الله علينا طاعته بسند صالح يدل على خلاف مذهبه وتركنا حديثه واتبعنا ذلك التخمين فمن أظلم منا وما عذرنا يوم يقوم الناس لرب العالمين » (٢) .

### انحراف القرون المتأخرة وغلوها :

وظل الجهل يؤثر فى الجماهير من الناس ، حتى أحلوا هؤلاء الأئمة فى بعض المناطق ، محل المقصود وجعلوهم كالشارع والمطاع عوضاً عن الوسائط والوسائل ، وقد تعصب الناس لهذه المذاهب ونالت منهم إعجاباً لم يسمح لهم بالتنازل عن أى جزء منها فى أى حال ، ولكن الذنب فى هذا لا يرجع إلى العامة كثيراً لأنهم قلدوا هذه المذاهب اتباعاً

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٢٥ .

للسنة ، ولم يكن لهم من السهل الميسور أن يتبعوا أسباب الترجيح فيتركوا التقليد أو ينتقلوا من مذهب إلى آخر بل قد كان هناك عدد كبير من العلماء ممن إذا ثبت لديهم في مسألة فقهية أن مذهب إمامهم لا يوافق فيها الكتاب والسنة ، وعلموا بالقطعية أن ذلك المذهب مرجوح في تلك المسألة ومذهب غيره راجح يتفق الكتاب والسنة وبالرغم من توافر الأحاديث الصريحة الصحيحة خلاف تلك المسألة لا يجدون في نفوسهم مندوحة لترك تلك المسألة والعمل بالأحاديث الصحيحة الواردة خلافها ، ولعل شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام العالم الشافعي الشهير في القرن السابع يتحدث عن أمثال هؤلاء فيقول :

« ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً وهو مع ذلك يقلده فيه ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جموداً على تقليد إمامه بل يتحيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة ، ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالاً عن مقلدة »<sup>(١)</sup> .

كما كانت هناك جماعة من العامة تظن في إمامها العصمة ، وقد رسخ في نفسها أنه لن يجوز ترك التقليد لإمامه في أي حال ، يتحدث شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي عن مثل هؤلاء العامة فيقول :

« وفي من يكون عامياً ويقلد رجلاً من الفقهاء بعينه يرى أنه يمتنع من مثله الخطأ ، وأن ما قاله هو الصواب ألبتة وأضمر في قلبه ألا يترك تقليده وأن ظهر الدليل على خلافه ، وذلك ما رواه الترمذي عن عدى بن حاتم أنه قال سمعته ( يعني رسول الله ﷺ ) يقرأ : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » قال إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه »<sup>(٢)</sup> .

### التقليد والاجتهاد كما يراه ابن تيمية :

لقد أنكر المحققون من العلماء الراسخين في كل عصر مثل هذا التقليد المطلق الذي يتوازي اتباع الرسول ﷺ وطاعته ، إنهم لا يحرمون التقليد كابن حزم وغيره من غلاة العلماء ولا يجيزون التقليد المطلق الذي لا يفرق بين الرسول والإمام في الاتباع والطاعة ، فمن العلماء الذين يحملون رأياً مترناً جداً في هذا الموضوع ، شيخ الإسلام ابن تيمية في المتقدمين وشيخ الإسلام ولي الله الدهلوي في المتأخرين ، ويعترف ابن تيمية بواقع أن العامة

(١) أيضاً ص ١٢٤ .

(٢) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٢٤ .

وغير المجتهدين من العلماء لا بد لهم من الرجوع إلى الفقهاء والمجتهدين وتقليدهم ، وأن الأئمة كالوسائل والوسائط ، وأن تقليد المذاهب حاجة عملية وأمر طبيعي ، يقول في موضع :

« فطاعة الله ورسوله وتحليل ما أحله الله ورسوله وتحريم ما حرمه الله ورسوله وإيجاب ما أوجبه الله ورسوله واجب على جميع الثقلين الانس والجن ، واجب على كل أحد في كل حال سرّاً وعلانية ، لكن لما كان من الأحكام ما لا يعرفه كثير من الناس رجح الناس في ذلك إلى من يعلمهم ذلك لأنه أعلم بما قاله الرسول وأعلم بمراده فأئمة المسلمين الذين اتبعوهم وسائل وطرق وأدلة بين الناس وبين الرسول يبلغونهم ما قاله ويفهمونهم مراده بحسب اجتهادهم واستطاعتهم ، وقد خص الله هذا العالم من العلم والفهم ما ليس عند الآخر - وقد يكون عند ذلك في مسألة أخرى من العلم ما ليس عند هذا ، وقد قال تعالى : ﴿ وداؤد وسليمان إذا يحكمان في الحرث إذا نفضت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ فهذا نبيان كريمان حكما في قضية واحدة فخص الله أحدهما بالفهم وأثنى على كل منهما ، والعلماء ورثة الأنبياء واجتهاد العلماء في الأحكام كاجتهاد المستدلين على جهة الكعبة - فإذا كان أربع أنفس يصلى كل واحد بطائفة أربع جهات لاعتقادهم أن الكعبة هناك فإن صلاة الأربعة صحيحة ، والذي صلى إلى جهة الكعبة واحد وهو المصيب الذي له أجران كما في الصحيح عن النبي لله أنه قال « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر »<sup>(١)</sup> .

ويتقدم فيعترف ابن تيمية بأن نشأة المرء على مذهب فقهي خاص وقيامه بأداء العبادات والأحكام وفق مذهب خاص أمر طبيعي ، تعود الناس من قديم ولكن شأن المؤمن أن يعتقد نفسه متبعاً لله والرسول في الحقيقة ويتيهياً دائماً لاتباع ما يثبت من الكتب والسنة من غير تلكؤ ولا تردد يقول :

« إن الإنسان ينشأ على دين أبيه أو سيده أو أهل بلده كما يتبع الطفل في الدين أبويه وسادته وأهل بلده ثم إذا بلغ الرجل فعليه أن يلتزم طاعة الله ورسوله حيث كانت لا يكون ممن إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فكل من عدل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة الله ورسوله إلى عادته وعادة أبيه وقومه فهو من أهل الجاهلية المستحقين للوعيد . وكذلك من تبين له في مسألة الحق الذي بعث الله به رسوله ثم عدل

(١) فتاوى شيخ الإسلام ج ٢ ص ٢٠١ . ٢٠٢ .

عنه إلى عادته فهو من أهل الذم والعقاب « (١) .

والعالم الذى يصلح للتحقيق والاستدلال ويستطيع أن يتبين أسباب الترجيح فى المسائل فيتحدث عنه ويقول :

« أما القادر على الاستدلال فقليل يحرم عليه التقليد مطلقاً وقيل يجوز مطلقاً ، وقيل يجوز عند الحاجة ، كما إذا ضاق الوقت عن الاستدلال ، وهذا القول أعدل « (٢) .

وأما من يقدر على الاجتهاد قدرة تامة فيحكم فيه أنه إذا اطلع على النصوص فى جانب ولم يجد فى جانب آخر ما يقاوم به النصوص ويدفعها يلزمه اتباع تلك النصوص ، يقول : « أما إذا قدر على الاجتهاد التام الذى يعتقد معه أن القول الآخر ليس معه ما يدفع به النص فهذا يجب عليه اتباع النصوص ، وإن لم يفعل كان متبعاً للظن وما تهوى الأنفس ، وكان أكبر العصاة لله ولرسوله « (٣) .

### عمل ابن تيمية ومكانته الفقهية :

أما تعامله فى المسائل الفقهية فإنه أفتى فى معظم المسائل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وأصوله ، وإن فتاواه وآراءه الفقهية فى أكثر المسائل تتفق مع فتاوى ومذاهب الأئمة الأربعة أو مذهب إمام من أئمة المسلمين واجتهاده ، كما قام بالاجتهاد فى بعض المسائل وأفتى فيها فى ضوء الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وبالنظر إلى جميع هذه الوجوه والموازنة بينها يصح أن يقال إنه كان مجتهداً منتسباً (٤) للمذهب الحنبلى (٥) .

### دعوة ابن تيمية وتأثيرها :

ومن مآثر ابن تيمية التجديدية أنه عندما دعا الناس بقوة إلى اعتبار الكتاب والسنة مصدراً للعقائد ، وعمل به نفسه فى غاية من الاهتمام دعاهم كذلك بقوة بالغة إلى اتخاذ الكتاب والسنة مصدراً للفقهيات والأحكام ، ومقياساً للحق ، وقدم نموذجاً عالياً للعمل

(١) فتاوى شيخ الإسلام ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٢) أيضاً ص ٣٨٤ .

(٣) أيضاً ص ٣٨٥ .

(٤) المجتهد المنتسب هو الذى يكون مجتهداً فى الفروع والأصول ، ولكنه يتفق مع أى إمام فى طريق استدلاله واستنباطه ولا يتجاوز نطاقه بوجه عام .

(٥) وللإطلاع على فقه ابن تيمية ومكانته ، والتفاصيل عن مكانته الاجتهادية راجع كتاب « ابن تيمية » للشيخ أبو زهرة ص ٣٥٠ - ٤٥٢ .

بهذه الدعوة بقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) .

إن دعوة ابن تيمية هذه أثارت روحاً ونشاطاً من جديد في أوساط الأمة الفقهية والعلمية التي كانت قد توقفت منذ مدة بعيدة عن دراسة الأحكام والمسائل والتفكير فيها ومقابلتها مع الكتاب والسنة ، وكان باب الاجتهاد والاستنباط مغلقاً من زمن طويل ، وهكذا فإنه قام ببعث الفكر الإسلامى الصحيح الذى وجد في القرون الأولى ، وقامت عليه حياة المسلمين ، وهو على أساس هذه المآثر العلمية والعملية كلها يعتبر من شخصيات التاريخ الإسلامى المصطفاه التي اختارها الله لتجديد هذا الدين وبعثه من جديد .

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

## تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية النجباء الحافظ ابن قيم الجوزية تلميذه وخليفته

عرف شيخ الإسلام ابن تيمية بكثرة تلاميذه والمستفدين منه ، وكان من الطبيعي أن يكون له نفوذ قوى فى عصره الذى عاش فيه بما قد رزقه الله من حياة مشغولة بالعمل الإسلامى العظيم ومن شخصية عملاقة جبارة ، ولا غرو أن يتجمع حوله حشد كبير من تلاميذه والمعجبين به ، وقد تميز من بين هؤلاء التلاميذ تلميذه النجيب الحافظ ابن قيم الجوزية الذى يعتبر خليفته الراشد ومدون علومه من بعده ، إنه تفرد بخصائص ومزايا لم تتوفر فى غيره من تلاميذه فقد ظل يشارك أستاذه فى أحواله وأعماله طول حياته ، ولم يفارقه حتى آخر لحظة فى حياته ، وثبت على جادته بعد وفاته من غير أن يفتر حبه له واعجابه به إن خدماته العلمية وجلالة قدره وفضائله لجديرة بتأليف كتاب مستقل عنه ، يبحث عن مؤلفاته ودراساته العلمية بغاية من التفصيل ، ومما يبعث على الدهشة والاستغراب أن التاريخ لا يتحدث عن سيرته إلا بإيجاز ، والمعتمد فى ذلك هو ما ذكره تلميذه النابغة الشهير الحافظ ابن رجب الحنبلى عن سيرته فى « طبقات الحنابلة » والحقيقة أنه أذاب شخصية فى حياة شيخه وأستاذه بحيث لم يعد له وجود مستقل ولا شخصية بوحدها ، وإلى القارئ نبذة من سيرته التى اطلعنا عليها وظفرنا بها .

اسمه ونسبه :

هو محمد الملقب بشمس الدين ويكنى أبا عبد الله ، وهى فى النسبة زرعى ، واسم والده أبو بكر بن أيوب ، ولد فى دمشق حيث قضى حياته ، توفى هناك ودفن فيها ، وكان والده قيم المدرسة الجوزية فقليل له ابن قيم الجوزية نسبة إلى منصب والده ، ويؤثر بعض الناس الإيجاز فيقولون ابن القيم .

ولد ابن القيم عام ٦٩١ هـ على ما قال ابن رجب الحنبلى ، سمع الحديث عن الشهاب النابلسى العامر ، والقاضى تقي الدين سليمان وفاطمة بنت جوهر ، وعيسى بن مطعم ، وأبو بكر بن عبد الدائم وغيرهم من شيوخ عصره ، وبرع فى الفقه على المذهب الحنبلى وأفتى ، ولازم ابن تيمية حتى آخر لحظة من حياته ، يقول العلامة ابن كثير : « لازم إلى أن مات الشيخ ، فأخذ عنه علماً جماً »<sup>(١)</sup> .

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٣٤ .

## مكانته العلمية :

شارك في جميع العلوم الإسلامية ولكنه تفرد بالتفسير ، كما يقول الحافظ ابن رجب ونبغ في أصول الدين وبلغ فيها إلى القمة ، لم يوجد له نظير في الحديث وفقه الحديث ، ودقائق الاستنباط كما برع في الفقه وأصول الفقه والعربية وعلم الكلام ، وحصل له اطلاع واسع على إشارات أهل القلوب ودقائق أصحاب المعرفة والتصوف ، يقول ابن رجب « لم أجد عالماً أكبر منه في معانى الكتاب والسنة ، والحقائق الإيمانية ، إنه لم يكن معصوماً عن الخطأ إلا أنني لم أر أحداً يحمل هذه الصفات كمثله » ويقول العلامة الذهبي : « كانت له عناية فائقة بمتون الحديث ورجاله ، إنه كان يشتغل بدراسة الفقه ، ويكتب مسائله في غاية من التفصيل ، كما كانت له براعة في تدريس النحو وأصول الفقه وأصول الحديث » .

## زهده وعبادته :

كان كثير العبادة ، كثير إحياء الليالي يطيل الصلاة ويخشع فيها ، يداوم على ذكر الله ويغلب عليه ويأخذ بمجامع قلبه حب الله وحالة خاصة من الانابة إليه ، يعلو وجهه نور من التواضع والافتقار إلى الله ، حج مرات عديدة وأقام بمكة المكرمة مدة طويلة ، يحكى أهل مكة حكايات من كثرة عبادته وطوافه مما يبعث على الاستغراب والدهشة .

تحدث عنه العلامة ابن كثير في تاريخه فقال : « كان كثير التودد لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ولا يستعيبه ، ولا يحقد على أحد ، وكنت من أصحاب الناس له وأحب الناس إليه ، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً ويمد ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك - رحمه الله - . . . . . وبالجملة كان قليل النظر في أموره وأحواله »<sup>(١)</sup> .

## محنته :

مر بمراحل المحنة والمجاهدات الشاقة كأستاذه وشيخه ، عندما حبس شيخه ابن تيمية في القلعة في المرة الأخيرة حبس هو معه أيضاً ، ولكن فرق بينهما في السجن ، وأفرج عنه بعد وفاة شيخه ، وقد ظل طوال هذه المدة مشغولاً بتلاوة القرآن ودراسة معانيه والتدبر فيها ، يقول عنه ابن رجب :

« ففتح عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧٣٥ .



الصحيحة وتسلط بسبب ذلك على الكلام فى علوم أهل المعارف والدخول فى غوامضهم .  
وتصانيفه ممتلئة بذلك .

### تلاميذه ومعاصروه يعترفون بفضله :

تلقى منه العلم جماعة كبيرة من العلماء فى حياة شيخه ابن تيمية وبعد وفاته ،  
واستفادوا من مناهل علمه ، وكان علماء المعاصرون يبجلونه كثيراً ويرون التلمذة عليه  
شرفاً كبيراً ، فمن تلاميذه ابن عبد الهادى وابن رجب ، ولقد قال عنه القاضى برهان  
الدين الزرعى « لا يوجد الآن رجل أوسع علماً منه تحت هذه السماء » .

### التدريس والتأليف :

قام ابن القيم بتدريس العلوم الشرعية فى المدرسة الصدرية ، وتولى إمامة المدرسة  
الجوزية إلى مدة طويلة ، وقد ألف بقلمه كتباً كثيرة ، يشهد ابن رجب بشغفه الزائد  
بالكتابة والمطالعة والتأليف ، واقتناء الكتب ، ونتيجة لهذا الشوق تألفت لديه مكتبة  
واسعة ، كانت تحتوى على كثير من الكتب الخطية التى انتسخها بيده .

### بماذا تمتاز مؤلفاته ؟

تمتاز مؤلفاته بحسن الترتيب وجودة التأليف وهى تفوق فى هذا المجال مؤلفات شيخه  
ابن تيمية أيضاً ، وهى بجانب ذلك تتميز برقة الأسلوب وسلاسة العبارة وتأثيرها ، ولعل  
ذلك جاء من قبل نفسه التى تحلت بالجمال أكثر منها بالجلال .

### أهم مؤلفاته :

لمؤلفاته قائمة طويلة ، ندرج فيما يلى ما له أهمية كبيرة :

- ١ - تهذيب سنن أبى داؤد . ٢ - مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ،  
هذا الكتاب شرح لكتاب « منازل السائرين » لشيخ الاسلام عبد الله الأنصارى الهروى ،  
ويعتبر من أجود كتب التصوف والمعرفة ، ٣ - زاد المعاد فى هدى خير العباد ، .
- ٤ - جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام ، ٥ - أعلام الموقعين عن رب  
العالمين ، وهذا الكتاب مرجع كبير للمشتغلين بالفتاوى والحديث ، ومن أجود تصانيفه ، .
- ٦ - الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناحية ، ٧ - الصواعق المرسله على الجهمية  
والمعتلة ، ٨ - حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، فى وصف الجنة وأحزالها ، وهذا  
الكتاب على هامش « أعلام الموقعين » . ٩ - كتاب الداء والدواء . ١٠ - مفتاح دار  
السعادة ، ١١ - اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعتلة والجهمية ، ١٢ - عدة

الصابرين وذخيرة الشاكرين ، . ١٣- بدائع الفوائد ، . ١٤- الكلم الطيب والعمل الصالح ، . ١٥- تحفة الودود بأحكام المولود ، . ١٦- كتاب الروح ، . ١٧- شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، . ١٨- نفحة الأرواح وتحفة الأفراس . ، ١٩- الفوائد ، . ٢٠- الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، . ٢١- الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى ، . ٢٢- روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، . ٢٣- إغاثة اللهفان فى مكايد الشيطان ، . ٢٤- طريق الهجرتين وباب السعادتين .

أما كتابه « زاد المعاد فى هدى خير العباد » فإنه أكثر جمعاً لخصائص مؤلفاته ويحتوى فى نفس الوقت على مواضيع مختلفة من السيرة والسنة والفقہ وعلم الكلام والتزكية والاحسان ، وأعتقد أنه ليس هناك كتاب جامع ألف للعمل والاصلاح بعد كتاب « إحياء العلوم » للإمام الغزالى ، بل وقد يفوقه من ناحية التحقيق والاستناد والتطبيق بين الكتاب والسنة ، ويبدو أنه أراد أن يؤلف كتاباً ينوب عن المكتبة الدينية إلى حد كبير ، ويقوم مقام مرب ومرشد ، وفقه ومحدث ، ولقد شغف بهذا الكتاب وأولع به من كانوا يتذوقون الحديث ويحرصون على اتباع السنة والآداب النبوية ، وكانوا يهتمون بها<sup>(١)</sup> ، وقد تحلى هذا الكتاب بالطبع لأول مرة فى الهند سنة ١٢٩٨ هـ ، وفى مصر ١٣٢٤ هـ ، وتقع الطبعة الهندية فى ٩٣٧ صفحة بالقطع الكبير ، ولكن الطبعة المصرية بالحروف الحديدية تقع فى ٩٢٦ صفحة ، وقد تحدث المؤلف عن الكتاب فى أوله فقال :

« وهذه كلمات يسيرة لا يستغنى عن معرفتها من له أدنى همة إلى معرفة نبيه ﷺ ، وسيرته وهديه ، اقتضاها الخاطر المكدود على عجره وبجره ، مع البضاعة المزجاة ، . . . مع تعليقها فى حال السفر لا الإقامة ، والقلب بكل واد منه شعبة والهمة قد تفرقت شذر مذر والكتاب مفقود ومن يفتح باب العلم مذاكراته معدوم غير موجود<sup>(٢)</sup> .

إذا كان بيان المؤلف هذا يتعلق بأول الكتاب وبيعض الفصول والأبواب فلا يبعث على الاستغراب الكثير . ولكنه إذا كان عن الكتاب كله فلا شك أنه مبعث دهشة وغرابة .

(١) وقد جاء فى ترجمة العالم المتورع ، الزاهد الإمام عبد الله الغزنوى ، أنه كان شديد الشغف بهذا الكتاب ، ويدعو الله تعالى ويقول : « يا أرحم الراحمين يسر لى وجود هذا الكتاب واجعله خير زاد لمعادى ، وكان عزيز الوجود فى زمانه وبلاده ( أفغانستان ) . اقرأ ترجمته الحافلة فى كتاب « نزهة الخواطر » ج ٨ .

(٢) زاد المعاد ١٥ / ١ .

وذلك لأن البحوث المفصلة الدقيقة لمتون السنة والأسانيد والرجال والدقائق من السيرة والتاريخ والأحكام التي يشتمل عليها هذا الكتاب يؤكد للقارئ أن هذا الكتاب لم يؤلف إلا في مكتبة واسعة كبيرة ، فإن صح أن هذا الكتاب كله إنما ألف في حال السفر فلا بد من الاعتراف بأن مؤلفه كان متبحراً في العلوم الإسلامية كلها وخاصة في الفقه والسنة ، وأن مكتبة العلوم الدينية كانت تموج في صدره ، وكان خير خلف لخير سلف من المتحدثين المتقدمين في قوة الذاكرة واستحضار العلوم وخليفة صدق لأستاذه العظيم .

لقد شرح الحافظ ابن القيم في أول هذا الكتاب موضوع البعثة المحمدية ومراتب الوحي ، إنه استوعب في بيان مراتب الوحي وأنواع الوحي ما لا يوجد له نظير في كتب السيرة العامة<sup>(١)</sup> ، ثم ذكر تلك المدارج التي مرت بها الدعوة الإسلامية ، كما يتناول الأسماء المباركة ومعانيها ودقائقها ببحث لطيف ، ولم يترك في هذا البحث مسائل ونكتاً من النحو والفقه وما يتعلق بالذوق والوجدان إلا وقد ذكرها كلها كعادته وكعادة شيخه في ذلك ، وبهذه المناسبة جمع كل ما يتصل بالسيرة وشخصية النبي ﷺ من التفاصيل ، حتى تكونت ذخيرة قيمة للأخلاق والشمائل والعبادات النبوية<sup>(٢)</sup> .

ثم إنه تناول عبادات النبي ﷺ وهيئة صلواته وسننها وعاداته بتفصيل دقيق يعتبر عصاره دراسته للحديث والعلوم الدينية ، هو يتجلى في ذلك بلون المحدث وأسلوب المحقق ، وقد تضمن هذا البحث كلاماً دقيقاً لأصول الحديث والفقه<sup>(٣)</sup> ، ومعلومات مهمة لفن الرجال<sup>(٤)</sup> ، إن أبواب الكتاب التي تشمل بيان العبادات والأركان الأربعة ليست مجرد كتاب للأحكام والخلافات الفقهية بل إنها تضمن نكتاً علمية لطيفة ومعاني غزيرة للذوق والوجدان تبعث الإيمان من جديد ، وقد ذكر في بيان الزكاة والصدقة « كان ﷺ أشرح الخلق صدراً وأطيبهم نفساً وأنعمهم قلباً فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيراً عجيباً في شرح الصدور وانصاف ذلك إلى ما خصه الله به من شرح صدره للنبوة والرسالة وخصائصها وتوابعها وشرح صدره حساً وإخراج حظ الشيطان منه »<sup>(٥)</sup> .

واهتم المؤلف ببيان حكمة العبادات والأركان والأحكام وأسرارها وفوائدها قبل أن

(١) اقرأ ص ١٨ / ١ للمطبعة النظامية .

(٢) أيضاً ص ٢٥ - ٤٩ / ١ .

(٣) زاد المعاد ٦٩ / ١ - ١٠٥ / ١ .

(٤) أيضاً ٧٣ / ١ - ٩٩ / ١ .

(٥) أيضاً ١٥٨ / ١ .

يتحدث عنها ، وقد تصدى بعرض تاريخي للتشريع وحكمته في هذه العبادات والأركان وفوائدها ، بأسلوب شيق جذاب .

أما الجزء المهم لهذا الكتاب الذي يشهد على علو كعب المؤلف وسعة اطلاعه واستحضاره للعلم هو باب الحج ، فاني لم أطلع في أي كتاب على مثل هذه الذخيرة العلمية والتحقيق الجامع والبحث الدقيق عن الحج ومناسكه ، وحجة النبي ﷺ وأحكامها ، ويمتد هذا البحث في الطبعة المصرية من ص ١٨٠ إلى ص ٣٤٩ ، يعنى في ١٦٩ صفحة ، تناول المؤلف بيان حجة النبي ﷺ بغاية من التفصيل من خروجه من المدينة إلى عودته إليها ، وهو ملخص لذخائر مختلفة للحديث ومجموعة للروايات الصحيحة والجزئيات الكثيرة<sup>(١)</sup> ، إنه في ضمن هذا البحث يلقي ضوءاً على كثير من مباحث الحج الخلافية والمسائل المختلف فيها ، ذكر حكمها في ضوء الحديث باجتهاده ، وبرأيه ، ويبدو أنه لا يتقيد في ذلك بمذهب معين ، فرغم أنه حنبلي يثبت بالدلائل أن النبي ﷺ لم يكن مفرداً بل قارناً ، ثم إنه يضع الأصبع في مواضع الخطأ والخلافات التي ترجع إلى المتقدمين والمتأخرين في بيان كيفية حج القرآن للنبي ﷺ ، ويشير إلى مصدرها وعذرهم فيها<sup>(٢)</sup> ، كما أوضح الأوهام التي عرضت لكبار العلماء والمحققين في حجة النبي ﷺ قديماً وجديداً ، وذكر القول الفصل في ذلك ، فمن التابعين طاؤس ، ومن المتقدمين الطبرى ، ومن المتأخرين القاضى عياض والعلامة ابن حزم وأمثالهم من أساطين العلم والرجال وقعوا في بعض الأخطاء والأوهام في تفاصيل حجة النبي ﷺ ، التي<sup>(٣)</sup> صححها المؤلف ، وبذلك نستطيع أن نقدر مدى رسوخه وتبحره في العلم ، والحقيقة أن مجرد باب الحج في هذا الكتاب يكفى لمعرفة قيمة الكتاب وامامة مؤلفه وجلالة قدره ، وقد جاء المؤلف في ثنايا الكتاب بمباحث كلامية وعقائدية تشهد بعلو مكانته وسعة نظره وتحقيقه ، وحاول التعبير الصحيح عن روح الشريعة ، متبعاً في ذلك ذوقه وذوق شيخه ، ومما يجدر بالدراسة والاستفادة في هذا الموضوع هو ما بحث فيه عن حقيقة التوكل والتوسل بالأسباب في تحقيق دقيق<sup>(٤)</sup> .

وقبل أن يبدأ الكلام عن الغزوات بحث عن حقيقة الجهاد ومراتبه في غاية من التحقيق

(١) وللإطلاع على التفاصيل والجزئيات راجع كتب الفقه .

(٢) زاد المعاد الطبعة النظامية ص ١٨٥ / ١ - ١٩٠ / ١ .

(٣) أنظر « فصل في الأوهام » ٢٤٩ / ١ - ٢٥١ / ١ .

(٤) زاد المعاد ٢٦٤ / ١ - ٢٦٦ / ١ .

والمعرفة كعادته ، وذكر بدء دعوة الاسلام وأحوال مكة آنذاك والهجرة إلى المدينة ، وفرضية الجهاد والغنيمة ، والصلح والأمان ، والجزية والمعاملة مع أهل الكتاب وأحكام المنافقين بتفصيل كبير ، وهو بمناسبة ذكر فرضية الجهاد ومشروعيته تحدث عن قيمة النفس وضآلتها بازاء حقيقة الجنة ونعيمها بحماس وقوة وأسلوب يستهوى القلوب ، وهو نموذج رائع لقوة كتابته وإيمانه .

ثم تعرض بذكر مغازى النبي ﷺ وبعوثة ومهامه بترتيب ، وبما أن له اطلاعاً واسعاً على الحديث والسيرة معاً وهو نقاد ومحدث أكثر من مؤرخ ، يتميز هذا الجزء من كتابه أيضاً بالنسبة إلى كتب السيرة الأخرى ، وأن قوله فصل الأمور الخلافية ، وهو عندما يتحدث عن الوقائع والأحداث يأتي بتفسير الآيات ولطائفها وأسرارها في أسلوبه الخاص به ، ومن دأبه في بيان الغزوات أنه يتناول كل ما يتعلق بها من الأحكام الفقهية أو ما يستنبط بها من المسائل والأحكام ، فمثلاً بعد ذكر غزوة خيبر عقد فصلاً مستقلاً « فيما كان في غزوة خيبر من الأحكام الفقهية »<sup>(١)</sup> وبعد غزوة الفتح « فصل في إشارة إلى ما في هذه الغزوة من الفقه واللطائف »<sup>(٢)</sup> وكذلك بعد غزوة حنين وأوطاس « فصل إلى إشارة ما تضمنت هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكيمة »<sup>(٣)</sup> ، وما إلى ذلك مما يشحنه بمواد قيمة ومعلومات مهمة .

وهو في هذه الغزوات والوقائع ليس مقلداً أو ناقلاً للمتقدمين من أهل السير والمغازي فإنه عارضهم في بعض المناسبات في أمور اشتهرت بين الناس ، وقدم فيها تحقيقاً خاصاً بدراسة الشخصية ، وفهمه العميق ، فمثلاً يعرف بوجه عام وتذكر كتب السير والتاريخ أن نسوة الأنصار وبناتهم أنشدن هذه الأبيات :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	مادعوا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع

عندما كان النبي ﷺ يدخل المدينة مهاجراً من مكة ، ولكنه معارض هذا الرأي ، ويرى

(١) أيضاً ٣٩١ / ١ .

(٢) ٤٠٠ / ١ .

(٣) ٤٣٩ / ١ .

أن هذه الأبيات إنما أنشئت لدى عودته ﷺ من غزوة تبوك التي هي في جهة الشام كما يقول :

« وبعض الرواة يهم في هذا ويقول : إنما كان ذلك عند مقدمة المدينة من مكة ، وهو وهم ظاهر ، فإن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام »<sup>(١)</sup> .

وبعد ذكر غزوة تبوك أيضاً تصدى لذكر أحكامها<sup>(٢)</sup> ، وفوائدها بتفصيل يتضمن فوائد مهمة ومعلومات فقهية واستنباطات لطيفة وأحكام اجتماعية ومدنية ، ولما فرغ من بيان الغزوات والبعوث بدأ بذكر قدوم وفود العرب في تفصيل<sup>(٣)</sup> ، وذكر وفود النبي ﷺ ومكاتبه التي وجهها إلى ملوك العالم وأمراء القبائل<sup>(٤)</sup> .

أما الجزء الثاني من الكتاب فمعظمه يختص بالطب النبوي ، ذكر فيه أسرار الطب النبوي وحكمه وتوجيهاته الطبية ، واجتمع في هذا الحديث الأحكام الطبية مع الأحكام الفقهية والمباحث الحديثية<sup>(٥)</sup> ، وقد بذل جهداً في جمع تلك الأدوية والأغذية والمفردات في مكان واحد بترتيب حروف الهجاء ، التي يتصل بها حديث صحيح أو ضعيف أو موضوع ، وأخذ عليها من الناحية الطبية وبين خواصها<sup>(٦)</sup> ، ويمكن تقدير مدى دراسته الواسعة للحياة وأمراض القلب واطلاعه الواسع على نفسية الإنسان ، بما قد ذكره في باب الأمراض والمعالجات من مرض العشق والحب وعلاجه وحقيقة المحبة وأسبابها الطبيعية ، وأقسامها ودرجاتها ، ثم علاجها والتدبير لها<sup>(٧)</sup> .

ولا شك أن الحقيقة ما ذكر شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة» عن هذا الطب النبوي من أن مكانة هذا الطب ليست تبليغية ولا تشريعية ، إنما يتنى على تجاربه ﷺ وعاداته وتجارب العرب وعاداتهم<sup>(٨)</sup> ، وعلى كل فإن لمعظمى أقوال

(٤) ٤٦٦ / ١ .

(٢) اقرأ « فصل الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد » ٤٦٠ / - ٤٨٢ / ١ .

(٣) أيضاً ٤٨٣ / ١ - ٥١٨ / ١ .

(٤) ٥١٨ / ١ - ١٤١ / ٢ .

(٥) ١٤١ / ٢ .

(٦) ٩٨ / ٢ .

(٧) ٩٢ - ٩٧ / ٢ .

(٨) حجة الله البالغة باب « بيان أقسام علوم النبي ﷺ » ص ١٠٢ / ١ طبعة مصرية .

النبي ﷺ والمعجبين بتوجيهاته في كل فن عن إيمان و يقين ، معلومات قيمة في هذا الجزء من الكتاب .

ولما فرغ من بيان ذلك التفت إلى أحكام النبي ﷺ في القضايا ، واستطاع أن يجمع ذخيرة غالية واسعة لأبواب الفقه المختلفة ، وكأنه ألف كتاباً للفقه يبني على الأحاديث والأحكام والأقضية<sup>(١)</sup> ، وإن هذا الكتاب يتضمن عدا هذه الفصول والأبواب تحقيقات ولطائف تفسيرية ونحوية وتاريخية وكلامية قيمة تتفرق في ثنايا ألف صفحة من الكتاب .

ومما ينتقد في هذا الكتاب هو أنه خليط للعلوم الإسلامية كلها من السيرة والحديث والفقه ، والتاريخ والكلام والنحو والصرف ، ولعل نفسية أستاذه وشيخه كانت تعمل فيه لدى تأليف هذا الكتاب ، فإنه لا يلبث إلا وينتهز أضعف مناسبة للتعرض في مسألة كلامية أو نحوية ثم تتفرغ للكلام عنها بغاية من الشرح والتفصيل ، فإن أفرز من هذا الكتاب كل موضوع على حدة تسنت الاستفادة منه ، ولكنه رغماً من ذلك كله يعتبر من أهم كتب الإسلام الذي يقوم مقام مكتبة بأسرها ، وأن وجوده كوجود عالم كثير الفنون ، متبحر ومحقق في العلوم ، نال به آلاف مؤلفة من طلاب الحق ومتبعي السنة هداية دينية ، وغذاء روحياً وحلاوة إيمانية .

### وفاته :

توفي في عام ٢٣ رجب ٧٥١ هـ يوم الأربعاء ليلاً وصلى عليه في اليوم التالي بعد صلاة الظهر في المسجد الجامع ، ودفن في مقبرة الباب الصغير ، رحمه الله ورفع درجاته .

---

(١) ١٤٢ / ٢ إلى آخر الكتاب .





## ابن عبد الهادي

ومن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الذين حصل لهم تبحر في علم الحديث والسنة وقضوا جل حياتهم في خدمة السنة ونشرها وفي الإصلاح والدعوة . والذين حازوا قصب السبق والميزة والشهرة عدا الحافظ ابن القيم هم ابن عبد الهادي وابن كثير وابن رجب بوجه خاص .

عاش ابن عبد الهادي أقل من أربعين سنة ، ويقدر مؤلفو السير والتاريخ أنه لو امتدت به الحياة لكان من كبار علماء عصره وفاق كثيراً من العظماء ، وقد شهد بذلك الصفدي بقوله « لو عاش لكان آية » ، وذكره العلامة الذهبي في معجمه فقال :

« هو الفقيه المقرئ المجود المحدث الحافظ النحوي الحاذق ، ذو الفنون كتب عني ، واستفدت منه »<sup>(١)</sup> .

يقول عنه العلامة أبو الحجاج المزني اعترافاً بفضله : « ما التقيت به إلا واستفدت منه »<sup>(٢)</sup> .

ونفس هذا الاعتراف مروى عن العلامة الذهبي أيضاً<sup>(٣)</sup> ، يقول الصفدي :

« كنت إذا لقيته سألته عن مسائل أدبية وفوائد عربية فينحدر كالسيل »<sup>(٤)</sup> .

ويتحدث عنه الحافظ ابن كثير ( صاحب التاريخ والتفسير ) فيقول :

« حصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار ، وتفنز في الحديث والنحو والتصريف والفقه والتفسير ، والأصليين والتاريخ والقراءات وله مجاميع وتآليف مفيدة كثيرة ، وكان حافظاً جيداً لأسماء الرجال وطرق الحديث ، وعارفاً بالجرح والتعديل ، بصيراً بعلل الحديث ، حسن الفهم له ، جيد الذاكرة ، صحيح الذهن ، مستقيماً على طريقة السلف واتباع الكتاب والسنة مثبراً على فعل الخيرات »<sup>(٥)</sup> .

---

(١) الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣ ص ٣٢٢ .

(٢) أيضاً ج ٣ ص ٣٣٢ .

(٣) أيضاً .

(٤) أيضاً .

(٥) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢١٠ .

## حياته بإيجاز :

هو شمس الدين محمد الملقب بالعماد ، يكنى أبا عبد الله وأبا العباس ، عرف برجه عام بابن عبد الهادي ونسبه هكذا :

محمد بن أحمد عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد ابن قدامة والموطن الأصل لأسرته هو بيت المقدس ، ولكنها انتقلت إلى دمشق وسكنت في الصالحية بدمشق حيث ولد ابن عبد الهادي عام ٧٠٤ هـ<sup>(١)</sup> قرأ القرآن بقراءات مختلفة ، وقرأ الحديث ومعظم كتب الدرس على القاضي أبي الفضل ، سليمان بن حمزة ، أبي بكر بن عبد الدائم ، عيسى بن مطعم الحجار ، وزينب بنت الكمال وغيرهم من الشيوخ الكبار وأساتذة الفن ، واشتغل بالحديث وفنونه ، وبرع في الرجال وعلل الحديث بصفة خاصة ، وتفقه في المذاهب ، كما كانت له براعة كاملة في الأصولين وعلوم العربية ، يقول ابن رجب :

« ولازم الشيخ تقي الدين بن تيمية مدة وقرأ عليه قطعة من الأربعين في أصول الدين للرازي » .

أما شيخه في الفقه فهو الشيخ نجم الدين الحراني ، لازم المحدث الشهير والعالم الكبير الحافظ أبا الحجاج المزى عشر سنين ، وتلقى العلم من العلامة الذهبي أيضاً ، وقد اعترف الذهبي بتفوقه في الرجال والعلل والعلوم الأخرى ، وتولى رئاسة التدريس في المدرسة الصدرية والضيائية لمدة طويلة ، كما ذكره الحسيني ، تحدث ابن كثير عن وفاته فذكر أنه بقي مصاباً بجرح وحمى السل نحو ثلاثة أشهر ، ثم اشتد هذا المرض ، وكثير الإسهال حتى توفي يوم الأربعاء العاشر من جمادى الأولى ٧٤٤ هـ ، قبل أذان العصر ، وقال ابن كثير : أخبرني والده بالكلمات الأخيرة التي انطلق بها لسانه فكانت « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » وصلى عليه اليوم التالي في الجامع المظفرى حضر صلواته جميع أعيان البلد من القضاة والعلماء والحكام والتجار والعامة من الناس ، يقول ابن كثير :

« وكانت جنازته حافلة مليحة عليها ضوء ونور ، ودفن في الروضة بجواز السيف بن المجد »<sup>(٢)</sup> .

(١) ابن رجب ، ولكن عند ابن كثير ٧٠٥ هـ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢١٠ .

## مؤلفاته :

خلف ابن الهادى عدداً وجيهاً من مؤلفاته بالرغم من قصر عمره ، وهى تحتل أهمية كبرى لغزارة موادها وجودة تأليفها وعدد صفحاتها<sup>(١)</sup> ، ويحتوى عدد منها على عدة مجلدات ونذكر أهم مؤلفاته من بين ما ذكره الحافظ ابن رجب فى ذيل « طبقات الحنابلة » :

١ - الأحكام الكبرى ( ٧ مجلدات ) ٢ - المحرر فى الأحكام ( مجلد واحد ) ٣ - كتاب العمدة فى الحفاظ ( مجلدان ) ٤ - تعليقة للثقات ( مجلدان ) ٥ - أحاديث الصلاة على النبى ﷺ ( مجلد واحد ) ٦ - الإعلام فى ذكر مشايخ الأئمة الأعلام ، أصحاب الكتب الستة ( أجزاء متعددة ) ٧ - كتاب ضخيم فى مولد النبى ﷺ ٨ - تعليقه على سنن البيهقى ( مجلدان ) ٩ - ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية ( مجلد واحد ) ١٠ - منتقى من تهذيب الكمال للمزى ( ٥ - مجلدات ) ١١ - منتخب من مسند الإمام أحمد ، (مجلدان) ١٢ - منتخب من البيهقى ، ١٣ - منتخب من سنن أبى داؤد ، ١٤ - شرح الألفية لابن مالك ، ( مجلد واحد ) ١٥ - نقده لمؤلفات الذهبى والتعقب عليه ( فى أجزاء متعددة ) ١٦ - الرد على أبى حيان النحوى ، عدا ماله من رسائل مستقلة تطول قائمتها .

ولما ألف العلامة تقي الدين بن السبكي فى الرد على مسألة الزيارة لشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب « شفاء السقام فى زيارة خير الأنام » تناوله العلامة ابن عبد الهادى بالنقد والتحقيق فى ضوء الحديث وألف كتاباً باسم « الصارم المنكى فى الرد على السبكي » وهو خير دليل على براعته العلمية وسعة اطلاعه على السنة ورجال الحديث<sup>(٢)</sup> .

---

(١) ويشبه فى ذلك بعالم الهند الكبير الشيخ العلامة عبد الحى عبد الحليم الأنصارى اللكهنوى ١٣٠٤ هـ الذى عاش ٣٩ سنة فقط ، ولكن خلف ذخيرة كبيرة ومفيدة جداً من مؤلفاته .

(٢) طبع هذا الكتاب لأول مرة فى عام ١٣١٩ هـ فى المطبعة الخيرية بمصر .



## ابن كثير

هو عماد الدين إسماعيل بن عمر يكنى أبا الفداء، ويعرف بابن كثير، كان قيسى الأصل، ولد في عام ٧٠١ هـ بقرية «مجدل» في نواحي بصرى الشام، حيث كان والده خطيباً، وانتقل إلى دمشق في عام ٧٠٦ هـ مع والده، وقرأ الفقه على الشيخ برهان الدين الفزارى وغيره من الفقهاء، وسمع الحديث، ورواه عن ابن السويدي والقاسم بن عساكر وغيرهما من شيوخ الحديث، وهو من أخص تلاميذ العلامة المزى وكان صهره أيضاً، وأكثر رواية عنه، اشتغل بالفتاوى والتدريس والمناظرة، وبرع في الفقه والتفسير والنحو، توسع في فن الرجال وعلل الحديث واشتهر فيها بدقة نظره وسعة اطلاعه، درس في مدرسة «أم الصالح» كما درس في المدرسة التنكزية بعد وفاة العلامة الذهبي، وكان الذهبي يعترف بفضله وعلمه، يقول:

«هو فقيه متقن، ومحدث محقق، ومفسر نقاد، وله تصانيف مفيدة».

أما الحافظ ابن حجر العسقلاني فكان معجباً به يقول:

«كان كثير الاستحضر، وسارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع به الناس بعد وفاته».

وبالرغم من أنه شافعي المذهب كان شديد الإعجاب بشيخ الإسلام ابن تيمية، ومعتزلاً بامامته وعظمته، وقد تلمذ عليه، يقول عنه ابن حجر:

«أخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه وامتحن بسببه»، وقد اهتم بذكر سيرته بغاية من التفصيل والشغف، ودافع عنه دفاعاً كاملاً في كتابه «البداية والنهاية» الذي استفدنا منه في أكثر المواضع من كتابنا هذا الذي يحتوي على حياة شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومن مؤلفات ابن كثير «التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل» في خمسة مجلدات، و«الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن» و«تخريج أدلة التنبيه» و«مسند الشيخين» و«علوم الحديث» و«طبقات الشافعية» وكان قد بدأ بتأليف كتاب مبسوط مفصل في الأحكام ولكنه ما تم، وقد دون مسند الإمام أحمد بترتيب الحروف وضمنه زوائد الطبراني وابن أبي يعلى.

إلا أن مآثرته التأليفية تتلخص في كتابين اثنين نالا حظوة وقبولاً ، ولا تزال الأوساط العلمية تستفيد منهما إلى الآن ، فله كتاب في تفسير القرآن أسسه على المنقولات والروايات يعتبر أكثر قبولا وثقة بالنسبة إلى مؤلفاته الأخرى ، يقول عنه العلامة السيوطي : « له التفسير الذى لم يؤلف مثله » إذ أن الكتب التى ألفها الناس فى التفسير قبل ذلك كانت تنقصها الأمانة العلمية والاختيار الصحيح للأحاديث ، وكانت تزخر بالأحاديث الضعيفة والاسرائيليات ولكن الحافظ ابن كثير كان محدثاً ناضجاً فألف تفسيره على طريق المحدثين ، وإن لم يستطع أن يراعى فيه المستوى الرفيع فى إدراج الروايات كما كان يرجى منه ، وتوسع فى ذلك بعض الشئ ، وأورد فيه جزءاً من الإسرائيليات ، ولكن الحق يقال إن تفسيره هذا - على رغم كل ذلك - أكثر التفاسير ثقة وافادة من وجهة نظر التحديث ، وقد أصدر منذ مدة أحد علماء مصر الأفاضل المعاصرين الأستاذ أحمد محمد شاكر ملخصاً لتفسير ابن كثير باسم « عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير » الذى حذف فيه الأحاديث الضعيفة والإسرائيليات غير الموثوق بها ، والأقوال المتكررة والأسانيد والمباحث الكلامية الطويلة والفروع الفقهية والمناقشات اللغوية واللفظية وكل ذلك مع الإبقاء على محاسن الكتاب ومواضع الجمال فيه .

وثانى كتبه المهمة الذى نال قبولا واعجاباً لدى الأوساط العلمية كلها « البداية والنهاية » الذى صدر من مصر عام ١٣٥١ هـ فى أربعة عشر مجلداً وهو يحتوى - على عادة المؤرخين العرب - على التاريخ ، من أحداث بدء الخليقة إلى أحداث عام ٧٦٧ هـ ، والمعلوم أن تاريخ العلامة ابن أثير المعروف « بالكامل » ينتهى بأحداث عام ٦٢٨ هـ فكان كتاب « البداية والنهاية » زيادة عليه بأحداث وتاريخ قرن واحد وتسع وثلاثين سنة ، وإن هذا العصر ذو أهمية بالغة من ناحية الأحداث التاريخية من جراء الهجوم التتارى وخطورة القرن الثامن الهجرى ، فكان هذا الكتاب لأجل ذلك ولثقته وتفصيله التاريخية مرجع أكثر المؤرخين .

توفى الحافظ ابن كثير فى شعبان عام ٧٧٤ هـ ودفن بمقبرة الصوفية بدمشق (١) .

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ للحافظ شمس الدين أبى المحاسن الحسينى وذيل طبقات الحفاظ للسيوطى .

## الحافظ ابن رجب<sup>(١)</sup>

### وترجمته باختصار

هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ونسبه هكذا : عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد أبي البركات مسعود ، وكان موطنه الأصيل في بغداد حيث ولد في ربيع الأول سنة ٧٣٦ هـ وفي عام ٧٤٤ هـ سافر إلى دمشق مع والده وهو صغير وسمع الحديث عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز عن إبراهيم بن العطار وغيرهما من شيوخ الحديث وروى الحديث في مصر عام أبي الفتح الميدومي وأبي الحرم القلانسي وغيرهما يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني أنه اشتغل بالحديث وأكثر روايته ، حتى برع في فن الحديث وقد تحدث عنه الحافظ أبو الفضل تقي الدين بن فهد المكي المتوفى سنة ٨٧١ هـ وقال في « لحظ الألقاظ » هامش « تذكرة الحفاظ » : « الإمام الحافظ الحجة والفقير العمدة أحد العلماء الزهاد والأئمة العباد مفيد المحدثين ، واعظ المسلمين »<sup>(٢)</sup> ، وهو يشيد به عندما يذكر ترجمته ، ويقول : « كان إماماً ورعاً زاهداً ، وضع الله حبه في القلوب ، أجمع الناس كلهم على صلاحه وفضله ، مجالس وعظه عامة وذات فائدة وتأثير كبيرين »<sup>(٣)</sup> ، ويقول الشهاب بن الحجى عن فضله العلمى : كان محققاً ذا بصيرة فائقة في فن الحديث ، وكان أكثر معاصريه إطلاعاً على علل الحديث وطرقه وأن أكثر العلماء الخنابلة في عصرنا من تلاميذه .

توفى في رجب سنة ٧٩٥ هـ ودفن في الباب الصغير بدمشق<sup>(٤)</sup> ، ويقال أنه جاء إلى حفار فقال له أحفر لى هنا لحداً وأشار إلى بقعة ، قال الحفار : فحفرت له فنزل فيه فأعجبه واضطجع وقال هذا جيد فمات بعد أيام فدفن فيه<sup>(٥)</sup> .

---

(١) على أن الحافظ ابن رجب ليس تلميذ شيخ الإسلام عن طريق مباشر وقد ولد بعد وفاته بثمانى سنوات ، ولكنه تلميذ تلميذه النابغة الحافظ ابن القيم ومعجب بهما جميعاً ، وهو يعتبر من رجال شيخ الإسلام ومقلداً له في كل شئ سوى عدة مسائل .

(٢) لحظ الألقاظ ص ١٨٠ .

(٣) أيضاً ص ١٨١ .

(٤) أيضاً ص ١٨١ .

(٥) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٢٢ .

## مؤلفاته :

ومن مؤلفاته شرح لجامع الترمذى وجزء من صحيح البخارى وكان قد سمي شرحه للبخارى « فتح البارى » ولكنه لم يكتمل ، وذيل على « طبقات الحنابلة » لأبن أبى يعلى<sup>(١)</sup> ، وكتاب بأسم « اللطائف فى وظائف الأيام » بأسلوب الوعظ ويشتمل على الفوائد والقواعد الفقهية وشرح « الأربعين » للأمام النووى وكان يضم ٤٢ حديثاً فزاد إليها ثمانية أحاديث ، وقد صدر هذا الشرح بأسم « جامع العلوم والحكم شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم » فى عام ١٣٤٦ هـ من مطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر ، وشرح مستقل آخر لحديث « ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم الخ » ورسالة « فضل علم السلف على الخلف » وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة الأخيرة ونالت رواجاً ، وتتجلى فى مؤلفاته روح الحافظ ابن القيم الاصلاحية والدعوية وحلاوة أسلوبه وطلاوته .

وهناك عدد وجيه من العلماء فى القرن الثامن والتاسع عدا تلاميذ شيخ الاسلام ابن تيمية وتلاميذ تلاميذه المذكورين ممن لا يصرح التاريخ بأنهم تلاميذ مدرسة شيخ الاسلام الا أن مؤلفاتهم تنطق بأفكار شيخ الاسلام وروحه وعلمه ، ودعوته ، وسواء استفاد هؤلاء العلماء من تلاميذ شيخ الاسلام ومؤلفاته أم لم يستفيدوا ولكنهم لاتحاد ذوقهم وفكرهم جديرون بالاعتبار فى وصف تلاميذه والمتخرجين من مدرسته .

وأخص بالذكر من بين هذه الشخصيات مؤلف كتاب « الموافقات » البارع العلامة أبا اسحاق الشاطبى ( المتوفى ٧٩٠ هـ ) الذى يبدو كتابه « الاعتصام » حلقه من هذه السلسلة الاصلاحية التى كان قد بدأها شيخ الاسلام فى عصره ، وهو كتاب جيد فى موضوع السنة والبدعة ويمتاز بمواده الغزيرة وبحوثه الأصولية .

---

(١) توجد نسخة مخطوطة لهذا الكتاب فى مكتبة ندوة العلماء بالهند ، وقد صدر مطبوعاً من دمشق منذ سنوات .



## بسم الله الرحمن الرحيم بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد واله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

وبعد فإن الحكاية يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٤ - ١٣٥٥ هـ ( ٣٥ أو ١٩٣٦ م ) حيث أوصاني أخي ومربيّ الدكتور السيد عبد العليّ الحسني رحمه الله أمين ندوة العلماء - سابقاً - بقراءة « رسائل الامام الرباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي » وقد كنت - إذ ذاك - في الثانية والعشرين ، أو الثالثة والعشرين من عمري وكنت انخرطت - حديثاً - في سلك المدرسين بدار العلوم ندوة العلماء ، ولم يكن لي آنذاك اتجاه كبير إلى الأبحاث العميقة في الحقائق الدينية ، حقيقة الإحسان ، كما لم أكن على اطلاع على مصطلحات القوم وتعبيراتهم ، بل كان يغلب عليّ الذوق الأدبي ، وغرام بالكتابات الأدبية العربية ، والدراسات التاريخية ، وكنت ولوعاً بالكتب التي كانت تصدر من دور النشر والمطابع الرئيسية في القاهرة وبيروت بطباعة أنيقة ، وفي مظهر جميل جذاب ، وقد كان أخي الأكبر - الذي كنت ترتبت في معرفة جيدة ، ولكن لعله بإشارته عليّ بقراءة تلك المجموعة عن الرسائل للإمام السرهندي كان يريد أن يذكرني بما امتازت به أسرتي ، التي أنتمى رليها ، من أصالة في الفكر ، وعمق في البحث ، وتقدير للقيم الروحية ، والمثل الخلقية .

وكانت أسرتي منذ ثلاثة قرون - على أقل تقدير - ذات اتصال وثيق فكرياً وروحياً - مع أسرتي الإمام السرهندي ، والإمام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بولي الله الدهلوي . وكانت عندنا في مكتبة والدي نسخة عتيقة من مجموعة « رسائل الإمام السرهندي » صدرت من إحدى المطابع الهندية ، وكانت هذه النسخة تشتمل على ثلاثة مجلدات ، فبدأت بمطالعتها نزولاً على رغبة أخي الأكبر ، وبدافع الطاعة له ، إلا أنني لم أستطع المضي في الطريق ، ولم أصبر معها طويلاً ، حتى تركت الكتاب ، وقد كانت معاناتي ، من الرسائل التي كتبها الإمام إلى شيخه ، ومربيّه الروحي الشيخ الكبير الشيخ عبد الباقي البدخشي الدهلوي النقشبندی ، والتي شرح فيها تجاربه وخواطره الشخصية في مجال التربية والسلوك إلى الله ، ولكن إلحاح أخي الأكبر وتوجيهه - باستمرار - إلى قراءة هذه

الرسائل ، وقراءة « ازالة الخفاء » للإمام ولي الله الدهلوى ، و « الصراط المستقيم » للسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، و « منصب الإمامة » للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، دفعنى إلى اجتياز هذه العقبة ، مهما كلف ذلك من مشقة وعنت ، وهاجت الغيرة فى نفسى وتحمّست وقلت لا يتسنّى لى إهمال وصية أخى الأكبر ، وهو من هو فى عطفه وحنانه ، ثم يسبب هذا الإهمال الحرمان من قراءة كتاب مبارك ، عرف كبار العلماء المشايخ الأجلاء بإجلاله وتقديره والعناية به .

وحالفنى التوفيق فمضيت ، كلما ازددت قراءة لهذه الرسائل ازددت رغبة فيها وتذوّقاً لها ، وبدأت أسبغ الموضوع فى حدود علمى وقدرتى على الفهم ، حتى أخذ الكتاب بمجامع قلبى وأصبحت له أسيراً ، أشعر فيه بلذة غريبة ، وطعم لذيذ ، لا أكاد أجده فى الكتب الأدبية الممتعة . وكانت هذه الفترة الزمنية من أدق فترات حياتى ، فقد كان الزمن زمن المراهقة الفكرية وشرح الشباب ، والصراع النفسى والعقلى ، لأسباب يطول ذكرها . اعتورتنى فيها بعض الإبتلاءات القاسية ، فكان الكتاب فى كل ذلك خير مرشد وموجه ، لعلها كانت جديدة علىّ تماماً ، لم يسبق لها فى حياتى مثيل ، وقد انتهى ذا السير الذى كنت أسير فى الكتاب لمجرد طاعة أخى الأكبر ، والذى كان يغلب عليه دافع الغيرة واتباع الأمر ، إلى سرور ونشوة ، ومنتعة روحية .

ثم بعد مدة يسيرة من الزمن بدأت بقراءة هذا الكتاب مرة ثانية ، أقصد فيها جمع ما تكرر وانتشر فى مواضع مختلفة من الكتاب فى موضع واحد ، وفى مقصد من المقاصد التى يتناولها الإمام ، ووضع العناوين لها ، كانت الخطوة الأولى لهذا العمل إعداد فهرس جامع لمواد الكتاب ومحتوياته ، كالتوحيد الخالص ، وإبطال الشرك ، وغير ذلك ، فتبعت ما جاء فى كل موضوع من هذه المواضيع ، وأشارت إليه بذكر الأرقام المتسلسلة للرسائل وأرقام الصفحات فبحثت - مثلاً - عن الحديث عن السنة والبدعة ، وأين تعرض لإبطال البدعة الحسنة ، وأنها ليس لها وجود ، وفى أى الرسائل تناول البحث فى « وحدة الوجود » وحدة الشهود » ، وفى أيها وردت الأبحاث العميقة فى موضوع « العقل المجرد » و « الكشف المجرد » ، وبالجمل ، فبعد أن اشتغلت بالفحص والتتبع عدة أسابيع تهيأ لدىّ كشف جامع لجميع المواضيع التى تعرض لها الإمام ، ووضعت هذا الكشف فى داخل هذه النسخة من الكتاب على عزم ترتيب هذه المواد ، ووضعت هذا الكشف فى داخل هذه النسخة من الكتاب على عزم ترتيب هذه المواد المثورة فى الكتاب تحت عناوين مختلفة ، ثم حدث أن هذا الكتاب استعير من المكتبة ولم يعد إليها كما يقع كثيراً ، وكان أسفى على

ذهاب الفهرس الذي أجهدت في وضعه نفسى و أكثر بكثير - بطبيعة الحال - من ذهاب تلك  
النسخة من الكتاب التي تستبدل بها غيرها ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

ثم خطرت فكرة فى بالى ، وذلك حوالى ٦٤ - ١٣٦٥ هـ ( ٤٥ - ١٩٤٦ م ) وهى  
أن أرتب هذه الرسائل ترتيباً جديداً مراعيّاً فيه المواضيع والأبحاث المختلفة ، وأقدمها بشرح  
وتعريف يتلاءم مع العقلية الجديدة للنشر الجديد ، بحيث تكون أنفع وأشوق للقارئ  
الجديد . وتلقى فيه الأضواء على المآثر التجديدية للإمام السرهندى ، وما كان يتبوءه فى  
تاريخ الإسلام من مكانة الإمامة والاجتهاد ، فشرعت فى هذا العمل ، وأحببت أن أقدم  
لكل فصل بكلمة تمهيدية تنخصر الفكرة الأساسية . ولباب التحقيقات العلمية . والأبحاث  
الدقيقة الموثقة فى مختلف رسائله ، فى موضع واحد ، ثم أقدم مقتبسات الرسائل فى  
تنسيق علمى ، وترتيب موضوعى مفيد ، فأكتب على جانب من الصفحة متن الرسائل  
بالفرسية وعلى الجانب الآخر ترجمتها الأردية وأذكر فى الحاشية شرح الألفاظ الغريبة .  
والمصطلحات العلمية ، وأخرج الأحاديث ، ثم أسوق بعض ما كتب المتقدمون من كبار  
العلماء المحققين ، مما يؤيد ما ذهب إليه الإمام السرهندى ، كشيخ الإسلام ابن تيمية  
وتلاميذه ، وأئمة الإسلام ، عبر القرون والأقطار .

وقد كان هذا العمل واسع النطاق يتطلب مراعاة دقيقة للجوانب الكثيرة وتوافقاً كاملاً  
على دراسة العلوم المتنوعة ، ولم يكن إنجاز هذه المهمة الضخمة بميسور على شاب مثلى فى  
مقبل العمر ، تتنازع فيه الأعمال التدريسية مع الأشغال التأليفية ، مع الدعوة الشعبية ،  
والجولات المتصلة .

ولأجل ذلك لم أستطع أن أنجز من هذا العمل إلا أبواب التوحيد والنبوة والرسالة ،  
ثم شغلتنى الشواغل ، وصرفتنى عن هذا العمل الصوارف ، إلا أن ما رفقت إليه من  
العمل فى هذه المدة كان ذا قيمة كبيرة وفوائد كثيرة ونشره الصديق الفاضل الشيخ محمد  
منظور النعمانى فى مجلته الإسلامية الشهيرة « الفرقان » فى أربع حلقات ما بين ٦٦ -  
١٣٦٧ هـ .

وبعد أن انقطعت عن هذا العمل بأعوام ، ثم حين بدأت بتأليف سلسلة سر رجال  
الفكر والدعوة فى الإسلام « شعرت بضرورة لكتابة فى ترجمة حياة الإمام السرهندى  
بصورة مستقلة ، بدل أن أقوم بترتيب جديد لرسائله ، وعمل مرهق فى تنسيق محتوياتها ،  
وموضوعاتها ، ثم لما نشر المجلد الثانى من رجال الفكر والدعوة « وكان يتضمن حياة شيخ  
الإسلام ابن تيمية ، تحتم على أن أبدأ بترجمة حياة الإمام السرهندى ، وأصبح لزاماً أن

يحلّى بهذه الترجمة العظيمة المجلد الثالث من « رجال الفكر والدعوة » ، إذ أن هذا العصر المضطرب بالفتن والثورات ، أحوج إلى ذلك بالنظر إلى بعض الجوانب الخاصة وأن تنوير الإمام السرهندى وحكمته العملية لأبناء هذا العصر وقادة الحركات ، والتنظيمات الإسلامية ، الذين يسرعون في تحدّي الحكومات والقوى السياسية ، ويعلنون الحرب عليها من غير هوادة ومن غير استعداد وتريث ، ويجرّونها إلى جبهة معارضة في بداية المرحلة وأول الطريق ، وتحدّث في طريق الدعوة ، والعمل البناء ، عقبات من دون ضرورة شديدة ومبرر قوى ، إن عصرنا هذا يحتاج إلى هذه التجربة وإلى هذا المثلث العملى أكثر من كل عصر مضى ، فكيف كان - يا ترى - ذلك المنهج الذى استطاع به إنسان أعزل لا يملك حولاً ولا طولاً ، وهو فى زاوية من زواياه ، أن يغير مجرى التاريخ ويحوّل وجهه الامبراطورية المغولية ؟ .

لقد استرعى انتباهى - أول مرة - إلى هذه الحقيقة العظيمة أحاديث أخى الأكبر ومجالسه العلمية ، ثم عندما قرأت ذلك المقال العلمى اذى دبّجه يراع العلامة السيد مناظر أحسن الكيلانى فى مجلة « الفرقان » الشهرية الغراء ، العد الخاص بالإمام المجدد السرهندى ، قوى إيمانى بهذه الحقيقة وأنا بنفسى فى كثير من مقالاتى ، وخطبى ومحاضراتى (١) ، أوضحت هذه الحقيقة ، وأشارت إلى هذه الناحية التجديدية ، ولا يزال هذا المنهج الربانى المؤتمر هو المنهج الميسر الذى حقق من النجاح والتوفيق ما لم يحققه غيره ، وازدادت ثقة به ، واعتماداً عليه ، على مرّ الأيام وطول الدراسة ، والعناء والبحث .

ولكنى كلما فكرت فى أفراد كتاب لترجمة هذه الإمام اعترضتنى عقبتان :

أولاهما أن أى كتاب يتناول سيرة الإمام السرهندى لا يمكن أن يخلو من إثارة قضية «وحدة الوجود» و « وحدة الشهود » وشرحهما وإفهامهما للنشء الجديد ، والمقارنة بينهما ، وترجيح نظرية « وحدة الشهود » مع الأدلة العلمية ، والمناقشة الناقدّة الدقيقة ، فحين كانت تتمثل لى هذه المهمة الضخمة تكلّ عنها قواى ، وينصرف عنها قلمى لأمر ،

---

(١) كالمحاضرة التى ألقاها المؤلف فى حفلة تكريم وترحيب ، عقدتها جمعية شبان المسلمين فى ٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ هـ بالقاهرة حضرها عدد وجيه من علماء مصر ، وأساتذة الأزهر وأعضاء هيئة كبار العلماء وقادة الجماعات ، بعنوان « الدعوة الإسلامية فى الهند وتطوراتها » ، أو كالمحاضرة التى ألقاها فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة « منهج أفضل فى الاصلاح للدعاة والعلماء » فى شعبان سنة ١٣٨٩ هـ .

منها : أن هذا الموضوع قد تكونت فيه مكتبة واسعة لا يتيسر الاختيار منها ، وتلخيصها واختصارها ، ثم أن هذه القضية تحتاج إلى المباحث الفلسفية الدقيقة ، وتفسير المصطلحات الفنية التي كثر فيها النزاع ، وثار حولها الجدل ، ولا يمكن بدون ذلك الخوض في الموضوع ، أضف إلى ذلك أن هذه القضية عملية ذوقية تجريبية . ، أكثر منها نظرية وعلمية . تعتمد على أحاسيس ومشاعر خاصة ، وتجارب شخصية وليس المؤلف منها في غير ولا نفي ، كما أن كثيراً من قارئى هذا الكتاب لا يجهلون هذه العلوم فحسب . بل ينفرون منها ، ويستوحشون من ذكرها ، فما كنت أعرف تجاه هذه المشاكل طريق التغلب عليها ، ومن لى بالظفر فى هذه المفازة الطويلة ؟ ، وإذا تجرد الكتاب عن هذه الفصول المهمة - التي يعتبرها بعض العلماء مجالا حقيقياً لتجديده ، ويتركز عندهم فيها سرُّ عظمته ومآثرته التجديدية - فكيف يعتبر الكتاب ترجمة جامعة لحياته وتعريفًا كاملاً بأعماله ؟ .

كان يعترضنى ، ويمسك بعنان قلمنى عن الجريان ، فى هذا المجال وجود مكتبة ضخمة فى هذا الموضوع ، وصدور كتب وبحوث حدثت بين آونة وأخرى ، لا يتيسر للمؤلف زيادة ذات قيمة فيها ، وقد غلب على ظنه أن كتابه لا يملأ فراغاً واقعاً فى المكتبة الإسلامية .

وبعد طول تفكير وتردد ونظر ، انحلت المشكلة الأولى ، فقلت : ينبغى أن آخذ بمبدأ « ما لا يدرك كله لا يترك كله » وأقدم على جل هذه المصطلحات وشرحها مستعيناً فى ذلك بما جاء فى كتب الشراح المحققين من علماء المدرسة الفكرية للشيخ محيى الدين بن عربى ، وما جاء فى هذه الرسائل نفسها من إشارات وتفسيرات ، حتى يتيسر للقارئ الوقوف على هذا العلم - بصورة إجمالية - ومن أحب أن يستزيد وساعده التوفيق يرجع إلى المصادر الأساسية ، أو يراجع العلماء المتخصصين فى هذا الفن ، والغواصين فى هذا البحر الزاخر ممن رسخوا فى هذا العلم ، وتذوقوه وفقهوه ، و« قليل ما هم » .

أما العقبة الثانية ، فهو النظر إلى المكتبة العظيمة الواسعة اتى تكونت فى سيرة الإمام السرهندى ، والتعريف برسائله العظيمة ، ومآثره الخالدة ومناقبه ، الجممة ، وقد كنت أقف حائراً متهيئاً أمامها ، أستصغر نفسى واستبعد الزيادة فيها أو الإضافة إليها بشئ جديد ، وقد هدانى لتذليل هذه العقبة المثل العربى العلمى « كم ترك الأول للآخر » لقد تناول تجديد الإمام السرهندى وأعماله العظيمة ، الكثير من الكتاب والمؤلفين ، وكتبوا فى هذا الموضوع الشئ الكثير ، ولكن لا يزال هناك جوانب بحث وتحقيق تحتاج إلى رفع اللثام ، ومسك الختام ، ومغامرة جديدة واقتحام .

ثم إن تغيرُ الأساليب ، وطرائق البيان ، وتغير الأوضاع والظروف ، والمثل والقيم ، والمناهج في الإفهام ، والتعبير ، يجعل الكتب التي ألفت قبل مدة من الزمن - في بعض الأحيان - في حاجة إلى نقل وتعبير جديد ، كأنها كانت مكتوبة بلغة أخرى ، كما أن كل مؤلف له طريقته ومنهجه في الاستنتاج من الوقائع والاستنباط من الأحداث ، وربط النتائج العلمية بالأسباب المؤثرة .

ورأى المؤلف أنه إذا تم هذا العمل بإخلاص وصفاء نية وجهود موفقة ، فإنه لا يكون عملاً نافعاً مستمراً فحسب ، بل سيكون - إذا قدر الله تعالى - هدية قيمة ، ورسالة حية للقرن الخامس عشر الهجري ، ووثيقة تاريخية لمنجزات عبد صالح من عباد الله المخلصين ، قام بها في دأب وصمت ، وتواضع وخشوع ، ولم يقتصر تأثيرها على قرن واحد ، بل امتد حتى شمل الألف الثاني كله ، وهي تحمل لهذا القرن الذي نفتتحه ، والذي تغيرت فيه الأوضاع تغيراً كبيراً ، درساً للعظة ، والعبرة ، والاستفادة .

وإنه يلهج قلب المؤلف وقلمه بشكر الله تعالى وبحمده ، والثناء عليه إذ وفقه بعد فترة طويلة دامت ربع قرن<sup>(١)</sup> ، لا ستئناف سلسلة « رجال الفكر والدعوة » ، وتأليف الجزء الثالث منها ، وقد طالت هذه الفترة حتى خاف المؤلف أن ينتهي الأجل دون استكمال هذه السلسلة الطيبة التي باركها الله تعالى ، ونفع بها خلقاً كثيراً ، وكان هذا الجزء الثالث يبحث عن الشخصية الفريدة التي حازت من القبول والعظمة والصيت البعيد في جهوده الموفقة لتجديد الدين ، ما لم يحظ به أى مصلح وداع في تاريخ الإصلاح والتجديد في القرون الأخيرة ، حتى إن اشتهاره بـ « مجدد الألف الثاني » طغى على اسمه ، وحل محله ، ولا يعرفه كثير من المثقفين إلاً بهذا اللقب ، هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر كتب لجهوده التجديدية العظيمة من النجاح والتوفيق ، ومن النتائج الباهرة المستمرة ، ما يندر نظيره في تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام ، كان ذلك يحثني على وضع هذا الكتاب ، كما أن إلهام القراء لسلسلة « رجال الفكر والدعوة » والمقشرين لفضلها لغ من الجهد والصرامة حتى دفعني إلى التفكير في إكمال هذا الجزء بأسرع وقت ممكن ، بل إن كثيراً من أصدقاء المؤلف المخلصين ممن يمتازون بدراسة هذا الموضوع والتعمق فيه ، كانوا

---

(١) كان صدور المجلد الثاني من « رجال الفكر والدعوة » وهو خاص بسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ودوره في الإصلاح والتجديد ، سنة ١٣٧٧ هـ ( ١٩٥٧ م ) وقد تأخر صدور ترجمته بالعربية الى سنة ١٣٩٥ هـ ( ١٩٧٥ م ) فكان بين تأليف الجزء الثاني والجزء الثالث فترة ثلاث وعشرين سنة .

يشيرون علىّ بأن أتفرغ لهذا الموضوع تفرغاً كاملاً وأقدمه على سائر الأعمال التأليفية الأخرى.

ولكن معالجة هذا الموضوع لم تكن بالأمر الميسور كما كان يبدو لكثير من الناس ، فما كان يغنى - نظراً إلى مقتضيات الحاضر ، والمقاييس الجديدة للبحث والدارسة والتحقيق - أن يقتصر على عرض وتلخيص واختيار ، مما جاء في كتب التاريخ والتراجم القديمة ، بل كان الموضوع يحتاج إلى دراسة العصر الذي عاش فيه الإمام السرهندي وخلفياته ، ربيبة التي تربي فيها ، والأجواء التي قام فيها بدوره التجديدي . علمياً وتاريخياً ، وسياسياً وخلقياً ، واجتماعياً وعقائدياً ، دراسة ناقدة دقيقة ، فما هي الحركات التي كنت تعمل آنذاك ؛ وكيف كان الاضطراب الفكري ، والقلق الديني سائداً في الهند ، وما يجاورها من البلدان ، وكيف بدت طلائع الثورة على الشريعة والسنة في الأوساط العلمية والعقلية . وما هي تلك المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك حول الإسلام ، وما هي تلك الأمانى اللذيذة ، والأحلام المعسولة التي راودت كثيراً من المغامرين الطموحين ، لقرب انتهاء الألف الأول من التقويم الإسلامي وغرست شكاً وارتياباً في القلوب المريضة ، والنفوس القلقة . فكانت فتنة الفلسفة والعلوم العقلية في جانب ، وفتنة الإشراق والباطنية التي حاولت النيل من عظمة النبوة والرسالة المحمدية ، وادعت أن العقل والفلسفة ، والرياضيات الشاقة ، والمجاهدات الرهبانية ، وقمع الشهوات النفسانية ، كفيل بمعرفة الله معرفة صحيحة ، والوصول إليه ، ونيل الحظوة عنده . والنجاة من عذابه . وما جرته عقيدة « وحدة الوجود » المتطرفة من حرية مطلقة ، وإلحاد وزندقة .

زد إلى ذلك أنه لم تعد في هذا العصر للسنّة النبوية ، والشريعة الإلهية أهمية ومكانة إلا عند القليل من العلماء الراسخين ، والمشتغلين بعلوم السنة والحديث ، وسيطرت البدع بصورة علنية - تارة ، ومستترة بستار « البدعة الحسنة » أخرى على المجتمع المسلم - وسرت أدواؤها في حياة المسلمين العملية ، ولم يكن هناك من يتشجع على مقاومة فكرة « البدعة الحسنة » .

وأدهى من كل ذلك وأمرّ أن الامبراطورية المغولية العظيمة - التي كانت تلي الامبراطورية العثمانية في السعة والقوة<sup>(١)</sup> والمجتمع المسلم الكبير الذي كان يعيش تحت ظل

---

(١) كانت الامبراطورية المغولية تلي الامبراطورية العثمانية في الرقعة ، والقوة العسكرية ، والوسائل والذخيرة ، وكانت حدودها تمتد من بنغال الشرقية الى حدود أفغانستان الغربية .

هذه الامبراطورية - بدأت وجهتهما تتحول - بتأثير بعض الأغراض الشخصية ، والميول والاتجاهات الفردية ، والتأثيرات الخارجية والمصالح السياسية المزعومة ، من الارتباط بالدين الإسلامي ، والتمسك بأهداب النبوة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - وتمثيل الحضارة الإسلامية ، إلى الفلسفة البرهمية ، والحضارة الهندية ، ونظرية « وحدة الديانات »<sup>(١)</sup> ، وكان في مقدمة المخططين لهذه السياسة والمديرين لهذه المؤامرة ، من يعتبر من نوابغ هذا العصر ذكاءً وعلمًا ، وعبقرية أدبية وعقلية ، فكانوا يهتفون بأعلى صوتهم « قد أظل العالم الإنساني - بما فيه العالم الإسلام - بدخول الألف الثاني ، عصر جديد . يحتاج إلى دستور جديد للحياة ، وقيادة جديدة فتيه للمجتمع البشرى والإسلامى » .

فكيف تغلب الإمام على هذا الوضع الشاذ ، وكيف غير هذا التيار الجارف ؟ وكيف كانت عملية « صناعة الرجال » وصنع العبقريات ، فى زاوية بعيدة عن صخب الحياة ، وما هى تلك التربية الخلقية ، والتزكية الربانية التى تخرج فى مدرستها رجال يتجمل بهم التاريخ ، والذين ألقوا رحالهم فى مختلف أقطار الهند ، واتخذوها مركزاً وقاعدة ، لنشاطهم الدّعوى وعملهم التربوى ، وانتشر كثير منهم فى أفغانستان وتركستان ، وامتدوا إلى العراق لإعلاء كلمة الله ، وإحياء السنن المماتة ، والذب عن الشريعة الغراء ، ومقاومة البدع والمنكرات ، وإزالة الآثار التى خلفها دعاة « وحدة الوجود » المتطرفون والصوفية المتحررون المنحرفون .

وخلاصة جهودهم أنهم نفخوا روحًا جديدة فى المجتمع المسلم لعبادة الله وحده ، وابتغاء مرضاته ، وتعظيم شريعته ، وحرماته ، ولم يزالوا على هذا الدرب ثلاثة قرون متوالية ، مواصلين جهادهم وجهودهم بقوة إرادة ، وعلوهممة ، وانصراف تام ، حتى شمل تأثيرهم العالم الإسلامى كله ، فلا نجد بقعة من بقاع العالم الإسلامى إلا وتشهد فيها آثارهم وثرات جهودهم وحق لهم أن تنسب هذه القرون الثلاثة إلى إمامتهم وقيادتهم وتربيتهم ، عدما يشهد المؤرخ المنصف هذا التأثير العالمى العظيم ، يمتلىء قلبه إعجابًا بهذه الشخصية الفريدة ، التى غيرت مجرى التاريخ .

---

(١) يعنى أن الأديان كلها سواء ، كلها طرق موصلة الى الله ، تتحد فى الغاية والصحة ، وتختلف فى بعض المظاهر والشعارات ، وتسمى الله بأسماء مختلفة تتفق فى الحقيقة الجوهر ، ولا تزال لها دعوة قائمة يدين بها ، ويدعو اليها بعض كبار المفكرين والزعماء السياسيين القوميين فى الهند ولعل الزعيم غاندى كان من أصحاب هذه الفكرة .



وقد كان مما ينبغي ملاحظته بهذا الصدد والعناية به لمؤرخ حاذق ، أمران آخران ، أولهما : أنه لا ينبغي الاقتصار فى إلقاء الضوء على عصر الإمام السرهندى ، وتصوير الفترة التى تربع فيها الملك جلال الدين أكبر التيمورى عرش المملكة الهندية العظيمة على كتاب «منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر البدايوني<sup>(١)</sup> وعلى تلك المراجع التاريخية التى وصفت فى الأيام الأخيرة بأنها ألفت تحت ضغط عواطف دينية حادة ، أو من وجهة نظر خاصة وتواضعت على تصوير عهد الملك أكبر تصويراً قائماً مظلماً ، بل ينبغي الاستفادة من كتب أولئك المؤرخين المحايدون أو من تقارير أولئك المحررين وأصحاب الأقلام فى البلاط الملكى ، الذين لم يكونوا ممن يخالفون الملك أكبر فحسب ، بل كانوا يدافعون عنه ، ويدعون إلى أفكاره وأهدافه ، وكانوا معجبين بدستور الدولة ، الذى وضعه ، كما أنهم يتغنون بفضله وعبقريته ، ومواهبه الفذة ، وينبغي أن ندرس تلك التطورات والتغيرات ، التى بدأت من عهد الملك جهانكير ، وتكاملت فى عهد السلطان أو رنك زيب عالمكير ، دراسة تاريخية ناقدة ، ويستفاد فى ذلك من كتب مؤرخى الهند المحايدون ، ونبرهن على هذه الدعوى فى ضوء كتاباتهم ، لا فى ضوء كتابات المؤلفين عن الأسرة المجددية والمؤرخين المتحمسين لهذه القضية ، حتى تكون الدراسة محايدة منصفة للفريقين .

وكان من اللازم أيضاً أن تستعرض تلك الكتب والمقالات التى ظهرت فى الخمسينات الأخيرة من هذا القرن عن الإمام السرهندى باللغتين الأردية والإنجليزية فى الهند وخارج الهند ، وفى بعض هذه الكتابات تحدى المؤلفون كثيراً من الحقائق المعروفة والمسلمة ،

---

(١) كان العلامة عبد القادر بن ملوك شاه البدايوني ( م ١٠٠٤ هـ ) مؤرخاً أميناً ، دقيق الملاحظة والنظر ، مولفًا شجاعاً ، لا يحابى أحداً . ، ( اقرأ ترجمته فى الجزء الخامس من « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى رح ) وقد انتقد الامبراطور « أكبر » انتقاداً لاذعاً ، وصوره تصويراً لا يرضى متملقه ومطريه ، من أنصار التسامح الدينى المزعوم الذى اشتهر به « والدعوة الى الدين الإلهى ( وبالأصح الأكبرى ) التى قادها ، وترزعمها ، من المؤرخين « العلمانيين » الأحرار فى هذا العصر ، وقد قاموا بحملة هوجاء ضد البدايوني وكتاباته ، وقللوا من قيمة الكتب التى تعتمد على شهاداته ومعلوماته .

وقد رأى المؤلف من المصلحة أن لا يعتمد هذا الكتاب الجديد على ما جاء فى كتاب « منتخب التواريخ » للبدايوني فحسب ، لئلا يتخذ ذلك المغرضون وسيلة للحط من قيمة كتابه العلمية والتاريخية ، فاستشهد فى وصف « أكبر » وعرض عقائده واتجاهاته وتقنياته على بيان أصدقائه ، ورجال بلاطه الأوفياء المتشيعين له .

وأثاروا أسئلة جديدة ، وعرضوا صورة - لاستنتاجهم من الوقائع والأحداث على منهجهم الخاص - تختلف كل الاختلاف عن تلك الصورة الوضاءة النيرة التي دأب أكثر المؤرخين على إبرازها وعرضها ، ولا يستلزم ذلك أن يسمى كل واحد من هؤلاء المؤلفين والكتاب ، ويرد على دعاويهم واحداً واحداً ، بل إن هذه السيرة المعروضة للإمام السرهندي عرضاً جديداً ، وهذه الدراسة لأعماله التجديدية ، وعصره وبيئته ، سوف تكون رداً حاسماً على شبهاتهم وتفنيداً لدعاويهم .

وإننى - مع زحمة الأشغال ، وكثرة الأسفار داخل البلاد وخارجها ، وقلة المساعدين فى هذا العمل - حاولت جهدى أن يظهر هذا الجزء من سلسلة « رجال الفكر والدعوة » الذى يشتمل على حياة الإمام السرهندي ومنجزاته وأعماله ، يحمل مواد جديدة ، لم تعرض بعد ، ونتائج جديدة ، تدعوا إلى التفكير والتأمل ، وتبعث على الأمل والتفاؤل ، لعلنا بذلك نقوم ببعض واجبنا نحو هذا العصر ، ونحقق بعض متطلباته ، ونستقبل به القرن الخامس عشر الهجرى .

وإلى القراء هذا الكتاب - الذى أُلّف فى لغة أردو - منقولاً إلى اللغة العربية . وقد قام بعملية الترجمة والتعريب - العسيرة الدقيقة لاختلاف نفسيتى اللغتين ومحيطهما ، ودقة الموضوع - العزيز السيد سلمان الحسنى الندوى - ببارك الله فى حياته ونفعه ونفع به - خير قيام ، وقد انجز العمل وأتمه فى مدة قريبة ، فله دعاء المؤلف وشكر القراء ، والأجر من الله الكريم .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

٢٦ / جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ

١٣ / إبريل ١٩٨٠ م ٥٢١

**أبو الحسن على الحسنى الندوى**

## الباب الأول

### العالم الإسلامى فى القرن العاشر أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر الهجرى

ولد الإمام السرهندى فى شوال عام ٩٧١ هـ ، وتوفى فى صفر عام ١٠٣٤ هـ ، وهكذا يحتوى عصره على التسع والعشرين سنة الأخيرة من القرن العاشر ، وما يقارب الثلاثة والثلاثين سنة الأولى من القرن الحادى عشر ، فالذى يؤرخ عصره وحياته ، ينبغى أن يعنى بهذه الثلاث والستين سنة إذ هى مدة حياته ، وهى التى تمتد من الثلث الأخير للقرن العاشر إلى الثلث الأول من القرن الحادى عشر .

لكن ليست ولادة إنسان - مهما امتاز به من قوة الشخصية ، وتأثير فى عهده وبيئته - بداية حتمية لعهد جديد ، يبرز من كتم العدم إلى حيز الوجود كما أنه ليس من المعقول أن لا تؤثر فيه تلك الوقائع والأحداث ، والعوامل التاريخية ، والخلفيات العلمية والعقلية ، والقوى المسيطرة ، والحكمات الموجودة التى كانت تعمل عملها قبل أن يولد ، وكانت تترك على البيئة والمجتمع أثراً كبيراً ، لذلك فإنه يتحتم علينا عند الحديث عن حياة الإمام السرهندى ، ودراسة أعماله الإصلاحية والتجديدية ، وإدراك طبيعة عصره ، وتقييم ما كان يواجهه فى عمله التجديدى من صعوبات وتسهيلات ، والمقارنة بينه وبين غيره ، أن ندرس العالم الرسلامى - كما كان فى عصره - سياسياً ودينياً ، وعلمياً وخلقياً ، ذلك العالم الرسلامى الذى واجهه الإمام منذ عقل وبدأ يعى ويشعر ، والذى كان عليه أن يقوم فيه بدوره التجديدى الإصلاحى الذى حول تيار الحوادث ، وأرغم التاريخ على أن ينحو حواً جديداً واستحق به - عن جدارة كاملة - أن يلقب بمجدد الألف الثانى .

وينبغى - ونحن فى هذه الدراسة - أن لا نغفل حقيقة ذات شأن وهى أن العصر الذى ولد فيه الإنسان ، والعالم الذى يعاصره ، والمجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه ، هو كالنهر لجارى ، تتصل كل موجة فيه بالموجة الأخرى ، وتتسق معها ، فلا يمكن - لأجل ذلك - أن يبقى بلد - مهما كان بعيداً نائياً ، يعيش فى عزلة عن سائر العالم - غير متأثر بالأحداث لخطيرة والثورات العظيمة ، والقوى المتحاربة ، والحركات المؤثرة القوية التى تجرى فى بلدان العالم الأخرى ، لا سيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع ، والثورات

والتطورات ، بلداً يشاركه في العقيدة والمذهب ، والمشرّب ويجاوره في المكان ، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يلزمه أن يلقي نظرة عامة على العالم الإسلامي كله في القرن العاشر ، لا سيما البلدان المسلمة المجاورة ، التي كانت بينها وبين الهند أو اصر علمية ، ودينية وحضارية ، وكانت تصل إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة ، ونفحاتها الرخية الناعمة ، على بعد الدار وطول المسافة .

## الوضع السياسي :

لقد نال الشرق الأوسط - وهو المنطقة المركزية للعالم الإسلامي - في أوائل القرن العاشر - بعد زمن طويل - ( ولعله بعد السلطان صلاح الدين الأيوبي المتوفى ٥٨٩ هـ ) استقراره السياسي ، واجتمعت البلدان العربية الواقعة في آسيا الغربية تحت الراية التي كان رافعوها يعتزّون بلقب « حامى الإسلام » ، وخادم الحرمين الشريفين ، وحارس المسلمين « وكانوا قد نفخوا في الخلافة الرسلامية - التي عادت في مصر كالبابوية النصرانية بعد استشهاد آخر الخلفاء العباسيين « المستعصم بالله » عام ٦٥٦ هـ - حياة جديدة ، ولو كان ذلك تحت مصالحهم السياسية ، فقد فتح ياور السلطان سليم الأول مؤسس الخلافة العثمانية - ٩١٨ - ٩٢٦ هـ بلاد الشام عام ٩٢٢ هـ ، ومصر عام ٩٢٣ هـ ، التي كانت تحت حكم المماليك منذ قرنين ونصف قرن من الزمان ، وكان حاكم مصر - حين زحف إليها السلطان سليم - قانصوه الغورى ، وأعلن السلطان سليم في نفس سنة ٩٢٣ هـ إعادة الخلافة ، وأنه خادم الحرمين الشريفين ، ووصى أميناً عليهما من قبل المسلمين ، ودخلت بعد ذلك جزيرة العرب ، ثم البلدان العربية الإسلامية ، الواقعة في أفريقيا الشمالية - عدا المغرب - تدريجياً تحت حكم السلطان سليم ، ثم تحت حكم خليفته السلطان سليمان القانونى ( ٩٢٦ - ٩٧٤ هـ ) الذى يذكره المؤرخون الغربيون باسم Sulaiman ( The Magnificent ) يعنى سليمان الكبير العظيم .

وقد كان عهد سليمان - الذى ولد الإمام السرهندى قبل وفاته بثلاث سنوات - عهد ازدهار الامبراطورية العثمانية ورفيها ، إذ كانت ترفرف رايتها على النمسا والمجر فى أوربا ، وتزحف جيوشها المنتصرة - فى جانب آخر - إلى إيران ، وكانت العراق كذلك ، مثل الشام ومصر ، انضمت إلى مملكه الواسعة ، فكانت حاكماً لاكبر إمبراطورية على الأرض فى عصره ، أما فى عهد السلطان مراد الثالث ٩٨٢ - ١٠٠٤ هـ فقد اشتملت مملكته على

حزيرة فيرعى وتونس ، وعدد من ولايات إيران ذات الخصب والريح الكبير ، واليمن ،  
وتم في عصره عام ٩٨٤ هـ بناء الحرم المكي الشريف ، وكان الإمام السرهندي - إذ ذاك -  
قد بلغ من الشعور ، وليس بعيد أن يكون على علم بهذه الأحداث ، وطبعاً أن يكون  
للمسلمون في ذلك العصر - ولو كانوا مسلمي الهند - بشغور بفرح واعتزاز إزاء فتوح  
الدولة العثمانية ، واتساع رقعتها وقد كان الأتراك العثمانيون معروفين بصلاحهم في العقيدة  
أستية ، وتمسكهم بالمذهب الحنفي ، الذي كانت تدبر به أكثرية مسلمي الهند .

وظهرت في بداية هذا القرن عام ٩٠٥ هـ الأسرة الصفوية في إيران وكان مؤسس  
الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الصفوي ٩٠٥ - ٩٣٠ هـ ، وقد أحكمت هذه الأسرة -  
تدريجياً - امتلاكها على هذه المنطقة كلها ، واستقلت استقلالاً تاماً ، وكانت حكومة قوية  
إزاء الدولة العثمانية ، وقررت المذهب الإمامي الجعفري - خلافاً للدولة العثمانية - مذهب  
الدولة الرسمي ، واستخدم إسماعيل الصفوي كل الوسائل ، واستغل السلطة نشر هذا  
المذهب ، والدعوة إليه ، وحار في سبيل ذلك مجارحاً عظيماً منقطع النظير في تاريخ  
الحكومات التي تعنى بتحويل الاتجاه الديني للمصالح السياسية فأصبحت هذه الحكومة - بعد  
أن قامت على حدودها سوراً بشرياً يقوم على الخلاف المنهني - تعلم عن أن تدرب في  
دولة العثمانيين التي انتشر فيها من شاركهم في المذهب السني الحنفي ، من القسطنطينية إلى  
لاهور ودلهي ، وكانت الأسرة الصفوية تحكم من بغداد إلى هرات .

وكان شاه عباس ٩٤٥ - ١٠٣٧ هـ الذي هو أعظم سلاطين هذه الأسرة ويعرف في  
التاريخ بشاه عباس الكبير ، والذي يستحق لأعماله البتالية أن يدعى شاهجهان (١) أسيراً ،  
معاصراً للإمام السرهندي ، وقد بلغت الدولة الصفوية في عصره أوجهاً ، وذروة مجدها ،  
فحارب الأتراك ، واحتل نجف وكرملا ، وكان هو معاصراً للملك جلال الدين أكبر ،  
والملك نور الدين جهانكير ، وأصبحت هذه الأسرة بعد شاه عباس بالضعف والذوال

وكانت البقعة الثانية من بقاع العالم الإسلامي الهامة بلاد تركستان التي قامت لقرون  
طويلة مركزاً للحضارة الإسلامية ، والثقافية العربية الدينية ، وتعرف في الكتب القديمة بـ  
أما وراء النهر ، وكانت لها مساهمة كبيرة - بعد العراق - في تدوين الفقه الحنفي ، وخلفت

(١) هو الأميرانور شهاب الدين شاهجهان جهانكير التيموري (م ١٠٧٥ هـ) بالي الناج محل في  
أكبره والسجد الجامع الكبير في دلهي .

عدداً من الكتب القيّمة الخالدة (١) ، التي لا تزال مقررة في مناهج الجماعات الإسلامية في الهند ، ونشأت فيها الطريقة النقشبندية - التي يتسبب إليها الإمام السرهندي وشيوخه - ونمت وترعرعت ، وانتشرت منها في أجزاء العالم الإسلامي ، لقد دخلت هذه البلاد ، المخصبة الغنية بالثروات والعبقريات ، في حكم الأسرة الشيبانية فرع الأوزبكية في بداية القرن العاشر عام ٩٠٥ هـ ، وبقيت تحت سلطانهم من تلك السنة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي - إلى ثورة روسيا البلشفية - إلا فترة قصيرة حمل فيها الملك ظهير الدين بابر التيموري بمساعدة الصفويين ، على ما وراء النهر ، وسيطر على سمرقند عاصمتها - انذاك - ثم أصبحت « بخارى » في القرن العاشر عاصمة الدولة الشيبانية في عهد الملك عبيد الله بن محمد ٩١٨ - ٩٤٦ هـ ، والملك عبيد الله بن اسكندر ٩٦٤ - ١٠٠٦ هـ ، وعادات بسببها بخارى مرة ثانية ، مركزاً للحياة السياسية والفكرية .

وأقرب البلدان المجاورة للهند الذي يقع غربياً هو أفغانستان ، تداول الحكم عليها في بداية القرن العاشر أزابكة تركستان ، و صفويو إيران وغيرهما من الغزاة الطامحين المحليين ، في فترات متخللة بين حكم الأُسرتين المتقدم ذكرهما ، وكان يحكم « كابل » و « قندهار » المغول تارة والایرانيون أخرى ، أما هرات فلوقوعها على حدود إيران كانت أكثر الأحيان تحت سلطة الأسرة الصفوية ، وفي عام ٩٢٨ هـ فتح الملك بابر « قندهار » ، ثم لما أسس الدولة التيمورية في الهند ، جعل مقره كذلك في الهند ، وكما يحكم في هناك ولايات « كابل » و « بدخشان » و « قندهار » ، وافتتحت أفغانستان - في ذلك الوقت تحت تأثير دولتين عظيمتين قائمتين في الهند ، وإيران - عهداً جديداً ، أقرب إلى الأمن والتنظيم ، وكانت أن انقسمت بين هاتين الدولتين ، فدخلت ولايتا هرات وسيستان في إيران ، وإن كان الأزابكة يحملون عليهما حيناً لآخر وأصبح « كابل » جزءاً من الدولة المغولية ، كان قندهار يتداول السلطة عليه المغول والإیرانيون ، وأنشأ الحاكم سليمان مرزا ابن أخى الملك بابر - الذى ولاه بابر ولاية يدخشان - في شمال كوهستان حكومة شبه مستقلة ، أما ما عدا هذه الولايات من سائر المناطق ، فكانت تحت حكم الشيبانيين ، وفي عام ٩٦٥ هـ احتل طهما صب ملك إيران ، ولاية « قندهار » واستمرت تحت إحتلال الإیرانيين إلى عام ١١٠٣ هـ ، ثم سلمها ولى العهد مظفر حسين عام ١٠٠٣ هـ إلى الملك أكبر ، ومن ثم

---

(١) كهداية الفقه للمرغيناني ، وشرح الوقاية وغيرهما لصدر الشريعة ، وظلا مقررين في المنهج الدارسي طوال قرون .

كانت أفغانستان ولاية من ولايات الدولة المغولية فى الهند ، ودام الحال على ذلك إلى القرن الثانى عشر حتى زالت دولة آل بابر التى استمرت مائتين وأربعين ٢٤٠ عاماً على أيدى نادر شاه افشار عام ١١٥١ هـ .

ولما بدأ القرن العاشر كانت الأسرة اللوديهية تحكم الهند ، وقد قتل آخر ملوكها إبراهيم اللوديهى عام ٩٣٢ ، على يد مؤسس الدولة المغولية الملك ظهير الدين محمد بابر الكوركانى ( ٨٨٨ - ٩٣٩ هـ ) ، وتأسست على أنقاض الدولة اللوديهية ، المملكة المغولية، التى كانت من أكثر دول الهند استحكاماً وتنظيماً ، وأوسعها رقعة ، وأطولها عمراً، كانت الأسرة اللوديهية - لتمسكها بالتقاليد الأفغانية ، والنسب الأفغانى - متمسكة بالإسلام ، متقيدة بالمذهب السنّى الحنفى ، لم تعرف التجدد و« العلمانية » والسياسة اللادينية ، وكان من أكثر هذه الأسرة تديناً ، وتقديراً للعلماء ، وتشجيعاً للعلوم الإسلامية الملك سكندر اللوديهى ( م ٩٢٣ هـ ) وسعدت الهند خمس سنوات من هذا القرن بحكم الملك شيرشاه السورى ( ٩٤٦ - ٩٥٢ هـ ) ، الذى لم ينهض فى تاريخ الهند الإسلامى ملك متدين عالم ، أحسن منه تنظيمًا وتقنيًا ، وأكثر منه توفيقًا للأعمال الخيرية ، وتحقيق المشاريع الهائلة فى المصلحة العامة ، ولم يحصل للهند بعد وفاة الملك شيرشاه السورى ، إلى تولى الملك أكبر للدولة ، الاستقرار السياسى ، والتنظيم السليم ، ولم يقر للحكومة قرار ، ولم يذق سكان البلاد طعم الأمن والرخاء والراحة ، فقد كان الملك سليم شاه خليفة أبيه العبقرى السلطان شيرشاه السورى لا يمت إلى أبيه فى تنظيمه ، وتدير مملكته بسبب ، ولم يستطع كذلك الملك نصير الدين همايون خليفة الملك بابر ( ٩٣٧ - ٩٦٣ هـ ) أن يحكم الهند فى أمن واستقرار ، فقد شردته حملات الملك شيرشاه السورى الظافرة ، وخذلان إخوته كل مشرد ، وكان شأنه هذا ، حتى اتصل بطهما سب الصفوى ملك إيران، وطلب منه المساعدة ، فتهيا له الاستقرار واعتلى الملك أكبر عام ٩٦٣ هـ عرش الدولة المغولية ، ودام فى الحكم نصف قرن ، بأبهته وعظمته غير منازع .

وتولى نور الدين جهانكير الملك فى عصر الإمام السرهندى نفسه ، حينما كان ابن ثلاث وأربعين سنة ، وتوفى الإمام السرهندى فى عهده ، كانت هناك - عدا هذه الدولة المركزية التى عاصمتها دلهى - حكومات إقليمية فى ولاية كجرات ، وبيجافور ، وكولكنده، وأحمد نكر ، كانت تحكم هذه المناطق بصورة مستقلة ، وكانت الحكومات الثلاث المؤخرة الذكر من الحكومات التى كانت تعتنق المذهب الشيعى .

## الوضع الدينى والروحى :

لقد كان التدين سمة سائدة - إذ ذاك - على العالم الإسلامى كله ، فكان عامة الناس - رغم انحطاطهم الخلقى والعلمى - راسخى الإيمان ، محبين للإسلام موالين له ، وكانوا يمتازون بالحمية الدينية ، والحماسة الإسلامية ، على تصورهم الخاص ، وبالرغم من أنهم كانوا يقترفون كثيراً من البدع ، ويرتكبون ما يخالف الإسلام - أحياناً - ولكن كانوا شديدى الكراهية للكفر والإلحاد ، يشمئزون منهما ويتبرأون .

ولأجل هذا الذوق الدينى العام ، والطبيعة الإيمانية السائدة ، كان الملوك المسلمون - الذين لا يعبأون بأى قوة مناوئة كبيرة ، وكانت أوروبا ترتعد من قوتهم العسكرية - مضطرين لاحترام شعائر الإسلام ، وإعلان صيانة الدين ، وحماية بيضة الإسلام والمسلمين ، ولم تكن قلوب العامة من الناس ، تستشعر عظمتهم . وتحبهم ، حتى يتظاهروا بهذه الناحية الدينية ، لذلك لم تتوطد حكومة السلطان سليم الأول ، ولم تثبت جذورها . حتى لقب نفسه بخليفة المسلمين ، وخادم الحرمين الشريفين ، وأبدى أثناء إقامته بدمشق الحب والتقدير للديار المقدسة ، والإجلال لها ، وأنفذ فى شهر ذى الحجة عام ٩٢٣ هـ قافلة للحجاج من دمشق ، وبعث معهم - لأول مرة فى الدولة العثمانية - بهدية كسوة الكعبة ، ومن ذلك اليوم تسمى السلاطين الأتراك بـ « خادى الحرمين الشريفين » ، مهد لهم طريق المجد ، وعظمت أقدارهم فى أعين الناس ، ونجد أمثلة عديدة فى حياة السلطان سليمان الكبير للتواضع ، والعواطف الدينية العميقة ، فقد انتسخ بيده ثمانية مصاحف للقرآن الكريم ، لا تزال محفوظة فى المكتبة السلمانية ، ويظهر من ديوان شعره أنه مسلم راسخ العقيدة فى الإسلام ، وأنه جدد عمارة الكعبة المشرفة بعد أن أخذ فتوى العلامة أبى السعود ( م ٩٥٢ هـ ) صاحب « تفسير أبى السعود » ، وبنى جداول مخصصة مجصصة فى مكة المكرمة ، وأكمل السلطان مراد ( م ٩٨٤ هـ ) بناء الكعبة المشرفة - وهو البناء الذى لا يزال إلى الآن - هذه بعض مآثر السلاطين العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى .

وكان الناس فى الدولة الشيعية بإيران كذلك متدينين ، عقليتهم عقلية دينية ، ويغلب عليهم الطابع الدينى ، وكان السلاطين الصفويون يغذون هذه الناحية الدينية ، وينمون هذه العواطف ويتظاهرون بحب آل البيت وإجلالهم ويستغلون ذلك لقوتهم السياسية وإحكام الدولة ، ووقوعهم موضع القبول فى الناس ، فقد تجشم شاه عباس الأول - أعظم سلطان فى الدولة الصفوية - مشقة السفر من أصفهان إلى « المشهد » ( مدفن على الرضا ) حوالى



ثمانثة ميل ، مشياً على الأقدام ، وحضر النجف ، وقام بخدمة الكناسة لضريح سيدنا على - كرم الله وجهه .

وبلغ حب الناس لشاه عباس واعتقادهم فيه ، وغلوهم في إجلاله ، إلى حد الخرافات والسخف العقلي ، وشاعت في الناس عنه قصص غريبة ، وروايات طريفة .

أما سكان تركستان وأفغانستان ، فإن رسوخهم في العقيدة وصلابتهم في التدين ، وتمسكهم بالسنية والمذهب الحنفي ، شئ يضرب به المثل ، فكان الحكام والأمراء والوزراء ، وأصحاب البلاط - كل حسب مستواه في المعيشة وحال من الترف - يتفقون معهم ويسايرونهم في كل ذلك .

وكان تأسيس الدولة الإسلامية في الهند على أيدي الحكام من الأسر الأفغانية أو تركية . فكان - لأجل ذلك - تأثير الدين عميقاً في قلوب أهل هذه البلاد ، وإن كان هذا التأثير ساذجاً بسيطاً ، شأن العقلية الأفغانية والتركية ، وذوقها الخاص . وما زال الناس متمسكين بالسنية والمذهب الحنفي - باستثناء بعض المدن الساحلية ، ومنطقة مابار في جنوب الهند - وكان المذهب الحنفي هو الذي يطبق في الدولة ، ويتحكم في المحاكم ، وألفت هنا بعض الكتب المهمة في الفقه الحنفي كـ «الفتاوى التارخانية» و «فتاوى قاضي خان<sup>(١)</sup>» .

ويمتاز عدد من السلاطين في تاريخ الهند الإسلامي بحمايتهم الشريعة الإسلامية ، والسنة المطهرة . وكراهة الكفر والإلحاد ، ومحاربة البدع والمنكرات ، والحماية الدينية والغيرة الإسلامية ، ويكفينا أن نذكر «محمد تغلق» و «فيروز تغلق» في القرن الثامن ، والسلطان سكندر اللودهي في القرن العاشر ، فقد كان التدين - حسب ما يروى لنا مؤلفو «طبقات أكبرى» و «تاريخ فرشته» و «تاريخ داؤدى» - سائداً في عهد السلطان سكندر ، وكان يبدو من تمسك الناس بالدين ، وشدة أخذهم به أنه نفخت في الحياة روح جديدة ، وكان الدين أعز وأحب إلى السلطان من نفسه ، وكان السلطان من أول حياته - كما يصفه هؤلاء المؤلفون - متحمساً للدين ، يحب المذاكرة العلمية ، وبدأ الهنادك في عهده بدراسة اللغة الفارسية ، وقبلت طائفة «كائسته» الهندكية توجيه السلطان إلى دراسة اللغة الفارسية لغة الديوان ، فدرسوها وتولوا وظائف الكتابة والديوان في المملكة ، ونهى السلطان عن

---

(١) وهذا قبل تدوين «الفتاوى العالمكيرية» بزمان طويل ، وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم الإسلامي ويعرف بـ «الفتاوى الهندية» في مصر والشام والعراق .

بدعة حمل الأعلام باسم السيد سالار مسعود غازي (١) ، التي كانت تحمل وفاءً بالندى ، واعتقاداً في البركة والنصر ، وكانت عادة سنوية مقدسة ، كما أصدر أوامر مشددة في منع النساء من زيارة الضرائح والمشاهد ويقول بعض المؤرخين أنه نهى حمل « الضرائح » المصنوعة من القرطاس والقصب المنسوبة إلى سيدنا الحسين بن علي الشهيد وعبادة « سيتلا » - الهة الجدرى - نهياً قاطعاً (٢) ، ويقول مشتاقى : « إنه هدم كثيراً من المشاهد المزورة ، وسواها بالأرض ، وأجرى مكانها الأنهار (٣) » .

وكان السلطان سليم شاه السورى يؤم الناس فى الصلوات فى المسجد ، وكان يجتنب المسكرات أشد الاجتناب .

لقد كان هذا العصر عصر رقى التصوف ، وإزدهار السلاسل والطرق ، حتى لم تبق بقعة من بقاع العالم الإسلامى خالية من طريقة من طرق الصوفية ، وكانت الطرق حديث المجالس والنادى ، وكانت فى بخارى « و «سمرقند» - المركزان العلميان ، والروحانيان ، والمدينتان المعروفتان - فى تركستان ، و « بدخشان » وهرات فى أفغانستان ، و « طنطا » و « الإسكندرية » فى مصر و « تعز وصتعاء » فى اليمن و « شحر » و « تريم » و « سيون » فى حضر موت ، مراكز كبيرة للعلماء والصوفية ، ومشايخ الطرق ، وكانت أسرة باعلوى العيد روسية فى حضر موت ذات شهرة وقبول فى الناس ومعروفة بالفضل والعلم ، وفى هذا العصر كان الشيخ أبو بكر بن عبد الله بن أبى بكر شيخاً ذا مكانة يعرف بقطب العالم ، وكانت مدينة « تريم » مركز أشرف آل باعلوى ، ومن مشاهير أولياء هذا العصر الشيخ سعد بن على السوينى بامدحج السعيد ، الذى ذكره الشيخ محيى الدين عبد القادر العيد روسى ( ٩٧٨ - ١٠٣٧ هـ ) فى كتابه الشهير « النور السافر فى رجال القرن العاشر » ، وختم بترجمته - التى تمتد من صفحة ٤٦٦ إلى ٤٨٠ - الكتاب (٤) .

---

(١) هو السيد سالار مسعود الغازى دفين مدينة بهرائج فى الولاية الشمالية الغربية ، وهو من أشهر الأعلام فى الهند ، مات شهيداً سنة ٥٨٨ هـ ، بنى على قبره ملوك الهند عمارة سامقة البناء ، والناس يقدون اليه من بلاد شاسعة ويزعمون أنه كان عزباً شاباً لم يتزوج ، فيحتفلون لعرسه ، يندرون له أعلاماً ينصبونها على قبره .

(٢) تاريخ هندوستان لذكاء الله الدهلوى ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٣) اظر « واقعات مبشاقى » .

(٤) ألف هذا الكتاب فى أحمد اباد عام ١٠١٢ هـ .

وقد كان للطريقة القادرية ، وللطريقة الجشتية - بفرعها النظامية والصابرية - رواج وانتشار ، نبغ فيها شخصيات عديدة معروفة بالعلم والفضل والصلاح والزهادة . لكن من الحق أن يقال أن هذا القرن قرن الطريقة الشطارية العشقية ، التي تسلمت زمام القيادة الروحية لهذه البلاد من الطريقة الجشتية ، وسخرت الهند كلها .

أسس الطريقة الشطارية الشيخ عبد الله شطار الخراساني الذي نزل الهند في أوائل القرن التاسع بالتقريب ، واستوطن « ماندو » عاصمة الولاية الخليجية في الهند الوسطى . وتوفي سنة ٨٣٢ هـ ، ودفن داخل القلعة في ماندو . كانت حياته حياة الأمراء ، يمتاز بالجذب والتأثير ، وإنتفع به خلق كثير ، وانتشرت طريقته في الهند بسرعة فائقة . ولهذه الطريقة فرعان ، ينتمى فرع منهما إلى الشيخ محمد غوث الكواليارى ، وبينه وبين الشيخ الشطارى ثلاث وسائط ، وينتمى الفرع الثانى إلى الشيخ على بن قوام الجونبورى ، - المعروف بشيخ على عاشقان السرائى ميرى (١) - بينه وبين الشيخ عبد الله الشطارى واسطتان ، وقد مزجت هذه الطريقة ، لأول مرة ، تعاليم « يوكا (٢) » بالتعاليم الصوفية ، واختارت من الأولى بعض الرياضات والأوراد ، وحبس النفس ، ولفتت هذه التعاليم المريدين والسالكين ، كما ضمت إلى الطريقة « علم السيمياء » . وقد جاءت تفاصيل هذه الأوراد ، وشروح الرياضات الخاصة فى الرسالة الشطارية التى ألفها الشيخ بهاء الدين بن إبراهيم الأنصارى القادرى (٣) ، وتوجد قصيدة للشيخ محمد الشطارى فى كتابه « كليلد مخازن » - مفتاح الخزائن - تفيد عقيدة وحدة الوجود ، وعدم التفريق بين المسجد والبيعة ، والمسلم والبرهمى ، وعقيدة ظهور الإله وتجليه فى هذه المخلوقات كلها ، لأن كل ذلك ناشئ من هذه الوحدة ، وهى ألوانها ومظاهرها المتنوعة ، وجاء فى آداب هذه الطريقة

---

(١) اقرأ ترجمته الحافلة فى « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى الجزء الرابع .

(٢) نظام الرياضيات الروحية والبدنية فى الهند القديمة .

(٣) وكان فى هذا القرن من الطرق المنتشرة فى الهند المدارية ، التى أسسها الشيخ بديع الدين المكن بورى ( م ٨٤٤ هـ ) وكان أساس هذه الطريقة على فكرة وحدة الوجود « والكشف عن معانيها ومحتوياتها ، والتجريد الظاهرى - حتى يقتصر على ستر العورة الغليظة - والتوكيل الصرف ، وكلما تطاول الزمن مالت هذه الطريقة الى التحلل والانحطاط ، حتى أطلق لفظ « مدارى » على التكسب بالألعاب البهلوانية ، وقد فقدت هذه الطريقة فى القرن العاشر تأثيرها وقبولها فى الخاصة ، ولم نثر بعد البحث والتنقيب فى « نزهة الخاطر » - الجزء الرابع - الذى أحصى فيه مشائخ كل طريقة احصاءً كاملاً تقريباً ، إلا على رجلين كانا منخرطين فى سلك الطريقة المدارية .

وشعرها ما قد يقلل من قيمة العلم الذى هو « الحجاب الأكبر » ، ومن قيمة العبادات ، ومن أهمية الإيمان وضرورته ، ويرفع شأن الحب الإلهى ، والسكر والتفانى فيه ، والتجرد عن كل ما يتصل بالمادة والجسم ، والحياة الدنيا .

وكان أشهر رجال هذه الطريقة الشطارية ، وأكثرها تأثيراً ، الشيخ محمد غوث الكواليارى ( م ٩٧٠ هـ ) الذى حصل له القبول العام ، وأصبح المرجع للناس ، وكانت تضاهى أبهته وفخفته أبهة الملوك والأمراء وفخختهم ، وتوازى دولته الروحية دولة البلاط ، وكان دخل عقاراته تسعمائة ألف عملة فضية (١) ، وكان له أربعون فيلاً . وجنود مجندة من الحاشية والخدم ، وكان عندما يخرج فى سوق مدينة « آكره » تحتشد الحشود ، ويقف جموع الناس فكان يسلم على كل واحد منهم بانحناء ، حتى إنه لا يستقر جلوسه على السرج ، ولا تعود فقاره ظهره إلى مكانها ، وكان قد إستمال الملك أكبر كما جاء فى تصريح العلامة عبد القادر البدايوني - وأدخله فى حلقة مريديه ، ولكن الملك لم يلبث أن خلع من رقبته طوق إرادته وبيعته ، وكان لزهده - رغم هذه الأبهة الملوكية والثروة الأميرية- صيت ذائع ، يتناقل الناس أخباره ، ويتحدثون به ، وكان عند تسليمه على الناس ينحنى كانحناءة الركوع . ولو كان من يسلم عليه مسلماً أو كافراً ، وكان العلماء ينتقدون ذلك ، ويعترضون عليه ، ومن مؤلفاته «جواهر خمسة» و « معراجية (٢) » و « كنز الوحدة » و «بحر الحياة» (٣) وكان له تأثير كبير على الهند ، وراجت الطريقة الشطارية (٤) وانتشرت ، وكانت ولادة الإمام السرهندي بعد وفاته بعام .

وكان من كبار أصحاب هذه الطريقة ومشايخها الأجلة الشيخ على بن قوام الجونبورى المعروف بعلى عاشقان السرائى ميرى ( م ٩٥٥ هـ ) ، والشيخ لشكر محمد البرهانبورى ( م ٩٩٣ هـ ) ، والشيخ الله بخش الكده مكتيسرى ( م ١٠٠٢ هـ ) كانوا مرجع خلق كثير

---

(١) وفى بعض لروايات عشرة ملايين .

(٢) كان ادعى لنفسه ان عرج به الى السماء مثل معراج الرسول ﷺ - وأحدث ذلك فوضى وشغباً فى علماء كجرات .

(٣) راجع للتفصيل فى تاريخ المشايخ الشطارية ، « نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٤) هذا الكتاب ترجمة لكتاب « امرت كند » ، يقول الأستاذ محمد اكرام عنه فى كتابه « رود كوثر » : « نقل فيه تفاصيل العادات ، والأعمال والأوراد التى يشتغل بها العباد والهنادكة وأصحاب اليوك إلى اللغة الفارسية وكان تعرض لهذه الأعمال فى كتابه الذى ألفه من قبل « جواهر خمسة » تعرضاً قليلاً ، وتدل هذه المعلومات على علاقة الطريقة الشطارية ب « اليوك الهندكى » ( ص ٣٤ - ٣٦ ) .

من عباد الله ، وقد ذكر بعض المؤرخين عن الشيخ على عاشقان السراىء ميرى أنه لم تظهر الكرامات العجبية على يد أحد بعد الشيخ عبد القادر الجيلانى ، مثل ما ظهرت على يديه (١) وكان خليفة اشيخ محمد غوث الكواليارى ، الشيخ ضياء الله الأكبر آبادى ( م ١٠٠٥ هـ ) تلميذ العلامة الشيخ وجيه الدين ، سكن فى « أكبر آباد » - وكانت عاصمة الملك أكبر - ٣٥ عاماً ، وحصل له القبول فى الناس ، ودُعى إلى بلاط الملك أكبر عدة مرات . يقول العلامة عبد القادر البدايونى : « سلمت عليه مرة فثقل عليه وساءه ، وشعر بأنى أهنته » ، وأستهزأ بهذا الشعار الإسلامى والسنة الطيبة ، وقد صوره البدايونى تصويراً سيئاً ، وذكر أخباراً وروايات تدل على استخفافه بالشريعة الإسلامية (٢) .

عدا هؤلاء المشائخ المذكورين - أعلاه - كان الشيخ عبد الله السنديلوى ( ٩٢٤ - ١٠١٠ هـ ) والشيخ عيسى بن قاسم السندى خليفة الشيخ لشكر محمد عارف بالله - وكن معاصراً للإمام السرهندي ، ويقاربه فى السن - من مشاهير مشايخ الطريقة الشطارية العشقية (٣) .

وكان هناك مشائخ كبار - غير هؤلاء المشائخ المشهورين من السلسلة الشطارية العشقية - يتمون إلى سلاسل وطرق أخرى ، كان منهم الشيخ جاتين لده السهنوى (٤) ( م ٩٩٨ هـ ) كان يدرس كتاب « الفصوص » و « نقد النصوص » ، وكان الملك أكبر يعتقد فيه ويجله ، وشاهده يوماً يصلى « الصلاة المعكوسة » فإنصرف عنه ، وشيخ آخر يسمى الشيخ عبد الرزاق الجهنجهانوى ( ٨٨٦ - ٩٤٩ هـ ) كان من أصحاب الطريقة القادرية الجشئية ، وكان - رغم كونه عالماً كبيراً يزاول التدريس والتصنيف - يدعو إلى وحدة الوجود ويتحمس لمذهب الشيخ محبى الدين بن عربى وقد ألف فى هذا الموضوع عدة رسائل ، وكان الشيخ عبد العزيز شكر بار ( ٨٥٨ - ٩٧٥ هـ ) كذلك يقول « بوحدة الوجود » ، وكان صوفياً يمتاز بالأحوال والمقامات ، وكان يلقي دروساً فى « فصوص الحكم » وشروحه ، وهو من أجداد الإمام ولى الله الدهلوى لأمه .

ونبغ فى هذا القرن الشيخ عبد القدوس الكنكوهى ( م ٩٤٤ هـ ) وعلاصيته ، ووطنت

(١) راجع للتفصيل « العاشقية » تأليف عارف على ؛ و « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٢) راجع للتفصيل « منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر ، و « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٣) انظر « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٤) سهنه قرية فى مديرية كركانوه ، فى بنجاب الشرقية ، يوجد فيها عين حارة مشهورة .

حصاته ، ونالت الطريقة الجشتية الصابرية منه حياة جديدة ، وعادت غضة طرية ، مؤثرة قوية ، كان ييوح بأسرار « وحدة الوجود » على ملأ من الناس ، يدعو إليها وينادي بها ، وكان الشيخ قطب الدين بينادل ( ٧٧٦ - ٩٢٥ هـ ) مرشد الطريقة القلندرية ، والشيخ كمال الدين ( م ٩٧١ هـ ) في قرية كيتهل بمديرية إنباله - من رؤساء الطريقة القادرية ، ومرشديها الكبار ، قد استعادت بهما هاتان الطريقتان رونقهما ورواءهما ، وذكر الإمام السرهندي عن الشيخ كمال المذكور - أعلاه - نقلاً عن والده الشيخ عبد الأحد ، أنه قال : « عندما ينظر بنظر « الكشف » ، يتبين لنا أنه لم يوجد في السلسلة القادرية العالية بعد شيخ المشائخ الشيخ عبد القادر الجيلاتي أفضل ولا أكمل حالاً من الشيخ كمال (١) » .

كان الشيخ نظام الدين الأميتھوى ( ٩٠٠ - ٩٧٩ هـ ) في ولاية «اوده» من كبار رجال السلسلة الجشتية مع الدفاع عن الشريعة الإسلامية والإتباع للسنن النبوية ، وصلاح السيرة ، وكان يعتمد على « إحياء العلوم » و «العوارف » و « الرسالة المكية » وقع بصره على كتاب « الفصوص » في يد بعض الناس ، فنزعه من يده ، وأعطاه كتاباً آخر للمطالعة والقراءة ، وكان «السمع (٢) » عادة متبعة في طريقتة ، إلا أنه كان يجتنب ذلك ، ويتحاشاه (٣) .

هذه هي الأوضاع الروحية والدينية السائدة في العالم الإسلامي - آنذاك - وهؤلاء هم مشايخ الطرق وأصحاب السلاسل في الهند على اختلاف مسالكهم ومشاربهم ، وتفاوت مراتبهم ودرجاتهم ، الذين كانوا أسسوا في القرن العاشر الهجري - في الأماكن المختلفة مراكز تربية روحية وكان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك والمحبين للزهاد والصالحين من عامة الناس وخاصتهم يتصلون بهم وينتمون إليهم ، ويتمسكون بطريقتهم ، وقد شرحت هذه الأوضاع ، وتناولت هذا التاريخ بشيء من الإفاضة وإطالة النفس ، ليتيسر لقارئ تقدير الجو الذي تنفس فيه الإمام السرهندي ، والعهد الذي عاصره ، وذوقه وميوله ، ما كانت من الإمكانيات والصعوبات للعمل الإصلاحى التجديدي العظيم الذي قام به الإمام خير قيام .

## الوضع العلمى :

لم يكن القرن العاشر الهجرى قرن الابتكار والاختراع فى العلوم والفنون والأصالة

(١) انظر « زبدة المقامات » ، ص ١٠٨ .

(٢) الغناء تارة بالمزامير ، وتارة بغيرها .

(٣) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٤ .

العلمية ، والنظر الدقيق الذى يتسم « بالاجتهاد » والتدوين الجديد للعلوم ، والزيادات ذات القيمة العلمية الكبيرة ، فإن هذه الميزات إنما تتجلى بوضوح إلى منتصف القرن الثامن الهجرى ، حيث ظهر نوابغ الرجال والعقريون فى فنون كثيرة كشيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحرانى دمشقى ( م ٧٢٨ هـ ) ، وشيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد ( م ٧٠٢ هـ ) ، والعلامة علاء الدين الباجى ( م ٧١٤ هـ ) ، والعلامة الحافظ جمال الدين أبو الحجاج المزى ( م ٧٤٢ ) ، والعلامة الحافظ شمس الذهبى ( م ٧٤٨ هـ ) ، والعلامة أبو حيان النحوى ( م ٧٤٥ هـ ) الذين خلفوا لنا فى علوم الحديث ، والأصول ، والكلام ، وأسماء الرجال والعربية آثاراً عظيمة ، مؤلفات ضخمة ثمينة ، وكان عصر الحافظ ابن حجر العسقلانى ( م ٨٥٢ هـ ) إمام العصر فى الحديث وصاحب « فتح البارى » الذى وصفه بعض الناس بقولهم « لا هجرة بعد الفتح » كذلك ولى من غير رجعة .

فكان القرن العاشر الهجرى قرن الجمع والترتيب ، والتسهيل والتلخيص لكتب المتقدمين ، وإن كان يتجمل رأس هذا القرن بوجود أمثال العلامة شمس الدين السخاوى ( م ٩٠٢ هـ ) ، والعلامة الحافظ جلال الدين السيوطى ( م ٩١١ هـ ) من بحور العلم الزاهرة ، وكبار المؤلفين فى تاريخ الإسلام ، يقول بعض العلماء عن الحافظ السخاوى : إنه لم ينبج التاريخ مثله فى علم الحديث وفن الرجال والتاريخ بعد الإمام الحافظ الذهبى ، وأذن علم الحديث بعده بالانحطاط والتدهور ، وبعد كتابه « فتح المغيـث بشرح ألفية الحديث » فى أصول الحديث ومصطلحه ، و« الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » فى التاريخ والرجال ، من الكتب التى لا يوجد لها نظير ، والعلامة السيوطى غنى عن التعريف ، فإنه من نبغاء الرجال المؤلفين ، مشاهيرهم فى تاريخ الإسلام ، وتقوم بعض مؤلفاته مقام الموسوعات العلمية فى مواضيعها ، ولا يزال اسمه حياً خالداً فى الأوساط العلمية بتأليفه النصف الأول من تفسير الجلالين ، وبقي مقررأ - إلى يومنا هذا - فى المناهج الدراسية فى شبه القارة الهندية وبعض البلاد الإسلامية .

يمتاز هذا القرن بازدهار علوم الحديث والرجال فى مصر الشام والعراق ، وبازدهار العلوم العقلية - المنطق والفلسفة - فى إيران ، وازدهار الفقه الحنفى فى الهند ، وتركستان ، وكانت هذه العلوم المختلفة فى البلدان المشار إليها - آنفاً - مقياس الفضل والنبوغ والكمال ، فكانت مصر تزدهر بالعلامة أحمد بن محمد القسطلانى مؤلف « إرشاد السارى » شرح صحيح البخارى ( م ٩٢٣ هـ ) ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ( م ٩٢٥ هـ ) وكان زينة تركيا العلامة أبو السعود صاحب التفسير ( م ٩٥٢ هـ ) ، وكان فى الحجاز العلامة

ابن حجر المكي الهيثمي ( م ٩٧٤ هـ ) مؤلف « الصواعق المحرقة » وكتب أخرى كثيرة ، والعلامة علاء الدين على المتقى البرهانفوري المكي مؤلف « كنز العمال » ( م ٩٧٥ هـ ) ، وكان رواد العلم يردون مناهل علمهم فيروونهم ، وطبقت علومهم الآفاق وعمت إفادتهم الخلائق ، وكان العلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي المعروف بملا علي القاري - العالم الحنفي المحقق الذي اتسمت كتبه بالانصاف العلمي - رغم أنه ولد في « هرات » من أفغانستان إلا أنه بتدبره بمكة المكرمة نشر علمه في منتجعي العلم والمعرفة من أطراف العالم الإسلامي ، وهو - وإن كانت وفاته في أوائل القرن الحادي عشر عام ١٠١٤ هـ - إلا أن عهد خدماته العلمية التأليفية هو القرن العاشر ، وتوفي في أواخر هذا القرن العلامة الأديب والمؤرخ الكبير الشيخ قطب الدين النهر والي<sup>(١)</sup> ، صاحب « الإعلام في أخبار بيت الله الحرام » سنة ٩٩٠ هـ ، الذي يرجع في أصله إلى أرض الهند ، وخضع لعلمه وفضله سلاطين تركيا ، وأمراء الحجاز ، وأكرموه وبجلّوه .

وكانت إيران تزدهر وتفتخر بالعلامة جلال الدين الدواني ( م ٩١٨ هـ ) والعلامة عماد بن محمود الطارمي ( م ٩٤١ هـ ) والعلامة غياث الدين منصور ( م ٩٤٨ هـ ) الذين أفاضوا العلوم ، وكانت تتفجر منهم ينابيع العلوم الحكمية وقد وصلت أمواج علومهم الزاخرة إلى الهند ، وأوغلت فيها ، وكان من بين كبار علماء هذا العصر الشيخ محمد بن الشيخ أبي الحسن الصديقي الشافعي الأشعري المصري ، الذي يذكر في كتب الرجال « بالأستاذ الأعظم » و « قطب العارفين » كان فريد عصره في بيان دقائق المعاني ، ولطائف الأسرار ونسيج وحده في بيان نظم القرآن والتفسير ، والحديث والفقه ، كان يدرس في الجامع الأزهر ، ويتهافت عليه طلاب العلم تهافت الفراش على النور ، وكان يجمع إلى هذا العلم الغزير صلاح الباطن ، وتقوى السر ، وشياخة الطريق ، وذوق الشعر والأدب<sup>(٢)</sup> ، توفي عام ٩٩٣ هـ ، وكذلك المحدث المحدث الهندي الشهير الشيخ رحمه الله بن عبد الله السندي الحنفي ، وأثبت براعته في فن الحديث وعبقريته فيه ، وكان ملك العلماء العلامة وجيه الدين بن نصر الله الكجراتي - الذي استمر يدرس طوال نصف قرن من الزمن في العلوم النقلية والعقلية وبقى تلامذته يملأون الدنيا علماء وبحثاً ، ويدرسون

---

(١) « نهر واله » في الأصل معرب « انهلواره » وهو اسم مدينة في ولاية كجرات قديماً . فتحها السلطان محمود الغزنوي عام ٤١٦ هـ ، وتسمى الآن بـ « بتن » واليها ينسب العلامة محمد طاهر الفتى مؤلف « مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار » ( م ٩٨٦ هـ ) .

(٢) راجع للتفصيل « النور السافر » ص ٤١٤ - ٤٣٩ .



ويدرسون ويفيدون أكثر من قرن بركة النصف الأخير من هذا القرن ، وتوفى فى أواخر هذا القرن عام ٩٩٨ هـ ، وكانت بلاد اليمن الميمونة - إذ ذاك - مركزاً لرواية الحديث ، والاعتناء بالأسانيد ، وكان محدث اليمن الشيخ طاه بن حسين ابن عبد الرحمن الأهدل يزىن كرسى التدريس لحديث ، وتوفى هو أيضاً فى العام نفسه ٩٩٨ هـ (١) .

بدأت فى هذا العصر رحلات العلماء الأفاضل الذين تتلمذوا على العلامة جلال الدين الدوانى ، والعلامة عماد الدين محمود الطارمى والشيخ مير غياث الدين منصور من إيران إلى الهند ، وجاء فى عهد الملك همايون بن بابر التيمورى ، الشيخ زين الدين محمود كمان كرهدهائى - تلميذ مولانا عبد الرحمن الجامى ، ومولانا عبد الغفور اللارى - إلى الهند ، واستقبله الملك بحفاوة بالغة ، وأكرم مثواه وعظمه ، وتوجه فى عهد الملك أكبر الحكيم أبو الفتح الكيلانى ، والطبيب همايون ( المعروف بحكيم همام ) ونور الدين قرارى ، الأخوة الثلاثة إلى الهند ، وحازوا ثقة الملك والحظوة لديه ، ثم جاء بعد فترة العلامة محمد اليزدى من إيران ، ونزل الأمير فتح الله الشيرازى - وقد مرفى طريقه ببيجاور ، ومكث فيها مدة يسيرة - ببلاط الملك أكبر ، وكان تلميذ الشيخ غياث الدين منصور ، وتولى منصب الرئاسة لعلماء سنة ٩٩٣ هـ ، وهو الذى جلب مؤلفات علماء إيران ، وترك آثاراً بعيدة المدى على المناهج الدراسية ، وأسلوب التدريس فى الهند، حتى كانت نتيجة هذا التأثير أخيراً المنهج الدارسى النظامى (٢) ، الذى لا يزال هو المنهج المقرر ، والسائد على الأوساط العلمية والتدريسية، وسيطر عليها (٣) .

ونقف فى هذا العصر على أسماء لعدد وجيه من العلماء والأدباء المنسوبين إلى «نيسابور» و «استرآباد» و «جرجانى» و «مازندران» و «كيلان» كانوا فى الهند ، ولا سيما فى جنوب الهند ، وكان لهم تأثير على الأمراء ، ومكانة محترمة فى البلاط (٤) .

---

(١) راجع للوقوف على فضائله وسجاياه الطيبة «البذر الطالع» للعلامة محمد بن على الشوكانى .  
(٢) هذا هو المنهج المقبول المقرر للدراسة ، والمقياس للتحصيل الكمال فى شبه القارة الهندية ، وأفغانستان وتركستان أخيراً ، وينسب الى العلامة نظام الدين بن قطب الدين اللكنوى ( م ١١٦١ هـ ) الذى تناوله بالتهذيب والاكمال ، ولا يزال مطبقاً تطبيقاً حرفياً فى مدارس الهند القديمة على غرار الأزهر القديم .

(٣) راجع للتفصيل «الثقافة الاسلامية فى الهند» ( طبع المجمع العلمى بدمشق ) للعلامة عبد الحى الحسى ، ومقالاً له بعنوان « المنهج الدارسى فى الهند » .

(٤) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » ج ٤ .

ولم تكن أفغانستان رغم روح الجندية والعسكرية ، وحمل السيف والسنان ، أقل شأنًا في العلم ، والتدريس ، والتقير في المسائل العلمية ، فكان القاضي محمد أسلم الهروي ، ( الذي توفي في الهند سنة ١٠٦١ هـ ) ود في هرات ، وأخذ العلم عن الشيخ محمد فاضل البدخشاني في أفغانستان وكان الشيخ محمد صادق الحلواني كذلك من جلة علماء عصره ، وكانت «هرات» لو قوعها على تخوم إيران مركزًا للعلوم العقلية ، وقد اشتهر من أبنائها القاضي محمد أسلم الهروي ، ونجده النابغة المعروف بالشيخ محمد زاهد - الذي يعرف في أوساط المدارس الدينية في الهند بـ «ميرزاهد» - في العلوم العقلية ، وطبق صيتهما الآفاق ، وكان لشروح الشيخ محمد زاهد ، التي تعرف بالزواهد الثلاثة صولة وقبول عند العلماء وأساتذة الفن ، ويعتنون بها اعتناء كبيراً ، ويقيسون بمعرفتها العلم والنبوغ .

ولم يقتصر تتلمذ أبناء الهند ، واستفادتهم العلمية على علماء إيران وأفغانستان ، وأساذتها البارعين ، بل استفادوا من علماء مصر والحجاز ، واليمن ، ومحدثيها النبغين ، فكان الشيخ راجح بن داؤد الكجراتي ( م ٩٠٤ هـ ) من تلامذة العلامة السخاوي ، أخذ عنه الحديث ، وأرشده العلامة السخاوي إلى علماء الهند ومشايخها ، ويعلمهم بذلك ، حتى يصححوا موقفهم منه ، ويزول اعتقادهم فيه <sup>(١)</sup> ، وقد ذكر العلامة السخاوي ترجمة تلميذه الهندي في كتابه «الضوء اللامع» واعترف بفضلته ونبوغه العلمي ، وكان الشيخ علي بن حسام الدين المتقي - إمام فن الحديث في عصره - ومؤلف «كنز العمال» - الذي قيل عنه : «إن للسيوطي منة على الدنيا ، وإن لعلي المتقي منة على السيوطي» - كن من التلامذة النجباء لأبي الحسن الشافعي البكري ، مدارس الحرم المكي ، والعلامة شهاب الدين أحمد بن حجر المكي ، مفتي مكة المكرمة ، ومحدثها في عصره .

ظهر لنا مما تقدم أن الهند - رغم إحاطة البحر والجبال الشاهقة بها حيث لم تبو طريق للعلاقة بينها وبين العالم الخارجي ، إلا ممر بولان في بلوجستان وممر خيبر في الحدود الغربية الشمالية - لم تكن بمعزل في الحياة العلمية والثقافية عن البلاد الأخرى ، بل كانت تأخذ وتعطي ، وتستفيد وتفيد وإن كانت استفادتها أكثر من إفادتها ، ودائرة استيرادها أوسع من دائرة تصديرها ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ، لأن الدين والعلم لا يصلان إلى الهند إلا عن طريق إيران وتركستان .

---

(١) راجع «نزهة الخواطر» ج ٤ .

## لاضطراب فى الأفكار ، والفوضى فى العقائد :

إن الدراسة العلمية والدينية ، والسياسية للقرن العاشر تبقى ير مستكملة إذا لم نتعرض ذلك الاضطراب الفكرى ، والفوضى فى العقائد ، التى نلمس أثرها فى الهند ، وفى ما جاورها من البلدان فى العصر الذى نؤرخه حتى تتضح ملامح هذا القرن . والأوضاع لسائدة فيه ، وحتى لا يقع القارىء فى الخطأ ، ويظن أن يحر الحياة الزاخر - الذى كان تد ويفيض على الآف الأميال - كان فى هدوء تام ، وكان من السهل تجديد سفينة التعليم التربية، والتزكية ، والاصلاح والتجديد فيه وأنه لم يكن هناك داع للإشفاق من طغيان نذ البحر ، أو تورط السفينة فى لجته ، إذا كان هذا التصور صحيحا لكان هذا العصر أحق أن يختار له عنوان « التعليم والتربية » و « النشر والتوزيع » يدل من أن يكون له عنوان الإصلاح والتجديد » ولقد تضافرت عوامل كثيرة من أهمها بعد الهند عن مركز بلاد لحجاز ومصر والشام والعراق ووصول الإسلام إلى الهند بعد تعريجه على تركستان وإيران وقلة شيوع اللغة العربية فيها ، وعدم الاعتناء بنشر علم الحديث - الذى لا يزال يثوح الدين الصحيح ويميز السنة عن البدعة ، ويقوى الشعور بضرورة الأمر بالمعروف النهى عن المنكر ، ويوجد ملكة الاحتساب الدينى الصحيح - ومنها صعوبة السفر للحج ، الرحلة فى طلب العلم إلى البلدان الأخرى ، وبقاء أقلية المسلمين مغمورة فى أكثرية غير مسلمين ، وغارقين فى الخرافات والأوهام ، وتضافرت هذه العوامل كلها على تحويل مسلمين مرتعاً خصبا ، للدعوات المضطربة ، والفرق الضالة ، والمحترفين بالدين الذين ترجوا يمثلون دورهم ويجربون حظهم فى إضلال المسلمين .

وكان فى مقدمة هذه الدعوات الهدامة ذلك التشيع المتطرف المهاجم الذى نشأ وترعرع تأثير الإبرانيين فى بعض مناطق الهند الجنوبية ، وفى كشمير ، فقد اعتنق برهان نظام شاه أمير ولاية أحمد نكر - فى أواسط القرن العاشر ، المذهب الشيعى بتأثير الشيخ طاهر بن ضى الاسماعيلى القزوينى - الذى فرّ من إيران خوفاً من الشاه اساعيل الصفوى إلى أحمد نكر ، وسكن هنا - وغلا برهان نظام شاه فى مذهبه الجديد ، وتطرف ، حتى أمر لناس سب الخلفاء الراشدين الثلاثة - علنا وجهرًا - فى المساجد والرباطات ، وعلى الشوارع ، فى الأسواق ، وعين رواتب ضخمة مغرية لمن يقومون بهذه « الخدمة » ، وقتل كثيراً من نبل السنة والجماعة ، وأسر كثيراً منهم<sup>(١)</sup> وانتشر المذهب الشيعى فى كشمير بجهود

(١) راجع للتفصيل « تاريخ فرشته » تأليف محمد قاسم البيجاورى ( وكان محمد قاسم هذا من = =

ميرشمس الدين العراقي ، الذي بذل مساعي كبيرة في نشر هذا المذهب ، وتحمس للدعوة إليه ، ويقال إنه أدخل ٣٤ ألفاً من الهنادك في المذهب الشيعي كما يذكر أيضاً أنه اخترع ديناً جديداً سماه « نور بخشي » ، وألف كتاباً في الفقه ، يخالف فقه أهل السنة وفقه الإمامية كذلك ، ويقولون إن فرقة جديدة نشأت في كشمير كانت تعتقد أن السيد محمد نور بخش « مهدي موعود » (١) .

ولما توجه الملك همايون عام ٩٥٠ هـ إلى إيران لطلب المساعدة العسكرية ، وكسب تأييد المملكة الإيرانية ، كان شاه طهما سب يتولى الحكم فيها فعرض على الملك همايون مذهب الشيعة ، وراوده إلى أن يعتنق هذا المذهب فقال همايون : أرى أن تكتبوا لي جميع عقائد الشيعة ، فلما كتبوا له ، قرأها همايون بنية الإسماع (٢) ، ولا توجد لدينا وثيقة صحيحة تثبت اعتناق همايون للتشيع ، ولكن لا يستبعد بعد إقامته في إيران ، وضيافة شاه إيران له بسخاء وأريحية ، وإكرام وفادته ، وإيواء هذا الغريب ، والمساعدة العسكرية السخية ، وما أنتج كل ذلك من عواطف تقدير وشكر - أن يكون قلبه قد مال إلى المذهب الإمامي ، الذي لم يكن مذهب سلفه التيموريين ، وكانوا متمسكين بالعقيدة السنية والمذهب الحنفي ، وكان بعضهم له ارتباط وثيق بالمشايخ النقشبندية ، فما كان لأفراد أسرته ورجال بلاده ، أن يقبلوه ، أو يفسحوا له صدورهم ، وصحب الملك همايون إلى الهند ، أمراء قزلباش لمساعدته ، وكان الملك همايون في نفسه طيب القلب ، سليم الصدر ، متخلقاً بأخلاق كريمة ، وثقافة واسعة ، يحافظ على الوضوء ، وكان لا يسمى الرسول - ، - إلا على طهارة تأدبا معه ، وتعظيمًا لحرمة ، وكان نازلاً من درج مكتبته يوماً من الأيام إذ سمع الأذان ، فجلس تأدباً ، فزلت قدمه وسقط ، ثم توفي في ١٥ ربيع الأول عام ٩٦٣ هـ .

وكان من خاصة أصحابه وأمراء البلاط ، وأركان دولته بيرم خانخانان الذي كان متفناً في الفضائل العلمية والعملية ، وكان من خيار العسكريين والأمراء النابغين ، يمتاز بركة القلب ، والمحافظه على الجمعة والجماعة ، يكرم العلماء والمشايخ ويحترمهم ، ولكنه يعتقد تفضيل على - رضى الله عنه - على غيره من الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم - وله بيت معروف ، يقول فيه :

== الفرقة الإمامية == .

(١) راجع « تاريخه فرشته » لمحمد قاسم البيجاپورى .

(٢) انظر « منتخب التواريخ » ج ٤٤٥ .

« إن الملك الكبير الذى يبلغ علمه عنان السماء ، إذا لم يكن من خدم على فقد تربت يمينه ، ورغم أنه » .

وكان لمير شريف الأملى اليد الطولى فى العلوم العقلية ، نزل الهند فى عهد الملك الأكبر ، فاستقبله أكبر بحفاوة بالغة ، وعظم شأنه ، وولاه رئاسة كابل عام ٩٩٣ هـ ، ثم رئاسة بنكاله عام ٩٩٩ هـ وأقطعه الأراضى فى أجمير « و « موهان » ، يقول خافى مؤلف « مآثر الأمراء » :

« إنه كان ملحدًا زنديقًا ، خلط التصوف بالفلسفة ، وكان يقول بـ « العينية » .

وكانت - إذ ذاك - فى الهند حركتان هدامتان تشكّلان الخطر على الإسلام ، وتشيران الفوضى والاضطراب فى العقائد والأفكار ، إحداهما حركة ذكرى « التى كانت مؤسسة على عقيدة انتهاء نبوة محمد ﷺ عند انتهاء الألف الأول من الهجرة ، وبداية نبوة جديدة ، ودعوة جديدة لبداية الألف الثانى ، نشأت هذه الحركة فى بلوجستان ونمت وقويت وقد ظهر ملا محمد الذى تزعم هذه الفرقة فى قرية « اتك » عام ٩٧٧ هـ ، يقول مؤلف كتاب « من هم ذكرى » ؟ ، الذى هو الكتاب المعتمد عند هذه الفرقة والحركة - عن مؤسسها ملا محمد :

« ظهر ( ملا محمد ) ليلة الاثني عشر عند السحر ، نازلاً من بلد « قطب » إلى الأرض بالصورة الإنسانية ، وفى كسوة أهل الفقر والزهد ، فى منطقة اتكا الجبلية ، بوضع قدمه المباركين على جبل عال عام ٩٧٧ هـ (١) .

ويعتبر اتباع حركة ذكرى « أن مؤسسها ملا محمد ، أفضل الرسل ، وخاتم النبيين ، نور الأولين والآخرين ، جاء فى « موسى نامه » النسخة الخطية :

« قال الله تعالى : يا موسى لم أخلق نبيًا بعد المهدي ، وهذا هو نور الأولين والآخرين ، الذى سأخلقه بعد (٢) » .

وقد وردت فى كتب هذه الفرقة مثل « معراج نامه » و « ثناء مهدي » و « سفرنامه » « مهدي » و « ذكر إلهي » وغيرها من الكتب عبارات صريحة تدل على العقائد المتطرفة ، فى تنزيه ملا محمد مؤسس هذه الفرقة وتقديسه ، وترجيحه على جميع الأنبياء والمرسلين ،

(١) انظر كتاب « من هم ذكرى لله » ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٨ .

وتفضيله على خاتم النبيين محمد ﷺ ، وتتجلى فيها نماذج غريبة لكذب والافتراء والتدجيل الباطل والجرأة الوقحة على الله ورسوله ، وكانوا ابتدعوا كلمة جديدة إزاء كلمة التوحيد ، وهى « لا إله إلا الله نور باك محمد مهدي رسول الله » ، وكانوا يضحكون على المصلين ، ويستهزئون بهم ويكفرونهم<sup>(١)</sup> ، ويكفرون القائمين بالصوم والزكاة والحج من المسلمين ، ويرون حج جبل « مراد » واجباً بدل حج بيت الله<sup>(٢)</sup> ، يقول مؤلف « تاريخ خوانين بلوج » أن هذه الديانة « الذكرية » المعارضة للإسلام كانت سائدة فى بعض مناطق بلوجستان ، وكان أتباع هذه الديانة يرون قتل المسلمين بجناية إقامتهم للصلوات المكتوبة ومحافظتهم عليها ، فقام الأمير مير نصير خان حاكم بلوجستان بتنفيذ الشريعة الإسلامية وقتال « الذكرين » ومكافحة بدعهم وشركهم وعداوتهم للإسلام ، حتى وقعت معارك دامية حاسمة استؤصلت على أثرها شوكة هؤلاء المارقين وقضى على بدعهم وخرافاتهم<sup>(٣)</sup> .

والفرقة الثانية المشبوهة فى الهند كانت « الفرقة الرؤشنائية » ، وأن ما قامت به هذه الفرقة من مساندة قوة العنصر الأفغانى السياسى والعسكرى الذى آل إلى الانقراض ، ومقاومة السيطرة المغولية التى كانت تمتد شرقاً وغرباً ، وما قامت به فى هذا الصدد من دور كبير<sup>(٤)</sup> ، يجعل كتابات المؤلفين فى هذا العصر وتصريحاتهم ، فى حاجة إلى التأمل الكثير ، والتحقيق الدقيق ، ليعلم إلى أى حد عملت فيه المصالح السياسية ، وما هى حقيقتها التاريخية الصحيحة ؟ ، فإنه يوجد هناك تعرض واسع مدى فى تصريحات أتباع هذه

(١) انظر « اعتقاد نامه » النسخة الخطية .

(٢) راجع مولفات أصحاب الفرقة الذكرية « ذكر توحيد » ( مطبوع ) و « وانا ذكرى » و « تفسير ذكر الله » ( مطبوع ) ، الكتب المذكورة أعلاه ، وراجع ( Bajuchistan District Gazettier ) التى جاءت فيه تصريحات أن عقائد الفرقة الذكرية تختلف عن عقائد أهل السنة اختلافاً جذرياً ( ص ١١٦ من المطبوعة ) .

(٣) انظر « تاريخ بلوج » ، استفدت فى موضوع الفرقة الذكرية من مقال نشر فى مجلة « الحق » الصادرة من « أكوره ختك » مجلد ١٩٧٩ م ، كتبه الشيخ عبد الحق رئيس المعلمين بدار العلوم تربت بلوجستان ، وراجع أيضاً مقالاً بعنوان « دراسة تفصيلية للديانة الذكرية » « مجلة الحق » عدد شهر يناير ١٩٨٠ .

(٤) من الممكن - بالنظر إلى ما كان للتصوف من تأثير وقبول عام فى ذلك العصر - ان يكون بعض الطامحين البعدي النظر يريدون من وراء هذه الحركة جمع شمل الافغان ، وتوحيد كلمتهم تحت راية حركة دينية ، لمحاربة الدولة المغولية الفتية ، واستعادة سلطة الافغان الذاهبة ، واقامة دولتهم من جديد .

الفرقة وحماتها ، تصريحات مخالفيها وأعدائها ، فيسمى أتباعها مؤسس الفرقة بـ «بيرروشن» ( أى الشيخ المنور ) ، ويسميه المعارضون بـ « بيرتاريك » ( أى الشيخ المظلم ) ، وكان مؤسس هذه الفرقة « بايزيد الأنصارى » ، وكان يقال له « بيزروشان » ( اوروشن ) .

ولد بايزيد بن عبد الله عام ٩٣١ هـ فى « جالندهر » قبل تول الملك بابر بسنة واحدة ، ولقد قضى طفولته ويفاغته فى صراع قائم فى أسرته ، وفى عدم اهتمام بشأنه وقلة مبالاة به ، فشبّ ولم يكمل دراسته واتفق أنه فى بعض أسفاره التقى - كما تقول بعض الروايات - بسليمان الاسماعلى ، ويذكر أيضاً أنه صحب « اليوكيين » (١) ، ويقول المترجمون له : إنه بدأ من ذلك الحين يرى رؤى ، ويسع أصواتاً تناديه من وراء الغيب ، فاشتغل بالذكر الخفى ، ثم استغرق فى ورد « الاسم الأعظم » ، فلما بلغ الحادية والأربعين من عمره ، هتف به هاتف من السماء أنه لم يعد فى حاجة إلى الطهارة الشرعية ، وينبغى له أن يصلى صلاة الأنبياء (٢) ، بدل صلاة المسلمين ، ثم جعل يعتقد أن الناس كلهم منافقون ومشركون ، وانصرف إلى « الرياضة الأربعينية » ، ثم أمر بأن يصدع بدعوته ، ويبلغ دينه ، واهتم بدعوى المهديّة ، والالهامات الربانية (٣) وظل مريدوه يزدادون كل يوم ، وعين بعضاً منهم خلفاء ليقوموا بالدعوة والتبليغ ، ويوسعوا نطاق حركته .

ولكن تعاليمه التى وردت فى كتابه « صراط التوحيد » يظهر عليها أثر التعاليم الصوفية الغالية ، والاعتداد بالنفس المتطرف الذى ينشأ عند أصحاب الرياضات والمجاهدات الذين لا يرجعون فيها إلى مرشد روحى خبير ، ولا يحملون العلم الصحيح من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - كما ذكر فيها شيئاً من عقائده وأصوله ، ولعلها عنده أصول الحرب وقواعدها حسب مستوى تلك الفترة التى كان يحارب فيها المغول ، والقبائل الأفغانية المعارضة .

---

(١) أصحاب الرياضات من البراهمة ، والنسك منهم .

(٢) وقد صرح الشيخ بايزيد نفسه فى كتابه « مقصود المؤمنين » : « ان الشريعة مثل لحاء الشجرة وانه لا حياة للشجرة بدون لحاء » ( ص ٤٤٤ ) النسخة الخطية ، مكتبة جامعة بنجاب .

(٣) وقد رد اشخ بايزيد نفسه عى هذا الاتهام بأنه « مهدي » كما جا فى المناقشة التى جرت بينه وبين قاضى خان الكابلى ( انظر النسخة الخطية بجامعة بنجاب ) .

وبايعته عدة قبائل أفغانية بمنطقة بشاور ، ودخلت في دائرة مريديه وأتباعه ، وبدأت قبيلة « مهندزئي » بنشر هذه الدعوة ، وتأثر بذلك السنديون والبلوغيون ، وكتب له النجاح الكبير رغم معارضة العلماء ومشايخ الطرق ، وبعث الشيخ بايزيد دعواته إلى حكام البلدان المجاورة ، وأمرائها وعلمائها فجاء حاكم من هؤلاء الحكام إلى بلاط الملك أكبر ، وقضى عامين وشطر عام من أيام حياته الأخيرة في حرب مع المغول ، وأدركه الأجل عام ٩٨٠ هـ بمنطقة « كالا باني » ، ودفن في « هشت نكر » ، وبقيت من مولفاته ثلاثة كتب ، وهي « خير البيان » و « مقصود المؤمنين » و « صراط التوحيد » ، التي تناول فيها أصل فرقته وعقائدها بالإيضاح والتفصيل ، ويعتبر « خير البيان » و « مقصود المؤمنين » كتابين شبه مقدسين عند أتباع هذه الفرقة ، وكان معارضيه أخوند درويزه ، الذي كان مريداً للسيد علي الترمذي المعروف بـ « بير بابا » ( م ٩٩١ هـ ) ، وألف في الرد عليه كتاب « مخزن الإسلام » ، وألف الشيخ بايزيد ترجمة حياته باسم « حال نامه بير دستكير » ( بالفارسية ) ورتبه على محمد مخلص مع زيادات وإضافات ترتيباً جديداً .

وتفرق أتباع هذه الفرقة بسبب الحروب الداخلية والخارجية الطاحنة ومعارضة العلماء الشديدة في مختلف أنحاء الهند ، وما زال ينقرض عدد المعتنقين لها حتى انقرضوا ، وانقرضت هذه الفرقة (١) .

يتحدث مرزا نصر الله خام فدائي مؤلف « داستان تركتازان هند » ( قصة غزاة الهند ) عن هذه الفرقة ، فيقول .

« إن الفرقة الروشنائية هي تلك الفرقة التي أسسها « بايزيد » أحد أبناء الهند ، أنه دخل في الأفغان وادعى النبوة ، وتسمى بـ « النبي الروشنائي » وكسب أتباعاً وأنصاراً ، فرفضوا الصحف السماوية ونبذوا عبادة الله ، وتفيد أقواله أنه كان يقول بوحدة الوجود (٢) ، ويعتقد أن ليس هناك إلا « واجب الوجود » وكان يمجّد الرسول العربي - ﷺ - وكان يشر الناس بقرب اليوم الذي تخضع فيه الدنيا كلها لحكمه ، يتصرف فيها كما يشاء » .

« ويستفاد من كتاب بايزيد في ترجمة حياته أنه كان مخاطباً بالإلهامات ، وأن جبريل

---

(١) استفدت هذه المعلومات من مقال للمرحوم البروفيسور محمد شفيع تضمنته دائرة المعارف الإسلامية (باللغة الأردية) ج ٤ .

(٢) لم يكن ذلك بدعا في ذلك العصر ، فقد كان أكثر الصوفية والمشايخ ( لا سيما في الهند ) يبالغون في هذه العقيدة ( المؤلف ) .



كان ينزل عليه ، وأن الله شرفه بالنبوة ، وكان هو نفسه يعتقد فيه النبوة ، وكان يصلى إلا أنه لم يكن يرى للتوجه إلى القبلة لزوماً ، وكان يستدل على مسلكه هذا بقوله - تعالى - فأينم تولوا فثم وجه الله « ، لم يكن يرى الغسل بالماء واجباً ، وكان يعتقد جواز قتل معارضية (١) .

وذكر مرآة نصر الله شيئاً من أقواله التي يغلب عليها طابع التصوف ، والمعاني الروحية . إلا أنه يتجاوز إلى آراء غير إسلامية ، وأفكار غير سليمة ، يقول :

« كان أهم ما يعتنى به ويحث عليه ، معرفة الله ومعرفة الذات ، فإذا وجد هندوكياً ، يعرف نفسه ، يرجحه على المسلم الذي لا يعرف نفسه ، ويأخذ الجزية من المسلمين ، وكان يضع الخمس في بيت المال عنده ، ويوزع منه على الفقراء والمساكين ، وكان يضع الخمس في بيت المال عنده ، ويوزع منه على الفقراء والمساكين ، وكان جميع أبنائه يجتنبون الفسق والفجور ، والظلم والعدوان ، له مؤلفات عديدة في العربية والفارسية ، والهندية والبشتوية ، وله كتاب « خير البيان » ، الذي ألفه في أربع لغات ، وهو - كما يعتقدون - كلام الله المباشر إليه ، والصحيفة السماوية ، المنزلة عليه» (٢) .

وتدل كتب التاريخ التي ألفت في عصره ، أن الشيخ بايزيد كان قد جمع حوله عدداً كبيراً من الأفغان ، وكون منهم قوة مهابة ، واستولى على ممر خيبر بعد أن جعل مقره في « كوه سليمان » وكان يقوم بالفارات على القرى المجاورة ، فأنفذ الملك أكبر جيشاً لمقاومته . وكسر شوكته ، ولكن لم يستطع هذا الجيش التغلب عليه واستئصال شأفة هذه الحركة ، واستمر أبناء بايزيد وخلفاؤه بعد وفاته ، على معارضة الحكومة المغولية ، وخطراً دائماً لهذه الدولة ، ولم يستطع كبار قواد الدولة المغولية ، كراجيه مان سنكه ، وبيريل ، وزين خان أن ينتصروا عليهم ، بل إن « بيريل » لقي حتفه في معركة من المعارك معهم ، وباء مان سنكه كذلك بالفشل والخذلان عام ٩٩٥ هـ ، في كرة على الروشنائين ولم يقض على هذه الفتنة إلا في عهد الملك شاه جهان عام ١٠٥٨ هـ (٣) .

(١) انظر « داستان تركتازان هند » ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) نقلاً عن « حال نامه بايزيد » المدرج في « ديستان مذاهب » للملاحسن خاني ، ص ٣٠٦ - ٣٠٩ .

(٣) ملخص من كتاب « داستان تركتازان هند » .

## المهدوية :

وكان من أنشط الحركات المتطرفة وأقواها فى ذلك العصر ، حركة المهدوية ، التى هزت المجتمع الإسلامى فى شبه القارة الهندية ، ، وما جاورها من البلاد هزاً لم يعرفه تاريخ الحركات والدعوات منذ زمن بعيد ، منشئها السيد محمد بن يوسف الجونبورى الذى ولد عام ٨٧٤ هـ ، وتوفى فى أوائل القرن العاشر عام ٩١٠ هـ . إلا أن حركته القوية خلفت آثاراً تمتد إلى أواخر القرن العاشر ، ونستتج مما كتبه المؤرخون المعاصرون لهذه الحركة من معارضين وموافقين ما يلى :

١ - كان السيد محمد الجونبورى من نوابغ الرجال خلقاً وديناً ، وتأثيراً روحياً قوياً ، لا تنجب أمثالهم الدنيا ، إلا بعد قرون وعهود طويلة ، كان شجاعاً جريئاً منذ ريعان شبابه قلقاً على أوضاع عصره ، وظروفه ، صادعاً بالحق ، جاهراً بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، زاجراً عن المناهى ، مشدداً فى الإنكار ، ولقب لأجل هذه الخصال فى عصره بأسد العلماء ، أخذ علم السلوك والإحسان من الشيخ دانيال ، والتزم المجاهدات الشاقة ، والرياضات الشديدة ، قضى أعواماً فى الأودية والجبال ، معتزلاً عن الناس ، وذلك ما يؤدى فى الغالب - لا سيما إذ لم تتن هذه التدريبات الروحية تحت إشراف مرشد خبير ، وإرشاداته وتعاليمه - إلى وقوع الإرشادات الغيبية ، والواردات القلبية التى يخاف منها زلة الأقدام ، والخطأ فى الفهم والتفسير ، ويحمل مثل هذا الإنسان - الذى لم ترسخ قدمه فى العلم ، ولم يبلغ درجة البحث والتحقيق - الكلمات على غير محاملها ، ويفهم الإشارات الغيبية فى غير معانيها ، فكان منه أن ادعى فى رحلة من رحلاته أنه « المهدى » وأعلن بعد ذلك عدة مرات فى أمكنة مختلفة أنه المهدى الموعود ، ودعا الناس إلى الإيمان به .

٢ - وكان - لكثرة مجاهداته ورياضاته ، وقوته الروحية ، واهتمامه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - يملك تأثيراً قوياً ، فكان يسحر الناس بشخصيته ومعاشرته ، ويأخذ بألباب الناس بحديثه وخطابه ، حتى كان من يحضره من العامة والملوك والأمراء ويجلسون عنده ، كأن على رؤوسهم الطير ويستمعون إليه فى دهشة وتأثير وانبهار ، ويهون عليهم رفض المناصب الكبيرة ، والإعراض عن الجاه والسلطان ، والزهد فى الدنيا وهجر الأوطان ، ومرافقته فى السفر والحضر ، والتسليم له والانقياد لأمره ، حدث ذلك مع السلطان غياث الدين شاه الخلجى ، فى عاصمة حكومته « ماندو » و كان ذلك شأن السلطان محمود شاه الكجراتى فى جانبانير بكجرات ، وشوهد له هذا التأثير السحرى العجيب فى « أحمد نكر » و « أحمد آباد » و « بيدر » و « كبركه » حيث تهافت عليه

الناس ، وبإيعه خلق كثير ، وانضم إلى ركبته الاف من الناس ، وشهدت منطقة السند اجتماعاً حاشداً ، وجموعاً متدفقة كالسيل ، وكان لخطابه في « قندهار » دوى عظيم حرك ساكن البلد وهز الأرض ، ومال إليه حاكم قندهار مرزا شاه بيك وأكبره .

٣ - وكانت حياته حياة زهد وتجرد ، واستغناء ، وانقطاع كامل إلى الله - تعالى - وكان الناس يشاهدون منه - سفيراً كان أو حضراً مظاهر الزهد والإيثار والذكر والعبادة ، يوزع الطعام على الناس بالسوية من غير تمييز بين غنى وفقير ، أصله وأفراد أسرته لا يمتازون عن الناس فى شىء ، فكان هذا الجو الإيمانى يؤثر على جميع الوافدين ، فلا يرجعون من عنده إلا معجبين به ، مأخوذين بتأثيره .

٤ - انجبت هذه الحركة رجالاً أقوياء مخلصين يستميتون فى الدعوة ، ويجاهدون فى سبيلها ، ولا يخافون سلطة وسطوة ، ويقومون بواجب «كلمة حق عند سلطان جائر» بشجاعة نادرة وجرأة خارقة ، يتحملون مشاق التعذيب والإيذاء الشديد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد وهبوا نفوسهم ومهجهم فى هذا الطريق راضين مسرورين ، لا يقف انسان على هذه البطولات والمواقف الجريئة إلا بإعجاب وإكبار وانفعال ، ويضطر إلى أن يعترف بتأثير تربية السيد محمد الجونبورى وصحبته .

واقراً - عى سبيل المثال ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوى (الشيخ العلائى - م ٩٥٧ هـ) الذى قام بمسئولية الدعوة ، والوعظ والتذكير فى بلاط السلطان سليم بن شيرشاه السورى ، اقتصر على تحمية الاسلام عند السلطان ، ولم يفعل كما كان يفعله أصحاب البلاط ، والوافدون على السلطان من التزام الكلمات المعينة والانحناء والخضوع . وسضرب بالسياط - ذات مرة - فى حال إصابته بمرض الطاعون ، وإعيائه بعد السفر ، فلم يتحمل هذا الضرب ومات ، وربط جسمه برجل الفيل وطيف به فى العسكر (١) .

٥ - كانت دعوته مؤسسة على خمسة أصول :

(١) الانصراف عن الدنيا .

(٢) العزلة عن الخلق .

(٣) الهجرة عن الوطن .

---

(١) راجع للتفصيل ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوى ، « نزهة الخاطر » ج ٤٥ ، و« منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر البدايوى .

(٤) مصاحبة الصديقين .

(٥) دوام الذكر ( على طريقة حفظ الأنفاس ) ، وكان يرى مشاهدة الرب عز وجل - سواء كانت بالعين أو بالقلب ، فى اليقظة أو فى المنام - شرطاً لازماً لتحقيق الإيمان .

٦ - وقد صدرت عنه فى حال السكر ، أو بسبب خطأه فى فهم المعنى والمراد كلمات وأقوال صريحة ودعاوى واضحة - مرات عديدة - ادعى فيها لنفسه مالا نجد له تأويلاً أو محملاً سائغاً إلا بتكلف شديد ، والتي أدت بأتباعه - مهما كانت نيتهم فى بداية الأمر ، ومهما كانت عواطفهم الدينية الطيبة - إلى استحالتهم فرقة جديدة ، تخالف ما عليه الجمهور وتعرض أهل السنة والجماعة ، تستند إلى هذه الأقوال الشاذة ، وتؤسس عليها عقائدها وأصول ديانتها ، ثم أضاف فيها الغلاة من أتباعهم - كما هو المعروف فى تاريخ الفرق - وبالغوا فى تعظيمه وتقديسه ، حتى ساووه بالأنبياء والمرسلين ، بل فضلوه عليهم أحياناً ، وبلغ به بعض المتطرفين الغلاة إلى مرتبة النبى الاتم - ﷺ - ومتقيداً بالشرعية المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - بلغ ببعضهم الغلو المفرط ، والتطرف الجانح إلى أن الكتاب والسنة إذا خالفا قولاً من أقواله ، أو فعلاً من أفعاله ، فكتاب الله وسنة رسوله تبع لأقواله وأفعاله ، وغلوا غلواً عجيباً فى عقيدة مشاهدة الله - تعالى - فمن لم يشاهد « الأنوار الإلهية » بعين الرأس أو عن طريق القلب أو فى حال اليقظة أو المنام ، فليس بمؤمن ، وبدأ الخليج بين عامة المسلمين وبين هذه الفرقة - بعد ظهور هذه العقائد - يتسع ويعمق على مر الزمان حتى شذت هذه الفرقة المدعوة بـ « المهدوية » عن أهل السنة والجماعة ، وانقطعت صلتها بهم بصورة كاملة ، وضاعت تلك الأهداف التى أنشئت لها هذه الحركة ، وكان يستهدفها مؤسسها ويرمى إليها .

واستمرت آثار هذه الحركة على أفغانستان والهند إلى أواسط القرن العاشر ، وقامت لحمايتها وأنصارها عدة دول فى ولاية دكن ، ويقدر عدد أتباع هذه الفرقة وقوتها السياسية التى ظهرت فى أواخر القرن العاشر بأن جمال خان المهدوى - الذى كان من كبار أصحاب المناصب فى البلاط - لما تولى زمام الشؤون الملكية بولاية « أحمد نكر » ، فى عهد السلطان اسماعيل نظام شاه بن برهان نظام شاه الثانى ( ٩٩٦ - ٩٩٨ هـ ) استمال السلطان اسماعيل نظام شاه - وكان صغير السن إذ ذاك - إلى نحلته ، ثم لم يمض على ذلك كثير زمن حتى اجتمعت لديه طوائف من المهدوية من مختلف أنحاء البلاد ، والتفّ حول جمال خان من المهدويين حوالى عشرة آلاف شخص وخضعت له ولاية أحمد نكر ، واستولى عليها استيلاء كاملاً ثم عاد برهان شاه - وكان قد خرج فى رحلة من الرحلات - إلى أحمد نكر ،

٩٩٨ هـ ، قضى على النحلة المهدوية التي كانت انتشرت انتشاراً واسعاً ، ونشر المذهب الإمامي الذي كان عليه من قبله ، وأحياه من جديد (١) .

وظهر في أواخر القرن العاشر إعياء وضعف شديد في الحركة المهدوية وقد كانت هذه الدعوة ، وادعاءات السيد محمد الجونبوري ، وتشدد أتباعه الغلاة المتطرفين تحدث رجة في معتقدات المجتمع المسلم ، واضطراباً في الأفكار ، وقلقاً في الأوضاع ، وهال ذلك ، وأفزع العلماء الراسخين - في ذلك العصر - الذين كانوا على بصيرة من الكتاب والسنة ، ومعرفة تامة بالعلوم الدينية ، وكانوا يتوجسون خيفة من هذه الفتنة العمياء ويرونها تمهيداً لضلال مستطير ، وانحراف كبير ، فنهض العلامة محمد طاهر الفتني مؤلف « مجمع بحار الأنوار » ( ٩١٣ - ٩٨٦ هـ ) ، وهو أكبر عالم ومحدث في عصره ، بتنفيذ هذه الدعاوى والرد عليها ، وسدّ هذه الثلمة في الدين ، وعاهد الله تعالى على محاربة هذه البدعة - التي سادت في ولاية كجرات وقام لها دعاة وأنصار - والقضاء عليها وأنه لا يلوث العمامة حتى يزهد هذا الباطل ويتنصر للحق ، ثم لما فتح لملك أكبر ولاية كجرات عام ٩٨٠ هـ ، وقابله العلامة محمد طاهر الفتني لاث العمامة على رأسه بنفسه وقال : إن ما عاهدت الله عليه من نصر الدين وحمايته ، واستئصال هذه الفرقة الناشئة ، على تنجيزه والقيام به « ، وولى بعد ذلك مرزا عزيز الدين أخاه من الرضاعة حاكم « كجرات » الذي شدّ أزر العلامة الفتني ، وساعدة في عمله ، حتى كسر شوكتهم ، ولكن لما أقبل مرزا عزيز الدين من هذه الولاية ، وولى مكانه عبد الرحيم خانخانان ، قامت قائمة المهدويين من جديد ، وعادوا إلى نشاطهم ودعوتهم ، وبارزوا في الميدان فحسر العلامة الفتني رأسه من العمامة ، وقصد العاصمة ، وتبعته طائفة من المهدويين ، لم يصل مدينة أجن حتى قتلوه غيلة (٢) .

### أسباب القلق والفوضى في الأفكار :

إن دراسة التاريخ والتعمق في فلسفته يدل على أن الأسباب الأصلية والدوافع القوية لمثل هذا القلق والاضطراب ، والحركات الهدامة الناشئة من ردود الفعل ، والفوضى في المعتقدات والأفكار تتحدد - بصفة عامة - فيما يأتي :

(١) ملخص من تاريخ هندوستان ج ٤ ، تأليف الأستاذ : ذكاء الله الدهلوي .

(٢) راجع « نزهة الخواطر » ج ٤ .

١ - تعارض القول والفعل والعقيدة والحياة ، والتناقض الموجود في المجتمع ، كان يحمل القلوب الحساسة ، والمشاعر المرهفة على القلق والتوجع ، وهذا القلق - عندما يبلغ مرحلة خاصة من مراحل تطوره - يجد متنفساً في الدعوات الثورية ، والحركات الهدامة ، وأصحاب النفوس المضطربة القلقة إذا لم يساعدهم الحظ في إنشاء حركة أو دعوة إيجابية بناءة ، فإنهم يصابون دائماً بالشك والارتياب ، وتزعزع العقائد والأفكار ، وتتحول مثل هذه الحركات - بصفة عامة - إلى دعوات سلبية متطرفة ، ومعتقدات شاذة وتصبح أكثر فساداً وأعمق ضللاً ، وأوسع خطراً واضطراباً للبلاد ، وإثارة للفتن من ذلك المجتمع الفاسد الذي تقوم هذه الدعوات لإصلاحه ومعالجة فساد

ويخيل إلينا أن الترف وكثرة الأموال ، والطمع في المناصب والوظائف والتنافس في الحصول عليها ، جرّ الناس إلى هذا التناقض والنفاق العملي ، وجدت طبقة كبيرة من عبّاد المادة وأبناء الدنيا ، الذي تخطّوا حدود التعاليم الدينية والخلقية ، وتهافتوا على نيل الجاه والمنصب ، وتساقطوا على المتع واللذائذ في حل وغير حل ، غير مبالين بالقيم والآداب والحدود الإسلامية ، وتنشأ مثل هذه الطبقة - دائماً - في ظل حكومات واسعة قوية . في عهود الأمن والاستقرار ، والرخاء ويبدو أن المجتمع الهندي في آخر عهد حكومة الأسرة السورية ، وبعد قيام الدولة المغولية أصيب بهذا الداء العضال ، واتجه هذا الاتجاه المتهور ، ونفذت قوانين معارضة للإسلام وطبقت عادات وأعمال تناوىء الدين ولا تمت إليه بأى صلة (١) ، وقد منيت الدولة الأموية ، والدولة العباسية أيضاً ، بظهور هذه الطبقة المترفة ، وهي الطبقة التي يسميهم سيدنا الحسن البصرى - رضى الله عنه - ( م ١١٠ هـ ) بـ «المنافقين» .

٢ - استبداد الحكام والسلاطين ، وسلطتهم المطلقة ، وظلمهم وعدوانهم وإعراضهم عن أحكام الشريعة الإسلامية ، وعبادتهم للنفس والأهواء ما يحمل الرجال الأقوياء الطامحين على ثورات قوية تهزّ الدولة ، وتلحق الأضرار بالمسلمين .

٣ - غلبة الطقوس والتقاليد ، والاهتمام البالغ بالمظاهر الجوفاء ، وانحطاط المجتمع

---

(١) يستفاد من كتب التاريخ انه في عهد السلطان سليم شاه ( أو أسلام شاه ) كان يجتمع في عاصمة كل ولاية كبار اصحاب المناصب من الأمراء والوزراء يوم الجمعة ، ويوضع حذاء السلطان سليم شاه على كرسى في خيمة كبيرة ، فيحنون رؤوسهم ، ويقرأ عليهم مجموعة القوانين الملكية ( انظر تاريخ الهند للسيد هاشمي الفريد زبادى ، ج ٣ ، ص ٤٠ .

الخلقى والعقلى ، وجمود الأوساط العلمية ، وسيطرة التقليد الأعمى عليها (١) ، وفقدان المناهج التعليمية المليئة بالحيوية والنشاط وبعدها عن الواقعية ، وفقرها فى إقناع العقول المتطلعة ، والأذهان المشككة ، كل ذلك يدفع الناس إلى اعتناق دعوات وحركات تروى ظمأهم ويجدون فيها سلواهم ، وتنهج لهم مسالك جديدة - خاطئة أو صحيحة - وتخرج بهم عن الدائرة الضيقة المحدودة ، كما أن من البواعث الأساسية ، والدوافع القوية ، لهذا الاضطراب الفكرى ، غفلة المجتمع عن تعاليم الكتاب والسنة ، وقلة العلم بالحديث الذى يساعد على تكوين تصور سليم وفهم صحيح للدين ، ويعرف من خلال دراسته مدى بعد المسلمين وانحرافهم عن الإدراك الصحيح لأصول الدين ، والعمل المستقيم وأسوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومنهاج الصحابة والتابعين - رضى الله عنهم أجمعين .

٤ - عدم وجود شخصية دينية قوية تسمو على المستوى العام فى مقدرته العقلية ، والروحية ، تملك التأثير القوى ، وتجذب النفوس ، وتأخذ بمجامع القلوب ، وتزيل الريب والشكوك ، وتعالج الروح القلقة ، والنفوس المضطربة ، وتنفخ فى جسم المجتمع الخامد روحاً جديداً ، وتعيد الثقة والاعتماد على خلود الإسلام ، وصدق الرسالة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، وأن أسباب الرقى والكمال موصولة بها ، راجعة إليها .

وتدلنا دراسة تاريخ القرن العاشر - فى ضوء كتب السير والتراجم ، وسجلات الوقائع والحوادث - على أن هذه الدوافع والأسباب الطبيعية لفوضى والاضطراب تضاعفت فى الهند - على أقل تقدير - بالنسبة للقرون الماضية ، وكان من نتيجة ذلك ، ظهور هذا القلق الفكرى ، والحركات الثورية الهدامة ، على هذا النطاق الواسع فى القرن العاشر .

---

(١) يصور البروفيسور خليك أحمد نظامى رئيس قسم التاريخ فى جامعة عليكره الإسلامية ، هذا العهد ويشخص هذا الداء تشخيصاً صحيحاً ، فىقول :

« كانت أوضاع المسلمين الاجتماعية الخلقية تسير - بسرعة - نحو التدى والانحطاط ، وان ما جاء من القصص والروايات الغربية فى « افسانه شاهان » و « تاريخ داؤدى » تم عن التسفل الخلقى المشين والاضطراب العقائدى العظيم ، ان حياة « الدراوشة » المترفة الناعمة ، وانحراف طلبة العلم ، والعقائد الخرافية ، فى التماثل والحجب وأساطير السعالى والجن ، وروايات « مصباح سليمان » ليست علائم على مجتمع سليم ، ونظام خلقى قويم ، وقد كانت الحركة المهدوية - فى حقيقة الأمر - محاولة للقضاء على هذا الانحطاط العقلى ، والتزمت الفكرى ، والجمود المذهبى ( انظر «سلاطين دهلى كى مذهبى رجحانات - الميول الدينية لدى سلاطين دهلى - ص ٤٥١ » .





## فتنة القرن العاشر الكبرى الاعتقاد ببداية نظام جديد للعالم على بداية الألف الثاني من الهجرة

### مغالطة في قضية الألف الثاني :

تحمل أواخر القرن العاشر الهجرى أهمية كبيرة ، من حيث إن التقويم الإسلامى كاد يطوى فيها مرحلة من مراحل عمره - وهى مدة ألف سنة - ويستأنف مرحلة ثانية ، وهو الألف الثانى اذى يستدىء من ١٠٠١ هجرى ، وليس هذا التحول - فى الأوضاع العادية - أمراً خطيراً ، أو شيئاً يسترعى الأتباء ، فالدنيا - فى عمرها الطويل - والحياة الإنسانية - فى تقويمها المديد - تقلب ورقة من عمرها عند إيدان كل قرن بالرحيل ، وولادة قرن جديد . كذلك كان القرن العاشر على انصرام وارتحال ، والقرن الحادى عشر على وصول واستهلال ، لا أقل ولا أكثر ، ولم يكن ذلك بدعاً من الأمر ، ولا حادثاً لم يسبق له نظير .

ولكن لا يعزب عن البال أن الزمن كان زمن اضطراب شديد فى الأذهان والعقول ، وتزلزل فى العقائد والأصول ، وغفلة عن التعاليم الصحيحة للكتاب والسنة ، وجهل مطبق ، وتفوز من علوم الدين ، واستتكاف عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ - واعتبار علوم اليونان غاية مدارك العقول الإنسانية تسمى بـ « الحكمة » و « مقياس النبوغ والذكاء » والأفق البعيد فى آفاق العلوم الإنسانية ، والمدارك البشرية الواسعة ، وكان شق الشعرة ، وصنع القبة من الحبة ، فى البحوث المنطقية والفلسفية والكلامية ، هى السدرة المنتهى والغاية الكبرى من المناهج الدارسية ، وفى الأوساط العلمية ، وعمت فيها الاستهانة بقيمة العلوم النبوية ، والوحي والتنزيل ، والنصوص القرآنية التى لا يأتيتها الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ويعتبر الإيمان بها والأدغان لها جهلاً وتقليداً أعمى ، ومعاداة للعقل والتفكير ، هذا ، وكانت الثورة ضد حكومات ذلك العصر ، ونظمه السياسة . التى كانت تستند - مخلصه و غير مخلصه - إلى الدين ، وتعتمد للحفاظ على سلطتها عليه ، «موضة» العصر وشعار الأحرار .

كل ذلك سبب وجود بعض المغامرين الطامحين الأذكياء المتسلحين بعلوم عصرهم ،

فأصبحوا يحملون بالسلطة ، ونيل الجاه س ، والريادة والقيادة للعصر الجديد ، وتدغدغ<sup>(١)</sup> قلوبهم الأمنى المعسولة باستغلال تقلب الليل والنهار ، وأن يستمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم ، ويستفيدوا من تداول الأيام بين الناس ، كما استفاد مؤسسو الديانات - فى زعمهم - فى العصور التى كانوا فيها ، وأن يبدأ بدعوتهم وحركتهم تقويم جديد فى تاريخ الشعوب والبلاد ، كما بدأ التقويم الإسلامى الهجرى بدعوة نبينا محمد - ﷺ - ، وظهوره فى جزيرة العرب والذى كان بداية عهد جديد ، وتاريخ جديد احتضن العالم كله ، واعتبروا انتهاء الألف الأول فى تقويم العالم وتاريخ هذا الدين ، واستئناف الألف الثانى حدثاً كبيراً ، وفرصة ذهبية سانحة لا تأتى بسهولة ، وفى فترات قريبة ، فلو أضاعوا هذه الفرصة الذهبية ، كان لابد من انتظار ألف آخر ، ولا سبيل إليه ، فليس من الفطنة والكياسة - كما ظنوا تفويت هذه الفرصة ، وإلا فسوف يندمون ولات ساعة مندم .

إننا لنشهد ظلال هذه الفكرة ، واثار هذه الأمنى الحاملة فى مختلف مناطق العالم الإسلامى فى النصف الأخير من القرن العاشر ، لا سيما فى منطقة إيران - وهى جديرة بأن تسمى فى ذلك العهد بيونان الشرق - التى كانت أكثر مناطق العالم الإسلامى قلقاً واضطراباً ، وذكاءً ، وشدة حاسية ، توغلاً فى العلوم العقلية اليونانية ، وافتتاً بها ، وكان الألف الأول من التقويم الهجرى على وشك الانتهاء وكان ذلك للمرة الأولى بعد ظهور الإسلام وكان الألف الثانى يستعد لبدأ دوره فى التاريخ ، وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة ظهور مجدد على رأس كل مائة سنة<sup>(٢)</sup> ، ويشهد عليه التاريخ ، فكان بعض الأذكياء يحكمون - عند بداية الألف الثانى - بنهوض مؤسس للدين الجديد ، مكان مجدد للدين القديم ، لما بين مائة سنة وألف سنة من الفرق الواسع ، والتفاوت العظيم ، وبدأ كثير من هؤلاء المغامرين الحالمين يحاولون أن يرشحوا نفوسهم لهذا المنصب الجليل ، ولم يكتب - مع الأسف - تاريخ مرتب يعنى عقلية هذا العصر ، واستعراضه فكرياً ونفسياً ، وتتجلى فيه ظلال العواطف الخواطر المعتلجة فى القلوب ، والأحلام والأمنى السارية فى النفوس ، والتصورات والأخيلة المتحركة فى الأذهان ، فإن كتب التاريخ القديمة والحديثة ، تدور كلها حول البلاط والملوك ، وتروى لنا قصص تداول الحكومات وانقلاب الدول ،

(١) الدغدغة تجميش فى مواضع من البدن كأخمص القدم والابط يهيج له الضحك .

(٢) مما رواه أصحاب السنن : «ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» .

والفتوح والهزائم ، وعطايا الملوك ، وعزل الأمراء والولادة ونصبهم ، وأحوال الترف والبذخ وروايات الحرب والضرب ، فلو كان بين أيدينا تاريخ مدون لعقلية العالم الإسلامى وفكره فى القرن العاشر لرأينا بوضوح أنه عند قرب طلوع الألف الثانى راود الأمل كثيراً من النفوس ، وداعبت الأمنى والأحلام كثيراً من القلوب ، وأنهم بدأوا يجمعون العدة والعتاد للتربع على عرش القيادة ، ويمدون أطناب سيادة جديدة لعصر جديد .

لقد طوى بساط دعاء الخلق إلى الله وتزكية النفوس ( التى سميت فى العهد الأخير بالتصوف ) بعد قيام الدولة الصفوية التى جعلت المذهب الشيعى مذهباً سائداً فى إيران ، وبالرغم من أن الجَدَّ الأول لمؤسسى هذه الدولة الشيخ صفى الدين كان صوفى المشرب والمسلك ، ولكن لما أن التشيع يعادى التصوف ، عادت إيران - فى عهد هذه الدولة الصفوية - التى أنجبت أمثال الامام الغزالى الطوسى ، والشيخ فريد الدين العطار النيسابورى ، مولانا جلال الدين الرومى <sup>(١)</sup> ومولانا عبد الرحمن الجامى من العارفين المحققين ، والتى اتحفت ببغداد ، و « دهلى » و « أجمير » : سيدنا عبد القادر الجيلاتى ، وشيخ الشيوخ شهاب الدين السهروردى ، والشيخ معين الدين الجشتى ، والشيخ قطب الدين بختيار الكعكى الأوشى - لا تعرف إلا العلوم العقلية اليونانية ، أو « الحرفية » المذهبية اطائفية ، وعاد علم الحديث - الذى كانت إيران مركزاً كبيراً من مراكزه والتى أسعدت التاريخ الإسلامى بأمثال الإمام مسلم بن الحجاج القشبرى النيسابورى ، وأبى عيسى الترمذى ، وأبى داؤد السجستانى ، وابن ماجه القزوينى ، وأبى عبد الرحمن النسائى من أئمة الحديث وأصحاب الكتب الخمسة ، لا يعرف له أنيساً ولا جليساً ، واختفت معالم الكتاب والسنة ، واحتلت العلوم اليونانية من المنطق والفلسفة مكان الصدارة ، وأصبحت مقياس الفضل والكمال ، وأن هذه الثورة على العلوم الإسلاميه الأصلية التى كانت قطعت صلة هذه البلاد الخصبة ، الغنية بالعبقريات ، على صحابة الرسول - ﷺ - وسنته وأحاديثه ، أضعفت صلة الطبقة المثقفة الذكية - فى البلاد - بالنبوة المحمدية ، وعقيدة ختم الرسالة وخلود الإسلام ، وصلوحه للبقاء ، وإن لم تقطعها بصورة كاملة ، وأنه لو لم يكن الانتماء إلى أهل بيت النبى - ﷺ - على أساس التشيع - والاعتقاد فيهم ، لكان يحلق على هذه البلاد خطر العودة إلى المجوسية ، وحضارة ما قبل الإسلام ، وعهد رستم ، واسفنديار أبطال « الشاهنامه » ( الملحمة الإيرانية للفردوسى ) وتحولها

(١) كان من سكان بلخ الواقع فى خراسان - أصلاً وهو يقع الآن فى أفغانستان .

جاهلية بعدما دخلت في الإسلام .

ولا يستبعد - في مثل هذه الأوضاع المتردية بإيران - نشوء حركات هدامة ومؤامرات عقلية وفكرية للقضاء على الإسلام وهدم كيانه وقد بلغت هذه الفكرة أوجهاً في « الحركة النقطنوية » التي ظهرت في أواخر القرن التاسع ، وأوائل القرن العاشر ، والتي تدل على الروح القلقة في إيران التي ظهرت في صورة « مزدك » تارة ، وفي مسلاخ « ماني » تارة ، وفي لباس حسن بن الصباح أخرى ، وكانت حركة إلحاد وزندقة ، يقول سكندر منشي :

« تعتقد هذه الفرقة بقدوم العالم كاعتقاد الفلاسفة ، ولا تؤمن ببعث الأجسام الإنسانية ، وبالحشر إطلاقاً ، وتعتبر الراحة والذلة في الدنيا مكان الجنة والنار عقاباً أو ثواباً على الأعمال الحسنة أو السيئة (١) » .

ويقول شاه نوازخان عنهم :

« علم » نقطة « عبارة عن الإلحاد والزندقة والإباحية ، واستحلال كل شيء ، إنهم يعتقدون كالفلاسفة المتقدمين بقدوم العالم ، وينكرون الحشر والنشور ، ويرون ضيق الدنيا ورخاءها ثواباً أو عقاباً على حسن الأعمال أو قبحها بدل الجنة والنار (٢) » .

إنهم يقولون بنظرية النشوء والارتقاء ويزعمون أن النباتات والجمادات تطورت إلى أن أصبحت إنساناً (٣) ، وليس لقدرة الله - تعالى - أي دخل في زعمهم في الإنبات ، بل هو نتيجة تأثير العناصر والكوكب (٤) . ويعتقدون أن القرآن الحكيم من تأليف محمد بن عبد الله - ﷺ - وأن الأحكام الشرعية هي آراء الرجال ، ويستنهضون بالصلاة ، والحج ، والأضحية (٥) ويسمون شهر رمضان « بشهر الجوع والظمأ » ويسخرون من أحكام الطهارة والغسل (٦) ، ولا يؤمنون بحرمة النساء المحرمات ، وينكرون الأمور الماثورة ويدعون إلى

(١) انظر « تاريخ عالم ارائي عباس » ج ٢ ص ٣٢٥ .

(٢) مآثر الأمراء ج ٢ ، ص ٦١٩ .

(٣) دبستان مذاهب ص آ ٣٠٠ .

(٤) انظر « مبلغ الرجال » ورقة ٢٥ - النسخة الخطية الموجودة في جناح مولانا آزاد ، بمكتبة جامعة عليكرة الإسلامية .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق .

الأمور العقلية (١) .

ويقال إن مؤسس هذه الفرقة رجل يدعى « محمود بسيخوانى (٢) » ، وقد أثرت هذه الفرقة - فى القرن العاشر الهجرى - على آلاف من أبنا الهند وإيران وبلغ عدد أتباعها فى إيران وحدها إلى الألف المؤلفه ، وكان النقطويون يعتقدون أن المدة بين النشأة الأولى على الأرض إلى عهد محمد سيخوانى تبلغ ثمانية آلاف سنة ، وكان هذا العهد الطويل عهد ازدهار العرب وسيادتهم إذ أن الأنبياء والمرسلين على مدى هذه الأزمان المتطولة كانوا يعيشون فى العرب فحسب ، وأن ظهور محمود بسيخوانى قضى على السيادة العربية (٣) ، فلا يبعث نبى أو رسول إلى ثمانية آلاف سنة أخرى ، إلا فى الشعوب العجمية (٤) .

إن للعقيدة الأساسية التى نادى بها محمود بسيخوانى ، وهى « أن الدين الإسلامى أصبح منسوخاً ، فلا مناص من قبول الدين الجديد الذى جاء به محمود » (٥) و « إن الإسلام قد استنفد دوره ، وقضى عمره فمست الحاجة إلى دين جديد ، صلة خاصة بالعمل التجديدى الذى قام به الإمام السرهندى ، ويدل إعلان هذا الدين الجديد وظهوره فى القرن العاشر على وجود هذه «العقيدة الألفية» لديهم، وأنهم - منذ طلوع الألف الثانى

---

(١) المصدر السابق ، استفدت فى هذا الموضوع من كتاب « الدين الإلهى ، وخليفته » للبروفيسور محمد أسلم ، وكتاب « الدراسات التاريخية والأدبية » للدكتور نذير احمد جامعة عليكراه الإسلامية ، (وكلاهما فى آردو) ، وراجع أيضاً أن شئت التفصيل والمعلومات الصحيحة ، النقطويون أو البيساخانيون » للدكتور صادق كيا ، ( بالفارسية ) .

(٢) أعلن محمد البسيخوانى أو البيسخانى الكيلانى ظهور هذه الديانة الجديدة عام ٨٠٠ هـ فى استر اباد ، وتوفى عام ٨٣٢ هـ ، وتأسست هذه الفرقة فى إيران فى أول القرن التاسع ، وظلت تنمو وتقوى حتى كان أتباعه فى القرن العاشر والحادى عشر ، بلغوا الآلاف المؤلفه فى الهند وإيران ، ويذكر المؤرخون الإيرانيون ، والمؤلفون المسلمون هذه الفرقة باسم « الملاحدة التناسخية » وأهل الزندقة الاحاد ، ولما ان محمود بسخانى يعتقد خلق كل شىء من الطين ، ويسمى الطين « لفظه » أو استعان فى بيان مفاهيم القرآن - فى زعمه - بعدد الحروف والنقط - سميت هذه الفرقة بـ «النقطوية أو أهل النقطة » . من مقال « نظرة عابرة على الفرقة النقطوية » المذكور فى « الدراسات التاريخية الأدبية للدكتور نذير احمد باختصار وتلخيص .

(٣) ولحمود أو لبعض مريديه بيت يقول فيه : « لقد جاءت نوبة أتباع محمود ، وذهب ما كان يتعاطم به العرب على العجم » .

(٤) « ديستان مذاهب » ، ص ٣٠١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

يبدأون بحركتهم ودعوتهم بجد واجتهاد .

عامل شاه عباس الصفوى فى إيران أتباع هذه الديانة النقطوية ، معاملة شديدة ، فقتل الألو ف منهم ، وكان شاه عباس أشد من سابقه فى عقاب هؤلاء المارقين ، ولم تكن هناك فرقة - فى نظر الشاه - أعظم خطراً ، وأكبر ضرراً من هذه الفرقة ، فقام سنة ١٠٠٢ هـ بعملية واسعة للتكيل والتقتيل والتشريد ، ففر كثير منهم بسبب هذا التكيل والتشريد إلى الهند ، وكان منهم الشيخ حياتى الكاشى ، الذى بقى فى السجن عامين ، ثم أفرج عنه ، فقصده شيراز ، ثم مكث فى وطنه أياماً عام ٩٨٦ هـ ، توجه على إثرها إلى الهند ، وكان هو فى أحمد نكر عام ٩٩٣ هـ وكان شريف الآملى - الذى يعد من العلماء النابغين - ذا صلة وثيقة بكبار أصحاب هذه الفرقة ، سافر إلى الهند بعد ما ضاقت عليه أرض إيران ، وضاق ذرعاً بأهلها ، وكان الملك أكبر يعامله معاملة المريد لشيخه ، ويرى بعض المحققين أن شريف الآملى كان يستدل بكتابات محمود بسيخوانى على ظهور الدين الجديد ويرغب الملك فيه ، ويستميله إليه ، وأخبره بنبوءة محمود أنه سوف يظهر فى عام ٩٩٠ هـ رجل يحو الباطل ويقيم الدين حق .

ويجمع البدايونى وخواجه كلان<sup>(١)</sup> ، على أن شريف الآملى فرّ من إيران إلى بلخ ، والتجأ إلى زاوية الشيخ محمد زاهد بن الشيخ حسين الخوارزمى وظل يعيش هناك فى مظهر المتصوفة ، ولما لم تكن طبيعته تسائر التنسك وتنسجم معه ، اتخذ شعاره الدعاوى الفارغة ، والشطحات الجوفاء ، والكذب والافتراء ، ولما اطلع الشيخ زاهد على عقائده ، طرده من زاويته ، ففرّ إلى دكن ( جنوبى الهند ) .

وكانت بلاد الدكن آنذاك - يسيطر التشيع ، ويصول فيها ويجول فلما وصل إليها شريف الآملى استقبله أهلها كعالم شيعى كبير ، وبالغوا فى الحفاوة به ، ثم لما عرف الناس ما فى عقائده من زيغ وضلال ، قصدوا لايدائه وتعذيبه .

وكما يقول البدايونى : « أراد حكام الدكن أن يقتلوه » ثم قرروا بعد أن يركبوه الحمار ، ويطوفوا به ويشهروه<sup>(٢)</sup> .

وأسند إليه الملك أكبر قيادة الجيش المكون من ألف جندى ، وجعله من المقربين لديه<sup>(٣)</sup>

(١) هو الشيخ خواجه عبيد الله ( بن الشيخ الكبير عبد الباقي النقشبندى ) مؤلف « مبلغ الرجال » .

(٢) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٣) انظر « مبلغ الرجال ورق ٣٢ » .

ونصبه داعياً في بنكاله « إلى الدين الإلهي » ، وكان من أخصر أصحاب الملك أكبر وأصدقائه الأربعة ، وكان ينوب عن الملك في مخاطبة أتباع الدين الإلهي ومريديه ، والمعتقدين فيه (١) .

وجاء في « مائر الأمراء » : « اشتغل بالتصوف وبيان الحقائق ، وخلطه بالزندقة والإلحاد ، ادعى نظرية « الوحدة » ، وقال عن كل شيء إنه الله (٢) » ، وتفيد بعض كتب التاريخ المعاصرة أن أبا الفضل العلامي (٣) كان متأثراً بالحركة النقطوية ، ولما قتل شه عباس الصفوي أكبر دعاة الحركة النقطوية وأعظم المسؤولين عنها الشيخ ميرسيد أحمد الكاشي ، ووقف على وثائقه ، والأوراق التي تركها ، فكانت فيها من بين مجموعة الرسائل رسالة لأبي الفضل العلامي وجهها إليه ، يقول معاصره المؤرخ سكندر منشي في كتابه « تاريخ عالم آرائي عباس » :

« أخبرنا بعض الوافدين من الهند أن أبا الفضل بن الشيخ مبارك الذي هو من علماء الهند ، وله مكانة وحظوة عند السلطان ، يعتقد هذه الديانة وأثر على الملك أكبر ، ودعا إلى التحرر من القيود وانحرف به عن جادة الشريعة ، وأن رسالته التي كتبها إلى مير أحمد الكاشي ، والتي عثر عليها في وثائقه ، تدل على أن أبا الفضل كان من أتباع الحركة النقطوية (٤) .

ويقول خواجه كلان في كتابه « مبلغ الرجال » عند ذكره لمحمود بسيخواني :  
« نشر الشيخ أبو الفضل الناكوري بساط ذلك القانون الخاسر الكاسد في بلاد الهند (٥) » .

ويمكن أن يقدر من خلال هذه الشواهد التاريخية ما قام به دعاة الحركة النقطوية ، وأنصارها في الهند ، من بسط النفوذ وتجهيز عرش الدولة لدين جديد وعهد جديد على طوع الألف الثاني ، وقانون جديد ، وكانوا في حاجة بعد هذه الخطوة التمهيديّة إلى شخصية قوية تملك السلطة وتتولى زمام البلاد ، ولم يكن هناك شخص أجدر وأحق بهذه المسؤولية - في نظرهم - من الملك أكبر .

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

(٢) مائر الأمراء ، ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٣) هو من أخصر أصحاب السلطان جلال الدين أكبر ، والعقل المفكر الموجه في دينه الجديد وسياسته العلمانية الهندكية ، يشغل الحديث عنه حيزاً كبيراً في هذا الكتاب .

(٤) مستفاد من مقال « نظرة عابرة على الفرقة النقطوية » المنشورة في كتاب « الدراسات التاريخية والأدبية » ، للدكتور نذير أحمد ، ص ٢٦١ .

(٥) « مبلغ الرجال » ورق ٢١ ، وانظر ورقة ٣٢ - ٣٣ أيضاً .

## الباب الثاني

عهد الملك أكبر ، والفترتان المتعارضتان في حياته

حياة الملك أكبر الدينية ، وتدينه :

يجمع المؤرخون للهند ولعهد الملك أكبر - بصفة خاصة - على أن « أكبر » بدأ حكمه ومباشرته للإدارة ، ملماً راسخ العقيدة ، متنسكاً مع التفشف في الحياة والمغالاة في العقائد ، ونقتطف للدلالة على ذلك من الكتاب الشهير « منتخب التواريخ » للعلامة عبد القادر البدايوني ( م ١٠٠٤ هـ ) - الذي يعد من مشاهير العلماء وكبار مؤلفي البلاد في العهد الأكبرى ، ومؤرخى عهده - وقائع متناثرة من تلك الفترة الأولى لعهد الملك أكبر ، ونبذة من أحواله وسيرته ، حين كان مسلماً ساذجاً على طريقة سلفه الملوك من آل تيمور ، وكان - لعدم تلقى الدراسة ، وتأثير البيئة المحيطة ، وتقاليد عصره - الذى عمّت فيه البدع والمغالاة في تعظيم المشايخ ، واعتقاد مكانهم من الله ، وشفاعتهم للناس ، وزيارة الضرائح والمشاهد - يشد الرحال لزيارة قبور الصالحين من المشايخ المعروفين ، وكان يعاقب الناس على مخالفة عقائد الجمهور ، وقلة التدين ، وضعف الاعتقاد ، وكان يقدم النذور إلى ضرائح الأولياء والصالحين ، ويشتغل بالأذكار والأوراد فى شغف واستغراق ؛ ويصاحب العلماء والصالحين ، ويحضر مجالس « السماع » .

ولا بأس بنقل تصريحات العلامة عبد القادر البدايوني عن تدين الملك أكبر ، ومغالاته فى العقيدة والدين ، إذ أن ذلك مما اتفق عليه المؤرخون ، وهو جانب مشرق من حياة « أكبر » فلا يتهم الشيخ عبد القادر بالنيل منه ، والحط من شأنه ، وأنه كتب ذلك تحت ضغط عاطفة الكره والمعاداة ، أو التعنت والعناد .

أما الفترة الثانية من حياة املك أكبر - وهى الفترة التى قام فيها بنشر نظرية « الدين الإلهى » والدعوة إلى عقيدة وحدة الأيان ، والنفور من الإسلام والتسامح البالغ مع غيره من الديانات ، والموقف المعادى المعاند من الدين الإسلامى - فإننا نأخذ بالحيطه فى ذكر تفاصيلها والاقْتباس مكان تصريحات الشيخ عبد القادر التى أثار بعض الأوساط - أخيراً - الغبار حول صحتها وثبوتها وحيادها التاريخى .

فقد ظهرت حركة تأليفية منظمة - تشبه خطة مدبرة - فى الهند فى الستينات يقودها



بعض الأساتذة فى الجامعات ، والمؤلفون العلمانيون لتنفيذ كتابات العلامة عبد القادر البديونى وتصريحاته فى ما يتصل بالفترة الثانية من عهد الملك أكبر ، فيحملونها على التعصب الدينى ، والمعارضة الشخصية والتعنّت ضد الملك أكبر ، ويشيرون الشكوك والشبهات حول كتابه « منتخب التواريخ » ويقللون من قيمته العلمية والتاريخية وذلك يقوم على أساس إيجابى علمى وشواهد تاريخية أمينة ، أن أساس هذه التهمة يبنى على العاطفية ، واعتقاد عظمة الملك أكبر ، والنزوع إلى براءة ساحته من كل تهمة لأنه هو وحده - من بين ملوك المسلمين - يتفق مع الاتجاه العلمانى الحديث ، والتحرر من ربة الدين ويجدر لأن يتخذ زعيماً ، أو مثلاً كاملاً للسياسة اللادينية ، أو القومية الهندية ، المجردة من كل دين أو عقيدة ، وذلك نتيجة الأغراض السياسية ، بعيدة النظر والمرامى ، أو الأهداف الشخصية ، من نيل الجاه والشهرة والزلفى .

وكل من يراجع كتاب « منتخب التواريخ » بحياد وإنصاف ، لا بد أن يعترف بصدق المؤلف وإخلاصه ، وتوجهه للأوضاع ، وجراءته ، وصراحته بكلمة الحق ، وإن من له إلمام واسع بكتب التاريخ ، ودراسة طويلة لها تنشأ فيه ملكة التمييز بين الروايات التاريخية والأساطير الخرافية ، ويقدر على تقييم المؤلف ، وتحديد مكانته ومنزلة كتابه ، وينقد الزيف والصحيح كالصير فى الماهر ، يقول المؤرخ الانجليزى الشهر « ELLiot » معلقاً على كتاب « منتخب التواريخ » : « ليس هناك إلا القليل من المؤرخين الذين يريدون أن يبدوا عواطفهم كما يريد البديوانى ، لا سيما ما تكون ثقيلة على مسامع الملوك ، أو الذين يصرحون بأخطائهم وزلاتهم من غير مبالاة وفى غاية الوضوح (١) » .

وأما عند إبراز الجانب المعادى للإسلام فى حياة أكبر فلا تقتصر على شهادات الشيخ عبد القادر ، بل قد نسوقها أحياناً تأييداً لتصريحات بطانة الملك أكبر ، وأركان دولته المخلصين الأوفياء ، وبيانات المؤرخين المحايدى لعصره وبلاطه .

واقراً - فيما - يلى - التصريحات التى جاءت فى « منتخب التواريخ » عن حياة الملك أكبر الدينية فى الفترة الألى :

« وتجشم الملك عناء السفر مشياً على الإقدام إلى « أجمير (٢) » شكراً لله تعالى على

(١) انظر ج ٥ ، ص ٤٨٠ .

(٢) مدينة مشهورة فى الهند ، فيها ضريح الشيخ الكبير معين الدين الجشتى (م ٦٢٠ هـ) الذى كان له فضل كبير فى انتشار الاسلام فى شبه القارة الهندية ومن أكبر شيوخ الطريقة والأولياء شهرة فى الهند .

ولادة ابنه سليم ، وعرج على دهلى فى الرجوع منه ، وزار قبور الأولياء والصالحين<sup>(١)</sup> .  
توجه إلى « أجودهن » وزار شيخ المشايخ فريد ادين كنج شكر ، وعاقب مرزا مقيم  
الأصفهاني مع مير يعقوب الكشميرى على تهمة الرفض و « التشيع<sup>(٢)</sup> » .  
« سافر إلى « أجمير » فى أوائل شعبان ، ومشى سبعة فراسخ على الزقدام ، حتى  
زار الضريح ، ونذر الطبول ، وقضى وقتاً طيباً فى مصاحبة العلماء والصالحين ، وحضور  
مجالس الغناء<sup>(٣)</sup> » .  
« وكان يشتغل - باستغراق - فى ذكر « ياهو » و « ياهادى » فى مصلاه ، ( وجاء فى  
حوادث عام ٩٨٠ هـ حديث ضافت لبناء ثلاث عمارات خاصة بعبادته<sup>(٤)</sup> » .  
« كان يطلب - كل ليلة الجمعة - فى مصلاه الأشراف والمشايخ والعلماء ويحضر الملك  
حلقة من العلماء ، ويباحثهم فى المسائل والأحكام ، وصدر الأمر فى هذه الفترة إلى  
القضى جلال وغيره من العلماء بتفسير القرآن الكريم<sup>(٥)</sup> » .  
ويذكر فى وقائع عام ٩٨٦ هـ مصاحبة العلماء والمشايخ ، ومجالستهم ، وإحياء ليلة  
الجمعة ، فى مصلاه بـ « فتح بور سيكرى » .  
ولما خرج خان زمان على الملك أكبر ، وأعلن الثورة ، قام الملك إلى قبور الأولياء  
والصالحين لدعاء عندها قبل أن يتوجه لمقاومة خان زمان ومحاربتة<sup>(٦)</sup> .  
« وأطلق رجل كان يدعى فولاذاً سهماً على الملك بإشارة شرف الدين حسين عند  
مروره بمدرسة « خير المنازل » التى أسسها وعمرها « ما هم أنكه » وأصيب الملك بجرح  
خفيف ، برىء منه - بعد معالجته لأيام قليلة - فكان يعدّ النجاة من هذه الحملة الباغية -  
كما يقول البدايونى - كرامة أولياء دهلى ، وتنبهها غيباً له<sup>(٧)</sup> » .

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٤ .

(٣) ايضاً ص ١٨٥ .

(٤) ايضاً ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٥) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٦) ايضاً ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٧) ايضاً ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

وحضر - مرة - فى طريقه إلى أجمير ، فى خدمة الشيخ نظام النرنولى ، الذى كان من المشايخ الصالحين المعروفين ، وذاع صيت زهده وورعه فى الآفاق (١) .

« وزار سنة ٩٨٠ هـ ضريح السيد حسين خنك سوار فى أجمير ، ثم زار - بعد سنوات - قبر الشيخ قطب جمال فى إعتقاد وحب وإكبار ، وقرأ الفاتحة (٢) » .

« وكان يعظم الشيخ سليم الجشتى ويعتقد فيه ، وبني على قبره قبة فخمة باهتمام بالغ ، ولأجل هذا الإجلال التعظيم للشيخ سليم الجشتى سمي ولى عهده ( جهانكير ) الذى ولد - كما يقال - بدعائه ، « سليم » ، وكان الملك بعث بعقيلته الملكة « جودها بائى » إلى بيت الشيخ قبل الولادة ، حتى تكون موضع عناية الشيخ واهتمامه ، وتسعد بدعائه (٣) » .

وولد ابنه مراد كذلك فى بيت الشيخ سليم (٤) ، ولما أصبح ولى عهده ، سليم (جهانكير) فى سن يبدأ فيها القراءة وأول ما يقرأ الطفل يكون «بسم الله الرحمن الرحيم» وهى عادة تسمى « باحتفال التسمية » فى الهند - طلب من المحدث الشهير الشيخ ميركلان الهروى أن يشرف بهذه المناسبة فحضر وأقرأ « سليم » « التسمية » بحضور الملك مع جمع من أعضاء الدولة وأركان المملكة (٥) .

وحينما بدأ ولى العهد فى القراءة والكتابة ، أمره أن يذهب إلى بيت الشيخ عبد النبى ، يدرس عليه الحديث ، فقرأ عليه الأربعين حديثاً من جمع الشيخ مولانا جامى (٦) ، وكان الملك أكبر يبالغ فى تعظيم الشيخ عبد النبى - حفيد الشيخ عبد القدوس الكنكوهى والمتبوأ على منصب « صدر جهان » فى عهد الملك أكبر - حتى كان يقصد بيته ، ويحضر درسه ، وقام - مرتين - بوضع نعليه عند احتذاء الشيخ لهما (٧) .

« وأقطع الشيخ محمد غوث الكواليارى - الذى كان شيخ الطريقة الشطارية المعروف - أرضاً كان دخلها السنوى عشرة ملايين « دام » لينفقه على نفسه ، وكان يتلقى ابنه الشيخ

(١) أيضاً ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٢) أيضاً ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

(٣) أيضاً ج ٢ ، ص ١٠٨ .

(٤) أيضاً ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٥) أيضاً ج ٢ ، ص ١٧٠ .

(٦ ، ٧) أيضاً ج ٢ ص ٢٠٤ .

ضياء - بعد وفاة والده - بالإكرام والإجلال (١) .

وقد كان الملك أكبر ورث هذا الإجلال للمشايخ والحفاوة بهم من ابائه وأجداده ، فكان سلفه التيموريون يعتقدون في الشيخ ناصر الدين عبید الله أحرار ، ويعظمونه ، ووكان جد الملك بابر ، السلطان أبو سعيد ، يذهب إليه ماشياً لا يركب تأدباً معه واحتراماً ، ولم يكن يقدم على عمل أو ينجز قراراً إلا بعد أخذ رأيه ، وكان والد الملك بابر عمر شيخ مرانا كذلك يجلس الشيخ عبید الله ويحترمه ، ويذكره الملك بابر نفسه في كتابه «تزيك بابر» بتقدير وإعظام ، ولما قدم الشيخ يحيى - وهو من أعقاب الشيخ عبید الله أحرار - إلى الهند ، استقبله الملك أكبر بحفاوة بالغة ورفع قدره ، ووهبه أرضاً لنفقته ، وبعثه أميراً على قافلة الحجاج إلى مكة المكرمة ، ولما عاد من سفر الحج ، جهز له الإقامة الدائمة في مدينة «أكره» (٢) .

وكان الملك أكبر عين سبعة أئمة للزيام السبعة من الأسبوع يتناوبون الإمامة في الأيام المعينة لهم ، وكانت الإمامة - يوم الأربعاء - موكولة إلى الشيخ عبد القادر البدايوني (٣) . كان يبعث - كل عام - عدداً كبيراً من الحجاج إلى الحرمين الشريفين على نفقة الدولة ، وبعث مع أمير الحجاج الهدايا والتحف إلى والي مكة المكرمة وبعث النقود والغلاف لأهل الحرمين الشريفين (٤) ، وكان يشيع الحجاج عند توديع قوافلهم محرماً كإحرام الحج ، مقصراً للشعر ملياً ، حاسر الرأس ، حافي القدمين ، وكان هذا المشهد المؤثر يحدث هزة في النفوس ، تلين القلوب ، وتدمع العيون (٥) .

لما قدم شاه أبو تراب إلى الهند بحجر عليه أثر قدم الرسول ﷺ ، كما يقولون - ووصل قرب مدينة «أكره» خرج الملك مع حشد عظيم من العلماء والمشايخ ، والأمراء والوزراء ، ومشى معهم أربعة فراسخ على الأقدام لاستقبال الشيخ أبو تراب ، وإجلال مقام الرسول ﷺ - .

ونختم الشواهد على تدينه وتعبدته بهذا التصريح ، الذي جاء في «مآثر العلماء» لمؤرخ

(١) أيضاً ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٢) أيضاً ج ٣ ص ١٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٤) أيضاً ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٥) أيضاً ج ٢ ص ٢٣٩ .

لدولة المغولية الشهير مير عبد الرزاق خافى خان المعروف بصمصام الدولة شاء نازخان (١١١ - ١١٧١ هـ) ، يقول فيه :

« كان الملك أكبر يبذل جهوداً كبيرة فى تنفيذ الأحكام الشرعية ، والتأكيد على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كان يؤذّن بنفسه ، ويؤم الناس فى الصلاة ، حتى إنه كان يكسر المسجد احتساباً وطلباً لمرضاه الله<sup>(١)</sup> .

### تحول فى نفسية الملك أكبر وطبيعته والفترة الثانية من عهده (٢) :

يستطيع القارىء - فى ضوء ما سبق من التصريحات والشواهد على تدين الملك أكبر وتنسكه - أن يقدر أن هذا التدين الساذج العامى الخرافى لم يكن مؤسساً على الفهم والعلم الصحيح للكتاب والسنة و الدراسة المباشرة لهما ، بل كان أساسه - بدلاً من أن يكون مديناً لتعليم العلماء الراسخين ومجالستهم والتربية الدينية الصحيحة على ذوق عصره ، وطبيعته العسكرية ، والتقليد الأعمى للحكام والأمراء الجهلة بالدين ، الذين حكموا فى أواسط آسيا ، ومحاكاتهم ، شدة الإيمان بالمظاهر ، سرعة الاعتقاد فى الظواهر ، فكان الركن الأساسى فى هذين التدين زيارة القبور والضرائح ، وتجشم مشاق السفر إليها من مسافات بعيدة مشياً على الأقدام ، وإبداء عواطف الحب والإجلال للمتربعين على دست المشيخة - الذين كانوا من الجهلة العاطلين عن صفات آبائهم ومشائخهم ، والفاقدين للربانية الصحيحة ، والروح الإسلامية - والشعور بالسعادة فى خدمة الكناسة للتكايا والزوايا ، وحضور مجالس الذكر والغناء ، وتبجيل علماء البلاط ومشايخه وتوقيرهم .

ويستفاد من دراسة حياة « أكبر » أنه كان أمياً خالصاً<sup>(٤)</sup> ، وتمتاز الأسرة التيمورية فى

(١) أيضاً ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٢) مآثر العلماء ، ج ٢ ، ص ٥٦١ .

(٣) يقال إن ما سجله جهانكير فى « توزك » الصغير من أحوال الملك أكبر عند وفاته ، يدل على أنه كان شعر عند دنو الأجل بأنه على خطأ وضلال ، فجادد إيمانه يتلفظه بكلمة التوحيد ، وأسلم روحه لبارئها فى هالة من القراء الذين كانوا يقرأون سورة يس ، ويدعون له ، وليس لنا أن نحكم على ما كان بينه وبين الله وهل أدركه اللطيف الألهى أم لا ؟ ، وإنه على أى حال ودع هذه الدنيا ، إنما نحن بصدد إجراءاته وأعماله التى اتخذها لتنفيذ القانون الجديد والدين الجديد ، والنتائج والآثار التى ترتبت من ذلك على الإسلام والمسلمين .

(٤) لما بلغ « أكبر » أربعة أعوام وأربعة شهور ، وأربعة أيام من عمره ، احتفل - حسب العادة = =

طبيعتها وعقليتها بالغلو والتطرف ، والمبالغة فى الاعتقاد، ويذكر عن « همايون » فى كتب التاريخ أنه كان إذا صمم على تحمل شدايد الحروب ومقاومة الأوضاع القاسية ، والظروف القاهرة ، فإذا به يتحول إنساناً ليس من لحم ودم ، بل من حديد صلب ، وكأنه ليس من الأنس ، بل من الجن الشداد ، وإذا استنام إلى الدعة والراحة ، نسى كل شىء وظن به أنه لم يكن فى يوم من الأيام فارس الميدان وجندياً مستميتاً فى ساحة القتال ، ويشاهد هذا التعارض ، وقلة الاتزان فى حياة جهانكير .

ثم لا ينبغى أن ننسى ما قاساه أكبر من المحن والأوضاع القاسية غير العادية فى طفولته ، وريعان شبابه ، وما شاهده فى أعمامه من تنكُّر وخذلان ، وقلة وفاء ، وما تجرَّع من المرارة والغصص أيام هزيمة والده ، ورحلته إلى إيران وما لاقى مع بيرم خان من العناء والمشاق ، كل ذلك أنتج فى نفسيته سوء الظن بالفطرة الإنسانية ، وأثار فى نفسه الريب والشكوك ، فى وفاء الناس ، وإخلاصهم وتجردهم ، فنشأت من جراء ذلك طبيعة متقلبة تتلون ، ولا تستقر على حال .

## المقارنة بين الديانات والبحث فيها

### ومجالس المناظرة وتأثيرها :

كان أنسب طريق للملك أكبر لعلاج هذا الوضع الشاذ ، وإصلاح الحال ، والتغلب على مواطن الضعف فى نفسه ، وتأكيد الصلة بالإسلام ، والارتباط بالدين ، وصرف الهممة إلى حماية الإسلام والذب عنه والقيام بنصرته ككثير من السلاطين المسلمين - وقد كان عدد منهم أبناء هذه الأسرة التيمورية - أن يركز الملك كل عنايته - مع الاعتراف بأميته وجهله بالدين - على مهام الدولة ، وتوسيع المملكة ، وكان اللائق به أن لا يتدخل فى القضايا الدينية ، بل يكلها - كمسلم مخلص ساذج وجندى وفى - إلى علماء الدين وأعضاء الدولة الباحثين كما فعل الملك بابرو همايون ، رغم ثقافتها الواسعة ، والذوق الأدبى والعلمى والرفيع - وأن لا يتقدم إلى البحث والتحقيق فى المسائل الكلامية الدقيقة ،

== الجارية - بمناسبة إدخاله الكتاب ، وعين ملا زاده عصام الدين مؤدباً ، ولكن شعر ملازاده بأن أكبر لا يرغب فى التعليم ، فحمل هذا على اهمال ملا زاده واخفاقه فى التعليم ، وعين مكانه الشيخ بايزيد ، ولكن بدون جدوى ، وأخيراً اختار الملك لتعليمه الشيخ عبد القادر البدايوني الأوضاع السياسية ، والانتقال من مكان الى مكان ، وعدم الاستقرار ، فشب أكبر أمياً لم يتعلم شيئاً . (ملخص من كتب التاريخ المعاصرة لعهد الملك أكبر) .

لقضايا العقيدية العلمية ، والحقائق الغيبية ، وعلم ما وراء الطبيعة ، والمقارنة بين الديانات والفرق ، وهو المجال الذى تؤدي فيه زلة بسيطة ، أو إهمال طفيف إلى تخطى حدود الإيمان ، والدخول فى حظيرة الكفر والإلحاد ، وضياح نعمة الدين وكان لا يعرف مبادئ هذه العلوم ومقدماتها ، ثم إن الخوض فى هذه القضايا لا يفيد فى الأغراض السياسية ، ولم يكن فى مصلحة السلطان ، الذى تسلم زمام البلاد من الحكومات المسلمة التى دامت فى السلطة أربعة قرون ، أن يفقد ثقة شعبه المسلم المتحمس للإسلام ، ويشير حوله مشاكل كان فى غنى عنها ، إن خطأ التدخل فى هذه المباحث الكلامية الدقيقة ، واستخدام النفوذ والسلطان ، لغرض عقيدة أو وجهة نظر أو مهم خاص أساء من قبل إلى مثل الخليفة العباسى مأمون الرشيد ( ١٧٠ ٢١٨ هـ ) فى علمه وذكائه ، ولم يستفد منه غير سوء لأحدوثه (١) .

ولكن الملك أكبر رزق الطبيعة القلقة والعقلية الباحثة ، وأوحت إليه فتوحه وانتصاراته المستمرة ، وسعادة جده وحسن طالعه فى الدولة ، بخداع النفس والإعجاب بها ، وبدأ بنفسه أنه يقدر - وهو الفارس المقدم الذى يفض مشاكل الدولة ، ويحل عقد السياسة - على الحملات الظاهرة فى أودية الدين ، والعقيدة الشائكة .

زد إلى ذلك أن بعض أركان الدولة ، ورجال البلاط والأذكيا الحاذقين أقاموا لابرار تفوقهم العقلى ، والترويح عن السلطان ، وتزيين مجلسه ، معارك كلامية حامية بين العلماء من مختلف الفرق والديانات ، بدلا مما جرت به العادة فى مجالس الملوك المترفين ، من تربية الديكة والحمام ، ليتفرج السلطان على تهارشها ، ومن إقامة مصارعات بين الفيلة والسوائم من البقر - وكان ذلك نزهة السلاطين والأمراء الشرقيين ومتعتهم - ومن الحقائق البديهية ، التى جربها الناس فى تاريخ العقائد والديانات مئات المرات - إن من يشهد هذه المباحثات والمناظرات بين العلماء ، والأخذ والرد بين المحامين عن مختلف الفرق والديانات ممن لم تتسع ثقافته ، ويرسخ علمه ، ويدق فهمه ، وتتنور بصيرته ، ولم يساعده الحظ ويأخذ بيده توفيق الله - تعالى - فإنه محالة يقع فى الريبة والشك ، ويتيه فى أودية السوفسطائية واللا أدرية ، ويهوى فى هوة سحيفة من الإلحاد والزندقة .

يقول جهانكير - وليست شهادة على أكبر أقوى من شهادته - فى كتابه «توزك» :

---

(١) راجع للتفصيل «رجال الفكر والدعوة» للمؤلف ج ١ ، ص ٩٤ - ١٠١ مبحث «فتنة خلق القرآن» .

سيما فضلاء الهند وعلماء الديانة الهندكية ، ولم يكن يشعر جلساؤه - رغم أميته - بأنه لم يقرأ ولم يكتب ، لكثرة مجالسة العلماء ومصاحبة الفضلاء والمباحثة معهم ، وكان يفهم دقائق الشعر والنثر ولطائفهما ، بما لا مزيد عليه « (١) .

ولم يقتصر في هذه المناظرات على علماء الإسلام والهندكية ، وديانات الهند الأخرى ، وفرقها المختلفة ، ومثليها ، بل أشرك فيها علماء الإنكليز ، وينص أبو الفضل على بذل الاهتمام البالغ بترجمة التوراة والإنجيل ، والزبور ، وشرحها وتفسيرها للملك . وعين لهذه الخدمة السيد مظفر ، أحد أعيان البلاط وفضلائه ، وكتب إلى بعض المسيحيين :

« إننا نجتمع - في فراغ من الوقت - بعلماء جميع الديانات ، ونستفيد من أفكارهم السامية وكلماتهم الطيبة ، وتقف أجنبية اللغة عائقاً في الطريق ، فنود أن تدخلوا علينا السرور بإيفاد رجل فاضل يوضح لنا هذه لمعاني بعبارة جيدة حسنة ، وقد بلغ مسامع السلطان أن الكتب السماوية من التوراة والإنجيل والزبور ، ترجمت إلى العربية والفارسية ، فلو كانت هذه الكتب المترجمة في بلادنا ، لوزعناها للنفع العام ، وقد بعثنا إليكم - تجديداً لمعاني الحب والود ، وترسيخاً لأساس الوحدة والاتفاق - بمعالى السيد مظفر - الذى أسعدناه برعايتنا واهتمامنا - للحصول على عدة نسخ من هذه الكتب المترجمة وسيتحدث إليكم شفاها فثقوا به ، وواصلوا المراسلة » (٢) .

وكان ذلك فعلاً ، يقول البدايوني .

« كان في البلاط جماعة من فضلاء الإفرنج من زهادهم ونسآكهم ، ويقال لهؤلاء « القُسُسُ والأساقفة » ويسمى مجتهدهم الأكبر بالبأبا ، إنهم قدموا نسخة من الإنجيل ، وأظفروا دلائلهم وبراهينهم على التثليث ، وأثبتوا أن النصرانية دين حق » (٣) .

وبلغ شغف أكبر بهذه المجالس للمناظرة أن كتب رسالة إلى رئيس مجلس الأساقفة في ولاية « كوا » ( GOA ) وهى تشتمل على ما يأتى :

« أرجو أنكم فور وصول رسالتي إلى سعادتكم سوف تبعثون إلى البلاط - فى طمأنينة بال وجمعية خاطر - بعض الأساقفة ، حتى يناظروا علماءنا ، فأقدر من خلال المناظرة

(١) « ترك جهانكيرى » ، ص ١٥ .

(٢) « انشائى أبو الفضل » ص ٣٩ .

(٣) منخب التواريخ ، ح ٢ ، ص ٢٦٠ .



مبلغ علمهم وخلقهم ، وأرى تبريزهم وتفوقهم على علمائنا الذين ندعوهم بالقضاة «  
فيعلموهم الحق بهذا الطريق ويفيدوهم » (١)

ومن التجارب القديمة فى مجالس المناظرة ، أن قوة البراهين ، والإقناع الجدلى ، لا  
يكفى لإثبات صدق ديانة من الديانات ، ولا يكون حاسماً فى تفضيل واحدة منها على  
أخرى ، فإن أكبر الاعتماد فى ذلك يكون على ذلاقة اللسان وقوة البيان ، وطلاقة العبارة .  
مما يتظاهر به ممثلو هذه الديانات والمحامون عنها ، فقد يكون ممثلو دين هزيل ضعيف  
ووكلاؤه أقدر على الحجة ، وصناعة الكلام ، وأجود بياناً ، وأعرف بالنفسية الإنسانية ،  
والطبيعة البشرية ، وأكثر تحيُّناً للفرص ، فيؤثرون فى السامعين ، ويسحرون الألباب  
ويستميلون الناس ، ويكون ممثلو دين قويم غير متحلين - لسبب من الأسباب - بهذه  
لخصائص والصفات ومجردين من هذه الأسلحة الكلامية ، فيخسرون الرهان ، ويسقطون  
فى الميادين ، ومما يشك فيه أن العلماء - الذين كانوا يمثلون الإسلام ويشرحونه فى بلاط  
الملك أكبر ، ويناضون علماء الإفرنج وفضلائهم - كانوا على إمام واسع بالتوراة أكفاء  
عرض الإسلام ، - علمياً وعقلياً - حتى يقارعوا فضلاء المسيحيين ويمثلوا الإسلام تمثيلاً  
صادقاً صحيحاً .

وقد كانت الديانة المسيحية جديدة للهد ، وكان أتباعها قلة قليلة ، ومعظمهم كانوا من  
لأجانب ، فلم يهتم بهم العلماء المسلمون ، ولم يبالوا بالديانة المسيحية أى مبالاة على  
حين أن البرتغاليين فتحوا مدرسة تبشيرية مسيحية ( Jesuit Mission ) فى ولاية «كوا»  
حتى يقوموا بنشر هذه الديانة فى الهند ، وترسيخ جذورها (٢) ، ولا يستبعد فى مثل هذا  
لوضع أن يكون العلماء المسيحيون الأجانب كسبوا المعركة ، وأثبتوا تفوقهم وامتيازهم -  
علمياً وعقلياً - على المسلمين الذين لم يكونوا - إذ ذاك - فرسان هذا الميدان فخسروا  
لصفقة وسقطوا فى عينه ، فكان من الطبيعى أن تظهر النتائج التالية ، يقول الشيخ عبد  
لقادر :

« ظهر أهل البدع والأهواء بأرائهم الخاطئة ، وشبهاتهم الباطلة من مكانهم ، وبدأوا

---

(١) انظر « THE MUGHAL EMPIRE » - الدولة المغولية - للدكتور أشيورى برشاد ، Dr  
ISHWARI PARSHAD ، طبعة المآباد ١٩٧٤ م .

(١) انظر « أكبر نامه » ج ٣ ، ص ١٠٢٧ ، Commentqr By Monigolicea Legationos  
Fater A Muoserrate ج / ١ ، ص ٣٤ .

يعرضون الباطل فى صورة الحق ، والخطأ فى شكل الصواب وأورثوا الشك والارتباب فى نفس السلطان الذى كان يملك الذكاء والفتنة ، ويتغى الحق ، إلا أنه كان أمياً محضاً ، يأنس إلى الكفار ، وزادوا فى حيرته واضطرابه ، وضاع المقصد الصحيح ، وانحل رباط الشريعة ، ولم يبق بعد خمسة أعوام عين ولا أثر للإسلام ، وانقلبت الدنيا رأساً على عقب « (١) .

ويقول فى موضع آخر :

« بدأوا يثيرون الشكول والشبهات ، ويضحكون ويستهزئون بكل فريضة من فرائض الإسلام وكل عقيدة من عقائد الدين ، سواء كانت تتعلق بالأصول أو الفروع ، كعقيدة النبوة والرسالة ، ومسألة كلام الله ورؤيته ، وتكليف الإنسان ، وتكوين العالم ، والحشر والنشر ، وغير ذلك من المسائل العقيدية (٢) » .

وكان ضغناً على إبالة ، أنهم بدأوا يقرأون كتب التفسير والتاريخ - وهى المواد العلمية غير المنقحة والمحرة ، التى يقدر أنصاف العلماء ، ممن لا يخشون الله ، على إثارة الاضطراب ، والفوضى الفكرية عن طريقها - فى بلاط الملك الأمى الجاهل وفى جو من الانطلاق والتحرر ، وقلة الحشمة .

يقول الشيخ عبد القادر البدايوني :

« وفى تلك الأيام صدر الأمر إلى القاضى جلال وغيره من العلماء أن يقرأوا تفسير القرآن ، وكان هناك صراع بين العلماء فى الموضوع ، وكان الماجن « ديب جندارجه منجهولة » يقول :

« لو لم تكن البقرة مقدسة عند الله - تعالى - لما جاء ذكرها فى أول سورة من القرآن ، وسميت بها هذه السورة ، ولما بدأوا قراءة التاريخ ، بدأ الناس يزدادون - كلو يوم - فى إساءة الظن بالصحابة - رضى الله عنهم - وتعدى الأمر إلى أن جعلوا يسمون الصلاة ، والصوم ، وجميع التعاليم النبوية بالأمور التقليدية ، أى أنها غير معقولة ، وجعلوا يقولون إن أساس الدين على العقل ، وليس على النقل ، وبدأت وفود الانكليز تغدو وتروح ، حتى قبل الملك بعض معتقداتهم كذلك » .

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٢) أيضاً ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

## مسئولية علماء البلاط وأعضاء الدولة

في تحول طبيعة « أكبر » وانحرافه :

لقد كان علماء البلاط وأعضاء الدولة يستطيعون أن يقوموا بدور أساسى فعال فى ملازمة الملك أكبر طريق الإسلام المستقيم ، وصيانته من الزيغ والانحراف ، وحمایته من التطرف وفقدان الاتزان ، ولكن هذا الدور الإيجابى كان فى حاجة إلى علماء يمتازون بالتفقه والبصيرة فى الدين ، ويتحلّون بالحكمة والفهم الصحيح . نظرهم فى كليات الدين أعمق من نظرهم فى جزئياته ويؤكدون على أهمية الغايات والمقاصد ، أكثر من الذرائع والوسائل ، ويرون ضرورة « الوصل » والتوفيق أكثر من ضرورة « الفصل » والتفريق ، متصفين بسمو الأخلاق ، وموسومين بالإخلاص والإيثار ، بعيدين عن حب الجاه ، ولطمع فى الدنيا قدر المستطاع ، تلقوا التربية الصحيحة ، واشتغلوا بتزكية النفس ، يعرفون أهمية هذه الدولة الإسلامية الناهضة ودقة موقفها - التى تحيط بها الأكثرية غير المسلمة - التى كانت تشعر بحرمانها من القوة والسلطة ، ولا تقوم دولة إلا بتأييدها ومساعدتها - معرفة حقيقية ، وأن هذه المملكة التيمورية التى واثم الحظ لخدمتها ، ونالوا الفرصة التاريخية الذهبية لقيادتها وإرشادها كانت أكبر دولة إسلامية فى ذلك العصر فى سعة الرقعة ، وكثرة الذخائر والوسائل ، والقوى البشرية وقوة العاطفة الدينية ، وتغلغلها فى الشعب وفى جميع النواحي ، بعد الدولة العثمانية ، فى تركيا ، فكان - لأجل ذلك - الحفاظ على هذه الدولة ، وربطها بالإسلام ، وأن يجمع عاهلها - فى هذه الظروف الحرجة الدقيقة - بين الزجاج والحديد ، والقطن والنار ، أكبر عبادة فى ذلك العصر ، وأعظم خدمة للدين والبلاد .

وكانت الحاجة ماسة - فى الجانب الآخر - إلى وجود خبراء مستشارين وأعضاء للدولة يحملون عقيدة راسخة محكمة فى ذلك الدين - الذى أسس عليه بابر مملكته القوية - بعد توبته النصوح من المنكرات فى ساحة القتال عند مواجهة « رانا سانكا » عام ٩٣٣ هـ ، وأخذ العهد والميثاق على نفسه بالعبودية الكاملة لله عز وجل ، ويُحِبُّونَهَا للملك أيضاً ، ويكونون فى مآمن عن كل نوع من الاضطراب الفكرى ، وفى معزل عن الحركات الإلحادية الهدامة التى نشأت فى إيران والهند فى القرن العاشر ، وكانت تثير الفوضى الخلقية والعقائدية وتضعف العلاقة بين الدولة والمجتمع ، وأن يجمعوا بين تنظيم الدولة ، وإدارة البلاد وقدرة التقنين ، وبين سمو الأخلاق ، والأستقامة الدينية والتقيد بالشرعة .

فلئن كان الملك أكبر رزق هذين العنصرين ، وحظيت دولته بهاتين الميزتين ، لم يكن

هناك مجال للشك فى أن تكون هذه الدولة تؤدى نفس الدور فى خدمة الدين وحماية الإسلام والمسلمين فى ناحية الشرق ، والذي قامت به دولة آل عثمان فى الغرب . ولكن كان من سوء الطالع أن رزق الملك أكبر - رغم سعادة جده وصلاحيته - ذلك العنصر من هذين الفريقين الذى لم يكن على المستوى اللائق فحسب ، بل من المؤسف المحزن أنهم خانوا الدولة بدل أن يخدموها ، ونفروا « أكبر » من الدين بدل أن يشرحوا صدره له ويحببوه إليه ، وساقوه إلى اعتناق الدعوات والحركات المعارضة للإسلام وقيادتها ، وأن يظل « أكبر » رمزها وعلامتها ، بدل أن ينقروه عنها ويحرضوه على استئصالها ، والقضاء عليها .

### علماء البلاط :

ونتناول - هنا - النصر الأول ، وهم علماء البلاط الذين اعتقد فيهم الملك أكبر الخير ، وأحسن الظن بهم ، وخدمهم ، ووضع ثقته فيهم ، وقربهم لديه ، وأدناهم إليه ، وأنهم - كما يقول الإمام عبد الله بن المبارك - رضى الله عنه - عنصر من العناصر الثلاثة للشر والفساد :

« وهل أفسد الدين إلا الملوك . . . وأحبار سوء ورهبانها ؟ »

ونقتطف - فى هذه المناسبة أيضاً - من تصريحات العلامة عبد القادر البديونى الذى كان من أركان البلاط ، ولا يبدو فيما صرح به عن أصدقائه وزملائه ، وطبقته ، من مصلحة شخصية له أو تعنت ومكابرة ، فقد صور علماء البلاط بريشته البارعة هذا التصوير المثير :

« كان يدعو العلماء والمشايخ ، والأشراف والأمراء كل ليلة جمعة إلى مصلاه فكان العلماء والمشايخ يتسابقون إلى المقاعد ، ويتنافسون فى الحصول على مكان أقرب إلى السلطان ، فعالج السلطان هذه المشكلة ، فأمر الأمراء بالجلوس فى الجانب الشرقى ، والأشراف فى الجانب الغربى ، والعلماء فى الجانب الجنوبى ، والمشايخ فى الجانب الشمالى ، وكان السلطان يخرج عليهم فى حلقة من خاصته ، فيبحث معهم المسائل ويحقق فيها » (١) .

ويقول البديونى : « إن العلماء - ذات ليلة - بدأوا يرفعون أصواتهم فى الجدل

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

خاطر الملك ، واعتبر منهم ذلك سوء أدب ، وتنافساً في الدنيا « (١) .  
ويقول :

« كادو يتقاتلون بأسنة اللسان ، وبلغ التفرق والاختلاف بينهم حتى جعل بعضهم يكفر بعضاً ، ويضل بعضهم بعضاً ، وانتفخت أوداجهم وارتفعت أصواتهم ، وكدر ذلك صفو خاطر السلطان » .

وخاطب الملك العلامة عبد القادر في غضب وتألم وتكدر بال ، وقال : « أي عالم يخالف آداب المجلس ، أخرجوه من هناك » .

وكان الشيخ عبد الله السلطانفوري (٢) يحتل مكانه كبيرة في كبار أصحاب المناصب الدينية وكان لقبه ومنصبه « مخدوم الملك » فأصدر فتوى عدم فرضية الحج على مسلمي الهند لحيلولة البحر ، وعدم تحقق شرط من استطاع إليه سبيلاً « حتى لا يتجشم هو مشاق السفر في الحج ، وكان يستخدم الحيل « الشرعية » (٣) ، وفي إسقاط فريضة الزكاة ، ويتخلص من أدائها كل عام ، وقد اقتنى في عهد الملك أكبر وفي أوج وجاهته وشهرته أموالاً طائلة ، حتى عثر على عد من الصناديق المملوءة ذهباً في المقبرة الخاصة بآبائه ، وكان قد دفنها بحيلته وشطارته مع دفن الموتى (٤) .

وكان يلي مخدوم الملك في المنزلة والوجاهة عند السلطان ، ونفوذ الكلمة في البلاد «صدر الصدور» الشيخ عبد النبي ، الذي كان يعد أكبر عالم في الهند ، ومن أهل الاختصاص في فن الحديث ولكن تفيد بعض التصريحات الواردة في « منتخب التواريخ » أنه لم يكن عالي الكعب ، راسخ القدم في العلم ، وكان يجهل بعض الألفاظ العربية ولا

---

(١) أيضاً ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) راجع ترجمته المفصلة « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٣) وهي أنه كان يعطى المال الذي يفرض فيه الزكاة زوجته أو بعض أقربائه قبل حولان الحول عليه ، ثم يسترده فيما بعد ، ويتخلص بذلك من فريضة الزكاة وهكذا يعيد كل عام الحيلة إذ أن حولان الحول على المال شرط لوجوب الزكاة .

(٤) ويذكر أنه اكتشف في هذه القبور لبنات من ذهب كانت قيمتها ثلاثين مليون روبية .

كان الشيخ عبد النبي بن الشيخ أحمد الكنكوهي ، وحفيد الشيخ الكبير عبد القدوس الكنكوهي من كبار مشايخ الطريقة الجشتية الصابرية ، ولكنه - لأخذه علم الحديث عن علماء الحجاز وتلمذه عليهم - خالف مذهب سلفه وأسرته في وحدة الوجود ، وسماع الغناء ، وقد أسخط ذلك والده فتوترت العلاقة بينهما .

يعرف صحتها من خطئها ، ولم يقف على التحقيق فيها (١) ، سلم إليه الملك أكبر منصب «صدر الصدور» ونال من الإجلال والاحترام ، وعظمة المكان والجاء والسلطان ، بحيث لم يكن لأى ركن من أركانه الدولة أن يتقدم عليه ، ويتفوه لديه ، وقد قدم إليه الملك نعليه أدبا وتواضعا عدة مرات ، وكان كبار العلماء والأعيان ينتظرون ساعات طويلة على بابه ليؤذن لهم بالدخول عليه ، وكان بيده إجراء رواتب العلماء والمشايخ وشيوخ الطرق ، وإعطائهم الأملاك ، وإقطاعهم الأراضى ، وضرب فى ذلك أمثلة رائعة للأريحية والسخاء ، والعطاء الكثير ، مما لا يوجد له فى الحكومات السابقة نظير :

ولكن العلامة عبد القادر - الذى كان صديقه ومعاصره وزميله فى علماء البلاط - يصرح بأنه كان عاطلاً عن الأخلاق الرفيعة ، تقاليد أسرته وخصائصها الطيبة ، بل عن الثقافة العامة ، وتقدير الظروف والمناسبات ، ويمكن أن يكون هذا التغير فى سجايه نتيجة هذا المنصب السامى ، فكان تأثير هذه الأخلاق المتجلية فيه على الملك وأركان البلاط تأثيراً سيئاً ، ويتهمه العلامة عبد القادر باستغلال سلطته ونفوذه ، واستخدام منصبه فى الأغراض الشخصية ، يقول :

« إنه اضطر الإقطاعيين الدينيين فى طول الهند وعرضها أن يترددوا إليه ، و ينتظروا فتح الباب لهم حتى لم يجد الوافدون عليه من هؤلاء الإقطاعيين بداً من أن يعطوا الرشوة لنواب الشيخ ، وكناسيه وحجابه ، وسواق أفياله ومنظفى حماماته ، فما كانت تنجز الأعمال إلا عن طريق هذه الرشوة » (٢) .

كان لا يراعى الحال ولا يأخذ بالحكمة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والحسبة الدينية ، حتى كان يواجه الملك أحياناً - بما لا يليق بشأنه ويعتبر من الخرق وإساءة الأدب ، كما جاء فى « مآثر الأمراء » :

« إن العلماء والمشايخ والأمراء كانوا يهتئون الملك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده ، وكان الملك لابساً - آنذاك - لباساً معصفاً مصبوغاً بلون الزعفران فاعترض عليه الشيخ ، وأكد

---

(١) يستبعد من الشيخ عبد النبى - بعد أن تلقى العلم على علماء الحجاز ، « راجع للتفصيل » نزهة الخواطر « ج ٥ ، لا سيما أمثال العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى الكمير من أساتذة الفن ، وألف وصنف - أن يخطىء فى بعض الألفاظ البسيطة ، فكان يقرأ « حجراً » بتقديم الحاء بدل حجر بتقديم الجيم ، والله أعلم .

(٢) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

بلى به بتغيير هذا اللباس ، وشدّد في ذلك وتحمس حتى ارتفعت عصاه ، ووقع طرفها على  
وب الملك ، وتحمل الملك منه ذلك ، ولكنه شعر بإهانتته ، ودخل قصره ، وشكى إلى  
الدة ما لقي من الشيخ ، وكانت والدته سليلة أسرة طيبة معروفة بالفضل والصلاح ،  
أهدأت نائرة الملك وقالت أن احتماله هذه الشدة من الشيخ سوف يكتب في سجل مناقبه  
والتاريخ ، ويروى أن عالماً من العلماء من رعية السلطان صربه بالعصا ، فصبر على ذلك  
تحمله إجلالاً للشريعة وتعظيمًا لها « (١) .

وكانت رزية أخرى - علاوة على ما تقدم - أن « مخدم الملك » والشيخ عبد النبي ،  
سبحا عدوين متنازعين ، فكان « مخدم الملك » ويرميه بالجهل ، فينقسم نتيجة ذلك  
باعهما وحلفاؤهما في معسكرين متحاربين متنازدين ، ويقفون وجهًا لوجه .

وبالجملّة فإننا نرى نقلاً في ضوء ما نقل إلينا من سيرة « مخدم الملك » والشيخ عبد  
بى - إذا كان نقلاً صحيحاً في التاريخ - أنهما لم يكونا جديرين بتمثيل الدين الإسلامى  
يلاً صحيحاً ، وخلافة الأنبياء ، وأداء رسالتهم في ذلك العصر الدقيق الحرج - عهد الملك  
بر - وفي تلك البيئة المعقدة الخطيرة - بلاط الملك أكبر - لا في العلم والثقافة ، ولا في  
هم الصحيح للدين ، ولا في غروب النفس وسمو الأخلاق ، وأنه إن لم يتيسر لهذا  
لاط أمثال رجاء بن حيوة (٢) مستشار الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ووزيره  
مين ، والإمام أبو يوسف (٣) ، قاضى القضاة فى الدولة العباسية والمستشار الدينى  
خليفة العباسى هارون الرشيد فى علمهما وورعهما ، وذكائهما وتديبرهما ، فلا أقل من  
يتوفر له أمثال عبد العزيز آصف خان ، والقاضى شيخ الإسلام (٤) ، من المستشارين  
.ولة النوابغ الأذكياء والزهاد الأتقياء وكان لابد لمواجهة العلماء الأفاض المبرزين فى  
لوم العقلية ، والنابعين فى الفنون الأدبية ، الذين تجمعوا فى بلاط الملك أكبر من أبناء  
ان والهند - كما سيأتى ذكرهم قريباً من وجود ممثلين للدين والشريعة الإسلامية  
مشارين دينيين للدولة ، ومحافظين على السلطة ، أدق منهما علماً ، وأعمق إدراكاً ،  
لمى كفاءة واستعداداً ، وأكثر تفتناً لحاجات العصر وضرورات الحياة .

---

مآثر العلماء ، ج ٢ ، ص ٥٦١ .

هو الذى أشار على سليمان باستخلاف عمر بن عبد العزيز .

وهو الذى نظم القضاء فى الدولة العباسية الكبيرة وصنف « كتاب الخراج » .

راجع لتراجمهما « نزهة الخواطر » ج ٤ ، لوالدنا العلامة مؤرخ الهند عبد الحى الحسنى رحمة الله  
عليه .

ولما اطلع أكبر - الذى كان يعتقد ( كما يقول المؤرخ عبد القادر ) رجحان هؤلاء العلماء على الإمام الغزالي والمفسر الرازى وتفوقهم عليهما - على هذه التصرفات الساقطة السخيفة ، جعل يقيس العلماء السالفين عليهم ، وأساء الظن بهم جميعاً .

### أركان الدولة ومستشارو البلاط :

ولم يكن شقاء الملك أكبر فى أركان الدولة أقل من شقائه فى علماء البلاط إذ كان يسحر عقله ، ويسل لبه - لجهله وسذاجته - كل ذكى ، فطن المعى ، لا سيما إذا كان وفداً من « إيران » التى كان يعدها أبناء الهند وأفغانستان ، بمنزلة اليونان ، وقصد لبلاط « أكبر » - فى تلك الفترة الشقية التى أصيب فيها أكبر بالتضعف فى الدين والعقيدة ، الحكيم أبو الفتح الكيلانى ، والحكيم همايون ( الحكيم همام ) ونور الدين قرارى ، الأخوة الثلاثة ، ونالوا الحظوة والمكانة العالية فى البلاط ، وجاء بعد فترة يسيرة ملاً يزيدى ، الذى أطال لسانه على صحابة الرسول - ﷺ - وخطا حكيم أبو الفتح خطوة أخرى قدماً وأنكر - علناً وجهاراً - الحقائق الدينية كالوحي والنبوة والمعجزة (١) ، ونزل شريف الأملى فى هذه الفترة نفسها - كما سبق - قاصداً من إيران ، وكان على مذهب « محمود بسيخانى » ويحمل الأفكار الملحدة .

وعدا هؤلاء العلماء النوابغ القاصدين من إيران ، اندس فى البلاط فى هذه الفترة المصيبة بالاضطراب الفكرى والتضعف العقائدى - رجل هندكى - يدعى « برهم داس » كان حاضر البديهة ، مبرزاً فى المناظرة ، فكها ظريفاً ، لطيف المحاضرة ، فتقرب إلى الملك ، وتحكم فى ذوقه وعقليته ، وتصدر فى البلاط ، وما لبث أن لقبه الملك بـ « المصاحب » ( النديم ) الخاص ، فعظم قدره ، وعلا مكانه وذاع صيته باسم « راجه بيربر » . إنه اتخذ موقف السخرية والاستهزاء ، والجرأة الواجحة إزاء العقائد الإسلامية ، والمسائل الدقيقة ، والشؤون الدينية ، بعد أن عرف اتجاه الدولة ، ورغبة الملك ، فسائر البيئة حيث كانت هذه السخرية « العملة السائدة » فى ذلك العهد ، فصفق له الناس من كل جانب ، وقام بدور خطير فى توجيه الملك توجيهاً هازلاً غير جاد فى أمور الدين (٢) .

### ملا مبارك وولده ، فيضى وأبو الفضل :

وزاد الطين بلة تردد ملا مبارك الناكورى على البلاط ، وكثرة اختلافه

(١) انظر « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٢) راجع للتفصيل « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ١٦١ .



إليه (١) ، وحصل لابنيه فيضى ، وأبى الفضل من الحظوة ولتقدير ، عند السلطان ، والتبجيل والإكرام فى البلاط ، ما لم يحصل لأحد من قبل .

وتطالعنا الدراسة المنصفة المحايدة لحياة ملاً مبارك ، وفيضى وأبى الفضل وسيرتهم على أنهم كانوا من نوابغ الأذكياء ، وذوى الباع الطويل فى العلم والثقافة الغزيرة الواسعة ، والمتبحرين فى العلوم العقلية والأدبية وأصحاب القريحة فى الشعر والنثر الفارسيين ، وخلاصة القول أنهم كانوا أفضل وأعقل وأرقى نتاج للمناهج الدراسية المطبقة فى ذلك العصر ، وأسلوب البحث والتحقيق ، والتدريس ، والعلوم والثقافات المفضلة السائدة فى عصرهم ، ولو كانوا قد جمعوا إلى هذا الإدراك الدقيق ، والعقلية النابغة ، والقريحة الفياضة ، والقلم السيال ، واللسان الذرب الطليق ، استقامة فى الدين ، ورسوخاً فى الإيمان واليقين ، وخشية رب العالمين ، والرغبة فى الآخرة ، والإخلاص فى العمل والربانية المشرقة ، لكان لهم دور أى دور ، وقاموا بمآثر جليلة ، ووقاية كاملة لعصرهم من الفتن والويلات ، كان من العسير أن يوجد لهما نظير ، ولكن دراسة سيرتهم وأحوالهم ومؤلفات أبى الفضل وفيضى أنفسهما تكشف لنا عن الجوانب التالية :

١ - لقد كان ملا مبارك - وهو الركن الأول من هذا الثالوث - مضطرب النفسية ، قلق التفكير ، موزع الهم ، درس المذاهب الفقهية الأربعة ، واطلع على الخلافات فيها ، فتجه إلى الكراهية لها والنفور منها ، وإنكار فضلها بدل أن ينحو نحو الجمع والتطبيق ، والتوجيه الصحيح ، وأنكر هذا التراث الفقهى العظيم ، وجهود السلف الصالحين ، وسيطرت عليه الفلسفة لانضمامه - فيما بعد - إلى حلقة أبى الفضل الكاذرونى من كبار فضلاء العلوم العقلية المعروفين من أبناء شيراز ، وبدأ يطالع كتب التصوف و «الإشراق» مباشرة من غير التزكية والسلوك ، والاطلاع على مصائد الشيطان ، وأمراض النفس ، ومعالجتها عن طريق المناهج المعروفة ، فوقع فى الأخطاء ، ونشأت فيه طبيعة متقلبة متلونة مضطربة بعد أن مرّ بهذه الأودية والشعاب ، ووجدت فيه - من جراء ذلك - ملكة التلون بكل لون ، والتكيف مع كل حال ، والسير فى مسار هذا المثل النفعى ، « در مع الدهر حيث دار » ، يقول عنه الشيخ خواجه كلان بن الشيخ الكبير خواجه عبد الباقي

---

(١) ذكر أبو الفضل فى « أكبر نامه » وصول ملا مبارك إلى البلاط لأول مرة فى حوادث العام الثانى عشر من تولى الملك .

النقشبندى ، الذى تربى فى بيت ابنة الشيخ مبارك المذكور (١) :

« كان يعتنق فى كل دور من أدوار حياته المذهب أو الديانة التى يرغب فيها الأمراء والملوك (٢) » .

ويقول المؤرخ ( Sir Welzle Haig ) : « لقد اعتنق ملاً مبارك - فى مختلف أدوار حياته - السنية والشيعية والصوفية ، والمهدوية ، وغير ذلك مالا يعلمه إلا الله (٣) » .

٢ - إنهم كانوا أصحاب طموح وطلب للجاه والنفوذ ، فلم تكن طبيعتهم القلقة الفياضة لتقنع بالعلم والتدريس ، وتنحصر فى دائرتها الضيقة المحدودة فتاقت نفوسهم إلى إظهار نبوغهم وذكائهم فى البلاط والتأثير فيه ، فاستظل بظل الملك أكبر - الذى كان يعتبر ظل « هما (٤) » - وحصل لابنيه النفوذ والسلطة وإن لم يحصل له .

٣ - بيد و أن علماء ذلك العصر - ولا سيما مخدوم الملك ، والشيخ عبد النبى اللذان كانت لهما الشيطرة والنفوذ فى البلاط - لم يعطوه مكانه اللائق به الذى كان يستحقه لفضله وذكائه ، وأنه عورض من قبل الأوساط الدينية لبعض معتقداته وآرائه المنحرفة ، وتلون طبيعته ، وقوبل بالإهمال وقلة الاهتمام بشأنه ، وذلك ما جرح قلبه ، وترك فيه آثاراً عميقة ، وفى تعبير الأديب الكبير الشيخ محمد حسين آزاد : « كم من سهام الظلم والحيف أصابت فؤاد الشيخ مبارك ، وأحدثت فيه ثقباً لا تحصر ، وأن الجراح التى نالها أبو الفضل ووالده الشيخ مبارك من « مخدوم الملك » و « صدر الصدور » لم يكن لها من براء على مرّ الأعوام وكّر السنين (٥) » ، ويقول فى موضع آخر : « إن ما أصاب الشيخ مبارك من الرزايا على يد «مخدوم الملك» ما نسيها أبناؤه ، فبدأوا - لتلا فيه - يسعون للوشاية عند الملك أكبر ، ومن ثم بدأ للتحويل فى أفكاره وآرائه (٦) » ، ويقول محمد حسين - رغم أنه من المتحررين « المتورين » - : « كانت حالة فيضى وأبى الفضل كحالة أبيهما غامضة مبهمة » .

---

(١) تربى خواجه كلان فى بيت الشيخ حسام الدين ، وكانت زوجة الشيخ حسام الدين بنت الملا مبارك ، ( انظر « تاريخ هندوستان » ج ٥ ، ص ٩٤٧ ) .

(٢) « مبلغ الرجال » ورقة ٣٣ ، ألف .

(٣) Cambridge history Of India Vol . 4 . p . 18

(٤) « هما طائر أسطورى فى الأدب الفارسى ، يعتقد فيه البركة ، ويتفاءل به فيقال إنه إذا جلس على رأس إنسان أو وقع عليه فى طيرانه ال إليه الملك .

(٥) دربار أكبرى ص ٤٩ - ٥٠ .

(٦) أيضاً ، ص ٣٨٩ .

وأورثت معارضة العلماء وظلم ذوى العصر عقدة « مركب النقص » فى جميع أفراد هذه الأسرة ، وعقدة مركب النقص (Inferiority Complex) تظهر فى أشكال مختلفة ، وفى صورة « مركب الاستعلاء » ( Superiority Complex ) أحياناً ، فعزموا على أن لا تقوم قائمة لأى عالم أمام علمهم وذكائهم .

وذهب ضحية هذا الحقد على علماء البلاط والترة التى كان يحملها الثلاثة الإسلام والنظام الدينى بأسره ، حتى إذا أفل نجمهم وانطفأ سراجهم أو كاد ينطفىء إزاء نبوغ هذين الأخوين وذكائهما النادر ، وعلا فى الدولة صيتهما وطار فى الآفاق ذكرهما ، كانت حديقة الإسلام الذابلة - بفعلهم بين سَمْعِهِم وبصرهم - تلتهمها النيران ، ويشب فيها الحريق ، وكان أبو الفضل - حسب ما يقول المؤرخ عبد القادر - يردد هذين البيتين ، وهما لسان حاله واصدق ترجماته ، يقول ما معناه :

« لقد أشعلت النيران بيدى فى مربدي ، وقتلت نفسى بنفسى ، فكيف أشكو عدوى ،  
وليس هناك عدو إلا أنا نفسى ، آه من نفسى وبيدى وعدوى » .

وكان لملأً مبارك هذان الولدان النابغان أبو الفيض الذى ولد عام ٩٥٤ هـ ، وأبو الفضل العلامى المولود عام ٩٥٨ هـ .

وكان فيضى نابغة من نوابغ العلوم الأدبية ، لا يختلف اثنان فى روعة شعره الفارسى وإمامته فيه ، وأصاب العلامة شبلى النعمانى حيث قال فى «شعر العجم» : لم ينبج الشعر الفارسى فى الهند فى عمره الطويل الممتد على ستة قرون سوى شخصين ، أذعن لهما ، طوعاً أو كرهاً - أصحاب هذا اللسان ، هما خسرو وفيضى .

« تتلمذ فيضى على خواجه حسين المروى ، وبرز فى كل علم وفن ، ودخل بلاط الملك عام ٩٧٤ هـ ، العام الثانى عشر من تربع السلطان ، على عرش الدولة - ونال الشرف والتقدير ، ولم يزل يتقرب إلى السلطان إلا أنه لم ينسلك فى وظيفة من الوظائف فى البلاط ، كان طبيياً نظاسياً ، وكان شاعراً مجيداً ، وكان مؤلفاً قديراً ، يقضى وقته فى هذه الأعمال العلمية ، وأسند إليه تأديب أبناء الملك وتعليمهم وتثقيفهم ، ففى العام الثانى من تولى السلطان عهد إليه بتعليم ولى العهد دانيال ، وعلمه فيضى - فى أيام قليلة - مبادئ العلوم ، وألقى أكبر - هذا العام - خطبة فى المسجد ادعى فيها الاجتهاد والإمامة ، وكان فيضى مؤلف هذه الخطبة ، وقلل أكبر من نفوذ الشيخ عبد النبى وحد من سلطانه ، وفرق الصدارة - الرئاسة - فى عدة شعب ، فأسند عام ٩٩٠ هـ رئاسة أكره ولكالنجر

وكالبي إلى فيضى ، ولما بعث الجيوش لمقاومة قبيلة يوسف زئى ، أنفذ معهم فيضى للقيام بهذه المهمة معهم ، وفى عام ٩٩٦ هـ وهو العام الثالث والثلاثون من تولى أكبر للحكم - لقب فيضى بملك الشعراء ، وعين سفيراً فى « خانديس » عام ٩٩٩ هـ الموافق للعام السادس والثلاثين من حكمه - فقام بهذه الخدمة خير قيام ، ونجح فيها نجاحاً كبيراً ، وتوفى فى شهر صفر ١٠٠٤ هـ الموافق للعام الأربعين من ولاية السلطان (١) .

وله تفسير من أشهر ما ألفه وأسماء « سواطع الإلهام » (٢) - عدا ما خلفه من مؤلفات أدبية . وكتب مترجمة من اللغة السنسكريتية ، وقصائد متفرقة وديوان شعر - وتفسيره هذا تحاشى فيه الحروف المعجمة كلها ، وأكمل تأليفه على عامين ، انتهى منه سنة ١٠٠٢ هـ ، وجازاه أكبر على هذه الخدمة بعشرة آلاف روبية (٣) وكان فيضى يعتز بهذا التأليف ، ويقدر من خلال كتابه مدى قدرته البيانية ، وملكته اللغوية ، ويعترف الشيخ البدايوني - رغم الاختلاف فى العقيدة والمذهب - بعبقريته العلمية وتبحره فى اللغة ، فيقول :

« كان نشيجا وحده فى الفنون كالشعر والألغاز والعروض ، والقوافى ، والتاريخ واللغة ، والطب والإنشاء » .

(١) ملخص من « شعر العجم » للعلامة شبلى النعمانى ، ج ٣ ، ص ٢٨ - ٧٢ .  
(٢) ألف فيضى هذا التفسير - الذى التزم فيه بأن لا يستعمل أيًا من الحروف المعجمة والذى طار صيته فى عصره ، وتحدث به القاصى والدانى - لاثبات فضله ونبوغه ، والرد على اتهامه بالانصراف عن العلوم الدينية ، ولكن هذا العمل - مهما أثبت له من قدرته على اللغة العربية ، وامتلاك لخاصية البيان فيها - لم يضيف شيئاً علمياً مفيداً ، وإنما مثله مثل بعض الكتبة البارعين فى الخط ، الذين كانوا يتظاهرون بدقة خطهم وجمال فنهم ، بكتابة سورة الاخلاص - كاملة - على حبة واحدة من الأرز ، فجاءت - نتيجة ذاك - عبارة متكلفة لا لذة فيها ولا جمال ولا طراوة .

ولعل ما أثرة عالم الشام الشيخ محمد بدر الدين المعروف بابن الغزى الدمشقى ( م ٩٨٤ هـ ) كانت أنفع وأحق بالتقدير والاجلال ، اذ أنه فسر القرآن الكريم فى مائة ج ألف وثمانين ألف بيت من الشعر ، ثم لخصه فى مجموعة أخرى من الشعر ، وقدمها الى السلطان سليمان القانونى ، وعرضه السلطان على العلماء حتى يبينوا اذا كان ما يخالف عقيدة الجمهور أو ان كان وقع فيه تحريف ، واتفق العلماء على صحته واعترفوا بفضله ، فأعطاه السلطان جائزة قيمة عالية .  
(الكواكب السائرة لنجم الدين الغزى ، وراجع أيضاً « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للعلامة محمد بن على الشوكانى اليمنى صاحب « نيل الأوطار » ( م - ١٣٥٠ هـ ) ج ٣ ، ترجمة محمد بن محمد الغزى - ص ٣٥٣) .

(٣) مآثر العلماء ، ج ٢ ، ص ٥٨٧ .

وكان شغوفاً بجمع الكتب ، أنشأ مكتبة قيمة ضخمة كانت تحتوى على أربعة آلاف كتاب ، أكثرها مم ألفه بنفسه ، أو ألقت في عصره .

ويجمع العلامة عبد القادر البدايونى وجميع من فى عصره ممن كانت تجيش فى قلوبهم الحمية الإسلامية والغيرة على الدين ، ويعصرهم الحزن والألم على ما يشاهدون من الأوضاع والظروف السيئة فى عهد الملك أكبر ، على أن فيضى كان كوالده فريسة الاضطراب والتبلىل فى الأفكار ، والتزلزل فى العقائد ، وأن له يداً فعالة فى انحراف « أكبر » وإلحاده وأن صورة « فيضى » كما تتجلى فى « منتخب التواريخ » للبدايونى ، إذا أخذناها بالحيطه ، وبإبعاد عناصر المبالغة ، والإنشاء الأدبى الطليق ، لا تخلو من التحرر والانطلاق ، وعدم التقيد بالإسلام ، وذكر العلامة النعمانى مقتبسات من مذكرته تدل على طابع السخرية والاستهزاء (١) ، يقول العلامة النعمانى :

« أقام فيضى وأبو الفضل مجالس علمية ظهر لأصحاب البلاط بكل وضوح أن هؤلاء المتعصبين ( من العلماء المجتمعين فى البلاط ) لا يحملون سوى أدوات اللعن والتكفير (٢)» .

ويبدو أن أفكار فيضى وآراءه الملحده انتشرت فى الآفاق ، وذاع صيتها فى الأطراف فى حياة فيضى نفسها ، فإن التواريخ التى استخرجت منظومة بمناسبة وفاته تدل على ذلك ، وقصة وفاته تحمل فى نفسها العبرة والدرس .

أما صنوه أبو الفضل - فقد كان كما تقدم - من نوادر الرجال فى الذكاء وسيلان القريحة والتفنن فى العلوم ، وكانت له اليد الطولى والقدح المعلى فى الكتابة والإنشاء ، كما كان أخوه الأكبر صاحب الكعب العالى فى الشعر يقول فى كتابه « أكبر نامه » :

« إنه جن جنونه فى صغره ، ضد التقليد والظاهرية ، والصلف ، والإعجاب بالرأى» (٣) .

---

(١) أنظر « شعر العجم » ج ٢ ، ص ٤٩ و ٥٠ .

(٢) « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ٤٠٦ - ٤٠٥ ، وانظر الكلام على مذهب فيضى وآرائه فى « دربار

أكبرى » بقلم الشيخ محمد حسين آزاد ، ص ٤٧١ .

(٣) يقول العالم الفرنسى الشهير « CARRADEVAUX » عن كتاب « أكبر نامه » : « انه وثيقة

تاريخية يحق للشرق أن يعتز بها وان العبقريات الانسانية التى عرفت بنفسها عن طريق هذا الكتاب الضخم ، يخيل لنا أنهم سبقوا عصرهم فى تدبير شؤون الدولة والتنظيم للبلاد

CARRA DE VAUXLES PENSEURS DE L'ISLAM - PARIS . 1921

وسعد بالثول فى البلاط الملكى عام ٩٨١ هـ بمدينة آكره ، وأهدى إلى الملك تفسير «آية الكرسى» ثم أهدى إليه تفسير «سورة الفتح» عام ٩٨٢ هـ ، ومن ثم نال الزلفى عند الملك ، ولم يزل يتقرب إليه حتى سلمت إليه الدولة وقوانينها - أعظم مآثره ، وإنها مرآة صادقة لوقائع الدولة التيمورية وأحوالها الدينية والعلمية ، والعائلية والمدنية والاجتماعية ، والاقتصادية والزراعية ، والصناعية والحربية ، والدولية ، ويلى هذا الكتاب الثانى «أكبر نامه» (١) ، وهو يشتمل على سيرة السلاطين التيموريين فى الهند ، وأحوالهم ، وهناك - عدا هذين الكتابين العظيمين - مجموعة رسائل بعنوان «إنشائى أبو الفضل» ، ومؤلفات أخرى ، وقد قام نرسنك ديو - بإشارة الملك جهانكير - باغتياله عام ١٠١١ هـ ، فحزن عليه «أكبر» حزناً عميقاً وبكى لموته ورثاه .

يقول الدكتور محمد باقر فى مقاله بعنوان «أبو الفضل» الذى جاء فى دائرة المعارف الاسلامية الأردنية :

«كان لأبى الفضل التأثير الكبير على عقائد الملك الأكبر ، ولما أنشأ أكبر عام ٩٨٢ هـ الموافق عام ١٥٧٥ م بناية خاصة للعبادة فى فتح بور سيكرى ، وجمع علماء الدين ليستمع إلى مناظراتهم ومباحثاتهم ، كان أبو الفضل ممن يحضر هذه المناظرات ، وكان يؤيد - دائماً - ما يذهب إليه أكبر فى العقائد والآراء ، وينحاز إليه ، حتى أثبت لأكبر أن يذهب إليه من آراء ومعتقدات أرجح وأفضل جداً من آراء العلماء المعاصرين ، وأصدر عام ١٥٨٩م قراراً من البلاط ينص على أن المرجع النهائى فى الفصل بين خلافات العلماء الدينين هو «جلالة الملك أكبر» ، وقد رغبت نفسه أثناء هذه المناظرات التى كانت تعقد فى معبده فى ابتداء دين جديد فوضع أساس هذا الدين عام ١٥٨٢ م ، واختاره أبو الفضل أيضاً» (٢) .

تختلف الآراء فى أبى الفضل ، أنه كان إنساناً متحرراً ، طليقاً من القيود الدينية ، وبعيداً عن العصبية فحسب ، أم كان مضللاً منافقاً كائناً للإسلام ، يظن الناس - عادة - أنه كان رحب الصدر ، متسامحاً مع الناس ، يراعى الصدق والدقة فى البيان والأحداث والوقائع ، ولا يظرى الناس ، ولا يثنى على أحد أكثر من حقه ، وكان يكره تزمت المتزمتين ، وعصبيتهم ، ويحسن بنا أن نذكر هنا حادثة نستطيع بها إدراك عقلية أبى الفضل ، وسبو أعماقها والاطلاع على نواياه :

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٨٨٩ - ٨٩٠ .

« حميت المناظرة - ذات مرة - فى قصر الملك أكبر الذى بناه للعبادة ، حول فضائل القرآن ، والإنجيل ، إذ كان أتباع كل واحد من هذين الكتابين المقدسين يقولون إن كتابهم هو المنزل من السماء لا غير ، فأرسل « أكبر » إلى رجل من المجاذيب يدعى الشيخ قطب الدين ، فجاء الشيخ وتحدى المسيحيين ، وقال : تعالوا نوقد النار ، وندخل فيها ، ونثبت عن طريقها صحة دعوانا ، يقول البدايونى : فأوقدت النيران ، وتقدم الشيخ قطب الدين وجذب بأطراف معاطف البطارقة المسيحيين ، وقال : تعالوا باسم الله ، ندخل فيها ، فلم يتجرأ أحد منهم أن يقتحم النار » (١) .

أما أبو الفضل فيحكى هذه القصة فى أسلوب يدل على نفسيته الحاقدة على الإسلام ، فيقول :

« أقام البطريق رادلف ( RUDOLF ) - الذى كان نادرة عصره فى العلم والذكاء - أدلة عقلية راجحة ، ولكن هؤلاء الكذابين المتزمتين جعلوا يردون عليها فى طيش وسطحية ، ولم تكن لدلائلهم أى قيمة ، فخجل المعارضون لرادلف ( المسيحى ) ، وبدأوا يسبون الإنجيل بدلاً من الرد على الأدلة ، فتحداهم رادلف ، ودعاهم إلى اقتحام النار ، ليثبت كل فريق دعواه بمروره على النار سليماً ؛ ولكن خاف هؤلاء الجبناء أصحاب القلوب السوداء ، وتظاهروا إزاء هذا التحدى بالتزمت والمراء ، وكان هذا الجبن منهم صدمة لقلب السلطان أكبر » (٢) .

وكان من الحاضرين فى البلاط - آنذاك - مع البطريق الإيطالى رادلف أكوب (Rudolf Aqua Viva) - أحد المسيحيين الأسبان ، أنطونى مانسريت (Antony Mon esrrate) أحد الإيرانيين الذى اعتنق المسيحية ، فرانس هنرى كيس (Francis Henri Wuez) وألف أنطونى مانسريت كتاباً باسم -Mongaticae Legationis Com-mentarius فى اللغة اللاتينية ، وتحدث فيه عن انطباعاته ومشاعره حول بلاط السلطان أكبر ، ويلاحظ فى الكتاب دفاعه عن جبن البطريق رادلف وتهيبه للدخول فى النار ، ويعترف بأن التحدى باقتحام النار كان من قبل عالم مسلم ، ، وتخلص منه « رادلف » قائلاً: إن هذا اختبار الله ، وذلك يخالف مبادئ الدين المسيحى » (٣) .

(١) منتخب التواريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٢) أكبر نامه ، ص ٢٥٥ .

(٣) FATHER ANTONY MONSERRATE. MONGATIONIS COMMENTARIUS . (٣) TRANSL . J . S . HOLLAND OXFORD UNIVERAITY PRESS . 1922 P . P .

يكفى تناول أبي الفضل هذه الحادثة بالتحريف والتزوير ، ودفاعه عن «رادلف» وأسلوبه مع المعارضين له من العلماء المسلمين ، للدلالة على كراهية أبي الفضل للإسلام والنفور منه ، فلم يكن يتعذر على مثله فى الذكاء والدهاء أن يبذر فى قلب السلطان بذور الشك والارتياب واللا دينية التى تنحرف به عن الإسلام ، وتنفره منه .

وجاء فى « مآثر الأمراء » أن الملك جهانكير كان يقول : لقد لقن الشيخ أبو الفضل والدى أن خاتم النبیین محمداً - ﷺ - كان أفصح الناس وأن القرآن من تأليفه ، ولذلك أوعزت إلى نرسنكه ديو عند عودة أبي الفضل من الجنوب ، أن يقتله ، وكان والدى - بعد ذلك - تاب من هذه العقيدة « (١) » .

ولكن أوثق شاهد وأصدقه على ذلك ، تصريح من أبي الفضل نفسه ، يدل على أن ما قام به من دور باستعانة علمه وذكائه من صبغ أهواء الملك ورغباته بالصبغة العلمية ، وتقويتها بالأسلحة العلمية ، ورفع مكانته من والى الدولة المسلمة إلى « إمام العصر » و « مرشد الأمة » لم يكن ضميرهمقنتعاً به مرتاحاً إليه ، وكان يستيقظ فيه - أحياناً - هذا الضمير ويثور هذا الشعور ، فيقول فى رسالة وجهها إلى الأمير عبد الرحيم « خانخانان » يتحدث فيها عن نفسه :

« إن كاتب هذه السطور لتورطه فى جحيم الأشغال التى لا تعنيه ، سقط من مرتبة عبد من عباد الله إلى حضيض عبد النفس والهوى ، وكان أن ينادى يا عبد الدينار والدرهم ، وأنه يبدى عن طريق هذه الكتابة ألمه وحزنة ويرى أنه بعد هذا السعى السفیه الحثيث ، طوال ثلاث وأربعين سنة ، ولا سيما هذا الصراع الذى دام اثنتى عشرة سنة مع أبناء هذا الزمان لم يبق فيه بقية من صبر ، ولا قوة على الاجتناب والبعد » (٢) .

### تأثير زوجات الملك الهندوكيات :

كان عاملاً قوياً من عوامل انحراف « أكبر » وتحول نفسيته أنه بدأ يقيم الصلات والقربات - لتوطيد أركان الدولة ، وإحكام السلطة - مع الراجوات - الأمراء - الراجبوت ، ويعينهم على المناصب الخطيرة العالية ، وأقدم لكسب ثقتهم وإرضائهم - على أمور وأعمال لم يسبق إليها أحد من سلفه من الملوك والسلاطين ، كالنهى عن ذبح البقرة ، والتخلى

(١) مآثر الأمراء ، ص ٦١٧ .

(٢) « انشأء أبو الفضل » ( مجموع رسائل لأبى الفضل ) ج ٢ ، ص ١٠٢ ، طبعة لكهنشو ١٨٨٣ م .



للناس من نافذة القصر مستقبلاً الشمس ، وحلق اللحية . . . ووضع نقطة من الطين الملون في وسط الجبين - وهو من شعار الهنادك - والزواج من النساء الراجبوت ، ومخالطة الأميرات الهندوكيات ، والمشاركة في العادات والمظاهر الهندوكية ، وقد كان لهؤلاء الزوجات الهندوكيات ، وإخواتها وذوي قرباها - عن طريقها - أثر كبير على « أكبر » وكان ذلك طبيعياً ، وأن أول هدة وقعت في بيان الدين ، وزلزلت قواعده ، ترجع إلى هذه الصلة والقربة مع الهندوكيات .

وتفصيل هذا الإجمال أن الشيخ عبد الرحيم قاضى « متهرا » أعد العدة لبناء مسجد في المدينة ، فأغار أحد البراهمة في جنح الليل ، وحمل أدوات البناء وكل ما جهز لأجله ، وبني معبداً هندوكياً ، فلما أخذ المسلمون يناقشونه ويلومونه انفجر يسب الإسلام والرسول - ﷺ - فرغ القاضى عبد الرحيم أمره إلى « صدر الصدور » الشيخ عبد النبى ، فأصدر الشيخ عبد النبى ، امراً بطلبه إلى مجلسه ، وحقق معه في الأمر ، حتى تبين أن الحادثة كما ذكرت ، فحكم الشيخ بإعدامه ، ولكن هذا البرهمى كان مرشد الملكة جوده بائى ، والقائم بأعمال « بروهت » - وهو الذى يكون عالماً من علماء الديانة الهندوكية ، ويقوم بالشؤون الدينية ، وأداء تقاليد الأعراس والمآتم ، وكفن الموتى وإحراقهم فى الأسر الهندوكية - وكانت الملكة تضغط على أكبر ليتدخل فى الأمر ، ويصدر العفو عن المجرم ، ولكن لم يكن الملك يريد التدخل فى الشؤون القضائية وإغضاب صدر الصدور ، وبالفعل نفذ صدر الصدور حكم الإعدام ، فثارت وتطورت القضية بدل أن يقضى عليها وتدفن ، كما يقول البديوانى :

أو غرت أخوات راجوات الهند العظام صدر السلطان ، وحركن فيه النخوة حيث أنه أطلق الحرية لعلماء الدين حتى ركبوا رؤوسهم ، لا يبالون برضا السلطان وأمره ، وأثيرت فى البلاط مسألة أن المذهب الحنفى لا ينصر على القتل عقاباً لشتيم الرسول - ﷺ - ولذلك فإن هذا الإجراء مخالف للمذهب الذى يسود قانونه فى هذه البلاد .

وانتهز الشيخ مبارك هذه الحادثة لنفير السلطان أكبر من علماء الدين وتخليصه من تأثيرهم ، لأنه لما استفسر الشيخ مبارك عن رأيه فى هذا الأمر، قال له :

« إن جلالة السلطان إمام هذا الزمان ، ومجتهد هذا العصر ، فلا حاجة فى رصدار رسائله وأحكامه - سواء كانت تتعلق بأمور الدين أو شؤون الدنيا - إلى الاستعانة بأى عالم

من العلماء أو شيخ من المشايخ « (١) .

## مذكرة الاجتهاد والإمامة :

كانت هذه الفرصة السانحة التي أخذ فيها الشيخ مبارك بيد الملك وأعد تلك المذكرة التاريخية الخطيرة التي تعتبر حجر الأساس في توجيه « أكبر » وحكومته نحو الانحراف والضلال ، ويمكن أن تسمى الباب الرئيسي لذلك القصر الفخم الذي قام على الردة العقلية والحضارية والعقائدية (٢) ، لقد جاء في هذه المذكرة بصراحة ووضوح :

« إن منزلة السلطان العادلة أكرم عند الله من منزلة المجتهد ، وإن جلاله السلطان ، كهف الأنام ، أمير المؤمنين ، ظل على العالمين ، أبا الفتح جلال الدين محمد أكبر الملك الغازي ، أعدل الناس وأعقلهم وأعلمهم ، فإن كان هو - بناءً ما تقدم - يرى رجحان رأي - تيسيراً علي بنى آدم - في المسائل التي اختلف فيها المجتهدون ، بذهنه الثاقب ورأيه المصيب ، ويقره حكماً فاصلاً فإنه يعتبر هذا الحكم من الملك حكماً قاطعاً مجمعاً عليه ، ويتحتم على جميع الرعية الأخذ به والخضوع له » .

أعدت هذه المذكرة في رجب عام ٩٨٧ هـ ، ونفذت في المملكة ، ووقع عليها جميع العلماء بإشارة من الملك ، ومن ثم أصبح الملك رماماً مجتهداً ، ومستوجب الطاعة والانقياد ، وخليفة الله في الأرض وكانت هذه نقطة البداية لرحلة الردة التي انتهت لا إلى الزيغ والانحراف عن الإسلام فحسب ، بل إلى المعارضة والعناد ، والمكابرة .

ووقع الشيخ مبارك أيضاً على هذه المذكرة ، وكتب بعد توقيعه :

« وكان هذا ما كنت أبغيه ، وأحنّ له من أعماق قلبي ، وأترقبه من أعوام طوال » (٣) :

## نظرة على هذه المذكرة :

لا يخلو تاريخ الحكومات المسلمة الطويل من أمثلة التأييد المطلق للسلطين وأصحاب

---

(١) منتخب التواريخ ، ج ٣ ، ص ٨٣ .

(٢) راجع النص الكامل لهذه المذكرة ، في « منتخب التواريخ » ج ٢ ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، « طبقات أكبرى » ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ، وراجع ترجمتها العربية المفصلة في « نزهة الخواطر » ج ٥ .

(٣) انظر « ( CAMBRIDGE HISTORY OF INDIA. VOL. 4M P. 123 ) » .

يصرح البديوانى بأن عقلية الشيخ مبارك كانت تعمل وراء هذه المذكرة وهو الذي كتب مسودتها ، ويستفاد من تصريحه أيضاً أن الشيخ مبارك كان ممن وقّع على هذه المذكرة ، ولكن الغريب أن أبا الفضل لم يذكر اسم والده الشيخ مبارك وقع على المذكرة ، رغم أنه تحدث عنهم وذكر أسماءهم .

السلطة والقوة ، والدفاع عنهم ، والتماس العذر لأخطائهم وزلاتهم وتأويل غلطاتهم وتدعيم أوامرهم الجائرة - التي تلحق - أحياناً - الضرر البالغ بالإسلام وتسيء إلى سمعته - وإجراءاتهم الخاطئة ، ومشروعاتهم المضللة بالشواهد الفقهية والكلامية ، وقد حدث في التاريخ أن العلماء أخطأوا ونزلوا مراراً وأساءوا إلى مكانتهم ومنصبهم ، نزلوا عن مستواهم - لمصلحة اختيارية أو اضطرارية - إلا أنه يصعب العثور على نظير في التاريخ لهذه لمذكرة - التي أعدها الشيخ مبارك وحده - لمساندة السلطان وتدعيمه ، وتدبير المؤامرة ضد الشريعة والدين - فقد خول فيها الملك الشاب الفج (١) ، مكانة أعلى من مكانة المجتهدين ، وحق الترجيح والاختيار في المسائل التي اختلف فيها الأئمة المجتهدون واعتبره أعقل الناس وأعدلهم . وهو الأمامي المحض ، الذي كان من قبل . مطلق الجراح ، متحرراً منطلقاً من كل القيود ، والذي فقد ثقته في علماء الإسلام وشراح الدين ، وفقهاء الشريعة ، وتأثر بالبيئة الهندوكية المسيطرة على بيئته وبلاطه تأثراً عميقاً ، ووجد فيه ميل شديد إلى إتخاذ العادات والتقاليد والأفكار الهندوكية ، وكان يملك سلطة مطلقة ، وحكومة قوية جبارة ولم يكن يستفيد من ذلك إلا أصحاب الأغراض والأهواء ، وأولئك العلماء في البلاط الذين كانوا يريدون باسم السلطان ، وتحته ستار أوامره ورسائله إطلاق الحرية ، وإيجاد جو من طرح القيود وتعدى الحدود ، وتحويل الشريعة الإسلامية إلى لعبة بين الأطفال ، أو أنهم كانوا يحلمون بالثأر والنتقام من معارضيتهم وأعدائهم .

وما كان الشيخ مبارك في مثل فطنته وذكائه ممن تخفى عليه نتائج هذه الخطوة وعواقبها الخطيرة ، ويصعب لأجل ذلك تأويل تلك المؤامرة التي كانت تراد من هذه المذكرة ، ويحق لمؤرخ ناقد بصير يعرف عوقب هذه الاجراءات ونتائجها الوخيمة أن يخاطب اليوم - روح الشيخ مبارك ويقول :

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

سقوط مخدموم الملك وصدر الصدور :

وبدا أفول نجم مخدموم الملك ملا عبد الله السلطانبوري ، وصر الصدور الشيخ عب النبي من يوم صدور هذه المذكرة ، ومساندة الشيخ مبارك العلمية ، ابنيه النابغتين فيضى وأبى الفضل في البلاط ، وجيء ذات يوم بمخدموم الملك والشيخ عبد النبي - اللذين نظرا إلى هذا التغيير الحادث في البلاط ، وكانا قد اعتزلا في البيت ، وتركوا الخروج - إلى

(١) كان أكبر - اذا ذاك - في الثامنة والثلاثين من عمره .

البلاط ، أجلسا فى صف النعال (١) ، ثم أمر مخدوم الملك أن يغادر إلى الحجاز ، فرحل إلى الحجاز عام ٩٨٧ هـ واستقبله هناك العلماء الكبار بحفاوة بالغة وأكرمه أستاذ العلماء العلامة شهاب الدين أحمد ابن حجر الهيتمى ، وبجله ، فمكث فى مكة المكرمة ثلاث سنين ، ثم عاد إلى الهند وما أن بلغ كجرات حتى سقى السم ، ووافته المنية هناك عام ٩٩٠ هـ أو ٩٩١ هـ ، وتشهد كل القرائن على أن عملية السم كانت بإشارة من السلطان وقد صرح بذلك خافى خان فى « مآثر الأما » (٢) .

وتوجه الشيخ عبد النبى - أيضاً - إلى الحجاز ، وأقام هناك مدة يسيرة ولكن لعله لم يستطع أن يمحو من ذاكرته عهد عزه وسلطته ، وجاهه وشوكته ، فرجع إلى الهند ، والتمس من الملك العفو والمسامحة ، ويقول عبد القادر البدايونى إن الملك أمر الراجة تودرمل أن يحاسبه ، فحسبه الراجة وشدد عليه فى الحساب والمناقشة ، حتى نفذ صبره ولقى المنون إلا أن « مآثر الأما » يقول : « إن الملك وكل به أبا الفضل ، فقتله خنقاً بيده » (٣) .

### الإعداد للألف الثانى وتنفيذ الدين الإلهى :

وكانت الخطوة الثانية بعد إحلال الملك منزلة المجتهد المطلق ، المطاع الحق أنه قد مضى على طلوع الإسلام ألف سنة ، ويبدأ الألف الثانى ، وإن الدنيا بطلوع هذا الألف الثانى تستأنف عهداً جديداً ، فلا بد لها من دين جديد ، وقانون جديد ، وشارع جديد ، وحاكم جديد ، وليس فى العالم لهذا المنصب الجليل إلا أكبر ، صاحب التاج والعرش ، والإمام العادل العاقل ، يقول المؤرخ عبد القادر :

« ولما أنه قد رسخ فى ذهن الملك أن مدة ألف سنة ، بعد البعثة النبوية - وهى العمر الطبيعى لهذا الدين - قد انقضت ، فلم يبق هناك ما يحول دون إبداء تلك الرغبات الكامنة فى الصدر » (٤) .

---

(١) « منتخب التواريخ » ج ٣ ، ص ٧٩ - ٨٣ .

(١) « نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٢) « نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٤) « منتخب التواريخ » ، ص ٣٠١ .

وبعد هذا القرار الحاسم عملت تلك التغييرات التي تكفلت بنشر هذه الفكرة وترسيخ جذورها في أنحاء المملكة ، ومن ثم كتب التاريخ الألفى<sup>(١)</sup> على العملة - التي تتداولها الأيدي ، وليست وسيلة أكثر منها ذيوغاً وانتشاراً ، لإقامة الحد الفاصل في تاريخ العالم وتقسيمه إلى الفترتين المتميزتين ، وأسند إلى لجنة مكونة من العلماء تدوين تاريخ جديد باسم « التاريخ الألفى » ، وذكروا فيه كلمة الوفاة « الرحلة » ، بدل الهجرة لبيان السنين ، وبذلت محاولات لإفهام الناس :

« إنه قد أظل زمان مرشد هذا العصر الذي يزيل الخلافات بين اثنتين وسبعين فرقة من المسلمين والهنادك ، وأنه هو الملك صاحب الصفات القدسية »<sup>(٢)</sup> .

وظهر من ذلك اليوم « الدين الإلهي الأكبرى » الذى احتوى على الشرك الصريح المتمثل فى عبادة الشمس ، والكواكب ، بدل التوحيد ، وعلى عقيدة التناسخ مكان البعث ولنشور ، وكان أكبر يأخذ البيعة من الناس على هذا الدين الجديد وكانت الكلمة التى يدخل بها الإنسان فى هذا الدين : لا إله إلا الله ، أكبر خليفة الله « وكان مع هذه الكلمة عهد وميثاق ، يقول فيه معتنق هذا الدين :

« إننى - عن رغبة ورضا منى وحب من قلبى - أفارق دين الإسلام المجازى التقليدى الذى سمعت عنه من آبائى ، وشهدتهم عليه ، وأرفضه ، وأدخل فى الدين الإلهي الأكبرى ، وأقبل مراتب الإخلاص الأربعة فى الدين ، من ترك المال والنفس ، وترك العرض والدين »<sup>(٣)</sup> .

وكان الربا والقمار ، والخمر والخنزير حلالاً طيباً فى هذا الدين ، ونهى فيه عن ذبح البقرة ، وأجريت تعديلات فى أحكام النكاح ، وكان النهى البات عن الحجاب والختان ، وقد نظم فيه الزنا تنظيمًا خاصًا ، وعين للمومسات مكان خاص ، وأصدر بصدده قانون ، فكان بغاء رسميًا وعدلت طريقة الدفن للموتى .

وخلاصة الأمر أنه دون دين هندی أكبرى جديد ، وأثر فيه أسلوب الحياة الذى يوفر الغذاء للميول والرغبات الطبيعية ، وإشباع الشهوات النفسية ، وكانت تدعو إليه الأغراض

---

(١) أيضًا ص ٣٠١ .

(٢) « منتخب التواريخ » ، ص ٢٧٩ .

(٣) أيضًا ، ص ٢٧٣ .

السياسية والقومية ، والمصالح الخارجية وترجح كفته (١) .

## أوج الانحراف الطبيعي والضلال الديني في « أكبر » :

ونود أن تقدم هنا مقتبسات من كتاب أبي الفضل العلامي - الذي كان العقل المدبر واليد الفعالة وراء أكبر - لأى مدى ذلك الضلال الديني ، والانحراف الطبيعي ، والزيغ والجنون الذى بلغ بأكبر إلى ما بلغ ، وإن هى إلا وقائع متناثرة جاءت فى تصريحات أبى الفضل ، تدل على ذلك التحول الشامل والانحراف المستطير ، الذى ساد ذلك العصر ، ويمكن من خلالها تصور تلك السلسلة الملتهبة التى طوقت بها عنق الإسلام فى هذه البلاد .

### عبادة النار :

يقول أبو الفضل : « إن جلاله السلطان - لتنور بصيرته - شغوف بالنور ، ويعتبر تقديسه وتعظيمه من عبادة الله والثناء عليه ، وإن الجهلة الذين أظلمت قلوبهم يعدون ذلك عبادة النار والإعراض عن الله » (٢) .

ويقول : « يشعل الخدم بعد غروب الشمس اثني عشر شمعةً ممزوجاً بالكافور ، ويضعون كل شمعة من هذه الشموع فى قِصاع من الذهب والفضة ، ويأتون بها إلى حضرة السلطان ، ويتغنى أحد من هؤلاء الخدم ، حلو اللسان جيد النغم بأناشيد الثناء على الله فى ألحان جميلة جذابة متنوعة ، وهو يحمل الشمعة ، ثم يدعو فى الختام ليمد الله فى عمر جلاله السلطان وثروته » (٣) .

### عبادة الشمس :

كانت عبادة إله النور فى عمارة تسمى « دو آشيانه منزل » ومنها بدأ تعظيم الشمس ،

---

(١) ولم يكن الموقف مع الدين الإسلامى والديانة الهندوكية - فى هذه المسامحة المطلقة ، وحركة المصالحة التامة - متساوياً ، بل رجحت - بطبيعة الحال - كفة ذلك الدين أو الفرق الذى كان له نفوذ وتأثير فى البلاط ، وميل إليه فى نفس السلطان ، وقد اعترف مؤلفو « مختصر تاريخ الهند » دبليو ، ايج ، مورلند واى ، سى جترجى : بأن أكبر نهى عن ذبح البقرة إرضاء للهنادك ، وعاقب من خالف هذا الأمر عقاباً صارماً شديداً ، وكانت قوانين أكبر أقرب إلى الديانة الهندوكية وأمسراً رحماً بها منها بالدين الإسلامى ، وقد نجحت هذه السياسة « ( ASHORT HISTORY OF INDIA ) ٢٥١ .

(٢) آئين أكبر ، ص ٢٨ ، طبعة لكهنو ١٨٨٢ م .

(٣) أيضاً ج ١ ص ٢٩ .

ويقول جلالة السلطان إن للشمس اهتماماً خاصاً بحال السلاطين ، ولأجل ذلك يعتقد أن عبادتها عبادة الله ، إلا أن قصار النظر يقعون في سوء الظن ، لماذا يحترم العامة من الناس الأغنياء أصحاب القلوب السوداء بغرض المنفعة الذاتية ؟ ويقصرون - لجهلهم وعماهم - في تعظيم منبع النور ، ويرمون العابد بما يرمون ، أصيبت عقولهم بآفة ! وإلا فلماذا أصبحت سورة الشمس نسياً منسياً « (١) .

ماء نهر « كنكا » :

يقول : « إن السلطان يشرب - دائماً - من ماء نهر « كنكا » (٢) (الكنج) سفراً وحضراً ، وقد عين فريق من الموظفين الثقات على شاطئ النهر ، يأتي إلى السلطان بمائه في أكواب مملوءة مختومة ، وحينما ينزل جلالة السلطان في آكره ، أو فتحبور ، يؤتى له بالماء من قرية « سورون » وفي هذا الوقت بالذات حيث نصبت الخيمة الملكية في لاهور تجد الخزان ريان بالماء الجيد الصافي من « هردوار » (٣) . ويستعمل في المطبخ ماء نهر « جمد » أو نهر « جناب » أو ماء المطر ، إلا أن هذا الماء يكون ممزوجاً بشيء من ماء نهر كنكا « (٤) .

الرسوم والتصوير :

« تكلم - ذات يوم كعبة الدنيا جلالة السلطان في غرفة خلوته حيث كان جمع من المریدین السعداء وليس غيرهم ، فقال : إن فريقاً من الناس يعادون فن التصوير ، ويبينون عيبه وفساده ، ولكن القلب لا يقبل أقوالهم وأدلتهم ، بل إن ما يدل عليه العقل ، وتشهد عليه القرائن أن المصور يكون أقرب إلى معرفة الله - تعالى - من غيره من الطبقات البشرية المختلفة ، لأنه عند تصويره لحيوان يأتي بشبيه لكل عضو من أعضائه ، ثم حين يكمل الصورة وينظر إليها يرى أنه رغم هذه الريشة المصورة الساحرة ، يعجز تماماً عن أن ينفخ فيه الروح ، فتجلى له عند ذاك قدرة الخالق المطلقة ، ويسجد أمام هذا الصانع العظيم (٥) .

(١) أيضاً - ج ٣ . ص ١٨٤ .

(٢) النهر المقدس عند الهنادك ، يعبدونه ويرمون فيه موتاهم ، ويتقربون بالاغتسال فيه .

(٣) مدينة مقدسة على شاطئ نهر كنكا في الولاية الشمالية يحجون إليه .

(٤) آئين أكبرى ، ج ١ ، ص ٣٣ .

(٥) أيضاً ٢ ، ص / ٧٨ .

## مواقيت العبادة :

« عند الفجر ، الذى به البداية لليوم السعيد ، والإشعاع والتنوير ، وعند الظهر حيث يحيط ضوء الشمس الوهاجة بأطراف العالم ، وينشط الناس نشاطًا مضاعفًا ، وعند العشى إذ تغيب الشمس منبع النور والضياء عن أبصار الناظرين » (١) .

## سجدة التحية والتعظيم .

يقول : « يسجد له المریدون المعتقدون سجدة التحية والتعظيم ، ويرونها سجودًا لإله النور » .

## البيعة والسلوك :

« يأتى طالب المعرفة واليقين ، حاملاً بيده ، ويضع رأسه على قدمه الشريفة ، ويقول بلسان حاله : أوجه قلبى بإرشاد سعاة جدى وحسن حظى إلى طاعة السلطان والخضوع لأمره » (٢) .

## آداب المقابلة :

وكان من آداب المقابلة « أن ينادى شخص عند مقابلة شخص للسلطان ، بالله أكبر ، وينادى آخر ، « جل جلاله » .

## كراهية التاريخ الهجرى والنفور منه :

« كان جلاله السلطان من مدة مديدة يفكر فى إجراء تقويم جديد للشهور والسنين فى الهند ليدفع المشكلات ويوفر التسهيلات ، ولا يحب جلاله السلطان التاريخ الهجرى لنقصه وعيوبه ، ولكن طبيعة جلاله السلطان التى تجبر القلوب لا تتحمل أن تكسر خاطر الكثيرين من قلى الإدراك والفهم ، والقاصرى النظر الذين يعدون إجراء تقويم جديد قضية دينية ، وكان هذا هو السبب فى أن جلاله السلطان لم يستطع أن ينفذ هذا التقويم فعلاً » (٣) .

## الأعياد والمهرجانات غير الإسلامية :

« يسمى المهرجان الأول مهرجان نوروز ، فعندما تكمل الشمس دورتها السنوية

(١) أيضاً ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٢) أيضاً ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٣) أيضاً ص ١٩٣ .



وتدخل في برج الحمل ، وتفيد أهل الدنيا ببركاتها ، يعقد احتفال لتسعة عشر يوماً كاملاً ، تقضى في نشوة وسرور ، ولذة وترف ، ويحتفل في نفس هذه الأيام بالعيد ليومين ، وتوزع على الناس أشياء لا حصر لها من النقود التي لا تعد ، وتوزع الصدقات والهدايا والتحف ، وأن غرة « فروردين » وتسعة عشر « فروردين » ، هما يوم الشرف والفخار ، خاصان بالعيد . ويعتقد المجوس أن اليوم الذي يكون سميّاً للشهر من أيامه مبارك جداً ، ويحتفلون بذلك اليوم في الملاذ والمسرات ، ويعطون المغنين والمغنيات ، ويعدون لقرى الناس ، فقتضى جلاله السلطان أثرهم وعين كل شهر في التقويم الشمسي لمهرجان خاص ، وفيما يلي كشف بهذه الأيام :

« ١٩ / فروردين ، ٣ أردى بهشت ، ٦ / خورداد ، ١٣ / نير ، ٧ أمرداد ٤ / شهربور ، ١٦ ، مهر ، ١٠ / آبان ، ٨ ، ١٥ ، ٢٣ / دي ، ٢ / بهمن ٥ / اسفنديار » .  
هذه هي الأيام التي تعقد فيها المهرجانات ، وتقام أنواع من الزينات ، وتنصب أقواس النصر ، وترفل البلاد في حلة من الجمال والبهاء ، ويهتف المحتفلون في نشوة وطرب وسرور ، هتافات الفرحة والحبور .

وتحضر عند كل فترة من فترات النهار الطبول ، فيغنى المغنون ، ويطرب المطربون ، ويشيعون بالألحان والنغمات الحلوة ، والسرور في الحضور .  
**فرمان يمنع الزكاة :**

بدأ هذا العام في « التقويم الإلهي » من ٥ / صفر ٩٨٩ هـ (١) ، فصدر الأمر السلطاني برفع « تمغة » (٢) وإلغاء الزكاة (٣) ، وأصدرت فرامين لتنفيذ هذا الأمر إلى جميع الجهات ، « ليعلم الموظفون في الحال والمستقبل ، والعاملون في البلاد المحروسة أنه قد صدر فرمان في هذا العهد السعيد الذي يبدأ من سن ولاية جلاله السلطان للدولة ، وهو العام السابع من القرن الثاني - أي العام السابع والثلاثون (٤) ، لأن المراد بالقرن هنا ثلاثون

---

(١) وهو العام السادس والعشرون من جلوس السلطان ، وذكر البديوانى في حوادث عام ٢٥ من الجلوس .

(٢) لفظة « تمغة » تعنى الختم ، أو الوثيقة المختوم عليها ، كما يقال للأرض والعقار الذي رفعت عنه الضريبة الرسمية ، وتقطع لأى فرد من الأفراد جزاء على عمله الدينى أو غيره مما ينفع البلاد أو تستخدم في الأمور الخيرية .

(٣) يلاحظ في « أكبر نامه » أن أبا الفضل لا يتعرض لهذا فرمان الذي يلغى الزكاة ابقاء على سمعة أكبر وتبرئة لساحته من مثل هذه الأحكام .

(٤) وهذا خطأ ، بل صدر هذا فرمان عام ٢٦ من جلوس السلطان أكبر كما تقدم آنفاً .

عاماً - وهو العهد الذى ظهر فيه صبح الجلال والجمال ، وازدهرت الدولة ونعمت البلاد ، إن سياسة البلاد تقتضى أن الحكومة والدولة التى هى عبارة عن حماية مصالح المواطنين والمهاجرين والموظفين والتجار ، والتى هى وسيلة لجباية ، الخراج ، الذى يعتمد عليه نظام الجنود الحارسين لأنفس والأموال والعقائد ، والذين يراقبون الأسواق ، فإن اختل ميزان هؤلاء الأمناء الدينيين الذين ينقدون النقود والغلات ، لتحولت المصالح إلى المضار ، والحسنات إلى السيئات ، ونحمد الله - تعالى - على أن جلالة السلطان لم يزل مراعيًا للمصلحة العامة ، ومربيًا للرعايا ، الذين هم مثل أبنائه - معنى - والأمانة الإلهية فى يده ، وأن لله المنة علينا بأن جعل الهند والبلاد المحروسة الأخرى مهد العدل والرخاء ، ومستقر المسافرين والظاعنين .

« وقد صدر - أخيراً فرمان - لعطف جلالة السلطان وشفقته على الخلق - برفع الزكاة وجميع المكوس والضرائب الصغيرة والكبيرة على جميع العطور ، والأقمشة والقطن ، والصفوف ، والأشياء المصنوعة من الجلد ، والنحاس ، وأوانى الخشب ، والقصب والعشب ، وأشياء وغلات أخرى - إذ أنها عماد المعيشة - سوى الفيل والخيل والإبل والشاة ، والسلاح والأشياء الضرورية - التى استثنيت من قبل - فى جميع البلاد المحروسة»<sup>(١)</sup> .

### أكل اللحوم :

« يقول السلطان : لولا تفكيرى فى مصاعب الحياة على الناس لنهيتهم عن أكل اللحوم ، ولا أحب - نظراً إلى هذه الناحية - أن أنفذ هذا الأمر فى الرحلة الأولى ، لأن كثيراً من الأعمال تبقى - عند هذا التنفيذ السريع - ناقصة ، ويبلغ الحزن الممض بالناس إلى حد الجنون ، ويقول : ينبغى إبعاد بيوت الجزارين ، والصيادين للأسماك ، والمشتغلين بأمثال هذه المهن والأعمال ، ممن تقتصر مهنتهم على القتل والإماتة ، من بين عامة السكان ، وتؤخذ الغرامة من كل من يتصل بهم ويقابلهم »<sup>(٢)</sup> .

### الخنزير :

« يقول : إذ كان السبب فى تحريم الخنزير قلة الحياء فيه ، لزم من ذلك ، أن يكون

(١) طبقات أكبرى ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) أيضاً ج ٣ ، ص ١٨٩ .

الأسد وأمثاله من السباع حلالاً طيباً» (١) .

### شرب الخمر :

« كان ( جلاله السلطان ) يتناول في مهرجان هذا الشهر ، الرحيق المنبه للعقل والمنشط للفكر ، وشرب المفتى مير صدر جهان ، ومير عدل ، مير عبد الحمى ، كؤوساً من الخمر كذلك ، وجرى هذا البيت على لسان السلطان الذى يقول فيه : « لقد أصح القاضى والمفتى فى عهد السلطان ذوى العفو والغفران يشربان الخمر ويحسون من الكؤوس » (٢) .

### التقاليد والطقوس الهندكية :

« ماتت أم خان أعظم مرزاً على أثر المرض الشديد ، فحزن عليها السلطان حزناً عميقاً حتى حلق رأسه وشاربه فى المأتم ، ورغم كل المحاولات أن لا يحلق الشعر غير أبناء الفقيدة الكبار ، إلا أن العباد المخلصين ألحوا أن يحذوا حذو السلطان » .

### إنكار المعجزات :

« يقول السلطان : السفهاء يؤمنون بالمعجزات ، ولكن العقلاء لا يعتقدون فى شيء إلا بعد تحققه وثبوته بالدلائل » (٣) .

### استنكار الختان وكراهيته :

« من العجب أن تصروا على ختان الأطفال مع أنهم ليسوا بمكلفين بالفرائض والواجبات » (٤) .

### قوانين الزواج :

« يرى جلاله السلطان أن الزواج مع ذوات القربى القريبة أمر مكروه ، ويقول : ألا يستنكر أتباع محمد - ﷺ - المتعصبون المتمتون الزواج بينات الأخوال والأعمام ، ويكره جلاله السلطان الزواج بأكر من واحدة » (٥) .

(١) أيضاً / ١٨٦ .

(٢) أيضاً ١ ، ص ١٠١ (الأردنية) .

(٣) أيضاً ص / ٣٠٣ .

(٤) آئين أكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ .

(٥) أيضاً ... رقم ٢٤ .

## رؤية السلطان هي العبادة :

« يقول جلاله السلطان : إن رؤية وجوه السلاطين هي العادة ، إنهم يسمون « ظل الله » ، ولكن رؤيتهم تذكر في الحقيقة الخالق ، ويتبادر عندها الذهن إلى ظل القادر المطلق » (١) .

## إعلان التقويم الإلهي وتنفيذه :

« في عام ٩٩٢ هـ ، أضاء نور العقل والبصيرة الشاهنشاهية شمعة العالم والفضل والكمال التي نورت - ضيائها المبارك الميمون - جميع العالم ، ه فريق السعداء وطلاب الحق ورواد الخير من سبات الخيبة والخسران ، وغطى القائلون بالخنا ، وضعفاء العقل والبصيرة ، وجوههم في زاوية الخمول وتحققت إرادة جلاله السلطان الخيرة ، وشمر بقية الحكماء الشيخ العلامة مير فتح الله الشيرازي عن ساق الجد لإنجاز هذه المهمة ، فوضع العلامة الشيرازي أمامه الزيجة الكوركانية ، وقرر بالنظر فيها ، أن يكون العام الذي تربع فيه جلاله السلطان على عرش المملكة ، بداية التقويم الإلهي » (٢) .

ولا بأس - بعد الإمام بهذه الحقائق الأساسية التي يتكون منها هيكل الفكر الديني عند أكبر - أن نكمل صورة الهيكل وشكله الحقيقي بذكر بعض التفاصيل والأمور الجزئية التي أوردها ملا عبد القادر البديواني في كتابه ، حتى تتجلى الخطة الكاملة ، والتصوير الصحيح لتلك الكراهية ، والعناد والبغض للإسلام ولصاحب الشريعة الغراء - عليه الصلاة والسلام - الذي كان نتيجة الانحراف عن دين الإسلام .

## الازدراء بالدين الإسلامي وإهانتته :

« لقد وصم تراث الملة الإسلامية كله بالحدوث ، واعتبره مجموعة من السفاهات ، وأن واضعيه ومؤسسيه أعراب فقراء من جزيرة العرب كانوا مفسدين في الأرض ، وقطاع طرق ، واستدل على ذلك بييتين من « شاهنامه فردوسي » الذي قالهما على طريق النقل والرواية :  
« من شر ألبان الإبل ، وأكل الضأن ، بلغ العرب إلى أن بدأوا يحلمون ببلاد العجم ، سحقا لدوائر الزمان سحقا » (٣) .

(١) أيضاً ج ٣ ، ص ٢٤٣ .

(٢) أيضاً ج ١ ، ص ٥٦٤ .

(٣) منتخب التواريخ ، ص ٣٠٧ .

## السخرية من الإسراء والمعراج :

« قال السلطان مرة : كيف يتصور أن يقبل أن شخصاً يحمل جسماً ضخماً يبلغ - غتة - عنان السماء ، ويتحدث مع الله تسعين ألف حديث ، ذى شجون ، ويبقى فراشة دافئاً ، ثم يقبل الناس هذه الدعوى ، كما أنهم يؤمنون بشق القمر ، وأمثاله من الأمور المستعبدة» .

ثم وجه سؤالاً إلى الحاضرين - وقد رفع رجله - قائلاً : « لا يمكن أن أقوم إلا بأن تكون الرجل الثانية مستندة على الأرض ، فأيش هذه الخرافات » (١) ؟ .

## إهانة مكانة النبوة :

واعترض على النبوة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - مرة وعاب عليها :

« بالإغارة على غير لقريش فى أوائل أيام الهجرة . والزواج من أربع عشرة امرأة وتحريم العسل ابتغاء مرضاة الزوجات » (٢) .

## النفور من أسماء النبي - ﷺ - والكراهية لها :

« كانت الأسماء مثل أحمد ، ومحمد ، ومصطفى وغيرها ثقيلة على سمع السلطان ، مراعاة للكفار خارج البيت ، والنساء داخل البيت ، وأخيراً - بعد أيام قليلة - غير أسماء خاصة أصحابه ، فكان ينادى « يار محمد » و «محمد خان» باسم «رحمت» ، ويكتب هذا الاسم نفسه عند الكتابة » (٣) .

## المنع من الصلاة :

« لم يكن يستطيع أى واحد من الناس أن يؤدي الصلاة جهاراً فى القصر » (٤) .  
ويقول البدايوني فى مكان آخر : « إنه قد أسقط فرائض الصلاة والصوم والحج من

(١) أيضاً ج ، ص ٣٠٧ .

(٢) منتخب التواريخ ، ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٣) أيضاً ص ٣١٤ ، ولأجل ذلك حذف أبو الفضل فى الجزء الأول من كتابه « آئين أكرى » لفظه «محمد» و «أحمد» من أسماء عدد من الأمراء فىسمى «محمد منعم» ، - «منعم خان» ، و«مرزا محمد عزيز» - «مرزا عزيز» ، و «شهاب الدين أحمد خان» - «شهاب خان» وهناك أمثلة عديدة لتغييره الأسماء، وحذف لفظة «محمد» أو أحمد» منها .

(٤) أيضاً ص ٣١٥ .

قبل « (١) .

## الاستهزاء بأركان الإسلام وفرائضه :

ويقول العلامة البدايوني : « ألف ان من أبناء ملاً مبارك وكان تلميذ أبي الفضل عدة رسائل عن العبادات الإسلامية في أسلوب تهكمى ساخر ، وإيراد اعتراضات عليها ، وقد نالت هذه الرسائل إعجاب جلالة السلطان وقبوله ، وأصبحت واسطة له لدى السلطان في ولاية أمره ، والحدب عليه « (٢) .

## مفترق صعب خطير في تاريخ الهند الإسلامى :

وبالجملة فقد وقفت الهند - التى ذلت فيها الجهود المتواصلة ، وكرست الطاقات البشرية الفاضلة ، والكفاءات العقلية والمواهب الفكرية ، وربانية الصالحين والصفوة الطيبين - على طريق ردة دينية عقلية ، وحضارية شاملة ، كانت تساندها أكبر دولة على وجه الأرض فى ذلك العصر - بعد الدولة العثمانية - والقوة العسكرية الهائلة ، وكان عدد من أذكىاء ذلك العصر ونوابغه يمدون هذه الدولة بالأسلحة العلمية والعقلية ، فلو كان سير الأحداث والظروف مستمراً على هذا المنوال ، ولم تقف فى وجهها شخصية جبارة تحول اتجاه السير ، أو لم يحدث حادث يغير الأوضاع ، ويحول البلاد لكان مصير هذه الدولة والبلد الإسلامى العظيم فى القرن الحادى عشر الهجرى ، كمصير الأندلس الإسلامية - الذى لا يعرفه العالم المعاصر إلا باسم « أسبانيا » - فى القرن التاسع الهجرى « ، أو كمصير « تركستان » فى القرن الرابع عشر الهجرى « بعد الثورة الشيوعية » ، ولكن أدرك الله البلاد والعباد ، وقبض للإسلام رجلاً يحفظه من الكفر والشرك والضلال . ونختم هذا الباب بالكلمة البليغة التى سطرها قلم مؤرخ الإسلام ومؤلف موسوعة « السيرة النبوية » العلامة السيد سليمان الندوى ، وهو يتحدث عن قصة الإسلام وغربته فى ديار الهند « يقول :

« لقد مضى على هذا السبات العميق أربعة قرون ، وكاد أن يمضى على بداية رحلة الإسلام الغريب فى هذه الديار ألف سنة ، كان ذلك عهد الملك أكبر ، إذ نهض ساحر من العجم ونفت فى أذن الملك ، أن عمر هذا الدين الممتد على ألف سنة قد انقرض ، ومست الحاجة إلى أن يظهر دين إلهى جديد على يد ملك أمى ينسخ دين أمى ، فأوقد المجوس

(١) أيضاً ص ٣٠٦ .

(٢) أيضاً ص ٢٧٠ .

النيران فى معابدهم ، ودقت النصارى نواقيسهم فى كنائسهم ، وزينت البراهمة أصنامهم ،  
تملاً التصوف واليوك وألحاً على أن يشعلا شمعة واحدة فى المعبد الهندكى والكعبة ، وإذا  
أراد إنسان أن يتصور مدى ما تركت هذه الحركة الخماسية من آثار فليراجع « دستان  
مذاهب<sup>(١)</sup> » ليرى كم من أصحاب الزنار يحركون المسابح ، وكم من أصحاب السبح ،  
يعلقون فى أعناقهم « الزنانير » ، كم من الأمراء يمرغون وجوههم على عتبة السلطان . وكم  
من أصحاب العمائم يقفون فى البلاط ، ويسمع من منابر المساجد نداء :

« تعالى شأنه - الله أكبر »

كانوا فى كل هذا ، وإذا صوت يعلو من جهة « سرهند » :

« أن خلّوا الطريق ، فقد جاء صاحب الطريق ، ظهر مجدد فاروقى<sup>(٢)</sup> ، فى الأبهة  
الفاروقية ، كان ذلك أحمد السرهندى »<sup>(٣)</sup> .

---

(١) كتاب فى وصف الديانات المختلفة والفرق الإسلامية فى الهند ، فى الفارسية .

(٢) نسبة الى عمر الفاروق رضى الله عنه ، فإن أحمد الامام السرهندى من أعقابه .

(٣) تقديم كتاب « سيرة السيد الامام احمد بن عرفان الشهيد » ( للمؤلف ) بقلم العلامة السيد سليمان

الندوى ، ص ٣٠ - ١





## الباب الثالث

### مجدد الألف الثاني الإمام السرهندی

#### موجز حياته : من الولادة إلى الإجازة والخلافة

#### الأسرة :

يتمى الإمام السرهندی إلى سيدنا عمر<sup>(١)</sup> بن الخطاب - رضى الله عنه - فتنهى سلسلة نسبه<sup>(٢)</sup> بإحدى وعشرين واسطة إلى سيدنا أمير المؤمنين عمر الفاروق - رضى الله عنه - ، ونسبه كما يلي .

الشيخ أحمد ( الإمام السرهندی ) بن عبد الأحد بن زين العابدين بن عبد الحى بن محمد حبيب الله بن الإمام بن نصير الدين بن سليمان بن يوسف بن اسحاق بن عبد الله بن شعيب بن أحمد بن يوسف بن شهاب الدين على فرخ شاه بن نور الدين بن نصر لدين بن محمود بن سليمان بن مسعود بن عبد الله الواعظ الأصغر بن عبد الله الواعظ الأكبر بن أبى الفتح بن إسحاق بن ابراهيم بن ناصر بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - .

والشيخ شهاب الدين على فرخ شاه الكابلى جده الخامس عشر ، مؤسس هذه الأسرة الشهيرة ، وأن أكثر الفضلاء النوابع ، والمصلحين المعروفين وكبار المشايخ وأصحاب السلاسل والطرق الصوفية الذين يتصل نسبهم بسيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه -

---

(١) كان الإمام السرهندی يعتز بهذه الصلة النسبية بسيدنا عمر الفاروق ، وكان يرى حميته البدنية من مقتضيات هذه النسبة وآثارها الطبيعية ، ولم يتمالك عندما اطلع على رأى الشيخ عبد الكبير اليمنى يخالف به العقائد الإسلامية ، وجمهور أهل السنة والجماعة أن قال فى حماس : « أيها الشيخ المكرم ! لا صبر لى على سماع مثل هذه الأقوال ، فإنه ينبض فى العرق والفاروقى » (الرسالة رقم : ١٠٠ ، من مجموعة الرسائل الموجهة الى ملا حسن كشميرى) ، ويقول فى رسالة أخرى كتبها عند علمه بأن الخطيب فى قرية « سامانة » لم يذكر الخلفاء الراشدين فى خطبة الجمعة عمدا : « وقد أثار سماع هذا الخبر البغيض ثائرتى ، وحرك العرق الفاروقى فى فكتب لذلك هذه الكلمات » ( الرسالة رقم : ١٥ ، الجزء السادس من المجموعة الثانية ) .

(٢) وقد اعتمدنا فى بيان سلسلة نسبه على بحث علمى رصين كتبه أحد أبناء الأسرة العظيمة المحقق الفاضل الشيخ أبو الحسن زيد الفاروقى .

كالشيخ العارف فريد الدين كنج شكر وغيره ، ينحدرون من هذه السلسلة ، وليست بين أيدينا تراجم مفصلة لعلماء أفغانستان ومشايخها ، لعدم وجود كتب الطبقات التي تتناول تراجمهم ، وكل ما نعثر عليه من سيرهم وأخبارهم نرجع فيها الى تلك المصادر التي ألفت في ترجمة الإمام السرهندي ، وأخبار أسرته (١) ، وكان الشيخ الدين علي فرخ شاه ( ابن الشيخ نور الدين ، وحفيد الشيخ نصير الدين ) والى كابل ، ولذلك تنسب أسرته إلى كابل ، وكان متحلياً بالخصال الحميدة ، له شغف زائد بنشر الدعوة الإسلامية ، وتنكيس راية الكفر والشرك ، يمتاز في ذلك على كثير من أقرانه .

تولى الملك بعد وفاة والده ، وبذل جهوداً موفقة مشكورة في رفع الخصومة ، والقضاء على الصراع بين الأفغان والمغول ، وكان له وافر من الربانية ، وصفاء الباطن وإشراقه ، مع الوجاهة والشرف ، وعظيم المنزلة ، انتفع به خلق كثير وتربوا على يديه ، وسلم زمام الدولة - قبيل وفاته - إلى ابنه العظيم الشيخ يوسف ، واختار لنفسه حياة العزلة ، والانزواء في ممر يسمى « ممر فرخ شاه » - نسبة إليه - تقع على ستين ميلاً من كابل في جانب الشمال ، ودفن هناك .

ولما فرغ الشيخ يوسف من تحصيل العلوم الدينية ، اشتغل بالتربية الباطنية والتزكية القلبية عند والده الشيخ سلطان فرخ شاه ، وخلفه في الحكومة بعد اعتزاله عنها ، كان معروفاً بالعدل والإصلاح والاستقامة والديانة ، محبباً إلى الناس ، حصل له القبول بين الناس وخاصتهم ، كانت تشتعل في قلبه تلك الجمرة من الحب الإلهي ، الذي كان يدفع سلفه الميامين في عصور مختلفة إلى أن يتمسكوا بقول الشاعر ( وقد تمثل به الإمام السرهندي في رسائله مراراً ) .

### هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم وللعاشق المسكين ما يتجرع

واعتزل السلطة والحكومة في آخر عمره كأبيه ، ولجأ إلى زاويته ، وآثر الخلوة والعزلة فأخذ ابنه الشيخ أحمد بزمام البلاد ، وتولى شؤون الدولة وكان - كوالده - عالماً تقياً ورعاً وعارفاً ربانياً في كسوة ملك وسلطان ، وقد غلبته الجذبة الإلهية والشوق إلى الله ، حتى فارق السلطة ، ونفض يده منها ، وأوصى أبناءه بالبعد عنها ، وقطع الرجاء منها ، واحتفظ عنده بمال قليل يكفيه وعياله ، وزع الباقي من الثروة الكبيرة على الفقراء والمساكين ، وكان قد تلقى التربية الروحية - بعد والده - على شيخ الشيوخ شهاب الدين السهر وردي - قدس

(١) ك « زبد المقامات » و « حضرات القدس » وغيرهما من الكتب .

سره - ونال منه الإجازة والخلافة .

وكان غيرهما من أفراد الأسرة الكبار أيضاً من الصالحين الربانيين الذين آثروا الفقر والخمول ، وإشتغلوا بالتربية والإرشاد ، وكانوا يستفيدون من مشايخ عصرهم ، وصالحى زمنهم فى التربية والسلوك ، ويأخذون عنهم الطريق ، بغض النظر عن اختلافهم فى السلاسل والطرق .

وكان الإمام رفيع الدين الذى يكون الجدد السادس للإمام السرهندى والعقب التاسع للشيخ شهاب الدين فرخ شاه - كما يقول صاحب « زبدة المقامات » جامعاً بين علمى لظاهر والبطن ، أخذ الطريقة عن الشيخ الكبير السيد جلال الدين البخارى (١) ( ت ٧٨٥ هـ ) وتلقى لديه التربية الروحية والسلوك ويدل ذلك على أنه كان من مشايخ أواخر القرن الثامن . أو أوائل القرن التاسع وهو أول شخص من أفراد هذه الأسرة غدر « كابل » إلى الهند ، وتدير فى « سرهند » اتى كانت تسمى قديماً « سهرند » ، وقد كن هذا المكان فقراً موحشاً ، ومأوى للسباع والوحوش ، ولم يكن بينه وبين قرية « سامان » التى كانت تحمل إليها الخزائن الملكية ، أى مدينة أو قرية ، فعين الملك الصالح فيروز شاه خواجه فتح الله ، الأخ الأكبر للإمام رفيع الدين ، ومن المقربين لدى السلطان على الإسكان والعمران فى هذه الناحية المهجورة ، فتوجه خواجه فتح الله يألفى راكب إلى هذه الناحية ، وبنى قلعة ، وأمر الشيخ مخدوم جهانيان الإمام رفيع الدين - الذى كان خليفته ، وإمامه فى الصلاة . وكان مقيماً فى قرية « سنّام » - أن يضع حجر الأساس لهذه القلعة ، ويسكن فى هذه المدينة الجديدة ، ولم تنزل هذه الأسرة - من ذلك العهد - ساكنة فى هذه المدينة ، ويقال إن تأسيس القلعة وبداية العمران فى سرهند كانا عام ٧٦٠ هـ (٢) .

وهكذا كانت مدينة « سرهند » أهلة عامرة منذ قرنين من الزمان قبل ولادة الإمام السرهندى ، وتفيد كتب السير والتراجم أنه استوطنت هناك أسر كريمة ، عامرة بالعلماء

---

(١) اقرأ ترجمته الحافلة فى الجزء الثانى من « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى .  
(٢) قد ذكرها الرحالة الصينى الشهير هيون سائك ( IHIUN SONG ) . الذى زار الهند فى القرن السابع الميلادى : وقال : « أنه يستخرج الذهب من نواحي هذه المدينة ، وكان هذه المدينة فى فترة من فترات التاريخ حداً فاصلاً بين الهنادك والغزنويين ، وكانت أرض الهند وراء هذا الحد ، فسميت لأجل ذلك بـ « سرهند » - أى رأس الهند - ، وقد فتح السلطان محمود الغزنوى مدينة سرهند عام ٥٨٧ هـ الموافق ١١٥١ م ، ولم يهتم سلاطين دهلى - إلى زمن فيروز شاه تغلق بسرهند أى اهتمام ، ولما بدأ عهد السلطان فيروز شاه تغلق بدأت العناية بهذه المدينة .

والمشايخ ، وأن هذه الأرض أنجبت عدداً من نوابغ الرجال وكبار العلماء ، ويبدو أنها بلغت ذروة التقدم ، وتوطدت صلتها بالثقافة الإسلامية في بداية القرن العاشر ، ولا نجد في كتب التاريخ والتراجم في القرنين الثامن والتاسع إلا أسماء معدودة ، لأفراد من أسرة الإمام السرهندي نبغوا في العلم وتنبأوا ، ولكننا نرى من بداية القرن العاشر يقظة دينية وعلمية وحركة قوية نشيطة للإفادة والتدريس والإفادة ، والتربية والإرشاد ، ومن ثم كان كبار الأمراء في الدولة يولون مدينتي سرهند وفيروز بور ، وزادت أهميتهما الاستراتيجية ، وزار الملك بابر مدينة سرهند مراراً وتكراراً ، ودخل الملك همايون كذلك في سرهند ، ومن هناك توجه إلى دهلي ، واستعاد العرش والتاج للمرة الثانية ، وقد بلغت هذه المدينة في الرخاء والبهاء أوجها في العهد المغولي حتى كان فيها ٣٦٠ مسجداً ورباطاً ، وبثراً ومقبرة (١) .

### العارف الشيخ عبد الأحد السرهندي :

تناول الشيخ محمد هاشم الكشمي في « زبدة المقامات » ترجمة الشيخ عبد الأحد (المعروف بالمخدوم لجلالة شأنه ) بشيء من الاستيعاب والتفصيل ، وأن الشيخ الكشمي مكث في صحبة الإمام السرهندي ثلاث سنوات متواصلة ، مرجعه في حكاية الأحداث والوقائع في غالب الأحيان - أقوال الإمام وأحاديثه ، التي سمعها منه حيناً بعد حين ، وإذا كانت فيه زيادة فهي معتمدة على المعلومات التي أخذها من أبناء العظام ، فتصريحاته - نظراً إلى ذلك - يوثق بها كل الثقة ، وأذكر فيما يلي خلاصة ما جاء في كتابه :

« استولى على الشيخ عبد الأحد من ريعان شبابه وفي أثناء دراسته الشوق الدافع إلى تحصيل « علم اليقين » والوصول إلى رب العالمين ، حتى لم يصبر ليطم دراسته ، وسافر إلى الشيخ الكبير عبد القدوس الكنكوهي - الذي انتهت إليه رئاسة الطريقة الجشتية نصيرية ، وطبق صيته الآفاق - فأخذ عنه الأذكار والأوراد ، وتلقى علم التربية والسلوك ، ثم لما أبدى للشيخ عزيمته على أن يلقي رحله هنا إلى أن يلقي الله - عز وجل نهاء الشيخ الخبير البصير ، عن هذا القصد ، وأرشده - بتأكيد بالغ - إلى تمام دارسته للعلوم الدينية ، والشريعة الإسلامية ، وقال له : إن الطريقة التي لا يرافقها العلم ، ليس فيها نور ورواء ، فقال الشيخ عبد الأحد نظراً إلى كبر سن الشيخ وضعفه : أخاف أنني إذا قصدت تحقيق هذا الغرض بعد كمال دراستي للعلوم الدينية أن لا ألقك ، فقل الشيخ : إن لم

(١) ملخص من دثرة المعارف الإسلامية ، مقال بعنوان « سرهند شريف » .

تجدنى ، فستنال هذا التراث عند ابنى ركن الدين فخضع المخدم لأمره ، وانصرف إلى العلم والدراسة .

وكان من قدر الله أن حدث ما تخوف منه الشيخ عبد الأحد ، فلقى الشيخ ربه ، قبل فراغ المخدم من دراسته ، فأكمل المخدم دراسة العلوم السائدة فى عصره ، ثم بدأ يسبح ويجول فى الأماكن المختلفة ، ويستفيد من شيوخها وصالحى أهلها حتى جاء إلى الشيخ ركن الدين ، وبدأ يرتقى درجات السلوك والإحسان ، إلى أن أجازته الشيخ فى الطريقة القادرية الجشتية . واستخلفه فى التربية والتسليك والإرشاد (١) .

وقد كانت تسيطر على هذين الشيخين الجليلين الشيخ عبد القدوس ، والشيخ ركن الدين فكرة وحدة الوجود ، والسكر والاضطراب ، والفناء والاستغراق ، وكانا من أصحاب السماع والمواجيد ، وكان الشيخ عبد القدوس من الدعاة المتحمسين إليها ، ولكنه - رغم كل ذلك - كان راسخ القدم فى اتباع السنة والعمل بالعزيمة ، يغلب عليه هضم النفس وإنكار الذات ، وكان رقيق القلب كثير التعبد ، يذكر الموت والبلى دائماً ، ويفكر فى الآخرة ، وحسن الخاتمة فى كل الأحوال (٢) .

وكان للشيخ عبد الأحد - عدا أستاذه فى التربية والسلوك الشيخ عبد القدوس والشيخ ركن الدين - علاقة خاصة بالشيخ كمال الكيتهلى أحد المشايخ المعروفين فى السلسلة القادرية ، وكان الشيخ كمال من نوابغ الرجال وأصحاب الأحوال والمقامات السنية (٣) .

وقد مضى - فيما تقدم - قول الشيخ عبد الأحد : « تفيد البصيرة الكشفية أن الشيخ كمال لا يدانيه فى السلسلة القادرية العلية بعد مؤسسها الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاتى ، أحد من المشايخ الربانيين » ، وكان حفيده الشيخ سكندر كذلك من المشايخ الكبار ، وقد استفاد منه الشيخ عبد الأحد أيضاً .

ولما فرغ الشيخ عبد الأحد من دراسة العلوم الدينية ، خرج يجوب البلاد ، بحثاً عن رجال الله ، والربانيين الصادقين ، وعزم على نفسه عند السفر أنه إذا رأى آثار البدعة عند شيخ من المشايخ ، فسوف ينأى بنفسه عن مصاحبته فضلاً عن مبايعته ، فدار فى البلاد ،

---

(١) شهادة الخلافة والاجازة التى أعطاها الشيخ للمخدم مذكورة بنصها فى « زبدة المقامات » واغلبها فى العربية ، راجع ص ٩٢ - ٩٦ .

(٢) راجع للاطلاع على فضائله ومحاسنه وأذواقه « نزهة الخواطر » ج ٤ .

(٣) راجع لأخباره المفصلة « نزهة الخواطر » ، ج ٤ .

ودرس واستفاد ، وعاد من هذه الرحلة الطويلة ، إلى سرهند ، فأقام فيها إلى أن لحق بالرفيق الأعلى ، ولم يغادرها إلى أى مكان ، كان يدرس فى الكتب العقلية والنقلية المتداولة فى تلك الأيام بتحقيق وتدقيق ، وكان الإمام السرهندي يقول : حصلت له الملكة الراسخة فى جميع العلوم السائدة إلا أنه لم يكن له مثيل فى علمى الفقه وأصوله ، وحينما كان يلقي درسه فى « أصول البزدوى » تتجلى للحاضرين جلالة شأن الإمام أبى حنيفة وإمامته وعبقريته ، وكان يدرس كتب التصوف أيضاً مع رسوخ قدمه وعلو كعبه فى حل مشكلات « التعرف » و « عوارف المعارف » و « فصوص الحكم » ( للشيخ محيى الدين بن عربى ) ودقائقها الفنية ، وكان على مسلك الشيخ محيى الدين بن عربى علماً وذوقاً ، إلا أنه لمواهبه فى علو الشأن وضبط النفس ، وتعظيم الشريعة لا تصدر من لسانه الشطحات والشوارد ، كان يغلب عليه التواضع وهضم النفس والتجريد ، لا يطلب من أحد خدمته - رغم كثرة تلاميذته ومريديه - وكان يشتري حاجيات البيت بنفسه ويحملها إلى البيت ، يعتنى أشد الاعتناء باتباع السنة ، فلا تفوته سنة ، ولا يترك شيئاً منها ما يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، حتى كان له اهتمام كبير بالسنن العادية كاللباس والطعام ، عاملاً بالعزائم ، مجتنباً للرخص ، وكان يبدى شغفه بالطريقة النقشبندية ، ويشتاق إليها ، ويذكرها بالخير ويثنى عليها ، فكان يقول : أدعو الله تعالى أن يشرف هذه البلاد بهذه الطريقة العالية ، أو أن يبلغنا إلى مركزها حتى نستفيد منها ، وكان يؤلف ويصنف ، ومن مؤلفاته : « كنوز الحقائق » و « أسرار التشهد » ، وكان محباً لأهل بيت رسول الله ﷺ ، كما كان معظماً لأصحابه . عارفاً لهم فضلهم وحقهم ، يقول إن لهذا الحب تأثيراً فى حسن الخئمة (١) .

ولما بلغ فى رحلته إلى « سكندره » (٢) ، ومكث هناك أياماً قليلة ، تقدمت إليه أسرة كريمة لما توسمت فيه من شرف وكرم محتد ، ورأت صلاحه وتورعه ، وجمعه بين العلم والعلم ، خطبت إليه فتاة طيبة سالحة من بناتها ، فحصل الزواج ، وكان جميع أبناء الشيخ عبد الأحد من هذه الزوجة الكريمة الصالحة ، وقد رزق الشيخ عبد الأحد سبعة أبناء ، وقد كان الإمام السرهندي واسطة العقد وبيت القصيد من بين إخوته ، إلا أن بقية إخوته كانوا - أيضاً - أصحاب علم وصلاح ، واستعداد قوى ، وأخذوا العلوم المتداولة ،

(١) زبدة المقدمات ، ص ١٢٣ .

(٢) مدينة فى لولاية الشمالية .

وتلقوا التربية الروحية على يد والدهم ، أو غيره من المشايخ المعاصرين .  
وكانت وفاة الشيخ عبد الأحد فى « سرهند » فى ١٧ رجب عام ١٠٠٧ هـ ، ويمكن أن يقال إن ميزة الشيخ عبد الأحد تتجلى فى الدوران مع الحق والدليل الشرعى ، والخضوع له ، والإنصاف من نفسه ، وتعظيم الشريعة الإسلامية ، والسنة النبوية وإجلالهما ، والسعى لاتباعهما ، والعناية بتطبيقهما ، والحمية الدينية ، وعلو الهمة والطموح فى ارتقاء درجات الإحسان ، والتقدم فى مراتب الإيمان ، وقد ورث منه هذه الخصيصة . والميزة الباهرة ابنه العظيم - الذى قدر له أن يعيد الدين فى البلاد الغربية غضاً طرياً ، ويحفظ تراث الأمة الإسلامية من عوادي الزمن - وزادتها العناية الربانية نوراً وشفاءً ، ووهبتة من المحاسن والفضائل والعبقرية الإسلامية ما حولته شمساً وهاجة تشع بالنور وتبدد الظلمات .

## ولادته وقصة حياته

### ولادته وتعلمه :

ولد الإمام السرهندى ليلة الجمعة ١٤ شوال عام ٩٧١ هـ ، الموافق ١٥٦٣ م بمدينة سرهند ، وسمى « شيخ أحمد » ، كانت تبدو عليه - من صغره - مخايل السعادة والخير ، وسيما الرشd والصلاح ، وكان المشايخ الربانيون والعلماء الصالحون لا سيما الشيخ كمال الكيتهلوى الذى كان والد الإمام وثيق الصلة به - يحبونه ويحذبون عليه ، ويعاملونه معاملة خاصة ويؤثرونه على أتراه وزملائه .

بدأ تعلمه بحفظ القرآن الكريم ولم يمض كثير زمن حتى حفظه كله عن ظهر الغيب ، ثم بدأ يتعلم مبادئ العلم عند والده ، وبعد مدة يسيرة برزت مواهبه وصلاحيته ، وظهرت مزيته فى سرعة إدراك المواد الدقيقة ، والتعبير عنها فى عبارة واضحة مفصحة عن الموضوع ، وأخذ أكثر العلوم المتداولة عن والده ، وبعضها عن غيره من علماء عصره الكبار . ؛ ثم سافر إلى سيالكوت - التى كانت آنذاك - مركزاً علمياً ودارسياً كبيراً وقرأ بعض الكتب النهائية العالية المقررة فى ذلك المنهج الدراسى ( كالعضدى مثلاً ) على الشيخ كمال الكشميرى الذى كانت له اليد الطولى فى المنطق والفلسفة ، والكلام وأصول الفقه ، وكان صيت ذكائه وقوة حفظه وكثرة قراءته ودراسته وسعة معلوماته ، وبراعته فى التدريس

منتشراً في الآفاق<sup>(١)</sup> ، وكان من تلامذته أمثال العلامة عبد الحكيم السيالكوتي من نوابغ العلماء ، وكبار الفضلاء وحذاق المدرسين ، وقرأ بعض كتب الحديث على الشيخ يعقوب الصرفي الكشميري الذي كان تلميذاً لمحدث عصره الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي المكي وترك في مؤلفاته شرحاً مستفيضاً لصحيح البخاري<sup>(٢)</sup> .

وقد كان الشيخ يعقوب يحمل الإجازة من كبار المحدثين والمؤلفين في الحديث والتفسير بهلول البدخشاني ، الذي كان عالي الكعب في علم التفسير والحديث ، وتلميذ عالم عصره الشيخ عبد الرحمن بن فهد ، وقرأ عليه صحيح البخاري ، ومشكاة المصابيح ، وشمائل الترمذي ، وكتباً أخرى في الحديث كما أسند عنه ثلاثيات البخاري ، والأحاديث المسلسلة ، وروى كتب التفسير أيضاً على طريقة المتقدمين . بالأسانيد المتصلة ، وقرأ فاتحة الفراغ وهو في السابعة عشرة من سنة<sup>(٣)</sup> .

ولما فرغ من تحصيل العلوم العقلية والنقلية ، ومعرفة الأصول والفروع ، توجه إلى التدريس والإفادة ، وألف عدة رسائل في اللغتين ، العربية والفارسية ، منها « الرسالة التهليلية » و« رسالة في الرد على مذهب الإمامية » ، وزار « آكره » ( المعروفة بأكبر اباد ، عاصمة الامبراطور أكبر ) عاصمة البلاد - آنذاك - وجالس بها أبا الفضل وفيضى ، ولكن لم ينسجم معهما لاختلاف الاتجاه والمثرب ، وكان بينه وبينهما - في بعض الأحيان - أخذ ورد ، وشد وجذب ، وأبدى استياءه من بعض الكلمات الجريئة الساخرة التي تفوه بها أبو الفضل ، وهجره لأجل ذلك ، فأرسل إليه أبو الفضل ، ودعاه واعتذر إليه مما صدر منه ، وساعد الإمام - مرة - أبا الفيض فيضى الذي كان منصرفاً في تلك إلى تأليف التفسير

---

(١) ذكر شيخ كمال الدين بن موسى الكشميري المذكور ، انتقل من كشمير عام ٩٧١ هـ إلى سيالكوت ، واشتغل بالتدريس والإفادة نصف قرن من الزمن وتوفي عام ١٠٠٧ هـ بلاهور ، ودفن هناك ( نظر « نزهة الخواطر » ج ٥ ، ص ٣١٦ ) .

(١) ولد الشيخ يعقوب بن الحسن الصرفي الكشميري عام ٩٨٠ هـ ، وسافر إلى سمرقند لتحصيل العلم ، وأخذ الطريقة الكبروية من الشيخ حسين الخوارزمي وصحبه مدة طويلة ، ثم سافر إلى الحجاز ودرس على علمائها الحديث وحمل من هناك كتباً غالية في الفقه والحديث والتفسير ، توفي في ١٢ ذي القعدة عام ١٠٠٣ هـ ، ( انظر نزهة الخواطر » ج ٥ ، ص ٤٣٩ ) وهكذا استطاع الامام السرهندي ؛ ان يتعرف عن طريق استاذه الشيخ يعقوب على الكتب الستة وغيرها من أمهات كتب الحديث .

(٢) ذكرت أسانيد الحديث المسلسل ، والأسانيد الأخرى في « زبدة المقامات » .



غير المعجم باسم « سواطح الإلهام » إذ وقف قلمه في موضع من المواضع لصعوبة التوصل إلى لفظة غير عجمة ملائمة للكلام الذي هو بصدده ، واستعصى عليه التعبير عن المعنى الذي يريده ، فأفضى بهذه المشكلة إلى الامام السرهندي فحل العقدة ودله على الكلمة واعترف فيضى لأجل ذلك بغزارة علمه ، وسيلان طبعه ، وحضور بديهته .

أقام في « آكره » مدة طويلة حتى اشتاق والده إلى لقائه ، فسافر - رغم كبر السن وبعد المسافة - إلى آكره ، وعاد الإمام السرهندي مع الوالد إلى الوطن ولما مرّ بين دهلي وسرهند بمدينة تهانيسر استقبلهما الشيخ سلطان - الذي كان من رؤساء هذه المدينة وأعيانها ، ومن علماء عصره ومشايخه ، وكانت له الحظوة والزلفى لدى السلطان . كما كان والياً على منطقة تهانيسر - بحفاوة بالغة ، وأكرمهما غاية الإكرام ، وأنزلهما عنده ضيفين مبجلين ، وأبدى رغبته - لسابق إشارة غيبية - في تزويج ابنته من الإمام السرهندي فقبل والده هذه المصاهرة ، وخطب خطبة النكاح ، وتم الزواج ، وسارت الزوجة مع القافلة إلى سرهند .

استكمال التربية والسلوك، ومبايعة

الشيخ الكبير عبد الباقي البدخشي النقشبندی

والاستفادة منه :

لسنا - بهذه المناسبة - في حاجة إلى بيان الأدلة الشرعية والعلمية على ضرورة السلوك والتربية الربانية الصافية ، إذ أن قراء سلسلة « رجال الفكر والدعوة » - التي نحن في الجزء الثالث منها - قد ألموا بهذا الموضوع من خلال مطالعتهم لحياة الإمام الحسن البصري ، والشيخ عبد القادر الجيلاني ، ومولانا جلال الدين الرومي ، فإذا كانت هناك بقية من حاجة ، وتطلع إلى مزيد من الإقناع والبرهنة فليراجعوا كتاب المؤلف « ربانية لا رهبانية » .

ولكن لا بد - في هذا الصدد - من أن نشير إلى أن ذلك الوسط والعهد الذي قام فيهما الإمام السرهندي بدوره التجديدي ، ومهمته الإصلاحية العظيمة ، كان التصوف فيهما قد تغلغل في أحشاء المجتمع الإسلامي ، وامتزج بلحمه ودمه ، حتى أصبح التصوف له طبيعة وذوقاً ، وسمة وشعاراً ، ولم يكن الأمر مقتصرًا على طبقة خاصة من الناس ، بل كانت العامة لا تعبأ بعالم أومرب ، أو مصلح ، ولا تقيم له وزنًا ، ولا تعتقد فيه الخير والصلاح ، ولا تنتفع بمواعظه وكتاباته ، ما لم يكن له إمام بالتصوف والسلوك ، ويكون قد صحب بعض المشايخ المعروفين ، وانخرط في سلك بعض الطرق السائدة المقبولة في الناس .

ثم إنه لا تقوم ثورة حقيقية على أساس الخطابة الساحرة ، وغزارة العلم ، وسعة الثقافة إذا لم تكن وراءها النفس الزكية الخاشعة ، والقلب العامر الفاضل بالإخلاص واليقين ، والتوجه لحال المسلمين ، والتألم مما أصاب الدين - وهي صفات لا تنشأ غالباً إلا مع كثرة الذكر والعبادة ، ومجالسة الصالحين ، وترسم خطى المتقين - وكان من يمتنى نفسه بقلب الأوضاع التي استحكمت ورسخت ، وإصلاح المجتمع الذي استشرى فيه الفساد ، وتضافرت عليه عوامل الهدم والإفساد ، والتأثير في بيئة زخرت بكبار العلماء ، وحثاق الأساتذة ، ونوابغ الأدباء والشعراء ، ثم لا يزيد على أن يشاركهم في بضاعتهم وقد يتفوقون عليه في بعض العلوم والفضائل ، ولا يكون عنده ما يحتاجون إليه ويقدرّون بتخلفهم فيه ، من صلة قوية بالله ، ومعرفة مصايد الشيطان ، ومكايد النفس ، ووصول إلى درجة « الإحسان » وأعلى مراتب الإيمان ، واستقامة على اتباع الشريعة والسنة النبوية ، وعزوف عن الشهوات ، وزهد في الدنيا ، واستهانة بأربابها ، وإقبال على الآخرة ، كان من هذا شأنه كمثّل من يخوض في ساحة القتال من دون تجنيد وتدريب وتمارين ، ويقاقل جيشاً مدرباً مدعماً بالأسلحة والوسائل ، أعزل لا يحمل سلاحاً ، أو يحمل ما يحملونه ، أو كمثّل الأخرس الذي يحاول البيان والتعليم والإفهام ، لقد كان من حكمة الله - عز وجل - وتديبره أن أرشد الإمام السرهندي إلى أن يأخذ عدته قبل الخوض في المعركة ، وأن لا يأخذ هذا العلم من أهله ، ويجاهد في سبيله فحسب ، بل يصل فيه إلى درجة الإمامة والاجتهاد ، لصحبة المشايخ الكاملين ، وتربية الأئمة الربانيين ، وبسبب المواهب الإلهية وما أراد الله به وقبضه له من إصلاح جذري ، وانقلاب شامل ، حتى ينهض بهذه المهمة العظيمة بكامل العدة وانعتاد . والثقة والاعتماد ، وأن تظل آثار دعوته وحركته خالدة مع القرون والأجيال ، وتمتد إلى الآفاق في بلدان العالم البعيدة النائية .

ولما دخل « سرهند » ألقى فيها عصا الترحال ، وبقي يخدم والده إلى أن أدركه الموت ، واستفاض منه كثيراً من الفيوض الروحانية ، ودرج في مسالك الإحسان ، مقتنياً آثار المنهج الجشتي والقادري ، واستمر مع ذلك ، يدرس في العلوم الدينية ويفيد .

وهاج الحنين في قلبه إلى حج بيت الله الحرام ، وزيارة مسجد الرسول - ﷺ - فأرق جفونه ، واستونى عليه الشوق والاضطراب ، ولكن نظراً إلى كبر سن الوالد وذنو أجله في الظاهر - رأى من غير اللاتق أن يفارقه على هذه الحال ، فلما وافاه الأجل سنة ١٠٠٧ هـ لم يبق هناك عائق يحول دون السفر ، فأعد عدة السفر لزيارة الحرمين الشريفين وحج بيت الله الحرام ١٠٠٨ هـ وغادر سرهند إلى دهلي ، فجاء إليه علماءها وفضلاؤها

من كانوا يسمعون بفضله ونبوغه ، ليقابلوه ويسلموا عليه . وكان فيهم الشيخ حسن الكشميري الذي كنت للإمام معرفة قديمة به ، فتطرق الحديث بينهما إلى ذكر الشيخ الكبير عبد الباقي ، وعلو مكانته وجلاله شأنه ، وقوة باطنه ، وكان الشيخ قد مرّ - قبل بضعة أيام - بدلهي ، وكان الإمام السرهندي سمع والده أحياناً - يذكر الطريقة النقشبندية ، ويبدى شوقه إليها ، فرغبت نفسه في مقابلة الشيخ ، ورأى أن هذه الصحبة توفر له زاد الطريق إلى الحرمين الشريفين . وأنها نعمة ينبغي أن لا تفوت ، فرافق الشيخ حسن (١) الكشميري إلى الشيخ عبد الباقي ، وكان لسان حاله يقول : « ذلك ما كنا نبغ » .

وقبل أن نتناول هذا القران السعيد وما دار في هذا اللقاء العجيب ، وما تلتته من الأحداث والوقائع ، نود أن نتعرف بالشيخ عبد الباقي (٢) ، ويحسن بنا أن ننقل هنا ما كتبه مؤلف « نزهة الخواطر » - المجلد الخامس - في ترجمته ؛ فإنه يصدق عليه وصف « ما قلّ ودلّ » وقد جاء فيه لباب كتب التراجم وعصارة ما كتب عنه :

« الشيخ عبد الباقي النقشبندی الدهلوی ( المعروف بخواجه باقی بالله ) هو الشيخ الهمام حجة الله بين الأنام ، قدوة الأمة ، وإمام الأئمة ، رضى الدين أبو المؤيد عبد الباقي بن عبد السلام البدخشي المشهور بباقي بالله الشيخ الأجل . قطب الأقطاب ، النقشبندی البدخشي الكابلي ثم الدهلوی . بركة الدنيا وسر الوجود (٣) . ولسان الحضرة ، ولب العرفان ، كان من العلم والمعرفة آية من آيات الله تعالى ، ومن الولاية غاية من الغايات .

ولد في حدود سنة إحدى أو اثنتين وسبعين وتسعمائة بكابل ، واشتغل بالعلم على مولانا محمد صادق الحلواني ، وسار معه إلى ما وراء النهر ولأزمه مدة ، ثم بدا له داعية الدخول في طريق الصوفية فترك تحصيل العلوم الرسمية وطاف حول مجلس كثير من كبار

---

(١) لقد كن الامام السرهندي طوال عمره يذكر هذه المنة للشيخ حسن الكشميري ، ويشكره على هذه اليد البيضاء ، اذ انه كان الوسطة للحصول على هذه الثورة الغالية . ( انظر الرسالة رقم ٢٧٩ ، المجموعة الأولى ) .

(٢) وللاطلاع على تراجم كبار أصحاب الطريقة النقشبندية ، ومشايخها الأجلة لاسيما حياة مؤسسها الشيخ خواجه بهاء الدين نقشبند ، وخصائص هذه الطريقة وميزاتها البارزة ، ينبغي مراجعتها مؤلفات رأس هذه الطريقة في عصر حكيم الاسلام ولي الله الدهلوی ، لا سيما كتابه « الانتباه في سلاسل أولياء الله » و « همعات » .

(٣) أي أنه كان الصورة الجليلة ، والتفسير العملي للآية الكريمة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

مشايخ وقته في بلاد ما وراء النهر فأول من تاب على يده الشيخ خواجه عبيد خليفة مولانا لطف الله ، خليفة المخدوم الأعظم الذهبيدي ، ولما لم تظهر عليه آثار الاستقامة تاب ثانياً على يد الشيخ افتخار حسين عند قدومه بسمرقند ، وكان من مشايخ سلسلة الشيخ أحمد اليسوي ، ثم طرأت على عزمته هذه الفترة ، وظهر فيه ما ينافي طريق الاستقامة فجدد التوبة ثالثاً من غير صنع واختيار على يد الأمير عبد الله البلخي ، فكان في مقام حفظ الحدود أياماً ، ثم هدم سد تلك التوبة أخيراً ، ثم تشرف في المنام بزيارة خواجه بهاء الدين نقشبند ، وظهر فيه ميل إلى طريقة أهل الله ، فصار يتوجه إلى كل طرف يسير حتى وصل إلى ملازمة الشيخ بابا ولي الكبروي في بلدة كشمير ، فلازمه وأخذ عنه ، وهبت عليه في ملازمته النفحات الربانية ، وظهرت فيه الغيبة المعهودة عند هذه الطائفة ، ولما مات الشيخ المذكور صار يدور البلاد ومضى عليه زمن من السياحة والأخذ حتى حضرت له روح الشيخ عبيد الله الأحرار ، فعلمه الطريقة النقشبندية ، وتم أمره ، ثم ذهب إلى ما وراء النهر فأدرك بها الشيخ محمد الامكنكي ، فأجازه الشيخ بعد ثلاثة أيام ، ورخصه ، فرجع إلى الهند وأقام سنة ببلدة لاهور ، واغتتم صحبته فيها كثير من العلماء ثم ارتحل منها إلى دار سلطنة الهند دهلي ، واختار للإقامة القلعة الفيروزية التي كانت مشتملة على نهر كبير ، ومسجد عظيم ، فأقام هناك إلى وفاته .

وكان صاحب الأذواق والمواجيد كثير التواضع والانكسار ، وكان يجتهد في ستر أحواله وسيرته عن نظر الأغيار ، ولا يرى نفسه أهلاً لمقام الإرشاد ، فإذا جاءه شخص يطلب الطريقة كان يقول : ليس عندي شيء من ذلك ، ينبغي لك أن تطلبه من غيري ، فإذا لقيت أحداً من هذه الطائفة فبني عليه ، وكان بمعزل عن الدعوى يشتغل بخدمة الزوار ، واستمالة قلوبهم ولا يتكلم إلا عن ضرورة ، إلا في مسألة مشكلة من الحقائق ، فكان يوضحها حق الإيضاح للدلا يميل صاحبها عن النهج القويم ، وكان يمنع أصحابه عن القيام تعظيماً له ، ويعد نفسه كأحد منهم ، ويحب المساواة معهم في سائر حالاته ، وكان يقعد فوق التراب من غير حائل تواضعاً ومسكنة .

وكان ذا كيفية عجيبة ، وتصرفات غريبة بحيث إذا وقع نظره على شخص كان يتغير حاله ، وكان يحصل الذوق والشوق ، والكيفية المعهودة عند هذه الطائفة في أول صحبته ، ويجري لطائف الطالبين بالذكر في أول التلقين ، وكان ذلك على سبيل التعميم ، وكانت شفقتة على الخلق . . . . . غاية ، حتى إنه قام ليلة في أيام البرد عن فراشه ، فلما عاد رأى في لحافه هرة نائمة ، فلم يرضى بإيقاظها وتحريكه إياها ، وقعد إلى الصبح متحملاً لذلك

البرد ، وصادفت إقامته فى لاهور مجاعة فلم يأكل فى تلك المدة شيئاً ، فإذا أحضر عنده طعام فرقه وقسمه على الجائعين ، ولما خرج من لاهور متوجهاً إلى دهلى رأى عاجزاً فى الطريق فنزل عن دابته وأركبه إياها ، وصار يمشى متقنعاً لئلا يعرفه أحد ، ولما قرب إلى المنزل أنزله وركب بنفسه لئلا يطلع عليه أحد .

وكان غاية فى رؤية قصور الأحوال واتهام النفس ، لا يميز نفسه عن العامة ، فضلاً عن أصحابه ، قيل : كان فى جواره شاب يرتكب كل شىء من الفسق ، فكان يتحمله مع اطلاعه عليه ، فسعى خواجه حسام الدين الدهلوى أحد أصحابه فى دفعه وتأديبه إلى الحكام ، فأخذوه وحبسوه ، فلما اطلع عليه غضب على صاحبه وقال : لم فعلت كذا ؟ ، قال : يا سيدى إنه فاسق لا يبالى ، يرتكب كل شىء فقال : أوه لما كنتم من أهل الصلاح والتقوى رأيتم فسقه ، وإلاً فنحن لا نعرف الفرق بيننا وبينه ، فكيف نترك أنفسنا ونسعى به إلى الحكام ، ثم سعى فى تخليصه وإخراجه من الحبس ، فأخرجوه فتاب وصار من الصلحاء ، وكان رحمه الله - إذا صدرت زلة من أصحابه - يقول : إن هذه من زلاتنا ، ظهرت منهم بطريق الانعكاس ، وكان يختار الأحوط فى العبادات والمعاملات ، ولذلك كان يقرأ الفاتحة خلف الإمام فى الصلاة فى ابتداء حاله لكثرة الأحاديث الواردة فى قراءتها وقوة دليلها .

وهذه المذكورات نبذة من شمائله ، وقطرة من بحر خصائصه ، ولذلك ترى أن الناس انتفعوا به فى مدة قليلة ، وما انتشرت هذه السلسلة المباركة فى الهند إلاً منه - رضى الله عنه - وما كان أحد يعرفها قبله ، وكان الشيخ محمد بن فضل الله البرهانبورى يقول : إنه كان معدوم النظر فى قوة الإرشاد ، فإنه أرشد ثلاث سنين أو أربع ، وفى تلك المدة القليلة أنار الآفاق بلوامع إفادته كما فى « زبدة المقامات » للكشمى ، وذلك لأنه عاش أربعين سنة ، وبعد قدومه الهند لم يعيش إلاً أربع سنوات ، وفى تلك المدة القليلة بلغ أصحابه إلى أعلى مدارج الكمال حتى أنهم محوا آثار الطرق السالفة ، وغلبت الطريقة النقشبندية على الطرق الأخرى .

قال محمد بن فضل الله المحبى فى « خلاصة الأثر » إنه قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، اية من آيات الله سبحانه ، ونور من أنواره ، وسر من أسراره ، صاحب علم ظاهر وباطن ، وتصرفات ، كثير الصمت والتواضع والانكسار ، ذا خلق حسن لا يتميز عن الناس بشىء ، حتى إنه كان يمنع أصحابه من أن يقوموا لتعظيمه وأن لا يعاملوه إلا كما يعامل بعضهم بعضاً .

ثم قال : وظهرت له التصرفات العظيمة ، فصار كل من يقع نظره عليه ، أو يدخل في حلقة يصل إلى الغيبة والفناء ، ولو لم يكن له مناسبة ، وكان الناس مطروحين على بابه كالكسارى ، وبعضهم كان ينكشف له في أول الصحبة عن عالم الملك والملكوت ، وكل هذا كما من غلبة الجذبات الإلهية « انتهى .

ومن أخذ عنه الشيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندى إمام الطريقة المجددية ، والشيخ العارف تاج الدين بن سلطان العثمانى السنبهلى ، والشيخ حسام الدين بن نظام الدين البدخشى ، والشيخ الهداد الدهلوى وخلق آخرون .

ومن مصنفاته الرسائل البديعة ، المكاتب العلية ، والأشعار الرائقة ، منها سلسلة الأحرار ، شرح فيه رباعياته في الحقائق والمعارف بالفارسى .

توفى يوم الأربعاء رابع عشر من جمادى الآخرة سنة أربع عشرة بعد الألف بمدينة دهلى ، وله أربعون سنة ، وأربعة أشهر ، وقبره بها على غربتها عند أثر قدم الرسول ﷺ . . . . . (١) » .

### البيعة والتكميل الباطنى :

ودخل الإمام السرهندى على الشيخ عبد الباقي ، فكأنه كان منه على ميعاد ، أكرمه وبالغ في الحفاوة به ، والعطف عليه ، وكان الشيخ أبى النفس غيوراً ، لا يتعجل في المعرفة والصدقة ، ولا يستلفت نظر إنسان إليه ، إلا أنه مع الإمام السرهندى أصبح طالباً مكان مطلوب ، وقدّر الله - سبحانه وتعالى - أن يكمل الإمام في صحبة هذا الشيخ مسيرة التكميل الباطنى ، ويستفيد تلك النسبة الخاصة التى كانت الطريقة النقشبندية تمتاز بها فى ذلك العهد ، والتربية الروحية التى كانت الحاجة تشتد إليها فى الوسط الروحى السائد فى الهند وأن يستعد - عن طريق هذه التربية والسلوك - للقيام بالأعمال التجديدية الإصلاحية من نوع جديد ، فيعيد الطريقة إلى نصابها تابعة طيعة للشريعة ، ويرعى الناس ويسمو بهم إلى المقامات الرفيعة ، ومراتب الإحسان العالية ، وينقلهم من الوسائل والأسباب إلى المقاصد والغايات نقلة بعيدة عظيمة ، خاطبه الشيخ وقال له على غير ما عهد من عادته وطبعه : « امكث عندنا ضيفاً ، شهراً أو أسبوعاً على الأقل » .

ولما كان الشيخ أراد السفر إلى الهند ، استخار الله - تعالى - ورأى بعد صلاة الاستخارة

(١) « نزهة الخواطر » ، ج ٥ ، ص ١٩٦ - ٢٠٠ .

كان يبغاء جميلة تنطق بالحديث الحلو اللذيذ نزلت وجلست على يده ، وهو يسقيها ريقه ، فتعمه بمنقارها السكر ، فذكر الشيخ هذه الرؤيا لمرشده وشيخه في الطريقة الشيخ خواجه الامكنى ، فعبرها قائلاً : إن البغاء من طيور الهند فسوف يقوم بفضل تربيتك وإرشادك في الهند شخص يضيء العالم ، ويكون لك أيضاً منه نصيب (١) .

ولم يكن للإمام - بعد هذا الأمر - مندوحة في الإباء والاعتذار ، فقد كان هو نفسه يبحث عن الخريت والدليل ، وماء الحياة والسلسيل ، فقبل هذه الإشارة ، ومكث هناك ، وظالت الإقامة - بصورة تدريجية - إلى شهر وأسابيع وغلبه الشوق إلى تحصيل الطريقة النقشبندية ، والتمتع بفوائدها وفيوضها ، وبلغت هذه الرغبة الأكيدة إلى أن طلب من الشيخ أن يبايعه ، فلبى الشيخ هذه الطلبة من غير لآى وانتظار ، وذهب به إلى خلوته حيث لقنه الذكر القلبي ، وجرى قلب الإمام - فى نفس الساعة - بالذكر ، وشعر بلذة غريبة ، وبشاشة ظاهرة تزداد كل يوم ، وتحلق به فى أجواء الروح وتعلو ، فتفطن الشيخ عند رؤية هذه الأحوال ، وسرعة السير إلى الله ، إنه هو البغاء الصادحة المترنمة ، التى رآها فى المنام ، وأن نغمتها العلوية الرخيمة ، وفطرتها الجميلة السليمة ، ستأتى بربيع زاهر جديد فى حديقة الهند ، بل فى حديقة الإسلام ، وما وصل إليه الامام فى مدة شهرين ونصف - تقريباً - من مدارج الرقى والكمال ، وما ظهرت فيه من اثار وكرامات وكيفيات قلبية باطنة ، لا يمكن تجليتها بالعبارات والألفاظ ولا يمكن فهمها وإفهامها ، بقوالب من التعبيرات (٢) .

ثم سافر الإمام السرهندي إلى سرهند ، وكان شيخه - فى هذه المرة الأولى - قد بشره بالحصول على النسبة النقشبندية - بصورة كاملة - وأن الأمل قوى فى التقدم السريع ، والرقى المتواصل فلما ورد دهلى مرة ثانية ، ألبسه خرقة الخلافة والإجازة ، لتعليم الطالبين وإرشاد السالكين ، وتربية المريدين ووكل إليه بعض خواص أصحابه ومريديه لتعليمهم الطريقة وتسليكمهم .

وجاء الإمام السرهندي - بعد ذلك - للمرة الثانية والأخيرة إلى شيخه ، فخرج الشيخ

---

(١) « زيد المقامات » ص ١٤٠ - ١٤١ ، و « حضرات القدس » ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) وإذا أراد القارىء الاطلاع على بعض تفاصيلها فليرجع إلى الرسالة رقم : ٢٩٦ الجزء الرابع من المجموعة الأولى ، وهى موجهة الى الشيخ خواجه عبيد الله والشيخ خواجه عبد الله ابني الشيخ خواجه باقى بالله ، والرسالة رقم : ٢٩٠ ، الجزء الخامس من المجموعة الأولى ، وهى موجهة الى الشيخ محمد هاشم الكشمى .

ومشى طويلاً لاستقباله ، وبشره بنعم كثيرة ، وجعله رأس الحلقة للتوجه والإرشاد وقال لأصحابه : ينبغي في حضرته أن لا تلتفتوا إلاً إليه ، وقال له عند الوداع : أشعر بضعف شديد ، والأمل في الحياة قليل ، ثم طلب منه اللفتات الروحية إلى ابنه الشيخ خواجه عبید الله ، والشيخ خواجه عبد الله - وكان طفلين رضيعين - وإلى أمهما أيضاً من وراء الحجاب ، فتفضل بها حسب أمر الشيخ ، وظهرت علائقها وآثارها عليهم في نفس الوقت<sup>(١)</sup> .

### شهادة الشيخ المرشد على جلالة شأن الإمام :

وكتب الشيخ عبد الباقي - بعد الصلة الروحية مع الإمام السرهندی - إلى بعض المخلصين من أصحابه :

« إن الشيخ أحمد الذي هو من سكان سرهند والعالم الرباني الوافر العلم القوى العمل ، صحب هذا الفقير مدة يسيرة فشاهد الفقير عجائب أحواله ، وعظيم صفاته ، وباهر مقاماته ، وأرجو أن يكون سراجاً يضيء وقد كان الإمام السرهندی نفسه بعد حضور مجلس الشيخ لأول مرة ، ولفقات الشيخ إليه وتلقيه إياه على يقين من أنه سوف يرتقى في هذه الدرجات العالية ، ومع ذلك كان دأبه التواضع وهضم النفس ، ويردد - كذلك - هذا البيت الذي يقول فيه :

« إنني على يقين - لهذا النور الذي تسكبه على قلبي - بأنني لا بد واصل إلى غايتي ورغبتى<sup>(٢)</sup> . »

وكان الإمام السرهندی - رغم هذه الفضائل العلمية والمحاسن العملية ، وبلوغ المدارج الروحية العالية - يتأدب مع شيخه غاية التأدب ويحترمه أشد الاحترام ، وكلما طلبه الشيخ ، يتغير لونه ، ويقشعر جلده<sup>(٣)</sup> ، أما الشيخ فكانت معاملته معه تختلف عن معاملة المرشدين للمترشدين ، والمشائخ للطالبيين والمريدين ، وقال عنه يوماً : إن أحمد شمس ، تأفل في ضوئها آلاف النجوم أمثالي<sup>(٤)</sup> . »

(١) « نزهة الخواطر » ، ص ١٥٥ .

(٢) « زبدة المقامات » ، ص ١٤٥ .

(٣) أيضاً ص ١٤٩ .

(٤) أيضاً ص ٣٣٠ .



## الباب الرابع

أهم الأحداث والوقائع والعكوف على التربية والإرشاد والوفاء

الإقامة بسرهند :

وعكف الإمام - بعد هذه الاستفادة ، والتربية الروحية ، والتكميل الباطني ، في سرهند ، وبقي مدة غير قصيرة لا يمارس التربية والإرشاد للطالبين والسالكين ، يشعر في نفسه بالنقص والتقصير شعوراً قوياً ، وكان يترقى ، بسرعة مدهشة - مدارج الكمال ، وتطمح روحه إلى بلوغ الذروة والغاية ، فكان يصعب عليه في غلبة هذا الحال أن يقبل إلى تربية السالكين وتعليم الطالبين ، الذي يشترط فيه النزول ، إلى مستوى المريدين ، ولم يكن هذا الشرط قد حقق بعد يقول في رسالة له :

« لقد ظهر لي - في هذه الحالة - تقصيري ونقصي ، وجمعت الطالبين الوافدين ، وذكرت لهم هذا النقص الذي أشعر به ، ثم ودعتهم ولكن الطالبين والمريدين حملوا ذلك على التواضع وهضم النفس ، ولم يغيروا رأيهم في ، حتى من الله تعالى عليّ - لما يريد مني من خدمة هذا الدين ، والعناية بشأن المسلمين - بالأحوال المرجوة » (١) .

وآن الآوان لعمله التربوي والإصلاحى ، فبدأ يشتغل بإرشاد الطالبين ، وتسليك المريدين ، وتكميل السالكين ، وكان الإمام يكتب أحواله وأخباره ، وأحوال مسترشديه ، وإخوته في الطريقة ، وما اجتاز من العقبات ، وما صعّدوا من الدرجات إلى مربيّه الشيخ عبد الباقي ، وظهرت له في هذه المدة مبشرات ، ورؤى وآثار أثلجت قلبه ، ودلت على أن الله - عز وجل - يعدّه لأمر عظيم ، وأنه سيقوم بخدمة جليلة لهذا الدين (٢) ، ولم يحظ بعد الرحلة الثالثة ، بزيارة الشيخ ، وصحبته ومجالسته ، فقد توفي قبل أن يلقاه المرة الرابعة .

(١) مجموعة الرسائل الأولى ، رقم : ٢٩٠ .

(١) انظر الرسالة رقم : ٧٤ ، من المجموعة الثانية .

## رحلته إلى لاهور :

وتوجه إلى لاهور - بعد إقامة يسيرة في سرهند - بإشارة من شيخه ، وكانت مدينة لاهور - إذ ذاك - تعتبر المركز الدينى والعلمى التى تلى مدينة دهلى ، وكان فيها عدد كبير من العلماء والمشايخ ، فلما سمعوا بمجىء الإمام خرجوا يستقبلونه واحتفوا به (١) ، وبايعه الشيخ طاهر اللاهورى - الذى أصبح فيما بعد من أجلة خلفاء الإمام - والشيخ حاجى محمد ، والشيخ جمال الدين التلوى ، وانخرطوا فى سلك مريديه ، فكانت تقام هناك حلقات الذكر ، ومجالس المذاكرة ، والوعظ والإرشاد (٢) .

كان الإمام فى لاهور إذ سمع نبأ وفاة الشيخ ، فتأثر بذلك تأثراً شديداً ، ويم شطر دهلى فى حالة اضطرارية وفى توجع واضطراب وكانت « سرهند » تقع فى الطريق ، ولكن لم يعرج عليها ولم يدخل البيت ، ووصل إلى دهلى وزار ضريح الشيخ ، وذهب إلى أبناء الشيخ وزملائه فى الطريقة فعزاهم ، ودعا لهم بالصبر الجميل ، وعزم على الإقامة - لأيام - نزولاً على رغبتهم وتسلية لخواطهم ، فعادت الحياة والنشاط إلى تلك المجالس التربوية التى اقضت وأوحشت من بعد وفاة الشيخ ، وانشرحت الصدور الكئيبة ، وانتعشت القلوب الجريحة (٣) .

ورجع إلى سرهند بعد أن مكث فى دهلى أياماً قليلة ، ثم لم يتفق له السفر إلى دهلى ، إلا مرة ، وإلى آكره ، مرّ فى آخر عمره بعدد من المدن والقرى حينما ارفق العسكر الملكى لثلاث سنين - كما سيأتى ذكره قريباً - فلتقاه أهلها بالحب والتكريم ، واستفاد من صحبته الطالبون والسالكون (٤) .

## التنظيمات الواسعة للدعوة والتبليغ ، والتربية والإرشاد

### وتهافت الطالبين عليه من كل مكان

بعث الإمام السرهندى عام ١٠٢٦ هـ عدداً كبيراً من خلفائه إلى مختلف أرجاء البلاد للتربية والدعوة والإرشاد ، فبعث سبعين شخصاً تحت قيادة الشيخ محمد قاسم وإمارته إلى

(١) « زبدة المقامات » ، ص ١٥٧ .

(٢) أيضاً ص ١٥٨ .

(٣) أيضاً ص ١٥٨ .

(٤) زبدة المقامات ، ص ١٥٩ .

تركستان ، وأربعين شخصاً في إمارة الشيخ فرخ حسين إلى بلاد الحجاز ، واليمن ، والروم ، والشام ، وعشرة أشخاص من كبار المسؤولين وأرقى السالكين تحت قيادة الشيخ محمد صادق الكابلي إلى كاشغر ، وثلاثين خليفة من خلفائه برئاسة الشيخ أحمد البركي إلى توران ، وبدخشان ، وخراسان ، ولقى هؤلاء الخلفاء في المناطق التي وكلت إليهم نجاحاً كبيراً . واهتدى على أيديهم خلق كثير ، وعمت الناس الرفادة والتذكير (١) .

وضرب كثير من كبار العلماء والمشايخ المحترمين المبجلين في مناطقهم وأوطانهم . أكباد الأبل ، وتحملوا عورة الطريق ، وعوائق السفر في الوصول إلى سرهند حيث بايعوا الإمام واستفادوا من تربيته ، وصحبته نخصر بالذكر منهم الشيخ طاهر البدخشي - معتمد سلطان بدخشان . وكتابه الخاص ، وأمين سره - والعالم الفاضل الشيخ عبد الحق شادماني ، والشيخ صالح الكولابي والشيخ أحمد البرسي ، والشيخ يار محمد والشيخ يوسف من طالقان . وقد شرف الإمام معظم هؤلاء العلماء بالخلافة والإجازة ، وأمرهم بالعودة إلى مناطقهم والاشتغال بالدعوة والإرشاد .

ونصب في مختلف أنحاء الهند كذلك تلامذته وخلفاءه فبعث الشيخ مير محمد نعمان بعد استخلافه وإجازته إلى دكن ، وكان يحضر في زاويته مئات من المشاة والركبان ، للذكر والمراقبة ، واستخلف الشيخ بديع الدين السهارنبوري ، ووجهه - أولاً - إلى سهارنبور ، ثم أمره بالإقامة في المعسكر الملكي بآكره حيث تم له القبول ، وألهم الناس حبه وإجلاله ، فدخل كثير من أعضاء الدولة في حلقة مسترشديه ومريديه ، وتاب على يديه الآف من العسكريين وكان الزحام يبلغ كل يوم إلى حد يتعسر فيه على الأمراء والأعيان زيارة الشيخ ، وجدد بيعة الشيخ مير محمد نعمان الكشمي - الذي كان من خلفاء الشيخ عبد الباقي - وأجاز ، وأنفذه إلى برهان بور ، حيث أصبح مرجع الطالبين المسترشدين ، وصلحت أحوال كثير من الناس ، وعمت التوبة والإقلاع عن المعاصي ، وبعث الشيخ طاهر اللاوري لإرشاد طلاب المعرفة وإرواء ظمأى اليقين في مدينة لاهور - التي كانت مركزاً سياسياً وعلمياً بعد دهلي - وعم النفع والإفادة في تلك البقعة ، وأجاز الشيخ نور محمد البتني وبعثه إلى مدينة « بتنه » حيث بدأت بجهوده سلسلة التربية والإرشاد ، والتدريس والإفادة والإرشاد ، والدعوة ، وبعثه إلى بنكاله ، وبعث الشيخ طاهر البدخشي بعد استكماله للدورة التربوية؛ وأجازه في التدريس وتعليم الطريقة إلى جونبور وجه الشيخ أحمد البركي

(١) الروضة القيومية ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

بعد إجازته في التعليم والتربية إلى « برك » حيث عكف على الدرى والإفادة والإرشاد والتربية ، وداوم على إعلام الشيخ - عن طريق المراسلة - بأحوال مريديه وطالبيه ، وكان الشيخ عبد الحى من سكان « حصار شادمان » ( فى منطقة أصفهان ) وهو الذى قام بجمع وترتيب المجموعة الثانية من الرسائل ؛ أجازته الشيخ فى التربية والتعليم ، ووجهه إلى مدينة « بتنه » فكان الشيخ عبد الحى يروى الظمان ويصدره ربان فى وسط المدينة ، وكان الشيخ نور محمد على شاطىء نهر كنىكا يفجر عيون الهداية والتربية والإفادة ، وكان الشيخ حسن البركى يتولى فى وطنه بأمر الشيخ نشر السنة وتعليم الطريقة المرضية ، واستخلف السيد محب الله المانكبرى وبعثه إلى مانكبرى ثم أذن له بالإقامة فى اباد ، وتشرف الشيخ كريم بابا حسن الأبدالى بعطف خاص ولفترات نافعة ، ثم عاد إلى الوطن وما انتهى عام ١٠٢٧ هـ حتى تجوز صيت الإمام فى جلالة الشأن ، وتأثير التربية ، وقوة التوجيه والإرشاد ، إلى خارج البلاد ، وسمع صدها فيما وراء الهند من بلاد بعيدة نائية ، وقصده الناس من أقاصى العالم فرادى وجماعات ، وزاروه وصحبوه ، واستفادوا من علمه وتربيته ، وكان كثير من خلفائه فى ما وراء لنهر ، وبدخشان ، وكابل ، والبلدان العجمية الأخرى ، وبلغ صيته إلى البلدان العربية كذلك ، أما فى الهند فلم تبق بقعة من بقاعها إلا وفيها خلفاؤه وتلامذته ، ومسترشدوه ، يدعون إلى الله ، ويرشدون الحيارى ويربون الطالبين .

### موقف السلطان جهانكير مع الإمام :

مات جلال الدين أكبر سنة ١٠١٤ هـ ، وخلفه على عرش المملكة ابنه نور الدين جهانكير ، وقد كان ما أصيب به الإسلام والمسلمون فى عهد الملك أكبر من تضيق الخناق ، وسلب الحرية الإسلامية ، ومحاولة اجتثاث جرثومة الإسلام ، وهدم أساسه فى قوة وحماس تحت مؤامرة دقيقة محبوكة فى هذه البلاد العظيمة - التى رويت أرضها الطيبة وازدهرت بدماء الغزاه والفاحين المسلمين ، وعرق الدعاة والمصلحين ، ودموع الأولياء والصالحين ودعوات الضارعين المتهلين - لقد كان كل ذلك كفيلاً بأن يجرح قلب الإمام المتوجع الحزين ، ويشير غيرته الإسلامية ، وحميته الدينية ، ويقض مضجعه ، ولكنه لانصرافه أولاً إلى التربية والتهذيب ، والتكميل الباطنى ، ثم إدراكه ثانياً أن الفتنة فى عنفوانها وسورتها ، وأنه لم يتوصل إلى نقطة البداية للتأثير على أصحاب السلطة وسياسة الدولة ، فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين وتوجيه الميول والنزعات إلى الإسلام ، لم ينهض بعمله التجديدى الإصلاحى بقوة ونشاط ، أو أنه بدأ هذا العمل ولكن لم ينقل إلينا

التاريخ شيئاً من تفاصيله ، وكل ما نعلم عنه فى هذه الفترة أنه وجه رسائل موعظة وتذكير، إلى كل من خان خانان ، والسيد « صدر جهان » و « مرتضى خان » وكان هؤلاء من المقربين لدى السلطان والحائزين لثقتة واهتمامه ، وكانت قلوبهم عامرة بحب الإمام وتقديره وإجلاله .

ولم يكن السلطان جهانكير موغر الصدر يحمل ترة على الإسلام فحسب ، بل كان فيه - نوع من سلامة القلب ، وحسن السيرة ورسوخ العقيدة ، ولم يكن يفكر - إطلاقاً - فى تنفيذ دين جديد ، وقانون جديد ، وإنما كان منصرفاً مثل جدّه إلى الترف والبذخ ، وحياة اللهو والأفراح ، والليالى الملاح ، فلما رأى الإمام السرهندي سذاجة السلطان فى قضايا فكرية وعقائدية صمم على أن ينتهز هذه الفرصة ، ويسعى لإزالة تلك التى خلفتها فى الهند حكومة « أكبر » السابقة ، وسوف نتعرض لتفصيلها فى باب مستقل .

ولكن صادفت - قبل أن يبدأ الإمام هذا العمل الثورى العظيم - حادثة اعتقاله فى «كواليار» التى تعتبر - لجوانبها العديدة - حادثة تاريخية مهمة لحياة الإمام وعهد الإصلاح والتجديد .

تقول بعض كتب السير والتراجم أنه عرضت على السلطان جهانكير محتويات تلك الرسائل التى كانت تتعلق بموضوعات التصوف الدقيقة ومصطلحاته الفنية ، التى لا تفهم إلا فى ضوء غرض الكاتب ومراميه ، والتى كانت من تلك المكاشفات والواردات القلبية التى تعرض للسالك فى الطريق ، ويجب عليه إعلام الشيخ الربى بها ، وإطلاعه عليها<sup>(١)</sup> ، حتى يدلى فيها برأيه ويوضع له ما أبهم ، ويرشده إلى سواء الطريق حتى يعرف مدى

---

(١) انظر الرسالة رقم : ١١ من المجموعة الأولى الى مرشده الشيخ عبد الباقي وقد وقع بعض العلماء الراسخين - أيضاً - عدا جهانكير ، عند قراءة هذه المباحث فى الاضطراب فى أمرها ، نخض منهم بالذكر محدث عصره وناشر علم الحديث فى الهند ، جامع الشريعة والطريقة ، العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخارى الدهلوى ، فقد بقى مدة طويلة متشككاً فى أمر الإمام ، وراسله أيضاً ، ولكنه اقتنع أخيراً وانشرح صدره فى ذلك وأشار إليه فى رسالة من رسائله ويقول ابنه نور الحق ، إنه قد ثبت لدينا ثبوتاً لا يقبل الشك أن شخصاً يدعى حسن خان الذى كان من مريدى الإمام السرهندي ، وجد عليه فى شىء وذهب من عنده وتصرف فى نسخة خطية لرسائل الإمام - كانت عنده - وحرف فيها تحريفات كثيرة ونشرها محرفة بين الناس فى كل مكان ، ( « مناقب العارفين » تأليف شاه محمد الفتجبورى الجشتى ، ص ١٢٦ ) ويمكن أن تكون هذه الرسائل المحرفة سبب الخطأ فى الفهم ، والفتنة التى أثرت حوله .

تقدمه واستعداده الباطني ، وكان السلطان جهانكير لا يعدو أن يكون مسلماً ساذجاً سني العقيدة لا يعرف شيئاً من مصطلحات « الكشف » و« العبور » و « الواقعة » و « الاستقرار » وتعلو على فهمه هذه الموضوعات ، فأبدى دهشته واستغرابه وظن أنها عقائد تخالف عقائد جمهور الأمة وجميع المسلمين من أهل السنة ، وحملها على الدعاوى الباطلة ، والإعجاب بالنفس ، يتجلى هذا الاستغراب والدهشة بوضوح حيث ذكر هذه الحادثة في كتابه « توزك » وقد تناول فيه الإمام بأسلوب غير لائق متهمك ساخر<sup>(١)</sup> ؛ يدل على أنه لا يعرف الإمام ومنزلته في الإسلام ، وأنه يكتب بقلم السلطان ، المغولي التوراني - الذي لا يعرف سوى عامة عقائد المسلمين ، ويرى نفسه مسئولاً عن حمايتها والحفاظ عليها - في غير تكلف وصناعة .

وتكلم الناس في شأن الشيخ بديع الدين السهارنبوري الذي حصل له النفوذ والقبول في عسكر السلطان ، وكثر تردده إلى عيان الدولة ، فتحدث الناس في ذلك وبالغوا فيه ، وتوجسوا منه الخطر ، وذكروا للسلطان أن الإمام السرهندي يريد - عن طريق الشيخ بديع الدين - توثيق الصلات مع الجيش والمؤامرة معهم ، وإعداد خطة للثورة والخروج على السلطان ، ولم يأخذ الشيخ بديع الدين في مواجهة هذه الإشاعات بالحزم والحذر ، بل تحدث أمام الناس في سورة حبة للإمام عن الكشوف ، والوقائع الغريبة ، التي لا تسيغها عقول الخاصة الذين هم كالعامّة فكيف تدركها عقول العوام الذين هم كالأنعام ، والتي كانت - بطبيعتها - موضع بحث وجدال ، وقيل وقال ، ولم يعمل في مخاطبتهم بهذه الوصية الذهبية « كلموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله (٢) » ووقع الإمام بهذا السبب في المشكلة ، إذ كان السلطان جهانكير ليس من هذا العلم في غير ولا نفير وكان الوشاه في البلاط كثيرين ، ثم إن الإمام كان يقاوم تأثير التشيع في الأعمال والمعتقدات الذي كاد يستولي على المجتمع الإسلامي كله بعد دخول العنصر الإيراني في الهند ، وسيطرته على البلاط ، وكان يدعو - علناً وجهاراً - إلى عقائد أهل السنة والجماعة ، فلا يستغرب أن يكون الإيرانيون أصحاب الجاه والنفوذ في البلاط أرادوا أن يتهزوا الفرصة لإيقاع بالإمام ، وزادت خطورة هذه القضية بعد أن صبغت بالصبغة

---

(١) راجع « توزك جهانكيري » ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، حوادث عام ١٠٢٨ هـ الموافق لسنة ١٤ من بداية الحكم ، ويرجع بعض النقاد ان هذه السطور بقلم كاتبه الشيعي الذي يسجل بعض خواطره وانطباعاته واللفظ له .

(١) الجملة مأثورة عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

السياسية ، وعزم السلطان جهانكير إلى اتخاذ إجراء في هذا الموضوع .

لقد كان الإمام - في هذا العهد - بتربيته وإرشاده كالشمس في رابعة النهار ، وقد طَبَّقَ صيته الافاق ، وبلغ اشتغاله بحركة الإصلاح والتجديد ، أوجه ووضع له القبول في القلوب ، ولعل وراء هذا الابتلاء في ذروة المجدة وعز الشياخة والإرشاد ، كانت حكمة الله - عز وجل - تريد له السلوك في مقامات العبدية الضارعة ، ليصل إلى تلك المعارج الروحية ، ومراتب الربانية ، التي لا يمكن ادراكها من غير هذه الابتلاءات والمحن ومجاهدة الهوى والنفس .

### أسباب اعتقاله في كواليار :

هذا ما ذكر في عامة كتب التاريخ والتراجم من سبب اعتقال الإمام ، وفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة « كواليار » وأنه يرجع إلى المحتويات الدقيقة ، مضامين المكاشفات والمشاهدات ، والطريقة والسلوك العميقة التي تدل على عظمته وجلالة شأنه ، وتفوقه على كثير من رباني هذه الأمة ، ومشايخها المصلحين واشتملت عليها رسالته الموجهة إلى شيخه خواجه عبد الباقي .

ولكن المؤلف يشك في أن هذه المحنة وقعت بسبب سوء فهم لبعض المعاني ، وخطأ في توجيه بعض العبارات ، وأن السبب العامل وراءها يرجع إلى حمية السلطان جهانكير الدينية، وغيرته على الإسلام ، وذبه عن عقائد أهل السنة وصيانتها من التحريف ، أو أنه اتخذ هذا الإجراء تحت ضغط بعض كبار العلماء والمشايخ - في عهدة - ذوى الوجاهة والنفوذ في بلاطه ، ولشدة إلحاحهم عليه .

ولكن جهانكير لم يكن في يوم من الأيام صاحب النفسية الدينية ولم يكن له من ذكاء الحس ، ودقة الشعور - في هذه المسألة التي تعلو على مداركه ، ولا تتعلق بأمور دولته وسلطته وسياسته في البلاد ، ما يثيره على شخصية دينية محترمة ظلت مرجع الناس ومركز حبهم ، وإعجابهم ، وإجلالهم ويتخذ لتأديبه هذا الإجراء الخطير .

فقد كان الشيخ محمد غوث الكواليارى - في عهد جده ووالده - ادعى أنه عرج به إلى السماء كمعراج الرسول - ﷺ - وأحدث هذا الادعاء اضطراباً واستنكاراً في العلماء ، وصدرت الفتاوى ببدعته وتكفيره ، ولكن لم يحرك ذلك من الملك همايون ، والملك أكبر ساكنًا ، ولم يتخذوا أيما إجراء ، وقد ادعى في نفس عهد السلطان جهانكير - عدد من المشايخ وصولهم إلى آخر حدود « وحدة الوجود » من « العينية » و « المساواة » وأعلنوا

هذه الدعاوى على مشاهد الناس ، وألف الشيخ محب الله الإله آبادى ( م ١٠٥٨ هـ )  
فى عهد هذا السلطان نفسه كتابه « التسوية » بالعربية ، شرحها بالفارسية ، ولكن لم يعرها  
السلطان أى اهتمام ولم يقف منها موقف المتهم المعاقب ، ثم لا ينبغى أن يغيب عن البال  
أن الرسالة رقم : ١١ ، التى تدور حولها القصة ، وتتنازع فيها الآراء ، كتبها الإمام إلى  
شيخه عام ١٠١٢ هـ وأن حادث الاعتقال وقع بعد ستة عشر عاماً من كتابه الرسالة سنة  
١٠٢٨ هـ .

ويرى المؤلف أن السبب الحقيقى للاعتقال هو ما كان بين الإمام وبين أركان الدولة ،  
وأمرء البلاط من علاقات خاصة وصلات وثيقة ، وما كان من حبههم وإجلالهم له ،  
والأمر الذى يوغر الصدور ، ويكفى لاستثارة مثل هذا السلطان المرهف الحسنى الذى خرج  
على والده ، وأقام ضده ثورة قوية ، ونازل أبناءه ، واعتقل بعضهم حتى تمكن من عرش  
الدولة ، وتولى زمام البلاد ، ويمكن إضافة إلى ما تقدم أن يكون السلطان قد اطلع على  
تلك الرسائل المثيرة المؤثرة التى كان يكتبها الإمام إلى أركان الدولة ، وأعضاء البلاط ،  
لاصلاح الحال ، وتوجيه الحكومة إلى حماية بيضة الإسلام ، وإيقاظ الحمية الدنيوية فى  
قلوبهم .

ومن الأمراء وأركان الدولة الذين وجه إليهم الإمام رسائله : خان أعظم مرزاً عزيز  
الدين ، وخان هان خان اللودهى ، وخان خانان مرزا عبد الرحيم قائد قواد الجيش ،  
ومرزا دارب ، وقلبيج خان وغيرهم (١) .

وما زال السلاطين المغول يتوجسون خيفة من مغالاة الناس فى اعتقادهم وحبهم  
وإجلالهم للمشايخ ، والتفافهم حولهم ، وتهافتهم عليهم تهافت الفراش على النور ،  
حدث ذلك مع الشيخ الكبير السيد آدم البنورى من كبار خلفاء الإمام السرهندى ، لما سافر  
إلى لاهور ١٠٥٢ هـ ، كان يرافقه فى هذا السفر عشرة الاف رجل من الأشراف والمشايخ  
والمترشدين المحبين من مختلف الفئات والطبقات ، وكان الملك شاهجهان - آنذاك - فى  
لاهور ، فأحس باخطر منه ، وعمل فى الخفاء من الأسباب والحيل التى أدت به إلى مغادرة  
الهند ، والهجرة إلى الحرمين الشريفين ، ولعل جهانكير - لأجل ذلك - بعد رفع الإقامة

---

(١) يؤيد ذلك ما يقوله جهانكير نفسه فى كتابه « توزك » : « أن خلفاء الشيخ ( الإمام السرهندى )  
يوجدون فى كل مدينة وقرية ( انظر ص ٢٧٢ ) ، وكذلك كان من المصالح المتوخاة من اعتقال  
الشيخ « وان تهدياً ثائرة الناس » ( انظر ص ٢٧٣ ) .



الجبرية في قلعة كواليار ، أمره بمرافقته في عسكره لثلاث سنين ، في الظعن والإقامة ، حتى يتعرف على طبيعة العلاقات القائمة بينه وبين أمراء البلاط وأركان المملكة ، ويطمئن إلى أنه لاخطر منه على السلطة والدولة ، وأنه لا يستغله أى عنصر معارض للدولة ، أو مغامر طامع للاستيلاء ، فلما اطمأن خاطره بما رأى من سيرة الإمام وسلوكه ، وشاهد إخلاصه ، وربانيته وإيثاره ، وبعده عن الطمع ، وسموه فى مكانته ، ورأى بأمر عينيه أن الإسم لا يقيم لزينة الدنيا وزهرتها وجاهها وسلطانها أى وزن ، ولا يلتفت إليها أياً التفاتة ، أذن له بالإقامة فى سرهند كما يشاء .

### الإقامة الجبرية فى قلعة كواليار :

وعلى كل فقد طلب السلطان الإمام السرهندي إلى مقره وأكد على حاكم سرهند أن يوجهه إليه كيفما استطاع ، فتوجه الإمام مع خمسة من أصحابه ومريديه - كانوا إذا ذاك عنده - ولما قرع سمع السلطان مجيء الإمام ، بعث الأمراء والأعيان ليستقبلوه فى الطريق ، ونصب له خيمة بجوار قصره ، وطلبه فى البلاط للمقابلة ، ولما دخل عليه فى البلاط لم يأت من الآداب والتقاليد التى كان يلتزم بها الوافدون على السلطان ، فلفت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف الله ، نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك (١) ، فسأله السلطان عن السبب ، فقال إننى لم أزل متقيداً بالآداب والأحكام التى دعا إليها الله ورسوله - ﷺ - ولا أعرف غير هذه الآداب ، فغضب السلطان ، وقال اسجد لى (٢) ، فقال الإمام : ما سجدت لغير الله قط ، ولن أسجد لغيره أبداً فتغيظ السلطان وزاد غضبه ، وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه فى قلعة كواليار (٣) .

وكان شاهجهان - الذى كان يُكنى للإمام الحب والاحترام - بعث - قبل هذه الحادثة - العلامة أفضل خان ، والمفتى خواجه عبد الرحمن بالكتب الفقهية ، وبهذه الرسالة إلى

---

(١) كانت هذه التحية تقليداً سائداً فى البلاط منذ عهد الملك أكبر ، وكانت تعد من التأداب بالآداب الملوكية ، وكانت على ثلاثة أصناف ، وأولها الكونش ، وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطأ رأسه إلى الصدر ، وثانيها التسليم ، وهو أن يضع ظاهر الكف من يمينه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس ، وثالثها السجدة ، كما يسجد فى الصلاة ( الهند فى العهد الإسلامى للعلامة السيد عبد الحى الحسنى ، ص ٣٧٢ ) .

(٢) « حضرات القدس » ص ١١٧ .

(٣) أيضاً ص ١١٦ .

الإمام ، أن الانحناء للسلطين مرخص فيه فى بعض الكتب الفقهية ، فلو فعلت ذلك أضمن لك بأنه لا يصيبك أى ضرر ، فقال الإمام : إنه محض رخصة والعزيمة أن لا ينحنى المسلم لغير الله ، تعظيماً وتقديساً (١) .

وقعت هذه الحادثة الأليمة فى شهر ربيع الآخر عام ١٠٢٨ هـ ، لأن جهانكير ذكرها فى حوادث هذا الشهر المذكور ، وقد صودرت - بعد اعتقاله - كتبه وبستانه ، وبثره ، ورباطه ، وبيته الواسع الفسيح ، ونقل أهله إلى مكان آخر .

إحياء سنة سيدنا يوسف - عليه السلام -

فى سجن كواليار :

لقد كانت هذه الإقامة الجبرية فى سجن كواليار تنطوى على حكم ومصالح دينية كثيرة ، تسبب له الحب والقبول فى الناس ، وتزيده زكاء نفس وسمو روح ، وإشراف باطن ، فشمّر هذا السجن كسجين مصر عن ساق الجد والاجتهاد فى الدعوة والإرشاد فى أولئك المسجونين الذين كانوا معه ، ونادى وراء جدران السجن بأعلى صوته : « يا صاحبى السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ، مما اهتزت له أركان القلعة وارتجت الجدران ، وسمع صدهاء فى الخارج ، يذكر بعض المؤرخين أن الآفا من السجناء من غير المسلمين اهتموا على يديه ، ودخلوا بصحبته وتربيته وإرشاده ، ودعوته فى الإسلام ، وأن مئات من السجناء المسلمين تابوا على يديه ، وباعوه ، وتمتعوا بصحبته حتى بلغوا درجات الإحسان ، يقول الدكتور آرنلند فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » (Preaching Of isiam) :

كان فى عهد السلطان جهانكير - ١٦٠٥ - ١٦٢٨ م - عالم سنى يدعى الشيخ أحمد المجدد اشتهر فى عهده بالرد على العقائد الشيعية ، وكان الشيعة ذوى نفوذ فى البلاط ، فاحتالوا عليه حتى سبوا له الاعتقال فبقى فى المعتقل عامين ، واستمال فى هذه المدة مئات من رفاقته السجناء من غير المسلمين إلى الإسلام ، فاعتنقوه (٢) .

وجاء فى دائرة معارف الأخلاق والديانات Encyclopaedia Of : Religion and ithics

« يحكى عن عالم من علماء المسلمين يسمى الشيخ أحمد المجدد - كان فى القرن السابع عشر الميلادى فى الهند ، واعتقل ظلماً - أنه أدخل مئات من غير المسلمين السجناء الذين

(١) « توزك جهانكيرى » ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، ورسالة الامام رقم : ( ٢ من المجموعة الثالثة .

(٢) ص ٤١٢ . الطبعة الثالثة .

رافقوه فى السجن ، فى دين الإسلام « (١) .

## لذائد ومواهب وراء الأسلاك :

أمطر الله شآبيب نعمه - شأنه مع المخلصين الممتحنين - على الإمام السجين ، وقد تحدث نفسه عما ناله من الرقى الباطنى ، وانكار النفس ، ولذة الحب والهيمنان ، ومشهد الجلوة فى الجلوة ، فى الرسائل التى كتبها إلى خواصر أصحابه فى لذة ونشوة وسرور ، تحديثاً بالنعمة ، وذكر لآلاء الله سبحانه .

يقول فى رسالة طويلة وجهها من قلعة كواليار إلى الشيخ مير محمد نعمان :

« أحمد الله الذى رزقنى العاقبة فى البلاد ، ورفعنى فى الظلم والجفاء ، ولطف بى فى المشقة والعناء ووفقنى للشكر فى السراء والضراء ، وأدخلنى فى زمرة المقتدين بالرسول والأنبياء ، والمتقين لآثار الأولياء والمحبين للعلماء الأتقياء ، فرحمة الله وبركاته على رسله وأنبياؤه أولاً ، وعلى أصحابهم وأتباعهم ثانياً » (٢) .

يبدو أنه لما ذاع خبر اعتقال الإمام بأمر السلطان ، وانتشر فى الناس بدأوا يعلقون على الحادث ويخوضون فيه ، ويبالغون ويتزيدون ويخرصون ، فتألم من هذا الوضع المحبون المريدون ، فيقول الإمام فى رسالة كتبها إلى أحد المخلصين المحبين الشيخ بديع الدين من السجن ، مع الإشارة إلى انتقاد الناس وملامهم :

« لما وصل هذا الفقير إلى القلعة بدأ يشعر من أوائل الأيام بأن أنوار ملام الناس ، ونقدهم وشماتهم ، تساق إلى فى صورة السحب النورانية من المدن والقرى ، بشكل مستمر ، وترفع شأنى من الضعة والهوان إلى السمو والعزة ، لقد قطعت مسافات بالتربية المتسمة باللطف و « الجمال » أعواماً وسنين ، ويسار بى الآن فى طريق التربية المتسمة بالشدة و « الجلال » فينبغى أن تتمسك بمقام الصبر بل بمقام الشكر والرضا ، وتعرف أن « الجلال والجمال » الفان لا يختلفان (٣) .

وكان يحرض أبناء البررة من داخل السجن أيضاً على الصبر والشكر والرضا ، والسلوان ، والأشتغال بالدعاء والابتهاال ، والذكر والتلاوة ، ونفى ما سوى الله ،

(١) ص ٧٤٨ ، المجلد الثامن .

(٢) الرسالة رقم : ٥ ، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة .

(٣) الرسالة رقم : ٦ ، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة .

والاهتمام بالدارسة ، وتركيز النفس والحرص على الوصول إلى الكمال (١) .

وتفيد بعض الروايات أن اعتقال الإمام بغير حق شرعى كان له رد فعل على أصحاب العقيدة السنية الصحيحة من أمراء البلاط وأركان الدولة ، وكان عبد الرحيم خان خانان ، و خان أعظم ، والسيد صدر جهان و خان جهان اللودهى وغيرهم متألمين من هذا الإجراء الذى أقدم عليه جهانكير ، وليست بين أيدينا وثائق من الكتب التاريخية التى ألفت فى ذلك العهد تدل على هذه الفوضى والاضطرابات ، كما يصعب علينا الجزم بأنه إلى أى مدى كانت صلتها ، بحادث اعتقال الإمام .

وعلى كل فإن السلطان - لسبب من الأسباب (٢) - ندم على ما فرط منه ، أو رأى هذه المدة للحبس تكفى لتأديبه ، وأبدى رغبته فى اللقاء ، فوجه إليه الدعوة للحضور فى البلاط ، وبقى الإمام السرهندي فى قلعة كواليار عامًا كاملاً ، فلعل الإفراج عنه كان فى جمادى الآخرة عام ١٠٢٩ هـ الموافق لمايو عام ١٦٢٠ م .

## الإمام فى عسكر السلطان

### ومعيته وتأثيره الدينى :

خرج الإمام من القلعة فى عز وإجلال واحترام ، وأقام بسرهند لثلاثة أيام ، ثم توجه إلى عسكر السلطان حيث استقبله ولى عهده خرم شاه جهان بن جهانكير الذى تولّى الملك بعده ، ورئيس الوزراء ، وأمره السلطان بأن يمكث فى العسكر لعدة أيام ، فقبل هذه الدعوة وقد أفادت هذه المرافقة وأثرت فى السلطان وأفراد العسكر ، يقول جهانكير فى « توزك » :  
« أعطيته الخلعة وألف روية لنفقته وخيرته بين أن يذهب أو يبقى معنا فاختر مرافقتنا والبقاء معنا » .

وقد كتب الإمام عن موافقته للعسكر وفوائدها وثمراتها إلى أبنائه ، يقول : أرى البقاء فى العسكر - مع عدم الخيرة وقلة الرغبة - فرصة طيبة ، وأفضل ساعة واحدة معهم على كثير من الساعات فى أماكن أخرى « (٣) .

---

(١) الرسالة رقم : ٥ ، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة . ، كتبها الى الشيخ خواجه محمد سعيد ، والشيخ خواجه محمد معصوم .

(٢) يقال أن الملك رأى النبى - ﷺ - فى المنام ، يعرض بأصبعه فى أسف ويقول : « حبست هذا الإنسان العظيم ؟ يا جهانكير ! » .

(٣) الرسالة رقم : ٤٣ المجموعة الثالثة .

ويقول في رسالة أخرى :

« الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، إن الأوضاع والظروف التي أنا فيها تستوجب الحمد ، فنقضى ساعات طيبات في مجالس رائعة عجيبة ، ومذاكرة مفيدة ولا يجد الكسل والمداهنة - بفضل الله ورعايته - سبيلا إلى هذه المحادثات والمذاكرات عن الأمور الدينية والأصول الإسلامية » .

فمن توفيق الله سبحانه أنى أتكلم في هذه المجالس بنفس الأحاديث التي أتكلم في الخلوات الخاصة ، والمجالس المحدودة ، ويحتاج ذكر مجلس واحد إلى كتاب مستقل « (١) .

ويقول في رسالة أخرى عن مجلس ملكى عقد في تلك الفترة :

« وصلت الرسالة الكريمة عن شيء جديد حصل اليوم ، فأصغوا إليه السمع ، حضرت اليوم ليلة السبت في المجلس السلطاني ، ورجعت بعد ساعة وسمعت ثلاثة أجزاء من القرآن وبعد ساعتين غلبنى النوم » (٢) .

ويقول في رسالة كتبها إلى الشيخ خواجه حسام الدين :

« كل من معى من الأصحاب ، والإخوان الأعزاء في سرور وطمأنينة ، لا تزال 'حوالهم في رقى وصعود ، وكأن هذا المعسكر تحول بسبهم إلى رباط » (٣) .

وبلغ الإمام السرهندى لاهور مع العسكر ، وارتحل من هناك إلى سرهند ، وأقام في سرهند ضيافة كريمة على شرف السلطان ، وكان الإمام يرغب في الإقامة بسرهند ، ولكن لسلطان شقّ عليه مفارقتة ، فصحبه إلى دهلى ، ومنها إلى بنارس ، ثم إلى أجمير حيث قام برهة من الزمن .

**لتأثير على جهانكير :**

ذكر بعض الكتب التي ألفت - حديثاً - في حياة الإمام السرهندى أن جهانكير كان يحب لإمام ويجله إجلالاً كبيراً ، وأنه بايعه ودخل في حلقة مرديه وطالبيه ، إلا أنه لا توجد مواهد تاريخية على ذلك ، ثم أن الأسلوب الذى استخدمه جهانكير في ذكر الإمام التعرض له في مواضع عديدة لا يفيد ذلك ، ولا يدل عليه ، فإنه مهما كان في نشوة

(١) أيضاً رقم : ١٠٦ .

(٢) أيضاً رقم : ٧٨ .

(٣) أيضاً رقم : ٧ المجموعة الثانية .

السلطة والقوة ، ومهما كان أسلوبه سلطانياً عالياً ، يستعد جداً أن يذكر الإمام هذا الأسلوب .

ولكن لا يمكننا أن نبحر ما تركت هذه المرافقة من الأثر العميق في نفس جهانكير ، والفوائد التي اقتبسها منها ، فقد كان لمرافقته دخل كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة فيه ، وعنايته بتعمير المساجد المنهدمة من جديد ، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة ، وما ظهر منه عام ١٠٣١ هـ بمناسبة فتح قلعة كانكره من عواطف إسلامية ، وإظهار شعائر الإسلام فيها <sup>(١)</sup> يدل على حدوث التحول ، والتقدم في التدين يمكن معه القول أنه كان غيضاً من فيض مرافقة الإمام السرهندي وصحبته .

### دنو الأجل والاستعداد له :

يقول الشيخ خواجه محمد الكشمي : « كان عام ١٠٣٢ هـ ، والإمام السرهندي مقيم في أجمير إذ قال يوماً ، لقد قربت أيام السفر إلى الآخرة ، وكتب إلى أبنائه الكرام الذين كانوا في سرهند ، « أيام انقراض العمر قريبة والأبناء بعيدون » ، وما إن وصلت الرسالة إلى الأبناء البررة حتى قاموا ، حضروا إلى أجمير ، فقال الإمام - ذات يوم - مخاطباً لابنيه الشيخ محمد سعيد والشيخ محمد معصوم ، ولم يكن ثمة أحد : ليست لي الآن أي رغبة في الدنيا ولا التفات إليها ، ويستولى على مشاعري التفكير في الدار الآخرة ، ويبدو أن السفر إليها قريب » <sup>(٢)</sup> .

ولما رجع الإمام من العسكر إلى سرهند أقام فيها عشرة أشهر وثمانية أو تسعة أيام ، ثم لما عاد من أجمير إلى سرهند ، ترك العلائق كلها ، وانقطع عن جميع الناس ، واختار العزلة والخلوة ، فلم يكن يؤذن الدخول عليه إلا لأبنائه ، واثنين من خواص خدمه ، وأصحابه ، وكان يخرج للصلوات الخمس والجمعة فحسب ، ويصرف جل أوقاته في الذكر والاستغفار ، والأشتغال بخاصة النفس ، فكان تفسيراً عملياً لقوله تعالى : ﴿ وتبتل إليه تبتلاً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

واشتد مرض ضيق النفس من منتصف شهر ذي الحجة ، وكان يغلبه البكاء وعندما يبلغ الضغف شدته ، يلهج لسانه بقوله : اللهم الرفيق الأعلى ، ومضت - أثناء هذا المرض -

(١) انظر « توزك جهانكير » ، ص ٣٤٠ ، وراجع للتفصيل الباب السابع منه .

(٢) ربة المقامات ، ص ٢٨٢ .

(٣) سورة المزمل ، آية ٨ .

أيام أبلّ فيها قليلاً من مرضه فوجدت القلوب الجريحة الحزينة قليلاً من الراحة والسلوى ، وكان الإمام يقول في هذا الحال : إن اللذة والبشاشة التي كنت أشعر بها في شدة المرض لا أشعرها في هذا البرء لأيام قليلة » ، وأكثر عند ذلك من التصدق والإنفاق ، ثم قال اليوم الثاني عشر من شهر محرم : « نبئت بأنه يرحل بك من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة في ظرف خمسة أربعين يوماً ، وأريت مكان القبر » ، ورأى أبنائه - ذات يوم - أن الإمام في حال رقة وبكاء ، فاستفسروه عن السبب ، فقال : « شق اللقاء » فقال الأبناء البررة : ما سبب انصرافكم عنا ، وعدم حبكم لنا ( على غير العادة الكريمة ) قال : « لله أحب إليّ منكم » .

ولما كان من شهر صفر ، قال للخدم والأقرباء : لقد تم - هذه الليلة - أربعون يوماً فنتظر ماذا سيحدث في هذه الأيام السبعة أو الثمانية القادمة ، ثم جعل يتحدث عن نعم الله التي لا تحصى ، وألطفه التي لا تستقصى وقسم جميع أثوابه وملابسه يوم ٢٣ صفر في الأصحاب والخدم ، ولم يكن على جسمه ثوب محشو بالقطن ، فأصيب بالبرد ، وعادت الحمى مرة ثانية (١) ، وكأنه أدى سنة الرسول - ﷺ - في مرضه الأخير أيضاً ، إذ أنه - ﷺ - مرض مرة ثانية بعد برء قليل .

لقد كانت العلوم ، والمعارف الإلهية في هذا الضعف والوهن الشديد تنهمر عليه وتفيض ، قال له ابنه الشيخ محمد سعيد : تشق على حضرتكم في هذا الضعف البالغ الغاية هذه الأحاديث ، فلو أجلت بيان هذه الحقائق ، والمعارف السنية ، فقال : يا ابني العزيز من يضمن لى الوقت حتى أوجل بيان هذه المعاني « والتزم الصلوات بالجماعات أثناء هذا الضعف المرهق إلاّ الأيام الأربعة أو الخمسة من أواخر أيام حياته ، صلى منفرداً بعد إلحاح شديد ، ولم يكن للكسل والتواني - رغم الوهن المضمي - سبيل إلى الاشتغال بالأدعية والأوردة المأثورة ، والذكر والمراقبة ، وكان يراعى جميع آداب الشريعة والطريقة ، مراعاة تامة دقيقة ، قام - ذات ليلة - في الثلث الأخير وتوضأ ، ثم قام يتهجّد ، وقال : «هذه آخر نافلة الليل » ، وهكذا كان .

وغلّبه الاستغراق والفناء قبل الوفاة بيسير ، وسأله الأبناء البررة ، هل هذه الغيبة والاستغراق ناشيء من الضعف والمرض ، أو ناشيء من الاستغراق والانقطاع ، فقال :

---

(١) لعل ذلك كان شهر نوفمبر إذ أن الوفاة كانت في شهر ديسمبر ، وهذا الشهر من فصل الشتاء في هذه المناطق .

« ناشيء من الاستغراق ، وبين يدي حقائق وأمور » ، وكان يوصى في هذا الحال من الإرهاق والإعياء ، باتباع السنة ، واجتناب البدعة ، والمداومة على الذكر والمراقبة ، وكان يقول : يجب العز على السنة بالنواجذ ، وقال أيضاً : إن صاحب الشريعة - عليه الصلاة والسلام - لم يدخر وسعاً في النصيحة ، وإبلاغ الخير والدعوة إليه ، عملاً بقوله : الدين النصيحة » ، فيجب اقتباس طريق عليها المتابعة التامة والطاعة الكاملة للرسول - ﷺ - من الكتب الدينية المعتبرة بالنواجذ ، وقال لزوجته : اتبعوا السنة في تكفيني ودفني ، ولا تتركوا شيئاً من السنة ، واشترى ثوب الكفن من مال صداقك ، وقال أيضاً ، يجب أن تدفوني في والعرض مكان مجهول ، فقال له أبنائه : كنتم أوصيتم - قبل أن يكون قبر حضرتكم بجوار قبر أخينا الأكبر خواجه محمد صادق (١) ، وتوصون الآن غير ذلك ، فقال أجل إنني أجل في الآن الرغبة الشديدة إلى ذلك ، ولما رأى سكوت أبنائه عند سماع هذا القول منه ، وأنهم مترددون لا يعجبهم ذلك ، قال لهم : إن لم تستطيعوا ذلك فادفنوا في خارج المدينة بجوار الوالد الكريم ، أو في أي مكان من البستان ، وليكن قبري غير مجصص ، حتى لا يبقى بعد مضي أيام عين ولا أثر ، نظر إلى الأبناء الذين غلبهم الهم والتفكير ، تبسم في وجوههم ، ثم قال : لكم الخيار ادفنوني حيث شئتم .

كانت ليلة الثلاثاء ، اليوم التاسع والعشرون من صفر ، وكان اليوم المقبل يوم رحلته إلى دار القرار ، توجه إلى أصحابه وخدمه الذين سهروا على تريضه وخدمته ، وقال : إنكم تحملتم مشاق كثيرة ، وبقيت مشقة واحدة ، ثم الراحة والاستجمام ، ونطق في آخر الليل :

« أصبح ليلاً » فلما أسفر الفجر دعا الطست للبول ، ولم يكن في الطست رمل ، فرده خوفاً من إصابة رشاشاته ، وقال بعض الحاضرين ، ينبغي أن يفحص الطبيب البول ، قال : لا أريد أن أنقض الوضوء ، أضجعوني على الفراش وكأنه بدا له - عند ذلك - أن الأجل قريب ، ولا يتسع الوقت لوضوء جديد ، فلما أضجعوه على الفراش ، وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن علي طريق السنة واشتغل بالذكر ، فلما شاهد أبنائه السرعة في التنفس ، سأله : كيف حاكم ؟ قال : نحن بخير ، وأن الركعتين اللتين صليتهما تكفيان ، ثم لم يتكلم بشيء ، سوى ذكر « اسم الذات » ، ولم يلبث أن فاضت روحه ، كان

(١) وهو ابن الامام السرهندي الأكبر ، مات ٩ ربيع الاول عام ١٠٢٥ هـ .



الحادث ضحى يوم الثلاثاء ٢٨ من صفر عام ١٠٣٤ هـ (١) ، وكان شهر صفر تسعة وعشرين يوماً ، وكان اليوم المقبل غرة ربيع الأول إذ طارت النفس المطمئنة ، وأوت إلى ربها وخالقها «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية» (٢) ، ومات وله ثلاث وستون سنة (٣) .

ولما أرادوا غسله لاحظوا أنه قابض يده اليسرى بيده اليمنى ، وممسك بالإبهام والخنصر على المعصم كهيئة القيام فى الصلاة ، وفرج الأبناء يديه بعد الوفاء ، ولكن شهد الناس أنهما عادتا مكانهما كهيئة الصلاة ، ودامت هذه الهيئة إلى ما بعد التكفين والدفن ، وكانت تبدو على شفثيه بسمة حانية وكان كما قال الشاعر :

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً والناس حولك يضحكون سروراً

فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ، ضاحكاً سروراً

وكلما حاولوا أن يفكوا يديه ، ويفرجوا بينهما ، عادتا إلى مكانهما من الصلاة ، وكفن على طريق السنة ، وصلى عليه ابنه الكبير الشيخ محمد سعيد ، وحمل النعش إلى مرقده الدائم (٤) .

عادته وشمائله :

سجل الشيخ محمد الكشمى - الذى رافق الإمام وقام بخدمته فى السفر والحضر فى الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته ، تفاصيل عن عادته وبرامجه (٥) ، أقدم خلاصتها فيما يلى مع بعض الزيادات من « حضرات القدس » للشيخ بدر الدين السرهندى :

« سمعت الشيخ غير مرة - يقول : ما قيمة عملنا وجهودنا ! كل ذلك من فضل الله - سبحانه - وإذا كان هناك ما يعتمد عليه ، فهى طاعة سيد الأولين والآخرين ومتابعته - ﷺ - هى القطب الذى تدور حوله الأعمال ، وكل ما أعطى الله ورزق عباده فمن طريق اتباعه

(١) الموافق ١٠ ديسمبر عام ١٦٢٤ م .

(٢) سورة الفجر ، آية ٢٨ .

(٣) وتوصل الشيخ أبو الحسن زيد فى تحقيقه الى أن عمره بحساب التقويم الهلالى ، اثنان وستون عاماً وأربعة أشهر وأربعة عشر يوماً ، وبحساب التقويم الشمسى ستون عاماً وستة أشهر وخمسة أيام (أنظر « الامام المجدد وناقده » ص ٢٢ ) .

(٤) من « زبدة المقامات » ص ٢٥٦ - ٣٠٠ بتلخيص .

(٥) انظر « زبدة المقامات » ص ١٩٢ - ٢١٥ .

والاهتداء بهديه ، وكل ما حرمناه ، جزءاً أو كلا ، فسببه التقصير وفتور الهمة في الاتباع بحكم البشرية ، وقال يوماً : دخلت المرحاض يوماً فبدأت برجلى اليمنى سهواً فحرمت كثيراً من الأحوال والمقامات ذلك اليوم ، وقال يوماً لصالح الختلانى : هات عدداً من القرنفل من كيسى ، فذهب وجاء بست حبات من القرنفل ، فأبدى استياءه وغضبه ، وقال لا يعرف هذا الصوفى أنه جاء في الحديث : « إن الله تعالى وتر يحب الوتر » (١) ، فتستحب مراعاة الوتر ، ماذا يعتقد الناس في « المستحبات » لو وهبت الدنيا والآخرة لإنسان ، كفاء عمل يستحبه الله ويرضاه ، لما كان لهما قيمة يقول بعض خدمه : سألت الشيخ محمد بن فضل الله ، ماذا شاهدت في سرهند حدثنا عنها قليلاً ، فقال ، ماذا يشاهد مثلى قاصر النظر ، عديم البصيرة ، إلا أنى رأيت شدة تمسك بالسنة ، وعظيم اعتماد بها ، فكان لا يترك سنة مأثورة من السنن في صغير وكبير ، ودقيق وجليل ، ولا أظنه بالأمر الميسور لكل أحد .

ويقول بعض أصحابه الذين جالسوه طويلاً : إن أحوال هؤلاء ، وكيفياتهم القلبية تعلق على مداركنا ، إلا أننى أستطيع أن أقول : لقد توثق إيمانى وتصديقى بمشاهدة أحوالهم ومجاهداتهم - بما حكى عن الأولياء المتقدمين والربانيين السابقين ، وعلمت أنها خالية من المبالغة والمغالاة ، بل شعرت بأن المؤلفين قصروا ولم يكتبوا كل ما رأوا ، وهكذا كنا نقضى طول النهار فى مشاهدة الأحوال العجيبة ، ويقول خادمه الخاص - الذى كان صاحب أدواته : ما كنت أجد فسحة من الوقت إلا عند قيلولته ، وفى الثلث الثانى من الليل ، وكان كثيراً ما يأمر أصحابه بدوام الذكر ، والاستحضار والمراقبة ، ويقول : هذه الدنيا دار العمل ، ومزرعة للآخرة ، فينبغى الجمع بين استحضار القلب ، وذكره ، وبين الأعمال الظاهرة ، والآداب الشرعية ، وكانت تتورم قدما الرسول - ﷺ - فى الصلاة ، ( مع كونه حبيب رب العالمين ، وأفضل الأنبياء والمرسلين ) .

ورغم أن الإمام كان مستحضراً للمتون والمسائل الفقهية ، صاحب ملكة راسخة فى أصول الفقه ، إلا أنه كان - لاحتياطه وورعه فى الدين - يراجع الكتب المعتمدة فى الفتاوى ، ويصطحبها معه فى السفر والحضر ، ويعمل بما أفتى به كبار الفقهاء ورجحوه ، وكان يؤم بنفسه - غالب الأحيان - فى الصلاة ، وقد أشار - ذات يوم - إلى الحكمة فى تقدمه وإمامته :

(١) رواه الترمذى .

« إنه لا تصح الصلاة عند السادة الشافعية والمالكية بدون قراءة الفاتحة ، فيقرأونها خلف الإمام ، وتدل على ذلك أحاديث كثيرة صريحة ، ولكن لا تجوز قراءة الفاتحة خلف الإمام عند إمامنا أبي حنيفة ، والمذهب على ذلك عند جمهور الفقهاء الحنفية ، ولما كنت أحاول التطبيق ، والجمع بين هذه المذاهب ، فأرى من المستحسن أن أؤم الناس في الصلاة » (١) .

كان من عادة الإمام أن يقوم - سواء كان في السفر أو في الحضر ، أو الشتاء أو الصيف - في النصف الخير من الليل ، وأحياناً في الثلث الأخير منه ، فيذكر الله تعالى . ويدعو بالدعوات المأثورة في هذا الوقت ، ثم يتوضأ بنفسه ويسبغ الوضوء ، ولا يسمح لأحد أن يهريق عليه الماء ، ويستقبل القبلة عند الوضوء ، وإلا أنه حين يغسل الرجل يوجهها شمالاً أو جنوباً ، كان يحافظ على السواك ، ثم يقرأ الأذكار والدعوات الواردة في الحديث ، ويطلب القراءة والقيام في النوافل بحضور قلب وجمعية خاطر ، وحين ينصرف من التطوع ، ويتوجه إلى المراقبة في خشوع واستغراق ، ويضطجع قليلاً قبل الفجر مراعاة للسنة ، ثم يقوم قبل طلوع الفجر ، ويتوضأ وضوءاً جديداً ، ويصلي سنة الفجر في البيت ، ويقرأ بين صلاتي السنة والفريضة سراً سبحان الله وبحمده . سبحان الله لعظيم» . وكان يصلي الفجر في آخر وقت الغسل وأول وقت الأسفار حتى يجمع بين لمذهبين في ترجيح الغسل أو الأسفار ، ويؤم بنفسه في هذه الصلاة ، ويقرأ الطوال (٢) ، كما ثبت في الحديث (٣) ، ثم يجلس من بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس في الحلقة ، ثم يتطوع عند الإشراق يطيل فيها القراءة ، ويشغل بالأوراد والأذكار حتى ينتهي منها فيأتي بيت ويتعهد الأهل والعيال ، ويعطى تعليمياته وإرشاداته في الأمور البيتية اليومية ، ثم نهب إلى الخلوة ، وينهمك في تلاوة القرآن انهماكاً تاماً ، ويطلب بعد الفراغ من التلاوة لرديدن أوالمسترشددين ، ويسألهم عن أحوالهم وشئونهم ، ويرشدهم فيها ، ويطلب في مس الوقت خواص أصحابه وتلامذته ويفيدهم بالعلوم والحقائق والمعارف العالية ، ويتوجه لبله أليهم ، ويخبرونه بأحوالهم وكيفياتهم فيؤكد عليهم بدوام الاستحضار ، وستر الحال ، اتباع السنة ، وعلو الهمة ، وقال - مرة - فيساق الحديث عن عظمة كلمة « لا إله إلا الله حمد رسول الله » - وجلالها ، « الكون كله إزاء هذه الكلمة أقل شأنًا من قطرة إزاء بحر

( وقد ذكر الشيخ محمد الكشمي في موضع آخر من هذا الفصل : « أن الامام كان يقرأ الفاتحة

خلف الامام ، ويستحب ذلك » ص ٢٠٩ .

( وهي من سورة الحجرات إلى سورة البروج .

( « حضرات القدس » ص ٨٢ .

محيط » ، وكان يحرض المريدين والأصحاب على مطالعة كتب الفقه ودراستها ، ويرغبهم فى الرجوع إلى العلماء ، وسؤالهم عن الأحكام الشرعية .

وكان يقول : « يتجلى فى الكشف أن العالم بأسره غريق فى جلة البدع والخرافات المظلمة ، وأن نور السنة - فى وسط هذه الظلمة - يتلألأ تلالؤ البراعة فى الليلة الظلماء » ، وكان شديد الكراهية والمجانبة للغيبة وعيب المسلمين ، ولم يكن الخدم والمسترشدون يتجرأون لوقاره ومهابته على أن يغتابوا أحداً فى مجلسه ، وكان يستر أحواله وكيفياته الباطنة غاية الستر ، ما رأته فى مدة عامين إلا ثلاث أو أربع مرات ، دمعت عيناه وفاضت العبرات ، وانحدرت على الوجه المنور ، كما رأته ثلاث وأربع مرات احمرّت وجنتاه وعيناه أثناء التذكير ، وبيان المعارف الجليلة .

وكان يدخل البيت بعد صلاة الضحى ، والضحوة الكبرى ، ويتناول الغداء مع الأهل والعيال ، وإذا أعد أحد من أبنائه أو أصدقائه ، ومعارفه شيئاً يأتى به إليه ، وإذا غاب بعض أبنائه أو خدمة فى ذلك الوقت ، يحفظ له نصيبه ، وكان اهتمامه بالإطعام ، أثناء الطعام أكثر من عنايته بأكمله ، فيتعهد غيره ، ويكرمه ، ويقدم إليه ما يرغب فيه ، ويتناول أحياناً - ما يسد الرمق ، ويقيم الصلب ، حتى ليخيل إلى الناظرين أنه لا حاجة له إلى الطعام ولكنه يريد اتباع السنة <sup>(١)</sup> ، وفى الأيام الأخيرة من حياته لما اعتزل الناس وعكف على العبادة ، وأكثر من الصيام ، كان يتناول الطعام فى الخلوة ولم يكن يقرأ الفاتحة بعد الطعام - كما هو التقليد المتبع عند بعض المشايخ وكثير من العوام - لأنه لم ترد به أحاديث صالحة للاحتجاج ، كما لم يكن يقرأ الفاتحة بعد الصلوات المكتوبات - كما هى العادة السائدة عند بعض المشايخ .

ويقيل بعد تناول الغداء عملاً بالسنة ، ويؤذن فى أول وقت الظهر ، فيقوم ويتوضأ ، ثم يتطوع ، ويسمع بعد صلاة الظهر جزءاً من القرآن الحكيم ، أو أقل أو أكثر ، من حافظ للقرآن ، وإذا كان يوم درس يدرس ، ويصلى العصر إلا كان ظل كل شئ مثليه ، ثم يبقى من بعد العصر إلى المغرب من أصحابه ومريديه فى صمت ومراقبة ، ويتوجه إلى كيفيات المريدين وأحوالهم الباطنية ، ويصلى بعد صلاة المغرب ركعتى السنة ، وصلاة الأوابين ، وأربع ركعات حيناً ، وست ركعات حيناً آخر ، ويصلى العشاء بعد زوال الشفق الأبيض مباشرة ، وكان يجمع فى صلاة الوتر بين قنوت الحنفية وقنوت الشافعية ، ويصلى

(١) « حضرات القدس » ص ٨٧ .

بعد الوتر ركعتين تارة جلوساً وأخرى قياماً ، ولم يصل هاتين الركعتين فى أواخر أيامه إلاّ ليلاً نادراً . وما عهدت عنه سجدتان بعد الوتر ، كما هى عادة معروفة بين الناس .

وكان يعتكف فى العشر الأواخر من رمضان ، ولا يتأخر بعد العشاء والوتر فى النوم ، بأوى إلى الفراش ، ويدعو بالدعوات المأثورة ، وكان يكثر من الصلاة على النبى - ﷺ - بخاصة ليلة الجمعة ويوم الجمعة ، وليلة الاثنين ، وكان يخيل للناظر إليه - عند تلاوته نقرآن الكريم من قسمت وجهه ، وأسلوب ترتيله أن الأسرار القرآنية تنكشف عليه ، بركات الآيات تنزل عليه ، وسكبتها تغشاها ، وكان إذا مرّ بآية عذاب فى الصلاة أو خارج صلاة ، يتغير لونه ، وإذا مرّ بآية فيها تعجيب واستفهام ، يظهر عليه أثره فى حنه صوته ، ويراعى جميع السنن والآداب والمستحبات فى الصلاة ، ويهتم بالتطوع بعد وضوء . وعند دخول المسجد ، ولم يكن يؤدى نوافل الصلوات بالجماعة غير صلاة نزويح . وكان ينهى الناس عن الاجتماع للصلاة النافلة الليلة العاشرة من محرم ، أو ليلة ندر .

كان يخرج لعيادة المرضى ، يدعو لهم بالدعوات المأثورة فى مثل ذلك ، ويخرج لزيارة بور . وكان يلقي دروساً فى بعض الكتب الدينية العالية مثل « تفسير البيضاوى » . صحيح البخارى « و « مشكاة المصابيح » ، ويدرس فى علم الفقه وأصوله ، وعلم كلام ، و « هداية الفقه » للمرغينانى ، و « أصول البزدوى » و « المواقف » ، ويدرس التصوف : « عوارف المعارف » ، ولكن لم يكن فى هذه الدروس نقاش وجدال ، بل وقال ، وقل اشتغاله بالتدريس فى الأيام الأخيرة ، وكان يوجه الطلاب إلى تحصيل علوم الدينية بتأكيد بالغ ، ويقدمها على تحصيل علم الطريقة والسلوك ، وكان يكثر من حميد والاستغفار ويلهج بالشكر والثناء ويكثر منه ، على قليل من النعمة والفضل .

كانت له عناية شديدة بشهر رمضان ، يختم فيه القرآن - على الأقل - ثلاث مرات ، ان يحفظ القرآن عن ظهر غيبه ، فكان يتلوه من غير أن يقرأ فى غير رمضان أيضاً ، كما ضر لسماعه فى الحلقات والمجالس (١) ، كان يعجل الفطور ويؤخر السحور - عملاً بما ، فى السنة - ويهتم بذلك اهتماماً كبيراً (٢) .

١ « زبدة المقامات » ص ١٩٢ - ٢١٥ ، باختصار وتلخيص ، وما جاء فى هذا الفصل من غيره ،

أحيل إليه فى الهامش وهو قليل .

« حضرات القدس » ص ٩١ .

وكان شأنه في الزكاة أنه إذا جاءت هدية أو تحفة ، فلا يترقب حولان الحول عليه ، بل يؤدي الزكاة المفروضة في قيمة هذه الهدايا والنعم ، وكان يفضل عند توزيع الزكاة أهل الصلاح من الرجال ، والصالحات من الأيامي وذوى قرباه . وعزم على الحج مراراً ، ولكن لم يتفق له تحقيق هذا العزم لموانع ، ودام له هذا الشوق والحنين ، ورحل من هذه الدار الفانية في هذا الشوق والحنين .

وكان غاية في التواضع ، ولبن الجانب ، ودمائة الخلق ، وحسن العشرة والشفقة على الخلق ، متسماً ذروة الرضا ، والتوكل والتفويض ، وأوذى من أقربائه وأصدقائه ، وأحابه ومن الحكم الجائرين ، ايذاءً شديداً ، ولكنه التزم جانب الرضا والتفويض . وما تكلم لسانه بشيء ينم عن التبرم والشكوى ، وكان إذا رآه أحد قام احتراماً وتكريماً له ، ويجلسه في مكان بارز ، ويتحدث معه بما يناسب ذوقه ونفسيته ، ولكنه لم يكن يحترم غير المسلمين ويعظمهم وإن كانوا ولاية وأمراء ، وأصحاب السلطة والجاه ، وكان يبدأ بالسلام ، لا أذكر أحداً سبقه في البدء بالسلام ، وكان يراعى ، من له عليه حق غاية المراعاة وإذا نعى إليه إنسان يتأثر ويحزن ويسترجع ، ويحضر جنازته ، ويدعو له ويشبه بالطاعات والقربات (١) .

كان لباسه ثوباً يكون على كتفيه جيبان ، وعباءة فوقه ، ولكن يقتصر على الثوب وحده أيام الصيف ، وعمامة ينوطها على رأس موافقة للسنة ، تقع ذؤابتها على الظهر بين الكتفين ، وكان سر واله دائماً - إلا في حالة قضاء الحاجة - فوق الكعبين ، وكان يلبس يوم الجمعة والعيدين لباساً فاخراً ، وإذا لبس ثوباً جديداً ، أعطى القديم لحادم ، أو قريب ، أو ضعيف وكان يقيم عنده - بصفة دائمة - خمسون وستون بل زهاء مائة شخص من العلماء والعارفين ، والمشايخ ، وحفظة القرآن والأشراف ، وكان طعامهم - جميعاً - من مطبخه الخاص (٢) .

### حليته وصفته :

وصفه الشيخ بدر الدين السرهندي - الذي صحبه سبعة عشر عاماً ، وكان من خلفائه ، في « حضرات القدس » بالوصف التالي :

(١) « حضرات القدس » ص ٩١ - ٩٢ ، تأليف بدر الدين السرهندي .

(٢) أيضاً ، ص ٩٢ .

« كان أسمر اللون ، ضارباً إلى البياض ، يلمع على جبينه وخطيه نور يخلب الأبصار ، أزجُ الحاجبين ، وكان حاجبه مثل القوس مع طول ، أسود ، دقيقاً ، انجل العينين ، موضع سوادهما غاية في السواد ، وموضع بياضهما غاية في البياض ، دقيق الأنف ، رقيق الشفتين في حمرة ، معتدل الفم ، متراص الأسنان تفر عن مثل اللؤلؤ المنظوم ، كث اللحية مع وقار ورزاق ، لحيته طويلة مربعة ، ولم تتجاوز شعراتها على خديه أكثر من الحد الطبيعي ، متوسط القامة ناعم الجسم (١) .

### أبناءؤه الأمثال :

رزق الإمام السرهندي سبعة أبناء توفي اثنان منهما في الصغر في حياة الإمام . وهما الشيخ محمد فرخ ، والشيخ محمد عيسى ، وكان الشيخ محمد أشرف مات في أيام الرضاة ، وتوفي ابنه الأكبر الشيخ محمد صادق بعد الفراغ من تحصيل العلوم الدينية والسلوك عام ١٠٢٥ هـ ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وبقي الثلاثة من أبناء الأمثال الشيخ محمد سعيد ، والشيخ محمد معصوم والشيخ محمد يحيى أحياء . تتجمل بهم هذه الأسرة العظيمة ويحق أن يسمى هؤلاء الأربعة السلسلة الذهبية ، والشموس المضيئة .

وكان الشيخ عبد الباقي أثنى عليهم ، ووصفهم بصفات عالية ، ولقبهم بـ « الجواهر العلوية » وبـ « الشجرة الطيبة » وقال أيضاً فيهم : هؤلاء فروع على عتبة الله ، يحملون بين ضلوعهم قلوباً عجيبة .

وكان ابنه الأول الشيخ محمد صادق قد بلغ الكمال ، وذروة الإحسان في حياة والده ، وقد وصفه والده بصفات عظيمة ، تدل على علو استعداده الباطني ، وكماله الروحي ، وقال في رسالة له : « ابني العزيز جماع حقائق هذا العبد الضعيف ومعارفه ، وصحيفة مقامات الجذب والسلوك » (٢) .

وولد الابن الثاني الشيخ محمد سعيد عام ١٠٠٥ هـ ، وتوفي ٢٧ جمادى الآخرة ١٠٧٠ هـ ، وقد ساهم في نشر طريقة الإمام ، وتعليم الطالبين وإرشاد السالكين مساهمة كبيرة (٣) .

(١) أيضاً ، ص ١٥٥ .

(٢) الرسالة رقم : ٢٧٧ ، وانظر للاطلاع على مناقبه وفضائله « زبدة المقامات » ص ٣٠٣ - ٣٠٦ .

(٣) راجع للاطلاع على حياته ومناقبه « زبدة المقامات » ص ٣٠٨ - ٣١٥ .

وكان الابن الثالث الشيخ محمد معصوم حامل علوم الوالد العظيم وشارح معارفه وحقائقه ، وخليفته وأمين سره وانتشرت على يديه الطريقة المجددية انتشاراً عظيماً ، وأصبح تأثيرها بفصله تأثيراً عالمياً شاملاً ، وعم نفعها وخيرها ، حتى قال قائل ، وأصاب فيما قال .

« الشيخ معصوم سراج الأقطار والبلدان ، أضاءت بفضلته وبركته الأرض من الهند إلى الروم » .

فقد كانت زاوية دهلي الشهيرة في العالم ، والتي كانت مأوى العرب والعجم - وتصدر فيها للتربية والإرشاد جلة المشايخ الأفذاذ كالشيخ خواجه سيف الدين ، والشيخ مرزا مظهر جان جانان ، والشيخ غلام علي ، والشيخ أحمد سعيد في عصورهم أدوارهم - حلقة من هذه السلسلة المجددية ، ومن هناك حمل الشيخ خالد الرومي الكردي<sup>(١)</sup> هذه الطريقة بعد أن تلقنها وأخذها من الشيخ غلام علي إلى بلاد الشام وتركيا ، وانبثت منه عروقها في العراق والشام ، وكرديستان ، وانتشرت في المدن والقرى ، والأسر والبيوت .

وأن رسائل الشيخ محمد معصوم تقوم بمثابة شرح وتفصيل لرسائل الإمام المجموعة في ثلاثة مجلدات ، وهي خزانة العلوم والمعارف ، والأسرار والدقائق ، وتحتاج سيرته ومناقبه إلى كتاب مستقل .

كانت ولادته ١١ شوال عام ١٠٠٧ هـ ، وتوفي في ٩ ربيع الأول عام ١٠٧٩ هـ<sup>(٢)</sup> .

وكان الابن الرابع الشيخ محمد يحيى ، كان ابن تسع سنوات عند وفاة الإمام السرهندي ، أخذ العلوم على إخوته وتربى على أيديهم ، وتلقن الطريقة منهم ، وكانت وفاته عام ١٠٩٦ هـ<sup>(٣)</sup> .

---

(١) سيأتي الحديث عنه مفصلاً في الباب الثامن .

(٢) تأتي ترجمته في آخر هذا الكتاب مقتبسة من كتاب « نزهة الخواطر » .

(٣) وكان الشيخ رؤوف أحمد ، وحفيده الشيخ أبو أحمد وابنه الشيخ محمد يعقوب ، مشايخ مدينة «بوفال» ، المعروفين ، من أعقاب الإمام السرهندي .



## الباب الخامس

### تجديد الإيمان وإعادة الثقة بالنبوة المحمدية نقطة تجديد الإمام السرهندي وإصلاحاته الأساسية

#### ما هو العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي ؟

اتفق جميع العلماء المتبصرين والمؤرخين المنصفين - الذين لهم اطلاع واسع على التاريخ الإسلامي - بصفة عامة - والتاريخ الإسلامي في الهند بصفة خاصة (١) .

على أن الإمام السرهندي قام بالدور الرائع في الدفاع عن الدين الإسلامي ، وتقوية ، ونصرتة ، الذي صنع تاريخاً جديداً ، وبدأ عهداً جديداً ، والذي يسمى في مسمى في مصطلح الحديث المعروف البسيط « التجديد » (٢) ، الذي عرف به الإمام واشتهر اشتهار عظيمًا حتى غلب عليه لقب « المجدد » ، وظل ينوب عن اسمه ، ولا نجد له مثالا من قبل .

فما هو هذا العمل التجديدي ؟ ، إنه تجلية الفكر الإسلامي ، وانعاش الروح الدينية ، ومقاومة الفتن الخطيرة المحدقة ، واستئصالها من جذورها ، وكسر طلائع المحاولات الضالة - المؤسسة على الرياضات والمجاهدات ، والإشراق وصفاء الباطن ، والتجارب الروحية - لمعرفة الله تعالى والوصول إليه ، التي كانت تعتمد على وسائلها وطرقها الخاصة ، وتستكف عن اقتفاء سيدنا محمد - ﷺ - واتباع سنته وهديه ، ولا ترى لزوماً لذلك ، وكشف النقاب عن وجه العقائد والنظريات المتلبسة بالوحدة والاتحاد ، وقد بلغا أوج التطرف والمغالاة ، وانتشر في كثير من الأوساط وتلقاهما كثير من الناس بالقبول ، وأحدثا رجعة في المعتقدات الدينية ، وهزة في المجتمعات الإسلامية ، وفوضى في الخلق والدين ، وعرض نظرية « وحدة الشهود » بدلاً من « وحدة الوجود » وتدعيمها علمياً وعقلياً ،

---

(١) وقد تناولناه بصورة إجمالية في البابين الأولين من هذا الكتاب .

(٢) جاء في سنن أبي داود : « إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ، راجع للتفصيل شروح كتب السنن ، وقرأ في حكمه هذا الحديث ، والحاجة إلى التجديد في أزمنة وأمكنة مختلفة كلام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، المشتمل على فوائد كثيرة ، في المجلد الثامن عشر من مجموع فتاواه ، ص ٢٩٧ - ٣٠٥ .

والتدليل عليها وتقديمها بصورة منظمة دقيقة ، والتشديد في الإنكار على البدع والخرافات -  
التي أصبحت تشريعاً إزاء تشريع - وتنفيذها ، وعدم الاعتراف بوجود «البدعة الحسنة»  
وتثبيت أقدام الإسلام المتزلزلة في الهند ، وإزالة آثار الكفر ومعالم الضلال ، التي خلفها  
عهد أكبر المظلم ، والمحاولة الجادة الحكيمة الناجحة لثورة دينية تجديدية ، وتغيير جذري  
عظيم . كان من نتاجهما السلطان محيي الدين اورنك زيب عالمكير سلطان الهند .  
وصاحب الأمر والنهي فيها ، سرهندياً وادرياً ، وحكيم الإسلام الإمام ولي الله الدهلوي  
وخلفاؤه وتلامذته الذين هم من حلقات هذه السلسلة الذهبية - روحياً وفكرياً ، وكان كل  
ذلك امتداد هذه الدعوة - لحركة ، وهم الذين بذلوا جهوداً جبارة في نشر تعاليم الكتاب  
والسنة ، والدعوة إليها بعلو همة ، وشرحهما وتبيينهما للناس ، وكانت جهودهم في  
الإفادة والتدريس ، وإنشاء المدارس الدينية ، والتزكية الروحية ، والتربية الباطنية ،  
وإصلاح العقائد ، والرد على البدع والتقاليد ، ثم جهادهم ، واستماتتهم في سبيل الله  
وسعيهم لإعلاء كلمة الله وبفضل هذه الجهود بقيت شجرة الإسلام في الهند ، قائمة على  
ساقها ، ناضرة مخضرة ، بل حولوا الهند مركز الثقل في العالم الإسلامي في العلوم  
الدينية ( لا سيما علم الحديث الشريف ) والفكر الإسلامي ، والدعوة والإرشاد .

هذا كله صحيح ومقرر تاريخياً وعلمياً ولكن ما هي «النقطة المركزية» والمحور الأساسي  
الذي تدور حوله هذه الجهود التجديدية ، والأعمال الإصلاحية العظيمة ؟ وما هي تلك  
المأثرة التجديدية المهيمنة ، التي تحتضن هذه الجوانب كلها ، وتغذيها ؟ للناس - حسب  
ميولهم وأذواقهم - إجابات مختلفة على هذا السؤال الخطير .

وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وتفرق الناس في الإجابة فرقاً وأحزاباً ، نخص ثلاث فرق منها بالذكر فيما يلي :

١ - يقول فريق من هذه الفرق : إن الإمام السرهندي يستحق وصفه بمجدد الألف  
الثاني لأنه استعاد الهند إلى راية الإسلام ، وحفظها من الارتقاء في حضن البرهمية ،  
وفلسفة «وحدة الأديان» ، ووجهها إلى لواء محمد - عليه الصلاة والسلام - وسلمها  
لوصاية الإسلام ، وحمائته ، ودفع عنها في القرن الحادي عشر الهجري ، القرن السادس  
عشر الميلادي - ذلك المصير الذي صارت إليه في القرن الثالث عشر هجري - القرن التاسع  
عشر الميلادي - بل الواقع أنه حفظ الأمة الإسلامية الهندية من خطر الردة العقائدية  
والفكرية والحضارية الشاملة ، التي ظهرت - بدكاء تلك الشخصية القوية صاحبة الكلمة  
النافذة والإرادة الحديدية كالملك أكبر ، ودهاء مستشاريه النوابغ الأفذاذ كملأ مبارك ،

وفيسى وأبى الفضل - واقعا ملموسا يحس بالبنان ، وقد كان هذا التحول الروحي والمعنوي والردة الفكرية والحضارية أخطر ، وأدق ، وأرسخ جذورا من انقراض الدولة ، والانهيال السياسى ، الذى وقعت كارتته فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، بقيام القوى غير الإسلامية الناهضة فى الهند ، وسيطرة الانكليز وتسلطهم فى البلاد ، ولعل الدكتور محمد إقبال أشار إلى هذه الحقيقة ، إذ قال فى بيت من شعره ، يشير إلى الإمام السرهندى .

« ذلك الحامى لدمار الأمة الإسلامية فى الهند ، الذى قىضه الله - فى الحين المناسب - ونصبه حارسا للدين القويم » .

٢ - ويقول الفريق الثانى : إن عمله التجديدى يتركز فى معالجته تفضيل الشريعة على الطريقة ، وأن الطريقة تابعة خاضعة للشريعة ، فى قوة إيضاح ، وثقة وبصيرة فى ضوء تجارب شخصية ، لم يسبق إلى هذا الأسلوب القوى المبين حتى تجلى لكل ذى عينين أن الطريقة خادمة للشريعة ، وأوقف بذلك تلك الفتنة الخطيرة الناجمة فى أوساط « السلوك والطريقة » التى كانت تدعو إلى الاستغناء عن الشريعة - أحيانا - والانحراف عنها - أحيانا أخرى ، والاعتماد الكامل على الرياضات والمجاهدات ، والحواس الباطنة ، التى كانت تستهدف أول ما تستهدف الهند - لكونها مركزا لليوك والتنسك المتطرف والرهينة - ولم يستطع أحد بعده أن يتجرا على القول بـ « أن الشريعة فى واد ، والطريقة فى واد ، وليس من حق الشريعة فرض الرقابة على الطريقة » .

٢ - ويرى الفريق الثالث أن مآثره التجديدية الأساسية ، هى ضربته القاصمة على عقيدة « وحدة الوجود » ، وهدم فلسفتها من أساسها بطريق لم يسبق إليه ، ففسد ذلك السيل العارم الذى كان يجرف بالعقائد الصحيحة . وحول تياره العنيف الذى اكتسح جميع الأوساط العلمية والروحية فى القرون الأخيرة ، والذى كانت معارضته من عالم مثقف دليلا على جهله ، وإنكارا لضوء الشمس فى رابعة النهار ، ولقد أصاب العلامة مناظر أحسن الكيلانى حيث قال فى مقاله العظيم المثير بعنوان « المآثر التجديدية للألف الثانى » :

« إن مآثر الإمام السرهندى الإصلاحية ، وأعماله التجديدية اختلطت بتدقيقات « وحدة الوجود » و « وحدة الشهود » ، وبحوثهما الفلسفية الدقيقة والحروب الكلامية بين المشايخ والمتصوفة على الشريعة والطريقة ، وتحللت فى هذه الضجة والغوغاء بحيث لم يعد وصفه بمجدد الألف الثانى إلا تقليدا متبعا للإجلال والتبجيل ، لا أن يكون مؤسسا على أمر مهم

## إعادة الثقة والإيمان بحتمية النبوة المحمدية وخلود الرسالة الأخيرة :

ولكن الواقع أن علمه التجديدي الأساسى الذى تدور حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية ، ومنبعه الأصيل الذى تتفجر منه ينابيع جميع مآثره الإصلاحية وجهوده الثورية ، وتتحول إلى نهر يجرى فى العالم الإسلامى كله ، هو ذلك العمل الإصلاحى ، العظيم الذى تجلّى فى إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية ، بخلود الرسالة المحمدية وحاجة الناس إليها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة ، ولا أعلم أحداً من المجددين فى التاريخ الإسلامى ، قام بهذا العمل على هذا النطاق الواسع ، وبهذه القوة ، والصراحة كما قام به الإمام السرهندي ، ولعل السبب فى ذلك عدم مسيس الحاجة إليها فى عهودهم ، وأنه لم تبرز على المسرح فى عصورهم فلسفة أو حركة منظمة دقيقة كتلك التى ظهرت فى عهده (٢) .

لقد كانت هذه الخطوة التجديدية سداً منيعاً فى وجه تلك الفتن التى كانت تموج فى العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، وتقف فاغرة أفواهاها لتبتلع شجرة الإسلام الطيبة ، ونظامه العقائدى والفكرى والروحى بأسره ، تندرج تحتها تلك الحركة النفطوية وأتباعها الذين رفعوا علم الثورة والخروج على النبوة المحمدية وخلودها وبقائها ، بطريقة علنية سافرة ، ونادوا بأن عهد النبوة المحمدية الممتد على ألف عام قد انقضى ، وسيبدأ عهد القيادة الدينية الجديدة ، وصياغة الحياة الجديدة ، والتقنين الجديد ، الذى يعتمد على العقل والفلسفة وحدهما ، ويقود حركتها محمود البسيخانى وأتباعه وأنصاره ، ويكون مركزها الهند وإيران (٣) .

ومن هذه الفتن المدلهمة «دين أكبر الجديد» و «قانونه الجديد» ، وكان كل منهما يدعى

---

(١) انظر ترجمة «الإمام الربانى مجدد الألف الثانى» جمع وترتيب الشيخ محمد منظور النعمانى ،

ص ٢٧ .

(٢) ونجد فى هذا الصدد شيئاً من التفصيل والوضوح عند شيخ الإسلام ابن تيمية ، لا سيما كتبه الجلية القيمة ، «النبات» و «نقض المنطق» ، «الرد على المنطقيين» ولكنه كذلك لا يعدو إشارات وبحثاً مجملاً ، ولكل مقام مقال .

(٣) انظر الباب الأول من هذا الكتاب موضوع «الفتنة الكبرى فى القرن العاشر» .

أنه يحل في الهند محل النبوة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، ويؤدي دورهما ، ومنها تلك البدع والمحدثات في الدين التي سيطرت على الحياة الدينية ، وجميع الأعمال والعبادات ، واندست في الاجتماع والمدينة ، وكانت شريعة إزاء شريعة ، يدون لها « فقه » مستقل ، وكان تحدياً صارخاً - في حقيقتها لختم الرسالة المحمدية ، وتدعى التبوأ على منصب التشريع والتقنين .

وتذكر في هذا الصدد فلسفة « وحدة الوجود » التي كانت تعتمد - حسب أقوال دعائها وكبار رجالها - على الحقائق الكشفية ، والتي لا يدعى غلاة أصحابها أيضاً أن النبي - ﷺ - دعا إليها جهاراً ، صحابته الكرام ، ودعا صحابته من بعدهم من التابعين وهكذا الخ ، وكانت هذه الفلسفة والدعوة - تقف - على مرور الأيام - عن شعور أو غير شعور - معارضة للدعوة التي جاءت بها النبوة المحمدية ، وتعاليمها الواضحة ، ومقاصدها وأهدافها ، وكلما أحرزت هذه الدعوة شيئاً من النجاح والانتصار ، وترسخت جذورها في العقول والقلوب ، والمجتمع الإسلامي وحده هو الدين الحق ، ووسيلة النجاة في الآخرة ، وتفتح أبواب الإلحاد والزندقة ، والحرية المطلقة والإباحية والتعطل والبطالة على مصراعها ، وإن كان القائلون بها من المشايخ والصوفية الأتقياء المتورعين ، متقيدين بالشريعة ، معظمين لشعائرها ، معرضين للفساد بشدة وإخلاص .

ومنها الفرقة الإمامية التي تعتبر من عقائدها الأساسية عقيدة الإمامة ، والتي تصف الإمام ، وتبين خصائصه ومزاياه بطريق يجعله قريباً للنبي ومساوياً له في الدرجة والمكانة<sup>(١)</sup> ، وتعتقد في طائفة كبيرة من صحابة الرسول - ﷺ - ما يشك في تأثير صحبة

---

(١) استفاد من كتاب « الشافي » للشريف المرتضى ، « تلخيص الشافي ، للطوسي » أصل الشيعة وأصولها للعلامة الشيخ محمد حسين ال كاشف الغطاء ، أن الامام معصوم عن الخطأ والنسيان والمعاصي ظاهراً وباطناً ، وظاهر مطهر ، تفرض طاعته وتظهر المعجزات على يديه ، وعلمه محيط بما يتعلق بالشريعة لا يبند عنه شيء ، وذلك يحصل له تلقائياً بطريق العلم اللدني ، ويظهر كحجة لله تعالى في كل زمن إلى قيام يوم القيامة .

ويقول العلامة محمد أبو زهرة في كتب « تاريخ المذاهب الإسلامية » الجزء الأول بعدما استعرض عقائد الفرقة الإمامية ، وما قال علماؤهم الكبار في الإمام والإمامة :

هذه إشارات موجزة إلى منزلة الإمام عند الإمامية والاثنا عشرية ، ويظهر أن الإمامية جميعاً على رأيهم في هذا النظر ، وليس مقام الإمام ومقاربتة لمقام النبي عندهم موضع خلاف ، فانهم يصرحون . تصريحاً قاطعاً ، بأن الوصي لا يفرقه عن النبي إلا شيء ، واحد ، وهو أنه لا يوحى إليه « (ص ٥٩) . وقد جاء في رسالة « خطاب الامام الخميني حول ١ - مسألة تحرير = =

الرسول وتغييره للنفوس ، ويتهم تربيته المؤثرة المنجبة بالنقص والتقصير ، وينافى معنى هذه الآية الكريمة : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ (١) ، وكانت اثار هذه الفرقة - لأسباب سياسية وعلمية مختلفة - تنتشر - بسرعة - فى الهند انتشاراً واسعاً ، ويتأثر المجتمع المسلم - الذى كانت أكثريته سنية المعتقد والمذهب - بعقائدها وتصوراتها ، وأفكارها وآرائها ، وتقاليدها وعدادتها ، تأثراً كبيراً .

وهكذا فتح الإمام السرهندى بمفتاح تجديد الإيمان بمحمد - عليه الصلاة والسلام - وإعادة الثقة برسالته ، جميع الأقفال المعقدة الثقيلة التى اخترعتها الفلسفة الإيرانية واليونانية ، والإشراقية المصرية (٢) ، والهندية ، وأصاب مقتل هذه الفتن كلها التى تهدف الطبقة المثقفة من المسلمين ، بسهم واحد سدّد ، ورميه مصيبة قاتلة .

### عجز العقل والكشف وإخفاقهما

فى إدراك حقائق ما وراء الطبيعة :

إن العمل التجديدى الذى قام به الإمام السرهندى هو أنه أثبت عجز العقل والكشف وقصورهما فى إدراك الأمور الغيبية ، والعلوم التى هى وراء طور العقل ، والمعرفة الصحيحة لذات الله - سبحانه وتعالى - وصفاته - وإحراز العلم الذى لا يشوبه شك ، والحقائق الثابتة القطعية التى لا تحالجها شبهة - بحتمية ويقين ، وإن النتائج المكتسبة بهما لا تخلو من الشك والريبة ، والخطأ والزلة ، وسوء الفهم والتحريف ، ولا يمكن إدراك المعرفة

---

= = لقدس ٢ - مسألة المهدي المنتظر - « التى نشرها مركز الاعلام العالمى للثورة الإسلامية فى إيران . . طهران ص ب ، ٣٩٣١ - ٢١ ، بمناسبة الحديث عن نقد مفتى مصر . ومسألة الامام المهدي :  
عندما نتحدث حول هذا الموضوع ونقول بأن الأنبياء لم يوفقوا فى تنفيذ مقاصدهم ، وأن الله سبحانه وتعالى يبعث فى آخر الزمان شخصاً يقوم بتنفيذ مسائل الأنبياء ، فإن هؤلاء المساكين يقومون عن غير فهم بتأويل كلامنا خدمة للأجانب « ص ٢٢ ) .  
وبذلك اعترف الخمينى بصحة نسبة ما شاع عنه من قول ان الأنبياء لم يوفقوا فى تنفيذ مقاصدهم ،  
ون الامام المهدي سيوفى فى ذلك ، وبذلك يفهم اعتقاد الشيعة فى الأئمة وفى الامام المهدي .

(١) سورة الجمعة - ٢ .

(٢) التى تسمى « الافلاطونية الحديثة » ( NEOPATONISM ) وكان مركزها الاسكندرية ، وكانت مصر مركزاً كبيراً للأفلاطونية الحديثة ( NEOPLATONISM ) نشأ فيه فلاطس ( PLATONUS ) وبارقرى ( PORPGYER ) وبراكلس ( PROCLUS ) وأسست مدرسة جديدة للأفلاطونية الحديثة .

الصحيحة لذات الله سبحانه - وصفاته إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين ، وإذا كان العقل وراء طور الحس ، فإن النبوة وراء طور العقل ، ولا سبيل إلى معرفة الطريقة الصحيحة لتقديس الله وتعظيمه وتحميده ، وتمجيده إلا النبوة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم .

وقد وقع حكماء اليونان بهذا الصدد فى زلات خطيرة ، وأخطاء فاحشة ، فكما أن العقل الخالص ، والعقل المجرد ليس له وجود ، وكذلك الكشف الخالص ، والكشف المجرد - الذى يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية ، والأهواء الداخلية صعب الوجود ، بل عديم الوجود ، وقد زلت أقدام الإشراقين ، وأصحاب صفاء النفس وسمو الروح ، ووقعوا فريسة الأوهام والجهالات كما زل زعماء العقل والفلسفة ، فالعقل والإشراق لا يغنيان فى الحصول على اليقين والوصول إلى الله شيئاً ، والبعثة المحمدية ، والرسالة النبوية هى الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله - تعالى شأنه - وصفاته ، وأحكامه .

وأعلن أن من المستحيل تجرد العقل وخلوصه ، وأن العقل - كالحواس الأخرى - يتأثر بالعقائد والمسلمات الداخلية ، والعوامل والتأثيرات الخارجية أن كثيراً من استنتاجاته ، وأحكامه تتلون بالألوان الخارجية ، التى يكون وجودها فى داخله أو باطنه ، وتمتزع بها ، وأثبت أن العقل قاصر عن أن يكون حجة وبرهاناً ، وأن بعثه الأنبياء هى الحجة البالغة ، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية بدون الاهتداء بهذه البعثة .

وأقام حداً فاصلاً ، وفارقاً واضحاً بن صفاء النفس ، وصفاء القلب ، وبين هذا الفارق بينهما ، وأثبت أن المصدق لرسالة الأنبياء ، والمؤمن بها من أصحاب الاستدلال والبرهان ، وأن إخضاع أخبار الأنبياء للعقل إنكار للنبوة وبين هذه النقطة بإيضاح : أن التعارض مع العقل شئ ، وأن يكون الأمر فوق مدارك العقل ووراء طوره شئ آخر .

إن هذه التحقيقات الدقيقة المبنية على العقل والكشف ، التى ساعدها التأيد الإلهي ، والنور المتببس من مشكاة النبوة ، هى تلك العلوم والمعارف الدقيقة التى أحدثت ضجة فى الأوساط العلمية والروحية ، وفتحت باباً جديداً للتأمل والتفكير ، وزيف كثيراً من «الحقائق السائدة» فى الأوساط العلمية والعقلية ، ونادت بعظمة النبوات والشرائع السماوية ، وصدقها وجلالها ، وأعادت الثقة إليها من جديد ، وهى المأثرة التجديدية الثورية ، والعلمية الدقيقة التى لم تكن وليد المناهج الدراسية السائدة فى ذلك العصر ، ونتاج البيئة العلمية والجهود العقلية وحدها إذ أنه عالج فيها أموراً لم تتوصل إليها الأوساط العقلانية والفلسفية ، إلا بعد قرون ، وشهدت على صدقها وثبوتها التجارب العلمية والروحية ، لقد كان ذلك نتيجة التأيد الربانى ، والهداية الإلهية التى اختارته عند

بداية الألف الثاني لتجديد هذا الدين ، والدفاع عن النبوة المحمدية والذب عن الشريعة الإسلامية ، وكان جائزة ذلك الإخلاص ، والحمية الدينية والمتابعة الكاملة لخاتم النبيين - ﷺ - التي تمسك بها من أول الطريق وعض عليها بالنواجذ .

وينبغي - لتفصيل هذا الإجمال ، وشرح هذه الإشارات - التأمل في تلك الخلفيات والأوضاع التي تتجلى فيها قيمة هذه التحقيقات العلمية ، وإدراكها بأبعادها وعلى حقيقتها .  
التساؤلات الأساسية ، والمحاولات المختلفة للإجابة عليها ، ونقدها ودراستها :

إن التساؤلات الأساسية الأولية عن الدين وهذا الكون ، التي تعتمد عليها استقامة هذه الحياة وتنظيمها تنظيمًا سليمًا ، وتدور عليها سعادة الآخرة والنجاة من عذابها ، هي : من صانع هذا الكون ؟ وما هي صفاته وخصائصه ؟ وما هي علاقته بنا ؟ وكيف ينبغي أن تكون صلتنا به ؟ ، وما هي وضعية هذه الصلة ؟ ، وما هي الأمور التي يحبها ويرضاها؟ ، وأخرى يبغضها ويسخط عليها ؟ ، وهل بعد هذه الحياة الراهنة ، حياة أخرى ؟ وإن كانت فما هي طبيعتها وحقيقتها ؟ ، وما هي التعاليم والإرشادات المتعلقة بها ؟ .

وللإجابة على هذه التساؤلات بتفصيل ودقة ، لا بد أن يتعرض المجيب للبحث في ذات الله - سبحانه وتعالى - وصفاته ، وأفعاله ، وحدث العالم أو قدمه ، ووجود الجنة والنار ، والوحي والملائكة ، ومباحث أخرى تتعلق بما وراء الطبيعة ، وهي تحتل مكانة العقائد الأساسية ، وأصول الديانة الأولية .

وقد نحى المعنيون بهذه المباحث للإجابة على هذه الأسئلة ، وحل هذه المشاكل نحو تجربتين اثنتين بصفة عامة ، تجربة العقل والإدراك ، وتجربة الروحانية والإشراق ، وكان من نتيجة التجربة الأولى ظهور الفلسفة ، ونتيجة التجربة الثانية نشأة التصوف الإشراقي .

ولكن هاتين التجربتين والمحاولتين الأوليتين - بالنظر إلى أصول النقد والموضوعية العلمية - مبنيتان - أساساً - على أخطاء والمغالطات ، ويتسنى لنا قبل أن ننقل مقتبسات من رسائل الإمام السرهندي ، أن نتناول هذا الموضوع - توطئة وتمهيداً - بشيء من الشرح والإيضاح .

### الخطوة التجديدية في نقد العقل المجرد ، والكشف الخالص :

ينبغي - قبل كل شيء - أن لا ننسى أن العقل ليس حراً طليقاً في أداء مسؤوليته الطبيعية ، من الاكتشاف ، والتحقيق ، والاستدلال ، وأنه في حاجة إلى أشياء أقل منه شأنًا ، وأتفه منه قيمة ، وأن دوره الأصيل هو التوصل من المحسوسات والمعلومات والتجارب



السابقة ، إلى أمور غير محسوسة ومعلومة ، وأن يصل بترتيبها علمياً بالاستعانة بذخيرة هذه المعلومات ، والمبادئ ، والمقدمات ، إلى نتائج لم تكن حاصلة له من قبل ، وما كان يمكنه الحصول عليها ، بالاعتماد على الحواس والتجارب ، فإننا إذا نقدنا جميع المعقولات وحللناها تحليلاً علمياً يتضح لنا أن العقل لم يصل إلى هذه الحقائق الدقيقة والمعارف العالية إلا عن طريق هذه المحسوسات التافهة ، والمعلومات البدائية البسيطة ، التي لم تكن تؤدي بنفسها - من غير مساعدة الترتيب العقلي والعلمي - إلى هذه النتائج الخطيرة ذات لقيمة العظيمة .

فمن الظاهر البديهي أن المجالات التي لا تستطيع الحواس البشرية أن تعمل فيها ، ولا تملك أن ركنية لمعلوماتها الأساسية ، ولا تعرف مبادئها وأولياتها ، ولا يمكن أن يكون لديها أى تقدير وتجربة لحقيقتها ، ولا دخل للقياس فيها ، فأنى للعقل والذكاء والقياس والتخمين أن يصل إليها ويجول ؟ . إن العقل ليعجز فيها عن أن يصل إلى نتيجة ما من النتائج ، ويقف مقصوص الجناح ، مثلما يعجز الإنسان عن أن يعبر البحر بغير سفينة ، أو يطير فى الجو على غير طائرة ، وليس فى إمكان أى فطن ذكى أن يحل مسألة فى علم الرياضيات من دون أن يكون له علم بالأعداد والحساب ، كما أن من لم يعرف الخط المستعمل فى لغة من اللغات ، ولا يعرف حروفها الهجائية (ALPHABET) لا يستطيع أن يقرأ سطرًا واحدًا من هذه اللغة مهما كان ذكاًؤه وعبقريته ، ومهما استخدم العلل والقياس ، ومهما كدّ وجدّ ، كذلك يستحيل أن يستقل العقل فى الإجابة على هذه الأسئلة الخطيرة لأن الإنسان لا يعرف مبادئها وأولياتها ، وهى لا تقبل القياس والتقدير .

والحقيقة الثانية أن قوة العقل ، ودائرة عمله ضيقة محدودة ، فله نطاق لا يتعداه ، وكما أن القوى الحسية فى الإنسان ، لها دوائر ومجالات لا تتجاوزها ، فحاسة البصر تلتقط آفاقاً من المبصرات ، ولكنها لا تستطيع أن تسمع ، ولا صوتاً واحداً ، وكذا الحواس الأخرى ، ثم إن قوة هذه الحواس وعملها فى دوائرها الخالصة ، وفى محسوسات خاصة ، ليست مطلقة غير محدودة .

كذلك العقل بالرغم من أن مجاله أفسح ، ودائرته أوسع من هذه الحواس الظاهرة إلا أنه محدود ، لا يتعدى طوره ، وفى تعبير ابن خلدون العلمى الدقيق :

« العقل ميزان صحيح فأحكامه لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور

التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع فى محال ، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك على أن الميزان فى أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عنده ، ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه « (١) .

والحقيقة الثالثة أن العقل يستعصى عليه التجرد الكامل من الشوائب الخارجية ، والحياد التام فى الأحكام والنتائج ، ويعرف العلماء المطلعون حقيقته ، أنه ليس هناك شىء أندر فى الوجود من « العقل الخالص » و« العقل المجرد » ، فإنه يصعب عليه التحرر والانطلاق من تأثير العواطف والرغبات ، والميول والنزعات ، وتأثير البيئة ، والتربية الخاصة ، والدراسة الخاصة ، والعقائد والنظريات الخاصة ، وتأثير الوهم والخيال ، والسهو والنسيان ، ولأجل ذلك فإنه من المستبعد أن تكون أحكامه صادقة - دائماً - ونتائجه حتمية يقينية .

ولكن الذى يستغرب ويتعجب منه أن الفلاسفة - بصرف النظر عن هذه الحقائق البينة كلها - أخطأوا فى تحديد موضوعهم ، وبحثوا فى ذات الله وصفاته ، وما يتعلق بها من أمور غيبية - من غير أن تكون لديهم مواد هذا الموضوع وعدته ، ومن غير أن يكونوا على علم وبصيرة ، فى تفصيل وتدقيق وثقة واعتماد لا يليق إلا بالخبير الكيماوى الذى يقوم بالتحليل والتجزئة ، والفحص والدراسة فى المعامل الكيماوية ، فكانت بحوثهم وتدقيقاتهم هذه عبارة عن الظن والتخمين ، ومجموعة طلاسم خيالية ، وبناءً واهياً على أساس القياس المجرد ، وهى فى علم الالهيات بمثابة «حكايات ألف ليلة وليلة» و « قصة عترة (٢) » مما سنقف على نماذج منها فى السطور الآتية .

وبإزاء هذه المحاولة العقلية والفلسفية ، محاولة أخرى ، وهى «الأشراق» ومن مبادئه الأساسية أن العقل ، والعلم ، والبرهان ، والاستدلال ، لا تنفع فى البحث عن اليقين ، والوصول إلى الحق شيئاً ، بل ضررها أكبر من نفعها ، وأن الشرط الأساسى لمعرفة الصدق والحقيقة هو الشهود أو المشاهدة ، ولا تيسر هذه المشاهدة إلا بنور الباطن ، وصفاء النفس ، وتنبيه حاسة داخلية تدرك الحقائق الروحية ، وما وراء الطبيعيات ، كما تدرك هذه العيون الظاهرة الأشياء المبصرة الظاهرة ، ولا تتولد هذه الحاسة إلا بالقضاء على المادية ،

(١) مقدمة ابن خلدون ٣٦٤ - ٣٦٥ ، طبعة دار الفكر - بيروت .

(٢) مجموع حكايات وأساطير .

الحواس الظاهرة إماتة كاملة ، فهذه الحكمة الإشرافية ، والنور الباطنى الذى ينشأ بالرياضات والمجاهدات ، والتأملات والمراقبات ، ويكون مجرداً خالصاً عن كل شائبة من شوائب العالم الخارجى ، هو الوسيلة الوحيدة للحصول على الحقيقة .

إن وجود هذه الحاسة الزائدة أمر لا شك فيه ، بل يمكن أن تكون هناك حواس أخرى كهذه ولكن على كل حال فإنها حاسة إنسانية ضعيفة محدودة ، مثل الحواس الأخرى ، قابلة للخطأ ، والتأثر بالعوامل الخارجية ، شأن سائر القوى الإنسانية ، ووسائل الكشف للعلم ، وما الدليل على أن هذه الحاسة ليست محدودة ، ولا قابلة للأخطاء ولا تتعرض محسوساتها ومشاهداتها للغلط ، والانخداع ، والغرور بالنفس ؟ ، ولو كان الأمر كذلك لما كان فى نتائجها تعارض ولا تناقض ، ولم يخالجهما اضطراب أو إمكان للخطأ ، ولم تتورط فى مزالق وأغاليط فى القضايا المهمة الحاسمة كما هو الواقع (١) .

وعلى كل فإن هذه « الحكمة الخاصة » يصعب عليها كالعقل أن تتجرد تجرداً كاملاً ، فإنها كذلك تتأثر بالعوامل الخارجية ، والأشياء الظاهرة والباطنة وتنعكس عليها ظلالها وأشباحها ، ولا تصور هذه المرآة كذلك ، الحقائق تصويراً صحيحاً ، وتنطبع عليها آثار البيئة الإشرافية ، وعقائدها ومسلماتها ، وتتأثر مشاهداتها هذا التأثير الخفى الدقيق ، ولأجل ذلك كان كثير من الإشرافيين يرون فى كشوفهم ومشاهداتهم تأييداً لكثير من الأساطير والخرافات اليونانية والمصرية ، التى لا يسيغها العقل ، ولا تقوم إلا على أساس الوهم والخيال ، وتشكل كثير من الفرضيات والتخمينات ، بشكل الحقائق الثابتة ، والمسلمات البديهية ، وليس لها فى العالم الخارجى وجود (٢) .

ثم إن هذه التساؤلات المذكورة - أعلاه - كما هى خارجة عن نطاق الفلسفة وحدودها ، كذلك هى خارجة عن نطاق الإشراف وحدوده ، إنه قد يساعد فى اكتشاف أسرار عالم الأرواح وعجائبه ، ويرى صوراً وألواناً ، ويسمع أصداً وأصواتاً ، ولكنه على جهل تام بالعلم التفصيلى لمشيئة الله ، وقوانينه وأحكام شريعته ، وأحوال الدار الآخرة وحقائقها ، كما يجهلها الإنسان العادى الذى لم يعرف مبادئ الإشراف (٣) .

---

(١) راجع للأمثلة والتفاصيل كتاب المؤلف « بين الدين والمدينة » ، ص ٢٨ - ٢٩ ، الباب الأول خاص ببحث « الإشراف » .

(٢) انظر « بين الدين والمدينة » للمؤلف ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) أيضاً ، ص ٣٧ - ٣٨ .

والحقيقة أن كلاً من الفلسفة والإشراق يتجهان اتجاهًا واحدًا ، وتسيطر عليهما روح واحدة ، وكلاهما يحاولان التوصل إلى الحقيقة بطرح وساطة الأنبياء والمرسلين ، وأن غاية الفريقين واحدة . وإن تعددت الطرق فأحدهما يريد الوصول إلى غايته مشيًا على الأرض ، وآخر عن طريق التحليق في الجو ، أو عن طريق خفى من سرداب ( الطريق الروحي والإشراقى ) (١) .

ولكن الحقيقة . ولب لباب والعرفان أنه لا طريق إلى هذه الحقائق والمعارف ، إلاً طريق الأنبياء ، الذين شرفهم الله - تعالى - بمنصب النبوة والرسالة ورزقهم أكبر قسط من العلم بذاته وصفاته . وبملكوت السماوات والأرض ، وأخبرهم - مباشرة ومن دون وسائط - بما يرضاه وما لا يرضاه ، وبما يأمره وما ينهى عنه ، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه وأن نبوتهم ورسالتهم منة عظيمة على هذه الدنيا ، ونعمة ظاهرة ، وما يعطونه من علم جليل بذات الله وصفاته العليا ، وأسمائه الحسنى - من غير مشقة ، وبدون مقابل - لا يمكن إحراز ذرة من ذراته ، وبالتأملات الفلسفية ، والبحث والاستدلال على مدى آلاف السنوات ، وبالمجاهدات الشاقة ، وتصفية النفس ، والمراقبة والتفكير لأعوام وسنين .

﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ (٢) .

وما أصدق ما قال القرآن : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ ، نعم إن الفلاسفة والإشراقين لا يقدرّون هذه النعمة ، ولا يشكرون هذه اليد المعطاءة ويريدون أن يصلوا إلى الحقائق بمجادلاتهم الكلية التي قد أغناهم الله عنها ، وليست نتيجة هذه الجهود والمحاولات عبر الآلاف المؤلفة من القرون إلاً أقوالاً ينقض بعضها بعضاً ، وتحقيقات تتصادم وتتعارض ويضحك عليها صبيان الكتائب ، وهى كل تراثهم ومتاعهم فى علم « الإلهيات » وأنهم بدل أن يقربوا أتباعهم وتلامذتهم إلى ربهم ، أبعدهم عنه ، وأوقعوهم فى الجهل المشين بذات الله وصفاته ، وقلة اليقين ، والاستغناء عن الرجوع إليه ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ (٣) .

إن الإمام السرهندي على علم عميق ، ودراية كاملة بكلتا الناحيتين ، « الفلسفة » و« الروحانية » وهو - على جانب آخر - من ورثة علوم الأنبياء والمرسلين ، والعارفين

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) سورة يوسف ، ٣٨ .

(٣) سورة إبراهيم - ٢٨ .

البصيرين بمكانة الوحي والرسالة ، فكان نقده للفلاسفة والإشراقين نقداً علمياً موضوعياً ، يدل على جامعته ورسوخه في العلم ، وأن هذا المبحث المهم هو النقطة الرئيسية والمحور الأساسى لعلمه التجديدى العظيم ، لأن أساس الشريعة الإلهية ، والنظام الدينى بأسره يقوم على البت فى هذه القضية ، والحكم الحاسم فيها ، وهى أنه ما هو المنبع الأسمى ، والمصدر الأساسى للحصول على العلم القطعى ، واليقين الذى لا يداخله شك . ومعرفة الضرورية للذات الإلهية وصفاتها ، وبدء الكائن الإنسانى ونهايته ، ونجاحه وسعادته ؟ هل يكون مصدرها التأملات الفلسفية ، والبحث العلمى والاستدلال المنطقى - الجوانب التى تمثلها الفلسفة - أو النور الباطنى ، ومجاهدة النفس وتصفية القلب ، وتركيبه الباطن ، والمشاهدات والكشوف التى تحصل من الحواس الباطنة ، والقوى الروحية - الجوانب التى يمثلها « الإشراق » ؟ أو أن مصدرها اتباع الأنبياء والإيمان بهم والتسليم لهم ؟ هذه هي نقطة البداية التى تفرق منها السبل ، وتتجه هذه الجهات الثلاث ، فلا تلتقى ولا تتصافح أبداً ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . ذَلِكَمِ صِرَاطُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

رما صدر فى هذا الصدد بقلم الإمام السرهندى ، من تحقيقات نادرة ، وعلوم دقيقة ومعارف عالية متناثرة فى الجامعات الضخمة لرسائله العلمية القوية ، أقدم ترجمة شىء منها بعناوين مختلفة معبرة .

### قصور العقل وعجزه فى إثبات صانع الكون ومعرفة صفاته الكاملة :

« نحمد الله - عز وجل - الذى أنعم علينا بالهداية إلى الإسلام ، وجعلنا فى أمة محمد - ﷺ - وأن الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلوات والتسليم - رحمة للعالمين ، لأن الله عز وجل - أخبرنا نحن أصحاب العقول القاصرة ، والأذهان الكليية العاجزة - عن طريقهم - بذاته العلية وصفاته العظيمة ، وخاطبنا فى بيان صفاته الكاملة ، وذاته الجليلة على قدر عقولنا المحدودة ! ومداركنا الضعيفة ، وميز بين ما يرضاه ، تمييزاً تاماً ، وأوضح لنا المنافع والمضار فى الدنيا والآخرة ، فلو لم تكن بيننا وبينه وساطة هولاء المصطفين لعيت العقول البشرية ، وعجزت عن إثبات صانع هذا الكون وباءت بالخيبة والكلال فى معرفة كماله وعظمته ، لقد كان الفلاسفة القدماء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم حكماً أذكىاء ، أنكروا

(١) سورة الأنعام - ١٥٣ .

صنع الكون ، ونسبوا الأشياء - لقصور أفهامهم وضعف مداركهم - إلى الدهر ، وأن مذقشة نمرود مع إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فى خالق الأرض والسموات ، معروفة مذكورة فى القرآن الكريم ، فكان فرعون الشقى يقول : « ما علمت لكم من إله غيرى » وقال مخاطباً لموسى - عليه السلام - : « لئن اتخذت إلهًا غيرى لأجعلنك من المسجونين » ، وهو ذلك الشقى المحروم الذى وجه خطابه إلى هامان : ﴿ يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى اله موسى ، وإنى لأظنه كاذباً ﴾ . فخلاصة الأمر أن العقل كليل عاجز كل العجز عن الوصول إلى هذه الثورة العظيمة ، وأن لا سبيل إليها إلا هدى الأنبياء وتعاليمهم <sup>(١)</sup> .

### سفاهات حكماء اليونان فى المعرفة الإلهية :

إن خالق هذا الكون ومنظمه ، وحاكمه الذى يسميه فلاسفة اليونان «المبدأ الأول» ، الذى بحث فى كيفية خلقه ، ونشأة الكون من أمره ، هولاء الفلاسفة ، لو شقوا الشعرة ، وتخيّلوا أموراً ، وافتراضات ، ثم بنوا على هذا الأساس الخيالى المنهار عمارات شاهقة ، نطحة للسحاب ، يتكفل بشرحها وتفصيلها كتب الفلسفة ، وتعلق عليها وتنقدها كتب العقائد وعلم الكلام ، فىمكن أن يراجعها القارىء للوقوف على تفاصيلها ، وليس هنا مجال لإثارتها ومناقشتها .

ولكن ينبغى ، لإدراك أفكار الإمام السرهندى وآرائه ، ومعارفه العالية ، وللإطلاع على ذلك العامل الذى يفجر قلم الإمام كالشلال الهادر ، يدفعه فى قوة وحماس للرد على تلك الأخيلة والافتراضات التى اخترعتها الفلسفة بقوتها المتخيلة وبنيت على أساسها كل ما بنت ، أن نقدم هنا « شجرة نسب » العقل الفعال الذى هو الموتر الأصيل ، والمدبر الحقيقى لهذا الكون عند فلاسفة اليونان ، فصوروها ، ووضعوا عليها أساس الخلق والأمر ، وهناك الاف من الزدلة والبراهين مؤيدة لها أو معارضة ، ولكننا هنا نقتصر على ذكر هذه الشجرة فحسب :

« المبدأ الأول واحد من كل وجه ، ومن المسلم أن الواحد لا يصدر منه إلا الواحد ، والعالم مركب من أشياء مختلفة ، فلا يتصور أن يكون فعلاً لله ، والمبدأ الأول ، فاض من وجوده العقل الأول وهو موجود قائم بنفسه ليس بجسمه لا منطبق فى جسم ، يعرف

(١) الرسالة رقم : ٢٣ المجموعة الثالثة كتبها الى خواجه إبراهيم قياديانى .

نفسه ويعرف مبدأه ، وقد سميها العقل الأول ولا مشاحة في الأسماء ، سمي ملكاً أو عقلاً أو ما أريد ، ويلزم عن وجوده ثلاثة أمور : عقل ، ونفس الفلك الأقصى وهو السماء التاسعة ، وجرم الفلك الأقصى ثم لزم من العقل الثانى ، عقل ثالث ، ونفس فلك الكواكب وجرمه ، ثم لزم من العقل الثالث عقل رابع ، ونفس فلك زحل وجرمه ، ولزم من العقل الرابع عقل خامس ، ونفس فلك المشتري وجرمه ، وهكذا حتى انتهى إلى العقل الذى لزم منه عقل ونفس فلك القمر وجرمه ، والعقل الأخير وهو الذى يسمى العقل الفعال ، لزم منه حشو فلك القمر ، وهى المادة الكاملة للكون والفساد ، من العقد الفعال ، وطبائع الأفلاك ، ثم إن المواد تمتاز بسبب حركات الكواكب امتزاجات مختلفة ، يحصل منها المعادن والنبات ، والحيوان ، . . . الخ ، فخرج منه أن العقول عشرة والأفلاك تسعة « (١) .

هذا هو علم الأصنام لدى حكماء اليونان ، الذى سموه الفلسفة وعلم الإلهيات ، وبدأ الناس يتأملون فيه ، ويتناقشون بجد وإخلاص ، أو أنها الأساطير الخيالية ، والافتراضات الوهمية ، وروايات ألف ليلة وليلة يتذكر الإنسان تلقائياً عند الوقوف عليها ، قول الله تعالى : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ (٢) .

وما أصدق ما قال الإمام الغزالي بعد نقل هذه الشجرة الوهمية الباسقة :

« ما ذكر تمويه تحكمات وهى على التحقيق ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاها الإنسان عن منام رآه لاستدلَّ به على سوء مزاجه » (٣) .

وقال فى موضع آخر : « فلست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع فضلاً عن العتلاء الذين يشقون الشَّعْرَةَ بزعمهم فى المعقولات (٤) .

إن هولاء الفلاسفة سلبوا من ذات الله - سبحانه وتعالى - كل صفات الجلال والكمال ، ونفوا خلقه وإبداعه لجميع المخلوقات ، ونفوا عنه القدرة والاختيار ، وأثبتوه جامداً لا يتحرك ولا يعمل ، وفعلوا كل ذلك - بزعمهم - لتنزيهه « واجب الوجود » ، وتقديسه

(١) « تهافت الفلاسفة » ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) سورة الكهف - ٥١ .

(٣) تهافت الفلاسفة ص ٣١ .

(٤) أيضاً ص ٣٤ .

وتعظيمه ، ولا يتمالك الإمام الغزالي بهذه المناسبة إلا أن يقول :

« ومن قنع أن يكون قوله في الله - تعالى - راجعاً إلى هذه الرتبة فقد جعله أحقر من كل موجود يعقل نفسه ، ولا يعقل غيره ، فإن من يعقله ويعقل نفسه أشرف منه ، إذا كان هو لا يعقل إلا نفسه ، فقد انتهى بهم التعمق في التعظيم إلى أن أبطلوا كل ما يفهم من العظمة ، وقربوا حاله من حال الميت الذي لا خبر له بما يجري في العالم إلى أنه فارق الميت في شعوره بنفسه فقط ، وهكذا يفعل الله بالزائغين عن سبيله ، والناكبين عن طريق الهدى ، المنكرين لقوله - تعالى - ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ . ، الظانين بالله السوء ، المعتقدين أن أمور الربوبية يستولى على كنهها القوى البشرية المغرورين بعقولهم ، زاعمين أن فيها مندوحة عن تقليد الرسل وأتباعهم ، فلا جرم اضطروا إلى الاعتراف بأن لباب معقولاتهم رجعت إلى ما لو حكى في منام لتعجب منه<sup>(١)</sup> . »

وتنبعث في الإنسان عواطف الشكر والتقدير عندما يرى للفلسفة وتأملاتها هذا المصير . ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ وأن هذا الإخفاق الذريع في القضايا الإلهية الذي منى به فلاسفة اليونان وحكماؤها - الذين أحرزوا النجاح بعقلهم وذكائهم في العلوم الرياضية ، والعلوم التطبيقية ، وهذا العجز والقصور الذي أصيب به العقل في هذا المجال موضع عبرة ودرس ، حيث إنهم نسبوا إلى الله - سبحانه وتعالى - ما يستنكفون عن نسبه إلى أنفسهم ، وإلى أحقر المخلوقات في العالم وقرروا أنه فاقد القدرة والعلم والاختيار ، ليس له دخل في إحداث العالم ، وظنوا ذلك غاية التنزية ، والتقدیس : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾ .

وإنلق نظرة على أقوال الإمام السرهندي وتحقيقاته التي اقتطفناها من رسائله يقول :

« إذا كان العقل يكتفى للمعرفة الإلهية ، لما كان فلاسفة اليونان - الذين جعلوا العقل إمامهم وقائدهم - حيارى تائهين في بقاء الضلال ، وكانوا أعلم بالله ، وأعرف به من غيرهم ، والحال أنهم أجهل الناس لذات الله - عز وجل - وصفاته وأسمائه إذ أنهم ظنوا الله - تعالى شأنه - وجوداً يتسم بالتعطل والبطالة ، ولا يعتقدون أنه خلق شيئاً سوى شيء واحد ، وهو «العقل الفعال» ، وقد كان صدوره من الله - تعالى - اضطراباً لا عن قدرة

(١) أيضاً ، ص ٣٢ .



واختيار ، إنهم هم الذين اخترعوا - بعقولهم - العقل الفعال ، فينسبون الحوادث إليه ، بدلاً من أن ينسبوها إلى خالق الأرض والسموات ، ويفترون أن الأثر بالمؤثر الحقيقى ، بل بما زوروه من العقل الفعال ، لأن المعلول عندهم نتيجة للعللة القريبة ، ولا دخل فى حصول المعلول للعللة البعيدة ، ويظنون - بجهلهم وقلة فهمهم - أن عدم نسبة هذه الأمور إلى الله - تعالى - من صميم تنزيهه ، وعظيم كماله ، ويرون بطلته وتعطله عن أى عمل من تعظيمه وتقديسه ، والحقيقة أن الله - عز وجل - يصف نفسه بأنه خالق السموات والأرض ، ويعرف بذاته بأنه « رب المشرق والمغرب » .

إن هؤلاء السفهاء يعتقدون - فى زعمهم - أنهم فى غنى عن الله ، وعن الخضوع والإنابة إليه . فلينبوا - إذن - إلى « عقلهم الفعال » لطلب الحاجات وتلبية الضرورات ، لأنه هو - فى نظرهم - صاحب السلطة الحققة ، والقدرة الكاملة بل أن « العقل الفعال » أيضاً - كما يزعمون - مقهور غير قادر على أداء أعماله فطلب الحاجات منه ، كذلك أمر غير معقول ومستساغ ، والحق أن هؤلاء كما وصفهم القرآن الكريم ﴿ لا وكيل لهم ولا نصير ، وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ، لا رب السماوات والأرض ينصرهم ، ولا « العقل الفعال » يسعفهم وما هو هذا العقل الذى يدبر الأمور ، وينسب إليه الحوادث ، وإبرازها إلى الوجود ؟ ، إن هناك آلافاً من الاعتراضات على ثبوت هذا العقل ووجوده ، إذ أن ثبوته ووجوده قائمان على مقدمات فلسفية مفترضة ، ناقصة مخدجة فى ضوء أصول الإسلام الصحيحة وقواعده الثابتة ، وليس من يصرف الأشياء عن الإله القادر المريد ، والمختار ، وينسبها إلى الأشياء المتوهمة والمفترضة ، إلا سفيهاً يستحق الحجر . بل إن هذه الأشياء نفسها تشعر بالذل والعار فى نسبة خلقها وإيجادها إلى شىء اختلقته الفلسفة ، ولا نصيب له من الواقع ، وإنها لترضى بالفناء ، وتحمد الموت والبلى ، ولا ترغب فى الحياة والبقاء مقابل أن تنسب إلى شىء فرضى وهمى لا أصل له فى الواقع ، وتحرم السعادة العظيمة فى سببها إلى القادر القوى المختار ، ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً ﴾ ، إن الكفرة المشركين فى دار الحرب - رغم عبادتهم للأصنام والأوثان - خير من هؤلاء الفلاسفة ، إذ أنهم يتضرعون إلى الله عند الشدائد والكربات ، ويتوسلون بأوثانهم أصنامهم إليه .

وأغرب من ذلك أن فريقاً من الناس يدعو هؤلاء السفهاء ( فلاسفة اليونان ) بالحكماء ينسبهم إلى الحكمة ، إن معظم تحقیقاتهم فى القضايا الإلهية - التى هى المبحث الأسنى - خاطئة ، معارضة للكتاب والسنة ، فما هو وجه تلقيبهم - وجل مباحثهم جهل وسفاهة -

بالحكمة إلا أن يكون سخرية منهم ، وضحكة عليهم ، أو كما يدعى الأعمى بالبصير»؟<sup>(١)</sup> .

### لا كفاية لدى العقل في إدراك الحقائق الدينية :

﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ ، بأى لسان نشكر الله - تعالى - ونحمده على إنعامه ببعثة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلوات والتسليم - وبأى قلب نؤمن بذلك المنعم الجليل ، وأين الجوارح التى تكافىء - بالأعمال الحسنة - هذه النعمة العظيمة ؟ ، فلولا وجود هؤلاء ذوى الخيرات والبركات من كان يهدينا - نحن القاصرى العقول - إلى الإيمان بوجود خالق السماوات والأرض وتوحيده ، فإن فلاسفة اليونان المتقدمين - رغم ذكائهم وألمعيتهم - لم يهتدوا إلى خلق السماوات والأرض ، ونسبوا خلق الكون إلى الدهر ، ثم لما ظهرت دعوة الأنبياء - عليهم الصلاة والتسليم - وتجلت - على مر الأيام - للعيان ، نهض الفلاسفة المتأخرون - بتأثير هذا النور وبركته - للرد على مذهب الفلاسفة المتقدمين واعتقدوا بوجود صانع الكون وأقروا بتوحيده ، فعقولنا - بدون نور النبوة - عاجزة قاصرة ، وإدراكنا من غير وساطة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كليل حسير «<sup>(٢)</sup> .

### طور النبوة وراء العقل :

« إن طور النبوة وراء طور العقل والتفكير ، فالحقائق التى يعجز العقل عن إدراكها ، تأتى النبوة لتثبتها وتحققها ، ولو كان العقل كافياً وحده ، لما بعث الأنبياء - صلوات الله تعالى وتسليماته عليهم أجمعين - ولما ربط عذاب الآخرة ببعثهم ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، والعقل حجة ، ولكنه ليس بحجة بالغة ، وليس فى حجته بكامل ، وقد تحققت الحجة البالغة ببعثة الأنبياء والرسل ، - عليهم الصلوات والتسليم - فقطعت السنة المكلفين ، وقضت على معاذيرهم ، يقول الله - تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ ولما ثبت عجز العقل وقصوره فى بعض القضايا ، فليس من المستحسن أن توزن جميع الأحكام الشرعية فى ميزان العقل ، وأن محاولة التطبيق بين العقل وبين الأحكام الشرعية - بصفة دائمة -

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، وهى موجهة الى خواجه ابراهيم قباديانى .

(٢) الرسالة رقم : ٢٥٩ ، المجموعة الاولى ، وهى مكتوبة إلى ابن الامام السرهندي الشيخ محمد

دائمة - والتزام ذلك والتقيد به ، حكم بكفاية العقل وغناه ، وإنكار للنبوة ، أعاذنا الله -  
تعالى - منه « (١) .

لا يمكن حياد العقل وتجرده ، ولا غناء عنده

في معرفة الحقائق الإلهية ، وإن أمدّه الإشراق وصفاء النفس :

إن مما يبعث على العجب - ولا يمكن تأويله وتوجيهه إلا أنه قيس من التأيد الإلهي ،  
وإصابة الفكر ، وسداد الرأي - إنه في هذا القرن العاشر - القرن السادس عشر المسيحي -  
الذي كانت تسود فيه العقلانية ، وكانت العلوم العقلية - بتأثير مقررات الفلسفة والمنطق  
تسيطر على جميع العالم - بصفة عامة - وعلى الهند وإيران - بصفة خاصة - التي كانت  
تقتصر على تدريس الفلسفة اليونانية ، والتي رفعت أفلاطون وأرسطو ، إلى مقام العصمة  
والقدسية ، حتى كان الاستنتاج العقلي من المقدمات العقلية ، على الطريقة المنطقية ،  
والتصريح بما صرح به فلاسفة اليونان ، وفررره . من القطيعات البديهيات ، يخرس  
الألسنة الذلقة ويغشى العيون المبصرة ، بل كان عبّاد الفلسفة والمنطق يسجدون عن طوع  
وخضوع أمام هذه الحقائق «المرعومة» .

في مثل هذا الجو رفع الإمام السرهندي صوته - لأول مرة - في حدود علمي ، بين  
علماء الإسلام - إن تجرد العقل عن صلة الجسم المادي وعن الأوهام والتصورات ،  
وإنعقائد ، والمسلمات السائدة في بيئته ومحيطه ، وتحرره عن الميول النفسية ، والرغبات  
الداخلية ، والأخراق المتمكنة ، والعادات الراسخة شبه مستحيل ، حتى ولو كان  
الإشراق، وصفاء النفس يرافقه في الطريق ، ويمدانه بالمعونة ، فإن وصوله - متحرراً  
متجرداً عن التأثيرات الخارجية والداخلية ، والدراسة والتربية ، والمجتمع والبيئة ، ومما  
رسخت جذورها فيهما من عادات وتقاليد ، وأصبحت بمنزلة المسلمات والبديهيات - إلى  
حقيقة الأمر والواقع الصحيح وإصدار الحكم المنصف الحاسم ، ليس إلا شذوذاً ،  
و«الشاذ» كالمعدوم لا احتجاج به ولا اعتماد عليه ، إن هذا التحقيق الدقيق الذي كشف  
الإمام عن سره ، وضغط في رسائله - عليه - مرات وكرات ، ليس كشفًا جديدًا لعصره  
وبيئته ، بل إنما هو اكتشاف خطير في عالم الأفكار والدراسات العلمية ، وإعلان تجديد  
جريء ، لم يقدر حق قدره ، ولم تعرف قيمته وأهميته حتى الآن ، بيد أنه كان يستحق أن

---

(١) الرسالة رقم : ٣٦ ، المجموعة الثالثة كتبها الى الشيخ مير محمد نعان .

يجعل موضوعاً مستقلاً للبحث والتحقيق ، والشرح والتفصيل .

ومن عجيب المصادفة ، وتوارد الخاطر ، أن الفيلسوف الألماني الشهير عما نوبل كنت ( Emanuel Kant . 1724 -- 1804 ) بدأ - بعد قرابة قرنين من وفاة الإمام السرهندي - البحث الموضوعي ، والتحقيق العلمي في صلاحية العقل لتجرده ، وتحرره ، عن البيئة وعوامل الوراثة ، والعادات والمعتقدات والحكم الفاصل في قضية ما من القضايا ، إنه عينٌ حدود العقل ودوائره في شجاعة ووضوح ، ونشر كتابه الخير « نقد العقل الخالص » ( Critique Of Pure Reason ) عام ١٧٨١ م ، الذي أحدث هزة واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية ، وكما يقول إقبال : «إنه هدم أعمال المتورين وحولها كومة من تراب » (١) .

وقد أشاد الغرب بهذا العمل ، واعترف بقيمته العلمية وخطورته في مجال الدراسات ، اعترافاً لائقاً ، بمكانة الكتاب ، حتى قال القائلون :

«إنه كان منحة ربانية عظيمة للشعب الألماني » ويقول مؤلف « تاريخ الفلسفة الحديثة » الدكتور هيرالد هوفيدنك ، في تعليقه على هذا الكتاب : « إن هذا الكتاب قطعة حية خالدة تدل على عظمة الفلسفة وكمالها ، وأضاءت معالم الطريق في متاهات الفكر الإنساني وحيروته » (٢) .

يقول : « عما نوبل كانت » : « إن الفكر يبدأ بمهمته بالدعاوى ، ويعتمد - عن غير شعور وفي معظم الحالات لسذاجته - على صحة مقدماته ، ومفروضاته ، وطاقاته ، ويكون على ثقة ويقين بأنه يحل جميع المسائل ، ويصل إلى كنه الكون ، ثم يأتي عليه زمان يتجلى له فيه أن هذه الأبنية العقلية والفكرية ، لا تنطح السحاب ، ولا تسمو إلى الأفلاك ، لا يمكن الاتفاق عليها على خطة مبنية على الأعداد ، وهذه فترة الارتباب والتشكيك ، وقد رأى أن هناك أمراً متروكاً صرف النظر عنه كل من الأدعائين ، والمتشككين ، وهو أنه من الواجب علينا البحث في عقلنا ، وإدراكنا وماهية علمنا ونوعيته ، ونكشف عن نوع الصور والقوى التي نتمتع بها لفهم الأشياء وإدراكها ، وإلى أي مدى نستطيع أن نسير في ضوئها (٣) .

---

(١) ( The reconstruction Of religion thought in ISLAM ) .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ، ج ٢ ص ٣٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ - ٣١ .

ونود أن نقرأ - بعد هذا التمهيد البسيط - التصريحات الواضحة التي صدرت من عالم ومفكر مسلم - عاش في الأوساط العلمية والمدرسية المحدودة في الهند ، وجعل غاية حياته ، وهدفها الأساسى ، علوم النبوة والمعرفة الإلهية ؛ ومرضاة الله ، بدلاً من أن ينصرف كلياً ، نحو الفلسفة والمنطق - فى نقد « العقل الخالص » بعيداً عن ملتوياتها الفلسفية وتعقيداتها فى أسلوب سهل مبين .

يقول الإمام السرهندى ردّاً على سؤال : إن العقل رغم كونه بنفسه عاجزاً مشلولاً فى الأحكام الإلهية ، ولكن إذا نشأت - بحكم صفاء النفس ، وإشراف الروح بينه وبين ذات الله - تعالى - مناسبة خاصة ، واتصال خاص غير متكيف ، بحيث يقدر باستعانتة على الأخذ المباشر من حضرة القدس ، ولا يحتاج إلى البعثة التى تتحقق بواسطة الأنبياء ، فما رأى عندئذ ؟ .

« الإجابة هى أن العقل مهما اتصل وحصل له من المناسبة مع الله ما حصل ، إلا أنه لا تزول علاقته بالجسم العنصري بتاتاً ، ولا يجد إلى التجرد الكامل ، والتحرر المطلق سبيلاً ، فالقوة الوهمية تمسك بزمامه ، والقوة المتخيلة تأخذ بلجامه ، وقوة الغضب والشهوة كالظل المرافق ، وخصال الحرص والطمع الذميمة شعاره ودثاره ، والسهو والنسيان - وهما من لوازم الإنسان - لا يبرحان ، والخطأ والغلط - وهما من خصائص البشر - لا يزولان ، فليس العقل إذن جديراً بالثقة والاعتماد ، وليست أحكامه ونتائج متحررة من قيود الوهم ، والتصرف والخيال ، وليست بمصونة من اختلاط السهو والنسيان ، وشبه الخطأ والغلط ، بعكس الملك المنزه عن هذه الخصال ، والبرىء من هذه العيون والتقصيرات ، فهو - لا محالة - جدير بالاعتماد ، وأحكامه ونتائج محفوظه عن اقتراح الوهم والخيال وشبه السهو والغلط والنسيان ويخيل - فى بعض الأحيان - أن العلوم التى اكتسبها الإنسان عن الطريقة تختلط معها - عن غير إرادة وشعور - فى أدائها إلى القوى والحواس - مقدمات هى عنده قطعيات - ولكنها غير حقيقية ، بل جاءت عن طريق الوهم والخيال - حتى يتعسر بينهما التمييز ، وقد يهتدى الإنسان - فى حين آخر إلى النقد والتمييز ، وقد لا يهتدى ، فلا جرم أن هذه العلوم - لاختلاطها بهذه المقدمات تبقى موضع شك وريبة ، ولا فيها الصدق ، فلا يمكن الثقة بها والركون إليها (١) .

(١) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى ، كتبها إلى الشيخ خواجه عبد الله ، والشيخ خواجه عبيد

## أصحاب الإشراق وصفاء النفس :

قُرّر من قديم الزمان أن الإشراق وصفاء النفس والروحانية ، من الوسائل البرئية المعصومة عن الخطأ والسيان للوصول إلى اليقين ، والعلم الصحيح ، وتهذيب الأخلاق ، وتركية النفس وطهارة الباطن ، وإقامة المجتمع الإنساني ، وبناء المدينة الصالحة على أساسها ، وكانت مصر والهند - في العصور القديمة - مركزاً كبيراً لهذه الحركة ، وقد ساعد على نشر هذه الحركة وتقويتها وقبولها في الناس ، رد فعل عنيف نشأ في روما ويونان لمقاومة التطرف والمغالاة في تقديس العقل - في جانب - والعبودية المجنونة للحواس في جانب آخر ، وتمركزت - أخيراً - في الإسكندرية التي كانت ملتقى العقليات والديانات الشرقية والغربية .

ويقول دعاة هذه الفلسفة والحركة وأتباعها أن أكبر وسيلة لتحصيل اليقين والعلم الصحيح ، هو المشاهدة ، التي لا تحصل إلا بصفاء النفس ، ونور الباطن ، وتنبيه حاسة باطنية ، وأنه ليس في الإمكان التوصل إلى الحقائق إلا بهذا العقل الخالص المجرد ( وهي حكمة الإشراق ) وبالنور الداخلي ( نور الباطن ) الذي يتولد بالرياضة ، ومجاهدة النفس والهوى ، والفكر والمراقبة .

وإذا سلّمنا هذه الدعوى ، فمحصلها هناك حاسة سادسة ( باطنية ) تعمل عملها في الإنسان عدا الحواس الخمس المعروفة ، وأن نتائجها ( المشاهدات ) تتجلى للإنسان أنواراً غير مرئية ، وأصواتاً غير مسموعة ، وحقائق لم تكن معلومة من قبل ، ولكن ما هو الدليل على أن هذه الحاسة ليست محدودة ، ولا قابلة للخطأ والمغالطات كالحواس الأخرى ؟ ، فلو كان الأمر كذلك لما تطرّق إلى نتائجها الشك والاحتمال ، وما وجد فيها التناقض والتعارض ، ولكن تاريخ هذه الإشراقية يدلنا على أن محسوسات هذه الحاسة الباطنة ، وما تؤدي إليها من نتائج ومعتقدات ، تكون معرضة للتعارض والاختلاف ، كما يوجد هذا التعارض والاختلاف في استنتاجات فلاسفة اليونان ، وحكماء الشرق وعقلائه .

دعوا الإشراقية القديمة - التي لم يحفظ تاريخها ، ولم ينقل إلينا - وانظروا إلى الإشراقية الدينية الجديدة ( Neo Platonism ) تجدون في الأعمال المترتبة على عقائد أئمتها وروادها الدينية تعارضاً بيناً ، واختلافاً ظاهراً ، ففلاطينس ( Platonus ) لا يعترف بالنظام الديني ، والعبادات السائدة في عصره ، وهو فيلسوف حر طليق ، يركز على الفكر والمراقبة أكثر من تركيزه على العمل ، ولكن تلميذه النجيب بارفري ( Parphyre ) صوفي زاهد متقشف ، ويقول فلاطينس ( Platonus ) بتناسخ الأرواح ، وتحول الأرواح الإنسانية

إلى الظهور فى نفوس حيوانية ، ولكن بارفرى ( Parphyre ) لا يؤمن بذلك ، والرائد الثالث الشهير من رواد هذه المدرسة الثلاثة - براكس ( Proclus ) كان متقيداً بجميع التقاليد والعادات ، والطقوس المصرية ، وكان يعبد الشمس ثلاث مرات فى النهار ، وكان مذهبه خليطاً من شتى العقائد والديانات ، وكان هؤلاء - جميعاً من أصحاب المشاهدة واليقين (١) .

وقد عارض بارفرى ( Parphyre ) المسيحية ، وأيد قيصر الروم فى حركته ، لإحياء الوثنية والجاهلية ( Paganism ) الرومية من جديد ، ولم يمنع نور باطنه وصفاء نفسه من ربط مصيره . بسفينة الوثنية والجاهلية الغارقة .

وأن أهل الكشف والإشراق من المسلمين أيضاً ، الذين كانوا يعتمدون على هاتين القوتين . تجد فى كشوفهم ومحسوساتهم الباطنة كذلك اختلافاً كبيراً وتعارضاً كثيراً ، فإن واحداً منهم يعارض آخر ، ويثبت أن كشفه بعيد عن الحقيقة ، غير مطابق للواقع ويحمله - أحياناً - على السكر وغلبة الحال وتجدهم يصفحون العقول « - التى ليس لها وجود ، إلا فى الذهن ، وبطون الكتب - ويثبتون أنهم اجتمعوا بها وقابلوها ، إلى آخر ما هناك ، وأن تاريخ التصوف ملئ بهذه الأمثلة والوقائع .

### شيخ الإشراق شهاب الدين السهروردى المقتول :

اشتهر من هؤلاء الإشراقيين المسلمين فى القرن السادس الهجرى - القرن الثانى عشر الميلادى - الحكيم الإشراقى الشيخ شهاب الدين السهروردى ( ٥٤٩ - ٥٨٧ هـ ) المعروف بالمقتول ، اشتهاً عظيماً ، وقد قتل لأرائه وعقائده المبلبة ، والمعارضة للإسلام ، بأمر الملك الظاهر عام ٥٨٧ هـ ، كان يلقب نفسه بالمشائى والصوفى ، وهو يحمل إضافة إلى التصورات المشائية ، كما يقول « S . V Denbergh » : « تلك الفلسفة الصوفية بحذايرها ، التى اقتبسها المسلمون من النظرية التطبيقية عند اليونان ، ومعتقداتهم ، ووحدة المذاهب والديانات ، وكما يقول كاتب هذا المقال فى دائرة المعارف الإسلامية - المتقدم ذكره :

« إنها فى الواقع نظرية النور عند الأفلاطونية الحديثة ، الذى يعتقد فيه أنه الحقيقة

(١) راجع للتفصيل موسوعة الديانات والأخلاق .

ENCYCLOPPAEDIA OF RELIGION AND ETHICS) بعنوان

NEO PLATONISM

الأساسية لجميع الأشياء (١) - :

ويقول السهروردي : « إنه كان جامعاً بين الفلسفة الذوقية (الإشراقية) والفلسفة البحثية (المشائية) ، وأهم كتبه « حكمة الإشراق » الذي شرحه العلامة قطب الدين الشيرازي ، وعرف في الأوساط العلمية الدارسية « بشرح حكمة الإشراق » .

ويرى شيخ الإشراق أن عدد العقول ليس محصوراً في العشرة ، بل إن لكل نوع من أنواع الموجودات ، عقلاً خاصاً به ، يحفظه ويكلؤه ، ويسمى شيخ الإشراق بـ « الأنوار المجردة » ، ويرى أن السماء مخلوق حتى تحمل النفس المجردة التي تحركها وأنها مصنوعة من الفساد والعدم ، وأن في السماء نفساً ناطقة ، ولذلك فإنها تملك الحواس أيضاً ويرى أن جميع السماوات مخلوق حتى واحد ، تؤثر عليه الأنوار العالية يعنى عالم المجردات عن طريق الكواكب والنجوم ، وبها تتحرك القوى والأجسام ، وأن أكبر الكواكب هو الشمس ، يجب في مذهب الإشراقين تعظيمها واحترامها ، وأن النور هو صاحب الأمر والنهي - مباشرة ، وبوسائط - في عالم الأكوان ، ومن النور تولد الحركة والحرارة ، وهما عنصران أكثر توفراً في النار ، فكما أن النفس تنور عالم الأرواح ، كذلك النار تنور عالم الأجسام ، وقد نصب الله في كل عالم من هذه العوالم خليفة من خلفائه ، فالعقل الأول في عالم العقول ، والكواكب والنجوم في عالم الأفلاك ، ونفوسها الناطقة ، والنفوس البشرية في علم العناصر ، وأشعة النجوم والنار لا سيما في ظلمة الليل ، كل هؤلاء من خلفائه أي أنهم يدبرون شؤونها ويصلحون أمورها ، وأن الخلافة الكبرى تحصل لنفوس الأنبياء الكاملة ، والخلافة الصغرى تتعلق بالنار ، لأنها تقوم مقام أشعة النجوم والأنوار العلوية في الليالي المظلمة ، وتنضج المواد الغذائية ، والمواد الخام ، والعالم - عند شيخ الإشراق - قديم ، والزمان أزلي أبدي ، ولا يقول بتناسخ الأرواح ، ولا ينكره « إذ أن أدلة الفريقين في هذه القضية غير مقنعة » (٢) .

وهكذا لم تستطع الإشراقية ، وصفاء النفس أن يمنع الحكيم الإشراقي النابغة - في عصره - الذي حاز في الشرق لقب « شيخ الإشراق » ، واعترف معاصروه الإيرانية ، والمفروضات والتحكمات اليونانية ، وظل محروماً من المعرفة الصحيحة ونعمة البعثة

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) استفيد في هذا الفصل من كتاب « حكماء الاسلام » تأليف المرحوم الأستاذ عبد السلام الندوي ، ج ٢ ، طبع در المصنفين بأعظم كره .



المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - والهداية المترتبة عليها . والنجاح فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، وعاش حياة متناقضة مضطربة ، مليئة بالفوضى والخيبة والخسران ، وفارق هذه الدنيا ، ولم يخلف من نظامه الفكرى الفلسفى ما ينفع الخلق ويهدى الناس .

### العقل والكشف راكباً سفينة واحدة :

لقد أثر كنت ( Kant ) شكوكاً كثيرة فى تجرد العقل وتخلصه وقرر أن صفاءه ، وعدم اختلاطه ، وتحرره من التأثيرات الخارجية والداخلية شبه مستحيل ، ولكنه رجل فلسفة لا شأن له بالكشوف والعلم الباطنى ، فلم يستطع أن يتقدم خطوة أخرى ، ولكن الإمام السرهندى الذى كان من الغواصين فى هذا البحر الخضم ، تقدم خطوة أخرى . وتناول موضوع « الكشف الخالص » و « الإلهام الخالص » ، وأنها صعبا المنال ، يندر أن يحصل عليهما ، وبشرح وتفصيل ، وقرر أن الإشراق ، و صفاء النفس ليسا كفيلين بالوصول إلى الحقائق . والعلوم التى لا يخالجها شك وريبة ، والتى لا يقف عليها العامة والخاصة ، إلاً عن طريق الأنبياء ورسالتهم ، كما أنه لا يمكن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، ولا الحصول على النجاة من النار ، ولا التزكية الحقيقية ، إلاً بالإيمان ببعثهم ، واتباع رسالتهم اقرأ - فيا يلى - بعض رسائله فى هذا الصدد :

« اختار هؤلاء السفهاء ( الفلاسفة ) طريق الرياضات والمجاهدات اتباعاً للصوفية الربانيين - الذين كانوا فى كل عصر يتبعون الأنبياء والمرسلين - ونبدأ لطريق الأنبياء - عليهم الصلوات والسلام - وانخذعوا بصفاء أوقاتهم ، واعتمدوا على تصوراتهم ورؤاهم ، واثموا بكشوفهم ومشاهداتهم ، فضلوا وأضلوا ، إنهم يجهلون أن ما يعملونه هو «تصفية النفس» التى تضلهم وتغويهم ، وليس صفاء القلب الذى هو المنفذ إلى الهدى والنور ، فإن صفاء القلب ، بشرط أن يربى النفس ويصلحها ، فإن تصفية النفس مع ظلمة القلب - الذى هو مظهر أنوار الله - تعالى - وتجلياته ، مثل السراج الذى أشعل ليقوم العدو المستتر إبليس اللعين ( فى ضوءه ) ويهدم البيت من أساسه ، ويحوله نهياً خراباً .

وحاصل هذا التحقيق أن طريقة المجاهدات والرياضات فى صبغتها الاستدلالية النظرية لا تورث اليقين ، والطمأنينة ، ما لم يرافقها الإيمان بالأنبياء والمرسلين - عليهم الصلوات والتسليم - الذين يبلغون عن الله - سبحانه - وينزل عليهم نصره وتأييده ، وأن نظام هؤلاء - نزول الملائكة ، والمعصومين عن الغلط والإثم ، عليهم - فى مأمن من مكر العدو اللعين ، ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ ، وليس ذلك لغيرهم ، ولا يتوقع الإفراج عنهم من سجن هذا الشقى اللعين ، إلاً من اتبع هداهم ، واقتفى آثارهم ، ولقد صدق الشيخ

سعدى الشيرازى ، إذ قال ، ما معناه :

« محال يا سعدى ! أن تسلك طريق الصلاح والصفاء إلا باتباع شريعة المصطفى - ﷺ - » .

فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وعلى إخوته من الأنبياء والمرسلين (١) .

### الخلط فى الكشف :

« ينبغى أن نعلم أن الخطأ فى الكشف لا ينشأ - دائماً - بإلهام الشيطان ووسوسته ، بل كثيراً ما ترسب أحكام وحوادث ، لا نصيب لها من الصحة والواقعية ، فى المتخيلة حيث لا دخل للشيطان ، ثم تتمثل هذه الأخييلة والتصورات فى الخارج ، ومن هذا ما يقع لبعض الناس فى المنام من رؤية الرسول ﷺ - وتلقى أحكام عنه - تخالف أحكام الشريعة الثابتة بالنصر ، وتعارض الأحاديث وتتصور غير الواقع واقعاً » (٢) .

ويقول فى رسالة أخرى :

« إن النفس - مهما أصبحت بالتركية والتصفية نفساً مطمئنة - لا تستطيع أن تتجرد - بتأناً - من صفاتها وخصائصها ، ولذلك يحتمل أن يتسرب الخطأ إليها وتقع فى الغلط » (٣) .

### التعارض بين تعاليم الفلاسفة ، وهدى الأنبياء :

ويقول الإمام - بعد ذلك - مشيراً إلى التعارض الصريح الواقع بين تعاليم الفلاسفة وتعاليم الأنبياء الذى لم يزل قائماً عبر القرون ، ولا يمكن التطبيق بينها ، وأن تعاليم الفلاسفة وبحوثهم العقلية ، وتحليقهم فى أجواء التأملات الفلسفية لا يعنى إلا ما قيل : « تمخض الجبل فولد فأرة » .

كأن عقل الفلاسفة القاصر المحدود ، على الضد - تماماً - من النبوة ، وعلى طرف النقيض منها ، فبحوثهم وتحقيقاتهم فى بدء الكون ونهايته ، وفى الدار الآخرة تعارض تعاليم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - معارضة كاملة ، فلم يصححوا إيمانهم بالله ، ولا إيمانهم بالآخرة ، ويقولون بقدوم العالم ، رغم أن جميع الديانات ، وأهل جميع الملل والنحل مجموعة على حدوث للعالم بجميع أجزائه ، ولا يؤمنون بإنفطار السماوات وانتشار الكواكب ، ونسف الجبال ، وتفجير البحار ، كما جاء الوعد ذلك ليوم القيامة ، ولا

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ؛ كتبها الى الشيخ خواجه ابراهيم قباديانى .

(٢) الرسالة رقم : ١٠٧ ، وهى موجهة الى الشيخ محمد صادق الكشميرى .

(٣) الرسالة رقم : ٤١ ، وهى موجهة الى الشيخ درويش .

يؤمنون - كذلك - ببعث الأجساد وإحيائها من جديد ويكفرون بتصريحات القرآن الحكيم ونصوصه ، والمتأخرون منهم الذين يعدون أنفسهم من جماعة المسلمين ، متشبثون - مثلهم - بأصولهم الفلسفية ، ويقولون بقدوم الأفلاك ، والكواكب وغيرها من الأشياء ، ويدعون أنها لا تفتنى ، ولا يلحقها الهلاك ، إما رزقهم تكذيب التصريحات القرآنية وغداؤهم إنكار ضروريات الدين . عجباً من هؤلاء المؤمنين ، الذين يؤمنون بالله ورسوله ، ولا يؤمنون بما صرح به الله ورسوله - فهل هناك سفه أكبر من هذا السفه والله در القائل :

« إذا كان معظم الفلسفة جهلاً وسفاهة ، فكل الفلسفة جهل وسفاهة ، لأن للأكثر حكم الكل » .

إن هذه الجماعة صرفت جُلَّ عمرها وعنايتها لتحصيل آلة ( المنطق ) التي تعصم من الخطأ الفكري ، والزلل العقلي ، وتجشموا في سبيل هذا العلم المشاق وتكبدوا جهد البحث والتنقيب ، فلما وصلوا إلى البحث عن ذات الله - تعالى - وصفاته الذي هو أخطر مبحث وأعظمه - خارت قواهم ، وطرحوا هذه الآلة ، التي كانت لتعصمهم من الخطأ في الفكر ، وبدأوا يتعثرون ويسفستون ، ويضلون ويتيهون في مهامه الجهل والضلال كمثل من يعد آلات الحرب وعدته - على مدى أعوام وسنين - فإذا جدّ ، وكشرت الحرب عن أنيابها ، سرى الوهن إلى أعضائه وخارت قواه ، وسقط في يديه .

يظن الناس أن الفلسفة مبنية على أصول حكيمة ، وتنظيم دقيق ، ويعتقدون أنها بمنجاة عن الخطأ والغلط ، فإذا سلّم ، وجّه هذا الحكم إلى تلك العلوم التي يجدى فيها العقل ويفنى غناه ، ليس ذلك من موضوعنا الآن ، ولا يعنينا - أصلاً - ولا علاقة - لهذه العلوم بالآخرة - التي هي خالدة دائمة - كما لا علاقة لها بالسعادة الأبدية وحديثاً في تلك العلوم التي يعجز العقل عن تحصيلها وإدراكها ، وهي مرتبطة بطريق النبوة ، وترتبط بها السعادة الأخروية والنجاة الأبدية » .

ثم يقول :

« ولا يجديهم علم المنطق - هو كآلة للعلوم العالية - والذي قال عنه الناس ، إنه يجتنب عن الخطأ - ولا يغنيهم من جوع ولا يخرجهم من ورطة الأخطاء والغلطات في هذا المبحث العظيم ، فإذا لم يأخذ هذا العلم بيدهم ، ولم يسعفهم أنفسهم ، فكيف يسعف غيرهم ، ويخرجهم من الخطأ والغلط » ؟ .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

وإن بعض الناس الذين لهم إمام بعلوم الفلسفة ، وواقعون في خداعه وتزويره

الفلسفى، يعتقدون أن الفلاسفة يضاھون الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بل يكادون يفضلون علومهم المزورة المكذوبة - بتصديقها والإيمان بها - على شرائع الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - أعاذنا الله من عقيدة السوء ، نعم ! فإنهم إذ يعتقدون أنهم حكماء ويسمون علومهم بالحكمة يقعون فريسة مشاكل وتعقيدات ، لأن الحكمة عبارة عن العلم بشىء كما هو فى الواقع ، فالعلوم التى تخالف علوم الحكمة هذه (كشرائع الأنبياء ) فإنها - فى ظن هولاء الحكماء - تخالف الواقع والحقيقة .

وخلاصة القول أن القول بتصديق هؤلاء ، تصديق علومهم ، تكذيب للأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - وتكذيب لعلومهم ، لأن هذين العلمين - علم الحكماء وعلم الأنبياء - على طرفى نقيض ، يستلزم تصديق أحدهما تكذيب الآخر فمن شاء فليتبع دين الأنبياء ويكن من حزب الله ، وأصحاب السعادة والنجاة ومن شاء فليكن فيلسوفاً ، ويدخل فى حزب الشيطان ، ويحق له الإخفاق والخسران ، يقول الله - تعالى : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا ، أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ ، وسلام الله - عز وجل - على من اتبع الهدى واقتفى الرسول المصطفى - ﷺ وعلى إخوته الأنبياء الكرام والملائكة العظام أتم الصلوات وأكمل التسليمات « (١) .

### لا تمكن التزكية الحقيقية بغير البعثة النبوية :

« إنا نقول إن التزكية والتصفية مرتبطتان بالأعمال الحسنة الصالحة التى يرضاها الله - تعالى شأنه - ويتقبلها ، ولا يعلم ذلك إلا عن طريق البعثة ، فلا صشاء ولا تزكية بغير البعثة » (٢) .

### الحاجة إلى بعثة الأنبياء ، وعدم كفاية العقل :

يتحدث الإمام السرهندى عن الحاجة إلى بعثة الأنبياء والرسول ، والضرورة إليها للهداية ، وعدم كفاية العقل وحده لذلك - مهما كان يملك من سمو الفكر وبعد الغور - فيقول فى رسالة من رسائله :

« إن بعثة الأنبياء والرسول - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - رحمة لأهل الأرض قاطبة ، فلولا وجود هؤلاء ووساطتهم ، لما وجد من يهدينا إلى معرفة ذات الله - وهو

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة وهى موجهة الى الشيخ خواجه ابراهيم قيادانى .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى ، كتبها الى الشيخ خواجه عبد الله الشيخ خواجه عبيد

الله .

واجب الوجود - وصفاته ، ويميز بين مأموراته ومنهياته .

إن عقولنا المحدودة القاصرة من غير استعانة بضوء هؤلاء الأنبياء والرسل عاجزة عن الوصول إلى هذا المطلب العظيم ، وإن مداركنا الناقصة ، من غير تقليدهم واتباعهم كليله خائرة .

نعم ! العقل حجة ، ولكن حجيته غير كاملة ، لا تبلغ درجة التأثير والتكميل ، وإن الحجة البالغة هي بعثة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلوات والتسليم - التي يرتبط بها العذاب والثواب الخالدان والدائمون<sup>(١)</sup> .

### البعثة هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله وصفاته وأحكامه :

« إن البعثة رحمة ، إذ أنها سبب لمعرفة ذات الله - تعالى - وصفاته التي تتضمن جميع السعادات الدنيوية والأخروية ، وإن بنعمة هذه البعثة ، ويحصل العلم والتميز بين ما يليق بجلال الله وعظمته ، وما لا يليق ، لأن عقولنا العاجزة . المظلمة - التي وُصِمَ جبينها بوصمة الإمكان والحدوث - أنى لها أن تدرك ما يليق من الأسماء ، والأفعال ، والصفات ، بذات الله - تعالى - الذي هو قديم لم يزل ولا يزال - فتنسب إليه ، ما لا يليق من ذلك ، فيجتنب منه بل طالما يظن عقلنا القاصر النقص كما لا والكمال نقصاً ، وأن التمييز الصحيح - الذي تنشئه النبوة وتربيته - هو نعمة أعظم وأجل - عند هذا العبد الضعيف - من نعمة ظاهرة أو باطنة ، وإن من أشقى الناس من ينسب إلى الله - عز وجل - حالا يليق بعظمته وجلاله ، وما يستكره في حقه ، والبعثة هي التي فرقت بين الحق والباطل ، وميزت بين من يستحق العبادة ومن لا يستحق ، وبوساطة هذه البعثة ، يدعو هؤلاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إلى الله - عز وجل - ويشرفون عباد الله - سبحانه - بالتقرب إليه ، والاتصال به ، وبهذه البعثة تعلم مرضيات الله وأوامره ، كما تقدم ذلك ، ويميز بين ما يجوز فيه التصرف من ملكوته ، وما لا يجوز التصرف فيه ، وللبعثة كثير ، من مثل هذه الفوائد والمصالح فثبت أن البعثة رحمة ، فمن يكفر بالبعثة اتباعاً للنفس الأمارة بالسوء ، وخضوعاً للشيطان الرجيم ، ولا يعمل حسب مقتضياتها ، فماذا في ذلك من ذنب للبعثة ، ولماذا لا تكون البعثة رحمة »<sup>(٢)</sup> ؟

### لا طريق إلى معرفة الله - تعالى - إلا الأنبياء :

« بسبب ما عرف به الأنبياء والمرسلون من الدعوة إلى الله - خالق السماوات والأرض ،

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس الرسالة السابقة .

عز وجل - لاستمرار بعثتهم تواتر رسالتهم ، وتسلسل ظهورهم ، بسبب انتشار دعوتهم فاذ كلمتهم ، رجع سفهاء كل عصر ومصر - الذين كانوا فى شك مريب من وجود صانع الكون - إلى الاعتقاد بوجوده - عن غير إرادة منهم وقصد - فنسبوا الأشياء كلها ، والمخلوقات بأسرها إلى الله - عز وجل - فهذا النور - الذى استناروا به - قبس من أنوار الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - وفتات مائدتهم ، فصلوات الله - تعالى - سلامه عليهم دائماً أبداً إلى يوم القيامة .

كذلك جميع الأمور المنقولة التى لم نعلم خبرها ، تنتهى إلى تبليغ الأنبياء والرسول - عليهم الصلوات والتسليمات - كصفات الله الكاملة ، بعثة الأنبياء ، وعصمة الملائكة - عليهم الصلوات والتسليمات والبركات - البعث ، والحشر ، والنشور ، الجنة ، والنار ، ونعيم الجنة المقيم ، وعذاب النار الأليم ، وأمور أخرى تخبرنا بها ، الشريعة المطهرة ، ويعجز العقل عن إدراكها ، و يقصر دون إثباتها بغير سماعها من الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - وروايتها عنهم « (١) .

### الوضع الصحيح فى الترتيب والتدرج :

« ينبغى - قبل كل شىء - الإيمان بالرسول - ﷺ وتصديق رسالته ، حتى يصدق الإنسان فى كل أوامره وأحكامه ، وينجو بذلك من ظلمات الريب والشكوك ، يجب العلم بالأصل وتعقله وفهمه أولاً ، حتى يتيسر علم الفروع والجزئيات - بكل سهولة - وتفهمها وإدراكه ، وأن إدراك كل فرع من الفروع على حدة من غير إثبات الأصل وإدراكه ، أمر متعسر .

وأقرب طريق إلى هذا التصديق الكامل وطمأنينة القلب ، هو ذكر الله ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ (٢) ، ويستبعد الوصول إلى هذا الهدف الأعلى عن طريق النظر والتأمل والاستدلال ، يقول الشاعر ما معناه :

« إن أرجل أصحاب الاستدلال - أى الفلاسفة والمنطقيين - أرجل خشبية ، والأرجل الخشبية جدّ واهية ضعيفة » (٣) .

### المصدق برسالة الأنبياء من أصحاب الاستدلال :

« أعلم أن من يقلد الأنبياء الكرام - عليهم الصلوات والتسليمات - يقتفى

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، كتبها الى الشيخ خواجه ابراهيم قباديانى .

(٢) سورة الرعد ك ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) الرسالة رقم : ٣٦ ، المجموعة الثالثة ، وهى موجهة الى الشيخ مير محمد نعمان .

آثارهم ، بعد الإيمان بثبوت نبوتهم ، وتصديق رسالتهم ، يعدّ من أصحاب الاستدلال ، فإن تصديقه بأحكامهم - من غير دليل - بعد الإيمان بنبوتهم عن دليل - عين الدليل ، وعى سبيل المثال . إذا كان شخص قد أثبت بعض الأصول بالدليل والبرهان ، فكل ما ينتج عنها من فروع ، تكون - بالطبع - بالدليل والبرهان ، ويكن هذا الشخص - عند ذلك ، من أصحاب الاستدلال فى إثبات هذه الفروع كلها ، ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ ، «والسلام على من اتبع الهدى»<sup>(١)</sup> .

### إخضاع أخبار الأنبياء للعقول إنكار للنبوة :

« إن الصراط والميزان ، والحساب حق ، لأن المخبر الصادق - عليه الصلاة والسلام - أخبر بها ، وإن استبعاد بعض الجهلة الذين لا يعرفون طريق النبوة ، لهذه الحقائق الثابتة . ساقط مرذول ، لأن طريق النبوة وراء طريق العقل ، وأن إخضاع أخبار الأنبياء الصديقة للطريقة العقلية للبحث والتأمل ، والتحقيق ، والتوفيق بينهما ، إنكار - فى الحقيقة - للنبوة ، فالاعتماد فى هذه القضايا التى هى وراء طور العقل ، على الاتباع الكامل ، والإيمان الصادق بالأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - من غير طلب الدليل والبرهان »<sup>(٢)</sup> .

### فرق كبير بين ما يعارض العقل وما يكن وراء طوره :

« لا يظن ظان أن طريق النبوة يعارض طريق العقل ، لا ! بل إن طريق العقل - وهو النظر والاستدلال - لا يؤدى ، بدون تقليد الأنبياء واتباعهم ، إلى هذا المقصد الرفيع ، المعارضة شىء ، العجز والقصور شىء آخر ، لأن المعارضة لا تتصور إلا بعد القدرة والتمكن »<sup>(٣)</sup> .

معرفة طريق تعظيم الله - تعالى - وتقديسه محصورة فى النبوة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم :

فلا مناص من وجود الأنبياء ، حتى يبصرونا بطريق الشكر للمنعم الحقيقى والثناء عليه - الذى ثبت وجوده بالعقل لزوماً وضرورة - وبيّنوا لنا طريق التعظيم والتكبير - علمياً وعملياً - لوأهب هذه النعم ، لأن التعظيم الذى ليس مصدر علمه هو نفسه ، تعالى شأنه

(١) نفس الرسالة السابقة .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ - المجموعة الأولى .

(٣) نفس الرسالة السابقة .

- لا يجدر بجلاله ، ولا يليق بكماله ، لأن القوة البشرية قاصرة عن إدراكه ، بل كثيراً ما يعتقد الإنسان تعظيماً وتسبيحاً ما ليس بتعظيم ولا تسبيح ، ويتحول من الحمد والشكر إلى الذم والعيب ، ولا يعلم طريق تعظيمه وتكبيره ، الا بالنبوة وتعاليم الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - وأخبارهم ، وما يتلقى أولياء الله - تعالى - من الإلهامات لا تعدو قبساً من قبسات الأنوار النبوية ، وفيضاً من فيوض اتباعهم ، والاقتداء بهم وبركة من بركاتهم « (١) .

### مكانة النبوة وراء العقل كما أن مكانة العقل وراء درجة الحواس :

« وكما أن مكانة العقل ومنزلته الحواس ، حيث لا تدرك الحواس ما يدركه العقل ، كذلك مكانة النبوة ومنزلتها وراء طور العقل ودرجته ، فما لا يدركه العقل ، يدرك عن طريق النبوة ، فمن لا يعترف بطريقة لتحصيل العلم غير طريقة العقل ؛ فإنه - في الواقع - منكر لطريقة النبوة ، معارض للهداية والنور « (٢) .

### مكانة النبوة :

لقد نشأ في الفلاسفة وبعض الإشراقيين المسلمين جهل بمكانة النبوة ، واستهانة بقيمتها - لاشتغالهم ليل نهار بعلوم اليونان ، وحكمتها ، وفلسفتها ، التي ازدهرت وأثمرت عبر القرون والأجيال بمعزل عن دعوة الأنبياء وهداها - ولاعتقادهم بأنها غاية العلم وسدرة المنتهى ، وانصرافهم عن دراسة الحديث النبوي والسيرة النبوية ، واهتمام بهما ، وبعدم هتدائهم بهدى الكتب والسنة وتأمل في نصوصهما - وانقطاعهم - إلى الرياضات البدنية والمجاهدات النفسية ، والاعتكاف لمدد خاصة ، ومواقيت معينة في القرون الأخيرة - ورافق هذا الجهل بمكانة النبوة نوع من التنفر والاستغراب ، والاستبعاد .

وقد قوى هذا الاتجاه أن هؤلاء الحكام والإشراقيين يقرأون في سير الأنبياء وأخبارهم ، وفي سيرة سيد المرسلين - ﷺ - أجمعين - أنهم كانوا يعيشون كما يعيش الناس ، يتزوجون ، ويتناسلون ويعولون أهلهم وأولادهم ، ويمشون في الأسواق ، ويبيعون ويشترون ، ويرعون المواشى ، ويشاركون في الحروب ، ويتأثرون بالأحداث ، ويسرون بما يسر به الناس ، ويحزنون لما يحزنون له ، ليست عندهم هذه العبادات المجهدة المضنية ، فلا صوم الوصال ، ولا هذا الاعتكاف ، والاعتزال الذي يسمى بـ « الأربيعية » وغيرها مما

(١) الرسالة قم : ٢٣ ، المجموعة الثالثة ، وهي موجهة الى الشيخ خواجه ابراهيم قبادياني .

(٢) نفس الرسالة السابقة .



نشدها عند أوساط الصوفية ، والأولياء ، والزهاد ، ثم أنهم كانوا لتبليغ رسالتهم ، وأداء دعوتهم مختلطين بالناس معينين بشئونهم - إذ لا تتأدى هذه المسئولية ، إلا بالاتصال بهم ، والعناية بحالهم ، ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ ، فالتفات إلى شيء يصرف عن الالتفات إلى شيء آخر ، ولم تكن لهذه الجماعات والأوساط المنصرفة إلى الفلسفة والرياضات ، أى عناية بالعلوم الدينية ، لا سيما علم الحديث الشريف ، وكانت تردد صباحاً مساءً وقائع الكشوف والكرامات ، وتتحدث فى معارج الأولياء المتقدمين والإشراقين المتأخرين ، وكمالاتهم الباطلة ، وتجريدهم وتفريدهم ، وفنائهم ، وسكرهم وغير ذلك .

« لهذه الأسباب سولت للفلاسفة والإشراقين أنفسهم أن مقام الولاية فوق مقام النبوة ، وأن الولاية عبارة عن كمال الانصراف إلى الله ، والانقطاع عن الخلق ، وأن مهمة النبوة هى التبليغ والدعوة ، التى تتعلق بالخلق فالولى «متوجه إلى الحق» والنبى «متوجه إلى الخلق» ، والتوجه إلى الحق - طبعاً - أفضل وأعلى شأنًا من التوجه إلى الخلق ، وتورع بعضهم قليلاً فقال : ليست الولاية فوق النبوة على سبيل الاطلاق ، ومراد من قال ذلك : أن ولاية النبى - نفسه - أفضل من نبوته - وأن النبى عند اشتغاله بالحق أرفع شأنًا من حال اشتغاله بالخلق ، دعوتهم وتبليغ الرسالة إليهم .

وعلى كل فإن الأسلوب للتكفير يدل - حتمًا على أن كثيرًا من الأوساط الدينية أيضًا آنذاك كانت مصابة بدهشة عظيمة للولاية ، ومدارجها وكمالاتها ، التى كانت تترك آثارًا بعيدة المدى على ارتباط الأمة الإسلامية بمنبعها الأصيل : النبوة المحمدية والشريعة الإسلامية ، وكان ذلك خطرًا عظيمًا يحتم على المجددين ، وورثة الأنبياء والمرسلين أن يقاوموه ، ويردوه على أعقابه .

وإن أول من رفع صوته بهذا الصدد - فى حد علمنا - صارخًا مدويًا ، قويًا موثرًا ، مدعمًا بالأدلة ، والحجج الناهضة ، فى أسلوب يجذب النفوس ، ويأخذ بمجامع القلوب ، هو العالم الربانى المحقق ، والعارف البصير الشهير الإمام شرف الدين أحمد بن يحيى المنيرى ( ٦٦١ - ٧٨٦ هـ ) فى أواسط القرن الثامن الهجرى ، ورد على هذا الخطر - المشار إليه - ردودًا قوية مفحمة فى رسائله العلمية .

ونبع بعد الإمام المنيرى الإمام السرهندي ، الذى كان مجدد هذا العلم العظيم ، والطريق المستقيم ، وخاتمة المحققين ، فقد أثبت فى رسائله : أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - هم المثل الكامل - خلقًا عقليًا ، وروحياً ، وعقيدياً - لصنعة الله الخلاق العظيم ، وصفة جوده الكريم ، وأن صلتهم مع الله وتوجههم ، إليه ، لا يصرفه صارف

من شغل أو عمل ، وذلك نتيجة شرح صدورهم الذى يخصهم الله به من دون العالمين ، وأن من مقتضيات علو هماتهم وقوة صبرهم واحتمالهم ، وسعة صدورهم ، ومن مقتضيات دعوتهم ، ورسالتهم ومهمتهم - التى نيطت بهم - أن يكونوا فى « صحو دائم » ويقظة مستمرة ، وحضور بديهية ، وسرعة إدراك ، وهى تلك الخصائص التى لا يتمتع بها أهل الولاية ، والسكر والغياب ، وأنهم يبدأون من حيث ينتهى الأولياء ، ويحصل باتباعهم التقرب بالفرائض الذى لا يسمو إليه التقرب بالنوافل ، وأن مثل كمالات الولاية ومقاماتها إزاء كمالات النبوة ودرجاتها ، مثل القطرة فى البحر ، ولندع القراء الآن ليستمعوا من الإمام السرهندي حديث هذه الحقائق الرفيعة والعلوم العالية :

### الأنبياء أفضل موجود ، ومواهبهم أعظم موهوب :

« إن الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - أفضل من جميع الموجودات ووهبوا أفضل المواهب والثورات ، وأن الولاية جزء من النبوة ، والنبوة كل ، فالنبوة - لا محالة - أفضل من الولاية ، سواء كانت ولاية النبي ، أو ولاية الولي ، والصحو أفضل من السكر ، لأن السكر ينطوى فى الصحو ، كالولاية تنطوى فى النبوة ، أما ما يكون عند عامة الناس من يقظة وتعقل ، فليس من مبحثنا إذ لا اعتبار لتفضيل السكر على هذا الصحو العامي ، ولكن الصحو الذى يحتوى على السكر ، أفضل - حتمًا من السكر ، وأن علوم الشريعة لتي مصدرها ، ومنبعها النبوة ، كلها صحة فى صحو ، وكل ما يخالفها سكر فى سكر ، وصاحب السكر معذور ، والجديرة بالاتباع والتقليد هى علوم « الصحو » لا علوم « السكر»<sup>(١)</sup> .

### لا يحول توجه الأنبياء إلى الخلق دون توجههم إلى الحق ، لأنشراح صدورهم:

« قال بعض المشائخ فى حال الغيبوبة السكر : « إن الولاية أفضل من النبوة » وقال آخرون : « إن المراد بهذه الولاية ولاية النبي ، حتى لا يتوهم ، متوهم ، أن الولي أفضل من النبي » ، ولكن الواقع بالعكس ، لأن نبوة النبي أفضل من ولايته نفسه ، إذ لا يتيسر الالتفات التام إلى الخلق فى الولاية ، لضيق الصدر وحرجه ، أما فى النبوة فلسعة الصدر ، وانشراحه لا يحول الالتفات إلى الخلق ، دون الالتفات إلى الحق ، ولا الالتفات إلى الحق

(١) الرسالة رقم : ٩٥ ، المجموعة الأولى موجهة الى السيد أحمد بجواره .

دون الالتفات إلى الخلق ، ولا يكون الالتفات في النبوة إلى الخلق وحدهم ، حتى ترجح عليها الولاية التي تتوجه دائماً إلى الحق ، والعياذ بالله - سبحانه - الالتفات الكامل إلى الخلق منزلة العوام الذين هم كالأنعام ، مكانة النبوة جليلة عظيمة ، ولا يفتق هذه الحقيقة أهل السكر إلا قليلاً ، فإن هذه المعرفة حظ من حظوظ أصحاب الصحو والاستقامة - «هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم» (١) .

### باطن النبي مع الحق ، وظاهره مع الخلق :

« يفضل بعض أصحاب السكر علم الولاية - الذي يقبل على السكر - على علم النبوة - الذي صبغ بالصحو ، ومما صدر عنهم في حال السكر قولهم : «الولاية أفضل من النبوة» على أساس أن الولاية وجهها إلى الحق ، والنبوة وجهها إلى الخلق ، ولا شك في أن التوجه إلى الحق أفضل من التوجه إلى الخلق ، يؤول بعضهم قائلاً : «إن ولاية النبي أفضل من نبوته» .

ويرى هذا الفقير أن هذه الأقاويل تشدق وتقعر ، فليس في النبوة التفات إلى الخلق فحسب . بل يرافقه الالتفات إلى الحق كذلك ، وأن باطن المتبوأ مكانة النبوة مع الحق ، وظاهره مع الخلق ، ومن كان كل التفاته إلى الخلق فهو من لا يؤبه بهم ، ولا خلاق لهم» (٢) .

### الرد على من يقول : «بدايات الأولياء نهايات الأنبياء» :

«إن القول المحكى عن بعض الناس : إن بداية الأولياء هي نهاية الأنبياء ، قول مردول ، والمراد ببداية الأولياء ونهاية الأنبياء عندهم «الشريعة» نعم ، لم يكن يدري ذلك المسكين حقيقة الأمر فتفوه بما يخالف الظاهر الصريح ، ولم يتصد أحد لبيان هذه الحقائق ، بل صرح معظم الناس بعكسها من الأقوال والآراء ، ويستبعدون هذه الحقائق الواضحة ، ولكن المقسط العادل الذي ينظر إلى عظمة الأنبياء ، ومكانتهم الرفيعة ، وتسيطر على قلبه ومشاعره عظمة الشريعة ، وحرمة يتقبل هذه الأسرار الدقيقة ، ويجعلها وسيلة لزيادة الإيمان وترقيته» (١) .

(١) الرسالة رقم : ١٠٨ ، المجموعة الأولى كتبها إلى السيد أحمد بجواره .

(٢) الرسالة رقم : ٩٥ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة إلى السيد أحمد بجواره .

(١) الرسالة رقم : ٢٦٠ ، المجموعة الأولى كتبها إلى ابنه الشيخ محمد صادق .

## اقتصار دعوة الأنبياء على عالم الخلق وبحثهم عن القلب :

« استمع إلى يا بنى ! أن الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - قصروا دعوتهم على «عالم الخلق» وجاء فى الحديث الشريف : « بُنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان »<sup>(١)</sup> ، ودعوا إلى تصديق القلب أيضاً لأن للقلب صلة أكثر بعالم الخلق ، ولم يتعرضوا لما وراء القلب ، ولم يبحثوا ويخوضوا فيه ، ولم يعدوه من المقاصد والغايات ، تأمل فى نعيم الجنة ، وآلام النار ، ونعمة رؤية الرب - تعالى - ونقمة الحرمان منها ، كل ذلك متصل بعالم الخلق ، ولا علاقة له « بعالم الأمر »<sup>(٢)</sup> .

## فى اتباع النبوة تحقيق التقرب بالفرائض :

« كذلك أداء الفرض ، والواجب ، والسنة من الأعمال ، كلها متصلة بالقلب الذى هو من عالم الخلق ، ويتصل بالأعمال النافلة ما يتعلق بعالم الأمر ، التقرب الذى يحصل بسبب هذه الأعمال ، يكون على قدر هذه الأعمال ، فثبت من ذلك أن التقرب الذى هو نتيجة أداء الفرائض ، يرجع إلى عالم الخلق ، والتقرب الذى هو ثمرة أداء النوافل ، يرجع إلى عالم الأمر ، وما من شك فى أن النفل لا يعد شيئاً فى جنب الفرض ، وليست نسبة النفل إلى الفرض ، كنسبة القطرة إلى البحر ، بل النفل بالنسبة إلى السنة ، مثله كذلك مثل القطرة فى البحر ، وإن كانت النسبة بين السنة والفرض كذلك النسبة بين القطرة والبحر ، ومن هنا ينبغى أن يقاس تفاوت ما بين التقريين ، أن يدرك ما لعالم الخلق من رجحان وفضل على عالم الأمر »<sup>(٣)</sup> .

## مقامات الولاية لا شىء إزاء مقامات النبوة :

« لقد شرح الله - عز وجل - صدرى لمعرفة أن مقامات الولاية ودرجاتها ليست شىء إزاء مقامات النبوة ودرجاتها ، حتى أنها لا توجد بينهما تلك النسبة التى توجد بين القطرة واليم ، فما ينال عن طريق النبوة من خير وفضل ، امتياز يكون أضعاف ما ينال عن طريق الولاية ، فالأفضلية المطلقة للأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - والأفضلية الجزئية للملائكة ، ومن ثم فإن قول جمهور العلماء هو المصيب .

(١) حديث متفق عليه ، واللفظ لمسلم .

(٢) نفس الرسالة السابقة .

(٣) أيضاً .

وتجلى من هذا التحقيق أن أى ولى من الأولياء لا يستطيع أن يسمو الى مكانة الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - بل إن رأس ذلك الولى تحت قدم النبى - صلى الله عليه وآله وسلم « (١) .

### وجه إصابة علوم العلماء وتحقيقاتهم ، ورجحانها وأفضليتها :

« إذا تأملت فى المسائل التى اختلفت فيها أقوال الصوفية ، والعلماء تجد الحق مع العلماء ، والسر فى ذلك أن نظر العلماء - لاتباعهم الأنبياء - ينفذ إلى علوم النبوة وكمالها ، وأن نظر الصوفية ينحصر فى كمالات الولاية وعلومها ومعارفها ، فالعلم الذى يقتبس من مشكاة النبوة ، لا جرم أن يكون أصح وأحق ، وأصوب من العلم الذى يؤخذ من مراتب الولاية (٢) .

« وقد ذكر الفقير فى كتبه ورسائله ، وحققه تحقيقًا : أن معارج النبوة بمثابة البحر الخضم - وكمالات الولاية ازاءها كقطرة حقيرة ، ولكن عجبًا من جمعة قالت : لعدم وصولها إلى إدراك معارج النبوة « إن الولاية أفضل من النبوة » وأول لك فريق آخر . فقال : « إن ولاية النبى أفضل من نبوته » ، كلا الفريقين بجهلهما بحقيقة النبوة أصدروا حكمهم على الغائب ، ويقرب منه تفضيلهم السكر على الصحو ، فلو كانوا يدرون حقيقة الصحو لما رضوا للسكر بأن يعدل بالصحو ، « اين الثرى من الثريا » ولعلمهم قاسوا «صحو» الخاصة على صحو العامة ، ويقظتهم ، ففضلوا السكر عليه ، فكان عليهم أن يحكموا على سكر الخاصة بذلك ، قياسًا لسكر الخاصة على سكرة العامة ، لأن الحكماء متفقون على أن الصحو أفضل من السكر ، وهذا الحكم نافذ فى كلا الحالين ، سواء كان الصحو والسكر مجازيين أو حقيقيين» (٣) .

### عظمة الأنبياء ورفعتهم بنبوتهم :

« ينبغى أن يعلم - حتمًا - أن كل ما ناله الأنبياء من عظمة ، وعلو مكانة ، نالوه عن طريق النبوة ، لا عن طريق الولاية ، وليست الولاية بازاء النبوة إلا خادماً من خدمتها ، ولو كانت الولاية أفضل من النبوة لكان ملائكة الملائكة الأعلى - الذين ولايتهم أكمل الولايات وأجلها - أفضل من الرسل والأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - ولما كان فريق منهم

(١) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى وهى موجهة الى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله .

(٢) أيضاً .

(٣) أيضاً .

يعتقد أن الولاية أفضل من النبوة ، أداه ذلك إلى الاعتقاد ، بأن ولاية ملائكة الملائكة الأعلى أكمل من ولاية الأنبياء ، وفصل ملائكة الملائكة الأعلى - تبعاً لذلك - أفضل من الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - فشدّ عن جمهور أهل السنة .

وأن كل ذلك نتيجة الجهل بحقيقة النبوة ، ومكانتها العظيمة ، ولما أن الناس - لبعد عهدهم بالنبوة ، يحقرون فضائل النبوة ومدارجها إزاء مدارج الولاية وكمالها ، ويستهيئون بها ، رأيت أن أتحدث عن هذا الموضوع بشرح وإسهاب ، وذكرت ذرةً من الحقائق وواقع الحال « (١) .

﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

الإيمان بالغيب نعمة خصَّ بها الأنبياء

وصحابتهم والعلماء ، وعامة المؤمنين :

« بعد الحمد لله ، والصلاة على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ليعلم أخى وعزيزى محب الله أن الإيمان بواجب الوجود - تعالى شأنه - والإيمان بجميع صفاته بالغيب ، مما خص به الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - وصحابتهم - رضى الله عنهم - والأولياء والذين ينزلون نزولاً تاماً لدعوة الخلق إلى الخالق - جل ذكره - ونسبتهم إلى الأنبياء كنسبة الصحابة إليهم ، بيد أنهم أقل منهم شأنًا ودونهم مكاناً - كما خص له العلماء وعامة المؤمنين ، أما الإيمان بالشهود فنصيب الصوفية ، سواء كانوا من أصحاب العزلة (المنقطعين عن الخلق) أو أصحاب العشرة (المتصلين بالخلق) لأن أصحاب العشرة وإن كانوا ينزلون إلى الناس بعد الانقطاع إلى الحق ، ولكن لا يكون نزولهم كاملاً تاماً ، إذ أن باطنهم يبقى معلقاً بالعلو ، وهم بظواهرهم مع الخلق ، وبيواطنهم مع الحق ، ولذلك يرافقهم الإيمان بالشهود - دائماً - أما الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - فلما أنهم ينزلون نزولاً تاماً ، وأن باطنهم يبقى معلقاً بالعلو ، وهم بظواهرهم مع الخلق ، وبيواطنهم مع الحق ، ولذلك يرافقهم الإيمان بالشهود - دائماً - أما الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - فلما أنهم ينزلون نزولاً تاماً ، ويصرفون عنايتهم - ظاهراً وباطناً - بالدعوة إلى الحق - جل اسمه - فيكون الإيمان بالغيب نصيبهم ، ويخصون به دون الصوفية» (٢) .

(١) الرسالة رقم : ٣٦٨ ، المجموعة الأولى كتبها الى خانخانان .

(٢) الرسالة رقم : ٢٨٢ ، المجموعة الأولى وهى موجهة الى السيد محب الله المانكجورى .

## نزول الأنبياء دليل على بلوغهم نهاية النهايات :

« لقد أثبت هذا الفقيه إلى الله ، فى بعض رسائله أن التعلق بالعلو بعد النزول ، والحنين إليه ، دليل على النقص والقصور ، وعلامة على عدم الوصول إلى الغاية المبتغاة ، وأن النزول التام الكامل دليل على بلوغ نهاية النهايات وغاية الغايات ، وقد ظن الصوفية الجمع بينهما ( أى التوجه إلى الحق ، والتوجه إلى الخلق ) كمالاً ، وعدوا الموفقين بين التشبيه والتنزيه ، والجامعين بينهما من الكاملين فأين نحن من هؤلاء ! » (١) .

## حماية الشريعة الإسلامية والدفاع عنها

### وإصلاح العقائد . ودحض الشرك ، وتقاليد الجاهلية :

إن منهج العلاقة مع الله - تعالى - وتقوية الصلة به ، وتقويمها والصيانة عن الغفلة والمادية ، ومعالجة الأدواء النفسية ، والأمراض الروحية ، الذى سُمى - على مر الأيام - لعوامل وأسباب عديدة - بالتصوف ، هو الذى يدعى فى المصطلح القرآنى بـ « التزكية » وفى التعبير الحديث ، بـ « الإحسان » ، وقد اعتبرت هذه الشعبة من شعب الدين من مقاصد البعثة المحمدية الأربعة التى صرح بها القرآن الحكيم :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوه عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (٢) .

وقد كانت هذه المهمة العظيمة لإقامة الدين قلباً وقلباً ، وجسماً وروحاً ، وقانوناً وعاطفةً ، منوطة بخاتم النبيين - عليه الصلاة والسلام - ثم بخلفائه الراشدين ، والوارثين لميراثهم بحق وجدارة ، وقد قام هؤلاء بتجديد هذا « الطب النبوى » والحفاظ عليه ، ونقله إلى الأجيال تلو الأجيال ، مثل حفاظهم على الشريعة الغراء ، واستمروا يبذلون الجهود فى نشر « فقه الباطن » والدعوة إليه ، مع نشر فقه الظاهر « وأدائه وتبليغه ، وقد كان عملهم هذا بإجمال أكثر منه ، بالتفصيل ، على أساس الاهتمام بالأصول أكثر من الفروع ، ولكن لما توسعت الرقعة الإسلامية ، وانداحت دائرة الفتوح والانتصارات ، ودخلت بلاد جديدة فى الإسلام ، وانتشرت الدعوة الإسلامية فى الآفاق ، وانهاالت الأموال والثورات ، وتيسرت سبل العيش ، وتوفرت وسائل الترف والبذخ ، وبعد عهدهم بالنبوة ، وصدق

(١) أيضاً .

(٢) سورة الجمعة : ٢ .

عليهم قول ربك :

﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ ومدت حبال الشيطان ، ونجمت فتن المادية ، والأمراض الروحية ، والأدواء النفسية فى صور وألوان ، وفى ثياب النظريات الجديدة ، والفلسفات الوليدة ، قام العلماء بتدوين علم التزكية والإحسان باصطلاح حادث جديد ، ألا وهو « التصوف » كما أن اختلاط الشعوب العجمية حول قواعد اللغة (النحو والصرف) وفن المعانى والبيان - الذى كان أهل اللسان يعرفون أصوله ومبادئه بسليقتهم وفطرتهم - إلى علم واسع دقيق ، وهو ما يسمى بعلم النحو والبلاغة ، وظهر فيهما نوابغ العلماء البارعين الذين انشأوا « مدارس » مستقلة ، و « جامعات » شهيرة ، ووضعت لها المناهج الدراسية ، وقصدها هواة العلم والطلاب من كل حدب وصوب .

لقد كانت عمدة الطريقة لمعالجة الأمراض الروحية ( أى التصوف والتزكية ) على تتبع الكتاب والسنة ، وسيرة الرسول - ﷺ - وأخلاقه وعاداته وشمائله ، ثم بدأت تغزو التصوف - نتيجة عوامل الزمن ، والاختلاط بالشعوب العجمية ، والتي دخلت حديثاً فى الإسلام ، وصحبة النَّسَّاك والزهاد ، وإجلالهم والعقيدة فيهم - البدع والخرافات ، والمغالاة فى التمسك والزهد ، تسربت إليه جرائم الرهينة ، والتجرد ، والاعتزال ، والتعظيم المفرط المتطرف لأشخاص ورجال يعتقد فيهم الصلاح والولاية وكثير من العادات والتقاليد المختلفة المفتراة ، حتى دبت على مرّ الأيام إلى بعض الأوساط الروحية عقيدة أجنبية دخيلة على الإسلام ، وهى أن المسالك بعد الاستغراق فى العبادات بإخلاص ودقة ، واستيعاب ، والتزام الفرائض ، والسنن لمدة خاصة ، وبعد حصول المعرفة الكاملة يرتقى إلى مقام يرفع عنه فيه التكليف ، وتسقط عنه ذمته الفرائض الشرعية ، والعبادات المكتوبات ، ويستثنى من التزام كل ذلك والتقيّد به « ، وهذا ما يسمى بـ «سقوط التكليف» ، وستدل أصحاب هذه العقيدة بقوله - تعالى - : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ <sup>(١)</sup> إنها كانت فتنة عمياء ، صماء تجمد نظام الشريعة بأسره ، وتحجر السالك من كل القيود والحدود ، وتطلق رقبته من نير العبادات والقربات .

ويبدو أن هذه المحدثات والتحريفات فى الإسلام بدأت من أوائل القرن الرابع حين كانت الخلافة العباسية فى أوج زهرتها ، وعنفوان شبابها ، وكانت المدينة الإسلامية العظيمة ( بغداد ) فى ذروة الرقى والمدينة ، فإن أقدم ما ألف فى التصوف ، مما طبع ونشر

(١) سورة الحجر - ٩٩ ، والمراد باليقين هنا باتفاق المفسرين الموت .



تأليف الشيخ أبي النصر السراج ( م ٣٧٨ هـ ) « كتاب اللمع » وفيه فصل بعنوان « كتاب الأسوة والافتداء برسول الله - صلى الله عليه واله وسلم - »<sup>(١)</sup> ولعله لأجل ذلك وردت بعده فى كتاب « كشف المحجوب » للسيد على الهجويرى ( م ٤٦٥ هـ ) ، مثل هذه العبارات المنذرة المذكورة ، « إن إقامة الحقيقة من غير الحفاظ على الشريعة محال ، والحقيقة بغير الشريعة نفاق » .

وأقدم كتاب يضم منهجاً كاملاً للتصوف هو « الرسالة القشيرية » تأليف الإمام أبى القاسم القشيرى ( م ٤٦٥ هـ )<sup>(٢)</sup> ، وقد بلغ التصوف فى عصره من التردى والانحطاط حتى قال القشيرى فى كتابه :

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة . . . استخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة »<sup>(٣)</sup> .

والباب الأول فى كتابه يتعلق بتعظيم حرمة الشريعة ، وقد ذكر فيه نبذة من أحوال المشايخ والصوفية ، وأخبارهم فى تعظيم حرمة الشريعة ، واتباع السنة النبوية ، ويقول فى الباب الأخير - رقم ٥٤ - بعنوان « وصية المريدين » :

« بناء هذا الأمر وملاكه على حفظ آداب الشريعة » ، والكتاب كله يحتوى على الحقائق الشرعية والعلوم الصحيحة النافعة ، وقد اهتم به الصوفية المحققون ككتاب دراسى يوثق به ويعتمد عليه .

والإمام عبد القادر الجيلانى البغدادى أجلُّ مشايخ الطريقة ، وأئمة الحقيقة شأنًا وأشدهم حمسًا للشريعة ، وحماية لها والدعوة إليها ، فقد كان أكبر تركيز فى تعاليمه وإرشاداته على التمسك بالسنة واتباع الشريعة ، وكانت حياته كلها ترجمة حية لهذه الدعوة وصورة جلية لهذا المنهج ، وقد ربط بتأليف كتابه العظيم « غنية الطالبين » ناصية الطريقة بأذيال الشريعة ، وتختص الموعدة الثانية من كتابه « فتوح الغيب » المشتمل على خطبه ومواعظه ، باتباع السنة ونبذ البدعة ! ويبدوها بقوله . « اتبعوا ولا تبتدعوا » .

إنه يتبوء مكانة المجدد فى إخضاع الطريقة للشريعة ، واستخدامها لزيادة التمسك بالشريعة ، ويرشد إلى الاشتغال بالفرائض أولاً ، ثم بالسنن ثانياً ، ثم بالتطوع ثالثاً ،

(١) كتاب اللمع ، ص ٩٣ - ١٠٤ ، طبعة لندن ١٩١٤ م .

(٢) الامام أبو الحسن على بن عثمان أبى على الجلابى ، وقبره بلاهور .

(٣) الرسالة القشيرية ، ص ١ ، طبعة مصر .

ويصرح بأن الاشتغال بالثاني بترك الأول ، سفاهة ورعونة .

وإن أكثر كتب التصوف قبولا ورواجاً ، وأوثقها عند الصوفية وأفضلها هو كتاب «عوارف المعارف» للشيخ شهاب الدين السهروردي ( م ٦٣٢ هـ ) الذي تمسك به الصوفية ، ورددوه في كل عصر ومصر ، وكان يدرس في كثير من الزوايا والرباطات ، ويتعلق الجزء الثاني من هذا الكتاب ببيان أسرار أركان الشريعة الإسلامية وآدابها وتوصل الشيخ فيه إلى هذه النتيجة : « إن التصوف عبارة عن الاقتداء بالرسول - ﷺ - قولاً عملاً وحالاً ، وبالمواظبة عليه تتقدس نفوس الصوفية ، وترتفع الحجب ، ويتحقق الاتباع للرسول ﷺ في كل شيء » (١) .

وتحول التصوف في القرن التاسع الهجري بتأثير الشيخ محيي الدين بن عربي الأندلسي الطائي ( م ٦٣٨ هـ ) وتلامذته وكان تأثيراً قوياً انتشر في العالم الإسلامي كالتيار المدفع السريع - إلى فلسفة انطوت على كثير من مصطلحات الفلسفة الإلهية اليونانية ، وقضاياها المتشعبة ، وأصبحت نظرية « وحدة الوجود » ، شعار الصوفية ، يعتزون بها ويفتخرون ، وتحمست لها الزوايا والتكايا ، والمدارس ، وحلقات العلم ، وظلت الرباطات والزوايا الصوفية - لقلة الاشتغال بالكتاب والسنة ، والجهل بعلم الحديث الشريف ، وقلة وجود الصحاح والكتب المعتمد عليها عند أهل الصناعة ؛ مرتع العقائد والأفكار التي لا دليل عليها ، ولا سند لها ، في مصادر الدين الأصلية ، ولم يكن يعرفها مسلمو القرون الأولى ، على الإطلاق .

وهنا في الهند - التي كانت منذ آلاف السنين مركز اليوك ، والتنسك والرهبانية - واجه الصوفية الواردين من الخارج اليوكيين المحنكين المرتاضين الذين كانوا ضاعفوا قوة نفوسهم ، ومتخيلتهم عن طريق حبس الأنفاس ، والتأملات اليوكية المعروفة لديهم ، فتعلم بعض المتصوفة المسلمين منهم هذا الفن (٢) ، ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذي خلفته

---

(١) عوارف المعارف ، ص ١ .

(٢) هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر كانت هذه البلاد لا تعرف شيئاً عن الصحاح الستة ، ومؤلفيها ، وأئمة هذا الفن الذين نقدوا علم الحديث ونخلوه ، وميزوا بين صحيحها وسقيمها ، وقاوموا البدع والمحدثات ، وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السنة المطهرة ، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة ونسئني من ذلك ولاية كجرات ، التي انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها ، وكثرة الرحلات منها إلى الحرمين الشريفين ، ونبغ فيها العلامة على المتقى البرهان بوري و تلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتني .

الفلسفات والتجارب المحلية فى الهند على التصوف من خلال كتاب « جواهر خمسة » للشيخ محمد غوث الكواليارى ، الذى ذاع صيته فى عصره ، وحصل له القبول العظيم عند الناس ، والكتاب يشتمل على أقوال الصوفية ، وتجارب الشيخ الكواليارى الشخصية ويخيل إلينا أنهم لم يروا حاجة إلى ثبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة ، واقتباسها من كتب السيرة النبوية المعتبرة فتجد فى هذا الكتاب المذكور - آنفاً « صلاة الأحزاب » و« صلاة العاشقين » « صلاة تنوير القبر » ، والصلوات المخصوصة للأشهر المختلفة والأدعية الخاصة بها ، التى لا أصل لها فى السنة ، ولا أثر لها فى الحديث ، وقد جمع المؤلف ( الشيخ الكواليارى ) فى « الجواهر الثانى » - حسب تقسيمه للكتاب - « الأسماء الأكبرية » التى تحتوى فيما تحتوى على أسماء الملائكة باللغتين العبرانية والسريانية . وقدمت بحروف النداء ، وهذا يدل على الاستعانة بغير الله ، وذكر فيها دعاء باسم « دعاء بشمخ » الذى ذكرت فيه الأسماء السريانية والعبرانية مقدمة بحروف النداء والكتاب كله مؤسس على الدعوة إلى الأسماء ، ويعتقد أن لهذه الأسماء حفظة موكلين يعرفون حقيقتها وماهيتها ، وذكرت حروف الهجاء ، وأسماء الموكلين بها أيضاً ، وفيه دعاء بهذه الصيغة « ناد علياً مظهر العجائب » .

لقد بدأ عمل الإمام السرهندى التجديدى فى هذا العصر الذى امتاز بهذا الخليط الغريب من السنة والبدعة ، والشريعة والفلسفة ، والتصوف الإسلامى واليوك ويقول هو نفسه فى رسالة وجهها إلى ابن شيخه محمد عبد الله ، وهو يصور هذا الوضع المكفهر :

« لقد كثرت البدع والمحدثات فى هذه الأيام كثرة فاحشة ، حتى ليخيل للناظر ، أن بحراً من الظلمات تتلاطم أمواجه ، وأن نور السنة فى هذا البحر الهائج المائج يتلألأ تلالؤ براعات منتشرة فى ظلمة الليل البهيم » .

رفع الإمام السرهندى صوته مجلجلاً مدوياً - فى هذه الفترة الخطيرة الحرجة فى الهند ، إذ كانت شأفة الإسلام تتأصل بأيدي الدولة التى تسمى بالإسلام ، ويستهان فى الزوايا - الصوفية بالسنة النبوية ، ويقال - علنا وجهاراً . إن الطريقة فى واد ، والشريعة فى واد ، لكل منهما طريقه وتقاليده ، وأصوله ، أما طالب الحق الذى يريد معرفة الحق ، فيسأل المشايخ عن الدليل الشرعى ، فكان جوابه « هذا واد ليس زاد المسافر فيه الا التقليد والانقياد المطلق للشيخ الحكيم ، ولو أمره بإتيان محرم ومحظور فى الشرع » .

فى هذا الجو القائم أعلن الإمام السرهندى فى قوة وجراءة ، « أن الطريقة من خدم الشريعة ، خاضعة لأمرها ، وأن محاسن الشريعة أعلى وأرفع من « المقامات » ،

والأحوال ، والمشاهدات « وأن العمل بحكم شرعى واحد أنفع من مجاهدة آلاف السنين ، وأن القيلولة اتباعاً للسنة ، أفضل من إحياء الليل من غير اتباع السنة ، ولا اعتداد بأعمال الصوفية فى الحل والحرمه ، بل الحاجة إلى دليل من الكتاب والسنة ، وكتب الفقه ، وأن رياضات أهل الضلال ، ومجاهداتهم لا تستوجب القرب ، بل تستحق البعد والطرده ، وأن الأشكال ، والصور الغيبية من قبيل اللهو واللعب ، ولا يسقط التكليف الشرعى أبداً .

وأقرأ - بعد هذا التمهيد - مقتبسات من رسائل الإمام التى تشتمل على بيان هذه الحقائق :

« إن الشريعة متكلفة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية ، وليس هناك مقصد نحتاج فى تحقيقه وإنجازه إلى شىء غير الشريعة ، وأن ما يمتاز به الصوفية من « الطريقة والحقيقة » كالتاهما خادمتان للشريعة تساعدان فى تحصيل الإخلاص وصفاء النية ، وهكذا فإن الهدف من وراء تحصيل الطريقة والحقيقة ، ليس إلا تطبيق الشريعة ، بروحها وحقيقتها ، لا ما هو خارج عن نطاق الشريعة ، أما الأحوال والمواجيد ، والعلوم ، والمعارف التى تقع فى طريق السالك لا علاقة لها بالمقاصد ، بل إنها أشكال وألوان ، وأخيلة و« لعب تربي بها أطفال الطريقة » وينبغى الوصول مروراً بهذه الأشياء إلى مقام الرضا ، الذى هو نهاية السلوك والمواجيد والمقامات » (١) .

ويقول : فى هذه الرسالة أيضاً :

يظن قصار النظر أن الأحوال والمواجيد من المقاصد والغايات وان المشاهدات والتجليات من المطلوبات ، ويستلزم ذلك حبسهم فى سجن الوهم والخيال والحرمات من فضائل الشريعة ومدارجها العظيمة :

« كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب » (٢) .

ويقول فى رسالة أخرى ، مبيناً تقديم الفرائض على النوافل ، وترجيحاً عليها :

« إن ما يتقرب به إلى الله من الأعمال ، هى إما فرائض ، وإما تطوعات ، وليس للتطوعات أى قيمة ازاء الفرائض ، وأن أداء فريضة فى وقتها أفضل من تطوع ألف سنة ، ولو كان بنية خالصة .

---

(١) الرسالة رقم : ٣٦ ، المجموعة الأولى وهى موجهة الى الشيخ حاجى محمد اللاهورى .

(٢) الرسالة رقم : ٤٠ ، المجموعة الأولى ، كتباً إلى الشيخ محمد الجترى .

ويقول فى رسالة لبيان أن العمل بأحكام الشريعة بغية إزالة النفس وإزالة الأمراض الباطنية أنفع من آلاف الرياضات والمجاهدات :

« إن العمل بالأحكام الشرعية بغية إزالة الأهواء النفسانية أعظم نفعاً وتأثيراً من رياضات ألف سنة ، ومجاهداتها التى يضعها السالك من تلقاء نفسه ، بل هذه الرياضات والمجاهدات التى لا توافق مقتضيات الشريعة الغراء ، تزيد فى شدة الأهواء والأمراض النفسانية صرامتها ، فإن البراهمة واليوكيين لم يدخروا وسعاً فى الرياضات والمجاهدات الشاقة ، ولم تجدهما فتيلاً ، ولم تزدهما إلاّ عتواً وضلالاً »

ويقول فى رسالة أخرى مبيناً أهمية محاسن الشريعة وفضلها :

« إن أكثر الناس - فى هذه الدنيا ! فرحون بتخييلاتهم ورؤاهم ومقتصرون على اللوز والجوز ، ما يُدريهم بمحاسن الشريعة وفضائلها ، وحقيقة الطريقة وأصلها ؟ ، وإنهم يرون الشريعة قشرة ، والطريقة لباباً ، ولا يدرون الحقيقة ، مخدوعين بشطحات الصوفية ، وأقوالهم السطحية ، مفتونين بأحوالهم ومقاماتهم » .

ويقول فى رسالة لبيان فضيلة العمل بسنة واحدة وأهميته :

« الفضيلة مرتبطة باتباع السنة السنية ، والشرف قائم على العمل بالشريعة فالقيلولة - مثلاً بنية اتباع السنة أفضل من إحياء الليل مئات الآلاف من المرات ، وأداء فلس واحد من الزكاة أفضل من إنفاق جبال الذهب تطوعاً وتصدقاً » <sup>(١)</sup> .

ويقول فى رسالة أخرى :

« يعتقد الصوفية الناقصون أن الذكر والفكر ، أهم المهمات ، ويتكاسلون عن أداء السنن والفرائض ، ويفضلون الرياضات والأربعينيات على الجمعة والجماعات ، ولا يدرون أن أداء صلاة واحدة مع الجماعة أفضل من آلاف الأربعينيات التى يعتكفون فيها ، أما إذا كان الذكر والفكر مع مراعاة الآداب الشرعية فهما من أفضل الأعمال والقربات ، وكذلك العلماء الناقصون ؛ يجتهدون فى نشر النوافل والتطوعات ، والدعوة إليها ، ويضيعون الفرائض ويفسدونها » <sup>(٢)</sup> .

ويكتب إلى الشيخ مير محمد نعمان ، فيقول :

(١) الرسالة رقم : ١١٤ ، المجموعة الأولى ، وهى موجهة الى الصوفى قربان .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٠ ، المجموعة الأولى ، وهى موجهة الى ابنه الشيخ محمد صادق .

« هناك فريق من هؤلاء الصوفية لم يقدر له أن يعرف حقيقة الصلاة وفضائلها الخاصة ، فيبحث عن علاج أمراضه الروحية في أشياء أخرى ، ويظن أن أهدافه ومقاصده مرتبطة بأمور أخرى ، بل إن منهم فريقاً لا يرى فائدة في الصلاة ويحملها على « الغيرية » والأجنبية ، ويفضل عليها الصوم ، إذ تتجلى فيه صفة « الصمدية » والكثرة الكاثرة من هؤلاء الصوفية تجد طمأنينتها وسلواها في الأغاني والنعيمات ، والوجد والتواجد ، وتحسب الرقص منقبة وكمالاً ، ألم يسمعوا قول الرسول - ﷺ - « ما جعل الله في الحرام شفاء»<sup>(١)</sup> ، لو انكشفت عليهم ذرة من مكانة الصلاة وحقيقتها ما سرتهم الأغاني ، ولا أطربتهم الألحان ، ونسوا المواجيد والأذواق ، فلما لم يبصروا الحقيقة كما هي هاموا على وجوههم في الأساطير والخرافات»<sup>(٢)</sup> .

ويشير في موضع إلى ذلك الصفاء الذي يحصل لنفوس المشركين والكفار والمنكهين في أعمال الفسق والفجور من الرياضيين اليوكيين ، فيقول :

« تنحصر التزكية الحقيقية في الأعمال الصالحة التي يرضاها الله - تعالى - ويتوقف ذلك على البعثة - كما تقدم - فلا تصفية ولا تزكية إلا بالبعثة وما يجده الكفار وأهل الفسق من الصفاء ، إنما صفاء النفس وليس صفاء القلب ولا يزيدا صفاء النفس إلا زيفاً وضلالاً ، ولا يهدى إلا إلى طريق الخيبة والخسران ، وما يحصل لبعض الكفار والفسقة عند صفاء النفس من كشف بعض الأمور الغيبية ، فذلك استدراج ، وليس في حقهم إلا ضرراً وضياًعاً ، وخساراً مبيئاً»<sup>(٣)</sup> .

ويقول رداً وتفصيلاً لعقيدة سقوط التكاليف الشرعية عن ذمة السالك والعارف ، وتحرره من ربة الفرائض والأحكام الشرعية - التي هي بمثابة متفجرات وألغام ، وضعت لنسف الشريعة الإسلامية بأسرها والقضاء عليها .

« يفكر المتصوفة المخدجون الناقصون والملاحدون الضائعون في تحرير رقابهم من طوق الخضوع للشريعة الإسلامية ، وقصر الأحكام الشرعية على العوام من الناس ، ويعتقدون أن الخواص ليسوا بمكلفين إلا بالمعرفة ، كما أن الأمراء والسلطين مكلفون بالعدل والقسط

(١) ورد من حديث الطبراني بسند صحيح عن أم سلمة مرفوعاً « إن الله تعالى لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم » وفي لفظ « ان الله لم يجعل شفاء أمتي في ما حرم عليها » .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦١ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة الى الشيخ مير محمد نعمان .

(٣) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى وهي موجهة الى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله .

بين الناس فحسب ، ويقولون إن الغرض من العمل بالشريعة ليس إلا تحصيل المعرفة ، فاذا تحققت المعرفة سقطت التكاليف الشرعية ، ويستدلون بهذه الآية : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾<sup>(١)</sup> .

ويثبت في رسالة أن عمل الصوفية ليس بحجة في إباحة شيء أو حرمة ، فيقول :  
« ليس عمل الصوفية حجة في الحرمة والإباحة ، ألا يكفي أن نعذرهم ونترك ملامهم ، ونكل أمرهم إلى الله ، والحجة في مثل ذلك قول الإمام أبي حنيفة والإمام أبي يوسف ، والإمام محمد مثلاً ، لا قول أبي بكر الشبلي ، وأبي الحسن النوري ، إن صوفية هذا العصر التافهين يتعللون ويستدلون بأعمال مشايخهم في الرقص ، والغناء ويتخذونها ديناً متبعاً ، وسنة مطاعة ، وظنوها طاعة وعبادة ، ﴿ اتخوا دينهم لهُواً ولعباً ﴾<sup>(٢)</sup> .

وتحولت حماية الإمام السرهندي هذه للشريعة الإسلامية إلى حمية جياشة ، فإذا سمع شيئاً من تحقيقات الصوفية وأحوالهم ، مما يخالف الكتاب والسنة ، وعقيدة جمهور الأمة ، أو يرى الاستدلال والاحتجاج بأحوال الصوفية أو أقوالهم ، أو أى كتاب من كتب التصوف ، تتحرك هذه الحمية في صدره ، ويغلى مرجله ، وينبض عرقه العمرى ، وينبجس من قلمه السيال سيل عارم من الغيرة على السنة ، والذب عن الشريعة ، والرد على البدعة ، ذكر له بعض تلاميذه قولاً شأذاً ، موحشاً من أقوال الشيخ عبد الكبير اليمنى ، فلم يتمالك الإمام أمامه ، وصدرت من قلمه - عفو الخاطر - هذه الكلمات :

« يا سيدى إن هذا الفقير لا يستطيع أن يصبر على هذه الأقوال ، إنه يتحرك عرقى الفاروقى ولا يترك مجالاً للتوجيه والتأويل ، سواء كان قائله الشيخ الكبير اليمنى ، أو الشيخ الأكبر الشامى<sup>(٣)</sup> ، نحن فى حاجة إلى كلام محمد العربى - عليه وعلى اله الصلاة والسلام - لا كلام محبى الدين بن عربى ، ولا صدر الدين القونوى ، ولا الشيخ عبد الرزاق الكاشى ، نحن نريد النص ، لا الفص<sup>(٤)</sup> ، وقد أغنتنا الفتوحات المدنية عن الفتوحات المكية<sup>(٥)</sup> .

(١) الرسالة رقم : ٣٦٧ ، المجموعة الأولى ، وهى موجهة الى الشيخ بديع الدين .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة ، وقد تقدمت .

(٣) أى الشيخ محبى الدين بن عربى الذى توفى بدمشق ، ودفن فيها .

(٤) المراد بالنص ، النص الشرعى ، والمراد بالفص ، كتاب ابن عربى « فصوص الحکم » .

(٥) كتاب مشهور للشيخ ابن عربى ، الرسالة رقم : ١٠٠ ، المجموعة الثانية كتبها الى الشيخ ملاحسن الكشميرى .

يقول مصرحاً بأن كل عمل يؤدي وفق الشريعة الغراء ، يندرج فى الذكر :

« ينبغى صرف الأوقات كلها فى ذكر الله ، وكل عمل وفق الشريعة الغراء داخل فى الذكر ، وأما البيع والشراء فىجب الاهتمام فى جميع الحركات والسكنات بالأحكام الشرعية، حتى تصبح كلها ذكراً ، لأن الذكر عبارة عن إزالة الغفلة ، فإذا روعيت الأوامر والنواهي الشرعية فى جميع الأعمال يتخلص العالم بذلك من الغفلة والنسيان لمن أمر بهذه الأعمال وهو الله الواحد الأمر والناهى ، وتحصل له نعمة المداومة على الذكر » (١) .

### محاربة العقائد والتقاليد وشعائر

### أهل الجاهلية ، والدعوة إلى الدين الخالص :

لقد كان معين الإسلام الصافى فى الهند - التى لم يزل أساس الإسلام فيها ضعيفاً ، لأسباب وعوامل تاريخية مختلفة ، وكانت موطن شعوب مشركة وديانات وثنية - تتسرب إليه المخلفات والرواسب من الديانات السائدة، وكان يخشى أن يغيب هذا الينبوع فى الظلمات المتركمة حتى يضل الخريت ، ويحار الدليل .

ولذلك لما بدأ الإمام السرهندى رحلته التجديدية ، كانت أول خطوة خطاها على طريق الأنبياء ، وعلى نفس المنهج الذى سار عليه الرسل ، هى الخطوة نحو إصلاح العقاد ، تصحيح الاتجاه ، فقد كان إياؤه عن سجدة التحية أمام السلطان جهانكير ، ورفضه لهذه البدعة الشنيعة عنواناً لامعاً فى تاريخ إصلاحه وتجديده ، وقد تناول فى رسائله التى وجهها إلى مختلف أصحابه وأتباعه بيان حقيقة التوحيد بأسلوب واضح مبين ، وعبارات موجزة جامعة رصينة ، وقدم الدلائل والبراهين على وحدانية الله - تعالى - وأنه هو المستحق للعبادة وحده ، وبأسلوب يدل على رسوخه وعلو كعبه فى هذا العلم ، وقام بدحض الشرك مظاهره وتقاليدته ، ونهى أصحابه وأتباعه نهياً شديداً عن الاعمال الشركية ، والعادات الجاهلية ، وتقليد الكفار من اليهود والنصارى والمشركين ، إذ أنه لا بداية لعمل الإصلاح والتجديد إلا به فضلاً عن نهايته وكماله .

وهنا مقتطفات من رسالة مسهبة كتبها إلى امرأة صالحة بايعته وتابت على يده ، وقد تضمنت هذه الرسالة الرد على عامة ما يُبتلى به الجهلاء من المشركين خصوصاً النساء منهم، يقول فيها :

(١) الرسالة رقم : ٢٥ للمجموعة الثانية ، وهى الى الشيخ خواجه محمد شرف الدين .



## تعظيم مظاهر الشرك والوثنية :

« إن تعظيم مظاهر الشرك ، وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الإشراف بالله - عز وجل - وأن من يعتقد بصحة دينين وصلحتيهما فى وقت واحد ، فهو مشرك ، وأن من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكفر والشرك ، فهو مشرك ، ولا يتم الإسلام إلا بالبراءة من الشرك ، ومحادثته ومعاداته ، وأن التوحيد هو الأشمئزاز والنفور من كل شابة من شواب الشرك » .

## الاستعانة بغير الله :

ويقول رحمة الله : « إن الاستعانة بالطواغيث والأصنام فى دفع الأمراض وشفاء الأسقام - التى راجت فى المسلمين وعمت فى دهمائهم - عين الشرك والضلال وأن طلب قضاء الحاجات من الأحجر المنحوتة جحود صريح بالله - تعالى - وعين الكفر ، يقول الله تبارك وتعالى - مبيناً حال بعض الغواة الضالين :

﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ .

وإن كثيراً من النساء - لغاية جهلهن وضلالهن - يطلبن قضاء حوائجهن من غير الله ، ويسألن بأسماء ما أنزل بها من سلطان ، دفع البليات وكشف الكربات ، إنهن لأسيرات فى أغلال الشرك وطقوسه وتقاليده .

## سيتله :

وتتجلى هذه العقائد الشركية وتشاهد هذه الأعمال والتقاليد الجاهلية - بصفة خاصة - عندما ينتشر الجدرى ( الذى يعرف فى أوساط النساء فى الهند باسم « سيتله » <sup>(١)</sup> ) - حيث تقع جميع النساء فى الجهل المطبق ، والكفر الصريح ، ويأتين بأعمال شركية ، وقلما تجد امرأة تتقى دقائق هذا الشرك ، ولا تقدم على أى نوع من أنواع الشرك بهذه المناسبة ، اللهم إلا من عصم ربك » .

(١) اسم إلهة من الإلهات المفروضة المتخيلة عند وثنى الهند ، يعتقدون أنها تسبب الجدرى ، ولا يرتفع هذا الوباء ، ولا يشفى المريض الا اذا ارضيت هذه الالهة بالندور والقرايين .

## تعظيم أعياد الكفار والمشركين وتقليد عاداتهم وطقوسهم :

« كلك فإن تعظيم أعياد الهنادك ، والاحتفال بالأيام التي يقوم فيها الهنادك بتقاليدهم وطقوسهم ، يستلزم الشرك ويستوجب الكفر ، وإن الجهلة من المسلمين في أيام «ديوالى»- وهو عيد من أعياد الهنادك ، يوقدون فيه المصابيح ويقامرون ، ويتبادلون الهدايا والتهانى - لا سيما نسائهم يقلدون الهنادك في عاداتهم وطقوسهم ، ويحتفلن بعيدهم ، ويتهادين فيما بينهن ، فيبعثن بالتحف والهدايا إلى أخواتهن وبناتهن مثل ما يفعل المشركون والمشركات ويلونن أو انينهن بنفس الألوان التي تلون بها الكافرات ، ويملأنها « بالفيرنى » الأحمر<sup>(١)</sup> ، ثم يبعثنها هدايا ، ويحتفلن بهذه الأيام ، وهذا العيد ، احتفالاً كبيراً وكل ذلك شرك ، وكفر بدين الإسلام وجحود به . »

## النور وذبح القرابين للأولياء وللصالحين :

ويقول في هذه الرسالة : « وكذلك يندرون الحيوانات للمشايخ والصالحين ، فيسوقونها إلى قبورهم ، ثم يذبحونها هناك ، وقد ورد في كتب الفقه ما يدل على أن هذا كذلك من الشرك ، وجاء فيه تشديد وتأکید ، واعتبرت هذه الحيوانات التي تذبح على قبورهم كالذبائح التي تذبح باسم الجن التي كان المشركون يذبحونها خوفاً منهم وطمعاً في نوالهم ، مما هو منهي عنه شرعاً ، وداخل في الشرك ، فلا بد من اجتناب هذا العمل الذي تشم منه رائحة الشرك ، وإن للنذر طرقاً كثيرة وأشكالاً متعددة فما الذي يلزمهم بنذر الحيوانات ؟ حتى يتشبهوا بعملهم هذا بعباد الجن لمشابهة ذبائحهم وقرابينهم ذبائح المشركين للجن . »

## نذر الصيام للأولياء والصالحات :

« ويدخل في ذلك تلك الصيام التي تصومها النساء باسم المشايخ والأولياء والصالحات الزاهدات من النساء ، فكثيراً ما يتحلن أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، فيندرون الصيام لها ، ويخترن طريقة خاصة لكل صوم من هذا الصيام عند الإفطار ، ويحددن لها أياماً خاصة ، ويربطن قضاء حوائجهن ، وبلوغ مقصودن بهذا الصيام ويسألن باسم هذا الصيام الأولياء الصالحين والنساء الصالحات أن تقضى حوائجهن ، ويعتقدن بأنهم يقضون حاجاتهن ، ويلبسون مطالبهن ، وذلك من الإشراك في العبادة ، والاستعانة بغير الله

(١) طيخ الرز واللبن والسكر ، وهو مثل المهلية .

- تعالى - عن طريق العبادة لغير الله - عز وجل - فينبغي أن يعلم قبح هذه الأعمال وشاعتها ، وقد جاء في حديث قدسي : «يقول الله - عز وجل - الصوم لى وأنا أجزى به» ، ومعنى ذلك أن عبادة الصوم لى خاصة ، لا يشركنى فيها أحد ، ومعلوم أنه لا يجوز الإشراف إطلاقاً فى أى نوع من أنواع العبادات إلا أن تخصيص الصوم هنا بذلك لأهمية هذه العبادة ، ولذلك جاء النفى للإشراك فى هذه العبادة بتأكيد بليغ .

وإن من الحيل وخداع الشيطان أن بعض النساء ( عندما يكشف لهن عن قبح هذه الأعمال الشنيعة ) يقلن : إنما نصوم هذا الصيام لله تعالى ، ونهدى ثوابه إلى الأولياء ، فلو كن صادقات فى قولهن ، لما التزمن من أنفسهن أياماً معينة ، وأطعمة خاصة ، ولما انتحلن العادات القبيحة ، والآداب المخترعة المحددة عند إفطارهن ، فإهن لكثيراً ما يرتكبن عند الإفطار أموراً من المحرمات ، فيفطرن على حرام ، ويتكفن بدو ضرورة ، ويسألن عن غير حاجة ، فيفطرن بما يحصلن عليه عن طريق التكفف ، ويعتقدن بأنهن - بهه الأعمال المحرمة - يقضين حوائجهن ، ويكملن مطالبهه . وذلك عين الضلال وخداع إبليس اللعين ولا عاصم إلا الله » (١) .

**النهى عند سجدة التحية :**

وهناك عدد من رسائل الإمام القوية الواضحة فى انهى عن سجدة التحية ، نذكر بعض مقتطفاتها فيما يلى :

« إنه لا يليق بالسلطين العظام إلا التواضع أمام ربهم - عز وجل والنظر إلى عجزهم وضعفهم ، وأن لا يسمحوا - أبداً - بهذا الذل ، وغاية الخضوع الا لله تعالى - وقد سخر الله لهم البلاد وأحوج إليهم العباد ، فعليهم أن يشكروا هذه النعمة الجسيمة ، ويخصوا هذا النوع من الخضوع والذل والاستكانة لحضره ذى الجلال والجبروت ، ولا يجوز الإشراف به فى ذلك ، وإن كانت طائفة من الفقهاء رأأت جواز ذلك (٢) ، ولكن ينبغى لهؤلاء السلطين - بتحليلهم بالتواضع والأدب أن لا يبيحوا ذلك لأحد ، وذلك لقول الله - عز وجل - ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .

**ويقول فى رسالة إلى الشيخ نظام التهانيسرى :**

« ذكر لى الناس أن أصحاب بعض خلفائك يسجدون له سجدة التحية ، ولا يكتفون

(١) الرسالة رقم : ٤١ ، ج ٢ ، كتبها إلى احدى الصالحات .

(٢) لم نطلع على من اباح ذلك ، ولو ثبت حمل على الشذو والمنكر من القول .

بالانحناء المعتادة للتحية ( عند المتدعين ) ألا إن قبح هذا العمل وشناعته أظهر من الشمس ، فانهم عن ذلك ، وأكد عليهم النهى ، وشدد النكير ، إن الاجتناب عن هذه الأفعال مطلوب من جميع الناس لا سيما من شخص قد نصب نفسه ليكون قدوة لغيره ، فاجتنابه مثل هذه الأفعال القبيحة من أشد ضروريات الدين ، إذ أن أتباعه يقتدون به ، ويقتفون أثره ، فيقعون في هذه الأحابيل والويلات « (١) .

وكان هذا هو العمل التجديدي العظيم لإصلاح العقائد الفاسدة ، والرد على الشرك والبدعة ، والدعوة إلى الدين الخالص ، الذى بدأه الإمام السرهندي على أرض الهند التى كانت الأقلية المسلمة فيها تواجه خطر الجاهلية المشتركة بصفة دائمة - لإحاطة الأكثرية المشتركة بها ، وقرب عهد البلاد بالإسلام - ووسعه وأكمله - فيما بعد - مشايخ سلسلته الكبار ، مثل حكيم الإسلام الإمام ولى الله الدهلوى ، وأفراد أسرته (٢) ، إلى الإمام أحمد بن عرفات الشهيد ، وكان ذلك عن طريق الخطابة والكتابة ، والرسائل والمؤلفات ، وترجمة معانى القرآن ، والأحاديث النبوية والجولات الدعوية الواسعة ، والحركة الجهادية العظيمة (٣) .

### نشر السنّة والرد على « البدعة الحسنة » :

تعرف البدعة بأنها إدخال شىء فى الدين لم يدخله الله ورسوله فيه ، ولم يأمر به ، واعتقاد أنه جزء من الدين ، يعمل به احتساباً ، والتزام آدابه ، وشروطه المزعومة ، كالتزام الحكم الشرعى ، والبدعة شريعة وضعية إزاء شريعة إلهية ، ولها فقهها المستقل ، وفرائضها وواجباتها ، وسننها ، ومندوباتها التى تقف ندأً للشريعة الإلهية حيناً ، وتفوقها أهمية وعظمة حيناً آخر .

وتغض البدعة طرفها عن حقيقة ناصعة ، وهى أن الدين قد أكمل ، وأن الشريعة قد ختم عليها ، فما كان ينبغى أن يتقرر ، تقرّر ، وما كان يبتغى فرضاً أو واجباً ، ليتعين فرضاً أو واجباً ، وأغلقت « دار الضرب » للدين ، فأى عملة جديدة تنسب إليه لا تكون إلاً مزورة مزيفة ، وما أحسن ما قال الإمام مالك - رحمه الله :

(١) الرسالة رقم : ٢٩١ ، ج ٢ ، كتبها الى الشيخ نظام التهانيسى .

(٢) على رأسهم وفى مقدمتهم حفيده الشهير العلامة محمد اسماعيل الشهيد (١٢٤٦) .

(٣) راجع للتفصيل كتاب المؤلف « اذا هبت ريح الايمان » ، ورسالته « الامام الذى لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف » .

« من ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً - ﷺ - خان الرسالة ، فإن الله سبحانه - يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم » فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً » .

وإن من خصائص الشريعة المنزلة من الله - عز وجل - أن تكون سمحة سهلة ، صالحة للعمل والتطبيق فى كل عصر ومصر ، لأن من شرع هذا الدين هو الذى خلق الناس ، فهو الذى يعرف ضرورتهم وحاجاتهم ، وطباعهم ، وطاقاتهم ومواضع ضعفهم وعجزهم ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (١) .

ولأجل ذلك لوحظت مراعاة هذه الأمور كلها فى التشريع الإلهى ، ولكن إذا اتخذ الإنسان نفسه شارعاً فلا سبيل إلى مراعاة هذه الجوانب المتعددة ، وكلما تختلط البدع والمحدثات بالدين ، وتجرى تعديلات وإضافات بشرية فيه ، يزداد الدين عسراً وضيقاً وتعقداً ، حتى يضطر الناس إلى أن يخلعوا ربقة الدين من رقابهم يحرموا هذه النعمة المتحققة فى رفع الحرج ، ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ ، ويمكن أن تلاحظ أمثلة ما نقل فى تلك الفهارس الطويلة للطقوس والعبادات ، والفرائض والسنن المحدثه التى عملت فيها البدع عملها بكل حرية وانطلاق .

ومن خصائص الدين والشريعة الإسلامية الانسجام التام ، والوحدة العالمية ، فلا يتغيران ، ولا يتفرقان فى عصر وزمان ، فلو سافر مسلم من بقعة فى العالم الإنسانى إلى بقعة أخرى ، لا يلقى أى صعوبة وحرج فى العمل بالدين ، وتطبيق الشريعة ، ولا يحتاج إلى منهج مخصص ، أو دليل محلى ، أما البدع فلا توافق فيها ولا انسجام ، فهى تصهر فى بوتقة محلية فى كل مكان ، وتضرب فى دار الضرب لمدينة ما من المدن ، أو بلد من البلدان ، وتكون نتاج العوامل التاريخية المحلية الخاصة ، والمصالح الشخصية ، والأغراض الفردية الخاصة ، فتختص بدع كل بلد من البلدان ، بهذا البلد نفسه ، بل بدع كل ولاية ، وكل مدينة وخرافاتها ، بل بدع كل حى من الأحياء ، وكل بيت من البيوت ، وأباطيلها وخرافاتها ، تختص بها نفسها ، ينتج من كل ذلك دين متعارض يصطدم بعضه ببعض فى كل قرية وبلد ، وكل حى ومنزل .

لهذه المصالح الشاملة الخالدة التى نعلم بعضها ولا نحيط بها ، نهى الرسول - ﷺ - من اقتراب البدع ، وأمرهم باجتنب كل المحدثات فى الدين ، والحفاظ على السنة ، والتمسك

(١) سورة الملك - ١٤ .

بها ، يقول - عليه الصلاة والسلام :

« من أحدث في أمرنا هذا ، ما ليس منه فهو رد »<sup>(١)</sup> ، « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »<sup>(٢)</sup> .

وتنبأ بهذه النبوءة الحكيمة : « ما أحدث قوم بدعة إلا رفع بها مثلها من السنة » .

وقد عارض الصحابة - رضى الله عنهم - وأئمة الدين ، وفقهاء المسلمين ، وجميع المجددين والمصلحين ، والعلماء الربانيين فى عصورهم ، محدثات زمانهم والبدع الناشئة فيه معارضة عنيفة قوية ، وبذلوا جهد طاقتهم فى الحيلولة دون رواج هذه البدع ، والمحدثات وتأثيرها فى المجتمعات الإسلامية ، والأوساط الدينية ، وقد صور القرآن الحكيم ما يوجد فى هذه البدع والمحدثات - فى كل عصر - من جاذبية مغناطيسية ، وما ترتبط بها من أغراض أبناء الدنيا ، والمحترفين بالدين ، ومصالح الفرق الدينية المغرضة الشخصية ، ومنافعها الذاتية ، فى أسلوب المعجز الحكيم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدّون عن سبيل الله ﴾<sup>(٣)</sup> .

ولقى هؤلاء الدعاة والمصلحون ، والمجددون فى سبيل ذلك من الأذى ، والاضطهاد ، ما لقوا ، ولكنهم لم يبالوا بما أودوا به فى سبيل الله ، واعتقدوا أن عملهم هذا جهاد الساعة ، والمهمة الدينية المقدسة لصيانة الشريعة الغراء والدين الخالص من التحريف ، والتزوير ، وقد لقب هؤلاء المعارضين للبدع والمحدثات ، والحاملين لراية السنة ، والشريعة المطهرة ، مخالفوهم من العامة ، أو الخاصة الذين لا يمتازون عن العامة بألقاب تشبه ألقاب الكفار من قريش للمسلمين كالصابئة والمارقة<sup>(٤)</sup> وأعداء الدين ، فلم يعيروها أى اهتمام فقضوا بجهادهم وكفاحهم بالقلم واللسان ، وإثبات الحق ، وإبطال الباطل على كثير من البدع ومحدثات الأمور ، التى لا نجد لها الآن ذكراً إلا فى بعض كتب التاريخ ، وما بقى منها ، لم يزل يكافحها العلماء الربانيون ، ولا يزالون يحاربونها ، ويقضون عليها :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من

(١) متفق عليه

(٢) رواء أحمد وأبو داود ( نقلاً عن مشكاة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة ) .

(٣) سورة التوبة - ٣٤ .

(٤) مثل « الوهابية » والجامدين والمحافظين ، والقشوريين ، والحرفيين ، وغيرها ، فى عصرنا هذا .

ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً ﴿ (١) .

وقد كانت أكبر مغالطة في هذا الصدد ، ومغالطة البدعة الحسنة ، فكأنَّ الناس قسموا البدعة قسمين : البدعة السيئة ، والبدعة الحسنة ، وكانوا يقولون : إنه ليس كل بدعة سيئة ، فكثير من البدع حسنة ، استثيت من إطلاق حديث : « كل بدعة ضلالة » (٢) .

إن ما قام به الإمام السرهندي من معارضة شديدة ، واستنكار قوى ، لهذا التقسيم ، المحدث للبدعة الحسنة ، والبدعة السيئة ، في ثقة وقوة واعتماد ، وبأسلوب علمي ، واستدلال موضعي ، لا يوجد له نظير في كثير من الأقطار ، فاقراً - فيما يلي - مقتبسات من رسائله في هذا الصدد :

يقول في رسالة - محرراً على نشر السنن النبوية ، وترويجها ، ومرغباً في رد المحدثات ، والقضاء عليها - موجهة إلى ابن شيخه ومرشده الشيخ محمد عبد الله :

« هذا هو العصر الذي مضت بدايته ألف سنة على البعثة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - وبدأت أمارات الساعة تظهر ، فأصبحت السنة لبعد عهد النبوة محجوبة متروكة ، والزمان زمان الكذب والاختلاق ، فتروج البدع وتنتشر المحدثات ، ويرنو العالم إلى بطل يحمي حوزة السنة ، وينصرها ، ويدحر البدعة ويغلبها ، فإن نشر البدعة إمامته السنة ، وإن تعظيم المبتدع وإكرامه بمثابة هدم لقصر الإسلام وتخريبه ، وقد جاء في الحديث :

« من قرَّ صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام » (٣) .

فينبغي الاهتمام بالهمة العالية ، والعزيمة الصارمة ، بنشر سنة من السنن ، وإزالة بدعة من البدع ، لقد كان هذا العمل فريضة في كل عصر ، ولكن وجوبه في هذا العصر الذي

(١) سورة الأحزاب - ٢٣ .

(٢) وأكبر دليل للناس في هذه القضية قول عمر - رضی الله عنه - حين رأى الناس مجتمعين لصلاة التراويح : « نعمت البدعة هذه » ، مع أن العلماء متفقون على أن إطلاق لفظ « البدعة » هنا بمعناه اللغوي ، لأن صلاة التراويح ثابتة بالأحاديث الصحيحة ، وبالتواتر العملي ، وينبغي للاطلاع على تعريف البدعة ، والتفصيل فيها مراجعة كتاب « الاعتصام بالسنة » للإمام الشاطبي ، وكتاب « إيضاح الحق الصريح في أحكام الميت والضرير » للإمام محمد اسماعيل الشهيد ، وهما من أجود الكتب في هذا الموضوع .

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان مرسلًا ( مشكاة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة ) .

ضعف فيه الإسلام ، وارتبطت إقامة معالمة ، وتعظيم شعائره بنشر السنة ، وهدم البدعة ، أقوى وأشد .

ثم يقول فى نفس هذه الرسالة مفنداً لاصطلاح البدعة الحسنة ، ومنكراً لوجود نوع من الحسن والخير فيها :

« رأى بعض الناس فى العصر الماضى شيئاً من الحسن فى البدعة فاستحسنوا بعض أنواع البدع والمحدثات ، ولكن الفقير لا يوافقهم فى ذلك ، فإنه لا يرى أى بدعة حسنة ، ولا يشعر فيها إلا بالظلمة والكدر ، وقد قال - ﷺ - : « كل بدعة ضلالة » (١) .

ويقول فى رسالة أخرى باللغة العربية ، كتبها إلى الشيخ مير محب الله :

« النصيحة هى الدين ، ومتابعة سيد المرسلين عليه وعلى آله وعليهم الصلاة والسلام ، وإتيان السنة السنية ، والاجتناب عن البدعة الغير المرضية ، وإن كانت البدعة ترى مثل فلق الصبح ، لأنه فى الحقيقة لا نور فيها ولا ضياء ، ولا للعليل منها شفاء ولا للداء منها دواء ، كيف والبدعة إما رافعة للسنة ، أو ساكتة عنها ، والساكتة لا بد أن تكون زائدة على السنة ، فتكون ناسخة لها فى الحقيقة أيضاً ، لأن الزيادة على النص نسخ له ، فالبدعة كانت تكون رافعة للسنة نقيضة لها ، فلا خير فيها ولا حسن فيها ، وليت شعرى من أين حكموا بحسن البدعة المحدثة فى الدين الكامل والرسالة المرضية بعد إتمام النعمة ، ولم يعلموا أن الأحداث بعد الإكمال والإتمام وحصول الرضا بمعزل عن الحسن فماذا بعد الحق الأضلال ، ولو علموا أن الحكم بحسن المحدث فى الدين الكامل مستلزم لعدم كماله ، ومنبىء عن عدم تمام النعمة ، لما اجترؤوا عليه ، ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ ، والسلام عليكم وعلى من لديكم » (٢) .

ويقول فى رسالة أخرى ، وهو يتحدث عن هذا الاستثناء المذكور - آنفاً - :

« لما كان كل محدث فى الدين بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، فلا معنى للحسن فى بدعة من البدع ، ولما كانت الأحاديث الصريحة تفيد بأن كل بدعة ترفع سنة ، من غير تخصيص وتقييد ، فلا معنى لذلك ، ولا بد أن تكون كل بدعة سيئة ، ورد فى الحديث :

---

(١) الرسالة رقم : ٢٣ ، المجموعة اثنائية ، وهى موجهة الى ابن شيخه الشيخ محمد عبد الله ، وروى هذا الحديث فى صحيحه .

(٢) الرسالة رقم : ١٩ ، المجموعة الثانية .



« ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة ، فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة »<sup>(١)</sup> .

وروى عن حسان بن ثابت - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :

« ما ابتدع قوم بدعة فى دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم

القيامة » .

اعلم أن بعض البدع التى استحسناها بعض العلماء ، والمشايخ ، يتجلى عند التأمل الدقيق فيها أنها كذلك ترفع السنة وتمحوها<sup>(٢)</sup> .

ويقول فى هذه الرسالة ، مستنكراً لوجود البدعة الحسنة :

« يقول الناس : إن البدعة قسمان : البدعة الحسنة ، والبدعة السيئة ، فيسمون العمل

المحدث بعد عهد النبوة ، وعهد الخلفاء الراشدين بدعة حسنة ، وهى لا ترفع - عندهم -

سنة من السنن ، والبدعة السيئة ، هى التى ترفع السنة ، أما هذا الفقير فلا يرى فى شىء

من البدعة أى حسن ونور ، ولا يوجد فيها إلا ظلمة وكدرًا ، ولو فرضنا أن إنساناً يرى فى

العمل المبتدع - لضعف بصره - نضرة وصفاء ، فإنه ما يكون غداً حديد البصر ، بعيد

النظر ، سوف لا يجد إلا الحسرة والندم ، ولات ساعة مندم ، وكان كما قال الشاعر :

وسوف ترى إذا انكشف الغبار أفرس تحت رجلك أم حمار ؟

يقول سيد البشر - ﷺ - :

« من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »<sup>(٣)</sup> .

كان من ضمن هذه « البدع الحسنة » التى كانت قد انتشرت فى ذلك العصر مجلس مولد

النبي - ﷺ - والاحتفال له ، وكان من العسير الإنكار عليه لعزوه إلى ذات الرسول - ﷺ -

ولما كان يقصد منه من ذكر مناقبه - ﷺ - وما خصه الله به من فضل ومكانة ، وكان

موضوع نقد هذه المجالس فى ضوء الشريعة والسنة موضوعاً مثيراً للجماهير ومظنة حملهم

ذلك على قلة الحب للرسول - ﷺ - وإساءة الأدب معه ، ولكن الإمام السرهندى قد شرح

الله صدره فى كل ما لم يؤثر عن خير القرون ، فكان مقتنعاً بأنه ليس فى فلاح للأمة ،

وليس فى صالح هذا الدين ، وكان يخشى أن كل ذلك يجرّ على مرّ الأيام إلى مفاسد

مختلفة .

(١) مشكاة المصابيح ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة .

(٢) الرسالة رقم : ١٨٦ ، المجموعة الآلى ، كتبها الى الشيخ المفتى عبد الرحمن الكابلى .

(٣) نفس الرسالة السابقة ، والحديث رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها .

وقد سئل عن رأيه فى هذا المجلس إذا تجرد عن محظورات شرعية ، واقتصر على مجرد الاجتماع والاستماع إلى قصة المولد فى يوم معين ، واهتمام خاص ، فأجاب عن ذلك بقوله :

« سيدى ! يجول فى خاطر هذا الفقير أنه ما لم يسد هذا الباب على مصراعيه ، لم يزل لأهل الأهواء مجال فى هذا الشأن ، فلو وسع فى الأمر ، وأطلق شىء من العنان ، انجر الأمر إلى ما لا تحمد عاقبته ، « قليله يُفضى إلى كثيره » (١) .

وهكذا كان موقفه الجرىء الحاسم إزاء البدع وإنكاره لوجود « بدعة حسنة » سداً للذريعة ، وقضاءً على فوضى دينية قد بدت طلائعها بتأييد العلماء غير المحققين الذين لا ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، واحتضان المشايخ الذين لم يكن لهم رسوخ فى العلم ، وإمام بمقاصد الشريعة وعلوم الحديث والسنة ، ودافع عنها وتحمس لها أمراء وملوك لم يكن لهم نصيب من العلم ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

---

(١) الرسالة رقم : ٧٢ ، ٣ ، ألى الشيخ حسام الدين الدهلوى .

## الباب السادس وحدة الوجود أو وحدة الشهود ؟

الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي . وتدوين  
نظرية « وحدة الوجود » وشرحها وتفصيلها :

لقد صدرت من لسان بعض الصوفية المتقدمين ممن غلب عليهم السكر والحال ، أقوال  
هى شبه نظرية الاتحاد ، وتدل على « وحدة » الوجود ، وقد اشتهر من بين هذه الأقوال  
العارف الشهير الشيخ أبى يزيد البسطامى - الذى هو من كبار المشايخ الذين تنتمى إليهم  
معظم السلاسل والطرق الصوفية - « سبحانى ما أعظم شأنى » ، وقوله : « ليس فى جبتى  
إلا الله » ، وما اشتهر عن الحسين بن منصور الحلاج من هتافه : « أنا الحق » .

ولكن الشيخ محيي الدين بن عربي ( م ٦٣٨ هـ ) - الذى عرف واشتهر باسم « الشيخ  
الأكبر » - كان مؤسساً لهذه النزعة ، والمذهب - من الناحية العلمية - ورائداً له ، ومجدداً ،  
وخاتمة المحققين لهذه النظرية ، ومنذ ذلك العصر الذى عاش فيه ابن عربي ، بلغت هذه  
النظرية من الذبوع والانتشار والقبول والرواج ، حتى سرت فى أوصال التصوف وجرت  
منه مجرى الدم كالوباء الذى لا يستطيع أقوى الناس طبعاً وجسماً أن يقاومه ، ولا يتأثر  
بمفعوله حتى ظلت شعار أصحاب الذوق والتحقيق ، وكلمتهم الجامعة ، وكان إنكارها  
دليلاً على جهل صاحبه وتطفله على مائدة الصوفية ، وغفلته عن دقائقهم وأسرارهم ،  
وكما يقول الإمام السرهندى :

« إنه وضع لها أبواباً وفصولاً كما هو الشأن فى علم النحو والصرف »<sup>(١)</sup> وبعد ، فما  
هى حقيقة « وحدة الوجود » عند الشيخ محيي الدين ، وكيف يعرضها ويبينها ، وما هى  
الأدلة والحجج التى يسوقها لإثباتها ؟ ، وكيف يحول هذه النظرية إلى عملية كشفية ،  
ومشاهدة ، وتجربة عملية تطبيقية ، بل إلى حقيقة بديهية ؟ . ثم كيف اتخذت شكل  
فلسفة مستقلة ، وتحولت إلى مدرسة فكرية إشراقية ، وتكونت حولها تلك المكتبة الضخمة  
التي يحتاج استعراضها إلى كتاب ضخمة مستقلة ؟ كل ذلك لا يمكن أن يسعه هذا الكتاب ،  
ولما أن القضية من القضايا الدقيقة العويصة فى الفلسفة والتصوف ، التي يحتاج الإنسان

(١) الرسالة رقم : ٨٩ ، المجموعة الثالثة ، كتبها الى القاضى الشيخ اسماعيل الفريد آبادى .

لإدراك مبادئها إلى مراجعة المصطلحات الدقيقة للفلسفة والتصوف ، كما أن لها صلة وثيقة بالتجارب الباطنية ، والسلوك العلمى ، فليس من السهل - لذلك - استيعابها وإلقاء الضوء الكامل عليها فى هذا الباب الوجيز ، فمن كان عنده تذوق لهذه المعانى ورغبة فى دراستها العلمية فليراجع كتب الشيخ محيى الدين بن عربى كـ « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم »<sup>(١)</sup> ، وقد كتب الإمام السرهندى فى إثبات « وحدة الشهود » رسائل مفصلة طويلة ، يتوصل منها - فى ضوء الإمام السرهندى لمذهب ابن عربى وتلخيصه وشرحه - إلى فهم هذا المذهب و، إدراك أبعاده وغاياته ومقاصده ، وسوف ترد مقتطفاتها المهمة فى خلال هذا الباب ، فى مواضعها المناسبة .

ونورد هنا مقتبسات من رسالة « وحدة الوجود » للعلامة عبد العلى بحر العلوم اللكنوى ( م ١٢٢٥ هـ ) إذ أنه مع تبخره فى علوم الحكمة وأصول الفقه ، يعتبر شارحاً وترجماناً ، لنظرية الشيخ محيى الدين فى « وحدة الوجود » وغواصاً ماهراً فى بحر مؤلفاته : لا سيما « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » وسوف تعين القارئ هذه المقتبسات فى فهم مراد الشيخ الأكبر ومقاصده ، وإن كانت وردت فيها أيضاً مصطلحات وتعبيرات لا يعرف معانيها إلا أصحاب المعرفة والتذوق فى هذا الشأن ، الملمين بهذا الأسلوب وهذه التعبيرات ، ولم نقف على شرح لهذه النظرية فى وضوح وإيجاز أحصر من هذا الشرح ، فرأيت أن أورده فيما يلى :

« جميع ما سوى الله - تعالى - عالم الشؤون والتعينات ، وجميع الشئون والتعينات مظاهره ، هو ظاهر فيها وسار ، ليس هذا السريان هو ما يقول به أصحاب « الحلول » أو يعتقد أهله « الاتحاد بل إن هذا السريان كسريان عدد الواحد فى الأعداد ، وجميع الأعداد ليست إلا وحدات ، فلا يظهر فى العالم إلا عين واحدة أو ذات واحدة ، وهى التى ظهرت من ذات الله القدوس فتجلى ذات الله - تعالى - فى هذه الكثرة ، فالله هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، تعالى عن الشركاء والأنداد .

ولا تظهر أسماء الله - تعالى - فى غير مظهر ، سواء هذه الأسماء المباركة تنزيهية أو تشبيهية ، ولما كانت الأسماء بالمظاهر ، ولا يتصور كمالها بدون مظهرها ، أوجد الله

---

(١) ويقيد فى هذا الصدد الاطلاع على كتاب « أصل الأصول فى بيان الكشف بالمعقول والمنقول » ، للسيد عبد القادر مهربان فخرى الميلاورى ( م ١٢٠٤ هـ ) طبعة جامعة مدراس ١٩٥٩ م ، فهو كتاب جامع فى هذا الموضوع .

سبحانه وتعالى أعيان العالم ، لتكون مظاهره وتنجلي كمال أسمائه بأجلى مظاهره ، وأن الله - تعالى - غنى في كماله الذاتى ولكنه لا يستغنى في مرتبة الكمال الإسمى عن الوجود الخارجى للعالم ، يقول الحافظ الشيرازى ، ما معناه :

« لو استظل العاشق بظل المعشوق فماذا فيه ؟ فنحن فى حاجة إليه وهو فى شوق إلينا » .  
وأشير إلى ذلك فى هذا الحديث القدسى : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق (١) .

والذى يعتقد فى وجودين اثنين ، وجود الله - واجب الوجود - ووجود الممكن ، فإنه يشرك ، وشركه هذا شرك خفى ، أما من يعتقد فى وجود واحد ويقول إنه لا وجود إلا لله ، وكل ما سواه فمظاهره ، وكثرة المظاهر لا تنافى وحدته ، فهو إنسان موحد » .

« ولست عين الحق ، لأنه هو الوجود المطلق ، وأنت المقيد المتعين ، ولا يمكن أيدياً أن يكون المقيد عين المطلق ، ولكنك فى حقيقتك عين الحق ، لأن الحق تعين فىك ، فتجد الحق - جل شأنه - مطلقاً من قيد التعين فى عين الموجودات ، ومقيداً بقيد التعين فيها ، أى أنك ترى الحق ظاهراً فى المتعين لا موجود ولا إله إلا الله (٢) .

وقد كان لهذه النظرية من التأثير العالمى الشامل - بعد عصر الشيخ محبى لدين حتى يمكن أن يقال إن تسعة وتسعين فى المئة من الصوفية والفلاسفة ، والشعراء ، تهيئاً أو اجلالاً للنظرية أو لقائلها أيديها واعتنقوها ، ومعظم من يعارض الشيخ محبى الدين فى هذه المسألة هم المحدثين والفقهاء وكبار العلماء ، منهم الحافظ ابن حجر العسقلانى ، والعلامة السخاوى ، والمفسر أبو حيان ، وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، والحافظ أبو زرعة ، وشيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، والعلامة نور الدين على بن سلطان محمد الهروى ( المعروف بملا على القارى ) والعلامة سعد الدين التفتازانى ، العلماء النوابغ ، وأئمة الفن ورجال الإسلام .

وإن هؤلاء العلماء - رغم تفوقهم على الناس فى التبحر والتعمق فى العلوم الدينية ،

---

(١) هذا الحديث أو ما معناه قد كثر وروده فى كلام الصوفية ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية « ليس من كلام النبى - ﷺ - ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف ، وتبعه الزركشى والحافظ ابن حجر فى اللآلى ، والسيوطى وغيرهم ( مستفاد من « كشف الخفا ومزيل الالباس للعجلونى ، المؤلف ) .

(٢) رسالة « وحدة الوجود » ( بالفارسية ) للعلامة بحر العلوم عبد العلى الأنصارى اللكنوى ، انظر

ودراستهم الواسعة العميقة للكتاب والسنة ، وفضلهم وصلاتهم وتورعهم - لا يعترف المتصوفة وأصحاب « الحقائق » بمعرفتهم . باستثناء شخص منهم أو شخصين - للعلوم الباطنية ، والحقائق الروحية الغامضة ، لذلك حملوا معارضتهم على المثل الشائع : « الناس أعداء ما جهلوا » .

### شيخ الاسلام ابن تيمية ، ونقد عقيدة « وحدة الوجود » ، ومعارضتها والرد عليها :

إن أكبر قادة حركة المعارضة لنظرية « وحدة الوجود » الذى قام بنقدها وتحليلها تحليلاً علمياً ، والتعليق عليها ، وإبداء رأيه الحرّ عنها على أساس الكتاب والسنة ، وفى ضوء تلك النتائج والاثار التى ظهرت لاعتناق هذه النظرية ، خلال مدة قليلة فى أوساط التصوف وعامة الناس ، هو شيخ الإسلام تقي الدين الحافظ أحمد بن تيمية ( ٦٦١ - ٧٢٨ هـ ) الذى اسمه فى صف المعارضة لهذه النظرية ، وكان قد ولد بعد وفاة الشيخ محيى الدين (عام ٦٣٨ هـ) بثلاث وعشرين سنة ، ونشأ فى نفس المدينة (دمشق) - التى توفى فيها الشيخ محيى الدين ودُفِنَ فيها - وتعلّم ، وتربى ، وبلغ المكانة الفريدة فى المجالات العلمية والفكرية ، فلما بلغت مداركه النضج الفكرى ، وتهاى لدراسة بيئته ومحيطه دراسة ناقدة ، لم يكن قد مضى على وفاة الشيخ ابن عربى أكثر من أربعين أو خمس وأربعين سنة ، وكان لتحقيقاته العلمية النادرة دوى فى أجواء مصر والشام ، وكانت الأوساط الصوفية سكرى بمشربه فى التوحيد ، وكان الشيخ أبو الفتح نصر المبنجى فى مصر ، من غُلاة محبّيه ومريديه ، كما كان ركن الدين ببيرس الجاشنكير صاحب السلطة المطلقة فى مصر والشام (بعد ما اعتزل السلطان ناصر بك قلاوون السلطنة سنة ٧٠٨ هـ) معجباً بالشيخ نصر المبنجى ومريداً له ، وكانت كتب الشيخ ابن عربى لا سيما « الفتوحات المكية » و «فصوص الحكمة» متداولة فى أيدي الناس بالشام ومعظم البلدان العربية آنذاك ، قد نالت القبول والإعجاب ، يقرأها الناس فى نشوة وانفعال ، حتى الإمام ابن تيمية اعترف بأن فى «الفتوحات المكية» و « كنه الحكم المربوط » و «الدرة الفاخرة» و « مطالع النجوم » بعض الفوائد العلمية ، والتحقيقات الجيدة <sup>(١)</sup> وكان من أشهر المعتنقين لمذهب ابن عربى ، ابن سبعين ، وصدر الدين القونوى - الذى كان تلميذاً مباشراً للشيخ ابن عربى - ، والبليانى والتلمسانى وقد فضّل ابن تيمية الشيخ الأكبر على جماعته وأصحابه كلهم ، مما يدل على

(١) انظر « جلاء العينين ، ص ٥٨ ، للعلامة نعمان الألوسى .

إنتصافه وتحقيقه وموضوعيته ، وعمله بقول الله - عز وجل - « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

يقول ابن تيمية :

« لكن ابن عربى أقربهم إلى الإسلام ، وأحسن كلاماً فى مواضع كثيرة فإنه يفرق بين المظاهر والظاهر ، فيقرر الأمر والنهى ، والشرائع على ما هى عليه ، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمر به المشايخ من الأخلاق والعبادات ، ولهذا كثير من العباد يأخذون من كلامه سلوكهم ، فينتفعون بذلك ، وإن كانوا لا يفقهون حقائقه ، ومن فهمها منهم ووافقه فقد تبين قوله » (١) .

ويقول فى موضع آخر فى إحساس مشوب بالخرج فى الحكم الفاصل ، والشعور بدقة الموقف ، وإحسان الظن بمسلم له مكانته ، ومنزلته عند كثير من المسلمين :

« والله تعالى أعلم بما مات الرجل عليه ، والله يغفر لجميع المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والموات » ، « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » (٢) .

غُلاةُ الدُّعاة لعقيدة :

« وحدة الوجود » ، وآثارهم ونتائجهم :

ولكن يبدو أنه - للحماس الزائد ، وقلة الحذر والحيطه فى تعليم هذه النظرية وتلقينها للناس ، ونشرها والدعوة إليها دعوة عامة شاملة ، وللأذواق والنفسيات الخاصة - ظهرت هناك فى الشام - التى كانت مركزاً كبيراً للعلوم الدينية ، وولاية ذات شأن من ولايات دولة يحكمها حكام من سلالة تركية - فوضى خلقية وفكرية ظلت تعم وتسود ، وبدأ الناس يتعدون حدود العقل والشريعة ، والأخلاق ، ووقعت محنة خطيرة فى المجتمع الإسلامى ، وحسب ما يقول بعض الحكماء « أن الشجرة بثمرتها لا بأصلها » ، كان ما تأتى به عقيدة « وحدة الوجود » من ثمار مرّة ، ونتائج خطيرة ، يدفع الغيارى على الإسلام وحماة الشريعة والدعاة إلى الله إلى أن يقلقوا لهذا الوضع ويثوروا عليه ، وينتقدوه ، وكانت تستحق الرد والتنفيذ .

(١) جلاء العينين « ص ٥٨ .

(٢) أيضاً .

يحكى ابن تيمية - وهو ثقة في حكايته وروايته ، إن « التلمساني » - وهو من حُذّاقهم علماء ومعرفة - كان يطبق المذهب الوجودي عملياً فيستحل جميع المحرمات ( لأنه إذا كان الوجود واحداً فَلِمَ التفريق بين الحلال والحرام ؟ <sup>(١)</sup> )

ويقول ابن تيمية :

« وحدثني الثقة أنه قرأ عليه « فصوص الحكم » لابن عربي ، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما قرأه رآه يخالف القرآن ، قال : فقلت له : هذا الكلام يخالف القرآن ، فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في كلامنا ، وكان يقول : ثبت عندنا في الشكف ما يخالف صريح المعقول <sup>(٢)</sup> .

ويمضي قائلاً :

« وحدثني من كان معه آخر نظير له ، فمرت على كلب أجرب ميت بالطريق ، فقال له رفيقه : هذا أيضاً هو ذات الله ؟ ، فقال : وهل ثمَّ شيء خارج عنها ؟ ، نعم الجميع في ذاته <sup>(٣)</sup> .

ويقول في كتابه « الردُّ الأقوم على « فصوص الحكم » :

« وقيل لبعضهم : إذا كان الوجود واحداً ، فلم كانت الزوجة حلالاً والأم حراماً ؟ فقال : الكلُّ عندنا واحد ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام ، فقلنا : حرام عليكم <sup>(٤)</sup> .

ولا يمكن أن يقال إن مسئولية هذه الجراءة على الله ، والإباحية والفوضى الخلقية تقع ، على الشيخ محيي الدين بن عربي وحده ، والذي كان يجتهد في اتباع السنة <sup>(٥)</sup> وكان عابداً زاهداً متنسكاً ، صاحب رياضات ومجاهدات ، ومحاسبة شديدة للنفس ومعرفة دقيقة واسعة بمصايد الشيطان ونزعاته ، وغوائل النفس وآفاتنا <sup>(٦)</sup> ، ولكن مع ذلك توجد عنده أقوال شاذة غريبة ، تكون مادة لمن يريد أن يجعل من الحبة قبة ، مثل قوله ، ان عُبَاد العجل - في عهد موسى عليه السلام - ما عبدوا الا الله ، وأن موسى أنكر على هارون

(١) ، (٢) ، (٣) الفرقان بين الحق والباطل ، ص ١٤٥ .

(٤) الردُّ الأقوم على فصوص الحكم ، ص ٤٢ .

(٥) كان الشيخ ابن عربي متبعاً لمذهب داود الظاهري الذي ينكر القياس ، ويأخذ بظاهر الحديث .

(٦) راجع كمثال على ذلك كتابه « روح القدس » .



لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل ( لأنها فى الحقيقة ، عبادة الله ، إذ الموجود واحد ) وأن موسى كان بزعمهم من العارفين الذين يرون الحق فى كل شىء ، بل يرونه عين كل شىء ، وأن كان فرعون فى منصب الحكم صاحب الوقت ، وجاز له أن يقول : « أنا ربكم الأعلى » أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما ، فأنا الأعلى منهم بما أعطيته فى الظاهر من مقاليد الحكم فيكم ، قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه ، وأقروا له بذلك وقالوا له : « فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » ، فصح قول فرعون « أنا ربكم الأعلى » ولهذا عاب نوحاً ، وعظم قومه الكفار ، الذين عبدوا الأصنام ، وقال : إنهم ما عبدوا إلا الله ، وأن طوفان نوح كان طغيان المعرفة الإلهية ، وهيجان بحرها الذى غرقوا فيه (١) .

ولأجل ذلك كان كثير من المشايخ العارفين - الذين كانوا يعترفون بمكانة الشيخ ابن عربى وعلو كعبه ، فى العلوم ويرونه من الأولياء المقبولين - ينهون أصحابهم وتلامذتهم عن مطالعة كتبه ، يحكى الشيخ محبى الدين عبد القادر العيدروس مؤلف « النور السافر » عن شيخه العلامة بحرق إنه سمع الشيخ أبا بكر العيدروس يقول :

« لا أذكر أن والدى ضربنى ولا انتهرنى إلا مرة واحدة بسبب أنه رأى بىدى جزءاً من كتاب « الفتوحات المكية » لابن عربى فغضب غضباً شديداً ، فهجرتها من يومئذ قال : كان والدى ينهى عن مطالعة كتابى « الفتوح » و « الفصوص » لابن عربى ، ويأمر بحسن الظن فيه ، وباعتقاد أنه من أكابر الأولياء العلماء بالله العارفين » (٢) .

### عقيدة وحدة الوجود فى الهند :

ولما وصلت هذه العقيدة فى القرن الثامن إلى الهند ، كان لها - بسبب ما كانت الهند نفسها مركزاً قديماً للدعوة المتحمسة إلى هذا المذهب ، والذوق الإشراقى الخاص ، والإيمان به إيماناً منبعثاً دافعاً ، وكما يقول بعض مؤرخى التصوف أن المتصوفة المسلمين الذين ولدوا فى إيران والعراق والمغرب ، ونشأوا فيها ، وإنما كانوا تعلموا نظرية « وحدة الوجود » من الهند ، ولم تزل هذه البلاد حتى بعد الفتوح الإسلامية - باستمرار ومن غير انقطاع -

---

(١) هذه الأقوال كلها مقتبسة من « الرد الأقوم على ما فى كتاب فصوص الحكم » وينبغى الإشارة هنا الى أن فريقاً من المهتمين بعلوم الشيخ ابن عربى وكتابه يقول بأن هناك إلحاقات وزيادات دُست فى كتبه ، لا سيما فى كتابه « فصوص الحكم » .

(٢) النور السافر ، ص ٣٤٦ .

حاملة لواء هذه العقيدة والتمسكة بها ، وطبيعة النسل الآرى تتجه دائماً إلى حب «الإطلاق» والتهرب من القيود والتعيينات ، بعكس الديانات الناشئة فى مواطن الشعوب السامية ، ومسقط رأس الأنبياء والمرسلين ، فكانت سمة هذه البلاد - الخاضعة لتأثير السلالة الآرية حكماً وعقلية وثقافة - التمسك بعقيدة وحدة الوجود ، ووحدة الديانات من آلاف السنوات ، لذلك كله ، كان لعقيدة وحدة الوجود فى الهند من التأثير والقوة والقبول، ما لم يكن لها فى بلد آخر ، وقد انسجمت طبيعة هذه الفلسفة بطبيعة البلاد ، واثلفت أرواحهما ، واحتضنت إحداهما الأخرى ، فكان من هذا الوثام حماس جديد ، وحرارة جديدة ، وتشكلت مدرسة إشراقية جديدة ، فنجد عدداً كبيراً من أبناء هذه البلاد ومشايخها بتحمس لهذه العقيدة ، ويدافع عنها ويدعو إليها ، فمن أخصهم وأشهرهم فى هذا الباب شيخ السلسلة الجشتية الصابرية الشهير الشيخ عبد القدوس الكنكوهي ( م ٩٤٤ هـ ) والشيخ عبد الرزاق الجهنجهانوى ( ٩٤٩ هـ ) والشيخ عبد العزيز الدهلوى المعروف بشكربار ( م ٩٧٥ هـ ) والشيخ محمد بن فضل الله البرهانورى ( م ١٠٢٩ هـ ) والشيخ محب الله الإله ابادى ( م ١٠٥٨ هـ ) (١) ، وكان كل واحد من هؤلاء ابن عربى عصره ، وابن فارض مصره ، وتصدر معظم هؤلاء قبل الإمام السرهندى ، بزمن قليل أو بعده بقليل ، أو فى عهده نفسه ، للتربية والإرشاد ، والدعوة والإفادة .

## الشيخ علاء الدولة السمنانى

ومعارضة نظرية « وحدة الوجود » :

قلنا فيما تقدم أن من تصدى للرد على مذهب « وحدة الوجود » وانتقاد الشيخ محى الدين بن عربى ، ومعارضته وكان معظمهم من العلماء المتبحرين فى العلوم الدينية ، غير المتذوقين للمعارف والحقائق ، لم يقاسوا الرياضات والمجاهدات ، ولم يلموا بالتجارب العملية الشخصية ، ولا سلكوا أودية الكشوف والمشاهدات ، فكان أصحاب المعرفة والذوق من هذه المدرسة الإشراقية لا يلقون لهذه الانتقادات والاعتراضات بالآ ، ويرونها لا تستحق أى اهتمام ، ويقولون استصغار لشأنهم :

« لا تستطيع أن تعرف لذة الخمر ما دمت لم تذوقها »

ويخاطبونهم بقول الشاعر :

وإذا لم تر الهلال فصدق      لأناس رأوه بالأبصار

وإن أول مسلم صوفى ، ومحقق عارف تصدى للرد على هذه العقيدة وتفنيدها بعناية

بالغة واهتمام كبير ، هو الشيخ ركن الدين أبو المكارم علاء الدولة السمانى (١) .

ولد علاء الدولة السمانى ( ٦٥٩ - ٧٣٦ هـ ) فى أسرة شهيرة ، كان أفرادها يتبوأون مناصب عالية فى الحكومة والوزارة ، بقرية سمان من ولاية خراسان ، واستفاد المعارف الباطنية من الشيخ نور الدين عبد الرحمن الكسرقى الاسفرائينى فى الطريقة الكبرى ، ونال الاجازة والخلافة واستمر فى مناظراته ضد نظرية الشيخ الأكبر فى « وحدة الوجود » ، وتعرض لها فى مواضع كثيرة من رسائله ، فإنه يرى أن غاية السالك هى العبودية لا التوحيد الوجودى ، جمع رسائله ورتبها أحد مريديه الشيخ إقبال بن سابق السجستانى ، توجد عدة نسخ ، منها باسم « جهل مجلس » - أربعون مجلساً - أو « أقوال الشيخ علاء الدولة السمانى » وغيرهما فى المكتبات ، وتشتمل أكثر أجزاء « نفحات الأنس » (٣) ، للجامى على أقواله ومواعظه (٤) .

### وحدة الشهود :

لا نعلم - فى حدود دراستنا واطلاعنا إلا شخصيتين شهيرتين ، نجد عندهما فكرة وحدة الشهود إزاء نظرية وحدة الوجود ، وإشارات متفرقة إليها ، رغم ما بينهما من اختلاف فى الذوق والمشرب ، وبون كبير فى المنهج وأساليب الدعوة ، إلا أن بينهما وحدة الإخلاص وصفاء النية ، وسلامة الذوق ، واستقامة الفطرة ، التى تفتح لها أبواب الهداية الربانية «والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا» أحدهما شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذى كان محدثاً ومتكلماً وفقهياً ، والآخر الإمام شرف الدين يحيى الميرى الذى كان عارفاً محققاً ، وإماماً من أئمة التصوف والإحسان ، يتجلى من كتابه المتقدم الذكر « العبودية » أنه من المطلعين على فكرة وحدة الشهود ، ويعرف هذه الحقيقة أنها مقام يعترض السالك أثناء تربيته وسلوكه ، وأنها منزلة لا تسمى إلى مكانة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم بإحسان من الصحابة الكرام - رضى الله عنهم - وغيرهم ، ولكنها على كل حال منزلة

---

(١) يمكن الاطلاع على تراجمهم واتجاهاتهم وأذواقهم فى الجزء الرابع والجزء الخامس من كتاب « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى .

(٢) انظر « رسائل الامام الربانى » الرسالة رقم : ٨٩ ، المجموعة الثالثة .

(٣) انظر « نفحات الأنس » ص ٥٠٤ - ٥١٥ ، وللشيخ علاء الدولة رسالة خطية أسماها « العروة لأهل الخلوة مكتبة خدابخش خان بتنه - مخطوطة رقم : ٩٠٥ ، اقرأ ورق ٨٣ - ٨٤ ( ألف ) ورق ٨٦ ( ألف ) .

(٤) ( دائرة المعارف الاسلامية ) مقال F . Meier .

فوق منزلة « وحدة الوجود » وأفضل منها حالاً وأرفع مكاناً<sup>(١)</sup> ، ولكنه - لعدم خوضه في هذا المجال - يكتفى بإيماءات وإشارات .

وأما الشيخ المنيرى ( م ٧٨٣ هـ ) فقد قدم هذه الفكرة في رسائله بتفصيل أكثر ، فيقول في ضوء تجاربه الشخصية ، وتحقيقه العلمى لهذا المقام الخاص :

« إن ما يظن وحدة الوجود ، وفناء كل موجود سوى واجب الوجود ، وعدمه عدماً كاملاً هو - فى واقع الأمر - ليس إلا أقول الموجودات إزاء الوجود الحقيقى ، وغروبها ، وانقهارها ، كما يخبو ضوء النجوم وينطمس إزاء ضوء الشمس الوهاج ، وتصبح الذرات كأنها لا حقيقة لها ولا وجود . »

إنه يلخص النظريتين فى كلمتين خفيفتين ، فيقول : « عدم الأشياء وفناؤها شىء وعدم رؤيتها شىء آخر » ، ويقول : « إنه مقام دقيق خطير تتعثر فيه أقدام الكبار من المشايخ ، وتتعرس الاستقامة إلا بتوفيق الله ، ثم بتربية المرشد المحنك الخبير »<sup>(٢)</sup> .

### الحاجة إلى شخصية تجديدية جديدة :

ولكن كانت الحاجة ماسة - لتتقح هذه الفكرة وإيضاحها ، وإقامة الحجة على الناس فى بيانها - إلى شخصية جديدة ، خاضت فى أودية السلوك والإشراق الشائكة ، ومرت برباعها ومنازلها ، وعرجت على مقاماتها العالية ، وسبحت فى بحور المعارف الإلهية ، والحقائق الربانية ، وعبرت البحر الطاغى المتلاطم بالتجارب التطبيقية العملية إلى شاطئ الحقيقة ، فلا يستدل بعدم العلم على عدم الوجود ، بل يقول كشاهد العيان والمسافر المغامر الطموح فى ثقة وقوة ، وبصيرة واعتماد ، « عرف كل ربع من هذه الرباع (وحدة الوجود) بل كل ذرة من ذرات هذه الدار ، فقد استمر بها عهدى ، ودامت بها صلتى ، ولكن يردفه بهذا القول : « إن وراء هذه الكواكب والنجوم عوالم أخرى ، ومجالات أفسح » .

لقد كانت هناك ثلاثة مذاهب بين المثبتين والنفاة لنظرية « وحدة الوجود » ، وهى :

١ - التأييد الكامل لنظرية وحدة الوجود ، وأنها ليست إلا نتائج القوة الوهمية والمتخيلة ، والمشاهدات الباطنية ليس غير .

(١) انظر « رسالة العبودية » ص ٨٥ - ٨٨ ، وأما النوع الثانى فهو الفناء عن شهود سوى .. الخ (المكتب الإسلامى ، دمشق) .

(٢) راجع الرسالة الأولى من مكتوبات « ستة صدى » .

٢ - المعارضة الكلية لنظرية وحدة الوجود وأنها ليست الا نتائج القوة الوهمية والمتخيلة والمشاهدات الباطنية ليس غير .

٣ - عرض نظرية « وحدة الشهود » بدلاً من وحدة الوجود ، وأن ما يراه السالك ، والذي هو واقع الحال ليس أن الوجود واحد ، وما سوى واجب الوجود معدوم لا حقيقة له ، بل الواقع أن الموجودات قائمة في مكانها ، ولكن نور الوجود الحقيقي لواجب الوجود حجب وجودها عن الأبصار حتى كأنها فانية معدومة ، وكما أن النجوم تنكدر وتأفل إزاء ضوء الشمس بعد طلوعها ، حتى لو قال قائل : إن النجم غير موجود لما كان كاذباً ، كذلك هذه الموجودات إزاء الوجود الكامل الحقيقي ، تتضاءل أمامها ، وتهون وتصغر حتى كأنها معدومة لا وجود لها .

### مركز الإمام السرهندي الاجتهادي والتجديدي :

اختار الإمام السرهندي مذهباً رابعاً إزاء هذه المذاهب الثلاثة ، هو أن « وحدة الوجود » مقام يعرض للسالك خلال السلوك ، فيشاهد - عند ذاك - عياناً وجهاراً - أنه لا وجود هناك إلا لواجب الوجود ، وكل ما يراه الإنسان من وجود ، فهو وجود واحد ، وما سواه فليس إلا « تنوعاته وتلويناته » وفي تعبير الشيخ محيى الدين بن عربي ، والعارفين المتذوقين لهذا المشرب الوجودي إنما هي « تنزلاته » .

ولكن لو حالف التوفيق الرباني ، ورافق الهدى النبوي ، وكان السالك صاحب طموح وعلو همة ، فإنه يفوز بمقام آخر ، وهو مقام « وحدة الشهود » .

وهكا يضيف الإمام السرهندي - مع نقضه لنظرية وحدة الوجود - الذي كان مذهب غالب المتصوفين والحكماء المدققين ، والإشراقين المتعمقين ، واعترافه بعلو كعب مؤسس هذه النظرية - علمياً - ورائدها الأكبر ، الشيخ محيى الدين بن عربي - في كثير من العلوم والتحقيقات - إضافة جديدة ، ويكتشف عالماً جديداً يوافق عقيدة جمهور المسلمين ، ويتفق مع الكتاب والسنة والشريعة الإسلامية ، في جانب ، ويضيف شيئاً - بدون أن يرجع بالعلوم القهقري ، ويلغى تحقيقات جماعة كبيرة ذات شأن وعلومها ومداركها - ينسجم مع التحقيقات والكشوف الأخيرة في الأنفس والآفاق ، ويتلاءم مع النصوص الشرعية ، والأصول القطعية ، ويطابق بينها جميعاً .

### التجربة والمشاهدة الشخصية :

واقراً معي - بعد هذا التمهيد البسيط - مقتبسات من رسائل الإمام العالية - التي هي

أقرب إلى الفهم ، وأوضح في العبارة ، وأسهل للإدراك .

يتحدث عن تقدمه ورقيه في الروحانية ، وانتقاله من مذهب « وحدة الوجود » إلى « وحدة الشهود » ما شاهد - أثناء ذلك ، فيكتب إلى بعض أصحابه المتصلين به من المشايخ الصوفية :

« سيدى العزيز ! كان هذا الفقير - من الصغر - يعتقد اعتقاد أهل التوحيد ( أصحاب وحدة الوجود ) وكان والد الفقير - قدس سره - على هذا المذهب ، ويشغل به الطريقة ، فقال هذا الفقير ، حسب ما يقال : « ابن الفقيه نصف الفقيه » قسطاً علمياً وافراً من هذه الطريقة ، فكان يجد فيها لذة ومنتعة كبيرة ، حتى ساقنى سائق التوفيق الربانى إلى الإمام العارف بالحقائق والمعارف ، مؤيد الدين ، الشيخ الراشد المرشد إلى صراط الله المستقيم ، محمد الباقي - قدس سره - فعلمه الشيخ المرشد الطريقة النقشبندية لهذا الطريقة مدة قليلة - « التوحيد الوجودى » ، وكان فى هذا الاكتشاف شىء من التطرف والمغالاة ، وفاضت عليه فى هذا المقام علوم ومعارف كثيرة ، حتى لم يبق شىء من دقيق وجليل يتعلق بها المقام إلا أنكشف عليه وظهر له جلياً .

وتجلت له علوم الشيخ محى الدين بن عربى الدقيقة الخطيرة ، كما ينبغى أن تتجلى ، وفاز بمعراج التجلى الذاتى الذى ذكر صاحب الفصوص ، والمقام الأعلى فيه الذى يقول عنه : « ما بعد هذا إلا العدم المحض » ووقف على علوم هذا التجلى معارفه التى يظن الشيخ اختصاصها بخاتم الولاية ، بإفاضة وتفصيل ، وبلغ منه السكر فى هذا المقام وغلبة الحال حتى كتب فى بعض رسائله التى بعث بها إلى الشيخ المرشد ، أبياتاً من الشعر فى السكر .

وطال هذا الحال مدة طويلة ، ودام شهوراً بل أعوام ، إذ فاجئته العناية الربانية ، وتطلعت من نافذة الغيب ، تجلت ، وجلت ذلك الغطاء الذى كان مسدلاً على « لا كيف ولا كم » ، « ليس كمثله شىء » ، ومات تلك العلوم والمعارف السابقة التى كانت تنبىء عن الاتحاد والوحدة إلى الزوال والانقراض ، وتستررت تلك الإحاطة ، والسريان ، والقرب والمعية الذاتية التى كان انكشافها فى ذلك المقام ، واختفت ، وظهر العلم الذى هو يقين اليقين ، إنه ليست لهذا العالم الصانع للكون ، أى نسبه من تلك النسب التى تعزى إليه ، وأن إحاطته ومعيته علمية ، وليست بذاتية ، كما هى عقيدة أهل الحق ، « شكر الله سعيهم » إن الله الأحد القدوس لا يتحد بشىء « ليس كمثله شىء » والعالم متمم بالحدث والنقص ، والمحدودية ، فكيف يمكن أن يكون مالا يوصف بالكيف والكم عين أو مثل ما

يوصف بالكيف والكم ، وكيف يقال للواجب إنه عين الممكن ولن يكون القديم عين الحادث ، ولا ممتنع العدم عين جائز العدم ، وانقلاب الحقائق مستحيل - عقلاً وشرعاً - ولا يصح - أبداً - أن يحمل شيء على شيء آخر أصلاً ورأساً ، والعجب من الشيخ محي الدين وأتباعه يصفون واجب الوجود بالمجهول المطلق ، ولا يرونه محكوماً عليه بحكم ، ورغم ذلك يثبتون الإحاطة الذاتية والقرب ، والمعية الذاتية ، والصحيح في هذا الباب ما قاله علماء أهل السنة ، إن الأمر كله راجع إلى القرب العلمى ، والإحاطة العلمية .

فى أيام فيضان هذه العلوم والمعارف المخالفة لوحدة الوجود ، قاسى هذا الفقير فترة صعبة قلقة ، لأنه ما كان يظن أن وراء هذا التوحيد توحيد آخر ، فكان يدعو متضرعاً مبتهلاً ، أن لا يسلب هذه المعرفة حتى انقشعت تلك الحجب كلها التى كانت ملقاة على وجه هذه الحقيقة ، وتجلت الحقيقة الواقعة وعلم أن العالم وإن كان بمثابة مرآة لصفات الله الكاملة ، ولكن العكس الذى تراه على وجه المرآة ، ليس هو ذلك لوجود نفسه الذى ينعكس مظهره عليها ، وأن الظل لا يمكن أن يكون عين صاحب الظل ، كما يعتقد أصحاب وحدة الوجود .

ولنضرب لشرح ذلك أكثر من ذى قبل ، مثلاً ، أراد عالم بارع يجمع بين جميع العلوم والفنون ، أن يظهر كماله وكفاءاته المتنوعة الكثيرة ، ويعلن فضائله ومحاسنه الخفية على مشاهد الناس ، فأبدع حروفاً وأصواتاً ليظهر كما لاته المخفية فى مرآة هذه الحروف والأصوات ، فلا يمكن - فى هذه الحال - أن يقال : إن هذه الحروف والأصوات التى هى مظهر هذه المحاسن المستورة ، ومرآة الكمال المكنون ، إنما هى عين هذه المحاسن والكمال ، أو أنها محيطة بها إحاطة كاملة ، أو أنها قريبة منها أو معها معية ذاتية ، وقرباً ذاتياً ، بل إن بينهما من النسبة ما بين الدال والمدلول عليه ، فليست هذه الحروف والأصوات إلاً دليلاً على هذا الكمال ، وما نشأت من النسبة بينهما ، إنما هى بفعل الوهم والخيال ، والحق أنه لا تتحقق نسبة من نسب - العينية ، والاتحاد ، وإحاطة القرب ، والمعية الذاتية - هناك ، ولكن لما أن نسبة الظاهر ، والمظهر ، والدال والمدلول عليه متحققة بين هذه الأصوات والحروف ، والمحاسن والكمال لذلك تحصل - بتأثير بعض العوامل والعوارض - لبعض الناس ، هذه النسب ، الوهمية المتخيلة ، ولكن هذه المحاسن - فى حقيقة الأمر - خالية بعيدة من جميع هذه النسب ، ولا صلة بين الحق والخلق ، إلاً ما يتصور من صلة بين الدال والمدلول عليه ، والظاهر والمظهر ، وتؤدى كثرة مراقبة التوحيد ببعض السالكين إلى إصدار هذه الأحكام الوهمية ، لأن صورة هذه المراقبات تنقش فى القوة المتخيلة ، تثبت

فيها ، ويحصل لبعض الناس - للإمعان في دراسة علم الوحدة ، ومذاكرتها ، وإجالة النظر فيها - ذوق خاص في هذه الأحكام ، ويدفع بعض الناس إلى هذه النزعة الوجودية ، والاعتقاد بالوحدة ، غلبة الحب عليهم ، لأن استيلاء حب المحبوب على القلب يطرد غير المحبوب ، فلا يرى في العالم إلا المحبوب ، وليس الواقع أن غير المحبوب معدوم ، إذ أنه معارض للعقل والحس والشرع ، وتدفع هذه المحبة نفسها أحياناً إلى الحكم بالقرب الذاتى والإحاطة الذاتية . . . وأن هذا النوع من التوحيد أرفع وأفضل من النوعين السابقين ، داخل في دائرة « الأحوال » وإن كان لا يطابق الواقع ولا يتفق مع العقل ، وتطبيقها مع الشريعة والواقع ، تنطع وتكلف خالص ، وغاية ما في الباب أنه خطأ كشفى ، هو في حكم الخطأ الاجتهادى يرتفع عنه العتاب واللوم ، بل يصوب أحياناً لغلبة الحال واستيلاء السكر» (١) .

### التوحيد الشهودى ( أو وحدة الشهود ) :

ويقول الإمام في رسالة أخرى ، كتبها إلى الشيخ فريد البخارى :

« إن التوحيد الذى يحصل للصوفية في أثناء سلوكهم ينقسم قسمين : التوحيد الشهودى ، والتوحيد الوجودى ، والتوحيد الشهودى عبارة عن رؤية احد ، أى أن لا يكون شهود السالك إلا فرداً أحداً ، والتوحيد الوجودى عبارة عن اعتقاد وجود واحد ، وفناء كل ما سواه وعدمه » .

ثم يقول :

« مثل أن يطمئن قلب إنسان على وجود الشمس ، فلا يستلزم استيلاء هذا اليقين أن يعتقد عدم النجوم وفناءها ، ولكنه عندما يرى الشمس ولا يرى النجوم ، فإن مشهوده - حينئذ - ليس إلا الشمس ، ولكنه رغم ذلك لا يعتقد أن النجوم فانية معدومة ، بل يكون على يقين من أنها مختفية ، ومغلوبة بضوء الشمس وشعاعه » .

ويضيف قائلاً :

« كان شيخنا المرشد الشيخ الكبير عبد الباقي - لمدة يسيرة - على مذهب التوحيد الوجودى ، وقد أبدى ذلك في رسائله ، ولكن العناية الربانية تقدمت به من هذا المقام أعلى ، وهدته إلى ذلك الصراط السوى ، والطريقة الفسيحة التى نجا بها من ضيق هذه

---

(١) الرسالة رقم : ٣١ ، المجموعة الاولى كتبها الى شيخ صوفى .



ويقول فى رسالة أخرى ، مبيناً مذهب الشيخ ابن عربى وأتباعه :

« إنه يقول : « وحدة الوجود » ، ويرى أنه لا موجود فى الخارج إلا موجود واحد ، ليس غير ، وهو الحق - سبحانه - ولا جود للعالم فى الخارج - بتاتاً - إلا أنه يعتقد بتحقيقه العلمى ، ويقول : « الأعيان ما شمت رائحة الوجود » ويعتقد أن العالم ظل الله سبحانه - ولكن هذا الوجود الظلى - بزعمه - فى مرتبة الحسّ ، أما فى نفس الأمر وفى الخارج فعدم محض .

ويحكى الإمام السرهندى فى نفس هذه التوحيد قصة انتقاله من مقام « وحدة الوجود » إلى « وحدة الشهود » ، فيقول :

« لقد كان كاتب السطور يعتقد أولاً فى التوحيد الوجودى ، وكان على علم بهذا التوحيد من صغره ، وقد رسخ يقينه فى قلبه ، إلا أنه لم يكن - عند ذلك - صاحب الحال فى هذا المقام ، فلما شدا فى طريق السلوك ، انكشف له طريق توحيد الوجود خاصة ، فجال فى هذا المقام ومراتبه وصال ، لمدة طويلة من الزمن ، وفاز بعلوم كثيرة خاصة بهذا المقام ، وانحلت عقد تلك الواردات والخواطر المشككة التى تعرض لسالكى طريق الوحدة ، بهذه المكاشفات ، والعلوم المفاضة الموهوبة ، ثم استولت على هذا الفقير بعد مدة قليلة نسبة أخرى ، فتردد فى طريق توحيد الوجود فى حال استيلاء هذه النسبة ، ولكن هذا التردد كان يرافقه حسن الظن ، لا الإنكار والجحود ، وبقي متوقفاً متردداً مدة طويلة من الزمن ، حتى بلغ به الحال إلى الإنكار ، وكشف له أن هذه المنزلة أدنى وأحط ، ووصل إلى مقام الظلية الذى يفوقها ويفضل عليها ، وكان هذا الإنكار اضطراراً وعن اندفاع ، فإنه لم يكن يحب الخروج من هذا المقام ، لأن كبار المشايخ العارفين ألقوا به عصا الترحال ، ولكنه لما بلغ مقام الظلية ، رأى نفسه والعالم كله ظلاً ، تمنى أن لا يفارق هذا المقام ، لأنه كان يعتقد الكمال فى وحدة الوجود ، ولهذا المقام مناسبة بها بالجملة ، ولكن كان من مقادير الله ، ولطفه وكمال شفقتة عليه ، أن رقاها إلى مقام أسمى وأرفع ، هو مقام العبدية فتجلى له عند ذاك - كمال هذا المقام وعظمتة ، وجعل يتوب إلى الله ، ويستغفره من المقامات السابقة ، فلو لم يكن لطف الله أرشد هذا المسكين إلى هذه الجادة الواضحة ،

---

(١) الرسالة رقم : ٤٣ ، المجموعة الأولى ، هى موجهة الى الشيخ فريد البخرى .

ولم يكشف له تفوق مقام على مقام ، لكان يعتقد انحطاطه وسقوطه في ذلك المقام ، لأنه كان يرى أن لا مقام أفضل وأعلى من مقام « وحدة الوجود » ، « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل »<sup>(١)</sup> .

### الرأى الوسط العادل عن الشيخ الأكبر :

يقول الإمام - رغم ما بينه وبين الشيخ ابن عربى من اختلاف ، مبيناً مذهبه ومنهجه :

« يرى هذا الفقير أن الشيخ محيى الدين بن عربى من الرجال المقبلين ولكنه يرى معارفه وعلومه التى يخالف فيها عقائد جمهور الأمة ، وظاهر الكتاب والسنة - خطأ وضرراً على قارئها . . . وقد سلك الناس فى أمره مسلك الإفراط التفريط ، وابتعدوا عن التوسط والاعتدال ، ففريق من الناس يطعن فى الشيخ ويجرحه ، ويخطئه فى علومه ومعارفه ، وفريق قلده تقليداً كاملاً ، واعتقد جميع معارفه وعلومه حقاً وصواباً ، ويثبت صحتها وحقيقتها بالحجج البراهين ، وما من شك أن كلا الفريقين وقع فى الإفراط والتفريط ، وجانب الاعتدال » .

« ومما يعجب له أن الشيخ ابن عربى يبدو من المقبلين ، وتبدو أكثر معارفه وتحقيقاته التى جانب فيها أهل الحق خاطئة بعيدة عن الصواب »<sup>(٢)</sup> .

ويذكر - فى موضع من رسائله - الفارق الحقيقى بينه وبين عامة المثبتين أو النافين « لوحدة الوجود » ، فيقول :

« إن اختلاف هذا الفقير مع القائلين بوحدة الوجود ، عن طريق الكشف والشهود ، والعلماء يستقبحون هذه الأمور (كوحدة الوجود ، والنفى المطلق لما سوى واجب الوجود) أما الفقير فلا يتردد فى الاعتراف بحسن هذه الأقوال والأحوال الصادرة من فكرة وحدة الوجود ، إذا أدت بصاحبها إلى العبور ، « أى أن يعبر السالك هذا المقام إلى مقام أرفع »<sup>(٣)</sup> .

(١) الرسالة رقم : ١٦٠ ، المجموعة الأولى كتبها الى شيخ يار محمد الجديد البدخشى الطالقانى .

(٢) الرسالة رقم : ٢٦٦ ، المجموعة الأولى .

(٣) وهو مقام العبدية والتوحيد ، الذى جاء به الأنبياء ( صلوات الله عليهم وسلامه ) ، الرسالة رقم :

٤٢ ، المجموعة الثانية ، بعث بها إلى الشيخ جمال الدين حسين .

## الحاجة إلى معارضة وحدة الوجود والرد عليها :

وهنا يثور سؤال ، وهو أنه ما دامت « وحدة الوجود » مقامًا من مقامات السلوك ، ومرحلة انتقالية ، مرّ بها - فى كل عصر - جم غفير من السالكين والعارفين ، فتوقف فريق كبير منهم عند هذه المرحلة وثبت عليها ، وقاد بعضهم التوفيق الإلهى ، والسعادة الربانية من هذه المرحلة ، إلى مقام « وحدة الشهود » ، فما وجه الاستنكار والاعتراض ؟ ، ولماذا يكرُّ عليها الإمام السرهندى بالرد والتفنيد ، ويستخدم قلمه السيل - فى قوة وحماس - لتقرير وحدة الشهود وتفضيلها على « وحدة الوجود » ؟ .

وللإجابة على ذلك نقول : إنه نشأ هناك بين القالين بنظرية « وحدة الوجود » الحاملين للوائها ، والدعاة المتحمسين إليها - فى عصر الإمام السرهندى ، وقبل عصره - عدد كبير من الصوفية المترعمين الذين تحرروا من كل الى الحدود الشرعية ، وخلعوا ربقة الفرائض ، والواجبات الإسلامية واعتقدوا أن كل شىء من عند الحق ، بل كله عين الحق ، فلماذا هذا التفريق والتمييز بين الحق والباطل ، والكفر والإيمان ، والحلال والحرام ؟ ، وأن غاية أنفسهم مقام أسمى وأرفع لا يحظى بها إلا الكاملون الواصلون إلى حضرات القدس ، هو مقام وحدة الوجود ، وقد كانت هذه الصبغة الوجودية - فى القرن العاشر ، العصر الذى ولد فيه الإمام السرهندى ، وعقل ووعى ونضج روحياً وفكرياً - هى السائدة فى الهند ، حتى كان الشعراء المتذوقون لهذه المعانى يتغنون بهذه العقيدة ، ويساوون بين الكفر والإيمان ، بل قد يتعدون حدود ذلك إلى ترجيح الكفر على الإيمان ، وكان الناس يرددون أبياتاً معناها :

« الكفر الإيمان قرينان ، فمن لم يتمتع بالكفر لم يتمتع بالإيمان » .

ثم قيل فى بعض الكتب شرحاً لهذا البيت ، إيضاحاً لمعناه :

« ثبت من ذلك أن الإسلام فى الكفر ، الكفر فى الإسلام ، يعنى « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » فالمراد بالليل هو الكفر ، والمراد بالنهار الإسلام » .

وينقل فى موضع آخر ، البيت الى معناه :

« للعشق مع الكفر صلة وقرابة ، الكفر يتجلى فى نفس الإشراق والتصوف » .

ثم يقول :

« أصبح العلم حجاباً أكبر ، - والمراد بها العلم العبدية التى هى حجاب أكبر فإذا ارتفع

هذا الحجاب ، اختلط الكفر بالإيمان ، والإيمان بالكفر وارتفعت العبادة العبودية (١) .

هذه هي الخلفيات الخطيرة التي بعث الإمام السرهندي على الحاسة الدينية العلمية لهذه العقيدة وقد هبه الله قسطاً كبيراً من الحمية الدينية الثائرة ، والغيرة « العمرية » الشديدة والذي كانت تتحقق به تلك النبوءة العظيمة في الحديث المشهور ، التي قيل فيها : « يحملها العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » (٢) .

وقد قام بالنقد العلمى الموضوعى لهذه الفكرة التي تستخدم لنشرها وتعميمها كل وسائل النشر والإذاعة فى ذلك العصر ، وفى بلاد الهند - بصفة خاصة - فى حماس بالغ ونشاط زائد ، وبكل حرية وانطلاق ، كان الإمام السرهندي يشهد بأمر عينيه أن التمسك بالشرعية ، وتعظيم حرمتها ، وشعائرها نحو الزوال ، وأن التفكك والانحلال يتسربان إلى الأمة الإسلامية ، يقول فى رسالة من رسائله :

« إن معظم أبناء هذا العصر - اعتماداً على التقليد أو على قوة العلم المحض ، أو اعتماداً على العلم الذى يختلط معه الذوق ، ولو فى قدر محدود - أو بسبب الزندقة والإلحاد - تمسكوا بفلسفة « وحدة الوجود » فيعتقدون أن كل شىء من الحق ، بل هو عين الحق ، ويخلعون - بحيلة أو أخرى - عن رقابهم ربقة التكاليف الشرعية ، ويتساهلون فى العلم بالأحكام الشرعية ، ويداهنون ، هم فرحون بسلوكهم هذا ومطمئنون ، وأنهم إذا اعترفوا بضررة العمل بالأوامر والنواهي الشرعية ، واعترفوا به كعمل ثانى فرعى ويرون الغاية المبتغاة وراء طور الشريعة ، حاشا لله ، ثم حاشا لله أعاذنا من هذه العقائد الفاسدة السيئة » .

ويقول فى نفس هذه الرسالة :

إن كثيراً من الناس ، الذين تلبسوا بلباس الصوفية ، فى عصرنا هذا ، يعلنون عقيدة وحدة الوجود على ملام من الناس ، ولا يعتقدون الكمال والرقى إلا فيها ، فقد جانبوا بعملهم هذا وجه الحقيقة والصواب ، وحملوا أقوال المشايخ على ما يخطر فى عقولهم من معان وأفكار ، ثم قلدوها، واعتنقوها ، وهكذا جعلوا سوق أوهاهم وتخيلاتهم الكاسدة

(١) انظر « رسالة عشقية » ، ص ٧٣ .

(٢) مشكاة المصابيح ، كتاب العلم .

نافقة متحركة » (١) .

## ميزة الإمام السرهندي وعبقريته :

ليست مآثرة الإمام التجديدية فى إثباته بالدليل والبرهان أن نظرية « وحدة الوجود » التى كان لها القبول العام ، وكانت كالعملة السائدة ، لا تجدر بأن تكون مقياساً صحيحاً ، وغاية أخيرة فى طريق السلوك المعرفة ، بل إن ميزته وعبقريته فى هذا الباب ، أنه تناول هذه النظرية بالنقد فى ضوء تجاربه الشخصية ومشاهداته الذاتية ، وأثبت للناس أنه سبر أعماق هذا البحر الزاخر وأبعاده ، ونزل إلى قعره ثم خرج ، وقد ساقه التوفيق إلى أن يجدف سفينة المعرفة التحقيق إلى بر الأمان ، وشاطئ السلامة ، وأنه يتعذر - فى هذا المجال - أن يكون له زميل أو مثيل ، وقد أصاب المؤلف الغربى بيتر هاردى ( Peter Hardy ) رغم أنه ليس حجة فى هذا الباب :

« إن سرّ النجاح العظيم الذى أحرزه الشيخ السرهندي يكمن فى أنه قد خلّص الإسلام الهندى عن طريق التصوف من التطرف الصوفى ، ولعل السبب وراء ذلك ، أن النظرية التى رد عليها وعارضها ، كان على إدراك شخصى عميق لمعانيها ومقاصدها ، وأهميتها وخطورتها » (٢) .

## موقف العلماء والمشايخ بعد الإمام السرهندي

### تجاه نظرية وحدة الوجود :

وقبل أن ننتهى من هذا الباب لابد من إعلان هذه الحقيقة التاريخية كمؤرخ محايد ، إنه لم تبق هناك بعد وفاة الإمام السرهندي - باستثناء سلسلته وطريقته الخاصة التى انتشرت على أيدى ابنه الشيخ محمد معصوم فى الهند وخارج الهند - نزعة واضحة حاسمة فىم يتعلق بنظرية وحدة الوجود ، ولم يبق ذلك اليقين والإيمان بصحة حاسمة فيما يتعلق بنظرية وحدة الشهود » التى رفع الإمام السرهندي لواءها ، وكان يقول بها على بينة ويدع إليها على بصيرة ، ونشأت بعد وفاته نزعة جديدة فى أوساط التصوف والطرق الصوفية والأوساط التى كانت تنتمى إليها هى : نزعة التوفيق والتطبيق بين النظريتين ، حتى قال بعض كبار العلماء المحققين : « إن هذا النزاع كان نزاعاً لفظياً صرفاً » ، وقال بعضهم :

(١) الرسالة رقم ك ٤٣ ، المجموعة الأولى ، بعث بها الى الشيخ فريد البخارى .

Sources of indion Tradition. N . Y . P - 449

(٢)

« إن الإمام السرهندي أخطأه التوفيق في هذا المجال ، وأنه لم يطلع على جميع مؤلفات الشيخ الأكبر ، ابن عربي » ، ولأجل لك ألف الشيخ غلام يحيى البهاري ( م ١١٨٠ هـ ) أحد مریدی الشيخ الأجل مرزا مظهر جان جانان (أحد المشايخ الكبار في السلسلة المجددية) بأمر منه ، كتاباً بعنوان « كلمة الحق » صرح فيه بتحقيق السرهندي ، وبينه بياناً شافياً ، ورد على تلك النزعة التطبيقية التي كان بعض أوساط السلسلة المجددية أيضاً يحاول على أساسها التوفيق بين وحدة الوجود ، ووحدة الشهود .

## الإمام أحمد بن عرفان الشهيد على أثر الإمام السرهندي :

وإذا كان هناك في هذه السلسلة المجددية العالية بعد وفاة الإمام - شيخ من المشايخ العارفين المحققين ، يدعو إلى نظرية « وحدة الشهود » الواضحة النيرة ، يسير على آثار الإمام السرهندي ، فهو شيخ السلسلة المجددية الأحسنية <sup>(١)</sup> المعروف ، الداعي إلى الله، المجاهد في سبيل الله الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الرائي بريلوي <sup>(٢)</sup> (ت ١٢٤٦ هـ).

---

(١) هي سلسلة الشيخ السيد آدم البنوري ، خليفة الإمام السرهندي ، التي تسمى السلسلة الأدمية ، والسلسلة الأحسنية .

(٢) ويمكن أن يكون ذلك نتيجة الميول التي ورثها عن آبائه ، لأن جده الرابع الشيخ الأجل السيد عبد الله الحسنی ، كان خليفة الشيخ السيد آدم البنوري ، كما يمكن أن يكون نتيجة بحثه وتحقيقه واجتهاده الذي كان جديراً به .

## الباب السابع

### جهود الإمام الدؤوبة الصامته فى توجيه الدولة إلى الإسلام من جديد

العلماء المشايخ الشجعان الصرحاء  
فى عهد « أكبر » و « جهانكير » :

ونرى من الواجب - قبل أن نذكر تلك الجهود الموفقة التى بذلها الإمام السرهندي ،  
التي غيرت مجرى الدولة وحولت تيارها العنيف - أن نصرح بحقيقة مهمة ، وهى أنه لا  
يصح التصور عن عهد الملك أكبر ، أنه كان يسود الهند ، خلال هذا الاضطراب - الذى  
يشبه الاضطهاد - صمت كامل ، ويخيم عليهم من أقصاها إلى أقصاها ، هدوء تام فى  
صفوف العلماء ، ولم يكن هناك من ينتقد « أكبر » ، ويعترض عليه ، ويعمل بالحديث  
المثير ولو بأدنى درجة من درجاته :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإنه لم يستطع فبقلبه ،  
وذلك أضعف الإيمان » <sup>(١)</sup> .

فنذكر - فيما يلى - رجالاً تشهد كتب التاريخ والتراجم ، بأنهم بذلوا جهودهم ، وأبدوا  
استنكارهم لهذه الأوضاع فى نطاق عملهم وقدر مستطاعهم ، وجأهروا بعواطفهم الدينية  
وحميتهم الإسلامية .

ذهب الشيخ ابراهيم المحدث الأكبر آبادي ( م ١٠٠١ هـ ) - ذات مرة - إلى معبد الملك  
الأكبر على دعوته ، فلم يأت بالأداب والتحيات التقليدية للملك ، التى كانت مخالفة  
للشريعة ، ثم خطب عنده ، فرغبه ورهبه ، وذكره بالله ، ولم يتهيب الشوكة والحشمة  
الملوكية <sup>(١)</sup> ، وغادر الشيخ حسين الأجميرى ، الذى توفى بعد عام ( ١٠٠٩ هـ ) ، مدينة  
أجمير استنكاراً لمجىء الملك أكبر هناك ، وساخطاً عليه ، فعزله الملك أكبر عن نظارة زاوية  
جده الشيخ الكبير معين الدين الجشتى وضريحه ، وأمر بجلائه إلى الحجاز ، فلما رجع

(١) متفق عليه .

(٢) انظر « نزهة الخواطر » ج ٥ .

إلى الهند ، لم يباشر سجدة التحية له غضب عليه السلطان ، وأمر بحبسه فى قلعة بكهر ، فلبث بها بضع سنين ، ثم أطلقه ، فلما مثل بين يديه أبى أن يحييه على المرسوم ، ولم يقبل هدية السلطان (١) .

وغضب السلطان - مرة - على الشيخ سلطان التهانيسرى - الذى كان من أصحاب الحظوة والتقرب لديه ، وكان السلطان أمره ، بترجمة « مهابهارات » - الكتاب المقدس عند الهنادك ، فى اللغة السنسكريتية - إلى اللغة الفارسية ، وكان سبب هذا الغضب اتهام الهنادك إياه بذبح بقرة - وكان ذبحها محظوراً فى القانون « الإلهى » الجديد - وأمر بجلائه إلى بهكر ، من أرض السند ، وولاه على كرور كبرى ، أى جعله محصلاً للخراج بها ، ثم بلغ السلطان عنه بعض الشكاوى ، التى تتعلق بموقفه الإسلامى الخالص ، فأمر السلطان بإعدامه ، ونفذ فيه الحكم عام ١٠٠٧ هـ (٢) .

وأكبر خطوة جريئة ومغامرة قام بها الشيخ شهباز كنبوه ( م ١٠٠٨ هـ ) الذى كان من كبار الأمراء فى بلاط السلطان أكبر ، وتولى أخيراً - منصب «مير بخشى (٤)» ، وكان ذا جرأة ونجدة لا يقصر عن قول الحق عند السلطان ، ولا يخافه ، ولا يبالى برضاه أو سخطه فى الأمور الشرعية ، فلم يقصر اللحية ، ولم يشرب الخمر ، ولم يرغب فى الدين الإلهى المخترع قط .

وقال شاه نوازخان فى « مآثر الأمراء » : « إن أكبر شاه السلطان كان يتفرج يماً بين العصر والمغرب ، على بركة ماء بفتحجور ، وكان شهباز خان بين يديه ، فأخذ بيده والتفت إليه ، وكان يمشى ويتكلم معه ، والناس كانوا يزعمون أن شهباز لا يستطيع أن ينزع يده عن يد السلطان فتفوته الصلاة وكان من عادته أن لا يتكلم بعد العصر إلى المغرب ، فلما رأى شهباز أن الشمس قد مالت إلى الغروب استأذن السلطان للصلاة ، فقال السلطان : تداركها بالقضاء ، ولا تتركنى خلياً ، فنزع شهباز يده ، وبسط مئزره على الأرض واشتغل بالصلاة ، ثم بالأوراد الراتبية والسلطان واقف على رأسه يشدد عليه ، وتواجد مير أبو الفتح ،

---

(١) انظر « نزهة الخواطر » ج ٥ ، ترجمة الشيخ حسين الأجميرى .

(٢) منتخب التواريخ ، وكان الشيخ التهانيسرى والد زوجة الإمام السرهندى .

(٣) الأمير الكبير الذى يرجع إليه أمر العساكر السلطانية المعينة فى تلك الولاية . وأمر « الداغ » أى وسم الخيل ، والتصحيح ، وغير ذلك من المهمات العسكرية ، وهو من أمراء الألوفا ( الهند فى العهد الإسلامى ) .



والحكيم على الكيلانى أيضاً فى تلك الساعة فشعرا بدقة الموقف فتقدما وقالوا - لصرف نظر السلطان وغضبه عنه - نحن نستحق أيضاً ، أن يلتفت إلينا السلطان ، فسكن غضبه ، وانصرف عن شهباز خان ، والتفت إليهما (١) .

وكان الشيخ عبد القادر الأجى كذلك من أصحاب النجدة والجرأة ، لم يوافق السلطان فى مخالفة الشريعة ، قدم إليه أكبر - ذات يوم الأفيون على جرى عادته ، فامتنع عن بلعه ، ذنكر عليه السلطان ، فبينما هو قد فرغ من الصلاة المكتوبة يوماً فى « عبادت خانة » - القصر الذى بناه أكبر للعبادة - واشتغل بالنوافل ، إذ خرج عليه أكبر ، وقال ينبغى لك أن تتنفل فى بيتك ، فقال عبد القادر : يا مولانا ، هذا ليس بملك فيكون تحت سلطانك ، فغضب عليه السلطان وقال : إذا لم تكن ترضى عن ملكى ، فاخرج عنه ، فخرج الشيخ من ساعته ، ورحل إلى مدينة « أج » ، وعكف على الإفادة والعبادة (٢) ، وكذلك سميه عيد القادر اللاهورى ( م ١٠٢٢ هـ ) الذى كان السلطان ساخطاً عليه لتصلبه فى الدين ، وشدة تمسكه بالشريعة ، فأمره أن يسافر إلى مكة المكرمة (٣) .

ومنهم مرزا عزيز الدين الدهلوى كوكه ( م ١٠٣٣ هـ ) الذى كان تربا لأكبر وأخاه من الرضاعة ، يحبه « أكبر » حباً مفرطاً ، ويقدمه فى كل باب ، وكان عزيز الدين - مع ذلك - يغلظ القول عليه فيما يأمره وينهاه ، لا سيما فيما يخالف الشرع ، فعزله عن ولاية كجرات ، ثم ولاه على بنكاله وبهار ، ولقبه بالخان أعظم وكان رغم ذلك ، لا يستحسن بعض ما اخترعه من السجدة بحضرته ، وحلق اللحية وغيرها ، ومنهم الشيخ منور بن عبد الحميد اللاهورى ( م ١٠١٥ هـ ) ولاه أكبر الصدارة عام ٩٨٥ هـ بأرض مالوه ، ولكن لم يدم له هذا الحال ، لصلابته فى الدين ، واستقامته فى السلوك ، وضيق عليه فى السجن حتى مات (٤) .

واستمرت - بعد جلوس السلطان جهانكير على عرش الدولة - القوانين والطقوس التى اخترعها أكبر ، وكانت نافذة فى عصره إلى مدة يسيرة ، فكانت تسود الدولة نفس الأساليب - والأعمال - عدا المعارضة الصريحة للإسلام - التى كانت من قبل ، إلى أن مال السلطان جهانكير إلى تعظيم الشريعة الإسلامية ، واحترام شعائرها ، وقد تصدى عدد من

(١) نزهة الخواطر ، ج ٥ ، ترجمة شهباز خان .

(٢) ، (٣) أيضاً ، وراجع هؤلاء المذكورين .

(٤) المصدر السابق نفسه ، وراجع تراجم هؤلاء المذكورين .

العلماء والمشايع أثناء تلك الفترة من عهد جهانكير - للإنكار على هذه التقاليد والقوانين ،  
وخاطروا بأنفسهم فى رفض تلك التقاليد والآداب على هذه التقاليد والقوانين ، وخاطروا  
بأنفسهم فى رفض تلك التقاليد والآداب الملوكية ، التى كانت تعارض الدين والشريعة  
الإسلامية البيضاء ، ولم يرضوا لأنفسهم بأن يتجاوزوا حدود الله ، ولم يتلعثموا فى الجهر  
بكلمة الحق ، فكان الشيخ أحمد بن محمد بن رلياس الحسينى الغرغشتى أحد مشايخ  
الطريقة فى الحدود الشمالية الغربية للهند ، طلبه جهانكير بين يديه ، فلم يرض أن يحييه  
بالآداب المرسومة ، فحبسه فى قلعة كواليار ، فلبث بها ثلاث سنين ثم أطلق سراحه عام  
١٠٢٠ هـ وأستصحبه إلى آكره .

### ميزة الإمام السرهندي من بين هؤلاء :

ولكن الفضل الأكبر فى مقاومة انحراف الدولة وضلالها ، معارضتها بقوة وتنظيم ،  
والجهود الموفقة الحكيمة فى إصلاحها وتقويمها يرجع إلى الإمام السرهندي الذى قبضه الله  
- عز وجل - لصيانة الدين ، ونصر الإسلام والمسلمين ، وقدر أن يناط هذا العمل  
التجديدي العظيم ، الذى واصل ليله بنهاره فى إكمال هذه الخطة التجديدية ، وإحداث  
تلك الثورة الصامته الهادئة التى لم تهرق فيها الدماء وغيرت مجرى التاريخ ، ولا يوجد لها  
نظير فى تاريخ الدول والبلاد الإسلامية الأخرى ، وكان نتيجة هذه الجهود أن تولى الدولة-  
بعد وفاة السلطان أكبر - من كان خيراً منه وأفضل ، يمتاز بحميته للإسلام ، وتعظيمه  
لحرمات الدين ، وسلامته من الجرائم المناوئة للإسلام والكراهية له ، وانتهت هذه السلسلة  
الذهبية ، وبلغت الأوج والكمال على يد السلطان محيى الدين أورنگ زيب الذى مكان  
مثله الأعلى حياة الخلفاء الراشدين ، وخدمتهم للإسلام والمسلمين<sup>(١)</sup> .

### جلوس السلطان جهانكير على عرش الدولة

#### واستئناف الإمام السرهندي عمله التجديدي لإصلاح الدولة والسلطان :

مات السلطان جلال الدين أكبر عام ١٠١٤ هـ ، وكان الإمام السرهندي - إذ ذاك - فى  
الثالثة والأربعين من سنه ، لقد كانت الأيام الأخيرة من حياة السلطان أكبر - التى أهدقت  
فيها الفتن والأخطار بالهند ، وهُدِّد الإسلام بالزوال والانقراض - هى الفترة التى بلغ فيها  
الإمام السرهندي كماله الروحي ونضجه الفكرى ، وذرورة الصفاء والربانية ، ولم تكن له

(١) نزهة الخواطر ، ج ٥ ، ترجمة أحمد بن محمد البجواروى .

أى صلة بأركان الدولة وأمرائها ، كما أنه لم يحن الوقت الذى يطلع فيه أهل البلاط على جلالته شأنه ، وعظم منزلته ، وإخلاصه ، وربانيته ، وكماله الباطنى ، ولأجل ذلك كان الإمام السرهندي لا يجد الطريق لبداية عمله ، وإزجاء مشاعره وانطباعاته ، وتسريب خواطره ، وأحاسيسه إلى البلاط الملكى ، وتأثيره على سياسة الدولة العامة فيما يتعلق بالدين والقانون ، وكان يستولى على البلاط ، وعقلية السلطان ونفسيته ، وعلى التنظيم والإدارة - عند ذاك - الأشخاص الذين كانوا يحولون بين السلطان وبين كل رجل متدين مخلص ، وقد أقاموا سوراً حديداً حول البلاط ، حتى لا تصل إليه نفحة طيبة منعشة ، ونسمة خالصة نقية من الخارجة ، ولا يعرف السلطان وحاشيته ما يدور فى البلاد وما يختلج فى نفوس الرعايا من كره أو حب ، أو سخط أو رضا ، وكان الإسلام والمسلمون فى هذه البلاد الواسعة - التى قامت فيها حكومات مسلمة قوية فى اتصال واستمرار - يعانون ما صوره القرآن الحكيم فى تعبيره البليغ المعجز :

﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ (١) .

ولكن لم يبق الوضع على ذلك بعد أن أخذ السلطان جهانكير زمام هذه البلاد بيده عام ١٠١٤ هـ ، ولئن كان جهانكير - لعوامل خاصة من التعليم والتربية فى إشراف والده السلطان أكبر - لا يمتاز بصلاح ونزعة دينية ملحوظة ، وتقيد بالشريعة الإسلامية ، والتزام للفرائض والواجبات الدينية ، فإنه لم يكن - كذلك - يحمل فى صدره البغض والاستيحاء من الإسلام ، أو الشغف والتأثر بحضارة قومية ، أو فلسفة من الفلسفات الدينية ، والرغبة فى إعلان دين جديد وقانون جديد ، وتنفيذهما ، وبتعبير آخر ، أنه إن لم يكن حامياً لبيضة الإسلام ، ذأباً عن حماه لم يكن كذلك راغباً فى محو آثاره ، وطمس معالمه ، فإن السلاطين المغرمين باللهو والمجون ، والمعيشة الفارهة الباذخة ، لا يُعَنون - بصفة خاصة - بإزالة النظم السائدة ، وإحلال النظم الجديدة مكانها ، بل إنما كلُّ همهم فى حياة الأفراح والليالى الملاح ، عز السلطان ، وفخفة الدولة ، وقد شوهد فيهم فى مطاوى النفس إعجاب وإكبار لأولئك الرجال الذين يتسامون بأنفسهم عن هذا المستوى المادى ، ولا يلتفتون إلى بهرج الدنيا وزينتها ، ويستغنون عن الجاه والمنصب ويكون لديهم استعداد أكثر لقبول الحق منهم ، والخضوع له ، من أولئك الذين يدعون إلى حركة ويتبنون فلسفة

(١) سورة التوبة - ١١٨ .

جديدة ، أو يطمحون إلى أن يكون لهم ذكر في التاريخ أو شهرة في الناس كمخترع  
طريقة، أو مبتكر مذهب خاص.

## المنهج الصحيح :

كانت في هذه الفترة - أمام الإمام السرهندي وجميع العلماء الغيارى على الإسلام -  
الذى كانوا يتحلون بالعلم الدينى ، والصلاح الباطنى ، وكانوا مشغولين بخواص أنفسهم  
ويقطعون فياقي السلوك إلى الله ، وتملك قلوبهم ومشاعرهم الحمية الدينية الثائرة ، والغيرة  
الإسلامية المتأججة لمواجهة هذه الأوضاع التى كانت تظل الدولة وتحيط بها - ثلاث طرق :

١ - الطريقة الأولى ، أن يعتزلوا الدولة والبلاد ، ويتركوا حبلها على غاربها ،  
ويلجأوا إلى زاوية ، يشتغلون فيها بذكر الله - فى سكينه وطمانينه - وتربية الطالبين وإرشاد  
السالكين ، والانهماك فى الطاعات والعبادات ، كان هذا هو الطريق الذى اختاره - فى عهد  
الإمام السرهندي - عشرات بل مئات من العلماء والمشايخ ، وكانت لهم رباطات وزوايا فى  
كل بقعة من البقاع حيث كانوا منصرفين إلى التربية والإرشاد فى هدوء وصمت وانهماك  
وكان الطالبون والمسترشدون من عباد الله يشدون إليهم الرحال ، ويستفيدون منهم فوائد  
روحية ، وإيمانية كبيرة .

٢ - الطريقة الثانية ، أن يقطعوا الرجاء - بصورة حاسمة - من إصلاح السلطان - الذى  
كان انتمائه إلى الأسرة الإسلامية إسمياً - ويعتبروه معارضاً عنيداً للإسلام تشهد بذلك كثير  
من القوانين والمراسيم الملكية ، وسيرته وسلوكه ، وييسوا من إصلاح الدولة ، فيلجأوا  
إلى إقامة جبهة دينية معارضة مقابل الدولة والسلطان وإلى محاربته ، والنضال المستمر معه  
نظراً إلى أنه عدو لدود للإسلام . ومعارض دائم للدين .

وأن يجمعوا حولهم رجالاً تغلى فيهم الحمية الدينية ، وتستولى على مشاعرهم عواطف  
الجهاد والاستماتة فى سبيل الله ، ويتميزون غيظاً من الأوضاع الراهنة من الأمراء والأتباع  
والمريدين : والمحبين والمعجبين بهم ، ويحدثوا - بعد ذلك - ثورة فى الدولة ، بالإجراءات  
السياسية والعسكرية ، ويحاولوا أن يولوا السلطة رجلاً صالحاً ديناً - ولو كان من الأسرة  
المغولية ، ومن أبناء « بابر » - بغير وجهة الدولة ، فتتغير الأوضاع ، وتحسن الظروف .

٣ - الطريقة الثالثة ، أن يتصلوا بأعضاء الدولة وأمائها ، ويشيروا الحمية الإسلامية ،  
والعواطف الدينية ، فيمن عرفوهم واتصلوا بهم من قبل ، ويعتقدون فى إخلاصهم ،  
وسمو شخصيتهم ، وتوجههم للأوضاع وينفضوا الرماد عن تلك الجمرات الكامنة فى

قلوبهم ، ويشعلوها وينفخوا فيها ، ويحرضوهم على النصيحة للسلطان ، وأن يحركوا تلك العروق الإسلامية التي ورثها عن آبائه وأجداده المؤمنين ، ويحملوه على حماية حوزة الإسلام ، وتضميد القلوب الجريحة للمسلمين وتدارك العهد الماضية ، وأن يسموا بأنفسهم ويترفعوا على الجاه والمناصب ، ويثبتوا للناس زهدهم وتقشفهم فى الحياة واستغناءهم عما فى أيدي الناس ، ويكلوا الدولة إلى أهل الدولة ، والمناصب إلى أهلها ، والمتبئين عليها ، ويتظاهروا بإخلاص ونزاهة ، وسمو نفس لا ترقى إليه شبهة ، ولا يقدر أشد الناس معارضة لهم ، وأكثرهم كيداً وحسداً ، أن يتهمهم بالحرص والطمع فى الجاه والسلطان ولا تنجح أى مؤامرة لإسقاط شأنهم وحط منزلتهم .

أما الطريق الأول فما كان يلائم طبيعة الإمام وعلو همته وشدة عزيمته ، وعظيم مكانته التى بوأه الله - تعالى - إياها ، ولا ينسجم معها أيما انسجام ، فقد كان الإمام السرهندي - بعد أن فاز بالتكميل الباطنى ، والتربية الروحية العالية - على ثقة ويقين تام ، بأن الله - سبحانه وتعالى - هياه لأمر عظيم ، وأن لم يخلق للعبادات الفردية المكتوبة ، والتقدم فى المراحل الروحية ، فحسب ، أو بشياخة الطرق ، وإرشاد السالكين فحسب ، وقد أباح سره وتحدث عن نفسه عندما أشار إلى قول من أقوال الشيخ الكبير الشيخ عبيد الله أحرار (م ٨٩٥ هـ) الذى كان شيخاً رفيع المكانة من مشايخ سلسلة الإمام السرهندي ، بل يعتبر إمام هذه السلسلة - يقول :

**كان الشيخ عيد الله الأحرار يقول :**

« لو تصديت للشياخة والإرشاد ، وأخذ البيعة من الناس لما وجد أى شيخ من مشايخ الطرق ، من يبايعه ، وينخرط فى سلك مريديه ، ولكن الله - تعالى - أراد بى أمراً آخر ، وهو نشر الشريعة السمحة ، وتأيد الملة الحنيفية . »

**ثم يقول الإمام تعليقا على ذلك :**

« كان ( الشيخ الكبير عبيد الله ) يدخل على السلاطين ويحضر فى مجالسهم ، ويؤثر فيهم بقوة الباطنية ، وملكته الروحية ، فينقادون له ، ويطيعونه ، ثم يستعين بهم فى نشر الشريعة . »

أما الطريق الثانى ، فإنه لا يسلكه من الدعاة أو القادة إلا صاحب عقلية سياسية ، قاصر النظر ، محدود التفكير الذى يبدأ عمله من الشك وسوء الظن ، ويجعل الحكومة - بتسرع وترجيح إقامة الجبهة المعارضة على حكمة الدعوة ، وعاطفة الإصلاح والنصيحة -

تقف إزاءه وجهًا لوجه ، وتعارضه من أول الطريق ، وهو بذلك يضيق عليه الأرض بما رحبت ويقلل إمكانيات انتصار الدين وهيمنة الشريعة وليس هذا طريق الداعى الموفق إلى الله الذى لا يريد لنفسه ولحزبه علواً فى الأرض ، وسيطرة على الحكم بل كل همه أن يظهر الدين وتنفذ أحكام الشريعة ، وتصلح الدولة ، كائنًا من كان المنفذ لهذه الأحكام المسيطر على البلاد .

وكان القيام بتكوين جبهة معارضة للدولة ، وإعلان الحرب عليها محفوفًا بالصعوبات والأخطار ، وكانت هذه الخطوة - فى الأوضاع السياسية السائدة فى البلاد - نوعًا من الانتحار فى حق الإسلام ، لأن الدولة المغولية ، التى وطد أركانها السلطان بابر وثبت جذورها بيديه ، وتجشم لها الملك همايون مشاق الرحلة الخطيرة إلى إيران ، وأحكمها وقواها السلطان أكبر بفتوحه ، وانتصاراته المتتالية ، وتسخير البلاد - كانت شابة فتية ، لم تبد فيها آثار الضعف والهرم ولم يستطع السلطان سليم شاه خليفة الملك العصامى السلطان شيرشاه السورى أن يقضى عليها ، وأخفقت كل المحاولات - فى فترات مختلفة - للثورة وقلب نظام الحكم ، ثم إذا نجحت الجهود لخلع السلطان المغولى ، كان من المتوقع جدًا ، أن يستولى الراجبوت - الذين تولوا فى عهد السلطان مناصب عالية خطيرة فى الدولة - وكانت قوتهم العسكرية هى الوحيدة التى كان السلطان يثق بها ويعتمد عليها - على الحكم فيكون ذلك ضربة قاصمة للسلطة فى هذه البلاد إلى الأبد .

ثم إن هذه التجربة لقيت إخفاقًا ذريعًا ، من قبل ، فقد قامت - فى عهد السلطان أكبر - حركة دينية ، منظمة كبيرة تحت قيادة الشيخ بايزيد - باسم الفرقة الروشنائية - وقد تقدم ذكر شىء من تاريخها وعقائدها - وحاربت هذه الفرقة جيوش الدولة المغولية الجرارة ، طوال أعوام وسنين ، واستولت على ممر خيبر ، بعد أن جعلت مقرها « جبل سليمان » وشنت غارات على المناطق المجاورة وبعث السلطان أكبر لمقاومتها « راجه مان سنكهه » و « راجه بيربل » و « وزين خان » وكلهم باؤوا بالخيبة والهزيمة ، وقتل بيربل فى معركة من المعارك واستولت الفرقة الروشنائية بجيشها اللجب على غزنين ، ولم يمكن التغلب على هذه الفتنة الداهية إلا فى عهد السلطان جهانكير ، ثم قضى عليها قضاءً باتًا فى عهد السلطان شاهجهان ، ورغم كل ذلك ، لم تنتج هذه الثورة إلاً فوضى واضطرابًا ، واستسلمت - أخيرًا - للدولة المغولية ، وبقي اسمها يذكر فى التاريخ .

إن مثل هذه الإجراءات العسكرية باسم إصلاح الأوضاع الفاسدة تستهدف للظنون السيئة ، والشكوك المريبة عند أصحاب السلطة والحكومات فيشمرون عن ساق الجلد - لظنهم

أن الدين هو العارض المناوئ لسلطتهم - لاستئصاله والقضاء عليه ، ويتبعون أتباعه والمتحسين له ، فيصفونهم ويبيدونهم إبادة كاملة ، ولعل الإمام السرهندى لأجل ذلك - بعد خروجه من معتقل كواليار ، ومرافقة العسكر الإجبارية أربع أو خمس سنين ، أشار على الوزير الشهير فى بلاط السلطان جهانكير الأمير مهابت خان عندما قام بالثورة عام ١٠٣٥ هـ على الدولة أن يكف عنها ، ولا يثير الاضطراب ، فكان دليلاً واضحاً على فراسته الإيمانية ، والتوفيق الربانى الذى كان حليفه ، إنه ما اختار - لحدث تغيير جذرى فى الأوضاع - هذا الطريق المشبوه المحفوف بالأخطار ، بل سلك طريق البناء بدل الهدم ، والإيجاب بدل السلب ، والإمالة بدل الإزالة الطريق الذى كان بمأمن من كل خطر وضرر .

ولم يبق بين يدي الإمام إلا طريق واحد ، وهو أن يبدأ باتصالات خاصة مع أركان الدولة وأعيانها - الذين كانوا مسلمين - وكان الإمام السرهندى يعرف بذكائه الموهوب - معرفته العميقة للنفوس إنه لم يكن لهم فى هذه المؤامرة والكيد على الإسلام فى عهد السلطان أكبر ، ناقة ولا جمل ، بل كانوا يستنكرون كثيراً من إجراءاته ، ولكن السلطة لم تكن بأيديهم حتى يعملوا شيئاً ، وكان عدد منهم يتصف بالحب العميق للإسلام ، والحمية الدينية ، وعدد آخر كانوا معجبين بشيخ الإمام ومرشده الشيخ الكبير عبد الباقي ، ويحبونه ويعتقدون فى علو مكانته ، وإن لم يكونوا من مريديه ، والمبايعين على يديه ، وكانوا يعرفون إخلاص الإمام السرهندى ، وتحرقه للإسلام وتوجهه للدين ، ووزهده وعفافه .

وكان أشهر هؤلاء الأعيان ، وأجلهم شأنًا النواب السيد مرتضى المعروف بالشيخ فريد (م ١٠٢٥ هـ) وخان أعظم مرزا كوكه (م ١٠٣٣ هـ) ووخان جهان اللودهى (م ١٠٤٠ هـ) وصدر جهان البهانوى (م ١٠٢٧ هـ) والإله بيك جهانكير .

ما صدر من القلب نفذ إلى القلب :

وجّه الإمام السرهندى خطابه إلى أركان الدولة وكبار الأمراء والوزراء ، واستأنف المراسلة معهم ، ونثر قطع قلبه ، ومُزِع نفسه على صفحات الرسائل ، التى تمتاز - بين مجاميع الرسائل التى كتبت فى لغة من لغات العالم وفى تاريخ أى حركة دينية إصلاحية - ببلاغتها ، ونصاعة أسلوبها ، وروعة تأثيرها ، وتدفق معانيها وقد تجلّى فيها تألم منشئها للوضع والواقع ، وإخلاصه واستحوذ الفكرة عليه فى أروع مظاهره ولا تزال - رغم مضى مئات السنين عليها - تحمل ذلك التأثير والروعة ، والجمال ، يقدر بملاحظتها القارىء ما كان لها من فعل وتأثير فى نفوس من وجّهت إليهم ، والواقع أن هذه الرسائل هى

رسول الإمام السرهندى ، وسفيره فى الدعوة والتبليغ وترجمانه الصحيح لقلبه الكلوم الجريح وهى قطرات دموعه ، وفلذات أكباده ، وقد كانت لها مساهمة أساسية فعالة فى إحداث ذلك الانقلاب العظيم الذى ظهر فى الدولة المغولية فى القرن العاشر بالهند .

### الرسائل الدعوية المحرّضة إلى أمراء الدولة :

إن عدداً كبيراً من هذه الرسائل بعث بها الإمام السرهندى إلى الأمير السيد فريد (١) ، الذى كان يتمتع بمكانة مرموقة فى أركان الدولة ، وأمراء الولايات ، وكان مستشاراً خاصاً ، وصاحب حظوة وزلفى فى الدولة ، من عهد السلطان أكبر ، وكان معجباً بالشيخ عبد الباقي ، محباً له مع الإجلال والاحترام وانتهز الإمام هذه الحمية الدينية فيه وشرف نسبه ، وحرّضه - مذكراً إياه بما خصه الله به من صفات النبل وكرم المحتد - على أداء مسؤوليته الدينية ، وما يفرض عليه كونه من أهل بيت النبوة من واجبات إسلامية ، وأن ينصح السلطان جهانكير ، ويشير عليه بما يغير مجرى الدولة من سيرها على خطة الملك أكبر ، وغفلتها من مقتضيات الإسلام ، وقلة الاهتمام بشأن الدين ، وما يعانى الإسلام والمسلمون من غربة ووحشة ، ويوجهها إلى تعظيم شعائر الدين الحنيف ، وحماية بيضة الإسلام ، واحترام الأحكام الشرعية والتعاليم النبوية .

ولا تحمل هذه الرسائل - للأسف - تاريخ كتابتها ، وإلاّ تعرفنا على جوانب كثيرة ، من حكمة الدعوة ، والتقدم التدريجى فيها ، ووقفنا على سلسلة هذه المراسلة ، وكيف وجه الإمام السرهندى من مخاطبه فى رسائله توجيهاً تربوياً وماذا عملوا للتأثير على السلطان ، ثم

---

(١) هو الأمير الكبير مرتضى بن أحمد أبى بكر البخارى المعروف بنواب فريد الدين ، أحد أجواد الدنيا ، لم يكن له نظير فى زمانه فى السياسة والتدبير ، والسخاء والكرم ، والمحبة لأهل الفضائل والميل إلى معالى الأمور ، أدرك أكبر بن همايون فى صغر سنه ، فتقرب إليه وتدرج إلى الإمارة حتى نال « الميربخشى كرى » ( وهو الذى يرفع إليه أمر العساكر ويعين لها الرواتب ) ثم لما ولى المملكة ولده جهانكير أضاف فى منصبه ، ولقبه بصاحب السيف والقلم ، وولاه على كجرات أولاً ، ثم على بنجاب ، فأقام بها مدة حياته ، وكان أجود الناس ، وأنفعهم خيراً ، لم يخيب سائله قط حتى كان يئذل عليهم قباءة ودثاره ، ورداءه ، وما كان عليه ، وكان قد وظف الأيامى والمتوكلين ، وأهل الحاجة ، من يومية وسنوية ، وكان يكفل اليتامى ويربهم كتربية الآباء للأبناء ويزوج البنات العوانس ، ويجهز لهن ، وكان يأكل على سفرته قرابة ألف وخمسمائة نفس كل يوم ، وسميت مدينة « فريد آباد » ( بقرب دهلى ) نسبة إليه ، توفى فى عام ١٠٢٥ هـ . (ملخص من ترجمته فى « نزهة الخواطر » ، ج ٥) .



كيف قام السلطان بتغيير وجهة الدولة إلى صيانة الإسلام وحمايته ، وكيف بدأت مخلفات الحكومات السابقة ورواسبها تفضل وتتلاشى - تدريجيًا ، ويحل محلها احترام الإسلام ومعرفة قدره وأهميته والميل إليه .

ونحن نحاول - حسب تقديرنا - أن نقدم هذه الرسائل مرتبة ترتيبًا تدريجيًا ، إلى حد ممكن .

يقول الإمام السرهندي في رسالة بعث بها إلى الأمير السيد فريد البخاري فور جلوس السلطان جهانكير على عرش المملكة ، كما يبدو :

يدعو له باستقامته على جادة آبائه الميامين وبخاصة جده سيد المرسلين - ﷺ - ثم يقول :

« إن السلطان في الدنيا ، كالقلب في البدن ، فإذا صلح القلب صلح الجسد ، وإذا فسد القلب فسد الجسد ، وإن صلاح السلطان ، صلاح الدنيا وفساد السلطان فساد الدنيا .

وأنتم تعرفون جيدًا ما منى به الإسلام في القرن الماضي - في عهد السلطان أكبر - من رزية ونكبة ، ولم يكن الإسلام - رغم غربته في القرون التي مضت قبله - ذليلاً مهانًا ، مثل ما كان في هذا القرن ، فقد كان في الزمن الذي مضى قبله ، يتمسك الكافر بكفره والمسلم بإسلامه ، «لكم دينكم ولي دين» ولكن ظهر أهل الكفر في القرن الماضي وغلبوا أهل الإسلام ، وبدأوا ينفذون أحكام الكفر بصورة سافرة - في دار الإسلام ، وكان المسلمون لا يقدرّون على إظهار أحكام دينهم ، ومن تجاسر على إظهار دينه لقي العقاب ، وحكم عليه بالإعدام .

واويلاه ، وامصبيته ، واحزنه ، واحسرتاه ! أتباع محمد - ﷺ - الذي هو حبيب رب العالمين - أذلة ضعفاء مهانون ، والجاحدون بنبوته ، أعزه أقوياء مكرمون ، كان المسلمون بقلوبهم الجريحة المكلومة ، يندبون الإسلام ، ويرثونه وينوحون عليه ، وكان المكابرون الجاحدون يسخرون ، ويستهزؤون وينكثون جروح المسلمين الدامية ، غابت شمس الهداية في ظلال الضلال ، واختفى نور الحق في حجب الباطل وسحبه الداكنة .

واليوم بعد أن زال ما كان يحول بين الإسلام ، وتقدمه وانتصاره ، وتشنت الأذان ، يبشرى تمكن سلطان الإسلام من عرش الحكومة ورأى أهل الإسلام من الواجب عليهم أن يساعدوا السلطان ويناصروه ، ويصروه بطريق نشر الشريعة الإسلامية ، وتأييد الأمة الحنيفة ، سواء كانت هذه المساعدة والمناصرة باليد أو باللسان .

ويقول بعد بضعة سطور ، وقد وضع الأصبع على الداء الذي أصيبت به الدولة في

العهد الماضى :

« كل رزية رزىء بها الإسلام فى القرن الماضى ، كان من شؤم علماء السوء ، فهم الذين أضلوا السلطان وأغووه ، وعندما تفرقت الملة الإسلامية اثنتين وسبعين فوقة واتخذت طريق الزيغ والضلال كان علماء السوء رؤوس هذه الفتن ، وقادة هذا الانحراف ، وقليل من ضل من العلماء وانحرف ، ولم يؤثر ضلاله على الناس ، وأن معظم جهلة هذا العصر ، والمتزعمين للتصوف يمثلون دور علماء السوء ، ففسادهم - كذلك - فساد متعدّد مُعد ، فإذا كان هناك من يستطيع أن يناصر فى هذا العمل ( نصر الدين الحنيف ) ثم يقصر ويتكاسل ولا يؤدى دوره ، فإنه مسئول عن الإسلام ، يستحق الملام .

نظراً إلى ذلك يحب هذا الفقير - الذى بضاعته مزجاة - أن ينضم إلى معسكر المناصرين للإسلام ، وللدولة المسلمة ، ويحاول جهده فى نصرة الدين ، فإن « من كثر سواد قوم فهو منهم » ، ومن يدرى ، لعل الله يجعل هذا الفقير من هذه الجماعة الكريمة ، وهو يرى أن مثله مثل تلك العجوز المسكينة ، التى قتلت عدداً من الحبائل ، لتسلك فى سلك المساومين فى يوسف الكريم<sup>(١)</sup> ، ويأمل هذا الفقير أن يتشرف بالحضور لديكم فى وقت قريب ، أرجو منكم - لتقربكم إلى السلطان وتهيئو الفرص فى الحديث معه - أن تبدلوا جهودكم فى تمكين الشريعة الحمديدية ونشرها ، وتخرجوا المسلمين من غربتهم ومسكتهم ومهانتهم<sup>(٢)</sup> .

ويقول فى رسالة أخرى إلى السيد فريد :

« إن المسلمين الغرباء الذين هم فى هذه الورطة الهائلة - فى هذه الأيام - إنما يتوقعون خلاصهم منها بسفينة أهل البيت ، فقد قال الرسول - ﷺ - : « مثل أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك »<sup>(٣)</sup> .

فركزوا همتمكم القعساء على هذا الهدف العظيم ، لتنالوا هذه السعادة العظمى ، وقد

---

(١) قصة يحكيها بعض القصاص ، وأوردها بعض المفسرين فى كتب التفسير ، وقد أصبحت مثلاً لمن يلقى دلوه فى الدلاء ، ويريد أن يخرط فى سلك الأغنياء والعظماء ، على قلة البضاعة .

(٢) الرسالة رقم : ٤٧ ، المجموعة الأولى .

(٣) رواه الطبرانى والبزار وغيرهما عن أبى ذر رضى الله عنه ، وروى عن ابن عباس وابن الزبير ، وأبى سعيد قال فى مجمع الزوائد ، فيه ابن لهيعة وهو لين ، وقال الهيثمى فيه جماعة لم أعرفهم ، مجمع الزوائد ١٦٨/٩ .

وهبكم الله - عز وجل - كل أنواع الحشمة والجاه والسلطان ، فلو جمعتم بين شرفكم فى النسب ، وبين هذه السعادة الجليلة ، لبذت سعادتكم جميع السعادات ، وينوى هذا الفقير - للتحديث معكم فى هذه الأمور التى يقصد من ورائها تأييد الشريعة الإسلامية وترويجها - أن يتشرف بالحضور لديكم (١) .

ويقول فى رسالة ثالثة إليه :

« سيدى الشريف ! إن الإسلام - اليوم - مسكين غريب ، وإن فلساً واحداً ينفق - الآن - لتقوية الإسلام وتأييده ، يعادل الملايين ، فلننظر من يكون ذلك الصقر الجرىء الذى ينعم الله عليه بهذه النعمة الجليلة ، إن العمل الذى يقوم به الإنسان لنشر الدين وتأييد الملة - فى أى عصر من العصور - جميل محبوب ولكنه اليوم حيث الإسلام غريب أجمل وأحب ، فجديرٌ بكم - أتم الأشراف - إذ أن هذه الثروة العظيمة من ميراثكم ، وهو لكم مباشرة ، ولغيركم بواسطة ، وإن وراثتكم لجدكم الكريم لها أهميتها الكبيرة فى نيل هذه السعادة ، فإن هذه الساعة هى التى ورد عنها الحديث ، ذلك : « عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إنكم فى زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك ، ثم يأتى زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا » (٢) .

وإن هذه الجماعة من الناس ، هى تلك الجماعة ، « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . والشخصية الثانية التى وقع اختيار الإمام السرهندى عليها بعد الأمير السيد فريد ، هو ركن الدولة المغولية المكين خان أعظم (٣) الذى كانت له مع الأسرة الملوكية صلة وقربة ماسة ، وكان جهانكير معترفاً بعلو مكانته ، وأهميته وكان فى قلبه إجلال وإكبار ، لمشايخ

(١) الرسالة رقم : ٥١ ، المجموعة الأولى .

(٢) رواه الترمذى ، وقال حديث غريب .

(٣) هو الأمير الكبير مرزا عزيز الدين ، كان يلقب بكوكه لكونه أخا السلطان أكبر من الرضاعة ، استوطن غزنين ، ثم مدينة دهلى ، كان والياً على كجرات عام ٩٨٠ هـ - ولما خالفه محمد حسين مرزا وحاصره ، سار إليه أكبر وجاب ١٤٠٠ ميل فى تسعة أيام ، وولى على بكاله وبهار بعد ولاية كجرات ، ولقب بلخان الأعظم ، وولى على كجرات مرة ثانية عام ٩٩٧ هـ .

ومع هذا التقرب والزلفى لدى السلطان ، كان يغلط القول عليه ، فيما يأمره وينهاه ، ورغم ذلك سلم إليه السلطان خاتمة « مهراوزك » وجعله وكيلاً مطلقاً فى مهمات الأمور وأسند إليه السلطان وجهانكير أيضاً مناصب خطيرة ، وولاه على كجرات وتوفى عام ١٠٣٣ هـ ( ملخص من ترجمته فى « نزهة الخواطر » ج ٥ ) .

الطريقة النقشبندية ، ولعل الإمام بعث بهذه الرسالة التالية إليه بعد تولى السلطان جهانكير للدولة - يقول فيها :

« أيدكم الله - سبحانه - ونصركم على أعداء الإسلام فى إعلان الإسلام ، قال رسول الله - ﷺ - : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » (١) . فقد بلغت غربة الإسلام فى هذه الديار أن أطال الكفار ألسنتهم على الإسلام ، ويعيبون المسلمين ، ولا يستحيون من إظهار أحكام الكفر ، ومدحه والثناء عليه فى المشاهد والأسواق ، والمسلمون إزاءهم لا يقدرّون على إظهار أحكام الإسلام ويُعابون إذا عملوا بها ويُذمون » .  
وقد قال الشاعر ما معناه :

« ما بال الحور العين مصفرة الوجوه ، شاحبة الألوان ، والسعالى فى الجمال والدلال ،  
يا للحيرة القاتلة ، ويا للعجب العجاب » .

ثم يقول :

« نرى وجودكم الكريم - اليوم - نعمة سابغة ، ولا رى فارساً غيركم فى الساحة لإدالة الإسلام من منافسيه ، وخصومه وإقالة عثاره ، أيدك الله ونصرك بحرمة النبی وآله الأمجاد عليه وعليهم الصلوات والتسليمات والبركات ، ورد فى الحديث الشريف ، ما معناه : « لن يؤمن أحدكم حتى يقال أنه مجنون » (٢) ، وإن الجنون الذى يكون دافعه الغيرة المفرطة على الإسلام ، لا نحس به الآن إلا فى طبيعتكم الفياضة ، فالحمد لله سبحانه على ذلك ، اليوم يوم الجزاء الجزيل الجليل على العمل الحقيق القليل ، لم يظهر من أصحاب الكهف من الأعمال البارزة إلا الهجرة العملية ، فكانت لها هذه الأهمية الكبيرة ، وإذا أبدى الجندى عند غلب الأعداء وانتصارهم ، شجاعته ونجدته ، يلقى من التبجيل والإكرام ما لا يلقاه فى حال الأمن والسلام ، إذ الأعداء فى بلادهم ، إن هذه الفرصة للجهاد بكامة الحق التى أتاحتها لكم اليوم هو الجهاد الأكبر فانتهزوا هذه الفرصة وقولوا : هل من مزيد واعتبروا هذا الجهاد باللسان - فى هذا الوقت بالذات - أفضل من الجهاد بالسيف والسنان ، ونحن الفقراء العجزة . حرماننا هذه النعمة العظيمة :

(١) رواه مسلم .

(٢) ولفظ الحديث كما أخرجه الحاكم المستدرک : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون » ( ص ٤٩٩ .  
ج ١ ) . قال الذهبى فى التلخيص : صحيح ورواه الامام أحمد فى المسند وابن حبان فى الصحيح  
كما جاء فى الجامع الصغير للسيوطى .

هنيئًا لأرباب النعيم نعيمهم وللعاشق المسكين ما يتجرع

هديناك إلى مكان الكثر الدفين ، فإن كنت لم أظفر به لعلك تظفر به .

ثم يقول بعد بضعة سطور :

« إن ما كان يشاهد من المعارضة العنيفة للدين الحنيف في الدولة السابقة لا نجدتها في هذه الدولة اللاحقة ، وإن كان هناك شيء من ذلك فسببه الجهل ، ويخاف أن يصل الأمر - بتدرج - إلى نفس تلك المعارضة والمعاندة ، ويضيق الخناق على المسلمين » (١) .

ويكتب إلى شخص آخر من أصحاب المناصب العالية في بلاط السلطان جهانكير ، وهو خان جهان (٢) ، في نفس الموضوع :

« لو جمعتم بين ما تتبأون من منصب كبير وبين العمل على الشريعة الإسلامية لأديتم أمانة الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات - وأوضحتم الدين المتين وأضأتموه ، وعممتموه ، ولو جهدنا - نحن الفقراء - أنفسنا أعوامًا طوالاً ، لما لحقنا بغبار أمثالكم من صفور الإسلام .

ألا نفوس أيّات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان ؟

ويقول في رسالة مسهبة :

« لا يعرف الناس قيمة تلك النعمة الجسيمة التي شرفكم الله - عز وجل بها وأخاف أنكم كذلك لا تعرفونها حق معرفتها ، ذلك ، أن السلاطين في هذه البلاد من سبعة أجيال ، مسلمون ، ومن أهل السنة والجماعة ، متمسكون بالمذهب الحنفي ، وإن كان في الزمن الأخير منذ بضعة أعوام - إذ الزمان زمان دنو الساعة وبعد العهد بالنبوة - تقرب بعض الأذكياء بشؤم طمعهم وحرصهم - الذي هو وليد فسار طبعهم ، وأضلوا السذج من الناس عن الصراط المستقيم ، ولما كان السلطان العظيم جهانكير يستمع إلى حديثكم بإصغاء واهتمام ، ويقدره قدره ، فما أجمل هذه الفرصة لتبلغوا إلى السلطان - بصريح العبارة أن الإشارة كلمة الحق التي يعتقدها أهل السنة والجماعة ، شكر الله سعيهم ، وتقدموا إليه

(١) الرسالة رقم : ٦٥ ، المجموعة الأولى .

(٢) الأمير الكبير خان جهان بن دولت خان اللودهي ، كان جهانكير يعتمد عليه ، ويحبه حباً مفرطاً لا يتصور فوقه ، وكان من خيار الأمراء ، يحب العلم والعلماء ، ويحسن إلى الناس كافة ، قام في عهد السلطان شاهجهان بالثورة ضده ، وقتل ١٠٤٠ هـ (« نزهة الخواطر » ، ج ٥ باختصار) .

بكلام أهل الحق ما اتسع له المقام ، واقتضى الحال ، بل انظروا والتمسوا دائماً مناسبة من المناسبات يتطرق فيها الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية ، حتى تنتهزوا الفرصة لإظهار أن الإسلام حق ، والكفر باطل شنيع « (١) .

وقد كتب الإمام السرهندي - عدا هؤلاء الأمراء الكبار وأعيان الدولة - رسائل عديدة تثير نفس المواضع إلى الإله بيك ، الذي كان يحتل منصب « بخشي » للسلطان مراد ، ابن السلطان أكبر ، وكان والياً على بهار ، يقول :

« زادنا الله - سبحانه - وإياك حمية الإسلام ، لقد مضى على غربة الإسلام ومسكنته قرن كامل ، وبلغ الحال بهذه البلاد إلى أن أهل الكفر لا يرضون بالعمل على أحكام الكفر فحسب ، بل يريدون أن تزول الأحكام الإسلامية - بتاتاً - ولا يبقى أى فرق بين الكفر والإسلام ، لقد تجاوز الأمر إلى أن مسلماً لو أراد إظهار شعيرة من شعائر دينه (كذبح البقرة) يعاقب بالقتل والإعدام » .

### ويزيد قائلاً :

« فلو تمكن الإسلام في بداية هذه الدولة ، وارتفعت رؤوس المسلمين ونالوا العزة والكرامة فيها ونعمت ، وإذا حال توقف في هذا الأمر دون ذلك ، والعياذ بالله ، فسوف يزداد حال المسلمين سوءاً وتعقداً ورزيئة ، فالغيث الغياث ، ثم الغياث الغياث ، فلننظر من المقبل المنصور الذي يشرفه الله بهذه السعادة ، ومن هو الصقر الجسور الذي يظفر بهذه النعمة الجليلة « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (٢) .

يقول في رسالة إلى « صدر جهان » (٣) أحد أمراء الدولة في عهد جهانكير :

« أنا على يقين من أن قادة الإسلام الأشراف العظام ، العلماء الكرام منصرفون إلى تأييد الدين المتين وتقويته ونصره ، وبناء الصراط المستقيم وتكميله - سرّاً وعلانية - فلا داعي لهذا الفقير العاجز إلى إطالة النفس ، والإفاضة في الحديث » (٤) .

(١) الرسالة رقم : ٦٧ ، المجموعة الثانية .

(٢) الرسالة رقم : ٨١ ، المجموعة الأولى .

(٣) هو الشيخ العالم المفتي صدر جهان الحسيني البهانوي ( مديرية هردوئي حالياً ) كان من العلماء المبرزين في العلوم العربية ، ولى الافتاء في المعسكر ثم ولى الصدارة ، وتلمذ عليه جهانكير ، أخذ عنه أربعين حديثاً ، ولاءه على منصب أربعة الاف ، وأقطعه أراضي واسعة عاش مئة وعشرين سنة ، مع صحة حواسه وسلامة أفعاله ، توفي سنة ١٠٢٧ هـ (نزهة الخواطر ، ج ٥ ملخص) .

(٤) الرسالة رقم : ١٩٤ ، المجموعة الأولى .

## ينبغي أن لا يعاد الخطأ مرة أخرى :

وحان - أخيراً - ذلك العهد السعيد الذى شعر فيه السلطان جهانكير بخطئه ، وأراد - حسب القوانين العامة للحكومة والإدارة - أن يكون لجنة من العلماء للاستشارة فى الأمور الدينية ، وتجنب الدولة من الأخطاء والمشاكل التى تقع فى هذا الصدد ، فطلب من أعيان الدولة المتدينين أن يبحثوا عن العلماء الصالحين ، ويدعوهم إلى البلاط ، ويحثوهم على أن يقيموا فى البلاط - بصفة دائمة - ليبينوا المسائل الشرعية ، ويستفتوا فى القضايا الدينية ، ويهتدى بهم .

ولما اطلع الإمام السرهندي - الذى آتاه الله الحكمة والفراسة الإيمانية ، والبصيرة فى الدين ، وكان يعرف خطأ الانحراف فى الدولة السابقة وتاريخه ، وعوامله وخلفياته معرفة عميقة - ارتاع لذلك ، بدل أن يفرح بهذا النبأ السار - فى الظاهر - وكتب رسالة إلى الأمير السيد فريد وأخرى إلى الأمير صدر جهان ، وقال فيهما ما يلى :

« أناشدكم بالله - سبحانه - أن لا تقدموا على هذا الخطأ ، واختاروا عالماً واحداً ، بانياً مخلصاً ، بدل أن تختاروا عدداً من علماء الظاهر » .

### ويقول فى الرسالة التى وجهها إلى السيد فريد :

« ثبتكم الله - سبحانه - على جادة آبائكم الكرام ، سمعنا ، أن سلطان الإسلام - بما جُب عليه من سلامة الفطرة ، ووجه للإسلام - أوصاكم بأن تختاروا أربعة من العلماء ، ليقموا فى البلاط ، ويبينوا المسائل الشرعية ، حتى لا يقع عمل من السلطان ، أو لا يصدر حكماً من الأحكام خلاف الشريعة الإسلامية ، الحمد لله - سبحانه - على ذلك ، فليست هناك بشرى للمسلمين أعظم من هذه البشرى ، ولا خبر يدخل السرور على المفجوعين والثكالى أعظم من هذا الخبر ، ولكن الفقير مضطر إلى أن يتحدث معكم قليلاً .

فإذى أريد أن أقوله ، هو أن مثل هؤلاء العلماء المتدينين الذى يتسامون بأنفسهم عن حب الجاه والسلطان ، ولا هم لهم إلا تأييد الإسلام ونصر الدين ، ونشر الشريعة لحنيفية ، أقل قليل ، فإن كان واحد من هؤلاء العلماء يميل إلى الجاه ، ويتظاهر بفضله تفوقه وبراعته ، ويشير مسائل خلافية ، ويحاول عن طريق ذلك ، الزلفى لدى السلطان ، الحفاوة والإكرام ، فإن ذلك يسىء إلى الدين ويعرضه للخطر ، فقد كانت هذه الخلافات لجزئية بين العلماء فى القرن الماضى ، هى التى سببت الكارثة ، وأصابت الدنيا

بداهية، ويعود نفس ذلك الخطر ، الذى يكون سبباً لتلف الدين وضياعه فضلاً عن تمكين الدين وتأييده ، العياذ بالله - سبحانه - من ذلك ، ومن فتنة العلماء السوء ، فلو اختير - بدل الأربعة - عالم واحد ، لكان أصلح وأحسن ، لأنه إن كان من علماء الآخرة فما أحسن ذلك ، ومجالسته كالكبريت الأحمر ، وإن لم يكن من علماء الآخرة ؛ فينبغى أن يختار من طبقة العلماء من هو أحسنهم حالاً ، وأفضلهم شأنًا « فما لا يدرك كله لا يترك كله » .

ثم يقول :

« لا أدري ماذا أكتب ، إن نجاة الخلق وخلصهم كما هو مرتبط بالعلماء ، كذلك خسرانهم وضياعهم مرتبط بالعلماء ، فأفضل الناس فى العلماء أفضلهم فى الدنيا ، وشر الناس من العلماء ، أسوأهم وأفسدهم فى الدنيا ، فقد ارتبط بهم الهداية والإضلال ، رأى بعض الصالحين إبليس اللعين قاعدًا فى تعطل وبطالة ، فسأله عن سبب ذلك ، فقال : إن علماء هذا العصر يكفوننا همنا ، ويؤدون دورنا فى الإغواء والإضلال ، ويقول الشاعر مخاطبًا للعلماء :

يا أيها القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

والغرض من كل ذلك ، أن لا تتخذوا أى إجراء فى هذا الصدد إلا بعد تروٍّ كثير وتفكير عميق ، لأنه إذا انقضى الأمر فلا تدارك ولا علاج ، وأنا خجل من مثل هذا الحديث مع أصحاب الفطنة والألمعية ، - مثل شخصكم الكريم - ولكن لاعتقادى أن هذا سبب سعادتى وجدت فى نفسى اندفاعًا إلى هذا الحديث « (١) .

المعجبون بالإمام السرهندي

من أعيان الدولة وأمرائها ، ومراسلته معهم :

عدا هولاء الأمراء - الذين تقدّم ذكرهم ممن راسلهم الإمام السرهندي ، وبكى فى رسالته ، دموعًا غزيرة من الدم على غربة الإسلام ، ومهانته ، وقلة حيلته وانتهاك حرمت الشعائر الإسلامية ، والأحكام الدينية ، وهوان المسلمين وإلجام ألسنتهم أن تنطق بالحق ، ووجههم - باستخدام مناصبهم الكبيرة ، ومكانتهم الخطيرة ، وخدماتهم العظيمة للدولة -

(١) الرسالة رقم : ٥٣ ، المجموعة الأولى وعالج نفس هذا الموضوع فى رسالة أخرى ، رقم : ١٩٤ ، المجموعة الأولى ، التى بعث بها الى الأمير صدر جهان .



إلى أن يلفتوا نظر السلطان إلى الأوضاع المتردية ، وما يعانى الإسلام من غربة ، وأن يثيروا فيه عرقه الإسلامى الذى ورثه عن آبائه ، ويوقظوا الحمية الدينية من سباتها ، عدا ذلك هناك رسائل إصلاحية تربوية أخرى - فى عدد كبير - كتبها إلى عدد من كبار الأمراء وأركان الدولة ، وعالج فيها مواضيع التربية والسلوك ، وحل فيها مشكلات الطريق ، وغوامض الفن ، وأرشدتهم فيها إلى الزهد فى الدنيا والرغبة عنها ، والشوق إلى نعيم الجنة ، والاهتمام بتنوير الباطن ، وتركية النفس ، وهذه الرسائل موجهة إلى عبد الرحيم خان خانان ( م ١٠٣٦ هـ ) و قليج خان الأندجانى الأكبرى ( م ١٠٢٣ هـ ) وخواجه جهان ( ١٠٢٩ هـ ) ومرزا داراب ابن خان خانان الجهانكىرى ( م ١٠٣٤ هـ ) وشرف الدين حسين البدخشى ، وبقدر من هذه الرسائل ، أن هؤلاء الأمراء الكبار كانوا يحبون الإمام ، ويجلوناه إجلالاً كبيراً وهى مثل ما يكتب الشيخ المرشد إلى مريديه ومسترشديه ينبههم على أخطائهم ، ويذكرهم وينصحهم ، ويبدى سروره وارتياحه على تقدمهم فى الدين ، ورفيهم فى الاستعداد الروحى ، وصفاء الباطن وقوة النسبة .

ويستطيع الإنسان أن يقدر من خلالها أيضاً أن هؤلاء الأمراء الكبار لم يكونوا قد قصرُوا فى النصيحة للإسلام والعطف عليه ، والجهر بكلمة الحق عند السلطان - حسب ما أراد الإمام السرهندى منهم لإصلاح الدولة والبلاد - وتحقيق آمال شيخهم ومرشدهم التى كان يعلقها بهم ، والتعاقد مع الأمراء الآخرين وتأييدهم فى انجاز ذلك الهدف العظيم الذى وجههم إليه الإمام السرهندى فى رسائله .

### تأثير الإمام السرهندى الشخصى وأثره الباطنى فى إصلاح الأوضاع :

ما ذكرنا - فيما تقدم - يتصل بتلك المحاولات والجهود التى بذلها الإمام عن طريق الأمراء ، فإن هذه الرسائل التى كانت تترى على الأمراء وأعيان الدولة من قبل الإمام السرهندى ، والتى كان يحرضهم فيها على نصر الإسلام وحماية الدين ، وتوجيه السلطان إلى احترام شعائر الإسلام وتنفيذ الشريعة الإسلامية ، وإصلاح الأوضاع الفاسدة ، الرسائل التى تبرى وترعد حماساً وحمية ، وتتدفق قوة غيرة ، وتكاد تسيل رقة وعذوبة ، لم تذهب هذه الجهود عن طريق الرسائل سدى فى تكميل خطته ، وأداء دوره ، وقد لعب من وجهت إليهم هذه الرسائل دورهم ، لا سيما الأمير السيد فريد الذى قام بمهمة موفقة أساسية فى تغيير تيار الدولة ، وتحويل اتجاهها إلى الإسلام من جديد .

ولكن لم يحدث - إلى ذلك الوقت - فى نفسية السلطان جهانكير ذلك التغيير الجذرى الذى كان يحتاج إليه هذا العمل العسير العظيم ، ومعلوم أن شخصية السلطان فى الحكومات الملوكية تحتل مكان النقطة المركزية والقطب الذى تدور حوله جميع أنظمة الدولة، فلو قصد أمراً ، أو اعتنق فكرة ، أو أحب شخصاً ، أو اعتقد فى رجل ربانى مخلص وأكن له الإجلال والإكبار ، واعتمد على صلاحه ووثق بإخلاصه ، فإنه يقطع مسافة آلاف الأميال فى ساعات ودقائق ، وقد يجعل المستحيل ممكناً بل أمراً واقعاً .

وكان جهانكير - إلى تلك الساعة - يجهل مكانة الإمام السرهندي ومنزلته فى العلم والربانية ، لأنه لم يكن من العلماء والمشايخ الذين يترددون إلى البلاط ، ويختلفون إليه ، إذن فما هو الطريق للاتصال به مباشرة ، حتى يعرف علو مكانته ، وعظم منزلته - فى حدود استعداده وكفاءته - ؟ .

هنالك دبرت مقادير الله - تعالى - فى ذلك تدبيراً وكان تفسيراً عملياً لقوله تعالى : ﴿عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ .

### تأثر السلطان جهانكير :

قرأنا فى الباب الثالث قصة اعتقال الإمام فى قلعة كواليار ، والإقامة الجبرية فى المعسكر، وكان الإمام السرهندي مكث فى المعسكر ثلاث سنين وستة أشهر<sup>(١)</sup> صحب فيها السلطان وجالسه ، وذاكره فى المسائل الدينية وشهد السلطان شدة شكيمته وصلابته ، واستقامته فى الدين فى مظهر ربائه الصريح عن سجدة التحية ، والآداب الرسمية ، وإقامته فى قلعة كواليار سجيناً فى عزة نفس واعتداد وكرامة ، وعدم خضوع لطلب العفو، كما شهد تأثير صحبته ومجالسته ، وتأثيراته الباطنية ، وقوته الروحية ، فى دخول المئات من الكفار فى حظيرة الإسلام ، واطلع - أثناء إقامته فى المعسكر - ومرافقته الطويلة - على زهده وتقشفه ، واستغنائه ، وانهماكه فى العبادات ، واهتمامه بالأوراد والأذكار ، ورأى تبحره ورسوخه فى العلم أثناء مجالسته ، وفى الحديث معه .

وكان جهانكير حاكم دولة عظيمة يمتاز بسلامة الفطرة ، والذكاء والنبوغ ، وسنحت له فرصة الخبرة بكثيرة من الأمراء والعلماء ، والمشايخ ، وأبناء الدنيا وعباد المادة ، والصالحين

---

(١) أطلق سراحه من قلعة كواليار فى شهر جمادى الآخرة عام ١٠٢٩ هـ وودع المعسكر فى شهر ذى الحجة عام ١٠٣٢ هـ ، وهكذا تكون هذه المدة ثلاث سنين وستة أشهر .

المتدينين من عهد والده أكبر ، إلى عهد حكمه ، نشأت فيه ملكة التعرف على طبائع الناس وخصائصهم التي لا يتمتع بها من لم تحصل له هذه الفرصة الكثيرة ، للخبرة والنقد ، وتميز الزيف من الصحيح ، فلا شك أنه أدرك أن الإمام السرهندي طراز آخر من الرجال ، يختلف اختلافاً كبيراً عَمَّنْ كانوا يحتلون المناصب في الدولة ، ويتجمل بهم البلاط ويزدان بهم دست العلم والشيخة .

يتجلى هذا التأثير لصحبة الإمام وخواطره وعواطفه ، في الحادثة التالية التي سجلها السلطان جهانكير نفسه في شيء من الفخر والاعتزاز ، وتزداد أهمية هذه الخطوة التي اتخذها جهانكير ، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه القلعة فتحت بأيدي الراجه بكر ما جيت الهندكى ، لا بأيدي قادة الجيش المسلمين المحنكين .

### يقول جهانكير :

« خرجنا يوم ٢٤ من شهر « دى » <sup>(١)</sup> المذكور للتفرج والنزهة في قلعة كانكره ، فأمرنا أن يرافقنا القاضى ومير عدل وغيرهما من العلماء ، ليظهروا فى هذه القلعة شعائر الدين الإسلامى وأحكام الشريعة المحمدية ، على سبيل الإيجاز ، وصلنا بعد سير فرسخ واحد إلى ذروة القلعة ، فأمرت - بتوفيق الله تعالى - بالأذان ، فأذن ، ثم أقيت خطبة ، وأمرت بذبح البقرة - ولم يتفق ذلك قط منذ بناء هذه القلعة - حررت لله ساجداً على أن وفقنى إلى ما لم يوفق إليه أى سلطان قبل ، وأمرت ببناء مسجد واسع عال فى داخل القلعة » <sup>(٢)</sup> .

وهكذا تحول اتجاه الدولة - بالجهود المباشرة أو غير المباشرة - من إهمال الإسلام ، والغفلة عنه ، بل من معارضته ومشادته ، إلى تعظيم الشعائر الإسلامية وإعلاء كلمة الله ، واحترام الدين ، وشغف السلطان المسلم بالإسلام بدأ هذا التحول الكبير من أواخر عهد السلطان جهانكير ، وامتدت ظلاله الوارفة إلى عهد السلطان شاهجهان .

### عهد السلطان شاهجهان :

لقد كان عهد السلطان الغازى شاهجهان ( ١٠٠٠ - ١٠٧٥ هـ ) الملقب « بصاحب القران الثانى » <sup>(٣)</sup> عهد الخير والإصلاح التدريجى ، وقد بدأ من عام ١٠٣٦ هـ

(١) الموافق غرة ربيع الأول ١٠٣١ هـ .

(٢) توزك جهانكيرى ، ص ٣٤٠ .

(٣) سمي بذلك لأن الألف الثانى يلتقى بالألف الأول فى عهده .

واستمر بأبهته وعظمته ٣١ سنة ، وكان قد تولى زمام البلاد بعد وفاة الإمام السرهندي بعامين ، وليست لدينا وثيقة تاريخية موثوق بها ، تفيد اتصال السلطان شاهجهان بالإمام السرهندي أو بابنه الجليل الشيخ محمد معصوم اتصال بيعة واسترشاد خاص ، ولكن الذى لا يشك فيه أنه كان دائم الإجلال والتعظيم للإمام السرهندي ، ولأجل ذلك لما قصد الإمام السرهندي زيارة السلطان على طلب منه ، وكان يعرف أن الإمام لا يباشر الآداب الرسمية و يرفض سجدة التحية ، بعث بالشيخ أفضل خان والمفتى عبد الرحمن - اللذين كانا من المصاحبين لولى العهد والمقربين لديه - ببعض الكتب الفقهية وأمرهما أن يقولوا له : أن سجدة التحية تجوز للسلاطين ، وقد أجازها بعض الفقهاء فى ظروف خاصة (١) «فلو باشرت هذه الآداب الرسمية عند مقابلة السلطان ، فأنا ضامن لك بأنه لا يصلك أى ضرر» ، فأبى الإمام السرهندي ورفض هذا العرض ، وقال : إنها رخصة ، والعزيمة أن لا يسجد لغير الله مهما كانت الأوضاع والظروف « (٢) .

واتفق المؤرخون على أن السلطان شاهجهان كان طيب النفس ، معظماً للشريعة الإسلامية ، شغوفاً ببناء المساجد ، ملتزماً - فى ذات نفسه - بالفرائض الشرعية ، يدنى إليه العلماء والصالحين ، ويقربهم ويعتمد عليهم ، وكان وزيره المدبر الحصيف جملة الملك سعد الله خان العلامى (م ١٠٦٦ هـ) من نوابغ العلماء والمدرسين فى عصره (٣) ، ورفع السلطان شاهجهان بعض التقاليد والآداب الرسمية التى كانت اخترعت فى العهود السابقة واستمرت إلى عهده ، يقول الأستاذ المؤرخ ذكاء الله الدهلوى ، على أساس ما جاء فى الكتب التاريخية المعاصرة بالفارسية كـ « بادشاه نامه » وغيره .

« لما ترَبَّع السلطان على أريكة الدولة ، كان له من الاهتمام والاحترام لشعائر الملة الحنيفية ، والشريعة المحمدية - التى كان تسرب إليها الإهمال والغفلة من قبل - أن أمر بأنه لا يستحق السجود إلاّ المعبود بحق ، فلا يعفرن أحد جبهته فى الأرض لأحد من بعد ، وأشار عليه مهابت خان بتحية « زمين بوس » - التى يلمس فيها الأرض باليد عند التحية -

---

(١) لم نطلع على هذه النصوص الفقهية ، وفتاوى الفقهاء التى تبيح السجدة لغير الله ، والذين يعرفونها محرمة اطلاقاً ، الا أن يكون ذلك كأكل الميتة وتناول المحرمات ، وقاية للحياة وعصمة من القتل ، مع فضل من عمل بالعزيمة ، وتجنب الرخصة .

(٢) راجع للتفصيل الباب الثالث من هذا الكتاب .

(٣) راجع لترجمة الحافلة « نزهة الخواطر » ج ٥ .

فأمر بها ، ولكن رأى أن فيها كذلك شبهاً بالسجدة ، فنهى عنها ، وأمر بـ «التسليم الرابع»<sup>(١)</sup> .

ويقول سير ريجرد برن : ( sir richard bum )

كان السلطان شاهجهان يريد إحياء العقائد الإسلامية وإعادتها بقوة وشدة ولكنه - في الوقت نفسه - لم يكن يحب التعرض لأصحاب الديانات الأخرى ، ورفع بعد اعتلائه على سرير الملك بيسير ، سجدة التحية الرسمية ، وانتهى استخدام التقويم الإلهي ، الذي بدأه أكبر ، وروجه في الناس ، من الأوراق والوثائق الرسمية ، والعملات السائدة ، بعد ولاية شاهجهان ببضعة أعوام وأصدر أمراً عام ١٦٣٤ م بمنع الزواج بين المسلمين والهندوكين ، الذي كان سائداً منتشراً في بنجاب وكشمير «<sup>(٢)</sup> .

ويقول المؤرخ ذكاء الله :

« وظف القضاة والمعلمون من قبل السلطان ، ليعلمون الناس أحكام الشريعة ، وآداب العبادة ، وعين الشيخ محمود ليفك النساء المسلمات - بعد التحقيق والإثبات - من حباله الرجال الهندوكيين ، ويميز عمارات المسلمين ومساجدهم عن أبنية الهنادك ومعابدهم ، فنفذ هذا الأمر ، واستعاد كثيراً من المساجد التي كانت تحت تصرف الهنادك ، وفرض عليهم غرامات ، ثم بناها من جديد ، وعاقب من الهنادك من ثبت عليه إهانة القرآن الكريم عقاباً رادعاً ، ثم أمر السلطان ، أن يحقق جميع الموظفين للمهمات الشرعية في مثل هذه الأمور - إن كانت وقعت - في سائر ولاية بنجاب «<sup>(٣)</sup> .

ولكن - رغم كل هذه الحماية الدينية واحترام الشعائر الإسلامية - لانشك في أن السلطان شاهجهان كان يفضل ابنه دارا شكوه على ابنه أورنك زيب العالم المتدين ، وصاحب الكفاءة والمقدرة ، ويجب أن يتولى داراً شكوه أمر هذه الدولة ، ويخلفه في الملك وهذه خصيصة الحكام والسلاطين المتمسكين بمبدأ الحكومات الشخصية الوراثية ، والفصل بين الدين والسياسة ، حيث لا يكون لتدينهم الذاتي أى تأثير على شؤون الدولة ، ولا يحول بينهم وبين أن يختاروا خليفة غير كفؤ ، يلحق الأضرار بما بنوه وأنشئوه ويخل بالنظام .

(١) تاريخ هندوستان ج ٧ ، ص ٥٥ - ٦٦ ملخصاً .

(٢) Cambridge History Of India Vol. IVP. 217 باختصار .

(٣) « تاريخ هندوستان » ج ٧ ، ص ٧٥ - ١٧٦ ، باختصار .

## ولى العهد دارا شكوه :

تفيدنا تصريحات المؤرخين من غير المسلمين أن دارا شكوه ، كان أقرب إلى مذهب جده السلطن أكبر ومشربه ، وكان معجباً بفلسفة وحدة الديانات ، ويحاول التوفيق والتطبيق بين الشريعة الإسلامية ، و« الويدانت » - شريعة الهنادكة - يقول الدكتور الفرنسى برنير :

« كان دارا شكوه يصغى إلى مواعظ البطريق فليمش الدينية ، ويستمع إليها بشوق ورغبة زائدة ، وكان يحاول الجمع بين الديانة الإسلامية ، والديانة الهندوكية » .

## وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية :

« كان دارا شكوه ولوعاً بالتصوف ، معجباً بالفلسفة الهندوكية ، أقام علاقات وطيدة مع الصوفية المسلمين ، والنسك الهندوكيين ، كان منهم (مع العلماء والصوفية المسلمين) «سرمد» المعروف بعقيدته فى وحدة الوجود وبابالال داس بيراكى ، تلميذ « كبير » «ومريده» .

« تنم بعض مؤلفات دار شكوه الأخيرة عن عقيدته وتمسكه بنظرية وحدة الوجود ، وكأنه كان متأثراً بالفلسفة الهندوكية ، معجباً بالوثنية ، ولأجل ذلك نزع إلى عدد من الآراء الملحدة التى توجد نظائرها الصريحة فى الفلسفة الهندوكية ، ولا مجال لها فى الإسلام ، وقد توصل دارا شكوه إلى أن التصوف ، والويدانت - اللذان يستعان بهما فى إدراك «الحق» - لا يتعارضان ، وأن الفارق بينهما لفظى ، وحاول دارا شكوه فى ترجمته لـ « أو بنيشد » . . . التى كان يعتبرها منبع « الوحدة » التوفيق والتطبيق بين نظريات وآراء أتباع الديانتين الكبيرتين - الإسلام ، والهندوكية - المشتركة ، وأراد أيضاً أن يعرف المسلمين عن طريق الترجمة بمعتقدات الهنادك » (١) .

وليس محل استغراب - بسبب هذه الآراء والنظريات ، والميول والنزعات التى كان يحملها دارا شكوه ، ولم تكن لتخفى على المجتمع المسلم - آنذاك - فى الهند والتى يمكن أن يكون ولى العهد أورنك زيب انتفع بها فى صالحه ، أن تكون الأوساط الدينية من علماء الدين ، ومشايخ الطريقة التمسكين بالشريعة ، وأتباعهم - الذين شهدوا بأعينهم غربة الإسلام ، وذلتة فى عهد السلطان أكبر ، أو سمعوا قصصها وحكاياتها من آبائهم - فى

---

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية (أردو) المقال بعنوان « دارا شكوه » ج ٩ ، وكاتب المقال هو ستيش جندر الباحث الهندكى ، وراجع أيضاً ( AURANGZEB ) تأليف ظهير الدين الفاروقى ، ص ٣٨ - ٤٧ .

صف ولى العهد أورنك زيب - أعظم حماة الإسلام فى الهند المتمسك بالشرعة والدين - فى هذه الحرب الداخلىة بين الأخوين ، وأن يساعده ويناصلوه باستمالة الناس إليه ، وحثهم على تأييده ، والدعاء له « (١) .

ويعرف جميع المطلعين نتيجة هذه الحرب ، فقد انتصر السلطان أورنك زيب على دارا شكوه ، وترجع على عرش المملكة عام ١٠٦٨ هـ ، وحكم نصف قرن من الزمان ، بالشوكة والقوة والسلطان .

## السلطان محيى الدين أورنك زيب عالمكير وحميته الدينية ، وحمائية للإسلام :

اتصل السلطان أورنك زيب - الذى كان يجلى أسرة الإمام السرهندى ورجالها ويعظمهم ، وينسجم مع دعوتهم ، ومذهبهم ، بالشيخ محمد معصوم بن الإمام السرهندى ، اتصال بيعة وسلوك (٢) ، وتشهد قرائن كثيرة على صلة السلطان بالشيخ محمد معصوم لم تكن صلة إجلال واحترام عادية فحسب ، بل كانت صلة التربية والاسترشاد ، وتحصيل علم السلوك على يديه وقد كان الشيخ محمد معصوم من يوم أن كان السلطان ولى العهد ، يعتنى به اعتناءً خاصاً ويلقبه بولى العهد الحامى لدمار الإسلام - الذى كان إرهاباً لمستقبله العظيم ، وتفاؤلاً نافعاً - يقول الشيخ سيف الدين فى رسالة بعث بها إلى والده الشيخ محمد معصوم :

« إن إخلاص السلطان الحامى لدمار الإسلام لسيدى الشيخ من طراز آخر ، وقد مر بمقام اللطائف الستة ، وسلطان الأذكار ، إلى مقام ذكر النفى والإثبات وهو يقول : إنه لا تدغدغه الوسوس - بإطلاق - وإذا طرأت وسوسة من الوسوس ، لا يكون لها قرار ، فهو فى مأمن من خطرهما ، ويقول : إنه كان - قبل ذلك - يقلق ويضطرب لزحمة الوسوس والخطرات ، ويشكر هذه النعمة » .

واثنى الشيخ محمد معصوم على الله - سبحانه وتعالى - وحمده كثيراً فى تلك الرسالة التى بعث بها رداً على رسالة الشيخ سيف الدين ، وشكره الله - عز وجل - أن وهب السلطان هذه المقامات الروحية العالية ، ويستفاد من هذه الرسالة أيضاً ، أن السلطان بلغ

---

(١) راجع للتفصيل مقال البروفيسور محمد اسلم بعنوان « دور العلماء والمشايخ فى تولية السلطان «أورنك زيب» فى كتابه « المحاضرات التاريخية » ص ٢٢٦ - ٢٤٣ .

مرتبة « الفناء القلبي » الذى هو من أعلى « المقامات وأرفعها فى السلوك » (١).

يقول أبو الفتح فى « آداب عالمكبرى » :

جاء الشيخ محمد معصوم وأخوه الأكبر الشيخ محمد سعيد فور جلوس السلطان أورنك زيب على عرش الدولة إلى البلاط ، وأهدى إليهما أورنك زيب - بهذه المناسبة - ثلاث مئة خاتم ذهبى (٢).

ونقل البروفيسور محمد أسلم فى مقالة بعنوان « دور العلماء والمشايخ فى تولية السلطان أورنك زيب » حوادث من « مرآة العالم » و « فتوحات عالمكبرى » (٣) ، تدل على الصلات العميقة بين السلطان وبين أسرة الإمام السرهندي ، وأبنائه الكرام ، فكانوا يقابلون السلطان ، ويقدم السلطان إليهم هدايا فاخرة ثمينة وقابل الشيخ محمد معصوم وغيره من أفراد الأسرة المجددية عدة مرات فى سرهند ، ذاهباً من دهلى إلى لاهور ، أو آيماً فى طريقه إلى دهلى .

تفيد دراسة رسائل الشيخ سيف الدين - التى بعث بها إلى السلطان أورنك زيب وطبعت باسم « المكتوبات السيفية » دراسة عميقة أن صلة السلطان أورنك زيب بالشيخ سيف الدين - بصفة خاصة - وبأسرة الإمام السرهندي - بصفة عامة - لم تكن صلة حب وإجلال فحسب ، كما توجد لدى السلاطين المتدينين مع علماء ومشايخ بلادهم وعهودهم ، بل كانت هذه الصلة عملية أكثر منها عاطفية وتربوية إصلاحية أكثر منها حباً وإجلالاً محضاً ، يقول الشيخ سيف الدين فى رسالة كتبها إلى والده ، وهى الرسالة الثالثة فى الترتيب :

« سيدى الوالد نعيش هذه الأيام مجالسات ومذاكرت طويلة ، ونذاكر فى بعض الرسائل الدقيقة ، ويستمتع السلطان بغاية الإخلاص والإصغاء » .

ويقول فى رسالة رقم : ١٤٢ ، بعثها إلى الشيخ محمد باقر اللاهورى :

« شرفنا السلطان فى البيت ليلة السبت التى كانت الليلة الثالثة من هذا الشهر ، وتناول

---

(١) رسائل الشيخ محمد معصوم ، الرسالة رقم : ٢٢٠ .

(٢) آداب عالمكبرى « لآبى الفتح » ، النسخة الخطية فى India office Library London ، ٣١٧ ، ق ب ٤٣١ ، محمد كاظم « عالمكبرى نامہ » طبعة كلكته ١٨٦٨ م ، ص / ٢٩٣ ، مقتبس من « المحاضرات التاريخية » للبروفيسور محمد أسلم .

(٣) يوجد الكتابان فى مكتبة المكتب الهندي India office Library ومكتبة المتحف البريطانى .British Museum



ما حضر من الطعام من غير كلفة ، وطالت الصحبة ، ووقع فى أثنائها السكوت والصمت ، وبالجملة فإنى آمل ظهور الطريقة العالية أيضاً كما يجب ويتمناه المخلصون » . ( ص ١٦٨ - ١٦٩ ) .

واستمرت هذه الصلات والعلاقات وذلك التأثير إلى وفاة السلطان اورنك زيب ، وقد وردت إشارات وتنبهات فى الرسائل التى كتبها شيخ الطريقة الجشتية النظامية الشهيرة الشيخ كليم الله الجهان آبادى ( م ١١٤٣ هـ ) إلى خليفته الخاص الشيخ نظام الدين الاورنك آبادى أنه يرافق السلطان - فى هذه الأيام - أبناء الإمام السرهندي ، فينبغى أن تأخذوا بالحيطه والحذر فى عقد حفلات الغناء والأناشيد لئلا يتكدر صفو خاطرهم ، ويسىء إليهم ، تدل هذه الشواهد دلالة واضحة على أن أفراد هذه الأسرة ذوى المكانة العالية كانوا يرافقون السلطان - من حين لآخر - فى غزواته ورحلاته إلى الدكن ، وإقامته الطويلة فيها ، ويساهمون معه بتفكيرهم ودعائهم كذلك .

وقد طلب السلطان - مراراً - كما يحكى المفتى غلام سرور مؤلف « خزينة الأصفياء » - من الشيخ محمد معصوم أن يرافقه فى سفره وإقامته ، ولكنه ما اختار مرافقة السلطان - حسب وصية والده - وبعث مكانه ابنه الشيخ سيف الدين الى دهلى ، وتفيد رسالتان رقم : ٢٢١ ، و ٢٣٧ من «المكتوبات المعصومية » وجهتا إلى السلطان أن علاقة السلطان بالشيخ علاقة مريد مسترشد مع شيخه ، وسوف يأتى ذكر صلته بالسلطان ، وتأثر السلطان به ، والعمل وفق إشارته وإرشاداته فى الباب الثامن ، فى ترجمة الشيخ سيف الدين ، وقد واصل الشيخ سيف الدين جهوده مع السلطان فى إحياء السنة ، وتنفيذ الشريعة الإسلامية ، ولم يدخر فى ذلك وسعاً ، وتوجد فى مجموعة رسائله « المكتوبات السيفية » ثمانى عشرة رسالة<sup>(١)</sup> كتبها إلى السلطان لفت فيها انتباهه إلى إزالة البدع والمنكرات ، وإحياء السنة ، وإعلاء كلمة الله ، وتمكين الدين الإسلامى فى هذه البلاد .

ويصعب الحكم على جميع أعمال أى حاكم أو سلطان لدولة ما من الدول ، وجميع عاداته وأخلاقه ، وأحكامه وأقضيته ، وإجراءاته ، بأنها موافقة - مئة فى المئة - للتعاليم الإسلامية ، والأحكام الشرعية ، ولا يمكن أن يقال ذلك إلا فى الخلفاء الراشدين المهديين ، وبعض الولاة الذين كانوا على سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز فى إقامة الخلافة

---

(١) وأرقام هذه الرسائل كما يلى : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، انظر المكتوبات السيفية » .

على منهاج النبوة كما تعذر الإدراك الدقيق للمصالح والضرورات التي اتخذت في ضوءها هذه الإجراءات السياسية والإدارية ، التي تختلف فيها الآراء ، وأنه ما مدى واقعية تلك الصورة التي تتجلى لهذه الأعمال والإجراءات في ضوء بيانات المؤرخين وتصريحاتهم ، وإلى أي حد تقوم على الصدق والواقع فمن الصعب جداً - بعد مضي مدة طويلة ، وعدم توفر الشواهد والوثائق التاريخية المعتبرة - أن نحكم عليها حكماً قطعياً حاسماً .

ورغم كل ذلك ما يوجد لدينا من الوثائق التاريخية الثابتة عن السلطان اورنك زيب ، يدلنا بكل وضوح ، ويورث فينا الاعتماد على أن السلطان كان متأثراً بالغ التأثير بحركة الإمام السرهندي الإصلاحية التجديدية ، ومحاولاته المتواصلة الصامتة لإحداث تغيير أساسي في الدولة وتحويل اتجاهها من هدم وتخريب للإسلام ، إلى بناء وتعمير وتمكين له ، كما كان متأثراً معجباً غاية الإعجاب بربانية أبنائه الكرام وأفراد أسرته الآخرين ، وإخلاصهم ، وصفاء نفوسهم وشخصياتهم المؤثرة الأخذة بمجامع القلوب ، وقد كان انسجم مع دعوة الإمام وحركته ، وأهدافه كل الانسجام ، وكان يريد أن يخطو خطوات جريئة ، ويحدث تغييرات عميقة بعيدة المدى في نظام الدولة ، وفي المجتمع المسلم الخاضع لهذا النظام ونفذ - لأول مرة - الإصلاحات التي كانت تؤثر على اقتصاد الدولة ، تطبيقاً لبعض الأحكام الصريحة في الشريعة الإسلامية .

وبغض النظر عن حياته الشخصية التي اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متديناً متورعاً ، يتمسك بالشريعة ، ويعمل بها ، والتي نكتفي في الإشارة إليها ببعض الأمثلة التي تلقى الضوء على نبذة من حياته الدينية :

**يقول مؤرخ الهند الأستاذ ذكاء الله الدهلوي :**

« كان شهر رمضان وكانت تهب السموم اللافحة ، وكان النهار طويلاً ، ولكن السلطان يصوم النهار ، ويقراً الأوراد ، ويتلو القرآن ، ويحفظه غيباً ، ويكتب ويؤلف ، ويدير دفة شؤون الدولة ، ويقوم بأعمال المحكمة والقضاء والسلطة وبعد أن يدخل « مسجد غسل خانة » ( « مسجد الدرّة » المعروف في داخل القلعة الحمراء ) فيصلى المكتوبات ، والتراويح ، والنوافل حتى يتتصف الليل ، فيتناول قليلاً من الطعام ، وقليلاً ما يهجع وينام ، ويحى بقية الليل بالقيام ويحى بعض الليالي ذات الخيرات والبركات كلها ، وهكذا شهر رمضان » (١) .

(١) « تاريخ هندوستان » ج ٨ ، ص ٢١٤ ، تأليف الاستاذ ذكاء الله الدهلوي : (نقلًا عن « مآثر عالمكبرى » وغيره) .

## ويقول المؤرخ وهو يصف حاله عند احتضاره :

« غلبته الحمى العام الواحد والخمسين من جلوسه ، الموافق ١١١٨ هـ ، والتزم الصلاة بالجماعة - رغم شدة المرض - أربعة أيام ، لكمال تورعه وتقواه وكان قد كتب وصية من قبل ، أوصى فيها بأن ينفق أربع روبيات ونصف روبية - وهى ما بقى مما اكتسبه بيده بخياطة القلانس - فيشترى بها ما يحتاج إليه فى التكفين والتدفين ، وتوزع ثمانية وخمس روبيات ، وهى ما حصلت لى من أجره كتابه المصاحف ، على الفقراء والمساكين ، ولما كان يوم الجمعة ٢٨ ذى القعدة عام ٥١ للجلوس ، الموافق ١١١٨ هـ ، صلى السلطان صلاة الفجر ، ثم اشتغل بالتهليل ، حتى فارق هذه الدنيا الفانية بعد أن تعالى النهار ، ورحل للأبد إلى دار القرار » (١) .

ونقتصر - فيما يلى - على تلك الأحكام والفرامين السلطانية التى تتعلق بتعظيم الشعائر الإسلامية ، وتنفيذ الأحكام الشرعية :

يقول المؤرخ فى حوادث العام الثانى من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩ هـ :

« أسس التقويم المتبع فى الإدارة والولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر على غرة «فروردى» التى فيها الشمس برج الحمل ، ويزدهر الربيع وكان تاريخ جلوس السلطان قريباً من هذا التاريخ ، فوضع التقويم بدءاً من شهر « فروردى » إلى شهر « اسفنديار » (٢) وسمى الشهور « شهوراً إلهية» ، ولما كان هذا الأمر يشبه طريقة السلاطين المجوس عباد النار ، بدأ السلطان - مراعاة للشريعة الرسلامية - التقويم الهلالى للشهور والسنين لجلوسه وإدارته ومهرجاناته ، وأمر بتقديم التقويم العربى الهلالى على التقويم الشمسى ، وأمر برلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز .

ويعلم جميع الناس أن الشهور الهلالية تتغير دائماً ، وتحدث مشاكل وتعقيدات فى استخدام التقويم الهلالى ، ولكن هذا السلطان المتدين لم يبال بمشاكل هذا التقويم ، ونهى الاحتفال بمهرجان « نوروز » لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس - أصلاً - وقرر بداية تاريخ الجلوس الثانى بغرة شهر رمضان وهكذا بدأ تقويمًا جديدًا للجلوس ، أبدأ مهرجان نوروز ، بمهرجان عيد الفطر (٣) .

(١) أيضاً ، ص ٤٦٥ .

(٢) وهما شهران فى التقويم الايرانى القديم .

(٣) أيضاً ، ص ٨٣ - ٨٤ .

ويذكر المؤرخ وقف السلطان للدخل الكبير الذي كان يأتي الدولة من طريق غري شرعى، فيقول :

« أمر السلطان بإلغاء « راهدارى » - ضريبة الطريق - الذى كان يؤخذ على جميع الحدود والثغور ، وتوضع جميع وارداته فى خزانة الدولة ، فكان دخلها ودخل خراج « باندارى » الذى يسمى « ته بازارى » . . . . . يزيد على مئات الآلاف ويدخل الخزانة السلطانية ، كما ألغى السلطان جميع الواردات التى كان دخلها من الحانات والخمارات ، والغرامات وما يقدم إلى الموظفين والحكام إظهاراً للشكر وغير ذلك ، مما يبلغ الملايين من الروبيات ، وكان دخلاً كبيراً للدولة » (١) .

كانت الحسبة منصباً خطيراً فى الحكومات الشرعية ، وشعاراً ظاهراً من شعائر الخلافة الإسلامية ، وألف كثير من العلماء لبيان مسئوليات هذه الوظيفة المهمة ونوعية العمل فيها ، كتب بعنوان « الحسبة فى الإسلام » وكانت هذه المهمة ، الخطيرة مهجورة معطلة فى الحكومات المسلمة فى الهند، وأحيا السلطان هذه السنة أيضاً .

### يقول المؤرخ :

« عين السلطان الشيخ وجيه محتسباً ، وأمره بأن ينهى الناس عن جميع المحرمات ، خاصة عن شرب الخمر ، وتناول الحشيش وجميع المسكرات ، وجميع الفواحش ، ويمنعهم - قدر المستطاع - من جميع الميسئات والمنكرات » (٢) .

ويقول المؤرخ فى حوادث ووقائع السنوات من عام ١١ للجلوس الى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨ هـ .

« كان السلطان يزداد - كل يوم - اهتماماً بإجراء الأحكام الشرعية وتنفيذها ، ومراعاة الأوامر والنواهي الإلهية ، فكان يصدر فرامين مفصلة لإلغاء دخل « راهدارى » و « باندارى » الذى كان يبلغ مئات الآلاف من الروبيات كل عام ، وكان يدخل فى الخزانة السلطانية ، وكان يأمر بإغلاق الحانات والخمارات ، ومكافئ الريبة والفساد » (٣) .

(١) أيضاً ، ص ٩٠ .

(٢) أيضاً ٩٢ ، ذكر مؤلف « نزهة الخواطر » اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية ، أن عالمكير نسخ عام ١٠٦٩ هـ ثمانين نوعاً من الخراج والضرائب ، التى كان دخلها السنوى للخزانة السلطانية ثلاث ملايين روبية .

(٣) أيضاً ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ باختصار .

## ويزيد قائلاً :

« أمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء ، ونهى عن اجتماع الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، ورؤية طلعتة من نافذة فى أعلى القصر - وكان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المخترعة ، ويسمى « جهروكه درشن » ، وترك الجلوس على النافذة ، استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية » .

كان السلاطين المسلمون فى الهند - حسب معتقدات الهنادك وعاداتهم القديمة - يثقون كثيراً بالتنجيم والمنجمين ، ويعينون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يقرر المنجمون فى ضوء علم التنجيم ، ففضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة والعادة المتبعة . وأهم من ذلك أن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها ، فعين السلطان عالمكير قضاة شرعيين وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلق بالقوانين الشرعية .

« الشعراء والمنجمون الذين كان لهم مكانة واعتبار فى الدولة ، منعوا من ممارسة أعمالهم خاصة ، فى عهد السلطان شاهجهان ، وعين القضاء للشؤون الداخلية والمرافعات الجزئية والكلية ، وحصل لهم من التمكن والاستقلال فى شؤونهم ما بعث الأمراء وأعيان الدولة ، على الغبطة والحسد » (١) .

وتكلف السلطان - لتنفيذ القوانين الشرعية فى سائر البلاد ، وتوفير التسهيلات للقضاة - بترتيب المسائل الفقهية ، وتدوينها من جديد ، وكون لأجل ذلك لجنة من العلماء البارعين ليرتبوا المسائل فى عبارة سهلة واضحة ترتيباً جيداً ، ويقتصروا فى المسائل على ظاهر الرواية ، ولا يلتفتوا إلى « النوادر » إلا عند الضرورة ، ويحيلوا على المراجع التى يقتبسون منها ، وعين ذلك - فى أوائل حكمه - الشيخ نظام الدين البرهانپورى رئيس هذه اللجنة ، الذى استعان بكبار العلماء البارعين فى الفقه الحنفى (٢) ، وتم هذا العمل الضخم فى ستة مجلدات وأنفق عليه من الخزانة السلطانية مئتا ألف روبية - وهى تساوى الآن ملايين الروبيات - ويعرف هذا العمل الفقهى العظيم فى الهند بـ « الفتاوى العالمكيرية » وفى بلاد

---

(١) أيضاً ، ص ٢٧٧ ، وراجع كذلك كتاب ( Aurangzeb And His Age ) لمؤلفه الفاضل ظهير الدين الفاروقى « أورنك زيب وعصره » الباب بعنوان A Reormer .

(٢) راجع ترجمة « أورنك زيب عالمكير » فى « نزهة الخواطر » ج ٦ ، و « الثقافة الاسلامية فى الهند » للعلامة عبد الحى الحسنى طبع المجمع العلمى بدمشق ، وقد سرد فيه أسماء أعضاء هذا المجمع الفقهى ، وهم من كبار علماء الهند ، فبلغ عددهم الى عشرين عالماً .

مصر والشام ، وتركيا بـ « الفتاوى الهندية » ويحتل لبعض خصائصه وميزاته أهمية كبيرة في كتب الفقه والفتاوى ، وكانت الخطوة الأخرى أكثر جراءة وشجاعة ، فقد أذن السلطان لرعاياه أن يرافعوا إلى المحكمة ضد السلطان ، ويطالبوا بالحكم طبق الشريعة الإسلامية ، وعين لذلك محامين شرعيين ، يقول مؤرخ الهند :

« أمر السلطان عام ١٠٨٢ هـ ) ، بأن ينادى في البلاد والمدن والقرى :

من كانت له دعوى شرعية على السلطان ، فليحضر وليراجع وكيل السلطان ، وليأخذ حقه إذا ثبتت دعواه ، وأمر بتعيين المحامين والوكلاء في البلاط ، وفي المدن القريبة والبعيدة حتى يرفع من لا يستطيع الوصول إلى البلاط إليهم ، ويثبتوا عن طريقهم دعواهم ، ويطلبوا حقهم » (١) .

كانت الآداب والتقاليد الجاهلية للتحية - التي كانت فيها مناقضة صريحة للشريعة الإسلامية ، والتعظيم المتطرف المفرط الذي لا يصح لغير الله - سائداً في البلاط المغولي للسلطين المغولية ، أما التسليم فلم يكن سائداً في أوساط كثير من المشايخ والعلماء فضلاً عن الأعيان والأمراء ، وفي محيط البلاط الملكي ، فتناول السلطان هذه العادة بالإصلاح ، وأمر بالاعتصار على التسليم .

**يقول المؤرخ نفسه :**

« وصدر الأمر - في تلك الأيام - بأن المسلمين عند مقابلة السلطان ، ينبغي أن ينتصروا على أن يقولوا السلام عليك ، ولا يضعوا أيديهم على رؤوسهم مثل الكفار ، ويجب على الحكام والأمراء أن يتبعوا ذلك مع الخاصة والعامة .

ولقبت الأوساط الدينية السلطان أورنك زيب - بناءً على هذه الإجراءات والعواطف الإسلامية - « بحبي الدين » وكان الدكتور إقبال - كذلك - الذي يعرف فلسفات الهند ونزعاتها ، والحرب القائمة فيها بين الشريعة و « الويدانت » والصراع الشديد بينهما في صيانة المستقبل للهند ، معرفة عميقة دقيقة - يعدّ السلطان أورنك زيب من تلك الشخصيات العديدة التي يرجع إليها الفضل في صيانة الدين وحماية المسلمين عن الذوبان في الحضارة

---

(١) « تاريخ هندوستان » لذكاء الله ، وللإطلاع على تفاصيل أخرى تلقى الضوء على اتجاه عالمكير الدينى يحسن مطالعة كتاب ( History Of Aurangzeb ) للمؤرخ الهندكى الفاضل جادو ناتهركار ، وكتاب Aurangzeb للمؤرخ الانجليزى المشهور استينلى لين بول .

الهندية ، وقد كان كاتب هذه السطور ذكر في مقالة بعنوان « ساعات مع العارف الهندي »  
الذى كتبه كمذكرة لمقابله مع الدكتور محمد إقبال يوم ٢٢ نوفمبر بلاهور ، والاجتماع به  
لمدة ساعات ، ما يلي :

« وتطرق الحديث إلى حركة الإصلاح والتجديد في الهند ، فأثنى الدكتور على مجدد  
الألف الثانى الإمام السرهندي ، والإمام ولى الله الدهلوى ، والسلطان محيى الدين  
عالمكير - رحمهم الله - ثناء كثيراً ، وقال أننى أقول دائماً إنه لولا وجود هؤلاء ، وجهودهم  
الموفقة لذاب الإسلام فى الديانة الهندكية وحضارتها » .

وقال فيه - لأجل هذا اليقين والإيمان بعظمة شخصيته ودوره فى تاريخ الهند الإسلامى -  
هذه القصيدة المثيرة المؤثرة الرائعة ، التى أحاول ترجمتها فيما يلى :

« ذاك السلطان أورنك زيب ذو المجد السامق الذرى الذى تتباهى به الأسرة الكوركاتية ،  
وتعتز به ، علا به نجم المسلمين ، وارتفعت مكانتهم ، ونالت به الشريعة الإسلامية عزها  
وكرامتها ، كان السهم الأخير فى كنانة الإسلام ، للحرب الحامية بين الكفر والإيمان ! .  
تعرضت الأمة الإسلامية لمحنة عظيمة ، بسبب بذرة الإلحاد والزندقة ، التى بذرها أكبر ،  
وسقاها ونماها ، والتى نشأت - مرة ثانية - فى فطرة دارا شكوه ، وكانت شموع القلوب فى  
الصدور خامدة مظلمة بسبب الفساد الشامل والظلام الحالك .

هنالك قىض الله - سبحانه وتعالى - السلطان عالمكير ، ذلك الزاهد الغيور والفراس  
الجسور ، الذى اجتنباه الله - عز وجل - لإحياء الدين وتجديد الإيمان واليقين ، فحرق  
صواعق سيوفه المهتدة ببادر الكفر والزندقة ، وأضاءت شموع الدين فى محافل المسلمين ،  
وتخرص المتخرصون من قصار النظر ، وضعاف النفوس ، فحكموا عليه بأحكام قاسية ،  
وقاسوه بمقاييسهم الزائفة (١) ، ولم يعرفوا عمق مداركه وأبعاد تفكيره ، لقد كان فراشة  
متهافئة على شعلة التوحيد ، وكان فى بلاد الشرك والوثنية كإبراهيم فى نار نمرود ، نسيج  
وحده فى صف الملوك والسلاطين ، ومثلاً فريداً فى زمرة الزهاد والناسكين » (٢) .

وأخيراً أثمرت جهود خليفتى الإمام السرهندي الكبيرين - الشيخ محمد معصوم والشيخ  
السيد آدم البنورى ، وخلفائهما الربانيين المخلصين العظام ، وأصبح هذه البلاد - تدريجياً -

---

(١) اشارة الى كتاب المؤرخين المفرضين من غير المسلمين - والشائعات التى شاعت عنه فى أوساط غير  
المحققين من المسلمين .

(٢) « رموز بخودى » الديوان الفارسى ، ص ٩٨ .

مركزاً روحياً وعلمياً للعالم الإسلامي الذي الذي كانت تغشاه سحب الضعف والانحطاط  
الفكري والعلمي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، وبدأت الوفود من أقاصى العالم  
الإسلامي ، تتوجه إلى الهند لينهلوا من معينها العلمي والروحي ، ويتلقوا التربية الدينية ،  
ويقطعوا مفاوز السلوك على مشايخها الربانيين ، ويأخذوا الحديث الشريف على محدثيها  
البارعين ، وقامت في كل بقعة من بقاع هذه البلاد، زوايا روحية للطريقة المجددية ،  
ومراكز علمية لتعليم الكتاب والسنة ، واستفاد بها القاضى والدانى .



## الباب الثامن

### قيام خليفتي الإمام السرهندي وأصحابهما

### بتوسيع نطاق عمله التجديدي وتكميله

#### مشاهير خلفائه :

إن استيعاب أسماء خلفاء الإمام السرهندي العظام ، وإحصاء مآثرهم الجليلة ، ليس أمراً ميسوراً ، فقد بلغ عددهم الآلاف ، وتفرقوا في أقطار العالم يحملون هذه الدعوة ، وينشرون هذه الحركة ، وقد مرت بنا - في الصفحات المتقدمة - أسماء عدد من كبار خلفائه الذين بعثهم الإمام إلى بعض البلدان الخارجية ، للتربية والدعوة والإرشاد ، وعين بعضهم في المناطق الرئيسية الحساسة في الهند ، للقيام بهذه الخدمة العظيمة ، ونذكر هنا ثبوت المشاهير من خلفائه مرتباً على الحروف الهجائية ، ثم نذكر خليفتيه الجليلين - الشيخ محمد معصوم والشيخ السيد آدم البنوري - شيء من التفصيل ، ونقدم - بصورة إجمالية - نبذة من أخبار خلفائهما الكبار ، وانتشار سلاسلهم ، وما قاموا به في مجال التربية والإصلاح ، وأسسوا من المراكز الروحية التربوية ، وما ستفاده العامة والعلماء منهم من فوائد العلم والتزكية والتربية . ستطيع أن نقدر به ذلك القبول العظيم والانتشار الواسع الذي أحرزته طريقة الإمام السرهندي ، وكيف أثمرت جهوده الإصلاحية والتجديدية ، وآتت والقبول عند الله - سبحانه - وغاية الإخلاص والصفاء واتباع السنة النبوية والشريعة الغراء

وفيما يلي ثبت الخلفاء المشاهير ، ويعرف منه تنوع أوطانهم وأصولهم ويفهم منه انتشار سلسلة الإمام في بلاد الإسلام

- ١ - الشيخ السيد آدم البنوري ، ٢ - الشيخ أحمد البركي ، ٣ - الشيخ أحمد الديني ،
- ٤ - الشيخ أمان الله اللاهوري ، ٥ - الشيخ بدر الدين السرهندي ، ٦ - الشيخ بديع الدين السهارنبوري ، ٧ - الشيخ حس البركي ، ٨ - الشيخ حميد البنغالي ، ٩ - الحاج خضر خان الأفغاني ، ١٠ - الشيخ مير صغير أحمد الرومي ، ١١ - الشيخ طاهر البدخشي ، ١٢ - الشيخ طاهر اللاهوري ، ١٣ - الشيخ خواجه عبيد الله المعروف بخواجه كلال ، ١٤ - الشيخ خواجه عبد الله المعروف بخواجه خورد ، ١٥ - الشيخ الحى الحصارى ، ١٦ - الشيخ عبد الواحد اللاهوري ، ١٧ - الشيخ عبد الهادي الفار

وقى البدايوني ، ١٨ - الشيخ فرّخ حسين الهروي ، ١٩ - الشيخ قاسم على ، ٢٠ -  
 الشيخ كريم الدين بابا حسن الابدالي ، ٢١ - الشيخ السيد محب الله المانكجوري ، ٢٢ -  
 الشيخ محمد صادق الكابلي ، ٢٣ - الشيخ محمد صالح الكولابي ، ٢٤ - الشيخ محمد  
 صديق الكشمي ، ٢٥ - الشيخ مزمل ، ٢٦ - الشيخ الحافظ محمود اللاهوري ، ٢٧ -  
 الشيخ نور محمد الفتني ، ٢٨ - الشيخ يار محمد الجديد البدخشي الطالقاني ، ٢٩ -  
 الشيخ يار محمد القديم ، ٣٠ - الشيخ يوسف البركي ، ٣١ - الشيخ يوسف  
 السمرقندي .

### الشيخ محمد معصوم السرهندي <sup>(١)</sup> :

لشيخ الإمام العالم الكبير معصوم بن أحمد بن عبد الأحد العدوي العمري الشيخ محمد  
 معصوم النقشبندی السرهندي ، كان أحب أولاد أبيه ، وأشبههم سمياً به ، وأقربهم منزلة  
 إليه ، وأتبعهم لسيرته ، وأخصهم بمعارفه ، وأبعدهم صيتاً بين الناس ، وأنفعهم لهم .  
 ولد لإحدى عشرة خلون من شوال سنة سبع أو تسع بعد الألف ، وقرأ بعض الكتب  
 الدراسية على صنوه الكبير محمد صادق ، وأكثرها على والده ، وعلى الشيخ محمد طاهر  
 اللاهوري ، ولازم أباه ، وأخذ عنه الطريقة وحفظ القرآن في ثلاثة أشهر ، وحاله في  
 تحصيل نسبة والده كحال صدر الشريعة صاحب « شرح الوقاية » حيث كان يحفظ ما يؤلفه  
 جده بلا تأخير ، ولذلك بلغ رتبة لم يصل إليها أحد من أصحاب والده ، فبشره والده  
 بمقامات عالية ، ولما توفى أبوه ، جلس على مسند الإرشاد ، وسافر إلى الحرمين الشريفين  
 فحج وزار ، وأقام بالمدينة المنورة زماناً صالحاً ، ثم رجع إلى الهند وصرف عمره في الدرس  
 والإفادة ، وكان أكثر اشتغاله تدريسياً بتفسير البيضاوي ، والمشكاة ، والهداية ، والعضدي  
 والتلويح .

قال الشيخ مراد بن عبد الله القزاني في « ذيل « الرشحات » » إنه كان آية من آيات الله  
 مثل والده الماجد ، قد نور العالم ، وبدد ظلمات الجهل والبدع بيمن توجهاته العلية ،  
 وأحواله السنية وصار ألوف من الرجال ، محرماً للأسرار الخفية ، وتحققوا بالحالات  
 السنية بشرف صحبته العلية ، حتى قيل إن جميع من بايعه في الطريقة تسعمائة ألف ،  
 وعدد خلفائه سبعة آلاف ، منهم الشيخ حبيب الله البخاري كان أعظم مشائخ خراسان وما  
 وراء النهر في زمانه ، وقد تنورت بخاري بنور السنة بعد ماغشيتها ظلمة البدعة وشرف

(١) هذه الترجمة للشيخ محمد معصوم ، التي جاءت فيها معظم الجوانب المهمة من حياته ، مقتبسة  
 من « نزهة الخواطر » ج ٥ ، بتعديل يسير .

بالخلافة والإجازة أربعة آلاف من مرديه بعد إيصالهم إلى رتبة الكمال ، انتهى .  
وللشيخ معصوم مكاتيب فى ثلاثة مجلدات مثل مكاتب والده متضمنة لغوامض الأسرار اللطائف ، أكثرها فى حل مغلفات معارف والده المرحوم .

توفى فى اليوم التاسع من ربيع الأول سنة تسع وسبعين وألف بمدينة سرهند فدفن بها .  
الشيخ آدم البنورى (١) :

الشيخ العارف الولى الكبير آدم بن اسماعيل بن بهوه بن يوسف بن يعقوب بن الحسين الحسينى الكاظمى البنورى ، أحد كبار المشائخ النقشبندية بشر به والده فى رؤيا صالحة .  
بشره بذلك النبى ﷺ ، ولد ونشأ بقرية « بنور » بفتح الموحدة وتشديد النون من أعمال سرهند ، وأخذ الطريقة عن الحاج خضر الروغانى أحد أصحاب الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السرهندي ، بمدينة ملتان . ولازمه شهرين كاملين ، ثم قدم سرهند بأمره .  
ولازم الشيخ أحمد المذكور مدة من الزمان ، وأخذ عنه ، وقد ذكر فى « خلاصة المعارف » أنه حصلت له نفحة من الجذبات الربانية عن الشيخ محمد طاهر اللاهورى بحق ما وصل إليه عن الشيخ اسكندر عن جده كمال الدين الكيتهلى ، وبالجملة فإنه بلغ رتبة لم يصل إليها كثير ممن عاصره من المشائخ . وكانت طريقته اتباع الشريعة المحمدية اقتفاء آثار السنة السنية لا ينصرف عنها قدر شعرة فى الأقوال ، ولا فى الأفعال .

أخذ عنه خلق كثير حتى قيل إن أربعمائة ألف مسلم بايعوه ، ثم ألف رجل منهم نالوا عنه حظاً وافراً من العلم والمعرفة ، وقيل إن زوايته قلما كانت تخلو عن ألف رجل كل يوم ، وكلهم كانوا يأكلون الطعام من مطبخه ويستفيدون منه .

فى « التذكرة الأدمية » أنه سار إلى لاهور سنة اثنتين وخمسين وألف ، وكان معه عشرة آلاف من السادة والمشائخ ، ومن كل طبقة ، كان شاهجهان بن جهانكير سلطان الهند بلاهور فى ذلك الزمان ، فاستعظمه وأمر سعد الله خان أن يذهب إليه ، فجا سعد الله خان ، وتكدرت صحبته بالشيخ ، فسعى إلى السلطان بالوشاية ، فأمر السلطان أن يسافر الشيخ إلى الحرمين زادهما الله شرقاً ، فسافر معه أصحابه وعشيرته فحج وسكن بالمدينة المنورة حتى مات بها « انتهى » :

وللشيخ آدم رسائل فى الحقائق والمعارف ، منها « خلاصة المعارف » فى مجلدين

(١) مقتبس من « نزهة اخواطر » ، ج ٥ ، بتعديل يسير .

بالفارسية ، أوله : « الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً بقدر كمالات أسمائه وآلائه ... الخ » ومنها « نكات الأسرار » .

وكان الشيخ آدم أميا ما قرأ شيئاً من الكتب على أهل العلم .

مات لسبع بقين من شوال سنة ثلاث وخمسين وألف بالمدينة المنورة ، فدفن ببقيع الغرقد عند قبة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه .

## السلسلة المجددية المعصومية

### ومشايعها الكبار :

نذكر - أولاً وبصورة إجمالية - نبذة من حياة المشايخ الكبار فى سلسلة الشيخ محمد معصوم ، لعلنا نستطيع أن ندرك بها ما أحرزوا من القبول والإعجاب ، وتهافت الناس عليهم تهافت الفراش على النور ، وسعة حلقتهم للتدريس والإفادة والتربية ، والإفاضة، وكثرة وفود الطالبين والمسترشدين ، تأثيرهم الواسع العميق فى المجتمع الإسلامى المعاصر وحياة المسلمين - بصفة عامة - ينبغى للاطلاع على تراجمهم المفصلة الرجوع إلى الكتب التى ألفت فى حياتهم - بصفة مستقلة - أو كتب السير والتراجم العامة التى تقدم ذكرها إجمالاً ، أما يتعلق بالهند ، فيكفى إلقاء نظرة على الأجزاء : الخامس، والسادس ، والسابع ، من كتاب العلامة السيد عبد السحى الحسنى الشهير « نزهة الخواطر » .

### الشيخ سيف الدين السرهندي :

انتشرت طريقة الشيخ محمد معصوم ، وحققت أهداف الإمام السرهندي - مؤسس هذه الطريقة - ومقاصده - التى تشتمل - بصنفة خاصة - على تجديد الصلة مع الله - سبحانه وتعالى - والدعوة إلى اتباع السنة ، ونبذ البدع والمنكرات ، وبلغت ذروة الرقى والكمال على يد الشيخ سيف الدين بن الشيخ محمد معصوم وخليفته ارشد ( ١٠٤٩ - ١٠٩٦ هـ ) الذى اختار بلدة دهلى للإقامة بأمر والده فصار مرجعاً للطالبين ، ومجمعاً للسالكين، وتأسست على يديه تلك الزوايا العامرة التى أصبحت فى عهد الشيخ المرزا مظهر ( جان جانان ) ، والشيخ غلام على مركزاً عالمياً روحياً للتربية والإفاضة ، واستنارت بها أرجاء أفغانستان وتركستان - فى جانب - وأضاءت العراق والشام فى جانب آخر ، وصدق قول الشاعر الذى وصف الشيخ محمد معصوم بما معناه :

« الشيخ محمد معصوم سراج يضىء الممالك والبلاد ، استنارت به الأفاق من الهند إلى الروم » .

وتلقى السلطان أورنك زيب التربية الروحية على يد الشيخ سيف الدين ويذكر في كتب التاريخ دخل الشيخ سيف الدين في قصر السلطان ، وإنكاره على الصور المنحوتة في الجدران ، وانقياد السلطان له ، وأمره - مباشرة - بإزالة هذه الصور <sup>(١)</sup> ، وأخبر الشيخ سيف الدين والده بهذه الحادثة في رسالة إليه ، فوجه والده الشيخ محمد معصوم رسالة إلى السلطان ، وأبدى فيها سروره ، يقول فيها :

« إنها لنعمة عظيمة أن يسمع السلطان - رغم أبهته وشوكته وحشمته - كلمة الحق وينصاع لها ، ويؤثر فيه قول مسكين فقير » <sup>(٢)</sup> .

كما أخبر الشيخ سيف الدين والده بظهور آثار الذكر على السلطان ، وقطعه المسافات الطويلة في « السلوك » ، فكتب إليه والده الشيخ محمد معصوم في سرور وارتياح وغبطة ، يقول :

« ما ذكرته من أحوال السلطان الحامي ذمار الإسلام ، مثل سريان الذكر في اللطائف ، وحصوله على « سلطان الأذكار » و « الرابطة القلبية » وقلّة الوسوس والخطرات ، وتقبله الحسن لكلمة الحق ، وإزالة بعض المنكرات وزوال « لوازم الطلب » انكشف لى كل ذلك برسالتك غاية الانكشاف ، فيجب علينا أن نحمد الله - عز وجل - على ذلك ، فإن هذه الصفات شاذة نادرة في طبقة السلاطين <sup>(٣)</sup> .

وداوم السلطان على الاتصال به روحياً وتربوياً ، فقد ذكر مؤلف « مآثر عالمكبرى » محمد ساقى مستعد خان ، في وقائع يوم ١٣ محرم العام الثاني عشر للجلوس الموافق عام ١٠٨٠ هـ ، أن السلطان ذهب بعد ما مضى هزيع من الليل إلى بيت الشيخ سيف الدين ، من البستان الذى كان فيه وجلس عنده ساعة يستفيد بصحبته المباركة وكلماته الطيبة النافعة ، وأبدى له إجلاله واحترامه ، ورفع شأنه ثم رجع إلى قصره <sup>(٤)</sup> .

(١) « ذيل الرشحات » لشيخ محمد الفزانى ص ٤٨ ، المطبعة الأميرية بمكة المحمية ١٣٠٠ هـ .

(٢) رسائل شيخ محمد معصوم ج ٣ ، الرسالة رقم : ٢٢٧ .

(٣) أيضاً ج ٣ ، الرسالة رقم : ٢٢٠ .

(٤) مآثر عالمكبرى ، قام بنشره «مجمع بنغال الآسيوى» ( BENGAL ASIATIC SOCIETY ) .

قال الشيخ مراد بن عبد الله القزاني في « ذيل الرشحات » : « كان في الأمر بالمعروف النهي عن المنكر على رتبة لم يكن عليها شيخ من المشايخ مثله ، حتى كادت البدع ترتفع عن بلاد الهند في زمنه وتستأصل ، ولذلك لقبه والده بمحتسب الأمة ، وكان صاحب جذب قوى ، وتصرف عال بحيث كان الناس يضطربون من قوة توجهاته ، ويبقون بلا اختبار في يده » .

وكانت له شوكة ظاهرة حتى كان السلاطين والأمراء يقومون على أرجلهم بالأدب التام بين يديه ، ولا يتجاسرون على القعود أمامه ، وكان يأكل من مطبخه كل يوم ألف وأربعمائة رجل مرتين مما يوافق طبعه ، وترغب فيه نفسه <sup>(١)</sup> .

وخلف الشيخ سيف الدين السيد نور محمد البداوني ( م ١١٣٥ هـ ) الذي عمر هذه الزاوية ، نورها بنور الشريعة المحمدية ، ثم خلفه الشيخ مرزا مظهر جان جانان ، الذي ازدادت به هذه الزاوية بهاء ونوراً .

### من الشيخ محمد زبير إلى الشيخ فضل رحمن الكنج مراد آبادي :

وكان الابن الثاني للشيخ محمد معصوم هو الشيخ محمد نقشبند ( م ١٠٣٤ - ١١١٤ هـ ) الذي اشتهر بحجة الله نقشبند ، استخلفه الشيخ محمد معصوم وأجازه فانصرف بعد وفاته - إلى التربية والإرشاد ، انصرافاً كلياً .

وكان من خلفائه الشيخ محمد زبير بن أبي العلاء بن الشيخ محمد معصوم ( م ١١٥١ هـ ) حصل له من رجوع الناس إليه ، وتقاطرهم عليه من كل حدب وصوب ما لم يحصل لغيره ، في عصره إلا نادراً ، وإذا خرج يعود مريضاً أو يلبي دعوة ، تبعه الملوك والأمراء فيظن أنه موكب السلطان <sup>(٢)</sup> .

خلفه في الدعوة والإرشاد الأعلام من الرجال ، اشتهر منهم ثلاثة : الشيخ ضياء الله ، الذي خلفه الشيخ محمد آفاق ، والشيخ محمد ناصر عندليب ، الذي خلفه الشيخ محمد آفاق ، والشيخ محمد ناصر عندليب ، الذي خلفه ابنه الشاعر العارف ميردرد الدهلوي ، والشيخ عبد العال ، الذي كان من خلفائه الشيخ عبد القادر الدهلوي أول مترجم لمعاني

(١) انظر « نزهة الخواطر » ج ٦ ، نقلا من « ذيل الرشحات » . ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) « در المعارف » مجموعة أقوال الشيخ غلام علي ، وانظر « نزهة الخواطر » ج ٦ .

القرآن الكريم بالأردية لسان مسلمى الهند ، وابن الإمام حكيم الإسلام ولى الله الدهلوى .  
وكان الشيخ ضياء الله من أجلة المشايخ ، صاحب الصلة القوية مع الله ، حتى كان  
لشيخ غلام على يقول : من لم يشهد النسبة المجددية فليُنظر إلى الشيخ ضياء الله <sup>(١)</sup> .  
ورزق خليفته الشيخ محمد آفاق ( ١١٠٦ - ١١٥١ هـ ) قبولاً عظيماً ، وطبق صيته  
الآفاق ، فاستفاض به الناس من دهلى إلى كابل ، ولما سافر أفغانستان بايعه زمان شاء ملك  
« كابل » وخلق كثير <sup>(٢)</sup> .

وكان خليفة الشيخ محمد آفاق ، الشيخ فضل رحمن الكنج مراد آبادى ، الذى عمر  
الهند وأضاءها - لا سيما المنطقة الشمالية منها - بروحانيته وطهارة أنفاسه ، وحرارة حبه  
ونوعته ، وزهده فى زخارف الدنيا ، واتباعه للشريعة الغراء ، واشتغاله بتدريس الحديث  
الشريف ، وتمسكه بالسنة فى دقيق وجليل ، أكثر من نصف قرن من الزمان ، وبتعبير دقيق  
« قمت سوق الحب الإلهى ونفقت نفاقاً عظيماً » .

ويقول مؤرخ الهند ومترجم رجالها ، المعروف بأمانته العلمية ، وسعة نظره وتحرية للدقة  
وعدم المبالغة ، العلامة السيد عبد الحى الـحسنى مؤلف « نزهة الخواطر » فى ترجمته  
الحافلة الجميلة فى كتاب « نزهة الخواطر ، وبهية المسامع والنواظر » :

« الشيخ العلامة المحدث المعمر صاحب المقامات العلية ، والكرامات المشرقة الجليلة  
شرف الإسلام فضل الرحمن بن أهل الله بن محمد فياض ابن بركة الله بن عبد القادر بن  
سعد الله بن نور الله المعروف بنور محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحيم بن محمد  
الصديقى المانوى ثم امراد آبادى ، كان من العلماء الربانيين .

ولد سنة ثمان ومائتين وألف بملاّنوان - بتشديد اللام - وقرأ العلم على مولانا نور بن  
أنوار الأنصارى اللكهنوى وعلى غيره من العلماء ، ثم سافر إلى دهلى بصحبة الشيخ حسن  
على اللكهنوى المحدث ، فأدرك بها الشيخ عبد العزيز بن ولى الله والشيخ غلام على ،  
واشيخ محمد آفاق وغيرهم من كبار المشايخ ، وأخذ الحديث المسلسل بالمحبة عن الشيخ  
عبد العزيز المذكور ، وسمع منه شطراً من صحيح البخارى ثم رجع إلى بلده ولبث برهة  
من الزمان ، ثم سافر إلى دهلى بعد ما توفى الشيخ عبد العزيز ، فلزم سبطه الشيخ

(١) در المعارف ، ص ١٦ .

(٢) انظر « نزهة الخواطر » ، ج ٧ .

اسحاق بن محمد أفضل العمري ، وقرأ عليه الصحاح الستة ، وأخذ الطريقة عن الشيخ محمد افاق النقشبندی الدهلوی ، صحبه مدة ، حتى نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة ، ثم عد إلى بلدته وأقام بها ، زمناً ، ولما توفيت أم عياله انتقل إلى مراد اباد على أربعة أميال من ملانوان وتزوج بها وسكن ، ولكنه كان في ذلك الزمان يؤثر السفر على الإقامة ، فربما يسير إلى لكهنئو وكانبور وبنارس وقنوج وغيرها من البلاد ، وربما يشتغل بتصحيح المصاحف في دور الطباعة ، ويشتغل بتدريس الحديث الشريف .

ثم لما كبر سنة ترك السفر واعتزل بمراد آباد ، فتهافت عيه الناس تهافت الظمان على الماء . وتواترت عليه التحف والهدايا ، وخضع له الوجهاء وسراة الناس يأتون إليه من كل فج عميق ومرمى سحيق ، حتى صار علماً مفرداً في الديار الهندية ورزق من حسن القبول ما لم يرزق أحد من المشائخ في عصره .

وكن أكبر من رأيت وأعلمهم بهدى النبي ﷺ ، ودله وسمته ، لا يتجاوز عنه في أمر من الأمور مع العفاف والقناعة ، والاستغناء والسخاء ، والكرم والزهد ، لا يدخر مالاً ، ولا يخاف عوزاً ، تحصل له الألوف من النقود فيفرقها على الناس في ذلك اليوم ، حتى كان لا يبيت ليلة ، وفي بيته درهم أودينار وكان لا يحسن الملابس والمأكل ، ولا يلبس لبس المتفقهة من العمامة والطيلسان فضلاً عن تكبير العمامة وتطويل الأكمام ، ولا يهاب أحداً في قول الحق ، وكلمة الصدق ، ولو كان جباراً عنيداً ، قد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع ، والشجاعة والكرم ، والجلالة والمهابة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع حسن القصد والإخلاص ، والابتهاال إلى الله تعالى ، ودوام المراقبة له والدعاء إليه ، وحسن الأخلاق ونفع الخلق ، والإحسان إليهم ، فإن حلفت بين الركن والمقام أنى ما رأيت في العالم أكرم منه ، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم ، ولا أطوع منه للكتاب والسنة ما حثت ، وأنى ما رأيت أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ منه .

وكان ربع القامة نقى اللون ، عظيم الهامة ، مرسل اللحية ، قصيرها ، يصلى بالناس في المسجد ، ويسكن في حجرة بفنائها ، ويسعى مع أصحابه في مصالحهم ، وملبوسه كأحاد الناس ، يدرس القرآن الحكيم والحديث الشريف قبل الظهيرة ، وبعد العصر في أغلب الأوقات ، سمعت منه المسلسل بالأولية والمسلسل بالمحبة ، وشطراً من صحيح البخارى ، كان يقرأ رضى الله عنه ، ويتكلم في أثناء القراءة على الأحاديث .

وأما كشوفه وكراماته فلا تسأل عن ذلك ، فإنها بلغت حد التواتر ، وأنى ما وجدت في الأولياء السالفين من يكون مثله غير الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه .



توفى لثمان بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وألف بمراد آباد فدفن بمقبرة مراد خان .

## الشيخ مرزا مظهر جان جانان والشيخ غلام علي :

كان الشيخ مرزا جان جانان ، الشهيد ( ١١١١ - ١١٩٥ هـ ) خليفة السيد نور محمد لبدايوني الذي بقى ٣٥ سنة يشعل بحرارة أنفاسه مجامر القلوب ، وينور بإشراقه الأرواح والنفوس ، وأقام سوق الحب لله بدلهى العاصمة ، يقول عنه العالم الكبير . ومعاصره لناقد البصير الإمام ولي الله الدهلوى :

« لا تخفى على أخبار رجال الهند وسيرهم ، فقد ولدت هنا ، وعشت وزرت البلدان العربية . وقمت فيها برحلات وجولات ، وسمعت أحوال رجال أفغانستان . وإيران من هلهما الثقات ، توصلت بعد كل ذلك إلى أنه لا يوجد فى أى بلد من هذه البلدان مرب وحي يضاهيه فى اتباعه لكتاب والسنة ، وتمسكه بهما ، واستقامته على جادة الشريعة الطريقة ، ويساويه فى علو كعبه فى إرشاد الطالبين وتربية السالكين ، وفى قوة تأثيره . فى مصر . هذا ، يمكن - من غير شك - أن يكون أمثاله فى القرون الماضية ، وفى المتقدمين بل نواقع أنه لا يوجد أمثاله فى : عشر ، إلا عدد قليل ، فضلاً عن هذا العصر الذى عم فيه فساد وشمل البلاد والعباد »<sup>(١)</sup> .

وخلفه - فى تربيته وإرشاده - نوابغ العلماء وأعلام المشايخ<sup>(٢)</sup> ، كالشيخ نعيم الله بهراجسى ( ١١٥٣ - ١٢١٨ هـ ) والشيخ القاضى ثناء الله البانى بتي ( م ١٢٢٥ هـ ) بهقى عصره ( كما لقبه بذلك مسند الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوى ) ومؤلف « التفسير لظهري » و « مالا بد منه » وشيخ غلام يحيى البهارى ( ١١٨٠ هـ ) ، ولكن قبض الله - سبحانه وتعالى - لنشر طريقته ، بل الطريقة المجددية وتبليغها على النطاق العالمى الواسع تليفته الشيخ غلام على البتالوى<sup>(٣)</sup> ( ١١٥٦ - ١٢٤٠ هـ ) الذى يستحق أن يدعى بمجدد طريقة المجددية ، بل مجدد علم السلوك والإحسان والتزكية - الذى يعرف بعلم التصوف فى القرن الثالث عشر الهجرى ، الذى قصده الطالبون من البلاد العربية العجمية ، تهافتوا عليه تهافت الفراش على النور ، ولم تبق مدينة من مدن الند ، إلا وتشرفت

(١) « كلمات طيبات » ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) وقد جاء فى كتاب « مقامات مظهري » ص ٦٤ أسماء ٤٣ شخصاً من خلفائه .

(٣) كان اسمه عبد الله ، ولكنه اشتهر باسم لشيخ غلام على .

بخليفة من خلفائه ، وكان فى مدينة « أنباله » وحدها خمسون شيخاً مرشداً من خلفائه ، يقول السر السيد أحمد خان الدهلوى مؤسس جامعة عليكره الإسلامية ، وقد أدرك آخر أيام حياته فى كتابه « آثار الصناديد » :

« شاهدت بأم عيني فى زوايته رجالاً من الروم والشام ، وبغداد ومصر ، والصين والحبشة ، وفدوا عليه وباعوه ، ورؤوا خدمة هذه الزواية سعادة العمر وحسنة الدهر ، أما البلدان والمدن القريبة مثل الهند ، وبنجاب وأفغانستان فلا تسأل عن أهلها ، الذين قصدوه كالجراد المنتشر ، وكان يسكن فى زوايته زهاء خمسمائة من الطالبين المنقطعين إلى التزكية . وكان الشيخ متكفلاً بطعامهم وملابسهم » (١) .

ويذكر الشيخ رؤوف أحمد المجددى فى كتابه « در المعارف » فهرس القرى والمدن والبلدان التى ينتمى إليها المحتشدون من أنحاء مختلفة فى هذه الزواية وذلك فى يوم ٢٨ جمادى الأولى عام ١٢٣١ هـ ، واقرأ - فيما يلى - هذا الفهرس .

«سمرقند ، وبخارى ، غزني ، تاشقند حصار ، قندهار ، كابل ، بشاور ، كشمير ، ملتان ، لاهور ، سرهند ، أمرهه ، سنبهل ، رامبور ، بريلى ، لكهنؤ ، جاش ، بهرائج ، كور كخبور ، عظيم اباد ، دهاكة ، حيدر آباد ، بونا وغيرها من المدن والقرى» (٢) .

### الشيخ خالد الرومى :

وقدر الله - عز وجل - أن تنتشر سلسلة الشيخ غلام على وطريقته ، ويمتد رواقها على العراق والشام وتركيا ، بالشيخ خالد الرومى الشهرزورى ، أحد الفضلاء الأكراد ، الذى بلغه صيت الشيخ غلام على وإرشاده وتربيته فى بلاده ، فشد رحله فى شوق وحنين واضطراب ، وقطع المفاوز والمسافات الشاسعة ، حتى وصل فى مدة عام كامل إلى دهلى ، فألقى رحله فى زوايته ولزمها إلى أن أكرمه الله - سبحانه وتعالى - بعد التربية والسلوك ، بالإجازة والخلافة ، وقد كان من انقطاعه الكامل إلى الاشتغال بتزكية نفسه أثناء إقامته ، أن العلماء والمشايخ من أهل دهلى الذين كانوا يسمعون - من أعوام وسنين - أخبار فضله ونبوغه ، وسمو منزلته يأتون لزيارته ، فيقول لهم :

(١) آثار الصناديد ، الباب الرابع .

(٢) در المعارف ، ص ١٠٦ .

« لا يستطيع الفقير أن يلتفت إلى شيء آخر غير هدفه المنشود الذي جاء لأجله » .

ولما رجع إلى بلاده تهافت عليه الناس من كل صوب وحدث ، وقصدوه زرافات ووحداً . ورزق من القبول ورجوع الطالبين ما يندر نظيره ، يقول الشيخ رؤوف أحمد المجددي في « در المعارف » في مذكرة يوم الجمعة ٢٤ رجب ١٢٣١ هـ :

« حضر شيخ مغربي متجشماً عناء السفر الطويل في هذه المسافة الشاسعة البعيدة عندما سمع بذكر شيخنا الجليل ، ولقى في الطريق ببغداد الشيخ خالد الرومي ، فذكر من حال قبوله العظيم ورجوع الناس إليه ، وقال إنه بايعه ، وتاب على يديه زهاء مائة ألف شخص . وانخرطوا في سلك مريديه ، كما بايعه ألف من العلماء المتبحرين ، الذين يمثلون لدى شيخ في إجلال واحترام »<sup>(١)</sup> .

ويقول الشيخ خالد الرومي نفسه في رسالة كتبها إلى الشيخ أبي سعيد - تحديثاً بالنعمة وشكراً على الإاء الله - :

« جميع بلاد الروم والعرب والحجاز والعراق ، وبعض بلاد العجم وجميع كردستان تأثيراً عيقاً بالطريقة النقشبندية العالية ، وبركاتها ، ويتذاكر الناس - صغارهم وكبارهم - في مجالسهم ومحافلهم ، ومساجدهم ومدارسهم - صباح ومساء - محاسن الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ومنوره ومآثره وفضائله ، فهو حديث المجالس والنوادي ، وما كنا نتوقع - إلى أي بد وفي أي عصر - أن تشنف سمع الزمان هذه الألحان ، أو تشهد السماء هذه الرغبة ، والشوق والاجتماع ، وإن كان الحديث عن هذه الأمور يحمل نوعاً من الجراءة والاعجاب بالنفس ، والفقير خجلان ، ولكنه أقدم على بيان ذلك ، مراعاة لحق الأحياء والأصدقاء » .

كان العلامة ابن عابدين المعروف بالعلامة الشامي مؤلف «رد المحتار شرح الدر المختار» تلميذ الشيخ خالد الرومي ، تربي على يديه ، وألف رسالة مستقلة عنه بعنوان « سلّ الحسام الهندي لنصرة موانا خالد النقشبندی » وهي في الحقيقة رد على كتاب ألفه بعض الحاسدين الكائدين ، في معارضة الشيخ خالد الرومي وتضليله ، وتناول في آخر الرسالة ترجمة حياته - بإيجاز - .

(١) « در المعارف » ، ص ١٧٠ .

## الشيخ أحمد سعيد وخلفاؤه :

كان خليفة غلام على الحقيقى - الذى نشر طريقته فى الآفاق - الشيخ أحمد سعيد بر الشيخ أبى سعيد ( ١٢١٧ - ١٢٧٧ هـ )<sup>(١)</sup> ، الذى كان سليل الأسرة المجددية الذى تلقى التربية فى أحضان الشيخ غلام على وازدانت به - بعد وفاة والده عام ١٢٥ هـ زاوية الشيخ غلام على ، والشيخ مرزا مظهر جان جانان ، وقضى ٢٣ سنة كاملة - من ١٢٥٠ لى ١٢٧٣ هـ - فى الجهود المتواصلة لنشر الطريقة المجددية ، واضطر فى هذا العام نفسه - الموافق ١٨٥٧ م أن يغادر الهند ويودع زاوية آبائه الميامين ، فغادر دهلى فى شهر محرم الحرام عام ١٢٧٤ هـ ، ووصل مكة المكرمة فى شهر شوال ١٢٧٤ هـ ، ثم اختار السكنى الدائمة بالمدينة المنورة ، وعاش عامين ، حتى وافاه الأجل المحتوم ، فدفن بها ، وتهافت المئات من العرب والأتراك عليه - فى هذه المدة القليلة - للبيعة والتوبة على يديه ، حتى قال أحد شاهدى العيان : « لو مد فى أجله واستمرت هذه السلسلة للبيعة لبلغ عدد تلاميذته ومريديه مئات الألوف من الناس »<sup>(٢)</sup>

ويتعذر استقصاء خلفاء الشيخ أحمد سعيد ، فقد ذكر عددهم فى « المناقب الأحمدية »<sup>(٣)</sup> ثمانين ، وانتشرت طريقته فى الهند لجهود الشيخ دوست محمد القندهارى ، الذى تصدى لخليفته الأكبر الشيخ عثمان الدامانى ( م ١٣١٤ هـ ) فى قرية « موسى زئى » من قرى « ديره اسماعيل خان » فى المنطقة الشمالية الغربية من الهند<sup>(٤)</sup> ، للإفادة والإفاضة ، وملاأ الجو بحيوية الحب الدافق وحرارة العشق الطاهر ، وغشاها بسكينة النسبة النقشبندية ، ثم قام خليفته الأكبر الشيخ سراج الدين ( م ١٣٣٣ هـ ) بنشر هذه الطريقة فى الآفاق ، وقد كساه الله - سبحانه وتعالى - ثوب المهابة والوقار ، فعمر زاوية سلفه الكرام بالتربية والإرشاد ، والتدريس والإفادة ، والاشتغال بعلم الحديث الشريف

وخلفه الشيخ حسين على ( ١٢٨٣ - ١٣٦٣ هـ ) من « وان بجهران »<sup>(٥)</sup> الذى كان له أسلوب خاص فى تفسير القرآن الكريم يُعنى فيه بشرح آيات التوحيد عناية خاصة ، وكان

(١) راجع لترجمته مفصلة « نزهة الخواطر » ، ج ٧

(٢) رسالة الشيخ محمد عمر بن الشيخ أحمد سعيد الى السيد عبد السلام الهنسى

(٣) تأليف الشيخ محمد مظهر

(٤) الآن فى باكستان الغربى .

(٥) تقع هذه القرية فى مديرية « ميانوالى » فى البنجاب الغربية فى باكستان

داعياً متحمساً إلى التوحيد الخالص ، قام بإصلاح العقائد الفاسدة ، ودحض البدع الباطلة ، ورفع راية التوحيد الخالص في بنجاب ، وفي مناطق عمت فيها الأعمال الشركية ، وانتشرت فيها البدع ، واتخذ فيها الناس الضرائح مساجد ومعابد ، والأولياء الصالحين أرباباً من دون الله ، لا يهاب في ذلك أحداً ، ولا يخاف لومة لائم<sup>(١)</sup> .

وكان في هذا العصر بالذات ، الشيخ الإمام على المكانوى ( ١٢١٢ - ١٢٨٢ هـ ) أحد المشائخ الكبار في السلسلة المجددية ، كان لكثرة وفود الناس وتهافتهم عليه وقبوله العام فيهم ، يذبح في مطبخه - كل يوم - ثلاثمائة طلىّ لقرى الضيوف<sup>(٢)</sup> .

وكان من أجلة خلفاء الشيخ أحمد سعيد ، الشيخ عبد السلام الواسطى الهنسى<sup>(٣)</sup> ( ١٢٣٤ - ١٢٩٩ هـ ) الذى كان صاحب نسبة عالية ، واستقامة وورع وانتشرت به هذه الطريقة في الولايات المتحدة بالهند ، وكان الشيخ عبد الرشيد - أحد أبناء الشيخ سعيد - الذى تلقى التربية على يديه الأمير كلب على خان أمير ولاية رامبور - خليفة أبيه بعد وفاته في المدينة المنورة ، وسكن في مكة المكرمة آخر أيام حياته ، وبقي مشغلاً بتربية السالكين وإرشاد الطالبين ، إلى أن لبي داعى الأجل ، ودفن في المعلاه ، وأسس ابنه الشيخ محمد معصوم ( ١٢٦٣ - ١٣٤١ هـ ) الزواية المعصومية برامفور . وأقام بها ٣٢ سنة ، وتوفى في مكة المكرمة عام ١٣٤١ أحمد سعيد وهو الشيخ محمد مظهر ( ١٢٤٨ - ١٣٠١ هـ ) كان صاحب نسبة قوية ، وشيخاً كثير الاشتغال بالتربية والإرشاد ، واستفاد به مئات من الطالبين الوافدين من سمرقند وبخارى ، وقزان وأرض الروم وأفغانستان ، و إيران وجزيرة العرب ، والشام ، وبنى عام ١٢٩٠ هـ عمارة فخمة ذات ثلاثة طوابق لزاويته في المدينة ، تعرف بالرباط المظهرى وتقع بين باب النساء والبقيع .

وكان ابنه الثالث الشيخ محمد عمر ( ١٢٤٤ - ١٢٩٨ هـ ) الذى أنجب الشيخ أبا الخير المجددى .

### الشيخ عبد الغنى :

هو أخو الشيخ أحمد سعيد الصغير ، ولكنه الكبير منزلة ، وهو المحدث الجليل الشيخ عبد الغنى بن أبى سعيد ولد في سنة ١٢٣٥ هـ ، جمع بين تدريس الحديث الشريف ،

(١) اقرأ ترجمته في « نزهة الخواطر » ج ٨ .

(٢) نزهة الخواطر ، نقلاً عن « تذكروه بى مثل راجكان راجور » مرزا ظفر الله خان ، ص ٥٠٨ - ٥٢١ .

(٣) راجع ترجمته المفصلة ، نزهة الخواطر ج ٧ .

والتربية والتسليك بحيث يتعذر نظيره باستثناء الشيخ عبد العزيز الدهلوى ، كان - مع تحليه بنعمة الصفاء الباطنى والنسبة المجددية وشياخة الطرق - انتهت إليه رئاسة التدريس فى الحديث الشريف فى الهند والحجاز وتخرج على يديه أعلام العلماء ، كالشيخ الأجل الإمام محمد قاسم النانوى ، - مؤسس دار العوم ديوبند - والشيخ المحدث الكبير العلامة رشيد أحمد الكنكوهى ، وانتشر به علم الحديث ، وأصبحت مدرستا دار العلوم بديوبند ، ومظاهر العلوم بسهانفور ، العظيمنتان مركزاً لتدريس الحديث الشريف .

ولما وقعت كارثة عام ١٨٥٧ م هاجر من الهند مع أخيه الأكبر إلى المدينة المنورة وأقام فيها ، وأحيا سنة العلامة الشيخ على المتقى مؤلف « كنز العمال » فاشتغل - طول عمره - بخدمة الحديث الشريف فى الحرمين الشريفين ، وأفاد الطلاب - عرباً وعجماً - حتى توفى سنة ١٢٩٦ هـ ، ودفن فى البقيع<sup>(١)</sup> ، له نفيى على سنن ابن ماجه سماه « انجاح الحاجة على سنن ابن ماجه » .

ومن مشاهير الخلفاء الشيخ عبد الغنى ، الشيخ عبد الحق الإه أبادى المهاجر إلى مكة المكرمة المعروف بـ « صاحب الدلائل » ( م ١٣٣٣ هـ ) والشيخ أبو أحمد المجددى البوفالى ( م ١٣٤٢ هـ ) ، والشيخ رفيع الدين الديوبندى - العميد الأول لدار العلوم ديوبند - ( م ١٣٠٨ هـ ) الذى نال منه المفتى عزيز الرحمن الديوبندى ( م ١٣٤٧ هـ ) الإجازة والخلافة .

واقفرت هذه الزواية - العامرة من نصف قرن - بعد هجرة الشيخ أحمد سعيد والشيخ عبد الغنى إلى مكة المكرمة ، وأخيراً عمرها وأعاد إليها الحياة سليل هذه الأسرة العظيمة وأحد المشايخ الأجلاء الشيخ أبو الخير المجددى ( ١٢٧٢ - ١٣٤١ هـ ) الذى كان حفيداً للشيخ أحمد سعيد ، فأم هذه الزواية - فى مدة قريبة - القاصى والدانى ، وأصبحت مرجعاً للطالين المسترشدين .

---

(١) ألف تلميذه النقيب الشيخ محمد يحيى الترهتى فى سيرته ومشايخه كتاباً مستقلاً بالعربية ، أسماه « اليانح الجنى فى أسانيد الشيخ عبد الغنى » ، وترجم له العلامة عبد الحى الحسنى الأدريسى الكتانى القاسى فى الجزء الثانى من كتاب « فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات » ، فجاءت ترجمته فى أربع صفحات من القطع الكبير ( طبع المطبعة الجديدة بطباعة فاس سنة ١٣٤٧ هـ ) قال فيها أخذ عن الشيخ عبد الغنى أناس بالحجاز الهند والمغرب ، طبقة بعد طبقة .

وتفرقت أسرة الإمام السرهندي العالية في جيلها الرابع والخامس في مختلف أقطار العالم وأنحائه ، وكان في ذلك مصالح كبيرة ، من اجتناب مجاورة قبور الآباء الكرام - التي أصبحت عدة عند كثير من خلفاء المشايخ الصوفية ، ظهرت مفاستها وعيوبها الكثيرة من خلفاء المشايخ الصوفية ، وظهرت مفاستها وعيوبها الكثيرة - ونشر الطريقة المجددية ، والقيام بالدعوة وإرشاد ، بكابل - وكان مركزه الأخير قلعة جواد<sup>(١)</sup> . وكان الشيخ نور لمشايخ فضل عمر المجددي المعروف بـ « شير آغا » ينتمي إلى هذا الفرع ، وقد تجوز عدد مريديه المئات ، وكانوا منتشرين في الهند وباكستان ، وكان أخوه الأصغر الشيخ محمد صادق المجددي سفير أفغانستان في الشرق الأوسط سابقاً ، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العلم الإسلامي - يمتاز بإمكانة المرموقة في البلدان العربية ، وقد كان لهذين الأخوين مساهمة فعلة رائدة في الحركة التي اضطرت الأمير أمان الله خان إلى الاعتزال عن لدولة ، وتولية نادر شاه مكانه .

وكان أحد فروع هذه الأسرة الكريمة يسكن في قرية تنده سائين داد ، بحيدر آباد السند ، نبغ فيه واشتهر الشيخ محمد حسن المجددي وابنه الشيخ الحافظ محمد هاشم جن المجددي ، توجد بعض فروع هذه الأسرة في المدينة المنورة ، ومكة المكرمة . وهي معروفة بتمسكها بتقاليد هذه الأسرة الموقرة الاشتغال بالوظائف والمهن الكريمة ، محتفظة بحسن الصيت وجميل الذكر .

### السلسلة الأحسنية ومشايخها الكبار :

وبالرغم من أن الشيخ السيد آدم البنوري<sup>(٢)</sup> من المنتمين إلى طريقة الإمام السرهندي ، وتلقى التربية في أحضانه ، كان مؤسس طريقة جانبية ، تسمى لكثير من خصائصها الاجتهادية بالطريقة الأحسنية ، وكان من مظاهر حكمة الله - عز وجل - وقدرته أن حظيت هذه الطريقة العايلة التي أسست بيد رجل أمي ، بكثير من العماء النابغين ، والمحدثين البارعين ، أساتذة عصرهم ، والقائمين بنشر الكتاب والسنة والدعاة ، المصلحين ، ومؤسسي

(١) ومما يؤسف له أن هذا المركز - بغزو الجنود السوفيتية والحكومات الأفغانية الاشتراكية عاد خراباً بقعاً ، واعتقل علماءه ، ومشائخه ، وطردهوا من بلادهم ، وكان المؤلف قد سعد بزيارة هذا المركز عام ١٩٧٣ م وكان عامراً ناصراً ، راجع كتاب المؤلف من نهر كابل الى نهر اليرموك « ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) توفي ٢٥ محرم الحرام ١٣٧٦ هـ ، زاره المؤلف بمكة المكرمة ولاهور .

المدارس الدينية الكبيرة ، والمؤلفين والباحثين المحققين وهو فى ذلك على أثر جده سيد المرسين - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والسائر على سنته ، والوارث لميراثه ، فقد كان حكيم الإسلام ولى الله الدهلوى وسراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوى ، والداعى إلى الله المجاهد فى سبيل الله الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والعلامة محمد اسماعيل الشهيد ، ومسند الهند الشيخ اسحاق الدهلوى ، ومؤسس دار العلوم ديوبند الشيخ محمد قاسم النانتوى ، والعالم الربنى الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى ، والمجاهد الكبير الشيخ ولاية على العظيم آبادى ، والمربى الكبير الداعى إلى الله الشيخ عبد الله الغزنوى الأمرتسرى ، ونجله الشيخ عبد الجبار الغزنوى الأمرتسرى ، كلهم ينتمون إلى الطريقة المجددية النقشبندية، بوساطة المشايخ الكبار للطريقة الأحسنية ، وكانوا أصحاب الإجازة والخلافة فيها .

وكان خلفاء الشيخ آدم البنورى فى عدد كبير يتعذر احصاؤهم فى هذا الباب ، وقد وردت هذه الأسماء التاية فى « نزهة الخواطر » أصحاب الشيخ آدم البنورى من مريديه ومسترشديه ، وحاملى نسبه ، وبعضهم ممن نال منه الإجازة والخلافة وهم :

ديوان خواجه أحمد النصير آبادى ( م ١٠٨٨ هـ ) ، والشيخ بايزيد القصورى ( م ١٠٩٠ هـ ) ، والشيخ فتح الله السهارنفورى . م ١١٠٠ هـ ) ، والشيخ سعد الله البخارى اللاهورى ( م ١١٠٨ هـ ) .

ولكن انتشرت هذه الطريقة بهؤلاء الأعلام الأربعة الذين كانوا مثالا كاملاً لتربيته واجتهاده وتعليمه ، وصورة حية لتأثيره وإفادته ، وهم : الشيخ السيد علم الله الحسنى ( ١٠٢٣ - ١٠٩٦ هـ ) والشيخ سلطان البلياوى ، والشيخ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادى ، والشيخ محمد شريف الشاه آبادى .

**الشيخ السيد علم الله الحسنى وأسرته :**

قال الشيخ آدم البنورى للشيخ علم الله الحسنى عند توديعه « سر على بركة الله ، وتصدّ للتربية والإرشاد بجمعية القلب وطمأنينة البال ، فإنك ستكون بين مشايخ ولاية « أوده » كالشمس بين النجوم » (١) .

ويقول عنه الشيخ محمد أمين البدخشى - خليفة الشيخ آدم البنورى ومن خواص

---

(١) راجع لترجمته المفصلة « سيد احمد اشهد » ( بالاردية ) لشيخ غلام رسول مهر ، ج ١ ، و « سيرة سيد احمد شهيد » ج ١ / ١ ، مؤلف ، و « تذكرة شاه علم الله للأستاذ محمد الحسنى ، وراجع أيضاً « أنفاس العارفين » للإمام ولى الله الدهلوى . .



أصحابه « لا يسمع رائحة الدنيا أن تمر ببابه ، وقد طبق صيته لورعه واستقامته ، الهند والبلدان العربية . . . وأكثر الناس الذين يرونه يقولون لعل الصحابة - رضى الله عنهم - كانوا هكذا » (١) .

### ويقول مؤلف « البحر الزخار » فى ترجمته :

« ان المجاهدات الشاقة التى ظهرت من هذا النابغة الفريد فى النفور من الدنيا ، واتباع السنة النبوية - صلى الله على صاحبها وسلم - يندر مثلها بعد الصحابة الكرام - رضى الله عنهم - فى الأولياء والمشايخ المتأخرين » ، ويقول : « إنه لما سافر إلى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة للحج والزيارة ، كان الناس عندما يشاهدون جده واجتهاده وقوته على الطاعات ، وكمال اتباعه للسنة ، والأخذ بالعزيمة ، يقولون : « هذا كأبى ذر » حتى سارت هذه الكلمة مسير الأمثال على السنة الناس » .

وكانت نتيجة هذا التمسك الشديد ، بالسنة النبوية ، أن رأى السطان عالمكير فى المذم ليلة وفاته ، أن الرسول - ﷺ - توفى فاضطرب ، وأهمه هذا الأمر ، فعرض على العلماء والمشايخ ، وسألهم تأويله . فأولوه بأنه توفى فى تلك الليلة من كنت له نسبة صحيحة بالنبي - ﷺ - وقدم راسخة فى اتباعه ، ثم أخبر بأن السيد علم الله توفى فى تلك الليلة . فأجمع العلماء على أنه هو المعبر عنه بذلك المنام » (٢) .

واستمرت هذه الطريقة الأحسنية فى أسرته ، والتي نبغ فيها من العلماء والمشايخ الكبار كابنه لرباع الشيخ السيد محمد ( ١١٥٦ هـ ) وابنه الشيخ السيد محمد عدل المعروف بشاه لعل ( م ١١٩٢ هـ ) والشيخ السيد محمد صابر بن السيد آية الله بن الشيخ علم الله ( م ١١٦٣ هـ ) والشيخ أبو سعيد بن السيد محمد ضياء بن السيد آية الله بن السيد علم الله ( ١١٩٣ هـ ) والسيد محمد سعيد واضح (٣) ابن السيد محمد صابر ، والسيد محمد ظهر الحسنى ( م ١٢٧٨ هـ ) والسيد خواجه أحمد بن السيد يسين النصير آبادى ، والشيخ السيد ضياء النبى الحسنى ( م ١٣٢٦ هـ ) الذين نفع الله بهم خلائق لا يحصون ، وتب على

(١) « نتائج الحرمين » رواية الشيخ عبد الحكيم .

(٢) انظر « نزهة الخواطر » ، ج ٥ ، و « البحر الزخار » للشيخ وجيه الدين أشرف وقد جاء فيه المنام مفصلاً ، و « در المعارف » للشيخ رؤوف احمد المجددى ، ص ٤٦ ، وذكرت فيه هذه الرؤيا الصادقة اجمالاً .

(٣) توفى فى بداية القرن الثالث عشر الهجرى .

أيديهم الألوفا المؤلففة ، وفازوا بنعمة الإيمان والإحسان ، والتمسك بالشريعة الإسامة ،  
واتباع السنة النبوية ، ونبذ البدع والمحدثات (١) .

### الشيخ سلطان البلىاوى :

كان الخليفة الثانى للشيخ آدم البنورى الشيخ سلطان البلىاوى ، استفاد من « نتائج  
الحرمين » أنه كان من أجلة خلفاء الشيخ البنورى ، وكبار أصحابه ، ويذكر اسمه قريناً  
باسم الشيخ علم الله الحسنى .

### الشيخ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادى

### والطريقة الولى اللهية :

وكان الخليفة الأجل الثالث للشيخ آدم البنورى ، الذى انتشرت به هذه الطريقة فى  
أوسع نطاق ، هو الشيخ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادى (٢) .

وكان والد الإمام ولى الله الدهلوى ، الشيخ عبد الرحيم الفاروقى ( م ١١٣١ هـ )  
خليفته ، تلقى عنه التربية الروحية ، وينتمى إلى هذه الطريقة الأحسنية المجددية فى سلسلة  
الإمام ولى الله الدهلوى ، وسراج الهند الإمام عبد العزيز الدهلوى ، الإمام أحمد بن  
عرفان الشهيد . عن طريقة الشيخ الحاج عبد الرحيم الولايتى الشهيد ، والشيخ نور محمد  
الجهنجهانوى ، عن طريقه شيخ العرب والعجم الشيخ الأجل إمداد الله التهانوى المهاجر  
إلى مكة المكرمة ، وخلفاؤه الشيخ محمد قاسم النانوى ، والشيخ رشيد أحمد  
الكنكوهى ، والمصلح الكبير الشيخ أشرف على التهانوى ، ثم طريق الشيخ رشيد أحمد  
الكنكوهى ، شيخ الهند الشيخ محمود حسن الديوبندى ، والشيخ عبد الرحيم الرائى  
بورى ، والشيخ خليل أحمد السهارنبورى ، والمجاهد الكبير السيد حسين أحمد المدنى ، ومن  
خلفاء الشيخ عبد الرحيم الرائى بورى ، الشيخ عبد القادر الرائى بورى ، ومن خلفاء  
الشيخ خليل أحمد السهارنبورى ، الداعية الكبير محمد إياس الكاندهلوى ، مؤسس  
« جماعة التبليغ » والعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى صاحب « أوجز المسالك  
إلى موطأ الإمام مالك » ، « حجج النبى ﷺ وعمراته » وكتب كثيرة ، وكلهم من أصحاب

(١) راجع تراجمهم « نزهة الخواطر » ج ٦ - ٧ .

(٢) راجع للاطلاع على ترجمته ومناقبه الجلية « أنفاس العارفين » ، ص ٦ - ١٥ ألفه الإمام ولى الله  
الدهلوى فى ترجمة والده ، وتناول فيه حياته وأعماله وتراجم أسرته ، بتفصيل ، وطبع عام  
١٣٣٥ هـ بمطبعة مجتبائى ، انظر ص ١٥ - ٨٧ .

الإجازة والخلافة فى هذه الطريقة ، ونقل الشيخ غلام على وصف الشيخ مرزا مظهر جان جانان للإمام الدهلوى فى كتابه « مقامات مظهرى » ، فقال :

« إن الشيخ ولى الله قد بين طريقة جديدة ، وله أسلوب خاص فى تحقيق أسرار المعارف ، وغوامض العلوم ، وإنه ربانى من العلماء ، ولعله لم يوجد مثله فى الصوفية المحققين . الذين جمعوا بين علمى الظاهر والباطن وتكلموا بعلوم عديدة إلا رجال معدودون » (١) .

ولما وقف إمام العلوم العقلية العلامة فضل حق الخير آبادى على كتابه « إزالة الخفاء » قال بمحضر من تلامذته ، « إن الذى صنف هذا الكتاب لبحر زاخر لا يرى له ساحل » .

أم سراج الهند الإمام عبد العزيز الدهلوى فإنه نادرة عصره فى نبوغه وبراعته ، فى علوم العقلية والعلوم النقلية ، والفنون الأدبية - فى حين واحد وانهماكه فى التدريس والإفادة ، ونشر علم الحديث ، والإفاضة الباطنية ، والتربية الربانية ، وسيلان قلمه فى لتأليف ، وحلاوة منطقته وملاححة كلامه ، ورحابة صدره . وجميل عشرته ، وتوجهه لأمة الإسلامى الهندية واهتمامه بها ، وعموم إفادته ، وكثرة فيضه ، ويندر نظيره فى حياء العالم الفسيحة ، والأقطار النائية (٢) .

### لإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته :

أما الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الذى كانت له صلة خاصة بالطريقة الأحسنىة لجدديّة، فقد ألفت حوله كتباً ضخمة ، يكفى الاطلاع منها : على كتاب « سيد أحمد مهيد » للمؤرخ الباكستانى الشهير الأستاذ غلام رسول مهر فى أربعة أجزاء ، و« سيرت سيد أحمد شهيد » للمؤلف فى جزئين (٣) ، ونكتفى هنا للإشارة إلى تأثيره العميق فى صورته وفى تاريخ الهند ، وما أنجز الله - تعالى - على يديه من هداية عامة شاملة ، ونشر

(١) نزهة الخواطر ، ج ٦ ، ص ٤٠٥ ، نقلاً عن « مقامات » مظهرى « طبعة المطبع الأحمدي ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) راجع للاطلاع على أحواله ومناقبه العظيمة بتفصيل وافاضة ، نزهة الخواطر ج ٧ .  
(٣) وكلاهما بالأردنية ، وللمؤلف كتاب بالعربية بعنوان « إذا هبت ريح الايمان » يتحدث عن دوره العظيم ، وجهوده الموفقة فى إقامة الدولة الاسلامية فى اسلوب قصصى ، وكتاب آخر بعنوان الامام الذى لم يوف حقه من الانصاف والاعتراف ، رد فيه على الشبه المثارة حوله وصدر له أكثر من طبعة فى الهند ومصر .

للدعوة الإسلامية وحفاظ على خصائص الإسلام وميزاته ، ببعض الشهادات .

يقول معاصره العالم الجليل الشيخ عبد الأحد الذى له خبرة واسعة بأحوال الهند وأخبارها :

« أسلم على يديه أكثر من أربعين ألف شخص من الهنادك والكفار ، وبايعه ثلاثة ملايين من المسلمين ، ولو وضعنا فى الاعتبار سلسلة البيعة والإرشاد التى لا تزال متصلة الحلقات ، وتجرى حتى اليوم على أرض الله عن طريق أتباعه وأتباع أتباعه ، ليكون قد دخل فى بيعته ملايين الملايين من الناس » .

ويقول مؤلف الهند الشهير السيد صديق حسن خان أمير بوفال ( م ١٣٠٧ هـ ) الذى شاهد آثار تربيته وإرشاده ، واطلع عليها عن كثب ، وعاصر كثيراً ممن شاهدوه وصحبوه فى ، كتابه « تقصار جيود الأحرار » :

« إنه كان آية من آيات الله - تعالى - فى هداية عباده ، وإصلاح حالهم ، والرجوع بهم إلى الله وعبادته ، وبلغ خلق كثير وعالم بأسره إلى درجة الربانية و « الإحسان » بتعليمه وتربيته ، وتزكيته القلبية والجسمية ، وتطهرت الهند من أدناس الشرك والبدع والخرافات والأوهام ، بفضل مواعظ أصحابه وخلفائه واهتدت إلى جادة الكتاب والسنة ، ولا تزال مواعظه ، وتعاليمه تفعل فعلها وتؤتى أكلها » ، إلى أن قال :

وقصارى القول : إننا لا نعلم رجلاً يدانيه فى جلاله شأنه وفضله فى أى جزء من أجزاء العالم المعاصر ، وما جناه الخلق من المنافع الإيمانية والمكاسب الروحية من هذه الجماعة الحققة ، لم ينالوا معشاره من العلماء والمشايخ المعاصرين الآخرين .

وإن أعلام مشايخ ديوبند ، وصادقپور<sup>(١)</sup> ، - كما تقدم من قبل - يتمون إلى الطريقة المجددية النقشبندية ، وحصلوا على الإجازة والخلافة فيها عن طريق الإمام أحمد بن

---

(١) « صاد قبور » حى من أحياء مدينة بتنه ، كان مركزاً مهماً لدعوة الامام احمد بن عرفان الشهيد وجهوده الإصلاحية ، وواصل أهله هذه الحركة الى أن قضت عليها الحركة الانجليزية قضاء كاملاً ، وصبت عليها كأس غضبها وحقدتها ، كان من أشهرهم وأرفعهم مكاناً الشيخ ولايت على العظيم آبادى ، والشيخ يحيى على ، والشيخ أحمد الله ، والشيخ عنایت على الغازى ، والشيخ عبد الله ، أمير جماعة المجاهدين ( جمرقند ) والشيخ عبد الرحيم الصادقپورى ، وكان شعارهم الجمع بين عقيدة التوحيد الخالصة ، والعمل بالحديث الشريف ، والاشتغال بالذكر ، والتزكية والجهاد فى سبيل الله .

عرفان الشهيد ، ولا يستطيع أن ينكر فضلهم وجهادهم فى نشر العلوم الدينية ، وتأسيس المدارس الإسلامية ، وجهودهم العظيمة فى سبيل الدعوة والتربية والإرشاد ، وأعمالهم لإصلاحية الواسعة النطاق فى شبه القارة الهندية ، إلا جاحد مكابر .

وكل ذلك من نتائج العمل الإصلاحى التجديدى الذى قام به الإمام السرهندى وثماره الينعة الجنية ، لأنه هو الذى شق الطريق أمام النمى فى فترة القرن الحادى عشر الهجرى الحرجة الشائكة المليئة بالفتن والأخطار، وهىأ الجو الملائم وغير مجرى الأحداث لعمل لإسلامى العظيم ، وأيقظ النائمين ونبه الخاملين ، ونفخ فى جسم الأمة الإسلامية الهامدة روحاً جديدة ، وعاطفة فياضة ، وربى أمة سهرت على الدين والحفاظ عليه، وحفظت بلوعة قلبها ، وحرارة نفسها ، ونور باطنها شعلة الإيمان واليقين مضيئة ملتبهة ، واستمرت هذه الشعلة تنتقل من جيل لى جيل ، تلهب النفوس وتضىء القلوب . ولم تعد الجاهلية والكفر ، والشرك والوثنية ، والمنكرات والبدع تنشر جناحها الأسود المظلم ، وظلها الكثيف الثقيل على المجتمع الإسلامى الهندى ، كما نشرته فى القرن العاشر الهجرى ، وحق لمن انتمى إليه - مباشرة - أو بواسطة - أن يقول فى ثقة واعتزاز :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجمع

مؤلفات الإمام السرهندى ورسائله :

وللإمام السرهندى مؤلفات ورسائل أكثرها بالفارسية ، وأشهرها وأنفعها مجموع رسائله التى تسمى « مكتوبات أمام ربانى » ، وهى من أعظم مآثره العلمية والإصلاحية والتجديدية، وتصوير حى لعواطفه ، ومشاعره ، وبها تعرف مكانته فى التجديد والإصلاح، وبلوغه درجة الاجتهاد والإمامة فى المعارف الإلهية والعلوم الدقيقة ، والانتصار للكتاب والسنة ، وهى مليئة بىالتحقيقات العالية ، والنكت البديعة التى لا يوفق لها ولا يخص بها إلا الأفذاذ من العدول ، الذين ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين ، عبر القرون والأجيال ، ويحتاج الحديث عن مكانتها العلمية ، وتعيين نرجتها فى الأدب الفارسى إلى كتاب مستقل ، قلما حظى مجموع من الرسائل فى الآداب واللغات التى نعرفها بالقبول والانتشار وعنى بالدراسة والتأمل مثل ما حظى هذا المجموع ، وقد ترجم إلى العربية والتركية ، وقرر ككتاب دراسى فى المراكز العلمية والروحانية ،

(\* من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا

تبديلاً \* .

وعكف عليه العلماء والسالكون واشتغلوا به وردوه ، ولا يزال - إلى يومنا هذا - غضاً  
طرياً ، كأن الرسائل كتبت اليوم .

ويقع هذا المجموع في ثلاثة أجزاء ، وعدد هذه الرسائل يبلغ ٥٣٦ رسالة وطبعت  
مجاميع هذه الرسائل عدة طبعات في مختلف السنوات ولا يزال يعاد طبعتها .

ومن رسائله : ١ - اثبات النبوة « ، ، ٢ - رد الروافض « ، وهو رد على بعض علماء  
الشيعة الإيرانيين ، ألفت حوالي سنة ١٠٠١ هـ ، بالفارسية ، وقد شرح الإمام ولي الله  
الدهلوى هذه الرسالة ولم يطبع بعد ، ٣ - « الرسالة التهليلية » ( بالعربية ) فرغ من  
تأليفها في عام ١٠١٠ هـ ، وهى مطبوعة مع الترجمة الأردية ، ٤ - « وشرح رباعيات »  
وللإمام ولي الله الدهلوى شرح له ، باسم « كشف العين فى شرح رباعيتين » وكلاهما  
مطبوع ، ٥ - « معارف لدنيه » بالفارسية ، يشتمل على معارف الإمام السرهندي  
وتحقيقاته الخاصة فى علم السلوك والطريقة ، ألفه عام ١٠١٥ هـ ، ويبلغ عدد هذه  
المعارف ٤١ معرفة ، والكتاب مطبوع عدة طبعات ، ٦ - « المبدأ والمعاد » بالفارسية ،  
يشتمل على معارف الإمام السرهندي وعلومه ، وتبلغ هذه الفصول ٦١ فصلاً ، الكتاب  
مطبوع ، وقد ترجم الشيخ مراد المكي هذه الرسالة إلى العربية ونشرت هذه الترجمة مع  
مجموعة رسائله المترجمة إلى العربية فى الحاشية ، - ٧ - « مكاشفات عينية »  
بالفارسية ، والكتاب مطبوع .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وأصحابه وأهل بيته ، ومن  
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد ! فيسرُّ المؤلف ويسعده أن يقدم للقراء العرب الجزء الرابع من كتابه : « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ، وهو الجزء الخاص بحياة حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوى ( ١١١٤ - ١١٧٦ هـ ) والتعريف بدوره الإصلاحى التجديدى ، التربوى القيادى ، الذى قام به ووفق له فى شبه القارة الهندية ، التى كانت الجزء الحاسم الحساس من العالم الإسلامى فى القرن الثانى عشر وما بعده . وبدوره فى إحياء الفهم الصحيح للدين ، وإعادة الحياة والنشاط والحيوية والنمو إلى الفكر الإسلامى ، وعرض الشريعة الإسلامية فى صورة متناسقة شاملة ، والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها والتطبيق بين العقل والنقل ، وبين الفقه والحديث ، والتوفيق بين المذاهب الفقهية الرئيسية ، وذلك فى مجال العالم الإسلامى كله ، وللأجيال الآتية كلها ، فهو بذلك استحق دراسة اختصاصية من الباحثين فى تاريخ الإصلاح الدينى والفكر الإسلامى ، ومن المعنيين بالصحة الإسلامية وربط المجتمع الإسلامى بالأصول الإسلامية السليمة ، والتعاليم الشرعية القويمة ، فى كل بلد من بلاد الإسلام ، وفى كل طبقة من طبقات المثقفين الإسلاميين ، والعاملين لرفع شأن الإسلام ، والمسلمين .

إن العمل الضخم المتنوع الواسع ، الذى قام به الإمام الدهلوى اشتمل على إصلاح العقائد ، ونشر الكتاب والسنة ، والرد على المذاهب الدخيلة على الإسلام ، النابتة الطفيلية فى حقله ، وعلى المحاولة الحكيمة ، القائمة على الدراسات العميقة ، لجمع شمل الأمة المحمدية ، بتقصير الفجوة بين المذاهب الفقهية السائدة ، وبين الفقه والحديث ، ورفع الفجوة بين المتمين إليها ، وعرض الشريعة الإسلامية وشعبها وأوابها فى ترابط ونظام ، وفى تناسق واتزان ، يخيل إلى القارئ كأنها لآلى العقد المنظوم ، أو حلقات سلسلة مترابطة ، وعلى رفع القناع عن فوائد الشريعة العملية والاجتماعية والمدنية ، وشرح التعاليم الدينية والهداية السماوية فى محيط الحياة الواسع ، وفى سياق العلاقات المشتركة بين الناس ، وصلة الأسباب بالنتائج .

هذا هو الدور القيادي المجاهد الذي قام به في عهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة الإسلامية في الهند ، وبذل الجهود لإقامة مملكة قوية موطّدة الأركان ، الدور القيادي الحكيم الذي يقوم به أكبر سياسي بصير لا يمتُّ إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأى صلة ، مع عدم إهمال المجتمع المسلم الذي هو مصدر كل انقلاب صالح وغير صالح ، والحاضنة للقادة والحكام ، والأرضية التي تقوم عليها الحكومات والمنظمات ، وقد وفق لوضع الأصابع على أمراض طبقاته المختلفة ومواقع ضعفها ، وضرب على الوتر الحساس ، ودل على مكامن الضعف والانحراف وأنواع الغرور والخداع ، مع توجيه النصائح والملاحظات ، إلى كل طبقة من هذه الطبقات .

ولم يكن كل ذلك نظرياً وعملياً فحسب ، ومقصوراً على شخصه الخاص ، فقد ضم إلى كل ذلك تربية الخلفاء والرجال الأكفاء ، الذين قاموا بإكمال مهمته ، حسب مقتضيات الزمن ، ومتطلبات الدين ، ومدّ دوره الإصلاحى إلى مساحة مكانية وزمنية من أوسع المساحات التي قيضت لمصلح دينى ، وعالم مؤلف ، مدرس مربّب ، مضافاً إلى ذلك كله ، إحياء الجهاد فى سبيل الله ، ومقاومة الخطر على حرية المسلمين وسلطتهم .

وبهذا الشمول العجيب ، والتنوع النادر ، والفكر الإسلامى الأصيل ، والعلم الدينى الراسخ ، وفهم روح العصر ، والتنبيه للأخطار والتحديات التى كان يتمخض بها المستقبل ، ولا تزال فى ضمير الزمان ، والتنبيه عليها ، والدعوة إلى إعداد العدة لها ، أصبح نموذجاً كاملاً للمصلح الدينى ، والمجدد الإسلامى فى كل بيئة من بيئات العالم الإسلامى ، وفى أوضاع دينية واجتماعية وسياسية ، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً ، وأصبح مدرسة علمية فكرية ، واسعة جامعة ، يتخرج فيها علما مصلحون ، ومفكرون إسلاميون ، على اختلاف مستوياتهم ، وتنوع اتجاهاتهم .

وفى الحقيقة أن هذا العصر هو عصر شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية الحرانى (م ٧٢٨ هـ) ، وحكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم الشيخ ولى الله الدهلوى (م ١١٧٦ هـ) ، وذلك لاعتمادها على الكتاب والسنة - الذين كتب لهما من الخلود وصلاحية البقاء ما لم يكتب لتناج علمى ومدرسة فكرية - واعتبارهما الأصل والأساس ، والقائد والنبراس فى حل العضلات والمشاكل ، فى العبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسية ، وتربية النفوس وتركيتها ، وبما كانا يدينان به من الحاجة إلى الاجتهاد فى كل عصر ، وتجديد الفكر الإسلامى ، وبما كانا يتصفان به من مقاومة الجمود والتحجر العلمى والعصبية الشديدة للمذاهب الفقهيّة ، ويمتازان به من دراسة الديانات غير



الإسلامية ، والمذاهب المتزعمة للإسلام ، هذا مع ما لا بد منه مع اختلاف فى المنهج ،  
والذوق ، وفى العناصر التى تركبت بها شخصية كل واحد منهما ، وتكون بها مزاج  
خاص ، اختلاف يقتضيه اختلاف البيئات ، وأساليب التربية ، وطبيعة الزمان والمكان ،  
واتجاه الأسر والآباء ، لذلك كان نشر مؤلفات كل واحد منهما وتحقيقاته وتاريخ كفاحه ،  
ودوره الإصلاحى ، فى مكانه وأوانه .

وقد سبق للمؤلف وضع كتاب خاص بحياة شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية كون  
الحلقة الثانية من « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام »<sup>(١)</sup> ، وأتبع ذلك إصدار كتاب  
خاص بالإمام السرهندى الشيخ أحمد بن عبد الأحد ( ٩٧١ م - ١٠٣٤ هـ ) يكون الجزء  
الثالث من سلسلة « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » وقد صدر فى سنة ١٤٠٣ هـ  
( ١٩٨٣ م ) ، وهو إمام من كبار أئمة الإصلاح والتجديد فى تاريخ الإسلام الطويل ، وقد  
كتب له من النجاح فى أهدافه الإصلاحية والتجديدية ما قلّ ما كتب لمصلح آخر فى  
الماضى ، فقد قضى على بعض الفتن التى كادت تقضى على الإسلام - لولا قضاء الله ببقائه  
وكفالاته بحفظه - وجلّى بعض الحقائق الدينية الرئيسية ، والحاجة إلى النبوة ، وفضل  
الأنبياء وإعادة الثقة والإيمان بالنبوة المحمدية ، تجلية لم تؤثر عن مصلح آخر ، وغير مجرى  
التاريخ فى شبه القارة الهندية ، وحوّل وجهة الإمبراطورية المغولية ، من الفكر والإلحاد ،  
والبرهمية ووحدة الأديان ، إلى الدين الحنيف والشريعة الإسلامية السمحة ، ذلك كله  
بطرق حكيمة سلمية ، وأساليب دعوية تربوية ، وربانية صادقة خالصة .

وها هى الحلقة الرابعة من هذه السلسلة الذهبية ، يسند بعضها بعضاً ، وكلها مترابطة  
متناسقة ، تدل على أن شجرة هذا الدين تؤتى أكلها كل حين ، وعلى أن خليته لا تنقطع  
عن التعسيل ، وكنانته لا تنفد ، ولا تخطئ سهامها .

وقد وضع المؤلف هذا الكتاب أصالة فى الأردو ، لغة شبه القارة الهندية ، العلمية  
والتأليفية ، التى يفهمها أكثر من مائتى مليون إنسان فى شبه القارة وخارجها ، والتى ابتداء  
المؤلف وضع هذه السلسلة التاريخية فيها ، وقد قام بنقل الجزئين الثالث والرابع من هذه  
السلسلة<sup>(٢)</sup> العزيز الأستاذ السيد سلمان الحسينى الندوى من أساتذة دار العلوم ندوة العلماء

---

(١) صدرت الطبعة الأولى للكتاب من دار القلم ( الكويت ) سنة ١٣٩٥ هـ ( ١٩٧٥ م ) والثالثة سنة  
١٤٠٣ هـ ( ١٩٨٣ م ) .

(٢) قام بنقل الجزء الثانى من هذه السلسلة وهو الجزء الخاص بشيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية ، =

خير قيام ، استحق به دعوات المؤلف بطول حياته وحسن توفيقه ، وشكر القراء ، وفوق كل ذلك ، رضا من الله وحسن ثوابه .

ُرجو أن ينال هذا الكتاب مكانه اللائق في المكتبة الإسلامية الحديثة ، وفي أوساط الدارسين والباحثين ، والمعنيين باليقظة الإسلامية والإصلاح الديني ، وعلى الله قصد السبيل .

## أبو الحسن علي الحسيني الندوي

دارة الشيخ علم الله الحسني  
رائي بريلى ، ١٣ من جمادى الآخرة  
سنة ١٤٠٥ هـ .

---

= = الأستاذ سعيد الأعظمى الندوي ، أحد أساتذة دار العلوم الكبار ، ورئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي » وجزاه الله خيراً .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### الباب الأول

### العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري

أهمية دراسة أوضاع البلاد الإسلامية وتطوراتها وأحداثها في القرن الثاني عشر الهجري :

لقد صرح مؤلف هذا الكتاب ( الجزء الرابع من سلسلة « رجال الفكر والدعوة » ) في بداية الجزء الثالث من « رجال الفكر والدعوة » ، الذي يختص بحياة الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي ( ٩٧١ - ١٠٣٤ هـ ) وتاريخ عصره ومآثره الإصلاحية والتجديدية العظيمة ، وهو يشير إلى أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر الهجري ( الذي ولد فيه الإمام السرهندي ، ونشأ نشأته العقلية والعلمية ) بما يلي :

« وينبغي - ونحن في هذه الدراسة - أن لا نغفل حقيقة ذات شأن ، وهي أن العصر الذي يولد فيه الإنسان ، والعالم الذي يعاصره ، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه ، هو كالنهر الجاري ، تتصل كل موجة فيه بالموجة الأخرى ، وتتسق معها ، فلا يمكن لأجل ذلك أن يبقى بلد - مهما كان بعيدا نائيا ، ويعيش في عزلة عن سائر العالم - غير متأثر بالأحداث الخطيرة والثورات العظيمة والقوى المتحاربة ، والحركات المؤثرة القوية التي تجري في بلدان العالم الأخرى ، ولاسيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع ، والثورات والتطورات ، بلدا يشاركه في العقيدة والمذهب والمشرّب ، ويجاوره في المكان ، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يلزمه أن يلقي نظرة عامة على العالم الإسلامي كله في القرن العاشر ، لا سيما البلدان المسلمة المجاورة التي كانت بينها وبين الهند أواصر علمية ودينية وحضارية ، وكانت تصل

إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة ، ونفحاتها الرخية الناعمة على بُعد الداروطول المسافة « (١) .  
إن الحاجة إلى مراعاة هذه الحقيقة التاريخية ، وتطبيق هذا الأصل المهم في دراسة حياة  
الإمام الدهلوى ، وإلقاء الأضواء على أعماله التجديدية الكبيرة أشد وأكثر ، إذ أن تربيته  
الفكرية والعلمية تدين لبلاد الحرمين الشريفين ، وأن لهما الدور الأساسى فى تكوين  
عقليته وثقافته ، حيث أقام الإمام الدهلوى أكثر من عام واحد فى الفترة الواقعة بين ١١٤٣ -  
١١٤٤ هـ (٢) ، ودرس علم الحديث الشريف على المحدث الشيخ أبى طاهر محمد بن  
إبراهيم الكردى المدنى أحد أئمة الفن وعلماء الحديث الكبار فى عصره ، الذى كان يؤمه  
طلاب الحديث من مختلف الأقطار والأمصار ، وتخرج على يديه وأسند عنه جميع  
مروياته ، جالس علماء الحرمين الشريفين ( الذين كانوا من مختلف البلدان الإسلامية  
والعربية ) صحبه مدة من الزمن ، قد كان الحجاز آنذاك فى ولاية الدولة العثمانية  
وإدارتها ، وكان أشرف مكة يتبوأون منصب الإمارة كنواب عن السلاطين العثمانيين ، وقد  
كان الحرمان الشريفان - لا سيما المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والسلام - اللذان  
يجمعان فى أيام الحج فى رحابهما كل عام صفوة أصحاب العقول النيرة والقلوب الصافية  
يتهافتون عليهما تهافت الفراش على النور - مركزاً دائماً لعلم الحديث الشريف ، حيث  
يلتقى طلاب هذا العلم وهواته من كل بقعة من بقاع العالم الإسلامى .

وكان من الميسور لمن يقيم بها أن يستعرض العالم الإسلامى كله ويدرسه روحياً وعلمياً ،  
وخلقياً واجتماعياً ، ومدنياً وسياسياً ، وأن يقدر - بسهولة - رُقَى البلدان الإسلامية  
والعربية ، وازدهارها أو سقوطها وانحطاطها من هذه النواحي كلها ، ويطلع على مختلف  
رجالها وشخصياتها ونوابغها ، وحركاتها ، ودعواتها الإصلاحية وما يبذل فيها من جهود  
بناءة ، ومثمرة وما تحاك فيها وتبيت من مؤامرات مفسدة مُدمرة ، بل كان من الممكن أن  
يجسَّ نبض العالم الإسلامى ويقدر سيره ويسمع خفقات قلبه ، ومن اللازم أن إماماً نابغة  
كالإمام الدهلوى فى المعية وتوقد ذكائه ، ولوعة قلبه وتوجعه ، يكون قد استفاد من كل  
ذلك ، وتأثر به ، واستخدمه فى توسيع نطاق فكره وبُعد نظره ، وآفاقية دعوته وفلسفته

---

(١) « الإمام السرهندى - حياته وأعماله » ص : ١٨ .

(٢) لقد كان الإمام الدهلوى وصل إلى الحجاز فى أواخر عام ١١٤٣ هـ وعاد منها إلى الهند فى أوائل  
عام ١١٤٥ هـ ، وحج حجتين .

ومنهجه .

زد على ذلك أن الهند كانت - عبر قرون وأجيال - مجالاً للغزاة والفاطمين من الأسر الأفغانية والتركية بآسيا الوسطى ، ولم تزل هذه البلاد تحت وصايتهم سياسياً وإدارياً ، وهم الذين كانوا يزودون حكوماتها الضعيفة النحيلة ، هيكلها التنظيمى والإدارى بدماء جديدة حارة ، ويهبون إدارتها المفككة المهلهلة وقوتها العسكرية المتخاذلة قسطاً جديداً من القوة والحيوية والحرارة ، وإذا أشرفت أسرة حاكمة - طال عهد حكمها - على مرحلة الشيخوخة والهرم ، أقبلت من ممرّ « خيبر » أو ممرّ « بولان » قوة عسكرية جديدة دافقة الحيوية والحرارة إلى الهند ، وطعمت سلسلة الحكومات التى كانت تدين بدين واحد «الإسلام» وعقيدة واحدة « عقيدة أهل السنة والجماعة » ، وقانون واحد « الشريعة الإسلامية » ، ولغة واحدة « التركية أو الفارسية » ، وحضارة واحدة ( هى الحضارة التى كانت مزيجاً من الحضارات العربية والإيرانية التركية والهندية ) بالقوة والنشاط ، ووهبتها قسطاً جديداً من الحياة .

ثم إنه لا ينبغي أن ننسى حقيقة تاريخية ، وهى أن أفغانستان وولايتها الكبيرة المهمة «كابل» و«قندهار» لم تزل منذ عهد استيلاء الملك بابر وقيام الدولة المغولية جزءاً من الحكومة الإسلامية الهندية ، قلعة خارجية لها وسوراً منيعاً ، وقد كان دخول الملك نادر شاه ملك إيران فى الهند ، وزحفه إلى دلهى فى عهد الإمام الدهلوى نفسه ، كما غزا الهند فى عهده أحمد شاه الأبدالى عدة مرات حتى كانت أخيراً عام ١١٧٤ هـ الموافق عام ١٧٦١ م تلك المعركة الحاسمة فى ساحة « بانى بت » التى هزم فيها المرهته هزيمة نكراء وغير وجهة التاريخ وتيار الأحداث ، وأعطى الدولة المغولية فرصة صالحة تستدرك ما فات وتعود إلى الحياة والمجتمع المسلم وطبقة الأمراء والولاة فرصة للقيام بدور جديد لم يستطيعوا أن يقوموا به لعدم كفاءتهم وسوء تصرفاتهم ، لقد كانت هذه الأحداث كلها فى عهد الإمام الدهلوى ، بل كان الحدث الأخير منها بإشارة منه وإرشاد ، وكان صاحبها هاتين الغزوتين ينتميان إلى إيران وأفغانستان ، ولأجل ذلك لا يمكن فى دراسة عهد الإمام الدهلوى واستعراض القرن الثانى عشر الهجرى التغاضى عن أوضاعهما وانقلابات الدول بجراء كل ذلك .

### تأثير إيران الحضارى والثقافى على الهند :

ثم إن الهند كما كانت من القرن الخامس الهجرى تحت تأثير تركستان وأفغانستان من النواحي السياسية والعسكرية ، كذلك كانت فى قليل أو كثير تحت تأثير إيران ، من

النواحي العلمية و لأدبية والثقافية والحضارية والفكرية ، وتجد على فكرتها وعقليتها ظلال  
أدبها وشعرها ، وطرق تصوفها ، وأخيراً ظلال مناهجها الدراسية ونظمها التعليمية ،  
ومؤلفات علمائها ونوابغها ، لا سيما منذ دخول الملك همايون إلى إيران واستعادة الدولة  
الهندية بمناصرتها وتأييدها .

ثم منذ مقدم الأمير فتح الله الشيرازى والحكيم على الكيلانى فى عهد الملك أكبر  
صُبحت الهند - كليا - عالة على إيران فى مناهجها الدراسية وطرق التعليم وتحديد مقاييس  
الفضل والنبوغ ، وفى مجال العلوم العقلية والحكمية تقلدها وتدين لها وتمشى فى أثرها ،  
وقمت بذلك السلطة العليا لإيران على الهند فى هذا الصدد ، فلا يمكننا - نظراً إلى هذه  
الحقيقة التاريخية - أن نغفل الأحداث الجارية فيها فى هذه الدراسة التاريخية .

### أهمية الدولة العثمانية وعظمتها :

كذلك لا يمكننا التغاضى - عدا بلاد أفغانستان وإيران المجاورة - عن الدولة العثمانية  
(التي كانت تتولى من القرن العاشر الهجرى منصب الخلافة ، وهى وإن كان موقعها  
الجغرافى على مسافة شاسعة من الهند فى أوربا وآسيا الصغرى ، لكنها كانت تحتضن جميع  
البلدان العربية تقريباً ( مصر ، الشام ، العراق ، اليمن ، نجد ، الحجاز ، والجزء الكبير  
من أفريقيا الشمالية ) .

وقد كان المسلمون كلهم ينظرون إليها ، من حيث كونها حامية للديار المقدسة وحاملة  
عبء الخلافة الإسلامية ، ولأنها كانت قوة ومملكة كبرى ورمز للجبهة الإسلامية فى نظر  
الغرب والقوى المعادية للإسلام ، ومحافظة على كثير من المصالح الإسلامية ، نظرة تقدير  
واحترام ، ولم يكونوا يهتمون بما يجرى فيها من وقائع وأحداث فحسب ، بل كانوا يتأثرون  
بها ويتكيفون معها ، فلم يكن يمكن مثل الإمام الدهلوى فى سعة أفقه وعالية تفكيره ،  
والذى كان اطلاعه على التاريخ الإسلامى اطلاعاً واسعاً عميقاً أن يغض النظر عن الدولة  
العثمانية ، وقد كان خبيراً بموقف الشريعة الإسلامية من الخلافة ، وأهميتها السياسية  
والاجتماعية ، وكان يرى أنه لا بد للدين والأخلاق الصالحة والمجتمع الصالح والمدنية  
الصحيحة والحياة الإسلامية من حكومة مستقلة حرة ، وقوة سياسية صالحة ، وكان يتمنى  
أن يرى المسلمين قوة مؤثرة أمره ناهية لا فى بلادهم فحسب بل فى العالم كله ، وكيف كان  
من الممكن أن يتغاضى عن رقى أعظم مملكة للمسلمين وسقوطها ، وصعودها وهبوطها ،  
وهدوئها الداخلى واضطرابها ، لا سيما وقد عاش فى أحب البقاع وأكرمها فى نطاق دولتها  
وهى الحجاز بعين مفتوحة ، وذهن وقاد ، وعقل حاضر ، وقلب شاعر ، وكان قد درس

تلك التأثيرات وسمع أخبارها عن طريق الوافدين من ممتلكاتها وولاياتها والبلدان التي كانت تحت وصايتها كمصر والشام والعراق التي كانت تترك على أوساط هذه البلدان العلمية والدينية بصماتها ، نتيجة لميول سلاطينها العثمانيين ووزرائها و « شيوخ الإسلام » والعلماء الأتراك فيها وعقليتهم ونزعاتهم ، فلا بد إذن من إلقاء نظرة جمالية على المملكة العثمانية في القرن الثاني عشر الهجري ( القرن الثامن عشر المسيحي ) وعلاقتها بالبلدان الغربية المسيحية المجاورة ، وتفككها وانحلالها ، وتماسكها واستحكامها ودورات المد والجزر في قوتها السياسية

## الوضع السياسى فى العالم الإسلامى

سننظر - أولاً : فى حالة العالم الإسلامى السياسية ، وانقلاب الدول والحكومات وأهم الوقائع والأحداث ، ثم ندرس أوضاع العالم الإسلامى العلمية والدينية والخلقية .  
الدولة العثمانية فى القرن الثانى عشر :

ولد الإمام الدهلوى عام ١١١٤ هـ وتوفى عام ١١٧٦ هـ وقد توالى فى هذه الفترة - ( ٦٢ ) عاماً - على عرش الدولة العثمانية خمسة سلاطين ، وهم : مصطفى الثانى ( م ١١١٥ هـ ) أحمد الثالث ( م ١١٤٣ هـ ) محمود الأول ( م ١١٦٧ هـ ) عثمان الثالث ( م ١١٧١ ) ومصطفى الثالث ( م ١١٧١ هـ - ١١٨٧ هـ ) ، تولى أربعة من هؤلاء السلاطين أحمد الثالث ، محمد الأول ، عثمان الثالث ، ومصطفى الثالث ، زمام الأمور فى عهد بلغ فيه الإمام الدهلوى أشده ، واكتمل وعيه ، وبدأ عمله وتفكيره ، إلا أن أهم الفترات الزمنية من حياته ( وهى السنوات الخمس الأخيرة ) قضاها فى عهد مصطفى الثالث .

حكم مصطفى الثالث ( ١٦ ) عاماً ، و ( ) أشهر ، واندلعت فى عهده نار الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ، انهزمت فيها الدولة العثمانية عام ١٧٦٩ م ولكن لم يكن لروسيا فيها أى مفخرة ومكرمة بل كانت هذه الهزيمة بسبب بعض الأحداث والخلل فى بعض التدابير والإجراءات<sup>(٣)</sup> ، وأراد الجنرال الروسى « الفنتن » أن يحمل على القسطنطينية أيضاً ، إلا أنه منع من ذلك ، واتخذ مصطفى خان إجراءات لتعزيز جنوده واهتم بالإصلاحات العسكرية وأحرز مكاسب عسكرية ، وتقدمت روسيا بشروط للمهادنة ، كانت تشمل على الإهانة لتركيا وجرح كرامتها وعقد فى « بخارست » فى ١٣ شعبان عام ١١٨٦ هـ ( أى بعد وفاة الإمام الدهلوى بعشرة أعوام ) الموافق ٩ نوفمبر عام ١٧٧٢ م مؤتمر ، قدمت فيه بعض الشروط ولكن رفضتها الدولة العثمانية ، وأصدرت أوامرها للجيش التركى بإعلان الحرب ضد روسيا ، فلقبت فيها روسيا هزيمة منكرة ودخل فى قلوبهم الرعب حتى عندما مر الجيش التركى بسوق « جق » ( التى تدعى اليوم TOBULKHIN ) خلى سكان هذه المدينة الروس المدينة بأكملها ، يقول المؤرخ هيمر ( HEMER ) : « إن

(٣) انظر للتفصيل « تاريخ الدولة العلمية العثمانية » لمحمد فريد بك المحامى ، ط بيروت .



العثمانيين وجدوا قدورا موضوعة على المراجل والأثافي كان يطبخ فيها اللحم » .

توفي السلطان مصطفى الثالث في ٨ ذى القعدة عام ١١٨٧ هـ ( الموافق ٢١ يناير عام ١٧٧٤ م ) ويشي المؤرخون على عدله ورغبته وجهوده في أمور الخير ، وكان قد أقام في عهده كثيراً من المدارس والرباطات .

وقد انتشرت المطابع في الدولة العثمانية حين كان الإمام الدهلوي شابا وقامت المطبعة الأولى في القسطنطينية وظهرت في هذا العهد نفسه حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ هـ - ١٢٠٦ هـ) (٤) .

واستولى على بك الذي كان يدعى « شيخ البلد » في عهد عثمان الثالث على حكومة مصر وإدارتها ، وتآمر مع الجنرال الروسي الذي كان قد عين لبحر الروم واشترط عليه مساعدته بالسلاح والذخيرة حتى تستقل مصر ، ونجح على بك بمساعدته في سيطرته على غزة ونابلس والقدس وبافا ودمشق ، وكان يريد التوجه إلى أناتوليا إذ خرج عليه أحد القادة المماليك المدعو بحمد بك المعروف بأبي الذهب الذي اضطر على بك للعودة إلى مصر، ولقى هزيمة على يديه ، كان من نتيجة هذه الحروب الداخلية والفوضى أن أطلقت الأساطيل الروسية النيران على بيروت ، وانهدم بسببها حوالي ثلاثمائة بيت ، ثم وقعت الحرب بين جيوش على بك ومات بجروحه وفصل رأسه من جسده وبعث به مع أربعة ضباط روس إلى الوالي العثماني خليل باشا الذي أرسله إلى القسطنطينية وعادت مصر مرة ثانية إلى حكم الدولة العثمانية .

### الوضع السياسي في الحجاز :

عندما سافر الإمام الدهلوي إلى الحجاز ، وأقام في الحرمين الشريفين مدة عام ، كان ذلك في خلافة السلطان محمود الأول ( ١١٤٣ هـ - ١١٦٧ هـ ) وكان يمثل السلطان العثماني وينوب عنه في الحجاز محمد بن عبد الله (٥) بن سعيد بن زيد بن محسن الحسني

(٤) المصدر السابق ، ص : ٣٢٩ - ٣٤٠ .

(٥) واستولى بعد ذلك الأمير سعود بن عبد العزيز ( ١١٦٣ هـ - ١٢٢٩ هـ ) أمير نجد بقوة التنظيم العسكري وحماسه للجهاد وبهذه الدعوة على الجزء الأكبر من الحجاز وجزير العرب عام ١٢١٨ هـ ، ثم عادت هذه البقعة بجهود الخديوي محمد عليوالي مصر إلى قبضة الدولة التركية عام ١٣٤ هـ ، ونفى الأمير عبد الله بن سعود بن عبد العزيز إلى قسطنطينية وقتل بها . (٣) ذكر اسمه في بعض الكتب محمد عبد الإله ولعل ذلك لأجل تجنب المماثلة اللفظية لاسم محمد بن عبد الله تأدأ واحتراماً .

( م ١١٦٩ هـ ) واليه على الحجاز ( الذى كان يقال له شريف مكة ) وكان قد ولى الحجاز بعد وفاة والده عام ١١٤٣ هـ <sup>(٦)</sup> ، وقد كان عهده عهد الحرب الداخلية والصراع بين أفراد الأسرة على الإمارة فقد عزله عمه مسعود بن سعيد عام ١١٤٥ هـ وتسل على الامارة ، ولكنه استعاد منصبه عام ١١٤٦ هـ ، ثم عزله عمه ، وبقي والياً عليها إلى آخر عمره عام ١١٦٥ هـ ، وساد فى عهده الأمن والسلام فى الحجاز ، ويصفه المؤرخون أنه كان ذكياً متيقظاً وسياسياً محنكاً <sup>(٧)</sup> .

وإننا نجد كتب التاريخ والرحلات ومذكرات الحج التى ألفت فى منتصف القرن الثانى الهجرى أو تؤرخ ذلك العهد ، إنها تشكو قلة الأمن فى الطرق وغارات البدو وفساد النظام وسوء الإدارة ، الذى كان نتيجة بُعد مركز الدولة العثمانية ( القسطنطينية ) وسياسية عدم التدخل من جانب الأتراك إلى حد المستطاع فى الأمور الداخلية للحجاز ، والتسامح الزائد مع أشرف مكة ( الذين كانوا من الأسرة الحسينية وكان نسبهم صحيحاً معلوماً ) والإجلال الزائد للعرب ، واحترامهم ، وسياسة التغاضى عن تجاوزاتهم وسوء تصرفاتهم ، وعلاوة على ذلك نظام الوراثة فى إمارة الحجاز ، وانحصارها فى أسرة واحدة ، ومن الممكن أن يقطع بأن الإمام الدهلوى كان قد نظر فى هذه الأوضاع القلقة المضطربة ، والصراع الداخلى على منصب الإمارة وقلة النظام وضعف الإرادة عين بصيرته وشعر بفداحة الأمر بقلبه العامر بالحمية الدينية ، ولعل الصراع بين العم وابن أخيه على الإمارة الذى كان عام ١١٤٥ هـ ، قد يكون وقع فى مدة إقامته بالحجاز ، ولعله توصل بهذه الأوضاع إلى نتائج بعيدة المدى ، وأخذ منها شواهد على الانحطاط الخلقى الذى أصيبت به هذه البلاد .

(٦) لم يزل أشرف مكة ( الذين كانوا يُختارون من السادة الحَسَنِيِّين نسبة إلى الحسن بن على رضى الله عنه ، ولذلك كانوا يُدعون بالأشرف ) يتولون شئون الحجاز من الثلث الأول للقرن الرابع الهجرى ، فقد عين الشريف الأول بمكة فى عهد الخليفة العباسى المطيع لله ( ٣٣٤ هـ - ٣٦٣ هـ ) ثم كانت تولية الأشرف إلى عهد استيلاء السلطان سليم على الشام ومصر وولايته للحرمين الشريفين من قبل أسرة الماليك فى مصر فلما استولى السلطان سليم أقر شريف مكة فى عهده السيد بركات وابنه السيد أبانمى على منصبهما ، وكانا شريفى مكة ، واستمرت هذه الإمارة فى الأشرف إلى الشريف حسين ، الذى خرج على العثمانيين فى يونيو عام ١٩١٦ م الموافق شعبان عام ١٣٣٤ هـ وخلع فى يناير عام ١٩٦ م ، بعد استيلاء السلطان ابن مسعود على الحجاز .

(٧) الأعلام ج - ٨ ، ص : ١١١ - ١١٢ ، نقلاً عن خلاصة الكلام ، وعنوان المجد وتذييل « شفاء الغرام لأخبار البلد الحرام » ج - ، ص : ٣٠٩ - ٣١٠ اب ولاية مكة .

## اليمن :

وكان يسود في اليمن أيضاً مثل هذا النظام السياسى ، فكانت اليمن تحت السلطة العثمانية من الناحية السياسية بصفة عامة ، والسياسية الخارجية بصفة خاصة فكان يوجد بها حاكم من الحكام العثمانيين يُعَيَّن من قبل الدولة العثمانية ، ولكنها رغم ذلك يسود فيها نظام الإمامة كذلك ، الذى كان يستمر فيها من القرن الثالث الهجرى ، وكان يتولاها الأشراف الزيديون (٨) .

فكان أهل اليمن يبايعونهم بيعة الخلافة ويدعونهم « الإمام » ، وكان من يتولى هذا المنصب يعتقد فيه أنه بلغ رتبة الاجتهاد والإمامة فى المذهب ، وأنه عالم متبحر فيه ، مسلم له الزعامة والقيادة .

دخلت اليمن فى حوزة الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليمان القانونى ابن ياوز سليم ، وكان يحكمها - آنذاك - « إمامها وخليفة الأئمة الأشراف فيها السيد المطهر ابن الإمام شرف الدين ( م ٩٨٠ هـ ) فكانت بينه وبين القائد التركى سنان باشا حرب أسفرت عن خضوع اليمن للدولة العثمانية (٩) ، إلا أن الأتراك العثمانيين أبقوا هنا كالحجاز على نظام الإمارة ، وأعطوا الإمام الحرية فى الشؤون الداخلية ، ولما كان الإمام الدهلوى فى الحجاز كان الإمام المنصور بالله الحسين بن المتوكل على الله قاسم بن حسين إمام اليمن ، الذى استمر عهد إمامته وإمارته من ١١٣٩ هـ إلى ١١٦١ هـ ، وكان أكثر سكان اليمن -

---

(٨) يرى العلامة محمد أبو زهرة فى كتابه : « تاريخ المذاهب الإسلامية » :

« هذه الفرقة هى أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية وأكثر اعتدالاً ، وهى لم ترفع الأئمة إلى مرتبة النبوة ، بل لم ترفعهم إلى مرتبة تقاربها بل اعتبروهم كسائر الناس ، ولكنهم أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، ولم يكفروا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ .

و « الزيدية » لا يؤمنون أن الإمام الذى أوصى به النبى ﷺ ، قد عينه بالاسم والشخص ، بل عرفه بالوصف ، وأن الأوصاف التى عرفت تجعل الإمام علياً - رضى الله عنه - هو الإمام من بعده .

« ... وعلى ذلك الأصل أقر الإمام زيد إمامة الشيخين أبى بكر وعمر ولم يكفر أحداً من الصحابة ... » .

« ... وعلى ذلك نقول : إن الزيدية قسمان : المتقدمون منهم وهم لا يعدون رافضة ويعترفون بإمامة الشيخين أبى بكر وعمر » .

(٩) راجع للتفصيل « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى » للعلامة قطب الدين النهروالى الفتنى الحنفى .

سلطة المذهب الزيدى ورعايته الحكومية - من أهل السنة فى العقائد والشافعية فى المذهب .  
وقد كانت اليمن مركزاً كبيراً لعلم الحديث الشريف فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، حيث ولد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير ( م ١١٤٢ هـ ) صاحب « سبل السلام » فى القرن الثانى عشر ، والعلامة محمد بن على الشوكانى ( م ١٢٥٥ هـ ) صاحب « نيل الأوطار » فى القرن الثالث عشر ، ولعل الإمام الدهلوى أثناء إقامته بالحجاز يكون - لقرب المسافة والعلاقات العلمية - قد استفاد من مؤلفات علماء اليمن وخدماتهم الجليلة فى الحديث الشريف .

كان قد مضى فى إيران على الأسرة الصفوية الحاكمة قرنان من الزمن وجرى عليها حسب سنة الله - تعالى - من الضعف والهزم ما يقول عنه المؤرخ الفيلسوف العلامة ابن خلدون : « إن الهرم إذا نزل بدولة لا يرتفع »<sup>(١٠)</sup> ، وقد استغل هذا الوضع فى إيران البلد المجاور أفغانستان ، وحمل عليها فى قيادة حاكمها الطموح الشجاع محمود خان غزنى عام ١١٣٤ هـ وفتح أصفهان ، فأسر حسين شاه ، ثم أراد الأفغانيون فتح ما بقى من المدن والأمصار ولكن لم يكن عندهم من العدد ما يكفى للاستيلاء على مناطق أخرى والبقاء فيها ، ومات محمود خان بعد أن حكم ثلاثة أعوام ، عام ١١٣٧ هـ الموافق ١٧٢٤ م وانتشرت الفوضى فى البلاد فى عهد خلفه أشرف خان ، فزحف حاكم الروس « البطرس الأعظم » على المديرية الشمالية فى إيران ، واضطر ملك إيران إلى الصلح ، وخسرت إيران بذلك كثيراً من مناطقها الخصبة المهمة ، وكان « شاه إيران » فى الأسر ، إذ رزق خلفه وولى عهده طهماسب قائداً محنكاً صاحب عزيمة وتدبير وسياسة ، وهو رغم كونه يتسبب إلى أسرة خاملة ، وكونه رجلاً من عامة الناس - استطاع بكفاءته الممتازة ، وصلاحيته للقيادة أن ينخرط فى سلك أولئك العصاميين الذين يؤسسون الدول والحكومات ، كان ذلك نادر شاه .

### نادر شاه أفسار :

أجلس نادر شاه ، ولى العهد طهماسب على عرش آبائه ، وكانت الدولة الصفوية تعاني السقوط والانهار ، ولم تكن هناك علائم العودة إلى الحياة والنشاط وكانت الفوضى تسود البلاد ، وفقدت الثقة بين الناس فأحسن نادر شاه استغلال هذا الوضع ونظم قوة عسكرية جديدة ونفخت رجولته وطموحه وشجاعته روحاً جديدة فى الإيرانيين فهب كالعاصفة

(١٠) مقدمة ابن خلدون .

العاتية ، واستولى على البلاد وطرد الأفغانيين كلياً من إيران عام ١١٤٣ هـ الموافق عام ١٧٣٠ م ، ووقفت الجيوش الروسية عام ١١٤٦ هـ الموافق ١٧٣٣ م على بحيرة الخزر ( CASPIANSEA ) وصالحهم مصالحة عزيزة مع إباء وشمم ، ولم يدع العرب يتجاوزون الحدود الغربية ، واضطر سلطان الروم إلى الإنسحاب من الشمال ، واستعاد ولايات المملكة الإيرانية القديمة من المستولين عليها وتوسعت إيران نتيجة لكل ذلك حتى عادت عام ١١٤٨ هـ الموافق ١٧٣٥ م إلى حدودها وثورها القديمة وانتهت الأسرة الصفوية عام ١١٥٠ هـ الموافق ١٧٣٧ م وسيطر نادر شاه على إيران كلها فكان ملكها الوحيد غير منازع<sup>(١١)</sup> .

كان نادر شاه - حسب تصريح - مؤلف موسوعة تاريخ العالم - قبل عرش المملكة على شرط أن يتخلى الإيرانيون عن التشيع ويتبرأوا منه ، وكان نادر شاه سنياً عقيدة ، تركياً نسبة - والأتراك معروفون بشدة تمسكهم بالسنية - ولكن نادر شاه لم ينجح في استمالة الإيرانيين إلى قبول المذهب السني ، لقد استولى قواده عام ١٧٣٧ م على بلوجستان ، وبلخ ، وتم استيلاؤهم عام ١٧٣٨ م على قندهار ، ثم توجه للاستيلاء على الهند إلى كابل ، وبشاور ، ولاهور ، واستولى عليها وهزم عام ١٧٣٩ م جيش الملك المغولي الجرار قرب دهلي واستولى على دهلي ووضع في رقاب أهلها السيف فأقام مجزرة رهيبة<sup>(١٢)</sup> ، ولم يسلب نادر شاه عرش المغول بل أخذ منها جباية خمسمائة مليون دولار كما أدخل المناطق الشمالية الغربية من نهر السند في مملكته ، وتم استيلاؤه على بخارا وحوارزم (خيوه) عام ١٧٤٠ م ، وكان هذا نهاية حملاته التوسعية وسيطرته ، ومن هنا بدأ التحول في حياته .

لقد كان نادر شاه قائداً عصامياً كبيراً ، ولكنه لم يكن يملك من التدبير السياسي وصلاحيحة الإدارة والتنظيم شيئاً ، وكان من نتيجة محاولاته القضاء على التشيع<sup>(١٣)</sup> أن

---

(١١) ملخص من كتب تاريخ إيران والهند .

(١٢) انظر تفاصيل هذه الوقائع في الصفحات التالية .

(١٣) يمكن أن تثار شبهة في تصريحات المؤرخين الغربيين وبعض المؤلفين المسلمين أن نادر شاه أراد استئصال مذهب التشيع من إيران بجد وإصرار ، وأنه كان سنياً متعصباً ، هل كان ذلك محاولة لتغيير العقائد نفسها والمذهب نفسه أم كانت سياسة اتخذها لأغراض أخرى ؟ فإنه لا يتضح لنا من حملاته على دهلي وإقامته بها وبأى شئ في حياته أنه كان سني المعتقد ، وأنه كان يريد سوق إيران إلى راية السنية وتحت حكمها .

اضطربت الأمور وعمت الفوضى ، وتعود نادر شاه لقمع هذه الاضطرابات والقضاء عليها الجور والظلم والعدوان ، وأرهب بلادته بجباياته الباهظة ومكوسه الظالمة ، وقتل أخيراً بيد أحد أبناء قبيلته عام ١٧٤٧ م .

### حالة إيران بعد مقتل نادر شاه :

لقد أدى مقتل نادر شاه فى إيران إلى فساد الأمن واضطراب الأوضاع وطوائف الملوك ، وبدأ يحلم قادة جيشه بحكوماتهم المستقلة وتربع على عرشه بعد قتله ابن أخيه عادل شاه (١٧٤٧ م ) الذى أعمل السيف فى أسرته وقتل جميع أفرادها ، ولم ينج من بطشه إلا «شاه رخ » أحد أبناء الملك المقتول الذى كان حينئذ ابن أربع عشرة سنة ، وعزل عادل شاه فى ظرف عام واحد بيد أخيه إبراهيم وسملت عيناه ، أعقب ذلك ثورة فى جيش إبراهيم ، فأسره ضباط جيشه ، ثم قتلوه ، ثم قتل عادل شاه كذلك ، ثم استولت على إيران أسرة «زند » ، وحكم كريم خان زند ( ١١٦٤ هـ - ١١٩٣ هـ ) الموافق ( ١٧٥٠ م - ١٧٧٩ م ) على إيران تسعة عشر عاماً وجعل مدينة « شيراز » عاصمة مملكته ، وكان معروفاً بعدله ورأفته ، وأعاد إلى ريان بعد الحروب والمعارك الدامية الأمن والطمأنينة والسلام ولذلك حزن الناس على موته ورثوه وخلفه عدد من الملوك الضعاف حتى انقرضت حكومة هذه الأسرة فى عهد لطف على انقراضاً كلياً ، فقتل لطف على عام ١٢٠٩ هـ الموافق عام ١٧٩٤ م ، وخلا عرش إيران لأسرة قاجار ولا نريد أن نتعرض لهذا العهد وما يليه لأنه لا علاقة له بعهد الإمام الدهلوى .

### أفغانستان وأحمد شاه الأبدالى :

لقد كان بعض الأجزاء من بلاد أفغانستان قبل القرن الثامن عشر الميلادى تحت سلطة إيران والجزء الآخر تحت سلطة الهند ، وكان يحكم الجزء الثالث خوانين بخارى واستقلت قندهار عام ١٧٠٦ م ثم استولى نادر شاه على قندهار عام ١٧٣٧ م وأخذ الحكم من أيدي الأفغانيين ، ثم استولى على أفغانستان كلها والجانب الغربى من الهند .

وجئ إلى نادر شاه فى تلك الأيام بشخص كان يعرف بأحمد خان كأسير من أسرى الحرب ، وأعجب نادر شاه به ، وجعله فى حاشيته وخدمه ، فصار أحمد خان يتدرج فى مراتب الرقى ، ويحوز على ثقة الملك ، ويتمكن من نفسه ، فلما قتل نادر شاه ، انتدب هو نفسه وتولى زمام الولايات الافغانية ، وكان ينتمى إلى الفرع الدراني ( سدوزئى ) من القبيلة الأبدالية ، ولقب : « دردوران » وسميت أسرته لأجل ذلك بالدرانية .

لقد أرسى أحمد شاه قواعد الحكومة للأسرة الدرانية ، بل أسس المملكة الدرانية ،

وكانت المملكة الأفغانية حين وفاته تحتوى على شرق ريران ( مشهد ) وبلاد أفغانستان كلها، وبلوجستان كلها وعلى كشمير وبنجاب فى الناحية الشرقية ، وهو يستحق أن يعد من كبار المؤسسين للدول والحكومات ، والقادة المحنكين العصاميين والحكام العادلين الطيبين الذين يخشون الله ، ويستحق من حيث مجموع صفاته وخصائصه ( إذا نظرنا إلى بيئته وحياته البدائية، وفقره وقلة وسائله ) أن يعد من الشخصيات العبقريّة ( GENIUS ) النابغة ، إنه جعل الهند كالسلطان محمود الغزنوى ساحة لحروبه وغزواته من عام ١٧٤٧ م إلى ١٧٦٩ م ، وقد اعترف عدد من معاصريه المعروفين الكبار بحنكته وذكائه وصلاحيته العسكرية ، وتدينه ، وحبّه للعلم والعلماء ، وطيب نفسه وكرم طبعه ، إنه وحد أفغانستان التى كانت تشتمل على وحدات متعددة منتشرة بعد مدة طويلة من الزمن ، وضم هذه الوحدات بعضها إلى بعض فى صورة وحدة قوية محكمة ثابتة (١٤) .

### أفغانستان بعد أحمد شاه الأبدالى :

توفى أحمد شاه الأبدالى عام ١١٨٦ هـ الموافق ٢٣ / أكتوبر عام ١٧٧٢ م بقندهار ، ومن المؤسف أن خلفاء كخلفاء السلطان العادل أورنك زيب عالمكير ، كانوا ضعفاء غير أكفاء ( وقد وقعت هذه المأساة مع أكثر مؤسسى الدول والحكومات والفاخرين المظفرين والحكام الأقوياء ) فكان تيمور شاه الذى خلفه فى السلطان وورث عنه هذه المملكة العظيمة الناشئة ، لا يمت إلى والده العظيم العبرى الطموح بأى صلة فى خصائصه ومزاياه ، فقد حكم عشرين سنة فى ضعف واحتلال كانت تظهر أثناءها على مملكته الناشئة علامات السقوط والانهار ومات عام ١٧٩٣ م ، وانتقلت السلطة أيام حكم ابنه محمود إلى أسرة « بازك زئى » (١٥) ، التى لم تزل تحكم أفغانستان إلى ثورة عام ١٩٧٥ م (١٦) .

### وضع العالم الإسلامى والدينى :

ستعرض - بعد أن استعرضنا العالم الإسلامى سياسياً وإدارياً - لدراسته علمياً ودينياً إذ إن لها صلة قريبة بحياة الإمام الدهلوى وموضوعه وتخصصه وذوقه وعمله الإصلاحى والتجديدى .

(١٤) وسيأتى عنه تفصيل أكثر فى الباب التاسع فى ذكر أحمد شاه الأبدالى .

(١٥) انظر للتفصيل « سيرة سيد أحمد شهيد » بالأردية ، الجزء الأول : « سقوط الأسرة الدرانية وأسبابه » ، ص : ٤٢٠ - ٤٢٣ .

(١٦) كانت هذه هى الأسرة التى واجهها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وأصحابه وانتهى فرعها الأخير على الملك ظاهر شاه عام ١٩٧٥ م .

## نوابغ القرن الثاني عشر الهجرى :

تفيدنا دراسة تاريخ المسلمين العلمى والفكرى وقصة نشاطاتهم العلمية التحقيقية والتأليفية أن حياتهم العلمية والفكرية ونشاطاتهم فى مجالات العلم والبحث والتصنيف والتأليف لم تكن مرتبطة بالتقدم السياسى ورفى الدول وازدهارها وفتوحها وانتصاراتها مثلما نجد فى تاريخ الشعوب والملل غير الإسلامية ، فإنها تعاني من الانحطاط العلمى وأزمة الرجال مع الانحطاط السياسى وانقلاب الحكومات وسوء الإدارة والفوضى فى البلاد .

وإذا فقدت تشجيع الحكومات وإشرافها واحتضانها ، وفقدت الثقة بالنفس والشعور بالاستعلاء فإنها تجف منابع فكرها وذكائها ، وتموت فيها عواطف المسابقة والمنافسة وحب التقدم وتضعف دوافع العمل وأسباب الإنتاج .

أما المسلمون فإن شأنهم يختلف فى ذلك عن غيرهم ، فقد نبغ فيهم مراراً وتكراراً - رغم انحطاطهم السياسى والفوضى الداخلية واضطراب الأوضاع - عباقرة ونوابغ لا يبدو أنهم وليدو عهد السقوط والانهيـار ، ففى آخر القرن السابع الهجرى بعد سقوط بغداد - عاصمة المسلمين ودار خلافتهم - على أثر هجمات التتار - ذلك الجراد المنتشر - الذى حطم شرق العالم الإسلامى وأهلك الحرث والنسل ، وخرب الديار والبلدان التى كانت مراكز العلم والمعرفة منذ عدة قرون ، بعد كل هذا الدمار والسقوط والانهيـار نجد فى أواخر هذا القرن وأوائل القرن الثامن رجالاً من نوابغ العلماء كشيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد ( م ٧٠٢ هـ ) محدثاً ، والعلامة علاء الدين الباجى ( م ٧١٤ هـ ) أصولياً ومتكلماً ، وشيخ الإسلام ابن تيمية الحرانى ( م ٧٢٨ هـ ) إماماً ومجتهداً ، والعلامة شمس الدين الذهبى ( م ٧٤٨ هـ ) محدثاً ومؤرخاً ، والعلامة أبو حيان النحوى ( م ٧٤٥ هـ ) نحويًا ومفسراً ، وأمثالهم من نوابغ العلماء وعباقرة الفنون .

والسِرُّ فى ذلك أن دوافع النبوغ فى العلوم الدينية والبواعث على خدماتها ونشرها والحفاظ عليها مما تستقر فى داخل هذه الأمة وباطنها ، لا فى الخارج من إشراف الحكومات وتقديرها وتشجيعها ، وهذه الدوافع الخفية الباطنة هى الرغبة فى الحصول على رضا الله - تعالى - ووالقيام بواجب نيابة الأنبياء والمرسلين والشعور القوى بالحفاظ على الدين ونقله مصوناً من جيل إلى جيل .

فبالرغم من أن هذا العهد الذى نؤرخه هو عهد الاضطرابات الداخلية فى البلاد ، وقد



بدأت في الأفق علامات سقوط الدول والحكومات المسلمة حتى المملكة العثمانية العظيمة ظهرت عليها أمارات الهرم والسقوط ، وكانت البلدان الإسلامية حتى بلاد الحجاز تشهد صراعاتٍ وحروباً داخلية للتوصل إلى الإمارة والسلطان ، كان العلماء في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وإيران والهند وغيرها من بلدان العالم الإسلامي منصرفين إلى التدريس والإفادة ، وكان الباحثون والمحققون والمفكرون مقبلين على التأليف والتصنيف والبحث والتحقيق ، وكان المشايخ والصوفية الربانيون متجهين إلى إصلاح النفوس وتزكية القلوب ، متصفين بالفضائل الروحية من صفاء القلب وإشراق الروح ، وقد بلغ بعضهم من علو المكانة وجلالة الشأن ما لا يوجد له نظير في الأقطار المترامية والبلاد القاصية والدانية في الماضي القريب .

خذ مثلاً علم الحديث الشريف ، تجد فيه المحدثين الكبار كالعلامة أبي الحسن السندی الكبير ( م ١١٣٨ هـ ) الذي درس مدة طويلة في الحرم الشريف وتعليقاته على الكتب الستة معروفة بالهوامش الستة ، والشيخ محمد حياة السندی ( م ١١٦٣ هـ ) الذي يزدان به كذلك هذا العهد ، والشيخ إسماعيل العجلوني المشهور بالجراحي ( م ١١٦٢ هـ ) الذي كان من المحدثين الكبار في الشام وكتابه « كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس »<sup>(١٧)</sup> من أنفع الكتب وأجمعها في هذا الموضوع ، ولعله أكبر مجموعة من مجاميع الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ويتضح من دراسة الكتاب ما يملكه المؤلف من سعة النظر والإحاطة بالموضوع والأخذ بالإنصاف والاحتياط ، وتشتمل هذه المجموعة عدا الأحاديث الضعيفة والموضوعة على تلك الأحاديث المشتهرة بين الناس التي لا يعرف تخريجها بصفة عامة ، فعرف بها المؤلف وخرجها ، وكان الحرمان الشريفان من أكبر المراكز لتدريس الحديث الشريف حيث كان الشيخ أبو طاهر الكوراني الكردي ، والشيخ حسن العجيمي يلقيان الدروس ، وكان في اليمن الشيخ سليمان بن يحيى الأهدل ( م ١١٩٧ هـ ) محدث اليمن الجليل ومن أكبر المحدثين وأجلهم في عصوره خدمة للحديث ونشراً لعلوم السنة المطهرة ، وكان الشيخ محمد بن أحمد السفاريني ( م ١١٨٨ هـ ) من كبار علماء الحديث والأصول ، وهو صاحب : « الدرر المصنوعات في الأحاديث الموضوعات » ، وكان الأمير محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني ( م ١١٤٢ هـ ) محدثاً جليلاً ، ومحققاً كبيراً ومن مؤلفاته الجليلة « سبل السلام » ، شرح « بلوغ المرام » ،

---

(١٧) نشرته « مكتبة التراث الإسلامي » بحلب - سوريا .

و « توضيح الأفكار ، شرح « تنقيح الأنظار » ، ويلمع فى نوابغ هذا القرن أيضاً اسم العلامة الشيخ محمد سعيد السنبل ( م ١١٧٥ هـ ) الذى يعتمد أكبر شيوخ الحديث على أوائله لكتب الحديث<sup>(١٨)</sup> ، فى رواياتهم وإجازاتهم ، ومن كبار المحدثين كذلك العلامة محمد بن عبد الباقي الزرقانى ( م ١١٢٢ هـ ) الذى وصفه المؤرخون بقولهم : « خاتمة المحدثين بالديار المصرية »<sup>(١٩)</sup> .

ومن العلماء البارزين فى هذا العهد فى تبحرهم العلمى ، وكثرة التدريس والإفادة ، والتصنيف والتأليف ، الشيخ عبد الغنى النابلسى ( م ١١٤٣ هـ ) الذى كثر تلامذته والآخذون عنه ، ويصفونه : « بالأستاذ الأعظم » ، ويقال : إن مؤلفاته تبلغ مائتين وثلاثة وعشرين ، وقد كان العلامة إسماعيل الحقى ( م ١١٢٧ هـ ) أيضاً من علماء هذا العصر الذى ألف كتابه « روح البيان فى تفسير القرآن » ويعرف بالتفسير الحقى كذلك ، وكان الشيخ عبد الله بن حسين السويدى ( م ١١٧٤ هـ ) من علماء بغداد ، صاحب مؤلفات كثيرة<sup>(٢٠)</sup> .

وتوجد فى هذا العصر عدا المدارس والجامعات القديمة كالجوامع الأزهر وجامع الزيتونة بتونس ، وجامعة القرويين بفاس - المغرب - أسماء المدارس الأخرى بدمشق كالمدرسة الحافظية ، والمدرسة الشلية والمدرسة العذراوية<sup>(٢١)</sup> ، ويتكرر من بين الطرق الصوفية ذكر طرق النقشبندية ، والخلوتية ، والشاذلية ، والقادرية ، والرفاعية ، ويظهر أن مشايخها وأصحابها منتشرون من تركيا إلى أندونيسيا .

### نظرة على الذوق العلمى والأدبى والروحى فى العالم الإسلامى :

يغلب على أصحاب العلم والمثقفين فى هذا العصر ذوق الأدب والشعر وثقافة المجالس والنوادر ، واللطائف والطرائف ، والألغاز والأحاجى ، ولا يبدو أنهم حازوا فيها الفضل والسبق ، أو ابتكروا نوعاً جديداً ، بل يطرد فيه السجع وتكثر القوافى ويغلب

---

(١٨) وهو المعروف بالأوائل السنبلية فى أوائل كتب الحديث .

(١٩) انظر للتفصيل « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » للعلامة محمد بن على الشوكانى صاحب « نيل الأوطار » و « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للمرادى .

(٢٠) انظر « سلك الدرر والبدر الطالع » .

(٢١) انظر « سلك الدرر » .

التكلف والتعمل ويتجلى تأثير الحكومة التركية<sup>(٢٢)</sup> على الأوساط العلمية والأدبية ، فلا يعثر على باحث محقق ومفكر كبير إلا بعد بحث كبير ، وتزخر المجلدات الأربعة لـ «سلك الدرر» للمرادى بالقصائد والغزليات والأبيات والمقطوعات الشعرية ، ويكثر فيها ذكر المكاشفات والكرامات ، والأوهام والخرافات ، ويتوجه علماء البلدان التي هي تحت السلطة العثمانية ونوابغها وأصحاب الفضل والكمال فيها إلى دار الخلافة القسطنطينية ويتولون مناصب الحكومة ، والعلوم العقلية والحساب والهندسة وعلوم البلاغة والفقه وشئ من الحديث هي الأجزاء الأساسية للمناهج الدراسية ، وتنتشر الرقى والتمايم ، وقد نظم بعض العلماء متن «القدورى» ، والمتون الفقهية الأخرى ، وكان عدد من العلماء العرب يعرفون اللغة الفارسية والتركية ، وكان الناس لا سيما فى الشام يألفون اللغة التركية لكونها اللغة الرسمية ، وكان عدد كبير من علماء تركيا نازلين بسوريا ، ويتكلمون بالعربية الفصحى ، وكان التدريس فى الجامع الأموى بدمشق من أسباب الفخر والاعتزاز ، وكان بعض العلماء والمشايع يلقون الدروس فى «الفتوحات المكية» وآخر يدرس «نصوص الحكم» وكان يدرس «شرح الجامى» و«مختصر المعانى» فى الشام أيضاً ، وكان التصوف هو السمة الغالبة حتى على العلماء والمحدثين ، وكان الشيخ عبد الغنى النابلسى وعدد من العلماء والمشايع يقولون بوحدة الوجود<sup>(٢٣)</sup> .

### سيطرة العلوم العقلية فى إيران وتأثيرها على البلدان المجاورة :

لقد أسس إسماعيل الصفوى (٩٠٥ - ٩٣٠ هـ) فى بداية القرن العاشر الهجرى ، الحكومة الصفوية فى إيران ، وجعل المذهب الشيعى هو المذهب الرسمى فى البلاد ، وقضى على المذهب السنى ومحا آثاره إلى حد كبير ، وبذلك انقطعت صلة إيران - تلك البلاد الخصبة التى أنتجت - فى جانب - أئمة فن الحديث ، والأساطين الأربعة لبنيان الحديث الشامخ ، وهم الإمام المسلم ، والإمام أبو داود ، والإمام النسائى ، والإمام ابن ماجة ، الذين خضع الناس لإمامتهم وجلالة شأنهم وأنتجت فى جانب آخر ، كبار الفقهاء النابغين ، والعلماء المتبحرين كالإمام أبى إسحق الشيرازى ، وإمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك الجوينى ، وحجة الإسلام أبى حامد محمد الغزالى - وأمثالهم من نوادر الزمن

(٢٢) طبيعة الأتراك فى طبيعة السياسة والإدارة العسكرية ( Martial Race ) ولا نجد فيهم فى عهد حكمهم الطويل كبار العلماء المحققين والمؤلفين البارزين أمثال العلامة أبى السعود وطاش كبرى زادة وخليفة جلى إلا قليلاً جداً .

(٢٣) انظر «سلك الدرر» ، الأجزاء : ١ - ٢ - ٣ - ٤ .

ونوابغ العلوم - لقد انقطعت صلة إيران في عهد هذه المملكة القوية العظيمة الذي يمتد على قرنين وربع قرن من الزمن عن الحديث الشريف والفقه والعلوم النافعة المفيدة .

فقد كان الملوك الإيرانيون يميلون إلى الحكمة والفلسفة ، لأن الشيعة لم تزل متعلقة بالفلسفة والاعتزال ، وقد كان الفيلسوف والرياضي المعروف خواجه نصير الدين الطوسي (م ٦٧٢ هـ) مؤلف « شرح إشارات ابن سينا » - الذي كان شيعياً ومعتزلياً - مستشاراً خاصاً لهلاكو خان وأميناً لديه (٢٤) .

وكانت هذه الثقة والزلفى عند الملك التتارى سباً كبيراً فى نشر علوم الفلسفة والرياضيات فى المملكة التتارية التى كانت تحتوى على تركستان وإيران والعراق فقويت فيها الميول إلى العلوم العقلية ، وفى عهد الحاكم الثانى الملك طهماسب (م ٩٨٤ هـ) للمملكة الصفوية نفسها لمع نجم ميرغياث الدين منصور (م ٩٤٨ هـ) الذى كان حكيماً إشراقياً وفيلسوفاً ومؤسساً للمدرسة المنصورية بشيراز ، وتولى منصب الرئاسة فيها فى عهد الملك طهماسب لمدة طويلة ، وانتشر تلامذته وتلامذته إلى الهند ، فكان الأمير فتح الله الشيرازى (م ٩٩٧ هـ) من تلامذته الذى قصد الهند فى أواخر القرن العاشر الهجرى وولاه الملك أكبر منصب الصدارة وهو الذى طبع المناهج والقرارات الدراسية والطرائق التعليمية فى الهند بالطابع العقلى وترك تأثيراً عميقاً استمر مفعوله إلى القرن الثالث عشر الهجرى وهو الذى جاء حسب تصريح العلامة آزاد البلكرامى - بمؤلفات صدر الدين الشيرازى والميرغياث الدين منصور ، والفاضل مرزاجان (م ٩٤٤ هـ) إلى الهند ، وقررها فى المدارس الإسلامية ، وطلعت شخصية المير باقر داماد (م ١٠٤١ هـ) فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى الذى سيطر بذكائه وعقليته وأدبه على الأوساط العلمية والتعليمية من إيران إلى الهند ، وقد كان مرموقاً عظيم القدر والحظوة فى بلاد السلطان عباس الصفوى (م ١٠٣٧ هـ) وظلّ كتابه « الأفق المبين » غاية ما يحلق فى أجوائه المعلمون والكتاب النهائى فى الأوساط الدراسية .

ثم برزت شخصية العلامة صدر الدين الشيرازى (م ١٠٥٠ هـ) الذى كان حكيماً إشراقياً ، وفيلسوفاً طليقاً ، حر التفكير ، ومؤلفاه « الأسفار الأربعة » و « شرح هداية الحكمة » المعروف بـ « صدرأ » (٢٥) يحملان صيتاً ذائعاً وشهرة عالمية ، لقد تعاون الذوق

(٢٤) انظر « تاريخ أخبار وآثار خواجه نصير الدين الطوسي » نشر جامعة طهران ، إيران .

(٢٥) كتاب « صدرأ » مقرر فى المناهج الدراسية فى الهند من القرن الحادى عشر الهجرى ولم يكن الطالب يعد قبل دراسته وإحراز البراعة فيه خريجاً فاضلاً لآى مدرسة من مدارس الهند .

الإيراني - الذي تعود منذ قرون على صنع القبة من الحبة تشقيق الشعرة مع هذه النزعة العقلية الفلسفية ، وبث شبكة التقعير في الألفاظ وتوليد الطرائف والنكات وتعقيدات الدعاوى والمفروضات من الحدود الغربية لإيران إلى الحدود الشرقية للهند ، التي لم يكن مثلها إلا كما يقال « تمخض الجبل فولد فأراً » ، لقد كانت دولة العلوم العقلية والفلسفية تسيطر على الأوساط التعليمية والتأليفية من عجم القرن العاشر إلى عرب القرن الثاني عشر، ولم تكن هناك وسيلة للعلماء لإظهار فضلهم ونبوغهم وإثبات ذكائهم وعبقريتهم إلا حل عبارات المؤلفين السابقين ، وشرحها والتحشية عليها ومحاولات فهمها وإفهامها ، وكان أدنى مقال وانتقاد لفائدتها وثمرتها إثباتاً للجهل والغباوة وسوء الفهم .

لقد تركت إيران تأثيرها - بطبيعة الحال - على أفغانستان ، ولا سيما على « هرات » المدينة الغربية لأفغانستان ، فكان القاضي محمد إمام الهروي الكابلي ( م ١٠٦١ هـ ) كسفير لأساتذة إيران ، ونوابها في المنطق والفلسفة ، ورفع ابنه القاضي محمد زاهد ، المعروف بمير زاهد ( م ١١٠١ هـ ) منار هذه العلوم زاد في قدرها ومكانتها ، وقد أمضى معظم حياته في الهند ونالت حواشيه الثلاثة على « شرح المواقف » و « شرح التهذيب » و « الرسالة القطبية » التي تعرف بـ « الزواهد الثلاثة » قبولاً كبيراً ورواجاً عظيماً في الأوساط الدراسية في الهند .

ولم يكن هو بجانب فضله ونبوغه في العلوم العقلية عالي الكعب في الفقه والحديث والعلوم الشرعية حتى إنه لم يكن يثق بنفسه في تدريس كتاب متوسط متداول في الفقه كـ « شرح الوقاية » ، فقد جاء في « ملفوظات الشيخ عبد العزيز الدهلوي » وهي مجموعة كلماته التي دونها بعض أصحابه : كان أحد الأمراء يقرأ على مير زاهد كتاب « شرح الوقاية » ولكنه - لعدم ثقته بنفسه في تدريس هذا الكتاب - لم يكن يدرس إلا بعد أن يحضر الجد<sup>(٢٦)</sup> ، ( وهو الشيخ عبد الرحيم ، الذي كان أحد تلامذته نفسه في العلوم العقلية ) .

وكان خوضه - بجانب ذلك - في العلوم العقلية إلى حدّ أن كان يقول « كلام المرزاجان هو روحى وكلام أخوند هو روح روحى »<sup>(٢٧)</sup> .

لم يكن هذا التأثير لإيران على الهند وأفغانستان فحسب ، بل كانت إيران تترك تأثيرها

---

(٢٦) ملفوظات شاه عبد العزيز .

(٢٧) أيضا ص : ٨٣ .

على العراق والشام أيضاً ، فكان ينظر هناك كذلك إلى علماء المعقولات بعين التقدير والاحترام ، وكانت لهذه العلوم مهابة في القلوب وجلالة في النفوس وكانت كتبها مقررمة في المناهج الداسية .

## الوضع الخلقى والاجتماعى والعقائدى العام :

لقد كان العالم الإسلامى - رغم اشتغال العلماء بالعلم والبحث ووجود عدد كبير من النوابع وأصحاب الفضل والكمال وانتشار السلاسل والطرق الصوفية فى الناس ، والعناية الحديث النوى الشريف ، وتدين كثير من الملوك والحكام ورغم وجود تلك الحكومات المسلمة التى كانت تدين الإسلام وتدين بالشرعية الإسلامية فى كثير من نواحي الحياة العملية وقوانين الأحوال الشخصية ووجود المدارس أهلة والمساجد معمورة ، وكون الجمهور وعامة المسلمين يحبون الإسلام ويدينون به ، ويعتقدون فى المشايخ والصالحين ، ويحافظون على أركان الدين وفرائضه ، ولا تخلو قلوبهم من الحمية الإسلامية - ، كان العالم الإسلامى رغم كل ذلك يعانى من الجمود ، والانحطاط ، وقد تسربت الأدواء إلى الأخلاق والاجتماع وقبل المسلمون كثيراً من العادات والشعائر والتقاليد العجمية غير الإسلامية ، وكان الحكام والأمراء أنانيين قد ركبوا رؤوسهم وعملوا بأهوائهم ، وكانت الفوضى فى الدول والحكومات ، وقد ألهمت طبقة الأمراء والأثرياء أموالهم وثرواتهم ، وتسربت إليهم أخلاق المترفين ونزعاتهم ، وسيطرت على كثير من طبقات المجتمع عادة الكسل والتواكل والبطالة ، والتعلق بحواشى السلطان ، والتقرب فى البلاد ، والإطراء والتملق ، وكانت طبقات أخرى تهيم فى الأوهام والخرافات ، وكانت تتراءى نماذج عبادة القبور وتقديس الأولياء وتعظيمهم إلى حد التآليه وتعدي حدود التوحيد ، حتى ظهرت مظاهر الشرك الجلى فى بعض المواضع .

وقد صور المؤلف الأمريكى الدكتور لوتروب استوردرد (-STODDARD LOTH) فى كتابه الشهير « NEW WORLD OF ISLAM » ( حاضر العالم الإسلامى ) : العالم الإسلامى فى القرن الثامن عشر المسيحى ، وهو إن كان يوجد فيه إفراط وغلو فى بعض المواضع ولكنه بمجموعة ليس تصويراً خطأ<sup>(٢٨)</sup> للعالم الإسلامى

---

(٢٨) لقد صدق هذا التصوير والاستعراض العام للعالم الإسلامى واستحسنه ورآه أمس بالحقيقة والواقع أمير البيان شكيب أرسلان فى حواشيه الشهيرة على ترجمة هذا الكتاب للعربية التى نشرت باسم « حاضر العالم الإسلامى » فقال معلقاً على هذا الوصف « لو أن فيلسوفاً من فلاسفة = =

حينذاك ، وقد جاءت فيه جوانب كثيرة لا ينتبه لها من يعيشون داخله ، والمشاهدون له كل حين ، وتسترعى انتباه الزائرين الجدد والمشاهدين لأول مرة ، وسوف لا يكون خطأ ولا غير لائق بالمكان أن ننقل شيئاً من هذا التصوير بدون أن نتحمل مسئولية صحته مائة في المائة ، يقول المؤلف الأمريكى :

« فى القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامى قد بلغ من التضعف أعظم مبلغ ومن التدنى والانحطاط أعمق دركة ، فأربدَّ جوه ، وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجاء من أرجائه ، وانتشر فيه الفساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربى » .

« واستغرقت الأمم الإسلامىة فى اتباع الأهواء والشهوات وماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل ، وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الإسلامىة إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ، فليس يرى فى العالم الإسلامى فى ذلك العهد سوى المستبدين الغاشمين كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول فى الهند ، يحكمون حكماً واهناً فاشى القوة متلاشى الصبغة ، وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها وينشئون حكومات مستقلة ولكن مستبدة كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثرت السلب والنهب ، وفقد الأمن وصارت السماء تمطر ظلماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجال الدين المستبدون يزيدون الرعايا إرهاباً فوق إرهاب فغلت الأيدى وقعدت عن طلب الرزق ، وكاد الغرم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة أيما إهمال » .

وأما الدين فقد غشيتة غاشية سوداء ، فألبست الوحداية التى علمها صاحب « الرسالة » الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية ، ونحلت المساجد من أرباب الصلوات وكثير عديد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمايم والتعاويد والسبحات ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم فى الحج

---

= = الإسلام أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعىة ، أراد تشخيص حالته فى هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب المحز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأمريكى ستوارد « (ش) » .

إلى قبور الأولياء ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن ، فصار يشرب الخمر والأفيون فى كل مكان ، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء « (٢٩) .



---

(٢٩) « حاضر العالم الإسلامى » ( تعريب الأستاذ عجاج نويهض ) ج ١ ص : ٢٥٩ - ٢٩٠ .



# الباب الثانى

## الهند

### الوضع السياسى :

ولد الإمام ولى الله الدهلوى قبل وفاة السلطان أورنگ زيب عالمكير ( م ١١١٨ هـ ) بأربع سنين ، عام ١١١٤ هـ ، وقد كان السلطان عالمكير فى ضوء التاريخ المعلوم المحفوظ ، أكبر سلاطين شبه القارة الهندية بعد الملك أشوكا ( إذا كانت البيانات والتصريحات عن سعة مملكته وعظمتها صحيحة معتمدة ) وكانت مملكته وحكومته أوسع الحكومات التى قامت فى الهند ، يقول مؤلفو «تاريخ الهند» CAMBRIDGE HISTORY OF INDIA :

« كانت حكومة أورنگ زيب من غزنين إلى شتا غونغ ، ومن كشمير إلى كرناتك »<sup>(١)</sup> .

ويقول المؤرخون الآخرون : « لم تقم فى الهند من العهد القديم إلى عهد سيطرة الإنجليز وغلبتهم مثل هذه الحكومة ( حكومة أورنگ زيب ) الواسعة الأرجاء ، الطويلة الأبعاد »<sup>(٢)</sup> .

وقد فتح مير جملة فى عهده وبإيعاز منه ولاية « آسام » لأول مرة ( التى كانت ولا تزال منطقة مستقلة عن الهند فى لغتها وثقافتها ومدنيتها ، وديانتها وسلالتها ) وضمها إلى الهند<sup>(٣)</sup> ، وبالرغم من تعليقات وانتقادات المؤرخين الغربيين والمؤرخين الهندوس التى ليس الدافع إليها إلا حمية أورنگ زيب ، وحمايته للإسلام<sup>(٤)</sup> ، فإن قوة إرادته التى لا يوجد لها نظير ، ورباطة جأشه ومقدرته الإدارية والتنظيمية ، وحياته البسيطة الزاهدة ، وبطولته

---

(١) CAMBRIDGE HISTOY OF INDIA , VOL , 4 P . 316

(٢) MUSLIM RULE IN INDIA , D . P MAHAJAN . DELHI , 1971

CAMBRIDGE HISTORY OF THE WORLD . P . 175 DLHI 1970.

(٣) انظر للتفصيل « مآثر عالمكير » لمحمد ساقى مستعد خان ، ص : ٣٩ - ٤٠ ، طبع كلكتة عام ١٨٧١ م ، « وقائع سيرو سياحت » ( مذكرات السياحة ) للدكتور برنير ( DR . BERNIE ) ص : ٢٩٤ .

(٤) انظر للتفصيل « رجال الفكر والدعوة » للمؤلف الجزء الثالث الإمام السمرقندى ( ص : ٢٩٥ - ٣٠٩ .

وشجاعته من الحقائق التاريخية التي لا يختلف فيها اثنان ، ويعترف بها جميع المؤرخين<sup>(٥)</sup> .

## أورنك زيب عالمكير :

وجه السلطان أورنك زيب بعد ما تولى بيده زمام الأمور كل همه إلى القضاء على آثار العهد الأكبرى المخالفة للإسلام ، والحد من تأثير التشيع ( الذى كان أكبر مراكزه فى جنوب الهند ، ولذلك صرف عالمكير الجزء الأكبر من حياته وطاقاته للسيطرة عليه ) واستئصال التأثيرات الحضارية لإيران المختلطة بالزرعات المجوسية التي دخلت فى عهد الملك أكبر وكانت توجد فى أشكال التقويم الإيرانى وعيد النيروز ، وعين المنصب الشرعى للمحتسب ، ليردع الناس عن ارتكاب المحرمات والمنهيات ، وعطل كثيراً من أنواع الدخل المحرمة التي كانت تحصل بها للحكومة ثروات طائلة ، ووقف الرقص والغناء ، وعادة الاجتماع لزيارة السلطان التي كانت تشم منها رائحة التقديس ، وعيّن القضاة الشرعيين ، وخول لهم حقوقاً وسلطة كبيرة وتولى - تيسيراً للقضاة وتطبيقاً للقوانين الشرعية وتنفيذاً لها فى سائر مملكته - تدوين المسائل النقهيّة ، وترتيبها من جديد ، فكان من نتيجة ذلك أن ظهرت مجموعة ضخمة باسم « الفتاوى العالمكيرية » التي اعتبرت فى مصر والشام أيضاً ( حيث تعرف باسم « الفتاوى الهندية » ) مصدراً معتمداً كبيراً من مصادر القانون الإسلامى وألغى عادات تقبيل العتبة والأرجل غير الإسلاميه عند التحية والتسليم وكل ما يخالف التوحيد ، وأعاد العمل بسنة التحية الإسلاميه ، وبالجملة فقد كان كما يقول الدكتور إقبال فى بيت من شعره :

« كان فراشة لشمعة التوحيد ، وكان فى بيت الأصنام والأوثان كإبراهيم - عليه السلام - » .

وعلاوة على هذه المآثر الإصلاحية الثورية - التي تحمل قيمة دينية كبيرة - كانت من أكبر مزاياه وأبرزها ، يقظته وذكاؤه ، وجدّه ونشاطه ، واهتمامه بالمسئولية ، ومعرفته الدقيقة بكل صغير وكبير فى أمور دولته ، ومحاولته الهيمنة الكلية على إدارة البلاد ونظامها ، الأمر الذى يعتبر من الشروط الأولية لأى حاكم من حكام هذه المملكة الواسعة العريضة ، إنه كان قد كتب إلى والده السلطان شاهجهان - وتشهد عليه حياته وتؤيده - :

---

(٥) انظر كتاب استينلى لين بول بعنوان « أورنك زيب » وكتاب ظهير الدين الفاروقى ، بعنوان ( AURANGZEB AND HIS AGE ) وكتاب جادونات سركار « HISTORY OF AURANGZEB » ، ومقالات العلامة شبلى النعمانى « عالمكير » .

« إننى لا يمكن أن أُتَّهَمَ بالكسل والفتور »<sup>(٦)</sup> ، وقال مرة وهو يردُّ على كلام أحد الأمراء الذى أشار عليه بالألا يتحمل المجهودات اشاقة المضنية فى أمور الدولة ( فإنه يخاف منها الإضرار بصحة الملك ) فقال : إن ربي ابتعثنى لأن اجتهد وأكدح للناس ، وأنشد بيتاً من شعر السعدى ما معناه :

« لا تَمُّ غافلاً فإن النوم حران على قائد القوم »<sup>(٧)</sup> .

إن هذا الاطلاع الواسع والمعرفة الدقيقة الشاملة بإدارة البلاد ، وشؤونها - رغم سعة الدولة وانتشار أطرافها - ليس إلا عمل ذلك الرجل العصامى الذى يحمل إرادة حديدية ، وجسداً حديدياً ، وشعوراً بالغ الغاية بالمسئولية وخشية الله تعالى فى السر والعلن ، ومن المدهش الغريب أن معرفته بالكليات ومهام الدولة وشؤونها الكبيرة لم تكن تحول دون معرفته بالجزئيات ، بل كانت معرفته بالكليات لا تقل عن اطلاعه على جزئيات الدولة ، إنه كان فى دكن ( الجنوب ) ولكنه كان فى الوقت نفسه خبيراً بما يجرى فى شمال الغرب والشرق ، وكان لأجل اطلاعه الشخصى ، وبالاستعانة بكتابه يفحص بنفسه تفاصيل الأمور الإدارية ويختبرها ، وكان عمَّاله لذلك دائماً فى حالة حذر وتهيؤ ، وهو الذى يعين الكتاب ، والمحررين بنفسه<sup>(٨)</sup> ، ويعبر هذا البيت من شعره عن قلبه وشعوره بالمسئولية ، ويصور ما يواجهه - نتيجة هذا الشعور الزائد - من مشاكل ومعضلات ، فقد كان ينشد هذا البيت كثيراً الذى معناه :

« إن هموم العالم وأحزانه كثيرة ، ولا أحمل إلا قلباً واحداً ، فكيف أحمل رمال هذه الصحراء فى زجاجة ساعة واحدة »<sup>(٩)</sup> .

وكان ينشد أحياناً هذا البيت ويأخذ به فى العمل والتطبيق ، ومعناه : « لا أقول لك ، ضيع أو فكر فى المنفعة ، أيها الغافل عن الفرص المتاحة لك كن أسرع ما تكون فيما تحب أن تكون » .

### أخلاف عالمكير الضعفاء :

وخلف أورنك زيب على عرشه العظيم المهيب ( الذى كان قد أصبح حامياً للدين

(٦) انظر ظفر نامه شاهجهان .

(٧) انظر « أورنك زيب » لاستينلى لين بول ص : ٧٢ - ٧٣ .

(٨) المصدر السابق ، ص : ٧٩ .

(٩) « تاريخ هندوستان » ص : ٤٧٥ ، ج : ٨ .

وحارساً له وخادماً للشعب المسلم بَدَكَ أن يكون ماحياً للدين وهادماً له ومستغلاً للشعب ( من أولاده أولئك الأشخاص الضعاف الذين كأنهم حلفوا أن يتداركوا ما وقع فيه عالمكير من « خطأ » الحفاظ على الدين والذبّ عنه ، وإحياء الشريعة الإسلامية ، وإجراء السنة النبوية ، وإنهم سيكفرون - دائماً - عن تلك « الجريمة » التي ارتكبها السلطان عالمكير بتوسيعه لحدود المملكة ، وتنظيمه لإدارة البلاد ، وتوطيد دعائم الحكم بيقظته وحنكته ، وجدّه ومثابرتة ، وشعوره بالمسئولية وما أدخل من الرعب والهيبة في قلوب العامة ، والأشرار والمفسدين ، بترفهم وبذخهم وكسلهم وعدم كفاءتهم ، وصراعتهم الداخلي ومنازعتهم ، واعتمادهم - كلياً - على الوزراء وأركان البلاط المغرضين المتكالبين على الجاه والسلطان ، وغفلتهم عن شئون الدولة وإدارة البلاد ، فكان من سوء حظ الدولة المغولية ، بل الأمة الإسلامية ، بل الهند كلها أن توالى على عرش مملكتها ملوك ضعفاء غير أكفاء ، وكان من عجائب التاريخ ومن الأدلة على أن الله - تعالى - غنى عن العالمين ، أن كان خليفة أورنك زيب الأول ( شاه عالم بهادر شاه الأول ) نفسه على الضد من والده العظيم .

لقد توالى على عرش الدولة المغولية فى عهد الإمام ولى الله الدهلوى ( ١١١٤ - ١١٧٦ هـ ) بعد السلطان أورنك زيب أحد عشر ملكاً ، وها هى أسماؤهم :

١ - محمد معظم بهادر شاه ( الملقب بشاه عالم بهادر شاه الأول ) .

٢ - معز الدين جهاندار شاه .

٣ - قَرُّخ سیر ابن عظیم الشان .

٤ - نیکوسیر .

٥ - رفیع الدرجات بن رفیع القدر .

٦ - رفیع الدولة بن رفیع القدر .

٧ - محمد شاه بن جهان شاه .

٨ - أحمد شاه بن محمد شاه .

٩ - عزیز الدین عالمکیر بن جهاندار شاه .

١٠ - محی السنة بن کام بخش بن عالمکیر .

١١ - شاه عالم بن عزیز الدین .

أى أنه تعاقب أحد عشر ملكاً فى مدة نصف قرن من الزمن ، وكان منهم من لم تمتد

حكومته إلا عشرة شهور<sup>(١٠)</sup> ، ومنهم من حكم أقل من أربعة شهور<sup>(١١)</sup> ، ومنهم من حكم لأيام<sup>(١٢)</sup> أو مدة يسيرة جداً<sup>(١٣)</sup> ، وسوف نتحدث في السطور التالية عن أهم الوقائع والأحداث في عهد خلفه الأول شاه عالم بهادر شاه ، والملك فرخ سير بن عظيم الشان ، والملك محمد شاه ، والملك شاه عالم الثانى ، الذين أسهموا بدورهم فى تاريخ الهند ، ومصير المسلمين الهنود .

### شاه عالم بهادر شاه الأول :

كان هذا أكبر أبناء عالمكير الذى هزم أحد إخوته محمد أعظم وتربع على عرش الدولة ، وأكبر دليل وأوله على اختلاف ميوله وطبيعته عن ميول عالمكير وطبيعته أنه تبنى المذهب لشيعى الذى لم يكن مخالفاً لعقائد السلطان عالمكير وطبيعته وذوقه فحسب ، بل كان مخالفاً لعقائد جميع الملوك التيموريين المغول ومذهبهم ومنهجهم فى الحياة ، وكان معاكساً لمصالح هذه الدولة أيضاً ( التى كان تسعون إلى خمسة وتسعين فى المائة من سكانها من حدودها الشرقية بنغاله إلى حدودها الغربية بكابل وقندهار سنين عقيدة ، حنفيين مذهباً ) ولم تكن هناك إمكانيات فى الهند لقبول هذا المذهب ونجاحه على مستوى الجماهير ، وحسب تصريح غلام حسين طبا طبائى مؤلف « سير المتأخرين » ( الذى ينتمى إلى الفرقة الاثنى عشرية ، وتتجلى شيعيته فى تاريخه للوقائع والأحداث ) لما أمر بهادر شاه باعتناق المذهب الشيعى ، وعقد المباحثات والمناظرات مع علماء أهل السنة فى هذه القضية ، وأمر بإدخال هذه الكلمات : « على ولى الله ، وصى رسول الله » فى الخطبة حدث اضطراب فى لاهور حيث كان الملك مقيماً ، ووقعت اشتباكات ، وصرح المؤلف بأن ذلك لم ينل قبولاً ورواجاً ، يقول :

« لم يزل بهادر شاه يصرُّ على هذا ، ويسعى جاهداً فى نشر المذهب الشيعى وتقويته ، ولم يزل باب المناقشة والمناظرة مع العلماء مفتوحاً لمدة طويلة من الزمن ، ولكن ذلك لم يُجد شيئاً »<sup>(١٤)</sup> .

وكان من نتيجة هذا التغيير أن استاء الجماهير والجيش كذلك، ولم يبق فى الجيش ذلك

---

(١٠) وهو معز الدين جهاندار شاه .

(١١) هو رفيع الدرجات بن رفيع القدر ، وكانت مدة حكومته ثلاثة شهور وعشرة أيام .

(١٢) محى السنة بن كام بخش بن عالمكير .

(١٣) رفيع الدولة بن رفيع القدر .

(١٤) « سير المتأخرين » ، ج : ٢ ، ص : ٣٨١ .

الحماس الدينى الذى كان فى عهد المغول الماضى قوة دافعة كبيرة ، وقد تفتن لذلك بعض المؤرخين من غير المسلمين أيضاً ، يقول الدكتور ستيش جندر : « لقد ضعف تأثير الدين على سياسة الحكومة » (١٥) .

ويقول الشيخ ذكاء الله فى « تاريخ الهند » :

« لقد حدثت انقلابات وتطورات كبيرة ، بعد عالمكير فى أمور الدولة ، وتغيرت أشكال العلاقات كلها ، وإنقلبت العلاقات التى كانت بين الدولة التيمورية والمرهتة رأساً على عقب ، وكانت الدولة المغولية قد بلغت من الضعف والهزال حد الاحتضار ، ولكنها رغم احتضارها وإشرافها على الموت لم تنس كبرياءها وغطرستها » (١٦) .

كان عالمكير إذا كان فى أورنك اباد (١٧) خافه أركان الدولة وكبار الأمراء فى بهار وبنغاله فضلاً عن دهلى وهابوه ، فقد كان متفقداً للأحوال ، مطلعاً على الأمور الجليلة والحقيرة من شئون الدولة ، ولم يكن يتأخر لحظة فى إصدار أوامره فى الحين المناسب ، أما خلفه (بهادر شاه) فكان حاله كما يقول مؤرخ الهند :

« كانت أوامره غير منتظمة ، ولم يعد أى اعتبار لتوقيع السلطان ، وكان السلطان يقول لخدمه وحواشيه : لقد تحالف كل الموظفين وتوافقوا فيما بينهم فما يرونه أفضل عندهم ينفذونه ، وليس لى إلا الإسم ، ولم يعد لى عمل سوى أن ألبى حاجات الخلق وأحقق مطالبهم » (١٨) .

ويقول : « لقد أرخ بعض الظرفاء المتندرين جلوسه على عرش الدولة بـ « الملك الغافل » ، إنه يسهر الليالى ، وينام إلى الضحى ، وهذا يسبب المصاعب للناس فى أيام أسفارهم ... » (١٩) .

---

DR . SATISH CHANDRA PARTES AND POLITICS IN THE MUCHAL (١٥)  
OURT , 1707 - 40 ALIGARH 1959 , P - 40 .

(١٦) « تاريخ هندوستان » للمولوى ذكاء الله الدهلوى ، ج ٩ ، ص : ٣٣ .

(١٧) مدينة فى الجنوب ، كانت فى إمارة حيدر آباد سابقاً وتقع الآن فى مهاراشتر وتبعد من دهلى ميلاً ، وقد أقام فيها أورنك زيب ( سنة ) للقضاء على الإمارات النابتة ( وأكثرها شيعية ) التى انفصلت عن المركز فى فترات مختلفة .

(١٨) « تاريخ هندوستان » ، ص : ٣٨ .

(١٩) أيضاً .

ويقول : « أن الأمر الثالث الذي أقدم عليه مخالفاً لدستوره وقانونه ، أنه عاتب العلماء وغضب عليهم ، وأودعهم في السجون ، ثم غلب عليه الخفقان حتى ودع هذه الدنيا الراحلة في عاصمته لاهور في ١٩ / محرم عام ١١٢٤ هـ » (٢٠) .

ويشير الطبائبي أيضاً إلى ما حصل له في آخر عمره من اختلاط سفه ، وإصدار أمر بقتل الكلاب ، وأنه كان يظن به السحر » (٢١) .

وهكذا تضععت الدولة المغولية العظيمة في عهد الخليفة الأول لعالمكير ، وفي مدة ست سنوات فحسب ، وزالت تلك المهابة والسطوة ، والعظمة التي كانت من عهد الملك بابر تخيف القوى المخالفة ، وترعب قلوب الغوغائيين وأصحاب الفتن والثورات ، وتسيطر على قلوب الخاصة والعامة .

## فرخ سير :

لقد استولى في عهد فرخ سير ( ١١٢٥ هـ - ١١٣١ هـ ) حسين علي خان وعبد الله خان ( اللذين كان يلقب الأول منهما : بأمير الأمراء والثاني بقطب الملك ) علي الملك ، وعلي المملكة كلها ، فكان فرخ سير ألعوبة في أيديهما ، وقد حبسناه أخيراً ثم أطلقناه من قيد الحياة ، يقول مؤلف « تاريخ الهند » :

« لقد كان فرخ سير طيب الأخلاق ، رحب الصدر ، يقدر الناس ، وكان يحاول يقابل خدمة كل أحد ، واهتمامه به أن يوليه منصباً لائقاً وخدمات جيدة ، ويبرزه في الأقران ، ولكنه لم يكن يملك من السلطة شيئاً ، ولم يكن محنكاً ، فقد نشأ وتربى في ولاية بنغاله بعيداً عن آبائه وأجداده وفي غفلة عن أمور المملكة وشئون الدولة ، وكان يفقد الثبات والاستقامة والرأي السديد ، ويقتدى بآراء غيره ، قد أتاه الجذ والحظ بالعرش والتاج ، وقد كانت الأسرة التيمورية تمتاز بالبطولة والشجاعة ، أما هو فكان خلوا من ذلك جباناً ضعيفاً ، ولم يكن يسبر غور الكلام ، ولا يتوصل إلى فهم غرض المغرض ، فأصبح بنفسه من بداية حكمه معول هدم لدولته » (٢٢) .

وكان راجه رتن سنكه ( ديوان السيد عبد الله خان ) يتدخل في أمور جميع الولاة

(٢٠) أيضاً .

(٢١) « سير المتأخرين » ص : ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص : ١٠٩ .

والأمراء ، فلم يكن عنده لأى واحد من الناس تقدير ولا اعتبار ، ولا سيما فى الشؤون المالية ، وقد ازداد ترف الملك وخلوته وسفهه وكانت ضرورات الناس معطلة (٢٣) .

وأخيراً سمل الإخوان ( قطب الملك وأمير الأمراء ) عينى الملك فرخ سير وحبسائه فى السجن داخل القلعة التى كانت كحفرة القبر ، ومات الملك بعد أن حكم ست سنوات وأربعة أشهر ، وقد قضت هذه الوقائع والأحداث على ما كان لخلفاء العرش المغولى من تقدير واحترام وما كان للولة المغولية من قوة واعتبار .

محمد شاه بادشاه ( م ١١٦١ هـ ) :

حكم محمد شاه تسعاً وعشرين سنة وستة أشهر ، وعهده مليئاً بالحوادث والوقائع الهائلة ، وفى عهده كانت حملة نادر شاه التاريخية على دلهى ، ولكن هذين الأخوين من الشيعة الأشراف المعروفين بـ « سادات بارهه » قطب الملك عبد الله خان وأمير الأمراء حسين على خان ، كانا مُسيطرين على الدولة - كُلياً - وكان أهل البلاط يرون أن الملك لم يبق له - لأجل سيطرة هذين الأخوين - شئ من الحكم وإصدار الأوامر إلا صلاة الجمعة . . . وكان هذين الأخوين قد شمرا عن ساق الجد على أن يلحقا العار بالأسرة التركية والمغولية ، ولا نجاة فى الخلوة والعزلة عن المناصب ، وقلوب الوارثين للعرش والتاج وأبنائهم وأحفادهم وحشمهم وخدمهم البعيدين والقريبين الذين يقدونهم بالأرواح فى حزن عميق وأسى بالغ إذ يرون وارث العرش والتاج لا سلطة له ولا اختيار ولا قدرة على إجراء أحكام الشرع ولا صلاة الجمعة ، والهنادك من قرب مدينة أكره إلى ساحل البحر بينون المعابد ، ويمنعون من ذبح البقر (٢٤) .

وكان الناس كلهم صغيرهم وكبيرهم يحنقون على رتن جند سلطته وتدخله فى الأمور الدولية والشؤون المالية الذى لم يكن يراعى إلا أشراف « بارهه » وقبيلة البقالين ، وكانت البيوتات الكريمة فى كل مكان تعيش بالذل والمهانة « (٢٥) .

ويقول الطباطبائى مؤلف « سير المتأخرين » :

« لِمَا أن الملك كان شاباً فاقداً العزيمة ، قليل الجراءة ، ينهمك فى اللذات وحياة الترف

(٢٣) أيضاً ، ص : ١٣٠ .

(٢٤) « تاريخ هندوستان » ، ج : ٩ ، ص : ١٦٦ .

(٢٥) أيضاً ، ص : ١٨٢ ، ج : ٩ .



والبدخ ، ولا يلتفت إلى شئ من أمور الحكم إلا إذا كان أمراً ضرورياً جداً ، وهكذا زال الخوف والمهابة - تدريجياً - من قلوب الأمراء والأعيان والوجهاء ، بل من قلوب عامة الناس ، فكان كل أحد منهم يفكر في محله أن يعلن حريته واستقلاله ، وينفض يده من الطاعة والانقياد (٢٦) .

ولم يكن حينذاك في البلاط وأركان الدولة إلا شخصية نظام الملك آصف جاه الذي كان مع مضاء عزمته وعلو همته وفيماً لصاحب العرش والتاج مخلصاً ناصحاً ، ولكن الأشراف والعناصر الإيرانية كانت تتغلب عليه ولا تدع له أى مجال ولا تسمع له كلمة ، ولذلك لما رأى آصف جاه أنه لا يقدر وفاءه وإخلاصه وأن إقامته هنا إضاعة للوقت ، وتعرض النفس للخطر فى كل حين اتجه إلى دكن ( الجنوب ) وخرلا الجو فى دلهى للمغرضين وأصحاب المطامع .

ثم غلب على محمد شاه ترف بالغ حتى خلف وراءه المترفين السابقين وأنسى الناس قصصهم ورواياتهم ، وضرب رقماً قياسياً فى البدخ والعيشة الرغيدة الناعمة ، يقول مؤرخو الهند :

« إن محمد شاه لم يغير ديانتة ، ولكنه غير مذهبه ، فأصبح السحاب الداكن من محبوبه ، وصدر الأمر العام بأنه إذا هاجت السحب من سفوح جبال هماليا ، ورعدت وبرقت فلتنصب له الخيام فى الصحراء ، ثم لا يسمع إلا صوت الملك الهائم السكران :

الصبح الصبوح يا أصحاب المدام المدام يا أحباب

وانتهت - أخيراً سلطة أمير الأمراء السيد حسين خان وقطب الملك النواب عبد الله خان ( حسن على خان ) من أشراف « بارهة » ، وطفحت كأس حياتهما ولكن الدولة المغولية - رغم ذلك - لم تتغير ، لأن الملك كان يفقد كل صلاحية للحكم ، وأدنى بصيرة وتغرس للأخطار المحدقة .

يقول السيد هاشمى الفريد آبادى فى تاريخه للهند :

« لقد احتفل فى البلاد كلها بمناسبة انتهاء الأشراف « صانعى الملوك » وعودة القوة والسلطة إلى محمد شاه ، واستقبل الناس ذلك - بصفة عامة - بفرح وسرور ، ولكن هذ السرور إن لم يكن نتيجة عاطفة الحُبّ للسلطين والملوك ، بل كان مؤسساً على أمانى

(٢٦) « سير المتأخرين » ، ج : ٢ ، ص : ٤٥٨ .

الإصلاح في المستقبل للإدارة والنظام وتحقيق مصالح البلاد ورفاهية الناس فلم يكن عاقبتها إلا الحزن والبأس والآس ، لأن هذا الخليفة الجديد للملك أكبر والسلطان زيب كان عرياً عن صفات آباءه الغر الملوكية أنه لم يكن له في حياته المترفة والباذخة والاشتغال بالمتع والملاهي فرصة للنظر في شئون البلاد ، أنه كان أكثر غفلة وجهلاً بأحوال الدولة وأقل تفكيراً في فساد الدولة وخرابها من نساء القصر الملكي ، حتى أننا نقرأ كثيراً عن جدته (مهربرور زوجة شاه عالم بهادر شاه) أنها كانت تنبه حفيدها الغافل النائم من سباته العميق وكانت النتيجة الواضحة لكل ذلك الانحطاط والسقوط « (٢٧) .

وينبغي في هذا الموضوع ألا نغفل رأى جادوناته سركار ، الذي أبداه وهو يعلق على مواضع الضعف في محمد شاه ، يقول :

« لئن كان محمد شاه لا يستحق التقدير الاحترام فإنه يستحق الرحمة والعطف لقد كانت الظروف والأوضاع أدت به إلى موقف كان في حاجة إلى شخصية عبقرية (GENIUS) ولكنه كان إنساناً عادياً ، وأن المؤرخين يعيرونه على أنه قضى عمره في البذخ والترف ، بدلاً من أن يهتم بأمور الدولة ، ولكن المأساة هي أن مثله لو صرف همهته إلى شئون الحكم والإدارة ، ما كان بوسعها أن يغير تيار الأوضاع لقد كان أمثال « رفيع الدرجات » و « رفيع الدولة » العوبة في أيدي غيرهم ، ولم يكن لديهم شعور بذلهم ومهانتهم ، أما محمد شاه فكان يشعر بفداحة الخطب وسوء الأوضاع ، وضعفه وعجزه عن الإصلاح « (٢٨) .

وبالجمله فإن الملكة العظيمة التي قامت بعزيمة بابر وبطولته النادرة ، وجدده وجهاده وقوته وثباته ، والتي حفظها وأبقى عليها أخلافه إلى السلطان أورنگ زيب بشجاعتهم وقوة شكيبتهم وغيرتهم التيمورية ، بلغت إلى غاية من الترف واللهو والغفلة والإهمال الذي أصبح حظ الحكومات الوراثية الجائرة الجائرة ، وما أصح ما قال الدكتور إقبال :

« أنا نبئك أيها الإنسان بحظوظ الشعوب وجدودهم ، إن بدايتها بالسيوف والرماح ، ونهايتها بالطواويس والطبول » .

وكانت النتيجة - أخيراً - هي تلك التي عبر عنها محمد شاه نفسه في شطر من شعره ،

ومعناه :

« إن شئوم أعمالنا ظهر في صورة نادر » .

(٢٧) تاريخ الهند للفريد آبادي ، ج: ٣ ، ص : ٢٦١ .

(٢٨) .. FALL OF MUGHAL EMPIRE , P > 373 - 74 (٢٨)

توجه نادر شاه إلى دلهي عام ١١٥١ هـ ، وكان قد كتب - قبل ذلك - عدة رسائل إلى محمد شاه ، ولكن حسب تصريح المؤرخ :

« كانت هنا - إذ ذاك - أيام الأفراح والليالي الملاح ، وكان محمد شاه بهادر صاحب العرش والتاج ، ولم يكن له من العمل ، إلا الراحة واللذة ، فلا تفارق الكأس يديه ، ولا تفارق الغادة ذراعيه ، فمن يكون له التفكير في الرد على الرسائل والاهتمام بالبريد؟<sup>(٢٩)</sup> .

وينبغي أن تقرأ تفاصيل حملة نادر شاه في كتب تاريخ الهند ، وما وصلت إليه حال دلهي بعد حملته ( ولا يغبين عن البال أن الإمام الدهلوي كان حينذاك ابن ٣٧ سنة ، وكان قد رجع من زيارة الحرمين الشريفين ) ، نستمع لوصفه إلى مؤلف « تاريخ الهند » .

« لقد كانت المدينة ( دلهي ) بعد رجوع نادر شاه مليئة بالجثث والأشلاء فارغة من الأحياء ، وكانت البيوت خراباً مهدمة يخيم عليها السكوت المهيب ، وكانت الأحياء والحارات بأسرها محرقة تحولت إلى رماد ، وكانت العفونة الصاعدة من الجثث والرياح الكريهة المتتة تكاد تشق الدماغ وتفطره ، ولم يكن هناك من يكفن أحداً ، أو يدفن في القبر أحداً ، وقد اختلطت جثث المسلمين والهندوس ، واحترقت في ركام إلى رماد ، هذا حال المدينة ، أما حال البلاد ، فكان يغط في النوم أياماً فلما هب من نومه ، كانت القذارة تغطي عينيه حتى يتقزز من النظر إليه ، ولم يكن في الخزانة فلس واحد ، ولا يعرف أين الخراج والمحاصيل ، وكان الجيش محطماً منهوكاً هالكاً ، وعلاوة على كل ذلك كان الخوف من المرهته لا يزال مسيطراً ، وقد خربت تلك الولايات التي كانوا استولوا عليها ، ورغم كل هذه المصائب والمحن كان النزاع قائماً بين أهل البلاط والحاشية ، فكان فريق من الأمراء التورانيين الذين كان على رأسهم آصف جاه وقمر الدين خان الوزير ، وفريق آخر للأمراء الآخرين الذين كانوا يحاولون عزلهم وإبعادهم عن البلاط ، وكان الملك أيضاً يعد منهم ، ولو لم تقع قضية المرهته ولم تواجههم مشكلتهم لكان هؤلاء الأمراء قد توزعوا المملكة كلها فيما بينهم من زمان ، وتركوا الأسرة التيمورية اسماً بلا رسم »<sup>(٣٠)</sup> .

ولما رجع نادر شاه من الهند كان من أولى نتائج رجوعه أن انفصلت ثلاث ولايات مخصصة ، بنغاله ، بهار ، واريسه ، من حكومة دلهي ، وقامت فيها حكومة مستقلة لعلي

(٢٩) « تاريخ هندوستان » ، ج : ٩ ، ص : ٢٥١ .

(٣٠) المصدر السابق ، ج : ٩ ، ص : ٢٧٢ .

وردي خان (٣١) .

وأصيب محمد شاه أخيراً بمرض الإسهال ومات في هذا المرض في ٢٦ / يبع الآخر عام ١١٦١ هـ الموافق أبريل عام ١٧٤٨ م ، وحسب ما يقول مؤلف « تاريخ الهند » أنه حكم ثلاثين سنة ، وقد أدى فيها بالأسرة التيمورية إلى شفا الهلاك والدمار (٣٢) .

### شاه عالم الثاني :

لئن كانت الدولة المغولية منيت في عهد محمد شاه بالانحطاط الخلقى والإدارى ، ومال المجتمع الهندى ، وطبقة الأمراء والأغنياء - بصفة خاصة - لقانون « الناس على دين ملوكهم » إلى حياة المتع واللذائذ والترف والبذخ ، والدعة والراحة ، فإنها أصيبت في عهد شاه عالم الثانى الذى تولى زمام الحكم عام ١١٧٣ هـ الموافق عام ١٧٥٩ م بالانحطاط السياسى الشين الذى بلغ الغاية ، أنه لم يزل في عهد حكومته الممتد على ٤٧ عاماً ألعوبة فى يد غيره ، وقد خضع للإنكليز وقبل طاعتهم عام ١٧٦٤ م بعد أن لقي أمير أوده وزير شجاع الدولة ومير قاسم هزيمة على أيدى الإنكليز فى معركة « بكسر » ووقع الوزير شجاع الدولة على معاهدة ظل بسببها موظفاً يتقاضى راتبه من الإنكليز ، ثم كانت له اتفاقية أخرى مع الإنكليز عام ١٧٦٥ م أدت إلى تولى الشركة الشرقية الهندية جباية المحاصيل والسلطة على المحاكم فى ولايات بنغاله وبهار واريسه ، ودخل شاه عالم نفسه فى جوار المرهته ، ووهبهم مديريات إله آباد وكَرَه .

لقد كانت البلاد كلها قبل عهد الشاه عالم الثانى بزمن ، تحت رحمة السيخ والمرهته ، وكانت مناطق دلهى وأكره وراجبوتانه تحت رحمة الزط ، الذين كانوا يعيشون فيها فساداً ، ويخرجون كالطوفان ويهلكون الحرث والنسل ، ولم تكن فى البلاد قوة تملك أن تبسط الأمن وتفرض القانون (٣٣) ، وقد حفظ أحمد شاه الأبدالى هذه البلاد من خطر المرهته بعد أن هزمهم فى ساحة بانى بت بـ ١٤ / يناير عام ١٧٦١ م هزيمة ساحقة نكراء ، وقد حاول جهده فى طلبه شاه عالم إلى دلهى ، وأرسل إليه سفيره لذلك ، حتى اضطر إلى أن استكتب والدته النواب زينت محل رسالة إليه ، ولو كان فى الدولة المغولية أى رمق من الحياة ، وفى شاه عالم أى كفاءة وصلاحيه للحكم ، لكان قد استفاد من نتائج حرب « بانى بت » واستعاد قوته وسلطته ، ولكن الدولة كانت جسداً بلا روح وكان الملك فاقداً الهمة

(٣١) المصدر السابق ، ص : ٢٦٢ .

(٣٢) أيضاً ، ص : ٢٨٤ .

(٣٣) انظر التفصيل فى الباب التاسع من هذا الكتاب .

والهزيمة خالياً من الغيرة والحمية ، وكما يقول محمد إقبال :

« إن ما يقال لها الحمية ذهبت من أسرة تيمور وولت من غير رجعة » .

وعاد الملك من إله آباد إلى دلهي عام ١٧٧١ م بعد عشر سنوات كاملة وقد فات الأوان ، فلم يقدر له أن يستفيد من الفتح العظيم في ساحة « بانى بت » والهزيمة الساحقة التي لحقت بالمرهتة ، بل واجه هنا فتناً جديدة ، صراعاً بين الأمراء وتحاييلهم وتنازعهم ، وقوة « روهيله » الجديدة ، وحمولات السيخ ، وأخيراً استولى غلام قادر روهيله حفيد نجيب الدولة على دلهي عام ١٧٨٨ م ونهب القصر الملكي وأمر بضرب الأميرات بالسياط ، وأخرج عيني الملك المغولي ووارث العرش التيمورى بظبة الخنجر ، ولم يكن قد سبق أن عومل وارث العرش المغولي بهذه المهانة والفضيحة والعار .

وقتل سندهيه غلام قادر عام ١٧٨٩ م بقسوة فظيعة ، وأجلس شاه عالم على العرش مرة ثانية ، وعين تسعمائة ألف روبية سنوياً لمصروفاته ، ودخل عام ١٨٠٣ م اللورد ليك بجيشه الإنكليزي في دلهي بعد حروب عديدة ، وأجلى المرهتة ، وقرر للملك المتقاعد راتب مائة ألف روبية سنوياً<sup>(٣٤)</sup> .

ولقى شاه عالم أجله عام ١٨٠٦ م ، بعد أن حكم ٤٥ عاماً ، وقضى ١٨ عاماً في العمى مخلوعاً مهاناً .

### الوضع العلمى والروحى :

لقد كان هذا العهد رغم الاضطراب السياسى ، والفوضى الاجتماعية ، والانحطاط العام ، عهد النبوغ العلمى ، والاشتغال بالتدريس والتأليف ، والعزلة الروحية ، والرقى الباطنى وتركية النفوس وإصلاح القلوب ، من الناحية الفردية ، وقد ظهر فيه عدد من النوابع وأصحاب الفضل والكمال ، ومن لا يمتّون إلى هذا العهد من الانحطاط والفوضى بصلة ، ولا يوجد عليهم أى تأثير لليأس من الأوضاع والخوف منها ، يقول بعض المطلعين أن كثيراً من المآثر والروائع العلمية والأدبية تدين لجهود أولئك الأفراد الأفاضل الذين كانوا يعانون من الأمراض المزمنة أو شيئاً من العلل ، والصدمات الداخلية ، ويعلل ذلك علماء النفس بأن قوة الدافع والمقاومة تندفع فى مثل هذه الحالة وتقوى الشعور بتدارك ما لحق بذلك المرض ، ويدفع ذلك الشخص إلى إنجاز ما لا يقدر على إنجازه لو كان فى الأحوال

---

(٣٤) انظر « تاريخ هندوستان » ، ج : ٩ ، ص : ٣٤٣ ، وقد جاء فى بعض كتب التاريخ الإنكليزية أنه قرر تسعين ألف روبية .

العادية ، أن هذه الناحية العلمية والروحية في الهند ، وظهور هؤلاء الأفاضل النوابغ في عهد الانحطاط إثباتاً لقوة المقاومة الداخلية في مجتمع مريض منحط مشرف على السقوط ، ودليل على أن خلية الإسلام لم تزل تعسل ، وإنه لم يزل يصنع الرجال وينتج العبقريات .

فإننا نجد في هذا العهد في سعة العلم والذكاء الباهر ، وقوة التدريس وحسن التأليف والتصنيف أمثال الشيخ أحمد بن أبي سعيد الأميتهوى ( ١٠٤٧ - ١١٣٠ هـ ) صاحب « نور الأنوار » و « التفسيرات الأحمدية » ، والشيخ حمد الله السنديلوى ( م ١١٦٠ هـ ) صاحب « شرح سلم العلوم » المعروف بـ « حمد الله » ، والشيخ محمد حسن المعروف بملا حسن الفرنكى محلى صاحب « شرح السلم » ، المعروف بـ « ملاحسن » ( م ١١٩٩ هـ ) ، والشيخ رستم على القنوجى ( م ١١٧٨ هـ ) والشيخ صفة الله الخير آبادى ( م ١١٥٧ هـ ) والشيخ على أصغر القنوجى ( م ١١٤٠ هـ ) والشيخ غلام على آزاد البلكرامى ( ١١١٠ هـ - ١٢٢٠ هـ ) والشيخ غلام نقشبند اللكنوى ( م ١١٢٦ هـ ) والقاضى محب الله البهارى ( م ١١١٩ هـ ) مؤلف « سلم العلوم » و « مسلم الثبوت » (الذى شغل علماء الهند ومدرسيها فى شرح هذين الكتابين وتحشيتهما قرابة قرن من الزمان، وكانت كتبه مرجع العلماء الكبار ، وأساتذة الأزهر فى مصر ) والقاضى مبارك الكوبا موى ( م ١١٦٢ هـ ) مؤلف « شرح السلم » المعروف بـ « قاضى » ، والشيخ محمد أعلى التهانوى مؤلف « كشاف اصطلاحات الفنون » ( وهو كتاب فريد فى بابهِ ) وملا نظام الدين اللكنوى ( م ١١٦١ هـ ) الذى كان يسيطر منهجه الدراسى المعروف بالمنهج النظامى على الأوساط العلمية من الهند إلى بخارى وسمرقند ، والذى وصفه مؤلف « نزهة الخواطر » بـ « غيث الإفادة الهتون ، العالم بالربع المسكون ، أستاذ الأساتذة وإمام الجهابذة » ، وأمثال هؤلاء من العلماء النابغين والمدرسين والمؤلفين والمؤسسين للحركات العلمية ومناهج التعليم والتربية ، الذين يتجمل بهم التاريخ وتعتز بهم البلاد والأمصار ، لقد كان هؤلاء من رجال هذا القرن وأعيانه (٣٥) .

وإذا نظرنا إلى الطريقة والسلوك ، فقد كان فى هذا القرن الشيخ الربانى مرزاً مظهر جان جانان ( ١١١١ - ١١٩٥ هـ ) من كبار أصحاب التربية والتزكية فى السلسلة النقشبندية المجددية ، الذى قال فيه الإمام ولى الله الدهلوى نفسه : « أن أمثال هؤلاء المشايخ لا يوجدون فى عدد كبير فى كل عصر ، فكيف فى هذا العصر المليئ بالفتن والفساد (٣٦) .

(٣٥) مقتبس من « نزهة الخواطر » ، ج : ٩ .

(٣٦) انظر « كلمات طيبات » ، ص : ٦٥ .

ونجد في هذا العهد شيخ السلسلة القادرية المعروف ، والمرشد الروحي للعلامة نظام الدين اللكنوي مؤسس المنهج النظامي ، السيد عبد الرزاق البانسوي ( م ١١٣٦ هـ ) ، ومجدد السلسلة الجشتية النظامية الشيخ كلیم الله الجهان آبادي ( م ١١٤٠ هـ ) وإمام هذه السلسلة وناشرها فخر الدين الدهلوي ( م ١١٩٩ هـ ) وشيخ السلسلة المعروف الشيخ محمد غوث القادري اللاهوري ( ١١٥٤ هـ ) وشيوخ السلسلة النقشبندية الربانيين الكاملين كالشيخ محمد عابد السنّامي ( م ١١٦٠ هـ ) والشيخ محمد ناصر عندليب ( والد الشاعر العارف الكبير خواجه ميردرد الدهلوي ) ( م ١١٧٢ هـ ) ، والشيخ منيب الله البالا بوري ، والشيخ نور محمد البدايوني ( م ١١٣٥ هـ )<sup>(٣٧)</sup> ، يزينون مجالس الطريقة والسلوك ، ويرشدون إلى طرائق الحق ويصلحون القلوب .

وبالجمله فقد كان هذا العهد عهد انتشار هذه الطرق الثلاثة : القادرية والجشتية والنقشبندية ، وقبولها ، وشيوعها ، وكان شيوخ هذه الطرق الثلاثة الكبار بقيد الحياة وعلى نشاط ، قال الشيخ عبد العزيز الدهلوي :

« كان في عهد محمد شاه اثنان وعشرون من المشايخ الربانيين المرشدين المتمين إلى مختلف الطرق بدلهي ، ولا يتفق وجود مثل هذا إلا قليلاً »<sup>(٣٨)</sup> .

### الانحطاط الخلقى والاجتماعي :

ولكن من الواقع - رغم وجود هؤلاء النوابغ وأصحاب الفضل المعروفين والشيوخ الكاملين والمرشدين الربانيين - أن المجتمع المسلم في الهند - ولا سيما طبقة الأمراء - قد وصل ذروة التردى الخلقى والإسفاف الاجتماعي بتأثير الولة والانحطاط السياسي ، وتدفق الأموال والثروات الطائلة وبتأثير الحضارة الإيرانية ، ولأجل ذلك كانت هذه الطبقة عاجزة - تماماً - عن أداء الدور الذي لعبته هذه الطبقة في كل عصر عند انقلاب الدول وتحول الحكومات ، فقد برز من هذه الطبقة ( التي كانت خطاً ثانياً ( SECONDLINE ) في مختلف العصور أولئك الأفراد الذين ملئوا الفراغ الحادث في المجال السياسي والإداري ، ولقد أصاب المؤرخ الفاضل السيد هاشمي الفريد آبادي إذ قال :

« إن ثروات الهند وأموالها الطائلة كانت قد مالت بهذه الطبقة للأمراء إلى الترف والبذخ

---

(٣٧) استفدنا هذه الأسماء ووفياتهم وخصائصهم المميزة من « نزهة الخواطر » ج : ٦ للعلامة السيد عبد الحى الحسنی رحمه الله تعالى .

(٣٨) انظر « ملفوظات عزيزية » ، ص : ١٠٦ .

والدعة والاسترخاء . . . فإننا نرى أن جهود هؤلاء الأمراء وكفاءاتهم كلها تبذل في الاحتيايل والمؤمرات للأغراض الخسيسة التافهة ، فلم يكن أحد من هؤلاء الأمراء يجسر على إعلان استقلاله في محله ، دع عنك قلبهم للنظام والاستيلاء على الملك والسلطان ، فإذا كان الفساد الداخلى فى الإدارة والنظام يسود فى جانب فى هذه الفترة ، ففى جانب آخر كانت تفقد - تدريجياً - من أفراد الطبقة الحاكمة أى صلاحية لإدارة الحكومة ، والإيهام فى العمل والمسئولية « (٣٩) .

يقول الشيخ عبد العزيز الدهلوى :

« كانت النساء فى بيت النواب قمر الدين ، يغتسلن الغسل الأخير بماء الورد وكان يصرف فى بيوت النوابين (الأمراء) الآخرين ثلثمائة روبية على ورقة التنبول والورود» (٤٠) .

ويقول الشيخ غلام على آزاد البلكرامى فى « مآثر الكرام » :

« يقول سكان أورنك آباد بإجماع منهم أن معظم الناس لم يكونوا يطبخون الطعام فى بيوتهم فى عهد أمير الأمراء حسين على خان ، فكان طباخ قصر أمير الأمراء يبيع حصته من الطعام ، وكان الناس يشترون طبق « بلاؤ » الممتاز ( وهو كالكبسة الممتازة عند السعوديين ) بفلوس معدودة (٤١) .

### فساد العقيدة واستيلاء الإِشراك والبدع :

وأفزع من هذا الانحطاط الخلقى والإِسفاف الاجتماعى ، وأدعى للحرمان من نصر الله - تعالى - وتأيبده ، والتجريد من القوة الحقيقية ، هو الفساد العقيدى فقد كانت البدع والمحدثات ، وكثير من تقاليد الهنادك والشيعة وعاداتهم تسيطر على المجتمع المسلم وقد تسربت فى حياة العامة من الناس وتغلغلت فى أحشائها مخالفة للإعلان القرآنى الصريح ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ (٤٢) وكانت توجد للشرك الجلى فى كثير من المواضع والأوساط صور وأشكال ، لا يمكن أن تعلق تعليلاً علمياً ، فمن عبادة القبور ، وسجدة التحية

---

(٣٩) تاريخ الهند ، ج : ٣ ، للسيد هاشمى الفريد آبادى ، ص : ٢٦٢ - ٢٦٣ ، طبع حيدر آباد ، ١٩٢١ م .

(٤٠) انظر « ملفوظات عزيزية » .

(٤١) « مآثر الكرام » ج : ١ ، ص : ١٧٠ .

(٤٢) سورة الزمر الآية : ٣ .



للمشائخ ، وتقديس الأماكن الخاصة للزيارة كتقديس الحرم ، ووضع الكسوة على القبور والندور والقرايين ، والذبح بأسماء الأولياء والمشائخ ، والطواف بالقبور والأماكن المقدسة المزورة ، والاحتفال وإقامة الأعياد بها ، والأغاني والمزامير ، وإشعال الشموع وباختصار اعتقاد هذه الأماكن هي المرجع والمصير ، والملجأ والمجير ، وأمثال هذه من الأحوال والمشاهد التي لا تحتاج لزيارتها أن تتجشم السفر البعيد والانتظار الطويل ، بل كانت منتشرة في كل مكان ، كذلك الكباش المنذور للشيخ سدو ، وبقرة السيد أحمد الكبير ، وأعلام غازى ميان ، وتعزية محرم ( وهي القباب والمقابر المصنوعة من القرطاس يحملها الشيعة أيام المحرم ) والاحتفال الرائع بالأعياد غير الإسلامية ، والإلتجاء إلى الأرواح الخبيثة في رفع الأمراض ، واسترضاء الألهة والإلهات والخوف منهم ، وتقديس « سيتلا » (٤٣) لدفع مرض الجدري ، والندر والذبح للأولياء الصالحين ، والصوم باسم الأولياء والصالحات ، وتعليق الحاجات بهم ، والسؤال منهم ، وتعيين الأطعمة الخاصة في الأيام الخاصة ، والإلتزام فيها بأداب خاصة ، هذه وغيرها من العناوين الكبيرة التي تضم تحتها سلسلة طويلة من الأوهام والخرافات والعقائد الفاسدة المنحرفة ، وتقاليد الجاهلية ، وعاداتها والتزاماتها وقيودها ، كما أنه كانت الأسماء مثل على بخش ( أى عطاء على ) حسين بخش ، بير بخش ( أى عطاء الشيخ ) مدار بخش وسالار بخش ، عامة شائعة .

وكانت عقيدة التوحيد في دائرة كبيرة قد انحصرت في هذا المفهوم وهو أن الله - تعالى - هو الخالق الحقيقي للأرض والسموات والصانع للكون ، وهو المعبود حقيقة ، وهو الذى يدبر الأمور العظام ، ولكنه كسلطين الدنيا قد ولى كثيراً من مصالح مملكته وشعبها عباده المقبولين المقربين ، الذين قد ملكوها وخيروا في التصرف فيها ، فهم يتصرفون حسب ما يشاءون ، فلا يمكن الآن إحراز أى نجاح أو قضاء أى حاجة إلا باسترضائهم وإقامة الصلة القوية بهم ، وأن الشرك ليس إلا أن يعتقد لهذا العالم صانع وخالق غير الله ، ويظن أنه يستحق العبودية والسجود مباشرة ، من دون اعتقاد بالوسيلة والشفاعة (٤٤) .

وبالجملة فإن الهند في القرن الثانى عشر الهجرى كانت قد تردت من الناحية السياسية والإدارية ، والخلقية والاجتماعية ، والإعتقادية إلى حد كبير فى الحضيض ، ووصلت إلى

(٤٣) إلهة من الإلهات الهندوس يعتقدون أن مرض الجدري من تأثيرها .

(٤٤) سيأتى تفصيل هذا التصور للتوحيد فى باب « إصلاح الإمام الدهلوى وتجديده للعقائد » فليُنظر هناك .

آخر نقطة من الانحطاط والانهييار ، وهى التى تكون مرحلة خطيرة مؤسفة لسقوط البلدان الإسلامية وانحطاط المجتمع المسلم وقد صور العلامة السيد سليمان الندوى هذه الأوضاع بمجموعها فى إحدى مقالاته تصويراً بليغاً موجزاً ، يقول :

« لقد كانت شمس الدولة المغولية فى أفول ، وكان للعادات والتقاليد الجاهلية فى المسلمين صولة وجولة ، فكان الدراويش والمشايخ الكاذبون المتصنعون متربعين على دست مشائخهم فى رباطهم ، جالسين يوقدون الشموع على مقابرهم وكانت جنبات المدارس ترتج بأصداء الفلسفة والمنطق وكان التقيدُ بالنصوص الفقهية والالتزام الحرفى فى الفقه والفتاوى شعار كل مفت وفقهه ، وكان التحقيق والبحث فى المسائل الفقهية جريمة كبرى فى جانب الدين ، وكانت الخاصة فضلاً عن العامة جاهلة بمعانى القرآن الحكيم ومطالبه ، وأحكام الأحاديث النبوية وإرشاداتها وأسرار الفقه ومصالحه<sup>(٤٥)</sup> .

\* \* \*

---

(٤٥) « مقالات سليمانى » ، ص : ٤٤ .

## الباب الثالث

### أجداد الإمام الدهلوى ووالده

#### أجداد الإمام الدهلوى :

إن عهد الأجداد الأولين للإمام الدهلوى ( الذين استوطنوا مدينة « رهتك » من عهد الشيخ شمس الدين المفتى ) هو ذلك العهد للتاريخ العلمى والتأليف فى الهند الذى لم يبدأ فيه تأليف كتب التراجم بصفة عامة ، وأكثر ما يوجد من كتب التراجم فهى تراجم فردية لبعض مشائخ الطرق المعروفين ، ويحتل فيها ما كتب فى حياة العارف الكبير الشيخ نظام الدين الدهلوى باسم « سير الأولياء » الذى ألفه أمير خورد ، مكانة ممتازة ، أو كانت هناك كتب تشتمل على تراجم عدة من المشائخ والصالحين ، ويجدر منها كتابان بالذكر ، أولهما «كلزار أبرار» للشيخ محمد بن حسن الغوشى المندوى ( الذى يحتوى معظمه على تراجم مشائخ ماندوومالوه ) والثانى « أخبار الأخيار » للشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى ، وكانت الكتب المؤلفة فى تراجم أصحاب الفضل والنبوغ والشخصيات العلمية المعروفة ، التى تشتمل على تراجم رجال مختلف الطرق الصالحين ، أو على تراجم الشخصيات البارزة فى مختلف المناطق والأصقاع ( التى لم تكن مؤسسة لإحدى السلاسل والطرق ، أو حلقة مهمة من حلقاتها ) وعلى تفاصيل حياتهم : قليلة نادرة ، وإن كانت فهى تلك التى تدور حول شخصيات العاصمة المركزية أو عاصمة الولايات وأعمالها ونواحيها أو رجال المدن المركزية ذات الشهرة التاريخية ، الذين كان يتيسر للمؤلف التوصل إلى وسائل الاطلاع على أحوالهم وفضلهم وأعمالهم .

وقد كانت أسرة الإمام الدهلوى نازلة فى « رهتك » من عهد الشيخ شمس الدين المفتى إلى عهد جده الشيخ وجيه الدين ، ولم تكن هذه المدينة تحمل تلك الأهمية والمكانة الكبيرة، ولذلك فإننا لا نعثر فى عامة كتب التراجم على أحوالهم ووقائعهم .

وكان يخشى أن تبقى أخبار هذه الأسرة الكريمة مغمورة مغمورة ، ويواجه المؤلف لترجمة حياة الإمام الدهلوى أو لتاريخ أسرته صعوبة شديدة ، لو لم يكن الإمام الدهلوى نفسه ألف رسالة باسم « الإمداد فى مآثر الأجداد »<sup>(١)</sup> فى تراجم أجداده وأحوالهم ، وهذه

(١) هذه الرسالة تشتمل على ١٠ صفحات بالقطع المتوسط ، وقد نشر فى مجموعة رسائله = =

الرسالة نفسها تشتمل على تراجم مختصرة مجملة لأجداده الأولين ، وترجمة مفصلة - إلى حد ما - لجدّه الشيخ وجيه الدين لقرب العصر ، وقلة الوسائط ، ولذلك فإننا نعتمد على « مآثر الأجداد » ونكتفى به ، فإن صاحب البيت أدري بما فيه .

### سياق النسب :

لقد ذكر الإمام الدهلوى الذى يتسمى - نسباً - إلى سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - ساق نسبه فى بداية هذه الرسالة إلى سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - وقد كان فى أعقاب الشيخ سالار حسام الدين أحد أخوة الشيخ شمس الدين المفتى الذى كان أول من قدم إلى « رهتك » من هذه الأسرة ، وألقى بها عصا الترحال ، أحد المشائخ الصالحين الذى يدعى « شاه أرزانى البدايونى » وأن أنساب أسرته أيضاً تصدق هذه السلسلة من النسب ، وتؤكد صحتها ، وتصل هه السلسلة النسبية بثلاثين واسطة إلى سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - (٢) .

ويرد فى هذه السلسلة لقب « ملك » مع عدد من الأسماء ، يقول عنه الإمام الدهلوى ، أنه كان يستعمل للتبجيل والتعظيم كلقب « خان » فى عصرنا .

### دخول أسرة الإمام الدهلوى فى الهند :

إن أول من نزل مدينة رهتك من أسرة الإمام الدهلوى حسب تصريحه وروايته ، (ولعله هو أول من دخل الهند من أسرته أيضاً) هو الشيخ شمس الدين المفتى ، ويقدر من حساب عدد الوسائط والأعقاب ، وأعمارهم الطبيعية التقريبية أن الشيخ شمس الدين المفتى يكون قد قدم الهند فى أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجرى ، حين كانت حملات التتار تدمر العالم الإسلامى ، وتنتهك حرمة الأسر والبيوتات الإسلامية ، وتبذّر خزائنها العلمية ، وتحول المدن الشهيرة الراقية من إيران وتركستان إلى خراب يباب ، ويفيد « تاريخ فيروز شاهى » وكتب التاريخ الأخرى أن كثيراً من البيوتات الكريمة والأسر الشريفة ذات الفضل والنبوغ توجهت فى تلك الآونة إلى الهند التى كانت تحكمها الأسر المسلمة التركية الأصل التى ردت حملات التتار على أعقابها ، واضطرتها للانسحاب ، وبذلك فإنها

---

== الخمسة والرسالة الأولى منها ، بعنوان « إنسان العين فى مشائخ الحرمین » ، طبع مطبعة الأحمدى بدلهى ، وهى مضمومة مع الرسائل السبعة أيضاً التى نشرت مع « أنفاس العارفين » .

(٢) راجع « الإمداد فى مآثر الأجداد » فى مجموعة الرسائل الخمسة للإمام الدهلوى طبع - المطبعة الأحمدى - دلهى .

لم تحفظ هذه البلاد من غاراتهم الوحشية فحسب بل حولت هذه البلاد لرعايتها للدين ووجهاً للعلم والمعرفة دار علم وفضل ومدرسة واسعة تستقبل أصحاب الفضل والنبوغ وتوجد فيها في كل مكان حلقات للدروس ، ومراكز للذكر والعبادة وتزكية النفوس ومجامع لأصحاب الأقلام وأهل البحث والتحقيق ، حيث كانت الفرص مهيأة ومواتية لأن ينجز كل واحد منهم عمله في سكينة وطمأنينة وسلام<sup>(٣)</sup> .

### الإقامة بـ « رهتك » :

يخيل إلينا ، ويبدو من تصريح الإمام الدهلوي أيضاً ، أن مدينة « رهتك » كانت إذ ذاك مدينة ذات أهمية وخطورة للدولة الإسلامية الناشئة وكانت أول منزل وأهمه قبل دلهي للجيش الإسلامي والمجاهدين المسلمين ، ودعاة الإسلام والمبلغين والعلماء والمشائخ الربانيين الذين يتوجهون إلى دلهي من غرب الهند ، ويفيد الإمام الدهلوي أن أقدم المشائخ الصالحين من القرشيين الذي قدم هذه المدينة ، وظهرت بها بسببه شعائر الإسلام وانتكست أعلام الكفر والجاهلية وانظمت معالمها هو الشيخ شمس الدين المفتي ، وقد ذكر الإمام الدهلوي بعض كراماته ، التي لا تستغرب نظراً إلى صلاحه وتقواه وظروف ذلك العصر وتلك البيئة ، وكان يولى كل من ينزل بتلك المدينة من كبار العلماء والمشائخ منصب القضاء والحسبة ، ويولى أحياناً إدارة المدينة أيضاً ، ولكنه لم يكن يدعى في ذلك العصر بالقاضي أو المحتسب .

### من الشيخ شمس الدين المفتي إلى الشيخ وجيه الدين :

وقد تولى بعد وفاة الشيخ شمس الدين المفتي أكبر أبنائه منزلة الشيخ كمال الدين المفتي ، ثم ابنه الشيخ قطب الدين ، ثم ابنه الشيخ عبد الملك هذه المناصب ، وقاموا بهذه المسؤوليات ، ثم بدأ تعيين القضاة بعد هؤلاء المشائخ الكرام بصورة رسمية محددة ، وقد أبقى الشيخ قاضي بده ابن الشيخ عبد الملك على هذه التقاليد للأسرة ، وعلى الحياة والمكانة ، وقد استمر نسله من ابنه ، وحدثت مصاهرة بين هذه الأسرة وبين الصديقيين (المتمين نسباً إلى أبي بكر الصديق - رضى الله عنه) في رهتك ، والأشراف في « سونى بت » فكان زواج الشيخ محمود (الذى هو الجد الخامس للإمام الدهلوي) والذى ترك منصب القضاء وتولى مناصب الحكومة والإدارة) في أشراف « سونى بت » ، وولد له ابن أسماه أحمد ، وقد ودع أحمد - فى صغره - مدينة « رهتك » وأقام مع الشيخ عبد

(٣) انظر للتفصيل « رجال الفكر والدعوة » ج : ٣ ، ص : ١٩ - ٢١ .

الغنى بن الشيخ عبد الحكيم فى « سونى بت » واستوطنها ، وزوجه الشيخ عبد الغنى بنته ، وقام على تربيته ، ثم قدم الشيخ أحمد مدينة رهتک وبنى عمارة خارج القلعة ، وجمع أحبابه وأقرباءه ، وكان ابنه الشيخ منصور جامعاً للفضائل من جاء وشجاعة وحكم ، وقد تزوج أولاً ببنت الشيخ عبد الله بن الشيخ عبد الغنى ، وكان ابنه الشيخ معظماً كاسمه وجيهاً مهيباً وقوراً ، يملك شجاعة نادرة ، وقد صدرت منه حوادث عجيبة ، ينقل الإمام الدهلوى عن والده الشيخ عبد الرحيم أن الشيخ منصور اشتبك فى حرب مع أحد الراجوات ( الأمراء ) الهنادك ، وكان معيناً على ميمنة الجيش ولم يتجاوز سنه الثانية عشرة من عمره وكانت الحرب شديدة حامية ، وقد قتل من الفريقين عدد كبير ، وفى أثناء المعركة خاطب أحد الناس الشيخ معظم وقال له : إن والدك الشيخ منصور تناول كأس الشهادة ، وانهزم الشيخ الإسلامى ، فلم يملك أن ثارت غيرته الإسلامىة ، ونبض عرقه الفاروقى ، وخاض مجاهداً باسلاً فى صفوف الأعداء ، يشقها ويفرقها حتى وصل بعد محاولات شديدة إلى فيل الأمير الهندوسى ، وانبرى له أحد القادة الكبار من العدو ، فضربه الشيخ معظم بالسيف وصيره فلقتين ، فهجم عليه أصحابه وأنزلوه من فرسه ، وازدحم عليه الناس ، ولكن الأمير زجرهم ونهاهم من التعرض له بسوء ، وقال أن هذا الناشئ اليافع ، وهذه البسالة والجرأة ! إنه - فعلاً - من عجائب الزمن ، وأخذته الأمير وقبل يديه ، وأكرمه وأكبره ، وسأله لماذا هذا الغضب الفائز ؟ فقال الشيخ معظم : نبئت أن والدى قد استشهد ، فعزمت على أن أحمل بنفسى ولا يقر لى قرار حتى أقتل قائد العدو وألحقه بمقره ، وكنت قد قررت فى نفسى أنى إما ساموت وأقتل أو أقتل ، فقال الأمير : إن من أخبرك بخبر والدك كاذب ، إن والدك حى ، وانظر تتراءى أعلامه تلك ، وأرسل الأمير - فى الوقت نفسه - سفيره إلى الشيخ منصور أننا قد صالحنا لأجل هذا الناشئ ، وقبل كل ما قيل له ، ورجع أدراجه .

ويحكى الإمام الدهلوى عن والده أيضاً قصة أحد الملاك المعمرين للأراضى فى قرية شكوه بور ( التى كانت تحت ولاية الشيخ معظم ) أن ثلاثين من قطاع الطرق استاقوا - ذات مرة - مواشى هذه القرية وفروا بها ، وكان الشيخ معظم إذ ذاك بها وحيداً ، ولم يكن هناك أحد من أقربائه أو أبنائه ، فنى إليه هذا الخبر وكانت سفرة الطعام قد وضعت ، فلم يتظاهر بأى عجلة أو فزع بل تناول الطعام كعادته بكل طمأنينة حتى فرغ منه ، وغسل يده ، ثم قال علىّ بسلاحى وفرسى ، فلما ركب وسار ، رافقه بعض ملاك الأراضى مزدين بالأسلحة ، ولكن الشيخ معظم أمرهم بالعودة ، وقال إننى سوف أعقد السير وأطير بفرسى حتى لا يمكنكم أن تلحقوا غبار فرسى ، إلا أنه أخذ معه راوى هذه القصة الذى كان سريعاً

فى سبره حتى ىخبر الناس بما ىجرى ، ثم ركض فرسه حتى أدرك جماعة قطاع الطرق الذين كانوا قد قطعوا عدة منازل ، واستشار غيرتهم ودعاهم إلى النضال ، وبدأ ىرمى بالشاب ، فلما رأى قطاع الطرق براعته هذه فى الرمى ، أخذهم الرعب ودهشوا ، واستغاثوا به وقالوا نتوب مما اقترفنا ، فلىصفح عنا ، فقال لهم الشىخ : إن توبتكم أن تجردوا أنفسكم من أسلحتكم ، وىربط كل واحد منكم ىدى الآخر ، ثم ساقهم فى هذه الحالة المهينة مع الأسلحة والمواشى إلى القرية ، وحلفهم حسب ما فى دىانتهم أنهم سوف لا يفكرون فى العودة إلى هذه القرية ولا ىنظرون إليها ، فقبلوا ذلك .

وأعقب الشىخ معظم من زوجته بنت السىد نور الجبار السونى بتى ثلاثة أبناء ، الشىخ جمال ، والشىخ فىروز ، والشىخ ووجه الدين ، وهذا الأخير هو جد الإمام الدهلوى ووالده والده .

### جد الإمام الدهلوى الشىخ ووجه الدين :

لقد ذكر الإمام الدهلوى ترجمة حياة جده الشىخ ووجه الدين بشئ من التفصیل بالنظر إلى غيره ، ىقول : « إنه كان ىجمع بين صفتى الصلاح والتقوى والشجاعة والفتوة ، كان الوالد ( أى الشىخ عبد الرحىم ) ىقول : كان والدى ( الشىخ ووجه الدين ) جعل حزبه أن ىقرأ يومياً جزأین من القرآن الكریم ، ولم ىكن ىترك ذلك سفراً وحضراً وفى حالة المنشط والضعف والكسل ، فلما كبر وضعف بصره ، فكان ىحمل معه مصحفاً مكتوباً بالحروف الكبيرة ، ولم ىكن ىفارقه فى السفر أبداً ، وكان ىقول إنه لم ىكن ىدع فرسه ىرعى حقل غيره ، ولو كان الجيش كله ىركضون أفراسهم وخیولهم فى الحقول المزروعة ، ولذلك كان أحياناً ىتجشم الطريق الأبعد غير المعروف المسلوك ، وكان ىقول أيضاً أنه إذا قلت التموینات فى إحدى الحروب ، ولم ىتھیا من الطعامات فكان أصحابه وزملاؤه من الجنود ىسطون على مواشى القرى وىأكلونها أما هو فكان ىتورع من ذلك ، فإن طالت ساعات الجوع ولم ىجد شئاً يومياً أو يومياً وخارت قواه ، فیهىء الله - تعالى - له رزقه من حیث لا ىحتسب ، وكان أحياناً ىمعن فى التفكیر ، وىضرب سوطه على الأرض ، فتخرج منها الحمص قدر ما ىغذیه أو ىعیشه فكان ىغسلها وىطهرها ، وىغمسها فى الماء ثم ىتناولها ، وكان ىقول : إن سلوك والدى مع باعة التبن وأصحاب الحرف الوضیعة ( كما ىظنون ) كان فى غاية اللطف واللىن والعدل والنصفة مما ىندر نظیره فى أصحاب التقوى والورع أيضاً ، وكان ىقول أيضاً: إنه شاهد - فى أحد أسفاره - بعد علائم الولاية ، فباع ، واشتغل بالأشغال الصوفیة ، واتخذ قلة الكلام وقلة الاختلاط بالأنام ( الذى هو عادة الصوفیة النقیة )

شعاره ، والتزم به التزاماً يكاد لا يوجد في صوفية هذا العصر .

ويقول الإمام الدهلوى : إن الوالد كان يذكر جراته وشجاعته كثيراً ، وقد ذكر الإمام الدهلوى في هذا الموضوع عدداً من وقائع شجاعته النادرة نقلاً عن والده ، فقد واجه - بعض المرات - جماعات وفرقاً من الأعداء ، وبارزهم وقاتلهم وحده ، وكان يخرج في العسكر الملكى إلى مالوه ، وكان قد بارز كبار الشجعان والأبطال المغاوير في عصره ، وأنقذ - بعض الأحيان - أصحابه أو ضباط جيشه الذين كانوا تعرضوا لخطر العدو منهم في اللحظة الحرجة ، وصرح - ذات مرة - ثلاثة من المصارعين المبارزين كانوا لا يباليون بأحد ولا يعيرون لأحد أى اهتمام ، وكان فريداً فى فن الفروسية (٤) .

وكان هو مع عالمكير فى حربته مع إخوته ، ولما خرج شاه شجاع ضده فى بنغاله ، كان هو فى عسر عالمكير ، وقد قام بدور كبير ، وأدى حق الوفاء بولى نعمته ، وأثبت صدقه واستقامته (٥) ، وقد كتب النصر لعالمكير فى تلك المعركة برجولته وشجاعته ، وأراد الملك بعد الفتح أن يرقى منصبه ، فلم يقبل ذلك لزهده فيه ، وقد أدى - أحياناً - حق الصداقة والود لأحبابه وأصدقائه ، وخاطر لأجلهم بنفسه وأنقذهم فى المواقع الصعبة (٦) ، وقد ذكر الشيخ عبد الرحيم عدداً من وقائع مغامراته وبطولاته ورباطة جأشه ، وقوة شكيمته وعلو همته ، كما ذكر وقائع أخرى لمواساته ومطايبتة وشفقته على الفقراء والمساكين .

وقد تزوج الشيخ وجيه الدين بنت الشيخ رفيع الدين محمد ، وكان الشيخ رفيع الدين ابن الشيخ قطب العالم ، وهو ابن الشيخ عبد العزيز شكربار (٧) وولد للشيخ وجيه الدين من هذه الزوجة ثلاثة أبناء ، وهم : الشيخ أبو الرضا محمد والشيخ عبد الرحيم ، والشيخ عبد الحكيم .

يقول الشيخ عبد الرحيم : كان والدى ذات مرة يصلى التهجد ، فأطال إحدى السجديات حتى ظن أنه فارق الحياة ، فلما رفع رأسه قيل له لماذا أطلت السجود إلى هذا الحد ؟ ، قال : اعترتني حالة الغيبوبة ، وانكشف لى فيها درجة الشهيد وما أعد له من ثواب ، فتمنيت على الله - تعالى - أن يرزقنى الشهادة ، وألححت وبالغت فى الدعاء حتى انكشف لى قبول الدعاء ، ووقعت الإشارة إلى جهة « دكن » ( جنوب الهند ) أن محل

(٤) انظر للتفصيل « مآثر الأجداد » ص : ٦ - ٧ .

(٥ ، ٦) أيضاً ص : ٨ - ٩ .

(٧) اقرأ ترجمته فى نزهة الخواطر ج : ٤ .



الشهادة هو ذاك ، يقول الوال : أنه بعد هذا الحادث - رغم أنه كان ترك وظيفة الجيش ، وكان قد كرهها ونفر منها ، ولكنه هياً أسباب السفر من جديد ، واشترى الخيل ، وتوجه إلى دكن ، وكان يخيل إليه أن حادث شهادته يقع في « سيوارا » الذي كان واقعاً خارج حدود الدولة الإسلامية ، وكان حاكمه قد تعرض للقاضي المسلم بالإهانة والازدراء ، إلا أنه لما وصل إلى برهانبور انكشف عليه أنه تخطى محل الشهادة ، فرجع القهقري ، ورافق في الطريق بعض التجار ممن كانت تلوح عليهم آثار الرشد ، والصلاح ، وكان يريد العودة من قرية « هنديا » إلى الهند ، إذ به عرض له رجل مس ضعيف كان يعدو وهو لاغب مكدود ، فأشفق عليه ، وسأله عن حاله ، فقال : أريد الذهاب إلى دلهي ، فقال له : ابق عندنا وأعطيك ثلاث بيسات من راتبي كل يوم ، وكان ذلك العجوز أحد جواسيس الكفار ، فلما وصل القافلة إلى رباط « نوزايا » أخبر الجاسوس أصحابه بخبر هذه القافلة للتجار ، وأنها نازلة في الرباط ، فهجم كبير من قطاع الطرق على هذا الرباط ، وكان الشيخ وجيه الدين إذ ذاك يتلو القرآن الكريم ، فتقدم إليه منهم اثنان أو ثلاثة ، وقالوا : من هو وجيه الدين ، فقال : ها أنا ، فقالوا : ما لنا بك من حاجة ، فنحن نعلم أنك لا تحمل شيئاً من الفلوس ، وأن لك على أحد منا حق الضيافة ، ولكننا لا نترك هؤلاء التجار الذين يحملون أمتعة كثيرة ، ، ولما أن الشيخ وجيه الدين كان أصل غرضه من رحلته هذه الشهادة ، فلما يرض بمفارقتهم والتخلى بينهم وبينهم ، فتصدى للمهاجمين ، وانبرى يقاتلهم ، وقد وقع في جسمه اثنان وعشرون جرحه وطعنة ، وكانت الطعنة الأخيرة فصلت رأسه من جسده ، ولم يزل لسانه في هذه الحال أيضاً رطباً بالتكبير ، حتى سقط أخيراً في مكان ودفن به ، وقد أشهد الله - تعالى - الشيخ عبد الرحيم هذا الحادث ، فرأى أنه يريه جروحه ، وأراد الشيخ عبد الرحيم أن ينقل جثته ، ولكن إشارة غيبية منعه من ذلك .

### جد الإمام الدهلوى من أمه الشيخ محمد الفلتى :

كان الشيخ محمد الفلتى جد الإمام الدهلوى لأمه<sup>(٨)</sup> وموطن أسرته الأول « سدهور »<sup>(٩)</sup> ونزحت هذه الأسرة في عهد السلطان سكندر اللودهى إلى « فلت » كان والده يسمى الشيخ محمد عاقل الذى كان من صغره ذكياً المعياً ، ومقرباً لدى العلماء الصالحين والمشائخ

---

(٨) للإمام الدهلوى رسالة في ترجمة حياته بعنوان « العظية الصمدية فى الأنفاس المحمدية » ، وهى مضمومة إلى مجموعة الرسائل الخمسة .

(٩) مديرية بارة بنكى - حالياً - .

الربانيين ، وكان الشيخ جلال خليفة الشيخ السيد آدم البنوري بشر عند ولادته بمراتبه العالية ، قرأ أولاً على عم الإمام الدهلوى الشيخ أبو الرضا محمد ، ثم على الشيخ عبد الرحيم ، وكانت له به مناسبة تامة ، وقصد بعد الفراغ من تحصيل العلوم إلى فلت وكان صاحب قدم راسخة فى الجود والعطاء وإنكار الذات وفناء النفس ، وكان قوى التأثير ، صاحب التزكية والإرشاد ، وقد ذكر الإمام الدهلوى وقائع من طاعته وخضوعه وتسليمه وانقياده لأستاذه ومربيه الشيخ عبد الرحيم<sup>(١٠)</sup> ، وقد حصلت له الإجازة من الشيخ عبد الرحيم ، وكان ابنه الشيخ عبيد الله الذى كان خال الإمام الدهلوى ووالد زوجته ، وخليفته الأجل الشيخ محمد عاشق الفلتى<sup>(١١)</sup> ، وقد ذكر الإمام الدهلوى عدداً من وقائع قوة التأثير التى كان يمتاز بها الشيخ محمد الفلتى وإفاداته وإفاضاته<sup>(١٢)</sup> ، توفى الشيخ محمد فى ٨ / جمادى الآخرة ، عام ١١٢٥ هـ<sup>(٦)</sup> .

### عم الإمام الدهلوى الشيخ أبو الرضا محمد :

كان الشيخ أبو الرضا محمد الابن الأكبر للشيخ وجيه الدين ، والعم الأكبر للإمام الدهلوى ، وقد أثبت الإمام الدهلوى فى « أنفاس العارفين » ترجمة مستقلة له ، بعد ترجمة والده ، ووصفه بـ « إمام الطريقة والحقيقة » وكانت معظم علومه ( وإن كان هو قد قرأ على أساتذة عصره ) وهبيرة فى نظر الإمام الدهلوى ، بدأ - بإذن والده وإشارته - يتردد إلى أحد الأمراء ، ثم إذا به قد جذبته جاذبة التوفيق الإلهى ، ومنعته منه ، واتخذ التوكل الكامل والتجريد التام والعمل بالسنة ديدنه وشعاره وقد خير زوجته أيضاً مستنداً بقوله تعالى : ﴿ إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ﴾<sup>(١٣)</sup> ، بين أن تختار الفقر والسغبة إذا اختارت مرافقته والبقاء معه ، وإلا فلتذهب إلى بيتها ، وقد اختارت هى أيضاً مقتدية لسنة الأزواج المطهرات ، الفقر والمسغبة ، ولم ترض بمفارقتها ، وكانت تتوالى عليه يومان أو ثلاثة أيام لا يجد طعاماً فيبيت على الطوى ، وكانت له نسبة خاصة بالشيخ عبد القادر الجيلانى ، كما كان له حب خاص ومناسبة خاصة بسيدنا على بن أبى طالب - كرم الله

(١٠) العطية الصمدية ص : ٢٠ .

(١١) انظر لترجمة الشيخ محمد عاشق الفلتى « نزهة الخواطر » ج : ٤ .

(١٢) العطية الصمدية ، ص ٩ : ٢٢ - ٢٥ .

(٦) ص : ٢٥ .

(١٣) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٨ .

وجهه - (١٤) ، وقد أراد السلطان عالمكير زيارته مراراً ، ولكنه لم يرض بذلك ، وذلك لأنه كان لا يقبل على الأمراء والحكام ، أما الخصافون وأصحاب الطواحين وأمثال هذه الحرف فكان يقبل عليهم ويحبهم وإذا قدموا له ثلاثة أو أربعة فلوس كهدية يقبل منهم بكل رضا وسرور .

وقد نعته الإمام الدهلوى بـ « قوى العلم ، فصيح اللسان ، عظيم الورع ، واسع المعرفة ، كان جميل الحيا ، طويل القامة ، أبيض اللون ، حفيف اللحية ، لطيف الكلام ، وكان يعظ ويذكر بعد صلاة الجمعة ، ويسمع الناس من حفظه ثلاثة أحاديث ثم يترجمها إلى الفارسية ثم إلى الهندية ، وكان يلقي الضوء على معانى هذه الأحاديث وفوائدها ، إلا أن كل ذلك بإيجاز واختصار ، وكان أولاً يدرس كتاباً فى كل فن ، ويزدحم عليه الناس إعجاباً بحسن بيانه وحلاوة منطقه ، ثم اكتفى أخيراً بدرسين ، أحدهما فى تفسير البيضاوى ، والثانى فى مشكاة المصابيح ، وكان يشرح كلمات الصوفية شرحاً عجيباً ، وكان مستجاب الدعوات ، وقد ذكر الإمام الدهلوى كثيراً من الوقائع التى تدل على حب الناس له وأنه من المصطفين الأخيار (١٥) ، كان له اهتمام بالغ بأداء السنن وكان ينشد أحياناً الدوبيت فى الهندية من شعر الحقائق والمعانى ، وقد ذكر الإمام الدهلوى عدداً من وقائع كشوفه وكراماته (١٦) ، ونقل بتفصيل كثير أقواله وكلماته ، التى يصعب فهمها والاستفادة فى هذا العصر ، ولذلك نفضل الإعراض عن ذكرها (٥) كان عمره بين الخمسين والستين إذ وافاه الأجل المحتوم فى ١٧ / محرم الحرام عام ١١٠١ هـ بعد صلاة العصر ، وأرخت وفاته بكلمة « آفتاب » ( أى الشمس ) (١٧) .

### والد الإمام الدهلوى الشيخ عبد الرحيم :

لقد ألف الإمام الدهلوى نفسه فى حياة والده ومناقبه وكراماته وفضائله ، كتاباً مستقلاً مفصلاً ، أسماه « بوارق الولاية » ويعرف بـ « أنفاس العارفين » (١٨) ، وأنه لا تتوفر لدينا

(١٤) « أنفاس العارفين » ص : ٨٦ - ٨٨ .

(١٥) أيضاً ، ص : ٨٩ - ٩٠ .

(١٦) أيضاً ، ص : ٩٠ - ٩٤ .

(٥) ص : ١١٩ .

(١٧) المصدر السابق ، ص : ١٥٥ .

(١٨) طبع أولاً فى المطبع الاحمدى ثم طبع فى المطبع المجتبائي ، والإحالات إلى الطبعة الأولى .

أمثلة ونماذج في تاريخ الإسلام العلمى لتأليف كتب مستقلة بأقلام الأبناء النوابغ فى تراجم آبائهم النوابغ الفضلاء بالدقة العلمية والمسئولية التاريخية ويمكن أن يمثل فى هذ الصد بترجمة العلامة تاج الدين السبكى فى كتابه الشهير « طبقات الشافعية » لوالده العلامة الشيخ تقى الدين السبكى ترجمة مفصلة مسهبة<sup>(١٩)</sup> ، وتأليف العلامة الشيخ أبى الحسنات عبد الحى اللكنوى الفرنجى محلى رسالة مستقلة بعنوان « حسرة العالم بوفاة مرجع العالم » فى حياة والده الشيخ عبد الحلیم اللكنوى .

وسوف نختار من هذا الكتاب تلك الجوانب والوقائع التى تلقى الضوء على شخصيته ، التى يمكن أن تقدر بها مكانته العلمية والدينية والروحية ، ويستعان به فى تحديد ذلك الدور الأساسى الذى قام به والده فى تكوين شخصية الإمام الدهلوى وميوله وذوقه والتأثير فى حياته ، ولا نكشر من ذكر الكرامات والكشوف والتجارب الروحية والمدارح الباطنية ( التى كانت الشغل الشاغل فى ذلك العهد ، وكانت للمترجم بها مناسبة خاصة ) لأن فهمها وإدراكها يتعسر على أصحاب هذا العصر وينبغى لمن يريد هذه التفاصيل أن يرجع إلى أصل الكتاب ، ولا بد من أن نقول - إجمالاً - إن هذه الأحوال والوقائع تدل على استعداد روحى بالغ ونبوغ باطنى طبيعى تذكر بأحوال الأولياء المتقدمين الذين كانت استعدادتهم ومداركهم قوية بالغة ، وكان الزمن موافقاً صالحاً والبيئة متجاوبة مساعدة ، بل باعثة ومرغبة ، وكانت قدرة الله وتربيته بموجب قوله - تعالى - : ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾<sup>(٢٠)</sup> تتجلى فى هذا المجال ، وكان ذلك تفسيراً لقوله - تعالى - : ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾<sup>(٢١)</sup> .

لا يوجد التصريح فى كتب التراجم بسنة ولادة الشيخ عبد الرحيم ، ولكن لما أنه توفى عام ١١٣١ هـ ، وعمره ٧٧ عاماً لذلك نستطيع أن نحدد سنة ولادته وهى ١٠٥٤ هـ<sup>(٢٢)</sup> .

وكان للشيخ عبد الرحمن ثلاثة أخوة ، الشيخ أبو الرضا محمد ، والشيخ عبد الحكيم والشيخ عبد الرحيم .

يقول الشيخ عبد الرحيم : كنت من صغرى ألوث على رأسى العمامة وأجلس جلسة

---

(١٩) وهى تشتمل على ٨١ صفحة بحروف صغيرة .

(٢٠) سورة الرحمن ، الآية : ٢٩ .

(٢١) سورة الإسراء ، الآية : ٢٠ .

(٢٢) أيضاً ، ص : ٨٥ .

الصلاة ، وكنت أسبغ الوضوء ، واهتم بسننه وآدابه ، وكان خالى الشيخ عبد الحى (الذى كان أيضاً من المشايخ الربانيين ) يرانى فيسربى ، ويقول يطمئن قلبى عند رؤيته على أن هذه الثروة المعنوية لسلفنا ستستمر فى أعقابنا ، فلو لم يظفر بها أحفادنا فلا بأس فإن اسباطنا سيكونون حملة أمناء لهذا التراث (٢٣) .

لقد كان الشيخ عبد الرحيم من صغره ميالاً إلى الدين ، نفوراً من الدنيا ، ومالها وجاهها ، فكان لا يلتفت إلى شيخ يريد أن يعلمه دعاءً يحقق حاجات الدنيا ويقول : لا حاجة لى به ، فلما رأى ذلك منه أحد المشايخ النقشبنديين الذى كان اسمه خواجه هاشم ، وكان قد قدم من بخارى ونزل فى الحى الذى كان يسكنه الشيخ عبد الرحيم ، لقنه « طريق الاستكتاب » (٢٤) ، يقول الشيخ عبد الرحيم : وقد غلبت على هذه الطريقة واستحوذت على نفسى حتى أننى انتسخت مرة حاشية ملاً عبد الحكيم ( وهى حاشيته على شرح العقائد ) فبدأت أكتب اسم الذات حتى تم جزء واحد ولم أشعر به (٢٥) .

وكان الشيخ يحضر عند الشيخ عبد الله المعروف بخواجه خورد ابن الشيخ الربانى خواجه باقى بالله ، وكان من كبار العارفين ، وقد تقدم إليه الشيخ لبعض الاشارات الغيبية والبشارات الروحية بطلب البيعة على يديه ، فأشار عليه ناصحاً أن يبايع أحد خلفاء السيد آدم البنورى ممن تكون له قدم راسخة فى العمل بالشريعة ، والزهد فى الدنيا وتهذيب النفس ، فقال له : إن الشيخ الحافظ السيد عبد الله (٢٦) ، من خلفاء السيد آدم يسكن بجوارنا ، فقال اغتتم وجوده ، فلا تتأخر فى بيعته ، يقول الشيخ : فجئت إلى حضرة السيد عبد الله ، كان يغلب عليه إخفاء حاله ويعيش فى الخمول ، ولكنه أجابنى على طلبى الأول وقبلنى للبيعة ، فكنت أحضر لدى الشيخين الشيخ خواجه خورد ، والشيخ السيد عبد الله ، واستفيد منهما ، وكانت عناية السيد عبد الله متوجهة إلى الشيخ عبد الرحيم ، فقال له يوماً : كنت صغيراً ، تلعب مع الولدان ، فوجدت فى نفسى انجذاباً إليك ، فدعوت الله -

---

(٢٣) أيضاً ، ص : ٤ .

(٢٤) كان المشايخ لغرض نقش اسم الله - تعالى - على لوح قلب الطالب يستكتبونه اسم الله -تعالى- بكثرة على الورق حتى ينقش فى القلب ، وكان هذا إحدى الطرق لعلاج القلوب وإحيائها بذكر الله - تعالى - .

(٢٥) « أنفاس العارفين » ، ص : ٥ .

(٢٦) انظر لترجمته « أنفاس العارفين » ، ص : ٦ - ١٥ .

تعالى - أن يجعل هذا الولد من الأولياء والصالحين ، وأن يظهر نبوغه على يدي ، فأحمد الله - تعالى - على أن ثمره هذا الدعاء قد ظهرت (٢٧) .

دراسته :

قرأ الشيخ عبدالرحيم من الرسائل الصغيرة إلى « شرح العقائد » و « حاشية الخيالي » على أخيه الأكبر أبو الرضا محمد ، وقرأ سائر الكتب على ميرزا زاهد (المعرف بمير زاهد) وكان يقول : لقد قرأت « شرح المواقف » وسائر كتب الأصول على ميرزا زاهد ، وكانت له بى عناية خاصة ، حتى لو قلت له يوماً ، لم أطالع الكتاب الليلة فكان يقول : أقرأ سطرًا أو سطرين حتى لا يذهب اليوم خالياً من الدرس ، وراجع الشيخ خواجه خورد أيضاً فى حل بعض المواضع من « حاشية الخيالي » واطمئن بحلوله وكان يقرأ - أحياناً - شيئاً من بداية الكتاب ، ثم يدرسه إلى نهايته بنفسه ، وكان الشيخ خواجه خورد تلميذ الشيخ رفيع الدين جد الشيخ عبد الرحيم لأمه ، وكان الشيخ خواجه خورد استفاد من أستاذه علمياً وروحياً ، لذلك كان يعامل الشيخ عبد الرحيم معاملة خاصة .

وراجع الشيخ عبد الرحيم بعد وفاة السيد عبد الله الشيخ أبا القاسم الأكبر آبادى (٢٨) أحد كبار المشائخ فى السلسلة أبى العلائية الأحرارية ، واستفاد من الأمير نور العلاء أيضاً ، وأجازه كذلك الشيخ أبو القاسم ، وكان الشيخ يكرمه ويقدره ويعتنى به اعتناءً خاصاً لأجل أنه كان يتصل بالشيخ عبد العزيز شكربار ، أحد أجداد الشيخ عبد الرحيم من أمه اتصالاً خاصاً .

وقد ذكر الإمام الدهلوى فى كتابه « أنفاس العارفين » حوادث ووقائع كثيرة للقاءات الشيخ عبد الرحيم مع مشائخ وأولياء عصره ، ومجاذيبه وعناياتهم الخاصة به ، فقد كان عصر الازدهار للسلوك والتصوف والشوق إلى الله ، ومعرفته والوصول إليه والزهد ، وكان أمثال هؤلاء المشائخ الذين يتذوقون هذه الأشياء ، ويتحلون بالفضائل الروحية الباطنية

(٢٧) أيضاً ، ص : ١١ .

(٢٨) كان الشيخ أبو القاسم خليفة الشيخ ولى محمد النارنولى ، وهو خليفة الأمير أبى العلاء الحسينى الأكبر آبادى ، وقد عاصر الشيخ أبا القاسم أبا العلاء وصحبه ، ولكنه حصل على الإجازة من الشيخ محمد النارنولى ، توفى عام ١٠٨٩ هـ ، وينبغى أن يعلم أن الطريقة أبا العلائية الأحرارية هى مزيجة من الطريقتين الجشتية والنقشبندية وسلسلة كالبى الشهيرة التى كان فيها الشيخ السيد محمد الترمذى ، تنتمى إلى هذه السلسلة انظر للتفصيل « نزهة الخواطر » ج : ٥ ، ص : ٢٢ .

موجودين بكثرة<sup>(٢٩)</sup> ، وقد كان لهم إقبال كبير على الشيخ عبد الرحيم وعناية خاصة به ، وكانت للشيخ معهم لقاءات طيبة ، وذكر الإمام الدهلوى وقائع من كشفه للأرواح مما يدل على قوته الباطنية وتأثيره الروحى الكبير<sup>(٣٠)</sup> ، كما ذكر أيضاً كراماته وإشراقاته<sup>(٣١)</sup> ، ثم ذكر أقواله وكلماته بتفصيل كبير<sup>(٣٢)</sup> ، ويظهر من أقواله وكلماته دقة نظره وثقوبه وذكائه ، وصلاحيته العلمية الفائقة .

يقول الإمام الدهلوى : كان عمل والدى فى أكثر المسائل على المذهب الحنفى ، وكان فى بعض المسائل يأخذ بالحديث ، أو يرجح أحد المذاهب بما يملى عليه وجدانه ، فكان من اختياراته قراءة الفاتحة خلف الإمام ، وقراءة الفاتحة فى صلاة الجنائز .

وقد كان الشيخ عبد الرحيم فى تلك اللجنة من العلماء التى عهد إليها بترتيب « الفتاوى الهندية » المعروف فى الهند بـ « فتاوى عالمكيرى » ، والتى كانت تشمل على كبار العلماء البارزين والمدرسين والفقهاء البصيرين فى الفقه الحنفى فى هذه البلاد ، وكان رئيس هذه اللجنة والمشرف عليها الشيخ نظام الدين البرهانبورى وقد أنفق السلطان عالمكير على هذه الخدمة الجليلة مائتى ألف روبية<sup>(٣٣)</sup> ، وقد ذكر مؤلف « الثقافة الإسلامية فى الهند » أسماء هؤلاء العلماء المؤلفين بعد تتبع وفحص كبير ، فبلغ عددهم اثنين وعشرين ، وكان الشيخ عبد الرحيم أحد أعضاء هذه اللجنة<sup>(٣٤)</sup> .

يقول الإمام الدهلوى : لقد كان السلطان عالمكير فى هذه الفترة من الزمن على غاية الاهتمام بهذا الترتيب والتدوين ، وكان الشيخ ملا نظام الدين ( أحد المشرفين على عمل اللجنة ) يقرأ كل يوم صفحة من الكتاب على السلطان فقرأ - ذات يوم - ذلك الجزء الذى كان عهد بترتيبه إلى الشيخ ملا حامد ، وكان قد خلط بين عبارتين متفرقتين من كتابين تتعلقان بمسألة واحدة ، فنشأ غموض وإبهام فلما وقع بصر الشيخ عبد الرحيم ( الذى كان

---

(٢٩) انظر « أنفاس العارفين » ، ص : ٢٩-٣٤ .

(٣٠) « أنفاس العارفين » ، ص : ٣٥ - ٥٠ .

(٣١) أيضاً ، ص : ٥٠ - ٦٥ .

(٣٢) أيضاً ، ص : ٦٦ - ٨٥ .

(٣٣) ولا يقل ذلك اليوم عن خمس ملايين روبية .

(٣٤) انظر « الثقافة الإسلامية فى الهند » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى المرحوم ص : ١١١ ، طبع المجمع العلمى دمشق .

أحد أصدقائه ) على هذا الموضوع ، قام بالبحث والتحقيق ، فظهر له أنه جمع بين عبارتين مختلفتين المؤدى ، فكتب على حاشية المسودة هذه العبارة : « من لم يتفقه في الدين قد خلط فيه ، هذا غلط ، وصوابه كذا ، فقرأ ملا نظام مع عبارة المتن هذه الحاشية كذلك ، ولم يتنبه في سرعة قراءته للحقيقة ، أما السلطان الفاضل الذى كان يسمع بإصغاء واهتمام ، فقد التفت وتفطن ، وقال : ما هذه العبارة ؟ فاضطرب ملا نظام بعض الاضطراب ، إذ أنه لم يكن قد طالعه من قبل ، ثم تمالك نفسه ، وقال إننى لم أكن قد طالعت هذه الجزء وسوف أشرح ذلك غداً بتفصيل ، لما جاء منزله ، شكى إلى ملا حامد توريطه ، وقال : كنت تركت مطالعة هذا الجزء ثقة بك واعتماداً عليك ، وقد افتضحت بسببك لدى السلطان ، فلم ينس ملا حامد حينئذ بينت شفة ، بل شكى ذلك إلى الشيخ عبد الرحيم ففتح الشيخ أمامه الكتاب وأراه موضع الغلط ، وأن العبارة نشأ فيها غموض واضطراب وكان : ذلك مثار الحسد عند بعض الزملاء ، حتى اضطرب الشيخ عبد الرحيم إلى أن يعتزل هذا العمل بعد الانتظام فى سلكه لمدة من الزمن .

### أخلاقه وشمائله وعاداته وأوراده :

يقول الإمام الدهلوى عنه : أنه كان مجمعاً للفضائل والصفات الكريمة والأخلاق الحميدة ، وقد كان متصفاً بغاية الشجاعة والجرأة ، الغيرة والفراسة ، وكان له مع « عقل المعاد » والتفكير فى الآخرة النصيب الأوفر من « عقل المعاش » والحزم فى الشؤون الدنيوية ، وكان يحب التوسط والاعتدال فى جميع أحواله وأموره ، فلم يكن له فى الزهد والعبادة من الإفراط والغلو ما يصل إلى حدود الرهبانية ولا من الرخصة والسهولة ما يبلغ حد التساهل وقلة الاهتمام ، ولم يكن يتكلف فى اللباس فما تيسر له من اللباس الخشن أو الناعم لبسه من غير كلفة ، إلا أن الله - تعالى - هياً له دائماً من اللباس ما نعم وطاب ، وكان الله - تعالى - يكفيه جميع حاجاته ، فكان قليلاً ما يخرج إلى السوق لشراء الحاجيات ، ولا كان يذهب إلى قصور الأمراء والأغنياء ، فقد أغلق على نفسه الباب ، أما إذا زاره أحد من الأمراء أو الأثرياء فكان يستقبله طليق الوجه ، يبشر وطيب خلق ، وكان يكرم الكريم منهم ، وإذا طلب أحد منهم موعظة ، وعظه برفق ولين ، وأدى مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان يعظم العلم والعلماء ، وينفر من الجهل والجهلة ، وتتبع - دائماً وفى كل حال - سنن المصطفى ﷺ ومن استقامته والتزامه بالعبادات أنه لم تفته الجماعة بغير عذر فى عمره كله ، ولم يمل طبعه - فى صباه كذلك - إلى المحرمات والمنهيات ، ولم يكن يتحاشى البيع والشراء فى الأمور الحاجية ولا يلتزم هيئة العلماء



وآدابهم المتكلفة ، ولا ملابس الفقراء والدراروش المطلقة ، بل كان يعيش بعيداً عن التصنع والتكلف ، وكان يكره الاستدانة بدون ضرورة ، ويكره من يستدين للتفكه ورغد العيش ويعيبه ، وكان له إدراك وذكاء بالغ في علم الطب .

وكان من التزاماته وأوراده اليومية أن يصلى على النبي ﷺ ألف مرة ، ويهلل ألف مرة ، بعضها جهرًا وبعضها خفية ، ويردد اسم الله - تعالى - اثني عشرة ألف مرة ، وكان بعد وفاة أخيه الشيخ أبو الرضا محمد ، يدرس في «مشكاة المصابيح» و « تنبيه الغافلين» ، و « غنية الطالبين » ، ثم بدأ - أخيراً - إلقاء الدروس في التفسير ، وكان قد فرغ من تفسير الزهراوين ( سورتي البقرة وآل عمران ) إذ اعتراه الضعف وانقطع هذا الدرس .

### حميته الإسلامية :

لقد كان الشيخ عبد الرحيم حسب تقليد سلفه وارث والده الشيخ وجيه الدين يتصف ببالغ الحمية الإسلامية ، ويحمل مشبوبات العواطف الجهادية ، ومن المعلوم أن الجهاد والأخذ بالعزيمة تسلسلاً في أسرته جيلاً بعد جيل من دون انقطاع ، فكان قد ورث الشجاعة والفتوة ، والغيرة ، وإن لم نعثر على حادث اشتراكه في معركة من معارك الجهاد ولكن الوقائع المذكورة في « أنفاس العارفين » تكفي للدلالة على ما كان يمتاز به من علو همة ، وعزيمة ، وغيرة دينية ، وهذا هو التراث الجليل الذي انتقل إلى أعقابه أيضاً .

### زواجه وأولاده :

كان زواج الشيخ عبد الرحيم الأول في حياة والده ، وقد ولد له من زوجته الأولى ابن سمي « صلاح الدين » الذي لم يلبث أن مات <sup>(٣٥)</sup> ، وبقيت هذه الزوجة على قيد الحياة مدة طويلة ، وتوفيت بعد زواج الإمام الدهلوي عام ١١٢٨ هـ أو ١١٢٩ هـ <sup>(٣٦)</sup> .

وكان الزواج الثاني في الكبر لبعض البشارات والانتسارات الغيبية بكريمة الشيخ محمد

---

(٣٥) يستفاد من « القول الجلي » أن هذا الأخ العلائي للإمام الدهلوي المدعو بصلاح الدين كان قد بلغ سن الشباب ، ( انظر القول الجلي المخطوط في مكتبة كاكوري ) .

(٣٦) يقول الإمام الدهلوي في « الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف » : أن والدي زوجتي وكنت في ١٤ سنة ، وقد أسرع في أمر زواجي وقال لمن كان يريد التأجيل إن في هذا مصلحة مرعية ، ثم وقعت بعد الزواج عدة مصائب في الأسرة لو كانت وقعت منها مصيبة قبل الزواج لتأجل الزواج ، وذكر الحادثة الأخيرة من هذه الحوادث وفاة والدة أخيه الكبير صلاح الدين ( انظر الجزء اللطيف ص : ٢ ) .

الفلتي الصديقي ، وقد ولد منها ابنان : الإمام الدهلوي ، والشيخ أهل الله .

## وفاته :

لقد صام الشيخ عبد الرحيم آخر صيام حياته في شهر رمضان حين بلغ ٧٧ عاماً من عمره ، ثم مرض في شوال ، وانقطع الرجاء في الحياة ، ثم عادت إليه الصحة ، ثم رجع المرض في أوائل صفر واشتد ، وبدأت علامات الموت قبل الفجر الصادق ، وكان جل اهتمامه - حينذاك - أن لا تفوته صلاة الفجر فسأل في هذه الحالة من الضعف ، هل أصبحنا ، هل طلع الفجر ؟ ، فقال الحضور ، لا لم يطلع بعد ! فلما دنا الوقت جداً ، اشتد على هؤلاء وردّ عليهم بغضب وقال إن كان وقت صلاتكم لم يحن بعد ، فقد حان وقت صلاتي ، وقال وجهوني إلى القبلة ، ثم صلى يومئذ إيماءً ، وقد كان في الطلوع شك ، ثم اشتغل بحركة شفوية بذكر « اسم الذات » وأسلم روحه لبارئها ، وقع هذا الحادث يوم الأربعاء ١٢ / صفر عام ١١٣١ هـ ، وكان هذا آخر عهد الملك فرخ سير ودام فرخ سير بعد وفاته خمسين يوماً في الحبس ، ووقع في المدينة اضطراب كبير وكان عمره عند وفاته ٧٧ سنة (٣٧) .

## الشيخ عبد الرحيم في نظر الإمام الدهلوي :

رغم أنه لا يوجد أي مؤلف ( سوى رسالة واحدة ) للشيخ عبد الرحيم يحدد مكانته العلمية ، وأن صيته إنما يدين لولده النابغة العظيم ، وهو الذي عرف به وترجمه في كتابه «أنفاس العارفين» ، وليس هناك أي كتاب لأحد من تلامذته ومسترشديه في حياته ، ولكن مؤلفات الإمام الدهلوي ولا سيما كتابه «أنفاس العارفين» يدل على أن الإمام الدهلوي كبير الإعجاب والافتناع - على بصيرة وهدى - بسمو مكانته وقوته الروحية ، وقبوله عند الله - تعالى - ومنزلته الرفيعة في العلم والسلوك مما يكون من تأثر الابن البار بفضائل والده ومآثره واعترافه بجمته العظيمة وثنائه عليه ، ويظهر أن الإمام الدهلوي على علم اليقين والوجدان الصحيح فيما يتعلق بفضائله وكمالاته الروحية والعلمية ، ويستشعر القارئ في ترجمته له بأنه معجب به غاية الإعجاب ، يجد اللذة والحلاوة في ذكره ، ويبدو أن في تعليم الإمام الدهلوي وتربيته وفضائله العلمية والروحية والحصول على المدارج الباطنية ووصوله إلى درجة الإمامة والاجتهاد في العلم والسلوك حظاً كبيراً ونصيياً وافرأ لقوة تأثير والده ونسبته الروحية ، وشفقته وأدعيته وابتهالاته .

(٣٧) «أنفاس العارفين» ، ص : ٨٣ - ٨٥ .

## الأسر العربية الأصل في الهند وخصائصها وتقاليدها :

تفيد التراجم المختصرة لأجداد الإمام الدهلوى وسلفه ( التي قدمنا خلاصتها في الصفحات الماضية ) أن هناك ثلاث خلال مشتركة تتوارث فيهم - بصفة عامة :

١ - صلة عامة بالعلم والدين والتقوى والورع والقضاء والإفتاء<sup>(٣٨)</sup> ، الذي لا يستبعد تسلسله واستمراره على أساس هذه المناسبة والانسجام السلالي الموروث بالعلم والدين والعزيمة وعلو الهمة ( التي كان يغذيها تعليم المربين والمشرفين من أصحاب الإخلاص والعزيمة والهمة العالية ، وتربيتهم ، والقصص والوقائع التي يتناقلها أفراد الأسرة كبراً عن كابر ) وقد حفظ الله - تعالى - كثيراً من الأسر والبيوتات لأجل مآثر الأسلاف ومكارمهم وصلاتهم وتقواهم ، ونظم واستخدمها للحفاظ على ثروة الدين وتراثه العظيم ، كما حفظ جدار اليتيمين ، الذي كان يريد أن ينقض بيد أحد عباده المخلصين المقبولين ، وشيد به بنيانه ، وقد كان أبوهما صالحاً<sup>(٣٩)</sup> ، ويشهد تاريخ عشرات من الأسر في الهند التي استمر فيها العلم والدين والقضاء والإفتاء والتدريس والتأليف والدعوة والإرشاد على هذا التسلسل في كثير من صفات الوراثة ، وحفظ الله - تعالى - لهم وعنايته بهم .

٢ - حفظ الأنساب ، وتعهد سلسلة النسب للأسرة وترتيبها والحفاظ عليها ، والاهتمام بـ « الكفاءة » بالمقياس والحد الذي لم يكن يوجد في البلاد العربية والبلدان الإسلامية القديمة ولعل الدافع إلى ذلك كان عاطفة الحفاظ على النسب العربي الذي حملته هذه الأسر من البلدان العربية في هذه البلاد الأعجمية وقد كان للتأثر بالنظام الطبقي في الهند أيضاً نصيب ، فقد عرف بالتفاخر بالنسب والاعتزاز به من قديم الزمان ، بالرغم من أن الشريعة لم تكلف الناس بهذا الاهتمام البالغ والرعاية الدقيقة ، وقد نشأ فيها إفراط وغلو في القرون المتأخرة وفي البلاد الأعجمية ، ولكن ينبغي أن يلاحظ - مع كل ذلك - أن من نتائج هذا الحفاظ على النسب كان استمرار الخصائص الأسرية فيهم عبر قرون وأجيال ، وأنهم لم يذوبوا في مجتمع البلاد غير الإسلامية وحضارتها .

٣ - والصفة الثالثة هي صفة الشجاعة والجلادة والفتوة والفروسية التي هي كذلك من الخصائص السلالية الوراثة للنسل العربي ، ولا سيما قبيلة قريش ، والتي مرت بنا أمثلتها في وقائع الشيخ معظم والشيخ وجيه الدين وقصصهما البطولية ويشاهد نموذجها الرائع في حياة حفيد الإمام الدهلوى نفسه ، الشيخ محمد إسماعيل الشهيد .

---

(٣٨) وظاهر أن هذا ليس كلية من الكليات التي لا مجال فيها للاستثناء ، بل هي قاعدة أغلبية كعامة البيوتات وأسر الأشراف وأهل الفضل والكمال .

(٣٩) سورة الكهف قصة خضر مع جدار يتيمن كان أبوهما صالحاً ، الآية : ٨٢ .

وهناك عوامل ودوافع نفسية وعقلية أخرى لتوارث هذه الخصائص وتسلسلها ، منها أن الأسر العربية الأصل التي نزحت إلى الحجاز والعراق وإيران وتركستان والهند في مختلف فترات التاريخ ، وعهوده ، إنما كان العامل الأساسي في هجرة أكثرهم واستيطانهم الهند مثلاً إما الحفاظ على دينهم وعقيدتهم أو عاطفة الحماية لمكانتهم وأعراضهم ، فقد كانوا تعرضوا لخطر الحملات التتارية ، وقد حفظت الأجيال بعد الأجيال هذا الغرض الأساسي ، ولم يمح من ذاكرتها ، وكانوا يحافظون عليه ويهتمون به ، فبارك الله - تعالى - لذلك في تدينهم وتقواهم ، فقد كانوا مصداق قول الله - تعالى - : ﴿ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقتلوا ﴾ (٤٠) ، أو كانت عاطفة الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله ، التي كانت الهند لها ( في عالم القرن السادس والسابع ) مجالاً واسعاً وميداناً فسيحاً ، فكانت كثيراً من مناطق هذه البلاد الواسعة الأطراف ( التي يصح أن تدعى شبه القارة ) لم تخضع لدولة المسلمين ، ولم تدخل في طاعتهم ، وكان يحكمها أمراء وحكام وثيون ، وكانوا - أحياناً - يعرقلون إقامة شعائر الإسلام وتنفيذ الأحكام الشرعية ، وكان كثير منهم يخرج - بين فينة وأخرى - ضد الدولة الإسلامية ، ويقوم فتنة وثورة ، ولم يكن من الميسور وصول الجيش الإسلامي إلى كل مكان ، فكان قيام هذه الأسر العربية الأصل الشريفة النجبية ذات الطموح والهمة العالية ، والراغبة في الجهاد والغزوات ، وهؤلاء الأعيان والوجهاء ، بفتح هذه المناطق وتسليمها إلى السلطة المركزية وإخضاعها لدولة الإسلام إرواءً لغليل طموحهم وعزائمهم ، وإشباعاً لعواطفهم الدينية الجهادية ، وسبباً من أسباب الجاه والإمارة ، فكانوا يقطعون أراض واسعة ، ويولون مناصب القضاء والإفتاء والنيابة عن الأمراء ، ولذلك تكثرت في هذه الأسر العربية والإيرانية الأصل أيضاً - وقائع فتحهم لمناطق بعيدة شاسعة مجهولة ، غير ذات شأن كبير ، لم تكن قد دخلت في الدولة الإسلامية (٤١) .

(٤٠) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

(٤١) ومن أمثله الأمير الكبير السيد قطب الدين محمد المدني ( م ٦٧٧ هـ ) الذي هو مؤسس الأسرة القطبية الحسنية في ولاية أوده ، والجد الأعلى للإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، قدم من طريق غزنيين مع جماعة من أقربائه والأشراف وأعيان غزنيين ووجهائها ومجاهديها في أوائل القرن السابع إلى دلهي ، ثم توجه من دلهي إلى الشرق وحمل أولاً على مدينة قنوج ، ثم على « مانك بور » و « كره » ( التي كانت مركزاً لحكومة مستقلة في ذلك العصر ) وفتح هذه المناطق كلها وضمها إلى دولة المسلمين ( انظر سيرت سيد أحمد شهيد ، ج : ١ ، ص : ٧٩ . )

كانت هذه الأسر تشعر فى نفسها بأنها لم تأت الهند إلا لغرض سام كبير ، وأن المنبع الأصيل لديننا وحضارتنا وسعادتنا هو مركز الإسلام ومهبط الوحي جزيرة العرب ، بل الحجاز المقدس ، فلا يجوز لنا أن ننقطع عن أصلنا هذا كلياً ، ولا بد لنا من الحفاظ مهما كان الأمر ، على خصائصنا وميزاتنا الأسرية والحضارية والخلقية والاجتماعية ، وحينئذ نستطيع أن نبقى - فى هذا الجزء البعيد من العالم وفى هذه الحضارة والبيئة الأجنبية التى تحمل فى نفسها تلك القوة من الصهر والإذابة التى أذابت الشعوب والسلالات الوافدة من الخارج وصبتها وقضت على خصائصها وميزاتها وأحرقتها - أعزة محفوظين من التأثيرات الخارجية ، وقد أنتج فيهم هذا الشعور غير دينية وسُلالية ، وقوة مقاومة خارقة ضد كل التأثيرات الخارجية ، استطاعت أن تبقى على شخصيتهم المميزة إلى حد كبير ، وأن تنقل خصائصها عبر القرون إلى الأجيال بعد الأجيال .

وقد جاءت هذه الحقيقة واضحة جلية فى وصية من وصايا الإمام الدهلوى التى كتبها فى رسالة باسم « المقالة الوضيئة فى الوصية والنصيحة » التى خاطب فيها أولاً أسرته وعشيرته الأقربين ، ثم سائر أصحابه ، والأمة الإسلامية الهندية كلها ، يقول الإمام الدهلوى :

« إنه لا ينبغي لنا أن ننسى أننا غرباء ( فى هذه البلاد ) لقد هاجر آباؤنا إلى الهند ، وأن عربية نسبنا ولغتنا مفخرتان لنا عظيمتان ، فهما تقرباننا من سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين ، ومفخرة الكون والخلق أجمعين محمد عليه الصلاة والتسليم ، وإن من واجب الشكر على هذه النعمة الجليلة أن لا تنقطع صلتنا - كلياً - بعادات أولئك العرب الأولين وتقاليدهم ، الذين نشأ فيهم رسول الله ﷺ - ولا ندع تقاليد العجم وعادات أهل الهند الوثنيين وطقوسهم تنتشر وتشيع فينا » .

ثم يقول :

« أن السعيد منا من له مشاركة فى اللغة العربية ، وإلمام بالصرف والنحو والأدب ، وإطلاع على القرآن والحديث ، ويلزمنا أن نتشرف بزيارة الحرمين الشريفين - بين فينة وأخرى - وتكون لنا بها صلة قلبية ، وفى ذلك سرُّ سعادتنا وفى الإعراض عنه سرُّ شقائنا وحرماننا (٤٢) .

---

(٤٢) « المقالة الوضيئة فى النصيحة والوصية » ( بالفارسية ) طبع دلهى عام ١٢٦٧ هـ .

وقد كانت هذه الأسرة علاوة على أنها كانت عربية الأصل ، جليلة النسب ، حائزة على شرف الانتساب إلى سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - وقد وفق الله - تعالى - الأسر العمريّة الفاروقية في الهند ، - مراراً وتكراراً - للمآثر التجديدية العظيمة من الحفاظ على الدين ، وإعلاء شعائر الإسلام ، ومقاومات الحركات المعادية للإسلام ، التي كانت تنطوي فيها الغيرة الفاروقية ، ولعل الصلة النسبية والروحية سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - أيضاً كانت تدفع إليها ، وهى من أكبر الدوافع النفسية وأقواها ، فقد قاوم أحد أفراد هذه السلالة فى القرن العاشر فتنة الملك أكبر ، واجتث - بحول الله تعالى - جرثومتها ، وحفظ - بإذن الله تعالى - الهند من تعرضها لمؤامرة خطيرة من فتنة وحدة الأديان ، ودعاوى « العهد الجديد » و « القانون الجديد » و « الألف الجديد » و « الإمامة الجديدة » ، والكفر والإلحاد<sup>(٤٣)</sup> ، وكان الشيخ أحمد السرهندى يعتز بهذه النسبة ، ويرى هذه الحمية الدينية نتيجة طبيعية لها وإحدى مقتضياتها ، وقد صدرت من قلمه على سماع بعض التحقيقات المخالفة للعقائد الإسلامية ومسلك جمهور أهل السنة والجماعة منسوبة إلى شيخ وعارف شهير ، هذه الكلمات القوية :

« يا سيدى ! إن هذا الفقير لا يستطيع أن يصبر على هذه الأقوال إنه ينبض فى عرقى الفاروقى »<sup>(٤٤)</sup> .

وكذلك لما سمع أن خطيب الجمعة فى قرية « سامانه » ترك ذكر الخلفاء الراشدين عمداً فى خطبته ، قال :

« لما أورت هذا الخبر الموحش المقلق اضطراباً فى نفسى وحرك عرقى الفاروقى وأثاره صدرت من قلمى هذه الكلمات المعدودة »<sup>(٤٥)</sup> .

ومن المقطوع به أنه يكون لهذه النسبة والنسب والشعور بشرفه ومسئوليته تأثير ودخل فى ذلك العمل الضخم المتنوع الواسع ، الذى قام به الإمام الدهلوى لتجديد الدين وإحيائه (والذى اشتمل على إصلاح العقائد ، والرد على الإشراك والبدع ، ونشر الكتاب والسنة ، وترويح فى الحديث الشريف ، والرد على الرفض والتشيع ، وإثبات خلافة الخلفاء

---

(٤٣) انظر للتفصيل « رجال الفكر والدعوة » ج : ٣ ، ص : ٥٤ - ٦٣ ، وص : ٩٨ - ١٠٢ .

(٤٤) الرسالة رقم ١٠٠ ، وهى موجهة إلى الشيخ حسن الكشميرى .

(٤٥) الرسالة رقم ١٥ ، الجزء السادس ، المجلد الثانى .

الراشدين ، وغير ذلك ) وهو أمر يتفق وعلم النفس وعلم الحياة ، والتجارب والأصول  
النسبية ( التي توجد أمثلتها والشواهد عليها في تاريخ الأسر والأجيال بكثرة ) ويؤيده  
العقل والقياس ، وقد جاء في الحديث الصحيح :

« الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا  
فقهوا » (٤٦)

---

(٤٦) صحيح مسلم .





## الباب الرابع

### حياة الإمام الدهلوى بإيجاز<sup>(١)</sup>

ولادته :

ولد الإمام الدهلوى صباح يوم الأربعاء عند طلوع الشمس فى ٤ / شوال عام ١١١٤ هـ فى أخواله قرية « فلت » فى مديرية مظفرنكر ، وأرخت ولادته بـ « عظيم الدين »<sup>(٢)</sup> ، وقد كان والده الشيخ عبد الرحيم عند ولادته فى الستين من سنه ، وقد سبقت ولادة هذا الابن المبارك كثير من المبشرات ، ولما كان الشيخ عبدالرحيم أراد أن يتزوج زوجاً ثانياً وكان قد بلغ الستين ، وزوجته الأولى والدة الشيخ صلاح الدين فى حبالته ، كان فى هذه الإرادة دخل للإشارات الغيبية والبشارات الكثيرة ، ولما علم بذلك الشيخ محمد الفلتى قرر أن ينكحه ابنته<sup>(٣)</sup> ، وتم هذا الزواج السعيد فى أوائل عام ١١١٤ هـ .

وفيد « القول الجلى » أن اسم هذه الزوجة كان فخر النساء ، وكانت تمتاز ببراعة فائقة فى العلوم الدينية ، قلما يتيسر مثلها للنساء ، يقول مؤلف هذا الكتاب الشيخ محمد عاشق الفلتى الذى كان ابن أخيها الشقيق ، وصاحب البيت أدرى بما فيه :

« كانت أمه الكريمة عالمة بالعلوم الشرعية كالتفسير والحديث متحلية بأداب الطريقة عارفة بأسرار الحقيقة ، وكانت لجمعها هذه الفضائل مفخرة للنساء ، واسماً على مسماه » .

وقد رأى الشيخ عبد الرحيم قبل ولادته ، الشيخ خواجه قطب الدين بختيار الكعكى

---

(١) لقد نُقلت إليا من حُسن الحظ-ترجمة الإمام الدهلوى ، وما قرأ من مقررات دراسية وشئ من منهج والده فى التربية والتعليم ، وبيعته وإجازته ، ورحلته إلى الحجاز ، واستفادته من مشائخه ، والتعريف بهم وتراجمهم ، وأهم وقائع حياتهم بقلم الإمام الدهلوى نفسه ، فهناك مصدران أساسيان لهذه المواد والمعلومات ، أولهما « الجزء اللطيف » والثانى « إنسان العين فى مشائخ الحرمين » ، وقد اقتبسنا ما يتعلق بحياة الإمام الدهلوى من هذين الكتاين ، واستفدنا فى بعض المواضع من « أنفاس العارفين » و « القول الجلى » .

(٢) الجزء اللطيف ، ص : ٢ ، طبع لاهور .

(٣) أنفاس العارفين ، ص : ٦٢ - ٦٣ .

فيما يراه النائم ، فبشره بالولد ، وقال اجعل اسمه على اسمي « قطب الدين أحمد » يقول الإمام الدهلوي : لما وُلِدْتُ كان الوالد قد نسي هذا المنام ، وسماني بولي الله ثم تذكر بعد برهة ، فسماني ثانياً قطب الدين أحمد .

كان الإمام الدهلوي في السابعة من عمره إذ شارك والديه في قيام الليل ووضع يديه عند الدعاء في أيديهما ، وهكذا جاء تأويل تلك الرؤيا التي كان رآها والده قبل ولادته» (٤) .

دراسته :

ولما بلغ الإمام الدهلوي الخامسة من عمره أدخل الكتاب (٥) ، واختتن في السابعة من عمره وعود من هذه السن على الصلاة ، وفرغ في أواخر هذه السنة من حفظ لقرآن الكريم ، وبدأ قراءة الكتب الفارسية والكتب الإبتدائية المختصرة في العربية (٦) ، وفرغ من « الكافية » وبدأ قراءة « شرح الجامي للكافية » وهو ابن عشر سنوات ، يقول : « وحصل لي استعداد المطالعة في الجملة (٧) ، ولما كان في السنة الرابعة عشرة من عمره قرأ شيئاً من البيضاوي ، وفرغ من العلوم المتداولة في هذه البلاد ، وهو في الخامسة عشرة من عمره ، يقول : ونظم سيدي الوالد بهذه المناسبة السارة مآدبة فخمة للخاص والعام ، وأطعم طعاماً وافراً (٧) .

ويقول : وسمعت ( وهو في الخامسة عشرة من عمره ) من سيدي الوالد بقراءة بعض أصحابي المشكاة إلا طرفاً يسيراً أعنى من كتاب البيوع إلى الآداب ، ولكن تداركت ما فات عني بالإجازة وقرأت من الصحيح للبخاري إلى كتاب الطهارة تقريباً والشمائل للترمذي كله ، وقرأت في التفسير طرفاً من المدارك والبيضاوي (٨) ويقول : ومن منن الله العظمى على أني حضرت مراراً عند والدي لدراسة معاني القرآن والبحث عن أسباب النزول والنظر في تفاسير ، فكان هذا سبب فتح أبواب معاني القرآن العظيم والحمد لله (٩) .

(٤) أنفاس العارفين ، ص : ٦٣ .

(٥) الجزء اللطيف ، ص : ٢ .

(٦) أيضاً .

(٧) أيضاً .

(٨) أيضاً .

(٩) أيضاً .

## المقررات التي درسها الإمام الدهلوى :

لقد ذكر الإمام الدهلوى فى الجزء « اللطيف » تلك المقررات الدراسية - بتفصيل - التى درسها ، وهى كما يلى :

يقول : وقرأت من الفقه « شرح الوقاية » و « الهداية » إلا طرفاً منهما ومن أصول الفقه « الحسامى » ، وطرفاً صالحاً من « التوضيح والتلويح » ومن المنطق « شرح الشمسية » كله ، وقسطاً من « شرح المطالع » ، ومن الكلام « شرح العقائد » كله ، مع جملة من حاشية الخيالى ، وشيئاً من « شرح المواقف » ، ومن السلوك قطعة من « العوارف » ، وبعضاً من « الرسائل النقشبندية » وغيرها ومن الحقائق « شرح الرباعيات » لمولانا الجامى و « اللوائح » و « مقدمة شرح اللمعات » ومقدمة « نقد النصوص » ، ومن خواص الأسماء والآيات المجموع الخاص لذاته ، و « الفوائد المائة » وغيرها ، وأجازنى بها مرة بعد أخرى .

ومن الطب « الموجز » ، ومن الحكمة « شرح هداية الحكمة » وغيره ، ومن النحو « الكافية » وشرحه للجامى ، ومن المعانى « المطول » أكثره و « المختصر » قدر ما عليه حاشية لملازاده ، وبعض الرسائل المختصرة من الهندسة والحساب :

لقد كان فى هذه المقررات التى درسها الإمام الدهلوى دخل ما لاجتهاد والده وأستاذه الأول الحقيقى الشيخ عبد الرحيم واختياره وانتقائه ، فإن المقررات الدراسية التى كانت متداولة فى القرن السابع الهجرى فى الهند والتى أضيف إليها فى القرن التاسع الهجرى بعد مقدم الشيخ عبد الله والشيخ عزيز الله من ملتان إلى دلهى وبقيت ماثرة فى الأوساط الدراسية إلى القرن الثانى عشر الهجرى عدد من الكتب فى علم الكلام والبلاغة والمعقولات ، ثم أدخلت فيها فى القرن العاشر بعد مقدم الأمير فتح الله الشيرازى إلى الهند مؤلفات العلماء الإيرانيين المتأخرين كالمحقق الدوانى والميرصدر الدين الشيرازى والميرغياث الدين منصور وميرزاجان ، ولعل الشيخ عبد الرحيم لواقعيته واعتماده على ذكاء ابنه حذف منها عدداً من الكتب ( التى كانت تشتمل على مواضيع ومعلومات متكررة ) فقد درسه فى النحو - على سبيل المثال - « الكافية » و « شرح الجامى » مكان « المصباح » و « لب الألباب » تأليف القاضى ناصر الدين البيضاوى ، و « الإرشاد » تأليف القاضى شهاب الدين الدولة أبادى ، وفى أصول الفقه طرفاً صالحاً من « الحسامى » و « التوضيح والتلويح » « بدل » المنار « وشروحه » و « أصول الرزدوى » وحذف « الكشف » فى التفسير ، كما لا يوجد « مشارق الأنوار » فى مقررات الحديث .

وقد كان لمقامات الحريري في الأدب رواج وسيادة حتى يذكر أن بعض المشائخ كانوا يحفظونه عن ظهر قلوبهم ، ولكننا لا نجد في المقررات الدراسية عند الإمام الدهلوي ، ومن الممكن أن كثيراً من هذه الكتب أصبحت مهجورة في كثير من الأوساط الدراسية إلى أوائل القرن الثاني عشر .

وليكن معلوماً أنه في القرن الثاني عشر الهجري نفسه كان أستاذ العلماء ملا نظام الدين السهالوي الفرنكي محلي ( الذي كان معاصراً للإمام الدهلوي وأكبر منه في عمره ، والذي توفي قبل وفاة الإمام الدهلوي بـ ١٥ سنة عام ١١٦١ هـ ) قد زاد زيادات كثيرة في هذه المقررات الدراسية ، لا سيما في علم الصرف والنحو والمنطق والفلسفة والرياضيات والبلاغة وعلم الكلام ، فقد أضاف فيها كثيراً من الكتب والتي ظهرت بعد زيادات وإضافات أخرى ( وهي التي تمت في عهد تلامذته وتلامذة تلامذته بدون تصميم وتخطيط ) في صورة المنهج النظامي أو المقررات الدراسية النظامية التي لا تزال سائدة في المدارس القديمة أو القائمة على الطراز القديم (١٠) .

ولا نجد ضمن المقررات التي ذكرها الإمام الدهلوي أي كتاب في الأدب العربي مع أن مؤلفات الإمام الدهلوي ، لا سيما « حجة الله البالغة » تشهد على أنه ليس قادراً على اللغة العربية ، والتحرير والإنشاء فحسب بل إذا نظرنا إلى كتابه « حجة الله البالغة » فهو مؤسس لطراز أسلوب جديد هو أليق ما يكون من الأساليب بشرح المواضيع والمطالب العلمية وتحريرها ، ولا نجد له فيه بعد العلامة ابن خلدون نظيراً ولا قريناً ، ويبدو أن الإمام الدهلوي كان قد طالع بنفسه كتب الأدب العربي وكتب النثر والنظم الديمة ذات المستوى الرفيع التي كانت مثلاً لسلامة البيان وحلاوة العبارات ، وكانت مصونة من التأثيرات الأعجمية ، وأنه قد أعد نفسه أثناء أقامته بالحجاز لذلك العمل التأليفي العظيم في اللغة العربية - بصفة خاصة - الذي كان قد اختصه به التدبير الإلهي (١١) ، وإذا كان لم يهمل ذكر « مقامات الحريري » سهواً ونسياناً فكان عدم إدخالها في مقرراته الدراسية خيراً له

---

(١٠) انظر للاطلاع على التطورات الحادثة في المقررات الدراسية في الهند ، والتغير في مقاييس الفضل والنبوغ في مختلف العهود ، وزيادة عدد من الشروح والحواشي لكتاب واحد في المقررات وعواملها وأسبابها ، كتاب « الثقافة الإسلامية في الهند » للعلامة عبد الحى الحسنى ، طبع بالمجمع العلمي بدمشق .

(١١) يقول مؤلف « اليانع الجنى » : وقد أقام بالحجاز ستين وزاحم العرب وسمع من أهل البادية وهم يومئذ أحسن حالاً منهم في زماناً ، ص : ٨٣ .

ومفيداً بدلاً من أن ينقصه ويضره ، فإن أكثر المتأخرين من صرعى هذا الكتاب ، الذين قيدوا أنفسهم بالعبارات المسجعة والجمل المقفاة حتى لم يعودوا قارين على أداء المطالب العالية ، والتعبير عمّا في نفوسهم بعبارة سهلة سلسلة غير متكلفة ، وكل من جاء بعد الحريرى وألف فى موضوع من المواضيع ألف بقلم الحريرى الذى كان قد بلى ومضى عليه الدهر ، حتى لا نجد الرسائل والمكاتبات ، وتقریظات الكتب والمقدمات إلى عبارات الفتاوى الطويلة حرة طليقة من هذا التأثير للحريرى .

يقول الإمام الدهلوى : وكان يخطر ببالى فى أيام الطلب المطالب العالية تزداد بالجد والاجتهاد . . . . وبعد وفاة ( سيدى الوالد ) واظبت على تدريس الكتب الدينية والعلوم العقلية نحواً من اثنتى عشرة سنة ، ووقع الخوض فى كل علم (١٢) .  
تربية الوالد وعطفه وإجازته واستخلافه :

يقول الإمام الدهلوى : كان ( والدى ) يعطف على الفقير ويراعى حقوق البؤة بكل لطف ودقة ، لا يعدله عطف أى أب على الابن ، ولا ضنة أى استاذ بتلميذه ولا رافة أى مرشد لمريده (١٣) .

وكان منهج الشيخ عبد الرحيم فى التربية منهجاً تربوياً حكيماً ، يقول الإمام الدهلوى : خرجت ذات مرة - فى صغرى - مع جماعة من أصدقائى وأقربائى إلى بستان ، فلما عدت من هناك ، قال لى والدى : ولى الله ! ما الذى أحرزته فى هذا اليوم والليلة مما يبقى ؟ أما أنا فقد صليت على النبى ﷺ كذا مرة ، يقول الإمام الدهلوى : لقد انصرف قلبى عند سماع هذا كلياً عن زيارة البساتين والتفرجج فيها ، ثم لم تعد لى رغبة إليها (١٤) ، ويقول : كان والدى يعلمنى - كثيراً - الحكمة العلمية ، وآداب المجالس والمحافل وكثيراً من أمور الحكمة والأدب ومكارم الأخلاق ، وكان كثيراً ما ينشدها البيت الفارسى الذى معناه :

« راحة العالمين ( عالم الدنيا وعالم الآخرة ) تفسير لهاتين اللفظتين ، الملاطفة مع الأصدقاء والمداراة مع الأعداء » (١٥) .

---

(١٢) الجزء اللطيف ، ص : ٣ .

(١٣) أيضاً .

(١٤) أنفاس العارفين ، ص : ٦٣ .

(١٥) (٢) أيضاً .

ويقول : وكان ينصحني بأن أبدأ - دائماً - من هم أقل شأنًا ومرتبة بالسلام ، وأن أبش في وجوههم واستقبلهم ببشر ، وأتعهدهم وأتفقد أحوالهم ولا أرى ذلك أمراً هيناً زو شيئاً تافهاً ، يقول أحد شعراء الفارسية ما معناه :

« تستطيع بأدنى لحظتك أن تشتري مئاة مملكة القلوب ، ولكن أصحاب الحسن والجمال يقصرون في هذا ولا يباليون » .

وكان يقول : إن بعض الناس يلتزمون لباساً خاصاً ، أو يتقيدون بعادة خاصة ، أو يتعودون على كلمة يكررونها ، أو يكرهون بعض الأطعمة إلى حد أنهم يعافون ذكره ، ويغضبون عند سماع اسمه ، فينبغي الاحتراز من هذه الأشياء كلها ، ولا يكون الغرض حقيقى مطلب أو قضاء حاجة من الحاجات ، أو الحصول فى فضيلة من الفضائل ، أو أداء ستة من السنن ، ولا يظهر منك الكسل أو الضعف فى المشى والسير والقيام والقعود وفى أى شئ ، وكان الشيخ عبد الرحيم - حسب تصريح الإمام الدهلوى - متصف بصفات الرجولة والشهامة من شجاعة وفراسة وحسن إدارة وغيره ، وكان يملك « عقل المعاش » كاملاً موفوراً ك « عقل المعاد » ، وكان يحب التوسط فى كل شئ ، وقد كانت سيرة الإمام الدهلوى وأخلاقه عكساً من عكوس سيرة والده وأخلاقه (١٦) .

يقول الإمام الدهلوى : ثم بايعت ( وكان فى الرابعة عشرة من سنه ) سيدى الوالد ، ثم اشتغلت بأشغال الصوفية سيما المشائخ النقشبندية ، وحصلت التوجه والتلقين وطرفاً صالحاً من تعليم آداب الطريقة وألبست الخرقه ، ثم حين بلغت السابعة عشرة من عمري ، مرض سيدى الوالد ، وانتقل إلى جوار رحمة الله تعالى ، وفى المرض الذى مات فيه أجازنى للبيعة والإرشاد ، وكرر « يده كيدى » (١٧) .

### زواجه :

يقول الإمام الدهلوى : وفى السنة الرابعة عشرة تزوجت ( وكان زواجه هذا بنت خاله الشيخ عبد الله الصديقى الفلتى ) وأسرع فضيلة الوالد فى التزويج حتى أنه لما اعتذر أصهارى عن تحمل أعباء هذا الأمر واستمهلوه ، كتب إليهم سيدى الوالد : أن فى هذا التعجيل سراً ، ثم أثبتت الوقائع والفجائع المتتالية فيما بعد أن التزويج إن لم يكن فى

(١٦) أنفاس العارفين ، ص : ٨٣ .

(١٧) الجزء الليف ، ص : ٢ .

ذلك الحين ، لم يكن إلى سنين<sup>(١٨)</sup> ، وقد ولد له من هذه الزوجة ابنه الأكبر الشيخ محمد، الذي تخرج عليه ، وألف الإمام الدهلوى له رسالة ابتدائية ، وكان هو من الحاضرين مع الشيخ عبد العزيز فى درس « شمائل الترمذى » وقارنه<sup>(١٩)</sup> ، وانتقل بعد وفاة الإمام الدهلوى إلى قرية « بدهانة » ولبث بها إلى أن توفى عام ١٢٠٨ هـ ودفن فى فناء الجامع بالقرية<sup>(٢٠)</sup> ، وكان الإمام الدهلوى يكنى به « أبا محمد »<sup>(٢١)</sup> ويرد ذكر ابنين للشيخ محمد دفنا جنبيه فى كتاب « مقالات طريققت » ، ولكن الكتب الأخرى تصفه أنه لا عقب له ، وقد وجه الشيخ عبد العزيز فى ثلاث من رسائله إلى الشيخ أبى سعيد الحسنى الرائى بريلوى تحيات أخيه الأكبر الشيخ محمد بن ولى الله وتسليماته إليه ، ووصفه فى رسالة : « الأخ الأكبر الشيخ محمد » وفى أخرى : « الشيخ الكبير محمد » ، ويقدر من هذه الرسائل ما كان بين الأخوة من حب ومودة<sup>(٢٢)</sup> .

### الزواج الثانى :

لقد تمَّ زواج الإمام الدهلوى الثانى بعد وفاة زوجته الأولى بكريمة السيد ثناء الله السونى بى المسماة « السيدة أرادت » ، وكان السيد ثناء الله من سكان سونى بت ومن أعقاب السيد ناصرالدين السونى بى الشهيد ، وقد ولد الإمام الدهلوى من هذه الزوجة الكريمة أبناءه الأربعة المعروفون (الشيخ عبد العزيز ، الشيخ رفيع الدين ، الشيخ عبدالقادر ، والشيخ عبد الغنى ) الذين هم الأركان الأربعة للنهضة الدينية العظيمة فى الهند ، رحمهم الله تعالى - كما ولدت له كذلك بنت سميت بـ « أمة العزيز » ، وكان زواجها بالشيخ محمد فائق بن الشيخ محمد عاشق الفلتى ، وكان لها أولاد ، تناسلوا وتعاقبوا .

### رحلته للحج :

إن رحلة الإمام الدهلوى إلى الحجاز وإقامته به تحتل فى حياته العلمية والفكرية

(١٨) يقول الإمام الدهلوى : أنه قد ماتت أم زوجتى بعد أيام ، ثم بعد قليل توفيت جدتها من قبل الأم ، ثم مات الشيخ فخر العالم بن فضيلة عمى الشيخ أبو الرضا محمد قدس سره ، ثم مات أم أخى الكبير الشيخ صلاح الدين .

(١٩) نزهة الخواطر ، ج: ٦ .

(٢٠) أيضاً .

(٢١) الإرشاد فى مهمات الإسناد .

(٢٢) مكتوب المعارف ( مخطوط ) ص: ١٦ - ١٧ - ١٨ .

والدعوية التجديدية مكانة تاريخية كبيرة ، وتعتبر باباً جديداً ، خطأ فاصلاً ، بين عهدين ، إن ملكاته العلمية والعقلية في إثناء هذه الإقامة الطويلة التي تمتد على أكثر من عام ، قد تدرجت في مدارج الرقى التي لم تكن لتيسر له - في ظاهراً الحال - لو بقى في الهند ، كان لا بد لذلك من مكان مركزي عالمي كالحرمين الشريفين ، ففي هذه الرحلة كانت دراسته الواسعة العميقة لعلم الحديث الشريف ، وأكمل هذا الفن على أيدي الأساتذة الكبار الشيوخ الكاملين ، الذين كانوا قد اجتمعوا هناك من مختلف الأقطار والأمصار ، وذلك ما يحتل مكانة « حجر الزاوية » في إيوان إصلاحه وتجديده العظيم ، والذي قد وصل به إلى تلك المنزلة من التحقيق والاجتهاد التي قل من يصل إليها في هذه القرون المتأخرة ( وأما اكتناؤه لأسرار الشريعة مقاصدها وغاياتها وتطبيقه بين الفقه والحديث ) فلم يصل إليها أحد منذ عدة قرون .

كان الإمام الدهلوي عند رحلته للحج في الثلاثين من عمره<sup>(٢٣)</sup> ، وقد كانت هذه الرحلة دليلاً ساطعاً على علو همته وحبه للعلم ، وصلته القلبية القوية بالحرمين الشريفين نظراً إلى أوضاع ذلك العهد السياسية ، وحالة الأمن المضطربة في الطرق وسيطرة بعض القوى الأجنبية ، والأخطار البرية والبحرية ، والقرصنة وقطع الطريق كما يدل على حميته الإسلامية وبعد نظره وسمو فكره ، إذ أنه لم يكن منحصرأ في مهمة الحفاظ على الدين في الهند ، وتقدم الأمة الإسلامية الهندية ، وازدهارها واستقلالها في دراسة أوضاع الهند ، والاطلاع على ظروفها وأحوالها فحسب ، والتفكير في علاجها وإصلاحها ، بل إنه كان يريد أن يستفيد تطبيقاً لهذه الإشارة القرآنية البليغة : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾<sup>(٢٤)</sup> ، من قلب العالم الإسلامي ومركزه ومن علوم الوافدين من أقطار الأرض وأرجاء المعمورة من وفود الإسلام وضيوف الرحمن ومعارفهم ، وعقولهم وأذهانهم ، وأفكارهم وآرائهم ، وجهودهم وتجاربهم .

---

(٢٣) يستفاد من « القول الجلى » أن الإمام الدهلوي قبل هذه الرحلة للحج التي وفق فيها كان قد عزم فجأة على السفر للحج ، والهجرة إلى الحرمين الشريفين في حين كان عمره عشرين سنة ، وخرج من الوطن خفية بدون زاد وراحلة ، فلما وصل إلى المرفأ علم أن السفن تحركت ولم تبق أى سفينة ، فاضطر للإقامة في مدينة « كهبايت » ثم غلبت عليه في إحدى مراقباته وخلواته كيفية صرفته عن هذه الإدارة ، فمال طبعه عن السفر وعزم على الرجوع وكانت في ذلك إشارة من حضرة النبي ﷺ أيضاً . ( القول الجلى ) .

(٢٤) سورة الحج الآية : ٢٨ .



وقد كانت « سورت » - حينذاك - ميناء العند وباب مكة المشرفة ، وكانت المناطق الواقعة في الطريق لا سيما مناطق مالوه وكجرات معرضة لغارات المرهته وحملاتهم وعمليات سلبهم ونهبهم ، وكان من العسير الشاق قطع هذا الطريق من شمال الهند إلى جنوبه بالمراكب القديمة وعجلات الإبل والثيران<sup>(٢٥)</sup> ، وكانت جميع سواحل بحر الهند والبحر الأحمر مهددة بهجمات القراصنة البرتغاليين والهولنديين وحملات الفرنسيين والإنكليز المستعمرين ، ويمكن أن تقرأ تفاصيل مصائب الحجاج وحوادثهم والأخطار التي كانت تحدق بسفر الحج ، في مذاكرات الرحلات لذلك العهد ( التي لم يترتب منها ولم يحفظ إلا القليل ) وقد كان هذا الحال في الهند نفسها أن شخصاً إذا ترك وحده في الليل في قرية أو عمران فكان يخشى عليه ، ويدعو الإمام الدهلوى نفسه متضرعاً : يا بديع العجائب ، ( وكان ذلك ورداً يقرأ عند غياب شخص والخوف عليه ) .

وصل الإمام الدهلوى من « سورت » إلى جدة في ٤٥ يوماً ، ودخل مكة المكرمة يوم ١٥ من ذى القعدة ، وبدأ على طلب العلماء والطلاب - درسه في المسجد الحرام عند المصلى الحنفى ، الذى كثر فيه الناس وتهافتوا عليه<sup>(٢٦)</sup> .

يقول الإمام الدهلوى فى « الجزء اللطيف » : فى سنة ١١٤٣ هـ تفتت إلى زيارة الحرمين الشريفين ، وتشرفت بالحج فى آخرها ثم جاورت فى سنة ١١٤٤ هـ بيت الله الحرام ، وزرت المدينة المنورة ، أروى الحديث عن الشيخ أبى طاهر المدنى وغيره وجالست علماء الحرمين وغيرهم مجالسات طويلة واسعة ، ولبست الخرقه الصوفية من الشيخ أبى طاهر المدنى - رحمه - ولعلها حاوية لخرق الصوفية كلها ، وعلى تمام هذا العام ، أى عام ١١٤٤ هـ ، أدت مناسك الحج ثم عدت إلى الهند فى أوائل سنة ١١٤٥ هـ وانتهت إلى الوطن المألوف فى يوم الجمعة العاشر من رجب سنة ١١٤٥ هـ فى كنف الصحة والسلامة .

### مشايخ الإمام الدهلوى وأساتذته فى الحرمين الشريفين :

لقد ألف الإمام الدهلوى فى تراجم مشائخه وأساتذته فى الحرمين الشريفين رسالة سماها « إنسان العين فى مشائخ الحرمين » وقد ذكر فيها شيخه الخاص وأستاذه المحسن إليه

---

(٢٥) تفيد مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز الدهلى ( ملفوظات عزيزة ) أن الإمام الدهلوى كان قد مرَّ فى هذه الرحلة بولاية « راجبوتانة » أيضاً ، انظر ص : ٧٣ .

(٢٦) القول الجلى ، ( مخطوط ) .

المحبوب الشيخ أبا طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني بشئ من التفصيل ، ولما كان الأساتذة والمشايع المربون يطبعون تلامذتهم الأذكياء ذوى الاستعداد العالى بطابعهم العميق ، ويكون لميولهم ونزعاتهم وبحوثهم وتحقيقاتهم تأثير كبير مثير على الطلاب النجباء فمن المناسب هنا أن نذكر تراجمهم بشئ من التفصيل .

### الشيخ أبو طاهر المدني :

يقول الإمام الدهلوى : لقد قرأ الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الحديث على والده الشيخ إبراهيم الكردي ، ثم كانت أكثر استفادته من الشيخ حسن العجيمى<sup>(٢٧)</sup> ثم قرأ على الشيخ أحمد النخلى والشيخ عبد الله البصرى ، شمائل الترمذى « ومسند الإمام أحمد » فى أقل من شهرين ، وكان يستفيد من العلماء الوافدين إلى الحرمين الشريفين ، وقد نال من الشيخ عد الله اللاهورى إجازة رواية الكتب للشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى ، والشيخ عبد الحكيم السيالكوتى ، وقرأ على الشيخ سعيد الكوكنى بعض الكتب العربية والربع من « فتح البارى »<sup>(٢٨)</sup> .

وذكر العلامة محسن بن يحيى الترهتى فى « اليانع الجنى » : أن الشيخ أبا طاهر كان يقول : كان الشيخ ولى الله يسند عنى اللفظ وكنت أصحح منه المعنى وكتب ذلك فى إجازته له أيضاً<sup>(٢٩)</sup> .

وقد كان كان الشيخ أبو طاهر ( رغم كونه محدثاً جليلاً ) حسن الظن بالصوفية محترماً عن انتقادهم والزراية عليهم ، ويقول الإمام الدهلوى : إننى لما ذهبت إلى الشيخ أبى طاهر للتوديع والمغادرة إلى الوطن ، أنشدنى هذا البيت :

نسيت كل طريق كنت أعرفه      إلا طريقاً يؤدّينى لربكم

وكان رد الإمام الدهلوى كذلك ، ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوى : لما أراد والدى

---

(٢٧) ذكر الإمام الدهلوى فى « إنسان العين » نسبه « العجمى » ولعله خطأ مطبعى ، فإنه ذكر فى عامة كتب التراجم « العجيمى » ( بالتصغير ) ( انظر الأعلام للزركلى ، ج : ٢ ، ص : ٢٢٣ ) .

(٢٨) « إنسان العين » ص : ١٣ .

(٢٩) « اليانع الجنى فى أسانيد الشيخ عبد الغنى نقلاً عن « كشف الأستار عن رجال معانى الآثار » طبع دار الإشاعة والتدريس ( ديوبند الهند ) .

العودة من المدينة المنورة ، قال لشيخه ( أبى طاهر ) وقد سرَّ الشيخ بهذا القول : إننى قد نسيت كل ما قرأته سابقاً إلا علوم الدين وعلم الحديث الشريف - بصفة خاصة - (٣٠) .

وقد صدقت ذلك حياة الإمام الدهلوى وأشغاله وأعماله ( التى سيأتى تفصيلها فى الصفحات القادمة ) فيما بعد ، وقد حقق ما نطق به لسانه وأثبت القول بالعمل : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (٣١) .

توفى الشيخ أبو طاهر فى شهر رمضان عام ١١٤٥ هـ ، أى بعد مغادرة الإمام الدهلوى المدينة المنورة والوصول إلى دلهى بشهر ونصف أو شهرين (٣٢) ، فلم تمهله الفرصة بعد مقدم الإمام الدهلوى إلى الهند للافادة والتربية والتدريس إلا قليلاً ، « وذلك تقدير العزيز العليم » .

ومما يجدر بالذكر فى ترجمته أن والده الشيخ إبراهيم الكورانى (٣٣) كان يدافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، يقول العلامة السيد نعمان خير الدين الألوسى البغدادى فى كتابه الشهر « جلاء العينين فى محاكمة الأحمديين » .

وكان سلفى العقيدة ، ذابا عن الشيخ الإسلام ابن تيمية ، وكذا يذب عما وقع فى كلمات الصوفية ما ظاهره الحلول أو الاتحاد أو العينية (٣٤) .

ويستتج من ذلك أن ما جاء فى كتابات الإمام الدهلوى من تعريف وإشادة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، والانتصار له والدفاع عنه ، ونزعة التطبيقية التى ورثها عن آبائه ، كان لأحاديث الشيخ أبى طاهر فيها أيضاً نصيب وتأثير ، ولعله ورث هذه النزعة من والده الشيخ إبراهيم الكورانى .

### الشيخ تاج الدين القلعى الحنفى :

وكان الأستاذ الثانى للإمام الدهلوى الذى أجازته برواياته هو الشيخ تاج الدين القلعى الحنفى مفتى مكة المكرمة ، وقد كانت أكثر دراسته للحديث الشريف تمت على يدى الشيخ

---

(٣٠) ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص : ٩٣ .

(٣١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣ .

(٣٢) « إنسان العين » ص : ١٤ .

(٣٣) ولد سنة ١٠٢٥ هـ وتوفى سنة ١١٠١ هـ ، وله أكثر من ثمين مؤلفاً .

(٣٤) جلاء العينين ، طبع مطبعة المدنى ، مصر ، ص : ٤١ .

عبد الله بن سالم المصري ، وقرأ الصحيحين على الشيخ العُجَيْمِي ونال منه الإجازة العامة المطلقة ، وله إجازة أيضاً عن الشيخ أحمد النخلى وغيره ، وقد حضر الإمام الدهلوى دروسه لصحيح البخارى ثلاثة أيام وسمع منه أطراف الكتب الستة وطرفاً من « الموطأ » ، و« مسند الدارمى » و « كتاب الآثار » للإمام محمد و« الموطأ » له ، وأجاز الشيخ جميع الحاضرين ، وكان منهم الإمام الدهلوى ، وسمع منه الحديث المسلسل بالأولية (٣٥) .

**الشيخ محمد وفد الله المالكى :**

وأخذ الإمام الدهلوى إجازة الشيخ محمد وفد الله المالكى لجميع مروياته عن والده حافظ الحديث ومجمع الفضائل الشيخ محمد بن محمد بن سليمان العربى ( الذى كان يملك النسخة البنونية ، جاء بها من استانبول إلى الحرمين الشريفين وكان شيخ جمهور أهل الحرمين وأستاذهم ) وقرأ عليه - زيادة على ما تقدم - جميع « الموطأ » برواية يحيى بن يحيى المصمودى ، وأجازه الشيخ بروايته (٣٦) .

وكان الإمام الدهلوى - أيام طلبه فى الهند - حضر دروس إمام الحديث الشيخ محمد أفضل السيالكوته (٣٧) ، الذى كان يروى الحديث عن الشيخ سالم بن عبد الله البصرى ، وكان هو تلميذ الشيخ عبد الأحد ابن الشيخ محمد سعيد السرهندي أيضاً ، الذى كان يدرس فى مدرسة غازى الدين خان بدلهي ، وكان الشيخ ميرزاً مظهر جان جانان استفاد منه فى الحديث والسلوك (٣٨) .

وقد كان يرافق الإمام الدهلوى فى رحلته هذه خاله الشيخ عبيد الله البارھوى وابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتى ( مؤلف القول الجلى ) وقد سمع الإمام الدهلوى نبأ وفاة والدته فى العودة من هذه الرحلة بمكة المكرمة (٣٩) .

لقد كانت هناك للإمام الدهلوى فرص طيبة مواتية فى الحرمين الشريفين لتذوق الحديث الشريف والتوسع فيه ، وتدرسه وخدمته ونشره ، وكانت إمكانيات الإفادة للعلماء وطلبة

---

(٣٥) إنسان العين ، ص : ١٥ - ١٦ .

(٣٦) إنسان العين ، ص : ٧ .

(٣٧) نزهة الخواطر ، ج ٦ .

(٣٨) أيضاً .

(٣٩) القول الجلى ( مخطوط ) .

العلم والوافدين من مختلف اللدان والأقطار متوفرة ميسرة ، ثم كانت مجاورة بيت الله الحرام ، وبركات جوار النبي ﷺ والأوضاع المضطربة في الهند واضطراب الدولة الإسلامية فيها ، والاطلاع على سيطرة القوى الأجنبية وإحكام استيلائها يوماً فيوماً ، كل ذلك كان من الأسباب والدوافع القوية إلى نية الهجرة والإقامة في الحجاز ، ولم تكن تهيئ له الأدلة على جوازها فحسب بل تؤيدها المصالح الدينية والعلمية ، ولكنه عزم على العودة إلى الهند ، تلك العزيمة التي كانت تنطوي على خير كبير قدره الله - تعالى - وتجلى في أروع مظهر في عمله التجديدي والاجتهادي العظيم ، وكان فيها تحقيق تلك البشارة النبوية - ﷺ - التي تلقاها في المدينة المنورة ، وهي :

« إن مراد الحق فيك أن يجمع شمالاً من شمل الأمة المرحومة بك » (٤٠) .

ولم يكن الإمام الدهلوي يرى ذلك لنفسه بل كان يرى لخواص أصحابه أيضاً أن يتخذوا الهند مركز نشاطاتهم وخدماتهم العلمية والدينية ، تلك البلاد التي أنفق عليها أسلافهم الميامين ما كانوا يملكون من كفاءات علمية ودينية فاضلة ، وقوى وطاقات كبيرة ، والتي أنتجت المحققين والعلماء الربانيين في كل عصر ، وكانت تتهاً لتكون في المستقبل مركزاً لعلم الحديث الشريف وللعلوم الدينية الأخرى ، ولما سافر أحد خواص تلامذته الشيخ معين الدين السندی إلى الحجاز وأبدى عزمه ، على البقاء والإقامة هناك ، كتب إليه الإمام الدهلوي ينهاه عن ذلك ، يقول :

« أما عزم ترك الرجوع إلى الوطن فلا تستبدوا به حتى يشرح الله صدوركم أو صدر رجل لأجلكم » (٤١) .

### تدريس الإمام الدهلوي للحديث الشريف :

بدأ الإمام الدهلوي بعد عودته من الحجاز تدريسه للحديث الشريف في المدرسة الرحيمية لوالده التي كانت واقعة في دلهي القديمة في ذلك الحى الذى يسمى الآن « حى مهنديان » ولم يلبث أن تواردت إليه جماعات الطلاب وضربت إليه أكباد الإبل من مختلف الأنحاء والأصقاع ، وضاق بهم المكان ، وكان الله تعالى قد قدر للملك محمد شاه (رغم كثير من سقطاته ومواضع ضعفه) هذه السعادة أن وهب لمدرسة الإمام الدهلوي في المدينة

(٤٠) فيوض الحرمين ، ص : ٦٢ ، طبع المطبع الأحمدي دلهي .

(٤١) « حيات ولى » ( مكتوبات الإمام الدهلوي ، المكتوب العاشر ، ص : ٥٣٦ ، طبع مطبع السلفية - لاهور ) .

بيتاً فخماً كبيراً ، ودعاه إلى المدينة ، فبدأ إلقاء دروسه هناك <sup>(٤٢)</sup> ، يقول الشيخ بشير الدين .

« كانت هذه المدرسة - في فترة من الفترات - كبيرة فخمة زاهية ، وكانت تعتبر « دار العلوم الكبرى » ولم تنزل على حالها الأولى إلى ثورة ( ١٨٥٧ م ) ثم نهبت البيوت أيام الثورة ، وحمل الناس حتى الألواح والعري والحلقات . »

ويزيد الشيخ قائلاً : « وقد بينت الآن بيوت عدد من الناس في هذا المكان ، إلا أن الحى لا يزال يدعى باسم مدرسة الشيخ عبد العزيز الدهلوى . »

وجاء ذكر مسجد هذه المدرسة في أحد المواضع في مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز (ملفوظات الشيخ عبد العزيز) ، يقول فيها :

« كار - في العهد الذى ولدت فيه - كثير من الأولياء الصالحين الذين كانوا من خواص أصحاب السيد الوالد وأحابه كالشيخ محمد عاشق والشيخ محمد نور ، يعتكفون في هذا المسجد » <sup>(٤٣)</sup> .

وقد كان العلامة السيد عد الحى الحسنى مؤلف « نزهة الخواطر » سافر إلى دلهى وما يجورها من المدن والقرى عام ١٣١٢ هـ الموافق ١٨٩٤ م وقيد مذكرات هذه الرحلة ، يقول في مذكرات يوم ٢٦ / من رجب :

« أردت بعد عودتى من درس الشيخ المحدث السيد نذير حسين أن أزور مدرسة الشيخ الجليل قدوة العلماء والفضلاء التى استفاد فيها سلفنا جيلاً بعد جيل ، ورأوا من الفخر والسعادة خدمة الكناسة فيها <sup>(٤٤)</sup> ، مشيتُ من هنا إلى المسجد الجامع ، ومن ثم قدامه إلى « كلان محل » ، وفى « كلان محل » توجد مدرسة شيخ مشايخنا مولانا ومقتدانا ، فتذكرت على رؤيتها الآية الكريمة : ﴿ خاوية على عروشها ، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ <sup>(٤٥)</sup> سبحانه الله ، إنها لعجائب قدرة الله ، لقد كان يوم تقيم فيه الطلاب العرب

(٤٢) انظر « دار الحكومت دلهى » ج : ٢ ، ص : ٢٨٦ ، للشيخ بشير الدين .

(٤٣) ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص : ١٠٩ ، طبع المطبع المجتبائى ، ميرته .

(٤٤) ذكر العلامة هنا أسماء عدد من أسلاف أسرته الذين لم يزالوا من عهد الإمام إلى عهد الشيخ عبد العزيز يردون إلى هذه المدرسة ويستفيدون بها ويتعلمون .

(٤٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٩ .

والعجم في هذه المدرسة ويستفيدون ، وقد آلت اليوم إلى هذه الحال من الخراب والدمار ، ما بها من أنيس ولا جليس « (٤٦) .

ثم حكى عن بقية هذه الأسرة العلية الشيخ السيد ظهير الدين أحمد ، أن في حى «مهنديان» حيث توجد قبور هؤلاء الأعلام ، كانت تجد مدرسة أيضاً ، وقدم الإمام الدهلوى - بعد وفاة والده الشيخ عبد الرحيم - إلى المدينة ( دلهى ) الجديدة وعهد إليه بهذه المدرسة ، وأقام بها (٤٧) .

## بعض عادات الإمام الدهلوى وخصائصه كما ذكرها الشيخ عبد العزيز الدهلوى

من المؤسف أنه لا توجد لدينا ترجمة معاصرة أو رحلة أو مذكرة تطلعنا بتفصيل على خصائص الإمام الدهلوى وعاداته وأحوال مواعيد أعماله وقيامه وقعوده ، وقد ترد إشارات إلى شئ من ذلك في مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز الدهلوى .

يقول : لم أر مثل السيد الوالد في قوة ذاكرته ، لا أقول إننى لم أسمع بمثله ولكننى لم أشاهد (٤٨) ، وكان - علاوة على علومه وفضائله - عديم النظير في ضبط مواعيده وتنظيم أوقاته ، وكان إذا جلس مجلسه بعد الإشراق لم يغير جلسته ، ولا يحك جسده ولا يبصق إلى الظهر (٤٩) ، وكان قد هياً في كل فن وعلم رجلاً من أصحابه ، وكان يعهد بطالب ذلك الفن إليه ، وينصرف نفسه إلى بيان المعارف والحقائق ، وتحريرها وتدوينها ، وكان يدرس الحديث الشريف ويدرسه ، وكان إذا انكشف عليه شئ سجله ، وكان قليلاً ما يمرض (٥٠) ، وقد كان جدى وعمى ( اللذين كانا طبيين أيضاً ) يعالجان الناس ، أما الوالد فقد انصرف عن هذا الشغل ، إلا أنه كان يطالع كتب الطب ، وكان - من صباه - لطيف الطبع يحب النظافة، وقل ما كان ينشد الأبيات الصوفية ، إلا أنه - أحياناً - كان ينشد بيتاً أو بيتين (٥٢) .

(٤٦) « دهلى أوراس كى أطراف » طبع انجمن ترقى اردو ، ص : ٦٣ - ٦٤ .

(٤٧) أيضاً ، ص : ٦٧ .

(٤٨) ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص : ١١ .

(٤٩) أيضاً ، ص : ٤٣ .

(٥٠) أيضاً ، ص : ٤٠ .

(٥١) أيضاً ، ص : ٢٢ .

(٥٢) أيضاً ، ص : ٤٣ .

## وفاة الإمام الدهلوى :

وأخيراً آن وقت الرحيل لتلك الحياة الغنية المباركة التي كانت كل لحظة منها كبيرة القيمة، مصروفة إلى إعلاء كلمة الله - تعالى - واللهج بذكره ونفع الإسلام والمسلمين ، وإحياء السنن ونشر الكتاب والسنة ، والتعليم والتربية ، الرحيل الذي يُستثنى منه لقوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ (٥٣) ، أى نبى ولا ولى ولا مجدد ولا مجاهد ، كانت بداية عام ١١٧٦ هـ وكان آخر تاريخ شهر المحرم الحرام أن وافاه الأجل المحتوم ، فودع الإمام الدهلوى حين بلغ من عمره اثنين وستين عاماً (٥٤) ، هذه الدنيا الفانية ، وأسلم روحه لبارئها الكريم ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، وصدق الله العظيم : ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ (٥٥) .

ولا تتوفر تفاصيل المرض وحادث الوفاة فى أى كتاب من كتب التراجم ، ومما يسر المؤلف ويشرفه أن كل ما يوجد من معلومات وتفاصيل بهذا الصدد فمصدرها الوحيد هو رسالة من أحد أفراد أسرته الحسنية القطبية الكبار الشيخ السيد محمد نعمان الحسنى (٥٦) .

(٥٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

(٥٤) جاء فى « ملفوظات الشيخ عبد العزيز » ( الترجمة الأردية ) أنه قال : كان عمره ( الإمام الدهلوى ) إحدى وستين سنة وأربعة أشهر ، ولد فى الرابع من شوال عام ١١١٤ هـ وتوفى فى ٢٩ محرم الحرام عام ١١٧٦ هـ ، وكان تاريخ وفاته بـ « إمام أعظم دين » ( انظر ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص : ٥٦ ) .

(٥٥) سورة الفجر ، الآية : ٢٧ .

(٥٦) السيد محمد نعمان هو ابن حفيد الشيخ علم الله الرائى بريلوى ، ونسبه هكذا نعمان بن نورين هدى بن علم الله الحسنى الحسينى ، ولد فى موطن الأسرة القديم « نصير اباد » بمديرية رائى بريلوى ، واشتغل بالعلم زمانا فى بلدته ، ثم سافر إلى لكنهنسو « وقرأ على الشيخ عبد الله الأميتهوى » ثم رجع إلى « رائى بريلوى » ، وبإيعاز السيد محمد بن علم الله البريلوى ولازمه زمانا، ولما توفى السيد محمد المذكور لازم ولده محمد عدل ، وأخذ عنه الطريقة ، ثم ساهى البلاد وأدرك المشائخ الكبار ، منهم محمود رسن تاب الخورجوى أحد أصحاب السيد علم الله المذكور، ومنهم الشيخ يوسف بن فتح محمد الأنبالوى ، ومنهم الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى وخلقا آخرين من المشائخ ، فاستفاض منهم فيوضاً كثيرة ، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار وراح إلى « القدس » « الخليل » ، وتوفى فى أثناء السفر ، ودفن فى « بيت المقدس » أرض الأنبياء الكرام ، وكان ذلك عام ١١٩٣ هـ ( نزهة الخواطر ج : ٦ ) .



كان قد وجهها إلى شخصية معروفة كبيرة من شخصيات هذه الأسرة كذلك الشيخ السيد  
بى سعيد بعد وفاة الإمام الدهلوى فوراً من دلهى ، وأن كاتب هذه الرسالة السيد محمد  
ممان هو عم المجاهد الكبير الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والمرسل إليه السيد أبو سعيد  
ان جد الإمام الشهيد من قبل أمه ، وقد كان الشيخ السيد أبو سعيد من مسترشدى الإمام  
دهلوى وخواص أصحابه ، ويوجد عدد من رسائل الإمام الدهلوى الموجهة إليه ، وننقل  
بعض محتويات هذه الرسالة - فيما يلى - كما جاء فى مجموعة رسائل الأسرة «مكتوب  
عارف» (مخطوط) :

« الحمد لله على النعماء والرضا على القضاء ، والصر على المصيبة والبلاء والصلاة  
السلام على سيد الشاكرين وزبدة الراضين وقدوة الصابرين ، شفيع المذنبين ورحمة  
نعالمين ، محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى ورثته العلماء الراسخين والأولياء  
رشدين إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن حادث وفاة أهل السنة والجماعة . . . وقع وله من العمر اثنان وستون  
اماً ، وأدخل السرور على أهل البدع والضلالات ، وأصيب أهل الدين والصلاح بالحزن  
لأسى ، وقد كان ذلك سلخ محرم الحرام عام ١١٧٦ هـ يوم السبت وقت الظهر ، ﴿فإنا  
وأنا إليه راجعون﴾ . . .

. . . إن المجالس الأخيرة من حياته كانت مجالس عجيبة ، زاخرة بالفيوض ، فكنا  
معر - بصفة مستمرة - بنزول الملائكة والأرواح الطيبة ، وكانت تهب نفحات الأئس  
لرحمة ، وتنزل رشحات القدس والبركة كالطر ، وكان أكثر أصحاب الصلة الروحية  
سبون بذلك بوجدانهم الصحيح . . .

. . . وأحمد الله - تعالى - على أننى وجدت رضا الشيخ المرشد قدس سره عنكم  
بناياته البالغة بحالكم إلى حد لا أقدر على وصفه ، فكان يسأل كثيراً عن أحوالكم ،  
كان يذكر بلسانه الناطق بالجواهر والدرر معركة الأبدالين ومفاجأتكم بالوصول إلى مكان  
بركة ، وانطفاء لهيب الفتنة بقدمكم<sup>(٥٧)</sup> ، ولعل الشيخ المرشد كان يتمنى آخر لقاء  
م ، لأنه قال - ذات مرة - : ينوى السيد أبو سعيد القدوم فلو عجل بالقدوم كان خيراً .

---

(٥) لم نطلع على هذا الحادث الذى وقعت الإشارة إليه هنا .

يا سيدى ! لقد حُرِمنا الآن صحبة الشيخ الظاهرة ، ولكن عدد مؤلفاته تسعون بل أكثر ،  
ففى علوم الدين أى التفسير والأصول والفقه والكلام والحديث « حجة الله البالغة » ،  
« أسرار الفقه »<sup>(٥٨)</sup> ، « منصور »<sup>(٥٩)</sup> ، و « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » ، وترجمته  
للقرآن ، وكل واحد من هذه الكتب يشتمل على ثمانين أو تسعين جزءاً ، وفى الحقائق  
والمعارف ، رسائل أخرى ك « ألطاف القدس » و « همعات » ، و « فيوض الحرمين » ،  
و « أنفاس العارفين » ، وغيرها ، وهى بديل صحبة الشيخ المرشد والممثل عنها ، فلتهتموا  
بهذه الكتب وتعزموا على كتابتها ونشرها ، وأن هذا العمل سيتم بأدنى عناية ، يعلم الله  
هل ألفت أمثال هذه الكتب سابقاً أولاً ، كما يعترف بمكانتها أصحاب البصيرة ، وكل ما  
كتبه الشيخ المربى فى أى موضوع من المواضيع يحتل مكانة الأصول والأساس .

والشئ الثانى أن الشيخ محمد عاشق بعد أن بلغ تحياته إليك قال : اكتب إلى مير أبى  
سعيد أن يرسل إليك نسخ جميع الرسائل التى وجهها الشيخ المرشد إليه حتى نضمها إلى  
مجموعة رسائله »<sup>(٦٠)</sup> ( انتهى ) .

كانت وفاة الإمام الدهلوى فى ٢٩ / محرم الحرام ١١٧٩ هـ يوم السبت ظهراً ( الموافق  
٢١ / أغسطس عام ١٧٦٢ م ) كما علمنا من الرسالة المذكورة أعلاه<sup>(٦١)</sup> .

وجاء فى مجموعة « كلمات الشيخ عبد العزيز » - رحمه الله - :

« توفى فى ٢٩ / من محرم الحرام ظهراً »<sup>(٦٢)</sup> .

### مدفنه :

لقد دفن الإمام الدهلوى فى جانب اليسار من « دلى دروازه » ( باب دلهى ) بالحى  
الذى يسمى « مهنديان » ، ولقد كان مكان هذه المقبرة - يوماً - رباط الشيخ عبد العزيز  
شكريار أحد أجداد الشيخ عبد الرحيم لأمه ، ولا يزال قبره هناك على مسافة قليلة ، ثم  
كانت إقامة الشيخ رفيع الدين بهذا المكان ، كما كانت بيوت أسرة الإمام الدهلوى أيضاً به ،  
وكان الإمام الدهلوى ترك الإقامة هنا واختار الإقامة داخل شاهجهان آباد ، وتوجد فى هذه

(٥٨ ، ٥٩) لم يتضح لنا ما هو مراده بهذين الكتابين .

(٦٠ ، ٦١) مكتوبات المعارف الفارسية مخطوط ص : ١٩ - ٣٠ .

(٦٢) ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص : ٤٠ .

المقبرة قبور أبناء الإمام الدهلوى الأربعة ، وقبر والده الشيخ عبد الرحيم أيضاً وقد عُلقت عليها اللوحات التى كتبت فيها أسماؤهم وتواريخ وفياتهم ، كما توجد بها كذلك قبور أفراد الأسرة الآخرين رجالاً ونساءً ، ويقوم بجنبها مسجد تنتشر حواليه قبور كثير من العلماء والصالحين ، والمحبين للإمام الدهلوى ومسترشديه ، ولا تزال المقبرة تتسع وتستقبل مزيداً من الموتى ، غفر لهم الله ورحمهم أجمعين .

\* \* \*



## الباب الخامس

### مآثر الإمام الدهلوى التجديدية إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن

سعة دائرة التجديد الذى قام به الإمام الدهلوى وتنوعه :

إن الأعمال والمآثر الجليلة التى وفق الله - تعالى - الإمام الدهلوى لتحقيقها وإنجازها من التجديد وإصلاح الأمة ، وإحياء الفهم الصحيح للدين ، ونشر العلوم النبوية وإعادة الحياة والنشاط والحيوية فى فكر عهده والأمة الإسلامية وعملها وجهودها تتسع دائرتها وتنوع شعبها بحيث لا يوجد له نظير لا فى المعاصرين فحسب بل فى عامة العلماء والمؤلفين فى العهود السابقة أيضاً ، ويمكن أن يكون سبب ذلك - عدا التوفيق والتقدير الإلهيين - يرجع إلى مقتضيات ذلك العهد الذى عاشه ، وإلى ذلك الاحتواء والشمول وعلو الهمة ، والمنهج الخاص للتعليم والتربية الذى خصه الله وقدره له وقد كان نتيجة كل ذلك أن الإمام الدهلوى قام بمآثره التجديدية والإصلاحية فى مجالات متنوعة من العلم والعمل حتى إن المترجم له والكاتب فى « تاريخ رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ليواجه الصعوبة فى استيعابها ودراستها التحليلية والتفصيلية ، والذى يريد استيعاب هذه الجوانب والمجالات كلها فإن لسانه ينشد ويشكو بهذا البيت الفارسى المعروف الذى معنى :

« إن ذيل النظر ضيق وورود حسنك كثيرة ، وإن مقتطف ربيعك يشكو من ذيله الضيق » .

وإذا أردنا أن نفرقها فى مواضيع مستقلة ، فهى تأتى بهذه العناين البارزة :

١ - إصلاح العقائد الدعوة إلى القرآن .

٢ - القيام بنشر الحديث الشريف وترويجه ، والجهود الموفقة للتطبيق بين الفقه والحديث والدعوة إليه .

٣ - عرض الشريعة الإسلامية فى صورة متناسقة مدعمة بالأدلة والبراهين والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها .

٤ - بيان مكانة الخلافة ووظيفتها فى الإسلام وشرح خصائص الخلافة الراشدة ومميزاتها

وإثباتها بالأدلة ، والرد على الروافض .

٥ - عمله التجديدي القيادي في عهد الاضطراب السياسي ، واحتضار الدولة المغولية .

٦ - الحسبة على مختلف طبقات الأمة ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير .

٧ - القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح وتخريجهم حتى يقوموا -

بعده - بهذا العمل التجديدي من الإصلاح ونشر الدين الصحيح وينقلوه إلى الأجيال القادمة .

ونتناول أولاً - عنوان إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن ، إذ أنه يحتل الدرجة الأولى ويأتي في مقدم الصف إذا بدأ إصلاح الأمة وتجديد الدين في أي عصر أو مصر ، وكل جهد يبذل لإحياء الدين وإنعاش الأمة بغض النظر عن ذلك فإنه لا يعدو خطأً على الماء ومبنى بغير أساس ، وقد أثبت القرآن الكريم بقصص الأنبياء والمرسلين ووقائعهم وحوارهم لشعوبهم ، وأثبت التاريخ الموثوق به من عمل العلماء الربانيين وورثة الأنبياء والمرسلين ومنهجهم في الدعوة تدريجهم فيها هذه الحقيقة الأساسية ، وسوف يبقى هذا منهج كل إصلاح وتجديد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، إذا كانا قائمين على الطبيعة النبوية والنظام القرآني .

### أهمية العقائد :

يكتفى المؤلف هنا بإيراد بعض كتاباته السابقة التي تشرح هذا الموضوع شرحاً وافياً ،

يقول :

« إن سمة هذا الدين الأولى وشعاره المميز الأول : التركيز على العقيدة أولاً وقبل كل شيء ، فما زال الأنبياء من لدن آدم إلى خاتم الرسل محمد ﷺ يدعون إلى عقيدة معينة يوحى بها إليهم ، يدعون إليها ويطالبون بها ، لا يقبلون عنها صرفاً ولا عدلاً ، ولا ييغون بها عوضاً ولا بدلاً وإن أفضل حياة خلقاً وسلوكاً ورحمة وبراً ، واستقامة وسداداً ، وإن أنجح إنسان في تأسيس حكومة أو إنشاء مجتمع أو إحداث انقلاب ، لا قيمة له عندهم إذا لم يقترن كل ذلك بعقيدة جاءوا بها ودعوا إليها ، ولم يقم كل هذه الجهود على أساسها ، وهذا هو الخط الفاصل الواضح العريض بين دعوة الأنبياء - عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام - وبين الزعماء والقادة القوميين والانقلابيين والثوريين والنفعيين والماديين ، وكل من كان مصدر تفكيره غير تعاليم الأنبياء وسيرهم لسبب من الأسباب الأصلية أو الطارئة من التعليم والتربية ، أو رد من ردود الفعل ، أو الحب الزائد لتحقيق النتيجة المطلوبة أو

قلب نظام أو انتصار وانتقام (١) .

إن أجلَّ علم أخذ عن الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - معرفة الله وعلم ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك علم يختص بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إذ هو علم ليست له وسائل وآلات ومعلومات أولية وتجارب عند البشر ، ولا يتناوله القياس ولا يفيد فيه الذكاء والفتنة لفقدان أساس القياس ، وتعالى الله - تعالى - عن الأشباه والنظائر ، وسموه وتقدسه وتنزهه عن التشبه والتمثل ولبعده عن كل ما عرفه البشر وألفه وجربه في عالم الحس والمادة ، لأنه ليس حلبة تجرى فيها جياذ العقول ، وتتسابق فيها عتاق العلم والتجربة .

وكان أجل علم تتوقف عليه سعادة البشر إذ هو الأساس للعقائد والأعمال والأخلاق والمدنية ، وهو الذى يعرف به الإنسان نفسه ، ويفك لغزة الكون ، ويكشف عن سر الحياة ، وبه يعين الإنسان مركزه فى هذا العالم وينظم علاقاته واتصالاته بينى جنسه ، ويضع منهاج حياته ، ويحدد غاياته فى ثقة وبصيرة ، ووضوح ويقين (٢) .

وإن عناية الله - تعالى - الخاصة بهذه الأمة ووعدته المؤكد لها بالنصر والتأييد والرضا والعزة والغلبة ، إنما هو - بصفة خاصة - على أساس العقائد الصحيحة والخصائص والصفات الإيمانية ، وعقيدة التوحيد الخالصة المبرأة من كل الشوائب ، يقول الله - تعالى - :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (٣) .

ويقول فى صراحة ووضوح : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٤) .

إن ورثة الأنبياء بحق ، العلماء الربانيين الذين يعرفون طبيعة هذا الدين وفطرته

(١) العقيدة والعبادة والسلوك ، ص : ٢٤ - ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص : ٦٧ - ٦٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٩ .

(٤) سورة النور ، الآية : ٥٥ .

الصحيحة ، يهيئون الأرض - قبل إقامته في مكان - ويصلحونها وينظفونها ويمهدونها ، ويستأصلون جذور الشرك والجاهلية وعروقها ( سواء كانت من بقايا الوثنيات القديمة أو نتائج التأثيرات القومية والمحلية ) ويستخرجون جميع بذورها ويقلبون الأرض ظهراً لبطن ، مهما اقتضى هذا العمل منهم من مدة طويلة ومشقة كبيرة ، فإنهم لا يستعجلون النتيجة ، ولا يفقدون الصبر .

« إن هذه الوثنية والشرك في مختلف أشكالها وصورها ، هي الجاهلية العالمية التي هي أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته ، وهي باقية مع البشر في جميع مراحل حياته وتطوراتها ، وهي التي تثير غضب الله وغيرته وتحول بين العبد وتقدمه الروحي والخلقي والمدني ، إنها هي الجاهلية التي تخنق القوى وتقتل المواهب وتقضي على الاعتماد على الله والاعتداد بالنفس والثقة بها ، وتصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير ، العليم القدير ، الجواد الوهاب ، الثفور الودود ، والاستفادة من صفاته التي لا تحد وخزائنه التي لا تنفذ إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير الذي لا يملك شيئاً»<sup>(٥)</sup> .

### الحاجة إلى شرح عقيدة التوحيد والدعوة إليها من جديد :

لقد قال المؤلف في الجزء الثاني من « رجال الفكر والدعوة » الذي هو خاص بحياة الإمام ابن تيمية وأعماله تحت عنوان « العقائد والتقاليد الشركية في عهد الإمام ابن تيمية » ما يلي :

« كانت العقائد والتقاليد نالت رواجاً بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين والعجم ونفوذ الحكومة الباطنية والإسماعيلية وتأثيرهما وانتشار تعليمات الجهلة والضلالة من الصوفية وأعمالهم ، فقد وجد عدد وجيه من المسلمين في ذلك الحين يعتقدون في أئمة دينهم ومشائخهم والأولياء والصالحين منهم من الاعتقادات الفاسدة ويحملون من الأفكار المشركة ما كان يعتقد اليهود والنصارى في عزيز المسيح عليهما السلام وأحبارهم ورهبانهم ، وكل ما كان يدور حول قبور الأولياء والمشائخ إنما كان تقليداً ناجحاً للأعمال والتقاليد التي كانت تنجز في معابد غير المسلمين وقبور المقدسين عندهم ، فالاستغاثة منهم والاستعانة بهم ، ومددُ الطلب والضراعة إليهم ، كل ذلك كان عاماً شائعاً بينهم كما عمت عادة بناء المساجد الفخمة على قبورهم وجعلها مساجد وعقد المهرجانات عليها عاماً

---

(٥) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن للمؤلف ، ص : ٥٦ - ٥٧ ( طبع دار القلم الطبعة الرابعة ) .



فعاماً ، وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها ، وقد كانت عبادة القبور - بجرأة ووقاحة - وعدم الخشية من الله - تعالى - والخوف من أصحاب القبور والخشية منهم والاستهزاء بذات العلى القدير والاستهانة بشعائره ، والجرأة وقلة الأدب وتقديس الأولياء إلى حد التأليه ، والحج إلى المشاهد والقبور وترجيحه - بعض الأحيان - على الحج إلى بيت الله العتيق ، وخراب المساجد وضياعها ، وروعة المشاهد والأماكن الخاصة للزيارة والعناية بها كان كل ذلك من قسّمات الحياة الجاهلية وعلائمها البارزة التي لم تكن تحتاج لرؤيتها إلى قطع مسافات طويلة ولا إلى تفكير وتأمل كثير (٦) .

لقد كان هذا الوضع فى بلاد كمصر والشام والعراق التي فتحتها الصحابة - رضى الله عنهم - بأيديهم المباركة ، ثم هى أقرب البلاد وأكثرها اتصالاً بمركز الإسلام ومهبط الوحي وموطن الرسول ﷺ وكانت لغتها العربية التي نزل فيها القرآن ، ولم تتوقف فيها - ليوم واحد - سلسلة دروس الكتاب والسنة ، وألفت فيها كت جليلة فى علوم الحديث الشريف وشروحها .

ولا يبعد إذن أن نقدر الوضع بإزاء ذلك فى الهند ( لا سيما هذا القرن الثانى عشر ) التي وصل إليها الإسلام بعد أن طاف بتركستان وإيران وأفغانستان وفقد كثيراً من طاقته وحيويته ونضارته بأيدي أولئك الذين لم يتشرفوا بصحبة النبي ﷺ ولم يتمتعوا بالاستفادة - مباشرة - من مصدر النبوة الفياض ، والذين كان كثيراً منهم لم يتحرروا - كلياً - من تأثيرات شعبهم وسلالاتهم ، ثم إن الهند كانت تسيطر عليها - من آلاف السنين - الديانة والفلسفة والحضارة التي عجنت طينتها بالشرك والوثنية وجرياً فيها مجرى الدم ، والتي كانت أكبر ممثل - فى هذه القرون الأخيرة - للوثنية والمحافظة الأمانة على الجاهلية القديمة ، وقد انتقل عدد كبير من سكان هذه البلاد المسلمين من البرهمية والأوساط الشركية الأخرى إلى حظيرة الإسلام ، ثم لا يعزبن عن البال أن هذه البلاد لم تكن لها من الصلة المباشرة (عبر المدى الطويل) بالقرآن والسنة ، ما كانت - لتأثير إيران - بالعلوم الحكمة العقلية والفلسفة اليونانية ، وإذا كانت لها علاقة علمية ودراسية بالعلوم الدينية ، فبالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام ، العلوم التي يرجع موضوعها ومجال البحث والتحقيق فيها إلى القضايا والجزئيات الفقهية القانونية ، وأصول استنباطها ، والبحوث الفلسفية فى العقائد ، لا بإصلاح العقائد ، والدعوة الأساسية إلى التوحيد الخالص .

(٦) انظر « رجال الفكر والدعوة » ( الجزء الثانى ) ص : ١٧١ - ١٨٠ .

ويمكن أن يقدر ما خلفته ديانات الهند وفلسفاتها وتقاليدها وعاداتها من تأثير في القرن العاشر الهجري نفسه على المجتمع المسلم من إحدى رسائل الإمام السرهندي التي كتبها إلى إحدى الصالحات من مسترشدانه ، ويقدر منها ما بلغه المجتمع المسلم من تعظيم شعائر الشرك ، والاستعانة بغير الله ، وطلب الحاجات من غير الله ، وتعظيم أعياد الكفار والمشركين ، وتقليد رسومهم وعاداتهم وطقوسهم والنذر والذبح للأولياء والصالحين ، والصيام بأسماء المشائخ والصالحات ، والخوف من ستيلا ( التي كانت تعتبر إلهة الجدرى ) وإجلالها ، وأمثال هذه الأشياء التي تدل على العقلية الهندوسية الوثنية والخضوع للأوهام والخرافات ، التي غزت عقردار المسلمين ، ولا يتعسر تقدير ما وقع بعد مضي قرن آخر من الزمان على هذا العهد وفقدان الصلة القوية العامة بالكتاب والسنة من زيغ وانحراف في العقائد وتأثير للعقائد والأعمال غير الإسلامية ، بل المعارضة المنافية للإسلام ، على كثير من الأسر والبيوتات .

ويمكن أن يقدر أيضاً ما أنتج تأثير غير المسلمين على المجتمع المسلم ، والجهل بالكتاب والسنة ، والبعد عنهما ، والفراغ الطويل في الجهود المؤثرة المركزة ( بغض النظر عن الدهماء والجماهير سخطوا أم رضوا ، وبإغماض العين عن النتائج والأخطار ) - في الهند من وضع سيئ ، وما قام من نظام للعقائد ، إزاء الدين الحنيف ( الذي لم يكن فيه أي مجال لظلمة من ظلال الشرك والوثنية ) وما نبتت في ساحة حياة المجتمع المسلم من نباتات الجاهلية وحشائشها الشيطانية ، يمكن أن يقدر كل ذلك من بعض كتابات الإمام الدهلوي نفسه ، يقول في « التفهيمات الإلهية » :

« قال رسول الله ﷺ : ( لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ، قلنا يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ ) [أخرجه البخاري ومسلم ] صدق رسول الله ﷺ فقد رأينا رجلاً من المسلمين الذين ضعف إيمانهم يتخذون الصلحاء أرباباً من دون الله ، ويجعلون قبورهم مساجد ، كما كان اليهود والنصارى يفعلون ، ذلك وقد رأينا رجلاً منهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويعتمدون في ترك العمل وإرضاء الشهوات على القول المعزى إلى النبي ﷺ « الصالحون لله ، والظالمون لي » كما قال الذين من قبلهم : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ (٧) ، وإن

(٦) انظر « رجال الفكر والدعوة » ( الجزء الثاني ) ص : ١٧١ - ١٨٠ .

(٧) سورة البقرة ، الآية : ٨٠ .

سألت الحق فقد فشى التحريف فى كل طائفة .

فالصوفية أظهرت أقاويل لا يدرى لها توفيق بـ « الكتاب والسنة » ، لا سيما فى مسألة التوحيد ( الوجودى ) لظهر من ذلك أنهم لا يحتفلون بالشرع وليست له عندهم قيمة<sup>(٨)</sup> .  
ويقول فى كتابه الشهير « الفوز الكبير » :

« وإذا كنت تتوقف فى التسليم بصحة ما يقال عن عقائد المشركين وأعمالهم<sup>(٩)</sup> فانظر إلى المحرفين المنحرفين فى هذا العصر لا سيما من يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام ، ما هى تصوراتهم عن « الولاية » ورغم أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين يرون وجود الأولياء فى عصرنا من المستحيلات ، ويؤمنون القبور والعنبات ، وقد ابتلوا بأنواع من الشرك والبعد والخرافات وتمكن منهم التحريف والتشبيه وتغلغل فى نفوسهم حتى لم تبق - بحكم ما جاء فى الحديث الصحيح : « لتبعن سنن من كان قبلكم . . إلخ » - بلية من البلايا ، ولا فتنة من الفتن إلا وطائفة من طوائف المسلمين - تخوض فيها وتعلق بها ، عافانا الله سبحانه عن ذلك<sup>(١٠)</sup> .

**الطريق المؤثر لعلاج هذه الأدواء وإصلاح الأوضاع نشر القرآن الكريم والدعوة إلى فهمه :**

لقد رأى الإمام الدهلوى أن دراسة القرآن الكريم وفهمه وتدبره هو أقوى الطرق وأكثرها تأثيراً لعلاج هذا الداء ، بل الفتنة العمياء ، ولم يكن تفتنه لهذه الحقيقة مبنياً على أساس الذكاء وطول الدراسة والقياس فحسب ، بل كانت حقيقة بديهية ، يشهد عليها القرآن نفسه ، ولا يشهد تاريخ عهد البعثة والنبوة فحسب بل تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد فى الإسلام كل شهيد عليه ، ولا يتصور لإعلان حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك وسيلة أقوى وأصرح وأوضح وأكثر تأثيراً فى النفوس وجذباً للقلوب منه ، وقد صرح ترجمان القرآن الشيخ عبد القادر ( ابن الإمام الدهلوى ) فى مقدمة « موضح القرآن » وترجمته للقرآن الكريم وتحشيته عليه ( بالأردية ) بهذه الحقيقة فى أسلوب ساذج نفاذ بما لا مزيد عليه ، يقول :

(٨) التفهيمات الإلهية ، ج : ١٣٤ - ١٣٥ .

(٩) وقد ذكر الإمام الدهلوى قبل ذلك حقيقة إشراك المشركين فى الجاهلية وأنواعها ومظاهرها .

(١٠) الفوز الكبير ، ص : ٨ - ٩ ( المكتبة المحمدية ) .

« ليقبل القائلون ما شاءوا ولكن ليس أحد يستطيع أن يقول كما قال الله ، ولا يوجد فى كلام أحد من التأثير والنفوذ ما يوجد فى كلام الله » (١١) .

ولعل شعور الإمام الدهلوى بهذا الوضع الدينى فى الهند ، وبعدها عن تعاليم القرآن لكريم الحكيم وتعاليم الإسلام - بصفة عامة - ومنافاتها لها ، قد قوى واشتد أثناء إقامته بالحجاز . وانبعث فى قلبه الدافع القوى ، فى ذلك الجو الروحى النورانى القرآنى - الذى علا منه هتاف التوحيد قبل كل مكان - إلى أن يقوم بنشر القرآن الكريم وتعميمه بين الناس فى الهند ، بوضوح وقوة يمكن أن يعبر عنها بالإلهام والإشارة الغيبية التى ترد - فى كل عصر - على النفوس الزكية لتحقيق مهمة دينية ضرورية ، ويكاد يستحيل دفعها والتغلب عليها ، ولذلك نرى أن الإمام الدهلوى بدأ بعمل ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية التى تمت وتحققت باسم : « فتح الرحمن » بعد عودته من الحجاز (١٢) .

وقد كان من « الحقائق » المسلم بها ليس فى الهند فحسب بل فى جميع البلدان العجمية - تقريبا - بما فيها تركستان ، وإيران ، وأفغانستان ، والبلدان المجاورة للهند - وكانت ميولها ونزعاتها ، وأعمالها وأذواقها وحقائقها المعترف بها عندها تظل على الأوساط

---

(١١) مقدمة : « موضح القرآن » للشيخ عبد القادر الدهلوى .

(١٢) لقد ذكر مؤلف « حياة ولى » نقلا عن أحد المعاصرين قصة مؤثرة شجية لتشغب علماء السوء على الإمام الدهلوى لارتكابه « جريمة » ترجمة القرآن الكريم ، وإثارتهم الأوغاد المفسدين للحملة القائلة عليه ، ثم استتج من ذلك أن الإمام الدهلوى اختار السفر إلى الحجاز تخلصاً من هذه الفتنة والشغب ( انظر ص : ٤١٨ - ٤٢٣ ) .

ولكن هذا لا يؤيده أى مصدر تاريخى آخر ، بل يوجد فى مقدمة « فتح الرحمن » نفسه تصريح بأن الإمام الدهلوى بدأ الترجمة فى ١٠ ذى الحجة عام ١١٥٠ هـ وأكملها عام ١١٥١ هـ ، ويتضح من ذلك أنه شرع فى هذا العمل المبارك بعد عودته من الحجاز بأربعة أو خمسة أعوام ، وتوجد فى خزانة أسرتنا للكتب نسخة مخطوطة لـ « فتح الرحمن » فى مجلدين ، وقد كان الإمام الدهلوى نفسه أهداها إلى الشيخ محمد - أعظم العثمانيين النصير آبادى ، وكان الشيخ محمد أعظم تلميذ الشيخ محمد نعمان ( عم الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وخريجه ) وهو الذى نشأ ورباه ، وانتقلت هذه النسخة إلى ملك الشيخ قطب الهدى المحدث تلميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوى ولم تزل تنقل من يد إلى يد حتى وصلت إلى والدى العلامة عبد الحى الحسنى ، وقد كتبت هذه النسخة عام ١١٦٥ هـ أى قبل وفاة الإمام الدهلوى بـ ١١ عاما ، وهذا أيضاً دليل على أن مآثرة « فتح الرحمن » تحققت بعد عودة الإمام من الحجاز ، وأما قبل السفر إلى الحجاز فكان قد أنجز ترجمة سورتي البقرة والنساء .

العلمية والدينية في الهند وتؤثر عليها - أن القرآن الحكيم إنما هو كتاب خاصة الخاصة ليطالعوه ويدرسوه ويفهموه ويتدبروه ، وأن فهمه يتوقف على معرفة أكثر من اثني عشر علماً ، وأن نشره في العامة ، وتوعيتهم - مباشرة - بمعانيه ومطالبه ، والدعوة العامة إلى استهدائه والاستيضاء به والاستفادة منه مباشرة خطر شديد ، وضلال كبير ، وفتح لباب فتنة مسيطرة ، وإنها دعوة إلى الاضطراب الفكري في العامة ، والقول بالرأى ، والاستغناء عن العلماء ، بل فوق ذلك دعوة إلى الخروج عليهم والتمرد والطغيان ، وقد صرح الإمام الدهلوي بهذا الطراز من التفكير وهذا النوع من الدليل في رسالته الوجيزة « تحفة الموحدين »<sup>(١٣)</sup> في أسلوب مؤثر جميل :

« يطلق بعض الناس القول بأن القرآن الكريم والحديث الشريف لا يمكن أن يفهمها إلا من درس العلوم الكثيرة ، وقرأ الكتب التي لا تحصى ، ويكون « علامة عصره » ويرد الله - تعالى - عليهم ، فيقول : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ [ سورة الجمعة ، الآية : ٢ ] ، فقد كان النبي ﷺ أمياً وأصحابه أميين ، ولكن رسول الله ﷺ لما تلا على أصحابه آيات الكتاب الحكيم تزكت بها قلوبهم وصفت بها نفوسهم ، فلو كان الأمي لا يمكنه أن يفهم القرآن والسنة ، ولا يملك صلاحية لفهمه وإدراكه ، فكيف أمكن للصحابة أن يتزكوا بها ويتطهروا من الشرور والمفاسد ، ويا أسفى على قوم يدعون فهم «صدراً»<sup>(١٤)</sup> ، وعلم « القاموس » ولكنهم يتظاهرون بأنهم مجرد جهلة فيما يتعلق بفهم القرآن والحديث .

ويقول بعضهم نحن المتأخرين زمناً ، فأنى لنا بركات عهد النبي ﷺ وسلامة قلوب عهد الصحابة - رضى الله عنهم - حتى ندرك مغزى القرآن والحديث ، ويردُّ الله تعالى على ذلك : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ [ سورة الجمعة ، الآية : ٣ ] ،

---

(١٣) نشرت هذه الرسالة باسم الإمام الدهلوي ومنسوبة إليه ، ولكن لما أنها لا تذكر في مجموعة مؤلفاته ورسائله في الكتب التي ترجمت له ولا يرد ذكرها في فهرسة تأليفاته بصفة عامة - فلا سبيل لنا إلى القطع واليقين بأنه من مؤلفات الإمام الدهلوي ، إلا أن الموضوع الذي اقتطفناه هنا ، يعرض تلك الفكرة الخاطئة التي كانت سائدة عرضاً واضحاً صحيحاً ، ثم يردُّ عليها رداً مقنعاً شافياً .

(١٤) المراد به « شرح هداية الحكمة » للعلامة صدر الدين الشيرازي ( م ١٠٥٠ هـ ) ويعرف « بصدرا » في الأوساط الحكيمة ويعتبر كتاباً نهائياً مثالياً في العلوم الحكيمة .

أى أن المتأخرين سواء كانوا مثقفين أو أميين ، إذا كانوا مسلمين وعزموا على سلوك طريق الصحابة الميامين ، وأصغوا بأذانهم إلى الكتاب والسنة ، فإنهما كفيلاّن لهم أيضاً بتزكية قلوبهم وتصفية نفوسهم ، ويقول الله - تعالى - : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [ سورة القمر ، الآية : ٢٢ ] فكيف يتسنى لدارسى « الكافية » وعلماء « الشافية » أن يتظاهروا بعجزهم عن فهم معنى هذا الكتاب الذى كان يفهمه العرب البدو ويدركون حقيقته ومغزاه ، ويقول الله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [ سورة محمد ، الآية : ٢٤ ] فو لم يكن القرآن ميسراً كيف يتمكن من التدبر فيه : ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ [ سورة محمد ، الآية : ٢٤ ] ورغم أنه ليست على قلوبهم أقفالها فلماذا لا يعملون عقولهم فى تدبره ولا يتفكرون « (١٥) .

لقد قرر الإمام الدهلوى نظراً إلى فساد الذوق وانحراف الفكر وقلة التوفيق وسوء الفهم الذى كاد يصل إلى حدود « ويصدون عن سبيل الله » أن يقوم بنقل معانى القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السهلة التى كانت - منذ قيام الحكومة الإسلامية فى الهند - لغة البلاد الإدارية والعلمية والتأليفية ولغة المكاتبات والمراسلات ، وكل مسلم مثقف إن لم يكن يستطيع أن ينطق بها فلا أقل من أن يفهمها ، ولو كانت هناك عشرات من تراجم القرآن الكريم باللغة الفارسية فى عهد سيادتها الذى يمتد على سبعة قرون لم يكن ذلك مما يثير العجب ، ولكن الغريب أننا لا نعثر على أى محاولة لنقل معانى القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية قبل ترجمة الشيخ حسن بن محمد العلقمى المعروف بالنظام النيسابورى ثم الدولة آبادى - الذى كان من علماء القرن الثامن - وهذه الترجمة للنيسابورى مضمومة مع تفسيره للقرآن الكريم بالعربية المعروف بـ « غرائب القرآن » (١٦) .

وكانت هناك ترجمة معروفة بترجمة الشيخ سعدى ، وهى وإن لم تكن سائدة متداولة كمؤلفاته الشهيرة المتداولة « كلستان » و « بوستان » ، ولكنها كانت توجد فى بعض المواضع ، إلا أن نسبتها إلى الشيخ سعدى غير صحيحة ، والحقيقة أنها ترجمة السيد شريف على الجرجانى ( م ٨١٦ هـ ) ، فقد صرح الشيخ عبد الحق حقانى مؤلف « التفسير الحقانى » عن مشاهدة وعيان :

(١٥) انظر « جائزة تراجم قرآنى » ( استعراض الترجمات للقرآن الكريم ) طبع مجلس معارف القرآن ، دار العلوم ديوبند ، ص : ١٣ - ١٤ .

(١٦) كتابان نالا من القبول فى تعليم اللغة الفارسية وأدبها ما لم ينله أى كتاب فى شبه القارة الهندية . تحفة الموحدين ص / ٤ - ٧ - ٧ طبع المكتبة السلفية ، شيش محل روده لاهور .

« الترجمة التي ينسبها الجهلة إلى الشيخ سعدى هي في الحقيقة ترجمة السيد شريف ، وقد نسبها صاحب الطبعة أمامى إلى الشيخ سعدى لنشرها وترويجها » (١٧) .

وعلى كل فإن الإمام الدهلوى قد اطمأن بعد عودته من الحجاز بخمسة أعوام ( ولعل ذلك بعد ما شاهد من نتائج الجهود المبذولة لإصلاح العقائد عن طريق التدريس للخاصة ، وإلقاء الدروس العامة ، والوعظ والإرشاد ) إلى أنه لا طريق أبلغ وأقوى تأثيراً للإرشاد العام وإصلاح العقائد ، وتقوية الصلة بالله - تعالى - من نشر تعاليم القرآن الكريم وإرشاداته ودعوته وتبليغها إلى الناس بطريقة مباشرة ، وليس هناك لذلك إلا وسيلة واحدة ، وهو نقل معانى القرآن الكريم باللغة الفارسية ( لغة البلاد الرسمية السائدة ) ونشرها ، وهو الذى شاع التعبير عنه بـ « الترجمة » ، واسمع عن تاريخ هذه الخطوة الجريئة والأسباب والدوافع إليها من الإمام الدهلوى نفسه ، يقول فى مقدمة تفسير « فتح الرحمن » :

« إن هذا العصر الذى نعيشه ، وهذه البلاد التى نسكنها تقتضى فيها مصلحة المسلمين ونصيحتهم أن ينقل معانى القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السلسة ( من دون تنميق وتحرير وتظاهر بالفضل وذكر للقصاص المتعلقة ووجوه التأويل ) حتى يفهمها العامة والخاصة على قدم سواء ، ويدرك الصغار والكبار جميعاً معانى القرآن الكريم ومطالبه ، وقد ألقى الدافع إلى هذا العمل فى روعى ، واضطرت إليه اضطراراً .

وقد أقيت نظرة فاحصة على الترجمات السابقة حتى إذا كان بعضها على المستوى اللائق المطلوب اكتفى بنشرها وترويجها ، ولا بد أن تكون هذه الترجمة منسجمة مع ذوق أهل هذا العصر إلى حد المستطاع ، ولكن هذه الترجمات إما طويلة عملة أو قصيرة مخلة ، وقد تحقق لى أثناء ذلك ترجمة الزهراوين ( سورتى البقرة والنساء ) ثم صادفنى السفر إلى الحرمين الشريفين ، وإنقطع ذلك العمل ثم بعد عدة أعوام بدأ بعض الأحبة يقرأ على ترجمة القرآن ، فأصبح هذا الدرس باعثاً على العزيمة الأولى ، وتقرر أن تقيد الترجمة قدر الدرس اليومى ، فلما تمت ترجمة الثلث من القرآن الكريم ، وقع لهذا العزيز سفر وتوقف عمل الترجمة ، ثم جاءت مناسبة أخرى بعد مدة من الزمن ، وعادت الإرادة القديمة من جديد ، وتمت الترجمة إلى الثلثين .

---

(١٧) « البيان فى علوم القرآن » ( مقدمة التفسير الحقانى ) للعلامة عبد الحق حقانى ، ص : ٥٠٧ .

وعهد إلى بعض الأصدقاء بتبييض المسودة ، وأن يكتبوا معها متن القرآن الكريم أيضاً حتى تتهيأ نسخة مستقلة ( للقرآن الكريم مع الترجمة ) فبدأ هذا الصديق السعيد تبيض المسودة من عيد الأضحى عام ١١٥٠ هـ ، فتحرك العزم وعاد الدافع وكملت الترجمة إلى آخر القرآن الكريم ، ووقع الفراغ من التسويد فى أوائل شعبان وبيضت المسودة عام ١١٥١ هـ ، ونشرت عام ١١٥٦ هـ بعناية الأخ العزيز الشيخ محمد أمين - أكرمه الله تعالى بشهوده - وبدئ بتدريسها ، وتهيأت لها عدد من النسخ واسترعت انتباه المعاصرين ، والحمد لله - تعالى - على أن ذلك النقش الذى نقش فى قلبى ، قد ظهر - أخيراً - من وراء ستار التقدير (١٨) .

وقد كتب الإمام الدهلوى عدا هذه الترجمة والتفسير المسمى بـ « فتح الرحمن » مقدمة فى أصول الترجمة كذلك ، وهى - رغم وجازتها وقصرها - مقدمة فاضلة تحتوى على فوائد جمة ، يقول فى بدايتها :

« يقول الفقير إلى رحمة الله الكريم ، ولى الله بن عبد الرحيم ، إنها رسالة فى قواعد الترجمة وأصولها مسماة بـ « المقدمة فى قوانين الترجمة » ، وقد جرى بضبطها القلم أثناء كتابة ترجمة القرآن الكريم (١٩) .

ويخيل إلينا أن الصخرة الصلدة التى كانت تحول فى سبيل ترجمة القرآن الكريم ونشره بين الناس أزيحت بهذه الخطوة الجريئة التى قام بها شخصية جليلة كالإمام الدهلوى ( التى كانت طبقة أصحاب العلم والفكر الصحيح فى عهده مجمعة كلها - تقريباً - على تبخره فى العلم وجمعه للفضائل والمحاسن ، ومنزله الروحية العالية وإخلاصه وتجرده ) وفتح الطريق ، ولم يزل يحدث ويتسلسل فى التاريخ الإسلامى أن شخصية كبيرة ذات شأن إذا بدأت بعمل كانت تحوم حوله الريب والظنون ، تنقشع عنه بسببه سحب الريب والظنون وسوء الفهم وينفتح الطريق العام ، وإن مشاركة الإمام أبى الحسن الأشعري فى البحوث الكلامية واستخدامه الاستدلال العقلى ، ودراسة الإمام الغزالي للفلسفة ، تنقيحها والرد عليها وكثير من مثل هذه الأعمال والخطوات التى قام بها كبار العلماء والمخلصين حسب مقتضيات عهدهم للحفاظ على الإسلام أو الدفاع ، كلها أمثلة رائعة فى هذا الصدد .

---

(١٨) مقدمة فتح الرحمن ، طبع دلهى ١٢٩٤ هـ .

(١٩) توجد مخطوطتها فى مكتبة ندوة العلماء وتشتمل على ست صفحات بالقطع الكبير .



## الترجمات الأردنية للقرآن الكريم بعد الإمام الدهلوى :

وقد أمست الحاجة - سريعاً - بعد ترجمة الإمام الدهلوى بالفارسية إلى ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردنية ، إذ أنها كانت بدأت فى الجزء الأخير من القرن الثانى عشر الهجرى نفسه تحل محل اللغة الفارسية ، وبدئاً فيها بعمل الكتابة والتأليف ، وقد شعر بهذه الحاجة الماسة وتغير الوضع أول ما شعر الشيخ عبد القادر الدهلوى ( م ١٢٣٠ هـ ) ابن الإمام الدهلوى نفسه ، وقام بترجمة القرآن الكريم عام ٥ - ٤ ١٢٠٤ هـ إلى اللغة الأردنية الأدبية التى يمكن أن يقال عنها إنه ليس فى علمنا محاولة نقل معانى القرآن الكريم إلى غير العربية بلغت من النجاح والسهولة والجمال وتناولت روح الألفاظ القرآنية إلى الحد الكبير ، ما بلغته هذه الترجمة يقول الشيخ عبد القادر فى مقدمة ترجمته هذه :

« لقد جال فى خاطر هذا الفقير عبد القادر أن والدنا الجليل الشيخ ولى الله ابن الشيخ الكبير الشيخ عبد الرحيم العالم بالحديث ومن أبناء الهند كما ألف ترجمة القرآن الكريم بالفارسية بتسهيل وتيسير ( كذلك يعمل هذا العبد الفقير بالأردنية ) وأحمد الله - تعالى - على أن هذه الأمنية تحققت عام ١٢٠٥ هـ ( الموافق ١٧٩٠ ) (٢٠) .

ثم قام الشيخ رفيع الدين ( م ١٢٣٣ هـ ) أخ الشيخ عبد القادر الأكبر بترجمة القرآن الكريم - مع مراعاة ترجمة كل لفظة بلفظة وحرف بحرف - الى نالت بجوانب حيطتها البارزة وتبحر مؤلفها فى العلم وإخلاصه ، قبولاً ورواجاً كبيراً ، فنال ترجمة الشيخ عبد القادر ، السلسلة المترابطة ، القبول والرواج فى بعض الأوساط وترجمة الشيخ رفيع الدين القبول والرجحان فى أوساط أخرى .

وقد انتشرت وعمت هاتان الترجمتان فى بيوت المسلمين ، وعمت قراءتهما مع تلاوة القرآن الكريم انتشاراً لا مثيل له فى أى كتاب دينى آخر ، أما فيما يتعلق بتصحيح العقائد وتبليغ عقيدة التوحيد الخالصة ونشرها ، فلا يحصى كم من مستفيد ومنتفع بهاتين الترجمتين ، فإن عددهم يتجاوز مئات الألوف ، والحق أن أية حكومة إسلامية بوسائلها وأسبابها لا تستطيع أن تقوم بما قامت به هذه الترجمات الثلاث فى مجال الدعوة والإصلاح ، وهى كلها أغصان دوحه واحدة وفروع شجرة الطوبى ، « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

(٢٠) موضح القرآن ، ج : ١ ، ص : ٢ .

ثم سال سيل الترجمات الأردية التي يصعب إحصاؤها واستقصاؤها ، ويتطلب بحوثاً  
تحقيقية علمية مستقلة (٢١) .

## دروس القرآن الكريم :

وعلاوة على هذه التراجم الأردية للقرآن الكريم التي قام بها شيخان جليلان من أفراد  
هذه الأسرة الكريمة الشيخ عبد القادر الدهلوى والشيخ رفيع الدين الدهلوى ، والتي ظلت  
تقرأ وتدرس فى البيوت حيث كانت اللغة الأردية لغة النطق والكتابة فى الهند ، كان هناك  
الجهد الطويل الجاد ، المؤثر العميق البليغ لتصحيح العقائد وإصلاح الأعمال والأخلاق عن  
طريق إلقاء دروس القرآن الكريم العامة ، وشرحه وتفسيره شفويًا ، وقد تحقق ذلك على  
يدى أكبر أبناء الإمام الدهلوى ، والمضطلع بأعباء أعماله التجديدية والإصلاحية وتوسيع  
نطاقها وتكميلها بعده الشيخ عبد العزيز الدهلوى ( ١٢٣٩ هـ ) الذى استمر اثنتين وستين ،  
أو ثلاث وستين سنة ، يلقى دروسه المؤثرة فى القرآن فى مدينة مركزية كالعاصمة دلهى ،  
وفى عهد خطير كالقرن الثالث عشر الهجرى ، وما كسبت هذه الدروس من نجاح وقبول ،  
وما تحقق بها من إنجازات كبيرة فى تصحيح العقائد والمفاهيم لا يوجد له فى علمنا أى نظير  
ولا مثيل .

---

(٢١) بين أيدينا الآن كتاب « جائزة تراجم قرآنى » ( استعراض الترجمات القرآنية ) فقد بلغت فيه عدد  
الترجمات ( بعد هاتين الترجمتين للشيخ عبدالقادر والشيخ رفيع الدين ) التى استعرضها المؤلف  
وعرف بها بإيجاز إلى خمس وخمسين ترجمة .

## « الفوز الكبير » :

إن كتاب الإمام الدهلوى « الفوز الكبير فى أصول التفسير » « مآثرة تجديدية ثورية فى صدد الدعوة إلى القرآن ، وإنشاء ملكة الفهم والتدبر للقرآن الكريم فى أوساط الخاصة وأصحاب العلم والمثقفين ، وإيقاظ عاطفة الإصلاح للأمة الإسلامية ، وأنه لكتاب فريد (فى المكتبة الإسلامية العامرة حسب علمنا) فى بابيه .

لا يوجد فى أصول التفسير شئ مستقل - بصفة عامة - وما هى إلا بعض القواعد والضوابط وشئ من الأصول يذكرها بعض المفسرين فى مقدمة تفاسيرهم أو لبيان منهجهم فى التفسير والتأويل فى بضعة سطور ، وإن كان كتاب الإمام الدهلوى « الفوز الكبير فى أصول التفسير » أيضاً وجيزاً مختصراً ، ولكنه كله نقاط أساسية وكليات جامعة ، وهو - فى الحقيقة - مذكرة نادرة قيمة لعالم جليل عانى مشكلات القرآن ، ومارسها ممارسة المجرب الخبير .

ولا يقدره حق قدره إلا من واجه هذه المشكلات والمسائل العويصة وإن بعض الأصول والكليات التى سجلها الإمام الدهلوى بناء على ذوقه ووجدانه وإدراكه لمغزى القرآن لا يمكن الحصول عليها بمطالعة مئات الصفحات فى الكتب الأخرى وإن تصریح الإمام الدهلوى فى مقدمة هذا الكتاب بما يلى ، صحيح مائة فى المائة :

« يقول الفقير إلى الله ، ولى الله بن عبد الرحيم - عاملهما الله تعالى بلطفه العظيم - إنه لما فتح الله - تعالى - على باباً من كتابه الحكيم ، خطر لى أن أقيد الفوائد النافعة التى تنفع إخوانى فى تدبر كلام الله - عزو وجل - وأرجو أن مجرد فهم هذه القواعد يفتح للطلاب فريقاً واسعاً إلى فهم معانى كتاب الله - تعالى - وأنهم لو قضوا أعمارهم فى مطالعة كتب التفسير أو قرائتها على المفسرين - على أنهم أقل قليل فى هذا الزمان - لا يظفرون بهذه القواعد الضابطة والمضامين المترابطة » (٢٢) .

إن ما كتبه الإمام الدهلوى فى مقاصد القرآن الكريم وموضوعاته ، وخصائص أسلوبه ومنهجه ، واختلافه وتميزه عن المؤلفات البشرية لا سيما كتب المتأخرين الدراسية ، وأسباب النزول فى كلمات قليلة معدودة ، يمكن أن لا يشعر فيه - اليوم - بالجددة والابتكار ،

---

(٢٢) الفوز الكبير .

ولكنها كانت فى القرن الثانى عشر آراء ونظرات جديدة ، ولا تزال هذه الآراء غريبة  
مجهولة فى كثير من الأوساط ، لقد وقع هناك نقص كبير وفرق هائل - نتيجة كثرة  
الروايات المتعلقة بأسباب النزول والتأكيد على أهميتها والتركيز عليها الذى كان أصبح شعار  
القرون المتأخرة - فى الاستفادة من مضامين القرآن العظيم وقصصه والانتفاع بعظاته وعبره  
فى كل عصر ودور من أدوار التاريخ ، وتطبيقها على ظروف العصر وأوضاعه وقضاياها ،  
فقد أزاح الإمام الدهلوى بهذا التحقيق والتنقيح ذلك الستار الكثيف ، وكشف عن جمال  
القرآن الكريم وبهائه ورونقه ، يقول الإمام الدهلوى فى الباب الأول من كتابه : « الفوز  
الكبير » :

« وقد ربط عامة المفسرين كل آية من آيات الأحكام وآيات المخاصمة بقصة تروى فى  
سبب نزوله ، وظنوا أنها هى سبب النزول .

والحق أن نزول القرآن الكريم ، إنما كان لتهديب النفوس البشرية ، وإزالة العقائد  
الباطلة والأعمال الفاسدة .

فالسبب الحقيقى - إذن - فى نزول آيات المخاصمة هو وجود العقائد الباطلة فى نفوس  
المخاطبين .

وسبب نزول آيات الأحكام ، إنما هو شيوع المظالم ووجود الأعمال الفاسدة فيهم .

وسبب نزول آيات التذكير ( بلاء الله وأيامه وبالموت ) إنما هو عدم تيقظهم وتنبههم بما  
يرون ويمرون عليه من آلاء الله وأيامه وحوادث الموت ، وما سيكون بعده من وقائع هائلة .

أما الأسباب الخاصة والقصص الجزئية التى تجشم بيانها المفسرون فليس لها دخل فى  
ذلك إلا فى بعض الآيات الكريمة التى تشتمل على تعريض بحادث من الحوادث فى عهده  
النبي ﷺ أو قبله ، بحيث يقع القارئ بعد هذا التعريض فى ترقب وانتظار لما كان وراءه من  
قصة أو حادث أو سبب ولايزول ترقبه إلا ببسط القصة وبيان سبب النزول « (٢٣) .

وإن بيان مواضع الضعف فى الفرق التى تكفل القرآن الكريم بالرد عليها والتصريح  
بعقائدها وأفكارها وآرائه الصحيحة الأصلية ، وأسباب ضلالها وانحرافها وسوء فهمها  
للحقيقة وتاريخ هذه الأسباب ، وبيان اتفاق وتطبيق هذه الأمور على بعض طبقات

---

(٢٣) الفوز الكبير ، الباب الأول ، ص : ٣ - ٤ .

المسلمين، هو الأساس الأول لفهم القرآن الكريم الذى لا يوجد - رغم الاختصار والإيجاز- بهذا الوضوح فى أى من التفاسير الكبيرة كما يوجد فى هذا الكتاب .

وكذلك شرح الفرق بين اصطلاحات المتقدمين والمتأخرين فى النسخ والتطبيق والتوفيق بين الآيات الناسخة والمنسوخة ، وحل الخلافات التفسيرية بين الصحابة والتابعين ، من بحوث الإمام الدهلوى الجيدة النادرة .

وإن ما ذكره الإمام الدهلوى من توجيه لعدم مطابقة بعض الآيات القرآنية مع قواعد النحو الظاهرة المعروفة وعدم موافقتها لها ، يعرف قدره وأهميته من درس تاريخ تدوين النحو ، وكان له اطلاع واسع على الخلافات النحوية بين مدرستى الكوفة والبصرة ، وإن من أكبر ميزات هذا الكتاب أن القارئ يطلع من خلاله على مواطن الضعف الحقيقية فى الديانات السابقة والفرق الضالة والشعوب والملل وأمراضها القديمة وعللها الموروثة ، ويوفى أجيال المسلمين ، والمجتمع المسلم فى كل عصر وطبقات الأمة المختلفة أن ترى وجهها فى مرآة القرآن الكريم ، وتحاسب نفسها ، وتفكر فى أن لا تتسرب أمراض الديانات والفرق القديمة ومواطن ضعفها المتوارثة إليهم ، ولا تدخل بخطى صامته عليهم .

﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ (٢٤) .

## التحقيق والتنقيح العلمى لمسألة التوحيد :

لم يقتصر الإمام الدهلوى فى سبيل تصحيح العقائد والمفاهيم والدعوة إلى التوحيد الخالص على ترجمة القرآن الكريم وإلقاء الدروس فيه ، بل درس هذا الموضوع كعالم وباحث محقق دراسة واقعية موضوعية ، لقد كانت عقيدة التوحيد شعار الملة الإبراهيمية الأكبر ، والمقصد الأعظم لدعوة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وجهده وأساس دعة خاتم النبيين ﷺ ومبدأه ومنتهاه ، يشهد عليه القرآن الكريم كله ، ومجاميع السنة والسيرة النبوية ، لقد أقام بين التوحيد والشرك خافصلا ، وبين حقيقة التوحيد بياناً واضحاً، وجاهد ضد أى شائبة من شوائب الشرك وأى ظل خفيف من ظلاله ، وسد باب كل ذريعة إلى تسرب الشرك فى عقائد الأمة الإسلامية ، ووقوع الضعف فيها ، بما لا يتصور المزيد عليه ، وهذه الحقائق كلها بدهية متواترة لا تحتاج إلى إيراد الشواهد والأدلة ، وكل من له أدنى إلمام بالكتاب والسنة يضطر إلى الاعتراف ها والإذعان لها .

ثم كيف تسربت هذه الأعمال والمعتقدات الشركية بعد مضى القرون المشهود لها بالخير ، وفتح بلاد جديدة ، وإقبال أهلها على الإسلام ، والاختلاط بالشعوب غير الإسلامية ومجاورتها ، ومضى الدهور والأعصار ، إلى طبقة كبيرة من العامة ، وكيف تمكنت من الحصول على مكانها مع كثير من شعائر التوحيد وعلاماته فى المجتمع المسلم ، وكيف تجاسر كثير من أدعياء العلم على احتمالها ، وتوجيهها وتأويلها وتحليلها ، وكيف وقع كثير من المسلمين المثقفين أسرى هذه المغالطات ، والتأويلات ؟

إن السبب فى ذلك عند الإمام الدهلوى يرجع إلى عدم الإدراك والفهم لحقيقة الشرك وحقيقة معتقدات المشركين ، لاسيما المشركين العرب فى الجاهلية عن كون الله - تعالى - خالق الكون ، ومدبر الأمور العظام ، وقد فهمت الطبقة الكبيرة من العامة حقيقة الشرك على أنه إشراك كائن ( سوء كان حيا أو ميتا ) مع ذات الله - تعالى - على قدم سواء ، وأن يجعل له ند ومثيل ، تنسب إليه جميع صفات الله - تعالى - وأفعاله ، ويعتقد بأنه هو الخالق ، الرازق ، والحى والميت ، حقيقة وأصلا ، أما نسبة بعض صفات الله - تعالى - إلى بعض عباده المقربين عنده ، واعتقاد صدور بعض الأفعال ( التى هى خاصة بالله - تعالى - ) منهم ، وتوليتهم بعض أمور القدرة المطلقة ، وتخويلهم بعض حقوقه بإذنه ورضاه ، كل ذلك لا ينافى عندهم التوحيد ولا يرادف الشرك ، كذلك كانوا يعتقدون أن تقديس أحد لمحض التزلف إلى الله - تعالى - تقديسا بالغا ، ومعاملته بأعمال وهيئات تدخل فى حدود العبادة والتأليه ، لا علاقة له بالشرك إذ أنه مجرد وسيلة من الوسائل للحصول

على رضا الله - تعالى - وطريق نافع مؤثر للوصول إلى حضرة الجلالة ( التي لا يصل إليها  
أى بشر عادى ) وكان الكفار العرب يقولون : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله  
زلفى ﴾ (٢٥) .

كنت هذه هي المغالطة والتلبيس الذى جر كثيرا من أفراد هذه الأمة إلى حمى الشرك  
المحرمة ، وقد تخطوا ذلك الخط الأخير الذى هو الحد الفاصل ( LINE OF DEMARC  
ATION ) بين الشرك والتوحيد ، ولذلك فإن أول وأهم حاجة فى هذا الصدد أن يعلم ما  
هى تلك العقيدة التى كان يدين بها المشركون العرب والجاهليون حقيقة ، وماذا كانوا  
يعتقدون فى ذات الله - تعالى - وصفاته ، ولماذا اعتبرهم رسول الله ﷺ مشركين رغم  
كونهم صاحب القدرة المطلقة ، وأعلن القرآن الكريم أنهم مشركون .

يقول الإمام الدهلوى فى كتاب العديم النظير « الفوز الكبير فى أصول التفسير » :

« والشرك هو إثبات الصفات الخاصة بالله - تعالى - لغيره مثل إثبات التصرف المطلق  
فى الكون ، بالإرادة المطلقة ، التى يعبر عنها بـ « كن فيكون » أو إثبات العلم الذاتى الذى  
يحصل بالاكتساب عن طريق الحواس والدليل العقلى والمنام والإلهام ، وأمثال هذه من  
الوسائل المادية أو الروحية أو إثبات إيجاد شفاء المريض أو إثبات اللعنة على شخص أو  
السخط عليه بحيث ينقلب نتيجة هذا اللعن والسخط معدماً فقيراً ، أو مريضاً أو شقيماً أو  
الرحمة لشخص والرضا عنه ، بحيث ينقلب هو لسبب هذه الرحمة والرضا غنياً صحيحاً  
معافى سعيداً .

وهؤلاء المشركون لا يعرفون مع الله - تعالى - شريكاً فى خلق الجواهر ( أى أصول  
المادة ) وتدبير الأمور العظام ، ويعترفون بأنه لا قدرة لأحد إذا أبرم الله - تعالى - شيئاً  
وقضى ، أن يمانعه ويقف دونه ، إنما كان إشراكهم فى أمور خاصة ببعض العباد ، إذا أنهم  
يظنون أن سلطاناً عظيماً من السلاطين العظام كان يرسل عبيده وأصحاب الزلفى لديه إلى  
بعض نواحي مملكته للقيام ببعض الأمور الجزئية وأنه لا يقوم بشئون الرعية وأمورهم  
الجزئية بنفسه ، بل يكل ذلك إلى الولاة والحكام ، ويقبل منهم شفاعتهم ، وتركيتهم  
للموظفين الذين يعملون تحت إشرافهم ، والمتصلين بهم والمتزلفين لديهم ، كذلك قد خلع  
ملك الملوك على الإطلاق - تعالى شأنه - على بعض عباده المقربين ، خلعة الألوهية  
وجعل سخطهم أو رضاهم مؤثراً فى عباده الآخرين .

---

(٢٤) سورة الزمر : ٣ .

فكانوا - لأجل ذلك - يرون من الضرورة التزلف إلى أولئك العباد المقربين حتى يكون هذا وسيلة لصلاحية القبول في حضرة الملك الحقيقي ، وتنال شفاعتهم في حقهم - عند الجزاء على الأعمال والحساب - الحظوة والقبول عند الله - سبحانه - .

ونظراً لهذه الملاحظة والتصوير الذى رسخ فى نفوسهم ، حدثتهم أنفسهم بالسجود أمامهم والذبح لهم والحلف بأسمائهم ، والاستعانة بقدرتهم المطلقة ، وتحت صورهم وتمثيلهم من حجر وصفر ونحاس وغير ذلك ، وجعلها قبلة للتوجه إلى أرواحهم ، وتدرج الجهلة من هذا الطريق إلى أن بدأوا يعبدون هذه الصور والتماثيل ، ويعتقدون أنها آلهة بذاتها ، ووقع فى المعتقدات خلط والتباس وفساد عظيم « (٢٦) .

ويقول أيضاً فى « حجة الله البالغة » :

« حقيقة الشرك أن يعتقد إنسان فى بعض المعظمين من الناس أن الآثار العجيبة الصادرة منه إنما صدرت لكونه متصفاً بصفة من صفات الكمال مما لم يعهد فى جنس الإنسان بل يختص بالواجب - جل مجده - ولا يوجد فى غيره إلا أن يخلع هو خلعة الألوهية على غيره أو يفنى غيره فى ذاته ، ويبقى بذاته ، أو نحو ذلك ما يظنه هذا المعتقد من أنواع الخرافات كما ورد فى الحديث : « إن المشركين كانوا يلبسون بهذه الصيغة : لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » فيتذلل عنده أقصى التذلل ، ويعامل معه معاملة العباد مع الله - تعالى - (٢٧) .

ويقول كذلك - وهو يبين حقيقة إشراك المشركين ، ويصرح بأنه كان هناك أمور مشتركة بين المشركين وبين المسلمين ، فقد كان المشركون العرب لا ينكرون وجود الله - تعالى - ومكانته المتفردة وقدرته المطلقة ، وكانوا يرون أن المقربين لديه والمحبوبين عنده يشاركونه فى بعض الصفات والحقوق - وذلك أيضاً بإذنه ورضاه - ولأجل ذلك كانوا يعاملونهم معاملة العبودية والخضوع - يقول تحت « باب التوحيد » :

« والمشركون وافقوا المسلمين فى تدبير الأمور العظام وفيما أبرم وجزم ، ولم يترك لغيره خيرة ، ولم يوافقوهم فى سائر الأمور ، ذهبوا إلى أن الصالحين من قبلهم عبدوا الله - تعالى - وتقربوا إليه ، فأعطاهم الله الألوهية فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله كما أن

---

(٢٦) الفوز الكبير ، ص : ٧ - ٨ .

(٢٧) حجة الله نبالغة ، ج : ١ ، ص : ٦١ ، باب أقسام الشرك .



ملك الملوك يخدمه عبده فيحسن خدمته فيعطيه خلعة الملك ، ويفوض إليه تدبير بلد من بلاده ، فيستحق السمع والطاعة من أهل ذلك البلد ، وقالوا : لا تقبل عبادة الله - تعالى - إلا مضمومة بعبادتهم ، بل الحق في غاية التعالي ، فلا تفيد عبادته تقرباً منه ، بل لا بد من عبادة هؤلاء ليقتربوا إلى الله زلفى ، وقالوا هؤلاء يسمعون ويبصرون ويشفعون لعبادهم ، ويدبرون أمورهم وينصرونهم ففتحوا على أسمائهم أحجاراً ، وجعلوها قبلة عند توجيههم إلى هؤلاء ، فخلف من بعدهم خلف ، فلم يفتنوا للفرق بين الأصنام وبين من هي على صورته فظنوها معبودات بأعيانها (٢٨) .

ويقول في موضع آخر :

( لقد كان المشركون يعتقدون ) « بأنه لا شريك لله - تعالى - في خلق السموات والأرض ، وما فيها من الجواهر ، ولا شريك له في تدبير الأمور العظام وأنه لا راد لحكمه ولا مانع لقضائه ، إذا أبرم وجزم ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ بل إياه تدعون ﴾ ، وقوله - تعالى - : ﴿ ضل من تدعون إلا إياه ﴾ ، لكن كان من زندقته قولهم : « أن هنالك أشخاصاً من الملائكة والأرواح تدبر أهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابد فيما يرجع إلى خويصة نفسه وأولاده وأمواله ، وشبهوهم بحال الملوك بالنسبة إلى ملك الملوك ، وبحال الشفعاء الندماء بالنسبة إلى السلطان المتصرف بالجبروت ، ومنشأ ذلك ما نطقت به الشرائع من تفويض الأمور إلى الملائكة ، واستجابة دعاء المقربين من الناس فظنوا ذلك تصرفاً منهم كتصرف الملوك قياساً للغائب على الشاهد ، وهو الفساد (٢٩) .

وهكذا توصل الإمام الدهلوى إلى جذور الأعمال والعقائد الشركية التي كان يخوض فيها العامة والخاصة الذين هم أشباه العامة ، وكشف عن المغالطة التي جرت كثيراً من الجهلة وأدعياء العلم إلى الوقوع في شرك هذه الأعمال والتقاليد وشعائر الشرك ، والنذر والذبح لغير الله ، والصيام بأسماء الأولياء والصالحين ، ودعائهم والسؤال منهم والالتجاء إليهم ، والخوف والرجاء منهم ، والاستمداد والاستعانة بهم ، وتعظيم قبورهم ، وكل ما يمت إليهم بصلة كتعظيم بيت الله - تعالى - والحرم المحرم والالتزام بأدابه واعتقاد تصرفهم

(٢٨) حجة الله البالغة ، ج : ١ ، ص : ٥٩ ، باب التوحيد .

(٢٩) حجة الله البالغة ، ج : ١ ، ص : ١٢٥ ، باب « ما كان عليه أهل الجاهلية فأصلحه النبي

- ولو جزئياً - فى الكون ، وتأثيرهم فى شقاء الإنسان وسعادته وصحته ومرضه ، وسعته وإقتاره ، وكانوا قد حرموا من العلم لقوله - تعالى - : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وكرامة الإنابة والإخبات والتوكل على الله - تعالى - والانقطاع إليه ، وإذا سمع الإنسان بعض أخبارهم وشاهد بعض أعمالهم تذكر الآية الكريمة : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

ولو لم تكن للإمام الدهلوى وأخلافه مآثرة غير هذا التجديد لعقيدة التوحيد وتنقيحها وتوضيحها ونشرها وترويجها ، وإزالة ما علق بها من سوء فهم وتصورات خاطئة ، لكفى ذلك فى عدة من المجددين فى هذه الأمة ، ولكن له مع ذلك أعمال ومآثر ، سيأتى تفصيلها فى الصفحات التالية .

\* \* \*

## بيان العقائد وشرحها في ضوء الكتاب والسنة وعلى منهج الصحابة والسلف الصالح

لقد كان للإمام الدهلوى - علاوة على هذه المآثر التجديدية الأساسية التي كانت تتعلق بالمسلمين - عامة - والمجتمع الإسلامى كله ، والتي يشك بدونها فى الهداية والنجاة ، وتستحيل نصره الله - تعالى - وتأييده ، مآثرة علمية وإصلاحية جزئية وهى أنه قام ببيان العقائد الإسلامية وشرحها فى ضوء الكتاب والسنة ، ودعا فى هذا المجال إلى تطبيق منهج الصحابة والسلف الصالحين - رضى الله عنهم - وذوقهم ومشربهم ، وقد بدأ بهذا العمل وقدم مثالا عمليا .

لقد كان العالم الإسلامى فى حاجة إلى أولئك النوابغ من المفكرين والمتقيدين بالنصوص من المجتهدين الذين يستطيعون أن يواجهوا آراء الفلاسفة والفلاسفة ونظرياتهم ( التى كان لها تأثير كلى على علم الكلام نفسه ) مواجهة النذ للند ، يؤمنون بالقرآن كما نزل ، ويعتقدون فى صفات الله - تعالى - وأفعاله بما يقوله هو عن نفسه من دون تأويل أو تحريف وتعطيل ، ويفسرون هذه الحقائق تفسيراً يؤيده العلم الصحيح والأدلة الشرعية فى جانب ، ويعترف به العقل الصريح والمنطق الصحيح فى جانب آخر ، ولم يكن لذلك إلا العلماء الربانيون الذين تربوا وتخرجوا فى مدرسة القرآن الكريم مباشرة ، واقتبسوا النور من مشكاة النبوة الصافية وكانوا - مع معرفتهم الواسعة وإحاطتهم بعلوم الفلسفة والبحوث والتدقيقات الكلامية ملتزمين فى مجال العقائد بكتاب الله - تعالى - وسنة نبيه المتواترة - ﷺ - ويؤمنون بالله - تعالى - بصفاته وأسمائه الحسنى التى تكفل هو بيانها فى كتابه الحكيم ، وكان يصدق عليه - كليا - تعريف العلماء الربانيين الذى ورد فى الحديث الشريف :

« ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » (٣٠) .

ولم يخل أى عصر من عصور التاريخ الإسلامى من أمثال هؤلاء العلماء الربانيين ، ومن أبرزهم شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحرانى ( م ٧٢٨ هـ ) فى الثامن الهجرى ،

---

(٣٠) رواه البيهقى ، ولفظ الحديث : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين إلخ » .

وتلميذه النابغة العلامة ابن قيم الجوزية صاحب « زاد المعاد » ( م ٧٩١ هـ ) وآخرون من العلماء الأجلة الذين ساروا على هذا الدرب ، وليست قائمة أسمائهم طويلة .

وإن كان بعد الإمام ابن تيمية من يمكن أن يصرح باسمه في هذا المجال بكل ثقة واعتماد، وأعماله ظاهرة معروفة في أوساط العلماء ، فهو الإمام ولي الله الدهلوى ، فقد كان يملك المقدرة الكافية لبيان العقائد وشرحها وعرضها وفق منهج السلف الأولين . لأنه كان درس الفلسفة اليونانية دراسة واسعة وعميقة في جانب ، وكانت الثروة لعلم الكلام بين يديه بل في تناوله ، وكان مفسراً دقيق النظر للقرآن الكريم وعالماً وبارعاً في علوم الحديث الشريف ، وعارفا بأسرار الشريعة وحكمها ومقاصدها في جانب ، ولذلك فهو يقوم على الجادة المتوسطة بين « التأويل » و « اللفظية » وكتابه « العقيدة الحسنة »<sup>(٣١)</sup> يجمع بين عمق الدراسة وسهولة العبارة وطلاقتها ، وإنه لمن المتون الجامعة المحررة لعلم التوحيد (الذى يسمى الآن بعلم الكلام بصفة عامة) التى احتوت على خلاصة عقائد أهل السنة والجماعة ولبابها الذى يجب أن يطلع عليه كل مسلم مثقف يعدُّ نفسه ويعتبرها فى أهل السنة ويريد أن يجعل عقائد أهل السنة شعاره ومسلكه .

يقول الإمام فى رسالة « وصايا »<sup>(٢٣)</sup> ، ( وهى باللغة الفارسية ) :

« وصية هذا الفقير الأولى أن يتمسك المسلم فى العقائد والعلم بالكتاب والسنة ويعض عليهما بالنواجذ ، ويعمل بهما دائماً ويختار فى العقائد منهج المتقدمين من أهل السنة ، ويعرض فى باب الصفات والآيات المتشابهات التى لم يخض السلف فى تفصيلها والبحث فيها عنه ، ولا الالتفات إلى تشكيكات العقلانيين المتكاسين » .

---

(٣١) طبع هذا الكتاب باسم « العقيدة الحسنة » ( بالفارسية ) فى مطبع « مفيد عام » بآكره ، وقام الأستاذ الفاضل الشيخ محمد أويس الندوى - عليه رحمة الله - شيخ التفسير بدار العلوم ندوة العلماء - سابقاً - بترتيبه مع تعليقاته وحواشيه ( التى اقتبس أكثرها من المؤلفات الأخرى للإمام الدهلوى ) باسم « العقيدة السنية » وطبع بمقدمة مؤلف هذا الكتاب فى مطبع دار العلوم ندوة العلماء عام ١٣٨٢ هـ الموافق عام ١٩٦٢ م وقد جاءت خلاصة هذا الكتاب فى كتاب المؤلف « العقيدة والعبادة والسلوك » ، يوجد بحث العقيدة الحسنة كله فى « التفهيمات » للإمام الدهلوى، ولعل أفرد منه ونشر فى رسالة مستقلة ( انظر « التفهيمات الإلهية » ، ج : ١ ، ص : ١٤٤ - ١٤٨ ) .

(٣٢) كان الإمام الدهلوى أسمى هذه الرسالة بـ « المرآة الوضيئة فى النصيحة والوصية » وقد نشرت ضمن مجموعة رسائله الأخرى .

ويقدر منهج الإمام الدهلوى فى باب الأسماء والصفات ومسلكه فيها بهذه القطعة التى نقدمها فيما يلى :

« اعلم أن الحق - تعالى - أجل من أن يقاس بمعقول أو محسوس أو يخل فيه صفات كحلول الأعراض فى محالها ، أو تعالجه العقول العامة أو تتناوله الألفاظ العرفية ، ولا بد من تعريفه إلى الناس ليكملوا كمالهم الممكن لهم ، فوجب أن تستعمل الصفات بمعنى وجود غاياتها لا بمعنى وجود مبادئها ، فمعنى الرحمة إفاضة النعم لا انعطاف القلب والرقّة ، وأن تستعار ألفاظ تدل على تسخير الملك لمدينته ، لتسخيره لجميع الموجودات إذ لا عبارة فى هذا المعنى أفصح من هذه ، وأن تستعمل تشبيهات بشرط أن لا يقصد إلى أنفسها بل إلى معان مناسبة لها فى العرف . . . وقد أمعت الملل السماوية قاطبة على بيان الصفات على هذا الوجه ، وعلى أن تستعمل تلك العبارات على وجهها ولا يبحث عنها أكثر من استعمالها وعلى هذا مضت القرون المشهود لها بالخير ، ثم خاض طائفة من المسلمين فى البحث عنها وتحقيق معانيها من غير نص ولا برهان قاطع » (٣٣) .

لقد كان العالم الإسلامى من قرون لا سيما تلك البلدان التى كانت تحت تأثير إيران علمياً وعقلياً ودراسياً ، يسود فيها تلك التدقيقات الكلامية وشق الشعرة والتأويلات البعيدة- التى تنجر إلى أن يصبح الذات الإلهية معطلة وبدون معنى ووصف - والاندهاش والتهيب بالفلسفة اليونانية الذى بلغ حد العبودية العقلية ، وحد الاستخفاف والاستهانة فيما يتعلق بمسلك السلف ومنهجهم ، فكان من أنصف منهم - فى زعمه - وأخذ بالاحتياط ، قال : « مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم » ، لقد كانت هذه الخدمة العلمية والجرأة من الإمام الدهلوى نظراً إلى هذه الخلفية العلمية والتاريخية ، إحدى مآثره وأعماله التجديدية الاجتهادية .

وقد كان هذا التأييد والانتصار لمنهج السلف فى باب الأسماء والصفات وعدم الانسجام مع الفلاسفة المتكلمين ( الذين أبعدوا النجعة فى التأويلات ويخيل - بعض الأحيان - أن أقوالهم تصل إلى حدود التعطيل فى الصفات ) وجه واجلاله للحديث والسنة المشرفة ، حافظاً للإمام الدهلوى على الدفاع عن الإمام ابن تيمية والاعتراف بجلالة شأنه وعلو مكانه ، فقد كانت شخصيته فى القرون الأخيرة تدور حولها مناقشات وخلافات حادة ، بل كانت تستهدف للشبهات والمطاعن ، لقد أثنى عليه الإمام الدهلوى ثناءً عاطراً ودافع عنه فى

---

(٣٣) حجة الله البالغة ، - : ١ ، ص : ٦٣ . باب الإيمان بصفات الله .

حماس ، يقول في « التفهيمات الإلهية » :

« وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة ، وآثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العالم ، ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره ؟ ، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله - تعالى - (٣٤) .

\* \* \*

---

(٣٤) « جلاء العينين » ص : ٤٦ ، نقلا عن « التفهيمات الإلهية » وللإمام الدهلوي رسالة مطبوعة مستقلة باسم « مناقب الإمام ابن تيمية » وهي رسالة وجهها إلى أحد اصحابه .

## الباب السادس

### القيام بنشر الحديث الشريف والسنة المشرفة والفقه والجهود فى سبيله

أهمية الحديث الشريف والحاجة إليه فى كل عصر ومصر :

لقد قام الإمام الدهلوى فى شبه القارة الهندية وفى عهدها الأخير - حقيقة - ( الذى يمتد من أواسط القرن الثانى عشر الهجرى إلى هذا الحين ) بمأثرة عظيمة ، وهى القيام بنشر الحديث النبوى الشريف وترويجه وإحياء دروس الحديث والعناية بهذا الفن الجليل ، ومؤلفاته فى هذا الموضوع تمتاز بالدقة والاجتهاد والتحقيق ، وتعتبر فصلاً مضيئاً مهماً فى صحيفة تجديده وكتاب حياته والتى غلبت على فضائله ومجالاته العلمية وخدماته الدينية الأخرى حتى غدا « المحدث الدهلوى » جزءاً من اسمه ، وعنواناً لتعريفه ووصفه ، وجرى على ألسنة الناس وأقلامهم « الإمام ولى الله المحدث الدهلوى » وأصبح ذلك علمه المعرف الكامل .

ولكن قبل أن نتعرض لتاريخ هذه المأثرة الجليلة وبيانها - بتفصيل - يلزمنا لإدراك جلاله هذا العمل وخطورته أن نعلم مكانة الحديث الشريف فى نظام الدين وإطار الشريعة الإسلامية ، والجهود المبذولة للحفاظ على الإسلام فى صورته الصحيحة ، وتكوين المناخ والبيئة الإسلامية والحفاظ عليها ، ولماذا يجب القيام بنشره وصيانته فى كل عصر وكل بلد ( يعيش فيه المسلمون ) وما يحمل الغفلة عنه والجهل به أو إنكاره من أخطار وما يحتوى عليه من مضار ، وما هو الفراغ الهائل الذى يحدثه انقراض هذا العلم أو تجاهله والتغافل عنه فى أى بلد أو فى أى عصر ، والذى لا يملأ بشىء آخر ، سوف يقدم المؤلف - لتوضيح هذه النقاط - مقتبات من رسالة له نفسه ، حاول فيها عرض هذه الحقيقة وإثباتها بوضوح وبشىء من التفصيل (1) :

---

(1) نشرت هذه الرسالة باسم « دور الحديث فى تكوين المناخ الإسلامى وصيانته » وهو فى الحقيقة مقال كان المؤلف قد أعده لافتتاح دورة المحاضرات لرابطة العالم الإسلامى فى موسمها الثقافى =

« إن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون في كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث الذي هو يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لا بد منها في السنن الإلهية ، ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾<sup>(٣)</sup> ، «فلولا الحديث الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلامي ، لوقعت هذه الأمة في إفراط وتفريط ، واختل الاتزان ، وفقد المثال العملي الذي حث الله على الاقتداء به بقوله : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾<sup>(٤)</sup> وهو الذي يحتاج إليه الإنسان ويستمد منه الثقة والقوة في الحياة ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع .

« ثم إن الحديث زاخر بالحياة والقوة والتأثير الذي لم يزل يبعث على الإصلاح والتجديد ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ، وحسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره في كل عصر وبلد ، من رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات ، والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية ، وكان لا بد من تقييده ، وتسجيله وحفظه ونشره .

وقد ظلت كتب السنة والحديث - ولا تزال - مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد ، والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية ، تلقى منه المصلحون في عصورهم العلم الديني الصحيح ، والفكر الإسلامي النقي ، واحتجوا بأحاديثه ، واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح ، وفي محاربتهم للبدع والفتن والفساد ، ولا يستغنى عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص ، والإسلام الكامل ، ويريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية ، والأسوة الكاملة ، وكل من تلجئه الحاجة

---

= = بمكة المكرمة عام ١٤٠١ هـ وقد قرىء هذا البحث في ١٦ من ذي القعدة عام ١٤٠١ هـ ( الموافق ١٣ سبتمبر عام ١٩٨١ م ) بمكة المكرمة أمام لفيف من العلماء والمثقفين ، ونشرت هي وترجمتها بالأردية والإنكليزية من « المجمع الإسلامي العلمي » - لكهنو - الهند .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٤ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٣٠ .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .



وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة .

## شهادة التاريخ لتأثير الحديث وكتب السنة فى الإصلاح والتجديد :

ويشهد بهذه الحقيقة تاريخ الإسلام والمسلمين نفسه ، فكلما ضعفت صلتهم بكتب الحديث والسنة ومعرفتهم بها ، على كثرة وجود الدعوة إلى الله ، والمشتغلين بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ، والزهد فى الدنيا والعمل بالسنة ، وطالت هذه الفترة ، غزت المجتمع الإسلامى - الزاخر بأصحاب الاختصاص فى العلوم الإسلامية ، المتبحرين فى العلوم الحكيمية والأدبية ، وفى عهد غلبة الإسلام وحكم المسلمين - بدع طريفة وتقاليد عجمية ، وأعراف دخيلة ، حتى يكاد يكون نسخة من مجتمع جاهلى ، وصدقت النبوة المحمدية والحديث الصحيح : « لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع <sup>(٥)</sup> » ، وخفت صوت الإصلاح ونخبا مصباح العلم .

ومن شاء فليستعرض الوضع الدينى وواقع حياة المسلمين فى القرن العاشر الهجرى فى الهند ، القرن الذى كادت صلة الأوساط الدينية والعلمية فى شبه القارة الهندية تنقطع عن علم الحديث الشريف ومصادر السنة الصحيحة ، وكانت تعيش فى عزلة عن مراكز العلم الدينى ، وتدریس الحديث الشريف ، ( كالحجاز ، واليمن ، ومصر ، والشام ) وأصبحت مقتصرة على كتب المذهب وشروحها وتدقيقاتها وكتب الأصول والحكمة ، كيف فشت فيها البدع وعمت المنكرات ، واستحدثت أشكال متنوعة للعبادات والقربات <sup>(٦)</sup> .

وقد قال مؤلف هذه السطور فى الجزء الثالث من « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ، وهو يتحدث عن كتاب « جواهر خمسة » لأحد المشائخ المعروفين فى القرن العاشر الهجرى ، الشيخ محمد غوث الكواليارى ، ما يلى :

« لقد كانت الهند لا تعرف شيئاً عن الصحاح الستة ومؤلفيها ، وأئمة هذا الفن ، الذين نقدوا علم الحديث ونخلوه وميزوا بين صحيحها وسفيها وقاوموا البدع والمحدثات وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السنة المطهرة ، وفى ضوء الأحاديث الصحيحة ، ونستثنى من ذلك ولاية كجرات التى انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها ، وكثرة الرحلات فيها إلى الحرمين الشريفين ، ونبغ فيها العلامة على المتقى

(٥) رواه الحاكم .

(٦) « دور الحديث فى تكوين المناخ الإسلامى وصيانتة » ، ص : ٢٦ - ٣٠ .

البرهان بوري وتلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتني ( في القرن العاشر الهجري ) .

ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذي خلفته الفلسفات ، والتجارب المحلية في الهند على التصوف من خلال كتاب « جواهر خمسة » للشيخ محمد غوث الكواليارى الذى ذاع صيته فى عصره ، وحصل له القبول العظيم عند الناس ، والكتاب يشتمل على أقوال الصوفية ، وتجارب الشيخ الكواليارى الشخصية ، ويخيل إلينا أنهم لم يروا حاجة إلى ثبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة ، واقتباسها من كتب السيرة النبوية المعتبرة ، فتجد فى هذا الكتاب المذكور - آنفاً - « صلاة الأحزاب » و « صلاة العاشقين » و « صلاة تنوير القبر » والصلوات المخصوصة بالأشهر المختلفة والأدعية الخاصة بها التى لا أصل لها فى السنة ، ولا أثر لها فى الحديث <sup>(٧)</sup> .

ولم تكن هذه خصيصة « جواهر خمسة » فحسب ، بل تتوفر أمثلة ذلك فى مجاميع أقوال أمثال هؤلاء الصوفية غير المعتبرة ، فقد كانت سجدة التحية للمشائخ شائعة ، واتخذت القبور مساجد علناً وجهاراً ، فكانت توقد عليها السراج ، وتفرش عليها الأردية ، وتعظم أطرافها وحواليها كتعظيم الحرم ، ويحتفل بها باسم « العرس ( الاحتفال الدينى ) وقراءة الفاتحة » وتكثر فيها النساء ، وكانت « الصلاة الغوثية » و « الصلاة المعكوسة » والنذر لغير الله - تعالى - باسم الأولياء الصالحاء والذبح لابتغاء مرضاتهم ، والصوم باسم غير الله ، وأمثال هذه من البدع الكثيرة ( التى كانت تصل حدودها إلى الشرك ) كانت شائعة فى الناس يقبل عليها الخاصة منهم والعامه ، وكانت تعقد احتفالات إحياء أيام الولادة والوفاة للأولياء والصالحين ، ويحتفل بمهرجانات وأعياد .

ولولم تكن كتب الحديث فى متناول أيدي العلماء المسلمين ، ولم تيسر لهم هذه الوسيلة المعتبرة السهلة للتفريق والتمييز بين البدع والسنن ، لما كانت هذه السلسلة من عهد شيخ الإسلام ابن تيمية ( م ٧٢٨ هـ ) إلى عهد الإمام الدهلوى ( م ١١٧٦ هـ ) للعلماء المصلحين والدعاة إلى الدين الخالص ، ولم يظهر المصلحون والمجددون حملة راية التجديد والإصلاح وتصحيح العقائد ، وإزالة التقاليد الجاهلية .

اقرأ تراجم علماء أفغانستان ( كابل وهرات وغزني ) فى القرنين العاشر والحادى عشر ، والى نظرة على كتبهم ومؤلفاتهم ، فلما تجد عليها مسحة الدفاع عن السنة والرد على البدعة والتحقيق والتنقيح فى المسائل ، وإذا بشخصية العلامة على بن سلطان بن محمد

(٧) انظر « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ج : ٣ ، ص : ٢١٨ .

الهروى ( م ١٠١٤ هـ ) المعروف بملأ على القارى ، تظهر على الساحة ، الذى سافر إلى الحجاز وقرأ على كبار أساتذتها ومحدثيها الأجلة كتب الحديث ونبغ فيها ، وتتجلى هذه المسحة الظاهرة فى شروحه لكتب الفقه والحديث وترجيحه للمسائل ورده - بصراحة ووضوح - على بدع عصره ومحدثاته ، وقد أدت به دراسته وبحثه وقوله بالحق وإنصافه إلى أنه دافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية وشهد بأنه كان من أكابر أهل السنة والجماعة وأولياء الأمة<sup>(٨)</sup> .

وقد كانت هذه الحال فى عدد من البلدان العربية كالعراق والشام ومصر وتونس والجزائر ومراكش<sup>(٩)</sup> .

### علم الحديث والعرب :

إن من حقائق فلسفة التاريخ الإسلامى أن البلاد التى كان العرب حملة الإسلام إليها ، وإليهم يرجع الفضل فى انتشاره فيها ، انتشر فيها علم الحديث الشريف مع انتشار الإسلام وازدهر ، إذ أنه كانت هنالك صلة قوية ومناسبة خاصة بين هذا العلم وطبيعة العرب وقوة حفظهم وحياتهم العملية وواقعيتهم وصلتهم العميقة بذات النبى ﷺ فحيثما حلوا وساروا حملوا معهم علم الحديث ، وظهرت العناية به فى عهد سيادتهم وتأثيرهم ونفوذهم فى قوة ووضوح ، وكانت حركة تدريسه والتصنيف والتأليف فى مختلف جوانبه قائمة على قدم وساق لقد كان هذا حال اليمن وحضرموت ومصر والشام والعراق ، وشمال أفريقيا والأندلس ، وولاية كجرات فى الهند نفسها ، وهو مثال ودليل على ما ذكرناه فى صلة العرب بالحديث ، فقد أنتجت كجرات أمثال الشيخ على المتقى البرهانورى مؤلف « كنز العمال » ( م ٩٧٥ هـ ) والعلامة محمد طاهر الفتى صاحب « مجمع بحار الأنوار » ( م ٩٨٦ هـ ) من المحدثين الأجلة الكبار ، وذلك كما سبق لأن صلة كجرات بالحجاز كانت أقوى وأكثر بالنسبة إلى سائر الولايات الهندية ، وكان العلماء العرب - دائماً - يؤمنونها ويترددون إليها .

أما البلاد التى انتشر فيها الإسلام بأيدي العجم ، فليس شأنها فى هذا الأمر كذلك ، فقد حكمت فى الهند أسر تركية الأصل أو أفغانية الأصل ، وقام فيها بنشر الإسلام وتبليغه والدعوة إليه أولئك المشائخ والعلماء الدعاة الذين كانوا معظمهم من أصول عجمية أو من

(٨) انظر « المرقاة » شرح المشكاة ، ج : ٤ ، ص : ٢٧ .

(٩) انظر رسالة المؤلف ( دور الحديث فى تكوين المناخ الإسلامى وحياته ) .

أبناء البلاد العجمية ، لا سيما إيران وتركستان ، ثم لما جاء عهد التدريس وإنشاء المدارس وترتيب المناهج الدراسية في الهند ، كانت هي قد تأثرت - كلياً - بالفضلاء العجم و«حكماء إيران» وطبعت بطابعهم ، وقد قدمنا في الباب الأول أن إيران التي أنجبت أساطين الحديث لما قامت فيها الحكومة الصفوية ، وأعلنت المذهب الشيعي مذهبها الرسمي فيها ( وقد وقع ذلك في بداية القرن العاشر الهجري ) انقطعت صلتها بالحديث الشريف لذلك لم يكن في الهند - بعد النفوذ الإيراني الثقافي - مجال للشعور بأهمية الحديث وجلالة خطره وعظمته ، والمسابقة في القيام بنشره ، بل بالعكس من ذلك كلما كان تأثير إيران يتضاعف على الأوساط العلمية في الهند ، تزداد معها قلة العناية واللامبالاة بالحديث الشريف ، وقد بلغ ذلك في عهد الإمام الدهلوي أوجه وقمته .

### ازدهار علم الحديث وانحطاطه في الهند :

نقدم هنا - لاستعراض تاريخ الازدهار والانحطاط الذي مر به علم الحديث في الهند باختصار ، مقتطفات من كتاب العلامة عبد الحى الحسنى - رحمه الله - « الثقافة الإسلامية في الهند » ، وقد جاءت فيها عصارة الدراسة لمئات الصفحات وخلاصة هذا الموضوع : يقول المؤلف :

« ولما انقرضت دولة العرب من بلاد السند ، وتغلبت عليها الملوك الغزنوية والغورية ، وتتابع الناس من خراسان وما وراء النهر صار الحديث فيها غريباً كالكبريت الأحمر ، وعديماً كعنقاء المغرب ، وغلب على الناس الشعر والنجوم والفنون الرياضية ، وفي العلوم الدينية الفقه والأصول ، ومضت على ذلك قرون متطاولة حتى صارت صناعة أهل الهند حكمة اليونان ، والإضراب عن علوم السنة والقرآن ، إلا ما يذكر في الفقه على القلة ، وكان قصارى نظرهم في الحديث في مشارق الأنوار للصغاني ، فإنه ترفع أحد إلى مصابيح السنة للبعوى أو إلى مشكاة المصابيح ظن أنه وصل إلى درجة المحدثين ، وما ذلك إلا لجهلهم بالحديث ، ولذلك تراهم لا يذكرون هذا العلم ، ولا يقرءونه ولا يحثون عليه . ولا يجذبون إليه ولا يعرفون كتبه ولا يعلمون أهله ، والقليل منهم كانوا يقرءون المشكاة لا غير ، وهذا على طريقة البركة لا للعمل به ، والفهم له ، وعمدة بضاعته من الفقه على طريقة التقليد دون التحقيق إلا ما شاء الله تعالى في أفراد منهم ، ولذلك كثرت فيهم الفتاوى والروايات وتركت النصوص المحكمات ، ورفض عرض الفقه على الحديث وتطبيق المجتهديات بالسنة المأثورة عن النبي المعصوم المأمون ﷺ .

حتى من الله - تعالى - على الهند بإفاضة هذا العلم ، فورد به بعض العلماء في القرن

العاشر ، كالشيخ عبد المعطى بن الحسن بن عبد الله باكثير المكي المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٨٩ هـ والشيخ الشهاب أحمد بن بدر الدين المصرى المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢ هـ ، والشيخ محمد بن أحمد بن على الفاكهي الحنبلى المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢ هـ ، والشيخ محمد بن محمد عبد الرحمن المالكى المصرى المتوفى بأحمد آباد سنة ٩١٩ هـ ، والشيخ رفيع الدين الجشتى الشيرازى المتوفى بأكبر آباد سنة ٩٥٤ هـ ، والشيخ إبراهيم بن أحمد بن الحسن البغدادى ، والشيخ ضياء الدين المدنى المدفون بكاكورى ، والشيخ بهلول البدخشى ، والخواجه ميركلان الهروى المتوفى بأكبر آباد سنة ٩٨١ هـ ، وخلق آخرون .

ثم وفق الله سبحانه وتعالى بعض العلماء من أهل الهند أن رحلوا إلى الحرمين الشريفين ، وأخذوا الحديث وجاءوا به فى الهند ، وانتفع بهم خلق كثير . كالشيخ عبد الله بن سعد الله السندى ، والشيخ رحمة الله بن عبد الله بن إبراهيم السندى المهاجرين إلى الحجاز ، فإنهما قدما الهند ودرسا بكجرات مدة طويلة ثم رجعا إلى الحجاز ، والشيخ يعقوب بن الحسن الكشميرى المتوفى سنة ١٠٠٣ هـ ، والشيخ جوهر الكشميرى المتوفى سنة ١٠٢٦ هـ ، والشيخ عبد النبى بن أحمد الكنكوهى ، والشيخ عبد الله بن شمس الدين السلطانبورى ، والشيخ قطب الدين العباسى الكجراتى ، والشيخ أحمد بن إسماعيل المندوى ، والشيخ راجح بن داؤد الكجراتى ، والشيخ عليم الدين المندوى ، والشيخ المعمر إبراهيم بن داؤد المنكورى المدفون بأكبر آباد ، والشيخ محمد بن طاهر بن على الفتنى صاحب « مجمع البحار » والسيد عبد الأول بن على بن العلاء الحسينى وغيرهم <sup>(١٠)</sup> .

ويزيد مؤلف « الثقافة الإسلامية فى الهند » قائلاً :

### مأثرة الشيخ عبد الحق الدهلوى :

« ثم جاء الله سبحانه وتعالى بالشيخ عبد الحق بن سيف الدين البخارى الدهلوى المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ ، وهو أول من أفاضه على سكان الهند ، وتصدى للدرس والإفادة بدار الملك دهلى ، وقصر همته على ذلك وصنف وخرّج ونشر هذا العلم على ساق الجد ، فنفع الله به وبعلمه كثيراً من عباده المؤمنين ، حتى قيل أنه أول من جاء بالحديث بالهند ، وذلك غلط كما علمت .

ثم تصدى له ولده الشيخ نور الحق المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ وكذلك بعض تلامذته

---

(١٠) ص : ١٣٥ - ١٣٧ .

وأولاده كشيخ الإسلام شارح البخارى ، وولده سلام الله صاحب « المحلى » و  
« الكمالين »<sup>(١١)</sup> .

وقد أصاب البروفيسور خليق أحمد نظامى فى قوله :

« وعلى كل فإن العهد الذى بدأ فيه الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى دروسه فى  
الحديث الشريف ، كان قد طُوِيَ - إذ ذاك - بساط هذا العلم الشريف فى شمالى الهند ،  
وإنه قد أشعل فى هذا الوسط المظلم الضيق شمعة جذبت إليها الناس من أنحاء نائية بعيدة ،  
فالتفوا حولها وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النور وبدأ نشاط جديد ، لدروس الحديث  
الشريف فى شمالى الهند ، وانتقل بذلك مركز العلوم الدينية لا سيما الحديث الشريف من  
كجرات إلى دلهى<sup>(١٢)</sup> .

الحاجة إلى مجدد :

لقد صرفت العناية إلى الحديث الشريف بإخلاص الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى  
وصدقه وجهوده المباركة ، وقد أثار رغبة قوية وحركة جديدة إلى مطالعته ودراسته  
وتدريسه ، وشرحه وتحديثه ، وكان من المتوقع أن أخلافه وأفراد أسرته ، - الذين كانوا  
بدورهم محدثين ومدرسين ومؤلفين - يستمرون بهذه الجهود حتى يأخذ هذا الفن الشريف  
مكانه اللائق فى الأنظمة التعليمية ، والمناهج والمقررات الدراسية والنشاطات العلمية  
والتأليفية ، وقد كان ابنه الفاضل العلامة المفتى نور الحق الدهلوى ( م ١٠٧٣ هـ ) الذى  
شرح صحيح البخارى فى ستة مجلدات ، وله شرح أيضاً على « شمائل الترمذى » ،  
يستطيع أن يقوم بتكميل تلك الجهود والأعمال التى بدأ بها والده ، ولكن لعله لم يتمكن  
كثيراً بسبب توليه منصب القضاء فى مدينة مركزية كأبى آباد ( أكره حالياً ) من القيام  
بتدريس الحديث الشريف ونشره ، وكان ابنه الشيخ شيخ الإسلام الدهلوى أيضاً من كبار  
المحدثين وله شرح مبسوط لصحيح البخارى بالفارسية .

والحقيقة أنه لأسباب معلومة وأسباب أخرى غير معلومة ، لم تستطع جهود هؤلاء  
المشائخ الفردية أن تحدث ما كان متوقفاً من الإقبال العام على الحديث الشريف والاهتمام  
اللائق به ، والنشاط والحيوية فى نشره وتدريسه وتعميمه ، ولعل من بعض العوامل لذلك  
أن هؤلاء كانت تغلب عليهم نزعة تأييد المذهب الحنفى بالحديث الشريف ، والسبب الثانى

(١١) « الثقافة الإسلامية فى الهند » ، ص : ١٣٧ ( الطبعة الثامنة مجمع اللغة العربية دمشق ) .

(١٢) حياة الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى ، ص : ٤٣ .

أن مركز التعليم والثقافة من أواسط القرن الثاني عشر نفسه بدأ ينتقل من دلهي إلى لكهنؤو، وبدأ منهج دراسي جديد ( على أيدي أستاذ العلماء الشيخ نظام الدين السهالوي ( م ١١٦١هـ ) المباركة القوية ) في التكوين ، ولم تكن قد قامت صلة هؤلاء الواضعين والمكونين لهذا المنهج الدراسي الجديد العلمية والثقافية بالحرمين الشريفين ، والأماكن التي كانت مركزاً لدراسة الحديث الشريف وتدرسه وخدمته نشره ، وكانت تغلب عليهم ( كما يتضح ذلك من تاريخ « المنهج النظامي » وكتب التراجم والطبقات ) العلوم الحكيمية ومن العلوم الدينية علم أصول الفقه .

وعلى كل فإن الأوساط العلمية والدينية في الهند كانت في حاجة وانتظار لتلك الشخصية التي تكون صلتها بالحديث صلة الحب والغرام ، والتي جعلت نشر الحديث الشريف وتعميمه أول أهدافها ومقاصدها في الحياة ، لقد وجدت الهند هذه الشخصية في أواسط القرن الثاني عشر الهجري في شخص الإمام ولي الله الدهلوي الذي طبق بمعنى اللفظ هذا الشعر الفارسي الذي معناه :

« لقد نيسنا كل ما قرأنا وتركناه إلا حديث الحبيب الذي لا نملُّ من تردادته وتكراره » .

لقد ذكر مؤلف « الثقافة الإسلامية في الهند » بعد ذكره لأولئك الذين أسهموا في أوائل القرن الحادي عشر في خدمة الحديث ونشره في الهند ، خدمة الإمام الدهلوي للحديث ، التي تمتاز ليس في هذه البلاد فحسب بل في هذا العهد الأخير بمكانتها التجديدية والاجتهادية وصبغتها في الإصلاح والإحياء ، والتي أدت إلى سيادة الحديث وازدهاره في هذه البلاد ، فأصبح جزءاً ضرورياً من المقررات الدراسية ، ومقياساً للفضيلة والكمال ، وقامت حلقات مستقلة لدروس الحديث الشريف ، وعم تدريس الصحاح الستة لا سيما الكتب الأربعة منها: صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن أبي داؤد ، وسنن الترمذی ، بالبحث والتحقيق في المدارس ( الأمر الذي لا يوجد الآن في البلدان العربية نفسها ) وبدأ عهد جديد لشروح كتب الحديث والتعليقات عليها حتى لم تلبث أن تكونت منها مكتبة ضخمة كبيرة لا يوجد مثيلها في البلاد العربية نفسها<sup>(١٣)</sup> ، وترجمت كتب

---

(١٣) إن الجماعة الكبيرة لأساتذة الحديث وشراحه ومؤلفيه التي ظهرت في الهند بتأثير دعوة الإمام الدهلوي وحركته وتعليمه وتربيته ، وما أنتجت من مكتبة عظيمة واسعة في الحديث وعلومه ، يلزم لتقدير سعتها وتنوعها مراجعة كتاب العلامة عبد الحى الحسنى « الثقافة الإسلامية في الهند » الفصل الرابع من الباب الثاني بعنوان « مصنفات أهل الهند في الحديث » ، ص : ١٤٢ -

الحديث ، التي استفاد منها عامة المسلمين والذين لا يعرفون العربية وكذلك السيدات المسلمات استفادة عظيمة ، وكان ذلك دافعاً إلى الجهد والعمل ، شائقاً لاتباع السنة والاهتمام بها ومرغباً في الأسانيد وإجازات الحديث ، وأصبحت الهند مركزاً لهذا العلم الشريف حتى صدرت من قلم عالم مصري جليل كالعلامة السيد رشيد رضا منشئ مجلة «المنار» الغراء ، هذه الكلمات التالية :

« ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر ، لُقُضِيََ عليها بالزوال من أمصار الشرق ، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة ، حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل القرن الرابع عشر (١٤) .

### مشاعر الإمام الدهلوى وآراؤه في الحديث :

ما هي تلك العاطفة القوية التي دفعت الإمام الدهلوى إلى الاشتغال بالحديث ثم بالنشاط في نشره والدعوة إليه ، ونذر حياته وصلاحياته له ، ينبغي لمعرفتها وإدراكها الرجوع إلى كتابات الإمام الدهلوى نفسه إذ أنها المرآة الصحيحة الوضيئة لآرائه وخواطره ، يقول في الصفحة الأولى من مقدمته لـ « حجة الله البالغة » :

« إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها ، ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذي يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين ﷺ وأصحابه أجمعين ، من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، فهي مصابيح الدجى ومعالم الهدى ، وبمنزلة البدر المنير ، من انقاد لها ووعى . فقد رشد واهتدى وأوتى الخير الكثير ، ومن أعرض وتولى فقد غوى وهوى ، وما زاد نفسه إلا التخسير ، فإنه ﷺ نهى وأمر وأنذر وبشر وضرب الأمثال وذكر ، وإنها لمثل القرآن أو أكثر (١٥) .

ويقول في موضع من بعض كتاباته :

« إن أول شيء يوجب العقل على نفسه ، هو تتبع أحوال النبي ﷺ وأقواله ، ماذا قال فيما يتعلق بالأحكام الإلهية وكيف عمل بها ، ثم يقتدى بهذه الأقوال والأحوال بالقلب والقالب ، فإن حديثنا عن شخص قد سلم بأن الله - تعالى - قد كلف عباده بأحكامه ، وقد عزم هو على أداء مسؤوليته الناشئة من هذا التكليف الشرعى (١٦) .

(١٤) مقدمة « مفتاح كنوز السنة » .

(١٥) مقدمة « حجة الله البالغة » ، ص : ٢ .

(١٦) كلمات طبيات ، ص : ١٧٣ .



## شكوى قلة العناية بالحديث الشريف في الهند :

لقد كان الدافع الثاني للإمام الدهلوى إلى إحياء الحديث ونشره وترويجه في الهند ، هو ذلك الوضع السائد في الهند الذى تقدم الحديث عنه فى الباب الثانى من الكتاب ، لقد كان يغشى الأوساط الدينية حينذاك ضباب كثيف من البدع وتقاليد الجاهلية ، وطقوس غير المسلمين وتقليدهم فيها والشعائر غير الإسلامية ، التى كان من العسير من خلالها رؤية طلعة الإسلام البهية ، وكانت تسود فى الأوساط العلمية والدراسية تلك العلوم المستوردة من اليونان التى كانوا يسمونها « فنون الحكمة » والعلوم الآلية ، وفنون البلاغة وعلم الكلام ولم يكن للعلوم الشرعية لا سيما علم الحديث الشريف نصيب لائق فى هذه الأوساط العلمية والدراسية ، وإذا صرف شىء من العناية إلى العلوم الشرعية فلم يكن الأمر يتعدى حدود الفقه وأصول الفقه ودقائقها وشق الشعرة فيهما ، يقول الإمام الدهلوى - وهو يشاهد هذا الوضع - فى أسف شديد وحزن بالغ :

« وأقول لطلبة العلم ، أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعانى ، وظننتم أن هذا هو العلم ، إنما العلم آية محكمة من كتاب الله ، أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها ، أو سنة قائمة من رسول الله ﷺ أن تحفظوا كيف صلى النبي ﷺ وكيف تواضاً ، وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم ، وكيف يحج وكيف يجاهد ، وكيف كان كلامه وحفظه للسانه ، وكيف كانت أخلاقه ، فاتبعوا هديه واعملوا بسنته على أنه هدى وسنة ، ولا على أنه فرض ومكتوب عليكم ، أو فريضة عادلة ، أن تتعلموا ما هى أركان الوضوء ، وما هى أركان الصلاة ، ما نصاب الزكاة ، وما قدر الواجب ، وما سهام فرائض الميت ، أما السير وما يرغب فى الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل ، وأما ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة إنما هى من علوم الدنيا ، خضتم كل الخوض فى استحسانات الفقهاء من قبلكم وتفريعاتهم ، أما تعرفون أن الحكم ما حكمه الله ورسوله ، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به ، ويقول إنما عملى على مذهب فلان لا على الحديث ، ثم تخيل بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة ، وأن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث ، فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم فى الدين من نسخ أو مرجوحية .

اعلموا أنه ليس هذا من الدين فى شىء إن أمتم بنبيكم فاتبعوه ، خالف مذهبنا أو

وافقه ، كان مرضى الحق أن تشتغلوا بكتاب الله وسنة رسوله ابتداءً ، فإن سهل عليكم العمل بهما . فبها ونعمت ، وإن قصرت أفهامكم فاستعينوا برأى من مضى من العلماء . ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة ، وأن لا تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مستقلة ، أما أوجب الله عليكم أن تشيعوا العلم حتى يظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين ، فلم تظهروا الشعائر وأمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد ، واستكثرتم في أعينهم طلب الحق والدين ، أما ترون البلاد العظام تخلو عن العلماء وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر (١٧) .

وإن حال الإمام الدهلوى عند اللهج بذكر الحديث من سرور ولذة غامرة ، وحب وإجلال لأئمة الحديث ، يمكن أن ترى بعض نماذجه في رسالته التي كتبها إلى أحد مسترشديه في مناقب الإمام البخارى - رحمه الله - (١٨) .

### نشاط الإمام الدهلوى في خدمة الحديث الشريف ونشره :

تقدم - فيما سبق - أن الإمام الدهلوى لما ذهب يودع أستاذه الشيخ أبا طاهر المدني ، أنشده شيخه هذا البيت من الشعر :

نسيت كل طريق كنت أعرفه إلا طريقاً يؤدّيني لربكم

فقال الإمام الدهلوى كذلك : « نسيت كل ما قرأت سوى علم الحديث الشريف » .

وتشهد حياة الإمام الدهلوى كلها على أنه كانت منصرفاً انصرفاً كلياً إلى خدمة الحديث الشريف ، شرحه وتفهمه ، وتدريسه وتعليمه ، ونشره وتعميمه ، ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ .

وقد شمر عن ساق الجد بعد عودته من الحجاز إلى الهند لخدمة الحديث الشريف ونشره ، ولم تلبث « مدرسته الرحيمية » أن أصبحت أكبر مؤسسة تعليمية في طول الهند وعرضها وتهافت عليها طلاب علم الحديث من أنحاء الهند وأصقاعها تهافت الفراش على النور ، وقد كان في هذه الإصقاع مثل « السند » (١٩) ،

(١٧) التفهيمات الإلهية ، ج : ١ ، ص : ٢١٤ - ٢١٥ .

(١٨) انظر « كلمات طيبات » ص : ١٦٨ - ١٧١ .

(١٩) لقد ورد الشيخ محمد معين من السند إلى دلهي ، ودرس الحديث على الإمام الدهلوى واستفاد منه ، وكتابه « دراسات اللبيب في الأسوة الحسنة بالحبيب » معروف ، يتجلى فيه ذوق الإمام = =

و« كشمير » (٢٠) من المناطق البعيدة ، أما دلهي ونواحيها وشمالي الهند فلا تسأل عنه ، وقد كان من المستفيدين من هذه الدروس سوى مسند الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي (الذي كان ابنه الأكبر الفاضل والقائم بتكميل أعماله وجهوده وتوسيع نطاقها ) مفخرة الهند العلامة السيد مرتضى البلكرامى المعروف بالزبيدي ( ١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ ) صاحب «تاج العروس شرح القاموس » و« إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين » الذى دوى صيت تبخره فى العلم وتحديثه فى العالم العربى ، وكان مجلسه بالقاهرة يضاهاى مجالس الملوك والسلاطين ، وكان من خريجى هذه المدرسة بيهقى عصره القاضى الشيخ ثناء الله البانى بتي ( م ١٢٢٥ هـ ) خليفة الشيخ الجليل ميرزا مظهر جان جانان ، ومؤلف « التفسير المظهرى » و« ما لا بد منه » (٢١) .

وهكذا أصبح علم الحديث فى الهند - بعد قرون ، ولعله لأول مرة - قد نفقت سوقه وقامت دولته ، وأقبل عليه الناس إقبالا عظيما حتى ظلت الهند تباهى اليمن الميمون ، وبدأت نفحاتها الرخية المنعشة تصل إلى أرض الحجاز نفسها (٢٢) ، وقد أنشد النواب العلامة السيد صديق حسن خان فى ذكر الإمام الدهلوي وخدمته للحديث الشريف ، ونشاطاته فى القيام بنشره ، بيتين من الشعر البليغ ، يصورانه تصويرا حقيقيا :

من زار بابك لم تبرح جوارحه      تروى أحاديث ما أوليت من من  
فالعين عن قررة ، والكف عن صلة      والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ومن الطريف أن المن التى ذكرتها هذه الجوارح وأشادت بها ، والأسماء التى أشارت إليها فى هذا الصدد ، كلها أسماء رواة الحديث والشيوخ المحدثين ، مثل قررة بن خالد السدوسى ، وصلة بن أشيم العدوى ، وسيدنا جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - والحسن البصرى - رحمهم الله أجمعين - .

== الدهلوي ومنهج بحثه وتحقيقه ، توفى عام ١١٦١ هـ ( انظر « نزهة الخواطر » ، ج : ٦ ) .

(٢٠) كان الشيخ خواجه محمد أمين الكشميرى من خواص تلامذة الإمام الدهلوي والجملة الدعاة لمشربه وبحوثه وتحقيقاته ، وهو معروف بمحمد أمين الولي اللهى ، وقد كان الشيخ عبد العزيز أحد تلامذته وقد ألف الإمام الدهلوي بعض رسائله ( انظر « نزهة الخواطر » ، ج : ٦ ) .

(٢١) « نزهة الخواطر » ، ج : ٧ .

(٢٢) وقد أقام الشيخ إسحاق الدهلوي والشيخ عبد الغنى المجددى من خريجى هذه المدرسة وتلامذة الإمام الدهلوي حلقات دروس الحديث الشريف فى الحرمين الشريفين ، وانتفع بهم خلائق من العرب والعجم ( انظر للتفصيل « نزهة الخواطر » ، ج : ٧ ) .

## خدمات الإمام الدهلوى التأليفية فى علوم الحديث :

إن المؤلفات التى خلفها الإمام الدهلوى فى الحديث وعلوم الحديث ، نورد أسماءها فيما يلى :

١ - المصنفى ( شرح مؤطاً الإمام مالك بالفارسية ) .

٢ - المسوى ( شرح المؤطاً المختصر بالعربية ) .

إن المنهج الذى كان الإمام الدهلوى يريد ترويجه فى فقه الحديث ودروسه يمثله هذان الكتابان خير تمثيل ، وتتجلى فيهما مكانة الإمام الدهلوى الاجتهادية وطول باعه فى فقه الحديث ، وعلومه ، إنه كان يضع المؤطاً على الدرجة الأولى من الكتب الستة ، وكان معجبا بالموطأ غيرة الإعجاب ، وكان يدعو - بحماس وقوة - إلى العناية اللائقة به وتقديمه فى البدء بتدريس الحديث<sup>(٢٣)</sup> .

يقول الإمام الدهلوى فى « وصاياه » :

« عندما يحصل التمكن من العربية ، فليدرس المؤطاً برواية يحيى بن يحيى المصمودى ، ولا يعرضن عنه أبداً ، فإنه أصل علم الحديث وتدريسه يحمل فوائد جمه ، وقد حصل لنا سماع المؤطاً كله بالرواية المتصلة »<sup>(٢٤)</sup> .

٣ - شرح تراجم الأبواب لصحيح البخارى : هذه رسالة فى شرح تراجم أبواب البخارى التى اعتبرت - دائماً - أدق شىء وألطفه فى دروس البخارى ، وقدم شراح صحيح البخارى ومدرسوه - فى كل عصر - أمثلة لذكائهم ودقتهم وتعمقهم فيه ، وهذه الرسالة بالعربية ، كانت طبعت أولاً عام ١٣٢٣ هـ ب « دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ثم ضمت - كمقدمة - إلى نسخة صحيح البخارى التى طبعت بأصح المطابع بدلهى<sup>(٢٥)</sup> .

٤ - مجموعة الرسائل الأربعة : تشتمل على « الإرشاد إلى مهمات الإسناد » « تراجم البخارى » ، وهى غير « شرح تراجم الأبواب للبخارى » وجاءت فى ورقة واحدة .

---

(٢٣) انظر مقدمة « المصنفى » ، ومقدمة « أوجز المسالك » ، « الفائدة الثانية فى درجة المؤطاً من بين كتب الحديث » ، للشيخ محمد زكريا الكاندهلوى ، ص : ٣٢ - ٣٣ ، طبع مطبعة السعادة بمصر ( ١٣٩٣ هـ ) .

(٢٤) الوصايا ( بالفارسية ) ص : ١١ .

(٢٥) وهى موجودة فى رسالة « تراجم أبواب البخارى » أيضاً للشيخ العلامة محمد زكريا الكاندهلوى ( م ١٤٠٢ هـ ) .

٥ - « الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين » و « النوادر من حديث سيد الأوائل والأواخر » و « الأربعين » ، وقد ألف الإمام الدهلوى هذه الأربعين لما ورد في فضل حفظها وتبليغها إلى الناس من أحاديث ، وعمل بها العلماء في مختلف العصور ، والأحاديث التي اختارها الإمام ينطبق عليها أنها « قليلة المبني كثيرة المعنى » ، وهي جديرة بأن تحفظ عن ظهر قلب ، وتقرر دراستها في المدارس .

٦ - المسلسلات .

وأما الكتب التي ليست في فن الحديث رأسا وأساسا ولكن لها علاقة بعلم الحديث ، وينبغي أن تدرس كمقدمة لفن الحديث ، ويقدر منها ما كان يمتاز به الإمام الدهلوى من نظرة عميقة فاحصة في علم الحديث ، وتوفيق بين الحديث والفقه وإنصاف درجاته ، صدر في المقارنة بين المذاهب ، وسعة نظر في طبقات المحدثين وطبقات كتب الحديث ، واتزان وتوسط واعتدال في عامة الأحوال ، الصفات التي وهبها الله إياه ، فهذه الكتب حسب ما يلي :

١ - « الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف » : جاءت محتويات هذا الكتاب في عدة مباحث بعنوان التتمة الثانية في « حجة الله البالغة » وتمتد من صفحة ١٤٠ إلى صفحة ١٦٢<sup>(٢٦)</sup> ، وتشتمل التتمة على أربعة أبواب ، وقد حقق ناشر الكتاب أن هذه التتمة لم توجد إلا في نسخة واحدة من نسخ « حجة الله البالغة » ، ويقول الإمام الدهلوى في آخر هذه الأبواب :

« ... فعزمت على تأليف كتاب أسميه « غاية الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف » ، وأبين فيه هذه المطالب بيانا شافيا وأكثر فيه من ذكر الشواهد والأمثال والتفريعات مع المحافظة على الاقتصاد بين الإفراط والتفريط في كل مقام والاحاطة بجوانب الكلام وأصول المقصود والمرام ثم لم أتفرغ له إلى هذا الحين ، فلما انجرَّ الكلام إلى مأخذ اختلاف حملني ما أجد على أن أبين بعض ما تيسر من ذلك »<sup>(٢٧)</sup> .

ويبدو أن الإمام الدهلوى وجد الفرصة بعد ذلك ، فأفرد هذا الموضوع في رسالة مستقلة باسم « الانصاف في بيان أسباب الاختلاف » ، ولذلك يوجد بين هذه الرسالة و « حجة الله البالغة » اختلاف يسير ، وحذف وتغيير في بعض المواضع .

(٢٦) انظر نسخة المكتبة السلفية - لاهور .

(٢٧) حجة الله البالغة ، ص : ١٦١ .

وقد طبعت هذه الرسالة في الهند وخارجها عدة مرات ، وتوجد بين هذه النسخ بعض الخلافات في بعض الألفاظ ، فكانت طبعتها الأولى في الخارج صادرة من « شركة المطبوعات العلمية » عام ١٣٢٧ هـ ، ثم نشرته « مكتبة المنصورة » ثانيا ، وبين أيدينا الآن نسخة جيدة من طبع « دار النفائس » بيروت ، وقد جاءت في مائة وإحدى عشرة صفحة بالقطع الصغير ، وقد قام المحدث الجليل في عصرنا الحاضر الشيخ عبد الفتاح أبو غدة بمقابلته وتصحيحه والتعليقات عليه .

٢ - عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد .

٣ - المبحث السابع<sup>(٢٨)</sup> من حجة الله البالغة .

والحقيقة أنه من القسم الثاني في بيان أسرار ما جاء عن النبي ﷺ تفصيلا في الجزء الأول من « حجة الله البالغة » ، إلى نهاية الجزء الثاني منه ليس إلا شرحا كلاميا حكيما للحديث الشريف ومحاولة اجتهادية موفقة للكشف عن أسراره وحكمه ، وتطبيقه العملي الذي لم يكن إلا نصيب الإمام الدهلوى وقد حاز فيها قصب السبق ونال القدر المعلى ، ومن المؤسف أن الدارسين ، لحجة الله البالغة ، والمدرسين له ( على أنهم أقل قليل ) يغفلون هذه المباحث ولا يتفطنون لأهميتها وشأنها .

### التوفيق بين الفقه والحديث :

لقد كان الفقه والحديث في كثير من الأوساط العلمية والدراسية والتأليفية في العالم الإسلامى ينتقلان منذ عصر طويل في سلسلتين مواجهتين ، وكان كل واحد منهما في محله ( من حن ظهوره واشتداد ساعده ) يقطع طريقه في غنى وانصراف عن الآخر ، وكانا بعد هذا الفراق في كثير من الأحيان لا يجتمعان عند أى نقطة من النقاط ، ولم يكن يبحث في الحديث في كثير من المذاهب الفقهية إلا إذا كانت مسألة فقهية تحتاج إلى تأييد من حديث ، أو كانت لها حاجة إلى دفع اعتراض من اعتراضات علماء المذهب الفقهي الثانى ، وتصريحهم بأن هذه المسألة مخالفة للحديث أو إذا كانت القصد ترجيح مذهب على مذهب ، وكانوا فى دروس الصحاح الست إما أن يتأولوا تلك الأحاديث التى تخالف مذهبهم ، أو يقدموا الأحاديث الأخرى من الكتب الأخرى التى تؤيد مذهبهم ، وإذا كان هناك استدلال فى واحد من كتب المذاهب الفقهية المعتبرة المهمة بالأحاديث فإن العلماء

---

(٢٨) أيضا ، ص : ١٢٨ - ١٥٤ .

الذين قاموا - ممن لهم اطلاع واسع على علوم الحديث ، ويملكون ذوق المحدثين - بمحاولة تخريج هذه الأحاديث والكلام عليها كالمحدثين النقاد<sup>(٢٩)</sup> ، فهذه المحاولة الطيبة كذلك كانت إحدى الطرق والوسائل لتأييد ذلك المذهب والإنتصار له ، وإثبات أنه موافق للأحاديث ، وخدمة علمية وتحقيقية لذلك المذهب ، وهى تستحق الشكر والتقدير ، ولكنها لم تكن محاولة لإعادة النظر فى المسائل نفسها والتوفيق بين الفقه والحديث .

وقد تكونت للمذاهب الفقهية قوالب من حديد ، كان من الممكن كسرها<sup>(٣٠)</sup> ، ومن المستحيل مداها وبسطها ، وكان أتباع كل مذهب قد اعتقدوا فى أنفسهم أن صحة مذهبهم مائة فى المائة ، وهى الحقيقة الأصيلة ، وإما إمكان الخطأ البشرى فمحتمل وقد عبر بعضهم عن هذه النظرية بهذه الألفاظ البليغة : « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب » ، وقد كان من نتيجة هذه الواجهة للنظر أن المذاهب الأربعة (الحنفى والمالكي ، والشافعى ، والحنبلية) التى أجمعت على قبولها الأمة ، وسلم - أصوليا - بين أهل الحق وأهل العلم من أول عهودها فيما يتعلق بها بأن الحق دائر فيها وأن أنمتها ومؤسسيها إنما هم أئمة الهدى وقادة الأمة وأن هذه المذاهب حق ، يتسع بينها الخليج ويعمق ، وينجر الخلاف بين أتباعها إلى التباغض ، والبحث والنقاش بعض الأحيان إلى المخاصمة والمقاتلة ، وكان أدهى من ذلك وأمر معاملتهم مع أولئك العلماء الذين يبدأون العمل بالحديث - كليا أو جزئيا - فى العبادات ومن أمثلة هؤلاء أحد علماء القرن الثانى عشر ، العالم السلفى المحدث الشيخ محمد فاخر الإله آبادى ( ١١٢٠ - ١١٦٤ هـ ) الذى تعرض ( حسب رواية بعض المؤلفين ) لسخط العامة وغضبهم لسلفيته وأتباعه للحديث<sup>(٣١)</sup> .

لقد كانت هذه مآثرة من مآثر الإمام الدهلوى التجديدية وحلقة ذهبية رائعة فى سلسلة خدمته للحديث الشريف وانتصاره للسنة السنية أن قام بمحاولة التوفيق بين الفقه والحديث ،

---

(٢٩) من أمثله الرائعة كتاب العلامة الزيلعى : « نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية » .  
(٣٠) أى أنه توجد أمثلة الانتقال من مذهب إلى مذهب من الحنفية إلى الشافعية أو العكس ، أو اختيار مذهب العمل بالحديث فى كل عصر ، أما العدول عن بعض المسائل جزئيا مع البقاء فى نطاق المذهب وحدوده واختيار مسألة أخرى من مذهب آخر ، أو العمل بالحديث ، فأمثله قليلة جدا ، وذلك لأن كثيرا من العلماء يرون « تجزئ التقليد » غير جائز ، أى إذا عمل إنسان بمسألة من مذهب فقهي ثم عمل بأخرى من مذهب فقهي آخر فإنه يخرج عن تقليد الأول ، وذلك عندهم غير صحيح .

(٣١) انظر لترجمة الشيخ فاخر الإله آبادى « نزهة الخواطر » ج : ٦ .

ثم محاولة الجمع والتأليف بين المذاهب الأربعة ، وهذا يدل على صدق تلك البشارة التي تلقاها الإمام الدهلوى وقيل فيها :

« إن مراد الحق فيك أن يجمع شملا من شمل الأمة المرحومة بك » (٣٢) .

أما فيما يتعلق بشبه القارة الهندية فإننا لا نعثر قبل الإمام الدهلوى على محاولة خدمة للجمع والتوفيق بين الفقه والحديث ، والجمع بين المذاهب على أساس الحديث ، ويرجع ذلك إلى أسباب تاريخية وعلمية ، إن شبه القارة الهندية دامت من أول عهودها الإسلامية تحت سلطة أولئك الفاتحين والمؤسسين للحكومات والدول الذين كانوا تركى الأصل أو أفغانى الأصل ، وكلا الشعبين من عهد اعتناقهما للإسلام - تقريبا - يحتضنان المذهب الحنفى ويتحمسان وينشطان للدفاع عنه ونشره ، وأنه لم يقدر هنا للمذهب المالكى والمذهب الحنبلى فى التاريخ الإسلامى الممتد على ثمانية قرون أن يدخل فى هذه البلاد ، أما المذهب الشافعى فكان لا يعدو بعض المدن الساحلية أو جنوب الهند بـ « مدراس » أو طرفه الشمالى ( كرناتك حاليا ) ببعض أجزائه كـ « هتكلى » وغيرها ، و « كيرالا » ، ولم ينبغ فيهم - فى حدود علمنا - باستثناء « مالابار » ( بلاد المعبر - قديما ) التى وفد إليها دعاة الإسلام من التجار والمشائخ والعلماء والفقهاء الذين كانوا من أتباع المذهب الشافعى فقهاء ومحدثون شافعيون مرموقون ، عدا الشيخ المخدم الفقيه على المهائى ( م ٨٣٥ هـ ) مؤلف تفسير « تبصير الرحمن وتيسير المنان » وشيخ « مالابار » المخدم إسماعيل الفقيه السكرى الصديقى ( ٩٤٩ هـ ) كذلك المخدم الشيخ زين الدين الملبارى ( م ٩٢٨ هـ ) مؤلف « فتح العين » ،<sup>(٣٣)</sup> الذين يتركون تأثيرهم على الأوساط العلمية فى الهند ( لا سيما شمالى الهند ) ويحملون العلماء الأحناف على دراسة الفقه الشافعى العميقة والاستفادة منه وأما العلماء وطلاب علوم الحديث والفقه الذين كانوا يرحلون من الهند إلى الحجاز ( الذى كان تحت إدارة الدولة التركية ، والأتراك لم يزالوا - فى كل عصر - سنين وحنفين مائة فى المائة ) فكانوا أيضا يتصلون بالعلماء الذين هم على مذهبهم وخاصة بأساتذة الفقه والحديث من مواطنى بلادهم الذين هاجروا إليها من الهند وأفغانستان ، وكان تلامذتهم عدداً كبيراً<sup>(٣٤)</sup> .

---

(٣٢) فيوض الحرمين ، ص : ٦٢ .

(٣٣) انظر للتفصيل كتاب « عرب وديار هند » للشيخ خواجه بهاؤ الدين الأكرمى الندوى البهتكلى ، والكتاب فى اردو .

(٣٤) أمثال العلامة الشيخ على المتقى البرهان بورى صاحب « كنز العمال » والعلامة قطب الدين النهروالى ، وملا على القارى الهروى المكى ، والشيخ عبد الوهاب المتقى والشيخ محمد ==



لقد كان الإمام الدهلوى أول شخص تتلمذ فى الحرمين الشريفين على محدث شافعى جليل كالشيخ أبى طاهر الكردى المدنى واستفاد منه استفادة كبيرة ، وكان معجباً بعلمه وشخصيته وكمال الباطنى وسعة نظره ورحابة صدره وتأثر به فى هذه النواحي ، وإن شيوخ الإمام الدهلوى فى الحرمين الشريفين الذين ترجم لهم فى كتاب « إنسان العين » لم يكن فيهم من العلماء المحدثين الحنفية إلا الشيخ تاج الدين القلعى ، وكان من هؤلاء الشيوخ الشيخ محمد وفد الله بن الشيخ محمد بن محمد بن سليمان من المالكية ، وأن العهد الذى عاشه الإمام الدهلوى فى الحرمين الشريفين كانت فيه القيادة العلمية والسيادة والريادة فى مجال التعليم والتدريس ( لا سيما فى تدريس فن الحديث الشريف ) بأيدى العلماء والمحدثين اليمنيين أو المحدثين الكرديين ، وكانوا - بصفة عامة - شافعية ، لأجل هذه العوامل كلها ، تهيأت الفرصة السانحة للإمام الدهلوى للاطلاع على أصول الفقه الشافعى وقواعده ، وخصائصه ومميزاته ، كما قبض له وإن يتعرف على الفقه المالكى والفقه الحنبلى من علمائهما ، الأمر الذى لم ييسر لعلماء الهند - منذ مدة طويلة - ( لأسباب تاريخية وسياسية وجغرافية ومدنية ) كما أمكن له الدراسة المقارنة للمذاهب الأربعة التى لم تكن تيسر لأولئك العلماء الذين لم تواتهم هذه الفرص السانحة .

لقد رحل الإمام الدهلوى إلى الحجاز عام ١١٤٣ هـ وهو فى الثلاثين من عمره ، وكان قد درس فى الهند اثنى عشر عاماً ، ولكن لما أودع الله - تعالى - فى طبعه من جامعية واتزان وسعة فى الأفق ورحابة فى الصدر ، ونزعة تطبيقية توفيقية موهوبة ، وميل طبعى إلى الجمع والوصل لا الفرق والفصل ، لذلك فإنه قبل رحلته إلى الحجاز أيضاً كان يحمل الاتجاه إلى التطبيق والتوفيق بين الفقه والحديث ، وكان قد عزم على ترجيح مسلك المحدثين الفقهاء ، واختياره مسلكه وطريقه فى الحياة ، يقول فى « الجزء اللطيف فى ترجمة العبد الضعيف » :

« وبعد ما طالعت كتب المذاهب الأربعة وأصولها ، ونظرت فى الأحاديث التى يتمسكون بها اعتزمت على طريق الفقهاء المحدثين بإشارة نور الغيب وإيحائه » (٣٥)

وقد انتقد الإمام الدهلوى طريق الفقهاء الغلاة فى مذهبهم ( الذين لا يستطيعون أن ينحرفوا عن مذهبهم قيد شعرة ) والفرقة الظاهرية ( التى تنكر الفقه المذهبى - رأساً -

---

== حياة السندى وغيرهم .

(٣٥) « الجزء اللطيف فى ترجمة العبد الضعيف » ، ص : ٤ .

ويطلق لسانه فى أولئك الفقهاء الأجلة الذين هم رأس العلماء وأئمة أهل الهدى وقادة أهل الدين ( انتقادا شديدا ، وأبدى سخطة ونفوره من مغالاة الطبقتين وشدتهم وتطرفهم ، وصرح بكل وضوح « بأن الحق أمر بين بين » لا الفريق الأول على الحق الصرف ولا الثانى على الميّن .

يقول الإمام الدهلوى فى كتابه « حجة الله البالغة » :

« إن التخريج على كلام الفقهاء وتتبع لفظ الحديث لكل منهما أصل أصيل فى الدين ، ولم يزل المحققون من العلماء فى كل عصر يأخذون بهما ، فمنهم من يقل من ذا ويكثر من ذاك ، ومنهم من يكثر من ذا ويقل من ذاك ، فلا ينبغى أن يهمل أمر واحدة منهما بالمرّة كما يفعله عامة الفريقين ، وإنما الحق البحت أن يطابق أحدهما بالآخر وأن يجبر خلل كل بالآخر ، وذلك قول الحسن البصرى » (٣٦) .

ويقول فى « وصاياها » :

« ينبغى فى المسائل الفرعية اتباع أولئك العلماء المحدثين الذين يجمعون بين الفقه والحديث ، ولا بد من عرض المسائل الفقهية على كلام الله - تعالى - وحديث رسول الله ﷺ » .

ويزيد قائلا : « ولا غنى للأمة فى أى عصر من العصور ، عن عرض المسائل الاجتهادية على الكتاب والسنة » (٣٧) .

لقد كانت نشأة الإمام الدهلوى وتربيته فى بيئة يسود فيها الفقه وأصول الفقه الحنفى ، وكان مطلعا على خصائص المذهب الحنفى ومعترفا بها كأى عالم حنفى كبير ، وكان يعرف هذه الحقيقة ، ويصرح بها فى كثير من المواضع أن الخدمة التى قام بها العلماء للمذهب الحنفى ( كذلك للمذهب الشافعى ) - لأسباب وعوامل تاريخية وعلمية وسياسية ومدنية متعددة - وما بذلوه من جهود فى تهذيبه وتنقيحه وشرح متونه ، والتفريع على أصوله لم يتيسر لمذهب آخر .

يقول عن الإمام أبى حنيفة - رحمه الله تعالى - :

---

(٣٦) « حجة الله البالغة » ، ج : ١ ، ص : ١٥٦ ، وانظر للتفصيل مبحث « حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها » .

(٣٧) « الوصايا » ( بالفارسية ) ، ص : ٢ - ٣ .

« كان عظيم الشأن فى التخرىج على مذهب إبراهيم وأقرانه ، دقيق النظر فى وجوه التخرىجات ، مقبلا على الفروع ، أتم إقبال » (٣٨) .

ولكنه مع ذلك يعترف بعظمة الإمام مالك وجلالة شأنه ، وبصحة كتابه « الموطأ » ، ومنزلته الرفيعة العالية وفوائده الغالية ، ويدعو إلى الاعتراف بها ، ويرى أنه من الكتب الأساسية الأولى فى الحديث ، كما يصف (٣٩) - فى جانب آخر - المذهب الشافعى بأنه مصفى ومنقح وأقرب إلى الحديث فى ثناء وإطراء ، ويعترف بدقة نظر الإمام الشافعى فيما اعترف (٤٠) ، ثم يذكر الإمام أحمد بن حنبل فيقول فى « حجة الله البالغة » :

« وكان أعظمهم شأنًا وأوسعهم رواية ، وأعرفهم للحديث مرتبة ، وأعمقهم فقها ، أحمد بن حنبل ثم إسحاق بن راهوية » (٤١) .

لقد كان الإمام الدهلوى ، لاطلاعه المباشر على مكانة هؤلاء الأئمة الأربعة وجلالة شأنهم وسعة علمهم ودقة نظرهم ، ومنتهم الجليلة على الأمة ( عن طريق كتبهم وكتب التاريخ والتراجم ) وحبهم وإجلالهم من أعماق القلب ، من الجامعية والتبحر والاتزان والتوسط فى الدراسة المقارنة للفقهاء والحديث ، ما لا يتوقع - بطبيعة الحال - من أولئك العلماء والمؤلفين الذين انحصرت دراستهم وصلتهم العقلية والفكرية فى تطابق مذهب فقهي واحد ، وبواضعه ومؤسسه الأول ، ولا تيسر لهم أى فرصة للخروج - لأسباب طبيعية وشخصية كثيرة - من هذه الدائرة المحددة .

### نقطة التوسط والاعتدال بين التقليد والاجتهاد :

إن من فضائل الإمام الدهلوى الموهوبة ومميزاته التجديدية التى خصه الله - تعالى - بها ، هو ذلك المسلك المتزن المتوسط ، وتلك النقطة المتوسطة التى اختارها بين الاجتهاد والتقليد ، والتى هى دليل ساطع رائع على طبيعته السليمة المتزنة وذوقه الصحيح وواقعيته ، فقد كان هناك فريق يكلف كل مسلم - سواء كان عاميا أو عالما - بالعمل وفق الكتاب والسنة واستفادة الأحكام والمسائل الشرعية منهما مباشرة ، ويحرم التقليد تحريما مطلقا ، وهم إن كان كلامهم لا يصرح بهذا الموقف فإن منهجهم فى العمل وكتاباتهم تؤدى

(٣٨) الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف « طبع دار النفائس بيروت » ، ص : ٣٩ .

(٣٩) انظر مقدمة « المصفى » .

(٤٠) انظر « الخير الكثير » ص : ١٢٤ ، و « قررة العين » ص : ٢٤٢ ، للإمام الدهلوى .

(٤١) حجة الله البالغة ، ج : ١ ، ص : ١٥٠ .

- طبعا - إلى هذه النتيجة ، وقد كان في المتقدمين من هذا الفريق والمتحمسين لهذا الموقف العلامة ابن حزم ، ولكن هذا الموقف غير عملي وغير واقعي ، وإن تكليف كل مسلم بذلك تكليف بما لا يطاق .

وكان - في جانب آخر - فريق آخر يوجب على جميع المسلمين التقليد ويصف من يخلع ربقتة من التقليد بهذه الأحكام الفقهية الشديدة كـ « الفاسق » و « الضال » ، كما يصف الفريق الأول بذلك جماعة المقلدين والمتبعين لمذهب فقهي خاص ، وكان هذا الفريق يتناسى أن التقليد إنما هو طريقة تنظيمية إدارية لصيانة العامة من الناس من اتباع النفس والهوى ، والقول بالرأى ، وحماية المجتمع المسلم من الفوضى والاضطراب ووسيلة لإيجاد الوحدة والنظام في الحياة الدينية العملية ، وتيسير العمل بالأحكام الشرعية ، ولكنهم جعلوا هذا العمل التنظيمي في منزلة العمل التشريعي ، وألحوا عليه بشدة وتأكيد غليظ ، نقله من كونه مذهباً فقهياً ومسألة اجتهادية فحسب إلى كونه نصاً ظاهراً ، وعملاً قطعياً وأمرًا دينياً مستقلاً . إن المنهج الذي اختاره الإمام الدهلوي وما عبر به عن ذلك ، هو أقرب إلى روح الشريعة ، وأكثر انسجاماً مع منهج القرن الأول وأوفق بالفطرة البشرية ، وأمس بالحياة العملية ، ويذكر الإمام الدهلوي - في هذا الصدد - طريقة العمل السائدة قبل القرن الرابع الهجري ويشرح كيف كان الناس يحلون مسائلهم الجديدة الطريفة ومشاكلهم العارضة في حياتهم الدينية وعباداتهم ومعاملاتهم ، وما هو الطريق الذي كانوا يختارونه ويسلكونه ، يقول في باب « حكاية حال الناس قبل المائة الرابعة وبعدها » من « حجة الله البالغة » :

### منهج المسلمين في القرون الأولى :

« اعلم أن الناس كانوا قبل المائة الرابعة غير مجمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه ، قال أبو طالب المكي في « قوت القلوب » : إن الكتب والمجموعات محدثة والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس واتخاذ قوله والحكاية له من كل شيء والتفقه على مذهبه لم يكن الناس قديماً على ذلك في القرنين الأول والثاني » أقول وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج غير أن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من تتبع ، بل كان فيهم العلماء والعامة ، وكان من خبر العامة أنهم كانوا في المسائل الاجتماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلاة والزكاة ونحو ذلك من آبائهم أو معلمى بلدانهم

فيمشون حسب ذلك ، وإذا وقعت لهم واقعة استفتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب ، وكان من خبر الخاصة أن أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث فيخلص إليهم من أحاديث النبي ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شىء آخر فى المسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض الفقهاء ، ولا عذر لتارك العمل به ، أو أقوال متظاهرة لجمهور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها ، فإن لم يجد فى المسألة ما يطمئن به قلبه لتعارض النقل وعدم وضوح الترجيح ونحو ذلك رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء . فإن وجد قولين اختار أوثقهما سواء كان من أهل المدينة ، أو من أهل الكوفة وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحا ويجتهدون فى المذهب ، وكان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أصحابهم فيقال : فلان شافعى ، وفلان حنفى ، وكان صاحب الحديث أيضا قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له ، كالنسائى والبيهقى ينسبان إلى الشافعى ، فكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهد ، ولا يسمى الفقيه إلا مجتهدا ، ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ذهبوا يمينا وشمالا .

### الصور الطبيعية المشروعة للتقليد :

ويرى الإمام الدهلوى - لغاية إنصافه وواقعيته - أن الشخص الذى يقلد مذهباً فقهاً خاصاً ، أو إماماً معيناً ولكنه لا ينوى إلا اتباع صاحب الشريعة - عليه الصلاة والسلام - والافتداء به ، إلا أنه لا يجد فى نفسه من القدرة ما يتوصل بها إلى الحكم الشرعى وما ثبت بالكتاب والسنة مباشرة ، فله العذر فى التقليد ، ويكون لعدم توصله إلى الحكم -مباشرة- عدة أسباب مثل أن يكون عامياً ، أو لا تيسر له الفرص للبحث والتحقيق -مباشرة- أو لا تتوفر له وسائل العلم والبحث والتحقيق التى يستطيع أن يطلع بها على النصوص أو يستنبط من النصوص المسائل ، ويقول الإمام الدهلوى بعد إيراد قول ابن حزم أن التقليد حرام ولا يجوز لأى مسلم أن يقبل أحداً دون رسول الله ﷺ من غير دليل ولا برهان :

« وليس محل ( قول ابن حزم ) فيمن لا يدين إلا بقول النبي ﷺ ، ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حراماً إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولكن لما لم يكن له علم بما قاله النبي ﷺ ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه ولا بطريق الاستنباط من كلامه ، اتبع عالماً راشداً على أنه مصيب فيما يقوله ويفتى ظاهراً ، متبع سنة رسول الله ﷺ ، فإن خالف ما يظنه أقلع من ساعته من غير جدال ولا إصرار ، فهذا كيف ينكره أحد ، مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبي ﷺ . ولا فرق بين أن يستفتى

هذا دائما أو يستفتى هذا حيناً ، وذلك حيناً بعد أن يكون مجمعا على ما ذكرناه ، كيف لا ولم نؤمن بفتواه أيا كان أنه أوحى الله إليه الفقه وفرض علينا طاعته وأنه معصوم ، فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله ، فلا يخلو قوله من أن يكون من صريح الكتاب والسنة أو مستنبطاً عنهما بنحو من الاستنباط أو عرف بالقرائن أن الحكم في صورة ما منوطة بعلة كذا واطمأن قلبه بتلك ، ففاس غير المنصوص على المنصوص فكأنه يقول : ظننت أن رسول الله ﷺ قال : كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا - والمقيس مندرج في هذا العموم ، فهذا أيضاً معزى إلى النبي ﷺ ، ولكن في طريقة ظنون ، ولولا ذلك لما قلد مؤمن مجتهداً ، فإن بلغنا حديث من الرسول المعصوم الذي فرض الله علينا طاعته بسند صالح يدل على خلاف مذهبه وتركنا حديثه واتبعنا ذلك التخمين ، فمن أظلم منا وما عذرنا « يوم يقوم الناس لرب العالمين » (٤٢) .

---

(٤٢) حجة الله البالغة ، ج : ١ ، ص : ١٥٥ - ١٥٦ .

## مميزات المذاهب الأربعة :

يقول الإمام الدهلوى بعد هذا التحليل المنصف الباحث عن هذه المذاهب الفقهية الأربعة التى يعمل بها فى العالم الإسلامى - بصفة عامة - فى رسالته : « عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد » ( التى هى رغم صغر حجمها ووجازتها كبيرة القيمة ) ما يلى :

« اعلم أن فى الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمة وفى الإعراض عنها كلها مفسدة كبيرة ، ونحن نبين ذلك ذلك بوجوه :

أحدها : أن الأمة اجتمعت على أن يعتمدوا على السلف فى معرفة الشريعة ، فالتابعون اعتمدوا فى ذلك على الصحابة ، وتبع التابعين اعتمدوا على التابعين ، وهكذا فى كل طبقة اعتمد العلماء على من قبلهم ، والعقل يدل على حسن ذلك ، لأن الشريعة لا تعرف إلا بالنقل والاستنباط ، والنقل لا يستقيم إلا بأن تأخذ كل طبقة عن قبلها بالاتصال ، ولا بد فى الاستنباط أن تعرف مذاهب المتقدمين لئلا تخرج عن أقوالهم فيخرق الإجماع ، ويبنى عليها ، ويستعين فى ذلك كل بمن سبقه ، لأن جميع الصناعات كالصرف والنحو والطب والشعر ، والحداثة والتجارة والصياغة لم تيسر لأحد إلا بملازمة أهلها ، وغير ذلك نادر بعيد ، لم يقع وإن كان جائزاً فى العقل ، وإذا تعين الاعتماد على أقاويل السلف ، فلا بد من أن تكون أقوالهم التى يعتمد عليها مروية بالإسناد الصحيح ، أو مدونة فى كتب مشهورة وأن تكون مخدومة بأن يبين الراجح من محتملاتها ، ويخصص عمومها فى بعض المواضع ، ويقيد مطلقها فى بعض المواضع ، ويجمع المختلف ويبين علل أحكامها وإلا لم يصح الاعتماد عليها ، وليس مذهب فى هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة إلا هذه المذاهب الأربعة » (٤٣)

وهكذا اختار الإمام الدهلوى ذلك الموقف المعتدل المتزن بين الاجتهاد والتقليد الذى يوافق مقاصد الشريعة والفطرة البشرية وعالم الحقائق وينسجم معها انسجاماً كلياً ، وأنه قد اشترط فى التقليد أن يكون الفرض منه - مع العقلية الواضحة والنية الصالحة - اتباع صاحب الشرع - ﷺ - والالتزام بالكتاب والسنة ، وذلك لهذه الثقة الكاملة بأن من نجعله واسطة بيننا وبين الكتاب والسنة هو عالم بهذين الأصلين ، وليس إلا ممثلاً عنهما وترجماناً لهما ، ثم لا بد أن يكون فيه استعداد كل حين ( ولو لم يقع ذلك إلا بعد مدة طويلة ) بأنه إذا وثق واطمأن بأن الشأن غير ذلك ، وأن الحكم الشرعى الثابت بالكتاب والسنة ليس ما قرره ذلك الإمام فلا يتردد المؤمن فى قبوله والخضوع له .

(٤٣) عقد الجيد ، ص ٣٦ - ٣٨ .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً  
مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾<sup>(٤٤)</sup> .

## الحاجة إلى الاجتهاد فى كل عصر :

يرى الإمام الدهلوى مع الاعتراف بخصائص المذاهب الأربعة وميزاتها وخدمات الفقهاء  
المحدثين الجليلة وعلو منزلتهم والاعتراف بأن هذه الثروة الفقهية والحديثية ثروة عظيمة  
قيمة، يستفاد منها وينتفع بها ، وأن الاستغناء والإعراض عنها من أسباب الخسران  
والحرمان - أن الاجتهاد - مع شروطه وتحفظاته الضرورية - حاجة كل عصر ، ومقتضى  
طبعى للتطورات الحادثة فى الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية وصلاحية النشوء والارتقاء ،  
والحاجات البشرية، وتسلسل الحوادث والوقائع إثبات لسعة الشريعة الإسلامية ، وأنها من  
الله الحكيم، وأنها تملك صلاحية قضاء جميع المتطلبات المشروعة للمجتمع البشرى وهداية  
الناس وإرشادهم الأمر الذى لا بد من إثباته والتظاهر به فى كل عصر وهو واجب من  
واجبات حملة الشريعة الأمانة، يقول الإمام الدهلوى فى مقدمة « المصنفى » :

«إن الاجتهاد فرض كفاية فى كل عصر ، وليس المراد بالاجتهاد هنا الاجتهاد المستقل  
كاجتهاد الإمام الشافعى - مثلاً - الذى لم يكن فى الجرح والتعديل والعربية وغيرها فى  
حاجة إلى غيره ، كما لم يكن تابعاً لأحد فى درايته الاجتهادية ( بجميع أنواعها وأقسامها)  
بل المراد الاجتهاد المنتسب ، وهو عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها التفصيلية ،  
وتفريع المسائل وترتيبها على طريقة المجتهدين ولو كان ذلك بإرشاد من إمام من الأئمة .

والذى نقوله أن الاجتهاد فى عصرنا هذا واجب ( وهى مسألة إجماعية بين العلماء  
المحققين ) فوجهه أن المسائل كثيرة الوقوع ولا يمكن حصرها واستيعابها ولا بد من معرفة  
حكم الله - تعالى - فيها ، والذى دخل فى حيز التحرير والتدوين لا يكفى ، والخلافات  
فيه كثيرة ولا يمكن حلها إلا بالرجوع إلى الدلائل ، والروايات المنقولة للمسائل عن الأئمة  
فى أكثرها انقطاع بحيث لا يثق بها القلب بطمأنينة ، ولذلك فلا مناص من عرضها على  
قواعد الاجتهاد وأصوله والبحث فيها »<sup>(٤٥)</sup> .

\* \* \*

(٤٤) سورة النساء ، الآية : ٦٥ .

(٤٥) مقدمة « المصنفى » ( بالفارسية ) ص : ١ ، طبع المطبع الفاروقى ، بدلهلى .



## الباب السابع

### عرض الشريعة الإسلامية عرضاً مبرهنًا متسقًا والكشف عن مقاصد الحديث وأسراره في ضوء « حجة الله البالغة »

ميزة « حجة الله البالغة » وتفرده :

إن كتاب « حجة الله البالغة » للإمام الدهلوي يعد من جلائل أعماله العظيمة ومآثره العلمية الكبرى ، التي عرضت فيها الشريعة الإسلامية والدين الحنيف في صورة جامعة متناسقة مدعمة بالحجج والدلائل الناصعة القوية ، وقدمت فيها أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة الإحسان بترتيب وترابط ونظام ، وفي تناسق واتزان ، بحيث يخيل إليك كأنها لآلئ العقد المنظوم أو حلقات سلسلة مترابطة ، مع توضيح الفروق بين الأصول والفروع والمقاصد والغايات والوسائل والآلات وبين الحقائق الدائمة المستقلة والأمور العارضة المؤقتة بحيث لا يغيب ذلك - لحظة - عن الأنظار ، وكثيراً ما يختلط الأمر بينهما في كثير من البحوث والمؤلفات بل هي علة قديمة شائعة في تلك الكتب والمؤلفات - بصفة خاصة - التي ألفت نتيجة رد فعل لتعسف أو مغالاة أو في فورة عاطفة وحماس ، ويرجع السبب في هذا الترابط والتناسق - عدا ما وهب الإمام الدهلوي من اتزان وتوسط وسلامة فطرة - إلى دراسته العميقة الواسعة لعلم الحديث الشريف ، وتلك الطبيعة الخاصة التي تتكون عن طريق الاشتغال الإهتمام بالسيرة النبوية ، والحديث النبوي أو عن طريق صحبة العلماء الربانيين وتربيتهم الذين تربوا في المدرسة النبوية وقطرت عليهم رشحات من السيرة العطرة - على صاحبها الصلاة والسلام .

إن هذا العرض الجامع المتسق المترابط الذي نشأه في صفحات « حجة الله البالغة » ينذر نظيره في المؤلفات الدينية، وبذلك ظل كتاب « حجة الله البالغة »<sup>(١)</sup> علم الكلام الجديد

---

(١) لقد وجد كاتب هذه السطور زعيم المغرب العلامة علال الغاسي المغربي مؤلف «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها» ، ومعالي الأستاذ محمد المبارك المرحوم من بين العلماء والباحثين المعاصرين العرب ، يشيدون بكتاب « حجة الله البالغة » أيما إشادة ويلهجون بالثناء عليه ، وقد كانا معجبين بهذه الناحية - بصفة خاصة - أن هذا الكتاب يجمع بين شعب الدين كلها حتى يمثل عن تهذيب الأخلاق وتزكية النفس والإحسان أيضاً تمثيلاً كاملاً رائعاً .

الذي يجد فيه أى إنسان يريد الحق مع سلامة الفطرة وطيب القصد ( وقد أوتى شيئاً من الكفاءة العلمية ودة النظر وعمق التفكير ) إرواء كاملاً لغليله وزادا كافياً لقناعته ، وطمأنينته ، ولم يؤلف كتاب - فى حدود علم المؤلف ، وفى اللغات التى يعرفها - فى تأييد أى ديانة من الديانات وتفسيرها اللبق الحكيم ، وفلسفتها الجامعة المتناسقة كهذا الكتاب فى منزلته ومكانته وإن كان قد أُلّف فإنه ليس بين ظهرانى العلماء والباحثين فى الدنيا العلمية المعاصرة .

إن عهد « العقلانية » الخاصة الذى كان بعد القرن الثانى عشر الهجرى بقليل ، قد أوشك - لأسباب تعليمية وتربوية ، ومدنية وعقلية وعلمية وفكرية - على الظهور فى الهند وفى العلم الإسلامى كله ، فنزعة البحث والتفتيش عن مصالح الشريعة الإسلامية وحكمها وأسرارها التى كادت تعم وتسود ، والتى كانت تنهياً بسببها عقول كثيرة للضلال والانحراف وأقلام كثيرة للزيغ والانطلاق ، وكان الحديث والسنة النبوية - بصفة خاصة - ولأسباب خاصة - مستهدفة للشبهات والاعتراضات<sup>(٢)</sup> ، إنه لم يكن يستطيع أن يواجه هذه التحديات ويلبى هذه المقتضيات إلا من يكون على علم واطلاع واسع على الكتاب والسنة ، وعلوم الحكمة ، وعلم الكلام ، وعلم الأخلاق ، وعلم النفس وعلى علم الاقتصاد وعلم السياسة ( فى حدود عصره على الأقل ) ثم يكون عارفاً بلباب فن التزكية والإحسان وجوهره وحقيقته ، بل يتمكن من درجة الاجتهاد فيه .

لقد كان كل ذلك يتطلب أن يصدر من قلم إمام القرن الثانى عشر كتاب يفى بهذه الحاجات والمقتضيات ، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا إلا من قلم إنسان ، هو إنسان - على كل حال - وليس معصوماً ، وليس له علم يحيط بجميع العصور والأمكنة والمعلومات ولا يخلو - وإن كان أقل قليلاً - عن طابع عصره وتأثير منهج التعليم والتربية عليه - الذى نشأ وتربى فيه ، ولكنه رغم كل ذلك تلميذ المدرسة القرآنية وخريج معهد الحديث والسنة ، وترجمتهما المبين .

يقول الإمام الدهلوى وهو يذكر دوافع تأليف هذا لاكتاب وعوامله :

« إن أدق الفنون الحديثية بأسرها عندي وأعمقها محتدأ وأرفعها مناراً وأولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى ، وأعلاها منزلة وأعظمها مقداراً ، هو علم أسرار الدين الباحث عن حكم الأحكام ولياتها وأسرار خواص الأعمال ونكاتها . . . إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع »<sup>(٣)</sup> .

(٢) يراجع للتفصيل رسالة المؤلف « دور الحديث فى تكوين المناخ الإسلامى وصيانته » .

(٣) حجة الله البالغة ، س : ٣ .

## دقة الموضوع وخطورته :

ولكن الموضوع الذى يعالج حكم الأحكام الدينية ، ويتعرض لمصالحها وأسبابها وعللها موضوع جد دقيق وخطير ، فإن أدنى ميل أو إفراط وتفريط فيه ، أو سيطرة نزعة خاصة أو تأثير عصر خاص ينأى بذهن القارىء وعقليته بعيداً عن جادة التعاليم النبوية والشرائع السماوية ، التى يقصد بها أصلاً وبالذات رضا الله تعالى - والتقرب إلى جنبه الأعلى ، والنجاة فى الآخرة وينتقل به إلى طريق المصالح المادية ، وتنظيم الحياة تنظيماً فاضلاً ، والمنافع المدنية والأغراض والغايات السياسية ، وتخرج روح الإيمان والاحتساب<sup>(٤)</sup> ، من هيكل الجهود والمساعى المبذولة كلياً ، أو تضعف وتنكمش وتبقى من غير تأثير ملحوظ .

فعلى سبيل المثال يمكن أن يقال إن الحكمة فى مشروعية الصلاة أنها تربية عسكرية جيدة، وأنها تساعد على التنظيم والطاعة للأمير وإقامة الحكومة الإسلامية ، وأن الصوم من أنجح الوسائل للصحة البدنية ، وأن الزكاة ضريبة واجبة فى أموال أهل الثراء للفقراء ولها القيمة الاقتصادية والاجتماعية فقط ، وأن الحج مؤتمر سنوى عالمى ينظر فيه فى المسائل والمشاكل التى يواجهها المسلمون والتوصل إلى حلها فحسب .

نظراً إلى هذه الأخطار والأخطاء ( التى تجاوزت حدود الممكنات والمحتملات إلى وقائع وأمثلة حية عملية ) لم يكن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الدقيقة الخطيرة إلا من يمسك بيده أصول الدين الحنيف والشريعة الإسلامية ، ويكون عالماً بغاية نزول الشرائع الإلهية وبعثة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلوات والتسليم - وقد تغلغلت فى أحشائه روح الإيمان والاحتساب وجرت فى عروقه ودمائه ، وتكونت عقليته وتربيته العلمية فى بيئة الكتاب والسنة والإيمان والاحتساب وفى ظلالها الفيحاء ، ولقد كان الإمام الدهلوى - كما علمنا مما مضى فى ترجمة حياته - أجدر شخصية وأقدرها على الكتابة فى هذا الموضوع الدقيق الخطير .

## الحاجة إلى كتاب مستقل وجهود العلماء المتقدمين :

يذكر الإمام الدهلوى ما بذله العلماء المتقدمون من جهود فى هذا الموضوع ، فيقول :  
« وانتهى إمعان المجتهدين إلى تبيين المصالح المرعية فى كل باب من الأبواب الشرعية ،

---

(٤) الإيمان هو اليقين الكامل على موعود الله - تعالى - والاحتساب هو نية الحصول على رضا الله - تعالى - وثوابه ، وهما مصطلحان دينيان وردا فى أحاديث كثيرة ، منهما قوله ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » ( أخرجه البخارى ) .

وأبرز المحققون من أتباعهم نكتاً جليلة ، وأظهر المدققون من أشياعهم جملاً جزيلة ، وخرج بحمد الله - تعالى - من أن يكون التكلم فيه خرقاً لإجماع الأمة أو اقتحاماً فى عمه وغمه لكن قل من صنف فيه أو خاض فى تأسيس مبانيه أو رتب منه الأصول والفروع»<sup>(٥)</sup> .

وقد أشار الإمام الدهلوى - فى هذا الصد - إلى الإمام الغزالى والعلامة الخطابى وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام - الذين تحتوى كتاباتهم ومؤلفاتهم فى مختلف المواضع على هذه المحتويات والإشارات<sup>(٦)</sup> ، وقد استدلل الإمام الدهلوى فى الرد على دعوى أن الأحكام الشرعية لا تشتمل على المصالح ، وأنه ليس بين الأعمال وما جعل الله - تعالى - جزءاً لها مناسبة ، بتلك الآيات والأحاديث النبوية التى تدل على الصلة والمناسبة بين الأعمال ونتائجها وتشير إلى علل بعض الأحكام ومصالحها ، كما ذكر أيضاً تلك الأحاديث التى تتضمن بيان الأسباب لمشروعية قرينة من القرب أو عمل من الأعمال ، أو تكشف عن أسرار تعيينها وتحديدها ، كما قدم أمثلة لأسباب بعض المحرمات والمحظورات ، وحكمها التى أثرت عن عمر - رضى الله عنه - وغيره من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين-<sup>(٧)</sup> ، وفند تلك المزاعم والظنون الخاطئة ورد على المزاعم التى تصف تدوين هذا العلم الدقيق وأداء المهمة الجليلة إما مستحيلاً ، أو غير نافع أو صنفاً جدياً لم يسبق إليه ، وبين - بكل وضوح - ما هى تلك الأسباب والعوامل التى حالت دون العناية اللائقة بهذا الموضوع فى تلك الآونة<sup>(٨)</sup> .

وقد صرح الإمام الدهلوى وهو يبين الحاجة إلى تدوين هذا العلم وحكمته ومصلحته ، بأن جماعة من الفقهاء زعموا أنه يجوز رد حديث يخالف القياس من كل وجه فلزم بيان أن الأحاديث الصحيحة كلها توافق العقل والقياس<sup>(٩)</sup> وأن المناهج المتعارضة فى مختلف طبقات الأمة ، فتغاضى بعضهم عن العقل والقياس كلياً ، وتجاوز بعضهم على التأويل والصرف عن الظاهر حيث خالفت الأصول العقلية ، وعدم التوسط والاتزان عند كثير من الجماعات والطبقات فى هذا الصدد لا يجعل التدوين الجديد لهذا الفن الدقيق مشروعاً ونافعاً

(٥) حجة الله البالغة ، ص : ٣ .

(٦) أيضاً ، ص : ٦ .

(٧) حجة الله البالغة ، ص : ٥ - ٦ .

(٨) أيضاً ص : ٧ .

(٩) أيضاً ص : ٩ .

فحسب، بل يقرره خدمة جليلة للدين، وحاجة ماسة من حاجات العصر .

وعدا هذا الشعور بالحاجة ، والتجارب العلمية ومقتضيات العصر كان الإمام الدهلوى تلقى بشارات غيبية لإنجاز هذا العمل وإشارة من حضرة صاحب الرسالة - صلى الله على صاحبها وسلم - « إلى نوع بيان للدين » ، يقول الإمام الدهلوى :

« ووجدت عندى ذلك فى صدرى نوراً لم يزل يفسح كل حين . . ثم رأيت الإمامين الحسن والحسين - رضى الله عنهما - فى منام ، وأنا يومئذ بمكة كأنهما أعطيانى قلماً ، وقالوا : « هذا قلم جدنا رسول الله ﷺ » (١٠) .

وقد كان ابن خال الإمام الدهلوى ، وأخو زوجته ، ومرافقه فى السفر والحضر وأخص تلامذته الشيه محمد عاشق الفلتى الذى كان أعرف الناس بعلوم الإمام الدهلوى ومعارفه وفضائله يلح - من بين أصحابه وتلامذته - على الإمام الدهلوى ويصر عليه لإنجاز هذا العمل وتحقيقه (١١) .

وبالجملة فإن الله - تبارك وتعالى - وفق الإمام الدهلوى للقيام بهذه المهمة العظيمة ، وصدر من قلمه هذا الكتاب الجليل ووصل إلى أيدي العلماء والمحققين .

### الموضوعات الأساسية التمهيدية التكليف والمجازاة :

لقد تناول الإمام الدهلوى فى بداية الكتاب تلك البحوث والمواضيع التمهيدية الأساسية التى تثبت الحاجة إلى الهداية الربانية والتعاليم السماوية وبعثة الأنبياء والمرسلين ، وتعليمهم

---

(١٠) طبع كتاب « حجة الله البالغة ، أولاً بإرشاد من وزير بوفال ومديرها العالم التقى « مدار المهام » الشيخ جمال الدين ( م ١٢٩٩ هـ ) وعلى نفقته وبعناية الشيخ محمد أحسن الصديقى ( م ١٣١٢ هـ ) فى المطبع الصديقى ببريلى عام ١٢٨٦ هـ ثم طبع ثانياً بأمر النواب أمير الملك العلامة السيد صديق حسن خان ( م ١٣٠٧ هـ ) فى مطبع بولاق بمصر عام ١٢٩٦ هـ ، وصدرت له من مصر طبعتان أخريان ، ثم صدرت طبعة مصورة عن الطبعة المصرية بعناية الشيخ عطاء الله حنيف من المكتبة السلفية بلاهور عام ١٣٩٥ هـ الموافق ١٩٧٨ م ، وقد صدرت أخيراً فى مصر طبعته الرابعة ونشرت بتحقيق الفاضل المصرى المعروف وأحد القادة الإخوانيين السيد سابق ومراجعتة ، ومقدمته ، وترجمة المؤلف الدهلوى من دارد الكتب الحديثية بالقاهر ومكتبة المثنى ببغداد ، ولكن لم يحظ الكتاب فى التصحيح والتعليق ، وتخريج الأحاديث ، وبيان الإشارات حتى الآن ما يستحقه من خدمة علمية .

(١١) حجة الله البالغة ، ص : ٤ .

وتربيتهم وتزكيتهم ، والبحث الأساسى والأصولى الأكبر فيه ، هو البحث الذى ذكره بعنوان « باب سرّ التكليف » الذى أثبت فيه أن « التكليف »<sup>(١٢)</sup> إنما هو إحدى المقتضيات الطبيعية للنوع البشرى ، فإن الإنسان يسأل بلسان استعداده وصلاحيته أن يفرض عليه ما يناسب قوته الخاصة ثم يثاب عليه ، ويحرم عليه الاستغراق فى القوة البهيمية ( التى أودعت فيه ) ويعاقب عليه<sup>(١٣)</sup> ، وتتجلى فى هذا الصدد دراسة الإمام الدهلوى الدقيقة الواسعة للنوع الإنسانى والحيوانات والنباتات ، كما تتجلى معرفته بعلوم الطبيعة والطب وعلم النباتات ، وقد أثبت الإمام الدهلوى - عقلياً - أن ما يمتاز به الإنسان من الحيوانات والنباتات وما أودع فيه من الاستعدادات والصلاحيات والمقتضيات الفطرية ، كلها تطلب - بلسان حالها - « التكليف الشرعى » والهداية الربانية ، ويعبر الإمام الدهلوى عن ذلك بالفاظ « التكفّف الحالى » البليغة ويزيد عليها « التكفّف العلمى » .

إنه يرى أن الإنسان يملك - عدا قوتى العقل والنطق - شيئين آخين وهما : « زيادة القوة العقلية » و « براعة القوة العملية » فليس الإنسان يمتاز عن غيره بوجود القوة العقلية والقوة العملية فيه ، بل إن طبيعته تتطلب - كذلك - التقدم والرقى وعلو الهمة وتسعى نحو الكمال ، ولا تشبع من شىء ويرى الإمام الدهلوى أن خلق الملائكة ووقوع الحوادث العظيمة وإرسال الرسل نتيجة لهذه المطالب الفطرية ، وهى مظهر رائع للعناية بهذا النوع والاهتمام به ، الذى يشمل نوع البشر كلهم ، وهى من تجليات الربوبية والرحمة الإلهية ، إنه يرى أن العبادات والقربات والعمل بالشرائع كل ذلك من المقتضيات النوعية للنوع البشرى كأكل السباع للحوم ورعى البهائم للحشيش واتباع النحل لليعسوب ، إلا أن الحيوانات استوجبت تلقى علومها إلهاماً جبلياً ، واستوجب الإنسان كسب علومه كسباً ونظراً أو وحيّاً وتقليداً<sup>(١٤)</sup> .

ثم يصرح الإمام الدهلوى بأن المجازاة على الأعمال كذلك من مقتضيات التكليف ويرى لذلك أربعة أسباب :

(١٢) أى تكليف الله - تعالى - عباده بالعمل بأحكامه وأوامره والاجتناب عن محرّماته ونواهيه ، وقد عبر عنه فى القرآن الكريم بالأمانة ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات إلخ ﴾ [ سورة الأحزاب : ٧٢ ] ، وانظر تفسيرها فى « حجة الله البالغة » ص : ١٩ .

(١٣) أيضاً ، ص : ٢٠ .

(١٤) أيضاً ، باب إنشقاق التكليف من التقدير ، ص : ٢٠ - ٢٤ .

١ - مقتضى الصورة النوعية .

٢ - جهة الملأ الأعلى<sup>(١٥)</sup> .

٣ - مقتضى الشريعة المكتوبة عليهم .

٤ - مقتضى بعثة الأنبياء ونتيجتها ، ولازم قضاء الله - تعالى - بالنصر له والتأييد<sup>(١٦)</sup> .

ثم إنه يوجد لأجل اختلاف الجبلية والطبائع فى بنى البشر اختلاف وتفاوت فى الأعمال والأخلاق ودرجات الفضل والكمال ، وقد ذكر الإمام الدهلوى فى هذه المناسبة ثمانية صور لاجتماع « الملكية » و « البهيمية » ونسبتها فى الغلبة والضعف ونوعية العلاقة بينها (التي يعبر عنها بمصطلحي « التجاذب » و « الاصطلاح » وخواصها ، وذكر ما يرجح منها، وإن هذا البحث والتضريح من أمثله ذكاء الإمام البالغ وقوة استقرائه ودقته ومن خصائص هذا الكتاب وميزاته<sup>(١٧)</sup> ، وتتجلى فيه الدراسة الممعنة الدقيقة للظاهرة الإنسانية وأوضاعها وأحوالها .

### أهمية الأعمال وآثارها :

يتناول الإمام الدهلوى مبحث أهمية الأعمال<sup>(١٨)</sup> وتأثيرها على الملكات الإنسانية والأشكال التي ترتب آثارها فيها فى الدنيا والآخرة ، يقول : « وبالجملة فتؤثر الأعمال حينئذ تأثير العزائم والرقى الماثورة عن الاسلف بهيئتها وصفتها والله أعلم »<sup>(١٩)</sup> .

وهكذا تعد هذه المباحث الأولية التمهيدية ذهن القارئ للنظر فى المباحث التالية التي تقوم على أساس إدراك المقتضيات النوعية وأسباب التكاليف الشرعية وما يترتب عليها من مجازاة ونتائج ومقتضيات الربوبية والرحمة وأهمية الأعمال وصلتها بهيئة الناس الاجتماعية وعلاقتها بالحياة البشرية ، والاعتراف بهذه الحقائق الغيبية والعوالم والأشياء غير المرئية .

---

(١٥) لقد تحدث الإمام الدهلوى فى مبدأ الكتاب عن عالم المثال والملأ الأعلى ، إذ أنه تكرر الإحالة والإشارة إليهما فى كلامه كثيراً ، ويصعب فهم كثير من الآيات والأحاديث بدون التعرف عليهما ، أنظر ص : ١٣ - ١٥ .

(١٦) أيضاً ، ص : ٢٥ .

(١٧) أيضاً ، ص : ٢٥ .

(١٨) أيضاً ، ص : ٢٩ - ٣٢ .

(١٩) حجة الله البالغة ، ص : ٣٠ .

## الارتفاقات :

يخيل إلينا من دراسة «حجة الله البالغة» أن أنظار الإمام الدهلوى البعيدة الغور ودراسته العميقة الموضوعية للأوضاع المتطورة والظروف المتغيرة تفتنت (بفضل التأيد الإلهي) إلى أنه قد أظل ذلك العهد الذي سوف يحاول فيه الناس الكشف عن أسرار الأحكام الشرعية لا سيما تعاليم السنة النبوية وإرشاداتها وحكمها وصالحها، ويستطلعون فوائدها العملية والاجتماعية والمدنية ويبيغون - في الجانب الآخر - التعرف على الصلة الحقيقية بين الدين والحياة، ويحاولون فهم التعاليم الدينية والهداية السماوية في المحيط الواسع للحياة، وفي سياق العلاقات المشتركة بين الناس وصلة الأسباب بالنتائج، والاطلاع على منافعها وفوائدها.

لذلك بدأ الإمام الدهلوى كتابه «حجة الله البالغة» الذي ألف أصلاً وبالذات في بان حكم الشريعة الإسلامية وأسرارها وشرح الحديث والسنة شرحاً عقلياً علمياً - قبل بدئه بالحديث عن النظام التشريعي الذي يشمل على تلك الأوامر والنواهي التي تتعلق - أصلاً - بالثواب والعقاب والنجاة والفلاح في الآخرة، والتي عبر عنها الإمام الدهلوى في إصطلاحه بـ «مبحث البر والإثم»، بدأ كتابه بتلك المباحث والمواضيع التي تتعلق بالنظام التكويني في العالم والحياة البشرية، والتي تتكون بالالتزام بها هيئة اجتماعية صحيحة ومدنية صالحة، وقد استخدم الإمام الدهلوى لذلك مصطلح «الارتفاقات»<sup>(٢٠)</sup>، الذي لم يستخدمه قبله - في حدود علمي - المتكلمون والفلاسفة وعلماء الاجتماع المسلمون (بهذا الوضوح والتسلسل والاستمرار على الأقل).

## أهمية الارتفاق :

يراد بالارتفاق - عند الإمام الدهلوى - اشتراك أفراد الناس في الانتفاع بعضهم من بعض والتعاون فيما بينهم، والمشاركة في العمل والتدابير النافعة لإنشاء حياة مدنية معتدلة متزنة، وهكذا عالج الإمام الدهلوى ناحيتي السعادة البشرية الفردية والاجتماعية والحياتين الدنيوية والأخروية، ويرى الإمام الدهلوى أن هذا النظام التكويني لا يلزم أن يوافق النظام

---

(٢٠) جاء في «لسان العرب» تحت أصل «رفق» ، يقال للمتطيب مترفق ورفيق والرفق والمرفق ما استعين به ، وقد ترفق به وارتفق ، وفي التنزيل : ﴿ ويهيء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ . وهو ما ارتفعت وانتفعت به ، وقد ترفق عليه وارتفق : توكأ ، وقال عز وجل : ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ وترافق القوم وارتفعوا : صاروا رفقاء ، ( انظر «لسان العرب» «رفق» ) .



التشريعى الذى بعث به الأنبياء فحسب ، بل يلزم أن يمدده ويتعاون معه ، ويخدم أغراضه ومقاصده ، وهو أول من أثبت - من بين علماء الأخلاق والمتخصصين فى علم الاقتصاد - صلة عميقة قوية بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد ، وإنه عندما تنقطع هذه الصلة فإن الاقتصاد والأخلاق يعانى كل منهما أزمة شديدة تترك آثارها على الدين والأخلاق ، والحياة المطمئنة الآمنة ، والعلاقات الطيبة القائمة بين أفراد الناس والمدنية والحضارة ، ويرى أن أخلاق الناس الاجتماعية تعانى من الهبوط والفساد عندما يؤدي بهم الجور والعسف إلى ضائقة اقتصادية أو أزمة اقتصادية ، وعندئذ يظل الإنسان - الذى أودع الله - فيه الملكات الروحية السامية وإمكانات الرقى الكثيرة - فى حيرة واضطراب للحصول على لقمة عيش شأن الثور والحمار ، ويحرم من جميع السعادات ومدارج الرقى والكمال .

### أهمية الحياة المدنية والاجتماعية وأشكالها :

يعرف الإمام الدهلوى بالحياة المدنية والاجتماعية ( التى يصف مركزها بـ « المدنية » ) تعريفاً علمياً لم يسبق إلى أفضل وأجمع منه ( لدى الحكماء والمؤلفين ) إلى هذا العصر . يقول فى باب « سياسة المدنية » :

« وأعنى بالمدنية جماعة متقاربة تجرى بينهم المعاملات ، ويكونون أهل منازل شتى »<sup>(٢١)</sup> . ويعرف بسياسة المدنية بما يلى :

« هى الحكمة الباحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة »<sup>(٢٢)</sup> .

ثم يزيد تعريف هذه الحياة المدنية أو « المدينة » بياناً ، فيقول : « المدينة شخص واحد من جهة ذلك الربط ، مركب من أجزاء وهيئة اجتماعية »<sup>(٢٣)</sup> .

وينقسم « الارتفاق » عنده إلى قسمين :

١ - الارتفاق البدائى الضرورى الذى يتمكن منه أهل البادية أيضاً .

٢ - الارتفاق الاجتماعى أو الراقى الذى يحصل لأهل المصر ( أهل المدينة ) .

ويأتى بعد هذين القسمين القسم الثالث ، وهو قسم السياسة والإدارة ، ثم ينتج عن

---

(٢١) حجة الله البالغة ، ص ٤٤ .

(٢٢) أيضاً ص : ٤٤ .

(٢٣) أيضاً .

ذلك قسم رابع وهو قسم الخلافة العامة ، ويؤكد الإمام الدهلوى فى « الإرتفاق الرابع » على حفظ العلاقات المشتركة بين أهل « الأقاليم » ( أى مناطق البلاد النائية البعيدة ) والحاجة إلى هذه العلاقة ( بين مختلف المناطق ) كحاجة العلاقة بين أفراد مدينة واحدة فى حالتها البدائية المحدود (٢٤) .

### صور المكاسب ووجوه المعاش المحمودة والمذمومة :

ولا يغفل الإمام الدهلوى أثناء تعرضه لبيان وجوه المعاش ووسائل الكسب المختلفة ذكر الوسائل المنافية للأخلاق والفترة السليمة ، يقول :

« وبقيت نفوس أعيت بهم المذاهب الصالحة ، فانحدروا إلى أكساب ضارة بالمدينة كالسرقة والقمار والتكدى » (٢٥) .

وقد صدرت من قلم الإمام الدهلوى فى صدد موضوع الارتفاقات حقائق تشير إلى عمق تفكيره وبعد نظره فى تاريخ رقى البشرية والاجتماع والمدنية وازدهارها وهبوطها وانحطاطها، يقول :

« كلما رقت النفوس وأمعتت فى حب اللذة والرفاهية تفرعت حواشى المكاسب واختص كل رجل بكسب » (٢٦) .

ويذكر الإمام الدهلوى فى ما يضر بالحياة المدنية أن يتفق أهل المدينة على وسيلة واحدة للكسب ، مثل أن يشتغل كلهم بالتجارة ويدعوا الزراعة ، أو يكسبوا قوتهم عن طريق الحروب والغارات ، إن الزراعة - عنده - كالطعام ، والصناعة والتجارة والنظام والإدارة كلها كالملح ، وقد صرح فى هذا الصدد بحقيقة لطيفة دقيقة ، يقول :

« وغالب سبب خراب البلدان فى هذا الزمان شيان :

---

(٢٤) أيضاً ، ص : ٤٧ .

(٢٥) أيضاً ص : ٤٣ .

(٢٦) وقد ذكر الإمام الدهلوى فى هؤلاء المضيقين الذين يصبحون كلا على بيت المال ويتعودون التكسب بالأخذ منه ويملكون الإقطاعات ويعتادون الجوائز والصلاة والكسب المجانى بدون أى خدمة للدولة فى البلاد ، الغزاة والعلماء والزهاد والشعراء الذين يدعون حقوقهم فى بيت المال دون القيام بمصلحة البلاد ، وقد دخل فى ذلك النظام الإقطاعى الذى كان قد أجحف بمالية البلاد ، وأوجد جنداً من الطاعمين الكاسين الذين يأكلون ويعيشون دون مقابل من جهد ، ويقدر من ذلك بصيرة الإمام الدهلوى السياسية ومعرفته العميقة لأسباب سقوط الدولة المغولية .

١ - أحدهما : تضييقهم على بيت المال .

٢ - والثانى : ضرب الضرائب الثقيلة على الزراع والتجار والمتحرفة والتشديد عليهم .

ثم يقول فى آخر هذا المبحث : « فلينبه أهل الزمان لهذه النكتة » (٢٧) .

ويذكر الإمام الدهلوى فى ضمن العوامل التى تؤدى إلى الفساد فى المجتمع والمدنية ، كثرة أسباب اللهو والتسلية ، التى تجر إلى الغفلة عن المعاش والمعاد كليهما ومن أمثلة ذلك الانصراف إلى لعب الشطرنج ، والإكثار من القنص والصيد ، وإقتناء الحمام وغير ذلك (٢٨) ، كذلك الغفلة عن الجرائم الخلقية والتغاضى عنها ، واحتمال تلك الأفعال التى لا يتحملها أصحاب الفطرة السليمة لأنفسهم ، تلحق الأضرار البالغة بالمدنية ، وتكون سببا من أسباب سقوط الدول والحكومات (٢٩) .

### السعادة وأصولها الأربعة :

والمبحث الرابع فى الكتاب هو « مبحث السعادة » ، وقد شرح فيه أن الحصول على السعادة من أهم حاجات البشر بل هى أهمها على الإطلاق ، وأنها لا تحصل إلا بتهديب النفس وإخضاع القوة البهيمية للقوة الملكية (٣٠) .

وللسعادة - عند الإمام الدهلوى - أربعة أصول ، وقد بعث لها الانبياء والرسل ، وتفصيلها وبيانها هى الشرائع السماوية ، وأنها - فى الحقيقة - عناوين جامعة لشعب الأديان والشرائع الأساسية ، ومباحثها الأولية ووسائل مؤثرة قوية لتحقيق مقاصد البعثة وتكميل غاياتها ، وهذه الأصول الأربعة كما يلى :

١ - الطهارة ( وهى الطهارة البدنية التى تعد الإنسان للتوجه إلى الله - تعالى - والعلاقة به ) .

٢ - الإخبات إلى الله - تعالى - .

٣ - السماحة ( وهى مكارم الأخلاق ومعالي الأمور ) .

---

(٢٧) حجة الله البالغة ، ص : ٤٥ .

(٢٨) أيضاً ، ص : ٤٩ .

(٢٩) حجة الله البالغة ، ص : ٥٠ .

(٣٠) أيضاً ص : ٥١ .

٤ - العدالة<sup>(٣١)</sup> ) وهى ملكة فى النفس تصدر عنها الأفعال التى يقام بها نظام المدينة والحقى بسهولة ) .

وهكذا ألقى الإمام الدهلوى ضوءاً كاشفاً على أسس كمال الشخصية الإنسانية وعلاقتها مع الله - تعالى - وتكوين مجتمع صالح متضامن ، وهى من مقاصد الشرائع السماوية وبعثة الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .

ثم شرح كيفية الحصول على هذه الخصال الأربعة وطريق التحلى بها<sup>(٣٢)</sup> ، ثم تناول بيان الحجب التى تمنع وتحول دون ظهور الفطرة الأصلية ، وقسمها ثلاثة أقسام :

١ - حجاب الطبع ( أى غلبة الهوى والمتطلبات البشرية النفسانية ) .

٢ - حجاب الرسم : ( تأثير البيئة والظروف الخارجية الضارة ) .

٣ - حجاب سوء المعرفة<sup>(٣٣)</sup> : ( تأثير التعليم والتربية والعقائد الفاسدة ) .

ثم بين كيفية معالجة هذه الحجب ورفعها وإزالتها<sup>(٣٤)</sup> .

### العقائد والعبادات :

يبدأ الموضوع الحقيقى للكتاب ، وهو « المبحث الخامس » منه بـ « مبحث البر والإثم » ، وهو - فى حقيقة الأمر - موضوع الكتاب الأصيل وغايته التى ألف لها<sup>(٣٥)</sup> .

وقد تناول الإمام الدهلوى - أولاً - التوحيد من « أصول البر » ، لأنه أصل الإخبات والإنابة التى هى أكبر وسيلة للحصول على السعادة ، وقد ذكر الإمام الدهلوى - فى هذا الصدد - أربع مراتب للتوحيد وبين حقيقة إشراك المشركين العرب<sup>(٣٦)</sup> ، وينتقل بعد الحديث عن التوحيد إلى الإيمان بصفات الله - تعالى - والإيمان بالقدر وتعظيم شعائر الله ، وأهم هذه الشعائر وأبينها - عند الإمام الدهلوى - القرآن الحكيم ، والكعبة المشرفة ،

---

(٣١) يراجع تعريف هذه الأصول فى ص : ٥٤ من الكتاب .

(٣٢) أيضاً ، ص : ٥٥ - ٥٦ .

(٣٣) أنظر للتفصيل : ص : ٥٦ ، من المصدر السابق .

(٣٤) انظر شرح هذه الحجب وطرق إزالتها فى ص : ٥٧ - ٥٨ .

(٣٥) أيضاً ص : ٥٨ .

(٣٦) مر هذا البحث فى الباب الخامس من هذا الكتاب .

والنبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - ، والصلاة ، ثم يتحدث عن العبادات ، والفرائض والأركان ، ويبحث عن أسرار الوضوء والغسل وأسرار الصلاة وأسرار الزكاة وأسرار الصوم ، وأسرار الحج بصورة إجمالية<sup>(٣٧)</sup> ، وهذه المباحث - رغم أنها كلية إجمالية - تحتوى على نكات ولطائف لا تظفر بها فى أى كتاب آخر .

وعلى سبيل المثال يقول فى أسرار الصلاة :

« وأحسن الصلاة ما كان جامعاً بين الأوضاع الثلاثة ( القيام ، والركوع ، والسجود ) مترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، ليحصل الترقى فى استشعار الخضوع والتذلل وهو ينسجم مع العقل والفطرة » .

ثم ذكر الإمام الدهلوى وجه عدم الاقتصار فى العبادة على التفكير فى عظمة الله والمراقبة لجلاله ودوام ذكره ( الذى هو طريق الحكماء والرهبان الهنادك ، وجرى عليه بعض الصوفية المنحرفين ) ، وبين أن هذا التفكير والمراقبة كانت تيسر للذين يتفق ذلك وطبيعتهم الخاصة وتنفعهم ، وكان بإمكانهم أن يتقدموا ويترقوا عن طريقها ، أما الصلاة ، فهى المعجون المركب من الفكر المصروف تلقاء عظمة الله بالقصد ، وهى نافعة لعامة الناس وخاصتهم ، ترياقاً قوى الأثر ولا شىء أنفع علاجاً لغوائل الرسوم ( تأثيرات البيئة الفاسدة) منها ، ولا شىء فى تمرين النفس على انقياد الطبيعة للعقل وجريانها فى حكمة مثل الصلاة<sup>(٣٨)</sup> .

أما الصوم والحج ، فقد جاءت عنهما إشارات فى هذا المبحث ، ولكن ما سجله الإمام الدهلوى فى الجزء الثانى من الكتاب من مقاصده وأسراره وحكمه ، لم أقف على مثيله نبل ذلك فى أى كتاب ، وسيأتى ذكرها فى موضعها فى الصفحات القادمة .

### السياسات الملية والحاجة إلى هداة السبل ومقیمی الملل :

عنون الإمام الدهلوى المبحث السادس بـ « مبحث السياسات الملية » ، وهو من أهم لمباحث فى الكتاب<sup>(٣٩)</sup> ، وقد صرح الإمام الدهلوى فى الباب الأول منه - فى بلاغة ودقة

---

(٣٧) وقد جاء تفصيل هذه الحكم والأسرار فى الجزء الثانى من الكتاب حيث بحث فيها فى ضوء الأحاديث الواردة فى هذه الأبواب .

(٣٨) حجة الله البالغة ص : ٧٣ .

(٣٩) أيضاً ، ص : ٨٣ - ٨٤ .

وواقعية - بوجوه حاجة الناس وأسبابها إلى هداة السبل ومقیمی الملل ( الأنبياء والرسل ) ولماذا لا تكفيهم في هذا الصدد عقولهم العامة وفطرتهم السليمة ، ثم بحث في صفات هؤلاء الهداة المرسلين والشروط التي لا بد من توافرها فيهم ، وأنهم كيف ومتى يستطيعون أن يحققوا مقاصدهم ، وينجحوا فيها ، ويمتاز هذا الباب عن عامة البحوث والكتابات في كتب علم الكلام حول إثبات النبوة ، ويشتمل على الزاد الكافي لإقناع العقول السليمة ، الذي لا يتوفر في عامة كتب العقائد وعلم الكلام ، والباب الذي يبحث في مكانة النبوة ودورها وخصائصها في هذا المبحث ، يدل - دلالة واضحة - على معرفة الإمام الدهلوى بروح الشريعة وحقيقة طبيعة النبوة ، ودراسته العميقة للنفس البشرية واطلاعه الدقيق على منابع الأخلاق الباطنة ، وقد جاء في هذا الباب بحث مفصل عن أسباب بعثة الأنبياء والرسل أيضاً .

### البعثة المقرونة :

يقول الإمام الدهلوى : « وأعظم الأنبياء شأنًا من له نوع آخر من البعثة فتكون بعثة مقرونة ببعثة أخرى ، أى أن شعباً بل أمة بأسرها تبعث مع بعثته ويناط بها واجب الدعوة والتبليغ وتتلقى منه وتستعد بين يديه لتكون واسطة ووسيلة لتعليم الآخرين من الناس وتربيتهم وتركيتهم ، فتكون بعثة النبي بالأصالة ، وهى التى تسمى ( النبوة ) وتكون بعثة الأمة ، وتوليها لخدمة الدعوة بالنيابة والوساطة وقد كانت بعثة سيدنا محمد ﷺ هذه البعثة الجامعة المقرونة ، التى أقامت أمة بأسرها لتكون آلة وجارحة تشتغل فى خدمة مسئولية النبوة ونشر دعوتها ورسالتها ، وقد استعمل لذلك ألفاظ البعثة أو ما فى معناها من التعبيرات يقول الله - تعالى - :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ (٤٠) .

وجاء لفظ البعثة - صريحاً - فى الأحاديث النبوية ، فقد خاطب - ﷺ - أصحابه الكرام بقوله :

« فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » (٤١) .

وأخص مباحث هذا الباب هو المبحث الذى تناول فيه الإمام الدهلوى سيرة الأنبياء

(٤٠) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠ .

(٤١) انظر « حجة الله البالغة » ، ص : ٨٤ .

والرسل - عليهم الصلوات والتسليمات - وذوقهم وطبيعتهم ومنهج دعوتهم وأسلوب تبیینهم وخطابهم ، ويقدر منه دقة نظر الإمام الدهلوی ، ودراسته العميقة لخصائص النبوة والأنبياء وتدبره الغائص العميق للقرآن الحكيم (٤٢) .

إهدار القيم الخلقية والإيمانية وبؤس الإنسانية في المدينتين الرومية والإيرانية :

لم يكن عهد الجاهلية مختصاً بالعرب الجاهليين ، بل كانت هي أزمة إعتقادية وخلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية عالمية شديدة ، أهدقت بالدنيا كلها ، وشملت بسط الأرض ، ولكن الإيرانيين والروم كانوا قادة هذه الأزمة والمسؤولين الأولين عنها ، لأن مدينتهم كانت المدينة الراقية التي تعتبر المقياس في عالمهم المعاصر وكان الناس يحذون حذوها ، ويقلدون لها في كل مكان ، وكانت بلادهم ومدينتهم الرئيسية الكبيرة ، ومجتمعهم أنفسهم أولاً وقبل كل شيء عرضة لهذه الأزمة والفساد .

إن تصوير الإمام الدهلوی لهذا الوضع الجاهلي ، وأسبابه التي أشار إليها لم نجد تصويراً أصدق منه وأدق في أي كتاب من كتب التاريخ والسيرة ، ولم نجد أي ريشة بارعة لأي عالم من علماء فلسفة التاريخ والعلوم العمرانية ترسم مثل هذا التصوير الصادق الدقيق ، وهنا يسطر قلم الإمام الدهلوی من روائع البيان ما يدل على أنه بلغ الذروة العليا في جزالة التعبير وقوة الأداء وحسن الإنشاء (٤٣) .

وننقل فيما يلي ما قاله الإمام الدهلوی في هذا الصدد إذ أنه يقدر منه ما امتاز به من نظرة عميقة في التاريخ وصلاحيّة التوصل إلى لب الحقيقة والاستعداد الموهوب للتحليل الصحيح الدقيق للأوضاع والظروف ، يقول الإمام الدهلوی :

« اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة ، وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة ، واستحوذ عليهم الشيطان ، تعمقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق ، يستنبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه ، فما زالوا يعملون بها ، ويزيد بعضهم على بعض ، ويتباهون بها ، حتى قيل : أنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منقطة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم ، أو لا يكون له قصر شامخ

(٤٢) أيضاً ، ص : ٨٦ .

(٤٣) هذه القطعة نموذج رائع لقوة البيان وسلاسة التعبير وجمال الأداء ، ولذلك اختارها المؤلف « لمختاراته في الأدب العربي » وضمها كنموذج رائع إلى مجموعة التطلع الأدبية .

وأبزن وحمام وبساتين ، ولا يكون له دواب فارهة ، وغلمان حسان ، ولا يكون له توسع في المطاعم وتجميل في الملابس ، وذكر ذلك يطول وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزج . وتولد من ذلك داء عضال ، دخل في جميع أعضاء المدينة ، وآفة عظيمة لم يبق منهم أحد من أسواقهم ، ورستاقهم ، وغنيهم وفقيرهم إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه عموماً وهموماً لا أرجاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة ، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم ، والتضييق عليهم ، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضج والدياس والحصاد ولا تقتنى إلا ليستعان بها في الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رءوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ، ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان إقليم واسع ليس فيهم أحد يهمله دينه « (٤٤) » .

### مباحث نافعة أخرى :

ثم يأتي مبحث أن أصل الدين واحد ، وأن اختلاف المناهج والشرائع إنما هو مراعاة لعصر خاص وقوم بعينهم ، ثم يشرح أسباب المؤاخذة على المناهج رغم أن أصل الدين ر - ر

وبعد مباحث جانبية في أسرار التيسير والترغيب والترهيب وغيرهما ، يثبت الإمام الدهلوي الحاجة إلى دين ينسخ جميع الأديان والشرائع السابقة ، وأنه كيف يمكن حفظ هذا الدين من التحريف ، وما هي المنافذ والأبواب التي يدخل منها التحريف وما هي الصور والأشكال التي يتجلى فيها ، وما هي القوالب التي تتقمصها ، وما هي الطرق التي اختارتها الشريعة لسد ذراعه والحيلولة دونه ، وما هي التدابير والأحكام التي أصدرتها لأجل ذلك ، ثم بين - في تفصيل ووضوح - ما كانت عليه الجاهلية في عهد البعثة التي قام نبينا ﷺ لإصلاحها وإقامة اعوجاجها .

### مكانة الحديث والسنة وموقف الأمة منهما :

يأتي المبحث السابع في الكتاب بعنوان : « مبحث الشرائع من حديث النبي ﷺ » وترد

(٤٤) حجة الله البالغة ، باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم ، ج : ١ ، ص : ١٠٤ - ١٠٧ .



فيه أبحاث تتعلق - مباشرة - بفهم الحديث الشريف والسنة النبوية المشرفة ، واستنباط المسائل منها ، وأقسام العلوم النبوية ، وكيفية تلقي الشريعة من النبي ﷺ وطرقها وطبقات كتب الحديث ، وطرق استفادة المطالب والمعانى الشرعية من الكتاب والسنة ، والقضاء فى الأحاديث المختلفة جمعاً وتطبيقاً وترجيحاً وغير ذلك ، ويبحث الإمام الدهلوى - فى هذا الصدد - فى غاية من الدقة والإتقان فى اختلاف الصحابة والتابعين فى المسائل والفروع ، ويذكر أمثلة لذلك ، ثم يتعرض لاختلاف المذاهب الفقهية ، واختلاف أهل الحديث وأصحاب الرأى والفرق بينهما ، ثم يشرح موقف الناس خاصتهم وعامتهم ، - قبل القرن الرابع وبعده - من الاستفتاء فى المسائل ، وسؤال العلماء والعمل بالأحكام الشرعية ، ويفيىض فى هذا المبحث ويوضحه فى تفصيل وهو يشتمل على أبحاث دقيقة عميقة ، يصعب العثور عليها فى أى كتاب آخر من كتب أصول الفقه أو علم الكلام .

### أسرار الفرائض والأركان وحكمها :

لقد بحث الإمام الدهلوى فى الأحاديث الواردة فى أبواب العقائد ، والعبادات والمعاملات ، والإحسان والتزكية ، والمقامات والأحوال ، وطرق كسب المعاش ، والتبرع والتعاون ، وتدابير المنزل ، والخلافة والقضاء والجهاد ، والأطعمة ، والأشربة ، واللباس والزينة ، وآداب الصحبة والاجتماع ، وبحث أخيراً فى الفتن والملاحم وأشراط الساعة ، وقد عرض - فى هذا الصدد - خلاصة طيبة للسيرة النبوية - صلى الله على صاحبها وسلم - وقد شرح أسرار هذه الأبواب المختلفة بأسلوب لا تنقطع فيه صلة هذه المسائل والأحكام بالحياة والمدنية وعلم الأخلاق ، وهذا هو - فى الحقيقة - الموضوع الأساسى المحورى للكتاب ، وقد كان الإمام الدهلوى يهدف إلى أن تدرس الأحاديث الشريفة فى ضوء هذه الأسرار والحكم مع ربطها وإحكام صلتها بالأعمال والأخلاق والمدنية والاجتماع ، والسعادة الإنسانية والعلاقات المشتركة بين بنى البشر حتى يكون لها تأثير مطلوب على الحياة والعمل والأخلاق والمدنية والاجتماع ، ويثبت موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح ، وحتى لا تنهى أى فرصة للمعترضين المنتقسين فى اعتراضهم على الأحاديث ، والخط من شأنها وتقليل قيمتها وفائدتها وانتقاص أهميتها والحاجة إليها ( وهو الذى كانت تفرسته بصيرة الإمام الدهلوى ، وتفطن إليه بعد نظرة وتفكيره الواقعى ) وإيجاد الاضطراب العقلى والفكرى فيما يتعلق بها ، وأن ما سطره الإمام الدهلوى فى موضوع الأركان الأربعة لا يجاريه فيه أحد من المؤلفين ، وهو من خصائص « حجة الله البالغة » ومزاياه ونورد فيما يلى شيئاً مما قاله الإمام الدهلوى فى ما يتعلق بمقاصد الصوم والحج وأسرارهما وأشكالهما

الشرعية الإسلامية وحكمهما ولطائفها .

يقول وهو يتحدث عن الصوم وحكمة المقدار المحدد له وتحديد أعداد الصيام ( وهو ما يختص بالشرعية الإسلامية ) وأحكامه ومسائله الشرعية :

( لم يخير الناس في عدد الصوم ومقداره ) « لأن في ذلك فتحاً لباب الاعتذار والتسلل ، وسداً لباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإختماً لما هو من أعظم طاعات الإسلام<sup>(٤٥)</sup> .

ثم يقول وهو يذكر مقداره وعدده :

« ثم وجب تعيين مقداره لئلا يفرط أحد فيستعمل منه ما لا ينفعه وينجع فيه ، أو يفرط مفرط فيستعمل منه ما يوهن أركانه ويذهب نشاطه ويفقه نفسه ويزيره القبور ، وإنما الصوم ترياق يستعمل لدفع السموم النفسانية مع ما فيه نكايه بمطية اللطيفة الإنسانية ومنصتها ، فلا بد من أن يتقدر بقدر الضرورة »<sup>(٤٦)</sup> .

ثم يقارن بين قسمين من الصوم ( قسم يمك فيه عن كل الطعام والشراب وكل ما ينافي الصوم اجتناباً كلياً ، وقسم لا يترك فيه إلا بعض الأشياء ) ويرجح القسم الأول منه ، ويبين فضله في ضوء التجربة النفسية والتحليل العلمي وعلم النفس يقول :

« إن تقليل الأكل والشرب له طريقان :

١ - أحدهما : أن لا يتناول منهما إلا قدرأ يسيراً .

٢ - والثاني : أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات زائدة على القدر المعتاد ، والمعتبر في الشائع هو الثاني لأنه يخفف وينفخ ويذيق بالفعل مذاق الجوع والعطش ، ويحلق البهيمية حيرة ودهشة ، ويأتي عليها إتياناً محسوساً والأول إنما يضعف ضعفاً يمر به ولا يجد بالاً حتى يدنفه ، وأيضاً فإن الأول لا يأتي تحت التشريع العام إلا بجهد ، فإن الناس على منازل مختلفة جداً يأكل الواحد منهم رطلاً والآخر رطلين والذي يحصل به وفاء الأول هو إجحاف الثاني »<sup>(٤٧)</sup> .

إنه يصرح بأنه لابد في هنا التعيين وتحديد المواعيد من التوسط والاعتدال ، يقول :

(٤٥) حجة الله البالغة ، ج : ٢ ، ص : ٤٩ - ٥٠ .

(٤٦) أيضاً ، ص : ٤٩ .

(٤٧) أيضاً . ص : ٤٩ .

« ثم يجب أن تكون تلك المدة المتخللة غير مجحفة ولا مستأصلة كثلاثة أيام بلياليها ، لأن ذلك خلاف موضوع الشرع ولا يعمل به جمهور المكلفين » (٤٨) .

وما قاله الإمام الدهلوى عن الحج يعتبر بحثاً ممتازاً فريداً ، يقول :

« ومنها ( أى من مقاصد الحج وغاياته ) موافقة ما توارث الناس عن سيدنا إبراهيم ، وإسماعيل - عليهما السلام - فإنهما إماماً الملة الحنيفية ومشرعاها للعرب ، والنبي ﷺ بعث لتظهر به الملة الحنيفية وتعلو به كلمتها ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ (٤٩) .

فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إماميها كخصال الفطرة (٥٠) ، ومناسك الحج ، وهو قوله ﷺ :

« قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم » (٥١) .

ويذكر لها حكمة أخرى ، فيقول :

« كما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة ليستميز الناصح من الغاش والمنقاد من المتمرد ، وليرتفع الصيت وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها فيما بينهم ، فكذلك الملة تحتاج إلى حج ليميز الموفق من المنافق وليظهر دخول الناس فى دين الله أفواجاً ، وليرى بعضهم بعضاً ، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده ، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والتراخي » (٥٢) .

ويقول :

« وإذا جعل الحج رسماً مشهوراً نفع عن غوائل الرسوم ولا شىء مثله فى تذكر الحالة

---

(٤٨) أيضاً .

(٤٩) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .

(٥٠) والمراد بخصال الفطرة الخصال العشر ، وهى قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك والاستنشاق بالماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم ، وشف الإبط ، وحلق العانة وانتقاص الماء يعنى الاستنجاء ، أخرجه أبو داود برواية عاشة - رضى الله عنها - قال الراوى ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة ، وقد صرح القاضى عياض والإمام النووى إنها الختان .

(٥١) حجة الله البالغة ، ج : ٢ ، ص : ٥٦ .

(٥٢) أيضاً ج : ١ ، ص : ٧٦ .

التي كان فيها أئمة الملة والتحضيض على الأخذ بها « (٥٣) .

ويقول في موضع آخر :

« ومنها ( أى من مقاصد الحج ) تحقيق معنى العرصة ، فإن لكل دولة أو ملة اجتماعاً يتوارده الأقاليم والأداني ليعرف فيه بعضهم بعضاً ، ويستفيد أحكام الملة ، ويعظموا شعائرها ، والحج عرصة المسلمين وظهور شوكتهم واجتماع جنودهم وتنويه ملتهم ، وهو قوله - تعالى - :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ (٥٤) .

شمول الكتاب وإحاطته :

إن من مزايا هذا الكتاب وخصائصه أنه يشتمل - عدا المباحث المتعلقة بالفقه والحديث والعبادات والمعاملات - على أبواب تدبير المنزل والخلافة والقضاء وأبواب المعيشة وآداب الصحبة التي تتعلق بالأخلاق والاجتماع والمدينة والاقتصاد ولا يتوقع مثل هذا البحث فيها في عامة الكتب الفقهية والكلامية .

الإحسان والتزكية :

زد على ذلك أن الإمام الدهلوى قدم فيه نظاماً مرتباً منقحاً للإحسان والتزكية يستطيع الإنسان بسلوكه على دربة والعمل به أن يبلغ أعلى مدارج الرقى والكمال ، ومراتب الولاية وغاية الأحوال والمقامات ، وقد امتد هذا الباب من الكتاب على الصفحات من ٦٦ إلى ص ١٠١ ، وقد بحث فيه الإمام الدهلوى عن تلك الطرق والوسائل للإحسان التي وردت في الأحاديث الصحيحة واكتفى بمجرد التأكيد على روح الاحتساب والاستحضار ، والنية والعزيمة والكيفيات الباطنية القلبية والاهتمام بها ، واقترح علاج الأمراض والعلل الروحية بتلك الطرق المشروعة والفرائض والعبادات والأدعية والأذكار التي صرح نقلها ، كما بين طرق العلاج للأخلاق المذمومة الرذيلة وطرق اكتساب الأخلاق الحمودة الفاضلة بالنصوص الثابتة في الكتاب والسنة (٥٥) .

وقد أورد في هذا المبحث صيغ الأذكار والأدعية الماثورة ، وشرح طريق الدعاء المقبول

---

(٥٣) أيضاً ج : ١ ، ص : ٧٦ .

(٥٤) سورة البقرة ، الآية : ١٢٥ .

(٥٥) حجة الله البالغة ، ج : ٣ ، ص : ٥٦ .

وكيفيته وشروطه وآدابه ، وقد أكد فيه على القيام بتلبية المقتضيات الطبيعية وحاجات الحياة الإنسانية والأعمال الدينية بالاحتساب واستحضار النية الصالحة ووضح الفرق بين تأثيرها وكيفيتها بالاحتساب ، وبين ذلك مع الغفلة عن الاحتساب يقول :

« اعلم أن النية روح والعبادة جسد ، ولا حياة للجسد بدون الروح ، والروح لها حياة بعد مفارقة البدن ، ولكن لا يظهر آثار الحياة كاملة بدونه ، ولذلك قال الله - تعالى - :  
﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى منكم ﴾<sup>(٥٦)</sup> وقال رسول الله ﷺ :  
« إنما الأعمال بالنيات » .

ثم يعرف النية بهذه الألفاظ الجامعة :

« وأعنى بالنية المعنى الباعث على العمل من التصديق بما أخبر به الله - تعالى - على السنة الرسل من ثواب المطيع وعقاب العاصي ، أو حب امتثال حكم الله فيما أمر ونهى »<sup>(٥٧)</sup> .

وقد أورد الإمام الدهلوي في آخر هذا الباب أحاديث منتقاة تتعلق بالتحلى بالأخلاق الفاضلة وأداء حقوق العباد وحسن الصحبة والجوار ، التي يستطيع الإنسان بالعمل بها أن يصل إلى أقصى درجات التزكية والإحسان ، ثم تناول بيان تلك الأحوال والمقامات التي تحصل للسالك نتيجة التزكية والإحسان ، كما أنها تكون نتيجة النور في الباطن ، وصحوة القلب وصلاحه ، وزكاء النفس وطهارتها ومرضاة الله - تعالى - وتأييد الملائكة الأعلى واستبشارهم . .

## الجهاد :

ويشتمل هذا الكتاب على باب مستقل حول الجهاد<sup>(٥٨)</sup> ، وقد بدأه الإمام الدهلوي بهذه الكلمات المثيرة المنبهة ، التي لا يقولها إلا عارف خبير يملك بصيرة نافذة ونظرة ثاقبة في تاريخ الديانات والملل وأهداف خلق الكائن الإنساني وغاياته ، والنظام المطلوب لدى خالق الكون ، يقول :

« اعلم أن أتم الشرائع وأكمل النواميس هو الشرع الذي يؤمر فيه بالجهاد » .

---

(٥٦) سورة الحج ، الآية : ٣٧ .

(٥٧) حجة الله البالغة ، ج : ٢ ، ص : ٨٣ - ٨٤ .

(٥٨) حجة الله البالغة ، ج : ٣ ، ص : ١٧٠ - ١٧٨ .

ثم شرح ذلك وبينه وأثبتته بالعقل والنقل ، ثم ذكر أسباب فضل الجهاد ، وأصوله وضوابطه « (٥٩) .

وبالجمله فإن هذا الكتاب بشموله ووعمقه ، وتمثيله الواسع المتسق المترابط للدين والشريعة ، ولمئات من النكات واللطائف والتحقيقات النادرة - التي تنبث على مواضع متفرقة من الكتاب - يحتل مكانة ممتازة فريدة في المكتبة الإسلامية الزاخرة ويصدق ما قيل : « كم ترك الأول للآخر » .

وقد صدق العلامة شبلى النعمانى إذ قال فى كتابه : « علم الكلام » :

« إن الانحطاط العقلى الذى أصيب به المسلمون بعد ابن تيمية وابن رشد بل فى عهدهما كذلك ، لم يكن قد بقى أمل - نظراً إلى الانحطاط العام - فى ظهور نابغة يملك القلب البصير والعقل الذكى ، ولكن أبت القدرة الإلهية إلا أن تتجلى ، فإذا بالإمام ولى الله الدهلوى يولد فى العهد الأخير الذى كان الإسلام فيه فى محنة وأزمة عقلية علمية ، وقد تضاءلت أمام دقائقه ونكاته مآثر الغزالى والرازى وابن رشد » .

ويزيد قائلاً :

« لم يؤلف الإمام الدهلوى فى علم الكلام كتاباً مستقلاً ، ولذلك فلا يناسب عده فى زمرة المتكلمين ، ولكن كتابه « حجة الله البالغة » الذى كشف فيه عن أسرار الشريعة وحقاقها - هو روح علم الكلام ومحوره « (٦٠) .

ويقول المحقق الفاضل الشيخ عبد الحق الحقانى فى مقدمة ترجمته لـ « حجة الله البالغة » المسماة بـ « نعمة الله السابعة » :

إن الفن الذى ألف فيه هذا الكتاب ، لم يؤلف فيه قبله شئ ولم يدون فى مكان ، فموضوع هذا الفن هو النظام التشريعى المحمدى من حيث المصلحة المفيدة وغايته أن يعلم الإنسان أن أحكام الله - تعالى - ورسوله ﷺ لا عسر فيها ولا ضيق ، ولا تخالف الفطرة السليمة حتى يطمئن بها الإنسان ، وينجذب إليها قلبه ثقةً منه بأنها أحكام توافق الفطرة وتتبنى عليها ، ولا يقع بتشكيك المشككين فى الشبهات ، وحده أنه العلم الذى تعرف به حكم الأصول الدينية والأحكام الشرعية ومبادئه جميع العلوم ( المتعلقة بالحياه البشرية ) (٦١) .

(٥٩) أيضاً ، ص : ١٧٠ .

(٦٠) « علم الكلام » ، ص : ١٠٩ - ١١١ .

(٦١) مقدمة « نعمة الله السابعة » .

## الباب الثامن الحاجة إلى نظام الخلافة وفوائده وإثبات خلافة الخلفاء الراشدين ، وعظيم منتهم على الأمة في ضوء كتاب « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء »

أهمية كتاب « إزالة الخفاء » وامتيازته وتفردته :

إن الكتاب الذي يلي كتاب « حجة الله البالغة » في القيمة والأهمية ، والذي هو مأثره الإمام الدهلوى الفريدة هو كتاب « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » وإنه لكثير من خصائصه ومزاياه كتاب فريد في موضوعه ، ويزخر هذا الكتاب كله بالنكات العلمية المثيرة والإشارات النادرة اللطيفة ، وتتوفر فيه نماذج كثيرة تدل على تدبر الإمام الدهلوى الطويل وتفكيره العميق في كتاب الله - تعالى - وتجاوبه الموهوب معه وفهمه الغائص الدقيق ، وسرعة البديهة والتفطن لمكونات الآيات وإشاراتها الدقيقة ، وعمق الاستنباط ودقته ووفرة الذكاء وتوقد الذهن بحيث يتوصل به كل منصف سليم الفكر إلى أن هذا العلم ليس كسبياً وكتابياً صرفاً ، وأن مؤلف هذا الكتاب ليس صنيع المناهج الدراسية المتداولة ، وكتب التفسير وأصول الفقه وعلم الكلام الشائعة في عصره ، يقتطف منها ، ويجمع فتات فائدتها فحسب ، بل إن علمه نابع من الموهبة الربانية والفيوض الإلهية الخاصة .

وقد صدرت من قلم الإمام الدهلوى نفسه عفواً ، هذه الكلمات التالية في مبدأ الكتاب :

« والواقع أن نور التوفيق الإلهي ألقى في روع هذا العبد الضعيف علماً مستقلاً بكل وضوح وتفصيل ، حتى علم علم اليقين أن إثبات خلافة ( الخلفاء الراشدين ) أصل من أصول الدين عظيم ، وما لم يتمسك الإنسان بهذا الأصل تمسكاً قوياً ولم يعرض عليه بالنواجذ بقيت كل مسألة من مسائل الشريعة معرضة للشك والضعف »<sup>(١)</sup> .

---

(١) إزالة الخفاء ، ص : ١ ، طبع أكاديمية سهيل ، لاهور .

حتى إن العلماء الكبار الذين كانت لهم خلافات مع الإمام الدهلوى وكانوا متوغلين فى العلوم العقلية ومنهمكين فيها ، بل كانوا يحتلون مكانة الإمامة فيها ، لما وقع بصرهم على هذا الكتاب لم يتمالكوا أن أثنوا على مؤلفه واعترفوا بتبحر علمه وسعة معرفته ودقة نظره ، يقول الشيخ محسن بن يحيى الترهتى صاحب « اليانع الجنى » :

« إن العلامة فضل حق بن فضل إمام الخير آبادى<sup>(٢)</sup> وقعت فى يده نسخة من كتاب « إزالة الخفاء » ، فكان أولع بها ويكثر النظر فيها ، أوان فراغه من دروسه وسائر ما يشغله من شأنه ، فلما وقف على كثير منها قال لمحضر من الناس : إن الذى صنف هذا الكتاب لبحر زخار لا يرى له ساحل<sup>(٣)</sup> .

وقد وصف العلامة فخر المتأخرين أبو الحسنات عبد الحى اللكهنوى ( م ١٣٠٤ هـ ) - الذى يعترف بتبحر علمه ونبوغه وسعة نظره القاصى والدانى - فى كتابه « التعليق الممجذ على موطأ الإمام محمد » كتاب « إزالة الخفاء » بأنه « كتاب عديم النظير فى بابهِ »<sup>(٤)</sup> .

**الصلة بين « حجة الله البالغة » و « إزالة الخفاء » :**

لقد كانت الحاجة بعد تأليف كتاب « حجة الله البالغة الذى عرض فيه نظام الإسلام الجامع الشامل المتناسق بطريق يثبت علاقته بالحياة والمجتمع والمدنية ويوضح أنه بدون تنفيذ الأحكام الإسلامية المتعلقة بالعقائد والعبادات والحياة الإجتماعية ، لا يبقى أى أمل فى قيام مجتمع صالح رشيد ومدنية صالحة وحياة إجتماعية متزنة عادلة ، كانت الحاجة لبيان هذه المقاصد والأهداف وتكميلها والقيام بهذه المرحلة بطريقة علمية تحقيقية ( تروى غليل الأذهان والطبائع العقلانية لعهد الثورة العقلية التى كان قد أظل زمانها ) إلى الكتابة فى خصائص النظام الاجتماعى فى الإسلام وطبيعته ، وأهدافه وغاياته ونطاق عمله ، وعن « الخلافة » (الهيئة الإدارية العالمية الدائمة ، الصريحة المنصوصة لهذا النظام ) بهذا البسط والتفصيل ، والأدلة من العقل والنقل ، وشواهد التاريخ ، وفوق كل ذلك فى ضوء الكتاب المبين والسنة الواضحة ، وتفصح الضلالات والظنون الخاطئة التى ظهرت فى هذا الصدد منذ

---

(٢) اقرأ ترجمته فى « نزهة الخواطر » ج : ٧ ، وقد وقعت بينه وبين أبناء الإمام الدهلوى والذين كانوا على طريقه مطارحات علمية ، ومناقشات دينية ، لذلك كانت لشهادته قيمة كبيرة .

(٣) انظر « اليانع الجنى » ص : ٩٣ ، المطبوع مع رجال الطحاوى ، و « نزهة الخواطر » ج : ٦ ، ترجمة الإمام الدهلوى ، ص : ٤٠٦ .

(٤) التعليق الممجذ ، ص : ٢٥ ، طبع المطبع اليوسفى .



زمن قديم ، والتي نشأت بناءً عليها فرقة جديدة<sup>(٥)</sup> ، كانت قد أحدثت لسيطرة العناصر الإيرانية في عهد الإمام الدهلوى نفسه - بصفة خاصة - من الاضطراب الفكرى والبلبلية العقلية ما تخطى حدود المعتقدات والأعمال إلى نظام الحكومة وسلطة المسلمين العليا في الهند ، وجعلت مستقبل المسلمين في الهند في خطر تحوم حوله الشكوك والشبهات .

إن شأن هذه الفرقة ( في نظر أولئك الذين يعرفون تاريخ مذهبها ومعتقداتها الأساسية وفهمها وتصورها للدين ، والذين درسوا كتبها المعتبرة ومصادرها المعتمدة لدى أهلها دراسة مباشرة ) ليس شأن خلاف في الاجتهاد والقياس ، أو فرقة جانبية لا تخرج عن نطاق الشريعة الإسلامية ، بل أنها تحمل إزاء التصور الصحيح للدين الذى يبنى أساسه على الكتاب والسنة وعظمة مكانة النبوة وعقيدة ختم النبوة ، تفكيراً مستقلاً وتصوراً دينياً مقابلاً ، ويمكن أن يقدر ذلك - إلى حد ما - من عقيدة « الإمامة » لدى الفرقة الأثنى عشرية ، التى تعتقد أن الإمامة نظير النبوة ، بل تفضلها وتفوقها في جوانب كثيرة<sup>(٦)</sup> .

يقول الإمام الدهلوى وهو يبين الغرض الأساسى من هذا الكتاب وغايته الأولى :

« يقول الفقير ولى الله - عفا الله عنه - إن بدعة التشيع راجت فى هذا العهد وانتشرت ، وتأثرت طبائع العامة بشبهاتهم التى أردوها تأثراً عميقاً ، ونشأت فى قلوب معظم أهل هذه المنطقة شكوك وشبهات كثيرة فى موضوع ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين<sup>(٧)</sup> .

لم يكن نظر الإمام الدهلوى إلى السطح الظاهر من هذه الفتنة التشيكية المدبرة ، بل كان ينظر - ببصيرته الثاقبة - إلى أعماق تلك المؤامرة الخطيرة التى كانت ترسب فى داخلها والتى كانت لتظهر نتائجها البعيدة الخطيرة ( مثل خيبة الإسلام وإخفاقه فى عهده الأول

(٥) المراد بها الفرقة الإمامية الشيعية .

(٦) وقع لدينا أخيراً كتاب « الحكومة الإسلامية » لقائد الثورة الإيرانية روح الله الخمينى الذى يعرف بآية الله العظمى الإمام الخمينى ، فقد جاء فيه فى ص : ٥٢ بعنوان « الولاية التكوينية » بعد التصريح بأن الأئمة يملكون الخلافة التكوينية ، وتخضع لحكمهم وسلطتهم جميع ذرات هذا الكون ، ما يلى :

« وأن من ضروريات مذهبنا أن لائمتنا مقاماً لا يقربه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث ، فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة ( ع ) كانوا قبل هذا العالم أنواراً فجعلهم الله بعرشه محققين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله : ( « الحكومة الإسلامية » طبع كتبخانه بزرگ إسلامى - إيران ) .

(٧) إزالة الخفاء ، ج : ١ ، ص : ١ .

الزاهر ، وأن صحبة النبي ﷺ لم تثمر ولم تفعل فعلها في تكوين مجتمع صالح فاضل يوثق به ، ومن نتائج هذا النوع من التفكير والاعتقاد الطبيعية وجود عدم الثقة بصيانة القرآن الكريم ، وبقائه على أصالته وصحته ، عن طريق الصحابة الذين شهدوا نزوله وتلقوه عن النبي المعصوم ﷺ مباشرة ، وذلك في خير القرون ، وكذلك الاضطراب في صحة الأحاديث ونقل السنة النبوية ، وجميع الأمور التي اتفق عليها المسلمون ( ولذلك يقول الإمام الدهلوى :

« كل من يحاول هدم هذا الأصل ( ثبوت الخلافة الراشدة وصحتها ) وينكر هذا الأصل الأصيل من الدين إنما يحاول هدم جميع الشعب الدينية »<sup>(٨)</sup> .  
ويزيد قائلاً :

« إن الخلفاء الراشدين هم الوساطة بين رسول الله وبين أمته في أخذ القرآن الكريم وتلقيه »<sup>(٩)</sup> .

ثم يدرج الإمام الدهلوى في هذه الدائرة تلك الشعب والعلوم التي حصلت ثروتها للأمة عن طريق الخلفاء الراشدين ، كعلم الحديث وعلم الفقه والإجماع على المسائل المجتهد فيها ، والقضاء على اختلاف الأمة وعلم الإحسان ( الذى سمي - أخيراً - بعلم السلوك ) وتوضيح الفرق بين مراتب علوم الحكمة والأخلاق الفاضلة والأخلاق المذمومة ، وتدير المنزل ، وسياسة المدينة ، كل هذه العلوم والفنون والشعب الدينية انتقلت إلى الأمة عن طريق الخلفاء الراشدين وبتعليمهم ومنهج عملهم ، وتدين لهم الأمة كلها في ذلك »<sup>(١٠)</sup> .  
ولذلك كان من المناسب - جداً - أن يشرح - بعد تأليف « حجة الله البالغة » الذى هو تفسير علمى ونظري للإسلام - كيف طبقت هذه الأصول والتعاليم الإسلامية بعد عهد النبوة - مباشرة - فى عالم الواقع بنجاح منقطع النظير ، وكيف ظهرت فى صورة عملية ، وطبقت على الحياة بطريقة رائعة ، وما هى الآثار التى ترتبت بها على المجتمع البشرى ، وكيف قضت على مدينتين عتيقتين جبارتين تملكان أزمة السلطة والسيطرة حتى اقتسمتا العالم المتمدن كله ، ويرجع تاريخهما إلى قرون عريقة فى القدم وكانتا تزدهران وتتقدمان تحت ظل الحكومات ( الساسانية والرومية ) وفى قيادتها وتؤثران على الحياة الإنسانية وتطبعانها بطابعهما ، كيف انتهى دورهما ، وذهبنا أدراج الرياح !؟<sup>(١١)</sup> .

(٨) أيضاً ج : ١ ، ص : ١ .

(٩) أيضاً ، ج : ٢ ، ص : ٤ .

(١٠) انظر للتفصيل « إزالة الخفاء » ج : ٢ ، ص : ٦ .

(١١) انظر للتفصيل « إزالة الخفاء » ج : ٢ ، ص : ٥٤ عنوان « تحطيم الدولة الساسانية » وج : ٢ ،

ص : ٥٩ - ٦٣ عنوان « تحطيم الدولة الرومية » .

## مؤلفات قديمة أخرى فى الموضوع :

لم نعثر فى مجموعة الكتب القديمة فى موضوع النظام الاجتماعى والسلطة الحاكمة ودائرة نفوذها وعملها إلا على كتب معدودة ( بغض النظر عن درجتها وكيفيةها ، بل فى عددها وكميتها كذلك ) ويحتل كتاب الإمام أبى يوسف ( ١١٣ - ١٨٢ هـ ) تلميذ الإمام الأعظم أبى حنيفة ( م ١٥٠ هـ ) وقاضى القضاة فى الخلافة العباسية المعروف بـ « كتاب الخراج » مكانة أولية وأساسية فى هذا الموضوع ، إلا أن نطاق البحث فيه لا يخرج عن وسائل الدخل للدولة الإسلامية ومالياتها ونظام والمحاصيل والخراج فيها .

وأول كتاب بسيط يجدر بالذكر فى هذا الموضوع هو كتاب « الأحكام السلطانية والولايات الدينية » لقاضى القضاة العلامة أبى الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى ( ٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ) وقد جاء فى ٢٥٩ صفحة من القطع المتوسط ، ويدور الكتاب حول موضوع الإمامة وحكمها الشرعى وشروطها وكيفية انعقادها ، والمناصب التى تتولى تفويضها وتعيين المسئولين عليها ، وواجبات الإمام ومسئوليته ، وأحكام تعيين القضاة والأئمة ، وولاية الصدقات ، والجزية والخراج وغير ذلك من الأحكام وكذلك إقامة الحدود، والحسبة ، وغيرها ، ولم يرد فيه أى بحث فى ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين وصحتها ومآثرهم ومناقبتهم ومكانتهم فى الدين .

ومن أضخم الكتب فى هذا الموضوع « الغيائى » واسمه الكامل « غياث الأمم فى التياث الظلم »<sup>(١٢)</sup> ، وهو تأليف شيخ الإمام الغزالى المعروف ، وأستاذ الأساتذة فى عصره ، إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك الجوينى ( ٤١٩ - ٤٧٨ هـ ) وقد ألف هذا الكتاب بإشارة من وزير الدولة السلجوقية الفاضل المعروف نظام الملك الطوسى ( ٤٠٨ - ٤٨٥ هـ ) ( مؤسس المدرسة النظامية ببغداد ونيسابور ) ولطالعه ومراجعته ، وقد كان هو فى الحقيقة وزير الملك ألب أرسلان ، وملك شاه السلجوقى ومعتمه ، ولكنه كان فى الوقت نفسه رجل هذه الدولة العظيمة بل الإمبراطورية الكبيرة الوحيد ، وشخصيتها المركزية<sup>(١٣)</sup> .

وهذا الكتاب يدور حول الأحكام الشرعية للإمامة وصفاتها وواجباتها ، فقد ذكر فى

---

(١٢) طبع هذا الكتاب بتحقيق الدكتور عبد العظيم الديب وبعناية الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصارى على نفقة الشؤون الدينية لحكومة قطر عام ١٤٠٠ هـ ، ويشتمل الكتاب على ٦١١ صفحة من القطع الكبير .

(١٣) انظر لترجمته « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، و« طبقات الشافعية » .

القسم الأول منه صفات الأئمة والولاية والقضاة ، كما جاء فيه البحث فى أنه لم يوجد للمسلمين إمام فماذا يجب عليهم عند ذلك ، كما ذكر فيه صفات المفتين والأمرء وفضلهم ، وما هى الواجبات العائدة على الأمة عند غيبتهم ، وماذا يجب على المسلمين إذا تسلط عليهم حاكم فاقد الأهلية بالسيف والقوة ، وإذا خلا عصر من العصور من أصحاب الإفتاء فكيف تعمل الأمة وما هى مسئوليتها ، وما هى الأسباب التى توجب خلع الإمام وعزله ، ثم جاء فى تفصيل ذكر الأحكام الفقهية التى يفرض على الأمة معرفتها والعمل بها عند فقدان المفتين ، ومن هنا يتحول الكتاب إلى كتاب فى الفقه الشافعى ، وليس فى الكتاب أى مبحث فى موضوع ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين وأهميتها ، إذ أن الكتاب يعالج - فى الحقيقة - موضوع الأحكام الشرعية للإمامة وصفاتها وواجباتها ، وترد فى الكتاب فى مواضع كثيرة تعريضات بكتاب « الأحكام السلطانية » للماوردى وانتقادات على مؤلفه .

والكتاب الثالث الجدير بالذكر فى هذا الموضوع هو « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ( ٦٦١ - ٧٢٨ هـ ) وقد صرح المؤلف العلامة فى مقدمة كتابه هذا بأنه رسالة مختصرة اشتملت على أصول السياسة الإلهية والنيابة النبوية وأحكامها التى لا يستغنى عنها الراعى ولا الرعية ، والكتاب - فى الأصل - تفسير وتفصيل للآية الكريمة :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ (١٤) .

فعنوان الباب الأول من القسم الأول « الولايات » ، وعنوان الباب الثانى « الأموال » ، وجاء البحث فى القسم الثانى أولاً عن حدود الله - تعالى - وحقوقه ، ثم حقوق العباد ، واشتمل الكتاب على ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط (١٥) .

ولم يتعرض المؤلف فى هذا الكتاب للمباحث التاريخية والأصولية والكلامية المتعلقة بالخلافة الراشدة ، والخلفاء الراشدين ، التى يحتل فيها مؤلف الكتاب الجليل مكانة الثقة والإمامة والاجتهاد ، ولو اعتنى بهذه الناحية لكانت زيادة قيمة فى المكتبة الإسلامية العلمية

(١٤) سورة النساء ، الآيتان : ٥٨ - ٥٩ .

(١٥) بين أيدينا طبعة رابعة للكتاب صدرت من دار الكتاب العربى بمصر عام ١٩٦٩ .

والبحوث الموضوعية ، ولكنه كتب بقلمه السيال وعلمه الزاخر فى هذا الموضوع على صفات « منهاج السنة » الذى يتجلى فيه نموذج بحره العلمى الزاخر ، وجولان قلمه القوى السلسال<sup>(١٦)</sup> .

## مكانة الخلافة ومنزلتها فى الإسلام :

يتجلى فى القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة تصور اعتناق الدعوة الإسلامية والدين الحنيف والمؤمنين به فى صورة جماعة منظمة متضامنة مترابطة ، وكلمات « الأمة » و « الملة » و « الجماعة » التى استخدمت لهم ، كلها تدل على هذه الحقيقة دلالة واضحة ، ويعرف أصحاب العلم والبصيرة أن هذه الكلمات المستخدمة فى لغة الكتاب والسنة ، واصطلاحهما ، لم تستخدم - إطلاقاً - لمحض التصور السطحي للكثرة العددية والتجمع البشرى العام الذى لا يملك أى وزن أو تأثير فى تاريخ الأديان والملل ولا فى مقادير الشعوب والحضارات ، بل لقد زخر القرآن الكريم كله فى صدد بيان وقائع الأمم السابقة حيناً ، وفى التعرض لبيان أسباب القوة والضعف والهزيمة والغلبة حيناً آخر - بعدم تأثير الكثرة العددية ، وخفة الجموع البشرية ، وفقدانها لأى وزن واعتبار ، وغلبة الشر والفساد رغم وجود الأفراد الصالحين الأخيار ، وشقاء الإنسانية ووبؤسها وضعف الحق وخذلانه ، كل ذلك مما يؤكد على أن الأفراد المتفرقين - مهما كان عددهم - لا يحملون - فى ميزان العقل والعدالة - أهمية كبيرة وفائدة مرجوة عامة .

إن الأهداف التى يرمى إليها الإسلام تشتمل على إصلاح العلاقة وتنظيمها وتقويتها بين العبد والمعبود ، ثم توسيع نطاقها وتعميمها ، ومحاولة سبك الحياة الإنسانية فى قالبها ، وتصحيح العلاقات وتطبيقها بين أفراد الجماعة وأعضائها ، وتهيئة الجو والمناخ الصالح لحياة آمنة وادعة مطمئنة ، مهذبة جميلة زاهية ، تتوفر فيها الفرص الكاملة لأداء حقوق العباد ورب العباد ، والبلوغ إلى غايات الكمال ومدارج الرقى والفضل التى أودعت صلاحيتها فى فطرة الإنسان ، لقد حاول الإسلام أن لا تضيع العبقرية البشرية وقوتها العملية فى مقاومة تلك الأخطار والتوقى من تلك الخسائر والأضرار ، وإزالة تلك المفاصد والأراض

---

(١٦) راجع « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ج - ٢ : ص : ٢٥٣ - ٢٧٩ ، دارد القلم الكويتية الطبعة الأولى .

التي تنجم - تارة - نتيجة الحياة الممزقة غير المنظمة ومن القوانين الوضعية تارة أخرى ، وتنشأ حيناً كذلك من السلطة المطلقة والحرص الزائد على الحياة والسلطان ، ولا بد لذلك من خلافة وإمارة تنبنى على الاعتقاد بقانون نازل من السماء وشريعة ربانية ، وحاكمة الإله الواحد وألوهيته وربوبيته ، أما الشريعة الإلهية فإنه يلزم الاعتقاد فيها بأنها منزلة من الله العليم الحكيم ، وإنها بريئة عن الأخطاء والمصالح الشخصية والأغراض ، وإنها فوق العصبية ، والمحسوبيات والعلاقات ، وأما الخلافة والإمارة فإنه يجب عليها أن تكون ترجماناً صالحاً وممثلاً صادقة للشريعة الربانية ، بعيدة - إلى حد المستطاع البشرى والإرادة الإنسانية - عن التمييز والعصبية بغير حق ، بريئة عن عدم المساواة بين الناس ، والمحابة والمداينة في الدين .

وقد أصدر الشارع - عليه الصلاة والسلام - لتكميل هذه الأهداف وتحقيقها وظهور نتائجها وثمارها - من أول الأمر - تعاليم وإرشادات يضطر المسلمون - بناء عليها - أن يتكونوا جماعة منظمة مترابطة تخضع لأحكام ولى الأمر وإداراته الذى يمتاز - بصفة عامة - عنهم بكثير من الخصائص ، ويحافظ على مصالحهم ومنافعهم وحاجاتهم ، وقد اختاروه فى ضوء أصول الشريعة السمحة المرنة العادلة فإذا كان ذلك يتولى « الإمامة الكبرى » فإنه يدعى بـ « خليفة المسلمين » و « أمير المؤمنين » أو « الإمام » أما إذا كان نائباً عنه أو مرشحاً منه أو اختاره المسلمون لتنفيذ أحكام الشريعة وفصل الخصومات وتنظيم الحياة الدينية الاجتماعية - بشكل جزى محلى - فهو « الأمير » .

لقد كان اختيار الخليفة وترشيحه من تلك الواجبات الأساسية على المسلمين أن قدم أكبر المحبين لرسول الله ﷺ وصاحبه الصادق الوفى المستميت دونه ، سيدنا أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وجماعة صحابته الكرام الذين كانوا يفدونهم بالمهج والأرواح ويفضلونه على الأنفس والأبناء والآباء - رضى الله عنهم وأرضاهم - مع أهل البيت الطيبين الطاهرين - فصل هذه القضية وترشيح خليفة المسلمين وتعيينه على دفن الجسد الطاهر ﷺ ، ولا يزال هذا تقريبا دين المسلمين وطريقهم عند وفاة أى خليفة واختيار خليفة آخر ، ولم يحرم العالم الإسلامى من يوم اختيار سيدنا أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - خليفة المسلمين عام ١١ هـ إلى عهد الخليفة المستعصم بالله العباسى ( ت ٦٥٦ هـ ) من الخليفة المسلم ، وبقي

العالم الإسلامي - فى أثناء ذلك - بدون خليفة أيام غياب الخليفة المسترشد بالله ووقوعه فى الأسر الذى اعتقله السلطان مسعود السلجوقى فى العاشر من رمضان عام ٥٢٩ هـ ، وذلك لمدة قليلة لا تتجاوز ثلاثة أشهر وسبع ليال وقد كان هذا حادثاً أليماً وتجربة جديدة قاسية غشى بسببها على العالم الإسلامى السواد وعلاه الحزن والكآبة ، وقامت لها بغداد وقعدت وفى تعبير المؤرخ ابن كثير :

« انزعج الناس لذلك ، وزلزلوا زلزلاً شديداً صورة ومعنى ، وجاءت العامة إلى المنابر فكسروها وامتنعوا من حضور الجماعات ، وخرج النساء فى البلد حاسرات ينحن على الخليفة ، وما جرى عليه من الأسر ، وتأسى بأهل بغداد فى ذلك خلق كثير من أهل البلاد، وتمت فتنة كبيرة وانتشرت فى الأقاليم ، واستمر الحال على ذلك شهر ذى القعدة والشنعة فى الأقاليم ، منتشرة ، فكتب الملك سسنجر إلى ابن أخيه يحذره غب ذلك عاقبة ما وقع فيه من الأمر العظيم ، ويأمره أن يعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته ، فامثل الملك مسعود ذلك » (١٧).

وأن القصيدة المأساوية الحزينة المفطرة للقلوب والأكباد التى قالها الشيخ سعدى - الذى كان بعيداً عن مركز الخلافة فى شيراز - على حادث شهادة الخليفة المستعصم بالله ، التى يقول فى مطلعها ما ترجمته بالعربية :

« لقد حق للسماء أن تمطر على الأرض الدماء على سقوط المستعصم أمير المؤمنين » .  
تصرح بنظرة المسلمين إلى الخليفة والخلافة ، ما هو تصورهم لها وما هى عواطفهم التى لا يملكون حبسها وكتبها على حرمان العالم الإسلامى منها .

### التعريف الجامع المانع للخلافة :

لقد عرفه الإمام الدهلوى - الذى كان يملك بصيرة نافذة ودراسة عميقة واسعة للكتاب والسنة والفقہ ، والعقائد والكلام والسيرة والتاريخ ، وكان عارفاً بأسرار الشريعة وحقائقها - بالخلافة تعريفاً جامعاً مانعاً يصعب أن يعرف بأفضل وأدق منه ، وإن كل لفة من ألفاظ هذا التعريف تحمل فى طياتها سجلاً من المعانى والحقائق والأمثلة ، يقول :

---

(١٧) البداية والنهاية لابن كثير ، ج : ١٢ ، ص : ٢٠٨ .

« الخلافة هي الرئاسة العامة في التصدي لإقامة الدين بإحياء العلوم الدينية وإقامة  
رُكّان الإسلام ، والقيام بالجهاد وما يتعلق من ترتيب الجيوش والغرض للمقاتلة وإعطائهم  
من الفيء والقيام بالقضاء وإقامة الحدود ورفع المظالم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،  
نيابة عن النبي ﷺ » (١٨) .

ثم يقول مبيناً معنى « إقامة الدين » وزيادة إيضاح له :

« عندما ننظر إلى الأمور نظرة استقراء ، وننتقل من الجزئيات إلى الكلّيات ومن الكلّيات  
إلى الكلّية الواحدة الشاملة للجميع ، نصل إلى نتيجة أن الجنس الأعلى لهذه الأمور من  
الأمور من الجزئيات المشتتة والكلّيات المتشعبة الكثيرة ( وكأنها كلية الكلّيات ) هي تلك  
الحقيقة ( الكلية الجامعة ) التي عنوانها « إقامة الدين » والتي تندرج تحتها أنواع وأجناس  
أخرى منها : إحياء العلوم الدينية التي تشتمل على تعليم الكتاب والسنة والتذكير والموعظة ،  
يقول الله - تعالى - :

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب ،  
والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (١٩) . (٢٠) .

### الاستدلال بالقرآن الكريم على خلافة الخلفاء الراشدين :

إن أروع ما يحتوى عليه هذا الكتاب وأشوقه للمتذوقين لمعاني القرآن الكريم ، هو ما  
استدل فيه الإمام الدهلوى على انعقاد خلافة الخلفاء الراشدين وأنهم أصحاب الخلافة  
الراشدة الحقّة وأنه تحقق بهم الأمر التكويني الرباني والمسيئة الإلهية بآيات كريمات من القرآن  
الحكيم ، ولفت الأنظار إلى تلك الإشارات بل التصريحات في الآيات بآيات البيّنات التي  
ثبتت بداهة - بل في صوورة نتائج رياضية قطعية في بعض المواضع - أن هذه الآيات لا  
تصدق ولا تنطبق إلا عليهم ، ولا يمكن أن يراد بها غيرهم ، وأن هذه النبوءات الواردة في  
الآيات لا ترجع إلى غير أشخاصهم وأن الوعود التي انطوت عليها تلك الآيات لم

(١٨) إزالة الخفاء ، ج : ١ ، ص : ٢ .

(١٩) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

(٢٠) إزالة الخفاء ، ج : ١ ، ص : ٢ - ٣ .



يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿ (٢١) .

يقول الإمام الدهلوى : إن هذا الوعد ( بالاستخلاف فى الأرض وتمكين الدين والأمن بعد الخوف ) إنما كان مع أولئك الذين كانوا موجودين وقت نزول سورة النور ، وقد تشرفوا بالإسلام وصحبة النبى - عليه الصلاة والسلام - وشاركوا فى تأييد الدين الحنيف ونصره ، يقول الإمام الدهلوى - بصراحة ووضوح - إن هذا الوعد لم يكن مع سيدنا معاوية - رضى الله عنه - ولا مع بنى أمية وبنى العباس الذين لم يكونوا - حينذاك - قد دخلوا فى الإسلام ، ولا كانوا موجودين فى المدينة المنورة .

ثم يقول : إنه ليس من الممكن ولا من المعقول أن تولى جماعة المسلمين كلها الخلافة فى الأرض ، ويتبأون كلهم فى وقت واحد منصب الخلافة ، فلا يمكن أن يراد بذلك إلا بعض الأفراد المعدودين .

يقول :

« ليستخلفنهم » أى ليستخلفن جمعاً منهم ، والطاعة والانقياد من لوازم ذلك ، ثم عندما يتحقق هذا الوعد يظهر الدين كله وتحصل له السلطة والسيطرة الكاملة ، وليس كما يقول الإثنا عشريون : إن الدين المرضى عند الله يبقى - دوماً - مستتراً مختفياً ، ولذلك اتخذ أئمة أهل البيت التقية شعارهم ، ولم يقدر لهم أن يعلنوا دينهم ويظهروه - جهاراً وعلانية - .

﴿ وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ﴾ أفادت هذه الآية أن ذلك الدين الذى لا يقدر على إظهاره فى زمن هذه الخلافة الموعودة ليس ديناً مرضياً مختاراً عند الله - تعالى - (٢٢) .

كذلك يقول الله تعالى : ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ أى أن الله - تعالى - يخلق فى عهد هذه الخلافة ( الموعودة ) جواً من الأمن والطمأنينة والسلام بدلاً من جو الخوف والفرع ، ويثبت ذلك أن هؤلاء المستخلفين وسائر المسلمين يعيشون وقت تحقق هذا الوعد فى أمن وسلام ، لا يرهبهم الكفار ذوا الديانات المختلفة ولا تخفيهم جماعة أو قوة ، وبالعكس من ذلك يقول الأماميون أن أئمة أهل البيت ما زالوا فى خوف ومطاردة وفرع ، وأنهم استخدموا « التقية » وأنهم واجهتهم - دائماً - من قبل المسلمين أنفسهم محن وبلايا ، وعانوا من الذلة والإهانة ، ولم يعيشوا يوماً مؤيدين

(٢١) سورة النور ، الآية : ٥٥ .

(٢٢) إزالة الخفاء ، ج ١ ، ص : ٢٠ .

منصورين<sup>(٢٣)</sup> ، وقد تحقق وعد الاستخلاف والتمكين فى الأرض على أيدي هؤلاء المهاجرين الأولين والحاضرين وقت نزول آية الاستخلاف ، فإذا لم يكن هؤلاء خلفاء ، فقد بقى هذا الوعد غير محقق ولن يتحقق إلى قيام الساعة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -  
(٢٤)

والآية الثانية هى آية سورة الفتح رقم : ١٧ ، يقول - تعالى - : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ... الخ ﴾ ، وقد بحث الإمام الدهلوى فى هذه الآية بحثاً مفصلاً ، وخلاصته أن نبى الله ﷺ خرج عام ٦ هـ مع جماعة كبير من أصحابه بناء على رؤيا رآها ، إلى مكة المكرمة ، قاصدين أداء العمرة ، وقد خرج معه ﷺ عدد كبير من أصحابه لخطورة الحادث ، وظروف مكة المكرمة ، وخطر قيام قريش بالمعارضة والمغارة ، ولكن لم يخرج معه الأعراب ( سكان البوادي ) لخوفهم ونفاقهم ، وقد وقع فى الحديبية ذلك الحادث التاريخى لفسخ العزيمة ومعاهدة الصلح مع قريش الذى ذكر فى كتب السيرة والحديث بتفصيل ووقعت هناك بيعة الرضوان التى أعلن الله - تعالى - للمشاركين فيها بنعمة رضاه وبشرهم بالفتح القريب<sup>(٢٥)</sup> ، ثم أعن فى سورة الفتح هذه أن الأعراب - الذين لم يكونوا حاضرين وقت صلح الحديبية والذين انصرفوا عن الزمالة والمشاركة فى هذه المهمة العسيرة الخطيرة - لا يصحبون ولا يشاركون فى هذا الفتح القريب ( فتح خيبر ) ( الذى وقع فى شهر محرم الحرام عام ٧ هـ ) ، ويقول الله تعالى : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم ، يريدون أن يبذلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا ، كذلك قال الله من قبل ، فيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾<sup>(٢٦)</sup> .

ثم قيل بعد ذلك لهؤلاء المخلفين أنه لا يؤذن لكم بالمشاركة فى الفتح القريب ( فتح خيبر ) والاستمتاع بمغانمه ، ولكنكم ستدعون إلى حرب مع أناس أولى بأس شديد ، من صفاتهم أنهم أصحاب قوة وشجاعة وبأس ، ومن خصائصهم أنهم إما أن يقاتلوا أو يدخلوا فى الإسلام ، وليس هناك حل وسط (كالجزية مثلاً ) وأن هذه الدعوة والنداء إلى هذه الحرب والقتال يكون لها من الحب والقبول عند الله - تعالى - وأن الداعى إليها يكون له

(٢٣) إزالة الخفاء ج : ١ ص : ٢٠ .

(٢٤) أيضاً : ج : ١ ص ٢٣ .

(٢٥) سورة الفتح : ١٨ .

(٢٦) سورة الفتح ، الآية : ١٥ .

من الوزن والاعتبار ، ويكون له من وجوب طاعته على الناس أنكم إذا قبلتم دعوته ، وأطعتموه يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن توليتم وانصرفتم كما توليتم من قبل يعذبكم الله عذاباً أليماً ، يقول الله - تعالى - .

﴿ قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾<sup>(٢٧)</sup> .

يقول الإمام الدهلوى : « يثبت من قوله - تعالى - « استدعون بالاعتناء أنه يكون في المستقبل داع يوجه الدعوة للأعراب ( سكان البادية الذين لم يخرجوا مع الجيوش الإسلامية بمناسبة صلح الحديبية ) إلى حرب مع قوم ليس لها إلا صورتان اثنتان : إما القتال أو الإسلام ، ( ولا يصدق ذلك إلا على المرتدين ممن قبائل العرب الذين لم يكن يحل أخذ الجزية منهم ، فهم إما أن يقاتلوا فيقتلوا في الحرب أو يسلموا ويعودوا إلى حظيرة الدين ) ولم يتحقق هذا إلا في عهد أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - الذى قاتل المرتدين من العرب وكان حكمهم الشرعى ذلك لا غير ، وليس من الممكن أن يراد به الروم ولا الإيرانيون الذين كانت لهم ثلاث صور ، إما القتال أو الجزية أو الإسلام ، ويثبت بذلك - بداهة - خلافة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - الذى بعث جيوشه تحت قيادة سيف الله خالد بن الوليد - رضى الله عنه - لمقاتلة هؤلاء المرتدين ، ووجه الدعوة إلى الأعراب ، ثم إن الوعد بالأجر الحسن على قبول هذه الدعوة ، والوعيد بالعذاب الأليم على الإعراض عنها ، ليس إلا حق الخليفة الراشد ومنصبه ومكانته<sup>(٢٨)</sup> .

### محتويات قيمة أخرى فى الكتاب :

ويشتمل هذا الكتاب - علاوة على الأدلة والبراهين على إثبات خلافة الخلفاء الراشدين ، وذكر مناقبهم ومآثرهم وإنجازات عهودهم ، ومجموعة قيمة صالحة من كلماتهم

(٢٧) سورة الفتح ، الآية : ١٦ .

(٢٨) انظر للتفصيل إزالة الخفاء « ج : ١ ، ص : ٣٨ - ٣٩ ، وقد جاء تأييد هذا الاستدلال فى تفسير العلامة شهاب الدين محمود الألوسى ( م ١٢٧٠ هـ ) المعروف بـ « روح المعانى » ، يقول الألوسى : « المراد بالمغانم مغنم خير كما عليه عامة المفسرين « استدعون إلى قوم أولى بأس شديد » وهم على ما أخرج ابن المنذر والطبرانى عن الزهرى : بنو حنيفة ، مسيلمة ، وقومه أهل ليمامة ، وعن رافع بن خديج : إنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم ، حتى دعا أبو بكر - رضى الله عنه - إلى قتال بنى حنيفة ، فعلمنا أنهم أريد بها ، وشاع الاستدلال بالآية على صحة إمامة أبى بكر - رضى الله عنه » ( روح المعانى ، ص : ١٠١ - ١٠٤ ) .

وتوجيهاتهم - على فوائد غالية وتحقيقات نادرة ، ونكات لطيفة ومواد قيمة لا تتوفر في كتب العقائد وعلم الكلام - بصفة عامة - ولا في كتب التاريخ والسير ، منها تحديد القرون الثلاثة<sup>(٢٩)</sup> ، وبيان الفرق بين الخلافة والملك ، وتفصيلهما<sup>(٣٠)</sup> وشرح « الملك العضوض » ، والتصريح بأن دولة بني أمية وسلطتهم المطلقة لم تكن خلافة ، وهو وإن كان يرى أن الخلافة الراشدة انقضت على سيدنا علي - رضى الله عنه - لكنه يتجنب الطعن والوقية وإساءة الظن بسيدنا معاوية - رضى الله عنه - وينصح به ، بناءً على ما ورد في فضله ومناقبه من أحاديث وآثار<sup>(٣١)</sup> ، أما خلفاء بني أمية بعده فيقول في حقهم - بكل صراحة - :

« لما تسلط عبد الملك ( بن مروان ) على الحكومة زالت الفوضى والاضطراب وظهرت أمور الخلافة الجائرة - التي بينها الرسول - ﷺ أحاديث متعددة - على مسرح الوجود<sup>(٣٢)</sup> .

ومن خصائص هذا الكتاب احتواؤه على مادة زاخرة في المنهج الفقهي لسيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - وفتاواه وأحكامه وأقضيته ، وقد تكون منها وظهر « فقه الفاروق » - رضى الله عنه -<sup>(٣٣)</sup> .

ولعل هذه الخطوة نحو عرض « فقه الفاروق » - رضى الله عنه - بصورة متميزة فريدة ، وجمع اجتهاداته وأقيسته وفتاواه كانت الخطوة المباركة الأولى التي أنجزها الإمام الدهلوى مع أولياته وسوابقه العديدة ، لم يؤلف - إلى الآن - فى هذا الموضوع أى كتاب مستقل جامع ، إلا أن الدكتور محمد رواس قلعه جى رتب كتاباً ضخماً كبيراً باسم « موسوعة عمر بن الخطاب » - رضى الله عنه - قامت بنشرها مكتبة الفلاح بالكويت ويشتمل الكتاب على ٦٨٧ صفحة من القطع الكبير .

---

(٢٩) إزالة الخفاء ، ج : ١ ، ص : ١٢١ - ١٢٢ .

(٣٠) أيضاً ج : ١ ، ص : ١٢٦ .

(٣١) أيضاً ، ص : ١٤٦ ج : ١ .

(٣٢) أيضاً ، ص : ١٤٣ ، ج : ١ ، ويقول المؤلف عن يزيد بكل صراحة « دعاة الضلال يزيد بالشام ، ومختار بالعراق » ( حجة الله البالغة ) ج : ٢ ، ص : ٢١٣ وكذلك وصفه فى بحث المناقب بقوله « كان منافقاً أو فاسقاً » ص : ٢١٥ .

(٣٣) راجع « إزالة الخفاء » ، ج : ٢ ، ص : ٨٥ - ١٤٢ .

ومع إثبات خلافة الخلفاء الراشدين - رضى الله تعالى عنهم أجمعين - وذكر فضلهم ومناقبهم ومآثرهم وخدماتهم العظيمة بإسهاب وتفصيل يتجلى فيه تذوق الإمام الدهلوى للموضوع وحماسه واندفاعه نحو الإشادة بجليل أثرهم ، والذي كان تلبية لحاجة ماسة كانت من مقضيات عصره ومن العوامل والدوافع القوية إلى تأليف هذا الكتاب ، لم يتحفظ الإمام الدهلوى فى ذكر مناقب سيدنا على بن أبى طالب وجلائل أعماله ومآثره ، ولم يضمن فى ذلك بشيء ، بل يذكر سيدنا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - بكل حب وإجلال واعتراف بحقوقه ومكانته الجليلة وعواطف الحب والشوق نحو أهل البيت الكرام ، بتفصيل وإفاضة ، وقد بدأ مناقب سيدنا على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ومآثره بقوله :

« مآثر أمير المؤمنين وإمام الأشجعين أسد الله الغالب على بن أبى طالب - رضى الله عنه - .

كذلك يذكر السيدين الحسن والحسين - رضى الله تعالى عنهما - بحب وإجلال وإكبار، ويعد فى الوقائع الهائلة العظيمة بعد وفاة النبي ﷺ شهادة سيدنا عثمان - رضى الله عنه - الفتنة الأولى التى وقعت فى الإسلام<sup>(٣٧)</sup> ، وشهادة بضعة الرسول - سيدنا الحسين - رضى الله عنه - الفتنة الثانية ، وأورد حديثاً من مشكاة المصابيح برواية البيهقى ، يفيد أن نسبة سيدنا الحسين - رضى الله عنه - إلى الرسول ﷺ كنسبة مضغة اللحم إلى الجسم ، وأن نبي الله ﷺ قد تنبأ باستشهاد سيدنا الحسين - رضى الله عنه - على أيدي أفراد من أمته<sup>(٣٨)</sup> .

وقد عد من هذه الفتن واقعة الحرة العظيمة ، التى انتهكت فيها حرمة المدينة المنورة فى عهد يزيد ، ووقع من القتل والنهك والسلب ما يندى له الجبين وتعرضت المدينة وأهلها للامتهان والذلة وانتهاك الحرمات<sup>(٣٩)</sup> ، وقد انتقد الإمام الدهلوى بنى أمية فى مواضع كثيرة من الكتاب ، وهكذا جاء الكتاب<sup>(٤٠)</sup> ميزاناً عادلاً وسطاً ، لا يميل نحو الإفراط ولا التفريط ، وهذا هو شعار أهل السنة ولجماعة ، وموقفهم المتزن الصحيح .

(٣٧) انظر « إزالة الخفاء » ج : ١ ، ص : ١٥٤ .

(٣٨) إزالة الخفاء ، ج : ١ ، ص : ١٥٤ .

(٣٩) أيضاً .

(٤٠) أيضاً ص : ١٥٤ - ١٥٥ .

## الدلالة على الفتن والتغيرات الحادثة بعد وفاة النبي ﷺ :

إن من أكبر خصائص هذا الكتاب أنه تتجلى فيه صورة بارزة مجسدة لتاريخ الإسلام الديني ، والتغيرات الدينية والعقلية والفكرية التي طرأت عليه ، إن كتب التاريخ العلمى والسياسى كثيرة لا تحصى ، ولكننا لا نعثر على كتاب يشير إلى معالم التغيرات الخلقية والعلمية والعقلية فى أثناء تسلسل التاريخ المدنى والسياسى للإسلام ( مهما كانت هذه التغيرات الحادثة خفيفة قليلة باهتة اللون لا تكشف إلا بمجهر المعرفة الدقيقة للطبيعة الإسلامية ) ، وكل ما يوجد فى عامة الكتب بهذا الصدد لا يعدو مادة متفرقة منتشرة ، ولم يختار أحد من المؤلفين هذا الموضوع عنواناً لبحثه المستقل ، أما الإمام الدهلوى فإنه يذكر الفتن الحادثة فى القرون المشهود لها بالخير ، والفتن التى حدثت بعده<sup>(٤١)</sup> ، واختلاف الأحكام بين خير القرون وشر القرون<sup>(٤٢)</sup> ، والتغيرات الفكرية والمعنوية التى طرأت ضمن التعبيرات الكلية التى وقعت فى عهد الرسالة ، وبعد خير القرون ، وقد جاءت عناوين هذه المباحث كما يلى :

« ظهور الكذب » ، التعر والمغالاة فيما تعلق بقراءة القرآن الكريم وتجويدة ، الاكتفاء بقراءة القرآن الكريم وتلاوته ، وقلة التدبر والتفقه فيه ، التعيير وشق الشعرة فى المسائل الفقهية ، البحث والجدال فى المسائل الفرضية التى لم تقع أصلاً ، تأويل متشابهات القرآن وإبعاد النجعة فيه ، توليد الأسئلة الطريفة فى العقائد والإلهيات ، إحداث الأوراد والأحزاب بنية التقرب إلى الله - تعالى - التى لا توجد فى السنة المأثورة بالمستحبات كالإلتزام بالواجبات ، انقراض الشورى الاجتماعية ، ومراجعة العلماء الصالحين فى الإفتاء ، نشوء فرق جديدة كالقدرية والمرجئة وغيرهما ، رفع الثقة المتبادلة بين المسلمين وعدم أمن بعضهم بعضاً ، سيطرة أولئك على الدولة الذين لا يتأهلون لها أصلاً ، أو هم من رجال الدرجة الثانية أو الثالثة ، الكسل والتوانى فى إقامة أركان الإسلام<sup>(٤٣)</sup> .

### ظهور الكتاب ونشره :

طبع هذه الكتاب - لأول مرة - بإشارة من الشيخ جمال الدين خان وزير بوفال ، وبعناية الشيخ محمد أحسن الصديقى عام ١٢٨٦ هـ بالمطبع الصديقى ببريلى ، وكن عنده

(٤١) أيضاً ، ص : ١٢٢ .

(٤٢) أيضاً ، ص : ١٣٦ .

(٤٣) أيضاً ، ص : ١٣٣ ، ج : ١ .

ثلاث نسخ من الكتاب ، قام بالمقابلة بينها وتصحيحها ، نسخة الشيخ جمال الدين بوفال ، ونسخة ثانية للشيخ أحمد حسن الأمروهي ونسخة ثالثة للشيخ نور الحسن ، وهناك من القرائن ما يدل على أن المؤلف الإمام لم يعد النظر في الكتاب .

وصدرت الطبعة الثانية للكتاب من أكاديمية سهيل باكستان ، عام ١٣٩٦ هـ الموافق ١٩٧٦ م ، وهي صورة للطبعة الأولى<sup>(٤٤)</sup> ، ونقل الكتاب إلى العربية بعناية المجلس العلمي بداهيل ، ولكنه لم ينشر في العالم العربي كما ينبغي ، ونقل إمام أهل السنة الشيخ عبد الشكور الفاروقى اللكنوى هذا الكتاب إلى الأردية ، ولكن هذ الترجمة تنتهى إلى الفصل الخامس ، وأسماها بـ « كشف الغطاء عن السنة البيضاء » ويشمل ما طبع منها على ٣٣٦ صفحة ، وتم طبعها فى عمرة المطابع بلكهنؤو عام ١٣٢٩ هـ .

---

(٤٤) وكانت هذه الطبعة بين أيدينا عند كتابة هذا الباب وقد أجلنا فيه إلى صفحاتنا .





## الباب التاسع

### الفوضى السياسية ودور الإمام الدهلوى القيادى فى عهد احتضار الدولة المغولية

ثلاث قوى مقاتلة ناشئة :

لقد تقدم فى الباب الثانى من الكتاب أن الهند - فى القرن الثانى عشر الهجرى - كانت قد بلغت من الانحطاط السياسى والإدارى والخلقى ، وفساد النظام وملوك الطوائف والقلق والاضطراب ما يصح أن يعبر عنه بحالة احتضار لأى مجتمع ونظام ، لقد أصبحت الدولة المغولية رمزا للسلطة الطويلة القوية لأسرة مسلمة حاكمة ، ولم تعد وراءها قوى مساندة ولا إدارة حازمة ولا هممة عالية .

وكانت هناك عندئذ - فى ظاهر الأمر - ثلاث قوى مقاتلة ناشئة تتحكم لا فى مصير الدولة المغولية فحسب بل فى مصير البلاد كلها ، وهى كما يلى : المرهتة ، السيخ ، والجات ( الزط ) .

#### المرهتة :

لقد تحولت المرهتة - الذين كانت تنحصر نشاطاتهم وتحركاتهم فى الجنوب ( دكن ) وكان شأنهم شأن فريق المحتجين المتظاهرين ( AGITATORS ) وشأن قوة حربية تشن حرب العصابات ( GUERRILLA ) ضد الحكومة المنظمة الشرعية - بسبب ضعف الحكومة المركزية الذى يزداد كل يوم ، ومنازعات القادة الطامحين الذين كانوا يجربون حظوظهم وقصر نظر الأمراء والولاء ( الذين كانوا يستنجدون بالمرهتة لإلحاق الهزيمة بأعدائهم ومناوئتهم أو إخضاعهم ) إلى قوة بارزة شاملة للهند كلها ، وظلت تحلم بالسيطرة على عرض دلهى ، وملا ذلك الفراغ الذى أحدثه ضعف القوة العسكرية المغولية ، وسوء إدارتهم وعدم جدارتهم .

وقد عزم « ملهار راؤ هولكر » و « ركوناتهراؤ » عام ١١٧٠ هـ الموافق ١٧٥٦ م (١) على السيطرة على شمال الهند ، وحملا بمعونة الزط على دلهى عام ١١٧١ هـ الموافق ١٧٥٧ م واضطر نجيب الدولة إلى المصالحة ، ثم توجهها إلى بنجاب ، التى كانت بابا لتلك

(١) قبل وفاة الإمام الدهلوى بـ ٥ - ٦ سنين .

المنطقة الحربية الخطيرة التي لم يزل يدخل منها الفاتحون إلى الهند ولم تكن قد خضعت من قبل لأى قوة غير إسلامية ، واستوليا فى أبريل عام ١٧٥٨ م على لاهور ، وعينا « آدينه بيغ » من قبلهما حاكما لبنجاب ، ثم وليا - بعد وفاة آدينه بيغ - سباجى سندهيا ، حكم بنجاب .

وقد دخل المرهته بإشارة من صفدرجنك ( الوزير الشيعى ) ومناصرتة إلى « دوابه » (٢) - التي كانت مركزا لأولئك العلماء والمشايخ الذين كانت تتجمل بهم دلهى نفسها - ثم قرر داتاجى سندهيا عام ١١٧١ هـ بعد مقدمه من دكن أن يفتح الهند كلها ، وتوجه أولا إلى «روهيلكهند» و «أوده» عام ١٧٥٨ م ، وعبر نهر «جمنا» بهذه النية ، وفى عام ١١٧٢ هـ الموافق ١٧٥٩ م عندما كان النهر يمكن العبور منه ، أمر «كوبندر رائى بنديله» بعبور النهر مع عشرين ألفاً من الجنود إلى «روهيلكهند» الذى قام بعد نزوله من «رام كنكا» بالتهب والسلب فى البلاد إلى مدينة «أمروهه» - التي ليست على مسافة طويلة من دلهى - .

ودخل المرهته ٢٤ / يونيو عام ١٧٦٠ م ( الموافق ٩ / ذى الحجة عام ١١٧٣ هـ ) فى دلهى عاصمة البلاد ، وأسلم إليهم يعقوب على خان حارس القلعة ، وفوض «بهاؤ» حراسة القلعة إلى «شنكرراؤ» الذى خلع السقف الفضى للديوان الخاص ( البلاط الخاص للملك ) وأرسل به إلى دار الضرب ، وأخذ كل ما كان من أثاث الذهب والفضة فى ( قدم شريف » ورباط الشيخ نظام الدين أولياء وعزل شاهجهان الثانى فى ١٠ / نوفمبر عام ١٧٦٠ م الموافق ٢٩ / صفر عام ١١٧٤ هـ وأجلس مرزا جوان بخت ابن الشاه عالم على العرش ، وكان يريد أن يتربع على العرش التيمورى ، وكان ذلك بوسعه إلا أن عقلاء جيشه أشاروا عليه بالكف عن هذا العزيمة لأنها تثير فتنة وفوضى فى البلاد ، ولا تتحمل الرعية جلوس أى قائد من قادة المرهته على العرش التيمورى - بيسر وسهولة - وقد اتسعت حكومة المرهته - حينئذ - ما لم تتسع من قبل ولا من بعد ، فقد كانت حدودها الشمالية تصل إلى «أتك» وجبال هماليا ، وفى الجنوب كانت تمتد هذه الحكومة إلى الطرف الأخير من شبه جزيرة دكن أى إلى حدود سواحل البحر ، والمناطق التي كانت حرة مستقلة داخل هذه الحكومة ، كانت تؤدى لها الخراج ، وقد كان لديها قادة عسكريون محنكون كما كان عندها جيش افرنجى مدرب مكون من عشرة آلاف نسمة ، وكان جيشها فى حرب «بانى بت» مكونا من خمسين ألف من الركبان، وخمسة عشر ألف

---

(٢) وهى المناطق الواقعة بين نهري كنكا وجمنا .

من الرجال ، وكان فيه مائتا مدفعية ( عدا المدافع المحطمة للقلاع ) وقد صحبهم وتعاون معهم جيش الراجبوت كذلك ، وهكذا كان مجموع عدد الجيش الذي كان يقاتل تحت لوائهم وفي قيادتهم ثلاثمائة ألف مقاتل .

ولكن رغم كل ذلك لم تكن طبيعة المرهته طبيعة ملوكية تشعر بمسئوليتها ، وفي تعبير أحد المؤرخين الهنود « لقد كانوا أنصاف ملوك وأنصاف قطاع الطرق »<sup>(٣)</sup> وقد كان فقدان الشفقة منهم على الرعايا والاهتمام بهم ومواساتهم والتقاليد الوراثية القديمة للحفاظ على الأنفس والأرواح والأموال والأعراض ( التي كانت تحمي السلاطين والملوك الجبابرة - إلى حد ما - رغم كبريائهم وأنانيتهم وكانت تأخذ بزمامهم ) وكذلك فقدان الخلفية (BACK GROUHD) التاريخية الرائعة ، والأهداف السياسية البناء الواضحة ، وفوق كل ذلك عواطفهم الجامحة نحو إحياء الديانة الهندوسية وحضارتها (HINDUREVIVALISM) أحدث فيهم عنفا وإرهابا ، وتسرعاً في الأحكام وقلة مسامحة ومراعاة ، فكانت أموال النهب والسلب والحرص عليها والشغف بها من أدوائهم ومواقع ضعفهم القومية .

وقد تأثر المسلمون والهنادك جميعاً بفوضى المرهته وغاراتهم ، فكانت الغارات الوحشية على القرى ، وأعمال النهب والسلب بقسوة وعنف ، وقطع أيدي الناس وأرجلهم وأنوفهم أمراً عادياً . وكانت النساء - بغض النظر عن دينهن وجنسيتهن - تتعرض لوحشيتهم ونزواتهم الشهوانية ، وكانوا يتجاوزون في ذلك كل الحدود ويتظاهرون بأعمال وحشية بهيمية ، وقد أبدى شاعر بنغال المعروف « كنكا رام » مثل هذه الانطباعات ، وهو يعلق على غاراتهم وحملاهم على بنغال<sup>(٤)</sup> .

وقد أبدى المؤلفون البرتغاليون حيرتهم وعجبهم على أفاعيل المرهته التي يتندى لها جبين الحياء<sup>(٥)</sup> ، وقد كان لسيطرة المرهته وسلطتهم آثار اقتصادية سيئة على الناس ، وحسب تصريح الشيخ غلام علي آزاد البلكوامي : أنهم ينوون - إلى حدود قدرتهم واستطاعتهم - أن يسدوا أبواب الرزق على الناس ويحكموا قبضتهم على جميع وسائل المعيشة ، وكان المرهته يجربون من تلك المناطق البعيدة النائية التي كانت تحت حكمهم وسلطاتهم ربع

(٣) تاريخ هندوستان ( تاريخ الهند ) للشيخ ذكاء الله الدهلوي ج : ٩ ، ص : ٣٠٤ .

(٤) انظر للتفصيل كتاب ( FALL OF THE MOGHAL EMPIRE P . 87 ) تأليف جادوناته

سركار .

(٥) PISSURLLEN : PORTUGUESES , 11 , P . 49 .

حاصلاتهم وغللاتهم (٦).

ولم تقف غارات المرهته عند الحدود العسكرية واستغلال الجماهير ، بل لقد كانت مؤسسة على إحياء الديانة الهندوكية وإقامة حضارتها من جديد ، يقول ماونت رستوارت الفنستن ( حاكم ولاية بمباي ) في تاريخه للهند عن « شيواجي » القائد الأول لهذه الحركة :  
« لقد اختمرت طبيعته وتربت على العصبية الهندوكية . . . ولأجل هذه الطبيعة المستحكمة فيه كان يكره المسلمين وتقاليدهم وطقوسهم كراهية شديدة ، ويحب الهندوس ويرغب في رسومهم وتقاليدهم رغبة شديدة ، وكان هذا الموقف منه يزداد - كل يوم - شدة ، وقد وافقت هذه الطبيعة فيه تدبير الشئون الملكية حتى تصور بصورة الرهبان والمشايخ الهنادك ، وادعى كرامات الأولياء المؤلهين وألطف الآلهة المعبودين (٧) .

لقد حاول المرهته قبل المعركة الحاسمة في ساحة « بانى بت » واستشعاراً منهم لدقة الأوضاع وخطورتها عن طريق النواب شجاع الدولة ( الذى كان يحمل فى قلبه شيئاً من التعاطف مع المرهته من قبل ذلك ) أن توقع الهدنة مع الشاه الأبدالى ، وما رد به شجاع الدولة - بناءً على هذه التجارب المتواصلة والحقائق المرة - عليهم يلقى ضوئاً كاشفاً على طبيعة المرهته القومية وتأثير فتوحهم وانتصاراتهم ونتائجها ، لقد كان رد النواب شجاع الدولة أن قال :

« إن براهمة الدكن يسيطرون على الهند منذ مدة طويلة ، وقد نزلت على رؤوسهم - بسبب شدة حرصهم وطمعهم وغدرهم ونكثهم للعهود - هذه البلية من الشاه الدراني ، فكيف يصلح مع هؤلاء الذين لا يراعون إلا ولا ذمة ، ولا يحافظون على عرض ولا عافية ، ويرون أن جميع الأشياء ملك لهم ولقومهم ، وقد قلق الناس وضجروا على ما لقوا منهم حتى ألحوا - لحفظ أعراضهم ومكانتهم ورفاهية الخلق وأمنهم - على الشاه الأبدالى ، ودعوه من بلاده ، وأرأوا حملاته ونكاياته أهون عليهم وأسهل من إيذاءات المرهته ونكاياتهم » (٨) .

(٦) كل أول من جبي ربع الحاصلات شيواجي ، وكانوا يأخذون ذلك من الولايات الأخرى مقابل حمايتهم وعدم الغارة عليهم ، على حين كانوا يأخذون من الفلاحين فى مملكتهم ٣٠ ٪ من حاصلاتهم وقد زاد ذلك أخيراً إلى ٤٠ ٪ من حاصلاتهم .

(٧) انظر تاريخ هند ، ص : ١٠٤٠ ( طبع عام ١٨٦٧ م عليكراه ) .

(٨) تاريخ هندوستان ( تاريخ الهند ) ، ج : ٩ ، ص : ٣٠٥ .

وأخيرا لقيت المرهته هزيمة نكراء بتاريخ ١٤ / يناير عام ١٧٦١ م الموافق ٦ / جمادى الآخرة ١١٧٤ هـ فى ساحة بانى بت على أيدي القوة الموحدة لجيوش أحمد شاه الأبدالى الأفغانية ، وجنود النواب نجيب الدولة الروهيله وجيش النواب شجاع الدولة ، وكما يقول أحد المؤرخين : « لقد طارت قوة المرهته فى لمحة البصر كالكافور » ، وسوف تأتى التفاصيل الأخرى لهذه الحرب الحاسمة وعوامل مقدم أحمد شاه الأبدالى وخليفته ، والتي غيرت مجرى التاريخ ، فى صدد ذكر مآثر الإمام الدهلوى القيادية فى الصفحات التالية .

الشيخ :

لقد كانت الشيخ فرقة دينية فى بنجاب ، وضع أساسها فى القرن الخامس عشر المسيحى على أيدي « كروبابانانك » ( ١٤٦٩ - ١٥٣٩ م ) الذى كان يقوم بنشر تعاليمه الخلقية ويحث على الصدق وتهذيب النفس ، وكان قد قرأ - حسب تصريح « سير المتأخرين » - اللغة الفارسية والمبادئ الدينية على الشيخ السيد حسن ، وكانت له به عناية خاصة<sup>(٩)</sup> وقد قم القائد الثالث للشيخ ، أمرداس « بالخطوة الأولى فى صدد التنظيم الدينى والاجتماعى للشيخ ، وزاره الملك أكبر فى بيته ، وأقطعه أرضا واسعة كبيرة ، وقد حافظ هو على روح تعاليم « كرونانك » فى تعاليمه الخلقية ، وعارض أوهام الهنادك وخرافاتهم ولا سيما تقليدهم المعروف بـ « ستى » - وهو انتحار الزوجة على موت الزوج - وأصدر أوامره بزواج الأيامى ، وأقطعه الملك أكبر عام ١٥٧٧ م أراض واسعة ، وفى عهده قام مركزهم الدينى فى « أمرتسر » وهكذا تكون مركز روحى دينى لحياة الشيخ الاجتماعية .

وخلف كروارجن والده عام ١٥١٨ م ، وقد بذل مزيدا من الجهود والمحاولات لتنظيم الشيخ كفرقة مستقلة ، ودون « كرنته » - الكتاب المقدس لديهم - ولقب كروارجن نفسه بالملك الصادق ، الذى يشير إلى حرصه على السلطة السياسية وقد اعتقل كروارجن بأمر الملك جهانكير بلاهور ، لأنه كان قد تعاون مع ابنه الأمير خسرو الذى كان خرج علينا ، وأهدى إليه الأموال، وقتل فى الحبس<sup>(١٠)</sup>، واختار خلفه «هركووند» طريق الدفاع والمقاومة

---

(٩) تفيد بعض الروايات التاريخية أن باباكرونانك جالس عددا من الدراويش والصوفية المسلمين وصحبهم مدة من الزمن ، نخص بالذكر منهم : بير جلال ، وميان متها ، والشيخ شرف الدين ، والشيخ فريد الثانى ، والشيخ إبراهيم ، كما تفيد بعض الروايات الأخرى أن بابانانك زار بغداد والحرمين الشريفين ، وكانت له صلة خاصة بـ « باك بتن » مدفن الشيخ الكبير فريد الدين الأجودهنى .

(١٠) وقد ثبت تاريخيا أن الذى أشار على جهانكير لقتله هو أحد الأمراء الهنادك « جند ولال » الذى كان يتمتع بنفوذ على الإمبراطور ، وذلك لغرض شخصى .

العملية ، وبذلك بدأت حياة السيخ العسكرية ولم يلبث أن تبوأ المنصب الملوكي ، وقد كان يحمل عواطف العداة والكراهية ضد الملك جهانكير ، ويلقى عليه تبعة قتل والده ، وقد بنى قلعة حصينة فى « هركوونديبور » وكانوا يغيرون على المناطق السهلية ، وحبسه جهانكير فى قلعة كواليار ، ثم أطلق سراحه بعد مدة قليلة ، وأكرمه وأبدى به حفاوة بالغة ، وخرج فور جلوس السلطان شاه جهان على العرش على الدولة ، وقام بالثورة علنا وجهارا ، ولجأ أخيرا إلى الجبال ومات هناك عام ١٦٤٥ م .

واختير تيغ بهادر ابن هركووند قائدا عام ١٦٦٤ م فى عهد أورنك زيب ، الذى أعطى حق اللجوء للفارين والخارجين على قانون البلاد ، وقد حالت سلطة هؤلاء دون رقى البلاد<sup>(١١)</sup> ، فزحفت إليها الفرق العسكرية الملكية ، واعتقلته وجاءت به إلى دلهى حيث حكم عليه بأمر الملك أورنك زيب بالإعدام عام ١٦٧٥ م<sup>(١٢)</sup> ، وعين بعد قتله ابنه « كووند رائى » قائدا ، وهو الذى حول فرقة السيخ - التى كانت فى البداية جماعة دينية محضة - إلى شعب مسلح مقاتل ، وأثار فيهم عواطف المساواة وعمل - جهده - على تنظيمهم فى صورة شعب مستقل ، ولم يزل على قيد الحياة إلى وفاة الملك أورنك زيب ، وحاول خلف أورنك زيب الملك بهادر شاه أن يتفاهم مع « كووند رائى » ويصالحه ، وولاه قيادة الجيش بدكن ، ولكنه مات على يدى موظف أفغانى بجرح لم يبرأ منه فى أكتوبر عام ١٧٠٨ م ولم يرشح بعده أى واحد لخلافته ، وأوصى أتباعه أن يعتقدوا « كرنته » - الكتاب المقدس لديهم - قائدهم ، ويعتبروا الله - تعالى - وحده نصيرهم وحارسهم .

وخلف « هركووند » « بنده بيراكى » الذى كان - فى الحقيقة - قائدا عسكريا للسيخ وكان هو - أصلا من الراجبوت الكشميريين ، وقد اعتنق ديانة السيخ - فبدأ فى بنجاب عمليات النهب والسلب وقطع الطريق ، فى نطاق واسع ، وكانت الدولة المغولية بعد وفاة الملك أورنك زيب تسير - بسرعة - نحو السقوط والإنهيار ، ونشبت حروب متواصلة بين أبناء وأحفاده على عرش البلاد ، أتاحت الفرصة للسيخ أن يضاعفوا قوتهم - علنا - فكان « بنده بيراكى » يعمل السيف فى الألوف من المسلمين ويقتلهم بقسوة ووحشية ويدخل القرى وينهبها حتى وصل إلى قرب دلهى ، وأغار فى مايو عام ١٧١٠ م على سرهند ،

---

(١١) انظر A HISTORY OF THE SIKHS GUARD , 1918 . P . 64 لمؤلفه : J . D . CUNNINGHAUM .

(١٢) ليست تبعة قتل القائد تيغ بهادر على السلطان أورنك زيب وحده ، بل فيه يد لمخالفيه ومعارضيه الهنادك أيضاً ( انظر نهك سنك سنديس ٢٥ ديسمبر عام ١٩٥١ م ) .

وفتح أبوابها للقتل والنهب والسلب ، وعامل سكان القرية - من دون تمييز بين صغير وكبير وقوى وضعيف - بظلم فظيع وقسوة رهيبة ، وتوجه بهادر شاه إلى بنجاب ، وهزمت الجيوش السلطانية بنده بيراكى ، ولكنه لجأ إلى الجبال ، ثم قام مستغلا الفوضى السياسية والحروب الأهلية بين الأسرة الملكية بعد جلوس فرخ سير على عرش البلاد بالعنف والإرهاب مرة ثانية ، وأخيرا جيء به إلى دلهى عام ١٧١٦ م وقتل هناك ، ولم تكن له شخصية محترمة محببة لدى الشيخ أنفسهم ، وقد أحدث تغييرات طفيفة فى عقائد الديانة السيخية وعباداتها وأصبح الشيخ تحت قيادته قوة عسكرية ، واستمر الحاكم المغولى معين الملك بينجاب ( الذى يعرف بميرمنو ) فى عهد الملك فرخ سير ، على سياسته التعزيزية ، ولكن سقوط الدولة المغولية كان يسير بخطى حثيثة ، وكانت قد ضعفت حكومة بنجاب وتضععت نتيجة حملات أحمد شاه الأبدالى المتكررة ، وسنحت الفرصة مرة ثانية لقيام الشيخ ونهوضهم ، ولم ينجحوا - هذه المرة - فى إخراج ابن أحمد شاه الأبدالى الأمير تيمور - الذى كان والى بنجاب حينئذ - والذى هدم « هرمندر » - أقدس معابدهم - وملا البركة المقدسة لديهم بالإنقاض والركام - فحسب ، بل استولوا كذلك - مؤقتا - على لاهور ، وضربت باسم قائدهم « جسا سنغ كلال » العملة ، إلا أنهم اضطروا للخروج من لاهور بمقدم المرهته إليها عام ١٧٥٨ م تحت قيادة « ركهوبا » وتوجه أحمد شاه الأبدالى إلى بنجاب للمرة الخامسة ، وبعد حرب « بانى بت » التى قصمت ظهر المرهته فور ما غادر بنجاب إذا بالشيخ عادوا للثورة والخروج ، واستعادوا مملكتهم المفقودة ، وعاد أحمد شاه وهزم الشيخ فى « لدهيانه » عام ١٧٦٢ م هزيمة نكراء ، ولكن الشيخ بعد مغادرته عام ١٧٦٣ م أغاروا على سرهند ، ودمروها وخربوها ، واستولوا على لاهور مرة أخرى وأعلنوا قيام حكومة « خالصة » ثم تفرق الشيخ بعد ذلك فى مختلف الولايات وانقسموا إلى مختلف الفرق التى كانت تدعى « مسلين » ولم يكن هناك حاكم أعلى يحكمهم ، ولم يبق لديهم أمر مشترك إلا دينهم ، وبعد ثلاثين عاما من هذه الأوضاع المضطربة علا فى بنجاب نجم رنجيت سنغ الذى نظم هذه الفرق المختلفة فى صورة دولة مستقلة ووحد صفوفهم .

لقد كان هدف ديانة الشيخ تصحيح العقائد الدينية فى الهنادك وما من شك فى أن «بابانانك» كان متأثرا بالتعاليم الإسلامية ، ولذلك فإن عقيدته فى التوحيد ، ومساواته بين الناس واجتنابه عبادة الأصنام والأوثان وغيرها كل ذلك من آثار الإسلام ونتائجه<sup>(١٣)</sup> .

(١٣) انظر جب جى - و MACAULFFE ، ج : ٢ ، ص : ٣٤٧ .

وقد أثرت اللغة الفارسية على لغة الأدب الديني عند الشيخ تأثيرا بالغا ، لا سيما « ادى كرنته » - من الكتب المقدسة لديهم - يتجلى فيه تأثير الألفاظ الفارسية ، والإسلامية والمصطلحات الدينية والصوفية إلى حد كبير<sup>(١٤)</sup> .

وقد كانت هناك من القرائن ما يتوقع بها أن تقوم هذه الحركة الإصلاحية - إذا كانت متمسكة بأصولها ، ولم تذب في الديانة الهندوكية وحضارتها - بخدمة ثورية كبيرة ، وظلت الشيخ فرقة مستقلة متميزة عن الهنادك ، تقوم على أساس التوحيد للرب والمساواة بين الناس ، وكانت بذلك فرقة قريبة إلى المسلمين ، ولكن صدامها مع الحكومات المعاصرة ، ودورة الفعل ورد الفعل السياسى التى فقدت القلب والضمير والتى تحقق مصالح الجماعات ومقتضيات العصر بغض النظر عن النتائج الدينية والخلقية ، أورثت الشيخ البغضاء والكراهية لا للحكومات المسلمة فحسب بل لعامة المسلمين ووقفهم موقف الحرب والنضال ضد المسلمين ، وحولتهم - بصفة خاصة - فى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى والقرن الثامن عشر المسيحى إلى قوة إرهابية مخيفة مزلزلة لسكان المدن الكبيرة الآمنة ، وزيادة خطيرة فى القوى الهدامة المثيرة للاضطرابات فى الهند ، وقد تعرضت المساجد والمقابر فى عهد حكوماتهم - بصفة عامة - وفى عهد مهاراجه رنجيت سنغ - بصفة خاصة -<sup>(١٥)</sup> لانتهاك حرمتها ، ودوس كراماتها ووضعت عراقيل فى سبيل أداء العبادات ، ونشأ ذلك الوضع الحالك الذى عبر عنه الدكتور محمد إقبال فى بيت من شعره ، يقول فيه :

« لقد ذهبت « خالصة » بالسيف والقرآن ، وقضت على المسلمين والإسلام فى دولتها وسلطانها » .

وقد رفع ضد الوضع المكفهر فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى - تقريبا - وفى الثلث الأول من القرن التاسع عشر المسيحى - الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ( ش ١٢٤٦ هـ الموافق ١٨٣٠ م ) والشيخ إسماعيل الشهيد ( ش ١٢٤٦ هـ - ١٨٣٠ م ) اللذين كانا خريجي مدرسة الإمام الدهلوى وتربيا على أيدي ابنه الأكبر الشيخ عبد العزيز الدهلوى -

---

(١٤) اقتبسنا الجزء الأساسى من هذه المعلومات والمادة التاريخية من « دائرة المعارف الإسلامية » (الأردنية)، ج : ١١ ، من مقال « الشيخ » بقلم البروفيسور محمد إقبال .

(١٥) انظر للتفصيل الباب ١٧ من : « سيرة السيد أحمد الشهيد » (الأردنية) للمؤلف بعنوان « وضع المسلمين فى بنجاب » ص : ٤١٣ - ٤١٩ .



رفعا لواء الجهاد ضد حكومة رنجيت سنغ العسكرية ، وبدأ بذلك مخططهما الواسع والعميق ومهمتهما العظيمة التي قامت لتحرير الهند من السلطة الخارجية المستعمرة وتأسيس الحكومة الشرعية ، وإصلاح المجتمع المسلم وإحياء الدين وإظهاره<sup>(١٦)</sup> .

### الجات (الزط) :

لم تكن الجات فرقة منظمة كالمرهتة ، ولا فرقة دينية كالسيخ ، بل أن ضعف الدولة المغولية والفوضى السياسية والشعور بعدم حماية عامة السكان ، أنشأ فيهم تنظيما يقوم على أساس العنف والسلبية وأصبحوا قوة هدامة مثيرة للفتن والاضطرابات لم تكن تهدف إلى إقامة مملكة أو ثورة سياسية ، بل إلى مجرد استغلال للأوضاع المنحرفة وتحقيق للأغراض الاقتصادية .

يقول البروفيسور خليق أحمد نظامي في كتابه « الرسائل السياسية للإمام الدهلوي » :

« لقد كان الجات يسكنون المنطقة الجنوبية لجمنا من آكره إلى دلهي ، وكانت حدودهم في الشرق إلى جنبل » وقد بلغت ثوراتهم في هذه المنطقة أن ضاقت بهم الحكومة المركزية ذرعا ، وحسب ما يقول « سركار » : لم يكن هنالك مجال لقبول هذه الشوة الشائكة في شوارع دلهي وآكره<sup>(١٧)</sup> ، ( FALL , VOL I P , 369 ) وكانت المواصلات بين دلهي وآكره تسير بحيطه بالغه وحذر كبير ، وكانت الجيوش التي تقصد دكن عن طريق أجمير ، تمر بهذه المنطقة .

ولما مر الممثلون الهولنديون بهذه المنطقة عام ١٧١٢ م شاهدوا هذه الاضطرابات والثورات ( LATER MUGHALS , I . P 321 ) .

وقد مر جان سر من ( JOHN SURMAN ) عام ١٧١٥ م بهذه المنطقة ، وسجل في مذكرته أعمال الجات المهددة للأمن والسلام ( ORME COLLECTIONS, P,1694 ) .

وقد قام الجات في عهد شاه جهان بثورة عارمة ، وقتل عام ١٠٤٧ هـ الموافق ١٦٣٧ م مرشد قلى خان قائد الجيش بمتھرا على أيديهم في حرب معهم .

يقول سرجاد وناتھسر كار في كتابه « تاريخ أورنك زيب » ج / ٥ ، ص / ٢٩٦ :

(١٦) انظر « سيرة السيد أحمد الشهيد » ( الأردية ) ج : ١ - ٢ .

(١٧) هما مدينتان رئيستان تبادلتا كون العاصمة في أدوار مختلفة .

« لقد استغلَّ غياب أورنك زيب من شمال الهند قائدان جديدان من الجات : راجه رام . ورام جهره ، ولم يستطع حاكم آكره خافى خان أن يضع الحد على تحركات راجه رام ضد القانون . وقد سد الجات الطرق ونهبوا كثيرا من المناطق ، وتوجهوا إلى « سكندره » لنهب مقبرة الملك أكبر ، ولكن المير أبا الفضل الذى كان قائد العسكر بها قاتلهم بشجاعة ولم يدع الثوار ليتقدموا أمامهم ، ونهب راجه رام متاع الضابط التركى المعروف أصغر خان . . . وقتل أصغر خان فى هذه الحرب مع الجات (١٨) .

ويقول هرجون داس مؤلف « جهار كلزار » : « أن الجات لما بدأوا ينهبون دلهى خرج سكان دلهى - خائفين فزعين - من بيوتهم ، فكانوا يهيمون على وجوههم ويتيهون فى الأزقة والسكك ، كسفينة محطمة تكون تحت رحمة الأمواج الطاغية ، وكان يرى كل شخص كالمجنون يعدو فزعا مضطربا ( النسخة المخطوطة ص / ٤١٠ ) (١٩) .

ويقول الشيخ ذكاء الله فى ذكر وقائع عام ١٧٦٥ م :

« كان الجات متسلطين على قلعة آكره ، وكانت للجات جولة وصوله على بعد ١٠٠ ميل من دلهى ، وقد طرد راجه سورمل الذى كان ذكيا فطنا بارعا فى المنازلة ، ماهرا فى القيادة والحكم - قائد المرهته من آكره ، واستولى على ميوات ، وبنى أربع قلاع حصينة قوية ، وبدأ يطلب من الحكومة دلهى تلك الطلبات التى لا تبقى على اسم الدولة إطلاقا . وقد هزم نجيب الدولة بحسن تدبيره وحيلته وبمساعدة من البلوجيين ، الجات ، وقتل راجه سورمل فى مناضلته لنجيب الدولة ، ثم نجمت فى ولاية الجات نزاعات وخصومات ، وقتل اثنان من أبناء سورج مل ، وخلفها الابن الثالث رنجيت سنغ وقد بلغ الجات فى عهده أوج التقدم والازدهار ، والمنطقة التى كانوا يحكمونها تقع شمال غربها « ألور » وفى جنوب غربها « آكره » ، وكان دخل هذه الدولة عشرين مليون روبية وكان لديهم جيش مكون من ستين ألف جندى (٢٠) .

### الوضع فى دلهى :

لقد أصبحت - دلهى - نتيجة حملات المرهته والسيخ والجات المتتابعة عليها والتى ظلت عادة يومية ، وحرمانها من أى نوع من القوة والصلاحية للصيانة والدفاع - شجرة مثمرة

(١٨) انظر « الرسائل السياسية للإمام الدهلوى » تأليف البروفيسور خليق أحمد نظامى ص : ١٧٥ .

(١٩) أيضا ، ص : ١٧٧ .

(٢٠) مقتبس من « تاريخ هندوستان » للشيخ ذكاء الله الدهلوى باختصار ، انظر ج : ٩ ، ص : ٣١٦ .

سائبة تحمل عليها الحشود الوحشية من الطيور الكاسرة وتجردها من الثمار والأوراق ، وأصبح سكان دلهي - الذين كان ينظر إليهم نظرة تقدير واحترام في كل مكان ، بل كانوا يعتبرون النموذج والمثل الكامل في العلم واللغة الحضارة ، وفي العادات والأخلاق وكرم المحتد وطيب الأصل - لقمة سائغة للمغيرين الزاحفين ، ويقدر من رسائل علماء هذا العصر ومشايخه - الذين كان شعارهم الانقطاع والتبتل إلى الله - تعالى - والرضا بما تجرى به المقادير - التي كتبوها إلى أصحابهم وأحبابهم ، ما كان يسود هناك من قلة الأمن والفوضى والقلق ، ونكتفى هنا بإيراد بعض مقتطفات من رسائل أحد المعاصرين المعروفين للإمام الدهلوي وهو الشيخ الجليل في السلسلة النقشبندية المجددية الشيخ ميرزا مظهر جان جانان ( ١١١١ - ١١٩٥ هـ ) يقول في إحدى رسائله :

« لقد ضقتُ ذرعا بالاضطرابات اليومية والقلق الزائد في دلهي » (٢١) .

ويقول في رسالة أخرى :

« تؤم الفتنة من كل حدب وصوب مدينة دلهي » (٢٢) .

ويقول في رسالة أخرى ، وهو يذكر قلة الأمن والفوضى في العاصمة وقلق سكانها واضطرابهم :

« إلى ما نكتب حال اضطراب السكان في المدينة بسبب قلة الأمن والأوبئة العامة ، اللهم أخرجنا من هذه المدينة التي أصبحت محطاً لغضب الله - تعالى - وسخطه ، فقد أصبحت المملكة فوضى بغير نظام ، اللهم فضلك ورحمتك » (٢٣) .

حملة نادر شاه :

عاد الإمام الدهلوي من الحجاز إلى دلهي عام ١١٤٥ هـ ولم تمض على ذلك إلا خمس سنوات أن وقعت عام ١١٥١ هـ الموافق ١٧٣٨ م تلك الحملة النادرية التي ضعفت ما بقي من كيان الدولة المغولية ، وخربت دلهي ومزقتها شر ممزق ، وقد أثرت هذه الحملة في عقول الغيارى من سكان دلهي والأسر والبيوتات الكريمة وصدمت قلوبها صدمة عنيفة حتى بغضت إليهم الحياة ، وسادهم الخجل والحياء إلى حد أنهم كانوا كأنهم يعدون العدة لقتلهم

---

(٢١) « كلمات طيبات » الرسالة رقم : ٤٠ .

(٢٢) أيضاً ، الرسالة رقم : ٥٤ .

(٢٣) أيضاً ، الرسالة رقم : ٨٦ .

وانتحارهم ، وقد ذكر الشيخ عبد العزيز الدهلوى أنه بمناسبة هذه المقتلة الرهيبة العامة وضياع الأموال والأعراض كان أشرف دلهى قد قرروا، وعزموا على تنفيذ تقليد 'جوهر'<sup>(٢٤)</sup> على طريقة الراجبوت القدماء، فذكرهم الوالد الكريم (الإمام الدهلوى) بحادث كربلاء، ومصائب سيدنا حسين - رضى الله عنه - ومنعهم من هذا القرار للانتحار فاختاروا طريق الصبر والرضا بالقضاء رغم هذه المحن والبلايا التى تقشعر منها الجلود وتشيب منها الولدان ، ولا يتصور أشد منها وأفتك ، وكفوا عن إرادة الانتحار وقتل أنفسهم .

### الانقطاع إلى التدريس والتأليف فى الأوضاع المضطربة والظروف المضادة :

وفى أثناء هذه الحملات والغارات من قبل المرهته والسيخ والجات ، ونادر شاه ، وهذه القلاقل والمحن والمآسى المذهلة التى كانت تجعل على دلهى سافلها وتدمرها تدميرا ، والتى اضطر فيها الإمام الدهلوى بعض الأحيان إلى الانتقال من بيت إلى بيت آخر - ويستفاد من « القول الجلى » أن الإمام الدهلوى انتقل أيام الفتنة الدرانية عام ١١٧٣ هـ ( على دعوة إلحاح من أصحابه وخدمه ) من وطنه مع أهله وذويه إلى قرية « بدهانه » ولما حل شهر رمضان اعتكف على عادته القديمة أربعين يوما<sup>(٢٥)</sup> - لقد كان الإمام الدهلوى - أثناء كل ذلك - منصرفا بكليته وعنايته التامة إلى التدريس والتأليف والدعوة إلى الله ، وتركية النفوس وتربية المسترشدين ، بجمعية قلب وطمأنينة حتى كأنه تسود هناك ، ليس فى دلهى فحسب بل فى البلاد كلها ، الأوضاع الآمنة المترنة والظروف الهادئة المطمئنة ، وأنه منقطع - كليا - فى زاوية العافية والطمأنينة إلى البحث العلمى والقيادة الفكرية والتربية الخلقية وإحياء الملة الإسلامية ، وقد أشار العلامة السيد سليمان الندوى إلى هذه الحقيقة - فى بلاغة وروعة وجمال - يقول :

« لقد كانت قلة قليلة من المؤلفين ممن لا تشيع فى مؤلفاتهم روح عصرهم ، أو لا تتجلى فيها مسحة عهدهم وبلادهم ، أو يأتى فيها ذكر نكران أهل عصرهم وعدم تقديرهم للعلم واضطراب أوضاعهم على الأقل ، ولكن مؤلفات الإمام الدهلوى طليقة من قيود الزمان والمكان ، بريئة من الشكوى والملام وقصص الهجران والنكران ، فلا يبدو منها أنها ألفت فى عصر كان الأمن والطمأنينة قد أمحت فيه من صفحة هذه البلاد كالخطأ الذى

(٢٤) كان أشرف راجبوت عند ما يحا بهم من كل جانب ، ولا تبقى أى إمكانية لحياة الشرف يقدمون

على قتل أهلهم وعبالهم ، ثم يقفزون بأنفسهم فى النار ويحترقون .

(٢٥) القول الجلى ( المخطوط ) .

يزال ، وكانت البلاد كلها تعاني من ملوك الطوائف ، والحروب الداخلية والفوضى السياسية ، وكل نوع من أنواع الشر والفساد ، وكان قد قضى على المركز السياسى فى دلهى ، وكان كل من يحمل السيف يحلم بالملك والسلطان ، فالسيخ فى جانب ، والمرهته فى جانب آخر ، والجحات فى جانب ثالث ، والروهيله فى الجانب الرابع ، كل هؤلاء كانوا يعيشون فى البلاد تخريبا وفسادا ، وكان أمثال نادر شاه وأحمد شاه من القادة الطامحين المتحمسين وقوفا على باب خيبر ، كلما أرادوا أوغلوا فى البلاد كالعاصفة العاتية، وخرجوا كالسيل العرم ، فكم من مرة فى أثناء ذلك خربت دلهى ودمرت ، ونُهبت ، ثم أعيدت وبُنيت ولكن عجباً بطمأنينة سلطان العلم والفضل فى دلهى وهدوئه ، فكان يشاهد كل ذلك برأى العين ، ولكن لا سبيل للقلق والاضطراب إلى قلبه ، ولا للشعث والبلبله إلى فكره ، ولا للحران والجفاف إلى قلمه ، ولا شكوى على اللسان ، ولا إبداء أى قلق وضجر بالقلم ، فكأنما يخيل إليك أن سماء العلو التى كان يتمكن منها ، أو سمو الصبر والرضا الذى ارتفع إليه ، لا تصل إليه عواصف الأرض الهوجاء ، ولا تعمل فيه تقلبات الزمان والمكان ، وبهذا يعلم كم تكون منزلة أهل العلم من العلو والارتفاع ، ومنصب أهل الرضا والتسليم بالقضاء من سمو والارتقاء .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [ سورة الرعد - ٢٨ ] .

إن الخدمة الصالحة للعلم الصحيح صورة أخرى لذكر الله - تعالى - فلو كان يورث القلب الطمأنينة ويملأ الروح بالسكينة فلا عجب ولا استغراب ، اقرأ آفا من صفحات مؤلفات الإمام الدهلوى لا تشعر فيها بأنها كتبت فى عهد القرن العاشر المليئ بالفتن ، الذى كان كل شىء فيه عرضة للاضطراب وفقدان الأمن والسلام ، بل سوف ترى بحرا من العلم والفضل يجرى فى هدوء ، وسكينة دون ضوضاء ولجب ، بريئا من وصمات ألواث الزمان والمكان « (٢٦) .

**الدور القيادى المجاهد فى عهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة المغولية :**

لم يكن الإمام الدهلوى خلال العجاج المتراكم من هذه الحوادث والأزمات بل فى أمطارها الغزيرة الهاطلة جالسا تحت السماء منصرفا إلى البحث والتأليف والتدريس والتصنيف بحيث لا تقلب نفحات الرياح العاتية أى ورقة من كتابه ولا تمحو قطرة من

(٢٦) انظر مجلة « الفرقان » العدد الخاص بالإمام الدهلوى ص : ٣٤٨ - ٣٤٩ .

قطرات هذا المطر الغزير أى حرف من حروفه ، فحسب بل كان يعمل - فى جد ونشاط وحزم وجهد - لتغيير هذه الأوضاع واستعادة السلطة الإسلامية فى هذه البلاد ، وإقامة مملكة قوية موطدة الأركان تشعر بمسئوليتها وتعترف بالواقع وتنفذ الأحكام الشرعية ، وتحافظ على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم وتقضى على القوى الهدامة التى تعيث فى الأرض فسادا ، وتنشر الخير والرخاء ، فقد كان يقوم فى هذا الصدد بالدور القيادى الذى يمكن أن يقوم به أكبر سياسى بصير لا يمت إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأى صلة .

وإذا كنا نجد له مثيلا فى حياة الدعاة والمجددين والباحثين المحققين والمؤلفين والمصنفين ففى حياة شيخ الإسلام ابن تيمية الحرانى الذى دعا مسلمى الشام عام ٧٠٠ هـ للوقوف صفا واحدا ضد التتار الوحوش ، وثبت أقدامهم المتزلزلة ، ولما ألغى السلطان محمد بن قلاؤون بعد مقدمه إلى الشام عزيمته على قتال التتار ، وأحدث ذلك الفوضى والاضطراب فى أهل الشام ، غادر شيخ الإسلام نفسه إلى مصر وحرص السلطان على حماية الشام ومقاومة التتار وشارك السلطان فى الجهاد ، فكانت النتيجة أن انهزم التتار هزيمة ساحقة قل أن تجد لها مثيلا فى التاريخ (٢٧) .

وقد استخدم الإمام الدهلوى أيضا مع أشغاله العلمية وجهوده الإصلاحية التجديدية حكمته السياسية وذكاءه البالغ وعلو نظره بحيث لو كان فى المغول بقية من صلاحية ، وفى أمراء الدولة وأعيانها من علو همة وحنكة سياسية ، لكانت الهند فى مأمن من الطامحين المفسدين الأهليين القصيرى النظر ، ولم تطأها أقدام الإنكليز ولا استحكمت فيها سيطرتهم لما وجدت الهند فى أواسط القرن التاسع عشر مهلهلة ضعيفة والميدان فارغا خاليا ، فنشبت أظافرها وأرست قواعدها ولم تضمها إلى المملكة البريطانية فحسب بل استغلت قواها ووسائلها الثرية الوفيرة التى أثرت على سياسة العالم كله ، وأحكمت بذلك سيطرتها على البلاد العربية والإسلامية .

ونظر إلى استقامة الإمام الدهلوى وحمية خاطره وعلو همته وبعد نظره ومضاء عزيمته ، وبإزاء ذلك الجوع الخانق فى البلاد والقلاقل والفساد - الذى لا مجال فيه لأى جهد عميق متواصل جاد ورجاء فيه لانقلاب الأحوال وتغيير الأوضاع يبدو هذا البيت من شعر الدكتور

---

(٢٧) 'نظر للتفصيل « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ج : ٢ « الحافظ أحمد بن تيمية » ص : ٥٥

محمد إقبال صورة صادقة لحقيقة الحال ، يقول فيه ما معناه :

« رغم العواصف الهوجاء يُشعل ذلك الرجل البطل الذى وهبه الله - تعالى - عزة الملوك وإباء السلاطين ، سراج المير » .

### شعور الإمام الدهلوى واضطرابه :

لقد كان الإمام الدهلوى - الذى شاهد فى إبان شعوره وسنه المبكرة آثار حكومة السلطان أورنگ زيب العظيمة وشوكتها وازدهارها ، وسمع القصص والحكايات عن العهود السابقة - التى كان نجم المملكة المغولية فيها لامعا عاليا وكانت لها مهابة وجلال ، والذى صدر من قلمه فى كتابه « إزالة الخفاء » فى ذكر مآثر الخلفاء الراشدين والآثار الزاهرة فى العهود الذهبية لتاريخ الإسلام ، وواجبات الحكومة الإسلامية ومسئوليتها ، وبما تستحق به نصرته الله - تعالى - وتأيده لما رأى بأم عينيه فى عهد سقوط الدولة المغولية وعهد الملك قرخ سير والملك محمد شاه ، هذه الفوضى وملوك الطوائف وسوء الإدارة والنظام ، وفقدان الأمن فى الطرق ، وتعرض الأئفس والأعراض والأموال - من دون تمييز بين دين ودين وشعب وآخر - للانتهاك والضياع ، ورخص الدماء الإنسانية ، وانتهاك الشعائر والحرمان الإسلامية ، بؤس المسلمين وشقائهم - الذين كانوا يحكمون هذه البلاد من ستة قرون - بكى قلبه الحزين المتقطع المرهف الحس دموعا من دماء وقطرات من قلمه السيال هذه القطرات من الدماء على صفحات تلك الرسائل التى كتبها إلى بعض أعيان الدولة ، ووجهائها ، وسوف نورد هنا بعض النماذج منها ، يقول فى رسالة كتبها إلى ملك معاصر<sup>(٢٨)</sup> يشكو فيها صولة سورج مل وجولته وشوكته ، وغربة الإسلام وبؤسه :

« ومن بعد ذلك ظهرت شوكة سورج مل وقويت ، فقد استولى سورج مل على مسافة ٦ أميال من دلهى إلى أواخر حدود « آكره » طولاً ، ومن حدود ميوات إلى « فيروز آباد » وشكوه آباد عرضاً ، فلا يقدر أحد أن يؤذن هناك ويقيم الصلاة »<sup>(٢٩)</sup> .

ويذكر فى هذه الرسالة خراب مدينة « بيانه » التى كانت عامرة مخصبة ، فيقول :

« لقد أخرج المسلمون - كرها وقسرا وبإهانة وإذلال - من مدينة « بيانه » التى كانت

(٢٨) كما سيأتى فيما بعد ، وهناك جميع القرائن على أن هذه الرسالة وجهت إلى أحمد شاه الأبدالى .

(٢٩) الرسالة التى كتبت إلى بعض السلاطين ( انظر « الرسائل السياسية للإمام الدهلوى » ص : ١٥ ) .

مدينة إسلامية قديمة ، لم يزل يسكنها العلماء والمشايخ من سبعة قرون « (٣٠) .

ويذكر فقر الموظفين الرسميين وسوء حالهم وقد تجاوز عددهم مائة ألف ، فيقول :

« لما انتهت خزانة الملك ، توقف النقود أيضا ، حتى تفرق الموظفون شذر مذر ، وبدأوا يتكفون ويستجدون ، ولم يبق للدولة إلا الاسم « (٣١) .

وقد صدرت من قلمه - وهو يذكر وضع عامة المسلمين - هذه الكلمة المؤثرة المشجية :

« وبالجملة فإن جماعة المسلمين تستحق العطف والرحمة « (٣٢) .

ويقول في رسالة كتبها إلى النواب نجيب الدولة :

« لقد لقي المسلمون - سواء كانوا سكان دلهي أو أى مكان آخر - صدمات عديدة ، ووقعوا - مرارا - فريسة السلب والنهب ، لقد بلغ السكين العظم ، إنه لمقام الرحمة والعطف « (٣٣) .

ويتنبأ الإمام الدهلوى - نظرا إلى الحقائق والوقائع والأسباب القوية المؤثرة - بالنتائج الحاسمة ووقائع المستقبل القريب بما لا دخل فيه للقياس والذكاء بل هو نتيجة الدراسة الواقعية غير المحايدة .

« فلو بقى غلب الكفر وظهوره على هذا الوضع فيخشى على المسلمين أن يتناسوا الإسلام ، ولا تمضى إلا أيام وسنون حتى يظل الشعب المسلم شعبا لا يقدر على التمييز بين الإسلام وغير الإسلام « (٣٤) .

**نصيحته للسلطين المغول وأركان الدولة ورجال الحل والعقد :**

لقد درس الإمام الدهلوى تقدم السلطين المغول وانحطاطهم وعواملهما دراسة معمعة - كما يبدو ذلك من المبحث الذى مضى فى الباب السابع من « حجة الله البالغة » - وقد درس - عدا الدولة المغولية - تاريخ الدول الإسلامية الأخرى بنظرة دقيقة فاحصة ، واستنتج منه تلك النتائج الحكيمة التى لا يطلع عليها إلا من أكرمه الله بحمل القرآن الكريم

---

(٣٠) أيضا ص : ٩ .

(٣١) أيضا : ص : ١١ .

(٣٢) أيضا : ص : ١١ .

(٣٣) الرسالة السابعة إلى نجيب الدولة ، ص : ٢٢ - ٢٣ .

(٣٤) انظر مقدمة ابن خلون فصل « إن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع » ص : ٣٠٦ .



وفقهه ، الذى يعرف قانون الله - تعالى - وسنته فى المجازاة ، ولم يكن خافيا عليه أن طبيعة هذه الأسرة الملكية قد انحرفت وفسدت - للسلطة الوراثية الطويلة وكثرت وسائل الترف والتسلية ، وصحبة الندماء المغرضين ، وقصر نظر المستشارين - واستحكمت فى جسمها الأدوية ، وتأصلت الأمراض ، وقد كان خبيراً بهذه الكلمة الحكيمة للفيلسوف المؤرخ العلامة ابن خلدون : « إن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع » .

ولكن الهم الصادق ، والطلب الملح ، ونداء القلب والضمير يحمل الإنسان فى مثل هذه الأوضاع أيضاً على المغامرة - التى لا يبقى فيها أمل النجاح إلا وهما من الأوهام ، فإنه إذا اشتد الظمأ براحل ، وبلغ قلبه الحناجر فإنه - رغم العقل والذكاء والحكمة والتجارب - يخطو - تلقائياً - رجاء الحصول على الماء إلى منبع السراب ، فإن انخداع العقل دليل على العطش الصادق ، وما أحسن ما قال الشاعر الفارسى عرفتى ، يقول ما معناه :

« ظن بنفسك قلة الظمأ الصادق ، ولا تُدَلِّ بعقلك ولا تفخر به إذا كان عقلك - على علم ووعى - لم ينخدع بلمعان السراب الظاهر وبريقه الجذاب » .

ولكن الإنسان ولا سيما أسرة كهذه التى حكمت - قروناً طوالاً - بشوكة وعز وجلال ، تختلف طبعاً عن سراب جامد لا روح فيه ولا حياة ، وليس هذا الرجاء منها ببعيد أن يولد فيها رجل عصامى صاحب عزيمة وحمية وغير تيار الأحداث ، وينفخ فى الدولة المحتضرة روحاً جديدة من الحياة - لقد كان الإمام الدهلوى أكبر العارفين - فى عهده - بالقرآن الكريم ، والغواصين فى معانيه وحقائقه ، وكانت بين يديه هذه الآية الكريمة :

﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب ﴾<sup>(٣٥)</sup> .

ولذلك كتب الإمام الدهلوى - رغم معرفته بأوضاع القلعة المعلاة معرفة جيدة - إلى أحد<sup>(٣٦)</sup> الملوك المغول من معاصريه رسالة نصحه فيها بإصلاح الحال ، وتقوية الدولة ، واسترعاء رحمة الله - تعالى - ونصره وتأييده إليه - وضمّنها توجيهات ونصائح حكيمة عالية تقوم على أساس الحكمة العالية والبصيرة النافذة فى الدين ، والدراسة العميقة الواسعة للتاريخ والسياسة ونظم الدولة ، لقد قال فى بدايتها :

(٣٥) سورة آل عمران ، الآية : ٢٧ .

(٣٦) ومن المؤسف أننا لم نطلع على اسم هذا الملك المغولى ( الذى كتبت إليه هذه الرسالة المهمة ) .

« أرجو من فضل الله - تعالى - ورحمته أنه إذا صح العمل وتحقق بموجب هذه الكلمات فسوف تظهر القوة والحزم في شئون الدولة وبقاء الحكومة وتعلو الكلمة يقول الشاعر ما معناه :

«لقد وضعوني كالبيغاء وراء المرأة ، فلا أقول إلا ما لقنني المعلم الأزلي (الأبدي)»<sup>(٣٧)</sup> .

وقد أشار في آخر هذه الرسالة - التي أرسلها إلى الملك المعاصر وأمرائه ووزرائه - بعد تقديم توجيهات ناصحة حكيمة ، سياسية وإدارية - لا يمكن أن تقوم الدولة بغيرها ، ولا تعود الرفاهية إلى الناس وتستحكم الثقة فيما بينهم - بأن يولى على الحسبة والقضاء أولئك العلماء الذين لم يتهموا برشوة ، ويكونون من أهل السنة والجماعة ، وأن تعطى لأئمة المساجد رواتب محترمة ، ويؤكد على أداء الصلوات بالجماعة ، ويعلن - باهتمام بالغ - أن لا ينتهك أحد حرمة شهر رمضان ، وأخيرا أن لا ينهمك « ملك الإسلام » و « الأمراء العظام » في العيشة الباذخة المحرمة ، ويتوبوا مما سلف منهم من الذنوب توبة نصوحا ، ويتوقوا من الذنوب في الحياة المقبلة ، فلو عمل بذلك فإني آمل بقاء الدولة ، وتأيد الله - تعالى - ونصرته ، «وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب »<sup>(٣٨)</sup> .

وهكذا قام الإمام الدهلوي بأداء واجبه ومسئوليته التي كان يجب على العالم الجليل بالدين وشارح الكتاب والسنة ، ومصلح عصره ومجدده أن يقوم بأدائها ، وهكذا يفعل من يعرف مسئولياته وواجباته ، ويطلع على تلك الأخطار المحدقة التي كانت كالسيف المصلت ليس على رءوس الأسرة الحاكمة فحسب بل على رءوس جميع سكان البلاد ولم تكن للإمام الدهلوي - في اتباعه لسلفه الأكرمين وحسب منهج العلماء الربانيين - علاقات وصلات مباشرة بالبلاط والدولة ، بل كان متبواً على حصير « الفقر » الغني ، ولكن قلبه كان مشغولاً - كالشيخ نظام الدين البداوني الدهلوي وخلفه السيد نصير الدين الدهلوي - بالدعاء لحكومة وهدايتها وصلاحتها ، ولم يكن يضمن على من يتصل بمركزه العلمي والروحي بتوجيهات ناصحة نافعة

---

(٣٧) انظر « الرسائل السياسية للإمام الدهلوي » الرسالة رقم : ١ ، إلى الملك ووزرائه وأمرائه .

(٣٨) أيضا ، ص : ٨٠ - ٨١ .

مشافهة وكتابة ، وقد وقع بعض المرات أن فاجأ الملك بزيارته للإمام الدهلوى ،  
وطلب منه الدعاء ، يقول فى رسالة كتبها إلى معتمده ، الحبيب ومسترشده وأخيه ابن  
خاله الشيخ محمد عاشق الفلتى :

«لقد ركب الملك يوم الخميس لزيارة مقابر الشيخ نظام الدين والمشايخ الآخرين<sup>(٣٩)</sup>  
ودخل على بيتى - بدون إشعار سابق - من الباب الكابلى راكبا على أريكة ساذجة  
ولم يكن لى بذلك سابق علم ، فدخل المسجد وجلس على البوارى ، فرأيت توقيير  
السلطان من اللازم إلى حد أن فرشت سجادتى التى أجلس وأصلى عليها بطريقة  
جلست فى جانب منها وجلس الملك فى الجانب الآخر ، وصافحنى الملك أولا بإكبار  
وإجلال ، ثم قال : كنت فى شوق إلى زيارتكم منذ مدة طويلة ، ولكنى وصلت  
اليوم بدلالة هذا الشاب ( وكانت الإشارة إلى الوزير ) ، ثم قال إن غلبة الكفر  
والفرقة والفوضى فى الرعايا وصلت ما وصلت إليه مما يعلمه الجميع ، فقد شقَّ على  
النوم والطعام والشراب ، وأسألکم الدعاء ، فقلت : كنت لا أزال اشتغل بالدعا من  
قبل ، وسوف أزيد من الآن اشتغالى بالدعاء إن شاء الله - تعالى - .

وقال لى الوزير - أثناء ذلك - إن جلالة الملك يحافظ على الصلوات الخمس  
باهتمام فقلت : الحمد لله ، هذا ما نسمعه بعد زمن طويل ، وإلا فإنه لم يسمع عن  
الملوك السابقين فى الماضى القريب هذه المحافظة على الصلوات «<sup>(٤٠)</sup> .

ثم حكى الإمام الدهلوى للملك - أخيرا - تلك الوصية التى أوصى بها سيدنا أبو  
بكر الصديق - رضى الله عنه - سيدنا عمر الفاروق - رضى الله عنه - عند  
استخلافه ، قال :

« تعرض للخليفة مشاكل طريفة غريبة ، من قبل أعداء الدين وأتباعه أيضا ، فلا  
علاج لهذه المشاكل إلا العلاج الواحد ، وهو أن تجعل مرضاة الله - تعالى - نصب  
عينك وتستعين به ، وتصرف النظر عن سواه «<sup>(٤١)</sup> .

---

(٣٩) ومن المؤسف أن اسم هذا السلطان لم يذكر فى هذه الرسالة ، ولا عندنا مراجع نرجع إليها فى  
الكشف عنه .

(٤٠) الرسائل السياسية للإمام الدهلوى ، ص : ١٣٥ - ١٣٦ .

(٤١) أيضا ، ص : ١٣٦ - ١٣٧ .

ويقول فى رسالة أخرى كتبها إلى الشيخ محمد عاشق :

« جئنى الملك ووالدته <sup>(٤٢)</sup> ، وكان غرض الملك من المجىء بهذه الصورة أن يجلس عندى دون كلفة وخرج ، وقد جلس ثلاث أو أربع ساعات تقريباً ، وتناول الطعام كذلك ، وكان أكثر كلامه فيما يتعلق بالاستعانة فى سبل الخير والرفاهية للناس » <sup>(٤٣)</sup> .

ونكن الحقيقة الظاهرة هى أن انحطاط الأسرة الحاكمة ، وآثار السلطة الوراثية ، والمناوئيات والمؤامرات الخارجية والداخلية ، كانت قد بلغت إلى حد أن أى سلطان كبير قوى صاحب عزيمة وقوة إرادة لم يكن يستطيع أن يغير هذا الانحطاط بالازدهار والضعف والوهن بالقوة الجديدة والحيوية الجديدة ، ويحدث ثورة فى أوضاع البلاد كلها ، وقد أثبت التاريخ أن أى دولة من الدول إذا وصل انحطاطها وترديها إلى آخر حدوده ، وكانت ألغام المؤامرات والمعارضات متهيأة لتنسف كيان الدولة كلها ، فلا ينجح أقوى الملوك إرادة وأمضاهم عزيمة ، وأشدهم صبراً وبلاءً ، وأصلحهم حالاً ، فى إعادة الحياة إلى جسد الدولة الهامد ونفخ الروح فيه من جديد وقد وقع مرارا أن الرجل الأخير فى الأسرة الحاكمة الذى سقطت فى عهده الدولة وانقرضت ، كان أصلح بكثير من كثير من سلفه وسابقه ، وأنه حاول جهده المستميت فى حماية الدولة من السقوط ولكنه لم يلق أى نجاح وخابت مساعيه ، فقد كان مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار ( م ١٣٢ هـ ) فى آخر الدولة الأموية والأسرة مروانية وآخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله ( م ٦٥٦ هـ ) وكذلك آخر ملوك الأسرة التيمورية - إلى حد ما - أبو ظفر بهادر شاه ( م ١٢٧٩ هـ الموافق ١٨٦٢ م ) من الأمثلة العديدة على ذلك .

ولذلك كانت الحاجة ماسة إلى أن لا يقتصر المصلح الناضج ، والمؤرخ البصير وصاحب الفراسة الإيمانية كالإمام الدهلوى ، على إقامة الصلاة بالملوك المغول - اسما - وأمراء بلاطهم وإيقاظ الحمية الدينية والغيرة الإسلامية فيهم ، وتحريضهم على مقاومة الأوضاع المنحرفة والقوى الهدامة المخربة ، فقد خرج هو من نطاق أمراء البلاط الضيق المحدود وراسل أولئك الأمراء وقادة الجيوش والأبطال الطامحين الذين أحس فى داخلهم بجمرة الحمية الدينية والإباء القومى كان فيهم هؤلاء الأمراء والقادة الكبار الذين يلي ذكركم .

(٤٢) والمراد بالملك هنا الملك أحمد شاه الذى كان ابن محمد شاه وخلفه على عرشه عام ١١٦١ هـ .

(٤٣) انظر الرسائل السياسية ، ص : ١١١ .

١ - وزير المملكة آصف جاه (٤٤).

٢ - النواب فيروز جنك نظام الملك أحمد شاهى (٤٥).

٣ - الوزير عماد الملك .

٤ - تاج محمد خان بلوج .

٥ - النواب مجد الدولة بهادر (٤٦).

٦ - النواب عبيد الله خان الكشميرى .

٧ - ميان نياز كل خان .

٨ - السيد أحمد روهيله .

إلا أن اختيار الإمام الدهلوى - الذى كان يرافقه الإلهام الربانى والفراسة الإيمانية - وقع منهم على شخصيتين عظيمتين فى ذلك العهد ، كان أحدهما فى داخل الهند ، والآخر فى خارجها ، أعنى بذلك أمير الأمراء النواب نجيب الدولة ، وأحمد شاه الأبدالى حاكم أفغانستان إذ ذاك .

النواب نجيب الدولة :

لقد كانت تتوفر فى النواب نجيب الدولة جميع الصفات والخصائص التى هى من خصائص مؤسسى الدول والحكومات فى العهد القديم ، الذين قاموا بدور مهم بارز فى عهد ازدهار الدول الشخصية والأسر المالكة وتقدمها - الذى كان يكفى فيه توفر الجوهر الذاتى ، والخصائص الذاتية اللازمة واجتماع الأوفياء والمخلصين للفتوح وإقامة الدول والحكومات - والذين ظهرت على أيديهم أى مآثرة من مآثر الفتح والانتصار ، والذين كان يتمكن منهم جوهر الوفاء بولى نعمتهم وعادة الإحسان والكرم مع أصحابهم ومن تحت أيديهم ، وخصيصة الفروسية والشجاعة والصلاحية القيادية تمكنا راسخا ، ولكن التجارب التاريخية تفيد أن هذه الصفات والخصائص إن كانت تنجح فى هزيمة القوى العسكرية وفتح البلاد والأمصار ولكنها فى البيئة التى يعتبر فيها الغدر والخيانة « فنا شريفا » وتعتبر مخالفة الأصول والضوابط وإساءة الأخلاق والأعمال سياسة حكيمة عالية ، واستغلال الفرص عقلا

---

(٤٤ ، ٤٥) انظر « مجموعة الرسائل » للشيخ عبد الرحيم والإمام الدهلوى ( مخطوط ) فى مكتبة

الجامعة العثمانية بحيدر آباد ، قسم المخطوطات ص : ٢١٤ .

(٤٦) وجهت إليه أربع رسائل ، انظر « الرسائل السياسية للإمام الدهلوى » ص : ٦٦ - ٧٠ .

وبصرا وكياسة ، تتحول - بدل أن تكون مفيدة نافعة - إلى عوائق فى سبيل النجاح ، ودوافع إلى إيجاد المشاكل والمصاعب ، ولقد صادفت النواب نجيب الدولة وآصف جاه - لسوء الحظ - مثل هذه البيئة الفاسدة العفنة ، وقد اتفق المؤرخون على سمو خلقه وصلاحيته الجندية والقيادية والإشادة بها ، يقول سرجاد وناتهرس كار :

« يحار المؤرخ فيما يختار من حسناته للإشادة بها والثناء عليها ، أقيادته المحيرة فى ساحة الحرب ، أم صواب رأيه وحدة نظره فى المشاكل ، أم صلاحيته الفطرية التى كانت تنير له فى الفوضى والاضطراب ، تلك الطريق التى كانت تؤدى إلى نتائج تحالفه وتوافق هواه » (٤٧).

ويقول الشيخ ذكاء الله فى « تاريخ الهند » :

« لقد كان نجيب الدولة عاقلا ذكيا فطنا حكيما ، قلّ من يكون مثله ، فقد انتهت إليه فى عهد الأمانة والديانة ، فكان لا يكف عن طاعة أسياده القدماء النواب دوندى خان روهيله ، والنواب شجاع الدولة ، كما كان له تحالف مع ملهراؤهلكر ، ولعلك تذكر أن هذا المرهته كان قد فر من حرب « بانى بت » تاركا أهل وطنه وراءه وبالجمله فقد كان هذا الرجل الشجاع يدارى - بطريقة أو أخرى - هذه الدولة المحطمة المكسرة » (٤٨).

ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوى :

« كان لدى نجيب الدولة تسعمائة عالم ، يتقاضى أديانهم منزلة خمس روبيات وأعلامهم ٥٠٠ روبية شهريا » (٤٩).

وكان هو - حسب تصريح البروفيسور خليك أحمد نظامى - أكبر شخصية فى دلهى فى الفترة ما بين ١٧٦١ م - ١٧٧٠ م ، فكان هو القطب الذى تدور حوله رحى السياسة كلها ، وكان يتحمل عاتقه أعباء إدارة الحكومة كلها (٥٠).

لقد اختار الإمام الدهلوى - الذى وهبه الله - تعالى - ملكة خاصة لمعرفة الرجال والاعتراف بالواقع التى لا تعطى إلا لأولئك الرجال الذين يقومون فى تاريخ الإصلاح

---

(٤٧) SARKAR : TALL OF THE MUGHAL EMPIRE, VOL . 11 P . 416

وقد اقتبسنا ذلك من « الرسائل السياسية للإمام الدهلوى » ، ص : ٢٣٢ .

(٤٨) تاريخ هندوستان ( تاريخ الهند ) ج : ٩ ، ص : ٣١٥ .

(٤٩) « مجموعة الكلمات » للشيخ عبد العزيز ، ص : ٨١ .

(٥٠) الرسائل السياسية ، ص : ٢٣٢ .

والتجديد وصناعة الرجال وتربية الأفراد بأعمال جليلة بارزة - لتحقيق آماله وتكميل مهمته في هذا العهد من أزمة الرجال وندرة الأفراد - النواب نجيب الدولة ، وقد تفرس بعد نظره ودقته ما أودع الله - تعالى من جوهر صالح وحمية دينية فبدأ الإمام الدهلوى مراسلته ، وحاول إشعال تلك الجمرات لكامنة تحت الرماد ، يقول في رسالة إليه :

« ندعو الله - تعالى - أن يشرف أمير المجاهدين بالنصر الظاهر والتأييد المبين ويبلغ هذا العمل إلى منزلة القبول وينزل عليه بركات ورحمات كبيرة » .

ليبلغ من الفقير ولى الله - عفا الله عنه - بعد التسلمييات العطرة بالمحبة أننا نشتغل هنا بالدعاء لنصرة المسلمين ، وتلوح لنا من الغيب آثار القبول ، ونأمل أن الله - تعالى - سيحيى على أيديكم الجهد والجهاد الدينى ويعطى بركاته وثماره فى الدنيا وفى الآخرة ، إنه قريب مجيب « (٥١) .

ويدعوه فى رسالة أخرى بـ « أمير الغزاة ورئيس المجاهدين » (٥٢) ، ويقول فى رسالة أخرى :

« يخيل إلينا أن عمل تأييد الملة الإسلامية ونصرة الأمة المرحومة فى هذا العصر سوف يتحقق على أيديكم الذى هو مصدر هذه الأعمال الخيرة ووسيلتها ، فلا تدعوا الوسائوس والهواجس تتمكن من قلوبكم ، وستحقق إن شاء الله - تعالى - جميع الإنجازات وفق رغبة الأحباب ورضاهم » (٥٣) .

ولا يكتفى الإمام الدهلوى فى رسائله إلى النواب نجيب الدولة بكلمات التهئة والدعاء ، بل يشير عليه بوصايا نافعة أساسية ، وينصحه بالحيلة والاجتناب من العودة إلى تلك الأخطاء والوقائع التى ظهرت على أيدي الغزاة السابقين والجيوش الإسلامية من قبل ، والتى تحول دون تأييد الله - تعالى - ونصره ، يقول فى إحدى رسائله :

« عندما تمر الجيوش الملكية بدلهى فليراع بدقة نظام أن لا تداس كرامة هذه المدينة بالظلم والعدوان كما سبق من قبل ، لقد شهد أهل دلهى - مرارا - حوادث النهب والسلب وانتهاك الحرمات والأعراض ، وهذا هو سبب التأجيل فى تحقق المقاصد والأهداف ، فإن أنة المظلوم لا تذهب هكذا سدى ، فإذا كنتم تريدون هذه المرة أن يتحقق لكم ما لم يتحقق

(٥١) الرسائل السياسية ، ص : ١٩ .

(٥٢) أيضا ص : ٢٠ .

(٥٣) أيضا ص : ٢٨ .

بعد ، فليؤكد تأكيدا بلغا وليلتزم التزاما قويا بأن لا يتعرض أى جندى للمسلمين فى دلهى وغير المسلمين أيضا ، الذين يدعون أهل الذمة « (٥٤) .

ويلفت الإمام الدهلوى الأنظار - مرة بعد مرة - فى عدد من رسائله إلى حماية البلاد من خطر هذه القوى المقاتلة الهدامة الثلاث - التى مضى ذكرها فى بداية هذا الباب - وحفظها من أضرارهم وعدوانهم ، إذ بدون ذلك لا تقوم للنظام والإدارة فى البلاد قائمة ، ولا يسود الأمن والسلام ، ولا تبقى الشعائر الدينية ومساجد المسلمين آمنة مصونة ، ولا أمل فى عيشة عادية متزنة ، فق أصبحت البلاد كلها بسبب هذه القوى العائثة فى الأرض الفساد تعيش حالة حرب دائمة ، وفى صورة جبهة عسكرية مستقلة (٥٥) .

لقد بلغ الإمام الدهلوى من حبه للنواب نجيب الدولة وإشادته به ، ويعلق عليه من الآمال الجسام أن يكرر عليه ويؤكد - مرارا - أنه إذا قام وتوجه لهذه المهمة فلا بد أن يشعر الإمام الدهلوى بذلك حتى ينصرف إلى الدعاء (٥٦) كما يؤكد عليه - مرة بعد مرة - رجاءه الفتح والانتصار على يديه - ويتنبأ بذلك يقول فى رسالة إليه :

« لا يشك هذا الفقير فى هذا الأمر ، ولا يرتاب فيه » (٥٧) .

وقد اتخذ الإمام الدهلوى النواب نجيب الدولة نفسه واسطة خاصة لدعوة أحمد شاه الأبدالى إلى الهند ، وأمره بالكتابة إليه - عدا مراسلاته معه مباشرة التى سيأتى ذكرها فى الصفحات القادمة - وأكد عليه بذلك عدة مرات ، وتوفى النواب نجيب الدولة بعد وفاة الإمام الدهلوى بثمانى سنوات فى رجب عام ١١٨٤ هـ الموافق ٣١ / أكتوبر عام ١٧٧٠م ، يقول البروفيسور خليك أحمد نظامى :

« إن هذا الحادث الذى يدل على عدله وبعد نظره سوف يبقى ذكرى دائمة فى التاريخ ، إذ أنه حال احتضاره وإشرافه على الموت على فراشه أصدر أمره إلى جيوشه ( التى كانت مقيمة - إذ ذاك - فى هابور (٥٨) وكان بها العيد والاحتفال السنوى للهندوس ) أن يحافظ على أموال الزوار الهندوس المشاركين فى هذا الاحتفال وأعراضهم وأنفسهم » (٥٩) .

(٥٤) الرسائل السياسية للإمام الدهلوى ، ص : ٢١ .

(٥٥) أيضا ص : ٢١ - ٢٢ .

(٥٦) أيضا ، ص : ٢٥ - ٢٧ .

(٥٧) أيضا ص : ٣٤ - ٣٩ .

(٥٨) مدينة قريبة من دلهى فى الولاية الشمالية .

(٥٩) الرسائل السياسية ، ص : ٢٣٤ ، نقلا عن « سركار » ج : ٢ ، ص : ٤١٥ .



## أحمد شاه الأبدالى :

لقد أدرك الإمام الدهلوى - ببعده نظره ودراسته الواقعية لأوضاع الهند . وبالنظر إلى بطلاة أركان الدولة وأمرء البلاد وسوء تصرفاتهم وانحطاط الأسرة الحاكمة وعدم كفاءتها وصلاحياتها - حقيقتين ظاهرتين : إحداهما أن الحاجة الملحة الأولى لهذه البلاد هي القضاء على ملوك الطوائف والفوضى والاضطراب الذى لا يدع مجالاً لآى عمل بناء وإدارة حازمة ونظام أفضل ، ولا أمن فيه لأنفس أهل البلاد وأعراضهم وأموالهم - كما تقدم فى الصفحات الماضية - وتعود مسئولية هذه الفوضى والاضطراب وقلة الأمن وحالة الفرع والإرهاب المستقلة إلى هذه القوى الفوضوية المقاتلة الثلاث التى لم تكن لها خلفيات كريمة وتجارب سابقة للحكم فى بلاد تعيش فيها الشعوب المختلفة والحضارات والديانات المتعددة ، ويحتاج تحمل مسئولية الإدارة فيها إلى شعور كبير بالمسئولية ، وقوة زاخرة بالتحمل والضبط وتملك الأعصاب وسعة النظر ورحابة الصدر ، ولم تكن هذه القوى تملك تصميمًا أو تخطيطًا لنشر العدل والطمأنينة فى البلاد ، وإعادة الثقة فى النفوس ، وإصلاح الإدارة والنظام ، ولم يكن لها أى تصور وتفكير فيه ، ولأجل ذلك كانت المهمة الأولى هى حماية البلاد من خطر هذه القوى لا سيما من غلبة المرهنة واستيلائهم الذى لم يدع هذا الجزء المركزى ، الذى لم يزل عاصمة الحكومات ، أى هذه المنطقة من لاهور إلى دلهى والولايات المتحدة الشمالية يعيش - لحظة - فى أمن وطمأنينة ، فلا يدرى متى تتحول هذه المنطقة كلها إلى ساحة حرب وقتال ، وتتحول المدن العامرة الزاهرة إلى غابة حرة مفتوحة يعطى فيها السماح للصيادين والقانصين أن يصطادوا السكان الآمنين ويذبحوهم كالطير والمواشى ، ويقضوا على ثرواتهم التى توارثوها كابرا عن كابر ، وجيلاً بعد جيل ، فى دقائق وثوان ، وكان الخطر الثانى فى صورة السيخ والجات ، الذى كانت تتعرض له مراكز المدنية والحضارة والثروة واليسار ، وكان يدهمها ويفاجئها كافة سماوية ، وبليّة نازلة .

والحقيقة الثانية أن القضاء على هذا الخطر كان يحتاج إلى قائد عسكري محنك وجيش قوى مدرب ، يكون زاخراً بالقوة العسكرية ، ولكن لا يكون ثملاً بها سكران ويتصف - علاوة على صفات الفروسية والشجاعة والبطولة - بالغيرة الإيمانية ، والحمية الدينية كذلك مع البراءة من الخلافات الجزئية والحزابات الجانبية والأحقاد القديمة والعداوات الموروثة التى كانت تنخر عاصمة البلاد وأصحاب السياسة كالدود ، والتى لا يرجى فى وجودها تحقيق تلك الأهداف العالية التى ينظر فيها إلى مصالح الملة الإسلامية وتأييد الدين الحنيف ، وحفظ البلاد وتأمينها بدلا من مصالح العناصر السلالية ، والفرق الدينية الخاصة ، أو

المصالح الشخصية والانتصار للذات ، وقد كان الإمام الدهلوى ينظر إلى أمير الأمراء النواب نجيب الدولة كواسطة ووسيلة ، ولكنه كان يعرف أنه لا يكفى نظرا لخطورة الأوضاع وشدتها ، ولم يكن من المستطاع أن يحد به - وحده - من سلطة تلك القوى وتكسر شوكتها التي كانت قد ضاعفت قوتها العسكرية إلى حد أن أى قوة عسكرية واحدة فى البلاد لم تكن تقدر على كسرهما وإلحاق الهزيمة بها ، بل كانت الحاجة لذلك ماسة إلى قائد عسكرى خارجى دافق الحياة والنشاط ، ولا يكون - فى نفس الوقت - أجنبيا غريبا فى هذه البلاد تماما ، بل يكون على معرفة وإمام بوهاد هذه البلاد وأنجادهما ، وتقاليدها أهلها وعاداتهم ، وطبيعة الفرق المناوئة والمقاتلين المقاومين ومواقع ضعفهم وسقطتهم ويملك من علو الهمة والطموح ما يستطيع به أن ينقذ هذه البلاد من الأخطار الملمة الواقعة ، ثم يفوض السلطة إلى أحد الأكفاء القديرين من أفراد الأسرة الحاكمة القديمة أو إلى أمير أو وزير صالح وفى إذ كان ذلك هو المقتضى الحقيقى للواقعية والمصالح الملية ، وحب الوطن .

وقد وقع اختيار الإمام الدهلوى - لهذه المهمة الخطيرة العسيرة الدقيقة - التى تحمل ككل مهمة دقيقة خطيرة جوانب النفع والضرر والربح والخسارة - على أحمد شاه الدرانى ( ١١٣٦ - ١١٨٦ هـ الموافق ١٧٢٣ - ١٧٧٢ م ) والى قندهار ، الذى لم يكن أجنبيا عن الهند ولا غريبا فيها ، فقد ولد فى ملتان<sup>(٦٠)</sup> ، ولا يزال فيها شارع يسمى بـ « شارع الأبدالى » وقد غزا الهند لمختلف أهدافه وأغراضه تسع مرات من عام ١٧٤٧ م إلى عام ١٧٦٩ م ، وكان قد ورد الهند قبل دعوة الإمام الدهلوى ونجيب الدولة له - ست مرات ، وكان يعرف وهاد البلاد وأنجادهما وأساليب الحرب فيها ونسبة القوى العسكرية بها وميول الأمراء وأركان الدولة ونزعاتهم ، وقد كان من أولئك القادة العسكريين الممتازين فى منتصف القرن الثامن عشر المسيح «والقرن الثانى عشر الهجرى الذين لا يولدون إلا بعد آماد وأحقاب طويلة ، ويؤسسون دولا وحكومات مستقلة ، أنه جمع شمل الأفغانيين المتفرقين بتوفيق ونجاح ، و نفذ القوانين العادلة ، وأقام الحسبة ، وكان يجمع بين صفات الفروسية والأخلاق الفاضلة وشرف النفس وكرم الأصل ، يتذوق العلم والأدب ويعنى بهما ، وكان محبا أنيسا فى قومه ، متدينا ، متقيدا بالفرائض والآداب الدينية ، يحب مجالسة العلماء والصالحين وبتأدب مع الأشراف والمشايخ ويكرمهم ، ويرغب - دائما - فى زيادة معلوماته

---

(٦٠) انظر دائرة المعارف الإسلامية ( ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM ) مقال C.COLLIN . DAVIES

وتبادل الآراء فى الأمور العلمية .

وكان رقيق القلب رحيمًا سخيا كريما ، يتمسك بأصول المساواة والمسامحة الدينية ، وقد أحيأ بعض السنن التى كان التكلم بها فى البيئة الأفغانية - إذ ذاك - من الصعوبة بمكان ، مثل الزواج بالأيامى ، وقد كان هو نفسه مثقفا وكاتباً قديرا ، وكان يهتم بتقدمه الروحى ويتمنى ذلك<sup>(٦١)</sup> ، يقول فيرير :

لقد كان أحمد شاه بريثا من كثير من السيئات ومواضع الضعف الشرقية ، فكان يتجنب - كليا - شرب الخمر وتناول الأفيون ، نزيها ساميا على أفاعيل النهامة والنفاق ، ملتزما بالدين أيما التزام ، وكانت عاداته وأخلاق الساذجة ولكن المتزنة الرزينة تحببه إلى كل شخص ، كان الوصول إليه سهلا مسورا ، فقد كان يراعى العدل والنصفة ، ولم يشك حد قط فى حكمه وقضائه<sup>(٦٢)</sup> .

كان أحمد شاه الدرانى قدم الهند فى عهد الإمام الدهلوى ست مرات من قبل ، وقضى حاجاته المحلية المؤقتة ، ثم رجع إلى بلاده ، ولم يقم هو - فى هذه الحملات سوى التظاهر بقوته العسكرية المدعمة ، وتحقيق بعض مآربه المؤقتة - بمهمة مفيدة ولم يحقق مصلحة كبيرة ، كما لم يلتزم جيشه - أثناء حملاته - بتلك الآداب والتعاليم الإسلامية التى يتوقع العمل بها من شخص مسلم متقيد بالشريعة ، وقد عانى الإمام الدهلوى وأصحابه أيضا من جراء بعض حملاته ، من مصائب وصعوبات ، ولكنه رغم هذه المواطن من الضعف فيه والتجارب المرة السابقة عنه كان هو الأمل الوحيد الذى يلمع فى الأفق ، صرح الشيخ محمد عاشق الفلتى بأن الإمام الدهلوى بعد كل ذلك كان يقول : « إنه سيغلب على هذه الديار » ، وقال مرة ردا على سؤال من بهادر خان بلوج : « سوف ستحكم سيطرته على هذه البلاد » ، وشاع - ذات مرة - نبأ وفاته ، فلما استفسر الشيخ حمد عاشق الفلتى عنه قال :

الذى يخيل إلىّ هو أن أحمد شاه الدرانى سوف يعود إلى هذه البلاد ويقلب هؤلاء كفار ظهرا لبطن ويجعل عاليهم سافلهم ، وإنه رغم جوره وطغيانه قد حفظه الله - تعالى -

---

(٦١) انظر للتفصيل : AHAMED SHAH DURRANI- FATHER OF MODERN

AFGHANISTAH-ASIA PUBLISHING HOUSE , 1949 BY DR . G . SINGH .

(٦٢) انظر HISTORY OF THE AFGHANS وقد اقتطفنا ذلك من الرسائل السياسية ص : ٣٣٥

لأجل هذه المهمة « (٦٣) .

لقد كان الإمام الدهلوى يتوقع أن الله - تعالى - سوف يصلح أحوال الأبدالى ويهديه إلى الرشاد ، ويستعمله فى خدمة - ليست - فى ظاهر الأمر - فى وسع أى أمير أو قائد آخر ، قال للحكيم أبى الوفاء الكشميرى ذات مرة : إن الصعوبات التى يلاقىها الأبدالى فى تحقيق أهدافه هى لأجل ما ارتكبه من ظلم وجور ( فى حملاته السابقة ) على مدن الهند ، وسوف تصلح أحواله فيما بعد (٦٤) .

كان الإمام الدهلوى يريد من أحمد شاه الأبدالى أداء دوره فى صيانة هذه البلاد من هذه الأوضاع القلقة والفوضى العامة ، وأن يعهد بالدولة إلى شخص كفء صالح - إلى حد ما - من أفراد الأسرة الحاكمة ، وكان الإمام الدهلوى قد تنبأ قبل مقدمه بأنه لا يلبث هنا بل يولى أمرا لدولة أحد الأفراد من أولاد الملوك (٦٥) .

وأخيرا طلب الإمام الدهلوى من نجيب الدولة كتابة الرسائل - بهذا الصدد - إلى أحمد شاه الأبدالى ، ثم كتب إليه - مباشرة - رسالة مؤثرة بليغة تكشف عن بصيرة الإمام الدهلوى السياسية وحميته الدينية وجراءته الخلقية (٦٦) ، وقد ذكر فى هذه الرسالة الأوضاع الراهنة فى البلاد وأساليب حكمها القديمة ، وإدارة مختلف الولايات ونظمها المختلفة وعدد الفرق الدينية والسلالية المختلفة فى البلاد ، ونسبة قواها ، وأخطاء الملوك السياسية وقصر نظرهم فيما يتعلق بهم ، واستحكامهم وتبوأهم مكانة القوة والسلطة - بصفة تدريجية ، وذكر المرهنة والجات فى هذا الصدد - بصفة خاصة - وصور غربة الإسلام وبؤس المسلمين بتأثير حملاتهم المتكررة صورة مشجعة مذيبة للقلوب ، وحرص هذه القائد المسلم - الذى كان يملك فى ذلك العهد من الهند إلى إيران - أكبر قوة عسكرية منظمة - على مقاومة هذه الأوضاع وتثبيت دعائم الدولة المغولية وتوطيد أركانها ، وتحمل مسئولية البلاد على عاتقها من جديد ، وصارحه بقوله :

« إنه لا يوجد - فى هذا العهد - ملك يملك من القوة والشوكة ما يستطيع أن يهزم بهما جيوش الأعداء ، مع بعد النظر والحنكة العسكرية إلا سيادتكم » (٦٧) .

---

(٦٣) « الرسائل السياسية » ص : ٢٦ - ٢٧ .

(٦٤ ، ٦٥) أيضا ص : ٣٠ .

(٦٦) انظر الرسالة المفصلة فى « الرسائل السياسية » الرسالة رقم : ٢ ، ص : ٦ - ١٧ .

(٦٧) أيضا ، ص : ١٢ .

ويزيد قائلا :

« إننا عباد الله نستشفع برسول الله ﷺ ونسأل بالله - تعالى - أن تصرفوا هممتكم المباركة العالية إلى هذه الجهة ، وتقاوموا الأعداء حتى يكتب لكم عند الله - تعالى - فى صحيفتكم ثواب عظيم ، ويسجل اسمكم على صفحة المجاهدين فى سبيل الله ، وتنالكم فى الدنيا مغنم كثيرة لا تحصى ، ويتخلص المسلمون من مخالب الكفار وقبضتهم » (٦٨) .

وقد عرض الإمام الدهلوى فى هذه الرسالة - نفسها - ببصيرته السياسية واطلاعه العميق على الظروف والأوضاع ، عن هذه القوى الناشئة البارزة التى كانت لها - لفقدان أى قوة منظمة مجابهة - هيبتها ورعبها فى النفوس ، وكان يعتقد أن لا قدرة لأحد على هزيمتها ، تقديرا صحيحا دقيقا لا يقدمه إلا قائد محنك أو سياسى بارع ، يقول عن المرهته :

« إن هزيمة المرهته هينة سهلة ، شريطة أن يشمر غزاة الإسلام عن ساق الجحد والاجتهاد ، والواقع أن عنصر المرهته قليل العدد ، ولكن جمعا كبيرا يساندهم ويحالفهم ، فلو فرق صف واحد من صفوفهم لتبددت هذه الجماعة وتفرقت ، وأصيبت بالهزيمة والضعف والفتور ، وبما أن هؤلاء القوم ليسوا أصحاب قوة وشوكة ، لذلك فإنه ينحصر كل مهاراتهم فى جمع العدد الكبير والجيش الكثير الذى يكون أكثر من النمل والجراد ، أما البطولة والشجاعة وكثرة وسائل الحرب فليست فيهم » (٦٩) .

إن هذه الرسائل التى كتبها النواب نجيب الدولة - بتوجيه من الإمام الدهلوى إلى أحمد شاه الأبدالى ، ثم الرسالة المؤثرة البليغة المفصلة التى كتبها الإمام نفسه إليه - وقد تقدمت بعض مقتطفاتها - لم تذهب سدى ، فقد توجه أحمد شاه الأبدالى عام ١١٧٣ هـ - الموافق ١٧٥٩ م لكسر شوكة المرهته وتحطيم قوتهم ومساعدة نجيب الدولة وشجاع الدولة - اللذين كانا قد أثبتا وعيهما السياسى ووحدتهما الإسلامية إلى الهند ، ومضى عام كامل فى الحروب والاشتباكات الجانبية ، وأخيرا وقعت بين المرهته وبين الأفغانين والجبهة الإسلامية الهندية الموحدة عام ١١٧٤ هـ الموافق ١٤ / يناير عام ١٧٦١ م تلك المعركة الحاسمة التى غيرت فى الهند مجرى التاريخ ، وأخرجت المرهته من الخريطة السياسية الناشئة فى الهند ، ونورد فيما يلى قصة هذه الحرب ونتيجتها بإيجاز حسبما يحكيها الشيخ ذكاء الله فى كتابه

(٦٨) أيضا ، ص : ١٢ .

(٦٩) الرسائل السياسية ، ص : ٨٦ .

« تاريخ الهند »<sup>(٧٠)</sup> يقول :

« لقد حمى الوطيس واشتد لظى الحرب إلا أن كفة المرهته كانت راجحة ، فأصدر أحمد شاه أمره لجنوده الفارين من الزحف أن يحاصروا ويقتلوا ، وأعلن أن من حاول الفرار يقتل فوراً ، ثم أمر جيشه بالتقدم وأمر فرقة عسكرية أن تحمل من جهة يساره على العدو ، وقد أصاب سهم هذا التدبير مقتله ، وقد كان بهاؤ ، وبسواس راؤ في قلب الجيش راكبين يحرضان الجنود والمرهته على القتال ، وكانت الحرب بالخناجر والرماح ، وإذا به وقع ما الله يعلمه فتزلزلت أقدام الجنود المرهته ، وذهبت ريحهم وما أن تزلزلت أقدامهم حتى امتلأت ساحة الحرب بالجثث والأشلاء ، فتعقبهم الجيش الإسلامى وتتبعهم - بحماس واندفاع - فى كل جهة وجانب إلى خمسة عشر وعشرين ميلاً ، وأثخنهم بالجراح ، وأسقطهم أكواما من الصرعى والقتلى ، ومن بقى من المرهته من أيدي هؤلاء الأعداء فقد قتلهم البدو الرعاع ، وقتل « بسواس راؤ » و « بهاؤ » وكان قد أخفى بعض الدرانيين « جى كوجى سنديها » وستر عليه ، ولكنه أخذ بعد بحث وتفتيش وقتل ، وأسر إبراهيم خان كاردى<sup>(٧١)</sup> ، ولقى حتفه بعد أسبوع ، وقتل شمشير بهادر وهو يحاول الفرار، وفر ملهارة فى « مالوه » بنفسه ، ووصل أبا جى سنديها إليه كذلك وهو أعرج ، ولم يبق أحد من القادة المعروفين سوى هذين القائدين ، ولم تلحق المرهته مثل هذه الهزيمة الساحقة من قبل ، ولا نزلت مثل هذه النازلة قط ، وقد أحدثت هذه المصيبة بأسا فى النفوس ، فسقطت الهمم وبردت القلوب ، ومات بالاجى لهذه الصدمة الشديدة بعد أيام ، وكان من يوم أن سمع نبأ الهزيمة اعتكف فى أحد المعابد يدرس اللغة السنسكريتية »<sup>(٧٢)</sup> .

وحسب تصريح أحد المؤرخين : « لقد طارت قوة المرهته فى لمحة البصر كالكافور » ، ويقول سرجاد وناتهسر كار : « إنه لم يبق بيت من البيوت فى ولاية مهاراشتر لم يعمه المأتم والرثاء ، فقد ذهب جيل القادة والرؤساء كله فى معركة واحدة »<sup>(٧٣)</sup> .  
وتوجه أحمد شاه الأبدالى - حسب تخطيط الإمام الدهلوى - بعد تحقيق هذه المهمة الضرورية إلى قندهار ، يقول الشيخ ذكاء الله :

(٧٠) انظر للتفصيل « تاريخ الهند » للشيخ ذكاء الله ، ج ٩ ، ص : ٣٠٥ - ٣٠٩ .

(٧١) كان رئيس المدفعية فى جيش مرهته وكان رغم إسلامه وفيما لهم ، بقى بجوارهم إلى آخر لحظة .

(٧٢) تاريخ الهند ، ج : ٩ ، ص : ٣٠٩ .

(٧٣) الرسائل السياسية ص : ٤٥ .

« لقد قدم أحمد شاه بعد هذا الفتح والانتصار من بانى بت إلى نواحي دلهى ، ومكث عدة أيام ، وعين الأمير عالى كوهراى شاه عالم ملك البلاد ، وشفع لدى الملك أن يولى شجاع الدولة الوزارة ونجيب الدولة إمارة الأمراء ، ولم يكن شاه عالم إذ ذاك فى دلهى ، فعين ابنه جوان بخت نائبا عنه ، وفوض إلى نجيب الدولة إدارة دلهى ونظامها ، وخلع على شجاع الدولة وولاه ولايات أوده واله آباد ، وتوجه هو نفسه إلى قندهار » (٧٤).

يقول البروفيسور خليك أحمد نظامى :

« لقد حاول أحمد شاه الأبدالى - جهده - بعد حرب « بانى بت » أن يدعو شاه عالم إلى دلهى ، وبعث إليه برسوله ، ولما لم يحضر طلب أحمد شاه من والدته النواب زينت محل أن تكتب إليه ، وكان أحمد شاه يحاول دعوة شاه عالم ( إلى دلهى ) حتى يتخلص هو من قبضة الإنكليز ، ويقدم إلى دلهى ويضعف قوته ويحكمها حال وجود أحمد شاه الأبدالى » (٧٥).

ويقول خليك أحمد أيضاً :

« لم يكن عند أحد من المرهته والسيخ والجات من السعة وشمول التصور والتفكير بحيث يفكر فى أساليب المحافظة على وحدة الهند ومركزيتها ، وقد كان الإمام الدهلوى - حسب مخططه المقترح - يريد استعادة السلطة العليا والمركزية والوحدة التى كانت فى عهد الملك أكبر - وجهانكير - وشاه جهان وأورنك زيب فى البلاد ، ولكن عن طريق الحكومة العادلة لا الملوك الجائرين الجبارين » (٧٦).

ولو كانت الدولة المغولية تملك رصيذاً من الحياة ، لكانت تستطيع أن تنتفع بنتائج حرب بانى بت وتستعيد سلطتها فى الهند لعدة قرون قادمة - ولكن الواقع أن الدولة المغولية - إذ ذاك - كانت جسداً بلا روح ، ولقد استغلَّ حرب بانى بت - أصلاً - الفاتحون فى حرب « بلاسى » (٧٧).

لقد ضيع شاه عالم - بسبب سقوط همته وقصر نظره - هذه الفرصة الذهبية ، ولم يحضر القلعة - رغم كل الجهود والمحاولات ورسالة والدته زينت محل الرقيقة الرحيمة -

(٧٤) تاريخ الهند ج : ٩ ، ص : ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٧٥) « الرسائل السياسية » ص : ٤٥ - ٤٦ .

(٧٦) أيضاً ص : ٤٧ .

(٧٧) أيضاً ص : ٤٥ .

إلا بعد عشرة أعوام فى أواخر عام ١٧٧١ م يوم ٢٥ / ديسمبر من عام ١٧٧١ م ثم ما وقع عليه وعلى خلفائه ، وقد سجله التاريخ كله بإسهاب وتفصيل ، وقد كان أوج ذلك وذروته ( CLIMAX ) تلك المأساة الأليمة لقلب السلطة والنظام - الذى لم يكن إلا اسما - بل اغتصابه وسلبه ، التى وقعت على أيدي الإنكليز المستعمرين الذين لم يضيعوا - لحكمتهم وحنكتهم وذكائهم السياسى - أى فرصة من الفرص للسيطرة على البلاد .

واستمر - بعد الإمام الدهلوى - خليفته بحق وجدارة ووارثه فى علمه وبصيرته وحميته الدينية ابنه الكريم الأكبر سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوى على درب والده وتحقيق مهمته التى بدأ بها بل إكمالها وتوسيع نطاقها ، وصرف كل همه وعنايته - مع تغيير الأوضاع السياسية - إلى العدو الأصيل والقوة الحقيقية ( أى السلطة الإنكليزية ) فى ميدان السياسة ، التى تجاوزت حدود خطر من الأخطار - التى يحتاج لإدراكها إلى بصيرة ووعى سياسى - إلى وقاع ملموس يكفى لشهوده البصر الظاهر<sup>(٧٨)</sup> .

وقد حاول بعد الشيخ عبد العزيز الدهلوى اثنان من تلامذته وغرسه من أصحاب العزيمة والدعوة والإصلاح والجهاد ، الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والشيخ إسماعيل الشهيد ، أن ينفذا ذلك المخطط السياسى الذى عرضه الإمام الدهلوى - نظريا فى «حجة الله البالغة» و «إزالة الخفاء» و «التفهيمات الإلهية» وغامرا بنفسيهما لإقامة الحكومة على منهاج الخلافة الراشدة ويعلم من رسائل السيد أنهما إلى أى حد استفادا من تعاليم الإمام الدهلوى وتوجيهاته وأصواته ، وإلى أى حد بلغت عزائمهم من الصرامة ، وهمهم من العلو ، ونظرتهم من البعد والعمق ، وقلوبهم من الرحابة والسعة ، وقد كانوا يهدفون إلى تحرير الهند - ولكنهم بدأوا مؤقتا بحماية مسلمى بنجاب من النكبات التى تعرضوا لها ، وخطر الإبادة الشاملة الذى استهدفوا له فى حكم السيخ فى بنجاب ، فى هذا الحكم العسكرى الطائفى الجائر ، وكان الوضع الشاذ لا يحتمل التأجيل ( كما كان شأن الإمام الدهلوى نفسه فى تحصين بيته المعاصرة ومجتمعه المعاصر وحمائتها من غارات الجات والمرهته واغتيالاتهم اليومية ) وبعد طرد الإنكليز المستعمرين - الذين كانوا يصفونهم بالأجانب الدخلاء والتجار النزلاء - كانوا يريدون حكم البلاد وتنظيمها وإدارتها فى ضوء أصول العدالة والمساواة الإنسانية ، يقدر كل ذلك ويعلم من رسائل السيد التى كتبها إلى السلاطين

---

(٧٨) سيأتى تفصيل هذا الإجمال فى الباب الحادى عشر فى ذكر الشيخ عبد العزيز الدهلوى .



المعاصرين ، والأمراء المعروفين وأصحاب الغيرة والحمية من المسلمين والولاة العاقلين  
الحازمين (٧٩) .

\* \* \*

---

(٧٩) انظر للتفصيل الباب السادس عشر من كتاب « سيرة السيد أحمد الشهيد » ( الأردنية ) بعنوان «  
الجهاد : دوافعه وأهدافه » ص : ٣٨٥ - ٣٩٤ .



## الباب العاشر استعراض المجتمع الإسلامى الناقد والدعوة إلى الإصلاح الجذرى

ميزة الإمام الدهلوى :

إن العلماء الكبار الذين يتذوقون العلم والبحث والتحقيق والتأليف ويكفونون على حظ وافر من الذكاء ودقة الملاحظة ، وعمق النظر ، ينصرفون كليا - بصفة عامة - إلى دراسة الكتب والبحث العلمى والتحقيق ، أو التدريس والتأليف ويستغرقون فيه ، ويعيشون فى عزلة عن واقع المسلمين وأدواء الطبقات المختلفة فى المجتمع وانحرافاتهما ومواضع ضعفها ، أو يصعب عليهم النزول إلى مستوى العامة ، و« التذلى » إليهم من سماء العلم والنظر - لذى يجدون فيه لذة وحلاوة أكبر من كل لذة وحلاوة .

ويمكن أن يستثنى من هذا العموم - بصورة واضحة - شخصيتان اثنتان أحدهما حجة الإسلام الإمام الغزالى ( م ٥٠٥ هـ ) الذى وضع الأصابع على أمراض الطبقات المختلفة من الأمة الإسلامية والمجتمع المسلم فى عصره ومواضع ضعفه فى كتابه الخالد ، الذى طبق صيته الآفاق « إحياء علوم الدين » ، بحيث يتجلى منه أنه مارس الحياة العامة واطلع على الطبقات المختلفة فى المجتمع عن كثب ، من حلق دروس العلماء ومجالس الذكر والمراقبة لدى المشايخ ، إلى بلاط الخلفاء والسلاطين وقصور الأمراء والأثرياء ومساكنهم الوثيرة لناعمة ، ومن هذه القصور الملكية والأميرية إلى ضجيج حوانيت المحترفين والتجار وجلبة الأسواق ، ويعرف كيف تخدع النفس والشيطان مختلف طبقات العلماء والوجهاء والأعيان ، ومختلف أوساط الخواص والعوام ، وكيف تغيرت الحقائق الأساسية والتصورات لدينية وكيف عمت الغفلة عن الهدف الأعلى ( سعادة الآخرة ومرضاة الله تعالى ) (١) .

وهذا هو شأن العلامة ابن الجوزى ( م ٥٩٧ هـ ) مع شىء من الفرق فى الإجمال والتفصيل والأسلوب والمنهج - فى كتابه الشهير « تلبس إبليس » الذى استعرض فيه لمجتمع المسلم كله فى عصره ، واختبر كل طبقة من طبقات المسلمين على محك السنة

---

(١) انظر للتفصيل والأمثلة « إحياء علوم الدين » ، ج : ٢ - ٣ ، أو « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ج : ١ ، ( ترجمة الإمام الغزالى ) .

النبوية والشريعة الإسلامية ، ودل على مواضع ضعفها وانحرافات وأخطائها ، ولم يحاب في هذه الدراسة الناقدة أى طبقة من الطبقات ، فقد انتقد فيه العلماء والمحدثين ، والفقهاء والواعظين ، والحكام والسلاطين ، والزهاد والعباد ، والمتصوفين والعامّة من الناس أجمعين ، وفضح مغالطاتهم وتلبسات الشيطان عليهم (٢) .

ولكن هذه النقد فيما يتعلق بـ « تلبس إبليس » أكثره سلبى وانتقاد فحسب ، وليست معه دعوة قوية إيجابية واضحة لإصلاح الأوضاع وتوجيه المجتمع ، وإن كانت فليست فى كميتها وكيفيتها بالدرجة المطلوبة ، ولعل السبب فى ذلك أن مجال هذا الموضوع ونطاقه المحدود لم يكن يتحمل أكثر من ذلك .

### الخطابات الخاصة لمختلف طبقات الأمة :

وإننا نرى بعد هذين العالمين الجليلين المعروفين من معلمى الأخلاق الفاضلة والدعاة إلى الله ( الذين كانا مع علو منزلتهما فى مجال الإصلاح والتربية من أجل العلماء والمؤلفين ) مآثرة الإمام الدهلوى - فى هذا الصدد - من أروع المآثر والمعها فى تاريخ الإصلاح والتجديد ، فإنه قد خاطب السلاطين المسلمين والأمراء وأركان البلاط والجنود العسكريين والصناع والمحترفين ، وأولاد المشايخ المتصوفين ، وعلماء السوء المنحرفين والوعاظ المتشدقين المتكشفين والزهاد المنعزلين ، كل طبقة من هذه الطبقات على حدة وفى صورة مستقلة ، وضرب على وترهم الحساس ، ودل على مكامن ضعفهم وانحرافهم وأنواع غرورهم وخداعهم ، كما خاطب الأمة الإسلامية - بصورة عامة - خطابا جامعا شاملا ، وكشف عن أمراضها وأدوائها ، ووصف علاجها ، وقد بلغ توجعه وحرقة قلبه واندفاعه فى الحمية الإسلامية وعاطفة الدعوة الدينية وبلاغة البيان وقوة التعبير فى هذه الخطابات الخاصة أوجها وذروتها ، يصعب أن تجد أمثلتها فى كتب المؤلفين السابقين - الذين مضى ذكرهم - والمصلحين الناقدين ، وسوف نورد مقتطفات من كتاب « التفهيمات الإلهية » للإمام الدهلوى الذى خاطب فيه قادة مختلف الطبقات البارزة المؤثرة وساداتها ، ويتجلى فى هذه الخطابات الخاصة من دقة نظر الإمام الدهلوى وعمق ملاحظته وحكمته فى الدعوة ، وجراءته الخلقية واطلاعه الواسع الدقيق ما يحاربه دارس التاريخ الذى اطلع على انحطاط هذا العهد ومجتمعه ، ومراعاة العلماء وأصحاب الأقاليم لمصالحهم الشخصية ،

---

(٢) انظر للتفصيل « تلبس إبليس » ص : ١١٩ - ٣٩٤ ، أو « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ج : ١ ، ( ترجمة العلامة ابن الجوزى ) .

ويأس الدعاة والمصلحين من إصلاح الأوضاع وتغيير الأحوال ويتعجب ويقول : « هل كانت هذه الجمرة يا رب كامنة في الرماد !

وها نحن ننقل هذه الكلمات الموجهة إلى مختلف الطبقات بنصّها :

### خطابه للسلطين المسلمين :

« أقول للملوك ، أيها الملوك ! المرضى عند الملأ الأعلى في هذا الزمان أن تسلوا السيوف ، ثم لا تغمدها حتى يجعل الله فرقانا بين المسلمين والمشركين وحتى يلحق مرده<sup>١</sup> لكفار والفساق بضعفائهم لا يستطيعون لأنفسهم شئاً ، وهو قوله - تعالى - : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ﴾ فإذا ظهر الفرقان فرضاء الملأ الأعلى أن تنصبوا في كل ناحية وفي كل مسيرة ثلاثة أيام وأربعة أيام أميراً عادلاً يأخذ للمظلوم حقه من الظالم ويقيم الحدود ويجتهد أن لا يحصل فيهم بغى ولا قتال ولا ارتداد ولا كبيرة ، وينفثوا الإسلام ويظهر شعائره ويأخذ بفرائضه كل أحد ويكون لأمير كل بلد شوكة يقدر بها على إصلاح بلده ولا يكون له شوكة يتمتع بسببها ويعصى على السلطان وينصب في كل إقليم كبير أميراً يقلده القتال فقد يكون جمعه اثنا عشر ألفاً من المجاهدين ، لا يخافون في الله لومة لائم يقاتلون كل باغ وعاد ، فإذا كان ذلك فرضاء الملأ الأعلى أن يفتش حينئذ من المنظمات المنزلية والعقود ونحوهما حتى لا يكون شئ إلا موافق الشرع ، حتى يأمن الناس من كل وجه<sup>(٣)</sup> .

### خطابه للأمرء وأركان الدولة :

... وأقول للأمرء : أيها الأمرء ! أما تخافون الله اشتغلتم باللذات الفانية الدائرة ، وتركتم الرعية تأكل بعضها بعضاً أما شربت الخمر جهرة وأنتم لا تنكرون أما بنيت منازل ودور للزنا وشرب الخمر والقمار وأنتم لا تغيرون ، أما هي البلاد الكبيرة لم يضرب فيها حد منذ ستمائة سنة أو أكثر ومن وجدتموه ضعيفاً أكلتموه ، ومن وجدتموه قويا تركتموه وعتوه ، خاضت أفكاركم في لذائذ الطعام ، ونواعم النساء ومحاسن الثياب والدور ، وما رفعتم إلى الله رأساً وما ذكرتموه إلا بالسستكم في حكاياتكم كأنكم تريدون باسم الله انقلاب الزمان ، تقولون الله قادر على كذا تعنون أن الزمان قد ينقلب كذلك<sup>(٤)</sup> .

(٣) التفهيمات الإلهية ، ج : ١ ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٤) أيضاً ص : ٢١٦ .

وأقول للعسكرية : أيتها العسكرية ! أخرجكم الله للجهاد ، ولتظهروا كلمة الحق وتكبتوا الشرك وأهله فتركتم ما أخرجكم لأجله ، واتخذتم رباط الخيل وحمل السلاح كسبا تستكثرون به أموالكم من غير نية الجهاد وقصده ، شربتم الخمر والبنج وحلقتم اللحي وأعفيتم الشوارب ، وظلمتم الناس ولم تنالوا مما تأكلون ، فوالله إلى الله سوف ترجعون فينبئكم بما كنتم تعملون ، كان مرضى الحق فيكم أن تزيوا بزى الصالحين من الغزاة واعفوا اللحي وقصوا الشوارب ، وصلوا الصلوات الخمس ، واتقوا الله في أموال الناس ، واصبروا في الحرب والبأس ، وتعلموا رخص الصلوات كالقصر والجمع ، وأنه يجوز ترك السنن في السفر ، وكذلك أحكام التيمم ، فتمسكوا بها ، وعضوا على الفرائض ، وأصلحوا نياتكم ببارك لكم ربكم في خولكم وينصركم على أعدائكم .<sup>(٥)</sup>

وأقول للمحترفة ضاعت أماناتكم وذهلت عن عبادة ربكم ، وأشركتم بربكم ، وذبحتم لطواغيتكم وحججتم إلى المدار<sup>(٦)</sup> والسالار<sup>(٧)</sup> ، فبئس صنيعكم ذلك ، ورب إنسان منكم جعل الطيرة ماله وكسبه فجعل يتكلف في لباسه وزيه ومطعمه مالا يكفي له فيضيع حقوق نسائه ورب إنسان منكم اكتفى بشرب الخمر واستيجار الفرج فيضيع معاشه ومعاده ، إن الله هيا لكم من الكسب ما يكفي لك ولذوى حقوقكم إن أنتم اقتصدتم واكتفيتم بما يكون بلغة إلى المعاد ، وكفرتكم بنعمة ربكم ، أسأتم التدبير أما تخافون عذاب جهنم وبئس المهاد ، واصرفوا غداءكم وعشيتكم في ذكر الله ، وطول النهار في حرفتكم ، والليل في نسائكم واجعلوا الصرف أقل من الدخل فما غير فواسوا فيه الغريب والفقير وذروا شيئا لنوائبكم وحوائجكم ، فإن خالفتهم هذه الأمور فقد أسأتم التدبير .<sup>(٨)</sup>

وقد نادى - هكذا - أولاد المشايخ ، وطلبة العلم والزهاد والوعاظ في عصره - بصفة خاصة - فيقول وهو يخاطب أولاد المشايخ يعظهم ويذكرهم :

### خطابه لأولاد المشايخ والمرشدين :

وأقول لأولاد المشايخ المترسمين برسم آبائهم من غير استحقاق : يا أيها الناس ! مالكم

(٥) أيضا ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٦) المراد به الشيخ بديع الدين المكنبوري الذي يعرف بالشاه مدار .

(٧) المعني به هو السيد سالار مسعود الغازي المدفون في مدينة « بهرائج » ترفع باسمه الأعلام ويرد في الاحتفالات بمولده آلاف الناس من الأماكن البعيدة والقريبة .

(٨) التفهيمات الإلهية : ج : ١ : ص : ٢١٧ .

نزبتهم أحزابا ، واتبع كل ذى رأى رأيه ، وتركتهم الطريقة التى أنزلها الله على محمد ﷺ حمة بالناس ولطفاً بهم وهدى لهم فانتصب كل واحد منكم إماما ودعا الناس إليه وزعم سه هاديا مهديا ، وهو ضال مضل ، نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا ثمنا قليلا أو يشوبوا اغراض الدنيا بتعلم علم ، إذ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبه بأهل هداية ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم ويأمرون بحب أنفسهم ، هؤلاء قطاع الطريق دجالون زابون مفتونون فتنون ، إياكم وإياهم ، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله لم يدع إلى نفسه ولا ترضى بإشاعة الإشارات الصوفية فى المجالس والمحافل ، إنما رضى الإحسان ، أما لكم عبرة فى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا نَبِئُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٩) .

ثم يخاطب العلما والطلاب فى عصره ، فيقول :

### خطابه للعلماء والطلاب :

وأقول لطلبة العلم : أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء ! اشتغلتم بعلوم اليونانيين بالصرف والنحو والمعانى وظننتم أن هذا هو العلم ، إنما العلم آية محكمة من كتاب الله أن علموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها أو سنة قائمة من رسول الله ﷺ ، أن فظوا كيف صلى النبى ﷺ وكيف توضحا وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم وكيف حج وكيف يجاهد وكيف كان كلامه ، وحفظه للسانه وكيف كان أخلاقه ، فاتبعوا هديه اعملوا بسنته على أنه هدى وسنة لا على أنه فرض ومكتوب عليكم ، أو فريضة عادلة أن علموا ما كان أركان الوضوء وما كان أركان الصلوة وما نصاب الزكاة وما قدر الواجب وما بهام فرائض الميت ، أما السير وما يرغب فى الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو سل وأما ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة ، إنما هى علوم الدنيا (١٠) .

ثم يقول لهؤلاء الطلاب والعلماء :

« وأن لا تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مستقلة ، أما أوجب الله عليكم أن تشيعوا العلم حتى يظهر شعائر الإسلام فى بلاد المسلمين ، فلم تظهروا الشعائر . أمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد واستكثرتهم فى أعينهم طلب الحق والدين أما

(٩) أيضا ص : ٢١٤ .

(١٠) أيضا ، ج : ١ ، ص : ٢١٤ .

ترون البلاد العظام تخلوا من العلماء وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر (١١).

ثم خاطب أولئك الناس الذين جعلوا وساوسهم وخطرات قلوبهم دينا ، وكل من لم يتفق ومقياسهم المؤسس على هواجس النفس وخطرات القلب ، فكأنه خارج عن الدين ، وقد كان معظم هذه الطبقة من الناس الذين أصيبوا بهذا الانحراف من الزهاد المتقشفين والعباد الغالين والوعاظ المتشدقين ، ولذلك اختير لهم هذا العنوان .

### مع الوعاظ المعسرین فی الدین والزهاد المنزویین المنعزلین :

وأقول للمتقشفين من الوعاظ والعباد والجالسين في الخانقاهات : يا أيها المتسكون ! ركبتم كل صعب وذلول وأخذتم بكل رطب ويابس ، دعوتم الناس إلى الموضوعات والأباطيل وعسرتم على الخلق ، وإنما بعثتم ميسرين لا معسرین ، وتمسكتم بكلام المغلوبين من العشاق ، وكلام العشاق يُطوى ولا يُروى ، واستطبتم الوسواس وسميتموه الاحتياط ، وكان مرضى الحق فيكم أن تفهموا الإحسان بجزئيه الاعتقادي والعملی ، فتحصلوه من غير أن تخلطوا به أحوال المغلوبين وإشارات المكاشفين فادعوا الناس إليه ، أما تعلمون أن الرحمة كل الرحمة والهدى ما جاءكم به محمد ﷺ ، أكان يفعل فعلكم هذا أم كان أصحابه يفعلون هذه الأفعال (١٢) ؟

ويخاطب - أخيرا - عامة المسلمين ، لا يخص فيه طبقة منهم دون طبقة يقول :

### خطابه الشامل للأمة الإسلامية جمعاء تشخيص الداء ووصف الدواء :

وأقول لجماعات المسلمين عموما خطابا واحدا : يا معشر بني آدم ! ( فسدت ) أخلاقكم وغلب عليكم الشح واستحوذ عليكم الشيطان وزئرت النساء على الرجال وغمط الرجال على النساء واستطبتم الحرام واستبشعتم الحلال ، فوالله إن الله ما كلف نفسا إلا ما تطيق ، عاجلوا شهوة فروجكم بالنكاح وإن كثرن ، ولا تتكلفوا في نفقتكم وزيككم مما لا تطيقون ، ولا تزر وازرة كأنها معلقة ، ولا تضيقوا الأمور على أنفسكم فإنكم إن ضيقتم خرجت نفوسكم إلى حد الصفق ، وأن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ، وعاجلوا شهوة بطونكم بالأطعمة واكتسبوا قدر ما يكفيكم ولا تكونوا كلاً على الناس تسألونهم فلا يعطونكم ولا تكونوا كلاً على الخلفاء والأمراء إنما المرضي لكم الكسب

(١١) أيضا ، ج ١ ، ص : ٢١٥ .

(١٢) أيضا ، ج : ١ ، ص : ٢١٥ .



أيديكم إلا عبد ألهمه الله أن الله يكفيك والله يعصمك من آفات الفقر ، يا معشر بنى آدم! من رزقه الله مسكنا يؤويه ومشربا يرويه ومطعما يشبعه وملبسا يستره ، ومنكحا يحصن روح ويعاونه فى معيشته ، فقد أدى له الدنيا بحذافيرها فليشكر الله وليتخذ كسبا يكفيه ليكن من شأنه القناعة والقصد فى المعيشة وليتنهز الفرصة لذكر الله وليحافظ على ثلاثة وقات : الغدوة والعشية والسحر ، وليذكر الله بالتهليل والتسبيح وتلاوة القرآن واستمعوا لحديث واحضروا حلق الذكر .

يا معشر بنى آدم ! اتخذتم رسوما فاسدة تغير الدين ، اجتمعتم يوم عاشوراء فى لأباطيل ، فقوم اتخذوه مأتما ، أما تعلمون أن الأيام أيام الله والحوادث من مشيئة الله ، إن كان حسين رضى الله عنه قتل فى هذا اليوم فأى يوم لم يمت فيه محبوب من المحبوبين قد اتخذ له عبا بجرايهم وسلاحهم ، وقوم اتخذوه منسكا ، أف لصنيعكم اجتمعتم يوم براءة يلعب قوم ، ويزعم قوم أنه يجب إكثار الأطعمة للموتى ، قل هاتوا برهانكم إن نتم صادقين ، ورسوما تضيق عليكم كالإفراط فى الولائم وكالامتناع من الطلاق وكإمساك لراة بعد زوجها من النكاح ، فضيعة أموالكم وأوقاتكم فى الرسوم وتركتكم الهدى صالح ، وكان المرضى أن لا تتخذوا هذه الرسوم وأن تتخذوا رسوما سهلة ليس فيها ضيق ، نخذتم المأتم عيدا كأن إكثار الطعام واجب عليكم ، وضيعة الصلوات وقوم اشتغلوا بكاسبهم فلم يقدرُوا على الصلوات ومنشأ هذا الفساد أنهم ما أخذوا رخص الله ، وقوم شتغلوا بتزجية الوقت وترفيهه بالحكايات والأحاديث ، فلو أنهم اتخذوا مجالسهم فى حب حول المساجد سهل عليهم الصلوات ، وضيعة الزكاة ، وما من غنى إلا له تعلقون من المحاويج يطعمهم ويواسيهم ، ولو أنه نوى الزكاة والعبادة لكفاه ، وضيعة صوم رمضان ، فضيعة قوم لأنهم صاروا عسكرية لا يقدرُونَ على الصوم مع ما هم عليه من لحنة ، اعلموا أنكم أسأتم التدبير وصرتم عيالا على السلطان ولما لم يجد السلطان ما عطيتكم ، ضيقَ على الرعية ، فما أقبح صنيعكم هذا ، قوم لا يتسحرون ، ولا يجتنبون عمالا شاقة ، وذلك من سوء تدبيرهم وعقلهم .

ويقول أخيرا :

« ومقالات الملأ الأعلى فى هذا الزمان كثيرة والغرفة تنبىء عن الخير الكثير والقليل كون نموذجاً عن الكثير (١٣) .

## إصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع منها :

لم يقتصر الإمام الدهلوى على هذه الخطابات الخاصة لهذه الطبقات الخاصة من الناس ، بل شدد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكية والبدع والشعائر غير الإسلامية التي تسربت إلى المجتمع المسلم وشاعت فيه بسبب الاختلاط الطويل بالهنالك ومواطنتهم لعدة قرون ، وعدم الاهتمام بالسنة المشرفة والحديث الشريف وغفلة العلماء وتقصيرهم ، وعدم شعور الحكومة المسلمة بمسئوليتها وفقدان الحسبة الدينية ، والتزم بها المسلمون التزاماً شديداً ، وشنع على تلك المعتقدات الباطلة ، والأوهام والخرافات الجاهلية ، وتقليد غير المسلمين وأتباعهم ، وعابهم عليه ، وقد كان عامة العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفنون الحكيمة لا يعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالاً ويرونها هيئة خفيفة ، أو يتغاضون عنها فراراً من الوقوع فى المشاكل ومعارضة الجماهير ، وقد بدأت هذه المهمة لإصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع المسلم منها - بعد الإمام السرهندى الذى شنع فى عدد من رسائله على هذه المعتقدات الشركية والتقاليد الجاهلية والطقوس الهندوكية (١٤) - بجهود الإمام الدهلوى ، وقد قام بتكميل هذه المهمة وتوسيعها - بعده - أبناؤه الأعلام ومن تخرج عليهم ، ونشأ فى أحضانهم من المصلحين المجددين كالإمام أحمد بن عرفان الشهيد ( خليفة الشيخ عبد العزيز الدهلوى ابن الإمام الدهلوى ) والشيخ إسماعيل الشهيد حفيد الإمام الدهلوى (١٥) .

ونورد هنا مقتطفاً من « التفهيمات الإلهية » و « وصايا الإمام الدهلوى » ، يقول :

« من عادات الهندوس الشنيعة أنه إذا مات زوج المرأة فلا يخلونها تتزوج مرة ثانية ، ولم تكن هذه العادة فى العرب قط ، لا قبل النبى ﷺ ولا بعده ، فرحم الله امرأ يقضى على هذه العادة الشنيعة ، وإذا لم يمكن القضاء على رواج هذه العادة فى عامة الناس فينبغى ترويح طريقة العرب فيما بين قبيلته ، وإن لم يمكن ذلك كذلك فلا بد من استقباح هذه العادة ومخالفتها من أعماق القلب على الأقل ، إذ هو آخر درجة من الإنكار على المنكر .

وعادتنا الشنيعة الثانية أننا نغالى فى المهور ، وقد كان نبينا ﷺ الذى نيط به شرفنا فى الدنيا والآخرة - حدد لأهله الأقربين - الذين كانوا أفضل الخلق بعده - اثنتى عشرة أوقية

(١٤) انظر « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » ج : ٣ ، الخاص بحياة الإمام السرهندى وأعماله .

(١٥) انظر الصراط المستقيم « إملاءات الإمام أحمد بن عرفان وترتيب الشيخ إسماعيل الشهيد وقد نقله =

ونصف أوقية ، وهو ما يبلغ خمسمائة درهم .

ومن عاداتنا الشنيعة الإسراف ، فإننا نبذر الأموال فى مناسبات الأفراح وتقاليد الأعياد ، ولم يثبت عن النبي ﷺ إلا الوليمة فى الزواج والعقيقة ، ولذلك فىنبغى الالتزام بهما والاحتراز عن غيرهما ، أو عدم الاهتمام الكثير بغيرهما .

ومن عاداتنا السيئة أيضا الإسراف والتبذير فى مناسبات المآتم باسم سيم جهلم ، ششماهى ، فاتحه ، سالانه (١٦) ، مع أنه لم يكن شىء من هذا فى العرب الأولين فمن الخير أن يهتم بتعزية ورثة الميت فى مصابهم لثلاثة أيام ، وبالطعام ليوم وليلة ، ولا يلتزم بتقليد آخر ، ولتجتمع نساء القبيلة بعد ثلاثة أيام وليطين ثياب النساء ذوات قربى الميت ، وإذا كانت زوجة الميت موجودة فليقض على سلسلة المآتم بعد عدتها (١٧) .

ولقد صدق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى - رحمه الله تعالى - إذ صرح فى مقالة بعنوان « حقيقة منصب التجديد ومكانة الإمام الدهلوى فى تاريخ التجديد » فى مجلة « الفرقان » ( العدد الخاص بالإمام الدهلوى ) بعد إيراده لمقتطفات من « إزالة الخفاء » و « التفهيمات الإلهية » بما يلى :

« ويقدر من هذه المقتطفات - إلى حد ما - أنه كيف استعرض الإمام الدهلوى ماضى المسلمين وحاضرهم هذا الاستعراض التفصيلى ، وكيف انتقدهم بهذا الشمول والاستيعاب ، وأن من نتائج هذا النوع من الانتقاد اللازم أن جميع العناصر الصالحة فى المجتمع التى لا تزال فى إيمانها وضمائرها بقية من حياة ولا تزال قلوبها تميز الصالح والطالح والشر والخير - يقلقهم الشعور بفداحة الخطب وسوء الأوضاع ، ويرهف شعورهم الإسلامى إلى حد أنه يرببهم كل أثر من آثار الجاهلية فى الحياة من حولهم ويحيك فى صدورهم ، وتقوى قوة التمييز وتزداد فيهم فيبدأون يحسون بشوائب الجاهلية مع الإسلام من كل ناحية من نواحي الحياة ، وتستيقظ فيهم القوة الإيمانية إلى أن كل شوكة من أشواك الجاهلية تقض مضجعهم وتدفعهم إلى الإصلاح ، ثم يلزم المجدد - بعد ذلك - أن يقدم أمامهم مخططا واضحا للبناء الجديد حتى يركزوا أنظارهم على الوضع المنشود الذى يغير به الوضع الراهن ،

---

== المؤلف إلى العربية وطبع باسم « رسالة التوحيد » فى مطبعة ندوة العلماء لكهنو الهند ، وكتاب « سيرة السيد أحمد الشهيد » و « كاروان إيمان وعزيمت » ( الأردو للمؤلف ) .

(١٦) هذه تقاليد خاصة بالأيام المحددة بعد وفاة شخص .

(١٧) التفهيمات الإلهية ، ج : ٢ ، ص : ٢٤٦ - ٢٤٧ ، والوصايا (بالفارسية) طبع دلهى ص : ٢٤ .

ويكرسوا كل جهودهم ومحاولاتهم نحو هذه الجهة المطلوبة ، وقد أنجز الإمام الدهلوى هذه المهمة البناء أيضا فى شمول وإجادة وإتقان ، كما شاهدته فى مهمته النقدية الماضية<sup>(١٨)</sup> .



---

(١٨) مجلة « الفرقان » ( العدد الخاص بالإمام الدهلوى ) ص : ١٠١ - ١٠٢ .

## الباب الحادى عشر أبناء الإمام الدهلوى الأعلام وخلفاؤه العظام وكبار العلماء المعاصرين الأبناء الأعلام والخلفاء العظام :

إن من مزايا الإمام الدهلوى فى سلسلة رجال الفكر والدعوة ، ونعم الله - تعالى - الخاصة عليه بين المصلحين والمجددين أن الله - عز وجل - خصه بأولئك الأبناء والخلفاء الأعلام الكرام الذين كانوا خير خلف لخير سلف ، والذين لم يحافظوا على ذلك المشعل الذى أناره الإمام الدهلوى مضيئاً وهاجا فحسب ، بل أشعلوا به مئات من الشموع والمشاعل ، ولم تزل هذه المشاعل تمد المشاعل الأخرى وتنقل إليها من نورها وضوئها ، واستمرت هذه السلسلة المباركة دون انقطاع فى شبة القارة الهندية وخارجها من نشر تعاليم الكتاب والسنة والعقائد الصحيحة ، والتوحيد الخالص ، والرد على الإشراك والبدعة ، وإصلاح التقاليد والعادات ، وتركية النفوس وتهذيب الأخلاق ، والوصول إلى درجة «الإحسان» وإعلاء كلمة الله - تعالى - والجهاد فى سبيله والحمية الدينية والغيرة الإسلامية ، وإقامة المدارس الدينية ، وعرض تعاليم الإسلام الصحيحة والكتابة والتأليف لتبليغ هذه الرسالة والدعوة إليها ، وتراجم القرآن الكريم والعناية بالحديث الشريف ، وكتب الفقه ، إلى يومنا هذا ، فلو درسنا تاريخ هذه الخطوات والجهود المباركة وبحثنا عن مراكز هذه الخيرات والمبرات ، ونسب هذه السلاسل والحلقات ، لرأينا أن الشموع تضىء الشموع والمشاعل لم تزل تمد المشاعل ، وقد أضاءت هذه الشموع والمشاعل كلها بذلك السراج المنير الذى أشعله الإمام الدهلوى فى منتصف القرن الثانى عشر وسط العواصف الهوجاء والرياح العاتية الشديدة .

### الشبه العجيب :

إن هناك شبةا عجيبا بين الإمام الدهلوى والإمام المجدد السرهندى مؤسس السلسلة النقشبندية المجددية فى أبنائهما الأعلام ونشر دعوتهما وطريقتهما الخاصة على أيديهم ومجهودهم - وهو رغم فضائل ومناقب أخرى كثيرة خصيصة نادرة عجيبة فى كتب التاريخ والتراجم - فقد كان للإمام السرهندى أربعة أبناء قد بلغوا درجة النبوغ والكمال ، الشيخ محمد صادق ، والشيخ محمد سعيد ، والشيخ محمد معصوم ، والشيخ محمد يحيى ،

وقد توفي الشيخ محمد صادق حين كان عمره ٢٥ سنة عام ١٠٢٥ هـ وقد وردت عن الإمام السرهندي فيه كلمات عالية ونعوت ذات قيمة ، وقد انتشرت السلسلة المجددية على أيدي الأبناء الثلاثة الكرام المؤخري الذكر ، وتم توسيع نطاق هذه السلسلة وتبليغها إلى الآفاق وتكميل تلك المهمة الثورية التجديدية التي بدأ بها الإمام السرهندي على أيدي هؤلاء الأبناء الأعلام وعن طريقهم ، ويليهم في انتشار الطريقة المجددية الشيخ السيد آدم البنوري (الذي لم تكن صلته مع الإمام السرهندي صلة قرابة ، بل كانت صلة روحية تقوم على التربية والاسترشاد) وقد بلغت هذه السلسلة من القوة وكتب لها القبول إلى حد أن الإمام الدهلوي ، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والشيخ أمداد الله المهاجر المكي وخلفاءهم الكبار والعلماء الأجلة العظام كلهم ينتمون إلى هذه السلسلة الأدمية .

ويمتاز من بين هؤلاء الأنجال الكرام الشيخ محمد معصوم ، فقد وصلت عن طريقه هذه السلسلة إلى تركستان والبلاد العربية وتركيا ، وقد صدق من قال :  
« إن الشيخ محمد معصوم سراج ينير سبع ممالك ، فقد استنارت به الأرض من الهند إلى الروم » .

ثم كانت يده الخفية وعناياته الروحية التربوية هي التي تعمل وراء الستار حتى خلف على عرش السلطان « أكبر » بعد عقبين من خلفائه ذلك السلطان المجاهد المتدين الفقيه المتدفق بالحمية الدينية الذي كان حاميا للدين ، بدلا من أن يكون « ماحيا له » ، وخادما للإسلام بدلا من أن يكون « هادما له » ، وكان الشيخ محمد معصوم يخاطب من قبل بالأمير الحارس للدين ، وكأنه بذلك كان يعده لهذا العمل العظيم .

وهكذا خلف الإمام الدهلوي أربعة أبناء نوابغ<sup>(١)</sup> ، وكان من قصتهم أيضا أن الشيخ عبد الغنى ( الذي كان أصغر هؤلاء الأبناء الأربعة سنا ) توفي قبلهم جميعا عام ١٢٢٧ هـ<sup>(٢)</sup> ، واستمرت دعوة الإمام الدهلوي وتعاليمه ونشر علومه ومعارفه ، وتربية رجال العمل والجهاد والمنهج الخاص للتدريس والتأليف الذي كان يتجلى فيه ذوق الإمام الدهلوي وصبغة تجديده واجتهاده عن طريق هؤلاء الأبناء الثلاثة ، ثم حاز سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي - من بين هؤلاء الأخوة - تلك المكانة العالية الممتازة التي كان يتمتع بها الشيخ محمد معصوم من بين أبناء الإمام السرهندي ، وقد انتشرت به سلسلة

(١) وهم الشيخ عبد العزيز الدهلوي والشيخ رفيع الدين ، والشيخ عبد القادر ، والشيخ عبد الغنى .

(٢) وهو والد العلامة الشيخ إسماعيل الشهيد .

الإمام الدهلوى وعلومه ومعارفه انتشارا عالميا ، وبلغت بعض الجوانب من عمله التجديدى ذروتها وأوج كمالها على يديه حتى نضطر أن نقول فى أدب وتهيب ، إن ما لم يستطع الوالد تحقيقه وإيجازه حققه الابن النابغة وأكمّله .

وقبل أن نذكر هذه المهمة من التكميل والتوسيع لأعمال الإمام الدهلوى ومآثره ، التى قام بها الشيخ عبد العزيز الدهلوى ، نود أن نسوق نبذة من سيرته وتعريفًا بشخصيته وترجمة موجزة جامعة له ، ونكتفى فى هذا الصدد باقتباس ترجمته من كتاب « نزهة الخواطر » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى - رحمه الله تعالى - المجلد السابع ، فهى على وجازتها شاملة جامعة .

### الشيخ عبد العزيز الدهلوى :

« الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة المحدث عبد العزيز بن ولى الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوى سيد علمائنا فى زمانه وابن سيدهم ، لقبهم بعضهم « سراج الهند » وبعضهم « حجة الله » ، ولد ليلة الخميس لخمس ليال بقين من رمضان سنة تسع وخمسين ومائة وألف ، كما يدل عليه لقبه المؤرخ لمولده « غلام حلیم » حفظ القرآن وأخذ العلم من والده ، فقرأ عليه بعضا وسمع بعضا آخر بالتحقيق والدراية والفحص والعناية حتى حصلت له ملكة راسخة فى العلوم ، ولما توفى أبوه إلى جوار رحمة الله تعالى ورضوانه وله ست عشرة سنة عن وفاة والده ، أخذ من الشيخ نور الله البرهانوى والشيخ محمد أمين الكشميرى وأجازه الشيخ محمد عاشق بن عبید الله الفلتى ، كانوا من أجلة أصحاب والده ، فاستفاد منهم ما فاته على أبيه ، وله رسالة فصل فيها ما قرأ على والده وعلى غيره من العلماء ، فقال :

« إنه أخذ بعض كتب الحديث مثل أحاديث « الموطأ ضمن المسوى » و « مشكاة المصابيح » بتمامه قراءة على والده ، و « الحصن الحصين » و « شمائل الترمذى » سماعا عليه بقراءة أخيه الشيخ محمد ، و « صحيح البخارى » من أوله إلى كتاب الحج سماعا عليه بقراءة السيد المولوى ظهور الله المراد أبادى ، و « مقدمة صحيح مسلم » وبعض أحاديثه وبعض « سنن ابن ماجه » سماعا عليه بقراءة محمد جواد الفلتى ، والمسلسلات وشيئا من مقاصد جامع الأصول بقراءة مولوى جار الله نزيل مكة وشيئا من « سنن النسائى » سماعا عليه ، وبقية هذا الكتاب من الصحاح الست قرأها سماعا على خلفاء والده كالشيخ نور الله وخواجه محمد أمين وأخذ غير ذلك من الكتب ، إجازة عامة من أفضل خلفائه وابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتى وخواجه محمد أمين وإجازة والده لهما مكتوبة فى « التفهيمات

إلهية» و «شفء لعليل» ، وهؤلاء قرأوا على والده مع أن الشيخ محمد عاشق كان شريك في السمع والقراءة والإجازة لوالده عن شيخه أبي طاهر المدني ، وأسانيده مذكورة في كتابه «الإرشاد في مهمات الإسناد» وفي غير ذلك من الرسائل .

وكان طويل القامة ، نحيف البدن ، أسمر اللون ، أنجل العينين ، كث اللحية ، وكان يكتب النسخ والرقاع بغاية الجودة وكانت له مهارة في الرمي والفروسية والموسيقى .

وقد قرأ عليه إخوته عبد القادر ورفيع الدين وعبد الغنى وختنه عبد الحى بن هبة الله البرهانوى وقرأ عليه المفتى الهى بخش الكاندهلوى ، والسيد قمر الدين السونى بتى مشاركا لإخوته فى القراءة والسمع وقرأ عليه الشيخ غلام بن عبد اللطيف الدهلوى « صحيح البخارى » قراءة عليه وقرأ عليه السيد قطب الهدى بن محمد واضح البريلوى الصحاح الست ، وأما غيرهم من أصحابه فإنهم قرأوا على إخوته واسندوا عنه وحضروا مجالسه وسمعوا كلامه فى دروس القرآن واستفادوا منه ما شاء الله ، وأما سبطه إسحاق بن أفضل العمرى فإنه كان مقرؤه يقرأ عليه كل يوم ركوعا من القرآن وهو يفسره ، وهذه الطريقة كانت مأثورة من أبيه الشيخ ولى الله ، وكان آخر دروس الشيخ ولى الله المذكور ، «اعدلوا هو أقرب للتقوى» ، ومن هناك شرع عبد العزيز وآخر دروسه كان ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ، ومن هناك شرع سبطه إسحاق بن أفضل كما فى « مقالات الطريقة » .

وكان رحمه الله أحد أفراد الدنيا بفضلله وآدابه وعلمه وذكائه وفهمه وسرعة حفظه ، اشتغل بالدروس والإفادة وله خمس عشرة سنة ، فدرس وأفاد حتى صار فى الهند العلم المفرد ، وتخرج عليه الفضلاء وقصدته الطلبة من أغلب الأرجاء وتهافتوا عليه تهافت الظمآن على الماء ، هذا وقد اعترته الأمراض المؤلمة وهو ابن خمس وعشرين ، فأدت إلى المراق والجذام والبرص والعمى ونحو ذلك ، حتى عد منها أربعة عشر مرضا مفاجعا ، ومن ذلك السبب فوض تولية التدريس فى مدرسته إلى صنويه رفيع الدين وعبد القادر ومع ذلك يدرس كان بنفسه النفيسه أيضا ويصنف ويفتى ويعظ ، ومواعظه كانت مقصورة على حقائق التنزيل فى كل أسبوع يوم الثلاثاء ، وكان فى آخر عمره لا يقدر أن يقعد فى مجلس ساعة فيمشى بين مدرسته القديمة والجديدة ويشغل عليه خلق كثير من ذلك الوقت فيدرس ويفتى ويرشد الناس إلى طريق الحق وكذلك يمشى بين العصر والمغرب ويذهب إلى الشارع الذى بين المدرسة والجامع الكبير فيتهادى بين الرجلين يمينا وشمالا ويترقب الناس قدومه فى الطريق ويستفيدون منه فى مشكلاتهم ، ومن تلك الأمراض المؤلمة فقدان الشهية إلى حد يقضى أياما وليالى لا يذوق طعم الغذاء ، حتى صار الأكل غيبًا بطريق النوبة كالحمى صرح



بها فى تقرظه على « المناقب الحيدرية » قال فيه :

« ويعتذر من التقصير فى التقرظ بأعذار صادقة وأمراض سابقة ولاحقة حتى أدت إلى فقدان الغذاء بالمره ، وصار الأكل غبا بطريق النوبة ، كالحمى لغلبة المره ، وتساقطت القوى واختلَّت الحواس وتهاترت الأعضاء والعظام والأضراس ، إلى غير ذلك » ، وقال فى كتابه إلى أمير حيدر بن نور الحسين البلكرامى : « وإن سألتكم عن حال هذا المُحبِّ ، فهو فى سقم واسب ليلا ونهارا ، وكرب يزعجه سرا وجهارا ، وقرار زائل وقلق حاصل ، وذلك لاجتماع أمراض كل منها بانفراده يكفى لإزعاج الرجل وإكساده ، منها : قبض البواسير ، واحتباس الرياح فى المعدة ، والأمعاء ، ومنها : فقدان الاشتهاء إلى حد يقضى أياما وليالى لا يذوق طعم الغذاء ، ومنها صعود الأبخرة إلى القلب فيحاكى حالة الانزهاق والاختناق ، وربما تصعد إلى الدماغ فتحدث شقيقة ثابتة وصداعا لذاعا كأنها ضربات الدقاق ، وإلى الله المشتكى ، وهو المستعان ، فهذه لا يسع النطق ببنت شفة فضلا عن إملاء كتاب وإنشاء صحيفة ، خطاب إلى غير ذلك » .

ولعلك تتعجب أنه كان مع هذه الأمراض المؤلمة والأسقام المفجعة لطيف الطبع حسن المحاضرة جميل المذاكرة فصيح المنطق مليح الكلام ذا تواضع وبشاشة وتودد ، لا يمكن الإحاطة بوصفه ، ومجالسته هى نزهة الأذهان والعقول ، بما لديه من الأخبار التى تشنف الأسماع ، والأشعار المهذبة للطباع ، والحكايات عن الأقطار البعيدة وأهلها وعجائبها بحيث يظن السامع أنه قد عرفها بالمشاهدة ولم يكن الأمر كذلك فإنه لم يعرف غير مملكته ، ولكنه كان باهر الذكاء ، قوى التصور ، كثير البحث عن الحقائق ، فاستفاد ذلك بوفود أهل الأقطار البعيدة إلى حضرة دهلى ، ولأنه قد صنف الناس فى الأخبار مصنفات يستفيد بها مما يقرب من المشاهدة ، وكان الناس يقصدونه ليستفيدوا من علمه ، والأدباء ليأخذوا من أدبه ، ويعرضوا عليه أشعارهم والمحاوريج يأتونه يشفع لهم عند أرباب الدنيا ويواسيهم مما يمكنه ، وكرمه كلمة إجماع والمرضى يلوذون به لمداواتهم ، وأهل الجذب والسلوك يأتونه ليقتبسوا من أشعة أنواره ، وغرباء الديار من أهل العلم والمشيخة ينزلهم فى منزلة ويفضل عليهم بما يحتاجون إليه ويسعى فى قضاء أغراضهم ونيل مطالبهم ، وإذا جالسه منحرف الأخلاق أو من له فى مسائل الدينية بعض الشقاق ، جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار ويجمع بين الضب والنون ، فلا يفارقه إلا وهو عنه راض .

قال الشيخ محسن بن يحيى الترهتى فى « اليانع الجنى » أنه قد بلغ من الكمال والشهرة بحيث ترى الناس فى مدن أقطار الهند يفتخرون باعتزازهم إليه ، بل بانسلاكهم فى سمط

من ينتمى إلى أصحابه ، قال : ومن سجايه الفاضلة الجميلة التي لا يدانيه عامة أهل زمانه قوة عرضته لم يذلل أحدا إلا أصاب غرضه وأصمى رميته وأحرز خصله ، ومن ذلك براعته في تحسين العبارة وتحبيرها والتأنق فيها وتحريرها حتى عدّه أقرانه مقدما من بين حلبة رهانه وسلموا له قصبات السبق في ميدانه ، ومنها فراسته التي أقدره الله بها على تأويل الرؤيا ، فكان لا يعبر شيئا منها إلا جاءت كما أخبر بها كأنه قد رآها ، وهذا لا يكون إلا لأصحاب النفوس الزاكيات المطهرة عن أدناس الشهوات الرديّة وأرجاسها ، وكم له من خصال محمودة وفضائل مشهودة .

وجملة القول فيه : أن الله تبارك وتعالى قد جمع فيه من صنوف الفضل وشتاته التي فرقها بين أبناء عصره في أرضه ما لو رآه الشاعر الذي يقول :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً      لدى المجد حتى عدّ ألف بواحد

استبان له مثل ضوء النهار أنه وإن كان عنده أنه قد بالغ فيه فإنه قد قصر ، فكيف الظن بأمثاله أن يحسن عد مفاخره التي أكثر حصى من حصى الحصباء ونجوم السماء . . .

هذا وللشيخ عبد العزيز مؤلفات كلها مقبولة عند العلماء محبوبة إليهم يتنافسون فيها ويحتجون بترجيحاته وهو حقيق بذلك ، وفي عبارته قوة وفضاحة وسلاسة تعشقها الأسماع وتلتذ بها القلوب ، ولكلامه وقع في الأذهان قلّ أن يعن في مطالعته من له فهم فيبقى على التقليد بعد ذلك ، وإذا رأى كلاما متهافنازيغه ومزّقه بعبارات عذبة حلوة ، وقد أكثر الخط على الشيعة في المسائل الكلامية وله حجة قاطعة عليهم لا يستطيعون أن ينطقوا في جواب تحفته بنت شفة « .

وأما مصنفاته فأشهرها : تفسير القرآن المسمى بـ « فتح العزيز » صنفه في شدة المرض ولحوق الضعف إملاءً ، وهو في مجلدات كبار ، ضاع معظمها في ثورة الهند فما بقي إلا مجلدان من أول وآخر ، ومنها « الفتاوى في المسائل المشكّلة »<sup>(٣)</sup> ، وقد جمعت ما تحويها ضخام الدفاتر ، والمسر منها أيضا في مجلدين ، ومنها « تحفة اثنا عشرية » في الكلام على المذهب الشيعي ، كتاب لم يسبق مثله ، ومنها كتابه « بستان المحدثين »<sup>(٤)</sup> ، وهو

(٣) لقد كان الشيخ عبد العزيز الدهلوي عالي الكعب في الفقه الحنفي ، وكانت له قدم راسخة وبصيرة دقيقة فيه حتى يعتبره بعض العلماء من أصحاب الاختصاص ، إنه يبذ فيه والده الإمام الدهلوي .

(٤) يقدر من هذا الكتاب إطلاعه الواسع على كتب الحديث وطبقات المحدثين .

فهرس كتب الحديث وتراجم أهلها بيسط وتفصيل ، ولكن لم يتم ومنها « العجالة النافعة » رسالة له بالفارسية فى أصول الحديث ، ومنها رسالة فيما يجب حفظه لطالبي الحديث ، ومنها « ميزان البلاغة » متن متين له فى علم البلاغة ومنها « ميزان الكلام » متن متين فى علم الكلام ، ومنها « السر الجليل فى مسألة التفضيل » رسالة له فى تفضيل الخلفاء لبعضهم على بعض ، ومنها « سِرُّ الشهادتين » رسالة نفيسة له فى شهادة الحسين - رضى الله عنهما - ومنها رسالة فى الأنساب ومنها رسالة عجيبة له فى الرؤيا ، وله غير ذلك من الرسائل ، وأما مصنفاته فى المنطق والحكمة ، فمنها حاشية « على ميرزاهد رساله » وحاشية على « ميرزاهد ملا جلال » وحاشية على « ميرزاهد شرح المواقف » وحاشية على « حاشية ملاكوسج » المعروفة بالعزيفية ، وحاشية على « شرح هداية الحكمة » لصدور الشيرازى ، وله شرح على أرجوزة الأصمعى ، وله مراسلات إلى العلماء والأدباء وتخميس نفيس على قصيدتى والده ( « البائية » و « الهمزية » ) (٥) .

وكان نسيجاً وحده فى النظم والنثر وقوة التحرير وغضارة الإملاء وجزالة التعبير وكلامه عفو الساعة وفيض القريحة ومسارعة القلم ومسابقة اليد ، وعندى بفضل الله جملة صالحة منها وإن كان يسعها هذا المختصر لأوردت شيئاً كثيراً ههنا .

وتوفى بعد صلاة الفجر يوم الأحد لسبع خلون من شوال سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف ، وله ثمانون سنة ، وقبره بدلهى عند قبر والده خارج البلد (٦) .

### القيام بتكميل أعمال الإمام الدهلوى الخاصة ، وتوسيع نطاقها :

يمكن أن نوزع أعمال الإمام الدهلوى التجديدية إلى خمس شعب :

١ - ترجمة القرآن الكريم والقيام بنشر تعاليمه ومحتوياته فى المسلمين - بصفة عامة - وتصحيح العقائد عن طريقه ، والجهود المتواصلة لتمتين صلة العامة بالدين الخالص ، والتعاليم الإسلامية السمحة العادلة .

٢ - القيام بنشر الحديث الشريف والدعوة إلى إحياء السنة النبوية، وإقامة دروس الحديث

---

(٥) يعتبر شعر الشيخ عبد العزيز الدهلوى لا سيما قصيدته اللامية ( التى أوردها مؤلف «نزهة الخواطر» فى ترجمته ) من أرفع نماذج الشعر العربى ، ويظهر أنه يفوق شعر الإمام الدهلوى ، ولا نجد مثل هذه العربية السليقية بعده إلا فى شعر تلميذه النجيب المفتى صدر الدين خان اقرأ الأبيات التى وردت فى الثقافة الإسلامية كنموذج لشعره ، وفى « نزهة الخواطر » فى ترجمته .

(٦) نزهة الخواطر ج : ٧ ص : ٢٧٥ - ٢٨٠ ( الطبعة الثانية ) .

الشريف والاهتمام بأسنيده وإجازاته ، والقيام بحلقاته ، وإعداد المدرسين للحديث والشارحين لكتبه .

٣ - مقاومة فتنة التشيع والرفض ، وسد كل المنافذ والأبواب ضد المحاولات المشبوهة للظعن في الصحابة - رضى الله عنهم - والتشكيك في قطعية القرآن الحكيم .

٤ - إحياء الجهاد فى سبيل الله ، ومقاومة أكبر خطر وأعظم تحد لحرية المسلمين وسلطتهم الإسلامية فى الهند .

٥ - تربية الرجال الأكفاء لمهمة الإصلاح والدعوة حسب مقتضيات الظروف والأوضاع ومتطلبات الدين الحقيقية .

### الدعوة إلى فهم القرآن الكريم والقيام بنشر تعاليمه وتبليغ رسالته :

أما ما يتعلق بتبليغ رسالة القرآن الكريم إلى عامة الناس ، وإصلاح العقائد الباطلة والتقاليد المنحرفة وإقامة الصلة ، والعلاقة مع الله - تعالى - عن طريقها ، فإن الشيخ عبد العزيز الدهلوى قد قام فى هذا الصدد - بتوسيع مهمة والده الإمام الدهلوى ، فقد زادها تقدما وقبولا وسعة وشمولا ، لقد كانت دروس الإمام الدهلوى فى القرآن الكريم وصلت إلى هذه الآية من سورة النساء ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ حيث وافاه الأجل المحتوم ، فبدأ الشيخ عبد العزيز الدهلوى سلسلة دروسه منها ، وكان قد بلغ إلى قوله - تعالى - من سورة الحجرات ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ، وإذا بهذه السلسلة من دروسه قد انقطعت مع انقطاع سلسلة حياته ، وبدأ يعده ابن بنيه الشيخ محمد إسحاق ( الذى كان قد تربي وتخرج على يديه وكان خليفته بحق ) دروسه فى القرآن الكريم .

كانت دروس الشيخ عبد العزيز الدهلوى فى القرآن الكريم يومى الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع ، يحضر فيها الخاصة من الناس - بصفة خاصة - والعامة منهم برغبة وشوق وتذوق ، وكانت قريحته الفياضة وطبعه الريان يفيض فى هذه الدروس فى اندفاع وجولان ، وتنهمر عليه الحقائق والمعانى كالسيل<sup>(٧)</sup> ، وقد عم بهذه الدروس تذوق القرآن الكريم فى العاصمة دلهى ( التى كانت مركز العلماء وأهل الفضل والكمال ) وجرت موجة قوية من إصلاح العقائد ، وبدأت سلسلة مباركة لترجمة القرآن وتفسيره لم تزل حلقاتها متصلة إلى يومنا هذا فى شبه القارة الهندية ، وقد صلحت بها نفوس مئات الآلاف من

(٧) انظر مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز ( ملفوظات عزيزى ) ص : ١٠ .

الناس وحسنت أحوالهم وذاقت قلوبهم وعقولهم عن طريقها حلاوة التوحيد الخالص ولذة القرآن الكريم ومتعته الروحية ، حتى المدارس الإسلامية بدأت فيها سلسلة الدروس القرآنية وتفهم معانيه ومطالبه بتأثير أولئك العلماء الذين تكونت ثقافتهم وتمت تربيتهم في حلقات هذه الدروس ، التي لم يعط لها مكان في المنهج الدراسي إلا في صورة «التفسير الموجز»<sup>(٨)</sup> للبركة فحسب ، وتحطم ذلك الطلسم الذي روج له علماء الدنيا أن نشر القرآن الكريم في العامة نذير خطر كبير وتمهيد لضلالة مستطيرة ، وقد كان يعمل في ذلك وراء الستار هذا الخوف بأن الجماهير من الناس سوف تخرج بذلك عن سلطة العلماء المحترفين المرتزقين ، الذين يجعلوا القرآن العظيم أحجية من الأحاجي أو لغزا من الألغاز وحاولوا بذلك إبعاد الناس عنه وحرمانهم منه .

والمأثرة العلمية الإصلاحية الثانية للشيخ عبد العزيز الدهلوي هي تفسيره المسمى بـ (فتح العزيز) أو ما يسمى بـ «التفسير العزيزي» أو «بستان التفاسير» وهو كتاب مستقل مؤلف من إملاءات الشيخ عبد العزيز ، وهو يشتمل - حسب تصريح الشيخ الدهلوي نفسه - على تفسير سورة الفاتحة ، وسورة البقرة ، ثم سورة الملك إلى آخر القرآن الكريم<sup>(٩)</sup> . إلا أن سورة البقرة لم تتم (لأسباب لا نعلمها) فلم يطبع منها إلا إلى قوله تعالى ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ وقد صدرت لهذا الأصل الفارسي من التفسير عدة طبعات ، ويشتمل على ثلاثة مجلدات ، المجلد الأول من سورة الفاتحة إلى ربع الجزء الثاني ، والمجلد الثاني من سورة الملك إلى آخر سورة المرسلات ، والمجلد الثالث من سورة النبأ إلى آخر القرآن الكريم .

وقد ألف بعد الشيخ عبد العزيز الدهلوي تلميذه الفاضل العلامة حيدر علي الفيض آبادي ( م ١٢٩٩ هـ ) صاحب « منتهى الكلام » تكملة لهذا التفسير ، يقول مؤلف «مقالات طريقت» :

« لقد أكمل الشيخ حيدر علي مؤلف « منتهى الكلام » حسب رغبة الأميرة سكندريبيكم والية بوفال - تفسير « فتح العزيز » في ٢٧ مجلدا ، وشاهده كاتب هذه السطور<sup>(١٠)</sup> .

---

(٨) كان المنهج الدراسي - قديما - يشتمل على تفسير الجلالين وتفسير البيضاوي ( سورة البقرة فحسب ) ولم تكن ترجمة القرآن وتفسيره كله متداولاً .

(٩) انظر مقدمة تفسير « فتح العزيز » للشيخ عبد العزيز الدهلوي ص : ٣ ، ويستفاد من المقدمة أن تأليف هذا التفسير بدأ بطلب من أخيه الأكبر الشيخ محمد بن ولي الله الدهلوي وتحريضه عام ١٢٠٨ هـ .

(١٠) مقالات طريقت ص : ٣٣ .

وتوجد هذه التكملة إلى آخر الجزء الخامس فحسب فى مكتبة ندوة العلماء ، وقد فقدت ورقتان من بدايتها .

وهناك تفسير بالأردية يسمى « التفسير العزيزى » ويعرف أيضا بـ « الوعظ العزيز » وقد طبع فى المطبع الأنصارى بدلهى ، وهو يشتمل حسب تصريح مرتبه الشيخ أبى الفريد محمد إمام الدين - على مجموعة دروس الشيخ عبد العزيز الدهلوى التى كان يلقيها يومى الثلاثاء والجمعة ، وقد قيدت هذه الدروس ورتبت وطبعت بهذا الاسم المذكور أعلاه ، وكان تأليف هذا الكتاب عام ١٢٥٩ هـ ويحتوى على تفسير سورة « المؤمنون » وما بعدها إلى سورة الصافات .

ولكن رغم أن تفسير الشيخ عبد العزيز الدهلوى لم يكمل إلا أنه يحتوى على لطائف ونكات كثيرة نادرة لا تكاد تجدها فى عامة التفاسير المشهورة ، وقد اشتملت دروس الشيخ الدهلوى وكتابه فى التفسير المسمى بـ « فتح العزيز » على بحوث علمية فى تلك المسائل والقضايا - بصفة خاصة - كان العلماء لم يجرؤوا فيها على الصراحة بالحق أو لم يقوموا فيها بالبحث والتحقيق المطلوب ، وكان قد وقع بذلك عدد كبير من الدهماء والعامه فى ضلال وعقائد وأعمال شركية ، وانحرافات فى التطبيق والسلوك ، فمن ذلك تفسير آية ﴿وما أهل به لغير الله﴾ فهو من المباحث الخاصة فى هذا الكتاب ، كذلك البحث فى مسألة السحر فى تفسير ﴿وما كفر سليمان الخ﴾ الآية ، وتحقيقات نادرة رائعة أخرى ضمن تفسير عدد من الآيات ، تعد من خصائص هذا الكتاب ومباحثه الفذة النادرة .

### القيام بتدريس الحديث الشريف ونشره وترويجه :

وأما ما يتعلق بتدريس الحديث الشريف ونشره وترويجه ، فإنه يصعب أن يوجد له مثل فى تاريخ الهند العلمى والدينى ، وتمتد فترة تدريسه للحديث الشريف إلى أربع وستين سنة، وأنه لم يقتصر فى هذه المدة الطويلة على تدريس الكتب الستة ، وتأليف الكتب النافعة المفيدة « كبستان المحدثين » و « العجالة النافعة » التى تنشئ الذوق الصحيح للحديث والمعرفة الجيدة بطبقات كتب الحديث والاطلاع على مراتب المحدثين ومنازلهم فى العلم والفضل وتعرف بأصوله وقواعده ، وقد جاءت فيها خلاصة مئات الصفحات ولباب النقول والأقوال فحسب ، بل قد خرج أولئك التلاميذ النجباء والخريجين الفضلاء ، والنوابغ من العلماء والمدرسين الذين أفاضوا علوم الحديث ومعارفه ، ليس فى الهند فحسب بل فى الحجاز كذلك ، واستفاد منهم خلائق من الناس لا يحصى لحد وعد ، ويبلغ عدد من تخرج على يديه من نوابغ تلاميذه وأفاضلهم ممن ترجم لهم مؤلف « نزهة

المخاظر « فى المجلد السابع منه فحسب إلى أربعين خريجا ، منهم من كانت له حلقات لدروس الحديث ، وتخرج على أيديهم محدثون آخرون وشيوخ أجلة ومدرسون نذكر أسماءهم فيما يلى :

١ - الشيخ محمد إسحاق الدهلوى .

٢ - الشيخ محمد يعقوب الدهلوى .

٣ - المفتى الهى بخش الكاندهلوى .

٤ - الشيخ السيد أولاد حسن القنوجى .

٥ - الشيخ مرزا حسن على الشافعى اللكنوى .

٦ - الشيخ حسين أحمد المحدث المليح آبادى .

٧ - الشيخ حيدر على الطونكى .

٨ - الشيخ خرم على البلهورى .

٩ - المفتى صدر الدين الدهلوى .

١٠ - المفتى على كبير المجهلى شهرى .

١١ - الشيخ السيد قطب الهدى الحسنى الرائى بريلوى .

والذين أسندوا عنه - سوى هؤلاء - تطول قائمتهم بحيث يصعب الإحصاء والاستقصاء ، ونكتفى هنا بإيراد أسماء بعضهم ممن يمتازون عن غيرهم بميزات خاصة لفضائلهم ومناقبهم أو نسبة بعض السلاسل والطرق إليهم أو لسمعتهم الذائعة وصيتهم المنتشر :

١ - الشيخ غلام على الدهلوى ( خليفة الشيخ الجليل ميرزا مظهر جان جانان ) .

٢ - الشيخ أبو سعيد الدهلوى ( خليفة الشيخ غلام على ) .

٣ - الشيخ أحمد سعيد الدهلوى ( خليفة الشيخ غلام على ) .

٤ - الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادى ( خليفة الشيخ محمد آفاق الدهلوى ) .

٥ - الشيخ بشارت الله البهرائجى ( أحد كبار الشيوخ فى السلسلة المجددية ) .

٦ - الشيخ بزرك على المارهروى ( شيخ المفتى عنایت أحمد الكاكوروى ) .

٧ - الشيخ بناء عطا السلونوى ( أحد كبار الشيوخ فى السلسلة الجشتية النظامية ،

وكانت له إجازة عن طريق المكاتبه ) .

٨ - الشيخ ظهور الحق الفلواروى .

وقد نشر علم الحديث انتشارا واسعا كبيرا على يدى الشيخ محمد إسحاق الدهلوى الذى تخرج عليه علماء كبار ، وأساتذة الحديث فى الهند ، إلى أن هاجر إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨ هـ وأسند عنه كبار علماء الحجاز وأساتذة الحديث بها .

ومن الذين تتلمذوا عليه وكان لهم صيت واسع ودور كبير :

١ - الشيخ السيد نذير حسين المحدث الدهلوى .

٢ - والمقرئ عبد الرحمن البانى بتى .

٣ - الشيخ السيد عالم على المراد آبادى .

٤ - والمفتى عبد القيوم ابن الشيخ عبد الحى البدهانوى ( من أجلة خلفاء الإمام أحمد

بن عرفان الشهيد ) .

٥ - الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادى .

٦ - والنواب قطب الدين الدهلوى ( مؤلف « مظاهر حق » ) .

٧ - والشيخ أحمد على السهارلفورى ( ناشر صحيح البخارى بتصحيحه وحواشيه ) .

٨ - المفتى عنایت أحمد الكاكوروى أستاذ العلماء الشيخ لطف الله العلى كرهى ) .

وعلماء كثيرون ممن يطول ذكرهم ، وهذا هو السند الوحيد الذى بقى فى الهند حسب

تصريح مؤلف « نزهة الخواطر » .

وقد استمر المحدث السيد نذير حسين الدهلوى ( م ١٣٢٠ هـ ) وحده من تلامذة الشيخ

محمد إسحاق الدهلوى يدرس الحديث الشريف بدلهى أعواما طويلا ، وتخرج فى حلقة

دروسه عدد من شُراح الحديث وعلمائه الأجلة وناشريه ، منهم الشيخ عبد المنان الوزير

آبادى الضرير -الذى كان عدد كبير من تلامذته منصرفين إلى التدريس والإفادة فى بنجاب-

والعارف بالله السيد عبد الله الغزنوى الأمرتسى وابنه الجليل السيد عبد الجبار الغزنوى

الأمرتسى - والد الشيخ السد داؤد الغزنوى ، والشيخ شمس الحق الديانوى مؤلف « غاية

المقصود » ، والشيخ محمد حسين البتالوى والشيخ غلام رسول القلعوى ، والشيخ محمد

بشير السهسوانى ، والشيخ أمير أحمد السهسوانى والشيخ الحافظ عبد الله الغازيبورى ،

والشيخ أبو محمد إبراهيم الآروى مؤلف « طريق النجاة » والشيخ السيد أمير على المليح

آبادى ، والشيخ عبد الرحمن المباركفورى صاحب « تحفة الأحوذى » .



ومن العلماء العرب الشيخ عبد الله بن إدريس الحسنى السنوسى ، والشيخ محمد بن ناصر النجدى ، والشيخ سعد بن أحمد بن عتيق النجدى وأمثالهم ممن يكفى ذكر أسمائهم لمعرفة انتشار هذه الدروس وسعتها وبعدها صيتها وعظيم فوائدها .

ومن تلامذة الشيخ محمد إسحاق ، الشيخ عبد الغنى المهاجر المدنى ( م ١٢٩٦ هـ ) الذى تتلمذ عليه كبار علماء الهند وشيوخ الحديث فيها ، الذين تنورت الهند كلها عن طريقهم بنور الحديث الشريف وملئت به ، وترجع جميع المدارس الإسلامية وحلقات الدروس للحديث الشريف فيها الآن إليه ، وتعتر بالانتماء إليه ، فمن تلامذته الأجلة المعروفين العلامة رشيد أحمد الكنكوهى ، والإمام محمد قاسم النانوتوى ( مؤسس دار العلوم بديوبند ) ويكفى من تلامذة الشيخ رشيد أحمد الكبار ذكر الشيخ محمد يحيى الكاندهلوى ، والشيخ خليل أحمد السهارنفورى ، كما يغنى فى تلامذة الشيخ خليل أحمد السهارنفورى ذكر شيخ الحديث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى صاحب « أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك » وفى قائمة أسماء تلاميذ الشيخ محمد قاسم النانوتوى أسماء الشيخ السيد أحمد حسن الأمروهوى وشيخ الهند الشيخ محمود حسن الديوبندى ، وفى تلامذتهم أسماء العلامة أنور شاه الكشميرى والعالم المجاهد السيد حسين أحمد المدنى ، وأعمالهم الجليلة الرائدة لا تحتاج إلى تعريف وتفصيل ، ويشتمل كتاب الشيخ محسن بن يحيى الترهتى « اليانع الجنى فى أسانيد الشيخ عبد الغنى » فى ما يتعلق بعلو أسانيد الشيخ عبد الغنى وعموم نفعه وإفادته وسمو منزلته على معلومات قيمة مفيدة .

### الدفاع عن السنة والرد على الشيعة :

وأما فيما يتعلق بمأثرة الشيخ الدهلوى فى مقاومة فتنة الرفض والتشيع وحماية أهل السنة وصيانتهم من تأثيره وعدواه ، والتى بدأها الإمام الدهلوى بكتابه المنقطع النظير « إزالة الخفاء » فقد أكملها ودعمها الشيخ الدهلوى بكتابه الرائع الجليل « تحفة اثنا عشرية » (بالفارسية) الذى يعد من الكتب التى تصنع التاريخ وتحول تيار الأحداث ، وكما أن مؤلفات الشيخ محب الله البهارى كـ « سلم العلوم » و « مُسَلِّمُ الثبوت » شغلت علماء الهند - قرنا كاملا من الزمن - بشرحها والتعليق عليها والدوران حولها ، واستقطبت طاقاتهم الفكرية وعقولهم الجبارة<sup>(١١)</sup> ، وكذلك شغل الرد على هذا الكتاب وتفنيده كبار

---

(١١) ويمكن الاطلاع على العدد المذهل من شروح هذا الكتاب وحواشيه فى « الثقافة الإسلامية فى الهند » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى - طبع مجمع اللغة العربية بدمشق .

علماء الشيعة ونوابغهم فى الكتابة والتأليف ، ويكفى لذلك أن كتاب « العبقات » الذى سُمى بـ « عبقات الأنوار فى إمامة الأئمة الأطهار »<sup>(١٢)</sup> ، الذى ألفه الشيخ السيد حامد حسين الكنتورى ( م ١٣٠٦ هـ ) جاء فى ثمانية مجلدات كبار ، ويمكن أن يقدر حجم هذا الكتاب وضخامته من أن المجلد الأول منه يحتوى على ١٢٥١ صفحة ، والمجلد الثانى على ٩٧٧ ، والمجلد الثالث على ٦٠٩ صفحة ، والرابع على ٣٩٩ صفحة ، والخامس على ٧٤٥ صفحة ، والسادس على ٧٠٤ صفحة ، وقس على ذلك البقية ، والكتاب كله فى ثلاثين جزءا ، وقد أكمل الكتاب ابن المؤلف الشيخ السيد ناصر حسين ، ويستفاد من كتاب « نجوم السماء » أن الشيخ دلدار على « المجتهد الأول » وميرزا محمد كامل الدهلوى والمفتى محمد قلى خان الكنتورى و « سلطان العلماء » السيد محمد كذلك ألفوا فى الرد على كتاب الشيخ الدهلوى ومحو آثاره كتبا ضخمة كبيرة ، وقد انتهت هذه السلسلة من الردود على ميرزا هادى رسوا اللكنوى ( الشاعر المعروف ) الذى كان رجل الأدب والفلسفة ، ولكنه حاول كذلك - المساهمة فى هذه « المبرة » .

وكيف خطر ببال الشيخ الدهلوى أن ينقطع إلى هذه القضية انقطاعا كليا - فى خضم الأشغال الصارفة عن التدريس ، وإلقاء الدروس العامة فى التفسير والحديث ، والقيام بنشر الكتاب والسنة ، ومهمة التربية والإرشاد وتسليك المريدين والإفتاء وفصل الخصومات التى لا تدع فرصة للتفكير فى شىء آخر ، ورغم الأمراض والآلام الشديدة التى كان يعانى منها، كيف انقطع - رغم كل ذلك - إلى هذه القضية التى كانت تحتاج إلى دراسة عشرات من الكتب وآلاف من الصفحات ، مع راحة البال وحمية القلب والانصراف الكامل ؟ لا يمكن أن يقدر ذلك إلا إذا كانت هناك دراسة عميقة للمجتمع المسلم فى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى وأواخره ( النصف الآخر من القرن الثامن عشر المسيحى ) فى الهند ، لا سيما شمال الهند وفى دلهى ونواحها وفى ولاية أوده ، وبهار وبنغال ، واطلاع واسع دقيق على الفوضى العقلية والفكرية المنتشرة فى المجتمع الإسلامى الهندى ، وما كان يحاوله علماء الشيعة من زرع الشكوك والشبهات فى حقائق الدين وتصوراته الأساسية ، وما كان للتشيع من التأثير على الأسر المسلمة لا سيما أسر الأشراف والبيوتات الكريمة ، وأصحاب الحكم والإدارة والطبقة المؤثرة ، وموقفه الهجومى العنيف ، ولم يمكن أبدا أن يقدر ذلك من لم يستعرض الثورات السياسية والإدارية من بعد عودة الملك همايون من

---

(١٢) وقد طبعت الأجزاء المختلفة للكتاب فى المطابع المتعددة بلكنتو ولدهيانة .

إيران إلى الهند إلى عهد فرخ سير ، وبعده أيضا ، وتأثير الأمراء والعلماء الإيرانيين الأصل ونفوذهم ، وسيطرة الأخوة الأشراف ( حسن علي خان وحسين علي خان ) علي بلاط دلهي ، وتأثيرهم فيه ، ثم تفاصيل استيلاء النواب نجف علي خان علي دلهي (١٣) ، وكذلك قيام دولة النواب أبي المنصور خان صفدر جنغ النيسابوري في ولاية « أوده » وتأثيرات الشيعة بعد شجاع الدولة ، ويسع القارىء أن يقدر ذلك - شيئا ما - بتصريح الشيخ الدهلوى الذى صدر من قلمه المعروف بالحيطرة والرزانة في مقدمة كتابه : « تحفة اثنا عشرية » ، يقول فيها :

« إن هذه البلاد التى نساكنها ، وهذا العهد الذى نعيشه ، قد بلغ فيها المذهب الاثنا عشرى من الذيوع والانتشار والقبول والرواج بحيث قل بيت من بيوت أهل السنة لا يميل فيه واحد أو اثنان من أفراده إلى هذه العقيدة ويتبع هذا المذهب ، ومعظم هؤلاء ممن لا يعرفون علم التاريخ والأخبار ، ويعيشون في غفلة وقلة علم بسير أسلافهم وأصولهم ومنهجهم ، وعندما يتناقشون مع أهل السنة والجماعة في مجالسهم ونواديهم ، يأخذون طريق الجدال والمراء والمغالطة ، وقد جاء تأليف هذه الرسالة حسبة لله - تعالى - لهذا الغرض حتى لا تزل أقدام المتبعين لمذهب أهل السنة والجماعة عند المناقشة والمناظرة ، ولا ينكروا أصولهم أنفسهم ، ولا يدعوا الشكوك والشبهات في تلك الأمور التى تبنى على الحقائق ، تجد إليهم سبيلا (١٤) .

ولم يتبع الشيخ الدهلوى في هذا الكتاب منهج تلك الكتب الكلامية التى تؤلف على طريق المناظرة والجدل ولا ذلك الأسلوب الذى يستخدم في الرد على الفرقة المخالفة وتفنيدها وإبطالها ، وتكون لها لغة خاصة وأسلوب خاص ، وقد جاء في الكتاب أولا ذكر

---

(١٣) لقد كانت للنواب نجف علي خان سيطرة كاملة على دلهي ، وكان مدافعا متحمسا عن الشيعة ومعارضاً قويا لأهل السنة علنا وجهارا ، وقد اشتهرت عنه وقائع من ظلمة واعتدائه ، وهى وأن لم تكن صحيحة - كليا - ويكون قد بولغ فيها أو داخلها العصبية لأهل السنة إلا أن لها أصلا ، ولعل الشيخ الدهلوى - تجنبا من اعتدائه - نسب كتابه هذا إلى اسمه التاريخي « غلام حليم » بدلا من اسمه المعروف ، وجاءت على صدر الورقة الأولى من الكتاب العبارة التالية :

« تأليف العالم العامل الفاضل الأكمل الحافظ غلام حليم بن الشيخ قطب الدين أحمد بن الشيخ أبي الفيض الدهلوى - قدس سرهم - وحيثما أحال من رد على هذا الكتاب من المؤلفين ذكروا المؤلف بـ « الفاضل العزيز » .

(١٤) « تحفة اثنا عشرية » ص : ٢ ، طبع مطبع نولكشور ، لكتنو ، عام ١٣٢٥ هـ .

نشأة المذهب الشيعى وانقسامه إلى مختلف الفرق والنحل وتعريف بعلماء الشيعة المتقدمين وكتبهم ومؤلفاتهم . ثم يأتى مبحث الخلافة ، والمطاعن التى وجهت إلى الصحابة - رضى الله عنهم - وبدلاً من الإقتصار على الردود عليها ، أفرد الشيخ الدهلوى أبواباً مستقلة فى القضايا الأصولية من الإلهيات والنُبُوت والمعاد والإمامة ، ثم أفاض فى الرد على مطاعن الشيعة فى الخلفاء الثلاثة الراشدين وأم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - والصحابة الآخرين - رضى الله عنهم أجمعين - وفند اعتراضاتهم واتهاماتهم ، ثم تحدث عن خصائص مذهب الشيعة وأوهامه وخرافاتهِ وعصبيته ، وعلق على أخطائهم وسوء فهمهم ومغالطاتهم ، ويشتمل الباب الأخير ( وهو الباب الثانى عشر ) على « الولاء والبراء » عندهم وهو يبنى على عشر مقدمات ، وقد جاء الكتاب فى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير والحروف الدقيقة .

والميزة الثانية للكتاب عدوية لغته وسهولتها وطلاقتها التى اعترف بها علماء الشيعة أنفسهم فى الهند وفى إيران ، ويتجلى من اسم الكتاب أيضاً هذا الغرض وهذا المعنى الذى كان من الدوافع إلى تأليف هذا الكتاب ، وأما الكتب التى ألفت فى الرد عليها فإنه يظهر من أسمائها الغضب والعنف والإثارة ويلمغ فيها بريق السيف والحسام ، فمنها - علي سبيل المثال - كتاب باسم « صوارم الإلهيات » وآخر باسم « حسام الإسلام » ، وثالث باسم « سيف ناصرى » ورابع باسم « ذو الفقار » .

وسوف يكون من الصعوبة بمكان أن يقدر - فى هذا العصر - ما أدى هذا الكتاب - الذى كان حاجة من حاجات العصر - من دور كبير وخدمة جليلة ، وقد سمع كاتب هذه السطور نفسه من الأمير الفاضل الشيخ حبيب الرحمن خان الشيروانى صدر الصدور (الرئيس العام) للشئون الدينية بولاية حيدرآباد - سابقاً - ( الذى كانت أسرته دائمة الاتصال بالشيخ الدهلوى وخلفائه ) أنه قال : « لقد قام هذه الكتاب فى وجه السيل الجارف من التشيع سداً منيعاً » وكان هذا الكتاب قد طبع وانتشر صيته فى الآفاق فى عهد الشيخ الدهلوى نفسه عام ١٢١٥ هـ<sup>(١٥)</sup> ، وكانت قد بدأت سلسلة الردود عليه ، وقد قام أحد تلامذة الشيخ الدهلوى الشيخ أسلمى المدارسى بتعريب هذا الكتاب ، وقد رأى كاتب هذه السطور هذه الترجمة العربية للكتاب فى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بك بالمدينة المنورة .

---

(١٥) انظر « مقالات طريقت » ص : ٣٣ .

## معارضة السلطة الإنكليزية والحفاظ على كيان الملة الإسلامية :

لقد قدم الشيخ الدهلوى - فيما يتعلق بالحفاظ على السلطة الإسلامية فى الهند ومقاومة الأخطار والتحديات التى تَصْعُ عُقبات كَأداء فى سبيل حرية المسلمين فيها - نموذجا رائعا للدراسة الواقعية الجادة للأوضاع والظروف ، واليقظة العقلية وبعْد النظر والأخذ بالعزيمة والصرامة ، التى تليق بعالم دينى من الدعاة والمصلحين ومن أصحاب البصيرة والفراسة . وتجدر بالقائد والمرشد الدينى فى عصره ، لقد كانت كبرى القضايا فى عصر الإمام الدهلوى إيقاف غارات المرهته وزحفهم وحملاهم ، التى أصبحت حادثا يوميا ، كانت الدولة المغولية تعانى - بسببها - من العجز والشقاء ، والذلة والمهانة فى جانب ، وكانت أعراض المسلمين وأموالهم - فى جانب آخر - معرضة للخطر ، ولم تعد الحياة فى المدن عادية آمنة . وقد كان إزالة هذا الخطر والحصول على المساعدات الممكنة لإيقافه والحيلولة دونه - فى ذلك الحين - كطلب رجال المطافىء وسيارات الأسعاف عند وقوع الحريق فى بيت من البيوت أو حتى من الأحياء ، وقد كان هذا هو موقف الإمام الدهلوى من أحمد شاه الأبدالى وجيشه ، وكأنه اشترط معه أن يعود وجيشه بعد إطفاء هذا الحريق ، وكان هذا فى نظر الإمام الدهلوى حيلة مؤقتة وتديرا عارضا لإعطاء الدولة المغولية فرصة طيبة لتدارك نفسها ، أو أن يحل محلها نظام أفضل منها ( إذا كان لا بد منه ) ولكنه لم ينجح لقصر نظر شاه عالم ملك الدولة المغولية - حينذاك - وسقوط همته ، إلا أنه لم تكن قد بدت فى الأفق - إلى ذلك الحين - علائم سيطرة الشركة الشرقية الهندية وتوليها لزام الدولة ، وقيام حكومتها عبر البحار فى هذه المنطقة النائية البعيدة ، التى كانت لتسترعى اهتمام الإمام الدهلوى وتصرف كل عنايته إليها .

ولكن تغيرت الظروف - سريعا - فى الهند بعد وفاة الإمام الدهلوى فقد كانت ولايات بنغال وبهار وأريسه الثلاث عهد بحكمها وإدارتها عام ١١٧٩ هـ الموافق عام ١٧٦٥ م ( بعد وفاة الإمام الدهلوى بثلاث سنوات ) إلى « دولة » الشركة الشرقية الهندية دون مشاركة أحد كإقطاع أو جائزة ملوكية من الأراضى الإقطاعية ، وكانت الشركة قد حصلت على « بنارس » و « غازيبور » كإقطاع - أيضا - ولم يكن قد بقى بعد ذلك فى أيدي ملك الأسرة التيمورية شاه عالم إلا ولاية إله آباد كما لم يكن له من الدخل إلا تلك ( النقود التى كان يمنحها الإنكليز إياه ) ، وقد أعلن فى مجلة الوقائع ( GALEVTTA GAZETTE ) بكلكتة يوم ٨ / مارس عام ١٧٨٧ م الموافق ١٢٠٢ هـ : « أن حكومة المسلمين قد بلغت من المهانة والحقارة ما بلغت ، ولا خوف علينا من الهندوس » ثم هزم الإنكليز سراج الدولة فى

ساحة بلاسى عم ١٧٥٧ م وهزموا شجاع الدولة فى ٢٣ / أكتوبر ١٧٦٤ م الموافق  
١١٧٨هـ فى ساحة بكُسرُ . واستشهد السلطان تيبو عام ١٧٩٩ م الموافق عام ١٢١٤ هـ فى  
ساحة سرنكابتن وكأنه ختم بذلك على مصير حكومة المسلمين وسلطتهم ، ولما وقع بصر  
لجنرال هارس ( HARRIS ) على جُثة السلطان تيبو الشهيد قال - بحق - : « الآن  
أصبحت الهند لنا » (١٦) .

إن الشيخ الدهلوى كان منقطعا إلى التدريس والإفادة بدلهى ولكن عينه البصيرة النافذة  
إلى أعماق الحقائق كانت تنظر إلى الهند كلها ، وقد رزقه الله - تعالى - عقلية واقعية غير  
عادية وحمية دينية متقدمة ، وعزيمة قوية صارمة ، وقد درس هذا الانقلاب والتغير الهائل  
فى الأوضاع دراسة مستوعبة ، وتوصل بها إلى نتيجة أن الإنكليز يشكلون أكبر خطر فى  
هذا الحين لمستقبل المسلمين والبقية الباقية من سلطتهم وحكومتهم ، وقد صور هذه الحقيقة  
فى بيت من شعراء العربى تصويرا كاملا ، ويظهر منه أنه لم يكن يرى تأثير الإنكليز  
منحصرا فى حدود الهند فحسب بل يعتبر أوسع حدودا وأبلغ مدى ، يقول :

**وإنى أرى الإفرنج أصحاب ثروة      لقد أفسدوا ما بين دلهى وكابل**

وهو أول شخص - فى حدود علمنا - تجاسر على إعلان أن الهند أصبحت دار حرب ،  
وقام مستعرضا للأوضاع والظروف ، فى ضوء الفقه وأصوله ، بتحقيق هذه المسألة  
وتنقيحها بطريق يدل على عمق بصيرته وشجاعته الخلقية والدينية أيضا ، فقد قال فى  
«الفتاوى العزيزية» ج / ١ ، فى الرد على سؤال أن دار الإسلام هل يمكن أن تتحول دار  
حرب أو لا ؟ بعد نقل عبارة طويلة من « الدر المختار » :

« إن حكم أمام المسلمين فى هذه المدينة ( دلهى ) غير نافذ ، وحكم الحكام النصرانيين  
نافذ مطبق بدون معارضة ونقد ، وإن ما يسميه الفقهاء بإجراء أحكام الكفر يراد به أن يكون  
الكفار أصحاب حكم وسلطة فى شئون إدارة البلاد وتنظيم الرعية وأخذ الجبايات وتعشير  
أموال التجارة وتعزير السراق وقُطاع الطرق والفصل فى الخصومات والتعزير على عامة  
الجرائم ، وإن كانوا لا يتعرضون لبعض الأحكام الإسلامية كإقامة الجمعة والعيدين والأذان  
وذبح البقر ، ولكن الأصل الأصيل أن تكون هذه الشئون المتقدمة الذكر تحت رحمتهم وفى  
دائرة نفوذهم ، أننا نرى بأم أعيننا أنهم يهدمون المساجد علنا - ولا يسمح لأى مسلم أو  
ذمى أن يدخل هذه المدينة أو نواحيها إلا بإذنتهم ، ولا يمنعون الوافدين من الخارج والمسافرين

---

(١٦) انظر « تاريخ سلطنة خداداد » تاريخ الدولة الموهوبة لمحمود خان محمود البنغلورى ، ص: ٢٦٦ .

والتجار لمصالحهم الذاتية ، ولكن الوجهاء الآخرين كشجاع الملك وولايتى بيكم لا يمكن أن يدخلوا المدينة بغير إذنتهم ، إن حكم النصارى يسود من مدينة دلهى إلى كلكتة ، نعم إنهم لم ينفذوا أحكامهم فى بعض المناطق - يمينا وشمالا - كحيدر آباد ولكتنورامفور ، إما لأجل مصالحهم الخاصة ، أو لأن حكام هذه الولايات خضعوا لسلطانهم وقبلوا طاعتهم» (١٧) .

وقد انعكست هذه التصورات التى كان يحملها الشيخ الدهلوى والنظرة التى كان ينظر بها إلى الإنكليز على تصورات خليفته الجليل وخريج مدرسته التربوية العظيمة الإمام الداعية المصلح السيد أحمد بن عرفان الشهيد وعواطفه ومشاعره ، وتتجلى هذه العكوس فى رسائله التى كتبها إلى وجهاء عصره وأعيانه وأمرائه وبعض الحكام المسلمين الأجانب ، يقول فى رسالة كتبها إلى شاه سليمان والى « جترال » :

« لقد تدهورت حكومة الهند وسلطته - لسوء الحظ - منذ أعوام إلى وضع سيء حتى استولى المسيحيون والمشركون على أكثر بقاع الهند ، وملأوها بظلمات الظلم والجور والطغيان » (١٨) .

ويقول فى كلمات أكثر صراحة منه فى رسالة إلى هندوراؤ وزير كواليار :

« من الواضح الظاهر عليكم أن هؤلاء السكان وراء البحار ، قد ظلوا سلاطين العالم وملوك الأرض ، وهؤلاء البياعين التجار قد غدوا يملكون زمام البلاد وقد أسقطوا حكومات الحكام الكبار وانتهكوا الحرمات والأعراض وأذلّوهم وأرغموا أنوفهم » (١٩) .

ويكتب إلى غلام حيدر - الذى كان أحد الضباط العسكريين فى كواليار :

« لقد راحت معظم البقاع من هذه البلاد إلى سلطة الأجانب وقد شمروا عن ساعد الجد فى الظلم والعدوان فى كل مكان ، لقد ضاعت حكومة حكام الهند وخربت » (٢٠) .

ويظهر - جليا - من تلك الرسالة التى يوجهها الإمام الشهيد إلى الأمير كامران ، أن الغرض الحقيقى من وراء هذا الجهاد الذى كان يقوم به ، كان هو تحرير الهند التى كان يتم

---

(١٧) الفتاوى العزيزية ، ج : ١ ، ص : ١١٤ ، طبع المطبع المجتبائى .

(١٨) سيرة السيد أحمد الشهيد ، ج : ١ ، ص : ٣٨٩ .

(١٩) سيرة السيد أحمد الشهيد ج : ١ ، ص : ٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٢٠) أيضا ص : ٣٩٠ .

عليها استيلاء الإنكليز وسيطرتهم بصورة تدريجية ، يقول فى هذه الرسالة :

« إن هذا الفقير سوف ينصرف مع المجاهدين الصادقين بعد الفراغ من هذه المهمة ( مهمة بنجاب ومنطقة الثغور الشمالية ) إلى الهند بعزيمة القضاء على الكفر والطغيان إذ هو الغرض الحقيقى من ذلك » (٢١) .

ويمكن أن يقدر ذلك - أيضا - من أن الإمام أحمد بن عرفان ذهب عام ١٢٢٧ هـ ( أى قبل وفاة الشيخ عبد العزيز الدهلوى باثنتى عشرة سنة ) إلى جيش الأمير أمير خان الذى كان - حينذاك - فى حرب الإنكليز ، وكان معه أفضل العناصر العسكرية فى الهند ، ودماء المسلمين الفائرة ، والبقية الباقية من القوة الفاتحة فى الهند ، وكثير من أسود ذاك العهد وأبطاله ورجاله ، وقد كانت هذه القوة ناهضة متقدمة حرة فى الهند ، لم يكن من الممكن أن يتجاهلها أى مُطَّلِع بصير ، وقد كان يمكن بتنظيمها وإحياء روح الأهداف الصحيحة العالية فيها أن توقف إزاء القوة الناهضة للإنكليز (٢٢) ، فقد غيرت مثل هذه القوى ذات الهمة والشهامة - رغم ضعفها فى العدد والعتاد - وجهة الأحداث وتيار الظروف والأوضاع فى تاريخ الشعوب والبلاد ، ولم يثبت لدينا حتى الآن عن طريق الوثائق الكتابية أن الإمام أحمد بن عرفان كان قصد جيش أمير خان بأمر من الشيخ الدهلوى وإرشاد صريح منه ، إلا أن هناك من القرائن ما يفيد أن هذه الخطوة كانت بإشارة منه أو - على الأقل - بموافقة ورضاه ، وذلك لأنه لما صالح النواب أمير خان عام ١٢٣٣ هـ الإنكليز ، وقع بالحصول على عدد من المناطق المفرقة غير ذات شأن من ولايات راجبوتانه ومالوه ، التى كانت تسمى مجموعتها بإمارة « تونك » ، واختار العزلة عن محاربة الإنكليز ، رأى الإمام أحمد بن عرفان أن البقاء معه أكثر من ذلك لا غنى فيه ولا فائدة ، فاختار هو - أيضا - مفارقتة والانفصال عنه ، وكتب رسالة إلى الشيخ الدهلوى وكان من محتواها :

« سوف يتشرف الفقير بالحضور ، فقد تفرق العسكر هنا وتبدد ، واتفق النواب مع الإنكليز وصالحهم ، فلا مجال لنا - الآن - للمكث والبقاء » (٢٣) .

(٢١) أيضا .

(٢٢) انظر للتفصيل « سيرة السيد أحمد الشهيد » ج : ١ ، وليعلم أن أمير خان لم تكن له أى صلة « بالفنڊاريين » الذين وصفتهم كتب التاريخ الإنجليزية وكتب المؤرخين الذين تأثروا بها بأنهم قطاع الطرق ، ولفيف من الهدامين ، والحقيقة فى هذا الأمر أن الفنڊاريين كانوا - أحيانا - يلجأون إليه ، وكان هو ينقذهم من الأخطار المؤقتة المفاجئة .

(٢٣) انظر « وقائع أحمدى ص : ٨٥ ، مخطوط فى مكتبة ندوة العلماء - لكهنؤ .



ويمكن أن يستتج من ذلك أن هذه الرحلة للإمام أحمد بن عرفان إلى الأمير كانت بإشارة من الشيخ الدهلوى ، ولذلك رأى من اللازم عليه أن يخبره بعودته عنه ومفارقتها .

وهكذا استخدم الشيخ الدهلوى فى التعرف على ذلك الخطر الكبير الذى كان يواجهه المسلمون والهند كلها - بصيرته الموهوبة وفراسته الإيمانية ولم يدخر وسعا فى اتخاذ التدابير اللازمة لعلاج ذلك ، التى كان فى وسعه أن يتخذها فى عهده ، وتتجلى بصيرته هذه وعاطفته الإيمانية فى جميع أفراد جماعة المجاهدين التى تنتمى إليه ، والتى كان يقودها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وابن أخ الشيخ الدهلوى النابغة العظيم الشيخ إسماعيل الشهيد ، فى أروع مظاهرها وأجلى صورها ، كما تتجلى مشاهدتها الرائعة فى حروب الشيخ ولايت على العظيم آبادى ، والشيخ يحيى على الصادق بورى ، والشيخ أحمد الله ، والشيخ عبد الله ضد الإنكليز على الحدود ، وفى تلك التضحيات الجليلة التى قام بها الصادقون من صادق بور والتى لا يوجد لها نظير إلا بصعوبة (٢٤) .

ثم انتقلت هذه العاطفة من هذه الجماعة المجاهدة المناضلة إلى أولئك العلماء والقادة الدينيين الذين خاطروا فى سبيلها بمهجهم وأرواحهم عام ١٨٥٧ م ، وقد اشتهر منهم الشيخ أحمد الله شاه المدراسى ، والشيخ لياقات على الإله آبادى ، والشيخ إمداد الله المهاجر المكى ، والحافظ ضامن الشهيد ، ثم انتقلت إلى أولئك العلماء الذين ما تركوا هذا المشعل يخبو يوما ، ولم تزل تتصل حلقات هذه السلسلة إلى ١٩٤٧ م .

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ﴾ .

### تربية رجال العمل والجهاد :

أما ما يتعلق بتربية رجال الجهد والجهاد الذين يقومون - حسب مقتضيات العصر والأوضاع ومتطلبات الدين الحقيقية - بأعمال الدعوة والإصلاح ويرفعون راية الجهد والجهاد، فإن من حسن الحظ ، والحكمة الإلهية البالغة أن نصيب الشيخ الدهلوى من ذلك أكبر وأعظم من كثير من سلفه ومشايخه ، ومن أولئك الرجال الذين يمكن أن تكون منزلتهم عند الله - تعالى - أعلى وأفضل ( والقرائن تدل عليه ) فقد وفقه الله - تعالى - لتربية عدد من الرجال الأكفاء ذوى الصلاحية الفائقة والهمة العالية والعزيمة الصارمة

---

(٢٤) انظر للتفصيل كتاب المؤلف « إذا هبت ريح الإيمان » ص : ١٨٩ - ٢٠٠ طبع دار القلم الكويت ومؤسسة الرسالة .

والتأثير فى النفوس والقلوب الذين أحدثوا ثورة عظيمة فى حياة الآلاف المؤلفة من الناس ، وكأنهم أمسكوا بقرن كامل وحفظوه من السقوط والانهار ، لقد كان نهر علم الشيخ الدهلوى وحياته هادئا ساكنا ، ولكنه كان كما يقول الدكتور إقبال :

« من هذا النهر تتصاعد تلك الأمواج الطاغية المتلاطمة التى تحطم أوكار التماسيح وتجعل عاليها سافلها » .

### الإمام أحمد بن عرفان الشهيد :

يكفى لإثبات هذه الدعوى أن يذكر اسم خليفته الأجل الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ( ١٢٠١ - ١٢٤٦ هـ ) الذى قاد فى شبه القارة الهندية تلك الحركة الإسلامية العظيمة التى لا يوجد لها نظير فى شمولها وقوة تأثيرها ومشابقتها للدعوة الإسلامية الأولى ، والمنهج النبوى الكريم ، لا فى القرن الثالث عشر الهجرى فحسب ، الذى هو عهدنا بل لا نعثر فى عدة قرون ماضية على مثل هذه الحركة الإيمانية والجماعة القوية المنظمة للرجال المخلصين الصادقين ، وأن ذلك النشاط الذى قام به فى مجال تصحيح العقائد وتربية الرجال والدعوة والتذكير والتضحية والجهاد الطويل العريض ، لم يقتصر تأثيره على ساحة حربه ونضاله والجيل المعاصر له ، بل ترك آثارا بارزة عميقة خالدة على الأجيال القادمة ، والركب القادم لدعاة الحق والصدق ورجال الفكر والجهاد وقادة الحركة الإسلامية والخدمة لهذا الدين الحنيف ، وهو الذى بدأ بالجهود الموفقة والمحاولات الجادة للدفاع عن الهند والبلدان المجاورة لها وحماتها إزاء السلطة الناهضة المتزايدة للمستعمرين الإنكليز ، وتأسيس الحكومة الإسلامية على منهاج الخلافة الراشدة ، وقد كان زمام القيادة لهذه الحركة والنشاط ، والجدّ والجهاد فى الهند ، أولا بأيدى علماء هذه الجماعة وقادتها المخلصين ، وتدين بجهودهم الحركة الجديدة فى مختلف بقاع الهند للتصنيف والتأليف والبحث والتحقيق والترجمة والنشر ( التى ردمت ذلك الخليج الواسع العميق الواقع بين عامة المسلمين وبين التعاليم الإسلامية الصحيحة والكتاب والسنة ) كما أن اليقظة الدينية والسياسية فى المسلمين - بواسطة أو بدون واسطة - ليست إلا من ثمار هذه الدعوة والحركة ونتائجها الطيبة المباركة وقد أثرت هذه الحركة على الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى واللغة والأسلوب المتداول أيضا ، وقامت بأعمال عظيمة جبارة فى إصلاح المجتمع والقضاء على التقاليد الجاهلية ، وإزالة الآثار الهندوكية ، والعودة إلى الحياة الإسلامية الصحيحة من جديد .

ونذكر - فيما يلى - لقياس ما كان لدعوة الإمام الشهيد وتربيته من تأثير وشمول وقوة وعمق - بعض المقتطفات من كتابات العلماء البصيرين المطلعين :

« يقول مؤلف الهند المعروف والمؤرخ الكبير العلامة السيد صديق حسن خان - والى بوفال - ( م ١٣٠٧ هـ ) - الذى كان من المشاهدين لآثار تربية الإمام الشهيد وتعليمه وإرشاده ، وعاصر عددا كبيرا ممن صحبوه أو شهدوه ، يقول فى كتابه « تقصار جيود الأحرار » :

« كان ( السيد أحمد الشهيد ) آية من آيات الله - تعالى - فى هداية الخلق ورجوعهم إليه ، وقد وصلت جماعات كثيرة وعالم بأسره ، بعنايته المعنوية والمادية إلى منازل الولاية ومدارج الإحسان ، وقد طهرت مواعظ خلفائه وخطبهم أرض الهند من ألوات الشرك والبدع وأقذائها ، وساروا بها على درب الكتاب والسنة ، ولا تزال بركات مواعظهم وتذكيرهم تسرى فى الوجود وتجرى ( كالأنهار ) . »

ويزيد قائلا :

« وبالجملة فإنه لم يسمع فى هذا العصر وفى أى بلد من بلدان العالم بمثل هذا العبقري الفذ ، وإن ما فاض على خلق الله - تعالى - من هذه الجماعة القائمة بالحق من خير وفائدة وهداية ، لم يحصل عشر معشارها على أيدي علماء هذا العهد ومشايخه » (٢٥).

ويقول أستاذ الأساتذة فى عصره العلامة الشيخ حيدر على الرامفوري الطوكي ( م ١٢٧٣ هـ ) تلميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوي فى « صيانة الناس » :

« لقد أضاء نور هدايته وإرشاده كالسراج الوهاج فى البلاد وقلوب العباد ، وضرب السعداء المحظوظون إليه أكباد الإبل ، وشدوا إليه الرحال ، وتابوا على يديه من الإشراك والمناهى والبدع والمحدثات - التى كانوا قد اعتادوها ودرجوا عليها - وسلكوا سبيل التوحيد والسنة والرشد ، وبعث خلفاءه الصادقين العاملين إلى أكناف البلاد البعيدة ، ومهد بهم لمئات الآلاف من الناس طريق الملة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - فمن عقل ورشد ، وحالفه التوفيق والتأييد فقد اهتدى إلى هذا الطريق » (٢٦).

ويقول أحد علماء الهند المطلعين الثقات الشيخ عبد الأحد - الذى زار عددا كبيرا من أفراد هذه الجماعات النيرة الصادقة ، وكان عهده قريبا من عهد الإمام الشهيد :

---

(٢٥) « تقصار جيود الأحرار من تذكارات جنود الأبرار » ( بالفارسية ) ص : ١٠٩ - ١١٠ طبع بوفال عام ١٢٩٨ هـ .

(٢٦) « صيانة الناس عن وسوسة الخناس » ص : ٤ ، طبع عام ١٢٧٠ هـ .

« لقد أسلم على يدى السيد ( أحمد الشهيد ) أكثر من أربعين ألفاً من الهنادك وغيرهم من الكفار ، وبأيع على يديه ثلاثة ملايين من المسلمين ، وأما ما يجرى من سلسلة المبايعة على أيدي خلفاء خلفائه على وجه الأرض كلها ، فإنه يدخل عن طريقها فى بيعته مئات آلاف من الناس » (٢٧) .

ويعتبره - لأجل هذه المأثرة الإصلاحية والتجديدة العظيمة - معظم أصحاب الفكر والبصيرة المنصفين مجدد القرن الثالث عشر الهجرى .

### الشيخ عبد الحى البرهانوى والشيخ محمد إسماعيل الشهيد :

وامثال الثانى لتربية الشيخ عبد العزيز الدهلوى وتعليمه وإرشاده اثنان من تلامذته النجباء والأدنين من ذوى قرباه الشيخ عبد الحى البرهانوى ، والشيخ محمد إسماعيل الشهيد ، وقد كان الشيخ الدهلوى يعترف لهما بالعلم والفضل والتبحر فيه ، وقد وصفهما فى إحدى رسائله « تاج المفسرين وفخر المحدثين وأحد نوابغ العلماء المحققين » وقال فى رسالة كتبها إلى أحد أعيان لكنهو المنشى خير الدين .

« كلاهما لا يقلان عن هذا الفقير فى علم التفسير والحديث والفقه والأصول والمنطق وغيره ، وأن ما شملتها من عناية الله - تعالى - ورعايته - لا أستطيع أن أودى حق شكرها على ، فأعتبرهما من العلماء الربانيين وإذا استعصى عليك أشكال فأعرضه عليهما » (٢٨) .

---

(٢٧) انظر « سوانح أحمدى ، وانظر مزيداً من الشهادات وتصريحات الشيخ ولايت على العظيم آبادى (١٢٦٩ هـ) والشيخ كرامت على الجونفورى ( ١٢٩٠ هـ ) فى رسالة المؤلف بعنوان الإمام الذى لم يوف حقه من الإعراف والإنصاف » ، وانظر لسيرة الإمام أحمد بن عرفان ومناقبه وفضله بتفصيل سيد أحمد شهيد « للشيخ غلام رسول مهر ( المجلدات ١ - ٤ ) و « سيرة السيد أحمد الشهيد » للمؤلف ج : ١ و ٢ ، وأما ما حصل على أيدي خلفائه من هداية عامة وإصلاح كبير وما كان لهم من تأثير فيمكن أن يقدر شئ من ذلك من « الذكر الجلى فى كرامات السيد محمد على » (بالأردية) تأليف افسر الدولة جان جهان خان بن النواب محمد خان عالم خان بهادر تهور جنك طبع عام ١٣٠٥ هـ بمطبع مرغوب دكن ، سكندر آباد ، وهو فى سيرة خليفة الإمام الشهيد ، السيد محمد على الرامفورى ومناقبه وكراماته وما تم على يديه من هداية وإصلاح فى « مدراس » .

(٢٨) انظر « سيرة السيد أحمد الشهيد » ج : ١ ، ص : ٢١٦ - ٢١٧ .

لقد كانت مكانة الشيخ عبد الحى العلمية - لدى أهل العلم والفضل - رفيعة ممتازة ، وكان على الكعب فى العلوم المتداولة ، ويفضله الشيخ الدهلوى فى علم التفسير على جميع تلامذته الآخرين ، وكان يقول : « إنه مثلى » وقد خاطبه فى إحدى رسائله إليه بلقب « شيخ الإسلام » الذى لم يدع به إلا بعض خاصة العلماء .

وأما الذى هو فوق تبخره العلمى ونبوغه العقلى والفكرى فهو ربانيته وإخلاصه ، حيث راجع الإمام الشهيد - رغم هذا العلم والفضل - الذى كان أصغر منه سنا بكثير ، وتلمذ عليه فى العلم - فإنه لما بايعه لم يلبث أن انصبغ بصبغته ، وفداه بعلمه وفضله ، وأنفق كل ذلك عليه وعلى عمل الدعوة والجهاد ، ونذر قلمه ولسانه وكل ما آتاه الله - تعالى - من قوة صلاحية وكفاءة لنصر الحق وتمكينه ونشره وأسلم نفسه فى رحلته للهجرة والجهاد إلى بارئها الكريم وهكذا أصدق ما عاهد الله عليه .

وأما الشيخ محمد إسماعيل الشهيد ، فإنه من أولئك الأفراد الأفذاذ من أولى العزم وأصحاب الهمة العالية ، والذكاء الخارق ، والجراءة الكبيرة الذين لا يولدون إلا بعد عهود وقرون ، فقد كان يملك العقلية الاجتهادية ، ولا يكون من المبالغة والإسراف فى القول إذا قلنا بأنه كان يملك القدرة والكفاءة لتدوين كثير من العلوم من جديد ، وقد ذكره الشيخ الدهلوى فى إحدى رسائله إليه : « بحجة الإسلام » ويتجلى فى علمه ومؤلفاته لون الإمام الدهلوى ومنهجه ، وأسلوبه ، طراوة علم ، ولطافة استدلال واستشهاد ، ودقة نكات وسلامة ذوق ، وتفقه فى الكتاب والسنة واستحضارا عجبيا للمعلومات وقوة تعبير وبيان .

وإن من خصائصه الكبرى أنه خرج من ذلك النطاق المحدود للعلماء المدرسين الأذكياء ، الذين تعين لجماعتهم منذ أعوام بل منذ قرون ، ولم يدخل ساحة الجهد والجهاد ، والإصلاح والإرشاد فحسب ، بل قاد فيها جيوشه وجحافلهم ، وأن ما قام به كتابه « تقوية الإيمان » وهدى من نفع عظيم للخلق وتصحيح للعقائد والتصورات لعله لا يمكن أن تقوم به الجهود المنظمة فى إشراف حكومة من الحكومات إلا بجهد وصعوبة ، وقد كان الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى ، يقول : « لقد صلح بجهود الشيخ إسماعيل فى حياته مائتا ألف وخمسون ألف من الناس ولا يمكن أن يقاس ما جرى بعده من نفع وفائدة عظيمة » .

وكان قد أعد نفسه - مع هذه المهمة العظيمة « للإصلاح والدعوة الشعبية العامة - للجهاد فى سبيل الله - تعالى - إعدادا كاملا ، ولم يكن قد أدى حق مرافقة الإمام الشهيد ومواكبته - الذى كان قد بايعه بيعة السلوك والجهاد - فحسب ، بل كان دوره فى هذه المهمة دور قائد للحركة ونائب للأمير ووزير له ، ثم أفنى نفسه فى ذلك وحاز على شرف

الشهادة فى معركة بالاكوت وهؤلاء الذين يحق أن يقال فيهم :

« رهبان بالليل وفرسان بالنهار » .

### الشيخ محمد إسحاق والشيخ محمد يعقوب :

لقد خلف الشيخ الدهلوى - فى ذوقه الخاص وتدريسه للحديث الشريف والاهتمام بأسانيده وإجازاته والقيام بنشر العلوم الدينية وتعميمها - سبطاه ( ابنا بنته ) الشيخ محمد إسحاق ( ١١٩٧ - ١٢٦٢ هـ ) ، والشيخ محمد يعقوب - ( ١٢٠٠ - ١٢٨٢ ) وكانا ابين للشيخ محمد أفضل ، وقد استخلف الشيخ الدهلوى الشيخ محمد إسحاق ووهبه جميع كتبه وبيته وغير ذلك ، فجلس بعد وفاة الشيخ الدهلوى على كرسى التدريس ، وانصرف من عام ١٢٣٩ هـ إلى ١٢٥٨ هـ بدلهى ، (العام الذى هاجر فيه إلى مكة المكرمة) ، ومن عام ١٢٥٨ هـ إلى ١٢٦٢ هـ فى الحجاز إلى خدمة الحديث الشريف وتدريسه والاستغراق فيه ، وقد قرأ عليه الحديث مئات من علماء الهند ، واستفاد منه كبار العلماء وأساتذة الحديث الوافدون عليه من مختلف البلدان والأمصار ، وأسندوا عنه الحديث ، كان منهم الشيخ عبد الله سراج المكى ، وكبار العلماء الآخرون ، وقد كان الشيخ الدهلوى يشكر الله - تعالى - على أن رزقه العضدين القويين فى صورة الشيخ محمد إسماعيل ( ابن أخيه ) والشيخ محمد إسحاق ( سبطه ) وكان كثيرا ما يردد هذه الآية الكريمة :

﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ .

وقد توفى الشيخ إسحاق الدهلوى فى ٢٧ / رجب عام ١٢٦٢ هـ بمكة المكرمة ودفن فى المعلاة بمقبرة من مرقد أم المؤمنين السيدة خديجة - رضى الله عنها - (٢٩) .

ولم يزل الشيخ محمد يعقوب كذلك - مشغلا بالتدريس والإفادة بدلهى مدة طويلة من الزمن ، ثم هاجر مع أخيه الأكبر الشيخ محمد إسحاق إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨ هـ واستوطنها واستفاد منه الأمير العلامة السيد صديق حسن خان القنوجى (أمير بوفال) (٣٠) ، والشيخ السيد أحمد النصير آبادى (٣٠) ، وخلق ، وانتقل الشيخ محمد يعقوب يوم الجمعة

(٢٩) انظر لترجمة « نزهة الخواطر » ج ٧ .

(٣٠) ان ما قام به الأمير السيد صديق حسن خان من خدمة جليلة للحديث الشريف ونشر لكتبه ومصادره، وما تحولت ولاية بوفال - بعنايته وإشرافه - مركزا لدروس الحديث الشريف، وموطنا لمحدثى اليمن، من الحقائق التاريخية ومآثره الجليلة ، وأن طبع «فتح البارى» بمطبع بولاق بمصر ونشره الذى أنفق عليه ٥٠٠٠٠ ألف روبية منة عظيمة على العلماء وطلبة العلم ، ويرجع إليه سبق فيه .

(٣١) كان أحد الدعاة المصلحين فى سلسلة الإمام الشهيد ومن أسرته ، انظر لترجمته المفصلة : « نزهة الخواطر » ج : ٧ .

٢٧ / ذى القعدة عام ١٢٨٢ هـ إلى رحمة الله - تعالى - ودفن في المعلاة .

## العلماء الأجلة والأساتذة الكبار :

إن العلماء الذين استفادوا من دروس الشيخ الدهلوى وتربيته وصحبته ، ثم أقاموا حلقات دروسهم ، وذاع صيتهم فى الآفاق ، ونفخوا فى النظام التعليمى الدينى روحا جديدة من الحياة ، ثم تخرج على أيديهم عدد كبير من العلماء الأجلة ، نود أن نذكر - فيما يلى - أسماء من بعد صيتهم واعترف لهم القاصى والدانى بملكتهم القوية الممتازة فى التدريس وجمعهم بين المعقول والمنقول وتبحر علمهم وسعة معلوماتهم ، وقد كان كل واحد منهم مدرسة قائمة بذاته ، ومؤسسة علمية بمفرده ، وهؤلاء كالتالى :

- ١ - المفتى إلهى بخش الكاندهلوى .
- ٢ - الشيخ إمام الدين الدهلوى .
- ٣ - الشيخ حيدر على الرامفورى الطوكى .
- ٤ - الشيخ حيدر على الفيض آبادى ، صاحب « منتهى الكلام » .
- ٥ - الشيخ رشيد الدين الدهلوى .
- ٦ - المفتى صدر الدين الدهلوى (٣٢) .

ويمكن أن يقال - نظرا إلى هؤلاء النوابغ الأجلة والأساتذة الكبار ، ومن ذكر قبلهم من رجال الفكر والدعوة وأصحاب الهمة والعزيمة وقادة حركة الإصلاح والتجديد والجهاد فى سبيل الله - تعالى - الذين كانوا ينتمون إلى الشيخ الدهلوى - روحيا وعلميا ومعنويا - إن القرن الثالث عشر الهجرى كان قرن الشيخ الدهلوى فى تعليمه وتدرسه ، وإرشاده وتربيته للرجال الذين يتجمل بهم التاريخ وتغيرت بهم وجهة الأحداث ، « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وسنورد بعد الفراغ من ذكر الشيخ الدهلوى الذى هو كالنقطة المركزية فى دائرة سلسلة الإمام الدهلوى وواسطة العقد فى السلك النورانى لأبنائه وتلامذته - تراجم ابنى الإمام الدهلوى الآخرين وهما الشيخ رفيع الدين والشيخ عبد القادر ، وتراجم ثلاثة من خلفائه الكبار الشيخ محمد عاشق الفلتى ، والشيخ محمد أمين الكشميرى ، والسيد أبو سعيد

---

(٣٢) ليرجع لتراجمهم وأخبارهم نزهة الخواطر نزهة الخواطر للعلامة السيد عبد الحى الحسنى ج : ٧ .

الحسنى الرائى بريلوى ، وهى تراجم مقتبسة من « نزهة الخواطر » ج / ٧ .

الشيخ رفيع الدين الدهلوى :

الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة رفيع الدين عبد الوهاب بن ولى الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوى ، المحدث المتكلم الأصولى الحجة الرحلة ، فريد عصره ونادرة دهره ، ولد بمدينة دهلى ونشأ بها واشتغل بالعلم على صنوه عبد العزيز وقرأ عليه ولازمه وأخذ الطريقة عن الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله البهلتى ، وبرع فى العلم ، وأفتى ودرس وله نحو العشرين ، وصنّف التصانيف وصار من أكابر العلماء فى حياة أخيه المذكور ، وقام مقامه فى التدريس ، بعد ما أصيبت عيناه ، فازدحم عليه الناس وتلقى كل واحد من تلك اللطائف على قدر الاستعداد واعترف بفضلها علماء الآفاق وسارت بمصنفاته الرفاق .

قال صنوه عبد العزيز فيما كتب إلى الشيخ أحمد بن محمد الشروانى « هذا أوان الأخ الفذّ البذّ ، المتخلق من طيب الخلال بما طاب ونذّ ، الذى هو شقيقى فى النسب ولحيقى فيما يظن بى الكرام من فنون العلم وشجون الأدب ، هو تلوى فى السن وصنوى فى الصناعة والفن ، قد رباه الله بمنح الطافه على يدى ، ومنّ بتكميله علىّ ، لما زارنى من مقامه بعد ما اغترب شطرا من أيامه اتحفنى برسالة وجيزة بل جوهرة عزيزة ، تحتوى على نكت مخترعة هو أبو بجدتها وتنطوى على فقر مفترعة لم يسبق إلى أسوتها ، مسوقة لتفسير كلام الله المجيد فى آية النور ، وكشف القناع عن وجوه تلك المعانى المقصورات من الإعجاز فى القصور ، ولعمري لقد أتى فى هذا الباب بالعجب العُجاب ، وميزّ القشر عن اللُّباب ، ونورّ مصابيح زجاجات القلوب ، وروح الأرواح بديع الأسلوب » .

وقال محسن بن يحيى الترهتى فى « اليانع الجنى » وكانت له خبرة تامة بغير هذه العلوم أيضاً ، من علوم الأوائل ، وهذا قلما يتفق مثله لأهل العلم ، وله مؤلفات جيدة مرصفات ، رأيت بعضها فرأيت يكثُر فى ما له من المتون المهذبة فى نفائس الفنون من رموز خفية ، يعسر الاطلاع عليها ويجمع مسائل كثيرة فى كلمات يسيرة وفى ذلك دلالة واضحة على تعمقه فى العلوم ودقة فهمه بين الفهوم ، وكتابه « دمع الباطل » فى بعض المسائل الغامضة من علوم الحقائق معروف ، أثنى عليه أهلها ، وله مختصر جامع بين فيه سريان الحب فى الأشياء كلها وأوضح للناس أطواره يسمى « أسرار المحبة » قلما اتفق مثله لغيره ممن تكلم عليها ، ولا أعرف من سبقه إلى ذلك إلا رجلاً من الفلاسفة أبو النصر الفارابى وأبو على بن سينا على ما يفهم من كلام النصير الطوسى فى بعض كتبه .



وله مصنفات غير ما ذكرها الشيخ محسن ، وهي : رسالة فى العروض ، ورسالة فى مقدمة العلم ورسالة فى التاريخ ، ورسالة فى إثبات شق القمر وإبطال البراهين الحكيمية على أصول الحكماء ، ورسالة فى تحقيق الألوان ، ورسالة فى آثار القيامة ، ورسالة فى الحجاب ، ورسالة فى برهان التمانع ، ورسالة فى عد الأنامل . ورسالة فى شرح أربعين كافات ، ورسالة فى المنطق ، ورسالة فى الأمور العامة ، وحاشية على «ميرزاهد رسالة» ، ومن مصنفاته : «تكميل الصناعة» كتاب عجيب قلما اتفق مثله لغيره ، وله غير ذلك من المؤلفات الجيدة ، وله تخميس على بعض القصائد لوالده .

وله قصيدة بليغة تدل على علو كعبه فى العلوم الفلسفية واقتداره على العربية عارض بها قصيدة الشيخ الرئيس أبى على بن سينا «العينية» التى تعرف بقصيدة الروح ، ومطلعها :

ورقاء ذات تعزز وتمنع

هبطت إليك من المحل الأرفع

فأجاب عنها بقصيدة ، أولها :

حفيت بعينه منارة مشرع

عجبا لشيخ فيلسوف المعنى

توفى رحمة الله فى حياة صنوه الكبير عبد العزيز لست ليال خلون من شوال سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف بمدينة دهلى ، فدفن بها خارج البلدة عند أبيه وجدته (٣٣) .

الشيخ عبد القادر الدهلوى :

« الشيخ الإمام العالم الكبير العارف عبد القادر بن ولى الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوى أحد العلماء البارزين المبرزين فى المعارف الإلهية ، اتفق الناس على ولايته وجلالته ، توفى والده فى صغر سنه ، فقرأ العلم على صنوه الكبير عبد العزيز بن ولى الله وأخذ الطريقة عن الشيخ عبد العدل الدهلوى وجمع العلم والعمل والزهد والتواضع وحسن لسلك ووضع الله سبحانه له المحبة فى قلوب عباده لما اجتمع فيه من خصال الخير ، فصار مرجوعاً إليه فى بلده ومرجوعاً إليه بعلم الرواية والدراية وتهذيب النفوس والدلالة على معالم الرشد وطرائق الحق .

كان يدرس ويفيد ويسكن بالمسجد الأكبر أبادى فى دهلى ، قرأ عليه الشيخ عبد الحى بن مبة الله البرهانوى ، والشيخ إسماعيل بن عبد الغنى الدهلوى ، والشيخ فضل حق بن فضل إمام الخير أبادى ، ومرزا حسن على الشافعى اللكنوى ، والشيخ إسحاق بن أفضل

(٣٣) نزهة الخواطر ، ج : ٧ .

العمري الدهلوي المدفون بمكة المكرمة ، والسيد محبوب على الجعفرى والسيد إسحاق بن عرفان البريلوى وخلق كثير من العلماء .

ومن أعظم ما من الله تعالى عليه أنه وفق لترجمة القرآن الكريم وتفسيره فى لغة أهل الهند ، قد اعتنى بها العلماء واتفقوا على أنه معجزة من معجزات النبى ﷺ ، قال السيد الوالد فى « مهر جهانتاب » : أن الشيخ عبد القادر رأى فى المنام قبل أن يوفق لها أن القرآن نزل عليه ، فحكاه لسنوه عبد العزيز ، فقال له سنوه المذكور أن الرؤيا حق ولكن الوحي قد انقطع من زمن النبى ﷺ ، وتأويله أن الله تعالى يوفقك لخدمة القرآن بما لم تسبق إليه ، فحصلت له تلك المبشرة على صورة « موضح القرآن » ومن خصائصه أنه اختار لغة بحذاء لغة قاربت بما حازت فى العموم والخصوص والإطلاق والتقييد ، حتى أنها لا تتجاوز عنها فى موارد الاستعمال وتلك موهبة إلهية وكرامة ربانية يختص بها من يشاء .

وإنى سمعت ورويت « موضح القرآن » عن جدتى لأمى السيدة حميراء بنت السيد علم الهدى الحسنى النصير آبادى ، عن بنت الشيخ عبد القادر ، من أبيها المصنف رحمه الله .

وكانت وفاته يوم الأربعاء لتسع عشرة خلون من رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف بدھلى ، فدفن عند والده ، وكان الشيخ عبد العزيز ورفيع الدين لا يزالان على الحياة ، فكان يوم موته من أنحس الأيام عليهما وكانا يقولان عند دفنه « إنا لا ندفن الإنسان بل ندفن العلم والعرفان » .

ومن عجائب الدهر ، أنه كان للشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى أربعة أبناء من بطن ارادة بنت السيد ثناء الله ، أكبرهم عبد العزيز ثم رفيع الدين ثم عبد القادر وأصغرهم عبد الغنى والد الشيخ إسماعيل الشهيد ، فمات أصغرهم عبد الغنى أولاً ثم عبد القادر ثم رفيع الدين ثم أكبرهم عبد العزيز ، وكانوا كلهم من أجلاء العصر علما وعملا وإفادة وإفاضة إلا الشيخ عبد الغنى فإنه توفى فى عنفوان شبابه فوق الله سبحانه ولده إسماعيل المذكور أن يتدارك ما فات والده (٣٤) .

**الشيخ محمد عاشق البهلتى :**

الشيخ العالم الكبير المحدث محمد عاشق بن عبيد الله بن محمد الصديقى البهلتى أحد كبار المشايخ يرجع نسبه إلى محمد بن أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- بإحدى وعشرين

(٣٤) نزهة الخواضر ، ج : ٧ .

اسطة ، اشتغل بالعلم من صباه ولازم الشيخ الأجل ولى الله بن عبد الرحيم العمري  
دهلوى ، وكان ابن عمته ، فصحبه وأخذ عنه العلم والمعرفة وسافر إلى الحرمين الشريفين  
عه سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف ، فحج وزار وشاركه فى الأخذ والقراءة على أساتذة  
لحرمين ، أجلَّهُم الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني وأجازهُ الشيخ أبو طاهر  
لذكور ، فبلغ رتبة لم يصل إليها أحد من أصحاب الشيخ ولى الله المذكور ، فى العلم  
المعرفة ، وصار صاحب سرِّ الشيخ كما عبَّر به الشيخ أبو طاهر فى الإجازة ، فقال : إنه  
رآه كماله وخدين جميل خصاله ، انتهى ، وقال شيخه ولى الله مخاطبا له :

يحدثنى نفسى بأنك واصل      إلى نقطة قصواء وسط المراكز  
وأنك فى تيك البلاد مفخم      بكفِّيك يوما كل شيخ وناهمز

أخذ عنه الشيخ عبد العزيز وصنوه رفيع الدين والسيد أبو سعيد البريلوى وخلق كثير ،  
من مصنفاته : « سبيل الرشاد » كتاب بسيط بالفارسى فى السلوك ، ومنها « القول الجلى  
ب مناقب الولى » كتاب فى أخبار شيخه ولى الله ، ومنها شرح « دعاء الاعتصام » للشيخ  
لى الله فى الحقائق والمعارف ، ومن أعظم مآثره « تبييض المصفى شرح الموطأ » للشيخ  
لى الله المذكور تُوفى نحو سنة سبع وثمانين ومائة وألف ، يظهر ذلك من كتاب الشيخ  
د العزيز إلى السيد أبى سعيد البريلوى (٣٥) .

**شيخ محمد أمين الكشميرى :**

لقد كان الشيخ محمد أمين الكشميرى من خلفاء الإمام الأربعة الكبار (٣٦) ، الذين  
تشرت دعوته وتعاليمه على أيديهم ، يقول العلامة السيد عبد الحى الحسنى فى ترجمته فى  
نزهة الخواطر « ( ج / ٦ ) :

« الشيخ العالم الكبير الشيخ محمد أمين الولى الله الكشميرى نجارا ، والدهلوى دارا ،  
ان من أجلَّة أصحاب الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوى ينتسب إلى

(٣٥) نزهة الخواطر ، ج : ٧ .

(٣٦) يقول الشيخ عبيد الله السندى فى كتابه « التمهيد » : لا يتجاوز عدد من أدرك آراء الإمام الدهلوى  
ونظرياته بصورة متكاملة أربعة من أصحابه : ١ - ابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتى ، ٢ -  
جمال الدين الشاه محمد أمين الكشميرى ، ٣ - الشيخ نور الله البدهانوى ، ٤ - الشيخ أبو سعيد  
الحسنى البريلوى ( انظر « شاه ولى الله أوران كى سياسى تحريك » ( الإمام الدهلوى وحركته  
السياسية ) للشيخ عبيد الله السندى ص : ١٧٣ - ١٧٤ ) .

شيخه ويعرف بالنسبة إليه ، وهو الذى أخذ عنه الشيخ عبد العزيز بن ولى الله بعد وفاة والده كما صرَّح به الشيخ المذكور فى « العجالة النافعة » ، وفيه مفخرة عظيمة له ، وقد صنف له الشيخ ولى الله بعض رسائله ، توفى نحو سنة سبع وثمانين ومائة وألف ، يظهر ذلك من كتاب الشيخ عبد العزيز إلى الشيخ أبى سعيد بن محمد ضياء الحسنى البريلوى ، الذى سافر للحج ووصل إلى مكة المباركة فى ربيع الأول سنة ١١٨٧ هـ ، ورجع إلى الهند سنة ١١٨٨ هـ ، كتبه بعد رجوعه عن الحرمين الشريفين وأخبره بوفاة الشيخ محمد أمين<sup>(٣٧)</sup> .

ومما يدل على مكانة الشيخ محمد أمين الكشميرى الخاصة لدى الإمام الدهلوى ، أنه توجد أربعة رسائل فى « كلمات طبيبات » كتبها الإمام الدهلوى إليه ، وتحتوى على معارف وحقائق جليلة .

وقد كان للإمام الدهلوى - عدا هؤلاء الخلفاء الأربعة - خلفاء آخرون ، لم نعر على تراجمهم بالتفصيل ، كان منهم الحافظ عبد النبى المعروف بعبد الرحمن ، الذى كانت له - كما يبدو - صلة قوية بالإمام الدهلوى<sup>(٣٨)</sup> .

### السيد أبو سعيد البريلوى :

السيد الشريف أبو سعيد بن محمد ضياء بن آية الله بن الشيخ الأجل علم الله النقشبندى البريلوى ، أحمد علماء الربانيين ، وكِد ونشأ ببلدة راي بريلوى وقرأ العلم على ملا عبد الله الاميتهوى ، ثم بايع عمه السيد محمد صابر بن آية الله النقشبندى ، واشتغل بأذكار القوم وأشغالها مدة من الزمان ، ثم رحل إلى دهلى ولازم الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى وأخذ عنه ، ولما توفى الشيخ ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى وأخذ عنه ، ولما توفى الشيخ ولى الله تحسس فى نفسه شيئاً فلازم صاحبه الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله البهلتى وأخذ عنه ، وكتب له محمد عاشق المذكور الإجازة ، قال فيها : إن السيد التقى النقى ، العارف بالله الولى الحميد ، السيد أبو سعيد كان قد صحب شيخنا الأجل ولى الله المحدث رضى الله عنه ، وأخذ عنه بعض أشغال الطريقة ، ومارسها وداوم عليها حتى انفتح عليه ببركة توجه الشيخ باب أسرار اللطائف اليقينية البارزة منها والكامنة ، فظهرت عليه أحوالها وآثارها وحصل له الشهود الذى عند القوم أتم المقصود ، ثم لما انتقل الشيخ إلى

(٣٧) نزهة الخواطر ، ج : ٦ ، ص : ٢٨٦ .

(٣٨) انظر مجلة « برهان » مقال مسعود أنور العلوى ، عدد سبتمبر وأكتوبر عام ١٩٨٣ م .

دار الرضوان بدا له أن يأخذ من الفقير ما بقى من أشغال الطريقة النقشبندية والقادرية والجشتية ، وغيرها من طرق المشايخ الصوفية ، وأن يدخل فى الطريقة بالطريق المتوارث بين الصوفية ، فلما رأته مشغوقا فى ذلك أسعفت له المرام خوفا من حديث الإلجام ، فلقتته تلك الأشغال ، فلما شاهدت فيه آثارها وأنوارها ووجدته متمكنا فيها أجزته بعد الاستخارة لإرشاد الطالبين وتسليك السالكين ، وأخذ البيعة فى تلك الطرق جميعا وألبسته الخرقة الفقرية الفخرية إلباس إنابة وإجازة ، كما أجازنى وألبسنى شيخنا الأجل ، وكما أجازنى وألبسنى العارف بالله الشيخ عبيد الله بما وصل إليه من آباءه الكرام ومشايخه العظام ، وأيضا أجزته لدرس التفسير والحديث والفقہ والتصوف بعد المطالعة ومراجعة الشروح ودرس النحو والصرف ، وأيضا أجزته لتصريف الآيات والأسماء وأعمال الشيخ فى الحوائج المشروعة ، وأجزته لجمع ما فى « القول الجميل فى بيان سواء السبيل » ولجميع ما فى « الانتباه فى سلاسل أولياء الله » من الأشغال والأعمال .

والسيد أبو سعيد كان شيخا جليل الوقار عظيم الهبة ، كريم النفس ، مسدى الإحسان ومقرى الضيفان ، سافر إلى الحجاز مع أصحابه ووصل إلى مكة المباركة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومائة وألف ، فسعد بالحج وسافر إلى المدينة المنورة وأقام بها ستة أشهر وسمع « المصابيح على الشيخ أبى الحسن السندى الصغير ، وكان جالسا تجاه المرقد المنور للنبي المطهر عن زبيغ البصر » فرآه كأنه خرج من الحجرة المباركة وبدا كتفاه أولا ثم ظهر له الجسد المطهر وجلس قدامه وتبسم ، قال صاحبه الشيخ أمين بن الحميد الكاكوروى فى رسالته : أن الشيخ أبا سعيد كان يقول : إني رأيت رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة بعين رأسى ، ثم رجع إلى مكة المباركة وقرأ الجزرية على الشيخ محمد ميرداد الأنصارى ورحل إلى الطائف ، ثم إلى الهند ودخل مدراس فأقام بها زمانا ، ورزق حسن القبول فى تلك الناحية وانتفع به الناس وأخذوا عنه ، منهم الشيخ الحاج أمين الدين بن حميد الدين الكاكوروى ، والشيخ عبد القادر الخالص بورى ، والمير عبد السلام البدخشى ، والشيخ ميرداد الأنصارى المكي ، ومولانا جمال الدين بن محمد صديق قطب ، ومولانا عبد الله الأفندى ، والشيخ عبد اللطيف الحسينى المصرى وخلق آخرون ، مات فى تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين وألف ببلدة رائى فدفن بها (٣٩) .

(٣٩) نزهة الخواطر ، ج : ٧ .

## معاصر الإمام الدهلوى الشيخ المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

لقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمى الحنبلى ( ١١١٥ هـ - ١٢٠٦ هـ - ١٧٠٣ م - ١٧٩٢ م ) أحد المعاصرين الكبار للإمام الدهلوى والمصلحين العظام ، ومن علماء نجد الممتازين وأصحاب الدعوة والعزيمة فيها ، فهو بالنظر إلى سنة ولادته يقارب الإمام الدهلوى فى سنة (٤٠) ، ولكنه بالنظر إلى سنة وفاته متأخر عنه بثلاثين سنة ، ورغم هذه المعاصرة وكثير من الأمور المشتركة بينهما لم نعثر على معرفة الإمام الدهلوى به وتعرفه عليه فضلا عن مقابله ولقائه ، وقد كان الإمام الدهلوى سافر للحج عام ١١٤٣ هـ ومكث فى الحجاز أكثر من عام واحد ، وهذه هى الفترة التى كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركته فيها منحصرتين محدودتين فى منطقة عيينة والدرعية من نجد، ولم يكن قد بايعه الأمير محمد بن سعود - حينذاك - ولا وقعت بينهما اتفاقية على القيام بنشر هذه الدعوة وإقامة الحكومة على أساسها ومساندتها وتأييدها ، بل كانت هذه الاتفاقية عام ١١٥٨ هـ التى أصبحت الدرعية نتيجة لها مركزا لهذه الدعوة وعاصمة دينية لحكومتها ، وقد عرفت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الحجاز وكتب لها التأثير والنفوذ حين استولى آل سعود على مكة المكرمة عام ١٢١٨ هـ بعد وفاة الشيخ بائنتى عشرة سنة ، وبعد وفاة الإمام الدهلوى بائنتين وأربعين سنة .

وقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجهاده وجهوده العظيمة تدور حول الدعوة إلى التوحيد الخالص والردّ على مظاهر الشرك واستئصال التقاليد والطقوس الجاهلية ( التى كان لبعض مظاهرها وشعائرها الظهور والانتشار - لبعده العهد عن زمان النبوة ، والجهل العام وغفلة العلماء فى بعض القبائل والأماكن من المنطقة الشرقية فى الجزيرة العربية (٤١) - وتدور حول توضيح الفرق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، وشرح حقيقة التوحيد الذى طلبه الله - تعالى - من عباده ، ودعا القرآن الكريم إليه دعوة صريحة واضحة ، وتنقيحها ، وما حصل للشيخ فى هذا الصدد من النجاح لا يوجد له نظير فى الدعاة والمصلحين فى العهود الماضية ، وإن كان - حسب ما يقول الدكتور أحمد أمين - يرجع ذلك - إلى حد كبير - إلى قيام حكومة ( وهى الحكومة السعودية ) على أساسها

(٤٠) ولد الإمام الدهلوى عام ١١١٤ هـ ولذلك فهو أكبر من الشيخ بسنة واحدة .

(٤١) انظر للتفصيل كتاب الأستاذ مسعود عالم الندوى « الشيخ محمد بن عبد الوهاب » المصلح المفترى

عليه « وكذلك الكتب الأخرى التى ألفت فى سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهى كثيرة .

وتبنيها لهذه الدعوة ، وتشجيعها لها وإشرافها عليها<sup>(٤٢)</sup>، ولكن مما لا يقبل الجدل والاختلاف أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قام - في هذا الصدد - بدور مصلح ثورى عظيم ، ومهما خالفه بعض الناس فى بعض أفكاره وآرائه وأسلوبه فى عرض الدعوة ومنهجه ولم يوافقه مائة فى مائة الا أنه لا يمكن انكار تأثير هذه الدعوة وفائدتها والحاجة إليها فى تلك الظروف الخاصة .

وأما ما يتعلق بتوضيح عقيدة التوحيد وتنقيحها ، وإثباتها بالقرآن الكريم ، وشرح الفوارق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، فإن هنالك شبيهاً كبيراً بين آراء الشيخ وتحقيقاته وبحوثه وآراء الإمام الدهلوى وتحقيقاته وبحوثه ، وليس هذا إلا نتيجة الدراسة العميقة المباشرة للقرآن الكريم وتدبره ، والمعرفة الدقيقة الواسعة بالكتاب والسنة ، وهى التى أدت بشيخ الإسلام ابن تيمية فى عصره وكبار الدعاة والمصلحين والعلماء المحققين فى عصورهم إلى نتائج مشابهة متقاربة ، ودفعتهم إلى تبليغ التوحيد الخالص والدعوة الجريئة الواضحة إليه .

ولكن دائرة أعمال الإمام الدهلوى الإصلاحية والتجديدية أوسع وأشمل من ذلك بكثير ، فإنها تضم بين جوانبها إحياء العلوم الإسلامية وتجديد الفكر الإسلامى والكشف عن أسرار الشريعة ومقاصدها ، والمأثرة العلمية لعرض التعاليم الدينية والشريعة الإسلامية فى صورة متناسقة شاملة ، ومقاومة الجمود والتحجر العلمى والعصية الشديدة للمذاهب الفقهية ، والعمل الاجتهادى للتطبيق بين العقل والنقل والتوفيق بين المذاهب الفقهية الأربعة ، والمحاولات الجادة للحفاظ على السلطة الإسلامية فى الهند ، والدراسة العميقة للأحداث النبوية الشريفة والجهود التجديدية لنشرها وتعميمها ، والدعوة إليها ، والدعوة إلى تركية النفوس وإصلاح القلوب ، والوصول إلى درجة الإحسان وتعليم طرقها ومناهجها ، وتربية الرجال الأكفاء ، ومع كل ذلك يتميز الإمام الدهلوى بركة وحنان وقوة عاطفة كانت - على حد تعبير محمد إقبال الشعرى - كوجود ماء زمزم الرقيق الفياض فى أرض الحجاز الصلبة الحجرية ، وبذلك يجمع بين صلابة عقيدة التوحيد وحنان القلب ، وهو أثر من آثار بيئة الإمام الدهلوى وتربيته الروحية الخاصة ، ويمكن أن نشاهد أمثله فى قصائده ومدائحه النبوية - على ممدوحها الصلاة والسلام - .

---

(٤٢) راجع زعماء الإصلاح فى العصر الحديث .

ولذلك فإنه من المناسب أن تكون هناك دراسات مقارنة بين الإمام الدهلوى وبين شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية ، والبحث عن نقاط الاتفاق والاختلاف بينهما بدلا من الدراسة المقارنة بين الإمام الدهلوى والشيخ محمد بن عبد الوهاب -رغم جهوده العظيمة المشكورة- وتتبع نقاط التشابه والاتفاق بينهما ، لأنهما - أى المتقدمى الذكر - يبدو بينهما الشيء الكثير من وجوه التشابه فى تبحرهما العلمى وبلوغهما درجة الإمامة والاجتهاد فى علوم الكتاب والسنة ، وسعة النظر وعمق التفكير وتنوع الأعمال الإصلاحية والتجديدية ، وعظمة الشخصية وعبقريتهما - وقد تقدمت إليها إشارات فى مواضع متفرقة من الكتاب - رغم الاختلاف الطبيعى الذى هو نتيجة البيئة والتعليم والتربية ، واختلاف العهد والمكان ، والسلوك والتربية الروحية الباطنية .

\* \* \*



## الباب الثانى عشر مؤلفات الإمام الدهلوى

### الكتب والرسائل :

نذكر - فيما يلى - قائمة مؤلفات الإمام الدهلوى الصغيرة والكبيرة ، والفارسية والعربية حسب ترتيب حروف المعجم :

(ا) : ١ - الأربعين ( بالعربية ) . ٢ - الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد ( بالعربية ) .  
٣ - إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء ( الفارسية ) . ٤ - أطيب النغم فى مدح سيد العرب  
والعجم ( بالعربية ) . ٥ - أطفاف القدس ( الفارسية ) . ٦ - الإمداد فى مآثر الأجداد  
( بالفارسية ) . ٧ - الانتباه فى سلاسل أولياء الله ( بالفارسية ) . ٨ - إنسان العين فى  
مشايخ الحرمين ( بالفارسية ) . ٩ - الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف ( بالعربية ) . ١٠ -  
أنفاس العارفين ( بالفارسية ) .

(ب) : ١١ - البدور البازغة ( بالعربية ) ، ١٢ - بوارق الولاية ( بالفارسية ) .

(ت) : ١٣ - تأويل الأحاديث ( بالعربية ) ، ١٤ - تحفة المؤحدين ( بالفارسية ) .

١٥ - تراجم أبواب البخارى ( بالعربية ) ، ١٦ - التفهيمات الإلهية ( بالعربية والفارسية ) .

(ج) : ١٧ - الجزء اللطيف فى ترجمة العبد الضعف ( بالفارسية ) .

(ح) : ١٨ - حجة الله البالغة ( بالعربية ) ، ١٩ - حسن العقيدة ( بالعربية ) .

(خ) : ٢٠ - الخير الكثير : ( بالعربية ) .

(د) : ٢١ - الدرُّ الثمين فى مبشرات النبى الأمين ( بالعربية ) . ٢٢ - ديوان الشعر

العربى .

(ر) : ٢٣ - رسالة فى الرد على رسالة الشيخ خواجه خورد عبد الله بن عبد الباقي .

٢٤ - رسالة الحكمة ( بالفارسية ) .

(ز) : ٢٥ - الزهراوين .

(س) : ٢٦ - سَطَعَات ( بالفارسية ) . ٢٧ - سرور المحزون ( بالفارسية ) .

(ش) : ٢٨ - شرح تراجم أبواب صحيح البخارى ( بالعربية ) . ٢٩ - شفاء القلوب

( بالفارسية ) . ٣٠ - شوارق المعرفة ( بالفارسية ) .

(ع) : ٣١ - العطية الصمدية فى الأنفاس المحمدية ( بالفارسية ) ، ٣٢ - عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد ( بالعربية ) ( العقيدة الحسنة : انظر حسن العقيدة ) .

(ف) : ٣٣ - فتح الرحمن ( بالفارسية . ٣٤ - فتح الخير ( بالعربية ) . ٣٥ - فتح الودود لمعرفة الجنود ( بالعربية ) . ٣٦ - الفضل المبين فى المسلسل من حديث النبىّ الأمين ﷺ ( بالعربية ) . ٣٧ - الفوز الكبير ( بالفارسية ) . ٣٨ - فيوض الحرمين ( بالعربية ) .

(ق) : ٣٩ - قرة العينين فى تفضيل الشيخين ( بالفارسية ) . ٤٠ - القول الجميل فى بيان سواء السبيل ( بالعربية ) .

(ك) : ٤١ - كشف الغين عن شرح الرباعيتين ( بالفارسية ) .

(ل) : ٤٢ - لمعات ( بالفارسية ) .

(م) : ٤٣ - المقالة الوضيئة فى الوصية والنصيحة ( بالفارسية ) . ٤٤ - المقدمة السنّية فى الانتصار للفرقة السنّية ( بالعربية ) . ٤٥ - المقدمة فى قوانين الترجمة ( بالفارسية ) . ٤٦ - المسوى من أحاديث الموطأ ( بالعربية ) . ٤٧ - المصغى ( بالفارسية ) . ٤٨ - المكتوب المدنى ( بالعربية ) . ٤٩ - مجموعة رسائل فى مناقب الإمام البخارى وفضل ابن تيمية ( بالفارسية والعربية ) .

(ن) : ٥٠ - النبذة الإبريزية فى اللطيفة العزيزية ( بالفارسية ) . ٥١ - النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر ( بالعربية ) .

(هـ) : ٥٢ - همعات ( بالفارسية ) . ٥٣ - هوامع شرح حزب البحر ( بالفارسية ) .

## محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	كلمة كتقدمة
٩	مقدمة الطبعة الثالثة
١١	مقدمة الطبعة الأولى
١٣	الحاجة إلى التجديد والبعث الجديد واتصالهما في تاريخ الإسلام
٢٧	جهود الإصلاح والتجديد في القرن الأول
٢٧	سيدنا عمر بن عبد العزيز
٥١	الجهود الإسلامية في القرن الثاني
٥١	الحسن البصرى وخلفاؤه
٧١	حركة التدوين في الإسلام وتنظيم الحياة على الأسس الدينية
٨٧	الإمام أحمد بن حنبل
١٠٩	أبو الحسن الأشعري وخلفاؤه
١٢١	الانحطاط في علم الكلام وازدهار الفلسفة الباطنية والحاجة إلى متكلم جديد
١٣٥	حجة الإسلام الغزالي حياته ودراسته
١٥٣	حجة الإسلام الغزالي ناقد للفلسفة ومتكلم
١٦٧	حجة الإسلام الغزالي مصلح اجتماعي
١٨٥	الإمام عبد القادر الجيلاني عصره ، حياته ، صفته ، تأثيره
١٩٩	الإمام عبد القادر الجيلاني دعوته ، إصلاحه ، فضله ، وفضل خلفائه في تجديد الإيمان والدعوة إلى الإسلام
٢١٣	غارة التار على العالم الإسلامي وظهور معجزة الإسلام
٢٤١	مولانا جلال الدين الرومي عصره ، وترجمة حياته
٢٥١	مولانا جلال الدين الرومي مفكر مبتكر ، ومؤسس علم كلام جديد
٢٦٩	مولانا جلال الدين الرومي داع إلى الحب والعاطفة ، واحترام الإنسان والإنسانية

## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٢٧٩	كلمة المؤلف
٢٨١	الحاجة إلى ترجمان للشريعة ومصلح شامل
٢٨٩	العصر الذى عاش فيه شيخ الإسلام ابن تيمية
٢٩٧	نشأة ابن تيمية وحياته
٣٥٩	ميزات ابن تيمية البارزة وخصائصه
٣٦٧	خصائصه التأليفية
٣٧١	أسباب معارضة ابن تيمية بين نقاده والمدافعين عنه
٣٨٣	شيخ الإسلام ابن تيمية كعارف بالله ، ومحقق
٣٩٥	الدور الإصلاحى والتجديدى لشيخ الإسلام ابن تيمية
٤١٣	نقد الفلسفة والمنطق وعلم النفس وترجيح أسلوب الكتاب والسنة
٤٣٧	الرد على الفرق والملل ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها
٤٥٣	نقد الشيعة وآرائها
٤٧٣	تجديد علوم الشريعة وتنشيط الفكر الإسلامى
٤٧٩	بعث الفكر الإسلامى
	<b>تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية</b>
٤٩٥	الحافظ ابن قيم الجوزية تلميذه وخليفته
٥٠٥	ابن عبد الهادى
٥٠٩	ابن كثير
٥١١	الحافظ ابن رجب وترجمته باختصار

## محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥١٣	بين يدي الكتاب
	<b>الباب الأول</b>
٥٢٣	العالم الإسلامي في القرن العاشر
٥٢٤	الوضع السياسي
٥٢٨	الوضع الديني والروحي
٥٣٤	الوضع العلمي
٥٣٩	الاضطراب في الأفكار
٥٤٦	المهدوية
٥٤٩	أسباب القلق والفوضى في الأفكار
٥٥٣	فتنة القرن العاشر الكبرى
	<b>الباب الثاني</b>
٥٦٠	عهد الملك أكبر والفترتان المتعارضتان في حياته
٥٦٥	تحول في نفسية الملك أكبر وطبيعته
٥٦٦	المقارنة بين الديانات والبحث فيها
٥٧١	مسئولية علماء البلاط
٥٧٢	علماء البلاط
٥٧٦	أركان الدلة ومستشارو البلاط
٥٧٦	ملا مبارك وولده
٥٨٤	تأثير زوجات الملك الهنديكات
٥٨٦	مذكرة الاجتهاد والإمامة

الصفحة	الموضوع
	<b>الباب السابع</b>
٧١٩	جهود الإمام الدؤوبية
٧٢٤	المنهج الصحيح
٧٢٨	الرسائل الدعوية
٧٣٦	المعجبون بالإمام السرهندي
٧٣٧	تأثير الإمام السرهندي
٧٣٨	تأثير السلطان جهانكير
٧٤٣	السلطان محي الدين
	<b>الباب الثامن</b>
٧٥٣	قيام خليفتي الإمام السرهندي
٧٦٧	السلسلة الأجنبية
٧٧٣	مؤلفات الإمام السرهندي ورسائله

## محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧٧٥	كلمة المؤلف
٧٧٩	الباب الأول ( العالم الإسلامى فى القرن الثامن عشر الهجرى )
٨٠١	الباب الثانى ( الهند )
٨١٩	الباب الثالث ( أجداد الامام الدهلوى ووالده )
٨٤١	الباب الرابع ( حياة الإمام الدهلوى بإيجاز )
٨٦١	الباب الخامس ( أثر الإمام الدهلوى التجديدية )
٨٨٣	بيان العقائد وشرحها فى ضوء الكتاب والسنة
٨٨٧	الباب السادس ( القيام بنشر الحديث الشريف والسنة المشرفة )
٩١٣	الباب السابع ( عرض الشريعة الإسلامية عرضاً مبرهنًا متسقًا )
٩٣٥	الباب الثامن ( الحاجة إلى نظام الخلافة وقوائده )
٩٥٣	الباب التاسع ( الفوضى السياسية ودور الإمام الدهلوى فى عهد احتضار الدولة المغولية )
٩٨٧	الباب العاشر ( استعراض المجتمع الإسلامى الناقد والدعوة إلى الإصلاح الجذرى )
٩٩٧	الباب الحادى عشر ( أبناء الامام الدهلوى الأعلام وخلفاؤه العظام وكبار العلماء المعاصرين )
١٠٣٣	الباب الثانى عشر ( مؤلفات الإمام الدهلوى )